سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٥)

تفسير

القرآن الكريم

سورة النمل

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٥)

تفسير القرآن الكريم

سورة النمل

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العثيمين، محمد بن صالح

تفسير سورة النمل. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ

٥٨٢ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٥)

ردمك: ٠ ـ ٤٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

١ ـ القرآن ـ سورة النمل ـ تفسير.

أ ـ العنوان

ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٧

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٧

ردمك: ٠ ـ ٤٥ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من :

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

المملكة العربية السعودية

القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩

هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩

جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧

www.ibnothaimeen.com

info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية

دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس

بجوار سوبر ماركت أولاد رجب

هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحَقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى فِي سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسِير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ) (١)، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخِ مُحَمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراجِ ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضِيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِه الكَريمِ؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلِمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيـة (١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ [النمل:١].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قال المُفَسِّـر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [هَذِهِ سُـورةُ النَّمل، وسُمِّيَـتْ به لِذِكْرِ النملِ فيها]، وتسميةُ السُّورِ يَكُونُ بأدنَى مناسبةٍ؛ ولهَذَا البقرة سُمِّيَتْ سُورة البقرة لذِكْرِ البقرة فيها، ولا يَمْتَنِعُ أنْ تُسَمَّى سورةٌ بِعِدَّةِ أسماءَ لِعِدَّةِ مناسباتٍ.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: إنَّها مكِّيَّة، الصَّواب فِي المكِّيّ والمَدَنِيّ أن الفرقَ بينهما: ما نزل قبل الهجرةِ فَهُوَ مكّيّ، وما نزلَ بعدها فَهُوَ مدنيّ، وَقِيلَ: المكِّيُّ ما نزل بمكَّة، والمدنيّ ما نزل بالمَدينَةِ، وَقِيلَ: المكيُّ ما فِيهِ ذِكر الأصول -أصول الإِسْلام أو الإِيمان- والمدنيّ ما فِيهِ ذِكْر الفُرُوع.

فعلى الأوَّل يَكُون المُعْتَبَر الزمَن، وَعَلَى الثاني المعتبَر المكان، وَعَلَى الثَّالث المعتبَر الموضوع، ولكِن الَّذِي عليه المحقِّقون أن ما كَانَ بَعْد الهِجرةِ فَهُوَ مدنيّ، وما قبلها فَهُوَ مكّيّ، وقد ذَكروا فِي أصولِ التفسيرِ لذلكَ ضوابطَ يُرجَع إليها.

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

أَمَّا البَسْمَلَةُ فقد تَقدَّم الكَلامُ عليها عدَّة مراتٍ، وبيَّنَّا أنَّ أحسنَ ما تُقَدَّر به: أنْ يَكُونَ فعلًا مناسبًا متأخِّرًا.

(أن يَكُون فِعلًا) لِأَنَّهُ الأَصْل فِي العواملِ، وَهُوَ أيضًا أدلّ عَلَى الحُدُوث.

(متأخِّرًا) لفائدتينِ هما:

الأوَّل: التبرُّك بتقديمِ اسمِ اللهِ.

الثاني: إفادة الحصرِ، يَعْنِي: باسم الله لا باسمِ غيره.

(ومناسبًا) لِأَنَّهُ أخصُّ من العامِّ.

فـ(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) التَّقْدير: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَقْرَأُ، ويجوز أنْ تقدِّر: أقرأُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ويجوزُ أن تقدِّر: قِراءتي بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أو بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قِراءتي، لكِـنْ ما ذَكَرْنا أوَّلًا هُوَ الأرجحُ. وأشار شيخ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى رُجحانه بقولِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[1] فذكر فعلًا، ولم يقل: فليكنْ ذَبْحه، بل قَالَ: «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»[2].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿طسٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بذلك]. هَذَا ما سَلَكَه المُفَسِّر وجماعةٌ من أهلِ العلمِ، بأن هَذِهِ الحروفَ الهِجائيَّة الموجودة فِي أوائل بعضِ السُّوَر مَوْقِفنا مِنهَا أن نَقُولَ: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلكَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب قول النبي ﷺ: «فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»، حديث رقم (٥١٨١)؛ ومسلم، كتاب الأضاحي، باب وقتها، حديث رقم (١٩٦٠)، عن جندب بن سفيان البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣١).

وقد سبقَ فِي درسِ التَّفسيرِ أنَّ الراجحَ من ذلك: أن هَذِهِ الحروفَ هِجائيَّة، وَأَنَّهُ بِمُقْتَضَى كون الْقُرْآن بلسانٍ عربيٍّ يقتضي أَنَّهُ لا مَعنى لها، وذكَرنا أنَّ هَذَا قد رُوِيَ عن مُجاهِدٍ[1]، وأنها حروفٌ هجائيَّة ابْتَدَأَ اللهُ بها لَيْسَ لها معنًى، وَعَلَى هَذَا نَجْزِم بأَنَّه لا مَعْنَى لها ولكِنْ لها مَغْزى، وهوَ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن الَّذِي أَعجزَ هؤُلَاءِ الفُصَحَاءَ البُلَغَاء، إِنَّمَا هُوَ من هَذِهِ الحروف الهجائيَّة الَّتِي يَكُون مِنْهَا كلامهم، يعني ما أَتى بحروفٍ جديدةٍ؛ لِأَنَّهُ لو أتى بحروفٍ جديدةٍ سيَقُولُونَ: واللهِ هَذِهِ حروفٌ لا نعرِفها، فأَتى بنفس الحروف الَّتِي هم يَتكلَّمون بها.

ويؤيِّد ذلك أَنَّهُ ما من حروفٍ هجائيَّة إِلَّا ويأتي بعدها ذِكْر الْقُرْآن، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي سورتينِ أو شِبههما، عَلَى أن هاتينِ السورتينِ مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت:١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم:١-٢]، فيها ما يدلُّ على القرآنِ، كالإخبار في قولِهِ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم:٢-٣]، وهَذَا من خصائصِ الوحيِ، وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [العنكبوت:٢]، فيها أيضًا إخبار عمَّن مضى فِي قوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٣]... إِلَى آخره.

وأمَّا ما زَعمَه المتأخِّرون الخالفونَ من أن هَذِهِ الحروفَ تدلّ عَلَى إعجازٍ من نوعِ العددِ والحُسْبَان، حَيْثُ زَعَمُوا أن هَذِهِ الحروف الهجائيَّة يوجد نظيرُها فِي السُّورَة الْمُفْتَتَحَةِ بها، ويَكُون مجموع هَذَا مُنْقَسِمًا عَلَى تسعةَ عشَرَ، ويزعُمون أنَّ هَذَا أكبر آية عَلَى أن الْقُرْآن كلام اللهِ. ويَحتجُّون لذلك بأنَّ أوَّل آية نزلتْ -على زَعْمِهم- هي: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وأنها مكوَّنة من تسعةَ عشَرَ حرفًا، وأن هَذَا

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢٠٨).

هُوَ معنى قوله تَعَالَى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠]، وأن التسعةَ عشرَ هِيَ هَذِهِ الحروف.

كُلّ هَذَا -والعياذُ باللهِ- كذِب، ولا يَنطبِق، وَهُوَ متناقِضٌ أيضًا وغير مُطَّرِد، لكِن هم فَرِحوا بِهَذَا الكمبيوتر الَّذِي أخرجَ لهم عددَ الحروفِ، وأنها بمجموعها تنقسم. ونحن نَقُول: لا يَمتنِع أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد هَذَا، ولَكِنَّنا نَقُول: لا نَجْزِم بأنَّ الله أراد هَذَا؛ أوَّلًا: لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي ذلكَ إعجازٌ.

والبَشَر قد يَصنَع خطبةً مثلًا أو كلامًا تتكون الحروف الموجودة فِيهِ وتَنقسِم عَلَى هَذَا العدد، أو عَلَى أيّ عددٍ شاء، وَلَيْسَ بِمُعْجِز.

ثُمَّ إن البَسْمَلَة ليستْ أوَّلَ ما نزلَ منَ الْقُرْآن، أوَّل ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]، ثُمَّ إنَّ البَسملةَ أيضًا حروفها ليستْ كما قَالُوا: إِنَّهَا تسعةَ عشَرَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن إِنَّمَا نزلَ مَقروءًا، لا مَكتوبًا، وهي بحروفها باعتبار القراءةِ ليستْ كذلكَ، والكتابة كما هُوَ معلومٌ هِيَ صناعةٌ، وربما يُمْكِن أنَّ الكِتابةَ فِي عهد الرَّسُول ﷺ بل وَفِي عهد الخلفاءِ ليستْ عَلَى هَذَا الشكلِ.

فالْآنَ تُوجَد بعضُ اللُّغات يجعلون فيها الحركةَ حرفًا، ويجعلون الحرفَ حرفينِ، أو يختصرون ويجعلون الحرفينِ حرفًا واحدًا.

فالحاصلُ: أن الْقُرْآن ما نزل مكتوبًا، وإنما نزلَ مقروءًا، ولا حُجَّة فِي ذلك.

إِذَنْ نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ بمرادِهِ بذلك، هَذَا أحد الأقوالِ فِي المسألةِ.

والقَوْل الثاني: إِنَّهَا رموز لأَشْيَاء معيَّنة، مثل ما ذهب إليه هَؤُلَاءِ المتأخِّرون، أو مثل ما يَذْكُر بعضُهم أَنَّهَا إشارة إِلَى حروب وملاحمَ تكون فِي آخرِ الزمان، وما أَشْبَهَهَا.

والثَّالث أن يُقال: إِنَّهُ لَيْسَ لها معنى.

وإذا أُورد علينا: كيف نَجزِم بذلك؟

فالجوابُ: أنَّ هَذَا الْقُرْآن نزل بلغةِ العربِ، ولغةُ العربِ لا تجعل لِهَذِهِ الحروفِ معنًى، لكِن إذا قُلْنَا بأنه لَيْسَ لها معنى فَإِنَّهَا لها مَغزى، يَظهرُ -واللهُ أَعْلَمُ- أن اللهَ أراد بها ذلك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الآيات ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ آياتٌ منه ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر لِلْحَقِّ مِنَ الباطِل، عَطْف بزيادةِ صِفة، هُوَ ﴿هُدًى﴾ هادٍ مِنَ الضَّلَالَةِ].

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ المشارُ إليه لاحِق وَلَيْسَ بسابقٍ، وهَذَا ممَّا تعود فِيهِ الإشارةُ عَلَى متأخِّرٍ لفظًا ورُتْبَةً، وَهُوَ جائزٌ إذا دلَّ الدَّلِيل عليه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: [آياتٌ منه]، وإنما لجَأَ الْمُفَسِّر إِلَى قوله: [آياتٌ منه]؛ لأَنَّنا لو أخذنا بظاهرِ الآيَةِ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ لكان فِي ذلك حَصرٌ للقرآنِ بِهَذِهِ الآيات، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يَعْنِي: هَذَا الَّذِي نشير إليه، ومعلومٌ أنَّ هَذَا لَيْسَ آياتِ الْقُرْآن كلَّها، ولكِنَّه بعضٌ منها.

ويجوز أيضًا أن نجعلَ الآيَةَ عَلَى ظاهِرِها ولا حاجة إِلَى التأويلِ، ونَقُول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ يشار إِلَى بعض الجنسِ بإشارة الجنسِ كلِّه، كما تقول مثلًا: هَذَا البشر، وتشير إِلَى رجل واحدٍ، أو هَذَا الْإِنْسَان وتشير إِلَى رجلٍ واحدٍ.

فالمَعْنى أنَّ الإشارة إِلَى بعضِ الجنسِ بالجنسِ كلّه هَذَا سائغٌ، ولا يحتاج إِلَى تأويلٍ كما قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: [عطف بزيادة صِفَة، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، عطف عَلَى (الْقُرْآن).

قال: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وإنَّما وَصَفَ هَذَا الْقُرآن بالْقُرْآنِ والكتاب؛ لِأَنَّهُ مقروءٌ ومَكْتوبٌ. فَهُوَ مكتوبٌ فِي اللَّوْح المحفوظ، وَهُوَ مقروء بالأَلْسُن، وَهُوَ مكتوبٌ فِي المصاحِفِ أيضًا، فكتابته سابقةٌ ولاحقةٌ، وقراءته لاحقةٌ؛ لِأَنَّهَا بَعْد أَنْ تَكَلَّمَ الله به ونزل به جِبـريلُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧-١٨].

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الْقُرْآن هل هُوَ مصدر أو مُشْتَقّ؟

مصدر؛ لِأَنَّهُ مثل: الغُفران والشُّكران، فَهُوَ مَصْدَر: قرأ يقرأ، بمعنى: تلا. وَقِيلَ: إِنَّهُ بمعنى جَمَعَ؛ لِأَنَّ القافَ والراءَ تدلّ عَلَى الجمع، ومنه القَرْيَة؛ لِأَنَّهَا مُجْتَمَع النَّاس.

وفي الحقيقة أن الْقُرْآن جامعٌ للوصفينِ، فَهُوَ مَتْلوٌّ وَهُوَ مجموع أيضًا.

وأما قوله: ﴿كِتَابٍ﴾ فهي فِعَال بمعنى مَفْعُول، أي: مَكْتوب. وفِعَال بمعنى مَفْعُول تأتي كثيرًا فِي اللُّغة العربيَّة مثل: بِناء بمعنى: مَبْنِيّ، وغِرَاس بمعنى: مَغْرُوس، وفِراش بمعنى: مَفْرُوش، وأمثلتها كثيرة. وسُمِّي كتابًا لِمَا أَشرنا إليه قبلُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ مِنَ الباطِلِ]، كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ فِعْلُها: (أبانَ)، وأبانَ يأتي لازمًا ويأتي متعدِّيًا، أي: يأتي بمعنى أظهرَ، ويأتي بمعنى بانَ، ولهَذَا تجد المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحيانًا يفسِّر مُبِين بمعنى: بيِّن، وَعَلَى هَذَا التفسير تكون من اللازِمِ. ويُفَسِّرُهَا أحيانًا بمعنى: مُظهِر، فتكون من المتعدِّي.

كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢]، معنى (مبين) أي: بيِّن، أي: فِي ضلالٍ بيّن، فهي من (أبان) اللازِم. وَأَمَّا مثل هَذِهِ الآيَة أن الْقُرآن مُبين فَهُوَ بمعنى: مظهِر.

وهل يَستلزِم كونه مُظْهِرًا أن يَكُون هُوَ بيِّنًا؟

نعم يَستلزِم، أو نَقُول: إِنَّهُ من باب استعمالِ المشترَكِ فِي مَعْنَيَيْه، والصَّحيح جوازه. وقد سبق هَذَا، فيجوز استعمال المشترك فِي معنييه، والمشترك هُوَ ما اتَّحَدَ لفظُه وتَعَدَّدَ معناه، وسُمِّي بذلك لِأَنَّ المعانيَ مُشْتَرِكة فِي لفظٍ واحدٍ.

والمشترَك الصَّحيحُ أَنَّهُ يجوز استعماله فِي معنييه بشرطينِ، وهما: أَلَّا يَقَعَ بينهما تعارُضٌ وأن يَكُون مُحْتَمِلًا لهما.

فإن كَانَ لا يَحتملهما فلا يمكن أن يُحمَلَ عليهما، وإن وقعَ بينهما تعارُضٌ فلا يُمْكِن، لَا بُدَّ أن يَكُون أحدُهما هُوَ المقصودَ.

فِي هَذِهِ الآيَة إذا قُلْنَا: إن مُبين من أبانَ اللازِم، ومن أبان المتعدِّي هل يجوز أو لا يجوز؟

يجوز، وإن كَانَ هَذَا مُشْتَرَكًا لَكِنَّهُ إذا استُعمل فِي مَعْنَيَيه فَإِنَّهُ مستعمَل عَلَى وجهٍ لا تعارُضَ فيه، فالْقُرْآنُ بَيِّن والْقُرْآن أيضًا مُظْهِر. وَعَلَى هَذَا التفسيرِ تكون دلالة (مُبين) عَلَى أن الْقُرْآن بَيِّن دلالةَ مطابَقةٍ، يَعْنِي: إذا جَعَلْنَا (مبين) مستعملةً فِي المعنيين فالدلالة مطابقةٌ، لكِن لو قُلْنَا: إن (مبين) بمعنى: مُظهِر فدلالته عَلَى كونه بَيِّنًا من بابِ دلالةِ الالتزامِ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مُظْهِر للحقِّ منَ الباطِل]، هل هُوَ عَلَى عُمُومه أو خَاصّ بما نزلَ به الْقُرْآن؟

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وَهُوَ عامٌّ فِي كُلّ شيءٍ، لكِن البَيان قد يَكُونُ بيَانًا للشيءِ عَلَى وجهِ التفصيلِ، وقد يَكُون

بَيَانا لأَسْبابِهِ وطُرُقِهِ وأنت امشِ فيها، فالْقُرْآن فِي الحقيقةِ تِبيَان لكلِّ شيءٍ، حَتَّى فِي غيرِ الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة يُبيِّنها، لكِن ما يُبيِّن تفصيلَها؛ لِأَنَّ غير الأُمُور الشَّرْعِيَّة خاضع للزمانِ والمكانِ وأفهامِ النَّاسِ وقوَّتهم، لَكِنَّهُ يذكر الأَسْبَاب والطرقَ، وأنت استعمِلْها فِي نفسِكَ.

ولِهَذَا إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَصِحُّ هَذَا القَوْلُ منكم ونحن لا نَرَى فِي الْقُرْآن عدد ركعاتِ الصَّلَاة، ولا نرى فيها أَنَّهَا خمسُ صلواتٍ، ولا نرى أنصباءَ الزكاةِ، ولا مقاديرَ الواجبِ فيها، فما هُوَ الجواب؟

فالجواب أن نَقُول: يَكُون الْقُرْآن دالًّا عَلَى هَذَا ببيَان سببه وطريقِه، فعندنا الْآنَ طريق العلم بهَذَا الشَّيْءِ هُوَ ما فسَّره الرَّسُول ﷺ وهَذَا بيَّنه الْقُرْآن، ولا يلزم أن يَكُون هَذَا الْقُرْآن لَا بُدَّ أن يذكر كُلّ التفاصيلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٨٠]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّة لعنِ النامصةِ والمُتَنَمِّصَةِ حَيْثُ جاءتْ إليه امرأةٌ فقالت: إنَّا لا نجد هَذَا فِي كتاب الله. فقال: بلى هُوَ فِي كتاب اللهِ. ثُمَّ تلا عليها قوله تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧][1].

فالحاصل: أن الْقُرْآنَ مُبينٌ لكلِّ شيءٍ، لكِن البَيَان قد يَكُون تفصيليًّا، وهَذَا فِي بعض الأُمُور موجود، كما فِي المواريثِ مثلًا، وَفِي المطلَّقات، فتجد ما يَشِذُّ عن هَذَا إِلَّا مسائل قليلة جدًّا، ومع ذلك بيَانها موجودٌ عند التأمُّل.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب المتنمصات، حديث رقم (٥٥٩٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة والنامصة والمتنمصة والمتفلجات والمغيرات خلق الله، حديث رقم (٢١٢٥).

فتَفْصيل الفرائضِ تفصيلٌ ما شذَّ عنه شَيْء إِلَّا مسألةٌ واحدَةٌ، وهي الجَدَّة، فهَذِهِ ليستْ مذكورةً فِي الْقُرْآن، لكِن جاءت بها السُّنَّة، وَأَمَّا ما عدا ذلك -حَتَّى المسائل الخلافيَّة، المُشَرَّكَة مثلًا، وكالعُمريتينِ- نجد أَنَّهَا موجودةٌ فِي الْقُرْآن، وكالجَدِّ والإخوة نجد أَنَّهَا موجود بَيَانها فِي الْقُرْآن، لَكِنَّهُ يحتاج إِلَى تأمُّل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ مظهِر للحقِّ من الباطل، عطف بزيادة صفةٍ، هُوَ ﴿هُدًى﴾]، الصِّفة هي ﴿مُّبِينٍ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّ الْقُرْآنَ آيَة لِمَا تَضَمَّنَهُ من الأخبارِ الصادقةِ والأحكامِ العادلةِ ... إلخ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن مكتوبٌ سابقًا ولاحقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الْقُرْآن مُبَيِّنٌ لكلِّ شيءٍ، وتوجد آية صريحةٌ فِي هَذَا الموضوع، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: يُستفاد من هَذِهِ الآيَةِ -وإِن كانتْ بعيدةً، ولكِنِّي سأبيِّنها- أن الْقُرْآن لا يخرج عن كونِهِ قرآنًا، وإن كُتِبَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، فَهُوَ كلام الله، سواء قُرِئَ أو كُتِب، وذلك مفهومٌ من قولِهِ: ﴿ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ﴾، ولا يَكُون آية إِلَّا إذا كَانَ من كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٢)

• ● ∞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٢].

• ● ∞ ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو ﴿هُدًى﴾]، قدَّرَ الْمُفَسِّر (هو) لِيُبيِّن لنا إعرابَ (هدى) فعلى تقديرِه يَكُون (هدى) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، التَّقْدير: (هو هُدًى).

ثم قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [هادٍ مِنَ الضَّلالةِ]. ومعلوم أن هُدى مَصْدَر، وأن هادٍ اسمُ فاعلٍ، فيَكُون الْمُفَسِّر هنا فسَّر المصدرَ باسمِ الفاعلِ، وَفِي تفسيرِه نظرٌ؛ لِأَنَّ الأَولى أن يُجْعَل المصدر عَلَى بابه؛ لسببينِ:

السَّبَب الأول: أن تحويل اسْم الفاعل إِلَى المصدر أبلغُ، فإنَّك إذا قلتَ: فلان عَدْلٌ، وفلان عادلٌ، أيُّهما أبلغ؟ عَدْلٌ أبلغُ، يَعْنِي كأنه مصدر العَدْل، لكِن (عادل) متَّصِف بالعدلِ الموجودِ فِي غيرِه، فلَا شَكَّ أن المصدر أبلغُ.

السَّبَب الثاني: أن جعله هدًى معناه: أن الْقُرْآن نفسه هُدًى يَهتدِي به الْإِنْسَان، لَيْسَ هاديًا، بل هُوَ هُدًى يَهتـدي به، فَهُوَ كالعَلَمِ الَّذِي يسير الْإِنْسَان وراءهُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى غايته، مثلمـا سمَّاه الله تَعَالَى نُورًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النِّسَاء:١٧٤].

قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بُشرى أيضًا بمعنى: بِشارة، وقَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به بالجنَّة].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالجنة]، سَيأْتي.

قولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به]، لا يكفي هنا أن الإِيمان مجرَّد التَّصْديق، بل الإِيمان الموجود فِي الْقُرْآن لَا بُدَّ فِيهِ من قَبول وإذعانٍ مَعَ التَّصْديقِ، أَمَّا مجرَّد التَّصْديق فلا يَكفي، والدَّلِيل عَلَى أن مجرَّد التَّصْديق لا يكفي: أنَّ أبا طالبٍ كَانَ مصدِّقًا لِمَا جاء به الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويقول[1]:

لَقَدْ عَلِمُـوا أَنَّ ابْنَنَـا لَا مُكَـذَّبٌ ... لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَـى بِقَـوْلِ الْأَبَاطِـلِ

ويقول[2]:

وَلَقَـدْ عَلِمْـت بِـأَنَّ دِيـنَ مُحَمَّـدٍ ... مِـنْ خَـيْرِ أَدْيَـانِ الْبَرِيَّـةِ دِينَـا

لَـوْلَا المَلَامَـةُ أَوْ حِـذَارُ مَسَـبَّةٍ ... لَوَجَـدْتَنِي سَـمْحًا بِـذَاكَ مُبِينًـا

فإِذَنْ: هُوَ ما قَبِلَ ولا أذعنَ فليس بمؤمنٍ.

فكلَّما وجدتَ الإِيمانَ فِي كتابِ اللهِ فالمُراد به التَّصْديقُ المستلزِمُ للقبولِ والإذعانِ، فليس مجرَّد تصديق.

فإِذَنْ نَقُول: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدِّقين به القَابِلِين له المُذْعِنين لأحكامِه، لَا بُدَّ من هَذَا.

وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُستفاد من ذلك: أَنَّهُ كلَّما كَمُلَ الإيمان فِي العبدِ كمُل اهتداؤُه بالْقُرْآن؛ لِأَنَّ الشَّيْء إذا عُلِّق بوصفٍ زاد بزيادة ذلك الوصف ونَقَص بنقصِه. فالحُكْم إذا عُلِّق بوصفٍ فإن هَذَا الوصفَ يَزيدُ الحكمُ بزيادتِه ويَنْقُص

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٨٠).

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ١٨٨).

بِنُقْصَانِه، وهَذَا معلومٌ حَتَّى فِي المحسوسِ، تجد أن الشَّيْء المعلَّق بشيء يزيد بزيادتِه، ويَنْقُص بنُقصانِه، فنَقُول: كلَّما ازداد الْإِنْسَان إيمانًا ازداد اهتداءً بالْقُرْآن، ويدلك عَلَى هَذَا قول الله تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]، ويدل أيضًا عَلَى هَذَا قولُه تعَالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣].

وأيضًا ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البِشَارَة هِيَ الإخبارُ بما يَسُرُّ، وقد تُطْلَق عَلَى الإخبارِ بما يَسُوء، لكِن بقرينةٍ.

وهنا يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بُشْرى بالجنَّة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا بُشرى بما هُوَ أعمُّ؛ بالجنَّة وبالعزَّة والكرامة وبالنصرِ، والدَّليل قوله تَعَالَى فِي سورة الصفِّ بعدما ذكر الجنة لِلْمُؤْمنِينَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ﴾ [الصف:١١-١٢]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف:١٣]، يَعْنِي: بَشِّرهم بما لهم فِي الجنَّة، وبَشِّرْهُم بما لهم فِي الدُّنْيا مِنَ النصرِ، وكلُّ إِنْسَانٍ بطبيعتِه البَشَرِيَّة يحبّ أنْ يَنتصِرَ عَلَى عدوِّه، ويحب أن يَكُون له العزُّ والكرامة، هَذَا لا يمكِن أن يَكُون إِلَّا بالإيمانِ، وكلَّما ازددنا إيمانًا ازددنا انتصارًا عَلَى عدوِّنا، وكلَّما تَخاذَلْنَا فِي الإيمانِ خُذِلنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١].

وإذا أردنا دليلًا عَلَى هَذَا فلننظُرْ إِلَى الَّذِينَ يُطَنْطِنُونَ بالقوميَّة العربيَّة، منذُ مَتَى وهم يطنطنون بها؟

أظنُّه من أوَّل القرن ، ومع ذلك لا يزدادونَ إِلَّا تأخُّرًا وضعفًا؛ لِأَنَّهَا ليست

عَلَى إيمانٍ، ولمّا ظهرتْ بادرة الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام والتضامُن الإِسْلاميّ ماذا حصل؟

حاولوا بكلِّ ما يَستطيعون أنْ يَقْضُوا عَلَى هَذَا، لَيْسَ من الدولِ الكافرةِ، بل حَتَّى من الدولِ المسلِمة العربيَّة، وصاروا يَقُولُونَ: إن هَذِهِ دعوة رجعيَّة.. إِلَى آخره.

فالحاصل: أننا الْآنَ إذا أردنا أن نرجعَ إِلَى العزَّة والكرامة والنصر فلا يَكُون ذلك إِلَّا بالإيمانِ.

وقد يَقُول قائلٌ: كيف نَنتصر بالإيمانِ وحدهُ على من لديهم أسلحة فتّاكة متطورة لم نَصل بعدُ إلى امتلاكِ أمثالها؟

نقولُ إنَّ أسبابَ النَّصر هِي:

أولًا: إخلاصُ النِّيَّة لله، بأنْ ننْوي بجهادِنا إعلاءَ كلِمَةِ اللهِ، وتثبيتَ شريعَتِه، وتحكيمَ كِتابه وسُنَّةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثانيًا: أن نلْتَزم بالصَّبر والتَّقوى، فإنَّ اللهَ مَع الصَّابرين، وإنَّ اللهَ مع المتَّقينَ، علينا أنْ نصبر عَلى الجهادِ، وأنْ نتقِيَ اللهَ تَعالى بامتِثَال أوامِره واجْتناب نواهِيه، فإنَّ مخالَفة أمْر اللهِ ورسولِه مِن أسْباب الخِذْلانِ، فهؤُلاءِ صَحابَةُ محمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَع رسُولِ اللهِ ﷺ خالَف بعْضُهم في أمْر واحِدٍ مِن أوامِر رسُولِ اللهِ ﷺ فِي غزْوَة أُحُدٍ فكانَتِ الهزيمَةُ علَيْهم بعْدَ أنْ كانَ النَّصرُ لهم فِي أوَّل الأمْر، ولكِن بعْد ذَلك تدارَكَهُم عفْوُ اللهِ فعَفا اللهُ عنْهُم.

ثالِثًا: أنْ نعرِف قدْرَ أنفُسِنا وأنَّ لا حوْلَ لَنا ولا قُوَّة إِلَّا باللهِ، فلا يأْخُذْنا العجبُ بقوَّتِنا وكثْرَتِنا فإنَّ الإعْجابَ بالنَّفس والاعتِزاز بها مِن دُون اللهِ سببٌ للخِذْلان، ولقَد أُعْجِب الصَّحابَة بكَثْرتِهم في يَوْم حُنَيْنٍ فلَمْ تُغْن عنْهُم شيْئًا ثُمَّ ولَّوْا مُدبِرينَ،

ولكِنَّ اللهَ أنْزَل سَكِينته عَلى رسُولِه وعَلى المؤْمِنينَ وأنْزَل جُنودًا مِن الملائِكَة فكانَتِ العاقِبَةُ للمُؤمِنين.

رابعًا: أن نُعِدَّ العُدَّة للأعْدَاء مستعمِلِين في كُلِّ وقتٍ وحالٍ ما يُناسِب مِن الأسلِحَة والقُوَّة لنرُدَّ على سِلاح العدُوِّ بالمثْل، فإذا تحقَّقتْ هَذه الأمُورُ الأَرْبعَةُ فإنَّ اللهَ تَعالَى يقُول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن هُدًى للناس، والمُراد بالهداية هنا هدايةُ الإرشادِ، كُلّ النَّاس يَسْتَرْشِدُون به لو شاءوا، يعني أن الْقُرْآن لا نَقْصَ فِي دلالته، لكِن هداية التَّوفيق خاصَّة بالمُؤْمِنينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن بُشرى للمُؤْمِنِينَ، بشرى فِي الدُّنْيا بالنصرِ وَفِي الآخِرَة بالجنةِ وبِما أُعِدَّ لهم منَ الثواب بالجنَّة، وبالعِزَّة وبالكَرامَةِ وبالنَّصْر.

الآيــة (٣)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٣].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتــون بها عَلَى وَجْهِهـا]، أقام الشَّيْءَ: أتى به مُستقيمًا، ولا تكون الصَّلَاة مستقيمةً إِلَّا إذا أتى بها عَلَى وَجهها.

وإقامة الصَّلَاة نوعانِ: نوع لَا بُـدَّ منه، وَهُوَ الإتيان بالأركانِ والواجبـاتِ والشروطِ، ونوع يَكُون عَلَى وجهِ الكمالِ، وَهُوَ الإتيان بالمُكمِّلات من السُّنن وغيرها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتون بها عَلَى وَجهها ﴿وَيُؤۡتُونَ﴾ يعطون ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾...]، إِلَى آخِره.

قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هل المُراد الفريضة أو النافلةُ؟

نَقُول: عامٌّ؛ لِأَنَّهُ لا يجوز للإِنْسَانِ أن يأتيَ بالسنَّة مثلًا عَلَى وجهٍ يُنافي الكمالَ الواجبَ، لو قَالَ واحد: أنا سأتطـوَّع، لكِن لن أقرأ الفاتحةَ، أليسـتْ سُنَّة. يجـوز أو لا يجـوز؟ لا يجـوز، نَقُول: الْآنَ يَجِب عليك أن تقرأَ الفاتحة، لو قَالَ: لن أركعَ، لن أسجُدَ لا يمكِن هَذَا، فإذن فِي الآيَةِ الصَّلَاة إقامتها عامَّة فِي الواجب وَفِي التطوُّع.

وقوله: ﴿يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لم يبيِّـن المَفْعُـول الثانيَ لـ(يؤتون)، لَكِنَّهُ معلـومٌ،

والتَّقْدير: (يؤتون الزكاة مُسْتَحِقَّها) وقد بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مستحِقَّ الزكاة فِي سورةِ بَرَاءَة ببيَان واضحٍ مفصَّلٍ.

وقوله: ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لا حاجة إِلَى تعريفها عندكم لِأَنَّهَا معروفةٌ، وسُمِّيَتْ زكاةً لِأَنَّهَا تُزكِّي الْإِنْسَان، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هَذَا ثناء عَلَى المُؤتِينَ للزكاة، والسُّورَة كما تقدَّم مكِّيّة، فهل معنى ذلك أن الزكاة فُرضت بمَكَّة أو فِي المَدينَة؟

المعروف عند أهلِ العلمِ أَنَّهَا فُرضت فِي المَدينَة، ولكِن الصَّحيح أَنَّهَا فُرضت بمكَّة، ولكِنَّ تقديرَ أنصبائها وبيَان الأموال عَلَى وجه التفصيلِ كَانَ ذلك فِي المَدينَةِ، هَذَا هُوَ الصَّحيح، وَهُوَ الَّذِي به تجتمع الأدلَّة.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: تأخّر بيَان أَنْصِبَة الزكاة إِلَى ما بعدَ الهجرةِ أَلَا يَكُونُ من بابِ تأخيرِ البيَان عن وقتِ الحاجةِ؟

فالجواب: لا، هَذَا من باب التطوُّر فِي التشريع، فبيَّن الزكاة وتركها موكولةً للإِنْسَان يختار ما يُخْرِج، فيُخْرِج ما شاءَ؛ لأجلِ أن تتعوَّد النفوس، ثُمَّ بَعْد ذلك يَفْرِض عليها الشَّيْءَ الَّذِي أراد اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهَذَا مِثْلُ غيرِه منَ الأَشْيَاء الَّتِي تطوَّرت: الصَّلَاة فُرِضَتْ ركعتينِ، ثُمَّ أُقِرَّت صلاةُ السفرِ وزِيد فِي صلاة الحَضَر[1].

والزكاة هَكَذَا فُرِضَت أَوَّلًا عَلَى اختيار الْإِنْسَان، ثُمَّ حُددت، والصِّيَام فُرض عَلَى سبيل التخيير ثُمَّ عُيِّن، والحجُّ هُوَ الَّذِي ما أعلمُ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ فُرض مرَّةً واحدةً،

---

(١) رواه البخاري: كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم (٣٥٠)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٦٨٥).

ولكِن السَّبَب فِي ذلك أَنَّهُ أتى فِي السنة التَّاسعةِ أو العاشرةِ بعدَ أنِ استقرَّ الإِيمان فِي القلوبِ، فلا حاجة إِلَى أن تُدرِّج النفوس من مرحلة إِلَى مرحلة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف نَجْمَعُ بينَ حديثِ ابنِ عبَّاس: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ**»[1]، وبينَ حديثِ عائشةَ؟

قُلْنَا: أنا لا أَدري صِحَّة هَذَا الحديثِ، وَعَلَى فَرض صِحَّته وقد قالَه ابنُ عبَّاسٍ، فحديثُ عائشةَ أصحُّ، فحديثُ عائشةَ: «**أَوَّل مَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ**»[2] صَريح صحيحٌ، وَعَلَى هَذَا فالجمعُ أنْ يُقالَ: فُرِضَتْ أربعًا ثُمَّ فُرضتْ ركعتينِ ثُمَّ قُسم إِلَى حَضَر وسفرٍ.

مسألة: هل يجوز التدريجُ فِي الأحكامِ لِمَن يُسْلم؟

الظَّاهر لي أَنَّهُ يجوزُ، وأن نأمرَه بالأهمّ فالأهم، مثلما أمر الرَّسُول ﷺ مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ، مَعَ أنَّ الأحكام مستقرَّة. قَالَ: «**أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ**»[3] مَعَ أنَّ كُلّ هَذِهِ كانتْ

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب التاريخ من أين أرخوا التاريخ، حديث رقم (٣٧٢٠)؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم (٦٨٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النَّبِيّ ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حديث رقم (٦٩٣٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظ مسلم: لما بعث النَّبِيّ ﷺ معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**».

مفروضةً، وحتى الصوم والحجُّ أيضًا مفروض.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَعْلَمُونها بالاستدلالِ، وأُعيدَ (هم) لما فُصِلَ بينه وبين الخبر].

قوله: ﴿وَهُم﴾ مُبتدأ و﴿يُوقِنُونَ﴾ خَبره، و﴿بِالْآخِرَةِ﴾ متعلِّق بـ(يُوقِنون)، ولكِن كلمة ﴿هُمْ﴾ أُعيدتْ مرَّة ثانيةً، فهل هَذَا من بابِ التَّوْكيدِ ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يعني ﴿وَهُم﴾ همُ الَّذِينَ يوقنون دونَ غيرِهم، أو أَنَّهُ كما قَالَ المُفَسِّر: للفصلِ بينه وبين الخبرِ، والفاصلُ قوله: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾؟

يَحتمل هَذَا وهَذَا، وقد يجوز أن يَكُونَ المُراد الجميع، فبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُم هم أهلُ الإيقانِ، حَيْثُ كرَّر الضَّمير مرتينِ، وكُرِّرَ أيضًا مرتينِ لِطُول الفصلِ بين الخبرِ وبين المبتدأِ بالفاصلِ.

ولكِـن الإيقان يَقُول المُفَسِّـر: [يعلمونها بالاستدلالِ]، إِنَّمـا قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: بالاستدلال؛ لِأَنَّ الْيَقين أخصُّ منَ العلمِ؛ إذ إن الْيَقين معناه: العِلم الَّذِي لا يَتطَرَّق إليه الاحتمالُ، فَهُوَ أعلى درجاتِ العلمِ، وهَذَا إِنَّما يَكُون بالاستدلالِ، يعني بالأدلَّة المُبيِّنَةِ المقنِعة، فلهَذَا فسَّر المُفَسِّر الْيَقينَ بأنه: العِلم بالأَشْياء عن طريق الاستدلالِ.

وقوله: ﴿بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ هل المُرادُ بالآخِرَة أَنَّهُ يُبعث النَّاس فقطْ؟

نَقُول: لا، فكُلّ ما أخبرَ الله تَعَالَى به ممَّا يَكُون فِي هَذَا اليوم أو أخبر به رسولُه فَإِنَّهُ داخلٌ فِي الآخِرَةِ، بل إن شيخ الإِسْلام رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول: إِنَّهُ يدخل فِي الإيمان باليوم الآخِر كُلّ ما أخبر به النَّبِيّ ﷺ مما يَكُون بَعْد الموت[1].

(١) انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٥).

فعلى هَذَا يَكُون المُراد بالآخِرَة: ما بعدَ الدُّنْيا، فتَشمَل عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمل كذلك الموازينَ فِي يوم القيامةِ والحوضَ المورودَ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وما ذُكِر.

وهل بَقِيَ شيءٌ منَ الإِيمانِ؟ لِأَنَّهُ ذكر إقام الصَّلَاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخِرَة؟

وتقدَّم أن الإِيمانَ باللهِ يَتضمَّن الإِيمانَ بالرُّسُل ويَتَضَمَّنُ الإِيمانَ بالكُتُبِ، ويَتَضَمَّنُ الإِيمانَ بالملائكةِ، بل ويتضمَّن الإِيمانَ باليومِ الآخِرِ، ويتضمَّن الإِيمانَ بالقَدَر؛ لِأَنَّ الإِيمان بالقدرِ من الإِيمانِ بالله؛ لِأَنَّ القَدَر قَدَر الله.

نَقُول: بقِي الصِّيَام والحجُّ، وهما من أركانِ الإِسْلامِ، والجواب عَن ذلك: أن السُّورَة مكّيّة، والصِّيَام والحجّ لم يُفرضا بمكَّة بالاتِّفاقِ، فالصِّيَام فُرض فِي السنة الثَّانِيَة، والحج فُرض فِي السنة التَّاسعة أو العاشرة عَلَى القَوْل الراجِحِ، وَعَلَى هَذَا فليس فِي الآية إشكالٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فَضل إقامة الصَّلَاة، وأنها من أوصاف الْمُؤْمِنِينَ، وفضل إيتاء الزكاة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن محلّ الثَّناء لِلْمُصَلِّين فِي إقامتِها والإتيان بها عَلَى الوجهِ الأكملِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الصَّلَاة بالزكاة يَدُلّ عَلَى أهميتها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الزَّكاةَ فُرضت بمَكَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَعْمال من الإِيمان.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن تضييع الصَّلَاة والبُخل بالزكاة ينافي الإِيمان؛ لِأَنَّ الله جعل من أوصاف المؤمنين إقامة الصَّلَاة وإيتاء الزكاة، فمَن لم يكن يقيم الصَّلَاة ولم يؤتِ الزكاة فَهُوَ ناقصُ الإِيمانِ، وقد يَكُون معدومَ الإِيمان بالكُلِّيَّة كما فِي ترك الصَّلَاة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات اليوم الآخِر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الْإِنْسَان إذا آمَنَ بالشرائعِ الْمُنْزَلَة فَهُوَ كامل الإِيمـانِ، وإن لم يُدْرِكِ الفرائضَ المتأخِّرة، فالَّذِينَ ماتوا من الصحابة قبل فرضِ الصِّيَامِ إسلامهم كاملٌ، بل إن الرجل يمكنُ أن يؤمنَ ويموت قبل أنْ يصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويَكُون بذلك كاملَ الإِيمان. يعني إيمانه كامِل وإن كَانَ غيرُه الَّذِي أدركَ أكملَ منه، لَكِنَّهُ هُوَ بالنِّسْبَةِ إليه ما يقال: إيمانه ناقِص -أي أَنَّهُ ناقص نقصًا يُخِلّ به-.

• ● ● •

الآية (٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القَبِيحَةَ بتركيبِ الشَّهْوةِ حَتَّى رَأَوْها حَسَنَةً ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَتَحَيَّرُون فيها لِقُبْحِها عِنْدَنَا].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها؛ لِأَنَّ مَن لم يُصَدِّقْ لا يُمْكِن أن يَقبَلَ أو يُذْعِنَ.

إِذَنْ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ يشمل نفي التَّصْديقِ ونفيَ القبولِ ونفي الإذعانِ. والفَرْقُ بينَ القَبُول والإذعانِ مَعروفٌ، فمثلًا أَقْبَلُ أنَّ هَذَا الشَّيْءَ فُرِض، وأَعْتَقِدُه فرضًا، لكِنْ لا أَفْعَلُه، فالذي تَخَلَّفَ الإذعانُ.

وأمَّا عَدَمُ القَبولِ فهو أنْ يَرْفُضَ هَذَا ويقول: هَذَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ ولا نَعْتَرِف بأنَّه فَرْضٌ، وَأَمَّا التَّصْديقُ فَهُوَ الإنكارُ المطلَقُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين التَّصْديقِ والقَبُولِ؟

نَقُول: التَّصْديق: أَنَّهُ يُصَـدِّق بأنَّ هَذَا حقٌّ لَكِنَّهُ لا يَقبَـلُه، يَقُول: نعمْ، هَذَا الرجلُ جاءَ بالحَقِّ، لكِن أنا لا أقبله. والقَبـول فِي الغالـبِ يَكُون فِي المعتـقَدات، والإذعان فِي الأَعْمالِ الظَّاهرةِ كأعمال الجوارِحِ.

وقوله: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ﴾ هَذِهِ الجملةُ ﴿زَيَّنَّا﴾ خبرُ إنَّ، وتفيد أن العِلَّة فِي التزيينِ عدم الإِيمانِ بالآخِرَةِ، وأن الله تَعَالَى لم يُزَيِّن لهم[1] هَذِهِ الأَعْمال إِلَّا بسبب عدمِ إيمانِهِم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

ومن هنا نعرِف أن الَّذِي يزيَّن له سُوءُ عَمَلِه يكُون ذلك دليلًا عَلَى نقصِ إيمانِه بالآخِرة؛ إذ لو كمُل إيمانُه بالآخِرَةِ لكانَ يعرف الحسن من السَّيِّئ، فيفعل الحسن ويَتَجَنَّب السَّيِّئ، ولكِن لضعفِ إيمانِه بالآخِرَة يحصُل له هَذَا الفِعْل القبيح ويراه حسنًا. ولا حاجة إِلَى أن نُعَدِّد أنواعًا من ذلك؛ لِأَنَّ الأنواع ممَّن زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِه كثيرةٌ جدًّا، فبلَا شَكّ من العَمَل السيِّئ أَنَّهُ إذا نزل فِي أرضٍ أخذَ أربعةَ أحجارٍ ووضعَ ثلاثةً للقِدْرِ وواحدًا يَعْبُده[2].

ولَا شَكَّ أنَّ من العَمَلِ السيِّئ المُزيَّن أن الْإِنْسَان يَتَّخِذُ تمرًا عَلَى صورة صَنَمٍ فيَعْبُده، فإذا جاع أكلَه.

ولَا شَكَّ أنَّ من سُوء العَمَلِ المزيَّن أنَّ الْإِنْسَان يأتي بابنتِهِ -وهي ثَمَرَة فُؤَادِهِ- ويَحفِر لها الحُفرة ويَغْمِسها وهي حيَّة. هَذَا لا يَكُون -والعياذُ بالله- ولا من السِّباع، ومعَ ذلك زُين لقومٍ من أهل الجاهليَّة هَذَا العَمَل؛ حَتَّى إنَّهُم يَقُولُونَ: إنَّهُ يقف عَلَى الحفرة لِيُلْقِيَها، وإذا همَّ أنْ يُلْقِيَها تَشَبَّثَتْ به وتقول: يا أبتِ يا أبتِ! فتستجير به وَهُوَ داؤها! نسألُ اللهَ العافيةَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَتحَيَّرون فيها]، هَذَا -والعياذُ بالله- من عدمِ الإِيمانِ أنَّ الْإِنْسَان لا يوفَّق للهداية، تَجِدُه حائرًا؛ لِأَنَّهُ لم يؤمن.

---

(١) نهاية الشريط الأول.

(٢) انظر كتاب الأصنام لأبي المنذر الكلبي (ص:٣٣)، وإغاثة اللهفان (٢/ ٢٢٠).

وأبرزُ مثالٍ لذلكَ: ما يَقعُ من أهل الكَلامِ منَ الحَيرة؛ لِأَنَّهُم لم يؤمنوا بالله حقَّ الإِيمان به، أنكروا صفاتِه وأنكروا ما جاء به كتابه وسنَّة رسوله، فصاروا مُتَحَيِّرين، ولهَذَا قَالَ بعض النَّاس: أكثرُ النَّاسِ شكًّا عندَ الموتِ أهلُ الكَـلامِ(١). والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّهُم -نسألُ اللهَ العافيةَ- ما آمنوا.

فكلُّ إِنْسَان يضعُف إيمانه فَإِنَّهُ يَتَرَتَّب عليه هَذَانِ الأَمْرانِ السيِّئانِ:

أولًا: تَزيينُ العَمَلِ السيِّءِ فِي عينِه حَتَّى يمارسَه ولا يُنتزع منه.

والثاني: شَكُّه وحَيْرته وتردُّده.

بهَذَا نعرِف أَنَّهُ كلَّما قَوِيَ الإِيمانُ بالآخِرَةِ عَرَفَ الْإِنْسَانُ القبيحَ ولم يَتَرَدَّدْ فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ نتيجة عملية حسابيَّة: إذا كَانَ هَذَا الوصف يقتضي هَذَا الوصف فعدمه يَقتضي عَدَمه، فهي مُعَادَلَةٌ بَيِّنَة جدًّا. فالَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَة ابتُلوا بهذينِ الأَمْرينِ، والَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ يَنتفي عنهم هَذَان الأَمْرانِ، نسألُ الله أن يَجْعَلَنا من المُؤْمنِينَ.

مسألة: ومن آمنَ بالآخِرَةِ من الصُّوفِيَّة؟

الصوفية لَيْسَ عندهم إيمانٌ حقيقةً، لو كَانَ عندهم إيمان حقيقةً ما زُيِّن لهم؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة مِقياس، فكُلّ إِنْسَانٍ يُزيَّن له سوءُ عَمَله فاعلمْ أَنَّهُ ناقصُ الإِيمانِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ عندهم إيمان حقيقيّ فما الَّذِي يُخرِجهم عن طريق الرَّسُول ﷺ؟!

إِذَنْ: كلَّما ضَعُفَ الإيمان بالآخِرَة ازداد تزيينُ القبيحِ فِي عينِ الْإِنْسَان، وكلما ازدادَ إيمانه بالآخِرَةِ كَرِهَ القبائحَ، وهَذَا أمرٌ مُسَلَّم الآن.

(١) القول منسوب لأبي حامد الغزالي، انظر مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عُقُوبة مَن لم يُؤْمِن بالآخِرَةِ بِهَذِهِ العقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأَعْمالِ السيِّئة لا الحسنةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ كلَّما آمَنَ الْإِنْسَان بالآخِرَةِ اتَّضَحَ له الحقُّ؛ لِأَنَّ الإِيمانَ بالآخِرَةِ يَستلزِم أن الْإِنْسَانَ يَرَى الحقَّ حقًّا ويرى الباطلَ باطلًا، فلا يزين له الباطِل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ؛ لِأَنَّهُم لمَّا لم يُوقِنوا بالآخِرَة مَعَ وُضُوحها اشتبهَ عليهم الحقُّ مَعَ وضوحِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ عدمَ الإِيمانِ بالآخِرَةِ سببٌ للحَيْرة، لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وَعَلَى هَذَا فالإِيمانُ بالآخِرَةِ سببٌ لِلْيَقِينِ والنُّورِ، وهَذَا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والْإِنْسَان ما يُصاب بعدمِ الْيَقِينِ إِلَّا بسببِ أعمالِه، ونقصِ إيمانِه، وكلَّما قَوِيَ الإِيمانُ فإنَّ معرفةَ الْإِنْسَان تزدادُ، حَتَّى فِي الأُمُورِ غير العلميَّة الشَّرْعِيَّة، فيعطيه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِراسةً يَتبيَّن بها الأَشْياءَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وُجُوب الإِيمانِ باليوم الآخِرِ، بدليلِ عقوبةِ مَن لم يؤمنْ به، فهَذِهِ العقوبةُ العظيمةُ تدلّ عَلَى وجوبِ الإِيمانِ به.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مذهَب أهلِ السنَّة والجماعة فِي الردّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ لِأَنَّ تزيينَ العَمَلِ لهم هُوَ سببُ ضَلالهم، فتُزَيَّن لهم الأَعْمالُ السيئة فيَعْمَلُونها، فَلِلَّهِ تَعَالَى تأثيرٌ فِي أفعالِهم، فكون الله تَعَالَى يقولُ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ فينْسُبُ تَزْيينَ العَمَلِ إليه يَدُلّ عَلَى نَقيضِ قولِهم، وإلَّا فهم يؤمنون بالآخِرَة ويرَون أَنَّهُم مسلِمونَ، لكِنَّهم لا يؤمنون بأنَّ الله تَعَالَى له تعلُّق بفعلِ العبدِ، فأفعال العبدِ عِندَهم لَيسَ لله فيها تعلُّق إطلاقًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله: ﴿أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فِيهِ نِسبة الأفعال للعبـدِ، ففيه ردٌّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّ الجبريَّة لا يَنْسُبُون العَمَلَ للإِنْسَانِ إِلَّا عَلَى سبيلِ المَجاز؛ إذ إِنَّهُم يَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَان مُجْبَرٌ عَلَى العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَةِ يَرَوْنَ أَنَّ أعمالهم حَسَنَة، ولِهَذَا يُصِرُّونَ عليها، وقد قَالَ أبو سُفيان فِي أُحد: اعْلُ هُبَل.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كونهم يرون أنَّ أعمالهم حسنة، ولِهَذَا يُصِرُّون عليها أَلَا يُشكِل عليه ما ذَكَرْناه من أَنَّهُم فِي حَيرة وقلقٍ؟

قُلْنَا: هم فِي حَيرة بالنِّسْبَة للإيمـانِ بالآخِرَةِ، لكِن عندما يَستمِرُّون فِي هَذِهِ الأَعْمال يرونَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، فَهُمْ يَعْمَلُون المَعاصِيَ وتُزين لهم ويَرَوْنَ أَنَّهُ لا بأس بها، فالَّذِينَ يُرابون يَرَوْن أنَّ الرِّبا مصـدرٌ اقتصاديٌّ، وَأَنَّهُ لا بأس به، والَّذِينَ يَلْعَبُـونَ الشِّطْرَنْـج يَقُولُونَ: هَذَا عَمَلٌ طيِّبٌ لِأَنَّهُ يُنمِّـي الفِكر والعقل، ومثلهم أصـحاب السَّرِقَات وغيرهم، المهمّ أن هَؤُلَاءِ متحيِّرون فِي أمرِهم كلِّه، حَتَّى فِي أمرِ الآخِرَةِ ما عندهم يَقين، والواحد منهم يَزعُم أَنَّ نتيجة هَذَا العَمَل السيِّئ بالنِّسْبَة لهُ حَسَنَة، ولِهَذَا زُيِّن لهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: بعض أهل المَعاصِي يَعترِف أَنَّهُ عَلَى خطأٍ، لكِن يَقُول: الله غفور رحيم؟

قُلْنَا: هَذَا مُزَيَّن له، وَهُوَ من الرجاءِ فِي غيرِ مَحَلِّه، ومَن كَانَ يرجو اللهَ أَنْ يَغفرَ له فِي غير محلِّه فهَذَا من سُوء العَمَلِ، فـ «**الْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ**»(١)

---

(١) أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، رقم (٤٢٦٠).

الْأَمَانِيِّ، والمعاصِي شامِلَةٌ الْكُفَّارَ وغيرَ الكفارِ، وكلُّ مَن عصَى اللهَ ففيه نقص بالإيمان بالآخِرة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ الرجل الَّذِي يَستحسِن القبائحَ يُمْكِن نَسْتَنْتِج أَنَّهُ ضعيف الإيمانِ بالآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ لو قَوِيَ إيمانُه بالآخِرَةِ ما حَسُنَ فِي نفسِهِ قبائح الأَعْمال، وهَذِهِ الآيَةُ تَدُلُّ عليه.

• ● ● •

الآية (٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل:٥].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أشدُّه فِي الدُّنْيا القَتْل والأَسْر].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشارُ إليه الَّذِينَ لا يؤمنون بالآخِرَةِ، لَمَّا ذكر -والعياذ بالله- طريقهم وَأَنَّهُ زُين لهم سُوء أعمالِهم، ذَكَرَ جزاءَهم ومآلَهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

قيَّده المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما يَكُون فِي الدُّنْيا مِنَ الأسرِ والقتلِ، ولكِنَّه لا يَنبغي أن يُقَيَّد به، بل يقال: إن هَذَا من سُوء العذابِ الَّذِي يَنالهم، وهم ينالونَ سوء العذابِ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ، ومن أجلِ ذلك لم يكنْ لهم نصيبٌ فِي الآخِرَةِ، بل قَالَ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

قوله: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ الأُولى مبتدأٌ، والثَّانِيَة توكيدٌ، ويجوز أن تكونَ ضَميرَ فَصلٍ، لكِن لَمّا سبقَ لها نظير وهي كلمة ﴿هُمْ﴾ فالأحسن أن تكونَ توكيدًا، ونستفيدُ الحصرَ من تعريفِ المبتدأ والخبرِ فِي قولِه: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾. والأخسرُ اسمُ تفضيلٍ، مأخوذ من الخُسران وَهُوَ النقصُ. وحَصْرُ الأخسريَّة فيهم

دليل عَلَى أن هناك خسارةً لغيرِهم، لكِن هم الأخسرونَ.

والخسارة الَّتِي تكون لِغَيْرِهم هي أنَّ الفُسَّاق من المُؤْمِنينَ يُعذَّبُون بقَدْرِ ذنوبهم، وهَذِهِ خسارة؛ لِأَنَّهُ لم يكمل لهم النعيم فِي الآخِرَةِ، حَيْثُ عُذِّبوا عَلَى ما فعلوا من الذنوبِ، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ وَأَنَّهُ خسارة، ولكِن الأخسر هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخلَّدونَ فِي النَّار، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر: [لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّار المؤبَّدَةِ عَلَيْهِمْ]، فهم الأخسرونَ.

فعليه يَكُون النَّاس فِي الآخِرَةِ ينقسمونَ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ: رابحونَ، وخاسرون، وأخسرون.

فالرابِحُ: الَّذِي مَنَّ اللهُ عليه فخرجَ منَ الدُّنيا وَهُوَ لا يَستحِقّ العقابَ فِي الآخِرَةِ، سواء كَانَ ذلك بتوبةٍ، أو بمصائبَ تُكفِّر، أو بأعمالٍ صالحةٍ جليلةٍ جدًّا تَضْمَحِلّ معها الأَعْمالُ السيئة، مثل أهلِ بَدْر، قَالَ الله تَعَالَى لهم: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]، لو عَمِلوا مهما عَمِلوا مِنَ الذنوبِ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَغْفرها لهم بسببِ الحسنةِ العظيمةِ الَّتِي قاموا بها فِي غزوةِ بدرٍ.

وقد يَعْفُو الله أيضًا عن هَذَا الْإِنْسَان الَّذِي عَمِلَ سَيِّئًا فِي الدُّنيا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النِّساء:٤٨]، فتكون حالُه فِي الآخِرة تامَّة.

الثاني: الخاسِر غير الأَخْسر، وَهُوَ الَّذِي أصابَ بعضَ الذنوبِ، ولم يُقَدَّر له

(١) رواه البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين، حديث رقم (٦٥٤٠)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، باب من فضائل أهل بدر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وقصة حاطب بن أبي بلتعة، حديث رقم (٢٤٩٤)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

الخَلاصُ منها، فعُوقِب عليها، فصاحب المَعاصِي مِنَ المُؤْمنِينَ هُوَ فِي حُكْمِ الخاسرينَ، لَكِنَّهُ لَيْسَ الأخسرَ.

الثَّالث: الأخسرُ، وهُوَ الَّذِي لا حَظَّ له فِي الآخِرَةِ، وما لَه فِي الآخِرَةِ مِن خَلاقٍ، وهمُ الكفَّارُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُم الأخسرونَ فِي الآخِرَةِ فقطْ ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

وهل يَلزم أن يَكُونوا همُ الأخسرينَ فِي الدُّنْيا؟

لا يَلزم، فلا يُفهم من الآيَة أَنَّهُم رابحون فِي الدُّنْيا، يُفهم من الآيَة أَنَّهُم فِي الدُّنْيا مسكوتٌ عنهم، قد يَربحون وقد يخسرون، وَعَلَى رأيِ المُفَسِّر لَيْسَ لهم حظٌّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: إن العذابَ معناه القتلُ والأَسْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات سُوء العذابِ لهؤُلَاءِ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، هَذَا الَّذِي اخترناه، وَهُوَ العموم، والمُفَسِّر يرى أَنَّهُ فِي الدُّنْيا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُم ليس لهم حظٌّ فِي الآخِرة أبدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن النَّاس فِي الآخِرَةِ ثلاثةُ أقسامٍ: أَخْسَرُون، وخاسرون، ورابحون.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَنَوُّع العذابِ لِتَنَوُّع المَعاصِي؛ لِأَنَّ الجزاءَ مِن جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادسَةُ: إثبات الآخِرة لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابعَةُ: أنَّ مَن لم يؤمنْ بالآخِرَةِ فَهُوَ كافرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾،

هَذَا إذا أَعدْنا الآيَةَ عَلَى ما قبلُ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هَذَا خبرٌ بأنهم خاسرون فِي الآخِرَةِ؛ لِأَنَّ الآيَة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النمل:٤]. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حصر الخسرانَ فِي هَؤُلَاءِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُم هم الأخسرونَ، وغيرهم ولو خَسِروا فليسوا بهَذَا الوصفِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: الردُّ عَلَى الخوارج والمُعْتَزِلَة؛ لأَنَّنا لو قُلْنَا: إن أهل الكَبائِر الَّذِينَ يؤمنون بالآخِرَةِ مخلَّدون فِي النَّار لاتَّصفُوا بهَذَا الوصفِ وكانوا من الأخسرينَ، مَعَ أنَّ الله إِنَّما حَصَرَ الأخسرَ فِي الَّذِينَ لا يؤمنونَ بالآخِرَةِ.

الفَائِدَةُ العاشرة: بلاغة الْقُرْآن الكريمِ، حَيْثُ إِنَّهُ يُبيِّن أحوالَ الكَافِرينَ للتحذير منها.

• • ۞ • •

الآية (٦)

• ● ◆ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:٦].

• ● ◆ ● •

قوله: ﴿وَإِنَّكَ﴾ خِطَاب للنبيِّ ﷺ، وهَذَا الخطابُ مؤكَّد بـ(إن) ثُمَّ مؤكَّد بتأكيدٍ آخرَ، وَهُوَ قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ لِأَنَّ اللامَ هَذِهِ للتَّوكيدِ، ويقال: إِنَّهَا اللام المُزَحْلَقَة، والمُزَحْلَق يعني المؤخَّر. يَقُولُونَ: إن الأَصْل أن تكونَ فِي أَوَّل الكَلام، ولكِن لمَّا كَانَ فِي أول الكَلام مُؤَكِّد غيرها صار الأنسب أن تؤخَّر؛ لِئَلَّا يَجتمِع مؤكِّدان فِي مكانٍ واحِدٍ، وإلا هِيَ تُسمَّى لام التَّوْكيد. ومحلُّها فِي أَوَّل الجملة، ولَكِنَّها زُحلقت من أجلِ أنَّ فِي أول الجملة مؤكِّدًا آخرَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ يُلقى عليك بِشِدَّة ﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ فِي ذلك...]، إِلَى آخره.

﴿لَتُلَقَّى﴾ معنى التَّلقية: التلقينُ والإعطاءُ، لَقَّيْتُه كذا بمعنى لَقَّنْتُه إيَّاه إذا كَانَ ذِكرًا، وأعطيته إيَّاه إذا كَانَ عَينًا، وهنا الْقُرْآن ذِكر لَيْس عينًا يُعطَى ولكِنَّه ذِكرٌ يُلَقَّنُ، والنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كَانَ يُلَقَّن الْقُرْآن، وَكَانَ إذا سَمِعَهُ مِن جبريل فِي أَوَّل الأَمْرِ يَتَعَجَّل ﷺ بقراءته، فنهاه الله عن ذلك[1]، قَالَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، حديث رقم (٤٦٤٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، حديث رقم (٤٤٨).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٧]، هذا ضمان مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يَجْمعَهُ ويقْرأَهُ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، أي: بَيَانه لفظًا، ومعنًى، وحُكْمًا.

وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ سبق معنى الْقُرْآن، وَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِن قَرَأَ بمعنى: تلا، ومن قرأ بمعنى: جَمَعَ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُلْقَى عليك بِشِدَّة] من أين أخذ كلمةَ بشدَّةٍ من اللفظ؟ من قوله: ﴿لَتُلَقَّى﴾ ولم يقلْ: تَلَقَّى أنت، فهو يُلقَّاه، فكأنه يشعر بالشدَّة، ولكِنه ما يَتبَيَّن لي كثيرًا، ودلالة تلقى عليه فيها غُمُوض، إِنَّما لَا شَكَّ أَنَّ الرَّسُول ﷺ يجد من تلقِّي الوحي شِدَّة.

وقوله: [﴿مِن لَّدُنْ﴾ من عند]، يعني أن ﴿لَّدُنْ﴾ بمعنى عند، ويقال فيها أيضًا: لدى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ [ق:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، لَدُنَّا هي: لَدُنْ، ولَدَيَّ هي: لدى، فيقال هَذَا وهَذَا، ولكِن الْقُرْآن كما هُوَ معلومٌ تَوْقِيفِيّ، لا يُمْكِن أنْ نُبدِّل لفظًا بدلَ آخرَ، ولو كَانَ بمعناه.

وقوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ المُراد به اللهُ جَلَّ ذِكْرُه.

والحكيم تَقَدَّمَ أَنَّهُ مشتقٌّ مِنَ الحُكْمِ والإِحْكَامِ الَّذِي بمعنى الإتقانِ، وَهُوَ الحِكْمَة.

والحكمُ الثابتُ للهِ عَزَّوَجَلَّ أو المُتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنْقَسِم إِلَى قسمين: حُكْم شَرْعِي، وحكم قَدَرِيّ.

فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ كثيرٌ فِي الْقُرْآن، كما فِي قولِه تَعَالَى فِي سُورة المُمْتَحِنَة لمّا ذكر

أحكام النِّسَاءِ المهاجـراتِ قَالَ: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الممتحنة:١٠]، والحُكْم القَدَرِي مثل قول أخي يُوسُف: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف:٨٠]، يعني يُقدِّر، لا يَنتظر حُكمًـا شَرْعِيًّا، بل يَنْتَظِر حكمًـا قَدَرِيًّا. والحكم الشَّـرْعِيّ هل يمكن مخالفتُه؟ نعم يُمْكِـن، فمِنَ النَّاسِ مَن يَقْبَـلُه ومنَ النَّاسِ مَن لا يقبلُه. والحُكم القَدَرِي لا يُمْكِن مخالفتُه، إذن فَهُوَ واقعٌ لا محالةَ، فإذا حَكَمَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بشيءٍ قَدَرًا فهُوَ واقعٌ لا محالةَ.

مسألة: الحُكْم الشَّرْعِيّ محبوبٌ لله أو مبغوضٌ إليه؟ محبوبٌ ومبغوضٌ، فإذا حَكَم بفعلِ الشَّيْءِ فَهُوَ محبوبٌ، وإنْ حَكَمَ بتركِهِ فَهُوَ مكروهٌ. فاللهُ تَعَالَى حَكَمَ بتحريمِ الزِّنَا مثلًا وَهُوَ مكروهٌ له، وحَكَمَ بتحريمِ الشِّركِ وَهُوَ مكروهٌ له.

والحُكم الكونيُّ كذلك، فِيهِ محبوبٌ وفيه مكروهٌ لله، ولا يمكن أنْ نُعارِضَ ذلك فنَقُول: كيف يَقَع الحُكْمُ الكونيُّ وَهُوَ مكروهٌ له؟ إذن معناه أن الله يُجْبَرُ، يَعْنِي يفعل شيئًا وَهُوَ يَكْرَهُه، وهَذَا ما يَكُونُ إِلَّا فِي فاعلٍ يُجْبَر، فهل الله تَعَالَى يُجْبَر؟

نَقُول: لا، إذنْ كيف تقول: إن فِي الحُكْم الكونيّ ما هُوَ مكروهٌ لله؟

نَقُول: معناه هُوَ مكروهٌ من وجهٍ ومحبوبٌ من وجهٍ آخرَ، فَهُوَ من حَيْثُ ذَاتُهُ مكروه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كالمَعاصِي، فالله تَعَالَى يقدِّر المَعاصِيَ مَعَ أَنَّهُ يَكْرَهُها، لَكِنَّهُ محبوبٌ إليه من وجهٍ آخـرَ، ويَكُون هَذَا الوجهُ أقـوى منَ الوجهِ الآخـرِ فيقع هَذَا الشَّيْءُ.

إِذَنْ: حَكيم مُشْتَقَّة مِنَ الحُكْمِ والإحكامِ، والحُكْم المتَّصِف به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَنقسم إِلَى قسمينِ: كَوْنِيّ وشَرْعِيّ، ولكلٍّ مِنْهما حُكم، فالحُكْمُ الشَّرْعِيّ لا يَلزَم منه وُقوع المحكومِ به؛ لِأَنَّهُ قد يَقَع وقد لا يقعُ، والحكمُ الكونيُّ يَلزَم منه وقوعُ المحكومِ

به بكلِّ حالٍ. أَمَّا انقسامها من حَيْثُ الكراهةُ والبُغْضُ للهِ فنَقُولُ: كلاهما محبوبٌ ومكروهٌ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالحكم الشَّرْعِيُّ منه محبوبٌ ومنه مكروهٌ، بمعنى المحكوم به، يعني مثلًا حَكَمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتحريمِ الزِّنَا لِأَنَّ الزِّنَا مكروهٌ إليه، وحَكَمَ بوجوبِ الصَّلَاةِ لِأَنَّ الصَّلَاة محبوبةٌ إليه، وَأَمَّا نفسُ الحُكْم الَّذِي هُوَ فِعْلُه فهَذَا أمرٌ معروفٌ أَنَّهُ ما حَكَمَ بهَذَا الشَّيْءِ إِلَّا وَهُوَ يحبُّ أن يَكُونَ كذلك؛ فيحب ترك الزِّنَا ويحب فِعْلُ الصَّلَاة.

أَمَّا بالنِّسْبَةِ للإحْكَام، فالإحكامُ بمعنى الإتقان، وهو الحِكْمة، أي تَنْزِيل الأَشْيَاء فِي مَنَازِلها ووَضْعها فِي مَوَاضِعها، فلَا شَكَّ أنَّ هَذَا إتقانٌ، واللهُ تَعَالَى متَّصِفٌ بالحِكْمَةِ البالغةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر:٥]، فهي وضعُ الأَشْيَاءِ فِي مواضعها.

وقد ذَكَرْنا فِي التَّوحيدِ ونُعيده الْآنَ للتذكيرِ؛ أنَّ الحِكْمَةَ تكونُ فِي صورةِ الشَّيْءِ، وَفِي غايتِه؛ فِي صورة الشَّيْءِ ووقوعِهِ عَلَى هَذَا النحو، وتكونُ أيضًا فِي غايةِ هَذَا الشَّيْء، وتكونُ الحِكْمَةُ فِي الأُمُور الشَّرْعِيَّة وَفِي الأُمُور الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الحُكْمين السابقينِ -الكونيّ والشرعيّ- كلاهما مُشتمِل عَلَى الحِكمةِ، فعلى هَذَا تكون الحِكْمَة فِي الأحكامِ الكونيَّة وَفِي الأحكام الشَّرْعِيَّة، وتكون صوريَّة، بمعنى أَنَّهُ عَلَى هَذِهِ الصورة المعينة حِكمة، وغائيَّة بمعنى ما ينتج منه من الغايات المحمودةِ.

عندما تَتَأَمَّل الشَّرِيعَة تَجد أنَّ وَضْعَها عَلَى ما هِيَ عليه فِي غايةِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّهَا كلَّها تَنْشُدُ المصالحَ وتَدْرَأُ المفاسدَ، هَذِهِ القاعدة الْعَامَّة فِي الشَّرِيعَة. إذن فهي عَلَى هَذَا الوجهِ أو بهَذِهِ الصورةِ موافِقَةٌ للحِكمة.

ثم هناك الحِكْمَة الغائيَّة: فثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّرِيعَة والتمسُّك بها هِيَ السعادةُ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَة، وهَذِهِ لَا شَكَّ أَنَّهَا غاية محمودةٌ، وأن تشريعَ الأُمُورِ من أجلِ هَذِهِ الغايةِ حِكْمَةٌ.

كذلك نأتي إِلَى الأُمُور الْقَدَرِيَّة، نَقُول: الأُمُور الْقَدَرِيَّة أيضًا وَضْعُها عَلَى ما هِيَ عليه بهَذِهِ الصورةِ هُوَ حِكْمة، ثُمَّ الغاية مِنْهَا حِكْمَة أيضًا، ولكِن هَذِهِ الحِكْمَة فِي صورةِ الشَّيْءِ وَفِي غايةِ الشَّيْءِ شَرعًا أو قَدَرًا قد تكونُ معلومةً للعبادِ، وقد تكونُ مجهولةً. وفَرْضُنَا نحن فيما نَجْهَلُه من حُكْمِ هَذِهِ الأُمُورِ الإِيمانُ والتسليمُ، نحن نؤمنُ بأنَّه ما من شيءٍ يَشْرَعُه الله وما من شيءٍ يَفْعَلُه الله إِلَّا وله حِكْمَةٌ، ويَجِبُ علينا أنْ نُؤْمِنَ بهَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا مقتضَى وصفِهِ بالحكيم، لَكِنَّنَا قد نفهم هَذَا الشَّيْء وقد لا نفهمه، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ لا تُؤتى كُلَّ النَّاسِ ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، لكِنْ عَلَيْنَا أنْ نُؤْمِنَ هَذَا الإِيمانَ، ونحن إذا آمنَّا هَذَا الإِيمـان فسوفَ نَسْتَسْلِمُ وسوفَ نَرضى بالشرعِ وبالقدرِ؛ لأَنَّنا نعلم أن هَذَا لحكمةٍ.

عندما نَتَأَمَّل الْآنَ أحوال المُسلِميـنَ وضَعْفَ دِينِهم وانصرافَهم عنِ الدِّينِ، لَا شَكَّ أن هَذَا يُهِمُّنا ويُحزِننا، ولَكِنَّنَا إذا نَظَرْنا إليه من جهةٍ أخرى وجدنا أَنَّهُ مقدَّر من جهةِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أن يَكُونَ، فلهَذَا حِكْمَةٌ لَكِنَّنَا قد لا نَعْلَمُها نحنُ. وهَذَا يَجِب أن تَجْعَلَه جاريًا عَلَى جميعِ أحوالِكَ الخاصَّة والْعَامَّة، أنك تَتيقَّن أنَّ هَذَا لِحِكْمَةٍ، ولكِن تَيَقُّننا للحكمةِ لا يَمْنَعُنا من فعلِ الأَسْبَاب الشَّرْعِيَّة الَّتِي أُمرنا بها.

ومثالُ ذلك هَذَا المثال الَّذِي ذَكَرْنا؛ مسألة ضَعْف المُسلِمينَ وانْصِرافِهم، هَذَا يُوجِب لنا أن نَتحرَّكَ أكثر للدعوةِ إِلَى الإِسْلامِ وبَيَان محاسنِهِ، والتحذيرِ من مخالفتِه،

وسُوءِ العاقبةِ للعُصاةِ والفاسقِينَ، وهَذَا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ يَتَحَرَّكَ أهلُ الخير للدعوةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وبيَان الحقّ وبيَان العاقبةِ الحميدةِ لِمَن تَمَسَّكَ بدينِ اللهِ؛ لأجل أنْ يَكْثُرَ ثوابُهم ولأجلِ أنْ يَدْخُلَ النَّاس فِي دين اللهِ عنِ اقتناعٍ؛ لأني أتصوَّرُ أن النَّاس لو مثلًا وُجِدُوا عَلَى حالةٍ معيَّنةٍ فهم لا يُدْرِكُون هَذِهِ الحالة المعينة عَلَى حقيقتها؛ لِأَنَّهَا أمرٌ معتادٌ عندهم، وقد لا يَفهمون ما يَنْتُجُ عنها من خيرٍ أو من شرٍّ، لكِن عندما يُوغِلون فِي الشرّ ويَنتَهُون إِلَى غايتِه، ثُمَّ يُبيَّنُ لهم الحقّ ويَرجعون إليه، يَكُون هَذَا أحسنَ حالًا منَ الحالِ الأُولى، وهم الَّذِينَ وجدوا آباءَهم عَلَى شيءٍ فَمَشَوا عليه؛ لِأَنَّهُم الْآنَ سوف يأتون عنِ اقتناعٍ وعن محبَّة لهَذَا الأَمْرِ الجديدِ الَّذي بُيِّن لهم.

ولذلك الْآنَ -والحمدُ لله- هُنَاكَ بادرةٌ طيِّبة فِي جميعِ الأقطارِ الإِسْلاميَّة، وهي بادرةُ الرجوعِ إِلَى الإِسْلامِ عنِ اقتناعٍ، ولَا شَكَّ في ذلك، وهَذَا منَ الحِكْمَةِ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُقَدِّر مثل هَذِهِ الأُمُورِ المكروهةِ فِي الدينِ لأجلِ أنْ تكونَ غايةً لِما هُوَ أحمدُ.

قوله: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ العليم معناه المتَّصِف بالعِلْم، والعلمُ كما حدَّه أهلُ الأصولِ: هُوَ إدراكُ الشَّيْءِ عَلَى ما هُوَ عليه إدراكًا جازمًا مطابقًا. ولَا شَكَّ أنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ له مِن هَذَا الوصفِ أَتَمُّه وأعلاهُ، فَهُوَ عليمٌ عِلمًا مُطْلَقًا، لم يُسْبَق بجهلٍ ولم يُلحَق بنسيانٍ، ولا يُحَدُّ بحدٍّ. وعلم المخلوق مسبوقٌ بالجهلِ وملحَقٌ بالنسيانِ ومحدودٌ أيضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٨٥]، بخِلافِ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وهنا قُدِّمَ الحكيمُ عَلَى العليمِ، وأكثر ما يَرِد فِي القُرْآن تقديمُ العليمِ عَلَى الحكيمِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ من تقديمِ الحكيمِ هنا عَلَى العليمِ؟

نَقُول: الْقُرْآنُ مُشتمِلٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ، والشَّرِيعَةُ فيها أوامرُ ونواهٍ، وإذا لم نَعْتَقِدْ أنَّ هَذِهِ الأوامرَ والنواهيَ مبنيَّة عَلَى الحِكْمَةِ فَإِنَّهُ يَضعُف انقيادُنا لها، فلهَذَا قدّم الحِكمةَ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ مِن قولِهِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لِأَنَّهُ بمجرَّد تَلَقِّي الْقُرْآنِ يَكُونُ العلمُ. لكِن هل هَذَا الموجود فِي الْقُرْآن موافِقٌ للحِكْمة؟

نعمْ هُوَ موافِقٌ فِي الواقعِ، ولذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أنْ يَشعرَ الْإِنْسَانُ قبلَ كُلِّ شيءٍ بأنَّ ما تَلَقَّاه الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِنَ الْقُرْآن هو حِكمةٌ.

نظير ذلكَ فِي سورةِ الذَّارِيَات قَالَ تَعَالَى: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٢٩-٣٠]، ولم يَقُلِ: العليمُ الحكيمُ؛ لِأَنَّ ولادةَ العجوزِ أمرٌ خارجٌ عنِ العادةِ، وعن المألوفِ، فكيف تَلِد العجوز ولماذا؟! فقُدِّمَتِ الحِكْمَةُ لأجلِ أن يشعرَ الْإِنْسَان قبل كُلّ شيءٍ أن هَذَا الأَمْرَ النادرَ الخارجَ عنِ العادةِ صادرٌ عن حكمةٍ وَلَيْسَ عن سَفَهٍ ولا عن صُدْفَةٍ.

إِذَنْ: هَذِهِ الآيَةُ نَقُول في مثلها: قدّم اسمَ الحكيمِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى وصفِ اللهِ تَعَالَى بالحِكمة فِي هَذَا المقامِ؛ لِأَنَّ ما يُلَقَّاه الرَّسُول ﷺ من الْقُرْآن مُشْتَمِل عَلَى التشريعِ الَّذِي يَحتاج إِلَى بَيَان الحِكْمَةِ فيه، حَتَّى يَقتنع به المرء، فلذلك قُدِّمَتِ الحِكْمَةُ عَلَى العلمِ. أَمَّا العلمُ فَإِنَّهُ مفهومٌ من كلمةِ (تُلَقَّى)؛ إذ إِنَّهُ إذا لُقِّيَ الْقُرْآن فقد عَلِم، لذلك صار العلم فِي المرتبةِ الثَّانِيَةِ.

مسألة: ما هِيَ الحِكْمَةُ من جمع الحِكْمَةِ والعلمِ: حكيم وعليمٌ، ودائمًا فِي الْقُرْآنِ تجد أن الحكيم مقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، ويُقْرَن بالعزيزِ (عزيز حكيم) أيضًا، فما هِيَ الحِكْمَة من ذلك؟

الجواب البيِّن أن نَقُول: إن الحِكْمَةَ قد تَخفى عَلَى بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤها علينا هنا لا يَقتضي أَنَّهَا ليستْ معلومةً عند اللهِ، فكأنه جمعَ بينهمـا لِيَتَبَيَّنَ أن هَذِهِ الحِكْمَةَ معلومةٌ عندَ اللهِ، وإنْ خَفِيَتْ علينا، فَهُوَ حكيمٌ عليمٌ يَضَعُ الأَشْيَاءَ فِي مواضِعِها، وإنْ خَفِيَ علينا ذلك. فلا نَقُول: إنَّهُ إذا شَرَعَ الله شيئًا أو قضَى بشيءٍ فهَذَا لَيْسَ عن علمٍ؛ بل هُوَ عن علمٍ، حَتَّى لو فُرِض أننا نحن لم نعلمْ حِكمته ووجهته، فهَذَا هُوَ وَجه الجمعِ فِي الْقُرْآنِ الكريمِ فِي آياتٍ كثيرةٍ بينَ العلمِ والحِكْمَةِ.

الخلاصة أن نَقُول: لَمَّا كانت الحِكْمَة تَخفى عَلَى العبادِ قَرَنَها الله تَعَالَى بالعلمِ لِيَطْمَئِنَّ المرء إِلَى أن هَذِهِ الحِكْمَة معلومةٌ عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانتْ خافيةً علينا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التأكيد بـ(إن) و(اللام) عَلَى أن الْقُرْآن من عندِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الْقُرْآن كلامُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ نزل من لدنه، والْقُرْآن صفة المتكلّم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: دفاع الله تَبَارَكَوَتَعَالَى عَن أهلِ ولايته؛ لِأَنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ دفاع من الله جَلَّوَعَلَا عن الرَّسُول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات العلم والحِكْمَة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات نبوَّته ورسالته.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: مُراعاة المقام فِي التَّعبير يُعتبر من الفصَاحة، فغالب الآيَاتِ يقدّم العلم عَلَى الحِكْمَة، وأحيانًا تُقدَّم الحِكْمَة عَلَى العلمِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ حِكمة اللهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى مَبْنِيَّةٌ عَلَى العلمِ، والظَّاهر أن العلمَ سابِقٌ حَسَب ذِهن الْإِنْسَان، فإن العلم يَسبق الحِكْمَةَ، كيف تدري هَذَا مناسب

أو غير مناسب؟ إذا علِمتَ أَنَّهُ مناسب ووضعتَه فِي محلّه، المهم أن حكمة الله تَعَالَى ما جاءتْ عَفْوًا، قد يفعل الواحدُ مِنَّا الشَّيْءَ ويَكُون هَذَا الشَّيْء فِي مَوْضِعِه، لَكِنَّهُ قد يَكُون جاء عفوًا، كما يَقُول النَّاس: (عميان طاحَ فِي خِرْقَةٍ) لكِن حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صادرةٌ عن علمٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إقناعُ النَّاسِ بما يَقضيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِن قضاءٍ قَدَرِيّ، أو قضاءٍ شَرْعِي، وجهُ ذلكَ: أننا إذا علِمنا أَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّم ونَرْضَى ولا نَقُول: لِمَ وكيف؟ فإنْ علِمنا الحِكْمَةَ فهَذَا منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ يزيدُ فِي طُمأنينةِ العبدِ، وإذا لم نَعْلَمْ فإنَّنا نَجْزِم أَنَّهُ لِحكمةٍ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧)

• • ܓ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:٧].

• • ܓ • •

قوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ﴾]، وهَذِهِ طريقتُه، وهي أيضًا معروفةٌ عندَ النحْويِّين أنَّ ﴿إِذْ﴾ ظرف، والظرفُ لَا بُدَّ له من عاملٍ، وَهُوَ المتعلّق، فيقدِّرون: (اذْكُرْ) دائمًا فِي مثل هَذَا التركيبِ: اذكر ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾.

وموسى معروفٌ أَنَّهُ هُوَ ابنُ عِمران، لكِن ما هُوَ الجواب البيِّن.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إن موسى أخو مَرْيَمَ؟ لِأَنَّ هَذَا موسى بنُ عِمْرَانَ، وهي مَرْيَم بنتُ عِمرانَ، وموسى أخو هَارُون، واللهُ تَعَالَى يَقُول: ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

نَقُول: إنهم يُسَمُّون بأسماءِ أنبيائِهم، والتاريخُ كما هُوَ معروف بينَ موسى ومَريمَ بعيدٌ جدًّا، فموسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ هُوَ أفضل أنبياء بني إسرائيلَ، ويقع بين أُولِي العَزْمِ فِي المرتبةِ الثَّالثةِ؛ لِأَنَّ أولي العزمِ منَ الرُّسُل -عليهم الصَّلَاة والسلام- أفضلهم النَّبِيّ ﷺ، ثُمَّ إبراهيم، ثُمَّ موسى، ثم عيسى ونوح؛ لا يجد الْإِنْسَان بينهما مفاضلةً؛ لِأَنَّ لكلِّ واحدٍ منهما مَزِيَّة ليستْ للآخَرِ، ولهَذَا لا نُرَجِّح واحدًا منهما عَلَى الآخَرِ، أَمَّا الأَوَّلون الثلاثة فالترجيحُ بينهم واضِحٌ.

وأَمَّا قوله تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ

وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى:١٣]، فالظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ نوحًا قُدِّم هنا لِأَنَّ رسالته أوَّلُ الرسالاتِ، وَلَيْسَ لِأَنَّهُ أفضلُ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ أوَّلُ رسولٍ، والترجيح هنا لبيَان الفضلِ، أَمَّا المفاضَلَةُ عَلَى سبيلِ المفاخَرَة فلا تجوز، ومثال ذلك قِصَّةُ اليهوديِّ مَعَ المسلمِ(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل مَريم كَانَ لها أخ اسمه هارون كما في قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم:٢٨]؟

فالجواب: بلى.

لكِنْ لَوْ قِيلَ: إنَّ أُمَّها نَذَرَتْ ما في بطنها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

فالجواب: يجوز أن يَكُون أخًا من أبيها.

قوله(٢): ﴿لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ...﴾ إِلَى آخر القصةِ، وهَذَا من جُملةِ ما يُلقَّاه النَّبيّ ﷺ من الْقُرْآن، وهي قَصَص الأَنْبياء، وفائدة ذِكر هَذِهِ القصصِ ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي سورة يُوسُف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ﴿عِبْرَةٌ﴾ نَعتبِر بها فِي أحكامها وَفِي عواقبها، ولهَذَا الصَّحيحُ أن ما ذُكِر فِي هَذا القَصَص

---

(١) نص الحديث عن أبي هريرة: اسْتَبَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى الْعَالَمِينَ، فِي قَسَمٍ يُقْسِمُ بِهِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ، فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ عِنْدَ ذَلِكَ يَدَهُ فَلَطَمَ الْيَهُودِيَّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ: «**لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ بِجَانِبِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ**».
أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب وفاة موسى وذكره بعد، رقم (٣٤٠٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، رقم (٢٣٧٣).

(٢) بداية الملف الثاني الوجه الثاني.

من الأحكام فَإِنَّهُ يجوز لنا أنْ نَتَّبِعَه وأنْ نَقْتَدِيَ به؛ لِقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

كذلك نَعتبِر بما جَرَى منَ العواقب للرسُل وأتباعهم، وما جَرَى من العواقب لمخالفيهم، ومعلومٌ أن عاقبةَ الأوَّلِينَ عاقبةٌ محمودةٌ، وعاقبةَ الآخِرين عاقبةٌ سيِّئة.

فمن جُملة القَصَص الَّتِي كثُر ذِكْرُها فِي الْقُرْآن قِصَّة موسَى، ولا غَرْوَ أنْ تَكْثُر فِي السورِ المَدَنِيَّة؛ لِأَنَّ المَدينَةَ كَانَ بها طائفة منَ اليهودِ حَتَّى يَتبَيَّنَ أمرُهم، ولهَذا فُصِّلَت أحوالهم كثيرًا فِي سورة البقرةِ، وَأَمَّا ذِكرُ قِصَّة موسى فِي السورِ المكِّيّة كهَذِهِ السُّورَة فإن فائدتها التوطِئَة والتمهيد للنبيِّ ﷺ حَتَّى يَكُون عَلَى بَصيرةٍ من أمرِهِم.

وهَذَا التوجيه -وَهُوَ الاستعدادُ للمُسْتَقْبَلِ- سَلَكَهُ النَّبِيّ ﷺ أخذًا بتوجيهِ الْقُرْآنِ حينما قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»(١).

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ وقد تكلَّمنا عَلَى موسى ﷺ وَأَنَّهُ موسى بنُ عِمْرَان وَأَنَّهُ أفضلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِأَهْلِهِۦٓ﴾ زوجته عندَ مَسِيرِهِ مِن مَدْيَنَ إِلَى مِصْر]، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: زَوْجته، أفلا يَحتمِل أن يَكُون زوجته وأُمّه وأباه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

نَقُول: لا؛ لِأَنَّهُ خرجَ من مِصْرَ وحيدًا، ثُمَّ الْتَقَى بالمرأتينِ، ثُمَّ اتصلَ بأبيهما، ثُمَّ زَوَّجَه عَلَى أن يَأْجُرَهُ ثمانِيَ حِجَجٍ، وانتهتِ الحِجَج.

وبِهَذِهِ المناسبةِ بعضُ النَّاس يَظُنُّون أنَّ صاحبَ مَدْيَنَ هُوَ شُعَيْبٌ النبيُّ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وَلَيْسَ كذلكَ، فإن بينَه وبين موسى بُرْهَة منَ الزمنِ، وإنما صاحب مَدْيَن رجلٌ من أهلِ مَدْيَن، هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ بِلَا شَكٍّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ أبصرتُ من بعيدٍ ﴿نَارًا﴾].

قوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾ مَقُولُ القَوْلِ، ولهَذَا كُسِرَتْ (إنَّ)، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ءَانَسۡتُ﴾ أَبْصَرْتُ من بعيدٍ]، آنسَ بمعنى أبصرَ، وكونها من بعيدٍ لا يَدُلّ عليه اللفظُ فِي الحقيقةِ، اللَّهُمَّ إِلَّا أن يقالَ: إنَّ الإيناسَ لا يَدُلّ عَلَى القُرْب بسببِ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى الخَفَاء، والخَفَاءُ فِي النَّار لا يَكُونُ إِلَّا إذا كانتْ بعيدةً.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ السينُ للتنفيسِ، وقد ذَكَرْنَا فيما سبقَ أَنَّهَا إذا دخلتْ عَلَى الجملةِ -وهي طبعًا لا تدخُلُ إِلَّا عَلَى المضارعِ- تفيد أمرينِ، هما: القُرب والتحقُّق.

وقوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا﴾: ما الفرقُ بينَ (آتيكُمْ) و(أُوتيكُم)؟ آتيكم، أي: أَجِيئُكم، وأُوتيكُم بمعنى: أُعْطِيكم، نُصَرِّفها فِي غير الآيَة: أَتيتُ مضارعها: آتي، وآتيتُ مضارعها أُوتي.

فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿بِخَبَرٍ﴾ وَفِي آيَةٍ أُخرى قَالَ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه:١٠]، فهل بينهما فرقٌ، أو هما بمعنًى واحدٍ، وإن قُلْنَا بالفرق فما الجمعُ؟

الجواب: بينهما فرقٌ، والجمعُ: إذا قُلْنَا: إن (لعلَّ) للرجاءِ، فَهُوَ رجا أولًا ثُمَّ قوي وجَزَمَ به، وقال: ﴿بِخَبَرٍ﴾، هَكَذَا قَالَ بعضهم، لكِن يُمْكِن أنْ يَكُونا بمعنًى واحدٍ بدون اختلافٍ؛ لِأَنَّ (لعلَّ) تأتي للتوقُّع، وقد ذَكَرْنا فيما سَبَقَ فِي النحوِ أنَّ (لعلَّ) تكون للترجِّي والإشفاق والتعليل والتوقُّع، وإذا كانت للتوقُّع صار معناها التَّوْكيد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عن حالِ الطريقِ، وَكَانَ قد ضَلَّها]، هَذَا واضحٌ، فالخبرُ الَّذِي يريد هو خبرُ مَن يَدُلُّه عَلَى الطريقِ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قد ضلَّها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ بالإضافةِ للبَيان وتركها[1]]، أي: ترك الإضافة، ففيها قراءتانِ: «أَوْ آتِيكُم بِشِهابِ قَبَسٍ» أو قراءة ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، أَمَّا قراءة «بِشِهَابِ قَبَسٍ» فهي للبَيَان كما قَالَ المُفَسِّر، والإضافة إذا كانت للبَيَان فهي عَلَى تقدير (مِن) مثلما يقال: خاتَمُ حديدٍ، أي: خاتمٌ من حديدٍ، فهنا قوله: (شهابِ قَبَس)، أي: شهابٌ من قبس؛ لِأَنَّهَا بَيَانيَّة، وإذا جعلناها: (شِهابٍ قَبَسٍ) صارت قَبَس صِفَة لِشِهَاب، صفة مبيِّنة أيضًا، فيَكُون الإضافةُ والقطعُ بمعنًى واحد.

في قوله: ﴿أَوْ ءَاتِيكُم﴾ هل (أو) هَذِهِ مانعة جمع أو مانعة خُلُوّ؟

والفرقُ بينهما أن مانعة الجمع معناها أَنَّهُ ما يَكُون إِلَّا أحد الأَمْرينِ؛ إِمَّا هَذَا أو هَذَا، ومانعة الخلوّ مَعناها ما يَخْلُو الأَمْرُ من واحدٍ منهما، أو منهما جميعًا، وهي تُشبِه قول النحْوِيِّين: إِنَّ (أو) تأتي للإباحةِ وللتخييرِ، قَالُوا: إذا كانت فِي سياقِ الطلبِ تقول: تزوَّجْ هندًا أو أُختها، فـ(أو) هنا للتخيير وليس للإباحة، وتقول: جالِسْ فلانًا أو فلانًا، وكُلْ خبزًا أو رُزًّا، فـ(أو) هَذِهِ للإباحةِ، والَّتي للإباحةِ لا تَمنَع الجمعَ، و(أو) الَّتِي للتخييرِ تَمنَع الجمعَ، وإذا كانت (أو) فِي خبر جمع فإنَّهم يُسَمُّونها مانعة خُلُوٍّ أو مانعة جَمع.

إِذَنْ: هِيَ مانعة خلوّ، بمعنى أَنَّهُ يمكن أنْ يَأْتِيَهم بالأَمْرينِ جميعًا: الدلالة، والشهاب القَبس، وفُهِمَ من هَذَا الكَلامِ ﴿ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٦٩).

الليلةَ كانت باردةً، وما أحوجَ الضالَّ للطريقِ فِي ليلةٍ باردةٍ إِلَى نارٍ يَصطلي بها، وإلى أهل نار يُخبِرونه عن الطريقِ؛ لِأَنَّ النَّار معلومٌ أَنَّهَا ما تكون وحدَها، لَا بُدَّ أن عندها أحدًا يُخْبِر.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: شُعلة نار فِي رأس فَتيلة أو عُـود]. هَذَا الشهاب القَبَس، والقبس الَّذِي يُقتبس منه، وهَذِهِ تكون كما قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شُعلة نار فِي رأسِ فَتيلة أو عودٍ.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لعلَّ هنا للتعليل، أي: لأجلِ أنْ تَصْطلوا بها، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [والطاء بـدلٌ من تاءِ الافتعالِ]، فاصطلى أصلُه (اصتلى) بالتاء عَلَى وزن افْتَعَلَ، لكِن أُبدلتِ التاءُ طاءً لسببٍ صرفيّ.

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ بالطاء بدل تاءِ الافتعالِ من صَلِي بالنَّار بكسرِ اللامِ وفتحها -صلَى- تَسْتَدْفِئون مِنَ البَرْدِ]، وما أحلى النَّارَ الَّتِي يَصطلي بها الْإِنْسَان فِي حالِ البردِ، ولهَذَا يَقُول المثل: (النَّار فاكهة الشتاء، والْمُكَذِّبُ يَصْطَلِي)، وهذا صحيحٌ ومشاهَدٌ.

ذهب موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وبقِيَ أهلُه فِي هَذَا المكانِ، وذهب هُوَ وحدَه إِلَى النَّارِ لعلَّه يأتيهم بالخبرِ أو بالشِّهاب.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الحِكْمَة فِي كون موسى ﷺ أُري هَذِهِ النَّار فِي هَذَا المكان؟

فالجواب: لعلَّ من الحِكْمَةِ أنَّ ذلك المكان بالذاتِ فِي الوادي المقدَّس، فهَذَا الوادي مبارَك ومقدَّس، فصارَ ابتداء الوحيِ من ذاكَ المكانِ، وَأَنَّهُ كَانَ ﷺ بعيدًا منه، وموسى ﷺ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حُسْن خُلُق موسى ﷺ وذلك لمكالمتِه لأهلِهِ ومراجعته إيَّاهم بما يهمّ الجميع. يعني أَنَّهُ لم يَذْهَبْ هُوَ بدونِ أنْ يقولَ لهم هَذَا القَوْلَ، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ يَتَرَاجَع معَهم فيما يُهِمُّهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي هَذَا دليل عَلَى أن الزوجةَ مِنَ الأهلِ، وهَذَا هُوَ القَوْل الصَّحيح. فعلى هَذَا آلُ النَّبِيّ ﷺ يدخل فيهم أزواجُه؛ لِأَنَّ الزوجةَ منَ الأهلِ.

وقدِ اختلفَ العُلَماءُ فيما إذ أوصَى الْإِنْسَان لأهلِهِ أو أوقفَ لأهلِهِ، هل يدخلُ الزوجاتُ فِي ذلكَ أمْ لا؟ والَّذِينَ يَقُولُونَ بعدمِ الدخولِ يَرُدُّون ذلك إِلَى العُرف، ويَقُولُونَ: إنَّ العُرْفَ عند النَّاسِ أنَّ الزوجاتِ لَيْسُوا مِنَ الأهلِ، وإنَّما الأهلُ القرابة.

وإذا كَانَ هَكَذَا فَإِنَّهُ يقال: الزوجاتُ مِنَ الأهلِ، فإذا أوقفَ الْإِنْسَان عَلَى أهلِ فلانٍ، أو أَوْصَى لهم، دخل فيهم الزوجاتُ بِمُقْتَضَى اللُّغةِ. ثُمَّ إنْ وُجِدَ عُرْفٌ مُضْطَرِدٌ ينافي ذلك رَجعنا فِيهِ إِلَى العرفِ؛ لأنَّ الصَّحيح أنَّ الأقوال تُرَدُّ معانيها إِلَى أعرافِ النَّاسِ وعاداتهم، فإذا لم يُوجَدْ عُرف رجعنا إِلَى الشرع أو اللُّغة، حَسَب ما يَكُون ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الأحوال البَشَرِيَّة تَطْرَأُ حَتَّى عَلَى الأَنْبِياء عليهم الصَّلَاة والسلام، فإنَّ موسى فِي تلك الليلةِ كَانَ قد ضلَّ الطريقَ ولم يهتدِ إليه، وقد أصابَهُ البردُ هُوَ وأهله. والأَنْبِياء والرُّسُل لا يَختلفون عن غيرهم إِلَّا فِي الرسالةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت:٦]، فالأوَّل: المُماثَلَة فِي البشريَّة، والثاني: الاختصاص بالوحي.

فائدة: النبوَّة فوق معرفة الله والتعبُّد له.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الْإِنْسَان لا يُلامُ عَلَى اتِّخاذِ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافِعة؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وهَذِهِ الوقاية دافعةٌ رافعةٌ؛ رافعة للبردِ السابق، ودافعة للبـردِ اللاحِق. فاتخاذ الوقايةِ الدافعةِ أو الرافعةِ لا يُلامُ عليه الْإِنْسَان، بل إِنَّهُ ربما يُؤْمَر به أمرَ إيجابٍ أو أمر استحبابٍ، حَسَبَ ما تَقتضيه الحالُ الَّتِي يريد أن يرفعها أو يَدْفَعَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قَبُول خبرِ الثقةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فالعَمَلُ بخبرِ الثقةِ هَذَا سائغٌ، وَأَمَّا مَن لَيْسَ بثقةٍ فقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

والنَّاس فِي هَذَا المقام ثلاثةُ أقسامٍ: قِسم يُوثَق به، وقسم لا يُوثَق به، وقسم مُحْتَمل. الَّذِي لا يوثق به لا يُقبَل، والموثوق به يُقبَل، والمجهول أو المحتمل يُتَوَقَّفُ حَتَّى يَتبَيَّنَ أَمْرُه.

والكَلام هنا عَلَى من يُوثَق به عامَّة أو خاصَّة، فقد يَكُون هَذَا الْإِنْسَان معلومَ الحالِ عندي فأثِق به، وَهُوَ عندَ النَّاسِ مجهولٌ يَتَوَقَّفُون فِي أمرِه، فالثِّقَة هُوَ الَّذِي تثِق به.

مسألة: لو أنَّ رجلًا نظرُه ضعيفٌ، أخبرَ أَنَّهُ رأى الهلالَ، والنَّاسُ الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ؟

لا يُقبل قولُه، ولو كَانَ عَدْلًا، ولهَذَا وقعَ عندَ بعضِ القُضاة فيما سبقَ أنْ تراءى النَّاس الهلالَ فقال شيخ منهم: إني رأيتُ الهلالَ، والنَّاس الَّذِينَ معه أَقوَى منه بَصَرًا

فقَالُوا: ما رأيناهُ. وهَذَا الشيخ فِي حدِّ دينه وأمانتِه موثوقٌ به، وأصـرَّ عَلَى أَنَّهُ رأى الهلال، فقال القاضي: ادْنُ منِّي. فدنا منه، فمَسَحَ حاجبَه، فقال له: انظُرْ، قَالَ: الْآنَ لا أراه. فإذا هِيَ شعرةٌ بيضاء. وهَذَا من ذكاءِ القاضي؛ لِأَنَّهُ قَالَ: كيف أن النَّاس الَّذِينَ معه ما رَأَوْهُ وَهُوَ رآهُ؟! هَذَا لا يمكِن، وَهُوَ ثِقَةٌ وَلَيْسَ برجلٍ مشكـوك فِي خَبَره، لكِن قد يَهِمُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قوله: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا﴾ موسى ﷺ يخاطِب أهلَه، ففيه دليل عَلَى مخاطبة الواحدِ بلفظِ الجمعِ، وهَذِهِ فائدة لُغَوِيَّة.

• • ۞ • •

الآيــة (٨)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٨].

• ● ● •

قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ﴾: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا﴾ الجملة فيها حذفٌ، والتَّقْدير: فذَهَبَ فلمَّا جاءها. ويُسمَّى هَذَا الإيجاز إيجازَ الحَذْفِ؛ لِأَنَّ الإيجازَ عندهم فِي البلاغةِ إمَّا إيجاز قَصْرٍ وَإِمَّا إيجاز حَذْف، فإذا كانت الجملة القصيرةُ تَشتمِل عَلَى معانٍ كثيرةٍ بدون حذفٍ يُسمَّى إيجاز قَصْرٍ، كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، هَذِهِ جملةٌ مُخْتَصَرَةٌ، لَكِنَّها تَتَضَمَّنُ معانيَ كثيرةً، يُسَمِّي علماءُ البَيان هَذَا إيجازَ قَصْر، وَهُوَ أن تكونَ الجملةُ قصيرةً لَكِنَّها مُتَضَمِّنة لمعانٍ كثيرةٍ، فإيجازُ الحذفِ مَعناه قِصَر الجملةِ لكِن الجملة نَفْسها لا تَتَضَمَّن معانيَ كثيرةً إِلَّا بتقديرِ أَشْيَاءَ محذوفةٍ. فقولُه هَذَا من إيجاز الحَذْفِ، وأمثلته فِي الْقُرْآن كثيرةٌ، مثل قولِه تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤]، فيها إيجاز حذفٍ، التَّقْدير: (فأفطرَ فعِدَّة من أيَّامٍ أُخَرَ).

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ﴾ أي: بأنْ ﴿بُورِكَ﴾ أي: باركَ اللهُ ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: مُوسَى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة أو العكس].

﴿نُودِىَ﴾ المنادي هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الدَّلِيلُ: أَنَّهُ فِي آيَةٍ أُخرى صرَّح بذلك:

﴿وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢]، فالمنادي هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، والنداء لا يلزَم منه القُرب أو البُعد، وقد يَكُون الله ناداهُ من بَعيدٍ ثُمَّ قرَّبه نَجيًّا، مثلما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

وقوله: [﴿أَنْ﴾ أي: بأن]، أفادنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ (أنْ) هنا مخفَّفة من الثقيلةِ، حينما قَدَّرَ (الباء)؛ لِأَنَّ تقديرَ الباءِ يَدُلّ عَلَى أَنَّ ما بعدها مؤوَّل بمصدرٍ، وهناك قولٌ آخرُ حيثُ يجعلونَ (أنْ) هنا تفسيريَّة، مثل قوله تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ ﴾ [المؤمنون:٢٧]، ويَقُولُونَ: إن ﴿نُودِىَ﴾ متضمِّن لمعنَى القَوْلِ دونَ حروفِهِ، و(أنْ) إذا سُبقت بما يَتَضَمَّنُ معنى القَوْل دون حروفِه فهي تفسيريَّة، ولكِن المَعْنى مِن حَيْثُ المَعْنى واحدٌ، إِنَّمَا الاختلاف فِي الإعرابِ.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولنا: إن (أن) تفسيريَّة أَلَا يَدُلّ عَلَى أن المناداةَ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّة؟

فالجواب: لَمَّا سِيقتْ باللُّغةِ العربيَّة أَخذتْ حُكْمَ اللُّغة العربيَّة، والتفسير فِي الحقيقةِ لكلِّ الكَلامِ، يعني ترجمة الكَلام الَّذِي وقعَ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى فِي كُلّ هَذِهِ الجمَل، وَلَيْسَ فقط فِي قولِه: (بُورِكَ).

قوله: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي بارك الله ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾]، قدَّر هَذَا لِيُبيِّن أن فاعلَ البركةِ هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، وأَنَّ (بارك) يتعدَّى بنفسِه، يقال: بارك الله فلانًا، كما يقال: بارك اللهُ بفلانٍ، فَهُوَ يتعدَّى بنفسِه ويتعدَّى بحرف الجرِّ.

قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: ﴿مَن﴾ إعرابها بدونِ تقديرِ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ اسمٌ موصولٌ فِي محلِّ رفع نائب فاعلٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الملائكة، أو العكس]: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ أي: الملائكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: موسى، واحتمال ثالث أن يَكُون ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ موسى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ البلاد الَّتِي حول هَذِهِ النَّار؛ لِأَنَّ بلاد الشامِ مُبارَكَةٌ، أو ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَهْله. كُلّ ذلك فِيهِ احتمالٌ.

قوله: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ فِيهِ إشكالٌ فِي الحقيقةِ؛ لِأَنَّ (فِي) للظرفيَّة، والنَّار ظرف، فهل موسى فِي النَّار؟ المُفَسِّر قدَّر لهَذَا فقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وبارك يَتَعَدَّى بنفسِه وبالحرفِ، ويُقَدَّر بَعْدَ (فِي) مكان]، يَعْنِي: (مَنْ فِي مكانِ النَّار)؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ فِي النَّار حقيقةً لاحترقَ ولكِن يُقدَّر (مكان).

فإذا قيل: ما الفائدةُ مِن قولِهِ: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ وحَذْف المَكان؟

قُلْنَا: الفائدة من ذلك -واللهُ أَعْلَمُ- شيئانِ:

الشَّيْء الأول: القُرْبُ التامُّ منها، والشَّيْء الثاني: أنّ شعاع النَّار قد وصلَ هَذَا القريب منها؛ لِأَنَّ النَّار كما هُوَ معروف لها شُعاعٌ، والْإِنْسَان القريبُ مِنْهَا يَكُون فِي نفسِ الشعاعِ، فكأَنَّه لِقُرْبِه ووصول شُعاع النَّار إليه صارَ كأنه فيها نفسها، وإلا فليسَ هُوَ فِي نفسِ الشعلة، هَذَا لا يمكِن، فهَذَا -واللهُ أَعْلَمُ- الحِكْمَة من كون الله جَلَّ وَعَلَا قَالَ: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾.

مسألة: كثيرٌ مِنَ المفسِّرين يُكْثِرُون حول هَذَا الموضوعِ ويَقُولُونَ: أرادَ أنْ يأخذَ مِنْهَا شيئًا فاتجهتْ إليه ثُمَّ انْقَلَبَتْ إِلَى نورٍ وهَكَذَا؟

الجواب: النَّار هنا نار حقيقيَّة، هَذَا هُوَ الأَصْلُ، وَأَمَّا قول مَن يَقُول: إِنَّهَا نورٌ، وإِنَّمَا هِيَ نارٌ فِي اعتقادِ مُوسى فنَقُول له: ما لنا أن نَقُولَ إِلَّا ما قَالَ الله، والله تَعَالَى

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قدير، ثُمَّ هَذِهِ النَّار لا ندري ما وَقُودُها، ما لنا أن نتكلَّم والله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فكلُّ عِلم يأتينا عن هذه الأمم من غير الْقُرْآن أو صحيح السنَّة فليس بشيءٍ، غاية ما هنالك أن يَكُونَ من أقوالِ بني إسرائيلَ الَّتِي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولهَذَا القَصص لا يجوز أن نتعدَّى فيها الْقُرْآن إِلَّا ما جاءتْ به السنَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، معناه: قطع أي خبر يأتي من غيرِ طريقِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ هناك أخبار صحيحة تأتي من غيرِ اللهِ لكان الله يعلمها، وهَؤُلَاءِ المخبِرون أيضًا يعلمونها، والله تَعَالَى حَصَرَ فقال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ وهَذَا من أقوى طُرُق الحصرِ الَّذِي هُوَ النفيُ والإثباتُ، قال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهَذِهِ الآيَة تُبيِّن لنا أنَّ كُلّ ما يُقَال فِي هَذِهِ القصة، وكذلك فِي قِصَّة سُلَيْمان وداودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وغيرهما؛ أَنَّهَا مسائل إن كَانَ الشرع يُنافيها أو مَقام النبوَّة ينافيها فهي باطلة وكذبٌ، كما فِي قِصَّة داودَ الَّتِي سَبقَتْ فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣] إِلَى آخرِه، وإن كَانَ لا يكذبها فموقفنا مِنْهَا أن نَقُولَ: لا نُصدِّق ولا نُكذِّب، أَمَّا أن نفسِّر بها كلامَ اللهِ فلا يجوز.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من جملة ما نُودِيَ، ومعناه تنزيه اللهِ منَ السُّوء]، يَقصد معنى التسبيح، ومعلومٌ للجميعِ أنَّ ﴿سُبْحَانَ﴾ اسْم مصدر، وأن عاملَه محذوفٌ دائمًا، وَأَنَّهُ مُلازِمٌ للإضافةِ، كُلّ هَذَا شَيْء معلوم وأن معنى ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن كُلِّ نقصٍ وعيبٍ، لكِن هل الجملة هنا خبَرِيَّة بمعنى الطلبِ أو خبريَّة عَلَى ظَاهِرِهَا؟

يقولُ بعضُ المفسِّرينَ: إِنَّهَا تَعجِيبٌ لموسى، بمعنى: اعْجَبْ وسَبِّحِ اللهَ تَعَالَى

عمَّا لا يليق به، وأن هَذَا الأَمْر الَّذِي رأيتَ والكَلامَ الَّذِي سمِعتَ ما هُوَ إلَّا كلامُ ربِّ العالمينَ، فسبحانَ الله ربِّ العالمينَ.

فعلى هَذَا تكون الجملة الخبريَّة هنا من حَيْثُ المَعْنى طَلَبيَّةً، أي: سَبِّحِ اللهَ ربَّ العالمينَ عمَّا لا يَلِيقُ به، وإذا قُلْنَا: إنَّهَا عَلَى ظاهرها صارَ معناها ثناءً مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ المُكَلِّم المُنَادِي عَلَى نفسِه، فأيّ المعنيينِ أشملُ؟ الأوَّل: أي أنَّها طَلَبِيَّة؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّن إذا أُمِرَ بها موسى أن اللهَ أهلٌ لها، فهَذَا هُوَ الخَبَر، وتَتَضَمَّن الزيادة الثانيَةَ، وهي تعجيبُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واعتقاده بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عن كُلِّ عَيبٍ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ما معنـى الربِّ؟ المالِك المتصـرِّفُ، لَكِنَّها أيضًا مُتضَمِّنة لمعنى أدَقَّ وَهُوَ التـربيَة، فَهُوَ يُربِّي مَعَ كونه مُدَبِّرًا خالقًا مُتصـرِّفًا، و(العالمين): كُلّ مَن سِوَى الله فَهُوَ من العالمين، وسُمُّوا عالَمِينَ قيل: لِأَنَّهُم عَلَم عَلَى خالقِهم ودليلٌ عليه؛ فإنَّ كُلّ ما فِي الكونِ شاهدٌ بوَحْدَانيَّة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبما تقتضيه هَذِهِ الأكوانُ من معاني رُبُوبيتهِ.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معناها أَنَّهُ يربِّي عبادَه تَرْبيَةً حِسِّيَّة ومَعْنوِيَّة، فالتَّرْبِيَة الحِسِّيَّة نَضرب لها مثلًا بالْإِنْسَان، كونه فِي الخِلْقَة يَتطَوَّر من شيءٍ إِلَى شيءٍ عَقلًا وجِسمًا وفِكرًا، فهَذِهِ تربيَة، ولو فَرَضْنا أن هَذَا الطفلَ الصغيرَ عَقْلُه كالكبيرِ، فلا يمكن أن يعيشَ؛ لِأَنَّهُ لا يَتحمَّل الأَشْيَاء الَّتِي تُقابله، مثلًا لو تركته أُمُّه وذهبت عنه لا يَستقِـرّ أبدًا، وبدأ يُدبِّـر ويقول: افعلوا كذا وافعلوا كذا، وكذلك بالعكسِ لو كَانَ الكبير بعقلِ الصغيرِ ما استطاعَ أن يعملَ شيئًا، وهَكَذَا أيضًا الطعام يأتي إِلَى الْإِنْسَان شيئًا فشيئًا، فهَذَا من التربية الحِسِّيَّة. وبالنِّسْبَة للتربية المعنويَّة فظاهرٌ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُربِّي عبادَهُ بالعلمِ النافع شيئًا فشيئًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾، والنداء لا يَلْزَمُ منه القُرْب أو البُعْد، فقد يَكُون الله ناداه من بعيدٍ ثُمَّ قَرَّبَهُ نَجيًّا كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: الفِعْل هنا مبنيٌّ للمجهولِ، لم يُبيَّن مَنِ المَنادِي، فلا دليلَ فِيهِ عَلَى كلام الله، فما الجوابُ؟

أولًا: التصريح فِي آياتٍ أُخرى، **وثانيًا**: أيضًا قوله فِي سياق الكَلامِ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلامَ اللهِ تَعَالَى بصوتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾ والنداء لا يَكُون إِلَّا بصوتٍ، ففيه ردٌّ عَلَى طائفتينِ تَقَدَّمَ قولها: الأشاعرة وَالْكُلَّابيَّة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن كلامَ الله تَعَالَى معنًى قائمٌ بنفسِهِ، وهَذَا القَوْل باطلٌ بأوجهٍ كثيرةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إيناس المُسْتَوْحِش، فينبغِي أن تقول له أو تفعل معه ما يُؤْنِسُهُ لِيَطْمَئِنَّ، ويَكُون قابلًا لما يُلْقَى إليه؛ لِأَنَّ المستوحِشَ لا يَقبل ما يُلقى إليه، بمعنى: أَنَّهُ لا يَتَمكَّن من قبوله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ فإنَّ إثباتَ البركةِ لِمن فِي النَّار ومن حولها يَزداد به طمأنينةً بلَا شَكٍّ، ولهَذَا أَوَّل ما خاطبهُ الله فِي هَذِهِ الآيَة قَالَ: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى تنزيهِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عمَّا لا يَليق به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى عمومِ رُبُوبِيَّة اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وهل معه ربٌّ آخرُ؟

لو كَانَ معه ربٌّ آخرُ لم يكنِ اللهُ تَعَالَى ربًّا للعالمينَ، بل ربًّا لبعضِ العالمينَ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ربُّ العالمينَ.

وقد ذكر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يَكُونَ مَعَ الله إلهٌ آخرُ عقْلًا، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ولم تَفْسُـدا، فدلَّ عَلَى امتناعِ تَعَـدُّدِ الآلهةِ، فامتناع فسادهما دلَّ عَلَى امتناع تَعدُّدِ الآلهة. وقال تَعَالَى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، وهَذَا أمرٌ لم يَكُنْ.

فإثبات وَحدانِيَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فِي رُبُوبيَّته معلـوم، حَتَّى المشـركون فِي عهد الرَّسُول ﷺ كانوا يُقِرُّونَ بوَحْدَانيَّته فِي الرُّبُوبيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ثناءُ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عَلَى نفسِه، وأن ذلك من كماله؛ فَإِنَّهُ أثنى عَلَى نفسه بِقَـوْلِهِ: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أثنى عَلَى نفسِهِ بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفي: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ والإثبات: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومن هنا نعرِفُ أَنَّهُ لا يَتِمُّ كمـال الأوصاف إِلَّا بهذينِ الأَمْرينِ، وهما: النفي والإثبات؛ لِأَنَّ إثبات الكمـالات فقط لا يَدُلّ عَلَى نفي النقائصِ، ونفي النقائص فقطْ لا يَدُلّ عَلَى إثباتِ الكمالاتِ، وباجتماعهما يَحصُل الكمالُ المطلَق، ولهَذَا قَالُوا: لَا بُدَّ من تَخْلِيَةٍ وتَحْلِيَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن جميع الخلق مَرْبُوبُونَ لله تَبَارَكَوَتَعَالَى، يَتصَرَّف فيهم بمُقتضى رُبُوبيَّتِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ولهَذَا حُكْمُ الرُّبُوبيَّة ما أحد يَستطيع أن يخالفَه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن أرض الشام مُبارَكة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

الآيــة (٩)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

• ● ∽ ● •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾]، هَذَا تفسير الضَّمير، وضَمير الشأن هُوَ ضَمير يَتَّصِل ويفَسَّر بالجملة الَّتِي بعده، فعلى هَذَا يَكُون ﴿إِنَّهُۥٓ﴾ هَذَا الشأن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تفسيرًا لهَذَا الضَّمير.

أَمَّا مِن حَيْثُ الإعرابُ فإنَّنا نَقُول: (إِنَّ) حرف توكيد ينصِب الاسم ويرفع الخبر، والهاء اسمها و﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ مبتدأ وخبَر، والجملة فِي محلٍّ رفع خبر إنَّ.

وقال بعض المفسِّـرين: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ فرأَوْا أن الهاءَ ضَميرٌ حقيقـيٌّ للمتكلِّم، لا ضَمير شأن. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ يعني أنَّ الله قَالَ لموسى: إنَّ الَّذِي يُكَلِّمك أنا، وكلمة ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا﴾ لا يَتبيَّن مِنْها مَن هو، ولهَذَا نُهيَ الإِنْسَان أن يَقُول إذا استأذنَ عندَ البابِ وَقِيلَ له: مَن؟ أن يَقُول: أنا[1].

إِذَنْ: (أنا) هنا مُبْهَمَةٌ، ثُمَّ بيَّن هَذَا الضَّمـير بِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وَعَلَى هَذَا تكون (إن) حرفَ توكيدٍ يَنْصِب المبتدأ ويرفعُ الخبرَ، والهاء اسمها، وَلَيْسَ ضَمير

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب (إذا قَالَ: من ذا؟ قَالَ: أنا)، حديث رقم (٥٨٩٦)؛ صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب (كراهة قول المستأذن: أنا، إذا قيل: من هذا)، حديث رقم (٢١٥٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

شأنٍ، و(أنا) خبرها، وجملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تكون بَيَانا للضمير، (الله) مبتدأ، و(العزيز) خبر، و(الحكيم) خبر ثانٍ، وهي بَيَان لـ(أنا)، وعلى الأوَّل يَرَوْنَ أن جملة ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ هِيَ الخبر، لكِن ما سَلكه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقربُ، وإنْ كَانَ الثاني مُحْتَمَلًا، يَعْنِي أنَّ الثانيَ يَستقيم لكِن الأوَّل أقوى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهَذَا الَّذِي قدَّره المُفسِّر أحسنُ مِنَ الَّذِي قدَّره بعض المفسِّرين كالزَّمَخْشَرِيّ[1].

قال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ابتدأ بالأُلُوهِيَّة، فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾، و(الله) تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الاسمُ العلَم عَلَى اللهِ الَّذِي لا يُسمَّى به غيرُه، وجميع ما يأتي من أسماء اللهِ دائمًا تَجِدُه تبعًا لهَذَا الاسمِ، ودائمًا تُصدَّر أسماء الله بكلمة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّهُ العلم الَّذِي لا يُسَمَّى به غيره، ثُمَّ تأتي الأسماء بَعْد ذلك تابعةً له.

و﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه: القويّ الَّذِي لا يُغْلَب، بل هُوَ الغالِب، وَقِيلَ: إن العِزَّة تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ هي:

١- عِزَّة القَدر.

٢- عزة القَهر.

٣- عزة الامتناع.

وقَالُوا: إِنَّهَا مُشْتَقَّة مِنَ الْأَرْضِ العَزَاز، والْأَرْض العزاز يَعْنِي: الصُّلبة القويَّة، ونحن نُسَمِّيها باللُّغة العامِّيَّة: (عَزَا) فنَحذِف الزايَ الثَّانِيَة، فالعزيز معناه: هُوَ القوِيُّ الغالب الَّذِي لا يُغلَب، فإذا قُلْنَا بهَذِهِ الثلاثةِ أَتينا بالمعاني الثلاثةِ؛ القهر والقَدر والامتناع.

---

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٥٠).

وقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقَدَّمَ الكَلامُ عليه، وإنها ذكر الله له ذلك لِيُشْعِرَهُ بأن مآله للعزّ، وأن ما سَيُوحَى إليه فَهُوَ حكمة؛ لِأَنَّ الصادرَ من العزيز يَكُون عَزيزًا، ومن الحكيم يَكُون حكمةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن تعيينَ الشخصِ بالنداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمين والإيناس؛ لأنك إذا قلتَ: يا فلانُ طَمْأَنْتَهُ بِلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ يَقُول: هَذَا يَعرِفني، ما يَنالني بِسُوءٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات العزَّة والحِكْمَة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي لَمن أرادَ تَعيينَ نفسِه أن يُبيِّن اسمه؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. لم يقلْ مثلًا: أنا مُكَلِّمُكَ، أنا، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بل بيَّن مَن الَّذِي يُكلِّمه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: حَصْر الأُلُوهِيَّة فِي اللهِ؛ لِأَنَّ وصفَه بالعزَّة والحِكْمَة يَقتضي أن يَكُون هُوَ المألوهَ وحدَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحُكْم المطلَق للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّنا ذَكَرْنا أن الحَكيم: ذو الحُكْم والحِكْمة.

الآية (١٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠].

قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ما هِيَ العَصَا الَّتِي معه؟

عصا عاديَّة يَتوكَّأ عليها ويَهُشُّ بها عَلَى غنمه، فإضافتها إِلَى موسى ﷺ إضافة مملوكٍ إِلَى مالِكِهِ، ولَيْسَ مخصوصًا إِلَى مَنِ اخْتصَّ به، أي: أن هَذَا العَصَا لَيْسَ له اختصاص وأَنَّهُ عصا من جوهر معيَّن أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هُوَ عصا عاديّ، وهَذِهِ العَصَا هِيَ الَّتِي ضَرَبَ بها الحجرَ ما تَغيَّرَتْ، وهي الَّتِي أَلقاها أيضًا للسَّحَرَةِ فأبطلتْ سِحْرَهم.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هَذَا أيضًا من إيجازِ الحذفِ كما مرَّ دائمًا، والقَصَصُ يَكُون فيه إيجازُ حَذْف؛ لِأَنَّ المحذوفَ دائمًا يَكُون معلومًا منَ السياقِ، فيَكُون حَذْفُهُ سهلًا ومُيَسَّرًا، وقد قَالَ ابن مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الأَلْفِيَّة قاعدةً من أفيد ما يَكُون، ذكرها فِي بابِ المبتدأ، وهي صالحةٌ لكلِّ شَيْء، قَالَ(١):

وحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا ... تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٨).

هَذِهِ فِي الحقيقة قاعدة: حذف ما يُعْلَم جائزٌ.

والإيجاز فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ وألق عصاكَ فألقاها. فهَذِهِ جملة محذوفة وليستْ تفسيرًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ تفسيره: ضَعْ عصاك، ولو أخذنا الآية عَلَى ظاهرها لكانتِ العَصَا تَهْتَزّ وهي بيدِهِ قبلَ أنْ يُلْقِيَها، يعني لمّا أمر أن يلقيَ عصاه اهتزتْ، فالآيَة لَا بُدَّ فيها من شيءٍ محذوفٍ: فألقاها فإذا هِيَ تَهْتَزّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتحرَّك]، ولكِن تفسير الاهتزاز بمطلَق التحرُّك فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ الاهتزازَ أبلغُ مِنَ التحرُّك، كَأَنَّ الاهتزاز فِيهِ نوعٌ من الْقُوَّة والاضطرابِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ حيَّة خفيفة]، وَقِيلَ: حيَّة عظيمة، وَقِيلَ: الجانُّ: الذَّكر منَ الحَيَّات، وأيًّا كَانَ فإنَّ هَذِهِ العَصَا الَّتِي كانت بيده صارتْ حيَّةً تهتزُّ وتتحرَّك وتَضْطَرِب مثل الجانّ، يَعْنِي الحيَّة العظيمة، والدَّليل عَلَى أن المُرادَ بالجانّ الحيَّة العظيمة: قوله تَعَالَى فِي سورة طه: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، والقِصَّة واحدة، فالجانّ من الأسماء المشترَكَة.

قوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾: ﴿وَلَّىٰ﴾ هَذِهِ جواب (لمَّا)، ﴿مُدْبِرًا﴾ حال، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ يَعْنِي: هاربًا، ولهَذَا يَقُول: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يرجع]، وقد ولَّى خوفًا من هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا بطبيعةِ البشرِ أنَّ الْإِنْسَان إن ألقى عصاه وصارت حيَّةً تَسعى لَا بُدَّ أن يخافَ، لا سِيَّما وَأَنَّهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما علِم أَنَّهُ سيُرْسَل وَأَنَّهُ رسول، إِنَّما كلَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإلى الْآنَ ما حَصَلَ شَيْء.

فالحاصل: أنَّ هَذِهِ طبيعة البشرِ، لَا بُدَّ أن يُولِّي، وَلَيْسَ فِي هَذَا نقصٌ للنبيّ ﷺ؛ لِأَنَّ الأُمُور البشريَّة تَعترِي الرسُلَ وغيرَهم، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول ﷺ يَنسى فِي أعظم

العبادات؛ فِي الصَّلَاة، ويقول: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»[١]، وَلَيْس فِي هَذَا أيّ قَدْحٍ للرسُلِ.

وقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ هَذِهِ فيها أيضًا إيجازٌ بالحذفِ، ونحن نَقُول باختصار: جميع القَصَص ولا سِيَّما القَصَص الطويلة غالبًا يَكُون فيها إيجازُ حذفٍ، وأحيانًا تكون جملةً وأحيانًا تكون جملًا، وسيأتينا إن شاء الله فِي القَصَصِ الَّتِي فِي السُّورَة الَّتِي تلي هَذِهِ شيءٌ كثيرٌ من هَذَا.

قال: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ وناداه باسمِهِ لِيُطَمْئِنَه؛ لِأَنَّ الإِنْسَان الَّذِي يناديك وَهُوَ يَعْرِفك تَطْمَئِنّ إليه أكثر، لم يقلْ: يا هَذَا لا تَخَفْ أو يا مُوَلِّي لا تخفْ، بل قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾؛ لِأَنَّهُ معلوم أن الَّذِي يَعرِفك تطمئنُّ إليه أكثر، مثال ذلك لو رأيتَ مَن ظَنَنْتَه عدوًّا ثُمَّ هربتَ منه فقال: يا فلان، يا فلان، فإنك تطمئنُّ؛ لأنك تقول: هَذَا يَعرفني، ما يَنالني بِسُوءٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ منها]، والتقييد بـ(منها) الَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أن يأتِيَ به هُوَ ظاهرُ السياقِ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّ مُوسَى ﷺ إِنَّمَا هَرَبَ منها، فقال: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ عندي ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ من حيَّة وغيرها]، معلوم أن الَّذِي بِحَضْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ لا يُمكِن أن يخافَ من شيءٍ؛ لِأَنَّهُ فِي كَنَفِ الله تَعَالَى وَفِي جِوَارِه، فلا يمكن أن يخافَ وَهُوَ عندَ اللهِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حَيْثُ كان، حديث رقم (٣٩٢)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، حديث رقم (٥٧٢)، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هَذَا أيضًا فِيهِ بِشَارَة لموسى ﷺ بأنه عند الله وَأَنَّهُ مِنَ المُرسَلِين، ومعلوم أَنَّهُ إذا بُشِّرَ بمثلِ هَذِهِ البشارةِ سوف يَزولُ عنه الخوفُ نهائيًّا، وسوف يَحُلّ مكان الخوفِ أَمْنٌ، ومكان الذُّعْر سرورٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: هَذِهِ الآيَة العظيمة دالَّة عَلَى كمالِ قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ أُمِرَ بإلقاء العَصَا فألقاها، فبمُجَرَّد وُصُولها إِلَى الْأَرْض صارتْ حيَّة، ولهَذَا فِي سورة طه ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه:٢٠]، ﴿إِذَا﴾ فُجائيَّة تدل عَلَى مفاجأةِ الأَمْرِ ووقوعِه عَلَى وجهِ الفوريَّة. ففيها دليل واضح عَلَى كمال قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ إذا قَالَ للشيءِ: كنْ فَإِنَّهُ يَكُون.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي آياتِ الرسُل، وأنها تناسب العَصْرَ، لِقَوْلِهِ: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ لأنّ هَذَا أشبه ما يَكُون بها تَطَوَّرَ تَطوُّرًا بالغًا عندهم فِي ذلك الوقت وَهُوَ السحر، فلو أن أحدًا أتى بعصا أمامَكَ ووضعها فِي الْأَرْض ثُمَّ رأيتها حيَّة فإنك تقول: هَذَا سِحر. فلذلك أُوتِي موسى ﷺ من الآيات ما يَقضي عَلَى سِحرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مِنَ البلاغةِ الإيجاز بالحذفِ، ولا يُعَدُّ هَذَا قُصُورًا ولا تقصيرًا. قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ هنا يوجد بلَا شَكّ محذوفٌ، ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾؛ لِأَنَّهُ لو أُخذ الكَلَامُ عَلَى ظاهرِهِ لكانَ المَعْنى: لمَّا أُمِرَ بهَذَا اهتزَّتْ وهي فِي يدِه، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ العَصَا لم تكنْ مجرَّد حيوان يَتحرَّك، ولَكِنَّهَا أبلغُ من ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلوم أنَّ الجانَّ بنفسِه مروِّع، فالحيَّة بنفسها مروِّعة، فإذا كانت من عَظيمِ الحيَّات صارتْ أشدَّ وأبلغَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: جواز أنْ يَعْتَرِيَ الأَنْبِياء الخوفُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾. وأن ذلك لا يُعَدّ نقصًا فيهم؛ لِأَنَّهُ مِن مُقْتَضى الطبيعةِ البشريَّة، وهَذَا الَّذِي يَكُون من مُقتضى الطبيعة البشرية لا يُلام عليه أحد، فالأَنْبِياء يَجُوعون، ويعطَشون، ويَبْرُدون، ويَمْرَضون، ويموتون أيضًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الأَنْبِياء مَعْصُومونَ مُطْلَقًا؟

قُلْنَا: لَا شَكَّ أن الأَنْبِياء لا يُعصَمون ممَّا لا يُخِلّ بالرسالةِ مِنَ الذُّنُوب؛ فالَّذِي لا يُخِلُّ بالرسالة والشَّرَف والمروءة لا يُعْصَمُون منه، لكِنهم يُعصَمون من الإقرارِ عليه، فلَا بُدَّ أن يُوَفَّقُوا للتوبة. وهَذَا هُوَ الفرق بينهم وبين غيرهم، وأظنُّ أَنَّا ذكرناه فِي التوحيد وقلنا: إِنَّهُ يُفَـرَّق بينهم وبين غيرهم من وجهيـنِ -في مسألة الذنـوبِ والمَعاصِي-:

أولًا: أَنَّهُ لا يُمْكِن أن يَصْدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرسالةِ، مثل: الكَذِب والخِيَانة، ولا بالشَّرَف والمروءة: كالزِّنا وما أَشْبَهَهُ.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا وَقَعَ منهم ما يُمْكِن وُقُوعُه مِنَ المَعاصِي فإنهم لا يقرّونَ عليه، لَا بُدَّ أن يَحْصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَرْكَهم لهَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُم رُسُل قُدْوَة. ولو أقرُّوا عَلَى المَعاصِي لكانتِ المَعاصِي من شَـرَائِعِهم. وَأَمَّا القَوْلُ بالعِصْمة مُطْلَقًا فلا وجهَ له، فلا توجد عِصمةٌ مُطْلَقًا، بل الصَّواب أَنَّهُم يَحْصُل منهم ما يَحْصُل ولكِنَّهم لا يقرّون عليه.

فقوله تَعَالَى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم:١]، هَذَا ممَّا يَدُلُّ عَلَى أن الأَمْرَ قد وقعَ مِنَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَكِنَّهُ غُفِرَ عنه، ما أقرَّ عليه، أَمَّا مسألةُ

ابنِ أُمِّ مَكْتُومٍ فليســتْ بمعصيةٍ، بل خِـلاف الأَوْلى، ولهَذَا لامَهُ الله عليها، وأيضًا موسى ﷺ اعترف بأنه ظالمٌ فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل:٤٤].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: موسى لَيْسَ بظالمٍ؛ لِأَنَّهُ يُدافِعُ عن قَوْمِه؛ لِأَنَّ فِرْعَوْنَ وقَوْمَه تَسَلَّطُوا عَلَى قومه؟

قُلْنا: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّهُ معهم فِي الْأَرْض، وهَذَا الرجل بالذاتِ بينَه وبين الثاني عهد، وهما يَتخاصمانِ فِي مسألةٍ خاصَّةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: رَحْمَةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِنَبِيِّه موسى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ فإن هَذَا من رحمةِ اللهِ به؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ له: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وقد عَلِمَ أَنَّهُ ربُّ العالمينَ فلا يمكن أن يخافَ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: جواز توجيه الأحكامِ الشَّرْعِيَّة إِلَى الأُمُور الفِطْرِيَّة. يعني مثلًا أنت إذا قلت لِإِنْسَانٍ: لا تَخَفْ. والخـوف طبيعيٌّ فكيـف يَدْفَعُه عنه؟ فهل يَتَـوَجَّه الحكم إِلَى مثلِ هَذِهِ الأُمُورِ الطبيعيَّة؟

نَقُول: نعم يمكن؛ لِأَنَّ الخوفَ وإنْ كَانَ أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لِأَنَّهُ يأتي الْإِنْسَان بغيرِ اختيارِه، لَكِنَّهُ يُمْكِنه معالجتُه بالمدافعةِ، ولهَذَا جاء رجلٌ إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقَالَ: أَوْصِني، فقَالَ: «لَا تَغْضَبْ»[1]، والغَضَبُ من طبيعةِ الْإِنْسَان. لكِن معنى لا تَغْضَبْ: يعني حاوِلْ أن تُقَلِّلَ من غَضَبِكَ، وأن تكونَ دائمًا هادئًا، ثُمَّ إنْ غَضِبْتَ فلا تُنفِّذْ مُقْتَضَى هَذَا الغضبِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، حديث رقم (٥٧٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فإذَنِ: الأُمُورُ الطبيعيَّة البشريَّة الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الطبيعة البشريَّةِ يجوزُ أن يُوَجَّه الحُكْمُ إليها أمرًا أو نهيًا، ويَكُون ذلك من باب مُدَافعَتِها قبلَ وُجودها، أو من باب تقليلِ آثارِها، فلا يقال: إن الْإِنْسَان أُمِرَ بما لا يستطيع، فأُمِرَ بعدمِ الغضبِ وَهُوَ لا بُدَّ أن يَغْضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخوفِ وَهُوَ لَا بُدَّ أنْ يخافَ مما هُوَ مَخُوفٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفي الآية أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ مَن كَانَ مَعَ الله تَعَالَى فَإِنَّهُ لا ينبغي أن يخافَ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أي: عندي ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾. ولذلك كلَّما ذكر الْإِنْسَان ربَّه زالَ عنه الخوفُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥]، ففي ذكر الله تَعَالَى زَوَالُ الخوفِ والْقُوَّة والرغبةُ فِي تنفيذِ ما أَمَرَ الله تَعَالَى به، ولهذَا أمر الله به فِي الجهادِ.

الآيــة (١١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿مَن ظَلَمَ﴾ نفسَه ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أتاه ﴿بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ أي: تاب ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أَقْبَلُ التوبةَ وأَغْفِر له].

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: سبحان الله العظيم! ما هَذِهِ الجملة وللكلام الَّذِي قيل ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾؟

فنَقُول: إن موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمّا قَالَ الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكر أَنَّهُ قد وقعَ مِنه خطيئةٌ، والخطيئةُ أَنَّهُ قتل نفسًا، وكأنه عندما يَتذَكَّر هَذَا قد يَستبعِد فِي نفسه أن يَكُونَ من الرُّسُل، فقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ لِيُذَكِّرَهُ بما مَنَّ به عليه منَ التوبةِ، ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾، ﴿بَدَّلَ﴾ المُفَسِّر فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: أتى حُسْنًا؛ لِأَنَّ ظاهره فِي الحقيقةِ لا يَستقيم به المَعْنى: (بَدَّلَ حُسنًا بسوء) أَيّهما المأخوذ؟ فـ﴿بَدَّلَ﴾ تدل عَلَى أن هناك بَدَلًا ومُبْدَلًا منه، فإذا قلتَ: بدَّل حسنًا بسُوء؛ يصير الحُسْن مَدْفُوعًا والسوءُ مأخوذًا.

قولك: بدَّلْتُ ثَوْبي بثَوْبك، فالمَأْخوذ هُو الأَخِير. فهنا ﴿بَدَّلَ حُسْنًا﴾ لو أخذنا بظاهرها فمعناه أَنَّهُ ترك حسنًا وأخذ سوءًا، ولهَذَا فسَّر المُفَسِّر قوله: ﴿بَدَّلَ﴾ بـ(أتى).

والدَّلِيل عَلَى ذلك أَنَّهُ لو كَانَ المُراد بالتبديل ظاهر معناه: فما صح أن يعبر بِقَوْلِهِ: ﴿بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾، لو كَانَ كذلك لقال: بدَّل حسنًا بسوء، وما قَالَ: ﴿بَعۡدَ﴾، فلما قَالَ: ﴿بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ عُلِمَ أن بَدَّل هنا بمعنى استبدلَ، واستبدل بمعنى أخذ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾ [البقرة:٦١]، وأخذ مثلما قَالَ المُفَسِّر بمعنى: أتى.

والمَعْنى من الآيَة الكَرِيمَة أَنَّ مَنْ أتى حُسنًا بَعْد سوءٍ فإن هَذَا الحسنَ ينفي السوءَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يَعْنِي: أغفِر له.

جملة ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما مُطابقتها للشرطِ؟ لِأَنَّ قوله: ﴿مَن ظَلَمَ﴾ إعرابه: (من) اسْم شرط جازِم وليست اسمًا موصولًا مستثنى؛ لِأَنَّ الاستثناء هنا منقطع، و﴿ظَلَمَ﴾ فعل الشرط، وجملة ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ جواب الشرط.

أقول: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه ارتباط الجوابِ بالشرطِ؟

فالجواب: أنه لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذين الاسمين فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فَإِنَّهُ يريد مُقتضاهما، فمقتضى المغفرةِ أن يَغْفِرَ لهَذَا الَّذِي ظلم ثُمَّ بدَّل حسنًا بَعْد سوءٍ، ومُقتضى الرَّحْمَةِ أيضًا أن يرحمه.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى فِي المحاربين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة:٣٤]، يعني يَسْقُط عنهم الحدُّ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقتضى المغفرة والرَّحْمَة. فهنا مقتضى المغفرةِ والرَّحْمَةِ أَنَّ مَن ﴿بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يغفر له ويرحمه.

وهل يشمل الرُّسُل وغير الرُّسُل؟

ومِنْ ثَمَّ حَسُنَ أنْ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونَقُولَ معه أيضًا: إنَّ الاسثناء في ﴿ إِلَّا ﴾ هنا مُنقطِعٌ؛ لِأَنَّهُ يَشمَل الرُّسُلَ وغيرَ الرُّسُلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: وفي ذلك دليلٌ عَلَى أنَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ أتى بعملٍ صالحٍ، فإن الله تَعَالَى يمحو العَمَلَ السيِّئَ بالعَمَلِ الصالحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل:١١].

وقد تَقَدَّمَ مناسبة ذكر هَذِهِ الجملة: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ﴾ فِي هَذَا المقام.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثبات المغفِرَةِ والرَّحْمَة لله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الثَّالثة: أن أخذَ الأحكامِ من مُقتَضى أسماء الله تَعَالَى وصفاته. فإن قوله: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أَغْفِر له، وهَذَا حُكْمٌ، وأخذ الأحكامِ من مُقْتَضَى الأسماء والصِّفَات هَذَا من أحسنِ ما يَكُون منْ الِاستدلال.

ذُكِرَ أنَّ رَجُلًا قرأ عند أعرابيٍّ: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقالَ الأعرابيُّ وَهُوَ لم يقرأِ الْقُرْآن: أَعِدِ الآيَةَ، أخطأتَ فيها. فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). قَالَ له: أَعِدِ الآيَةَ. فأعادها فِي الثَّالثة عَلَى الصَّواب، قَالَ: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، قَالَ: الآن، فَإِنَّهُ عزَّ وحكمَ فقطَعَ، ولو غفرَ ورَحِمَ ما قطعَ[1]. وهَذَا صحيح.

---

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ١٧٦).

ويدلُّ عَلَى هَذَا الفَهْمِ قوله تَعَالَى فِي المُحَارِبِينَ: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة:٣٤].

إِذَنْ: معناه إذا عَلِمنا أن الله غفور رحيم فإنه يُغفَر لهم ويُترَكون، ولهَذَا إذا تاب قاطِع الطريق قبل القُدْرة سقطَ عنه الحدُّ.

وهل يَلْحَقُ به غيرُه من ذوي الحدودِ أو لا؟

فِيهِ خلافٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الإشارة إِلَى أن موسى ﷺ بُشِّرَ بالرسالة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

• • ❁ • •

الآيـة (١٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ هو طَوْق القَمِيص]. هَذَا تفسيرٌ لِلْجَيْب أَنَّهُ طوق القَمِيص.

وقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾ اليد فِي اللُّغة تُطلَق عَلَى الكفِّ فقطْ، ولا تشمل الذِّراع إِلَّا مُقيَّدَةً. والدَّليل عَلَى هَذَا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما قَالَ فِي التيمُّم: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النِّساء:٤٣]، صار خاصًّا بالكفيـنِ، ولَمَّا أراد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذِّراعَ قَالَ فِي الوضوء: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦].

إِذَنْ: الَّذِي أُمِـرَ أن يدخلَه موسى حَسَـب مقتضى اللُّغةِ العَربيَّةِ لَيْسَ اليد والذراع، بل الكفّ، والمُراد يُغَيِّبها فِي جَيبه.

قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾: ﴿تَخْرُجْ﴾ مجْزُومة، مَعَ أَنَّهَا فعل مضارعٌ، ولم يَدْخُل عليها حرفُ جازم، لَكِنَّها مجزومةٌ بجوابِ الطلبِ الَّذِي هُوَ (أَدْخِلْ). ومعروف أَنَّهُ إذا سَقَطَتِ (الفاء) وقُصِد الجزاء جُزِمَ، فهَذِهِ القاعدة. ففاء السَّببيَّة إذا جاءت بعدَ الطلبِ نُصِبَ الفِعْل بها أو بـ(أن) مُضْمَرَة، فإذا سَقَطَتِ الفاءُ بعدَ الطلبِ وقُصِدَ الجزاءُ جَزَمْتَ، هَذِهِ قاعدةٌ معروفةٌ فِي النحوِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾]، يَعْنِي اليَدَ [خِلافَ لَوْنِها مِنَ الأُدْمَة ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾]، أخذ المُفَسِّر أنَّ لَوْنَها الأُدمة من قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّهَا لو كانتْ بيضاء من قبلُ لم يَقُلْ: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾. فلا بدَّ أَنَّهَا تغيرتْ من اللونِ الأولِ إِلَى اللونِ الثاني.

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حال من فاعل (تَخْرُج)، يعني حال كَوْنِها بيضاءَ.

وقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ هَذَا تَقييدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْضَآءَ﴾؛ لِأَنَّ البيضاء قد يَكُون بياضها سوءًا مثل البَرَص، فَإِنَّهُ سُوءٌ؛ لِأَنَّهُ عَيْبٌ يَسُوءُ صاحِبَهُ، لَكِنَّهُ قَالَ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

إِذَنْ: هو بَيَاض لَيْسَ كبياضِ البَرَص، ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بَرَص لها شُعاعٌ يَغْشَى البصرَ آيَة].

أما قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: لها شُعاع، فهَذَا يحتاج إِلَى دليلٍ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما ذَكَرَ إِلَّا أَنَّهَا بيضاءُ، وكفَى بذلك آيَةً أن تدخلَ اليد عَلَى لون ثُمَّ تخرج بلونٍ آخرَ.

وأما زيادة الشُّعاع فإنَّ الله تَعَالَى لم يذكرْه، وَلَيْسَ لنا أن نتجاوزَ فِي هَذِهِ الأُمُور ما دلَّ عليه الْقُرْآن؛ لأَنَّنا ذكرنا فيما سبق أن المسائل الخبريَّةَ لا مجالَ للرأيِ فيها، يُقْتَصَر فيها عَلَى ما جاءَ به الخبرُ، فنَقُول: هِيَ بيضاءُ وكَفَى بها آيَةً.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [آيَة ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾]، ﴿فِى﴾ للظرفيةِ. فتكون هَذِهِ الآيَة وكذلك آيَة العَصَا من جملةِ التِّسعِ، وليستْ زائدة عَلَى التِّسع.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ مُرسلًا بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾]، عَرَفَ موسى آيتينِ من هَذِهِ التسعِ وهي: العَصَا واليد، فآيتانِ معروفتانِ، لكِن بقي سبع

آياتٍ، وبقيَّة التسعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، فهَذِهِ خمسٌ، وقال تعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف:١٣٠]، فهَذِهِ هي الآيات التسعُ.

قوله تعَالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾ [الأعراف:١٣٣]، والطوفانُ: فيضان الماءِ، و(الْجَرَادَ) معروف، و(الْقُمَّلَ): الدودة الَّتِي تكون فِي الحبوبِ، و(الضَّفَادِعِ) معروفة، (وَالدَّم) معروف، وبعض العُلَماء يَقُول: إن الدم هَذَا الماء، إذا شَرِبُوه فإذا هُوَ دمٌ، وإذا سَلَّمَهُ القِبْطِيّ إِلَى الإسرائيليِّ عاد ماءً.

ولكِن الشيخ عبدُ الرحمنِ السِّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب إلى غير هَذَا المذهَب، قَالَ: الطوفان: الفيضان، وهَذَا يُفسِد الزُّرُوعَ قبلَ خُرُوجِها، والجراد يأكل الزروعَ بعدَ خُرُوجِها؛ لِأَنَّ الزروعَ مِنهَا شَيْء مَبْذورٌ فيفسده الماء؛ وشَيْء خارج يأكله الجرادُ، وشَيْء مدَّخَر يفسده القُمَّل، والماء تفسده الضفادع.

إِذَنْ: الْآنَ المأكولُ والمشروبُ فَسَدَ، وهَذَا المأكول والمشروب إذا أكله الْإِنْسَان أو شَرِبَهُ يَتَحَوَّل إِلَى دمٍ، فأُرْسِل عليهم الدمُ أيضًا وَهُوَ النزيف -الرُّعاف- فعلى هَذَا يَكُون هَؤُلَاءِ غذاؤهم فَسَدَ، وما حصل بالغذاء نزف أيضًا، وهَذَا فِي الحقيقةِ هُوَ المَعْنى السَّليم؛ فنَقُول: يحصل فساد الماء بالضَّفادعِ، فيصير الماء مُنْتِنًا بالضَّفادعِ فلا يستطيع الإِنْسَان أن يشرب، فرائحته خبيثَةٌ ومنظره خبيثٌ.

فالحاصل: أن الصَّواب ما ذهب إليه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي التفسير(١).

وقوله: ﴿ٱلسِّنِينَ﴾ معناه: الجَدْبُ والقَحْط، وَهُوَ عدم نزول المطر.

---

(١) انظر: تفسير السِّعدي (ص:٣٠١).

قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ عَلم جنس لكل من مَلَك مِصـر كافرًا، مثل كِسْرَى علم جِنس لكل مَن مَلَك الفُرْس كافرًا، وكذلك قَيْصَر لكُلّ من ملك الرُّوم كافرًا.

وقوله: ﴿وَقَوْمِهِۦ﴾ القوم: الأصحاب، وسُمِّيَ الأصحابُ قومًا؛ لِأَنَّ بهم قِوَام الْإِنْسَان، فالْإِنْسَان يعتز ويقوم بقومه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ هَذَا تعليلٌ للرسالةِ إليهم، يَعْنِي إِنَّمَا أرسلناكَ إِلَى هَؤُلَاءِ فِي تسعِ آياتٍ؛ لِأَنَّهُم ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾؛ يعني خارجينَ عن الطاعة، والفِسْق يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ:

- فِسْق أكبر وهو: الخروج عن مُطْلَق الطاعة.
- فِسق أصغر وهو: الخروج عن الطاعة المطلَقة.

والفرق بين التعبيرينِ أن الطاعة المطلَقة هِيَ الشاملة لكل أفرادِ الطاعةِ، يعني أَنَّهُ يُطيع فِي كُلِّ أمرٍ، وَهُوَ الواقِعُ، فإذا قيل: هَذَا الرجلُ قد أطاعَ الله طاعةً مُطْلَقَة، فمعناه أَنَّهُ أطاع فِي كُلّ ما أُمِرَ به، فإذا فَسَقَ فقد خرج من الطاعةِ المطلَقةِ؛ لِأَنَّ الفرق بين مطلق الشَّيْءِ والشَّيْءِ المطلق أنَّ مُطْلَق الشَّيْء معناه وجودُ أيِّ جزءٍ منه، والشَّيْء المطلَق: الكامِل، ولهَذَا الفاسقُ عند أهلِ السنَّة والجمـاعةِ هل معه الإِيمـانُ المطلَقُ أو مطلق الإِيمانِ؟

معه مُطْلَق الإِيمانِ، فإذا قيل: هَذَا الرجل فاسقٌ، فالمَعْنى: خارج عن مطلقِ الطاعةِ، فِسْقُه أكبر، يعني معناه: ما يصدق فِي حقِّه ولا أقل طاعة، وهَذَا كافر.

فإذا قيل: هَذَا الفاسِقُ خارجٌ عنِ الطاعةِ المطلقةِ فمعناه: أَنَّهُ معَه طاعة لكِن الطاعة الكاملة لَيْسَت معه، ولذلكَ عندَهم أيضًا حَتَّى فِي الفقه يَقُولُونَ: هَذَا ماء

مطلَق، وهَذَا مطلَق ماء، قَالُوا: ما تغيَّر بالأَشْيَاء الطاهرة لَيْسَ بطَهور؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بماءٍ مُطلَقٍ وإنما مطلق ماء، والفرق بين التعبيرينِ معروفٌ عند الفقهاءِ وعند الأُصوليِّينَ وعند أهلِ الكَلامِ؛ أنَّ الفرقَ بين مُطْلَق الشَّيْء والشَّيْء المطلَق أنَّ الشَّيْء المطلق معناه: الكمال، ومطلق الشَّيْء معناه: الأَصْل.

وهنا في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ المقصود الفِسْقُ الأكبرُ؛ لِأَنَّهُم خارجونَ عن مطلَق الطاعة، فلَيْسَ عندهم طاعةٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات آيَة من آيَات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك أن يَده دخلتْ عَلَى طبيعتِها ثُمَّ خرجتْ بيضاءَ من غيرِ سُوءٍ فِي لحظةٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾، وقوله: ﴿تَخْرُجْ﴾ جواب لـ(أدخل)، فالمَعْنى أَنَّهُ بمجـرد الإدخال تخرج، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهَا بمجرد أنْ دخلتْ تخرج بِنَفْسِها، بل تخرج إذا أخرجها، فإذا أخرجها فإذا هِيَ بيضاء، وهَذَا من آيَاتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتِ الأَنْبِياء، حَيْثُ تكون مناسبةً للعصرِ الَّذِي بُعِثوا فيه؛ لِأَنَّ هَذِهِ الآيَة تُشْبه السحرَ، لَكِنَّها حقيقةٌ، والسحر خَيَال. فالسحر لا يمكنُ أنْ يَقْلِبَ اليدَ إِلَى بيضاءَ، أو المتحرِّك إِلَى ساكنٍ، أو الساكن إِلَى متحرِّك، فلا يمكن أن يقلبه حقيقةً، لكِن هَذِهِ الآيَة حقيقةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي الاحتراز فِي الكَـلامِ عندما يُوهِم الشَّيْء لأمرٍ يُحْتَرَزُ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فإن البيضاء قد تكون من سُـوء، ولكِنه احتـرز بِقَوْلِهِ: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ففي الآيَةِ دليلٌ عَلَى مبدأ الاحترازِ فِي الكَلامِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن موسى ﷺ أعطاهُ الله تَعَالَى تسعَ آيَاتٍ؛ مِنْهَا آيتانِ سابقتانِ والباقية لاحقةٌ.

فما هَذِهِ التسعُ؟

هي: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والدم، والضفادع، والسِّنون، ونقصٌ من الثمراتِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يرسلْ نبيًّا إِلَّا بآيَة لتقومَ الحجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾.

وما هِيَ الحِكْمَة في أنَّ الله لم يرسلْ رسولًا إِلَّا بآيَةٍ؟

لِأَنَّهُ ما تقومُ الحُجَّة إِلَّا بهَذَا؛ إذ لو جاء رجل وقال: إِنَّهُ رسول من عند الله بدون آيَاتٍ ما صُدِّق، وإذا لم يُصدق فلا حُجَّة عَلَى الخلقِ به، فالأَشْيَاء لا تُثْبَت إِلَّا بدلائلها ولَا بُدَّ من بَيِّناتٍ عَلَى الأَمْرِ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ هل يمكن أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنى (معَ)؟

قُلْنَا: هَذَا غير صحيح، ﴿فِي﴾ للظرفية عَلَى بابها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: طُغيان فِرْعَوْنَ وقومه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ من الفصاحة والبلاغة قَرْن الحُكم بتعليلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ وتعليلُ هذا الحُكْم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

وقد ذكرنا أن قرن الحُكْم بتعليله له ثلاثُ فوائدَ، فإذا ذكرت العِلَّة فلها ثلاث فوائد، وهَذَا الَّذِي نَعْرِفُه ويُمْكِنُ أن تكونَ أكثرَ:

الأُولى: بَيَان حِكمة الله سبحانه فِي تشريعِهِ وقضائِهِ.

الثَّانِيَة: التعميم بعمومِ العلَّة.

الثَّالثة: أن المخاطَب يَزْدَادُ طُمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكْمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق عَلَى الكفرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ وقد ذَكَرْنا أن الفسقَ نوعانِ: فِسْق مطلَق ومطلَق فِسْق، فالفسق المطلَق هُوَ الكفرُ، ومطلَقُ الفسقِ هُوَ العِصيانُ من المُؤْمِنِينَ، يَعْنِي معه مُطْلَق فسق؛ إذ إن أصل الفسق هُوَ الخروج عن الطاعة، فإن كَانَ خروجًا كاملًا شاملًا فَهُوَ فسق مطلَقٌ، وإن كَانَ بعضَ خروجٍ فَهُوَ مُطْلَقُ فِسْقٍ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٣)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل:١٣].

• ● ● •

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ الضَّمير يعود إِلَى فِرعونَ وقومِه.

وقوله: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ أي: العلامات الدالَّة عَلَى صدق موسى ﷺ برسالته وَعَلَى أحقيَّة ما دعا إليه؛ لِأَنَّ الآيَاتِ الَّتِي بعث الله بها موسى ﷺ تدلُّ عَلَى أمرينِ: عَلَى صِدْقِ موسى، وهَذَا تأييدٌ له، وَعَلَى صِحَّة ما جاء به، فهَذِهِ الآيَات تشمل الأَمْرينِ.

وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ فَسَّرَهَا الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ: [مُضِيئَة وَاضِحَة]، وهنا كَلِمَة ﴿مُبْصِرَةً﴾ اسمُ فاعلٍ، والفِعْل مِنْهَا أبصرَ.

فهل الآيَاتُ هِيَ الَّتِي فيها البَصَرُ أو مُبْصِرَة أي: جاعلة غيرها يُبْصِر بها، أيُّهما أبلغُ؟

الثَّانِيَةُ أبلغُ، أي أَنَّهَا جَاعِلَة غيرها يُبْصِـر بها، يعني أَنَّهَا تُبْصِـرُ غَيْرَها، فهَذِهِ الآيَات هِيَ بنفسها ظاهرةٌ وواضحةٌ، وَالَّذِي يراها يُبْصِرُ بها. ولهَذَا نَقُولُ: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يعني أَنَّهَا باصرة بنفسها وموجِدَة للإبصارِ فِي غيرِها.

ولَمَّا ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ هَذِهِ الآيَات المبصرة كَانَ الجواب: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا﴾ أي: ما جاءنا، ولم يقولوا: هَذِهِ، أي: الآيَات؛ لأجلِ أن يشملَ كُلّ شيءٍ؛ هَذَا الَّذِي جاءنا من

الآيات وغير الآيات ﴿سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَيِّنٌ ظاهِرٌ]، فـ(مُبِين) هنا عَلَى تفسيرِ المُفَسِّر مِن (أبانَ) اللازِم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ السِّحْرُ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ: كُلّ شَيْء صارَ خَفِيَّ السَّبَب، فما خَفِيَ سببُه ولَطُفَ يُسَمَّى سحرًا. ولِهَذَا ذكرَ ابنُ كَثِيرٍ أقسامَ السِّحر فِي تفسيرِهِ[1]، وذكر من جُملةِ السحرِ الساعاتِ الَّتِي تَطَوَّرَتْ إِلَى ما نراهُ الآنَ؛ لِأَنَّهَا فِي الحقيقةِ خَفِيَّة السَّبَب، فالآنَ هذه الساعاتُ ما الَّذِي يُحَرِّك عَقارِبَهَا، أو أبلغ من هَذَا الساعات الإلكترونيَّة ما الَّذِي يجعل هَذَا المِسمارَ إذا غَمَزْتَه تحوَّل التاريخ إِلَى توقيتٍ آخرَ، أو أظهرَ لك تاريخ الشهر أو اليوم، فلو جاءت فِي غيرِ هَذَا الوقتِ لَتَعَجَّبَ النَّاسُ منها.

وهَذَا يُسمَّى سِحرًا لغةً، لكِنْ شرعًا لَيْسَ بِسِحْرٍ؛ لِأَنَّ السحرَ شَرْعًا هُوَ عبارةٌ عن عُقَدٍ وعَزائِمَ ورُقى تُؤثِّر فِي بَدَنِ المسحورِ أو عَقْلِهِ، ربما تُمْرِضُه وربما تُهْلِكه وربما تَخْبُلُهُ، فهَذَا هُوَ السحرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قولُ فِرعونَ وقومه: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾، ماذا يَقصِدون بهَذَا؛ السحرُ الحقيقيُّ الشَّرْعِيُّ أو السحرُ اللُّغَوِيُّ؟

قُلْنَا: المقصود الحقيقيُّ الشرعيُّ؛ لِأَنَّهُم قالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، والعياذ بالله، فهم قَالُوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وهَذَا الجواب لَيْسَ صادرًا من فِرعونَ فقطْ؛ بل جميع المكذِّبين للرسُلِ قالوا هَذَا، قَالَ الله تَعالَى فِي سورة الذارياتِ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، فكُلّ الرُّسُلِ السابقينَ يَقُول لهم أقوامُهم هَكَذَا،

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٩).

﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ لا، ما تَوَاصَوْا به، لكِن الجامِع المشترك: الطُّغيان ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣].

و(أو) فِي قوله: ﴿إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ مانِعَـةُ خُلُوٍّ، يعني ربمـا أَنَّ بعضهم يَقُول: ساحِرٌ ومجنونٌ معًا.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل كُفْرُ الساحرِ لِمُجَرَّدِ الضررِ اللاحِقِ بالمسحورِ أو يَتَعَلَّق بشيءٍ آخرَ؟

قُلْنَا: مُجَرَّد الضررِ لا يَقْتَضِي الكفرَ فِي الحقيقةِ، ولهَذَا لو داويتَ الْإِنْسَان بدواءٍ كسُمٍّ وشِبْهِهِ ما صار كفرًا، لكِن ما يقتـرب به من أحوالِ شَيْطَانِيَّة واعتقاد أن هَذَا مؤثر بدونِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هَذَا هُوَ الظاهِرُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أنا لا أَعْتَقِدُ هَذَا، بل هَذَا شَيْء لطيفُ المأخَذِ خفيُّ السَّبَب؟ وأبطل هَذِهِ العِلَّة.

قُلْنَا: ظاهر الْقُرْآن الكفر، فالْقُرْآن يَدُلّ عَلَى الكفرِ ويَنتهي الإشكالُ، فالآيَةُ ظاهرها أن تَعَلُّم السحر نفسه كفر، فقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: يتعلم السحرَ، وَلَيْسَ المَعْنى فلا تكْفُر بشيءٍ ثُمَّ تَتَعَلَّم السحر.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الحُجَّة قامتْ عَلَى فِرعونَ وقومه حَيْثُ جاءتهم الآيَةُ مُبْصِرَةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها الإبصارُ.

فهل هِيَ مُبْصِرَة بنفسِها -يعني باصرة- أو مُبْصِرة لِغَيْرِها؟

كلاهما، فهي مُبْصِرة بمعنى أَنَّهَا هِيَ باصرةٌ، وكذلك تُبْصِرُ غيرَها وتدلُّ عليه.

وَفِي هَذَا دليلٌ عَلَى أنَّ آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بيِّنَةٌ واضحةٌ تُوَضِّحُ الحقَّ، ولولا ذلك ما كانتْ آياتٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم طُغيان فِرعون وقَومِهِ؛ لقولهم: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مبالغة صاحبِ الباطلِ بدعواهُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ يَعْنِي بَيِّنًا ظاهرًا ما فِيهِ إشكال، وهَكَذَا المدَّعِي يأتي بالكلماتِ الَّتِي تُشَبِّه عَلَى الخلق حَتَّى يَصِلَ إِلَى ما يريد مِنَ الباطلِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: لماذا قَالَ هنا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ ولم يَقُلْ: (هَذِهِ)، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾؟

فالجواب: من أجلِ أنْ يَشْمَلَ كُلّ ما جاء، حَتَّى يشمل موسى نفسه واتهامه بالسحر.

• • ❁ • •

الآيــة (١٤)

• ● ∞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

• ● ∞ ● •

قوله: ﴿جَحَدُوا۟﴾ الضَّميرُ يعودُ عَلَى فِرعونَ وقَومه، والجَحْدُ: الإنكارُ، و(جحد) يَتَعَدَّى بنفسِهِ، ولكِنَّه قد يُضَمَّنُ معنى التكذيبِ فيَتَعَدَّى بـ(الباء)، ﴿وَجَحَدُوا۟﴾ مكذِّبين بها. فهنا الجحد ضُمِّن معنى التكذيبِ، ولهَذَا تعدى بالباء. وذلك لِأَنَّ الجحدَ قد يَكُونُ تكذيبًا وقد يَكُونُ مراعاةً لمصلحةٍ مِنَ المصالِحِ.

والجَحْدُ أَسْبابُه مُتَعَدِّدَةٌ، فَإِنَّهُ قَدْ يَقُولُ لَكَ قَائِلٌ: ماذا فعلت؟ فتجحد لمصلحةٍ تريدها، لا تكذيبًا، ولكِنَّه هنا تكذيب، أي: جحدهم هَذَا تكذيب. والدَّليلُ: أَنَّهُ عُدِّي بالباءِ، وَالَّذِي يُعَدَّى بالباءِ هُوَ التكذيب، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: كذَّبوا بها جحدًا، فهم كذَّبوا ومع ذلك ما أظهروهُ.

ولهَذَا يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمْ يُقِرُّوا بها]، ولم يُقِرُّوا بها معناه هُوَ التكذيب، والمُفَسِّر أتى بـ(لم يقروا) لأمرينِ:

الأَمْر الأول: لأجل أن يَسْلَم التعليق بالباءِ؛ لِأَنَّ (أقر) تتعدى بالباءِ.

والأَمْر الثاني -على رأيه-: لأجل أن لا يَتَضَمَّن ذلك إخفاءَها لِمَن طَلَبَها، فكَأَنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الجَحْدَ نفيَ الإقرارِ، ولَكِنَّنا لا نُوَافِقُه عَلَى هَذَا التفسيرِ:

أولًا: أَنَّهُ فسَّرَ المُثْبَتَ بالمنفيِّ، وهَذَا قُصُور، (جحد) مُثبت، و(لم يقرّ): منفيّ.

ثانيًا: أَنَّهُ بتفسيرِهِ هَذَا يُفَوِّتُ معنًى دلَّتْ عليه الآيَةُ، وهو: كِتمانهم لهَذِهِ الآيَاتِ لو سُئِلوا عنها، يعني أَنَّهُ فوَّت معنًى وَهُوَ الجحود عند السؤالِ، فَهُوَ تكذيبٌ عند العرضِ، وجحود عند الطلب؛ لِأَنَّ كون الْإِنْسَان لا يُقِرُّ لَيْسَ مثلما إذا جحد وكتمَ عن غيرِهِ. فالصَّوابُ إبقاء الآيَةِ عَلَى ما هِيَ عليه، ويقالُ: إِنَّهُ عُدِّيَ الجحدُ بالباءِ لِتَضْمِينِهِ معنى التكذيبِ، ويَكُون دالًّا عَلَى أمرينِ: عَلَى إخفائِها عندَ طلبِها، وَعَلَى التكذيبِ بها عند عَرْضِها.

ولا حاجة أنْ نَقُولَ: إن الآيَةَ أبلغُ مما ذكر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، لَكِنَّنَا نَقُول: إن تفسيرَ المُفَسِّر لها فِيهِ نظرٌ من وجهينِ كما تَقَدَّمَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾]، فما الَّذِي أوجبَ له أنْ يُقَدِّرَ (قدْ)؟

نَقُول: لِأَنَّ الجملةَ حالِيَّة، والجملةُ الحاليَّة إذا كانتْ فعلًا ماضيًا يُقَدَّر فيها (قد) للتحقيقِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَ﴾ قَدِ ﴿اسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: تيَقَّنُوا أَنَّهَا منْ عندِ اللهِ]، ففسَّرَ استيقنَ بِتيَقَّن؛ إشارة إِلَى أَنَّ حرفي السين والتاء زائدانِ، ولكِنِ الأَولى أن يبقى السين والتاء عَلَى بابهما ولا يُحْكَم بِزِيادَتِهما؛ لِأَنَّ الاستيقانَ أبلغُ مِنَ التيقُّنِ، ومنَ المعروفِ عندهم أَنَّهُم يَقُولُونَ: زيادة المبنى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى، فالاستيقانُ أبلغُ، فهمْ قدِ اسْتَيْقَنُوها استيقانًا كاملًا لَيْسَ عندهم فيها شكٌّ، ومعَ ذلكَ جَحَدُوا بها، فيَكُون هَذَا الجحدُ مَعَ الاستيقانِ أبلغَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ إِلَى آخرِهِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ ولم يقلْ: واسْتَيْقَنُوها. فإضافةُ الاستيقانِ إِلَى النفسِ أبلغُ، أي: أَنَّهُ يَقِينٌ بلغ نفوسهم حَتَّى تمكَّن منها، ومعَ ذلك -والعياذُ باللهِ- جَحَدُوا بها وأَنْكَرُوها.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تكَبُّرًا عنِ الإِيمانِ بما جاء بما موسى]، ففسَّرَ الكلمتينِ بكلمةٍ واحدةٍ وهي التكبُّرُ، ولكِن أيضًا لو نَظَرْنا إِلَى الآيَةِ الكَرِيمَةِ وَجَدْنَا أَنَّهَا أبلغُ مِمَّا فَسَّرَهَا به.

قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ الظُّلمُ فِي الأَصْلِ النقصُ، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، ومعنى ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾ أي: لم تَنْقُص، فالأَصْلُ فِيهِ أَنَّهُ بمعنَى النقصِ، وكلُّ مَن نَقَصَ حَقَّ غَيْرِهِ فَهُوَ ظالمٌ. وإذا نقصَ الإِنْسَانُ حقَّ نَفْسِه فَهُوَ ظالمٌ لها، وإذا نقصَ حقَّ غَيْرِهِ فَهُوَ ظالمٌ له. وهنا هَؤُلَاءِ نَقَصُوا حقَّ مُوسَى ﷺ فهم ظالمونَ، وَنَقَصُوا حقَّ أَنْفُسِهِم حَيْثُ لم يقودوها إِلَى ما فِيهِ صَلَاحُها؛ فهم أيضًا ظالمونَ.

ثمَّ هَذَا الظُّلْم والنَّقْص ما الحامِلُ عليه؟

قَالَ: ﴿عُلُوًّا﴾ وهَذَا معنًى غيرُ الظُّلْمِ، يَعْنِي: تَرَفُّعًا عمَّا جاء به موسى ﷺ، فلِسانُ حالِهِم يَقُول: مَنْ موسى هذا الَّذِي يأتي إِلَى فِرْعَوْنَ الَّذِي يقولُ لِقَوْمِهِ: أنا رَبُّكُمُ الأعلى، ثُمَّ يَقُول: أنا رسول إليك لَا بُدَّ أن تتبعني؟! فبِطَبِيعَةِ البَشَرِ الفاسقُ يَتَرَفَّعُ ويقول: أبدًا.

فلهَذَا جَحَدُوا ظُلْمًا لموسى وأنفسهم ﴿عُلُوًّا﴾ تَرَفُّعًا عن مُوسَى وعمَّا جاء به أيضًا، فهم -والعياذُ باللهِ- اتَّصَفُوا بالوصفينِ.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [راجع إِلَى الجَحْد]، هذا صحيح، فإذا اسْتَيْقَنُوا أنَّ موسى صادِقٌ فهذا لَيْس بظُلْمٍ ولكِنَّه حَقٌّ وعَدْلٌ وتَوَاضُع، لَكِنْ هُمْ مَا اسْتَيْقَنُوا، يَعْنِي: ما انقادوا لهَذَا الاستيقانِ، إذن فَهُوَ راجع إِلَى الجحدِ، يعني جحدوا بها ظلمًا وعلوًّا.

وفائدة الاعتراض بالجملة الحاليَّة ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا﴾ بين المُتعَلّق ومُتعلَّقِه: المُبادَرَةُ بالتشنيعِ عليهم، وبَيَان أَنَّهُم بَلَغُوا فِي هَذَا الوصف غايتَه، الَّذِي هُوَ وصف الظلمِ والعلوِّ؛ لِأَنَّ كَوْنَهم يَجحَدُونَ مَعَ الاستيقانِ أشدُّ وأعظمُ، فالجاحد مَعَ الشكِّ قد يُعذَر، لكِنْ مَعَ الاستيقانِ لا وجهَ له.

ثم ما إعراب ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هل هِيَ مَفْعُـول لأجلِهِ؟ يعني من أجـلِ الظلمِ والعلوِّ، أو هِيَ مصدر بمعنى الحالِ، أي: ظالمين عالينَ؟

الأخيرُ أَولى؛ لِأَنَّ الظلمَ والعلوَّ إذا جعلناهما مَفْعُولا من أجلِه فَهُوَ سابقٌ عَلَى الجحدِ؛ إذ إنَّهُم ظَلَمُوا وعَلَوْا ثُمَّ جَحَدُوا، فعلى هَذَا نَقُول: إنّ ظلمًا وعلوًّا مصدرٌ بمعنى اسمِ الفاعلِ، أي: جحدوا بها حالَ كونهم ظالمينَ عالينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَانظُرْ﴾ يا مُحَمَّد...]، إِلَى آخِرِه.

قوله: ﴿فَانظُرْ﴾ هل المُرادُ: نظرَ اعتبارٍ أو نظرَ إبصارٍ؟

المُراد: نَظَرُ اعتبارٍ؛ لِأَنَّ نَظَرَ الإبصارِ هنا مُتعَذِّرٌ لِسَبْقِ زَمَنِه، لَكِنَّهُ نظرُ اعتبارٍ. والخطاب عَلَى كلام المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ يعود إِلَى رسول الله ﷺ: ﴿فَانظُرْ﴾ يا مُحَمَّد، والخِطاب بالمفردِ فِي القُرْآن لا يختصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَّا ما دلَّ عليه الدَّلِيل، وإِلَّا فَهُوَ عامٌّ، ويَكُون التَّقْدير: فانظرْ أيها المخاطَب، لَيْسَ يا مُحَمَّد؛ لِأَنَّ القُرْآنَ بينَ أيدي كُلّ أحدٍ، فكُلّ واحد بين يديه القُرْآنُ.

أَمَّا ما دلَّ الدَّليل عَلَى أَنَّهُ خَاصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ خَاصّ به، مِثل قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة:٦٧]، ومثل قولِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١].

ويدلُّ عَلَى أن الخطاب المفرد عامٌّ:

أولًا: ما ذكرناه من التعليل؛ أن الْقُرْآن بين أيدي النَّاس جميعًا.

ثانيًا: قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق:١]، فخَاطَب بالإفرادِ والجمعِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ الخطاب الموجَّه إِلَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ موجَّه للأُمَّة ما لم يَدُلّ الدَّلِيل عَلَى اختصاصه به، مثل ما مَثَّلنا بالمثالين. وكذلك منه قوله تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم:١]، فإنَّ هَذَا خَاصٌّ بالرَّسُول ﷺ، وهُوَ الَّذِي حَرَّمَ لكِن مَعَ ذلك الحُكْمُ عامٌّ.

إِذَنْ: ﴿فَٱنظُرْ﴾ نَقُول: أيها المخاطَب ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآيَة.

وهنا مسألتان:

أولًا: ﴿كَانَ﴾ تَرْفَعُ الاسمَ وتنصِبُ الخبر، هَذَا المعروفُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ [النِّسَاء:٩٦]، وهنا ما نَرَى خبرًا لـ(كان) ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ثانيًا: أَنَّهُ إذا كَانَ الفاعل مُؤَنَّثًا كَانَ الفِعْل مُؤَنَّثًا.

والجواب: ﴿كَانَ﴾ هنا ليستْ تامَّة، فالخبرُ مقدَّم وَهُوَ ﴿كَيْفَ﴾. مقدَّم وجوبًا لِأَنَّهُ اسم اسْتِفْهام، والاسْتِفْهام له الصَّدارَةُ، فلا يمكن أن يأتي الاسْتِفْهامُ فِي وسط

الكَلام، بل لَا بُدَّ أن يَكُون متقدِّمًا.

و﴿عَـٰقِبَةُ﴾ مؤنث مجازيٌّ لا حقيقيّ، والفرق بين المؤنَّث المجازي والحقيقيّ: ما كَانَ له فَرْج فَهُوَ مؤنَّث حقيقيّ، وما لم يكن له فَرْجٌ وإنما تأنيثه لفظيٌّ فَهُوَ مؤنَّث مجازيٌّ.

وقوله: ﴿عَـٰقِبَةُ﴾ ما معنى العاقبة؟ العاقبة فِي الأَصْل: التأخُّر، ومنه العَقِبُ فِي القَدَمِ، وعَقِبُ القدم هو العُرْقُوب المؤخَّر، فالعاقبة معناها: الأَمْرُ المتأخِّر، يَعْنِي: انظر ماذا كَانَ من أمرهم فِي النهاية.

وقوله: ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الَّذِينَ صار شأنهم الإفساد. والمُرادُ بالإفسادِ هنا لَيْسَ إفساد العِمرانِ، فقد يَكُونُ العمرانُ فِي زمنِ فِرعونَ قد بَلَغَ غايتَه، لكِن المُراد بالإفسادِ الإفسادُ المعنويُّ؛ إفسادُ الأخلاقِ والعقائدِ، وربما يَتْبَعُه إفسادُ العمرانِ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وكما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١١٢].

وبِهَذَا التقرير، وَهُوَ أن الأَصْلَ فِي الإفسادِ الموجودِ فِي الْقُرْآن هُوَ إفساد الأخلاقِ والعقائدِ، ويتبعه فساد الأَعْمالِ، وبِهَذَا نَعرِف خطأ ما يُطنطن به النَّاس الْآنَ من الرفاهية والطمأنينة والأمن ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وإذا أتوا إِلَى ذِكر الدين يَقُول: العقيدة السمحاء ولا يُذْكَرُ العَمَل.

ثُمَّ كلمة (السمحاء) أيضًا تدل عَلَى ضعفٍ فِي هَذِهِ العقيدة، فمعنى سمحاء: كُلّ شَيْء تَسْمَح به.

صحيح أَنَّهَا هِيَ الحنيفيَّة السَّمحة لَا شَكَّ، لَكِنَّها لها أعمال ولها حَزْم، ولِهَذَا التركيز عَلَى الترفيه البدنيّ والنعيم البدنيّ فِي نظري أَنَّهُ خطير؛ لِأَنَّهُ يبدأ كُلّ واحد يَنْشُدُ هذينِ الأَمْرينِ: يَقُول: أنا عندي عقيدة سليمة سَمْحَاء لَيِّنة، هَيِّنة، كُلّ شَيْء تَقْبَله، ويقول: أنا أنشد أيضًا رفاهيَةَ البدنِ والأمنَ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. لكِنِ استقامة الدِّين والسعي فِي إقامته بين النَّاس بالأَمْرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكَرِ والجهادِ فِي سبيلِ اللهِ هَذَا أمر لا يكاد يُذْكَر.

وفي الحقيقة أن الرفاهية إذا كانت للبدنِ وحدَه فهي فسادٌ، ولا يَدُومُ هَذَا أبدًا ولا يمكن أن يَدُومَ، عَلَى أنَّ الرفاهيَةَ المطلَقَة للبدنِ لَا بُدَّ أن تكونَ مصحوبةً بقلقٍ فِي القلبِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى إِنَّمَا ضَمِنَ الحياةَ الطيِّبَةَ لِمَن ﴿عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فقَرن بينَ العقيدةِ والعَمَل، وبَدأ بالعَمَل أيضًا ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]. حياة طيبة فِي الدُّنْيا وأجر حَسَن فِي الآخِرَة.

هَذَا الَّذِي يَجِب أن يركَّز عليه، أَمَّا الرفاهيَةُ المطلَقَةُ فإنها ضَررٌ عظيمٌ عَلَى الْإِنْسَان، تُوجِبُ الغفلةَ عنِ اللهِ تَعَالَى، وانشغال الْإِنْسَان بطلبِ الرفاهيةِ الجسديَّة الزائلة.

يَقُول بعض السلف: لو يعلم الملوك وأبناء الملوكِ ما نحنُ فِيهِ لجَالَدُونا عليه بالسيوف[1]. قَالُوا: أَعطُونا الَّذِي أنتم فِيهِ منَ النَّعيم والسرورِ وانشراح الصدر ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٣٧٠-٣٧١)؛ والبيهقي في الزهد الأكبر (٨٠)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/ ٣٠٣).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ عَلَى قـوَّة الآيَات الَّتِي جاء بها موسـى ﷺ لم يَسْتَفِـدْ مِنْهَا هَؤُلَاءِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ والآيَات إذا قَوِيت لا يبقى مجالٌ للجحدِ، ولكِن -والعياذُ بالله- أَعْمَى اللهُ بصائِرَهُم فجَحَدُوا بها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ جَحْدَ هَـؤُلَاءِ المرسَل إليهم كَانَ عن عنادٍ، لا عن شُبهـةٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾، وهل هَذَا وقعَ لكفَّار قريشٍ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ نعم وَقَعَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]، وَلَا شَـكَّ أَنَّ هَـذَا واقـعٌ مِنَ الرؤساء والزعماء، لكِن عامَّة النَّاس قد لا يَكُون لديهم هَذَا الأَمْر، وإنَّمـا هم مقلِّدون، أَمَّا الزعماء والكبراء فلَا شَكَّ فِي هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: سوء أحوال آلِ فِرعونَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ﴿ظُلْمًا﴾ لأنفسهم ولموسى، ﴿وَعُلُوًّا﴾ تَرَفُّعًا عنِ الحقِّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الاتِّصـافَ بهذينِ الوصفيـنِ يَجعلُ الْإِنْسَان من الأُمَّـة الفِرعونيَّة، وهما: الظلم والعُلُوّ، وما من صفةٍ يخرج بها العبـد عن سواءِ السبيـلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، ولهَذَا أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أننا سنركب سَنَنَ مَن كَانَ قَبْلَنَا[1]، فما مِن خَصلةٍ يَخرج بها العبد عن سواءِ السبيلِ إِلَّا وله فيها إمامٌ من أهلِ الكفرِ، فالجحد بالحقِّ للفاعل فِيهِ إمام مثل فرعونَ وقومه، والحسد للإِنْسَانِ

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيِّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ صحيح مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِيهِ إمامٌ مثل اليهودِ، والرياء للإِنْسَان فِيهِ إمام كالمنافقين، بل إِنَّهُ من المنافقين، وهَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ الترفُّع عنِ الحقِّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَعُلُوًّا﴾ ولا فرقَ بين أن يَكُونَ ذلك عن حُسْنِ نيَّة أو لا، فهَذِهِ الطريقةُ مذمومةٌ ولو عن حُسْنِ نيَّةٍ، وقولنا: (ولو عن حُسن نية) لِيَدْخُلَ فِي ذلك بعضُ المقلِّدين الَّذِينَ إذا عُرِضَ عليهم الدَّلِيل من الكتاب والسنَّة قَالُوا: نحن نَتَّبِعُ فلانًا لِأَنَّهُ أعلمُ منك، هَذَا عن حسن نية فيما يبدو. وجه كونه عن حسن نِيَّة؛ لِأَنَّهُم يرون أن هَذَا الإمام الَّذِي اتبعوه أعلمُ منك ويَقُولُونَ: نحن جهَّال ولا نعرِف ولَيْسَ لنا إِلَّا أنْ نُقلِّدَ وهَذا الرجلُ أعلمُ منك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا الوصفُ مذمومًا وفرعونيًّا؛ فإن عكسَه محمودٌ، والعكس هُوَ التواضُع للحقِّ وقَبُوله، هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ ممدوحٌ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى إذا أثنى بالسوءِ عَلَى وصفٍ فإنَّ ضده يُثْنَى عليه بالحُسْن.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أو يَجِب أن يتفكَّر ويتأمَّل فِي عواقب مَن سبقَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهل الْإِنْسَان ينظر فِي عواقب المفسدين أو فِي عواقب المفسدين والمصلحينَ؟

يَنْظُرُ فِي كِلَيْهِما.

إِذَنْ: ما فائدة الحِكْمَةُ من التخصيصِ هنا؟

نَقُول: لِأَنَّ المَقام مَقامُ تحذيرٍ، وإذا كَانَ المقام مقام ترغيبٍ فإنَّنا نَقُول للإِنْسَان: فانظرْ كيف كَانَ عاقبة المصلحينَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود:١١٦]،

فالمسألة تختلف، ففِي مقامِ الترهيبِ نُحيلُ الإِنْسَان إِلَى عواقبِ المفسدينَ، وَفِي مقام الترغيبِ نحيله إِلَى عواقبِ المصلحينَ؛ لأجلِ أن يَحْذَر من أولئك ويرغب فِي هَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيها دليلٌ عَلَى فضيلة التأمُّل والتفكُّر فِي أخبارِ مَن مَضَى؛ وأن دراسة علم التاريخِ من الأَشْيَاء الَّتِي جاء بها الشرع، فإنَّنا لا يمكن أن ننظرَ كيف كَانَ عاقبتهم إِلَّا بدراسةِ أخبارِهم وتَتَبُّعِها، فعلمُ التاريخِ إذن من الأُمُور المقصودةِ. لكِن هل من الأُمُور المقصودة ذاتيًّا أو عرضيًّا؟

عرضيًّا، إِلَّا سِيرة النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وخُلَفَائه الراشدينَ فإنها مِنَ الدينِ؛ لِأَنَّهَا كلها أحكام، بخلاف النظر فِي التاريخ لأجلِ الاعتبارِ فقطْ، فلكلِّ مَقامٍ مقالٌ؛ لِأَنَّ النظر فِي التاريخ للاعتبار فقط قد يعتبر الإِنْسَان بغيرِه فيستغني عنه، لكِن النظر فِي سيرةِ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّهَا أحكامٌ وفِقْهٌ، وهَذَا مقصودٌ لذاتِه، فلا يَستغني الإِنْسَان بغيرِها عنها.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ مَن يَمْدَحُ هَذِهِ الأممَ ويُشِيدُ بقُوَّتِهم وإبداعهم ولا ينظر إِلَى عاقبتهم؟

قُلْنَا: إذا كَانَ الإِنْسَانُ يَتفكَّر بِعمرانهم وقوتهم ومع ذلكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، فهَذَا لا بأسَ به، وَأَمَّا إذا كَانَ يريد أنْ يَتفكَّر بقوَّتهم من أجل مَدْحِهِم والثَّناء عليهم فهَذَا لا يجوزُ، وهَذَا ما أَمَرَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ ننظرَ إِلَى قُوَّتِهِم إِلَّا بَعْد أنْ أَمَرَنَا أنْ نَنْظُرَ إِلَى عاقبتهم. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يذهبون إِلَى دِيَارِ ثَمُودَ لِلتَّفَرُّجِ والتنزُّه هَؤُلَاءِ عُصَاةٌ، فالرَّسُول ﷺ يَقُول: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ**»، فلا يجوز أنْ يذهبَ الإِنْسَانُ فِي رحلةٍ مثلًا إِلَى ذلك المكان إِلَّا إذا كَانَ يدخل وَهُوَ باكٍ

«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ»[١].

والحمدُ للهِ الْإِنْسَان فِي غنى عن هَذَا، فلَيْسَ بلازمٍ أنْ يذهبَ، لكِن مَعَ الأسفِ الْآنَ صارتْ آثارًا يُقْصَد مِنْهَا بيَان قـوَّة هَؤُلَاءِ وإبداعهم وإحكامهم لأمورهم، ولا يَلتفتون إِلَى ما أحلَّ اللهُ بهم منَ العقوبةِ، والعياذُ باللهِ.

• ● ۞ ● •

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث رقم (٤٢٣)؛ ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إِلَّا أن تكونوا باكين، حديث رقم (٢٩٨٠)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيـة (١٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:١٥].

• ● ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَان ما مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عَلَى داودَ وسُلَيْمان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ثناءُ اللهِ عَلَى نفسِه؛ لِأَنَّ كونه يَتَمَدَّح بإيتاءِ داودَ وسُلَيْمان علمًا فهَذَا مِنَ الثَّناء، وهل هَذَا محمودٌ بالنِّسْبَةِ للخلقِ أنْ يَتَمَدَّحَ الْإِنْسَان بفضلِه؟

لَيْسَ هَذَا مِنَ المحمودِ، إِلَّا إذا كَانَ فِي ذلكَ مصلحةٌ للغيرِ، لَيْسَ لكَ أنتَ، أَمَّا اللهُ فيمتَدِح نفسهِ للثناءِ عَلَى نفسِهِ، لكِن أنتَ لا تفعل هَذَا، أَمَّا إذا كَانَ فِيهِ مصلحةٌ للغيرِ كإِنْسَانٍ مثلًا يذكر عن نفسِه شيئًا لأجلِ أن يُقتدَى به فِي الخيرِ؛ فهَذَا لا بأسَ به، أو لأجلِ أنْ يَنتفِعَ النَّاس بما عنده، فهَذَا أيضًا لا بأسَ به، فابنُ مَسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ أَعْلَمُ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»[1] أو كما قالَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

والعُلَماءُ ما زالوا يَمْدَحُون كُتُبَهُم، فابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُول(١):

تُقَرِّبُ الْأَقْصَى بِلَفْظٍ مُوجَزِ ... وَتَبْسُطُ الْبَذْلَ بِوَعْدٍ مُنْجَزِ

وَتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ ... فَائِقَةً أَلْفِيَّةَ ابْنِ مُعْطِي

المهمُّ عَلَى كُلِّ حالٍ: أن مثل هَذَا لَيْسَ لمصلحةِ الْإِنْسَانِ، فهَذَا لمصلحةِ غيرِه؛ لأجلِ أن يَنْتَفِعُوا من هَذَا المُؤَلَّف مثلًا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: بعض المُؤَلِّفين أحيانًا يبالغُ؟

فالجواب: الكَلامُ عَلَى الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إسرافٌ، ولكِن الشَّيْء المعتدِل، مَعَ أَنَّهُ فِي الحقيقة الْإِنْسَان قد يُتَّهَم، ومهما كانت نِيَّتُه قد يُتَّهم، لكِن لا يضرُّ الْإِنْسَانَ إذا أصلحَ ما بينه وبين ربِّه، فلا يُهِمُّه النَّاس.

المهم أنَّ فِي هَذِهِ الآيَةِ دليلًا عَلَى تَمَدُّحِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما تَفَضَّل به عَلَى عِبَادِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فَضيلة داودَ وسُلَيْمان وأنهما أهلٌ لهَذِهِ النعمةِ؛ فإنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤]، فما من فضلٍ يُعطيه اللهُ العبدَ إلَّا وَهُوَ فِي مكانِه؛ لِأَنَّ الله حكيم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة العلم؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾، وهَذَا لَا شَكَّ فيه، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، لكِن يبقى النظرُ: ما هُوَ العلم الممدوح؟ هل هو هَذَا الَّذِي النَّاس الْآنَ فِيهِ فِي جدلٍ؟!

المُرادُ بالعلمِ الممدوحِ علمُ الشَّرِيعَة، أَمَّا ما سِوَى علمِ الشَّرِيعَة فَإِنَّهُ لا يُمدح

(١) ألفية ابن مالك: البيتان الرابع والخامس.

إِلَّا حَيْثُ يُوصِل إِلَى أمرٍ محمودٍ، عكس ما عليه النَّاس اليومَ، كثيرٌ منَ النَّاسِ الجهَّال يمدحون العلمَ بغيرِ الشَّرِيعَةِ، وبعضُ النَّاس -والعياذُ باللهِ- يرَى أن علمَ الشَّرِيعَة تأخَّر، وأن علم الطبيعةِ تقدُّم، ولهَذَا يَمْتَدِح هَؤُلَاءِ العُلَماءَ بالصنائع وطبقاتِ الْأَرْضِ وغير ذلك؛ يَتَمَدَّح هَذَا بأنه أفضل العِلم أو هَذَا هُوَ العلمُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو إذا رأَى من الصناعةِ الغربيَّة قَالَ: هذا هو العلم، ولا يوجد شكّ أنَّ هَذَا الْآنَ يُفَضِّل هَذَا العصرَ عَلَى عصر الصحابةِ.

وهَذَا لَيْسَ هُوَ المقصودَ، فالمقصودُ بثناءِ اللهِ علمُ الشَّرِيعَة؛ لأن علم الشَّريعة هُوَ الَّذِي يَنْفَع الخلقَ، حتى إن علم الشريعة هو الذي يَدُلُّهم عَلَى هَذِهِ العلوم الَّتِي يَتبجَّحُونَ بها؛ لِأَنَّ الله يأمرُ بأن نسعى فِي الْأَرْض، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٨٥]، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالحاصلُ: أنَّ العلمَ الَّذِي مَنَّ اللهُ به عَلَى داودَ وسُلَيْمَان وأثنَى عليهما به هُوَ علمُ الشَّرِيعَة، وهَكَذَا جميعُ ما فِي النصوصِ مِن مَدْحِ العلمِ فَهُوَ علمُ الشَّرِيعَةِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُحمَدُ لِذَاتِهِ، وما عداهُ فيُحمَد إذَا كَانَ مُوصِلًا إِلَى أمرٍ محمودٍ؛ وإلا فَإِنَّهُ إن أوصلَ إِلَى أمرٍ مذمومٍ كان مذمومًا، وإنْ أوصلَ إِلَى أمرٍ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ فَهُوَ لا يُحْمَد ولا يُذَمّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: غيرُ المُسلِمينَ وَصَلوا إِلَى أعماق البحارِ وإلى الفضاءِ، مَعَ أَنَّهُم لم يَقْرَءُوا علمَ الرَّسُول ﷺ، ولا علمَ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم؟

فالجواب: هَذَا من الجهلِ، ولهَذَا عِلْمُهم هَذَا الْآنَ لَيْسَ محمودًا، إِلَّا إذا أوصلَ إِلَى أمرٍ محمودٍ، وإلا فَهُوَ غيرُ محمودٍ، فهَؤُلَاءِ الَّذِينَ وَصَلُوا إلى أعماقِ البحارِ وإلى

آفاقِ الفضاءِ هم الَّذِينَ صَنَعُوا ما يدمِّر الخلقَ منَ القنابلِ والأسلحةِ، فهل هَذَا محمود؟!

ثم نَقُول: هَـذِهِ العلومُ إذا كانـت لا تنافي العلمَ الشرعيَّ فنحن نتمنـى أن المُسلِمين أيضًا يصلون إِلَى هَذِهِ الأُمُورِ لِيَنْفَعُوا أنفسَهم وينفعوا الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فضيلة داود وسُلَيْمَـان أيضًا من جهةِ اعترافهمـا بنعمةِ اللهِ وقيامِهِمَا بشكرِ نعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ لم يَقُولا: إننا أُوتِينا هَذَا عَلَى علمٍ منَّا، أو لأَنَّنا أذكياء أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الشكر يَكُونُ بالقَوْلِ كما هُوَ أيضًا بالفِعْل، فيَكُون بالقَوْلِ وبالفِعْل، ويَكُون أيضًا بالعقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشكرُ له ثلاثةُ مَحَلَّاتٍ: القَلْب واللسانُ والجوارحُ، قَالَ الشاعر[1]:

أَفَـادَتْكُمُ النَّعْمَـاءُ مِنِّـيْ ثَلاثَـةً ... يدي وَلِسَـانِي وَالضَّـمِيْرَ المُحَجَّـبَا

والدَّلِيلُ عَلَى أن الشكرَ يَكُون فِي ثلاثةِ مواضعَ: فِي هَذِهِ الآيَةِ الشكرُ باللسانِ، وقال النَّبِيّ ﷺ وقد قيل له: كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا -وَكَانَ يَقُومُ حَتَّى تَتَوَرَّم قَدَمَاهُ- وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، فَقَالَ: «**أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[2] فجعل الفِعْل شكرًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقال تَعَالَى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) نهاية الأرب (٣/ ٢٤٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، حديث رقم (٤٥٥٧)؛ ومسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأمَّا الاعترافُ بالنِّعَمِ بالقلبِ فهُوَ مِنَ الشُّكْرِ، والدَّلِيلُ قولُهُ تعالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]، هَذَا الخبرُ يريدُ اللهُ مِنَّا أَنْ نَعْتَقِدَهُ، ولهَذَا ذَمَّ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الَّذِينَ نَسَبُوا نِعْمَتَهُ إِلَى أنفسهم، قَالَ عن قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨]، فقَالَ اللهُ تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص:٧٨].

والمواضعُ الثلاثةُ للشكرِ قَلَّ مَن يقومُ بها، فبعضُ النَّاسِ مثلًا يَعتمِد عَلَى السَّبَب فِي جَلْبِ النعمةِ إليه وينسى المسبِّبَ، فعندما يعطيه إِنْسَانٌ حاجةً من الحاجاتِ تجد أَنَّهُ يقومُ فِي قلبِهِ من شكرِ هَذَا المعطي أكثر ممَّا يقوم بشكرِ اللهِ، تجده يُثْنِي أيضًا عَلَى هَذَا أكثرَ ما يثني عَلَى اللهِ، فتجده يقوم بخدمةِ هَذَا أكثر مما يقوم بخدمةِ اللهِ، مَعَ أن هَذَا الَّذِي وَصَلَتِ النعمةُ عَلَى يدِهِ ما هُوَ إِلَّا طريق لِوُصُولِها إليك فقط، وإِلَّا فالذي جعلَ فِي قلبه أن يوصل هَذِهِ النعمة إليك هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَسَّرَ هَذَا.

فالحاصلُ: أنَّ النَّاسَ الْآنَ فأكثرُهم أو غالبهم يُخِلُّون فِي مَقامِ الشكرِ إمَّا بالقلب أو باللسان أو بالجوارحِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الْإِنْسَانَ يُشْرَعُ له إذا مَنَّ الله عليه بنعمةٍ أنْ يَحْمَدَهُ عليها، وقد وردَ فِي النصوصِ مثل ذلك، فعندما تنتهي من الأكلِ والشربِ تقول: الحمدُ لله[(١)]، وعندما تَسْتَيْقِظُ تَحْمَدُ اللهَ[(٢)]، وعندما تلبسُ ثوبًا تحمدُ

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث رقم (٢٧٣٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا نام، حديث رقم (٥٩٥٣)؛ صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، حديث رقم (٢٧١١)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الله[1]، وهكذا فمنَ الأمُورِ المشروعةِ حَمْدُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى النِّعَم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تواضُع داود وسُلَيْمان ومعرفتهما للحقيقةِ، لِقَوْلِهِ: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما ذكرا التفضيلَ المطلَقَ عَلَى جميعِ المُؤْمِنِينَ، بل عَلَى كثيرٍ من عبادِهِ المُؤْمنِينَ.

وهل يُستفاد من ذلك وصف الأَنبِياء بالإِيمان، يَعْنِي: هل يُشْعِر قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنهما من المُؤْمنِينَ؟

الظَّاهِرُ أَنَّهُ يُشْعِرُ بهذا، يعني أننا شاركناهم فِي وصفِ الإِيمـانِ، و﴿فَضَّلَنَا﴾ اللهُ عَلَى كثيرٍ منهم.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله تَعَالَى: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ أفضلُ الرسُلِ؛ لِأَنَّ قولهما: ﴿كَثِيرٍ﴾ يَدُلّ عَلَى أنهما عَلِما ذلك؟

قُلْنَا: هَذَا فِيهِ إشكالٌ، وَهُوَ أَنَّنا لَيْسَ عندنا علمٌ أن الأَنبِياء عَلِموا بأن مُحَمَّدًا ﷺ سَيُبْعَثُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١]، كلمة (رسول) نَكِرَة لا تدلُّ عَلَى أن الله عَيَّنَ مُحَمَّدًا ﷺ هؤُلَاءِ، وإن كَانَ قَالَ: إن الله أخذ عَلَى النبيِّين الميثاقَ لئِن بُعث مُحَمَّد، لكان هَذَا تفسيرًا منه، أَمَّا الآيَةُ فلا تدلّ عَلَى هَذَا، وقد يقال: إِنَّهُ يَدُلّ عليه لِأَنَّ داود ﷺ يقينًا اطلع عَلَى التوراةِ.

---

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب اللباس، باب، حديث رقم (٤٠٢٣)، عن معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب في دعاء النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم (٣٥٦٠)، سنن ابن ماجه، كتاب اللباس، باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوبًا جديدًا، حديث رقم (٣٥٥٧)، مسند أحمد (١/ ٤٤) (٣٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الْإِنْسَان إذا رأى أَنَّهُ أفضلُ من غيرِه بنعمةِ اللهِ عليه فإن هَذَا لا يُنافي التواضُعَ، يعني عندما تشعر أن الله أنعمَ عليكَ بالمالِ وفَضَّلَكَ عَلَى هَذَا، فهذا لا يعني أَنَّك تَرَفَّعْتَ وتَكَبَّرْتَ، بل إنك لا يمكنُ أن تدركَ نعمةَ اللهِ عليك حَتَّى تعرفَ ضِدَّها فِي غيرك، فإذا رأيتَ مثلًا إِنْسَانًا مبتلى فِي بدنه والله تَعَالَى قد عافاكَ، عرفتَ فضلَ نعمةِ اللهِ، تقول: الحمد لله الَّذِي عافاني ممَّا ابتلاهُ به وفضَّلني عليه، وعندما تَرَى جاهلًا وأنتَ قدْ منَّ اللهُ عليكَ بالعلمِ فإنك كذلك أيضًا ترى فضلَ نعمةِ اللهِ عليكَ بِهَذَا العلم، ولا يُعَدّ هَذَا من بابِ الترفُّع والاستهانة بالغيرِ، ولهَذَا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقد يتراءى للإِنْسَانِ أَنَّهُ إذا رأى فضلَه عَلَى غيره بما أنعمَ اللهُ عليه أن ذلك أمرٌ مذمومٌ، وَأَنَّهُ يتضمن الترفُّعَ والاستهانةَ بالغيرِ، وَلَيْسَ الأَمْرُ كذلكَ، لكِن هَذَا حَسَب نِيَّةِ الْإِنْسَان، فشعوره بعلوِّهِ بما فَضَّلَهُ اللهُ به عَلَى غيره قد يَكُون علوًّا وقد يَكُون ازدراءً، وقد ينظرُ إِلَى نعمةِ اللهِ عَلَى غيره عَلَى وجهِ الحِكْمَةِ، يَقُول: إن الله حكيمٌ، ولولا أن هَذَا أهلٌ ما أعطاهُ، ثُمَّ يَسعَى فِي تكميلِ الفضائلِ لينالَ ما نالَ، المهمُّ أن هَذِهِ المسألة ترجع إِلَى النيَّة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: مشروعيَّة التحدُّث بنعمةِ اللهِ، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الغيرِ، ولهَذَا جاء فِي الحديث عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**»[1]، فالْإِنْسَانُ إذا تحدَّث بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخرٍ بها فَإِنَّهُ لا بأسَ

---

(١) رواه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، حديث رقم (٣١٤٨)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، حديث رقم (٤٣٠٨)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ورواه مسلم بدون: «ولا فخر»، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، حديث رقم (٢٢٧٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بذلك، بل قد يَكُون هَذَا مشروعًا؛ لِأَنَّهُ ثناءٌ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أنعمَ به عليك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ علمِ اللهِ، وَجْهُه أَنَّهُ أعطَى علمًا، وفاقدُ الشَّيْءِ لا يُعْطِيهِ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى هَؤُلَاءِ عِلمًا، ولا يُعْطِي العلمَ إِلَّا مَن كَانَ عالمًا، لِأَنَّهُ يُعَلِّمُهم بما يَعْلَمُ هو.

• ● ۞ ● •

الآيــة (١٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ سُلَيْمان متأخِّر عن داودَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾ والإرثُ أنْ يَخْلُفَ الْإِنْسَانُ غيرَه فِي شيءٍ ما، عِلْمًا كَانَ أو مالًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مشروعيَّة تحدُّث الْإِنْسَانِ بِنعْمَةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَذَا التحدُّث لا بأسَ أن يَكُون علنًا، يعني شَامِلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء للبعيدِ، فكأنَّ سُلَيْمان أعلنَ ذلك فِي جميعِ النَّاسِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الطيرَ تَنطِقُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نُطقَهَا مفهومٌ ومعلومٌ، ولكِن فيما بينها معلوم، ولغيرها مجهولٌ، إِلَّا لَمن عَلَّمَهُ اللهُ، ولِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعطَى سُلَيْمان من كُلّ شيءٍ يَتِمُّ به الْمُلْكُ؛

لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وَهُوَ نظيرُ قولِه تَعَالَى عن مَلِكَةِ سَبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣]، أي: مِمَّا يَتِمُّ به المُلْك، هَذَا إذا قَيَّدْنا من كُلّ شَيْء يتمُّ به المُلك، فـ﴿مِن﴾ لبيَان الجنسِ، وإذا قُلْنَا: إن ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌّ لكلِّ شيءٍ فإن ﴿مِن﴾ تكون للتبعيضِ؛ لأنها ما أُعْطُوا كُلَّ شيءٍ، بل بعضَ كُلّ شيءٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ ما يعطيه الله تَعَالَى العبدَ منَ العلومِ والفهمِ فَهُوَ من فضلِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه؛ لِأَنَّهُ تَمَدَّحَ بِقَوْلِهِ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾.

إِذَنْ: تعلُّم اللُّغةِ غيرِ العربيَّة هُوَ فِي الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ عَلَى العبدِ، لكِن إنِ استعملها مكانَ اللُّغةِ العَربيَّةِ فَإِنَّهُ مُخْطِئٌ، وَكَانَ عمر يَضرِب عَلَى ذلك[1]، وإنِ استعملها لمصلحةٍ دِينيةٍ فهَذَا له أجرٌ فِي ذلكَ، كما لوِ استعملها فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الله وتَفهيم الخلقِ الَّذِينَ لا يَفهمون اللُّغةَ العَربيَّةَ، فهي وسيلةٌ.

المهمُّ أَنَّهُ لَا شَكَّ أن الْإِنْسَان الَّذِي يتعلم لغة غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه فِي هَذَا، ولكِن كونه محمودًا أو غير محمودٍ يَرجِع إِلَى ما يَتَوَصَّلُ به بهَذِهِ اللُّغةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ آيَةٌ، وعليه فتعلُّم لغةِ الغيرِ لَيْسَ له ميزةٌ؟

قُلْنَا: هَذَا صحيحٌ، لكِن كونه يَتَمَدَّح أَنَّهُ عُلِّم هَذَا المَنْطِقَ هل هُوَ لأجلِ كونِه

(١) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٣٣، رقم ٢٢٢٩).

آيَةً أو لِأَنَّهُ أمرٌ يَخفى عَلَى غيرِه؟ صحيح أَنَّهُ آيَة ويخفى عَلَى غيره.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المسألة ليستْ بذاك، المسألة الَّتِي تؤخَذ من هَـذِهِ الآيَة أنَّ الْإِنْسَان يُمْدَح إذا عَلِمَ لغةَ غيرِه زائدة، لكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ علم، وَأَنَّهُ إذا تُوُصِّلَ به إِلَى أمر مقصودٍ فَهُوَ محمود كما تقدَّم، وإن توصل به إِلَى أمر مذمومٍ فَهُوَ مذمومٌ.

فمثلًا إذا كَانَ الْإِنْسَان يَتَعَلَّم لغة غير العَرِبيَّة فيُحِلّها مَحَلّ العربيَّة ويبدأ يخاطِب غيرَه بهَذِهِ اللُّغةِ فلَا شَكَّ أَنَّهُ مذمومٌ ويُنهى عنه؛ لِأَنَّهُ يخالف الشرعَ من جهةٍ، ويخالف العقلَ من جهةٍ أخرى، فالأممُ الْآنَ تسعى بكل وسيلةٍ للحفاظِ عَلَى لغاتِها، بل إنَّها تسعى لإحياءِ لغاتها البائدةِ، مثلما يصنع اليهود الْآنَ يحاولون بشتَّى الوسائلِ أن يرجعَ قومُهم إِلَى اللُّغة العِبْرِيَّة، فكيف نُضَيِّع اللُّغَةَ العربيَّة الَّتِي هِيَ لغة العالم، لغة العالم شَرعًا -وليسَ قَدرًا- ولهَذَا يَجب عَلَى جميعِ العالمِ أن يتعلمَ اللُّغةَ العَرَبِيَّةَ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن باللُّغةِ العَربيَّةِ ولا يمكن فَهْمُه إِلَّا باللُّغة العربيَّة.

ولكِن نحن الْآنَ مَعَ الأسف نَرى أن غير اللُّغة العَربِيَّةِ هِيَ العالميَّة، مثلما أننا نرى الْآنَ الشهورَ غير العَربيَّة هِيَ العالمية؛ لأَنَّنا فِي الحقيقةِ ما عَرَفْنا قَدْرَ أَنفسنا، وإِلَّا فالمسلمونَ هم العَالَمَ فِي الحقيقةِ، هم العالم فِي دِينهم، وَفِي كتابهم، وَفِي تاريخهم، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ﴾ لِمَن؟ ﴿لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، وليس العرب وحدهم ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، وقال تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦]، متى؟ ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وقد فَسَّرَهَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذِهِ الأشهرِ العَربيَّة، لكِن[1]:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

---

(١) الحماسة البصرية (٢/ ٣٠١).

فالحاصل: أنه مَعَ الأسفِ الشَّديدِ بعضُ النَّاسِ يَتَعَلَّم لغةَ هَؤُلَاءِ ويجعلها هِيَ لغةَ التخاطُبِ فيما بينهم، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ نقصٌ فِي الشرعِ والعقلِ.

ولو أن النَّاس نُقلوا من اللُّغةِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ العَربيَّةِ الفصحى فهَذَا طيِّب ومِن أحسن ما يَكُون؛ لِأَنَّهُ يُعِين عَلَى فهم الْقُرْآنِ والسنّة، لكِن إذا لم يمكِن فهَذَا تغييرٌ، أي: لهجة فقط، ولو تأمَّلْتَ ما عليه النَّاس الْآنَ من اللُّغة العامِّيَّة لوجدت أن كُلّ كلماتهم لها أصول فِي اللُّغة العَربيَّةِ، لكِن هو اختلاف لَهَجَات، فبودنا الحقيقة أن نرجع إِلَى اللُّغة العَربيَّة الفصحى، ولكِن هَذَا يحتاج عملًا، فنحن نريد أن نَتَخَلَّى عن لُغَتِنا هَذِهِ العامِّيَّة إِلَى اللُّغةِ الفصحى، ويعجبني واحد من سيريلانكا فِي إحدى المؤسسات عندنا جاء مـرَّةً يتكلم معي ويتكلم باللُّغةِ الفصحى ولا يَلْحَنُ، هَـذَا العجيب، فالعجيب أَنَّهُ لا يلحن، هُوَ سيرلانكي أصلًا لَكِنَّهُ تعلم اللُّغة العَربيَّة عَلَى اللُّغة الفصحى؛ لِأَنَّ القواميس باللُّغة الفصحى، وهو يكلمني باللُّغة الفُصْحَى تمامًا ولا لحنَ وهَذَا طيِّب.

• • ❁ • •

الآيــة (١٧)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧].

• ● ● •

قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ آتاه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مُلْكًا لا يَنبغي لأحدٍ من بعدِه، حَتَّى إنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَمَّا هَمَّ أنْ يَقبِضَ عَلَى الشيطانِ قَالَ: «ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمان: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص:٣٥]»(١). فمِن جُملة مُلْكِهِ هَذَا التنظيمُ العظيمُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ]، والجامِعُ: النُّقَباء والعُرَفَاء الَّذِينَ جَعَلَهُم يَجْمَعُون هَؤُلَاءِ الجنودَ، فَهُوَ قد نَظَّمَ مُلْكَه غايةَ التنظيمِ وجعلَ لكلِّ أُناسٍ قادةً وعُرَفَاءَ يَجْمَعُونهم.

وقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ وهل يُحشَر معهم غيرهم؟

الجِنّ واضحٌ، والإنس مُكَلَّفون، والطيرُ غيرُ مُكَلَّفِينَ، وهي تطير.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب الأسير أو الغريم يربط في المسجد، حديث رقم (٤٤٩)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه وجواز العمل القليل في الصلاة، حديث رقم (٥٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بَقِينا فِي الحيواناتِ الأُخْرَى الماشية والزاحفةِ، هل تدخل فِي هَذَا من بابِ أَولى ونَقُول: إِنَّهُ إذا حُشِرَتِ الطيورُ الَّتِي لا يمكن السيطرةُ عليها فغيرها من باب أولى، أو نَقُول: إن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما كَانَ يَستعمِل إِلَّا الطيور فقط؛ لِأَنَّهُ يستخدمها لمصالحه؟

هو مَحَلُّ إشكالٍ عندنا، فالآن نَقُول: سكتَ عن بقيَّة الحيوانات، فهل هِيَ داخلة فِي جُنُودِهِ أو لا؟ قد تقولُ: إنَّهَا داخلة من باب الأَولى، وقد نَقُول: ليست بداخلةٍ.

ما وجه قولنا: من باب الأولى؟

وجه قولنا أن نَقُول: إذا كَانَ الطيرُ وَهُوَ لا يمكن السيطرةُ عليه لِطَيَرَانِهِ يُحْشَر ويُجْمَع فغيرُه من باب أولى، وقد تقول: إِنَّهُ لَيْسَ بلازمٍ؛ لِأَنَّهُ يمكن أن سُلَيْمان ﷺ لا يستخدم من الحيوانات سِوَى الطيرِ، وإذا لم يَسْتَخْدِمْ سواها فلا حاجةَ له فِي أن يجمعَ الباقيَ.

قوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يُجْمَعُونَ ثُمَّ يُساقون]، وهَذَا أيضًا منَ التنظيم ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُساقون يعني منظمينَ فِي جَمْعِهِمْ وسَيْرِهِمْ، فيُجمعونَ أولًا، وبعدَ أنْ يُجْمَعُوا يُوَزَّعُون فيُساقون عَلَى وجهٍ مُنَظَّمٍ. وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من التنظيمِ الَّذِي يحفظ عَلَى النَّاس الوقتَ والعَمَلَ؛ لِأَنَّ أكثرَ ما يُضَيِّعُ وقتَ الْإِنْسَانِ وعَمَلَه هُوَ عَدَمُ التنظيمِ.

ولَهَذَا أقول: إِنَّهُ يَنبغي أنْ يَكُونَ عندَنا تنظيمٌ لأعمالِنا اليوميَّة بِقَدْرِ المُستطاع، ولكِن لَيْسَ معنى ذلكَ أنْ نُصِرَّ عَلَى هَذِهِ الأَعْمالِ وإنْ وُجِد ما هُوَ أفضل فلا نفعله،

إِنَّمَا فقط يَكُون الْإِنْسَان مُرَتَّبًا مُنَظَّمًا لا يَدَع وَقْته فَوْضى، فيقرأ الْآنَ فِي هَذَا الكتاب سطرًا ثُمَّ يَدَعه لِيَقْرَأَ فِي الكتابِ الثاني ويدعه، أو يعمل هَذَا العَمَل ويبدأ به ثُمَّ يَتْرُكه، فيَنبغي أن يَكُونَ عِنْدَه تنظيمٌ، ومِنَ الْمُسْتَحْسَنِ أَنَّهُ كلَّما كَانَ الشَّيْء أهمّ يبدأ به أوَّلًا.

وكَانَ بعض النَّاس يَقُولُونَ: إِنَّهُ من جُملةِ تنظيمهم يجعل قراءة الجرائد والصحف إذا تغدَّى، ويَجعل قراءةَ الكتبِ الهامَّة الَّتِي تحتاج إِلَى تعبٍ بعدَ الغداءِ؛ لِأَنَّ قراءةَ الصحفِ قراءةٌ سَطحيَّةٌ مثل التحدُّث العادي، ولَيْسَ فيها تعبٌ. لكِن الكتب فيها تَعَمُّق فتحتاج إِلَى عملٍ، وهَذَا لا يناسبُ مَعَ وجودِ الشِّبَعِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد نَظَّمَ جُنُودَهُ ورَتَّبَهُم بحيث يُجمَعون عندَ الجمعِ ويُفرَّقُون عند التفريقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الجنود الَّذِينَ يَسْتَصْحِبُهُمْ سُلَيْمَان ثلاثةُ أصنافٍ، وهم: الجِنُّ والإنسُ والطيرُ، أَمَّا الإنس فاستصحابُه لهم ظاهرٌ؛ لِأَنَّهُ منهم، وَأَمَّا الجنُّ فلاستخدامِهِمْ فيما لا يَقْدِرُ عليه الْإِنْسَانُ، وَأَمَّا الطيورُ فقال بعضُ العُلَماءِ: إنَّهَا تَصْحَبُهُ لِتُظِلَّهُ، فتكون فوق رأسِهِ ظُلَّةً منَ الشَّمْسِ، وهَذَا قد يَكُون مقصودًا، وقد يَكُون أيضًا من مقصودِ استصحابِ الطيرِ أَنَّهَا تأتيه بالأخبارِ البعيدةِ كما فِي قِصَّة الهُدْهُد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: كمال التنظيم أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ الوَزْعَ معناه: الجَمْعُ والسَّوْق، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت:١٩]، يُجْمَعُون إليها ويُساقُون إليها. وهَذَا دليلٌ أيضًا عَلَى كمالِ تَنظيمِهِم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جوازُ استعمالِ الساقَةِ فِي الجُنْد والجيشِ، بأن يَكُون لهم سائقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دليلًا، وقد كَانَ من هدي الرَّسُول ﷺ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الساقَةِ فِي أُخريات القومِ[١]، مَعَ أَنَّهُ ﷺ رَئِيسهم وزعيمهم، لَكِنَّهُ يتأخَّر لأجلِ أنْ يُرْفِدَ من قَصَّر ويُعِين مَنِ احتاجَ، وللفوائد العظيمة الَّتِي تحصُل بهذَا.

• • ❁ • •

(١) سنن أبي داود: كتاب الجهاد، باب في لزوم الساقة، رقم (٢٦٣٩).

الآيــة (١٨)

• • ◦ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:١٨].

• • ◦ • •

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ هَذِهِ غايةٌ لِما سبقَ، وَهُوَ قوله: ﴿وَحُشِرَ﴾، وَعَلَى هَـذَا فيَكُونُ فِي الكَلامِ حَـذْفٌ تَقديرُه: وساروا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾. فبعدَ أنْ جُمِعَ الجنودُ وَوُزِّعُوا فَرْدًّ أولهم إِلَى آخرهم، ونُظِّموا، سَارُوا.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: ﴿أَتَوۡاْ﴾ أي: سُلَيمان وجنوده، أي: مَرُّوا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهر الكَلامِ أن هَذَا الوادي معروفٌ بهَذَا اللَّقَب، أي أَنَّهُ يُسَمَّى واديَ النملِ، ويَحْتَمِل، لَكِن خِلافَ الظَّاهِرِ أن يَكُونَ هَذَا الوادي واديًا فِيهِ نملٌ، يعني يَكُون التَّقْدير: حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادٍ فِيهِ نملٌ، وَلَيْسَ معروفًا بهَذَا اللَّقَب، أي بأنه: وادي النملِ، ولكِن الأَولى الأخذُ بظاهرِ اللفظِ؛ وَهُوَ أن يَكُونَ هَذَا الوادي معروفًا بكثرةِ نَمْلِهِ وَأَنَّهُ يُلَقَّب بهَذَا اللقبِ لِكَثْرَتِهِ.

والنَّمْلُ معروفٌ، وَهُوَ مِنَ الحيواناتِ الَّتِي نُهي عن قَتْلِها، كمـا فِي السُّنَن أن النَّبِيّ ﷺ نهى عن قتل أربعٍ منَ الدوابِّ، وذكرَ مِنْهَا النَّمْلةَ[1]، وَفِي الصَّحيحِ أيضًا

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، حديث رقم (٥٢٦٧)؛ وابن ماجه، كتاب الصيد، باب ما ينهى عن قتله، حديث رقم (٣٢٢٤)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أن أحدَ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- قَرَصَتْهُ نملةٌ، فأمر بِقَرْيَةِ النملِ كُلِّها فأُحْرِقَتْ، فَعَاتَبَهُ اللهُ عَلَى ذلك وقال: هَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً[1].

وهَذَا النَّمْلُ من جملةِ المخلوقاتِ الَّتِي تَعْرِف ربَّها وتعرف ما يَنْفَعُها وما يَضُرُّها عَلَى حَسَب ما رُكِّبَ فيها من هدايةٍ، وقد قَالَ موسى ﷺ لِفِرْعَوْنَ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠]، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي الخلقَ اللائقَ به، فكُلّ شيءٍ من الحيوان وغيرِه له خَلْق يَليق به أعطاهُ اللهُ، ثُمَّ هَدَى هَذَا الخلقَ أيضًا لما تَقُومُ به مصالحُه، فهَذَا النملُ من جُملةِ المخلوقاتِ الَّتِي أَعطاها اللهُ تَعالَى خَلْقَها وهداها.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ وَهُوَ بالطائفِ أو بالشام]، خِلاف، ولا دليلَ لا عَلَى الطائفِ ولا عَلَى الشام، والأقرب أَنَّهُ بالشام -ومعَ ذَلِكَ لا نَجْزِمُ به- لِأَنَّ مَقرّ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ فِي الشام، وتعيين المكانِ ليس منَ الأُمُورِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا فِي القصة؛ لِأَنَّ المقصودَ الاعتبارُ بما جَرَى فِي أيِّ مكانٍ كَانَ من الْأَرْض، وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [نمله صِغار أو كبار]، أيضًا ما لنا ولهَذَا، بعضهم يَقُول: نمله كبار، والنَّمْلة كالذئب، يعني صار النمل حميرًا! وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بلِ النملُ هُوَ المعروفُ فِي لغةِ العربِ، وكل مَنْ فَسَّرَ شيئًا من الْقُرْآن بخلافِ ما تَقتضيه اللُّغةُ العربيّةُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ له من دليلٍ، وإلا فَيُرَدَّ عليه؛ لأنّ مَعَنا أصلًا أصيلًا فِي تفسيرِ الْقُرْآن وَهُوَ قوله تَعَالَى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، فمَن زَعَمَ أَنَّ شيئًا من الْقُرْآن عَلَى خلافِ هَذَا اللسانِ العربيّ المبينِ فعليه الدَّلِيلُ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل للأسير أن يقتل ويخدع الذين أسروه حتى ينجو من الكفرة؟، حديث رقم (٢٨٥٦)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، حديث رقم (٢٢٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعَلَى هَذَا نَقُولُ: النَّمْلُ هُوَ النملُ المعـروفُ، وَأَمَّا القَـوْلُ بِأَنَّهم كِبَارٌ وأنهم كالذِّئاب فِي الكِبَر فهَذَا لا دليلَ عليه.

قولُه: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ هَذِهِ جـواب ﴿إِذَآ﴾: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ ... قَالَتۡ نَمۡلَةٌ﴾ قَـالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مَلِكَة النَّمْل وقـدْ رَأَتْ جُنْدَ سُلَيْمَـانَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾...]، إِلَى آخِرِهِ.

قولُه رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْدَ سُلَيْمَـان]، فهَذَا واضـحٌ، اللهُ أَعْلَمُ أَنَّهَا رأته أو أَحَسَّته، قد يَكُون إحساسًا بدون نظرٍ، وقد يَكُون نظرًا، إِنَّمَـا عَلَى كُلّ حال هِيَ أدركتْ قُرْبَه ووصول سُلَيْمان بجنوده إليهم.

وقوله تَعَالَى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وظاهر كلام المفسِّر أَنَّهَا مُعَرَّفَة؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [ملكة النمل]، وهَذَا يقتضي أن يَكُون التعبير: (قالت النَّمْلةُ) يعني النَّمْلة المعهودة وهي المِلكة، ولمَّا لم يكنِ التعبيـرُ بِقَوْلِهِ: (قالـت النَّمْلة) دلَّ عَلَى أن القائِلَ لا يَتعَيَّنُ أن يَكُونَ مَلِكَة النملِ، وإنما هِيَ نملةٌ منَ النملِ، وهَذَا لَيْسَ بغريب فَإِنَّهُ كما لو أقبل جُنْدٌ عَلَى طائفةٍ منَ النَّاس ورآه واحدٌ منهم فيَصيح بهم، ولا يَلْزَمُ أن يَكُون هَذَا الصائحُ هُوَ الأميرَ أو المِلكَ، ولهَذَا الصَّحيح إبقاء الْقُرْآن عَلَى ظاهرِهِ، وأنها نملة من هَذَا النملِ، ولا يلزم أن تكونَ الملكةَ؛ لِأَنَّ في مثل هَذِهِ الأحوال أَيٌّ واحدٍ يشعرُ من الطائفةِ الموجودةِ بالخوفِ يَصيح به ويُنْذِر، أنا النذيرُ العُريانُ.

إِذَنِ: الصَّواب أن نَقُول: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ من النملِ، ولا نُعَيِّنُها بأنها الملكة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد رأتْ جُنْد سُلَيْمان]، هل يَتعَيَّن الإدراك بالرؤيةِ أو يجوز أيضًا بالإحساسِ والسمعِ؟

يمكن هَذَا، وحينئذٍ نسأل: هل للنمل أعينٌ؟

هَذِهِ تحتاج إِلَى دراسة علمِ الأحياءِ، وقد قرأتُ كلامًا يَقُول: إن النمل -بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إذا مَشَى فَإِنَّهُ يُفرِزُ أَشْيَاء تمشي النملات الأُخْرَى عَلَى رائحتها، وهَذَا شَيْء أنا شاهدتُه بعيني، حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يوجد بِسَاط كبيرٌ وَكَانَ النملُ يَمشي ويأتي عَلَى زاوية ثُمَّ يَرجِع، يعني يمشي مستطيلًا ويأتي عَلَى الزاوية ثُمَّ يرجع، كُلّ النمل عَلَى هَذَا، يعني لا يذهب فِي طريقٍ مستقيمٍ مُختَصَر، فأنا تَعَجَّبْتُ كيف يعرف الطريقَ؟ لو كَانَ عَلَى ترابٍ لكانَ يبين أثر النمل ويَمشي بعضهم مَعَ بعض، لكِن هَذَا لَيْسَ عَلَى ترابٍ، ولكِن بَعْد أن قرأتُ هَذَا عنه عرفتُ أَنَّهُ إذا مشَى يَكُون له رائحةٌ وتمشي بقيَّة النمل عَلَى هَذِهِ الرائحةِ، وهَذَا من آياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هَذَا معنى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

عَلَى كُلّ حالٍ: الَّذِي يَلزَمُنا من هَذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ أن النَّمْلةَ أدركتْ ذلك برؤيةٍ أو بغيرِها.

قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ انظُرْ هَذِهِ الجملة تضمنت نداءً وأمرًا وإرشادًا وتحذيرًا وتعذيرًا وغير ذلك مما يمكن أن نُدْرِكَهُ إن شاء الله بَعْد الكَلام بالتفصيلِ.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ هَذَا نداءٌ، وقد تَقَدَّمَ أن تصديرَ الجملةِ بالنداءِ الغرضُ مِنه التنبيهُ؛ فإذا قلتُ: (افعل) أو (يا فلان افعلْ) الأخيرة أعظمُ وأبلغُ، فهَذَا لتنبيهِهِ، ثُمَّ إن قولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ نداءٌ بعيدٌ مُصَدَّر بتنبيهٍ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: (يا نملُ) فقد يَخْفَى؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ مشاهَد الْإِنْسَان أوَّلَ ما يُكَلِّمُك قد يَخْفَى عليك أوَّلُ جملةٍ، لكِن إذا جاء بشيءٍ يُنَبِّه قبلَ الدخولِ فِي الموضوعِ المقصودِ

صار لا يفوت السامعَ منَ المقصودِ شيءٌ، هِيَ قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾ ولم تقلْ: يا نملُ. ثُمَّ إن نداءَ البعيدِ أيضًا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا صَوَّتَتْ بصوتٍ سمِعه الكلُّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ﴾.

وفي قولِها: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ هَذَا أمرٌ، والمُرادُ به الإرشادُ، قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، وَفِيهِ تعيينِ المساكِنِ وهي الملاجِئ، وهَذَا مثل صفَّارات الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفّرت صفَّارة الإنذارِ لا يَذْهَبون إِلَى السُّطُوح، ولكِن يذهبون إِلَى الملاجِئِ، وهِيَ أيضًا أَرْشَدَتْهُم إِلَى ملاجئهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، ثُمَّ فِيهِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أن هَذِهِ المساكن كما أَنَّهَا أكنان يُكْتَنّ بها الْإِنْسَان فهي أيضًا حُصُون يَحْتَرِزُ بها الْإِنْسَان، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ [المرسلات:٢٥-٢٦].

وفي قولها: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ الإضافةُ هنا عَلَى تقدير (اللام)، لا (من) ولا (في)؛ لِأَنَّ الإضافة تكونُ عَلَى تقدير (من) إذا كَانَ المضاف من جنس المضاف إليه كخاتَمِ حديدٍ، وبابِ خَشَبٍ.

وتكون عَلَى تقدير (في) إذا كَانَ المضاف إليه ظرفًا للمضاف؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، أي: مَكْرٌ فِي الليلِ.

وتكون عَلَى تقديرِ اللَّام، وهي الغالبُ والأكثرُ، وهنا عَلَى تقديرِ اللامِ، واللامُ المُقَدَّرَة فِي الإضافةِ هنا هل هِيَ للاختصاصِ أو لِلمِلْكِ؟

بالنِّسْبَة لنا للاختصاص، لكِن بالنِّسْبَة لهنّ -أي: للنمل فيما بينهنّ- الظَّاهر أَنَّهَا للمِلك؛ لِأَنَّ كُلّ واحدةٍ منهنّ تَعرِفُ بيتَها وتَمْلِكُه.

قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ هَذَا التحذير إرشادٌ وتحذيرٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [يكْسِرَنَّكُمْ]، لَيْسَ المُرادُ بالكسرِ هنا أن يُكْسَر عضوٌ فقطْ،

المُراد بالكسر هنا الإهلاكُ عَلَى سبيل التحطيمِ، فالنَّمْلةُ إذا وَطئتها تَقطَّعَتْ وتمَزَّقَتْ هَذَا هُوَ التكسُّر، وَلَيْسَ المَعْنى أن رِجلها تَنكسِر وتبقى معلَّقة بها، والجملة هَذِهِ كالتعليلِ للأمرِ فِي قولها: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾، يعني كَأنَّ قائلًا يَقُول: لماذا؟ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾، فالجملةُ تعليلٌ وتحذيرٌ، وهَذَا مِن بَلاغَتِها أيضًا، ما قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ فقط، ولكِن عَيَّنَتِ المُحَذَّرَ منه وَهُوَ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ ثُمَّ أتتْ بِهَذِهِ الجملةِ الشديدةِ الوَقْعِ، لم تَقُلْ: لا يطَأَنَّكُمْ، قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾، فأيُّهما أشدُّ وقعًا؟

الأخيرةُ أشدُّ؛ لِأَنَّ الوطءَ قد يَلْزَمُ منه الكسرُ والإفلاتُ وقد لا يلزَمُ، ثُمَّ الوطءُ هادئٌ بالنِّسْبَةِ لكلمةِ التحطيمِ.

وأيضًا قوله: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ أشدُّ فِي الحَذَرِ وأبلغُ ممَّا لو قَالَ: (لَيُهْلِكَنَّكُمْ)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ [الهمزة:٥]، فالتحطيمُ أبلغُ.

وهل المقام يَقتضي أن تأتي بالعبارةِ الغليظةِ؟

نعم؛ لِأَنَّ المقامَ مَقامُ تحذيرٍ وسرعة، فإذا لم تفعل النملات هَذَا بسرعةٍ فإنها ستتحطم.

وهنا قالت: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ وقالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾، والتعبير بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ بالميم هَذَا لا يكُون إلَّا للعاقلِ؛ لِأَنَّ الميم هَذِهِ لجماعة العقلاء، والواو أيضًا لجماعة العقلاء؛ لِأَنَّ غير العاقل يؤنَّث: ادخلنَ مساكنكنَّ، ولا يحطمنكنّ، ولَكِنَّها قالت: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ و﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ تنـزيلًا لهنَّ مَنْزِلَةَ العاقـلِ، فخُوطِبُـوا خِطابَ العقلاءِ، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَّلَ النملَ مَنْزِلَةَ العقلاءِ فِي الخطاب بِخِطَابِهِم].

أو يقال: هنَّ بالنِّسْبَةِ لبعضهنَّ عُقَلاءُ، يعني لما كَانَ هَذَا الخطابُ يُفهم ويُعمل به صارتْ كأنها تخاطبُ العقلاءَ، مثلما قُلْنَا: إن المساكنَ بالنِّسْبَةِ لهنّ مِلْك وبالنِّسْبَةِ لنا اختصاص.

وقوله: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وهَذَا التعبيرُ يَدُلّ عَلَى أنَّ عَظَمَة سُلَيْمان مُتَقَرِّرَةٌ عِنْدَهنَّ وَهُوَ كذلك.

وقوله: ﴿سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ ما قالتْ: وجُنْدُه؛ لِأَنَّ الَّذِي فَهِمنا منَ الْقُرْآن أن معَه ثلاثةُ أصنافٍ من الجنودِ: الإنس والجنّ والطير كما سبقَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هَذَا اعتذار لسُلَيْمان وجنودِه، أَنَّهُم لن يَتَقَصَّدوا أن يَحْطِمُوكم، ولكِن بغير شعورٍ منهم؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروفٌ أن هذا جيشٌ عظيمٌ واسعٌ وهذه نملٌ صغارٌ يُمْكِن أن يحطمها الجيشُ بدونِ أنْ يَشْعُرَ، ثُمَّ إنَّ الغالبَ أنَّ مثلَ هَذَا الجندِ الكثيرِ لا يستطيع أن يَتَوَقَّفَ إذا وجد جُحْرَ نَمْلٍ مثلًا، فهَذَا معنى قولها: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هل هم يمشون بِغَيْرِ هُدًى؟

قُلْنَا: لا، يمشون بهدى، لكِن من المعروفِ أَنَّنا إذا قارنَّا بينَ هَذَا الجُنْدِ العظيم الواسع وبين صِغَرِ هَذَا النمل فإنَّ الغالبَ أَنَّهُم لا يَشعرون بها.

فهَذِهِ الجُمَل البليغة العظيمة من هَذَا المخلوقِ الَّذِي لَيْسَ فِي أَعْيُنِ النَّاس شيئًا، وَهُوَ من أصغرِ المخلوقاتِ، فيها ما يَدُلّ عَلَى عَظَمَةِ الخالِقِ، وأن ما هُوَ أعظمُ من هَذِهِ المخلوقات -النمل- هُوَ أعظمُ مِنْهَا أيضًا فِي هَذِهِ الأُمُور؛ لِأَنَّ مَن أعطى الصغيرَ هَذَا الإعطاءَ وهداه هَذِهِ الهدايةَ فالكبيرُ أحوجُ للهدايةِ من ذلكَ، وعنده منَ العلمِ ما عنده.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن من البلاغةِ الإيجاز بالحذْفِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ قبلَ الشَّيْءِ المحذوفِ، والتَّقْدير: (فساروا حَتَّى إذا أتوا عَلَى وادي النمل) لِأَنَّ (حَتَّى) للغاية فلا بد أن يَكُون هناك شَيْء محذوف قبلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى إضافةِ المكانِ إِلَى ساكنِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ كما يُقَال الْآنَ فِي الأحياءِ فِي البلد: هَذَا حيُّ بني فلانٍ، كما هُوَ معروف من قديم الزمان أن الأحياء تضاف إِلَى ساكنيها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هل نَقُول: فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن النملَ إذا سكَنَ أرضًا مَلَكَها بحيثُ لا يجوزُ إحياؤها ولا الاستمتاعُ بها، ففِي الآيَةِ يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ فإذا قلت: (بيت فلان) هل لك حقٌّ أن تأتيَ إِلَى بيتِ فلانٍ وتسكنه؟

نَقُول: صحيح، فلو نظرنا إِلَى مطلَقِ اللفظِ لكان وادي النمل للنمل، ولكِن الله تَعَالَى يَقُول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، فإذا كَانَ النمل يُؤْكَل أَكَلْنَاهُ، فكيف لا نأكل مساكنَهم، فبنو آدم هم أحقُّ بالْأَرْض من غيرهم، فإذا احتاج الْإِنْسَان مثلًا إِلَى عمارة هَذِهِ الْأَرْض، وكَانَ فيها نملٌ، فلا بأسَ أن يَعْمُرَها، ولو لزِم من ذلك أن يموت النمل؛ لِأَنَّ هَذَا الموت غير مقصود، وما كَانَ غير مقصود وإنما جاء ضرورة لتناول المباحِ فَإِنَّهُ لا يضرُّ، وهَذِهِ القاعدةُ معروفةٌ فِي الشرعِ، أن الشَّيْءَ الَّذِي يأتي ضرورةً لفعلٍ مباحٍ وَهُوَ غير مقصودٍ فَإِنَّهُ لا بأسَ به، وانظُرْ مثلًا إِلَى قتلِ النِّسَاء والذُّرِّيَّة فِي الحربِ فإنه لا يجوز، لكِن إذا لم نتوصلْ إِلَى قتل المقاتلينَ إِلَّا بالرمي بالمنجنيقِ والمدافعِ الْعَامَّة فَإِنَّهُ يجوز، ولو لزِم من ذلك قتل النِّسَاء والذريَّة؛ لِأَنَّ هَذَا غير مقصودٍ. كذلك أيضًا قطع نخيل العدوّ لا يجوزُ، ولكِن

إذا لم نتوصلْ إليهم إِلَّا بقطع نخيلهم جاز كما فعل النَّبِيّ ﷺ فِي بني النَّضِير.

فائدة: بيوت النمل تكون عميقة فِي الْأَرْض، ثُمَّ من عادة النملِ أيضًا أَنَّهُ لا يبني البيوت إِلَّا فِي مكانٍ مرتفعٍ، وغالبًا أن الجند لا يأتون الأماكن المرتفعة ما دام يجدون السهلَ.

فالحاصل أن نَقُول: إذا لزِم من إحياء الْأَرْض قتل النمل فَإِنَّهُ لَيْسَ به بأسٌ؛ لِأَنَّهُ لم يكنْ مقصودًا، وإنما جاء ضرورةً لتناولِ أمرٍ مباحٍ لنا، بل كُلّ مؤذٍ، حَتَّى ابنُ آدمَ إذا آذاك وصالَ عليكَ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ تَقْتُله، وَهُوَ أعظم حُرْمَةً من الحيواناتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للحشراتِ نُطقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وفيه دليل عَلَى أن قولها أيضًا مسموعٌ يَسْمَعُه بنو جنسها؛ لِأَنَّهُ لو لم يَكُونوا يسمعونها لم يكن فِي قَوْلِهَا فائدةٌ، فهم يسمعون قولها، وقد يُسْمِعُهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وفيه دليلٌ -استدلَّ الْعَامَّة بذلك- عَلَى أن كُلّ شيءٍ يَنطِق من قبلُ، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ولكِنَّ الله تَعَالَى قد يُسْمِع الخلقَ نُطْقَ بعضِ الحيواناتِ؛ إِمَّا آيَة أو كرامة، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أَمَّا العوامُّ فإنهم يَقُولُونَ: كُلّ شَيْء يتكلم، حَتَّى إن بعضهم يَقُول: الجصة تَتَكَلَّم، والجصة هِيَ مَخْزَنُ التَّمر، والظَّاهر أَنَّهُ سارقٌ كَانَ فِي الجصةِ وتكلَّم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ردُّ كلامِ الْمُفَسِّر فِي قولِه: إن النَّمْلةَ مَلِكة النمل؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَمْلَةٌ﴾ مُنكَّر، وَلَيْسَ بغريبٍ أن تكونَ نملةً من النملاتِ هِيَ الَّتِي قالت هَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فصاحة هَذِهِ النَّمْلة ونُصْحها وذكاؤها؛ لِأَنَّ الكَلامَ الَّذِي قالتْه يَتَضَمَّن هَذَا كله، فهي من بلاغـتها استعملتْ فِي كُلّ مكانٍ ما يُناسِبُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ أتت بالياء لمناداة البعيـد؛ لِأَنَّ النمل لَيْسَ كله قريبًا مِنْهَا، بل بعضه بعيـد وبعضه قريبٌ، ومن كمالِ نُصْحها: إرشادها إِلَى المخابئِ والملاجِئِ؛ لِقَوْلِها: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾.

ومن كمـال ذكائها: أَنَّهَا استعملتِ العباراتِ المثيـرةَ المزعِجة، فِي قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾.

وأيضًا من عَدلها أَنَّهَا قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

فتضمَّن هَذَا الكَلام أنواعًا كثيرة من البلاغةِ والفصاحةِ والنصحِ والتحذيرِ والتعذيرِ وغير ذلك مما مرَّ فِي الشرحِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فِي هَذَا أيضًا عَظَمَةُ مُلْكِ سُلَيْمان وجنوده؛ لِأَنَّ النَّمْلة عَرَفَتْ ذلك وحذَّرتْ منه.

• • ۞ • •

الآيــة (١٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

• • ❁ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سُلَيْمان ابتداءً ﴿ضَاحِكًا﴾ انتهاءً ﴿مِّن قَوْلِهَا﴾]. يَقُولُونَ: إن الضحكَ ثلاثة أنواعٍ: ابتدائيٌّ ووَسَط وانتهائيّ، الابتدائي التبسُّم، والوسط الضَّحِك، والمنتهى القَهْقَهَة، والقهقهة لا تليقُ بالْإِنْسان العاقلِ الرَّزين، والتبسُّم هُوَ أكثرُ ضَحِكِ الأَنْبِياء عليهم الصَّلَاة والسلامُ، والضَّحِك يَكُونُ منَ الأَنْبِياء أحيانًا، فهنا تَبَسَّم ضاحكًا، والمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرى أنَّ سُلَيْمان ﷺ كَانَ له مرحلتانِ فِي هَذَا الضحِك: الأولى: التبسُّم، والثَّانِيَة: الضحِك، فابتدأ بالتبسُّم وانتهى بالضحِك.

ويَحتمل أن يَكُونَ معنى قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أَنَّهُ ضحك متبسمًا، يعني أَنَّهُ ما ظهر له صوتٌ ولكِنه تبسَّمَ تَبَسُّمًا، واللهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى هَذَا التَّقْدير تكون ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنة للنوعِ، يعني أن ضَحِكَه كَانَ تبسُّمًا.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: في هذه المسألة لا يضرُّ لو كَانَ ابتدأ بالتبسم وأنهى بالضحك، والفرق بين التبسُّم والضحِك: أن التبسم ينفتح فيه الفم بدونِ صوتٍ، والضحِكُ

يَكُون بصوتٍ، لكِن بدونِ قهقهةٍ، والقهقهة هِيَ تكرار الصوتِ، (كَرْكَرَ) كما يَقُول الْعَامَّة.

قوله: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾: (مِن) بَيَانيَّة، والبَيَانية للتعليلِ، يعني بسببِ قولِها تَبَسَّمَ، هَذَا التبسُّمُ ما مصدرُه؟ هل تبسم من قولها، أمْ من تحذيرها، أم من اعتذارها، أم من إرشادها، أم من فصاحتها؟

من كُلّ ما يتضمنه هَذَا القَوْل؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقة محلّ عَجَب، أَنَّهَا تتكلم بهَذَا الكَلام البليغِ، وبهَذِهِ السرعةِ، فما ذهبت تُرَتِّب وتأتي بالعناصر وتزيِّن، فهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ محلّ ضحِك، ثُمَّ هُوَ أيضًا محل ضحِك لَيْسَ من القَوْلِ فقطْ، بل من مغزى هَذَا القَوْل، وهَذَا جعله من نعمة الله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، مغزى هَذَا القَوْل أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَعْتَرِف حَتَّى الحشرات بعظمته وعظمة جنودِهِ، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من نعمة الله عليه.

فهَذَا التبسُّمُ إذن مِنَ القَوْلِ من مضمونِهِ ودلالتِهِ وكذلك من مغزاه، وما يتضمنه من نعمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى سُلَيْمان.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ وقد سمِعه من ثلاثة أميالٍ حملته إليه الريحُ، فحَبَسَ جُنْدَه حين أشرفَ عَلَى واديهم، حَتَّى دخلوا -أي: النمل- بيوتهم، وَكَانَ جُنْدَه ركبانًا ومشاةً فِي هَذَا السير].

يَقُول رَحِمَهُ اللَّهُ: [وقد سمعه من ثلاثة أميال] من أين جاء بهَذَا؟ أخبار إسرائيليَّة بل إن الْقُرْآن ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨]، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم وصلوا إليه، غاية ما هنالك أَنَّهُم لما حُذِّر النمل بهَذَا التحذير دخل فِي المساكن، يعني لَيْسَ بينهم

وبين أن يطئوا هَذَا النمل إِلَّا دخول النمل مساكنهم، وهَذَا لا يقتضي أن يَكُون بينه وبينهم ثلاثة أميال، ولا دليل عَلَى ذلك، وإنما يقال: إِنَّهُ سمعه من قُرْب، وهل سمعه غيره من جنوده؟

الظَّاهر أَنَّهُم ما سمِعوه ولا عرفوه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦]، يَدُلّ عَلَى أن تعليم نطق الحيوانات خَاصّ بسُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولَيْسَ كما يزعم بعض الْعَامَّة، فبعض الْعَامَّة يَقُولُونَ: فِي أول الأَمْر كَانَ كُلّ شَيْء يتكلم، ويأتون بقصصٍ عَلَى هَذَا، وهَذَا لَيْسَ بصحيح، لَيْسَ هناك كلام معلوم إِلَّا فِي الأممِ فيما بينها، وَأَمَّا أن الإنس يَعلَمون كلام الجنّ أو مثلًا يعلمون كلام الحشراتِ فلا، إِلَّا بدليلٍ، إذا وجد دليل عن المعصومِ فهَذَا صحيحٌ، مثلما أَخبرَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن الذئبِ الَّذِي تكَلَّم[1]، وأخبرَ أيضًا عن البقرةِ الَّتِي رَكِبَها صاحبها وقالت له: إِنَّا لم نُخْلَقْ لهَذَا[2]، المهمُّ ما دلَّ عليه الدَّلِيل وجبَ علينا أن نَقبَلَهُ، وإِلَّا فالأَصْلُ أن المخلوقَ يَتكَلَّم بلغتِه، وأن كُلّ جنس لا يَفهَم لغةَ جِنْسِه.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أَلْهِمْني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَىَّ﴾].

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ﴾: (ربِّ) منادى حُذِفَت منه ياء النداءِ، وأصله: يا ربِّ، وحُذفت الياء المضاف إليها للتخفيف، وإلا فأصلها: (ربي) بالياءِ. ودائمًا يأتي الدعاءُ بحذفِ ياءِ النداءِ؛ ابتداءً بذكرِ اسمِ اللهِ وعنايةً بالمقصودِ، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم (٣٢٨٤)؛ صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) التخريج السابق.

﴿رَبِّ﴾ يبتدئ به قبل كُلِّ شَيْء، وكَأَنَّ الْإِنْسَان لشدَّة شَوْقه لربِّه أثناء دعائه ما يَبْدُرُ منه إِلَّا اسْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ من حَيْثُ الإعرابُ يقال: فعلْ أمرٍ، لكِن النحْويُّون رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ تأدُّبًا مَعَ الله ما يَقُولُونَ: فعل أمرٍ؛ لأنك لا تأمر الله، فيُسمُّونه فعلَ دعاءٍ، فعندما نُعْرِب ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ نَقُول: (أَوْزِعْ) فعلُ دعاءٍ، لا نَقُول: فعل أمرٍ يُقصَد به الدعاء، هُوَ حقيقة فعل أمرٍ والمقصود به الدعاء، لكِن تأدُّبًا مَعَ اللهِ نَقُول: فعل دعاءٍ.

يَقُول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾]، قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ الحامِلُ لسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن يَقُول هَذَا الاعترافُ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخوف الغرورِ بالنفسِ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت النَّمْلة تقول هَكَذَا خوفًا منه وجنوده وتَعْتَذِر لهم ويَفْهَم كلامها، فهَذَا قد يؤدِّي بالْإِنْسَان إِلَى الغرور وأن هَذَا الشَّيْء لذاته أو من ذاته، مثلما قَالَ قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص:٧٨]، فلهَذَا سأل اللهَ فِي هَذَا المقامِ الَّذِي ربما يَحْصُل به الغرور للمرءِ، والْإِنْسَان بشرٌ، فسأَل اللهَ أن يُلْهِمَه شُكْرَ نِعْمَتِهِ الَّتِي أنعمَ عليه وَعَلَى والديْه وأن يعملَ صالحًا يرضاه.

وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَان إذا حصلَ له نعمةٌ أن يسألَ الله تَعَالَى أنْ يُلْهِمَه شُكْرَها؛ حَتَّى لا يَلْحقَه الغرورُ بهَذِهِ النعمةِ الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، سواء كانت النعمةُ ماليَّةً أو جَسَدِيَّةً، مَعْنَوِيَّةً أمْ حِسِّيَّةً.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ مصدريَّة محَلُّها منَ الإعرابِ مَفْعُول ثانٍ لـ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾؛ لِأَنَّ المَفْعُول الأوَّل الياء، والمَفْعُول الثاني ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني:

أَلْهِمْنِي شُكْرَ نِعْمَتِك الَّتِي أنعمتَ عليَّ وَعَلَى والديَّ.

قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ النعمة: الإحسانُ الَّذِي يَنْعَمُ به المُحْسَنُ إليه، والنعمةُ كما هُوَ معروف تنقسمُ إِلَى قسمينِ: إمَّا حصول مَطْلُوب وَإمَّا نجاة من مَرْهُوب، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى دائمًا يُنعمه عَلَى عبدِه، والعبدُ دائرٌ بين هذينِ الصنفينِ منَ النعمةِ، فدائمًا يحصل له مطلوبه وينجو من مرهوبه.

وقول المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنْعَمْتَ﴾ بها ﴿عَلَيَّ﴾]، قَدَّر (بها) لِأَنَّهُ من المعروفِ أن الجملة الَّتِي تكون صلةً للموصولِ لَا بُدَّ فيها من رابطٍ يعودُ عَلَى الموصولِ، أي: لَا بُدَّ فيها من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ، هنا ﴿الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ فتحتاج جملة ﴿أَنْعَمْتَ﴾ أن يَكُون فيها ضَميرٌ يعود عَلَى ﴿الَّتِي﴾ قدَّره المُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [بها]، ولنا معه مناقشة فِي هَذَا التَّقْدير، فتقدير الضَّمير لأجلِ أنْ يَكُونَ عائدًا عَلَى الموصولِ هَذَا واضحٌ ومُسلَّم، فهَذِهِ القاعدةُ النحويَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣]، أي: (منه)، فهَذَا واضحٌ، وهَذَا كثير الكَلام فِي اللُّغة العربيَّة فِي الْقُرْآن والسنَّة وكلام النَّاس، أَنَّهُ لَا بُدَّ من عائدٍ يعود عَلَى الموصولِ لِيَرْبُط الجملة الصلة بموصولها. ولكِن لنا مناقشة مَعَ المُفَسِّر فِي تقدير العائدِ عَلَى هَذَا الوجهِ:

يَقُولُونَ: إن العائد ما يُحْذَف إذا كَانَ مجرورًا إِلَّا إذا جرّ الموصول بحرفٍ مشابهٍ للمحذوفِ لفظًا ومعنًى وتقديرًا، وهَذَا تَقَدَّمَ ونحن نقرأ فِي النحو فِي القَطْرِ[1]، وَأَنَّهُ إذا كَانَ مجرورًا يُشْتَرَط أن يَكُون مجرورًا بالحرفِ الَّذِي جَرَّ الموصول، وَأَنَّهُ يَكُون متعلّقه واحدًا موافقًا فِي اللفظِ والتَّقْدير والمَعْنى، فالمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قدر: [بها] مَعَ أَنَّهَا

(١) قطر الندى وبل الصدى لابن هشام.

غير موجودةٍ فِي القُرْآن: [﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ﴾ بها]، وَعَلَى هَذَا فالتَّقْدير السليمُ أن يقولَ: (أنعمتها عليَّ وَعَلَى والديّ)؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يُحذَف العائد المجرور إِلَّا إذا كَانَ الموصول مجرورًا بحرفِ الجرِّ الَّذِي جُرَّ به ذلك العائدُ.

وقوله: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أَمَّا ﴿عَلَىَّ﴾ فظاهرٌ أنَّ نعمةَ اللهِ عليك تحتاجُ إِلَى شكرٍ منك، لكِن نعمة الله عَلَى والديك ما وجهُ كَونها تحتاج إِلَى شكرٍ منك؟

لِأَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، لا سيَّما فِي مثل هَذِهِ القصةِ حَيْثُ إِنَّهُ ورِث من داودَ النبوَّة وخَلَفَهُ فيها، فنعمة الله عَلَى والديك هِيَ فِي الحقيقة نعمةٌ عليك، ولهَذَا قَالَ: ﴿عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾.

وقوله: ﴿وَٰلِدَىَّ﴾ هل هُوَ جمعٌ أو مُثَنًّى؟

مُثَنًّى مضاف، ولذلك حُذِفَتِ النونُ منه، وأصله: (والدينِ لي) لكِن حُذِفَتِ النونُ من أجلِ الإضافةِ.

وقوله: ﴿وَٰلِدَىَّ﴾ مَنْ المُراد بالوالد؟ هُوَ الوالدُ الَّذِي أنتَ وَلَدُه لِصُلْبِه أو حَتَّى الجَدّ ومَنْ عَلَا؟

نَقُول: الحقيقةُ أنَّ كَلِمة (والد) أحيانًا يدخلُ فيها الجدُّ وإنْ علا، وأحيانًا تَتَعَيَّن للوالِدِ الأَدْنَى، وَالَّذِي يُعَيِّنُ ذلك هُوَ القرائنُ: القرائن اللفظيَّة أو القرائن الحَالِيَّة، فمثلًا: «لَا يَجُوزُ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِد فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ»[1]. مَنِ المُرادُ

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الإجارة، باب الرجوع في الهبة، حديث رقم (٣٥٣٩)؛ والنسائي، كتاب الهبة، باب رجوع الوالد فيما يعطي ولده، حديث رقم (٣٦٩٠)؛ والترمذي، كتاب البيوع، باب ما جاء في الرجوع في الهبة، حديث رقم (١٢٩٨)؛ وابن ماجه، كتاب الهبات، باب من أعطى ولده ثم رجع فيه، حديث رقم (٢٣٧٧)؛ وأحمد (٢/ ٢٧) (٤٨١٠)، عن ابن عباس وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

بالوالدِ؟ المباشِر، أي الوالد الأدنى، فالجَدُّ لا يَلْحَق به.

والوالِدُ فِي تحريمِ النكاحِ يَشمَل الأدنى والأعلى.

والوالد فِي الميـراثِ يَشمَل الأدنى والأعلى إنْ فُقِدَ الأدنى، والمُراد الذكـورُ والإناثُ، وَلَيْسَ المُراد الجَدّ الوالد الَّذِي هُوَ الذكَر عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ، بل حَتَّى الأنثى، مثلًا الأم: الوالدة فِي الميراث تَشْمَل الأعلى إن فُقِدَ الأدنى، فصارتْ كلمة (والد) تارَةً يُرادُ بها الأدنى، وتارَةً يُراد بها الأدنى والأعلى مجتمعينِ أو منفردينِ، وتارةً يُراد بها الأدنى والأعلى لا مجتمعين، وَالَّذِي يُعَيِّن ذلك هُوَ القرائنُ اللفظيَّة أو الحاليَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل هناكَ فرقٌ بين قولنا: والِدَيَّ ووالِدِيَّ؟

إِذَا قُلْنَا: (والِدَيَّ) يعني الوالد والوالدة، وأما: (والِدِيَّ) فلا يُعبَّر به ولو عبر الْإِنْسَان به: نَقُول: هَذَا تعبيره غير سليم، لكِن قولنا: (والِدِينَا) إذا كنا جماعة فواضح؛ لأنك إذا قلتَ: (والِدِينَا) ونحن اثنان يَكُون الوالِدِين أربعة، وإذا كنا ثلاثة يَكُونوا ستة وهَكَـذَا، ولذلك بعض الإخـوان الَّذِينَ يقرؤون فِي رمضان [اللهمَّ اغْفِرْ لنا ولوالِدَيْنَا].

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز؛ لأَنَّنا لسنا عيالَ رجلٍ واحدٍ، نعم لو كنا عيالَ رجلٍ واحـدٍ ونحنُ ستَّة فنَقُول: والِدَيْنَا؛ لِأَنَّ أبانا واحدٌ وأُمَّنا واحدةٌ، لكِن إذا صار بالمسجدِ ألفُ نَفَرٍ هل والدُ كُلِّ واحدٍ مِنَّا والد للثاني؟!

فنحن لسنا بإخوةٍ، ولهَذَا لا تَصِحُّ (والِدَيْنَا) إِلَّا عَلَى سبيلِ التجوُّزِ، أي: والِدَيْ كُلّ واحدٍ مِنَّا. ولهَذَا التعبيرُ السليمُ فِي مثل هَذَا أن تقول: اغْفِرْ لنا ولوالِدِينا. ونحن

الْآنَ نحللها من وجهةِ اللُّغةِ العربيَّة، فالصَّواب فِي هَذَا إذا كنا جماعة (والِدِينَا)؛ لِأَنَّ (والِدَيْنَا) ما تكون إِلَّا عَلَى سبيل التجوُّز كما تَقَدَّمَ.

قال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ﴾ معطوفة عَلَى قوله: ﴿أَنْ أَشْكُرَ﴾، يعني: وأَلْهِمْني أنْ أعملَ صالحًا ترضاهُ، وهنا قوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أَعْمَل عَمَلًا صالحًا، والعَمَلُ الصالحُ لا يَكُون إِلَّا إذا تَضَمَّنَ شرطينِ أساسيينِ هما: الإخلاصُ والمتابَعة؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، والإخلاصُ واضحٌ فِي الأَنْبِياء وغيرِهم، والمتابعةُ فِي غيرِ الأَنْبِياء واضحةٌ أيضًا، وَفِي الأَنْبِياء قد تكونُ غيرَ واضحةٍ عندَ البعضِ، لَكِنَّها واضحةٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَتبع شريعةً تُوحَى إليه، وهُوَ قد لا يَتبع هَذِهِ الشَّريعَة لكِن كما تقدَّم أَنَّ الأَنْبِياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- معصومونَ مِن الإقرارِ عَلَى المَعاصِي مُطْلَقًا، فإذِن المتابَعَةُ موجودةٌ فِي الأَنْبِياء أيضًا؛ لِأَنَّهَا متابَعةٌ للشرعِ الَّذِي أُوحِيَ إليهم.

هَذَا العَمَلُ الصالحُ ما جمعَ بينَ أمرينِ: الإخلاص والمتابعة، ففي فَقْدِ الإخلاصِ يَكُونُ الشِّرْكُ، وَفِي فَقْدِ المتابعةِ يَكُونُ الابتداعُ، فالعَمَلُ الَّذِي فِيهِ شِرك مردودٌ، قَالَ الله تَعالَى فِي الحديث القُدُسِي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

حَتَّى الرياءُ نَوْعٌ منَ الشركِ، فإذا عمِلَ الْإِنْسَان العِبادَةَ وَهُوَ مُراءٍ فيها فَهُوَ مَعَ الإثمِ مردودٌ عليه عَمَلُه.

كذلك أيضًا فِي الابتداع؛ قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَدٌّ»[(١)]، وهَذَا أعمُّ مِنَ اللفظِ الثاني: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[(٢)] إِلَّا إذا قُلْنَا: مَن أحدثَ فِي ذاتِه وصفاتِه، إذا قُلْنَا: من أحدث فِي أمرنا ما لَيْسَ منه سواء فِي نفسِ العَمَلِ أو فِي وصفِ العَمَلِ صار موافقًا للفظِ الآخرِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: العَمَلُ إذا لم يكنْ خالِصًا فليسَ مقبولًا، وإذا لم يكنْ صوابًا، يعني عَلَى السنَّة، فليس مقبولًا وَلَيْسَ بصالحٍ أيضًا، بل هُوَ فاسدٌ.

قوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ الرضا بمعنى القبولِ وكلمة ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ بَعْد قولِه: ﴿صَٰلِحًا﴾ هل لها معنًى؛ لِأَنَّ كُلّ صالحٍ فَهُوَ مَرْضِيّ، فهل تكون الجملةُ حينئذٍ صفةً كاشفةً مبيِّنةً أو صفةً مقيِّدة؟

الظَّاهرُ أَنَّهَا مُبيِّنَة، يعني أَنَّ العَمَلَ الصالحَ مرضيٌّ.

قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن العَمَلَ قد يَكُونُ صالحًا بظاهرِه، ولكِنَّه غير مرضيٍّ فِي مآلِهِ أو فيما صَحِبَهُ، فقد يَعْمَلَ الْإِنْسَان مخلصًا لله مُتَّبعًا لرسولِ الله ﷺ لكِن يحصل منه إعجابٌ فِي عملِه، فهَذَا الإعجابُ يَمْنَع مِن رضا الله به، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧]، قد يَكُونُ عَمَلًا صالحًا فِي أوّله وَفِي نهايتِه لا يرضاه اللهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فالرجلُ يَتَصَدَّقُ بالصدقةِ مُخْلِصًا للهِ تَعَالَى مُتَّبعًا لرسولِ اللهِ ﷺ فيها لَكِنَّهُ يُتْبِعُها بِمَنٍّ وأذى، فحينئذٍ تَبْطُلُ

(١) رواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، حديث رقم (٢٥٥٠)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، حديث رقم (١٧١٨)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الصدقةُ، عَلَى هَذَا التَّقْدير يَكُون قوله: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ صفةً مُقَيِّدةً.

فأيُّ الأَمْرين يَحْسُنُ بنا أنْ نَسْلُكَ فِي هَذَا وغيرِه، فيما إذا جاءت صفة، هل الأَولى أن نجعلَ الصِّفةَ مبيِّنة، يعني مفسِّرة فقط، أو أن نجعلها مقيِّدة؟

الأَولى أن تكون مقيِّدةً؛ لِأَنَّ بالتقييدِ زيادةَ معنًى، والتفسير ما يعدو شيئًا خارجًا عمَّا سبق، فكلُّ صفةٍ تأتي فِي كلام نحو هَذَا فالأَصْل أن تكون مقيِّدة، ولا يمكنُ أن نلجأَ إِلَى كونها مفسِّرة لمجرَّدِ بَيَان الأَمْرِ إِلَّا عندَ الضَّرورَةِ، وإذا تَعذَّر أن تكون مُقَيِّدة، قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هَذِهِ مبيِّنة ومفسِّرة وليستْ مقيّدةً.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ التبسُّمِ عندَ وجودِ سببه وجواز الضحِك أيضًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾، وهَذَا من فِعل نبيٍّ، وفِعْلُ الأَنْبِياء حُجَّة، حَتَّى وإن كَانَ غير نبينا ﷺ، إِلَّا ما وَرَدَ شَرْعُنا بِنَسْخِهِ، فهَذَا لا يُعْتَبَر، والدَّليل عَلَى أَنَّ فعل الأَنْبِياء حُجَّة قوله تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما كَانَ عليه سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ التواضُعِ لله تَعالَى، حَيْثُ لم يَأْخُذْهُ الغرورُ بهَذَا المُلْكِ العظيمِ، حَتَّى قَالَ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليلٌ عَلَى الاعترافِ بنعمةِ اللهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الِافتخارِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان ذَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه، لَكِنَّهُ لا يَقصِد بذلك الافتخارَ والعلوَّ عَلَى غيره، وقد قَالَ الله تَعَالَى للرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، لكِن لا عَلَى سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ؛ لِأَنَّهَا حينئذٍ تَنْقَلِب إِلَى نِقمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، ولا سِيَّما نعمة الإِسْلام فإنَّها من أكبرِ النِّعَم عَلَى الولد، فلو مات طفلٌ وأبواهُ كافرانِ لكانَ هَذَا الطفلُ فِي الدُّنْيا فِي حُكْمِ الكافِرينَ، وَفِي الآخِرَةِ اللهُ أَعْلَمُ بحالِهِ، ولو مات طفلٌ بينَ أبوينِ مسلمينِ لكانَ هَذَا الطفلُ مُسْلِمًا فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَعَلَى هَذَا فنعمةُ اللهِ عَلَى الوالدينِ ولا سيما فِي الدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ، وهَذَا هُوَ وجهُ قولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ من العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾، وهَذَا اعتراف، وأبلغ من أن يَقُول الْإِنْسَان: أَوْزِعْنِي أن أشكر النعمة فقط؛ لِأَنَّ قوله: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جِدًّا فِي خضوعِ هَذَا الْإِنْسَان بهَذِهِ النعمة العظيمة الَّتِي أنعمَ اللهُ بها عليه، فهَذِهِ فيها دليلٌ أَنَّهُ مِن العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها، حَتَّى ولو كَانَ آدميًّا، ومن الأشعار المعروفةِ عندهم[1]:

إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْـلَ مِنَ النَّاسِ ذَوُوهُ

معنى ذَوُوه: أصحابُ الفضلِ، لا يَعرِف الفضلَ إِلَّا أصحابُ الفضلِ، أَمَّا مَن لَيْسَ بأهلِ فضلٍ فإنهم يُنْكِرون الفضلَ، بل إنك لو تَفَضَّلْتَ عليهم لَرَأَوْا أن هَذَا حقٌّ واجبٌ عليك وليس لك مِنَّة، وأعظمُ شَيْءٍ فِي هَذَا مَن يَمُنُّ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمـا أنعمَ اللهُ به عليه كمـا فِي قِصَّة الأعرابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات:١٧].

تنبيه: إنَّ للهِ تَعَالَى عَلَى الكافرِ نعمةً، لكِن النعمة المطلقة لا تكون إِلَّا بالإِسْلام.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأَنْبِياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- كغَيْرِهم مُفْتَقِرونَ إِلَى

---

(١) عيون الأخبار (٣/ ٢١٧).

توفيقِ اللهِ، وأنهم بدون توفيقِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما يسيرون سيرًا يرضي الله، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لا يَصِلُ إِلَى غايتِهِ ومقصوده إِلَّا برحمةِ اللهِ فِي كُلِّ شيءٍ؛ الجَنَّة وغير الجَنَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]، يَعْنِي: إذا لم يَرْحَمْكَ اللهُ لنْ تنالَ شيئًا أبدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ العَمَلَ غيرَ الصالحِ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، بل هُوَ دائرٌ بين أمرينِ: إمَّا الإثم، وَإِمَّا السلامة فقطْ، فإن صدرَ عن علمٍ فَهُوَ إثمٌ، وإنْ صدرَ عن جهلٍ فالْإِنْسَانُ سالمٌ، ولكِن لا فائدةَ له فيه، كما لو صلَّى الْإِنْسَان مثلًا صلاةً باطلةً بِحَدَثٍ، فَإِنَّهُ إنْ تعَمَّدَ ذلكَ كَانَ آثمًا، وإن كَانَ جاهلًا لم تُفِدْهُ فِي إبراءِ الذمَّة، ويُطالَب بإعادتها، أَمَّا الأجرُ فقد يُؤْجَر عليها من أجلِ النيَّةِ والعَمَلِ الَّذِي حَصَلَ والمشقَّة، ولكِن من حيث الفائدة لا يستفيد مِنْهَا فِي إبراءِ ذِمَّته ولا تَسْقُط عنه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ الغايةَ الَّتِي يَسير إليها الأَنْبِياء ومَن تَبِعَهم هُوَ رضا الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ لِأَنَّ المقصودَ من عملِ الْإِنْسَانِ الوصولُ إِلَى رضا اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، بل إن رضا اللهِ غايةٌ فوقَ كُلِّ شيءٍ، قَالَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي امتداحِ الْمُؤْمِنِينَ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧١-٧٢]، يعني أكبر من كُلِّ شَيْء، وإذا حل عَلَى الْإِنْسَان رضا الله فهَذَا غاية ما يريدُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الأَنْبياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللهِ، يعني يَسألون اللهَ تَعَالَى بالوسيلةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعني أولئك الَّذِينَ يدعوهم هَؤُلَاءِ المشركون ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الإسراء:٥٧]، وكل الخلق يسألون الله تَعَالَى ويتوسلون إليه بما هُوَ جائزٌ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز التوسُّل بصفات الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: قوله: ﴿فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فِيهِ إشكال.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَقامُ النبوَّة أعلى من مقامِ الصلاحِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النِّسَاء:٦٩]، فكيف سأل الله أنْ يُدْخِلَه فِي عبادِهِ الصالحينَ مَعَ أَنَّهُ نبيٌّ أعلى مرتبةً من مرتبةِ الصلاحِ؟

قُلْنَا: الأقربُ أَنَّ المُراد بالصلاحِ هنا الصلاحُ المطلَقُ، والصلاح المطلَق هَذَا أعلى مرتبةً، وقد قَالَ يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقَالَ اللهُ تَعَالَى عن إبراهيمَ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فالمُراد هنا الصلاحُ المطلَقُ، لا الصلاحُ الَّذِي يُذكَر مَعَ المراتبِ، فإن مقام الصلاحِ مَعَ المراتبِ دونَ مَقام النبوَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أن العِبادَة مَرْتَبَةٌ شَرِيفَةٌ عظيمةٌ يَسْأَلُها حَتَّى الأَنْبياء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ ولهَذَا يذكر الله تَعَالَى نبيه مُحَمَّدًا ﷺ بوصف العُبُودِيَّة فِي أعلى مقاماته؛ عند إنزال الْقُرْآن، وعند الدفاع عنه.. ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وقد قَالَ الشاعر يُخَاطِب[١]:

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبْدَهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي

هَذَا -أعوذ بالله- عاشِقٌ، لِنَفْرِض أنَّ اسمه مثلًا بكرٌ يَقُول: لا تَقُلْ: يا بكرُ، قُلْ: يا عبدَ لَيلى فَإِنَّهُ أشرف أسمائي. فالعُبُودِيَّة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَكَّ أَنَّهَا أشرفُ أوصافِ الْإِنْسَانِ أن يَكُون عبدًا لله، والْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يَكُونَ عبدًا، ولا بد أن يَتَّخِذَ إلهًا، حَتَّى الشيوعيون والملحدون لَا بُدَّ أن يَكُونوا عبيدًا ولهم آلهة، لو لم يكنْ لهم آلهةٌ إِلَّا أهواؤهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَم»[٢]، وهَؤُلَاءِ بِلَا شَكٍّ يعبدون الدينارَ والدرهم، بل إنَّ هَؤُلَاءِ الملحدين لا يسعون إِلَّا لذلك.

إِذَنْ: لَا بُدَّ لكلّ إِنْسَانٍ أن يَكُونَ عبدًا، فإن كَانَ عبدًا للهِ فقد تحرَّر من العُبُودِيَّة حقيقةً؛ لِأَنَّ عبدَ اللهِ حرٌّ، ما يَرَى أنه عبد لشيء فِي الدُّنْيا أو فِي المخلوقاتِ، لكِن يرى خالقه هُوَ سيِّده وإلهه وَأَنَّهُ عبد لهَذَا الخالق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن شُكْرَ النعمِ مِنَ النعمِ، وهَذِهِ فائدةٌ، وقد قَالَ الشاعر[٣]:

إذا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ الله نعمةً عليَّ له فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمرُ

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، حديث رقم (٦٠٧١).

(٣) الصناعتين (ص:٢٣٢).

وهَذَا صحيح إذا وَفَّقَكَ الله للشكرِ فَهُوَ نعمةٌ يَجِب عليك أنك تشكر الله عَلَى هَذِهِ النعمةِ، فإذا شكرته صارتْ نعمةً ثانيةً توجب الشكرَ؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ الْقَدَرِيَّة يَرَوْنَ أَنَّ الْإِنْسَان مُسْتَقِلٌّ بِعَمَلِهِ، لا يَحتاجُ إِلَى مَعُونَةٍ منَ اللهِ ولا شَيْء، ولَا شَكَّ أن هَذَا قول باطلٌ؛ لِأَنَّ نِعَم هَذِهِ الآيَة تَرُدّ عليهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِأَنَّهُ أضاف العَمَل إليه، فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنه يُمْكِن يعملَ غيرَ صالحٍ، فَهُوَ مختارٌ، ففيه ردٌّ عَلَى الطائفتينِ جميعًا؛ الْقَدَرِيَّة والجَبْرِيَّة.

• • ❁ • •

الآية (٢٠)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ [النمل:٢٠].

• ● ● •

قوله: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾: ﴿ٱلطَّيۡرَ﴾ (أل) هَذِهِ للعهدِ أو لعمومِ الجنسِ؟

أقول: إنَّها للعهدِ؛ لِأَنَّهَا تعودُ عَلَى الطيرِ المذكورِ فِي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل:١٧]، وَعَلَى هَذَا فيكُونُ تَفَقُّدُهُ للطيرِ فِي نفسِ هَذِهِ المسيرةِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ لِيَرَى ﴿ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ الَّذِي يرى الماءَ تحت الْأَرْضِ، ويَدُلُّ عليه بِنَقْرِهِ فيها، فتَسْتَخْرِجُه الشياطينُ لاحتياجِ سُلَيْمان إليه للصلاةِ فلم يَرَهْ]، هَذَا مِن كِيسِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَقُول: تَفقَّدَ الطيرَ لأجلِ أن يرى الهدهد لِيَرَى المَاء تحت الْأَرْض، وإذا رأى الأَنْهار تجري تحتَ الْأَرْض نقرَ بمنقارِه، يعني قَالَ: احفِروا هنا، ثُمَّ يأمر الشَّياطِين فتحفر هنا وكأنَّه جُيُولجيّ! من يَقُول هَذَا؟!

بل إنَّ تَفقُّده الطيرَ لِأَنَّهُ كما سلفَ كَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ منظِّمًا لجنودِه، فيتَفقَّد أين ذهب، ولهَذَا ما قَالَ: تفقد الهدهدَ أو الهدَاهِد، بل قَالَ: تَفقَّدَ الطيرَ كلَّه؛ لِأَنَّهُ كما هُوَ معروف أن الطيور تَسْبَحُ فِي الهواءِ، فقد يَشِذُّ مِنْهَا شيءٌ، فَهُوَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تفقدها لأجلِ تكميلِ التنظيمِ.

ثم إنَّ دعواهم أنَّ الهدهدَ يرى الَّذِي تحت الْأَرْض؛ هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ادفِنْ حبًّا فِي الْأَرْض واجعلِ الهداهدَ تأتي إليه هل تراه أو لا تراه؟ لا تراه بالتأكيد، إذا لم ترَ الحبَّ القَريبَ كيف ترى المياهَ البعيدةَ.

المهم أن الهدهدَ مثلُ غيرِه يَنْحَجِبُ نورُ عينيه بالكثافةِ فلا يرى شيئًا.

ثم إن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيْسَ بحاجةٍ إِلَى هَذَا، بل إن سُلَيْمان من هَذِهِ الناحيةِ كغيرِه منَ البشرِ، إن وجدَ ماءً انتفعَ به، وإن لم يجِدْ فإن الله تَعَالَى يُيَسِّر له الماء بأيِّ وسيلةٍ.

قوله: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾: ﴿مَا﴾ اسمُ اسْتِفْهامٍ، وهل الغَرَضُ منه الاستخبارُ أَوْ الِاستنكارُ؟

قيل: الغرضُ الاستخبارُ، أي يسأل سؤالًا حقيقيًّا، يَقُول: أين الهدهد؟ وَقِيلَ: إِنَّهُ استنكارٌ.

والظَّاهر أَنَّهُ لا يَجْهلُه؛ لِأَنَّ الأَصْلَ فِي الاسْتِفْهامِ الاستخبارُ. قَالَ بعضهم: وَفِي الآيَةِ قلبٌ، وإن التَّقْدير: (ما للهدهد لا أَرَاهُ) ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، بل الآيَة عَلَى ترتيبها، فَهُوَ يسأل ويقول: لماذا لا أَرَى الهدهدَ؟ هل هناك مانعٌ مَنَعَنِي من رُؤْيَتِه، أو أَنَّهُ كَانَ غير موجودٍ؟ ولذلك أَضْرَبَ عنِ الأوَّلِ وقال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾، و﴿أَمْ﴾ هَذِهِ منقطعة و﴿أَمْ﴾ المنقطعة -كما تَقَدَّمَ- تكونُ بمعنى (بل) والهمزة، يَعْنِي: (بل أكانَ من الغائبينَ) وحينئذٍ أضربَ عن الكَلامِ الأوَّلِ وعرف أَنَّه لا عِلَّة فِي بَصَرِه، وإنما العِلَّة غَيبة هَذَا الهدهدِ.

قَالَ المُفَسِّـر: [﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ فلم أَرَهُ لِغَيْبَتِه، فلَمَّـا تَحَقَّقَهَا قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾].

الآيــة (٢١)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٢١].

• ● ● •

قوله: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ هَذِهِ الجملةُ مُؤَكَّدة بثلاثةِ مُؤَكِّداتٍ: وهي: اللامُ المُوطِّئَةُ لِلْقَسَمِ، والقَسَم قبلها مُقدَّر، هَذَانِ اثنانِ، والثَّالثُ: النونُ.

قوله: ﴿عَذَابًا﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تعذيبًا]، إشارة إِلَى أن (عذابًا) اسم مَصْدَر؛ لِأَنَّ عَذَّبَ مصدرها (تعذيب)، واسم المصدر منها: (عذاب). نظيرها: (كَلَّم) مَصْدَرُها (تكليم)، واسم المصدر مِنْهَا (كَلام)، و(سلَّم تسليمًا)، واسم المصدر (سلام).

قوله: [﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا﴾ تعذيبًا ﴿شَدِيدًا﴾]، ما هُوَ الشديد عَلَى رأيِ المُفسِّر؟

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِنَتْفِ رِيشِهِ وذَنَبِهِ ورَمْيِهِ فِي الشَّمْسِ فلا يَمْتَنِع مِنَ الهَوَامِّ]، هَذَا شيءٌ عجيبٌ، فتقدير هَذَا التعذيب بِهَذَا الشَّيْء عَلَى أيِّ دليل؟! وبعضهم يَقُول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أَحْبِسُه مَعَ شيءٍ لَيْسَ من جِنْسِهِ، فأضع الهدهدَ مَعَ العَصَافيرِ، ويَقُولُونَ: من أشدِّ العذابِ عَلَى الحيوانِ أنْ يُحْشَرَ فِي غيرِ جِنْسِهِ، فلو وُضِعَ الآدميُّ مَعَ الجنِّ يتعذَّب، أو الجنّ مَعَ الآدميِّ يتعذبون. ولكِن هَذَا أيضًا لَيْسَ

بصحيحٍ؛ لأنَّنا نشاهد الْآنَ أن أَشْيَاء تُجْعَل مَعَ غير أجناسها ولا تتعذب، كأن يَكُون عند أحدهم مَوَاشٍ؛ بقر وغنم وإبل ومَعْز ويَكُونون دائمًا فِي حوش واحدٍ ولا يتعذبون.

فالصَّواب أن هَذَا التعذيبَ الَّذِي قاله سُلَيْمان غيرُ معلومٍ لنا، إِنَّمَا هُوَ عذاب شديد، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لم يُبَيِّنْهُ ولكِن يكفي أن نعرفَ أَنَّهُ شديد، هَذِهِ واحدة.

الثَّانِيَة: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾: (أو) فِي قوله: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هَذِهِ للتنويعِ، يعني إمَّا هَذَا أو هَذَا، وقوله: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِقَطْعِ حُلْقُومِهِ]، هَذَا صحيحٌ؛ لِأَنَّ الذبحَ بقطعِ الحلقومِ والمَرِيء من عند الرقبةِ.

والثَّالثة: قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾ بنونٍ مُشَدَّدَةٍ مكسورةٍ أو مفتوحة، يليها نونٌ مكسورةٌ[(١)]]، ﴿لَيَأْتِيَنِّي﴾ هَذِهِ واحدة أو «لَيَأْتِيَنَّنِي» والفرق بينهما أن نون الوِقاية إمَّا أن تُحْذَف وَإمَّا أن توجد، وَأَمَّا نون التَّوْكيد فموجودة، ونون التَّوْكيد هِيَ المشدَّدة، لكِنْ إنْ حذفتَ نونَ الوقايةِ كسرتَ نونَ التَّوْكيدِ: (يَأْتِيَنِّي)، وإن لم تحذف فإنها تبقى مفتوحةً: «يَأْتِيَنَّنِي».

وهَذَا أمر ثالثٌ، فتوَعَّدَهُ سُلَيْمَان بواحد من أمرينِ إِلَّا إذا أتى بشيءٍ، أي: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ببرهانٍ بَيّن ظاهرٍ عَلَى عُذْرِهِ]، وكلمة (سلطان) تَرِدُ كثيرًا فِي الْقُرْآن، ومعناها العامُّ: هِيَ السُّلطة الَّتِي يَتَمَكَّنُ بها الْإِنْسَان من الوصولِ إِلَى غَرَضِه، فهَذَا معناها العامُّ، والسلطان تارَةً يَكُونُ المُرادُ به الدَّليل؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات:١٥٦]، وتارَةً يُرادُ به القُدْرَة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، وتارَةً يُرادُ به البيِّنة، مثل هَذِهِ الآيَة؛ قَالَ: ﴿لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ

(١) حجة القراءات (ص:٥٢٤).

مُّبِينٍ﴾، يعني بيِّنة عَلَى عُذْره، والمَعْنى العامُّ للسلطانِ: السُّلْطةُ الَّتِي يَتمَكَّنُ بها صاحِبُها مِنَ الوُصُولِ إِلَى غَرَضِهِ، سواء كَانَ ذلكَ دفاعًا عن نفسِه أو إثباتًا لأمرٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ فَسَّرَهَا المُفَسِّر ببيِّن، وَعَلَى قولِ المُفَسِّر لا تَصِحُّ بمعنى مُظْهِر، يعني لا تصح مُتَعَدِّيَة عَلَى رأيِ المُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا بأنها لازِمة، والصَّواب أَنَّهَا تَصِحُّ أيضًا مُتعَدِّيَة، يَعْنِي: بسلطانٍ مُظْهِرٍ لِعُذْرِهِ، ونحن إذا فَسَّرْناها بهَذَا نكون أخذنا بالتفسيرِ الَّذِي فَسَّرَهَا به المُفَسِّر وزيادة.

• ● ❁ ● •

الآيـة (٢٢)

• • ○ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢].

• • ○ • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَمَكَثَ ﴾ بِضَمِّ الكافِ وفَتْحِها[1]]، مَكَث ومَكُث، والفاعل: الهدهدُ، ويحتمِل أنْ يَكُونَ الفاعلُ سُلَيْمَـان، يعني: بَقِي [﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ يَسِيرًا مِنَ الزمانِ وحَضَرَ لسُلَيْمان]، قوله: [وحضر لسُلَيْمان] ما الدَّليل عليه؟

لِأَنَّهُ قَالَ: إِنَّهُ غائبٌ فِي الأوَّل: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾، والغائبُ ما يخاطَب إِلَّا إذا حَضَـرَ، ولكِنَّ قولَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُتَوَاضِعًا برفعِ رأسِـه وإرخاءِ ذَنَبِـه وجَنَاحَيْهِ]، هَذَا من الأُمُور الَّتِي لا نَدري عنها، كَأَنَّ الْمُفَسِّر كَانَ معه! ولا يمكن أن نَقُولَ هَذَا أبدًا، فلا يمكن أن نصفَ كيف جاء، إِنَّمَا يكفينا أن نَقُولَ ما قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن، ونحن ذكرنا قاعدةً أنَّ كُلّ ما سبقَ فَإِنَّهُ لا طريقَ لنا بالعلمِ به إِلَّا مِن طريقِ الوحيِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [إبراهيم:٩]، فما لنا طريق إِلَّا الوحي؛ إِمَّا فِي الْقُرْآن أو فِي السنَّة الصَّحيحةِ.

قوله: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾: ﴿أَحَطتُ ﴾ يعني يَتَكَلَّم عن نفسِـهِ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٠).

﴿أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يخاطب سُلَيْمَـان، وَفِي الحقيقة أن هَذَا الهدهد قويّ، له ضُلُوع قويَّة جدًّا كما يَقُولُونَ، كيف يخاطب سُلَيْمان وله هَذَا المُلْك العظيم ويقول: ﴿أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضًا ما قَالَ: بما لم تُحِيطوا به، ما جاء بصيغةِ التعظيمِ.

ونحن الْآنَ بَشَر ونخاطب بعض الأحيان المديرَ أو مَن فوقَه ونَقُول مثلًا: أنتم أو سيادتكم أو سعادتكم أو حضرتكم، ونضع مِيمًا أكبر من اللازم، مَعَ أننا مِثْلُهم بَشَرٌ، وكلُّ هَذِهِ فِي الحقيقة من الأُمُور الشَّكْلِيَّة الَّتِي لا تُنْبِئ عن شيءٍ ولا تنبغي أيضًا، والصحابةُ لا يُخاطِبون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهَذَا الخطابِ، وَهُوَ أشرفُ عِندَهم من كُلّ بَشَرٍ، وكذلك الخلفاءُ الراشدونَ ما كانوا يُخَاطَبُون بمثلِ هَذَا.

ومن عجبٍ أن بعضَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُخاطِبون بمثلِ هَذِهِ الألقابِ تجد قلوبهم تَغلِي عَلَى هَؤُلَاءِ المخاطَبيـنَ، فيَكُون هَذَا الخطابُ كأنه تهَكُّمٌ بهم، وكان الأَولى أنْ يَتَخَاطَبَ النَّاسُ فيما بينهم خطابًا عاديًّا، فهَذَا الهدهد ما مقامُه مَعَ سُلَيْمان! جُنْدٌ من جُنْدِهِ الأضعفينَ، ومع ذلك يَقُول بهَذِهِ الصراحة: ﴿أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وأيضا هُوَ الَّذِي بدأ بكلامِه، وبسرعةٍ، لكِن فِي الحقيقة أَنَّهُ فِيهِ نوعٌ من الأدبِ، ما قَالَ مثلًا: أنت جاهلٌ ولا تعرِف وأنا عرفتُ وبحثـتُ ووجدتُ شيئًا لا تـدري عنه، بل قَالَ: ﴿أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، يعني لأجلِ أن يعرفَ سُلَيْمان قَدْرَه، وَأَنَّهُ لَيْسَ محيطًا بكلِّ شيءٍ، فهَذَا الهدهدُ صار أشدَّ إحاطةً منه، والإِنْسَان البشر ضعيفٌ فِي كُلّ شيءٍ، حَتَّى ما عَلِمنا كيف نَقْبُرُ مَوْتَانا إِلَّا مِنَ الغُراب، وهَذَا مِمَّا يَدُلّ عَلَى أننا لَسْنَا بشيءٍ فِي الواقعِ.

قوله: ﴿أَحطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ يُشْبِهُها قولُ إبراهيمَ لِأَبِيـهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، مـا قَالَ: يا أبـتِ إنك جاهلٌ، وهَـذَا من اللَّطَافَة فِي الأسلوبِ.

قَالَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ والكلمة شديدةٌ، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي اطَّلَعْتُ عَلَى ما لم تَطَّلِعْ عليه]، ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل:٢٢-٢٣]، إِلَى أن قَالَ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، سُلَيْمَان قَبِلَ بعض الشَّيْء، والهدهد أَكَّدَ الخبرَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ ومعَ ذلك قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذِهِ أيضًا صَدْمَةٌ عَلَى الهدهدِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ كَانَ مُتيقِّنًا ومعَ ذلك قيلَ له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لماذا قَالَ سُلَيْمان هَذَا مَعَ أَنَّهُ يقولُ له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؟

لأن حقيقةَ الأَمْرِ أن كلامَ الهدهدِ فِي مَقامِ الدفاعِ عن نفسِه؛ لِأَنَّهُ مُتوَعَّدٌ بالعذابِ الشَّديدِ أو بالذبحِ أو بخبرٍ، أي: بسلطانٍ مبينٍ، فَهُوَ لَمَّا كَانَ فِي مقامِ الدفاعِ احتاجَ أنْ يَتثبَّت هَذَا ببيِّنَةٍ، وقد وقعَ مثلُ ذلك لعمرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، استأذنَ عليه أبو موسى ثلاثَ مرَّاتٍ ثُمَّ انصرفَ، فلما عاتبَهُ فِي ذلك قَالَ: «هَكَذَا أَمَرَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ»(١)، قَالَ: لَتأْتِينِّي ببيِّنَةٍ عَلَى ما تقولُ، مَعَ أَنَّ أبا مُوسَى صَحَابِيٌّ ثِقَةٌ لا يمكن أن يَتقَوَّلَ عَلَى الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، لكِنِ المَقام يقتضي زيادةَ التثبُّتِ؛ لِأَنَّ الإِنْسَان قد يَفْهَم منَ النصِّ ما لَيْسَ مرادًا، فلذلك طَلَبَ عمرُ من أبي موسى أنْ يأتيَ بشاهِدٍ.

هنا سُلَيْمَان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَعَ أن هَذَا الهدهدَ قد يَقَّنَ له الخبرَ يقولُ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ثُمَّ أعطاهُ آيَةً وقَرينةً: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [النمل:٢٨]، والقصَّة فِي الحقيقة عظيمةٌ جدًّا فيها فوائدُ كثيرةٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ﴾ بالصرفِ وتَرْكِهِ[1]]، بالصرف (من سَبإٍ)، وتركه (مِن سَبأَ) جُرَّ بالفتحةِ لِأَنَّهُ اسْم لا يَنْصَرِف، و﴿مِن سَبَإٍ﴾ جُرَّ بالكسرةِ لِأَنَّهُ اسْم يَنصرفُ، فعَلَى أيِّ اعتبارٍ جَعَلْنَاهُ إمَّا مصروفًا أو عدمه؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قبيلة باليمنِ سُمِّيَتْ باسمِ جَدٍّ لهم باعتبارِهِ صُرِفَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: سُرعة رجوعِ الهدهدِ إِلَى سُلَيْمَان، مِمَّا يَدُلّ عَلَى أنَّ جنودَ سُلَيْمَان يَهْتَمُّونَ بِشُؤونهم ولا يَتَأَخَّرون عن أعمالِهِم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن سُلَيْمَان وإنْ كَانَ قد أُعْطِيَ مُلكًا عظيمًا لم يُعْطَهُ أحدٌ فَإِنَّهُ لا يُحِيطُ بكلِّ شيءٍ، فَهُوَ عَلَى سَعَةِ مُلْكِهِ وقوَّته لا يحيط بكلِّ شيءٍ، فغيرُه من باب أَولى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ضعفُ إدراكِ الْإِنْسَان مَهْمَا بلغَ مِنَ المُلْكِ ومن الْقُوَّة، ويدلُّ لهَذَا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النِّساء:٢٨]؛ فإن هَذَا يُبيِّن ضعفَ الْإِنْسَان، فَهُوَ ضعيف فِي كُلِّ شيءٍ؛ فِي القُوَى العقليَّة والقوى الجِسْمِيَّة وكلِّ ما يمكن أن يُوصَف بالْقُوَّة والضعفِ، فإنَّ حال الْإِنْسَان فِيهِ الضعفُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ أنْ يُخَاطَب الرئيس بمثلِ هَذَا الخطابِ، فيقال مثلًا: عَلِمْتُ ما لم تعلمْ، أو فعلتُ ما لم تفعلْ، ومثله قول إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣].

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٠).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للمتكلِّم أنْ يُؤَكِّدَ الخبـرَ للمخاطَب عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما فائدةُ تأكيدِه له وَهُوَ مَصْدَرُ الخبر؛ لِأَنَّ التأكيد إِنَّمَا يُفيد إذا جاءَ من طرفٍ آخرَ يَكُون شاهدًا للمخبِر، فأمَّا نفسُ المخبِر فكيف يقالُ: إن فِي تأكيدِه للخبرِ فائدة؟

فالجواب: أنَّ المقصودَ من ذلك زيادة طُمأنينة المُخْبَر؛ وله فائدةٌ، فإذا أخبركَ المخبِرُ بخبرٍ قد تقولُ له: هل أنتَ متأكِّدٌ؟ فيقول: نعم أو لا، فإذن تأكيد المُخْبِرِ لخبرِه لا يقال: إِنَّهُ لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ هُوَ مصدرُ الخبرِ، بل نَقُول: فِيهِ فائدةٌ، وهي رفعُ توهُّم المُخْبِرِ فِي خبَرِه، فَيَرْفَع هَذَا التوهُّم ويَطْمَئِنّ المخاطَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن استعمـالَ ضَميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المعظَّم لَيْسَ بلازمٍ، وَلَيْسَ من شأنِ خِطاب الأَنْبياء والسَّلَف أَنَّهُ عنـدما يَكُون الْإِنْسَان معظَّمًـا يَقُول: أتيتكم، جئتكم، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ كما هُوَ المعتاد الْآنَ عندنا.

فعندنا إذا كَانَ المخاطَب مُعَظَّمًا يقال: كما تريدون مثلًا سعادتكم أو سماحتكم أو سيادتكم أو فضيلتكم أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَيْسَ معتادًا بمَن سَبَقَ، وإنما يخاطب الْإِنْسَان بما تَقتضيه حالُه، حَتَّى إن النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يردُّ السلامَ عَلَى المُسلِّم بِقَوْلِهِ: «عَلَيْكَ السَّلَامُ»[1]، فإذا سلم عليه أحد يَقُول: وعليك السلامُ، وإذا كانوا جماعة يقال: عليكم السلام، فمن عادة السلفِ أَنَّهُم يخاطبون أو يتكلمون مَعَ المخاطَب بما تَقْضِيهِ حالُه.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستئذان، باب من رد فقال: عليك السلام، حديث رقم (٥٨٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٢٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣].

قوله: ﴿ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ الضَّميرُ في قوله: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾: ﴿هُمْ﴾ ضَميرُ جمعٍ، ومرجِع الضَّميرِ مُفرَدٌ، لكِن لَمَّا كَانَ المُراد به القبيلة صَحَّ أن يعودَ الضَّميرُ إليه جمعًا، وقد سبقَ في الشرحِ قُلْنَا: إن فيها (سبأٍ وسبأً) باعتبار الجدِّ والقبيلةِ.

قوله: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ المفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: أي [هي مَلِكة]، والغَرَضُ من تفسير ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾ بمَلِكَة خوفًا من أن يقالَ: إنَّها تملكهم ملك استرقاقٍ لا ملك تَصَرُّف.

والمَرْأَة هل يَصِحُّ أن تكون ملكةً؟

لا، ففي شَرْعِنا لا يجوزُ أن تُوَلَّى المَرْأَةُ عَلَى الرِّجال، فلا يمكن أن تكونَ ملكة، ولا يمكن أن تكون أميرةً ولا يمكن أن تكون وزيرةً، ولا يمكن أن تكون قاضيةً، كُلّ هَذَا لا يجوزُ؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ يقولُ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن تُسَمَّى المَرْأَة أميرةً أو سيدةً؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النَّبِيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر، حديث رقم (٤١٦٣)، عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

أميرة اسمٌ فقط، أي أَنَّهَا من عائلةِ الأمراءِ فقط، وَأَمَّا إطلاق كلمة (سيدة) فكلمة سيدة صارتْ رخيصةً، فكل امرأةٍ تُسمَّى سيدةً، وهَذَا قد نَبَّهْنَا عليه فيما سبق وقُلْنَا: إن هَذَا مُتَلَقًّى من الغربِ الَّذِينَ يقدسون المَرْأَةَ وإن هَذَا ما يَنبغي، ولهَذَا حَتَّى بعض الكتَّاب تجدهم يَقُولُونَ: السيِّدة عائشة، السيدة خديجة، وهَذَا لا يَنبغي، بل يقال: المَرْأَةُ والأُنثى، وَأَمَّا السيدة فلا يَصِحُّ هَذَا الإطلاق، لاسيما وَأَنَّهُ متلقًّى من غير المُسلِمينَ.

قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِنَ المُقوِّمات، كما قَالَ المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أَمَّا وَصْفُ العَرْش الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر فلا دليلَ عليه[1].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المَرْأَةَ لا تَصْلُحُ لِلْمُلْكِ؛ لِأَنَّهُ ما قَالَ: مَلِكة، بل قَالَ: ﴿تَمْلِكُهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة مُلْكِ هَـذِهِ المَرْأَةِ، بل عَظَمَـة ملك هَـذِهِ المَرْأَة، لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهَا ذاتُ أُبَّهَة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

• • ۞ • •

---

(١) قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سرير ﴿عَظِيمٌ﴾ طوله ثمانون ذراعًا وعرضه أربعون ذراعًا، وارتفاعه ثلاثون ذراعًا مضروب من الذهب والفضة مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر والزمرد وقوائمه من الياقوت الأحمر، والزبرجد الأخضر والزمرد عليه سبعة أبواب على بيت باب مغلق].

الآية (٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ القومَ مُشْرِكُونَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الشَّمْسَ مَعبودةٌ من قديمِ الزمانِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ فِي زمنِ سُلَيْمَانَ، وما زالَ إِلَى الْآنَ يوجدُ مَن يَعْبُدُ الشَّمْسَ ومَن يعبد النَّارَ، ومن يعبد القمرَ، بل ومَن يعبدُ البقرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الخلقَ مَفْطُورون عَلَى إنكارِ الشركِ؛ لِأَنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مَعَ أن الهدهد لَيْسَ من العُقلاءِ، لكِن جميع الحيواناتِ بل والمخلوقات غير الحيوانات مَفْطُورة عَلَى توحيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المشركينَ شَرُّ البَرِيَّة كما قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ إذا كانت البهائم والجمادات تسبِّح اللهَ وتَعرِف حقَّه، وبنو آدم هَؤُلَاءِ يشركون به، صاروا شرَّ الخَليقةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ والسَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَان يُذَمُّ عَلَى فِعْلِه أو يُمدَح عَلَى فعله؛ لِأَنَّ الهدهد ساقَ ذلك عَلَى سبيلِ الذمِّ، والغرضُ من ذِكر هَذِهِ الفائدة: الوصول إِلَى أَنَّ فعل الْإِنْسَان باختيارِه؛ إذ لو كَانَ مُجْبَرًا عليه لم يصِح أن يَكُون محَلًّا للذمِّ أو للمدحِ؛ لِأَنَّ الَّذِي يُجْبَر عَلَى العَمَلِ لا يُمْدَحُ عليه إن كَانَ خيرًا، ولا يُذَمّ عليه إن كَانَ سوءًا، ولكِنه هُوَ فِعْلُهُ.

ويتفرع عَلَى هَذِهِ الفائدة: إبطال قول الجبرية الذين يقولون: إن الْإِنْسَان مُجْبَر عَلَى عَمَلِه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ مجبرًا لم يكن أهلًا للثناءِ فِي الخير أو فِي الشرّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الأَعْمـالَ السيِّئة من تزيينِ الشيطانِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكيفَ يُجمَع بين هَذِهِ الآيَةِ وبين قولِهِ تَعَالَى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل:٤]، فأضافَ اللهُ التزيينَ إليه، وهنا أضافَهُ إِلَى الشيطانِ، وَفِي آيَةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧]، مبنيٌّ للمجهولِ؟

نَقُول: هَذِهِ لا تعارضُ الآياتِ الأُخْرَى، فيُضاف إِلَى الله تقديرًا، وإلى الشيطان مباشرةً.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إنَّ الأَعمالَ السيِّئة تُزَيَّنُ للنَّاس فِي رمضان، وقد ثبتَ فِي الحديث: «أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُصَفَّدُ فِيهِ وتُغَلُّ»[1]، ومع ذلك نرى أن كثيرًا من الخلقِ يُزَيَّن لهم سوءُ الأَعْمالِ فِي رمضانَ، فكيف الجمعُ؟

قُلْنَا: يَكُون هَذَا من تزيينِ النفسِ، فهي تُزَيِّنُ أيضًا سُوءَ الأَعْمالِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، حديث رقم (٣١٠٣)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، حديث رقم (١٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن سبيلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واحدٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، وسُبُل الشرعِ مُتَعَدِّدَةٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ولهَذَا قَالَ العُلَماءُ: الإِسْلامُ مِلَّة والكفرُ مِلَل، الكفر: يهودية، نَصرانيَّة، وَثَنِيَّة، مجُوسِيَّة... إِلَى آخِرِهِ، مِلَل لِأَنَّهَا سُبُل مُتَعَدِّدة، وَأَمَّا الحْقّ فسَبيلُه واحدٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ تقولونَ ذلكَ وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦]، فكيف الجمع؟

قُلْنَا: إذا قَيَّدْتَ فهي عَلَى حسَب ما قيّدت به، يعني يصحّ أن تقول: (سُبُل الخير)، ويَكُون المُراد بذلك الفروع الموصلة إِلَى الخيـر، فالإِسْلام كما أَنَّهُ كله سبيلٌ واحدةٌ فَهُوَ كذلك -أيضًا- ذو شُعَب، وقد ثبتَ عن النَّبِيّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»[1]، فَهُوَ ذو شُعَب، فهَذَا معنى قوله: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

ثُمَّ إِنَّهُ مما يُزيل الإشكالَ أَنَّهَا أُضيفت إِلَى السلامِ، ولم يقل: (السبل)، فعُلِمَ أن المُرادَ بذلك فُروعُ الخيرِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إذا زُيِّنَ للإِنْسَانِ سُوءُ عَمَلِه فصدَّ بذلك عنِ السبيلِ -والعياذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فَإِنَّهُ لا يهتدِي؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

وهَذَا هُوَ البلاءُ أَنَّ الْإِنْسَان يرى القبيحَ حَسَنًا، فهَذَا لا يكادُ يُقْلِع، لكِن مَن كَانَ يرى القبيحَ قَبيحًا فَإِنَّهُ يمكنه أن يُقْلِع، ولذلك تجدون الْآنَ مثلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتعاملون بالحِيَل: الحيل الربويَّة وغير الربويَّة ومن المحرَّمات، لا يكادون يُقْلِعُونَ

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان...، حديث رقم (٩)؛ مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وفضلها وأدناها...، حديث رقم (٣٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عنها؛ لِأَنَّهُم يَـرَوْنَ أَنَّهُم عَلَى حقٍّ، ولذلك لا يُقْلِعُـون، لكِنْ مَن فَعَلَ القبيـحَ وَهُوَ يَعْتَقِدُهُ قَبيـحًا، فَإِنَّهُ يُوشِـكُ أن يُقْلِـعَ عنه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَجِب أن يوصل قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ [النمل:٢٥]، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]؛ لِأَنَّهُ متعلّق به، والتَّقْدير: فهم لا يهتدون إِلَى أن يسجدوا.

• ● ۞ ● •

الآية (٢٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أي: أن يسجدوا له، فزِيدَتْ (لا) وأدغم فيها نون (أن)؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]، والجملة فِي محل مَفْعُول ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بإسقاط إلى]، لِأَنَّ معنى قوله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد:٢٩]؛ لِأَن يعلم أهل الكتاب، فزيدتِ اللامُ توكيدًا، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ مثل الآية الَّتِي ذكرها شاهدًا لها من حيثُ زيادة (لا)، ويَرَى آخرونَ من المفسرين خلاف ما رآه الْمُفَسِّر ويَقُولُونَ: إن الجملة انتهت بِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤]، وإن قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بمعنى: هلا يسجدوا، وَأَنَّهُ للتحضيضِ، ولكِن هَذَا التَّقْدير فِيهِ إشكال أيضًا، وَهُوَ حذف النون من الأفعال الخمسة بدون ناصب ولا جازم؛ لِأَنَّ ﴿أَلَّا﴾ لا تنصب ولا تجزم، وإذا قُلْنَا: إن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيض وهي لا تنصب ولا تَجْزِم، ونظرنا إِلَى ﴿يَسْجُدُوا﴾ وجدنا أن فيها حذف النون نصبًا أو جزمًا، وهنا لَيْسَ ناصبٌ ولا جازمٌ، فَهُوَ محل إشكال.

ولكِنَّ الجوابَ عن هَـذَا قد يَكُون سهلًا؛ لِأَنَّ حـذف نون الأفعال الخمسة

لغيرِ ناصبٍ ولا جازمٍ جائزٌ ووارد فِي اللُّغة العَربيَّة، ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] لا تدخلوا (لا) نافية، لا تنصبُ ولا تَجزِم، ومع ذلك حُذِفَتِ النونُ، ولم يقل: (لا تدخلونَ الجَنَّة)، فالجواب عَن هَذَا أن يقال: إن نون الأفعال الخمسة قد تحذف بدون ناصب ولا جازم، لا سيما فِي مثل هَذَا التعبير ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ الدالّ عَلَى التحضيضِ، فإنَّ حَذْفَ النونِ هنا يُسَهِّلُه وجودُ هَذَا الحرفِ السابقِ للفعلِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: إذا كانت عَلَى تقديرِ المُفَسِّر، فإن هَذِهِ الجملة بالنِّسْبَة لما قبلها كالمؤكِّدة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل:٢٤]، هَذَا يَقتضِي أن لا يهتدوا إِلَى الحَقّ وإلى أنْ يسجدوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَأَمَّا عَلَى القَوْلِ الثاني أن ﴿أَلَّا﴾ للتحضيضِ بمعنى (هلا) فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أنَّ الهُدْهُد انتقدهم بهَذَا الفِعْل، وبَيَّن أن الأَولى، بل الأوجب أن يَكُون السجود لله عَزَّوَجَلَّ، وتكون الجملة منفصِلة عما قبلها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٢٤]، مَعَ قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ ألا يقتضي أن مَناط الذمِّ كونهم لا يسجدون لله، وَلَيْسَ كونهم يشركون فِي السجودِ.

الجواب: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ يَجب أن يُفردوا الله تَعَالَى بالسجودِ، فيَكُون مَناط الذمّ كونهم يخصصون الشَّمْس بالسجودِ، وكذلك أيضًا لو أشركوا بها مَعَ الله؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يزولَ الذنبُ إِلَّا إذا خُصِّصَ السجودُ لله وحدَه.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إفشاء السلام، حديث رقم (٥١٩٣)؛ والترمذي، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في إفشاء السلام، حديث رقم (٢٦٨٨)؛ وابن ماجه، كتاب المقدمة، باب في الإيمان، حديث رقم (٦٨)؛ وأحمد (٢/ ٤٧٧) (١٠١٨٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي الآيَة قراءة ثانية: (أَلَا يا اسجدوا لله) وتكون (ألا) استفتاحية و(يا) حرف نداء، والنداء محذوف، والتَّقْدير: ألا يا قوم اسجدوا لله، أو تكون (يا) للتنبيه، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس:٢٦]، وقوله تَعَالَى: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾ [النِّساء:٧٣]، فإن (يا) هَذِهِ إمَّا أن تكون للتنبيهِ؛ لِأَنَّهَا لا تدخلُ عَلَى الأفعالِ ولا عَلَى الحروفِ، وَإمَّا أن تكون للنداء والمنادى محذوف.

قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مَصْدر بمعنى المخبوء مِنَ المطرِ والنباتِ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِم ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بِأَلْسِنَتِهِم]، قوله: ﴿ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ﴾ الخَبْء بمعنى المخبوءِ؛ كما قَالَ المُفَسِّر، فَهُوَ مصدر بمعنى اسمِ المَفْعُول، والمصدرُ بمعنى اسمِ المَفْعُول واردٌ فِي اللُّغة العربيَّة كثيرًا، ومنه قوله تَعَالَى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٍ﴾ [الطلاق:٦]، أي: محمولٍ؛ لِأَنَّ الحملَ فِعل المَرْأَةِ، وَأَمَّا المحمولُ فَهُوَ الجنينُ، وكذلك قوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤].

ومنه قولُ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1] أي: مردود، ومنه أيضًا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان:١١]، ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ﴾ أي: مخلوقه وَلَيْس فِعْلَه.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ المطرِ]، هَذَا باعتبارِ المخبوءِ فِي السَّمَاء، [والنبات]، هَذَا المخبوءِ فِي الْأَرْض، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي يُخْرِجُ ما فِي هَذَا وما فِي هَذَا، [﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ بألسنتهم].

ولم يُشِرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى القراءةِ الثَّانِيَةِ وهي سبعيَّة فِي قوله: «يخفون»

---

(١) سبق تخريجه.

و«يعلنون»[1]؛ فإن الَّذي فِي المصحف قراءة عاصم: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يُخاطِب بذلك سُلَيْمَان، وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿مَا يُخْفُونَ﴾ فِي قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم]، تقييده بالألسنةِ فِيهِ نَظَرٌ، لو قَالَ: بِألْسِنَتِكُمْ وجَوارِحكم؛ لِأَنَّ ما يُفْعَل بالجوارح معلَن كما أن ما يُنْطَق به باللسانِ مُعْلَن أيضًا ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وهَذَان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ والعلمُ بما يُبْطِنُ العبدُ وما يعلنه- لا يَكُونان لأحدٍ من المخلوقينَ، لا للشمسِ ولا لغيرِ الشَّمْسِ، وإنما ذلك خَاصّ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولهَذَا جَعَلَه الهدهدُ منَ الأَسْبَاب الَّتِي تَستلزِم أن تكونَ العِبادَةُ للهِ وحدَه؛ لِأَنَّهُ العَالِم بها.

ولا يمكن أن يُؤْتَى بوصفٍ يَستلزِم العِبادَةَ إِلَّا إذا كَانَ خاصًّا بالله؛ لِأَنَّهُ يؤتى بهَذَا الوصفِ استدلالًا عَلَى بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كَانَ مما يُمْكِن أن يَكُون للهِ لم يكنْ ذلكَ دليلًا عَلَى اختصاصِ اللهِ تَعَالَى بالعُبُودِيَّة، إذ قد يقولُ العابدُ للشيء: وهَذَا وصف أيضًا موجود فِي معبودي فأنا أعبده.

فالمهمّ أَنَّهُ لا يمكن أن تُقامَ الحُجَّة إِلَّا بدليلٍ خَاصّ بالمحتجِّ له، يعني أَنَّهُ لا يُمْكِن أن تُقِيمَ الحجَّةَ بأن العِبادَةَ للهِ وحدَه إِلَّا بوصفٍ خَاصٍّ بالله؛ لأنك لو احتججتَ بوصفٍ يَكُون لله ولغيره لكان العابدُ لغيرِ اللهِ يَقُول: وهَذَا الوصف أيضًا ممكن فِي معبودي فلا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ مما يختص به اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادةِ وَحْدَهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يَستطيعُ ذلك إِلَّا الله، لا أحد يستطيعُ

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

أنْ يُخرِج المخبوءَ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض إِلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا كَانَ كذلك فيجب أن تكون العِبادَة له وحدَه؛ لِأَنَّهُ الربُّ وحدَه، فيكُون المعبود وحدَه كذلك.

الفَائِدَتان الثَّانِيَة والثَّالثة: سَعَـةُ عِلْم اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، واستدلَّ به الشَّافِعيُّ عَلَى ثُبُوتِ القَدَرِ، فثبوت علمِ اللهِ لأفعالِ العبدِ دليلٌ عَلَى تقديرِهِ لها.

ولهَذَا قَالَ الشَّافِعيّ فِي الْقَدَرِيَّة: «نَاظِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فإنْ أَقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أَنْكَرُوه كَفَروا»[1]. وهَذَا صحيحٌ؛ لأَنَّنا نَقُول: إذا كنتم تُقِرُّونَ بأن الله عالمٌ بأفعالِ الخلقِ، فهل وَقَعَتْ هَذِهِ الأفعالُ عَلَى حَسَبِ عِلْمِهِ، أو عَلَى خلاف عِلمه؟

عَلَى حسَـبِ عِلمه؛ لأنكم تُقِرُّونَ أَنَّهُ يعلمها، إذن فقد وَقَعَتْ عَلَى حَسَـبِ عِلْمِهِ، فإذا كانت واقعة عَلَى حسبِ عِلْمِه، لَزِمَ أنْ تكونَ بتقديرِه، وإلَّا لكان يمكن أن تقعَ عَلَى خلافِ علمه، إذا كانت من تقديرِ العبدِ واستقلالِ العبدِ، فَإِنَّهُ لا يَلْزَمُ أنْ تقعَ عَلَى حَسَبِ عِلْمِه، وَأَمَّا إذا أنكروا العلمَ فإنهم يكفرون؛ لِأَنَّ إنكارَ علمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كُفرٌ، وعندنا أيضًا حَتَّى إنكار تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كفرٌ؛ لِأَنَّ الآياتِ والأحاديثَ صـريحة بأن الله تَعَالَى مُقَدِّر لأفعالِ العبدِ، فإنكارها تكذيـبٌ للقرآنِ والسنَّةِ، وهَذَا هُوَ الكفرُ.

ولكِن الشَّافِعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ أراد أن يُلْزِمَهم بأمرٍ مُتَّفَقٍ عليه، وَهُوَ أن إنكار علم الله كفرٌ، فقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، نَستفيد مِنْه بناءً عَلَى تقدير الشَّافِعيّ رَحِمَهُ اللَّهُ إثبات تقديرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأفعال العبدِ.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (ص:٣٠٢)، جامع العلوم والحكم (ص:٢٧).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعة: تَحذيرُ العَبْدِ مِنَ الْمُخالفةِ عَلَنًا أو سِرًّا، كيف ذلك؟ لأنك إذا عَلِمتَ بهَذَا الأَمْرِ، بأن الله يعلمُ ما تُخْفِي وما تُعْلِن، يَلْزَمُ مِن ذلكَ أن لا تُخَالِفَه، لا تقلْ: سأفعلُ هَذَا المحرَّم لِأَنَّ الله لا يَدْرِي، أو سأتركُ هَذَا الواجبَ لِأَنَّ الله لا يدري، بل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَعلمُ، والْإِنْسَان لو عَلِمَ أن المعظَّم عندَه يعلم بأفعالِه، لَتَرَكَ ما لا يُرْضِيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أن أباك أو الرجلَ الَّذِي تحترمه يعلم بما تفعل، فهل تفعل ما يخالف رضاه؟ لا تفعل، لا سيما إذا كَانَ محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كَانَ كذلك فالربُّ من باب أَولى.

ولهَذَا ينبغي لكَ كلَّما دَعَتْكَ نفسُك إِلَى معصيةٍ، بل إِلَى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يَجِب عليك أن تتذكرَ هَذَا الأَمْرَ، أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يَعْلَم مخالفتَكَ، فيَلْزَم من هَذَا أن تَرْتَدِعَ، ولهَذَا جاء فِي الحديث وإن كَانَ فِيهِ نظرٌ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[1]؛ لأنك إذا عَلِمْتَ هَذَا العلمَ أوجبَ لك الاستقامةَ والثباتَ عَلَى الأَمْرِ.

قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، فيها قِراءتان[2]: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ و«ما يخفون وما يعلنون»، أَمَّا عَلَى قراءة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ [النمل:٢٥]، عَلَى حَسَبِ تفسيرِ الْمُفَسِّر فالمناسبُ: ما يخفون وما يعلنون، وَأَمَّا إن كَانَ عَلَى قراءة الكِسائي: «أَلَا يا اسجدوا»، وهي قراءة سَبْعِيَّة[3]، فتناسب: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]؛ لِأَنَّ اسجدوا فعلُ أمرٍ، وفعل الأَمْر للمُخَاطَب، فيَقْتَضي أن الأفعال الَّتِي

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٨٧٩٦)، عن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧١).

(٣) المصدر السابق نفس الموضع، والسبعة في القراءات (ص:٤٨٠).

بعده تكون للمخاطَب أيضًا، يَعْنِي: ألا يا قوم اسجدوا، وَهُوَ هنا لا يخاطب سُلَيْمَان؛ لِأَنَّ سُلَيْمَـان يسجد لله، ولكِنه لقوَّةِ استحضارِهِ ما كانت عليه ملكة سبأ خاطبهم بِقَوْلِهِ: (أَلَا يا اسجدوا).

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٦)

• ● ◦◦ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩﴾ [النمل:٢٦].

• ● ◦◦ ● •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [استئناف جملة ثنائية مُشْتَمِل عَلَى عرشِ الرحمنِ فِي مقابلةِ عرش بِلْقِيس، وبينهما بَونٌ عظيمٌ].

يَقُول هَذَا الهدهد: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهَذَا كلمة التَّوحيدِ، والمُفَسِّر يَقُول: إِنَّهَا جملةٌ استئنافيةٌ للثناءِ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بما لا يَكُونُ لغيرِه، فالأوَّل: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هَذَا يَتعلَّق بتوحيدِ الرُّبُوبيَّة، والثاني: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بتوحيدِ الأُلُوهِيَّة، أي: لا معبودَ بحقٍّ سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ -إذ هناك معبودات سِوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ بغير حقٍّ- فإذن أثنى عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصفة الرُّبُوبيَّة وبصفة الأُلُوهِيَّة، وربما نَقُولُ أيضًا: وبصفةِ الأسماءِ والصِّفَاتِ؛ لِأَنَّ توحيد الرُّبُوبيَّة مُسْتَلْزِم للأسماءِ والصِّفَاتِ؛ إذ إنَّ التصرُّف فِي الخلقِ والتدبير والعِلم كُلّ هَذَا من الصِّفَات.

قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾: ﴿رَبُّ﴾ بمعنى صاحبِ العَرْش العظيم، أي: صاحبه، كما تقول: ربُّ الدابَّة، أي: صاحب الدابَّة، وقوله: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ (أل) هَٰذِهِ للعهدِ الذِّهنيِّ، أي: العَرْش المعهود فِي أذهانِ الخَلْق العظيم، بخِلاف عرشِ بِلْقِيس، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣]، وهنا قَالَ: ﴿ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بـ(أل)،

والتعبير ظاهرٌ جدًّا فِي الفرقِ بينهما؛ لِأَنَّ (عرش) نَكِرة و﴿ٱلْعَرْشِ﴾ معرفة، فدلَّ ذلك عَلَى أن هَذَا العَرْش عرشٌ عظيمٌ معلومٌ مفهومٌ فِي الأذهانِ، بخِلاف الأوَّل.

ويَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه قاله فِي مقابلةِ عَرْش بلقيس، نعم هَذَا صحيحٌ، فواضحٌ أَنَّهُ قَالَه لأجلِ أنْ يُبيِّن أن صاحبَ العَرْش العظيم هُوَ المستحِقّ لِأَنْ يَكُونَ مالكًا، وَأَمَّا هَذِهِ المَلِكَة فإنَّ لها عرشًا وَلَيْسَ لها العَرْش.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: إثبات عرشِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]، والعَرْش هُوَ أعلى المخلوقاتِ، وَهُوَ غير الكرسيّ، وَلَيْسَ هُوَ المُلك كما قاله مُنْكِرو العلوّ، الَّذِينَ يَقُولُونَ: المُراد بالعَرْش المُلك، فيَقُولُونَ: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]، أي: استولَى عَلَى الملك، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ بصحيحٍ، والعَرْش معروفٌ عند العربِ، وَفِي اللُّغة العَربيَّة: بأنه سَرير المَلِك الخاص به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: إثباتُ انفرادِ اللهِ تَعَالَى بالألُوهيَّة؛ لِقَولِهِ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل:٢٦].

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا النفيُ أو الحصرُ حقيقيّ أو إضافيّ؟

إِذَا قُلْنَا: حقيقيّ، فهَذَا يَلْزَمُ منه أن يَكُون الإله لَيْسَ بمعنى معبود، لزم أن يَكُون الحصر إضافيًّا، إذ هناك معبود سِوَى الله وهي الأصنامُ، فيَصِير معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا مَعْبُودَ بحقٍّ إِلَّا الله، وحينَئِذٍ يَكُونُ الحَصْرُ إضافيًّا، وإنْ جَعَلْنَاهُ حَقِيقِيًّا فإِنَّنا يُمْكِنُ أن نَقُولَ: إن المُرادَ بالإلهِ فِي قولِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، الإلهُ المستحِقُّ، يَعْنِي: لا إله مُسْتَحِقّ إِلَّا الله، ولكِن هَذَا التَّقْدير يعودُ عَلَى الأوَّل.

واعلَمْ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمَّى الأصنام آلهةً؛ سَمَّاها آلهة فِي قوله تَعَالَى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، فأثبتَ أَنَّهَا آلهة، وَفِي آياتٍ أُخْرَى نفى أن تكون آلهةً فقال تَعَالَى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [يوسف:٤٠]، والجمعُ بينهما ظاهرٌ؛ أنَّ إثباتَ كونها آلهةً باعتبار هَؤُلَاءِ العابدينَ؛ لِأَنَّهُم يَعتقِدون أَنَّهَا آلهة، ونفي أن تكون آلهة وإنما هِيَ أسماء باعتبار حقيقة الأَمْرِ أَنَّهَا ليستْ بآلهةٍ تَسْتَحِقّ أن تُعْبَد؛ ولِهَذَا نُفي أن تكون آلهةً؛ لِأَنَّهَا لَيْسَ لها الْحَقّ فِي أن تُعْبَد.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الحصر الحقيقيّ والإضافيّ؟

قُلْنَا: مثال الحصر الحقيقيِّ والإضافيِّ إذا قُلْنَا: إن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات:٣٥]، أي لا معبود بحق إِلَّا الله صار حصرًا إضافيًّا، باعتبار أن يَكُون بحق، أمَّا بحق وباطل فيوجد آلهة سِوَى الله، وحينَئذٍ يَكُون الحصرُ إضافيًّا، يَعْنِي بالإضافةِ إِلَى الإلهِ الحقّ، فإذا قُلْنَا: حقيقيٌّ فَهُوَ باعتبارِ الواقعِ أَنَّهُ لا يوجد إله إِلَّا الله، وأنّ هَذِهِ الآلهة هِيَ مجرد أسماء، فيَكُون الحصر حقيقيًّا، أي: باعتبار الحقيقة والواقع، ومؤداهما واحد؛ ولِهَذَا أثبت الله الآلهةَ مرة ونفاها مرة أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: إثبات الرُّبُوبِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ﴾، ورب بمعنى: خالق أو بمعنى صاحب؟

بمعنى خالق، وَهُوَ أيضًا مختصٌّ به، إذ إن العَرْش لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحدَه.

الآية (٢٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧].

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ يقوله سُلَيْمان، والسينُ -كما تقدَّم- تَدُلّ عَلَى التحقيقِ مَعَ التراخِي، ﴿سَنَنظُرُ﴾ معناه أنَّ نَظَرَنا هَذَا محقّق لَكِنَّهُ سيكُونُ له مُقَدِّمات، فهي تدلُّ عَلَى التأكيدِ.

قوله: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ ولم يَقْبَلْ كلامَه من أوَّل الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ خَشِيَ أن يَكُونَ أتى بذلكَ دفاعًا عن نفسِهِ، ونظيرُ هَذَا ما سَلَكَهُ عمرُ بنُ الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ حينَ استأذنَ ثلاثًا وانصرفَ ثُمَّ حَدَّثَه أن النَّبِيّ ﷺ أمر بذلكَ، فطلبَ منهم أنْ يَشْهَدُوا له، فالتُّهَم أو عَدَم الثِّقَة بالقَوْل لها أَسْباب، مِن جُمْلَتِها أنْ يَكُونَ المُخْبِر عَلَى هَذَا الوصفِ، يَتَضَمَّن إخْبارُه دفاعًا عن نفسِه، فهنا مهما كَانَ منَ الثقةِ تجدُ أنَّكَ تَتَرَدَّد فِي قبُولِ هَذَا الخَبرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أَخْبَرْتَنَا به ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: منْ هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كَذَبْتَ فيه].

قوله: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الأوَّل صَريحٌ أَنَّهُ فِعل، وهنا قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي من هَذَا النوعِ، فَهُوَ أبلغُ مِن: أمْ كذبتَ)؛ لِأَنَّ قوله: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يَدُلّ عَلَى الوصفِ الدائمِ، فَهُوَ أبلغ من قوله: [أم كذبتَ]؛ لِأَنَّ

[أمْ كَذَبْتَ] فِعلٌ، والفِعْل قد يَكُونُ مرّة لكِن ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ هَذَا وصفٌ يَدُلّ عَلَى استمرارِ الكذِبِ فيه، هَذَا ما قَرَّرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعندي: أن فِي تعبير سُلَيْمان للهدهد لَبَاقَة؛ لِأَنَّ مُصارَحَتَه ومقابلته بِقَوْلِهِ: [أمْ كَذَبْتَ] أَشَدُّ وقعًا من قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، يعني أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أهونُ مِمَّا لو قَالَ: أم كذبت، فهي فِي الحقيقة من جِهَةٍ أشدّ، وهَذَا بالنظر إِلَى أن قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وصفٌ لازِمٌ، ومن جهة المخاطبةِ أهونُ من قولِه: أمْ كَذَبْتَ، فهَذَا وجهُ الاختلافِ بين قولِه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقول المُفَسِّر: [أم كذبتَ]، وكلُّ قولٍ له وجهٌ، لا تعارضَ بينهما.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَحِقُّ لسُلَيْمَان أنْ يَصِفَ الهدهدَ بمجرَّدِ هَذَا الفِعْل وصفًا مُطْلَقًا بالكذِبِ؟

فالجواب: المُرادُ بالكاذبينَ الَّذِينَ مِن دَأْبِهِمُ الكذِبُ، فكون هَذَا من الكاذبينَ إِمَّا أَنَّهُ من دأبِهِ الكذِب أو فِي جُمْلَتِهم، وقد يكذِب مرَّةً واحدةً، وسُلَيْمان أيضًا ما وَصَفَهُ؛ لِأَنَّهُ قال: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ مقابل قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فلا يُعلم هل يكُونُ مُتَّصِفًا بِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ أو بِقَوْلِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فما وَصَفَهُ، بل هُوَ مُتَرَدِّدٌ، يُنْظَر، لكِنْ لو ثَبَتَ الكذبُ فهل يَحِقُّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ؟

الجواب: لا يَحِقّ أنْ يُوصَف بأنه من الكاذبينَ المتَّصِفين بها دائمًا، ولكِن -كما تَقَدَّمَ- هَذَا من بابِ التلطُّف فِي الخِطاب، فكونه من الكاذبينَ هَذَا أشدُّ إذا كَانَ وَصْفه الكَذِب، وكونه لم يُخاطِبْه وقال: أمْ كذبتَ يَكُون أهونَ، مثل قول إبراهيم ﷺ للضيوف: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]، لم يقل: أُنْكِرُكُم، لا أَعْرِفكم، بل قَالَ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ وهَذَا من بابِ التلطُّفِ فِي التعبيرِ.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ثم دَلَّهُمْ عَلَى الماءِ فَاسْتُخْرِجَ وَارْتَوَوْا وَتَوَضَّئُوا وَصَلَّوْا، ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمانُ كِتابًا صُورَتُه: مِن عَبْدِ اللهِ سُلَيمان بنِ داودَ إِلَى بِلْقِيس مَلِكَةِ سَبأ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، السلامُ عَلَى مَنِ اتَّبعَ الهدَى، أَمَّا بعدُ؛ فلا ﴿تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]. ثُمَّ طَبَعَه بالمِسْكِ وخَتَمَهُ بخاتَمِه، ثُمَّ قَالَ للهُدْهُد: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾].

كُلّ هَـذَا مِنَ الحِكايات الَّتِي لا دليـلَ عليها فِي الْقُـرْآنِ، فكونه دَلَّهم عَلَى الماء فاستخرجوه وارْتَوَوْا وتوضئوا وصَلَّوْا أيضًا أين هَذَا فِي الْقُرْآن؟! لَكِنَّنا نَقُول: هَذَا لا دليلَ عليه، ولا يجوزُ لنا أنْ نَعْتَقِدَهُ، ولا أن نُكَذِّبَه، هَذَا إذا صحَّ عن بني إسرائيلَ؛ لأنه تُوجَد آفةٌ أيضًا وهي أَنَّهُ يوجد بيننا وبينَ بني إسرائيلَ طَريق مِمَّن رَوَاهُ عن بني إسـرائيل، فإذا صحَّ عن بني إسـرائيلَ وأنهم مِمَّا حَدَّثُوا به هَذِهِ الأُمَّة نَقُول فيه: إنَّهُ لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْء يُعارِضُ كِتَابَنا، ولا فِي كتابنا ما يُؤَيِّده، وإلَّا لو كَانَ فِي كتابنا ما يؤيده قَبِلْنَاه، ولو كَانَ فِي كتابنا ما يُعارِضه رَدَدْنَاهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأولى: أَنَّهُ يَنبغي التثبُّت فِي الخبـر، لا سيمـا عند قيام الشُّبُهات، وما هِيَ الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قَالَ ذلكَ مُدافعةً، وإن كَانَ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢]، لكِن لَمَّا كَانَ هَذَا مَقامَ دفاعٍ، فَإِنَّهُ يَنبغي أن يَتَثَبَّتَ الْإِنْسَانُ أكثرَ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل:٢٢].

وهَذَا نظيرُ ما وقع لأميرِ المُؤْمِنِينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ؛ حَيْثُ استأذن عليه ثلاثًا وانصرفَ، فلَمّا عاتبَهُ بَعْد ذلكَ قَالَ: هَكَذَا أَمَرَنا رسولُ اللهِ

ﷺ. فقال: هاتِ مَن يَشْهَدُ لكَ. فشَهِد له مُحَمَّدُ بنُ مَسْلَمَةَ[1]، فمِثل هَذِهِ الحالِ وإنْ كَانَ الخبرُ مُتيَقَّنًا لكِن لا مانعَ أنْ يَتَثَبَّتَ الْإِنْسَان فِي ذلكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ لَبِقًا فِي تعبيرِه، حَتَّى لغيرِ الآدَمِيّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَصَدَقْتَ﴾ [النمل:٢٧]، فصارحَهُ هنا بلفظِ الصدقِ؛ لِأَنَّ الصدقَ صفةٌ محبوبةٌ محمودةٌ، وَفِي الكذِب ما قَالَ: (أنْ كذبتَ) بل قَالَ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، فتحاشَى أنْ يُصارِحَه بوصفِ الكذِبِ، مَعَ ما فِي ذلكَ بالنِّسْبَةِ للقرآنِ الكريمِ، فِي مراعاةِ الفواصلِ فِي قولِهِ: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]؛ لِأَنَّ فِيهِ مراعاةً للفواصلِ.

وقول المُفَسِّر: إن هَذَا أبلغ من [أن كذبت] هَذَا له وجهٌ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، أي: من المتَّصفينَ بالكذِبِ دائمًا، يَعْنِي: ممَّن وَصْفُه الكذِبُ، وَلَيْسَ مَن كَذَبَ مرةً واحدةً كمَن كَانَ الكذِبُ وَصفًا له، فيَكُون العدولُ هنا عن: [أنْ كذبتَ] له ناحيتانِ:

الناحية الأولى: أَنَّهُ ألطفُ منَ التصريحِ بالمخاطَبَةِ بالكذِبِ.

الناحية الأُخْرَى: هِيَ أشدُّ؛ حَيْثُ إِنَّهَا تدلُّ عَلَى اتِّصافِ المخاطَبِ بالكذِبِ، لا أَنَّهُ وقع منه مرَّةً واحدةً، فالمُفَسِّر راعَى وجهًا وتركَ وجهًا آخرَ، والصَّوابُ أَنَّهُ مراعى فيها الوجهانِ جميعًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالثة: فِي قوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ جواز تعظيم الْإِنْسَانِ إذا كَانَ أهلًا لذلك، عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أنْ يَكُونَ سُلَيْمَانُ أرادَ أَنَّهُ يَنْظُرُ ذلك بمَن يستعين به من جنوده،

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب الخروج في التجارة، حديث رقم (١٩٥٦)؛ ومسلم، كتاب الآداب، باب الاستئذان، حديث رقم (٢١٥٣).

لا أَنَّهُ يريد أن يباشر هُوَ بنفسِهِ ذلك، فقوله: ﴿سَنَنظُرُ﴾ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ للجماعةِ، فهل هِيَ جماعةٌ حقيقةً أو من باب التعظيمِ؟

نَقُول: هَذَا فِيهِ احتمال: فإن كَانَ سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أراد تعظيمَ نفسِهِ، فَهُوَ أهلٌ لذلك؛ لِأَنَّهُ ملك ورسول، وإلا فَإِنَّهُ: يريد سننظر بجنودنا وأعواننا أصدقتَ أمْ كنتَ من الكاذبينَ، وإنْ كَانَ لا يريد أن يباشره بنفسه، فالملك والوزير والأمير ومن أشبههم إذا قَالُوا: سنفعل كذا، فإما أن يَكُون ذلك بأنفسهم ويَكُون ذلك تعظيمًا لأنفسهم، أو بواسطة الجنودِ والأعوانِ ويَكُون هَذَا مراعاةً للجميعِ.

• • ❁ • •

الآيـة (٢٨)

• • ❧ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨].

• • ❧ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثُمَّ قَالَ لِلْهُدْهُدِ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ يقتضي أَنَّهُ صَدَّقَه؛ لِأَنَّ قوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ صَدَّقَهُ فِي ذلك، ولهَذَا كتب لهم، أو يقال: هَذَا من جملةِ الاختبارِ، يعني أَنَّهُ إذا كَانَ كاذبًا فسيقول: ما وجدتُ أحدًا، مثلًا، فيكُون هَذَا من جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ عَلَى قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾؟ وقد يقال: إن فِي قوله: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ تقديرًا: فنظرَ وتحقَّقَ صِدْقَه فأعطاه الكتابَ، واللهُ أَعْلَمُ بما جَرَى؛ فإمَّا أنْ يَكُونَ هَذَا الكتابُ من جملة اختبارِهِ، مثلما لو أخبركَ إِنْسَانٌ بخبرٍ تقولُ له مثلًا: اذهَبْ وائتِ لي مِنه ذِكرًا، أيضًا لو قَالَ مثلًا: تباع السلعةُ الفلانيَّة الْآنَ فِي السوقِ قلتَ له: خذِ اذهَبْ وائتِ لي مِنْهَا شيئًا، من أجلِ أنْ أختبرَ هل هُوَ صحيحٌ أو لا، وإن كَانَ ظاهرُ فِعْلِي لَمَّا أَعطَيْتُه الفلوسَ لِيشْتَرِيَ أَنَّني صَدَّقْتُه، لكِنْ قد يَكُونُ هَذَا من وسائلِ الاختبارِ.

فالحاصل: إذا كَانَ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقَّقَ هَذَا الأَمْرَ ثُمَّ أرسلَ بالكتابِ

فالأَمْرُ ظاهرٌ، ولكِن لَيسَ فِي الْقُرْآن ما يَدُلّ عَلَى ذلك، فنَقُول: إن إعطاءَهُ الكتابَ من جملةِ الوسائلِ الَّتِي تُبيِّن صِدْقَهُ.

وقوله: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا﴾ أشارَ إليه بالتعيينِ؛ لِأَنَّ سُلَيْمَـان يكتب لهم ولغيرهم، ولكِنه عَيَّنَ الكتابَ الَّذِي كَتَبَهُ لهم.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي بِلْقِيس وقَوْمِها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ﴾ انْصَـرِفْ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقِفْ قريبًا ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَرُدُّون مِنَ الجوابِ، فأَخَذَهُ وأتاها وحولها جُنْدُها وألقاهُ فِي حَجْرِها، فلَمّا رَأَتْهُ ارْتَعَدَتْ وخَضَعَتْ خَوْفًا، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى ما فِيهِ، ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لأشرافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾].

ذهب به الهدهدُ فألقاهُ إليهم، أي: طَرَحَه بين أيديهم، وتولَّى عنهم كما أرشدَهُ سُلَيمان، ولكِنَّ هَذَا التولِّيَ لَيْسَ بعيدًا، بدليل قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾؛ فإن قوله: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ يَدُلّ عَلَى أنَّ هَذَا التولِّيَ يَكُون قريبًا منهم، وفيه من الفوائد ما يأتي إنْ شاء اللهُ. ثُمَّ أخذتِ الكتابَ وقَرَأَتْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الفائدة الأولى: أن الحيوانات تَعْقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها منَ الأَمْرِ والنهيِ والاختبارِ والفحصِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱذْهَب﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَأَلْقِهْ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿تَوَلَّ﴾ [النمل:٢٨]، وقوله: ﴿فَانْظُرْ﴾، كُلّ هَذِهِ أوامر للهدهد؛ ممَّا يَدُلّ عَلَى أن هَذِهِ الحيوانات تَعقِل، ولكِن لَيْسَ معنى قولنا: إنَّهَا تعقل أن تكون عاقلةً لكل أحـدٍ، صحيح أَنَّهَا تعقل عقلًا محدودًا بالنِّسْبَة لعامَّة النَّاس، وهَذَا تُزجَر البهيمة فتنزجر وتدعوها فتُقْبِل، ولكِن لَيْسَ هَذَا كمثلِ تسخيرها لسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ فإن تسخيرها لسُلَيْمان أَنَّهَا تنزل منه مَنْزِلَةَ الْإِنْسَانِ العاقلِ الفاهِمِ، من كُلّ وجهٍ.

الفائدةُ الثَّانِيَة: أَنَّهُ يَنبغي تَحسُّس الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلكَ، وهَذَا ما يُسَمَّى بالمتابعةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، فَإِنَّهُ إذا تولى وجعل يَنْظُرُ لَا بُدَّ أن تُبَيَّنَ له الأخبارُ؛ فلو أَنَّهُ ما تولى عنهم فألقاه وبقِيَ فقد لا يتكلمون بالأَشْيَاء الَّتِي يتكلمون بها إذا كَانَ حاضرًا لديهم، لكِن إذا تولَّى عنهم فحينئذٍ وجدوا لأنفسهم مجالًا للكلام حَسَب ما يريدون، وهَذَا من السياق.

فعندما تعمل عملًا فلا بد أن تَتَحَسَّس الأخبارَ، فلا تباشر هَذَا العَمَل مباشرةً لِأَنَّهُ لا يأتي عَلَى المطلوب، ولا تُعْرِض عنه إعراضًا كامِلًا لأنَّ معنى ذلك أنك ما تابعتَ ولا اهتممتَ بالأَمْرِ، فينبغي على الْإِنْسَان أنه كلَّما عَمِلَ عملًا أن يَكُون متابعًا له وأن يتحسَّس.

مثلًا افرض أنك أمرت أهلك بأمر، وأنت راعٍ عليهم، فلاحظه ولا تتركه، ولكِن لا تلاحظه وأنت حاضر مَعَ المباشرة؛ لِأَنَّهُم فِي هَذِهِ الحال سوف ينفذونه، لكِن تلاحظه وأنت بعيد حَتَّى يتبين لك هل نفذوا أم لم ينفذوا، فهَذِهِ من السِّيَاسَة الَّتِي ينبغي سُلُوكُها؛ لأجل أن يعرف الْإِنْسَان مدى تَقَبُّل الموجَّه إليه الأَمْر من عدَمِه، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، وهَذَا هُوَ الَّذِي حَصَلَ.

• • ۞ • •

الآية (٢٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لِأَشْرَافِ قَوْمِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾]، و﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾ كما بَيَّنَ الْمُفَسِّر همُ الأشراف، وهنا نادتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ إشارة إِلَى عُلُوِّ مَرْتَبَتِهِمْ فِي دَوْلَتِهِم؛ لِأَنَّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ما تكون إِلَّا للبعيدِ، ما قالتْ: يا مَلأُ، بل قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾.

ثم قَالَ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ]، (الملأُ إني) [وتسهيل الثَّانِيَةِ بِقَلْبِها واوًا مكسورةً]، (يا أيُّها الملأُ وِنِّي)؛ لِأَنَّهُ إذا جاءتِ الهمزةُ بعدَ الضمِّ جازَ أنْ تُقْلَبَ واوًا فِي اللُّغةِ العَربِيَّةِ، ومنه قولُ كَثيرٍ مِنَ المؤذِّنينَ: اللهُ وَكبر؛ لِأَنَّهُ يجوز: اللهُ أكبرُ ويجوزُ: اللهُ وَكْبر، فالهمزة إذا وقعتْ بَعْد ضمٍّ يجوزُ أن تُسَهَّل إِلَى واوٍ عَلَى حسَب الحال إن كَانَ يَقْتَضِي الكسرَ كُسِرَتْ أو يَقتضي الضمَّ ضُمَّت أو الفتح.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ مَخْتُوم]، يعني فَسَّرَ الكريمَ بالمختومِ؛ لأنَّ خَتْمَه دليلٌ عَلَى أَهَمِّيَّتِه، فالكتبُ والرسائلُ المختومةُ يُعْتَنَى بها، وحتى الْآنَ إذا كَانَ الشَّيْء مهمًّا تَجده يُخْتَم بالشَّمْع ومَا أَشْبهَ ذَلِكَ لِئَلَّا يُزَوَّر، ولكِنَّ تفسيرَ الكريم بالمختومِ لَيسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الختمَ دليلٌ عَلَى كَرمِه، وَلَيْسَ هُوَ معنى كَرَمه، فالكريمُ معناه: المتضمِّن للمعاني العظيمةِ المُؤَثِّرة.

وفي قولها: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ﴾ ما قالتْ: أَلْقَى الهدهدُ؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ أَنَّهُ مَرَّ ثُمَّ حَذفَه

عليها، وَلَيْسَ معناهُ أَنَّهُ جاءَ ووقفَ بين يَدَيْها وأعطاها الكتابَ. ولربما يَكُون أبلغ فِي الهَيبة أَنَّهُ يعطيها الكتابَ وَهُوَ مارٌّ، بخلافِ ما لو وَقَعَ بين يَدَيها، فَإِنَّهُ لا يَكُون هَيْبة، عَلَى أَنَّهُ لو وَقَعَ بين يديها فمُقتضى كونه هدهدًا أن تُمْسِكَه، ولكِنه ألقاه إلقاءً.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ كرمَ كُلّ شيءٍ بِحَسَبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بَذْلُه بِسَخَاءٍ، والكرمُ أيضًا بالمالِ يُطْلَق عَلَى الجيِّد منه، كما قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ»[1]، وكذلك أيضًا يُوصَف بالكرمِ ما يَتَضَمَّن الشَّيْء المهم؛ لِمَا فِي هَذَا الوصف فِي كتابِ سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

• ● ۞ ● •

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الآيتان (٣٠، ٣١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٠-٣١].

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الكتاب ﴿مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ ولم تَنْسُبه إِلَى أبيه؛ لِأَنَّهُ كَانَ معروفًا ومعلومًا عندهم أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ رسول أعطاه الله تَعَالَى منَ المُلْك ما لم يُعْطِهِ غيره، قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: مَضْمُونه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾]، لَيْسَ فيه: (السلام عَلَى مَنِ اتبعَ الهدى)، ولا: (أَمَّا بعدُ) كما قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويمكن أن يَكُون من أخبار بني إسرائيلَ أو عَلَى العادةِ فِي الكتبِ، إِنَّما سُلَيْمان أتى بأدنى ما يمكن فهمُه والمقصود منه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل سُلَيْمان ﷺ قَالَ: مِن سُلَيْمان إِلَى بِلْقِيسَ؟

لا، ما قَالَ ذلكَ، هَذَا خبرٌ مِنْهَا، هِيَ ليست تقرأ الكتاب حَتَّى تقول: من سُلَيْمان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ولهَذَا قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾، ولكِن لعلها فَهِمَته إمَّا بالتوقيعِ أو بكتابةٍ عَلَى الظرفِ إنْ كَانَ هناك ظرف، وإلا صُلْب الكتاب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ وهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يبدأ سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِقَوْلِهِ: من سُلَيْمان بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، بل سَيَبْدَأُ بالبسملةِ قبلُ، فلمَّا لم يَذْكُرِ اللهُ إِلَّا البسملةَ دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لم يأتِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَنَ﴾، ولكِنه لَا بُدَّ أن يَكُون فِي الكتابِ ما يُشيرُ إِلَى ذلك، وإِلَّا لَما فَهِمَتْهُ.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ المقصودُ الخُضُوعُ لي، يَعْنِي: معناه: ذِلُّوا لي؛ لِأَنَّهُم ما كانوا يَعْلُون عليه حَتَّى يَقُول: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ﴾.

وهل أرادَ أن يأتوا إليه أَذِلَّةً مسلمينَ لله أو مسلمين له، أي: مستسلمينَ؟

فيه احتمالٌ أَنَّهُ أراد أن يأتوا مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

ولكِن هل يَلْزَمُ من إتيانهم مستسلمينَ له أن يَكُونوا مسلمينَ لله؟

لا يَلْزَم، لكِن يلزم مِن كَوْنِهم مسلمينَ للهِ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا له وأن يَأْتُوا مُطِيعِينَ غيرَ مخالفينَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الأَولى أن يبدأ الكَاتِبُ باسمِهِ فيقول: من فلانٍ قبل أن يبدأ باسمِ المرسَلِ إليه أو المكتوب إليه.

وهل هَذَا من بابِ التعبُّد أو من باب العادةِ؟

الظَّاهرُ أَنَّهُ من بابِ العادةِ، ولكِن مَعَ ذلك العادة الَّتِي كَانَ عليها السلفُ أَولى منَ العادةِ الَّتِي اعتادها النَّاسُ اليومَ، فاعتادَ النَّاسُ اليومَ أَنَّهُم يَبْدَؤُونَ بالمكتوبِ إليه: إِلَى فلان بن فلان، ولكِن العادة الأُولى أَوْلَى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا قرأ الكتاب يَقْرَؤُه مِن أَوَّله، فإذا قرأ: من فلانٍ؛ عرف الْآنَ ما هَذَا الكتاب وما قيمة الكتاب قبل أن

يَقْرَأَهُ كُلَّه. ثُمَّ إن الترتيبَ الطبيعيَّ يَقتضي هَذَا؛ لِأَنَّ الكتابَ واردٌ (من) (إلى) فيَقْتَضِي أن يبدأَ بالواردِ منه قبلَ الواردِ إليه.

فإذَنْ نَقُول: الأَولى أن يبدأَ الْإِنْسَانُ باسمِهِ إذا أرسلَ كتابًا إِلَى أحدٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السنَّة المُتَّبعَة.

وهل يُؤخَذ من هَذَا الكتابِ أَنَّهُ لا يُحتاج إِلَى ذِكْر المكتوبِ إليه؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ ولم يقلْ: إِلَى مَلِكَةِ سَبأٍ؟

نَقُول: إِنَّهُ إذا دلَّ الدَّلِيل عَلَى المكتوبِ إليه فلا حاجةَ إِلَى ذِكْرِه، كما في قِصَّة سُلَيْمان، فهنا احتمالُ أنْ يصلَ الكتابُ إِلَى غيرِ المكتوبِ إليه بعيدٌ، والمقصود ببَيَان المكتوبِ إليه أن يَتَعَيَّنَ ويصل إليه، وهنا إذا جاء الكتاب عَلَى هَذَا الوجهِ فَإِنَّهُ يحصُل به أكبر تعيينٍ، فنَقُول: إِنَّهُ لا حاجة إِلَى ذِكره إذا كَانَ الأَمْر يحصُل بدونه، ولكِن مَعَ هَذَا ذِكره أَولى، لا سيما إذا كَانَ يَتَرَتَّب عليه شيءٌ فِي المستقبَلِ، فَإِنَّهُ إذا فَرَضْنَا أَنَّ صَاحِبَه الَّذِي أُرْسِلَ إليه عُلِمَ وأَخَذَه، لكِن فِي المستقبَلِ لا نَدري مَنِ الَّذِي وُجِّه له هَذَا الخطاب، فذِكْرُه بلَا شَكّ أَولى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استحباب البَداءةِ ببِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أولِ الرسائلِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فِيهِ تقصيرٌ؛ لِأَنَّ هَذَا الكتاب الَّذِي كَتبَه سُلَيْمان فِي غايةِ ما يَكُون من الإيجازِ، جملتانِ فقط: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، ولكِن بشرطِ أَلَّا يَكُونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كَانَ مخلًّا بالمقصودِ صارَ تقصيرًا.

الْفَائِدَةُ الرابِعةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دعَاهُمْ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يريد التملُّك والسيطرةَ، وإنما يريدُ بذلك الدخولَ فِي الإِسْلام؛ لِأَنَّ الهدهدَ لَمَّا أخبرهُ أَنَّهَا وقومها يسجدون للشمسِ من دون اللهِ فهَذَا كفرٌ، فلا بد أن يخرجوا منه إِلَى الإِسْلامِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخامسةُ: وفيه أيضًا دليلٌ عَلَى قوة سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ لم يقلْ: وأَسْلِمُوا، بل قَالَ: (ائتوني مسلمين) فطلبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم عَلَى الإِسْلامِ.

وهل المُرادُ أنْ يأتوا جميعًا؟

لا، المُرادُ أعيانهم وأشرافهم؛ لِأَنَّ الأعيانَ والأشرافَ يقومون مَقامَ الْعَامَّةِ.

• ● ❁ ● •

الآية (٣٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

في قِصَّة مَلِكَةِ سَبأ عندما جاءها الكتابُ من سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قالت لقومها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ [النمل:٣٢]، المَلأ بمعنى: الأشراف، وذلك بأن الملوكَ والرؤساءَ يَكُونُ جُلَسَاؤُهم دائمًا أشرافَ النَّاسِ، فوَجَّهَتْ إليهم الخطابَ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٣٨]، وسبق ذِكْر الفائدة فِي قولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟﴾ [النمل:٢٩]، قولها: (يا ملأ) إظهارًا لعلوِّ شأنهم حَيْثُ نُودُوا بمناداةِ البعيدِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ [يوسف:٤٣]، بتحقيق الهمزتين]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى﴾ هَذَا تحقيق الهمزتينِ.

[وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا]، (يا أيها الملأ وفتوني)، وهَذَا مبنيٌّ عَلَى القاعدة اللُّغوية أَنَّهُ إذا ضُمَّ ما قبل الهمزةِ فَإِنَّهُ يجوزُ قَلْبُها واوًا.

وَقُلْنَا: إن من فائدة هَذِهِ اللُّغةِ تصحيح أذانِ كثيرٍ منَ النَّاسِ الَّذِينَ يَقُولُونَ فِي أذانهم: اللهُ وَكبر، بل حَتَّى الصلوات، فإن بعض النَّاس فِي تكبيرة الإحرام يَقُول: اللهُ وَكبر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى﴾... أي: أشيروا عليّ ﴿فِىٓ

أَمۡرِي﴾]، واحد الأُمُور وَلَيْسَ واحد الأوامر؛ لِأَنَّ المُراد بالأَمْر هنا الشأنُ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ قَاضِيَتَهُ ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ تَحْضُرُون].

وهَذَا من كمالِ ذَكائها أَنَّهَا أشارتِ المَلَأَ حَتَّى إذا نتجَ عن تَصَرُّفِها شيءٌ لا يُرضى يَكُونُ اللومُ عَلَى هَؤُلَاءِ الملأِ الَّذِينَ أشاروا، ولا يجعلون اللومَ عليها؛ ولهَذَا قالت: إِنَّهَا ما تَقْطَع أمرًا حَتَّى يشهدوها، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ أي: قاضية له، ﴿أَمۡرًا﴾ هَذِهِ نكِرَة فِي سياقِ النفي، فتكون للعمومِ، لكِن المُراد بذلك الأَمْر المتعلّق بالدولةِ بلَا شَكّ، وَأَمَّا الأَمْرُ الخاصّ فإن لكلِّ إِنْسَانٍ التصرُّف فيه، وكذلك قول الله تَعَالَى للنبي ﷺ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، هَذَا الأَمْر من الأُمُورِ الْعَامَّة الَّتِي هِيَ للجميعِ، وَلَيْسَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ولا غيره مأمورًا أن يشاورَ النَّاس فِي كُلّ أمورِهِ، حَتَّى لو أراد أن يتغدى أو يتعشى ذهب يَقُول للناس: ماذا تقولون؟ لا، ولكِن المقصود الأُمُور الْعَامَّة الَّتِي يَشْتَرِك فيها النَّاس، فيؤمَر فيها بالتشاور.

وقولها: ﴿قَاطِعَةً أَمۡرًا﴾ هَذَا أبلغ مِمَّا فسَّر به المفسِّر بالقضاء؛ لِأَنَّ القطعَ يَدُلّ عَلَى الإمرةِ والعزيمةِ والفِعْل، بخلافِ القضاءِ حيث يقضي الحُكْم فقطْ بدونِ أنْ يفعلَ.

وقولها: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ فيها إشكالٌ لُغَوِيّ، وهي ثبوتُ النونِ مَعَ أن ﴿حَتَّىٰ﴾ ناصبة، فما هُوَ الجوابُ؟

النون هَذِهِ للوقايةِ؛ ولذلك تجدها مكسورةً ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾، لو كانت نون الرفعِ لقالَ: (تَشْهَدُونَ)، وما أظنُّ أَنَّهَا تُشْكِل عَلَى طالبِ العلمِ؛ لِأَنَّهَا مكسورةٌ، ومثل هَذَا قوله تَعَالَى فِي سورة الذاريات: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فقوله: ﴿فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ﴾ إذا وقفت عليها تُسَكّن النونَ

فيظن السامع أن النون هنا ثَبَتَت مَعَ وجودِ النهيِ، وهي مَعَ النهيِ تُحْذَف، ولكن النون هنا للوقايةِ؛ ولذلك إذا وصلتَ فقلْ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٥٩-٦٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: استحبابُ المشاورةِ فِي الأُمُورِ الْعَامَّةِ؛ لِقَوْلِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ فهي مَعَ أَنَّهَا مَلِكَة ولها تمامُ السُّلطة مَعَ ذلك لم تَسْتَغْنِ عن المشاورةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ المَرْأَةِ وأنها تريد أن تكونَ سياستها مبنيَّة عَلَى أن المسؤولية عَلَى الجميعِ؛ لقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ وحينئذٍ لو حصلَ خلافُ المقصودِ لم يكنْ عليها لومٌ، ما دامتْ تُشْهِدُ هَؤُلَاءِ وتُبَيِّنُ لهم.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل:٣٣].

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِدَّة فِي الحرب].

﴿أُولُوا﴾ بمعنى: أصحاب، وهي -كما تَقَدَّم- فِي النحوِ مُلْحَقَة بجمعِ المذكَّر السالمِ، وهي مرفوعـةٌ بالواوِ نيابةً عن الضمَّة، أي: أصحاب قوَّة وبأس، والبأس بمعنى: الشـدَّة والصبـر، و﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: أصحاب شِـدَّة فِي الحربِ، فكأنهم يُعرِّضُون بالمشورةِ عليها بالقتالِ بأن تقاتلَ سُلَيْمان ويَقُولُونَ: نحن مستعِدُّون للقتالِ لأَنَّنا أصحاب قوة وأصحاب بأس شـديدٍ، الْقُوَّة هنا هل الْمُرادُ بها الْقُوَّة الجسميَّة أو الْقُوَّة المادِّيَّة؟ كلاهما، فعندنا من قوةِ الجسمِ وعندنا من قوةِ العُدَّة ما نستطيع أن نقاتلَ به سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ هَـذَا منَ التأدُّب معها، مَعَ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي طلبـت منهم المشورة، ومع ذلك ردُّوا الأَمْر إليها: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾، وهَذَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا كانت أهلًا لِأَنَّ يُسْنَدَ إليها الأَمْر، ويدلّ أيضًا عَلَى أَنَّهُم كانوا يعظِّمونها تعظيمًا بالغًا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ نا نُطِعْكِ].

هل المُراد بالنظر هنا الانتظار أو المُرادُ التفكيرُ فِي الأَمْر؟

المُراد التفكير فِي الأَمْر، يَعْنِي: فَكِّري فِي أَمْرِكِ: ﴿مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ فتكون (ما) هنا اسْتِفْهاميَّة مُعَلِّقَةً عن عملِ الفِعْل؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الجملةُ اسْتِفْهاميَّة فإن الفِعْل وإن كَانَ ينصب مَفْعُولًا أو مَفْعُولينِ يَكُون مُعَلَّقًا عن العَمَلِ، وتكون الجملة فِي محلّ نصبٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مكانة المَرْأَةِ من قومها؛ لِأَنَّهَا بَعْد أن استشارتهم وأَبْدَوْا رأيَهم تَأَدَّبُوا معها وقَالُوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ إذا قَدَّمَ المستشارُ مَشُورَتَه لِإِنْسَانٍ أكبـرَ منه قَدْرًا أو فهمًا أو عِلمًا أنَّ له أن يَقُول مثل هَذَا تأدُّبًا، وصاحبه بالخيارِ؛ إن شاء أخذَ بمشورتِهِ وإنْ شاء لم يأخُذْ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٤)

• • ● ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

• • ● ● • •

أجابت: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالتخريب ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾]، يَعْنِي: بالأسر، ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: مرسلو الكتاب]، كأنها لا تريدُ القتالَ، تقول: لو قَاتَلْنَاهُمْ فإنَّ الغلَبَة عليهم بعيدة، وستكون الغلبةُ لهم، وحينئذٍ يدخلون قُرانا، والملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها؛ لِأَنَّ عندهم من العُلُوِّ والغَلَبَة والاستكبار ما يُوجِب أن يَفْتِكُوا بأهلِ البلدِ الَّتِي يَدْخُلُونَها، وَلَيْسَ المُراد هنا بالإفساد الإفساد المعنويّ، يَعْنِي: بإفساد الأخلاقِ مثلًا، المُرادُ ما أشارَ إليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإفسادُ بالتخريبِ، وجاء دورُ الجُمْهُورِيِّينَ فإذا هُوَ أشدُّ وأعظمُ؛ لِأَنَّهُم أقلُّ حياءً مِنَ الملوكِ، ليسَ لهم أصل، فتجد الإِنْسَانَ يُنْتَخَب وَهُوَ من الشارعِ، لَيْسَ من الملأ ولا من أشرافِ النَّاسِ، فغالبهم لَيْسَ عندهم دِين ولا مُرُوءَة، فيفسدون أكثرَ مِمَّا يُفْسِد هَؤُلَاءِ، كما هُوَ مشاهَد فِي تخريبِ الرُّوس وغيرهم فِي البلادِ الَّتِي يَدْخُلُونها.

قوله: ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ بالأسرِ، يَأْسِرُونهم ويَسْتَرِقُّونَهم أو يَسْتَخْدِمُونَهم بدونِ أسرٍ ولا استرقاقٍ، وهَذَا من أبلغِ ما يَكُونُ مِنَ الذِّلَّة.

وقولها: ﴿أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ﴾ سواء كانت هَذِهِ العِزَّة تعودُ إِلَى المُلك، أو تعود إِلَى الجاهِ والشرفِ، أو إِلَى العلمِ أحيانًا، فإنهم يُسَلَّطُون عَلَى الأَعِزَّة؛ لِأَنَّ لهم الكلمةَ فيما سبقَ، فهم الَّذِينَ دَبَّروا هَذِهِ الحروبَ ثُمَّ هُزِموا، فتكون رَحَى الحربِ عليهم.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ هل هَذَا من كلامِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ تصديقًا لقولِها، أو هُوَ من كلامِها تقريرًا له، وتكون فِي أوَّلِ الأَمْرِ ذكرتْ قاعدةً عامَّةً ثُمَّ أشارتْ إِلَى ما تَتَوَقَّعه من سُلَيْمان فقالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: كذلك يَفْعَلُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَرْسَلُوا بالكتابِ؟

المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أَنَّهُ مِن كلامها، ويَكُون ذلك تقريرًا للقاعدةِ الَّتِي ذكرتها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذَا عامٌّ، ثُمَّ قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تقريرًا لهَذِهِ القَاعِدةِ وتطبيقًا لها عَلَى حالِ سُلَيْمان وجنودِهِ.

أَمَّا إذا قُلْنَا بأنها من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فتكون الجملة مستأنفةً، أي: أن الله يُقَرِّر ما قالتْه، بأن الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلها أذلَّةً.

وقولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ كيف جاءت بصيغةِ الجمعِ، مَعَ أن الكتابَ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾؛ لِأَنَّهَا عرفتْ أن سُلَيْمان مَلِك، والملك لَا بُدَّ له من أتباعٍ وجنودٍ وأعوانٍ؛ ولهَذَا قالت: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾، وإعراب: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ -وما أكثرَ ما تأتي فِي القُرْآن، نحو ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد:١٧]- يَقُولُونَ: إن الكاف هنا بمعنى مثل، وإنها تقعُ فِي محلّ نصب مَفْعُولًا مطلقًا مضافًا إِلَى اسم الإشارةِ، أي: ومثلَ ذلك الفِعْل يفعلونَ. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي: ومثلَ ذلك الضربِ يَضرِب الله الأمثالَ، فالكافُ هنا اسْم بمعنى مثل فِي محل نصب عَلَى أَنَّهَا مَفْعُول مطلق مضاف إِلَى اسمِ الإشارةِ، فيكُون تقدير الآيةِ: ومثل ذلك الفِعْل الَّذِي ذكرت

يَفعلونَ، ومعلوم إذا قُلْنَا: إِنَّهَا مَفْعُول مطلَقٌ فإن المُشَارَ إليه يَكُون مصدرًا مناسبًا لسياقِ الآيَةِ، ففي قوله تَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الصافات:٣٤]، نَقُول: أي مثل ذلك الفِعْل نَفْعَل بالمجرمينَ، ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ أي: مثل ذلك الضربِ يضرب الله الأمثال، وَعَلَى هَذَا فقِسْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يجوز لِلْمُسْتَشِيرِ أنْ يخالفَ المستشارَ إذا لم يرَ أَنَّهُ مُصِيبٌ فِي مشورتِه؛ لِأَنَّهُم لَمَّا ذَكَرُوا ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يُريدونَ قِتالَه وهي لا تراه خالَفَتْهُمْ، فإنها ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حَزْم هَذِهِ المَرْأَةِ أيضًا من جهةِ أَنَّهَا نظرتْ فِي العواقبِ؛ لِقَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا﴾، وهَكَذَا ينبغي للعاقلِ ألا يحكُمَ عَلَى الأُمُورِ ببَوَادِرِها وظواهرِها، وإنها يُحْكَم عَلَى الأُمُورِ بعواقبها، فإنَّ الشَّيْءَ قد تكُون بوادره وظواهره مفيدةً فِي نظرِ الْإِنْسَان، ولكِن عندَ التأمُّل يَكُون الأَمْر بالعكسِ، لكِن هل الأَولى المبادرة أو التأني؟

فِي الأَصْل التأنِّي أَولى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا تأنَّى لا يَنْدَم، ما فعل شيئًا، لكِنْ إذا تَسَرَّعَ فَهُوَ الَّذِي يَكُونُ عُرْضَةً لِلنَّدَمِ، وكم من كلمةٍ قَالَ الْإِنْسَان: لَيْتَنِي لم أَقُلْهَا، وكم من فعلٍ قَالَ: ليتني لم أفعلْه، ولكِن مَعَ هَـذَا ينبغي استعمالُ الحزمِ فِي الأُمُورِ، لا يتأنى تأنيًا يفيدُ المقصودَ ولا يتسرَّع تسرُّعًا يَحْصُلُ به الندمُ، وقد أنشدَ الشاعرُ بيتينِ فِي هَذَا المَعْنى فِي أَنَّهُ قد يَكُون التسرُّع أَولى وقد يَكُون التأنِّي أولى(١):

(١) خزانة الأدب للحموي (١/ ٣٥٧).

قَدْ يُدْرِكُ المُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ
وَرُبَمَا فَاتَ قَوْمًا جُلُّ أَمْرِهِمُ مَعَ التَّأَنِّي وَكَانَ الرَّأْيُ لَوْ عَجِلُوا

وهَذَا صحيح وواقعٌ، المهمُّ أننا نَقُول: إذا دار الأَمْرُ بين الإسراعِ والتأنِّي ولم يَتَرَجَّحِ الإسراعُ عليه فالأَولى التأنِّي؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَكُون الأَمْرُ بيدِهِ ما دامَ لم يُحْدِثْ شيئًا، لكِن إذا أحدثَ شيئًا فاتَهُ الأَمْرُ ولم يَتَمَكَّنْ مِنَ التخلُّصِ منه، وهَذَا يُؤخَذ منَ الآيَةِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾، فهي نظرتْ فِي العواقبِ.

والنظرُ فِي العواقبِ يَسْتَدْعِي إمَّا التسرُّعَ وَإمَّا التأنِّيَ، قد يَكُون مثلًا يرى الْإِنْسَان أن الرأيَ أَنَّهُ إذا لم يُسْرِعْ فاتَ المقصودُ فيُسْرِع، أو إذا أسرعَ حصلَ الخَلَلُ فيتأنَّى؛ فهُوَ مأخوذٌ مِن قَوْلِها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

الآيــة (٣٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

• ● ● •

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ ذَكِيَّة، لَمَّا جاءها الكتابُ قالت: أريدُ أن أَمتحنَ هَذَا الرجلَ، سأُرْسِل إليه هَدِيَّة، فإنْ كَانَ رجلًا يريدُ الدُّنْيا كَفَتْهُ الهَدِيَّة وترك الحروبَ والقتالَ، وإنْ كَانَ رجلًا يريدُ أمرًا آخرَ فَإِنَّهُ سَيَـرُدّ الهَدِيَّة، وهَذَا بلَا شَكّ اختبار ذكيّ، فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ وطبعًا هِيَ -كما قُلْنا قبل قليل- ما رَضِيَت ما أشار به الملأ؛ لِأَنَّ الملأَ أشاروا عليها بالحربِ والقتالِ، وذلك بإبداءِ ما عندهم منَ الْقُوَّة والبأسِ الشَّديدِ، ولَكِنَّهَا لم تُرِدْ ذلك، فأرادتْ أنْ تمتحنَ سُلَيْمان.

قوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم﴾ ولم تقل: (إليه)؛ لِأَنَّهُ كما قُلْنا ملك له جنودٌ وأعوانٌ وحواشٍ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: (ناظرة) ليستْ منْ الِانتظارِ، وإن كانت محتملةً أن تكون من الانتظارِ، أي: فمُنْتَظِـرَة، ولَكِنَّهَا منَ النظرِ، يَعْنِي: أَنْظُـرُ بَعْد إرسال الهديَّة: بم يرجع المُرسَلُون؟ والمرسَلون هم رُسُلها بالهَدِيَّة، وَفِي هَذَا إشارة إِلَى أن هَذِهِ الهَدِيَّة كبيرة وعظيمة؛ لِأَنَّهَا لم ترسلْ بها واحدًا وإنما أرسلتْ بها جماعةً، وأقلُّ الجمعِ ثلاثةٌ.

قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: بأيِّ شيءٍ يَرجعون به، و﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هل هِيَ متعلقة بـ(ناظرة) أو متعلقة بـ(يرجع)؟

(ما) هنا اسْتِفْهاميةٌ وليسـتْ موصولةً؛ لِأَنَّ الموصولةَ تَبقى ألفها مَعَ حرف الجرِّ، والاسْتِفْهامية تُحْذَف؛ كقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النبأ:١]، لكِن في نحو قولكَ: (هُوَ مسؤولٌ عمَّـا قَالَ) تُثْبت الألفَ، وكذا في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:١٠٥]، فتبقى الألف، وفي قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ﴾ تحذف الألف، فـ(ما) الاسْتِفْهامية إذا سَبَقَها حرف جرٍّ تُحذف ألفها؛ ولهَذَا نَقُول: ﴿بِمَ يَرْجِعُ﴾ الجارّ والمجرور متعلق بـ(يرجع) ولا يصلح أن يَكُونَ متعلقًا بـ(ناظرة) بناءً عَلَى القَاعِدةِ المشهورةِ عند النحْويين أن اسْم الاسْتِفْهام له الصَّدارَة، بل الاسْتِفْهام كله سواء كَانَ اسمًا أو حرفًا، له الصَّدارَةُ، وإذا كَانَ له الصَّدارَة لم يَعْمَلْ قبله فيه؛ لِأَنَّهُ لو عمِل ما قبله فِيهِ ما كَانَ له الصَّدارَة، ولكانت الصَّـدارَة للعاملِ الَّذِي قبلـه؛ وعليه فنَقُول: ﴿بِمَ يَرْجِعُ﴾ الجارُّ والمجرورُ متعلِّـق بـ(يرجع)، وتكون الجملة إذن مُعلَّـقة لـ(ناظرة) عن العَمَـل فهي فِي محل نصب.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ من قَبُول الهديَّة أو ردِّها، إن كَانَ ملكًا قَبِلَها، أو نبيًّا لم يَقْبَلْها].

كون المُفَسِّر يُحيل قبولَ الهديَّة وعدمه عَلَى أَنَّهُ إن كَانَ ملكًا قَبِل، وإن كَانَ نبيًّا لم يقبلْ، هَذَا لا دليلَ عليه، ولكِن نَقُولُ: إِنَّهُ إذا كَانَ يريد القتالَ فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّة، يَعْنِي: إذا كَانَ هَذَا الرجل عنده طمعٌ ماديّ فقط، فَإِنَّهُ يقبل الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ القتال لا يعلم هل تكون عاقبته له أمْ لا، والهَدِيَّة غَنيمة حاضرة، فيقبلها ويدع المشكوك فيه، وإذا كَانَ لا يريد الدُّنْيا، وإنما يريد أمرًا آخرَ، وَهُوَ الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام وكونهم يسلمون،

كمـا قَالَ فِي الأول: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، فَإِنَّهُ حينئذٍ لن يقبلَ الهَدِيَّةَ؛ لِأَنَّ الَّذِي يدعو إِلَى الله وإلى الإِسْلام لا يمكن أن يَقْبَل هديَّةً عَلَى حسابِ ما دعا إليه أبدًا. وَأَمَّا مسألة النبوَّة وعدمها فالله أَعْلَمُ بِهَذَا، فلا نجزِم بما قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ، بل نَقُول: إنَّهَا تريد أن تَخْتَبِرَهُ، فإذا كَانَ يريد دنيا فالهديَّة تمنعه من قِتالها، وإذا كَانَ لا يريد دنيا وإنما يريد أن يسلِموا فالهَدِيَّة لا تمنعه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأرسلتْ خَدَمًا ذكورًا وإناثًا]، الآن يبين المُفَسِّر الهديَّة، ثم قَالَ: [ألفًا بالسويَّةِ، وخمسمائة لَبِنَة من الذهب، وتاجًا مُكَلَّلًا بالجواهر، ومِسكًا وعنبرًا وغير ذلك مَعَ رسولٍ بكتاب].

التعيين هَذَا لا دليلَ عليه؛ ولهَذَا نَقُول: إنَّهَا هديةٌ كبيرةٌ بلَا شَكّ، ويدل عَلَى كِبَرِها أن الَّذِينَ أُرسلوا جماعة، أَمَّا تعيينها بهَذَا الأَمْرِ فهَذَا لا نَجزِم به، فإن كَانَ واردًا عن بني إسرائيل فَإِنَّهُ منَ الأخبارِ الَّتِي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

وقد أسرعَ الهدهد إِلَى سُلَيْمان يخبره الخبر؛ لِأَنَّ سُلَيْمان قَالَ له: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨]، والظَّاهر أن الهدهد بَقِيَ حَتَّى استقرَّ أمرُهم عَلَى شيءٍ، وقد استقر عَلَى إرسالِ الهَدِيَّةِ، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأسرع الهدهدُ إِلَى سُلَيْمان يُخْبِرُه الخبـرَ، فأمر]، أي: سُلَيْمان، [أن تُضْرَب لَبِنات الذهب والفضة وأنْ تُبْسَط من مَوْضِعِه إِلَى تسعة فَراسِخ مَيدانًا، وأن يَبْنُوا حولَه حائطًا مُشْرِفًا مِنَ الذهَبِ والفِضَّة، وأنْ يُؤْتَى بأحسنِ دوابِّ البـرِّ والبحرِ مَعَ أولادِ الجنِّ عن يمينِ الميدانِ وشمالِهِ].

كل هَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي ذكرها المُفَسِّر لَيْسَ عليها دليلٌ، وهي منَ الغرائبِ أنْ

يطوفَ عَلَى المُفَسِّر وأنْ يأتيَ بها، عَلَى أَنَّهُ مُخْلِص، مَعَ العلمِ بأنه لَيْسَ فِي الآيَةِ دليلٌ عَلَى هَـذِهِ المسألةِ إطلاقًا؛ أَنَّهُم يجعلون الذهبَ والفضةَ تُبسط من مكانِه إِلَى تسعةِ فراسخَ، أي سبعة وعشرون ميلًا؛ ثلاثة فِي تسعة، والميل كيلو ونصف.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَكاء هَذِهِ المَرْأَةِ وحِنْكَتها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جـواز الاختبارِ والامتحانِ وأن ذلك لا يُعَدّ خديعـةً إذا أراد الْإِنْسَان أن يمتحنَ غيـرَه بشيءٍ منَ الأَشْيَاء؛ لِأَنَّهُ يريد أن يَستظهرَ به حاله، وهَذَا لا مانعَ منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: العَمَل بالقرائنِ؛ لِأَنَّهَا أرادتْ أن توصل هَذِهِ الهَدِيَّةَ لتختبرَ مرادَ سُلَيْمَان هل يريد المالَ فقطْ فتكفيه هَذِهِ الهَدِيَّة، أو يريدهم أَنْ يُسلموا فلا تنفع فِيهِ هَذِهِ الهَدِيَّـة، ولا يكفّ عن طلبـه الأوَّل، وَهُوَ قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، ففيها إذن ثلاث فوائد. وهل ورد مثل ذلك؟

نعم، فِي قِصَّة سُلَيْمَان فِي المرأتينِ اللتينِ احتكمتا إليه فِي ابنِ إحداهما، خرجت امرأتان إِلَى خارج البلد ومع كُلّ واحدة ابن لها، فأكل الذئب ابن الكبرَى، فاحتكمتا إِلَى داود عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقضى بالابن الموجود للكبرى بناءً عَلَى أن الصغرى يمكنها أن تلدَ فيما بعدُ، ولكِن لما تحاكمتا إِلَى سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: لَيْسَ هَذَا الحكم، إنما الحكم أن نأتيَ بالسكِّين ونشقّ الولد نصفينِ فيكُون للكبيرةِ نصفه وللصغيرةِ نصفه، فالكبيرة وافقت عَلَى أَنَّهُ يشقّ نصفينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ولدًا لها، وتقول: مثلما تلِف ابني يتلَف ابنها، وَأَمَّا الصغيرة فقالت: لا يا نبيَّ الله. فعلم بذلك أن الولد للصغرى

فحكمَ به لها[1].

فهَذَا من باب استظهارِ الْحَقّ بالقرائنِ، ولا مانعَ من ذلك، وقد كَانَ القضاةُ يفعلونه، فهَذِهِ المسألةُ -وهي إرسالُ الهَدِيَّةِ إِلَى سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- من هَذَا النوعِ لِيُسْتَظْهَرَ به حالُه فيعمل بالقرينة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: عِظَم هَذِهِ الهَدِيَّة كميَّةً وكيفيَّة، ولذلك احتاجت إِلَى أن تُرسل بها جماعة، فالهَدِيَّة كانت كبيرةً لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فقال: ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ولا يُرْسَل جماعة بهديةٍ إِلَّا وهي كبيرةٌ. وأيضًا ربما نَقُول: مَعَ كِبَرِها ثمينة؛ لأجل أن يدافع هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلُون عنها لو حاولَ أحدٌ أن يعتديَ عليها.

• • • •

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، حديث رقم (٣٢٤٤)؛ صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان اختلاف المجتهدين، حديث رقم (١٧٢٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيـة (٣٦)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ [النمل:٣٦].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ الرَّسُول بالهَدِيَّةِ ومعه أتباعُه ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾]، بالنصب وجاء بمعنى: أتى [﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾].

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: [ومعَه أتباعُه] وكلام المَرْأَةِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا أرسلتْ جماعة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥].

وقوله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ يَـدُلّ عَلَى أن الجائـيَ واحـدٌ، ولأنه لم يذكرِ الفاعل، وإذا لم يذكر الفاعل فَهُوَ مستتِر، ومعلوم أن (جاء) مفرد، ولو كَانَ المُراد الجماعة لقالَ: (فلما جاؤوا سُلَيْمان).

وقول سُلَيْمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المخاطَب جماعةٌ، فكيف نجمع بينَ هَذِهِ الأَشْيَاء؟

الجمع بين هَذِهِ الأَشْيَاء بسيطٌ جِدًّا، يَكُون هَؤُلَاءِ الجماعة لهم رئيس، وَالَّذِي خاطب سُلَيْمان وقدَّم الهديَّة هُوَ الرئيس، ومعه جماعتُه، فصار الَّذِي تقدَّم إِلَى سُلَيْمان بالهَدِيَّة واحدًا مَعَ جماعتِهِ؛ ولهَذَا قَالَ الْمُفَسِّر: [ومعه أتباعه].

قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾ الياء هنا حُذفـت للتخفيفِ، كمـا أَنَّهَا أيضًا حذفـت

للتخفيف فِي قوله تَعَالَى فيما سبق: ﴿حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، والاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للإنكار والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال وأنا عندي من المال ما لَيْسَ عندكم؛ ولهَذَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوَّة والملك ﴿خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من الدُّنْيا]، وكذلك من المالِ؛ لِأَنَّ عند سُلَيْمان المال ما لَيْسَ عند هَذِهِ المَرْأَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فالاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخِ والتعجيبِ، يَعْنِي: كيف تمدونني بمال -وهي هَذِهِ الهَدِيَّة- فما آتاني اللهُ منَ المالِ والمُلك والنبوَّة وغير ذلك من كُلّ ما آتاه الله خير مما آتاكم؟!

قوله: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ يَعْنِي أنني لا أفرح بهدية ولا تُهمّني الهَدِيَّة، ولكِنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بها وتفخرون بها، فهل المَعْنى: تَفرحون إذا أُهدي إليكم، أو تفرحون إذا أهديتم وتَرَوْنَ لكم فضلًا عَلَى المهدَى إليه؟

كله محتمِل، لكِن الظَّاهر -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ يريد الأول، بمعنى: أنكم أنتم الَّذِينَ تفرحون بالهَدِيَّة، وتقع منكم موقعًا بحيث تَفْتُرُ عَزِيمَتكم وتوجب أن تَعدِلوا عما أنتم عليه، أَمَّا أنا فلا تهمني الهَدِيَّة، والاحتمال الثاني أن يَكُون بإهدائكم إليَّ تفرحون، أي: تفخرون بها، ولكِن المَعْنى الأول أليق بالسياق.

وقوله: ﴿بِهَدِيَّتِكُمۡ﴾ أي: بالإهداء إليكم؛ لِأَنَّ هدية مصدر، فيجوز أن يُضاف إِلَى الفاعل، ويجوز أن يضاف إِلَى المَفْعُول.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ مِن المُسْتَحْسَنِ أنْ يتقدَّم الرئيس -رئيس الوفد أو القوم- بالكَلام أو الفِعْل إذا كَانَ مكلَّفًا بالفِعْل، المهم أن يَكُون المتقدم الرئيس؛ لِأَنَّ تقدم

الجميع دَفْعَة واحدة غيرُ لائق؛ لضياع المسؤولية، فلا بد أن يتقدم واحد، وكلما حُصِرَ الأَمْر كَانَ أقربَ إِلَى الفهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: توجيه الخطاب للجماعةِ، وإنْ كَانَ المتقدِّمُ رئيسهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وفيه دليل عَلَى جوازِ الغِلظةِ فِي القَوْلِ إذا كانت المصلحة فيه؛ لِأَنَّ هَذَا الأسلوب من سُلَيْمَان ﷺ أسلوبٌ قويٌّ؛ إذ إننا قُلْنَا: إن الاسْتِفْهام فِي قوله: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتوبيخِ والتعجيبِ، يَعْنِي أَنَّهُ يوبخهم عَلَى فِعْلِهِم ويتعجَّب مِن فعلهم كيف يمدُّونه بمال وَهُوَ ملك ومعروف ومشهور.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وفيه دليل عَلَى أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أن يتحدث بنعمةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾، ولكِن هل يتحدث بهَـٰذِهِ النعمة عَلَى سبيل الافتخارِ أو عَلَى سبيلِ الافتقارِ والاستصغارِ؟

نرى أَنَّهُ عَلَى حَسَبِ الحالِ، فمع العدوّ يجوز أن يتحدَّث بها افتخارًا، ولذلك تجوز الخُيَلَاء فِي الحربِ[1]، مَعَ أنَّ الخيلاء محرَّمة ومنَ الكَبَائِرِ[2]، لكِن فِي الحرب لإغاظةِ العدوّ لا بأس بها.

فسُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تحدث هنا بنعمة اللهِ افتخارًا -فيما يظهر لي- عَلَى

---

(١) انظر: سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في الخيلاء في الحرب، حديث رقم (٢٦٥٩)، سنن النسائي، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، حديث رقم (٢٥٥٨)، مسند أحمد (٥/ ٤٤٦) (٢٣٨٠٣)، عن جابر بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، حديث رقم (٥٤٥٥)؛ صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم جر الثوب خيلاء...، حديث رقم (٢٠٨٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هَؤُلَاءِ القوم، وهَذَا لا بأس به إذا كَانَ أمام العدوّ، فأمَّا إذا كَانَ لإظهارِ النعمةِ فَإِنَّهُ لا يجوز إِلَّا عَلَى سبيـلِ الاستصغارِ والافتقارِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لا عَلَى سبيل الافتخارِ والعلوِّ عَلَى الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَانِ أن يصف غيرَه بما يبدو من حالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؛ إذ إن الفرحَ كما هُوَ معروف أمر باطنيٌّ؛ لِأَنَّ الَّذِي يفرح ما يُسمع لفرحه صوتٌ ولا يُرى له حركةٌ، ولكِن تظهر علاماته عَلَى ظاهرِ البدنِ، فلا بأسَ أنْ يَحْكُمَ الْإِنْسَانُ عَلَى غيرِهِ بالقرائنِ بما يَظْهَرُ من حالِهِ، وقد مرَّ كثيرٌ مثل هَذَا الأَمْرِ، فقد قَالَ الرجلُ الَّذِي جامعَ زوجتَهُ فِي نهارِ رمضانَ: «وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي»[1]، ومعَ هَذَا فإن هَذَا الرجل لم يَطُفْ بأبياتِ أهلِ المَدينَةِ ويُفَتِّشها حَتَّى يعرف أَنَّهُ لا يوجد أحد أفقر منه.

• • ❁ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر، حديث رقم (١٨٣٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى فِيهِ وبيانها وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع، حديث رقم (١١١١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٣٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل:٣٧].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ بما أتيتَ من الهديَّة].

الخطاب الْآنَ للرَّسُولِ، وهَذَا من تعديدِ الأساليبِ لفائدةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ حملوا الهديَّة هم الجماعةُ جميعًا، فناسبَ أنْ يُخاطِبَهم جميعًا؛ لِأَنَّهُم حَمَلُوا هَذِهِ الهَدِيَّةَ، وهنا لَمَّا أرادَ أنْ يحملهم الإبلاغَ فإن تحميل الإبلاغِ للجماعةِ تَضِيع فِيهِ المسؤوليةُ، فحَمَّلَ الإبلاغَ رَئِيسَهم فقطْ؛ لأنك إذا وَصَّيْتَ جماعةً مثلًا لشخصٍ من النَّاسِ ضاعتِ المسؤوليةُ وصارَ كُلّ واحدٍ منهم يتَّكِل عَلَى الآخرِ فلا يحسن الإبلاغُ، لكِن إذا حَمَّلْتَها واحدًا فحينئذٍ يَتحَمَّل ويؤدي؛ ولهَذَا حَمَّل الرئيسَ فقال: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ ﴾ [النمل:٣٧]، أي: إِلَى جماعتِكَ الَّذِينَ أرسلوكَ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بما أتيتَ مِنَ الهديَّة ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ﴾ لا طاقةَ لَهُمْ بها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ من بَلَدِهِمْ سبأ، وسُمِّيَتْ باسمِ أبي قَبيلتهم، ﴿أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: إنْ لم يأتوني مسلمينَ].

هَكَذَا الْقُوَّة؛ لِأَنَّهُ لا يريدُ المالَ ولا يريد الدُّنْيا وإلا لَخَضَعَ وخَنَعَ لهَذِهِ الهَدِيَّة الكبيرةِ الَّتِي أُرسل بها جماعةٌ، ولكِنَّه لا يريد ذلك، فخاطبهم بهَذِهِ العباراتِ القويَّة.

قوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ اللام مُوطِّئَة لِلْقَسَمِ، والنون للتوكيد، فعلى هَذَا فالجملة مؤكَّدة بثلاثةِ مؤكِّداتٍ: القسم، واللام، والنون، ثُمَّ فيها منَ التعظيم ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾، ولم يقل: (فلآتينهم)؛ لِأَنَّ هَذَا أبلغُ فِي الهيبةِ، سواء أراد تعظيم نفسه، أو أراد بذلك آتيهم بجنودي.

وقوله: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فِيهِ استصغارُ هَؤُلَاءِ الجماعةِ الَّذِينَ أَرسَلُوا بِهَذِهِ الهديَّة، فاستصغرهم منَ الناحيةِ الماليَّة فِي قولِه: (ما آتاني اللهُ خيرٌ مما آتاكم)، ومن الناحيةِ العسكريَّة فِي قولِهِ: ﴿لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بها؛ لِأَنَّ عنده من الجنودِ الجنّ والإنس، بل والطير أيضًا، فما لهم طاقة بهَذَا الشَّيْء.

قوله: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً﴾ فنحتَلّ بلادهم ونُخرِجهم مِنْهَا أذلَّة ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ الفرق بين الأذِلَّة والصَّغار: الأذلة: الذُّلّ فِي النفسِ، والصَّغار: فِي البدَنِ، يَعْنِي يكُون مُسْتَسْلِمًا ظاهرًا وباطنًا، مستسلمًا ظاهرًا بالصغارِ، ومستسلمًا باطنًا بالذلّ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى:٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغار، والذلُّ هُوَ ذُلّ النفسِ والعياذ بالله، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن سُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنده من قوّة العزيمةِ، وقوة السلطانِ ما استطاعَ أن يُعبِّر بهَذَا التعبيرِ لهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْدَوْا له بِهَذِهِ الهديَّة.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيفَ يَلِيق بسُلَيْمَان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يقابلَ جماعةً أَهْدَوْا إليه هديةً بهَذَا الأسلوبِ العنيفِ، لماذا لم يُجِبْ بأسلوبٍ لطيف؟

الجواب عن هذا: أَنَّـهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أرادَ أنْ يُظْهِـرَ لهم قوَّته، وَأَنَّهُ لا يَهْتَمّ بشأنِهِم، ثُمَّ إن اختبارهم له مَعَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، يَدُلُّ عَلَى شكٍّ فِي دعوته، هُوَ دعاهم إِلَى الإِسْلَامِ، وهم شَكُّوا فِي ذلك بإرسالِ الهديَّة،

وظنُّوا أَنَّهُ يريد دنيا، فيَكُون هم الَّذِينَ بدأوا بالإساءةِ إليه، حَيْثُ أرسلوا إليه هدية يختبرونه بها فكَانَ ردُّه بهَذا مناسبًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلما رجعَ إليها الرَّسُولُ بالهَدِيَّةِ، جعلتْ سَرِيرَها داخلَ سبعةِ أبوابٍ، داخل قصرها، وقصرها داخل سبعة قصورٍ، وأغلقتِ الأبوابَ، وجعلت عليها حَرَسًا، وتجَهَّزَتْ لِلْمَسيرِ إِلَى سُلَيْمان لِتَنْظُرَ ما يأمرها به، فارتحلتْ باثني عشر ألف فيلٍ، مَعَ كُلّ فيلٍ ألوف كثيرةٌ، إِلَى أَنْ قربتْ منه عَلَى قِيدِ فَرْسَخٍ شَعَرَ بها، قَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾].

هذا غريبٌ، ما أدري من أين يأتي المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بهَذِهِ الحكاياتِ! وَأَمَّا الأفيالُ فلَعَلَّها كثيرة باليمنِ، ولهَذَا صاحبُ الفيلِ الَّذِي أرادَ أَنْ يَهْدِمَ الكعبةَ جاء بالفيلِ.

فالاقتصارُ عَلَى القَصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآن هُوَ اللائِقُ بالمسلمِ، إِلَّا ما صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ؛ وذلك لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فعِلْمُ هَذِهِ الأُمَمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاللائِقُ بنا أَلَّا نَتجاوزَ ما جاء به الْقُرْآن.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إظهارُ الْقُوَّة للأعداءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، فنفيُ الكَلامِ قوّة، فهَذَا التهديدُ والوعيدُ لَا شَكَّ أَنَّهُ مَظْهَرُ قوَّةٍ، فيكُون داخلًا فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فإن قوله: ﴿مِّن قُوَّةٍ﴾ نكِرَة تَشمَل كُلّ ما يُمكِن من القوى، سواء كانت الْقُوَّة قوليَّة أو مادِّيَّة أو معنويَّة، المهمّ أن جميعَ القوى فِي معاملة الأعداء ينبغي للمرءِ أن يَسْتَعْمِلَها، حَتَّى

إِنَّهُ جاء فِي الحديث: «الحَرْبُ خُدْعَةٌ»(١) لكِن الخيانة -خيانة العدو- لا تَجوز، فلا يجوز للإِنْسَانِ أنْ يخون عَدُوَّه، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨]، يَعْنِي: ولا تَخُنهم، وكذلك إذا خانوا فقد نَقَضُوا العهدَ.

وهَذِهِ المسألة لها ثلاث حالات -أي أنَّ المعاهَدين لهم ثلاثُ حالاتٍ-: إمَّا أن يَسْتَقِيموا لنا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، وَإِمَّا أن يَنْكُثوا العهد وحينئذٍ لا عهدَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٢]، وَإِمَّا أَلَّا يَنْقُضوا العهد وظاهِرُهُم الاستقامةُ، لكِن نخاف منهم الخيانةَ، فهنا نَنبِذ العهدَ إليهم، ونُخْبِرهم بأننا قد أبطلنا العهدَ، حَتَّى لو قَالُوا: سَنبقَى عَلَى العهد نَقُول: لا، نحن الْآنَ كلٌّ مِنَّا حرٌّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخيانة والخَديعة؟

الخيانة معناها: أنك تَخْدعه فِي مَقامِ الأمانِ، والخديعة تَخْدَعُه فِي غيرِ مقامِ الأمانِ، كَأن تكونَ الحربُ قائمةً ثُمَّ تَضَع كَمينًا ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو تُظْهِر مثلًا أن عندك كثرةَ عددٍ، كَأن تجعل النَّاس مثلًا يتردَّدون مثلما فعل القَعْقَاع بنُ عَمرٍو فِي حُرُوبِهِ مَعَ الفُرْسِ وغير ذلك، فأنت الْآنَ ما خُنْتَهم؛ لِأَنَّهُ ما بينك وبينهم عهدٌ، أَمَّا المحارِب فقَتْلُه لا يُعتبَر خيانةً؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بيننا وبينهم عهد، ولهَذَا فِي قِصَّة كَعْب بنِ

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الحرب خدعة، حديث رقم (٢٨٦٥)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الخداع في الحرب، حديث رقم (١٧٤٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأَشْرَف قَالَ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ لِي بِكَعْبٍ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ»(١).

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»(٢)، هل يفيد حصرَ الْقُوَّة فِي الرمي؟

الجواب: ما يَرِد عن الرَّسُول ﷺ وكذلك أيضًا ما يَرِد عن الصحابةِ فِي تفسيرِ بعضِ الآيَاتِ يَذْكُرُون الشَّيْءَ أحيانًا عَلَى سَبيلِ التمثيلِ، والْقُوَّة فِي ذلك الوقتِ هِيَ الرميُ، ولا تزالُ أيضًا، فإن الرميَ الْآنَ من أشدِّ ما يَكُونُ منَ الْقُوَّة، يعني هُوَ أعلى أنواعِ الْقُوَّة، سواء كَانَ الرميُ بالقوسِ فيما سبق، أو بالبُنْدُقِيَّة أو بالصَّوارِيخِ، المهمُّ أنَّ الرميَ فِي كُلّ وقت تجد أَنَّهُ هُوَ ذِروةٌ فِي الْقُوَّة، وهَذَا لَيْسَ بحصرٍ، ولكِن الرَّسُول أراد أن يُبَيِّن غايةَ الْقُوَّة، فالْقُوَّة هِيَ الغايةُ فِي كُلّ وقتٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَثرة جنود سُلَيْمَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾؛ لِأَنَّ هَذِهِ المَلِكَة لها العَرْش العظيمُ وعندها القوم المُطيعون الذليلون لأوامرها، يَقُول: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم﴾، ولم يُبَيِّن هذه الجنود، لَكِنَّهُ مَرَّ فِي أَوَّل القصة أن جنوده ثلاثةُ أصنافٍ: الجنّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يمكن أن يُسَلِّطها عليهم، إذا سلَّط الجنَّ فلا قِبل لهم بالجنّ، وإنْ سلَّط الطيورَ تَنْقُب عيونهم أيضًا فلا قِبل لهم بها.

فالحاصلُ: أنَّ الجنودَ الَّتِي لسُلَيْمَان لا يُمْكِن هَـؤُلَاءِ أن يُقابِلوها لا كميَّة ولا كيفيَّة.

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف، حديث رقم (٣٨١١)؛ ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود، حديث رقم (١٨٠١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، حديث رقم (١٩١٧)، عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الكافرَ لا حقَّ له فِي أرض الله، ولا فِي مال الله، حَتَّى المال لا حقَّ له فيه، وجه ذلك لو لم يكنِ الأَمْرُ هَكَذَا لكانَ تهديده بهَذَا الأَمْر محرَّمًا، إذ لو كَانَ لهم حقّ ما جاز له أن يفعلَ هَذَا ويُخْرِجهم منَ الْأَرْض.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة وأن الْإِنْسَان يفعل باختيارِه، لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾.

• ● ● •

الآية (٣٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ﴾ فِي الهمزتينِ ما تَقدَّم]، وتَقَدَّمَ تحقيقُ الهمزتينِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ﴾ وتسهيل الثَّانِيَة بقلبها واوًا: (**يا أيها الملأُ ويكم**).

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ منقادينَ طائعينَ، فلي أَخْذُه قبل ذلكَ لا بعدَه]، قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ من أين عَرَفَ أَنَّهُم سيأتون مسلمينَ إليه؟ عرف ذلك من أَنَّهُم إذا سَمِعوا بما قَالَ الرَّسُول، وَهُوَ قوله: ارْجِعْ إليهم، فَإِنَّهُ لا بُدَّ أن يَستسلموا وينقادوا، فَهُوَ أيضًا حَكَمَ بالقرائنِ، ويجوز أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَوْحَى إليه بذلك لِأَنَّهُ نبيّ، فالمسألة دائرة بين أن يَكُون حكَمَ بكونهم يأتون مسلمين بناءً عَلَى القرينة، ويحتمل أن يَكُون ذلك بوحيٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولكِنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ نبَّه المفسِّر عَلَى أَنَّهُ إذا كَانَ العَرْش أُخِذَ قبل أن يأتوا مسلمينَ إليه فَهُوَ جائزٌ، وإذا كَانَ بَعْد ذلك فليس بجائزٍ، وَفِي هَذَا نظر؛ لِأَنَّهَا بمجرَّد ما تُفَارِقه مُسْلِمَةً تكون قد أحرزتْ مالَها، وقد حَمَتْهُ، فمالُها محترَم قبل أن تصلَ إِلَى سُلَيْمَان بمجرَّد إسلامها، وهي إذا غادرتْ ستأتي بلَا شَكّ مُسْتَسْلِمَةً، فَإِنَّهُ قَالَ لهم فِي أوّل الأَمرِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وَلَيْسَ غَرَضه

-واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا كَانَ قبلَ إسلامِهِم جاز له أَخْذُه، وإذا كَانَ بعدَه لم يَجُزْ.

ثم إنّ الظَّاهر أيضًا أن سُلَيْمَـان لا يريد تَمَلُّكَ هَذَا العَرْش، وإنما يريد إظهار قوَّته أمامها، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتيَ بِعَرْشِها قبل أن يَصِلُـوا إليه، ولا يريد أن يَتَمَلَّكَه حَتَّـى يَرِد ما قَالَهُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك لَمَّا قَالَ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ...﴾ الآية.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: جوازُ الخِطاب إِلَى المبهَم إذا كَانَ يَتَعَيَّن بَعْد ذلك، يعني يجوز الخطاب إِلَى المبهم حُكمًا أو خبرًا قبل أن يتعيَّن الحكم، لِقَوْلِهِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قَالَ: ائتني يا فلان. وهَذَا النوعُ مِنَ الخِطاب تترتب عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّة وخَبَرِيَّة.

فمنها مثلًا يجوز أَنَّهُ يَقُول: زوَّجتك إحدى ابنتيّ هاتين، ثُمَّ يختار إحداهما، مثلما فعل صاحب مَدْيَن مَعَ موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجوز أن يَقُول: بِعْتُكَ إحدى هاتينِ السِّلعتينِ بكذا فيختار إحداهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بعتك هَذَا بعشَرة نقدًا أو بعشرين نسيئةً، فيَختار أحد الثمنينِ، وليستْ هَذِهِ المسألةُ الأخيرةُ من بابِ بيعتينِ فِي بيعةٍ، خِلافًا لَمن زَعَمَ ذلك، فإن هَذِهِ بيعة واحدة؛ لأنهما لم يَتَفرَّقا إِلَّا عَلَى إحدى البيعتينِ، وأيضًا بيعتانِ فِي بيعةٍ سبق أَنَّهُ جاء فيها نصٌّ صحيحٌ صريحٌ فِي سنن أبي دَاود يَقتضي أن بيعتينِ فِي بيعةٍ هِيَ مسألةُ العِينَة؛ لقولِ النَّبِيّ ﷺ: «مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا»[1]، وهَذَا صـريحٌ أن

(١) سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب فيمن باع بيعتين في بيعة، حديث رقم (٣٤٦١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ذلك فِي مسألةِ العِينة، والعِينة أن يبيعَ الشَّيْءَ عليه بثمنٍ مؤجَّل ثُمَّ يَشتريه نفس البائع منه بأقلّ منه نقدًا، فهَذِهِ مسألة العِينة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يَرِد عَلَى هَذَا اشتراط التعيين بالنِّسْبَةِ للنِّكاح؟

قُلْنَا: العقد لا يَنتهي إِلَّا بالتعيينِ، فإذا قَالَ: قَبِلْتُ نِكاحَ فلانةَ حَصَلَ التعيينُ، ولا يَصِحُّ أن يَقُول: قَبِلْتُ نِكاحَ إحداهما، كما أن البيع أيضًا: بِعتك بعشرة نقدًا وبعشرين نسيئةً، يَقُول: قبلت بعشرين النسيئة أو قبلت بعشرة نقدًا، لَا بُدَّ من هَذَا؛ لِأَنَّ القبولَ يُعيِّن، المهمّ الكَلام عَلَى الإيجابِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوز للإِنْسَان أمامَ عدوِّه أن يُظْهِرَ العظمةَ؛ لِأَنَّ سُلَيْمان أراد بإحضار هَذَا العَرْش إظهارَ عَظَمَتِهِ وقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ استطاع أن يأتيَ بعرشها المحصَّن بلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ كما جرتِ العادةُ قُصُور الملوك لَا بُدَّ أن تكون محصَّنة وعليها حَرَس، لا سيما مثل العَرْش، وَأَمَّا زَعْمُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ إِنَّما أَتَى به لِيَتَملَّكَهُ فلا دليلَ فِي الآية عَلَى ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إمَّا أَنَّهُ تَفَرَّسَ أو أُوحِيَ إليه بأن هَؤُلَاءِ القوم سوف يأتونه؛ لِأَنَّهُ لَمَّا ردَّ الرَّسُول بالهَدِيَّة وقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل:٣٧]، ما جاءه الجوابُ، فطَلَبَ أن يُحْضَرَ عَرْشُها، ممَّا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ علِم بأنها ستأتي وقومها، ولكِن من أين علم ذلك؟

قُلْنَا: إِنَّهُ أَمَّا مِنْ وحي، وَإِمَّا من فراسة؛ لِأَنَّ مثل هَذِهِ العبارات الَّتِي تُرسَل: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ بهَذِهِ القُوَّة تَقتضي أن العدوَّ يَخْنَع ويَخْضَع، إن كَانَ بفراسةٍ فَهُوَ دليل عَلَى جواز الحكم بالفراسة، وقد ذكرنا

عدة مراتٍ أَنَّهُ يجوز الحكم عَلَى الشَّيْء بمقتضى غَلَبَةِ الظنّ، بل يجوز أن يحلف عليه بمقتضى غلبة الظنِّ، والفِرَاسة تؤدي إِلَى غلبة الظنّ، ولكِن لَيْسَ مجرَّد الوهم يُجُوِّز أن تحكمَ بالظنِّ، بل لَا بُدَّ للفراسةِ من قرائنَ تدل عليها؛ إمَّا قرائن سابقة وَإِمَّا قرائن مقارِنة، وَأَمَّا أن تحكمَ بشيءٍ لَيْسَ فِيهِ قرينةٌ فهَذَا حكمٌ بالظنِّ.

الآيــة (٣٩)

• ● ೞ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٩].

• ● ೞ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هُوَ القويُّ الشديدُ]، العِفريت القويُّ الشديد، ولا زال هَذَا المَعْنى إِلَى الْآنَ موجودًا، إذا قُلْنَا: فلانٌ عِفريـتٌ، يعني قويًّا شديدًا أو نَقُول أيضًا أبلغ من هَذَا.

قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾: (آتي) اسم فاعـل من (أَتى) فهو (آتٍ)، ومنه قولهم: (كل آتٍ قريبٌ)، وهنا يَصِحُّ أنِ يَكُون التَّقْـدير: أنا آتٍ إليك به قبل أن تقومَ من مقامِك، لكِنِ الأقرب أَنَّهَا فعل، يُقَرِّبُهُ أن الأَصْلَ فِي العَمَلِ الأفعال والكاف معمول ضَمير مَفْعُول به.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ الَّذِي تَجلِـس فِيهِ للقَضاء، وَهُوَ منَ الغَداةِ إِلَى نِصـفِ النَّهارِ]، هَذَا من الأُمُورِ الَّتِي لا دليلَ عليها، ولكِنّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ المُراد ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بسـرعةٍ، وهَذَا أسلوبٌ معروفٌ: أنا آتي به قبلَ أن تقومَ، إِلَى الْآنَ موجود هَذَا الأسلوب، فالمَعْنى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ بسرعة، ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ﴾ أي: عَلَى هَذَا العَرْش ﴿لَقَوِىٌّ﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي عَلَى حَمْلِهِ ﴿أَمِينٌ﴾ أي: عَلَى ما فِيهِ من الجواهر وغيرها]، انظر لما قَالَ: ﴿ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾

هَذَا إحضارُه، ولكِن يحتاج إِلَى تأكيدٍ لهَذَا الأَمْر، أي تأكيد كونه يُحْضِره قبل أن يقوم من مقامه، فقال: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ﴾، ولستُ بضعيفٍ، بل سوف أُحْضِره بهَذِهِ السرعة، وأيضًا ﴿أَمِينٌ﴾ أي: لا أَخُون فِيهِ شيئًا، لا عَلَى نفس العَرْش ولا عَلَى نفس ما فِيهِ من الجواهرِ وغيرها.

وهَذَان الوصفان يَحتاجُ إليهما كُلّ عاملٍ، كما قَالَ الله تَعَالَى عن بنتِ صاحبِ مَدين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]، وهَذَانِ الوصفانِ مطلوبانِ فِي كُلّ عملٍ؛ لِأَنَّهُ إذا فاتتِ الْقُوَّة لم يَحْصُلِ العَمَلُ، من أجلِ العجزِ، وإذا وُجدت الْقُوَّة ولكِن فاتت الأمانة فَإِنَّهُ أيضًا يتخلفُ العَمَلُ بسبب الخيانةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال سُلَيْمان: أُريد أسرع من ذلك]، قَالَ هَذَا سُلَيْمان، لكِن هَذَا لا دليلَ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تسخير الجنّ لسُلَيْمان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ هُوَ أوّل مَن تكلّم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: قوّة الجنّ؛ لِأَنَّهُ سوف يأتي بهَذَا العَرْش العظيم يحمله من سبأ من اليمنِ إِلَى الشامِ، وأيضًا فِيهِ دليل عَلَى سُرعتهم، وهي من أوصاف الْقُوَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهَذِهِ سرعة فائقة وعَظيمة، ومعلومٌ أَنَّهُم عندهم سرعة عظيمة؛ بدليلِ أَنَّهُم يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ منَ السَّماءِ، ولا يصل إِلَى السَّماء إِلَّا كَانَ مَن عنده سرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَصِفَ نفسَه بما اتَّصف به من صفات

الكمالِ ترغيبًا أو ترهيبًا، بشرطِ أنْ يَكُونَ ذلك حقيقةً، فوَصْفُ الْإِنْسَان نفسَه بما يتَّصف به نَقُول: إنَّهُ مباح، هَذَا الأَصْلُ، والمباح كما هُوَ معروف تَعْتَرِيه الأحكام الخمسة؛ فقد يَكُون واجبًا أحيانًا، وقد يَكُون محرَّمًا، ولا يمكن أن يَكُون مطلوبًا بكلِّ حالٍ؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ سيِّءٍ، ولا أَنَّهُ مذموم بكل حال؛ لِأَنَّهُ قد يَكُون لغرضٍ حسنٍ أو عَلَى سبيلِ الجوازِ، لكِن إذا اقتضتِ الحالُ البَيَان فقد يَكُون مطلوبًا إمَّا وجوبًا وَإمَّا استحبابًا، فقد يَكُون من باب التحدُّث بنعمة الله فيَكُون مطلوبًا، وقد يَكُون من أجلِ أن يمنع من لَيسَ بأهلٍ من مباشرةِ هَذَا العَمَلِ، فحينئذٍ يَجب أن يبيِّن نفسه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وهَذَا ترغيبٌ، وقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ ترهيبٌ، فيجوزُ هَذَا وهَذَا، لكِن بشرطِ أن يَكُون متَّصِفًا به حقيقةً، أَمَّا دَعْوى فلا، ومثل هَذَا ما جاء فِي الحديثِ: «مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»(١).

فالْإِنْسَانُ الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَه بما لَيْسَ فيها هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مزوِّر، مزور بالخبر ومزور بالصِّفة، هُوَ أخبرَ عن نفسِهِ بما لَيسَ فيها، فالخبر كذب وثُبُوت هَذَا الوصف للنفسِ مثلًا كذبٌ، فلذلك قَالَ: «كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»، ومِثل هَذَا أيضًا قولُ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أعلمُ أنَّ أحدًا أعلمُ منِّي بكتابِ اللهِ تَبْلُغُهُ الإبلُ لَرَحَلْتُ إليه، أو كما قال(٢).

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب المتشبع بما لم ينل وما ينهى من افتخار الضرة، حديث رقم (٤٩٢١)؛ ومسلم، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتشبع بما لم يعط، حديث رقم (٢١٣٠)، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النَّبِيِّ ﷺ، حديث رقم (٤٧١٦)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حديث رقم (٢٤٦٣).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن مدارَ العَمَلِ عَلَى هذينِ الوصفينِ، وهما: الْقُوَّة والأمانة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ لِأَنَّ مَن لَيْسَ بقويٍّ لا يُتْقِن العَمَلَ؛ لضعفِهِ، ومن لَيْسَ بأمينٍ لا يُتْقِن العَمَلَ أيضًا لخيانتِه، فقد يَكُون الْإِنْسَان قويًّا ويستطيعُ أن يعملَ هَذَا العَمَل بكلِّ سهولةٍ ولكِنه لَيْسَ بأمينٍ، فلا يثق الْإِنْسَان به، ثُمَّ إن العَمَلَ لو أَنَّهُ أتقنَهُ يبقى الْإِنْسَان شاكًّا يَقُول: يمكن أَنَّهُ يقدِر أن يفعلَ أحسنَ من هَذَا لَكِنَّهُ ما فعلَ لِأَنَّهُ خائنٌ.

وكذلك أيضًا لو كَانَ الْإِنْسَان أمينًا لَكِنَّهُ عاجزٌ فَإِنَّهُ لن يُتْقِن العَمَلَ لِعَجْزِه، لكِن أيُّهم أشدُّ لومًا؟

الخائنُ أشدُّ، ومَن لَيْسَ بقويٍّ أيضًا عندَه نوعُ خيانةٍ؛ لِأَنَّ كونه يدخل فِي العَمَلِ وَهُوَ لَيْسَ بقادرٍ عليه أو لَيْسَ بقويٍّ عليه فهَذَا لا شَكَّ أيضًا أَنَّهُ خطأ وخيانةٌ، ولهَذَا قَالَ النَّبِيّ ﷺ لأبي ذرٍّ: «**إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَتَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**»(١).

فالْإِنْسَانُ الضعيفُ لا يجوز أنْ يتدخَّل فِي شيءٍ يَعْرِف أَنَّهُ لا يستطعُ إتقانَه، لا سِيَّما إذا كَانَ يوجد فِي النَّاس مَن يُحْسِنُه، فهَذِهِ تُعْتَبَرُ خيانةً لنفسِه ولغيرِه؛ خيانة لنفسه؛ لِأَنَّهُ فِي الحقيقةِ جَشَّمَهَا مرقًى صَعْبًا يريد أن يظهرَ ضَعفهُ أمامَ النَّاسِ، وخيانة لغيره حَيْثُ تَقبَّلَ أعمالهم وَهُوَ لا يُحْسِنُها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦].

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا اجتمع عندنا أربعةُ أشخاصٍ أحدهم: قويّ أمين، والثاني: قويّ غير أمين، والثَّالث: أمين غير قويّ، والرَّابع: ضعيف خائنٌ؟

---

(١) رواه مسلم، الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم (١٨٢٦)، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قُلْنَا: القويُّ الأمين مقدَّم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، والخائن الضعيف مؤخَّر بلَا شَكّ، هَذَان طرفانِ معلومانِ.

أما القوي الخائن والضعيف الأمين فالصَّحيح أنه يَجِب أن ننظرَ أيُّها أولَى مراعاةً، فإذا كَانَ فِي عملٍ الْقُوَّة فِيهِ أظهرُ فهنا يُقدَّم القويُّ؛ لِأَنَّ القوي وإن كَانَ عنده خيانة فربما تَحْمِله قوته عَلَى إتقانِ العَمَلِ؛ لأجل أن يَشْتَهِرَ بِهَذِهِ الْقُوَّة مثلًا، أَمَّا إذا كانت المسألة لا تحتاج إِلَى عملٍ وقوة لَكِنَّها تَتَطَلَّبُ الأمانة فهنا يُقدَّم الأمين، وهَذَا واضح إذا كَانَ فِي عملينِ:

أحدهما: يظهر فِيهِ قصد الأمانة.

والثاني: يظهر فِيهِ قصد الْقُوَّة.

كالأمير مثلًا، الأمير يظهر فِيهِ قَصْد الْقُوَّة، يعني قوة الأمير، وإنْ كَانَ غيرَ أمينٍ، فهو أنفعُ للمجتمعِ من أميرٍ ضعيفٍ أمين، والقاضي بالعكسِ؛ فالأمانةُ فِي حقِّه أظهر؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ أمينًا -وإن كَانَ ضعيفًا؛ لِأَنَّ الَّذِي سَيُنَفِّذ لَيْسَ القاضي، خصوصًا فِي عصرنا، فالْآنَ التنفيذ لجهة الإِمارة، فالقاضي يَحْكُمُ فقط- فإذا كَانَ أمينًا فهنا قصد الأمانة فِي القضاءِ أظهرُ من قصد الْقُوَّة، وَعَلَى هَذَا فَقِسْ.

ولكِن إذا كَانَ العَمَلُ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْقُوَّة والأمانةُ فهَذَا مَحَلُّ نظرٍ، ولا يمكن أن نَحْكُمَ بِحُكْمٍ عامٍّ، بل إننا نَنْظُرُ فِي القضيةِ المعيَّنة، وإذا تشاحَّ اثنانِ فِي عملٍ يَتَطَلَّب الْقُوَّة والأمانة معًا ولا يظهر فِيهِ فضل أحدهما عَلَى الآخر، فحينئذٍ لا أستطيعُ أن أحكمَ هنا حكمًا عامًّا، بل إِنَّمَا يُنْظَر فِي كُلّ مسألةٍ بخصوصها، ويُنظَر للقرائنِ وينظر أيضًا للأشخاصِ، ومَن تَظهَر فِيهِ الْقُوَّة أكثر من ظهور الأمانة فِي الثاني، أو الأمانة فِي هَذَا أكثر من ظهور الْقُوَّة فِي الثاني.

وعَلَى كُلِّ حالٍ: هَذِهِ المسألة لا نَحْكُمُ فيها بحُكْمٍ عامٍّ، بل نحكم فيها بالقضيَّة المعيَّنة، ونَقُول: يُقدَّم هَذَا عَلَى هَذَا عندما تحصل القضية المعيَّنة.

فالحاصل إِذَنْ: أقسام النَّاس باعتبارِ العَمَلِ أو باعتبارِ القيامِ بالعَمَلِ أربعةٌ: قويّ أمين، وضعيف خائن، وقوي خائن، وضعيف أمين.

ومعلوم -كما تقدَّم- أنَّ الأوَّل يُقدَّم عَلَى كُلّ حالٍ، والثاني يؤخَّر عَلَى كُلّ حال، والثَّالث والرَّابع بينهما تزاحُم، فيُنظَر إِلَى ما كَانَ يَستدعي الْقُوَّة أكثر فيُقدَّم فِيهِ القوي، وما كَانَ يستدعي الأمانة أكثر يُقدَّم فِيهِ الأمين، وما احتمل أمرينِ يُنظَر فِيهِ إِلَى القضية المعينة حَتَّى نستطيع أن نقدِّم هَذَا عَلَى هَذَا... إِلَى آخره.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن سُلَيْمَـان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّب شؤون حياته، وأن له مجلسًا خاصًّا معروفًا معيَّنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُقدَّرٌ بمدَّة معلومة، وإِلَّا لم يكن لذلك فائدة؛ لِأَنَّ قيامه من مقامِه إذا لم يكن معلومًا فهلْ يُدْرَى متى ينتهي؟! قد يبقى يومًا كاملًا فِي مكانِهِ وقد لا يبقى إِلَّا دقيقةً واحدةً، فلولا أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد رتَّـب أوقاته حَتَّى أصبحتْ معلومةً للناس ما قَالَ مثل هَذَا الكَلام.

وأمَّا تقديره بما قاله المفسِّر: من الغداة إِلَى نصفِ النَّهارِ، فهَذَا لا نَدري، اللهُ أَعْلَمُ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: يؤخَذ منه أن سُلَيمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ قد رتَّب أوقاته حَتَّى صارتْ معلومةً، وهَذَا لا سيما بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ المُرادِ -الَّذِي يريده النَّاسُ- أَمْرٌ مِنْ أهمِّ الأُمُور، أَنَّهُ يرتِّب أموره حَتَّى إن الإِنْسَان الَّذِي يريده فِي حاجة يعلم أَنَّهُ فِي هَذِهِ الساعةِ يجده، وَفِي الساعة الأُخْرَى لا يجده فيستريح، مثلًا يرتِّب لنفسِه جلسةً فِي بيتِه

أو فِي مكانٍ للناس عَلَى سبيل العمومِ، إمَّا بين العشاءين أو بَعْد العصر أو الضحى، المهم شَيْء يعرفه النَّاس، فيرتب لنفسِهِ مثلًا عملًا معينًا يعرفه النَّاس، حَتَّى يأتي إليه من أراده فِي هَذَا العَمَل.

المهمُّ يُستفاد من ذلك أن سُلَيْمَـانَ قد رتَّب أعمالَه فِي وقتِه، والثاني أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ خُصوصًا المُرَادَ من أميرٍ وقاضٍ وعالمٍ ووجيهٍ وغيره؛ أَنْ يَجْعَلَ له أوقاتًا محدَّدة حَتَّى إن النَّاس يشعرون بأن هذا الرجل رجل منظَّم، ويشعرون بأن الْإِنْسَان الفوضويّ إن شاء جلس وإن شاء قام أَنَّهُ لَيْسَ بمنظَّم فلا يعتبرونه شيئًا.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٠)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل:٤٠].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المُنْزَل، وَهُوَ آصَفُ بنُ برخيا، كَانَ صِدِّيقًا يعلَم اسمَ اللهِ الأعظم الَّذِي إذا دعا به أُجِيـبَ]، قولُ المُفَسِّـر: [إذا دعا به]، المعروف أن اسْم الله الأعظم: الَّذِي إذا دُعي به أجاب، لكِن يَحتمِل أَنَّهُ قول المُفَسِّر: [إذا دعا به]، أي: هَذَا الرجل الَّذِي عنده علم من الكتابِ، يعني أن هَذَا الرجل قد جرّب وعرف أَنَّهُ إذا دعا الله تَعَالَى بهَذَا الاسم أجابه، فيَكُون هنا أنسب أن يقالَ: إذا دعا به أجاب؛ لِأَنَّ هَذَا الرجلَ الَّذِي عنده علم من الكتابِ يعلم أو قد جرَّب أَنَّهُ إذا دعا بهَذَا الاسم أجاب.

وهَذَا أيضًا لَيْسَ بلازمٍ أن يَكُون هَذَا الإِنْسَان الَّذِي عنده علم من الكتاب يريد أن يدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ باسمِهِ الأعظمِ، وإنها نَقُول: هَذَا الرجل أعطاه الله تَعَالَى علمًا من الكتاب المنزل، ولَا شَكَّ أن الإِنْسَان العالمَ يعرف الأدوات والصيغ الَّتِي تكون أقربَ إِلَى الإجابةِ سواء باسمِ اللهِ الأعظمِ أمْ بغيره.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ إذا نظرتَ به إِلَى

شيءٍ]، الله أكبر! أيُّهما أسرع؟

الثاني أسرع؛ لِأَنَّهُ كلَمْح البَصَر، قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ﴾ أي: يَرْجِع ﴿إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ أي: نَظَرُك، فأنت مثلًا إذا نظرتَ أمامك ثُمَّ حَرَّكْتَ طَرْفَك فإن هذا يَكُون بسرعةٍ فائقةٍ، وتأمل -سبحان الله العظيم- سيأتي به من اليمن إِلَى الشام بهَٰذِهِ السرعةِ العظيمةِ؛ لِأَنَّهُ يأتي بأمرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله تعَالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

قَالَ تعَالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إذا أجاب الداعيَ لا يحتاج إِلَى مدَّةٍ ولا إِلَى مُهْلَةٍ، ولكِن مَعَ ذلك يُقَدِّرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأُمُور بأَسْبابها، قد يدعو الإِنْسَان لمريضٍ أن يشفيَه الله تَعَالَى، ولكِن هل يُشْفَى كلمحٍ بالبصر؟

لا، له أَسْبابٌ تُقدَّر، لكِن الأَسْبَاب تَنعقِد فورًا إذا أرادَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنْ يُجيبَ، مَعَ أن الله قادر عَلَى أن يُبْرِئَ هَذَا المريضَ فِي لحظة، مثلما كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يؤتَى أحيانًا بالمريضِ فيدعو له فيشفى فِي لحظةٍ، وقد جيء إليه بعليِّ بنِ أبي طالبٍ فِي خيبَرَ وَهُوَ يشتكي عينه فبصَقَ فيها ودعا فبرأتْ، كَأنْ لم يكنْ بها وجعٌ فِي الحالِ[(١)]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على كلِّ شَيْء قدير، ولكِن تأخُّر الشَّيْء لا يدل على أنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيْسَ بقادرٍ عَلَى إبرائِه حالًا، ولكِنه يَدُلّ عَلَى أن الله حكيمٌ يُقَدِّرُ الأُمُورَ بأَسْبابها، حَتَّى خلق السَّماوَات والْأَرْض فِي ستةِ أيامٍ ذَكَرْنا فيما سبق أَنَّهُ لفائدتين:

---

(١) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم (٣٩٧٣)؛ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم (٢٤٠٦)، عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أولًا: ما اشتهر عندَ أهلِ العلمِ من أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعلها فِي ستة أيامٍ ليُعَلِّمَ العبادَ التأنِّيَ فِي الأُمُورِ، وأن المهمَّ إحكام الأَمْر لا التعجيل فيه.

وشَيْء آخر: أن خلقَ هَذِهِ الأَشْيَاء يحتاج إِلَى أَسْبابٍ ومكوِّناتٍ تتفاعل وتنتهي إِلَى الكمال، فلهَذَا صارت فِي ستة أيام.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فقال له: انظُرْ إِلَى السَّماء، فنظر إليها، ثُمَّ رَدَّ بِطَرْفِهِ فوجده موضوعًا بين يديه، ففي نظره إِلَى السَّماء دعا آصفُ بالاسمِ الأعظمِ أن يأتيَ اللهُ به، فحصلَ بأن جَرَى تحت الْأَرْض حَتَّى نبعَ تحتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمان]، الله أكبرُ! هَذِهِ القِصص غرائبُ! أولًا هل هَذَا الَّذِي عنده علم من الكتاب قَالَ لسُلَيْمان: انظر إِلَى السَّماء؟! لا دليل عَلَى هَذَا، وَلَيْسَ هناك حاجة إِلَى أن يَقُول له: انظرْ إِلَى السَّماء، فقوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ بأيّ نظرٍ أدرتَ طرْفك إليه.

ثانيًا: يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّهُ جرى تحت الْأَرْض حَتَّى نبع تحت الكرسيّ، فيجوز أَنَّهُ جاء من تحت الْأَرْض، ويجوز أَنَّهُ جاء من فوق الْأَرْض، أو جاء من محلٍّ عالٍ جدًّا ونزل، كُلّ هَذَا لا ينبغي الجزمُ به، بل يقال: إن الله عَلَى كُلّ شيءٍ قدير، المهمّ أن العَرْش حَضَرَ فِي لحظةٍ قبلَ أنْ يَرْتَدَّ إليه طَرْفُه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا]، هَذِهِ أشكلتْ عَلَى النحْويِّين؛ لِأَنَّهم يَقُولُونَ: إنَّ من قواعدهم: إذا كَانَ الظرف أو الجارّ لمجرور مُتَعَلَّقُهُ عامًّا فَإِنَّهُ يجب حَذْفه، مثلًا تقول: زيد فِي البيت، لا يجوز أن تقول: زيد كائنٌ فِي البيت، بل يَجِب حذف (كائن)؛ لِأَنَّهُ عام، أَمَّا إذا كَانَ خاصًّا مثل: زيد محبوس فِي البيت، فيجب ذِكْرُه؛ لِأَنَّ (محبوس) لو حُذفت ما دلَّ عليها دليل، بخلاف: زيد فِي البيت؛ فَإِنَّهُ بمجرد النطق به يتبين للمُخاطَب أن المَعْنى كائن فِيهِ أو موجود فيه،

فهم يَقُولُونَ: إذا كَانَ الجارّ والمجرور أو الظرف متعلقه عامًّا وجب حذفه، وهنا (مستقرًّا) عامٌّ، فإذا قلت: (زيد فِي البيت) أي مُسْتَقِرّ فِي البيت، يعني كائنًا فيه، وابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول[1]:

وَأَخْبَرُوا بِظَرْفٍ أَوْ بِحَرْفِ جَرّ ... نَاوِينَ مَعْنَى كَائِنٍ أَوِ اسْتَقَرّ

لكِن قَالُوا: إن الاستقرار هنا لَيْسَ الاستقرارَ العامَّ حَتَّى يَجِب حَذْفُه، بل هُوَ استقرارٌ خَاصّ غيرَ مُطلقِ الوجود، فلمَّا كَانَ استقرارًا خاصًّا غير مطلَقِ الوجود صار كالمَعْنى الخاصّ، ولذلك ذُكِرَ، قال: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا﴾، لاحِظْ لو قَالَ: «فلمّا رآه عنده» لا تدلُّ عَلَى المَعْنى فِي كلمة (مُسْتَقِرًّا)، صحيح أن معنى: لما رآه عنده، أي: لما رآه كائنًا عنده، لكِن لا تدلّ عَلَى أن هَذِهِ الكَيْنُونة كانتْ باستقرارٍ وثباتٍ، وأيضًا ربما يُفْهَم من قوله: ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ ما أشار إليه العِفريت فِي الأوّل وَهُوَ القُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّهُ بالْقُوَّة والأمانة يأتي العَرْش عَلَى ما هُوَ عليه لا يَتكَسَّر، فالْإِنْسَان الضعيف مثلًا ربما عند حَمْله وَهُوَ ضعيف يسقط من يده، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فيتكسّر، أو إذا لم يكن أمينًا لا يُهِمّه أن يضربه جبل أو شجر أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو هُوَ نفسه يتسلّط عليه.

فالحاصل: أن هَذَا الاستقرارَ له معنًى خَاصّ غير الاستقرار العامّ، فلذلك ذُكر.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي: ساكنًا عندَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ أي: الإتيان لي به ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى﴾]، ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي: سُلَيْمان رأى العَرْش مستقرًّا، والاستقرارُ هنا أمر زائدٌ عَلَى مجرَّد الكينونة، ولو كَانَ المُراد بالاستقرارِ هنا مجرَّد

---

(١) ألفية ابن مالك (ص:١٧، الابتداء)، ط. دار التعاون.

الكينونةِ لكان ذِكْرُهُ غيرَ بليغٍ، ولهَذَا فسَّر المُفَسِّر الاستقرارَ هنا بالسكونِ، يعني كأنَّ له أزمانًا وَهُوَ فِي هَذَا المكانِ، كما إذا أتيتَ بشيءٍ ووضعتَه بمكانٍ وتريد أن تركّبه وتُعدِّله وتُزيِّنه، لا سيما العَرْش الَّذِي له قوائمُ فِي العادةِ، فهَذَا العَرْش ثابتٌ كَأن له سنينَ، وهَذَا من كمال القدرة أيضًا.

قوله: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾: ﴿مِن﴾ هَذِهِ لبَيَان الجنسِ أو للتبعيضِ؛ لأنا إذا قَصَدْنا بالفضلِ الجنسَ فهي لبَيَان الجنسِ، وإذا قصدنا بالفضلِ هَذَا الشَّيْءَ المعيَّن فهي للتبعيضِ.

عَلَى كُلِّ حالٍ: هِيَ صالحةٌ لهَذَا وهَذَا.

وقوله: ﴿فَضۡلِ رَبِّي﴾ الفضل هُوَ العطاءُ الزائدُ، وفضلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى العبدِ لا يُعَدّ ولا يُحصى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، ومن فضل الله عَلَى عبدِهِ أن يُحْسِن إليه ثُمَّ يَعُدُّ إحسان العبدِ إحسانًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، نَقُول: ما جزاءُ المحسنينَ الَّذِينَ أحسنوا عملهم إِلَّا أن يحسنَ إليهم، وإحسانهم أو عملهم إحسانٌ منَ الله، ولكِن هَذَا من باب تمام الفضلِ منَ الله عَلَى عبادِهِ أن يَعُدَّ إحسانَ عملِهم -وَهُوَ منه- إحسانًا منهم، كأنهم هم المتفضِّلون به، قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ اللهمَّ لك الحمد.

وقوله: ﴿رَبِّي﴾ الرُّبُوبِيَّة هنا خاصّة، ولهَذَا أضافها إِلَى نفسه فقال: ﴿رَبِّي﴾ وقد مرّ علينا أن الرُّبُوبِيَّة عامّة وخاصّة، وأن العُبُودِيَّة كذلك عامّة وخاصّة، وأنّ الخاصّة فيها ما هُوَ أخصُّ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فربوبيّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى وهارون غير رُبُوبِيَّة الله

لعبادِهِ الصالحينَ الآخرينَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ لِيَخْتَبِرَنِي]، اللام للتعليل [﴿ءَأَشْكُرُ﴾ بتحقيق الهمزتينِ وإبدالِ الثَّانِيَةِ ألفًا وتسهيلها، وإدخال ألف بين المسهَّلة والأُخْرَى وتركه]، بتحقيق الهمزتين: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾، إبدال الثَّانِيَة ألفًا (آشكر)، تسهيلها ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ اجعل الهمزة مسهلة بين الألف وبين الهمزة، وإدخال ألف بين المسهلة والأُخْرَى وتركها، يعني معناه: إذا قرأتَ بالتسهيلِ فلها صورتانِ:

الصورة الأولى: إدخال ألف (أاأشكر) اجعل بَعْد الألف همزة مسهلة.

الصورة الثَّانِيَة: بدون ألف، يعني أن التسهيل يجوز فِيهِ المد قبل التسهيل وعدم المد.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ للنعمة]، فبماذا يَكُون الشكر؟

يَكُون الشكرُ بالثَّناء عَلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النعمة بذاتها، وكذلك الاعتراف بالقلب بأنها مَحْض فضلٍ منَ اللهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لك بها مِنَّةٌ عَلَى ربِّك، والثَّالث القيام بما تَقْتَضِيه هَذِهِ النعمة من واجبٍ، وهَذَا الشكر الخاصّ لَيْسَ الشكرَ العامَّ؛ لِأَنَّ الشكرَ يَكُونُ عامًّا بحيثُ يُوصَف الْإِنْسَان بأنه من الشاكرينَ عَلَى الإطلاق، ويَكُون خاصًّا بحيث يُوصَف بأنه من الشاكرينَ عَلَى هَذِهِ النعمة فقطْ.

مثال ذلك: رجل آتاه الله مالًا، فالشكر الخاصّ عَلَى هَذَا المال أن يتحدث بهَذَا المال عَلَى أَنَّهُ من فضلِ الله ونعمته، وأن يعترفَ بقلبه أَنَّهُ فضلٌ من الله، لا يَقُول: أُوتِيتُهُ عَلَى علم عندي.

والثَّالث أن يقوم بواجب هَذَا المال من دفع زكاتِه وما يترتَّب عليه بسبب

هَذَا المال، لكِن قد يَكُون الْإِنْسَان مثلًا من جهة أخرى يَعصي اللهَ وفرَّط فِي الصَّلَاة أو مُفرّط فِي الصِّيَام، فهَذَا لا نَصِفُه بأنه شاكر عَلَى الإطلاق، لَكِنَّهُ قائمٌ بِشُكْرِ النعمةِ المعيَّنة.

إِذَن: الشكرُ نوعانِ: شُكْرٌ مُطْلَقٌ وشكر خاصٌّ، فالشكر الخاصّ أن يقومَ بشكرِ النعمةِ المعيَّنة بما تَقْتَضِيهِ، والشكر العامّ أن يَكُون قائمًا بطاعة الْمُنْعِمِ مُطْلَقًا فِي جميع الأحوال، وأنت لو تأمَّلتَ هَذَا وجدته موجودًا فِي عامَّة الأوصاف المحمودة والمذمومة أيضًا، فالتوبة قد يُوصَف الْإِنْسَان بأنه تائبٌ توبةً خاصَّةً مقيَّدة من ذنب معيَّن، وقد يُوصَف بأنه منَ التائبين عَلَى سبيل الإطلاق.

قول سُلَيْمَان ﷺ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ عَلَى أيِّ وجهٍ نَحْمِله؟

إذَا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى العموم، فمعناه أَنَّنَا رَمَيْنا سُلَيْمَان ﷺ بأنه لَيْسَ بشاكرٍ لنعمةِ اللهِ فِي غير هَذَا، وإذا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى الخصوص، يعني عَلَى هَذِهِ النعمة المعيَّنة، فَهُوَ أَولى، ولهَذَا قَالَ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ يَخْتَبِرني به ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ الله عليه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ فالظَّاهر أَنَّهَا هنا عَلَى سبيل الخصوصِ، يعني: عَلَى هَذِهِ النعمة، أَمَّا النِّعم الأُخْرَى فنحن نؤمنُ بأن سُلَيْمَان قد قام بشكرها؛ لِأَنَّهُ ﷺ كما تقدَّم فِي قِصَّة النَّمْلة قَالَ مثل هَذَا الكَلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل:١٩]، فالذي نَعتقد، وَهُوَ أقربُ من حالِ سُلَيْمَان، أَنَّهُ قد شكرَ نعمةَ اللهِ عَلَى النعمِ الأُخْرَى، فقال: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ عَلَى هَذِهِ النعمةِ ولم يقلْ: أَأُتِمّ الشكرَ. وقوله: ﴿ءَأَشْكُرُ﴾ فعل مطلَق.

فالحاصل: أن الَّذِي يظهر لنا أَنَّهَا عَلَى هَـذِهِ النعمةِ، ليبلوني هل أشكرها أم

أكفرها؛ لِأَنَّ كُلّ نعمةٍ تحتاج إِلَى شكر خاصّ، والشكر العامُّ معروفٌ؛ يَقُول الْإِنْسَان: أشكرُ اللهَ.

ويُضمِر فِي قلبه أَنَّهُ شاكرٌ لله عَلَى جميع النعم، لكِن عند نعمة معيَّنة تحتاج هِيَ أيضًا إِلَى شكر خاصّ، فالشكر عَلَى المالِ لَيْسَ كالشكرِ عَلَى غيرِه، مثلًا إِنْسَان عنده قوَّة وقُدْرة عَلَى الرميِ والجهادِ فشكرُ هَذِهِ النعمةَ أنْ يَسْتَعْمِلَها فِي الجهاد، يعني يجاهد.

عنده قدرة عَلَى بَيَان الحَقّ بما أعطاه الله تَعَالَى من العلمِ والفهمِ شُكْرُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النعمةِ أنْ يُبَيِّنَ هَذَا الأَمْرَ.

فتجد أن الشكر يختلف إذا اعتبرنا كُلّ نعمةٍ بِحَسَبِها؛ لِأَنَّ الأَمْر يختلف، نَقُول: شكر هَذَا غير شكر هَذَا، لكِن الشكر المطلَق أنْ نَعْتَقِدَ بأن جميعَ الفضائلِ والإنعاماتِ كلّها منَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهَذا يَشترك فيه جميعُ النَّاسِ.

والمُراد بالكفرِ هنا كفرُ النعمةِ، وقد تقدَّم أن الشكرَ والتوبةَ والكفرَ والإِيمانَ كُلّ هَذِهِ تَتبعَّض وتكمل: مُطْلَق شَيْء وشَيْء مُطْلَق.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يَقُول سُلَيْمان: أم أكفر. والكفر كلمة نابيةٌ تَنْفُرُ مِنْهَا النفس، فلماذا لم يقل: (أأشكر أم لا أشكر) مَعَ أن المَعْنى واحد، لكِن هَذِهِ أهونُ؟

قُلْنَا: لأجلِ رَدْعِ نفسِه عن المخالفةِ وعدم القيام بالشكر، حَتَّى يُبيّن لنفسه أَنَّهُ إذا لم يشكرْ فمعناه هُوَ الكفر، فلكلِّ مَقامٍ مقال، فقد تخاطب إِنْسَانًا ترى أَنَّهُ لم يشكرْ نعمة الله عليه فتَخْشَى إذا قلتَ: أنت كافر بالنعمة أن ينفرَ منك ويزداد نفورًا حَتَّى من النعمة.

وإذا قلت: أنت لم تشكرْ تمامَ الشكرِ أو حقَّ الشكرِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وجدت أَنَّهُ أهون، والأساليب تؤثِّر.

يقال: إن مَلِكًا منَ الملوكِ رأى رؤيا فأَفْزَعَتْهُ؛ فقال: عليَّ بالعابرينَ. فأحضروا له العابرينَ، فقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سَقَطَتْ، فما ترونَ؟ فقام كَبيرُهم فقال: أرى أنَّ أَهْلَكَ سَيَمُوتون. فانزعجَ الملِكُ؛ فقال: أَوْجِعُوه ضربًا. فأوجعوه ضربًا، فقال: اتركوه، ثُمَّ دعا بمعبِّرين آخرينَ وقال لهم: إني رأيتُ أنَّ أسناني قد سقطتْ. فقام كبيرهم وقال: الملِكُ أطول أهلِهِ عُمُرًا. ففَرِح. مَعَ أن المَعْنى واحد؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ إذا ماتوا صار هُوَ أطولَهم عمرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ هل يجوز للإِنْسَان العاديّ أن يَقُول ذلك؟

فالجواب: يجوز للإِنْسَان العادي أن يَقُول: إن الله ما أعطاني هَـذَا الشَّيْء إِلَّا لأجلِ أنْ أشكرَ أو أكفرَ، فالْإِنْسَان العادي يجوز أن يَقُول هَذَا؛ لأَنَّنا لو قُلْنا بغيرِ هَذَا صار هَذَا خاصًّا بمثل مقامِ سُلَيْمان وَلَيْسَ كذلكَ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: فضل الله عَلَى العِبادِ مِن أَجْلِ ظُهُورِ أَثَرِ نعمتِه عَلَى العبادِ، فما وجه قولهم: «وهو الخالق وإن لم يوجدِ المخلوقُ»؟

فالجواب: قَصْدُهم أن الله جَلَّ وَعَلَا خالقٌ بمعنى أن هَذِهِ الصِّفة صفة له قبل أن يوجدَ المخلوقُ، كما أن الله تَعَالَى متَّصِف بالكَلام مَعَ أَنَّهُ يتكلم بمشيئته، فَهُوَ متَّصف بالخلق مَعَ أَنَّهُ يخلق بمشيئته.

فالحاصل: أن التعبير له دخل فِي قبول الحَقّ والنفور منه، وقد تقدمتْ قِصَّة

إبراهيم ﷺ حَيْثُ قَالَ لأبيه: ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣]، ما قَالَ: أنت جاهل ولا تدري ولا تعرف ﴿إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣]، وهَذَا فضل الله يُؤْتِيهِ مَن يشاء، وبعضُ النَّاسِ يَهَبُه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قُدْرَةً عَلَى التعبيرِ حَتَّى إن العبارات تكون بيدِه كالعجينِ، يُلان له القَوْل فِي كُلّ ما يريد، فتجده يستطيع حَتَّى لو أراد أن يُخْرِجَ لسانه كلمة لا يريدها بسرعة يجد بدلها، وبعض النَّاس لا يستطيع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَهَبُ فَضْلَهُ مَن يشاءُ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عن شُكْرِهِ ﴿كَرِيمٌ﴾ بالإفضالِ عَلَى مَن يَكْفُرُها]، يعني مَن كفر ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾: غنيٌّ عن شُكْرِه صَحِيـح، أو غني مُطلقًا، ومِن جملة ما هُوَ غنيٌّ عنه شُكْرُ هَذَا الإِنْسَانِ عَلَى نعمةِ اللهِ، فإن الله تَعَالَى ما أنعمَ عَلَى العبادِ لحاجتِهِ إِلَى أن يَشْكُرُوهُ، بل لِفَضْلِهِ عليهم وظهورِ آثارِ أوصافه، وظهور صفاته العظيمة ما يكُون إِلَّا بأفعالِه الَّتِي من جُمْلتها النعم أو النِّقَم أيضًا، لِتَظْهَرَ بذلك صفاتُ الانتقامِ والغضبِ.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: أَنَّهُ قد يُبْقِي النعمةَ عَلَى مَن كَفَـرَها تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استدراجًا، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ يَهَبُ فضلَه مَن يشاء، قد يُبْقِي اللهُ النعمةَ عَلَى الكافرِ بها استدراجًا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٢].

وقد يُبْقِي الله تَعَالَى النعمَ مَعَ الكفرِ تَرْبِيَةً، بحَيْثُ إِنَّ الإِنْسَان يفتحُ الله عليه التأمُّل فيخجل من الله عَزَّوَجَلَّ أن يَكُون هُوَ يبادرُ الله تَعَالَى بالمَعاصِي، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُدِرُّ عليه النعمَ، فيَرْتَدِع، وهَذَا هُوَ ظاهر قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾؛ لِأَنَّ الكرم فِي مقابل الكفر

لا يَكُون إِلَّا حَيْثُ يَكُون ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافرِ بها، وإلَّا ما ظهر آثار الكرمِ، بل ظهر آثار الحِكْمَةِ، لو قَالَ: حكيم صار هَذَا يشمل من تدرّج الله به حَتَّى أهلكه، لكِن كريم: ما يَتِمّ الكرم للكافر بالنعمة إِلَّا حَيْثُ كَانَ إبقاء النعمة عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ جنودَ اللهِ تَعَالَى وهم الملائكةُ، أَقْوَى من الجنّ؛ لِأَنَّ ذاك قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، وهَذَا قَالَ: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فأيُّهما أسرعُ؟

الأخير بلَا شَكّ، ولا سواء؛ لِأَنَّ الَّذِي عنده علمٌ منَ الكتابِ عالمٌ ولا وسيلة له إِلَّا بالدعاءِ، والظَّاهر أَنَّهُ رجلٌ ولَيْسَ من الجنّ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مفصولة عن قوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والأَصْل أن الكَلام مَعَ الإنس، ولأن كُلّ قائل لَيْسَ من البشرِ لَا بُدَّ أن ينوّه عنه؛ لِأَنَّ الأَصْل أن البشرَ هم الَّذِينَ يتخاطبون، وهم الَّذِينَ يتفاهمون، فإذا كَانَ من غيرهم نوّه عنه مثلما نوّه عن الجنِّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كمالُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ كون هَذَا العَرْش العظيم يأتي من اليَمَنِ إِلَى الشامِ فِي لحظةٍ، لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قُدرة الله الَّتِي لا يتصوّر الْإِنْسَان كيف تكون، الْآنَ هل يمكن أن نتصوّر كيف يجيء بهَذَا العَرْش مِنَ اليمن إِلَى الشام قبل أن يرتدّ للإِنْسَان طرْفه، لو كَانَ يطير طيرانًا أشدّ من الدُّخَان ما يتصور أَنَّهُ يأتي بهَذِهِ السرعةِ، ولا نتصور أن الْأَرْض طويت طيًّا حَتَّى التقى هَذَا بهَذَا أيضًا، فقُدْرَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمْكِن للإِنْسَانِ أَنْ يَتَصَوَّرَهَا، فتأتي فوق التصوّر، وهَكَذَا جميعُ صفاتِ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، بقوله: (كُنْ) فيصير جميع الخلائق كلهم عَلَى ظهر الْأَرْض، مَن يتصور هَذَا؟! لا تستطيع أن

تتصوره، يعني أن الْإِنْسَان لا يتصور أن الْأَرْض تتفتح وتتشقق بـ(كن)، فالمهمّ أن هَذَا نموذج من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي عجز العقل مهما بلغ عن إدراكِ كُنْهِ قُدرةِ الله، وكذلك بقية صـفاتِه، فأنتَ أيُّها الْإِنْسَان عِلْمُـكَ محدودٌ، وطاقتك محدودةٌ، ولا يمكنُ أن تتجاوزَ أكثرَ ممَّا تشاهِد أو ممَّا أَطْلَعَكَ اللهُ عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فضلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سُلَيْمان، حَيْثُ سَخَّـر له أهلَ العلمِ والجنّ؛ الجنّ فِي أوّل الأمْر وصاحب العلم بَعْد ذلك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: هل قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ مبالغةٌ أو حقيقةٌ؟

نَقُول: حقيقةٌ، وإلا لقُلْنَا: إِنَّهُ يجـوز المبالغةُ فِي الأُمُورِ، ولكِن عَلَى كُـلّ حالٍ المبالغةُ فِي الأُمُورِ قد وردتْ فِي غيـر هَذَا النصّ؛ أَنَّ الْإِنْسَان يبالغُ وإنْ كَانَ لَيْسَ مقصودًا عَلَى سبيـلِ الحقيقةِ، وقد جاء ذلك فِي الْقُرْآن وَفِي السنَّة أيضًا؛ المبالغة فِي الأُمُور.

• • ۞ • •

الآيــة (٤١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١].

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي: غَيِّـروه إِلَى حالٍ تُنْكِره إذا رأَتْه]، والتنكيرُ يحصُل بتغييرِ أَدْنَى صفةٍ من صفاتِه، فإذا كانتْ قوائمُه طويلةً يمكن أن يقصر القوائم فيكُون تنكيرًا، إذا كَانَ لون إحدى عواضده مثلًا أحمر فيمكن أن نجعله أخضرَ، يعني سواء هَذَا التنكير بالأجزاءِ أو باللونِ أو بالفرشِ الظَّاهرُ أن هَذَا داخلٌ فِي التنكيرِ. وقوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿نَكِّرُوا﴾ فعلُ أمرٍ، ﴿نَنظُرْ﴾ مجزوم عَلَى أَنَّهُ جواب الأَمْر.

قوله: ﴿نَكِّرُوا﴾ انظر العظمةَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿نَكِّرُوا﴾ ولم يوجِّهِ الخطابَ إِلَى شخصٍ معيَّن، وهو ما يَدُلّ عَلَى أن كُلّ جنوده فِي طاعتِه؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ يَخشَى أن أحدًا من الجنودِ يَتَمَرَّد لكان يوجِّه الخطاب إِلَى شخصٍ معيَّن لأجل أن يُحْرِجه فلا يستطيع أن يقولَ: لا، وهَكَذَا عظمـةُ السلطانِ تكون بمثـل هَذَا، فعندما يَقُول السلطان أو الأمير: القهوة يا ولد، فكُلّ الحاضرين يَفْزَعُون: قهوة قهوة، وتأتيه بسرعة. ففي قوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ نَقُول: هَذَا خطابُ عَظَمَةٍ، ولهَذَا قَالَ: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾ إمَّا أَنَّهُ يقصد نفسه ويَكُون تعظيمًـا، أو مَعَ جنوده وحاشيته ينظرون جميعًا ﴿أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهَذَا كله أيضًا من أساليبِ الاختبارِ الَّذِي يَخْتَبِرُ به سُلَيْمَـان هَذِهِ المَرْأَةَ كمـا اخْتبَرَهَا أيضًا فيما يأتي فِي مسألةِ الصَّرْح.

وأمّا قول المُفَسِّر وغيره: إن رِجلها رِجل حِمار، فهَذَا من الإسرائيليات المكذوبةِ، فَقَدَمُها كَقَدَمِ غَيْرِها.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إِلَى مَعْرِفَةِ ما يُغَيِّـر عليهم، قصدَ بذلكَ اختبارَ عَقْلِـها لمّا قيل له: إن فِيهِ شيئًا، فغَيِّـرُوهُ بزيادةٍ أو نقصٍ أو غير ذلك].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تَزَوَّجها سُلَيْمان؟

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هِيَ جَديرة بأن تُزَوَّج؛ لِأَنَّهَا أسلمتْ وكانتْ ذكيَّة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: التحدُّث بنعمةِ اللهِ تَعَالَى بإضافة النعمة إليه، لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ وهَذَا هُوَ الواجب شرعًا والمقتضَى عقلًا؛ لِأَنَّ إضافة النعمِ إِنَّمَا تكون إِلَى مُسْدِيها ومُولِيها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ والثَّالثةُ: إثبات التعليل لأحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكونيَّة كما ثبت ذلك فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّة، يُؤخَذ من اللامِ لِأَنَّهَا للتعليلِ، ففيه دليلٌ عَلَى تعليلِ أحكامِ اللهِ الكونيَّة، كما أَنَّ أحكامَه الشَّرْعِيَّة كذلك مُعَلَّلَة، ويَتَفَرَّع عَلَى هَذِهِ الفائدة: الردّ عَلَى الجَهْمِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إنَّ فعلَ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ مُعَلَّلًا، إِنَّمَا يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فعلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختبار المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمرِه؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ

ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يجوزُ اختبارُه وإنْ كَانَ الْمُخْتَبِرُ يَعْلَمُ مآلَهُ، هل يمكن أن نأخذَ هَذِهِ الفائدةَ أو نَقُول: إن هَذَا خَاصٌّ بما يتعلق باللهِ؟

نَقُول: أَمَّا بالنِّسْبَةِ للهِ فهَذَا أمر واقع، لكِن بالنِّسْبَة للإِنْسَانِ فقد تختبر الْإِنْسَان وأنت تعرف مآلَه، هَذَا يُنظر فِيهِ إِلَى المصلحةِ، قد يَكُون محرَّمًا كما لو أردتَ أن تُظْهِرَ ضعفَه أمامَ النَّاسِ وتُخْجِلَه، وقد يَكُون واجبًا كما لو كَانَ إِنْسَانًا داعيةً إِلَى ضلالةٍ وأردتَ أنْ تَخْتَبِرَهُ لِيَتَبَيَّنَ أمرُه للناسِ، وأنت تعرف أَنَّهُ لَيْسَ عنده جواب لما اختبرتَهُ به، لكِن تريد أن تُظْهِرَ للناسِ أمرَه، فَهُوَ بالنِّسْبَةِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ممدوحٌ كلُّه؛ لِأَنَّ الله يعلم المآلَ، لكِن بالنِّسْبَةِ للإِنْسَانِ فاختباره عمّا يعلم مآله عَلَى حسَب المصلحة والفائدة.

وفي هَذَا إشكال أَنَّهُ حَيْثُ قد يقال: أليس الله تَعَالَى يعلم بما يؤُول إليه الأَمْرُ؟

فالجواب: بلى.

إِذَنْ: ما فائدةُ الاختبارِ وَهُوَ يعلم؟

لِيَتَرَتَّبَ الجزاءُ عَلَى ظاهرِ الحالِ؛ لِأَنَّ الله لو جازى الْإِنْسَان عَلَى ما يعلم من حالِهِ قبل أن يَبْلُوَهُ لكانَ ذلك ظُلْمًا فِي ظاهرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تبيَّنَ الأَمْرُ، فيَكُون هنا الفائدة عظيمة؛ وهي ظهور أثر هَذَا الشَّيْءِ للناس، وَأَنَّهُ لَيْسَ بظُلْمٍ منَ اللهِ تَعَالَى إذا خالف، وظهور أيضًا نعمة الله عَلَى العبد العاملِ إذا أطاع حَيْثُ يشكر الله سعيَه.

فالحاصل: أن الابتلاءَ بمثل هَـذِهِ الأُمُور نَقُول: فائدته أن يجريَ الجزاء عَلَى ظاهرِ الحالِ، لا عَلَى علمِ اللهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقد يُؤْخَذ منه أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَهُوَ أحكمُ الحاكمينَ لا يحكم بمجرَّد العلمِ حَتَّى تظهر الآثار، فالقاضي من باب أولى.

وهَذَا ذكر أهل العلم أَنَّهُ لا يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه؛ لقول النَّبِيّ ﷺ: «**إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ**»(١).

هَذِهِ الفائدة قد يقال: إِنَّهَا تُؤْخَذ، وقد يقال: إن هَذَا توسُّع فِي الاستدلالِ وإن هَذِهِ الفائدة لا تُؤْخَذ من هَذِهِ الآية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُخاطِبَ نفسَه بما تَقْتَضِيهِ الحالُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فإنَّنا ذكرنا أن قوله: ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾ هَذِهِ العبارة شديدةٌ من أجلِ أنْ يَرْدَعَ نفسَه عن ممارسةِ كفرِ النعمةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الإِنْسَان الَّذِي يشكرُ اللهَ لَيْسَ يُسْدِي إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفعًا، أو يَدْفَع عنه ضررًا، وإنما هُوَ إذا شكر فَإِنَّمَا يشكر لنفسِهِ، فالمصلحةُ لنفسِه وليستْ للهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الشاكرَ يُثاب؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يقلْ: (عن نفسه)، فدلَّ ذلك عَلَى أن للشاكرِ ثوابًا يُجازَى به، وَهُوَ كذلك.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن العاملَ عَمَلُه له، وَلَيْسَ لغيرِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحيل، باب إذا غصب جارية فزعم أَنَّهَا ماتت فقضي بقيمة الجارية الميتة ثم وجدها صاحبها فهي له ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمنًا، حديث رقم (٦٥٦٦)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة، حديث رقم (١٧١٣)، عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

لِنَفْسِهِۦ﴾، إِلَّا أَنَّهُ قد يُؤْخَذُ منه مُقَاصَّةً، كمـا جاء فِي الحديث الصَّحيح[1] فِي المفلِسِ الَّذِي يأتي يوم القيامة بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ وقد ظَلَمَ هَذَا وأخذَ مالَ هَذَا، فيأخذ هَذَا من حسناتِهِ، وهَذَا من حسناتِه، وإِلَّا فثوابك لك، ما يُمْكِن أن أحدًا يعتدي عليه أبدًا أو يأخذه، فهُوَ مدَّخر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والصدقةُ عن الميِّت من عملك؛ لأنك أنت الَّذِي اخترتَ أنْ يتحوَّلَ إِلَى هَذَا الميت ولكِن لا يؤخَذ منـك، وَأَمَّا إذا أردتَه أنت فهَذَا مـن عملِكَ؛ لِأَنَّ عَمَلَكَ قد تريده لنفسك أو لغيرِكَ، وهَذَا أيضًا مقيَّد بما جاءتْ به السنَّة.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ ما قَالَ: ومَن كفر فإِنَّما يَكْفُرُ عَلَى نفسِهِ كما قَالَ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ رحمة الله تَعَالَى سبقتْ غَضَبَه، وإِلَّا فالحقيقة أَنَّ مَن كفرَ فعلى نفسِه، مثلمـا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، لكِن أحيانًا يَكُونُ السياقُ يَقتضِي خلافَ ذلك، فهنا يَقُول: ﴿مَن كَفَرَ﴾ فإِنَّهُ لا يضرُّ اللهَ شيئًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى غنيٌّ عنه وعن شُكْرِهِ، وَهُوَ مَعَ ذلك كريم، قد يجود عَلَى الكافرِ بالإمهالِ لعلَّه يشكر، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لِأَنَّهُ أضاف الشكرَ إِلَى نفسِه، وَلَيْسَ فِي الآية ردٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ هَذَا من فعل اللهِ، فالعطاءُ من فضلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهُوَ لا يتحدَّث عن عَمَلِهِ، لم يَقُلْ: إِنَّ عملي منَ اللهِ، بل قَالَ: هَذَا العطاءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

• • ○ • •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البـر والصلاة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَف به ذكاؤُه وفِطْنَتُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾، وقد سبقَ أن المُراد بِتَنْكِيرِهِ تغييرُه، والعِلَّة فِي ذلك قوله: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ أتعرِف أمْ تكون من الَّذِينَ لا يعرفون، وكيف تعرف أو لا تعرف؟

لِأَنَّهُ لو بَقِيَ العَرْش عَلَى ما هُوَ عليه لعَرَفَتْهُ، ولو غُيِّرَ نهائيًّا لكان لها العُذْر فِي أَلَّا تَعْرِفَه، ولكِنه إذا غُيِّرت صِفَتُه وبقِي أصلُه حينئذٍ يُعْرَف به ذكاؤها هل تعرفه، والمقام فِي الحقيقة هنا مقام مُدْهِش، لَيْسَ مقامًا عاديًّا طبيعيًّا؛ لِأَنَّهَا هِيَ سوفَ تَستبعد أن يُؤتَى بعرشها وَهُوَ محفوظ فِي مكانه ومحروسٌ ثُمَّ يُؤتى به إِلَى سُلَيْمان، ثُمَّ أيضًا لعلَّها حسَب الطبيعةِ والعادةِ تَستبعِد جدًّا أن يَسبقَها العَرْش، مَعَ أن الظَّاهِرَ أَنَّهَا أتتْ إِلَى سُلَيْمان بأسرعَ ما يمكنُ منَ السيرِ.

فعَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا التنكيرُ سوفَ يَدُلّ عَلَى دهائِها وعقلها، والأَمْر سيأتي بَيَانه إن شاء الله قريبًا.

وقوله تَعَالَى: ﴿أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ مثل قولِه للهدهد: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧]، ما قَالَ: أم لا تهتدي، بل قَالَ: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وفي هَذَا الامتحانِ أيضًا إشارةٌ إِلَى أَنَّهَا إذا كانتْ تعرِفُ عرشها مَعَ تغييرِه فكيف لا تعرف أن الَّذِي يَستحِقُّ العِبادَة هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّهَا هِيَ وقومها يسجدون للشمسِ من دونِ اللهِ كما مرَّ، فإذا كانتْ هِيَ تعرف عرشها مَعَ تنكيرِهِ فَإِنَّهُ

لَا شَكَّ أنَّ مَعْرِفَتها بأنَّ الله تَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادة من باب أَولى، فهَذَا وجهٌ من أوجهِ الاختبارِ فِي هَذِهِ القصّةِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل تصرُّف سُلَيْمان فِي عرش ملكةِ سبأ جائز؟

فالجواب: يجوز للمصلحةِ، أي لمصلحةِ الغيرِ؛ لِأَنَّ هَذَا التصرُّف لمصلحتها هي، وقد يقال: إن سُلَيْمان ﷺ تَصَرَّفَ فِيهِ بناءً عَلَى أَنَّهَا لم تُظْهِرْ إسلامَها بعدُ، وأنها إِلَى الْآنَ وهي فِي حربٍ، فلم يَسْتَقِرَّ الأَمْر بَعْد وإِلَى الْآنَ ما عَلِمَ ولا تحقّق، مَعَ أَنَّهُ يقولُ: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، لكِن قد يَكُونون مسلمينَ لله أو مستسلمينَ له.

وَعَلَى كُلّ حالٍ: لا يُحْكَم عليها إِلَّا بَعْد أن تُظهِر إسلامها.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٢)

• • ꕥ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢].

• • ꕥ • •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ﴾ لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي: أَمِثْلُ هَذَا عرشك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فعرَفتْه].

قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ يَعْنِي: إِلَى سُلَيْمَـان ونظرتْ إِلَى العَرْش قيل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ والقائل إمَّا سُلَيْمَـان أو أحدُ جُنُودِهِ، ولم يُبَيَّنْ؛ لِأَنَّ المقصـودَ معنى هَذَا القَوْل دون قائله.

وقوله: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ الاسْتِفْهام هنا عَلَى حقيقتِه، والمُراد به الاستخبار، والهاء للتنبيه، والكاف حرف جرٍّ، حالتْ بين هاء التنبيه واسم الإشارةِ، مَعَ أن هاء التنبيهِ تَقْتَرِنُ باسمِ الإشارةِ، لكِن الكاف تَحُول بينها وبينَ اسمِ الإشارةِ لمباشرةِ حرفِ الجرِّ للمجرور، ولكِن أيضًا هُوَ خَاصّ بالكافِ، لو أَنَّك أتيتَ بحرفِ جرٍّ سِوَى كافٍ ما جازَ أنْ تَفْصِلَ بينه وبينَ اسمِ الإشارةِ، لو قلت مثلًا: (أهلذا) حضرتَ؟ لا يصحُّ، يعني ما يُفصَل بيـن اسمِ الإشارةِ وبيـنَ هاءِ التنبيـهِ بأيِّ حرفٍ من حروفِ الجرِّ إِلَّا بالكاف فقط.

إِذَنْ نَقُول: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ الجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّمٌ، وعرشك مبتدأ مؤخَّر،

وتقديم الخبر هنا جائز وليس بواجبٍ؛ لأجل الاسْتِفْهامِ؛ لِأَنَّ له الصَّدارَةَ.

وهنا ما قَالُوا: أهَذَا عرشك؟ بلْ قَالُوا: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ يعني هل عَرْشُكِ مثل هَذَا؟ هِيَ أجابت بمثل ما سُئِلَتْ عنه، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ و(كأنَّ) للتشبيهِ، ولم تقل: إنَّهُ هُوَ، ولم تنفِ السَّبَب لأَنَّهُ مشابِهٌ لعرشها من حَيْثُ الأَصْلُ، ومخالِف له من حَيْثُ الصِّفةُ؛ لِأَنَّهُ غُيِّر، وهَذَا أيضًا من ذكائها أَنَّهَا لَمَّا وقع فِي نفسها أَنَّهُ عرشها لكِن تغيَّرتْ صِفته قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ والجوابُ مطابِقٌ للسؤالِ، والمُفَسِّر سَلَكَ فِي هَذَا مَسْلَكًا غريبًا؛ قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فعَرَفَتْه وشَبَّهَتْ عليهم كما شَبَّهُوا عليها، إذْ لم يَقُلْ: أهَذَا عَرْشُكِ؟ ولو قيل: هَذَا لقالتْ: نعمْ]، قوله: شَبَّهَتْ عليهم، أي: لَبَّسَت عليهم، وَلَيْسَ المُرادُ التشبيه، وجوابها مطابِق للسؤالِ ومطابِقٌ لِمُقْتَضَى الحالِ، أَمَّا مطابقته للسؤالِ فلأنه قيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ يعني أهو مثل هَذَا؟ فكَانَ الجواب: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، وَأَمَّا مطابقته لمقتضى الحال فلأن المَرْأَةَ رأتْ أنَّ العَرْش قد غُيِّر، فلم تَجْزِمْ بِنَفْيِهِ ولم تَجْزِمْ بإثباتِه، فإن نُظِر إِلَى أصلِ العَرْش فَهُوَ هو، وإن نُظِرَ إِلَى صِفَتِهِ فليسَ إيَّاه، لذلك كَانَ جوابها جيدًا جدًّا، وَلَيْسَ فِيهِ تشبيه كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ولو قَالُوا: أهَذَا عَرْشُكِ، لا ندري هل تقول: نعم أو تقول: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾؟

وجَزْمُ المُفَسِّر بأنها تقول: نعم، لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ المَرْأَة ذكيَّة جدًّا، والإِنْسَان إذا حصلَ له مثل هَذِهِ الحالِ فإنه لا يَجْزِم بأن ما شاهده هُوَ ما كَانَ يعرفه من قبل، بل إنَّ مُقْتَضَى الحزمِ والتحرُّز أن يقولَ: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾، هَذَا مُقْتَضَى الحزمِ، لا سيما مَعَ القرائنِ الَّتِي تُبْعِدُ أنْ يَكُونَ إيَّاه كما فِي هَذِهِ القصةِ، فَإِنَّهُ عرش محُوط محْرُوس من مكانٍ بعيدٍ، فيَبْعُد أن يَمْثُلَ أمامها فِي هَذِهِ الحالِ.

المهمُّ الْآنَ أننا نأخذ من جوابها هَذَا ذكاءها من وجهينِ:

أولًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ للسؤال.

وثانيًا: أَنَّهَا أجابتْ بجوابٍ مطابِقٍ لمقتضَى الحالِ؛ إذ الجزمُ بهَذَا تسرُّع، ونفيه تباطُؤٌ أيضًا لاحتمالِ أنْ يَكُونَ إيَّاه.

ثم قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قال سُلَيْمان لَمَّا رأى لها معرفةً وعِلْمًا: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾]، ووجهُ ارتباطِ هَذِهِ الجملةِ بما سبقَ أن سُلَيْمان أرادَ أنْ يَتَحَدَّثَ بما أنعمَ اللهُ به عليه منَ العلمِ، والعلمُ يشمـلُ العلمَ الشَّرْعِيَّ ويشمـلُ العلمَ بقواعدِ المُلْكِ ومُثَبِّتَاته، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يَعْنِي: كَأَنَّ الملأ من قومه لَمَّا رأَوْا ما رأوا من ذكائها ومعرفتها وتحرُّزها وتثبُّتها رأوا أمرًا عظيمًا، فأراد سُلَيْمان ﷺ أن يُذَكِّرَهُمْ بما هُوَ أعظمُ من ذلك، وَهُوَ ما آتاهم الله تَعَالَى منَ العلمِ السابقِ والإِسْلامِ ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ويرى بعـضُ المفسِّـرين أن قوله: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ من قول المـرْأة وأن المسألةَ متَّصِلة، ويَكُون قوله: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أي: من قبل هَذِهِ القضـية، أي أننا عندنا علم من قبلِ هذه القضيةِ، فلا تعجبوا من عِلْمِنَا بهَذَا فإنَّ لنا عِلمًا سابقًا، ولكِن هَذَا الاحتمال وإن ذُكِرَ بعيدٌ، والصَّوابُ أنَّ هَذَا من قول سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يتحدث فِيهِ بنعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه وَعَلَى قومه السابقة لمعرفة هَذِهِ المَرْأة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن قولـه: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾ يـدُلّ عَلَى أن قائـل: ﴿أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ هُوَ سُلَيْمان ﷺ لا أحد جنوده؟

فالجواب: مُحْتَمَل، لكِن لا يَتَعَيَّـن من قوله: ﴿وَأُوتِينَا﴾؛ لِأَنَّهُ قد يقوله أحـد جنوده، ثُمَّ يتكلم سُلَيْمـان بَعْد ذلك بعدَما تَحْصُل هَذِهِ المشاهدةُ، فيقول: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّوْرِيَة فِي الكَلامِ، وَهُوَ أَنْ يُظْهِرَ الْإِنْسَانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ، فإن قولهم: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّ حقيقةَ الأَمْرِ أن العَرْش الَّذِي بين أيديهم هُوَ عرشها، فَكَانَ مُقتضى الاسْتِفْهام أَنْ يَقُولُوا: (أَهَذَا عرشُكِ؟) لكِن أَتَوْا بصيغة التورية لإبعاد الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ كونها عرشها قد تتسرَّع وتقول: لا؛ لِأَنَّهَا تَسْتَبْعِد أن يَكُونَ العَرْش قد حَضَرَ فِي هَذِهِ المدَّة وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ، فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الجوابَ يَنبغي أَنْ يَكُونَ مطابِقًا للسؤالِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ بالتشبيه ولم تقلْ: هو.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذكاءُ هَذِهِ المَرْأَةِ باحترازِها ممَّا يُخْشَى أَنْ يَكُونَ خطأً؛ لِأَنَّهَا لو قالتْ: لا، فقد يَكُون هو، ولو قالتْ: نعم، فقد يَكُون غيره، فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ فاختارتْ هَذَا للسببينِ اللَّذَيْنِ ذكرناهما فِي التفسير.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن يَتَحَدَّثَ بنعمةِ اللهِ تَعَالَى عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ لِأَنَّ الصَّحيحَ أنَّ هَذِهِ الجملةَ من كلامِ سُلَيْمان، وإن كَانَ بَعْضُهُم ذكرَ احتمالًا أَنَّهُ من كلامها، لكِن الصَّحِيح أَنَّهُ من كلامِ سُلَيْمَان، ولا يمكن أن يقالَ: إنَّ القائل هُوَ الله جَلَّ وَعَلَا، فاللهُ جَلَّ وَعَلَا لا يَصِفُ نفسَه بأنه مسلمٌ، ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ﴾ ولم يقل: وآتَيْنَا.

الآيـة (٤٣)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل:٤٣].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَصَدَّهَا﴾ عن عبادةِ اللهِ ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾]، إذن ﴿مَا﴾ فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إعرابها فاعل، يَعْنِي: صَدَّها الَّذِي كانت تعبد من دون اللهِ، ويَحتمِلُ أن تكونَ ما مصدريَّةً، أي: وصَدَّها كونها تَعْبُدُ من دون اللهِ، لَكِنَّهُ وإن كَانَ سائغًا لغةً لَكِنَّهُ لَيْسَ له مَحلّ هنا، فـ﴿مَا﴾ هَذِهِ اسْم موصول.

وَقِيلَ: إن ﴿وَصَدَّهَا﴾ الفاعل يعود عَلَى سُلَيْمان، أي أن سُلَيْمان مَنعها ما كانت تعبدُ من دونِ اللهِ، أي: منعها عمَّا كانتْ تعبدُ من دونِ اللهِ بسببِ ما رأتْ من المُلك العظيم الَّذِي لِسُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكِن الأوَّل أَوْلَى بالسياق أنَّ (ما) فِي قوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ فاعل، لكِن نحن لا بأسَ أن نذكرَ الاحتمالَ؛ لِأَنَّهُ ربما عند التأمُّل يَظهَر أن هَذَا الاحتمال صحيحٌ.

وقوله: ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ﴾ الَّذِي كانتْ تعبـدُ من دونِ اللهِ هو الشَّمْسُ، والعائدُ عَلَى ﴿مَا﴾ الموصولةِ محذوفٌ، والتَّقْديـر: (ما كانت تعبدُهُ من دونِ اللهِ)، و(صَدَّ) بمعنى صَرَفَ، ومناسبةُ قولِه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لِمَا سَبَقَ أَنَّهُ يُقال: إنَّهُ كالجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر وَهُوَ إذا كانت هَذِهِ المَرْأة بهَذَا الذكاء وهَذِهِ المعرفة فلماذا لم تَعْبُدِ اللهَ، مَعَ ظهور أنَّ العِبادَة لله وحدَه؟

فبيَّنَ أن الَّذِي صدَّها عن عبادةِ اللهِ أَنَّهَا اشتغلتْ من أوَّل أمرها بعبادة غيرِ اللهِ؛ لِأَنَّهَا كانت من قومٍ كَافِرِينَ، فنشأتْ فِي بيئةٍ كافرةٍ واشتغلتْ بعبادةِ المخلوقِ عن عبادةِ الخالقِ، وقد أخبرَ النَّبِيّ ﷺ: «إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[1].

فَكَأَن هَذِهِ المَرْأَة مَعَ كونها ذكيَّةً وفاهمةً وعندها احترازٌ وتحفُّظٌ، كأنها مَعَ ذلك إِنَّمَا عَدَلَتْ عن عبادةِ اللهِ مَعَ ظُهُورِها ووُضُوحِها لسببِ انشغالها بالباطلِ، والنفس لَا بُدَّ أن تكونَ مشغولةً إمَّا بالحقِّ وَإمَّا بالباطلِ، ولا بد أن تكون كاسبةً، إمَّا كاسبة حرامًا أو حلالًا، إن أخذتْ ما لا حقَّ لها فِيهِ فهي كاسبةٌ حرامًا، وإنْ أخذتْ ما لها حقٌّ فهي كاسبةٌ حلالًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ يعني بيئتها منذُ نَشَأَتْ وهم كافرونَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعبدون الشَّمْسَ، فلهَذَا اشتغلتْ بعبادةِ غيرِ الله عن عبادة الله. وسيأتي إن شاء الله ما فِي هَذِهِ الجملةِ من الفوائدِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْإِنْسَان لَا بُدَّ أن يشغلَ نفسَـه، أو لَا بُدَّ أن تكون النفس مشغولة إمَّا بحقٍّ وَإمَّا بباطلٍ، فهَذِهِ المَرْأَة انشغلتْ بالباطلِ عن الحقِّ، وقد قيل من الحِكَم: (إنْ لم تَشْغَلْ نفسَكَ بالحقِّ شَغَلَتْكَ بالباطِلِ). وَقِيلَ أيضًا: (الوقت كالسيفِ، إنْ لم تَقْطَعْهُ قطَعَكَ)، وهَذَا صحيح. وَفِي الحديث الصَّحيح أن النَّبيّ ﷺ قَالَ: «كُلُّكُم

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، حديث رقم (١٣١٩)؛ ومسلم، كتاب القدر، باب معنى كُلِّ مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، حديث رقم (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَّامٌ»[١]. فلا بدَّ للإِنْسَانِ أنْ يهمّ ويَعْمَل، لكِن إمَّا بخيرٍ أو بغيرِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن البيئة لها تأثيرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾، فهؤُلَاءِ القوم أَثَّرُوا عليها فصارتْ كافرةً تعبد مَعَ الله غيرَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التحذير من مُصاحبةِ الأشرارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ حَتَّى لو كانوا من أقارِبك فلا ينبغي أن تصاحبَهم، وإذا كَانَ لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهِمْ حقَّهم الَّذِي لهم، ولكِن لا تكن مخالِطًا لهم ومصاحِبًا لهم؛ لِأَنَّ النَّبِيّ ﷺ قَالَ فيما يُرْوَى عنه، وَهُوَ حديث حسنٌ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[٢]. وهَذَا شيءٌ واقعٌ، يَشْهَدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ.

مسألة: هل البيئة تُعتبَر عُذرًا للإِنْسَانِ؟

البيئة لا تعتبـر عذرًا؛ لِأَنَّ الواجبَ عَلَى الْإِنْسَان أن يفارقَ هَذِهِ البيئةَ، ولهَذَا وجبتِ الهجرةُ عَلَى مَنِ استطاع أن يهاجرَ، ولكِنَّ الرَّسُولَ لَمّا يقُول: «فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»[٣] فإنه يُخْبِـرُ، والخبـرُ لا يَلْزَم منه الجوازُ، فقد قَالَ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[٤] وهَذَا خبرٌ، فهل معناه أَنَّهُ يجوز أن نفعلَ؟! وقَالَ:

---

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (١/ ٥١٠): حديث كلكم حارث وكلكم همام، ذكره الحريري في صدر مقاماته وجعل معوله فيها ويقرب منه: «أصدق الأسماء حارث وهمام».

(٢) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم (٤٨٣٣)؛ والترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال بحقه، حديث رقم (٢٣٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٣٠٣) (٨٠١٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «لتتبعن سنن من كَانَ قبلكم»، حديث رقم (٦٨٨٩)؛ ومسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، حديث رقم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَقُومَ الظَّعِينَةُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ»[1]. فهل معنى ذلك أَنَّهُ يجوز للمرأةِ أن تسافرَ بدونِ مَحْرَمٍ؟ لا. فما أخبر به النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مما يقع لا يَلْزَم منه الجواز.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم (٣٤١٦)، عن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٤٤)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قِيلَ لَهَا﴾ أيضًا ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾]، والقائل كما قُلْنَا: مُبهم؛ إمَّا سُلَيْمان أو غيره، وهَذَا الصرح يَقُول المُفَسِّر: [هو سطحٌ من زُجاج أبيض شفَّاف، تحته ماء عَذْبٌ جارٍ، فِيهِ سمك اصْطَنَعَهُ سُلَيْمَـان لَمّا قيل له: إن ساقَيْها وقَدَمَيْها كقَدَمَي الحِمارِ]، أَمَّا قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه سطح من زجاج أبيض؛ فهَذَا صحيحٌ أنه سطح من زجاج أبيض، والأَصْل فِي الصرحِ أَنَّهُ البناء العالي كما قَالَ فرعون لهامان: ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦]، لَكِنَّهُ يطلق عَلَى السطح وإن لم يكنْ عاليًا، وهَذَا عبارة عن سطح من زجاج وتحته ماء، يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه جارٍ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الآيَةِ ما يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ جارٍ، لكِن أخذ كونه جاريًا من قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ لأَنَّ اللُّجَّة هِيَ أمواجُ البحرِ المتردِّدة؛ لِأَنَّ كُلّ شَيْء متردد يُسمَّى لجّة، ومنه: اللَّجَّة: تردد الأصوات وارتفاعها.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [فيه سمك]، لَيْسَ بشرطٍ أن يَكُون فِيهِ سمك؛ لِأَنَّ اللجة قد يَكُون فيها سمك وقد لا يَكُون، وقد يَكُون فيها سمك بعيدٌ لا يُرى.

وكذلك أيضًا قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه ماء عَذْبٌ، لا يوجد دليل عَلَى أَنَّهُ عذب ولا أَنَّهُ مالِح، فلا ندري. المهمُّ أَنَّهُ ماء، بدليل ما يأتي، والماء العَذْبُ يَبقَى فِيهِ السمكُ ما شاء الله، اللهمَّ إِلَّا إذا كانت هناك أسماك خاصَّة بالماء المالحِ، لا ندري.

المهم عَلَى كُلّ حالٍ: كُلّ هَذَا لا داعيَ له، حَتَّى لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَيْسَ تحته ماء، وإن هَذَا الزجاج يعطي كأنه ماء بسبب مثلًا أضلاع فِيهِ أو شَيْء آخر، لو قيل بهَذَا لم يكنْ بعيدًا؛ لِأَنَّهُ ما يَتَعَيَّن أن يَكُون تحته ماء، لكِن نحن إن تنازلنا وقُلْنَا: إن قوله: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ أي: زجاجًا شفّافًا، وكانت تظنه بحرًا.

وأما قوله: [لَّما قيل له: إن ساقيها وقدميها كقَدَمَي الحِمار]، يَقُولُونَ: إن الجنّ لّما أنَّ سُلَيْمان أَعْجَبَتْه هَذِهِ المَرْأَةُ همّ أنْ يَتَزَوَّجها فحَسَدُوها عَلَى ذلك، فقالوا له: إن قدميها وساقيها قدما دابَّة وساقا دابة، وجعلوها أيضًا حِمارًا لِأَنَّهُ أقبح، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، وإنما المقصود من هَذَا الصرحِ اختبارُ المَرْأَةِ أيضًا؛ لِأَنَّهُ لما قيل: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ هِيَ فِي الحقيقة إذا كانت تَحْسَبُه لُجَّة، فإذا كانتْ جبانةً لا تدخل أصلًا، وإذا كانت مُغَفَّلَةً دخلتْ وثيابها نازِلة، وإذا كانت حازِمة وشجاعة دخلت ورفعتْ عن ساقيها. ثُمَّ هِيَ أيضًا من ذكائها أَنَّهَا تعلمُ أَنَّهَا ما أُكرمت وَقِيلَ لها: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾ وهي سَتُدْخَل فِي بحرٍ لجيٍّ يُغْرِقها، فعَلِمَتْ أن هَذَا البحرَ أن غايةَ ما فِيهِ أن يصل إِلَى رُكْبَتِها أو نحو ذلك، وَأَنَّهُ لا يمكن أن يَكُونَ بحرًا لُجِّيًّا عَميقًا؛ لِأَنَّهَا قيل لها عَلَى سبيلِ الإكرام: ﴿ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ﴾، فالمهمُّ أن هَذَا أيضًا اختبارٌ ثانٍ لذكائها وحَزْمها وشجاعتها. وَأَمَّا أن رجلها رِجل حمارٍ فهَذَا كذِب بلَا شَكّ، والأَصْل فيها أَنَّهَا امرأةٌ مثل بنات آدمَ لَيْسَ فيها شيءٌ من هَذَا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ منَ الماء ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾]، وهَذَا

لَا شَكَّ أَنَّهُ يَدُلّ عَلَى حَزمها وقوّتها وشجاعتها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان الغريب إذا حصل له مثل هَذَا الأَمْر قد يتوقف ويقول: ما أدري، أَخْشَى أنْ يَخْدَعُوني فأقع فِي هَذَا وأموت، لَكِنَّها قويَّة وحازمة أيضًا، أقدمتْ عَلَى الدخولِ لكِن مَعَ الاحترازِ عن الأذيَّة؛ حَيْثُ رفعت عن ساقيها.

والرفع عن الساقين قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: يُؤخَذ منه جواز إظهار المَرْأَة لساقيها؟

فَنَحْنُ نَقُول: أولًا لا يؤخذ منه ذلك؛ لِأَنَّهُ هنا فعلته للحاجة، وكشف المَرْأَة ساقيها للحاجة لا بأس به، حَتَّى فِي شريعتنا إذا احتاجت المَرْأَة إِلَى كشف ساقيها فِي مثل هَذِهِ الحالِ فلا حرج فيه؛ لِأَنَّ ما حُرِّم تَحْرِيمَ الوسائل تبيحه الحاجات، كما هُوَ مُقَرَّر فِي علمِ الأصولِ.

ولهَذَا يجوز النظرُ إِلَى العورة لأدنى حاجة، حَتَّى إِنَّهُم قَالُوا: يجوز أن يحلق عانة مَن لا يُحْسِن حلق عانتِه، وهَذَا بالضَّرورَة سوف يَكشِف العانة لتحلقَ.

فالحاصل: إن كانت شريعة سُلَيْمان تُبيح مثل ذلك فلا دلالة فيه، وإذا كانت لا تُبيحه فَإِنَّهُ أيضًا لا يخالف شريعتنا؛ لِأَنَّ الحاجة هنا تدعو إليه.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لتخوضه، وكَانَ سُلَيْمـان عَلَى سريره فِي صدر الصرح فرَأَى ساقيها وقَدَميها حِسانًا]، اطمأنَّ الْآنَ الرجلُ! ولَكِنَّهَا لَيْسَ كما قَالَ الْمُفَسِّر، لَيْسَ الغرض من هَذَا أن يَتبَيَّنَ لسُلَيْمان هل رجلها رجل حمار أو رجل آدميَّة، لا، الغرضُ أن يَعْرِف بهَذَا ذكاءَها وفِطْنتها وشجاعتها، وكلّ ما تدلُّ عليه هَذِهِ الصورةُ من معنى يعود إِلَى المَرْأَة فَإِنَّهُ يريده سُلَيْمان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّس ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زُجاج]،

هَذِهِ الجملة أيضًا تفيد أَنَّهُ قُصِدَ به مَعَ اختبارها وامتحانها إظهارُ عظمةِ مُلك سُلَيْمان، مثلما قُصِدَ بإحضارِ العَرْش هَذَا المقصد ﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ فتبين بذلك أمران:

أحدهما: عظمة مُلك سُلَيْمان، حَيْثُ إن الزجاج يُصنَع له حَتَّى يَكُون كالبحرِ اللُّجِّيِّ.

وثانيًا: الإشارة إِلَى أن هَذِهِ المَرْأَة وإن كانت ذكيَّة وعاقلةً وحازمةً فإنها يَخْفَى عليها الأَمْرُ؛ لِأَنَّهَا حَسِبَتْ أن هَذَا الزجاجَ لُجَّة منَ الماءِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، ففيه نوعٌ من إظهارِ ضَعْفِها أيضًا، حَيْثُ إِنَّهَا ظَنَّت الأَمْر عَلَى خلافِ ما هُوَ عليه، وسيأتي إن شاء الله تَعَالَى فِي فوائد الآيات.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ حينئذٍ عرفتْ مكانَتَها وعرفتْ مكانةَ سُلَيْمان، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ودعاها إِلَى الإِسْلام]، لَيْسَ فِي الآيةِ ما يَدُلّ عليه، بل إن الظَّاهر أَنَّهَا بما شاهدتْ ألجأها ما شاهدته إِلَى أنْ تُسلِمَ؛ لِأَنَّهَا شاهدتْ أمورًا منها: إتيان عرشها، ومنها: هَذَا الصرحُ العظيمُ الممرَّد مِنَ القوارير، ومنها أيضًا: أن سُلَيْمان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَخْبَرَهَا بعظمتِه وقُوَّتِه، حَيْثُ إنَّ هَذَا الصرح الممرَّد من القوارير وَلَيْسَ ماءً.

حينئذٍ اعترفتْ فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بعبادة غيرك]، وعبادة غيرِ اللهِ من أعظمِ الظلم، قَالَ الله تَعَالَى عن لقمان حين قَالَ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ لِأَنَّ أعظم الظلم أن تَتَسَلَّط عَلَى مَن حقّه أبين وأوضح، ولا أبين وأوضح من حق الله عَلَى العبادِ، لهَذَا كَانَ الشرك أظلم الظلمِ.

فعندما تخاصم إِنْسَانًا وأنت تعرف أن الحَقّ له لا لك تُعَدُّ ظالمًا، وعندما يشتبه عليك الأَمْر بحيث ترجح ثمانين فِي المِئَة أَنَّهُ له، وعشرين فِي المِئَة أَنَّهُ لك، يَكُون هَذَا الظلم أخف من الأول، وعندما يَكُون خمسين فِي المِئَة لك وخمسين فِي المِئَة له يَكُون أخف من الثاني، وعندما ترجح ثلاثين فِي المِئَة له وسبعين لك يَكُون أخف وهَكَذَا.

فالمهم: أن الظلم يَكُون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحَقّ وبَيَانه، وأظهر الحقوق وأبينها عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيَكُون أظلم الظلم الإشراك مَعَ الله؛ أن تشرك مَعَ اللهِ أحدًا، ولهَذَا تقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾.

إِذَنِ: النفس عندك أمانة، يَجِب عليك أن تسعى لها بما فِيهِ خيرُها، فأنت يَجِب أن تسعى لنفسك بما هُوَ خيرٌ لها، فإن تجرَّأتَ عَلَى ما لَيْسَ لك فقد ظلمتَ نفسَكَ، أو فرَّطت فيما يَجِب عليك، فقد ظلمتَ نفسَك، وإذا كنت لا تستطيع أن تَتَصَرَّف فِي بَدَنِكَ بما تريد فكيف تستطيعُ أن تتصرَّف فِي فِعلك بما تريد.

فلو أن إِنْسَانًا قَالَ لشخصٍ: أنا سأعطيك إصبعي اقْطَعْه وضَعْهُ فِي يدِكَ الَّتِي نَقَصَ مِنْهَا إصبعٌ، فلا يجوز، فهَذَا حرام، ولو قَالَ: سَأَقْلَعُ عيني لك وضعها فِي عينك الَّتِي لا تَرَى فلا يجوز، ولو كَانَ لضرورةٍ، أَمَّا الدم فَإِنَّهُ يجوزُ التبرُّع به لِأَنَّهُ منفعة، أَمَّا الكُلَى فلا يجوز؛ لِأَنَّهُ ضررٌ عليك، ولا تفكِّر أن الله جَلَّ وَعَلَا يخلُق شيئًا عبثًا، وثانيًا لا يمكن أن يَكُون عمل كُلْيَةٍ واحدةٍ كعمل كُليتينِ، وثالثًا: لا يُؤْمَن أنْ يَلْحَق الكُلْيَة الَّتِي بَقِيَتْ عطَبٌ، المهمُّ أَنَّهُ إذا كَانَ هَذَا لا يمكن فِي جِسْمٍ مَآلُهُ إِلَى الفناءِ، فكيف يَكُون ذلك فِي الأفعالِ الَّتِي عليها مَدارُ سعادةِ العبدِ، فلا يجوزُ أن تتصرفَ فِي أفعالِكَ بما يعود عَلَى نفسِكَ بالضررِ، فإنْ فعلتَ فأنتَ ظالمٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ كائنة ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]، أفاد

المُفَسِّـر بتقدير كائنة أنَّ الظـرفَ فِي قوله: ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ فِي موضـع الحالِ، يعني أسلمتُ حالةَ كوني ﴿مَعَ سُلَيْمَـٰنَ﴾ للهِ ربِّ العالمينَ، وهنا تعتبـر مسلمة، فإذا قَالَ الرجل: أسلمتُ، ولو لم يَقُلْ: أشهدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ فقدْ أسلمَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، فإذا عبَّر الْإِنْسَان عن العَمَلِ بما يَدُلّ عليه من فعلٍ حُكِمَ عليه به، ولهَذَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ لإِنْسَانٍ: حلفتُ عليك أن تفعل كذا، صار يمينًا، لو لم يقلْ: واللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو قال: حلفتُ لا أفعل كذا، صار يمينًا، وإن لم يقل: بالله؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الفِعْل، فإذا قَالَ: أسلمتُ، صار إسلامًا، وإنْ لم يقلْ: أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأن مُحَمَّدًا رسول الله.

إِذَنْ: قوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فِيهِ أَنَّهَا أسلمـتْ إسلامًا كاملًا، حَيْثُ أقرَّت بألوهيَّة الله فِي قولها: ﴿لِلَّهِ﴾ وبربوبِيَّتِهِ الْعَامَّة فِي قولها: ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

قَالَ المُفَسِّر: [وأراد تَزَوُّجَهَا فكَرِهَ شعرَ ساقيها، فعَمِلَتْ له الشياطينُ النُّورَةَ فأزالتْه]، الحقيقة أن هَذِهِ مشكلة! بقِينا فِي الشعر وجاءتنا هَذِهِ البليَّة! يَقُول: [فعَمِلَت له الشياطين النُّورة]، والنورة تزيل الشعرَ، ويقال: إن أوَّل مَن عُمِلت له النُّورة ساقُ بِلْقِيس بأمرِ سُلَيْمان حَيْثُ إن الشياطين عمِلتها له. وكل هَذَا كذِب ويجب أن يُنَزَّه كلام الله عن مثلِ هَذِهِ الأَشْيَاء.

وموقفنا مَعَ مثل هَؤُلَاءِ العُلَماءِ أن نسألَ اللهَ لهم العفوَ وأن اللهَ يسامحهم؛ لِأَنَّ كونهم يَضعون فِي كـلام الله مثل هَذِهِ الأُمُور، فهَـذَا من الأَشْيَاء الَّتِي يَتَنَقَّـصُ بها الْإِنْسَان كلامَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأكثرُ ما وردتْ هَذِهِ كما قَالَ ابنُ كثيرٍ فِي هَذَا الموضع عن رجلينِ، وهما كَعْبُ الأحبارِ ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، فإنهما أدخلا كثيرًا من الإسرائيليات

فِي كلامِ اللهِ وغيره مما ينقُلونه؛ فنسأل الله أن يعفو عنهما.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأزالته فتزوجها وأحبَّها وأقرَّها عَلَى مُلْكِها، وَكَانَ يزورها فِي كُلِّ شهرٍ مرَّةً ويقيم عندها ثلاثةَ أيامٍ]، فَكَانَ كالمتزوِّج بالثيِّب [وانقضى مُلْكُها بانقضاء مُلْك سُلَيْمان، رُوِيَ أَنَّهُ مَلَكَ وَهُوَ ابن ثلاثَ عشْرةَ سنة، وماتَ وَهُوَ ابن ثلاثٍ وخمسينَ سنةً، فسبحانَ مَن لا انقضاءَ لِدَوَامِ مُلْكِهِ].

والمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُنْتَقَد بأن الأَشْيَاء المهمَّة يختصرها، حَتَّى فِي بعض الأحيان يَكُون تفسيره كالرُّمُوز، ثُمَّ يأتي بهَذِهِ الأَشْيَاء الَّتِي لَيْسَ لها أصل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة مُلْك سُلَيْمان، وتَسخيرُ اللهِ له، ففي ذلك الوقتِ حَسَب عِلْمنا لَيْسَ هناك أفرانٌ تصهر الزجاج ليفعل به الْإِنْسَان كما يشاء، ولكِن لَا شَكَّ أن الزجاج موجود، قد يَكُون مستخرَجًا من البحرِ؛ تَستخرجه الشياطين، وقد يَكُون هناك أيضًا مصاهر وأفران حسب حالهم، ولهَذَا قَالَ الله عن الشياطين: إنهم ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَجِفَانٍ﴾ هِيَ جمع جَفْنَةٍ، وهي الصَّحْفَة، والجوابي جمعُ جابيَةٍ، وهي البِرْكَةُ الكبيرة، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ يعني لا تُنْقَل لِكِبَرِها وعِظَمِها.

فالحاصل أننا نَقُول: إن هَذَا فِيهِ دليلٌ عَلَى عظمةِ مُلْك سُلَيْمان، حَيْثُ سُخِّرَ له الجنُّ والإنسُ يَعْمَلُون له ما يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: جواز اختبارِ المرءِ كما سبقَ، وهَذِهِ القصةُ فيها عدةُ اختباراتٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾؛ لِيَرَى هل تهابُ فلا تدخُل، أو تغامر فتدخل بدون تحرُّز،

أم ماذا تصنع، فالمَرْأة بذكائها دخلتْ ولكِن مَعَ التحفُّظ والاحتـراز، ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ أي: رفعتْ ثوبها حَتَّى بان الساقانِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المَرْأة من قديم الزمانِ شِيمَتها التسترُ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ دليل عَلَى أن الأَصْلَ أَنَّها مستورةٌ، وَهُـوَ كذلك، بخـلاف الرجلِ فإنَّ «أُزْرَة المُسْلِمِ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ»[1]. الْآنَ أصبح الأَمْرُ بالعكسِ عندَ كثيرٍ من المُسلِمينَ مَعَ الأسفِ، فأصبحَ الرِّجال ثِيَابهم مُسْبَلَةً، والنِّسَاء ثيابهنّ قَصيرةً، وهَذَا خلافُ الفِطرةِ الَّتِي فَطَرَ الله عليها الخلقَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الرؤيةَ قد تُكَذّب، وأن ما يدرك بالحواسّ لَيْسَ عَلَى الأَمْر الواقعِ مائةً بالمِئَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ فإنَّ هَذَا كمـا هُوَ الواقع صَرْحٌ مُمَرَّد من قواريرَ، وتنظر إليه نظر العين ومع ذلك تَحْسَـبُه لجَّة، فدلَّ هَذَا عَلَى أن ما يُدْرَك بالحواسّ قد يقعُ فِيهِ الخطأُ، قد يَرَى الْإِنْسَان الشَّيْءَ المتحرِّكَ ساكنًا، والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً، بل قد يَتَخيَّل له فِي بَصَرِه شيئًا وَلَيْسَ له حقيقةٌ.

وكذلك بالنِّسْبَةِ للسمعِ، وبهَذَا نَعْلَمُ أَنَّ الشهاداتِ ورواياتِ الأخبارِ وغيرها كلها يُمْكِن أنْ يقعَ فيها الخطأُ، وليستْ معصومةً مائةً بالمِئَةِ، ولكِن لَا شَكَّ أَنَّهُ كلَّما تَوَارَدَتِ الأخبارُ وتكاثَرَتْ فَإِنَّهُ يَدُلّ عَلَى أنَّ الأَمْرَ متأكّد، ولكِن نفي احتمال الخطأ مهما بلغَ الرائي أو السامع من الْقُوَّة والأمانة فإن الخطأ عُرْضَةٌ فيمـا رأى أو فيما سَمِعَ، بل فِي المَلْمَسِ، فقد تَلْمَس الشَّيْءَ فتَظُنّه لَيِّنًا أو أملسَ وبالعكسِ، فالرجل الفلّاح يَلْمَس الشَّيْء الخشِن فيظنّه أملسَ، والناعمُ يَلْمَس الخشِنَ البسيط جدًّا

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب اللباس، باب في قدر موضع الإزار، رقم (٤٠٩٣)، وابن ماجه: كتاب اللباس، باب موضع الإزار أين هو، رقم (٣٥٧٣).

فيجده كالشوكِ.

فالحاصل: أن المسألةَ حَتَّى فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّة الخطأ يمكن أن يقع، فما بالُكَ بالأُمُورِ العقليَّة؟ من باب أَولى وأعظم، وبه نعرِف ضعف الْإِنْسَان وَأَنَّهُ بحاجةٍ ماسَّة إِلَى عِلْمِ الشرعِ والوحيِ، فمهما بلغ فإنه بحاجةٍ إِلَى هَذَا الأَمْرِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: جعل الحواسّ من القَطْعِيَّات كما هُوَ عند المناطِقَةِ يَكُون عَلَى هَذَا خطأً؟

فالجواب: لا شكَّ فِي هَذَا، لكِن باعتبارِ الفكرِ وباعتبارِ العقلِ صحيح، إِنَّمَا الوهم قد يقع فيها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنبغي تأكيد الكَلام فِي موضعِهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾، ما قَالَ: هَذَا صَرْحٌ، قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ صَرۡحٞ﴾ و(إنَّ) للتوكيد، والتَّوْكيد هنا فِي محَلِّه؛ لِأَنَّهَا وإنْ لم تَكُنْ منكِرةً لكِنَّ حالَها حالُ المُنْكِرِ، حَيْثُ ظنَّته لجَّة وكشفت عن ساقيها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد يَهبُ المرءَ ما يُوجِب له أن يُسْلِمَ، بل قد يُيَسِّر له الأَسْبَاب الَّتِي تُوجِب إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ لِقَوْلِها: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ هَذِهِ المَرْأَةُ حَسَب القصة ما وجدنا أَنَّهَا دُعِيَت وأُكِّد عليها وبُيِّنَ لها الخطأ إِلَّا فِي قوله فِي أول القصة: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣١]، لكِن لما شاهدتْ ما شاهدتْ من عظمةِ مُلك سُلَيْمَان وقوّته، عرفتْ أَنَّهُ لَا بُدَّ أن تُسْلِم، وهي تتذكر كتابَه الَّذِي قَالَ فيه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فإمَّا أن تسلم وَإِمَّا أن يقضي عليها، ولَكِنَّهَا أسلمتْ.

فهَكَذَا إذا يسَّر الله تَعَالَى للعبدِ ما به الهداية فإن الأَمْرَ يَكُونُ عليه يسيرًا، وإذا لم يَتَيَسَّرْ له أصبحَ كُلّ مانعٍ يَمْنَعُه منْ الِاهتداء وإنْ لم يكنْ مانعًا قويًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ المَرْأَةَ آمنتْ بسُلَيْمَان، لم تُسْلِمْ إسلامًا مُطْلَقًا، يعني ما قالتْ: إني أسلمتُ للهِ فقطْ، بل صَرَّحَتْ بأنها تابعةٌ لسُلَيْمان، يعني ما آمنتْ بنبيٍّ آخرَ أو بشريعةٍ أُخرى، آمنتْ بشريعةِ سُلَيْمان فكانت من قَوْمِه، مَعَ أَنَّهَا كانتْ فِي سبأ فِي اليمنِ وسُلَيْمَان فِي الشامِ؛ لِأَنَّهَا قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهَا آمنتْ به؛ لِأَنَّ ﴿مَعَ﴾ للمصاحبةِ، فكانت من أصحابِهِ الْمُؤْمِنِينَ به.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن المَعاصِيَ ظلمٌ للنفسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وسبقَ وجهُ ذلكَ وأنَّ الْإِنْسَان مؤتمن عَلَى نفسِهِ؛ مؤتمن عَلَى نفسه من حَيْثُ السلوكُ والسيرُ، ومؤتمن عَلَى نفسه من حَيْثُ التصرفُ فِي مالِه، ومؤتمنٌ عَلَى نفسِهِ من حَيْثُ التصرُّفُ فِي بدنِهِ، ولهَذَا نُهِيَ عن إضاعةِ المالِ[1]، ونُهِيَ عن قتلِ النفسِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء:٢٩]، وقال تَعَالَى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، وَأُمِرَ بالدواءِ: «تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِالحَرَامِ»[2]، وأُمِر بالأكل وبالشرب وباللباس وبالوقاية من الحرّ والوقاية من البرد، كُلّ هَذَا من أجل حِفْظ النفسِ الَّتِي هِيَ أمانة عندكَ، فالْإِنْسَان لَيْسَ حُرًّا يَتَصَرَّف كما يشاءُ فِي بدنه أو كما يشاء فِي سلوكه أو كما يشاء فِي مالِه، لا، هُوَ مُقَيَّد.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب ما ينهى عن إضاعة المال، حديث رقم (٢٢٧٧)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهي عن منع وهات وهو الامتناع من أداء حق لزمه أو طلب ما لا يستحقه، حديث رقم (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه أبو داود، كتاب الطب، باب في الأدوية المكروهة، حديث رقم (٣٨٧٤)، عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: فِي بعض الآيَاتِ يُنْسَب الظُّلْمُ للنفسِ، وهنا نُسِبَ إِلَى الفاعِلِ؟

فالإجابة: لأنَّ الْإِنْسَانَ فِيهِ نفسانِ، وَقِيلَ: ثلاثةُ أنفسٍ؛ أَمَّارة ومُطْمَئِنَّة ولوَّامة، والصَّوابُ أنَّ اللوَّامة من صفاتِ الاثنتينِ، فالنفسُ إمَّا أمَّارة، وهي الَّتِي تأمرُ بالشرِّ وتَنْهَى عنِ الخيرِ، وَإِمَّا مُطْمَئِنَّة، وهي الَّتِي تأمر بالخيرِ، وقولها: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ الَّتِي تقوله النفسُ المطمئنَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ عُمُومِ رُبُوبِيَّة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا أحدَ له الرُّبُوبِيَّة الْعَامَّة الشاملة سِوَى الله عَزَّوَجَلَّ، فالْإِنْسَان قد يَكُونُ ربًّا لبيتِه وقد يَكُون ربًّا لدابَّتِه، وقد يَكُون ربًّا لمملوكِهِ كما فِي الحديث الصَّحيح: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ»[1].

وتقدَّم لنا فِي التفسيرِ أن ما ذكره الْمُفَسِّر من هَذِهِ الإسرائيلياتِ أَنَّهُ لا يَجِب التَّصْديقُ بها، بل ما كَانَ مِنْهَا مخالفًا للقرآنِ أو لا يليق بحالِ النَّبِيّ فَإِنَّهُ يجبُ تكذيبُه، وما كَانَ مِنْهَا لَيْسَ مخالفًا ولا منافيًا لما يليقُ بالنَّبِيّ فَإِنَّهُ لا يصدَّق ولا يكذَّب، ولا ينبغي أن يُحْكَى فِي التفسيرِ؛ فإنَّهُ إذا حُكِيَ فِي التفسيرِ معناه أَنَّهُ صُدِّقَ حَيْثُ جُعِلَ تفسيرًا لكلامِ اللهِ.

فائدة: القطعُ باسمها الظَّاهر منَ الأَشْيَاء الَّتِي لا تُصَدَّق ولا تُكَذَّب، لكِن لاشتهارها فلا مانعَ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، حديث رقم (٤٤٩٩)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيـة (٤٥)

• ● ◌ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥].

• ● ◌ ● •

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾ هَـذِهِ الجملةُ فيها ثلاثةُ مؤكِّـدات: القَسَم واللام وقد، ﴿أَخَاهُمْ﴾ مَفْعُول ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، و﴿صَـٰلِحًا﴾ عطف بَيَان له وَلَيْس بدلًا؛ لِأَنَّ كونَه عَطْفُ بَيَان أوضحُ؛ إذ إِنَّهُ يُبيِّن المُبْهم فِي قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾.

يَقُول الله تَعَالَى: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ثمود هَذِهِ قبيلة موجودة فِي مكانٍ يُسمَّى الْآنَ مدائنَ صَالِح، ويسمَّى الحِجْر، ويُسمَّى ديارَ ثَمُود، هَذِهِ القبيلةُ يَسَّرَ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى لها من أَسْبابِ العمران فِي السهلِ والجبلِ ما بَرَزَتْ به عَلَى غيرِها، كما قَالَ لهم نبيُّهم مذكِّرًا لهم: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]، أرسلَ الله إليهم صالحًا وأتاهم بآيَةٍ عجيبةٍ، وهي ناقةٌ لها شِـرْبٌ وللقومِ شِـرب، يعني أن هَذِهِ البئر الَّتِي تشرب مِنْهَا الناقة وهي أوسع الآبار وأغزرها ماءً، أُذن لهم أن يشربوا مِنْهَا يومًا، وأُمِروا بأنْ يَدَعُوها يومًا للناقةِ تَشرب منها، وتذهب فِي اليوم الثاني للرعي، وَفِي اليومِ الَّذِي تشرب منه، قيل: إِنَّهُم يأتون إليها، ومَن سقاها دلوًا أعطته دلوًا منَ اللَّبَن، وهَذَا من الأُمُور الإسـرائيليَّة الَّتِي لا تُصـدَّق ولا تكذَّب، لكِنَّهم مَعَ هَذِهِ النعمـةِ العظيمةِ فِي هَذِهِ الناقةِ كَفَروها والعياذُ باللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]، عَقَرَ هَذِهِ الناقة وكَفَروا بهَذِهِ النعمةِ العظيمةِ.

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَخَاهُمْ﴾ من القبيلةِ]، لماذا قَالَ: من القبيلة؟ احترازًا من الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ أخًا لهم إِلَّا نفرًا يسيرًا آمنوا معه.

ثم قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنِ﴾ أي بأن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾]، أفادنا المُفَسِّر أَنَّ (أنْ) هنا مصدريَّة، ولكِن يجوز فيها وجهٌ آخرُ أن تكون تفسيريَّة؛ لِأَنَّ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ يتضمن: أوحينا، والوحي فِيهِ معنى القَوْلِ دونَ حُرُوفِهِ، وهَذَا هُوَ دلالة (أنِ) التفسيرية، أن يَسْبِقَها فعلٌ فِيهِ معنى القَوْلِ دون حروفِه.

إِذَا قُلْنَا: إنَّهَا تفسيريَّة ما صحّ أن نقدِّر الباء، أي: (بأن) بل نقدِّر (أن) بمعنى (أي) أي اعبدوا الله، يَعْنِي: أَوحينا إليه أي اعبدوا الله.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحِّدوه]، وهَذَا مأخوذ من تفسير ابن عبّاس فيما أَظُنُّ فِي قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، قَالَ: لِيُوَحِّدُون.

فجعل العِبادَةَ هِيَ التوحيدَ، ولكِن الصَّحيح أن العِبادَةَ التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعة؛ لِأَنَّ هَذِهِ المادة: العين والباء والدال تدل عَلَى الذلّ، ومنه قولهم: طريق معبَّد أي مذلَّل لسالكيه، فعبادة الله معناها الذلُّ له بالطاعةِ، ومنه، بل من أعظم ذلك تَوْحِيدُه، فالصَّوابُ أن المُراد بالعِبادَة التذلُّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعة.

قال تَعَالَى: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ الفاء حرف عطفٍ، و(إذا) فُجائيَّة، يعني فما الَّذِي حصل بَعْد إرسالِه، إذا المفاجأة بالتفرُّق.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي الدين، فريق مؤمنون من حين إرسالِه إليهم، وفريق كافرون].

انقسم قومه إِلَى قسمينِ: قسم آمنوا به وقسم آخر كفروا به، والَّذِينَ آمنوا به هم

المستضعفُونَ، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، ما قَالَ: أتؤمنون به ﴿أَتَعْلَمُونَ﴾ فماذا قَالَ هَؤُلَاءِ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]، يعني لسنا نعلمُ فقط، بل نعلم ونؤمِن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]، ما قَالُوا: إنا به كافرون بالذي آمنتم به؛ لإظهار المضادَّة لهم والمعاندة، يعني ما دام آمنتم به وأنتم الضعفاء فنحن ضِدّكم دائمًا ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، وهَذَا أبلغ ما يكُون -والعياذُ بالله- من المضادَّة والمحادَّة والاستكبارِ أيضًا، كأنهم يقُولُونَ: الَّذِي تؤمنون به نحن نكفرُ به، هَؤُلَاءِ الفريق آمنوا وفريق كفروا.

قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني يجري بينهم خِصام، وهَذَا الخصام الَّذِي جرى بين قومِ صالحٍ جرى أيضًا فِي قوم الرَّسُول ﷺ وكل النَّاس قاوموه ولا بد، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، فلَا بُدَّ من هَذَا، ولا يُمْكِن أنْ يتمَحَّصَ الحَقّ إِلَّا بظهورِ العدوِّ؛ لِأَنَّ العدوَّ يُورِدُ، والوحي يُجيب، حَتَّى يتمَحَّصَ الحَقُّ بيِّنًا ظاهرًا، حَتَّى فِي الأُمُور الواقعية، وحَتَّى فِي الانتصارِ وَفِي الخِذلان يَحْصُل هَذَا أيضًا، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذكر من فوائدِ الخِذلان فِي أُحُد ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١]، فلا يَتبيَّن الحَقّ تمامًا إِلَّا بظهورِ عدوٍّ له يناقضه ويعاديه حَتَّى يَظْهَرَ الحَقّ عَلَى الباطل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَجِب أحيانًا تأكيدُ الأخبارِ المهمَّة ليكُونَ المخاطَبُ عَلَى يقينٍ منها، ولا تَقُل: أنا لستُ ملزومًا ولا يُهِمُّني صَدَّق أم كذَّب، بل إنَّ مُقْتَضَى النُّصح أن

تؤكِّد ما يَنْبَغِي تأكيده للمخاطَبِ، وجه ذلك: أن اللهَ ذكرَ أَنَّهُ أرسلَ إِلَى ثمودَ أخاهم صالحًا وأكَّد هَذَا الخبرَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرسُل السابقينَ رِسالتهم خاصَّة وليست عامَّةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ ما قَالَ: إِلَى النَّاس جميعًا، بل قَالَ: ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهَذَا ثبتَ به الحديثُ عن النَّبِيّ ﷺ فِي قولِهِ: «**وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَصِحُّ إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبِيَّة بين المسلمِ والكافرِ، فلا يقال: إذا انتفتِ الأخوَّة الإيمانية انتفت الأخوَّة النَّسَبِيَّة، بل إذا انتفى أحدهما يبقى الآخرُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِي أُرسلتْ به الرُّسُلُ هُوَ ما خُلِقَ له البشرُ، بل الجنّ والإنس، وَهُوَ عبادةُ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ والعِبادةُ سَبَقَ مَعناها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: انقسام النَّاس إِلَى فريقينِ فِي مواجهةِ الرُّسُلِ: مؤمن وكافر، وهَذَا لتحقيقِ الحِكْمَة الابتدائيَّة والغائيَّة فِي خلق الله، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، لو كانوا كلهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ منهم كافرٌ ومنهم مؤمنٌ، هَذِهِ حِكْمَةٌ ابتدائيَّة بالخَلقِ منذُ خُلِقوا، أيضًا لتتمَّ الحِكْمَة الغائيَّة، فالحِكْمَة الغائية أن الله تَعَالَى خلقَ جنَّةً ونارًا، وخلق لكلٍّ منهما أهلًا، فلو كَانَ النَّاس كلُّهم مُؤْمِنِينَ لم يكنْ لخلقِ النَّار فائدة، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»، حديث رقم (٤٢٧)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، هَذَا ابتداءً، ثانيًا ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩]، هَذَا الغاية؛ إذ لو لم يكنْ مؤمنٌ وكافرٌ فلا تتمُّ كلمةُ الله بملءِ جهنَّم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: وقوعُ الخِصام بين الْمُؤْمِنِينَ والكَافِرِينَ، وَأَنَّهُ أمر لَا بُدَّ منه[1]، حَتَّى إِنَّهُ ربما يصل هَذَا الخصام إِلَى الصدامِ المسلَّح، وهَذَا واضح؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾، وقال تَعَالَى فِي هَذِهِ الأُمَّة: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩]، فالخصامُ لَا بُدَّ منه مَعَ أعداءِ الرُّسُلِ وأولياءِ الرُّسُلِ، وربما يصل ذلك إِلَى اصطدامٍ مسلَّح والقتال وهَذَا أمرٌ مُشاهَدٌ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلَّ متصدٍّ للدعوةِ إِلَى اللهِ فلا بد أن يجدَ خُصُومًا؛ لِأَنَّهُ إذا كانت الدَّعْوَة فِي ابتدائها مَعَ مَن جاء بها وَهُوَ الرَّسُول ﷺ تُلاقِي ذلكَ، فما بالُك بانتهائها، وقوله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٣١]، قد نتوسع فِي معناه ونَقُول: لكل نبيٍّ لا لشخص النبي، ولكِن لدعوة النبي، بدليل أن النَّبِيّ قبل أن يُبْعَث لم يكن له عدوٌّ، والرَّسُول ﷺ كَانَ يُسمَّى الأمينَ عند قريشٍ قبلَ أن يُبعَث، وكانوا يقدِّرونه ويعظِّمونه ويحبونه، وبعد أن بُعث وصار نبيًّا قامت الحرب بينهم وبينه.

إِذَنْ: يمكن أن نَقُول: إن قول الله تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ [الفرقان:٣١]، أي: من حَيْثُ الدَّعْوَة، وَعَلَى هَذَا فما بَقِيَتْ هَذِهِ الدَّعْوَة سوف يَكُون لها عدوٌّ من المجرمينَ.

---

(١) تنتهي المادة الصوتية للملف الثامن الوجه الثاني هنا، وما يتبع ذلك حتى نهاية الْفائدة الْخامسة من فوائد الآية (٤٦) لم أجده في المادة الصوتية التالية. وهو في المطبوع من عندهم.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِي هَذِهِ الآيَة أعظمَ تأييد للداعي إِلَى الله، حَيْثُ وصف الله خصومَه بالإجرامِ، فما دام الداعي معتقدًا وواثقًا من نفسِه أَنَّهُ عَلَى بصيرة فَلْيَبْشِر بالتأييد ولو بالعاقبة، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُصْلِح عمل المجرمين.

الآيـة (٤٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦].

قَالَ المُفسِّر: [﴿قَالَ﴾ للمكذبين: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذابِ قبلَ الرَّحْمَةِ؛ حَيْثُ قلتم: إن كَانَ ما أتيتنا به حقًّا فأْتِنا بالعذابِ].

قوله: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ الاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ والتعجُّب، يعني أَنَّهُ يُوَبِّخُهم وينكر عليهم هَذَا الأَمْرَ ويتعجب من حالِهم؛ لِأَنَّ حال العاقلِ أن يستعجلَ بالحسنةِ قبلَ السيئةِ، لا أن يستعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ، لكِن السفيه -والعياذ بالله- سفيهٌ، مثلما قالت قريشٌ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ فاهْدِنا إليه، قَالُوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢]، ما قَالُوا: إن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ فاهدنا إليه، قَالُوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾، وهَذَا -نسأل الله العافية- فِي غايةِ ما يَكُونُ مِنْ الاستكبار والاستهتارِ، هَؤُلَاءِ يستعجلون بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ ويَقُولُونَ: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، وهَـذَا التحدِّي من أعداء الرُّسُلِ للرسلِ يَدُلّ عَلَى تماديهم فِي العنادِ وأنهم غيرُ مُؤْمِنِينَ،

ولكِن هَذَا الأَمْر لا يُجابُون إليه، وإن كَانَ فِي ذلك نصرٌ للرَّسُول لكِنهم لا يجابون إِلَى ذلك؛ لِأَنَّهُم إذا أُجِيبوا إليه صار معناه أَنَّهُم يجابون عَلَى اقتراحاتهم، مثلما قالوا لما قيلَ لهم عن البعث؛ قَالُوا: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان:٣٦]، فيقال لهم: الرُّسُلُ ما قالوا لكم: إنكم تُبْعَثُون الآنَ، تُبْعَثُون يومَ القيامةِ، لو قَالُوا: تُبْعَثُونَ الآن، كنا نَقُول: نعم ائْتُوا بآبائهم، لكِنهم قَالُوا: تُبْعَثون يوم القيامة وانتظروا يوم القيامة وستجدون آباءكم.

يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ حكايـةً عن صالحٍ: ﴿لَوْلَا﴾ قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هَـلَّا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ مِنَ الشركِ]، ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى (هلا) وهَذَا من معاني ﴿لَوْلَا﴾ أن تكون للتحضيضِ، ولها معانٍ أخرى أيضًا، ويقال فيها: حرف امتناع لوجودٍ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ [الحج:٤٠]، امتنـع تهديم الصوامع لدفعِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّاسَ بعضَهم ببعضٍ.

ما الَّذِي يُعَيِّنُ هَذَا المَعنى من هَذَا المَعنى؟

يُعَيِّنُه السياقُ، وبهَذَا وبكثيرٍ من أمثالِهِ يَتَبَيَّنُ أن الكلمات لَيْسَ لها معنى ذاتيّ، بمعنى أَنَّهَا خُلِقَتْ له، وإنما هِيَ قوالبُ وثيابٌ للمعنى الَّذِي يَدُلّ عليه السياقُ، فأيّ ثوبٍ تُرَكِّبه لمعنًى يَدُلّ عليه السياقُ فَهُوَ هو، وبهَذَا التقرير أيضًا يتبين أنَّ ما ذهبَ إليه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أَنَّهُ لا مجاز فِي اللُّغة العَربِيَّة أَنَّهُ أمر صحيحٌ[1]، وأن كُلّ كلمة استُعملت فِي مَقامها فهي حقيقة فيه، وكون أَنَّهُ مثلًا ما تعرف بهَذَا اللفظ إِلَّا لذاك المَعْنى الَّذِي لم تُسْتَعْمَل فِيهِ ما يَدُلّ عَلَى أن ذاك هُوَ معناها الذاتيّ؛ لأَنَّنا نَقُول: لَيْسَ للكلمات معنى ذاتيّ، واللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) انظر: الحقيقة والمجاز ضمن مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٠١-٤٩٧).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الإنكار عَلَى مَنِ استعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ، والاستعجال عَلَى نوعينِ: أحدهما: استعجالٌ بالقَوْلِ، بأَنْ يَقُولُوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢]، واستعجال بالفِعْلِ والحال؛ بأن يسلكوا مسلكًا يَكُون به العذابُ، وذلك بالمَعاصِي؛ فإن المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلَا شَكّ.

فالَّذِينَ يَعصون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معناه أَنَّهُم استعجلوا عذابهم، حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ أخبر بأن المَعاصِيَ سببٌ للعقوبةِ والعذابِ، فإذا صار الْإِنْسَان يمارس هَٰذِهِ المَعاصِيَ فَإِنَّهُ يَقُول بلسانِ حالِه: أين العذابُ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى رتَّب العذاب عليها، ففاعلها يَقُول: هاتِ؛ لِأَنَّ فاعل السَّبَب يُريد وقوع المسبَّب.

وَعَلَى هَذَا فإذا رأيت الأمَّةَ عَلَى معصيةِ الله وإن لم تقلْ: أين عذاب الله وأين ما وعدتم به؟ فإنها فِي الحقيقة تَستعجلُ عذابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالاستعجال يَكُون بقال الْإِنْسَانِ وحالِه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: نُصْح الرُّسُلِ لِأُمَمِهِم؛ لِأَنَّ إنكار صالحٍ عَلَى قومِه لأنه يريد منهم أن يَستقيموا عَلَى أمرِ اللهِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الاستغفارَ سببٌ لرفع العقوبةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ وَهُوَ كذلك؛ فإن الاستغفار سببٌ لرفعِ العقوبةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الاستغفار سببٌ لِجَلْبِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ أمرٌ فوقَ دَفْعِ العقوبة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقد قَالَ نوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ

غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾ [نوح:١٠-١٢]، وهَذِهِ رحمةٌ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ نتيجة الاستغفار.

إِذَنْ: فالاستغفارُ سببٌ لاندفاعِ النِّقَمِ وجلبِ النعمِ، والاستغفار هُوَ طلب المغفرة. والمغفرة سَتْر للذنبِ مَعَ التجاوزِ، وطبعًا طالب المغفرةِ يَستلزم طَلَبُه للمغفرةِ إذا كَانَ حقيقة أنْ يُقْلِعَ عنِ الذنبِ؛ لِأَنَّهُ كيف يَقُول: أستغفرُ اللهَ من الربا وَهُوَ يقع فِي الربا، لا يَصلُح هَذَا، فطالب الشَّيْء لَا بُدَّ أن يسعى بأَسْبابِهِ، إذا قلت: اللهمَّ ارْزُقْنِي ولدًا صالحًا وقلت: لن أتزوجَ، إذا كَانَ الله مقدِّرًا لي ولدًا صالحًا سيأتي، فهذا لا يصلح، فلا ينفع أن تستغفرَ اللهَ وأنتْ لم تفعلْ أَسْبابَ المغفرةِ، فلا بدَّ من فعل أَسْبابِ المغفرةِ بالإقلاع عن المعصيةِ ثُمَّ طلب أن يغفر الله لك.

وإذا كَانَ الاستغفارُ سببًا لجلبِ الرَّحْمَةِ فَإِنَّهُ من أَسْبابِ الفتحِ عَلَى المرء بالعلمِ؛ أن اللهَ يَفْتَح عليه عِلمًا لم يكنْ يَعْلَمُه من قبلُ، يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّساء:١٠٥-١٠٦]، وكَانَ بعضُ أهلِ العلمِ إذا سئل عن مسألةٍ قدَّم بين يديْ إجابتِه الاستغفارَ، فقال: أستغفرُ اللهَ، أستغفرُ اللهَ، حَتَّى يُفْتَحَ له، وهَذَا ظاهر؛ لِأَنَّ الذنوبَ تَحُولُ بين المرء وبين العلمِ، وبين المرءِ وبين الفَهْمِ، فإذا غُفِرَت زال هَذَا الحجابُ، قَالَ الله تَعالَى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة:١٣]، الأوَّل باختيارهم وَهُوَ التحريف، والثاني بغير اختيارِهم، وَهُوَ النِّسيانُ.

فالمَعاصِي سببٌ للحِرمانِ من العلمِ والفهمِ، والاستغفار رفع للمعاصي

وآثارِها، فيقتضي العلم والفهم، ومناسبته منَ الآيةِ الَّتِي سُقناها من آيَة النِّسَاءِ واضحةٌ، قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النِّسَاء:١٠٥-١٠٦]، فتعقيب الحكمِ بين النَّاس بالاستغفارِ دليلٌ عَلَى أن الاستغفارَ من أدوات الحكم بالحق، وَكَانَ رسول الله ﷺ يُكْثِر الاستغفارَ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْتَغْفِرُ الله ويتوب إليه فِي اليوم أكثرَ من سبعينَ مرّةً[1]، ويُحفَظ له فِي المجلسِ الواحدِ أكثر من مائةِ مرةٍ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْه؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد غفرَ اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[2] فكانت أَسْباب المغفرة فِي حقِّه أكثر من غيره.

ومن أَسْباب المغفرة أن يستغفرَ بلسانه، وَهُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يعلم أن الأَشْيَاء بأَسْبابها، عَلِمَ أن اللهَ غفر له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخَّر، فجعل يُكْثِر من أَسْباب المغفرةِ بالاستغفارِ بلسانِه، وكذلك أيضًا بفعل أَسْبابِ المغفرةِ بأفعالِه، وهَكَذَا ينبغي للإِنْسَانِ إذا منّ اللهُ عليه بشيءٍ أن يُحقّق ذلك الشَّيْء بفعلِ الأَسْباب ولا يتّكِل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات الحِكْمَة لله تَعالَى؛ لِقَوْلِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالرَّحْمَة لها سبب، وكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْرِنُ أفعالَه بأَسْبابها يَدُلّ عَلَى كمالِ الحِكْمَةِ؛ لِأَنَّ من يفعل أفعالًا عَنْجَهِيَّة لَيْسَ لها أَسْباب فهَذَا سفيه، لكِن عليه أن يربط الأفعال بأَسْبابها.

• • ۞ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النَّبِيّ ﷺ في اليوم والليلة، حديث رقم (٥٩٤٨)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «أنا أعلمكم بالله»، حديث رقم (٢٠)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم (٢٨٢٠)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الآية (٤٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧].

لَمَّا حَثَّهم عَلَى الاستغفارِ وبيَّن لهم نتائجَه الطيِّبة كَانَ جوابهم: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ -أعوذ بالله- فهَذَا الجوابُ يعني أنك ما أتيتَ لنا بفائدةٍ، بل صرت شؤمًا علينا، أنت وأتباعك، وهَذَا حال الَّذِينَ يتطيرون بأهل الخيرِ، والله تَبَارَكَوَتَعَالَى قد يَفْتِنُ النَّاسَ، فقد يقع مثلًا فِي مجيء الخيرِ أو معه بعضُ الآفاتِ أو بعضُ الأَشْيَاء المكروهةِ لدى النَّاس؛ ليَكُونَ ذلك فتنةً وابتلاءً، ربما مثلًا يَحُلّ رجلٌ من أهل العلمِ والعِبادَةِ فِي بيتٍ ثُمَّ يحترق هَذَا البيت؛ ابتلاءً من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وامتحانًا، فأهل الشَّرّ يفرَحون ويفْرَهُونَ، يَقُولُونَ: انظُرْ أَسْباب الطَّوْع، احترقَ البيتُ لما جاء هَذَا الرَّجل.

والله تَعَالَى قد يَفتِن النَّاسَ، قَالَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: إِنَّهُ بمجيء صالحٍ ومعصيةِ قومِه عاقبهم الله تَعَالَى بالقَحْطِ والجَدْبِ وغَورِ المياهِ، فقَالُوا: أنت يا صالح ومن معَك ما جئتمونا بخيرٍ، ما جئتمونا إِلَّا بالقحطِ والجدبِ وغور المياهِ، فتطيروا به، وقَالُوا: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[أصله: (تَطَيَّرْنَا) أُدْغِمَتِ التاءُ فِي الطاءِ]، وهَذَا الإدغام عَلَى غير خلافِ القَاعِدةِ، إذ إن الإدغام بين الساكنِ والمتحرِّك، وهَذَا بين متحركينِ، فَأُدْغِمَت التاء فِي الطاء، ولَمَّا أُدغمت التاء فِي الطاء صار الحرف الأول منهما ساكنًا، ويلاحظ أيضًا أَنَّهُ بَعْد الإدغام قُلِبَتِ التاءُ طاءً، والساكن لا يمكن الابتداء به فاجتُلبتِ الهمزةُ لتسهيلِ النطقِ به، ولهَذَا قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [واجتلبت همزة الوصلِ]، لتسهيل النطقِ بالساكنِ.

ومعنى ﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾ قَالَ الْمُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: تَشَاءَمْنَا]، من الشؤمِ، والشؤم معناه: توقُّع الشَّرّ من مُشَاهَدٍ أو مسموعٍ أو زمن أو حال، ولهَذَا قَالُوا: إن التطيُّر مأخوذٌ من الطيرِ، وكانوا فِي الجاهلية يَتشاءمون بالطيورِ، وعندهم قواعد لهَذَا التشاؤمِ، فيَبعثونها؛ فإذا ذهبت يمينًا يتفاءلون أو يسارًا يتشاءمون، أو أمامًا أظن يعيدونها مرة ثانية، وخلفًا يتشاءمون أكثر، فلذلك سُمِّي هَذَا التشاؤم تطيّرًا، مأخوذ من الطير؛ لِأَنَّ غالب تشاؤم العرب بها، فهم يَقُولُونَ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي: تشاءمنا، وَكَانَ مجيئك شُؤمًا علينا أنت وأتباعك.

إِذَنْ: ما هُوَ التطيُّر؟

هُوَ التشاؤم بمرئيٍّ أو مسموعٍ أو زمان أو مكان أو حال التشاؤم، بمرئيٍّ: كَأَنْ يرى الْإِنْسَان شيئًا فيتشاءم، افرض أَنَّهُ مثلًا أرادَ أن يسافرَ فقابله إِنْسَانٌ هو يَكْرَهه، قَالَ: إذن رَجَعنا. أو هَمَّ أن يسافر فلما خرج سمِع رجلًا يَقُول: مات فلان بن فلان، قَالَ: إذن رجعنا. فهَذَا تشاؤُمٌ بمسموعٍ. أو زمان: يتشاءم بيومٍ من الأيام؛ بيوم الأربعاءِ، يوم الخميس، أو شهر من الشهور؛ كشهر شوال، وكان العرب يتشاءمون بشهر شوال فِي الزواجات، يَقُولُونَ: الَّذِي يتزوَّج فِي شهر شوال ما يوفَّق، لكِن

عائشة أبطلتْ ذلك بالواقعِ، قالت: «إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزَوَّجَهَا فِي شَوَّالٍ، وَبَنَى بِهَا فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّكُنَّ كَانَتْ أَحْظَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[1].

إِذَنْ: ينبغي إن أردنا أن نعملَ بالتشاؤمِ أو التفاؤلِ أن نتفاءل بشهر شوال، ولكِن مَعَ ذلك لا نتفاءل بالزمانِ ولا نتطير به، فالخيرُ والشرُّ بيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومنهم من يتشاءم بالمكانِ؛ فتجده مثلًا يريد أن يجلسَ فِي هَذَا المكان ثُمَّ تَبُطُّه شوكةٌ، يَقُول: إذن قُمنا، هَذَا لا يمكن أن نجلسَ فيه. أو يتشاءم بالحالِ؛ حال الشخصِ مثلًا، فالتشاؤم بالحالِ أيضًا هَذَا تطيُّـر، ولا يجوز، فقد يعمل مثلًا الْإِنْسَان عملًا فيعاكسه فِي أوَّل أمرِهِ، أو مثلًا يَهُمُّ أن يفعلَ شيئًا غدًا وإذا كَانَ الغد إذا هُوَ معه بعضُ التعبِ والعجز، فيتشاءم ويَعْدِل بسببِ هَذِهِ الأحوالِ الَّتِي تعرِض له، فنَقُول: كُلّ هَذَا لا يجوزُ، أنت إذا عزمتَ فتوكَّل عَلَى اللهِ، «**اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ**»[2]، فالإِنْسَانُ مِثْلَمَا قَالَ القُرْطُبِيُّ -وكذلك غيرُه من أهل العلمِ-: الَّذِي يُعلِّق تصرفاته بمثلِ هَذِهِ الأُمُورِ فَهُوَ من أجهلِ النَّاسِ حقيقةً، ثُمَّ إِنَّهُ ما يمكِن أن يمشيَ له حال إذا كَانَ ينظر إِلَى هَذِهِ الأَشْيَاء.

ولكِن يلاحظ أن الفألَ الَّذِي يُعين عَلَى فعلِ الخيـرِ لا يدخل فِي هَذَا الأمْـرِ، فكَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعجِبُه الفأل ولكِنه يَكْرَهُ الطِّيَرَةَ[3]؛ لِأَنَّ الطيرةَ فيها

---

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب التزوج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه، حديث رقم (١٤٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١١/ ٦٢٣) (٧٠٤٥) مسند عبد الله بن عمرو.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الفأل، حديث رقم (٥٤٢٤)؛ صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تعلُّق الْإِنْسَان بغير اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمثلِ هَذِهِ الأُمُور، وفيها أيضًا مَنْعٌ للإِنْسَانِ عما يريده من الخيرِ، لكِن التفاؤل فِيهِ التشجيعُ عَلَى الخيرِ. لَمَّا جاء سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فِي صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ**»(١)، لكِن لَا بُدَّ أن يَكُون التفاؤل يتعلق بشيءٍ يتعلق به، وَأَمَّا مجرَّد أن يرى واحدًا فِي السوقِ اسمه يزيد أو اسمه صالح أو اسمه راشد، فلا، لَيْسَ هَذَا، لكِن الشَّيْء الَّذِي لي معَه معاملة فأنا قد أتفاءل، وسُهيل بن عمرو له معاملةٌ مَعَ الرَّسُول ﷺ فتفاءل، وهَذَا يَكُون من بابِ فتحِ الأُمُورِ باليسرِ.

فالحاصل: أن التفاؤلَ غيرُ التشاؤمِ، والفرق بينهما أن التشاؤمَ من فِعلك، والشؤم من فعل غَيْرِك، وهَذَا واضح أن الله جَلَّ وَعَلَا قد يجعل فِي هَذَا الشَّيْء خيرًا وبركةً للإِنْسَانِ، وَفِي هَذَا الشَّيْء شُؤمًا وبلاءً.

واعلمْ أن التشاؤم غير الشؤم، فإن الشؤم قد يَكُون فِي بعضِ الأَشْيَاء مثلما أخبر النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يَكُون فِي المَرْأَةِ ويَكُون فِي الدارِ ويَكُون فِي الدابّة، وهَذَا شَيْء مشاهَد، أن الْإِنْسَان قد ينزِل بعض الدُّور وَهُوَ لا يتشاءم لكِن يَكُون فيها شؤم، تكون دائمًا خرابًا مثلًا، ودائمًا تحتاج إِلَى أعمالٍ وتتعبه، فإذا ارتحل عنها ارتاح ووجد ما يريد، كذلك بعض السيارات -وإن كَانَ أغلب النَّاس لَيْسَ عندهم دوابّ- فِي بعض الأحيان الْإِنْسَان يشتري سيارة ويكدها وتتعبه كُلّ يوم يخرب مِنْهَا شَيْء ثُمَّ يبيعها ويشتري سيارةً ثانيةً ويرتاح لها، ومثلها أيضًا في بعض الأحيان يشتري الْإِنْسَان قلمًا -حتى فِي الأَشْيَاء الصغيرة- فيبدأ كُلّ يوم يتعبه؛ يَجِفّ المِدَاد، وتَجِد

(١) رواه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، حديث رقم (٢٥٨١)، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

الريشةَ أيضًا لا تستقيم معه، ومرة يضيع منه فيُتعبه، ويشتري قلمًا آخرَ ويبقى عنده مدَّة، لكِن هَذَا لَيْسَ تشاؤمًا ولكِنه شؤم.

كذلك فِي بعض النِّسَاء، فيتزوج الْإِنْسَان امرأة وتتعبه ليلًا ونهارًا، فِي حوائجه الْعَامَّة والخاصَّة ومع أهله وأقاربه، ويتزوج أخرى فتكون راحةً نفسيةً وقُرَّة عَيْن.

فالحاصل: أن هَذِهِ الأَشْيَاء أمرها واقع، ولكِن الرَّسُول ما قَالَ: (التشاؤم) قَالَ: (الشؤم)، وفرق بين هَذَا وبين هَذَا، فمعنى ذلك أن هَذِهِ الأَشْيَاء يجد النَّاس فيها أحيانًا بركةً وراحةً، وأحيانًا يجدون فيها قَلَقًا وتَعَبًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الرَّسُول ﷺ قَالَ: «**الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ...**» وذَكَرها[1]، وقال: «**الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[2]، فامتدحَ حالها مَعَ الشخصِ، فهل معقود فِي نواصيها الخير مُطْلَقًا أو فِي حال الجهاد؟

فالإجابة: فِي حالِ الجهادِ؛ لِأَنَّ الخيلَ قد تكون وِزرًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ذَكَرَ بعدها مثالًا فِي الَّذِي يربطها بالجهادِ فِي سبيل اللهِ أَنَّهَا لا تستبين ولا تعلو شَرَفًا ولا تأتي رَوْضَةً ولا تشرب ماءً إِلَّا كان له أَجْرٌ[3]، فالسَّبَب يَقتضي ذلكَ، وإن كانتِ العبرةُ بعمومِ اللفظِ، لكِن ما دام أن السَّبَب صالحٌ لإحالةِ الحكمِ عليه فيجب أن

---

(١) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم (٤٨٠٦)؛ ومسلم، كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فِيهِ من الشؤم، حديث رقم (٢٢٢٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢٦٩٥)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، حديث رقم (١٨٧٣)، عن عروة البارقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب المساقاة، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، حديث رقم (٢٢٤٢)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، حديث رقم (٩٨٧)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُقَيَّد به، مثل قول الرَّسُول ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ»[١]، وهَذَا اللفظ عامٌّ، مَعَ أَنَّهُ هُوَ نفسه يصوم فِي السفرِ، إذن يُخَصَّص بالسَّبَب الَّذِي وَرَدَ فِيهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ إذا كَانَ الصِّيَام يؤدِّي إِلَى مثل هَذِهِ الحال فليس من البرِّ، وأيضًا الخيل قد تكون وِزْرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل للأسماء تأثيرٌ في مُسَمَّيَاتِها؟

فالإجابة: ليس لها تأثيرٌ إِلَّا إن كَانَ ذلك من طريقِ الوحيِ، والواقعُ يَشْهَدُ بأنه لا حقيقة لذلك، فتجد هَذَا اسمه عبد الله وَهُوَ عبدٌ للشيطان، وتجد هَذَا اسمه شرورة وتجده من أخيرِ النَّاسِ، إِلَّا شيئًا يَكُونُ بطريقِ الوحيِ؛ كابن أَبِي طَلْحة سَمَّاه الرَّسُول ﷺ عبد الله[٢]، ولما دعا له بالبركة باركَ اللهُ له حَتَّى كَانَ من أولادِهِ تسعة أو سبعة يَحْفَظُونَ الْقُرْآن، لكِن يَنبغي أن يُراعَى فِي الأسماءِ ما أرشدَ إليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فأحبُّ الأسماءِ إِلَى اللهِ عبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ[٣]، فعبدُ اللهِ وعبدُ الرحمنِ أفضلُ من صالحٍ ومن راشدٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يجوز أن يسميَ الْإِنْسَانُ اسمًا ليتفاءلَ به؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النَّبِيِّ ﷺ لمن ظلل عليه واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، حديث رقم (١٨٤٤)؛ ومسلم، كتاب الصيام، باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية إذا كَانَ سفره مرحلتين فأكثر...، حديث رقم (١١١٥)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العقيقة، باب تسمية المولود غداة يولد، لمن لم يعق عنه، وتحنيكه، رقم (٥٤٧٠)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه، وجواز تسميته يوم ولادته، واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر أسماء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، رقم (٢١٤٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء، حديث رقم (٢١٣٢)، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالإجابة: لا أدري كون الْإِنْسَان يُسمِّي اسمًا ليتفاءلَ به، والرَّسُول ﷺ قَالَ: «لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا نَجَاحًا»[1]، وأيضًا كونك إذا سَمَّيْتَ باسماء رجالٍ صالحينَ يَكُون مثلهم هَذَا أبعد وأبعد إِلَّا إذا كَانَ عَلَى سبيل المحبَّة لهم، مثلما يفعل بعض النَّاس الْآنَ فيُسمّون بأسماء الزعماء الَّذِينَ يحبّون، وأيضًا لا يَكُونون مثلهم.

قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ هَذَا جوابُ الرُّسُلِ، وهَذَا الجواب تجدونه أيضًا قد أجابَ به بنو إسرائيلَ مُوسَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١]، وكذلك أصحابُ القريةِ الثلاثة تَطَيَّروا بالرسُلِ الَّذِينَ أُرسلوا إليهم.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هَذَا جوابُ أهلِ الشرِّ، أَنَّهُم يجعلون الأَسْبَاب الَّتِي هِيَ من أفعالِهم ونتيجةً لأفعالهم يجعلونها بأَسْبابِ هَؤُلَاءِ المصلِحين. والحقيقة أَنَّهَا وقعتْ جزاءً عَلَى أفعالِ الكفَّار.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: تَشاءمنا ﴿بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي: المُؤْمِنِينَ حَيْثُ قُحِطوا المطرَ وجَاعوا]، قُحِطوا بمعنى مُنِعوا المطرَ وجاعوا، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ﴾ شُؤْمُكم ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أتاكم به ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾].

قوله: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ يعني: وَلَيْسَ منا، ﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾ بمعنى شُؤْمِكم، والمُرادُ ما أصابكم مما تَشاءَمْتُم به -وَهُوَ القَحْطُ والجوع- عند الله وَلَيْسَ منِّي أنا، وإذا كَانَ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهَذَا من أبلغِ الجوابِ، إذا كَانَ عند الله فإن اللهَ تَعَالَى

(١) رواه مسلم، كتاب الآداب، باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة وبنافع ونحوه، حديث رقم (٢١٣٦)، عن سمرة بن جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حكيمٌ، ما يُنْزِلُ هَذَا الشَّيْءَ إِلَّا فِي مَنْـزِلَتِهِ وبأَسْبابِهِ الَّتِي يُسْتَـحَقُّ بها، فكأنه يَقُول: ما دام عند الله فالله تَعَالَى حكيمٌ، ما أنزل هَذَا الشؤمَ إِلَّا فِي مَوْطِنِهِ ومَوْضِعِهِ.

قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ هَذَا الإضـرابُ لَيْـسَ لإبطالِ الأوَّل، ولكِنـه للانتقالِ، فهو إضرابٌ انتقاليٌّ، وكما هُوَ معروفٌ أن الإضرابَ يَكُون عَلَى نوعينِ: إضراب إبطاليّ يَكُونُ الحكمُ لَمَا بعدَ (بل) ويُبْطِل ما قبلَها، والثاني: إضرابٌ انتقاليّ، مثل هَذِهِ الآيَةِ، ومثل قوله تَعَالَى: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦]، انتقالٌ من شيءٍ إِلَى شيءٍ. هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لِأَنَّهُ عند الله يَفْتِنُهُم بها حصل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. ووجه الفتنة:

أولًا: أَنَّهُم نَسبوا هَذَا إِلَى صالح ومن معه، وهَذِهِ فتنة عظيمة ضلَّ بها هَؤُلَاءِ.

ثانيًا: أَنَّهُ أصابَهم مَعَ مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّـوا أو ادَّعوا أن أَسْباب ذلك صالحٌ ومن معَه، ففُتِنُوا بذلكَ فابتعدوا عنِ الحقِّ.

ومثلما تقدَّم قبل قليلٍ بالتمثيلِ بأن يحدثَ مكروهٌ عندَ وجودِ رجلٍ صالحٍ فيُنْسَبُ هَذَا المكروهُ إِلَى هَذَا الرجلِ الصالحِ، ومجيءِ هَذَا الرجلِ الصالحِ، فيَكُون فِي ذلك فتنة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَكيمٌ يَفْتِنُ الْإِنْسَانَ ويَخْتبره بأنواعِ المفاتنِ، تارَةً بالمصائبِ، وتارَةً بالنِّعَمِ، وتارَةً بالأُمُورِ الَّتِي تُوجِب الاشتباهَ لِيَمْتَحِنَهُ بذلك، ولهَذَا الدُّنْيا كلها مِحنَةٌ، ما دام الْإِنْسَان دائرًا بينَ أمرينِ: إمَّا شرّ وَإمَّا خير، وكُلّ حياتِكَ هَكَذَا شرّ أو خير، وكلاهما يَقُول الله فيه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

إِذَنْ: معناه انْتَبِـهْ يا أيها الْإِنْسَـان، انتبَهْ فالفضـلُ: لِيَبْلُوَنِي أَأَشكر أم أكفر، والمصائب: لِيَبْلُوَنِي أَأَصبر أم أَجْزَع، والشُّبُهات العلمية الَّتِي تَرِد عَلَى قلب الْإِنْسَان لِيَبْلُوَه هل يَثْبُتُ أو يَزيغ، والمسائل كلها فِي الحقيقةِ فتنةٌ واختبارٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،

ولهَذَا يَجِب عَلَى العاقلِ أن يَكُون حَذِرًا دائمًا، ولستُ أدعو فِي قولي هَذَا إِلَى سوء الظن باللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولكِنِي أدعو إِلَى النظرِ فِي الأُمُورِ ليَكُونَ تَصَرُّفنا عَلَى وجهٍ سليمٍ.

ولكِن مَعَ ذلك أقول: إنَّهُ إذا تجاوز الْإِنْسَان هَـذِهِ الفتنةَ حصـلَ له الثباتُ والاستقرارُ؛ لِأَنَّهُ يطمئنّ قلبُه ويرسُخ فِي هَذِهِ الأُمُورِ ولا يَزيغ بإذن الله بَعْد ذلك، لكِن قد يُفْتَن المرء، فلْينظُرْ، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ تُفتنون بالخيرِ والشرّ، ووجهُ الفتنةِ فِي هَؤُلَاءِ: البلاء الَّذِي أصابهم بسببِ دعوةِ صالحٍ إِلَى عبادةِ اللهِ فكَفَرُوا فعُوقِبُوا، فهَـذِهِ من الفتـنِ؛ لِأَنَّهُم قالوا: أنت سَبَبُها، وَفِي الحقيـقة أن أَسْبابها هم أنفسهم، ففُتِنُوا بذلك.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَسْلَكِ المكذِّبين للرسلِ؛ أَنَّهُم يسلكون مسالِكَ التشبيهِ والتمويهِ؛ لِقَوْلِهِم حين أُصيبوا بالجدبِ والقَحْط: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مَعَ أن هَذَا الأَمْر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَيْسَ بأَسْبابِ النبيِّ، وهَكَذَا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهون ويُلبِّسون عَلَى النَّاس بمثل هَذِهِ الأُمُور.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ المصائب الَّتِي تُصيب الْإِنْسَان إِنَّمَا هِيَ من اللهِ تَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾، ولا ينافي هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، ولا قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١]؛ لِأَنَّ نِسبة هَذِهِ الأُمُورِ إِلَى اللهِ نسبة خَلْقٍ وإيجادٍ، ونسبتها إِلَى المخلوق نسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إِلَى النَّاس إضافةَ الشَّيْءِ إِلَى سببِهِ، وتُضاف إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إضافة المخلوق إِلَى خالقِه، وَعَلَى هَذَا يزول إشكالُ كثيرٍ منَ الآيَاتِ الَّتِي ظاهرها التعارُض فِي هَذَا البابِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ من الحِكْمَةِ أن يُرَدَّ الباطلُ بالحقِّ بدون سكوتٍ؛ لِقَوْلِهِ فِي جوابهم: ﴿قَالَ طَـٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي أن يَكُونَ الردُّ من جنسِ الإيرادِ، فهنا تَطَيَّروا بصالح ومن معَه، فبيَّن أن طِيَرَتَهم وشُؤْمَهم بسببِ أعمالهم، ولذا قَالَ: ﴿طَـٰٓئِرُكُمۡ﴾ فاللفظُ مثل اللفظ، فينبغي أن يَكُون الجوابُ مثلَ الإيرادِ، ويَتَحرّى المجيب حَتَّى اللفظ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ ينبغي لمن ردَّ عَلَى غيره أو أبطلَ قولَه أن يأتيَ بأمرٍ لا جدالَ فيه؛ لِأَنَّ صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لو قَالَ: هَذَا الجَدْب لَيْسَ منِّي وأنا ما أتيتُ بسببِه ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لكان هَذَا فِيهِ مجال للأخذِ والردّ، ولكِن يَنبغي أن يختارَ المجيبُ الجوابَ الَّذِي لا كلامَ بعدَه.

ونظيرُ هَذَا مُحاجَّة إبراهيمَ للذي حاجَّه فِي الله ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، لم يقلْ: لا، أنت لستَ تُحْيِي وتميت، ولكِنك تقتُل مَن لا يَستحِقّ القتلَ وترفَع القتلَ عمَّنِ استحقَّه، وهَذَا لَيْسَ بإحياءٍ ولا إماتةٍ، مَعَ أَنَّ هَذَا هُوَ الحقيقة، لكِن هَذَا يَكُون فِيهِ جَدَلٌ؛ إِنَّمَا أتى بأمرٍ لا جدالَ فِيهِ ولا يُمْكِنُه أنْ يُجادِلَ، ولهَذَا بُهِتَ الَّذِي كفر.

وهَكَذَا يَنبغي للإِنْسَان فِي مُحاجّة مَن حاجّه أن يختار الأجوبةَ الَّتِي لا تؤدِّي إِلَى النزاعِ والجدالِ؛ لِأَنَّهُ إذا أدَّت إِلَى النزاع والجدال فقد يَتَغلَّب الباطلُ عَلَى الحَقّ بسبب طولِ الجدال واللفّ والدَّورانِ، لكِن يُؤتَى بشيءٍ لا جـدالَ فيه، وهَـذَا من آدابِ المناظرةِ حَتَّى عند الَّذِينَ يَتكلَّمُونَ بهَذِهِ الأُمُورِ، فيَرونَ أن من آدابِ المناظرةِ الأخذ بما لا يُمْكِن الجدلُ فيه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله تَعَالَى قد يُحْدِث منَ الأُمُورِ ما يَكُون سببًا لافتتان بعض النَّاس؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَمَّا جاء صالح جاء الجَدْب، وهَذَا فِي الحقيقة فتنةٌ لبعضِ النَّاسِ؛ إذ يَقُول بعض النَّاس مثلًا: إن هَذَا من أَسْباب هَذِهِ الرسالةِ، فيَكُون سببًا للفتنةِ، لولا عصمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهَذَا دائمًا يَكُون فِي أفعالِ اللهِ تَعَالَى الْقَدَرِيَّة والشَّرْعِيَّة، فِي الشَّرْعِيَّة: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤]، حرَّم الله الصيد عَلَى المحرِمين، فبعث الله إِلَى الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ صَيدًا تناله أيديهم ورِماحهم يُمْسِكه بيده بدون تعبٍ وبرُمحِه بدون أن يحتاج إِلَى قوسٍ ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فخافوه بالغيب.

وافتتن الله تَعَالَى قومَ موسى بالحيتانِ تأتيهم يومَ سَبْتِهِم شُرَّعًا مَعَ تحريم الصيد عليهم، ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم، ولكِنهم لم يَصْبِروا وخادعوا فتحايَلُوا، وصاروا يَضَعُون الشباكَ للحيتانِ فِي يوم الجُمُعة فتأتي الحيتان فتقع فِيها يوم السبتِ، فإذا كَانَ يوم الأحدِ جاءوا وأخذوها، وقَالُوا: نحن ما صِدنا يوم السبتِ، فقلبهم الله تَعَالَى قِردَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

فالحاصل أقول: إن الله تَعَالَى قد يَفتِنُ الإِنْسَان بالفتنِ الشَّرْعِيَّة والْقَدَرِيَّة لأجلِ أن يعلمَ مَن يخافه بالغيب، ومن يصبر ومن لا يصبر.

أحيانًا أيضًا يُبْتلى المرءُ بالمصائبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ [الحج:١١]، ومنَ النَّاس مَن يعبد الله تَعَالَى عَلَى أساسٍ لَيسَ عَلَى حرفٍ، فإن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به، وشكرَ عليه، وإن أصابَتْهُ فِتنةٌ صبرَ حَتَّى يجْتازَها.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن الجدبَ والقحطَ هُوَ آيَةٌ وَلَيْس فتنةً؟

فالجواب: هَذِهِ فتنةٌ؛ لِأَنَّ النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّن أن السَّبَب ليسَ الرسالة، وَهُوَ ما جاء بها لتشهد عَلَى رسالته، أُجيبوا بها لِأَنَّهُم كذَّبوا، مثلما أُجيبتْ قريشٌ بدعاء النَّبيّ ﷺ بسنين كسنين يُوسُف[1].

وهو ما قَالَ لهم: إن آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقَحْطِ، وحتى لو قَالَ: إنَّ آيتي أن يَبْتَلِيَكُمُ اللهُ بالقحطِ وحَصَلَ فهُوَ آيَة.

• • ❁ • •

(١) رواه البخاري، كتاب الاستسقاء، باب دعاء النَّبِيِّ ﷺ: «**اجعلها عليهم سنين كسني يوسف**»، حديث رقم (٩٦١)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم (٦٧٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٤٨)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

• • ❁ • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مَدِينة ثَمُود ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أي: رِجال]، الْمُفَسِّـر قَالَ: أيْ رجال، والرهطُ صحيحٌ هم الرِّجال، لكِنهم قَالُوا: إن الرهطَ ما بينَ الثلاثةِ إِلَى العشَرةِ، وبعضهم قَالَ: ما بينَ السبعةِ إِلَى العشَرةِ، فعلى هَذَا ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ يَكُون تسعة فِي تسعة؛ بواحد وثمانين، والْمُفَسِّـر فَسَّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الرهطَ بالرِّجال لا بمعناها الخاصّ؛ لأجل أن تستقيمَ الإضافةُ؛ إِذِ الشَّيْء لا يُضاف إِلَى نفسه إِلَّا عَلَى تأويلٍ.

وقال بعضهم: إِنَّهُ لا حاجة إِلَى هَذَا التأويل؛ لِأَنَّ الإضافةَ هنا بَيانيَّة، أي أنَّ ﴿رَهْطٍ﴾ تفسير لـ(تسعة)، كأنه قَالَ: (تِسعةٌ رَهطٌ).

والْمَعْنى عَلَى كُلّ حال: هُوَ أن هَذِهِ الْمَدِينَة -مدينة صالح أو مدينة ثمود- كَانَ فيها رجال تسعة، والتسعة هَذِهِ كانت مجالًا للتفاؤلِ والتشاؤم، فالبعض يتشاءم من العددِ تسعة، يَقُول: لِأَنَّ تسعة جاءت بالإفسادِ فِي الْأَرْض ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والبعض يتفاءل بها، والرافضة يتشاءمون بالعشرةِ ويتفاءلون بالتسعةِ، معَ أنَّ الْمُبَشَّرِينَ بالجنَّة عَشَـرة، لكِن هم يُخْرِجُون عليَّ بنَ أبي طالـبٍ منهم، فهم

يتشاءمون بالعشرة، وعَدُوُّهم من العددِ العشرة، وصديقهم التسعة؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: هم آل البيت الَّذِين وضع عليهم الرَّسُول الكساء، فقال لهم شيخ الإِسْلام: يَجِب إذا كنتم تتفاءلون أو تتشاءمون بالعدد أنكم تتشاءمون بالتسعة؛ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي قَالَ الله فيها: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، أَمَّا العشرة فإن الغالبَ أَنَّهَا خير: عشر ذي الحجَّة، وعشر رَمَضَان، والعشرة المبشرون بالجَنَّة، وأمثلة كثيرة لا تَحْضُرني الآن(١).

وأنا أقول: إن كلام شيخ الإِسْلام هَذَا للتنزُّل مَعَ الخصمِ، وإِلَّا هُوَ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يتفاءل لا بهَذَا ولا بهَذَا، فالعدد عدد، لَيْسَ فِيهِ أثرٌ لشيءٍ.

قوله: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمَعاصِي، وكلما ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الفساد فِي الْأَرْض فالمُراد به المعصية: الشرك فما دونه؛ لِأَنَّهُ لَا شَكَّ أن عمل المَعاصِي نفسه فساد، ثُمَّ هُوَ سببٌ للفسادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠]، وقال تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، فالمَعاصِي هِيَ نفسها فسادٌ، وهي سببٌ للفسادِ أيضًا، فلذلك كلَّما ذكر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الفسادَ فِي الْأَرْض فالمُرادُ به المَعاصِي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالمَعاصِي، مِنْهَا قَرْضُهُمُ الدَّنانيرَ والدَّراهِمَ]، أي يُقطِّعونها ويخرِّبونها ويَقُصُّون من الدراهمِ والدنانيرِ، لكِن هَـٰذِهِ إسرائيليات لا دليلَ عليها، ولَيْسَ هَذَا هُوَ أكبر المَعاصِي، صحيح أَنَّهُ غِشّ، لَكِنَّهُ

---

(١) انظر: منهاج السنة (١/ ٤٠، ٤/ ١٣٩، ٧/ ٤١٧).

لَيْسَ أكبر المَعاصِي.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: أهمُّ شيءٍ أَنَّهُم أنكروا الرسالةَ وكفَروا بالخالِقِ، فهَذِهِ من أعظمِ المَعاصِي الَّتِي يُفْسِدُونَ بها فِي الْأَرْض.

قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يُفْسِدون ولا يُصْلِحون، معناه أنَّ فَسَادَهم هَذَا -والعياذُ باللهِ- شاملٌ، لَيْسَ فِيهِ صلاحٌ أبدًا، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من قولِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، وفيه فائدة عظيمةٌ، وَهُوَ أَنَّهُ قد يَجتمِع الصلاحُ والفسادُ فِي آنٍ واحدٍ، كما أن الْإِنْسَان يَكُون مؤمنًا ويَكُون فاسقًا، ويَكُون فِيهِ إيمانٌ وفيه كفرٌ، وفِيهِ فسوقٌ وطاعةٌ، وفِيهِ فسادٌ وصلاحٌ، فالأُمورُ إمَّا خيرٌ محْضٌ وصلاحٌ محْضٌ، وَإمَّا شرٌّ محض وفساد محض، وَإمَّا خليطٌ من الأَمْرينِ. وهَؤُلَاءِ القومُ يُفسِدون ولا يُصلِحون، والعياذُ باللهِ، فما يصلحون بالطاعة أبدًا، وهَذَا دليل عَلَى أَنَّهُم لَيْسَ فيهم خير محض، ولَيْسَ فيهم خير أبدًا، لا قليل ولا كثير، لكِن فيهم أُناس خيِّرون، وهم الَّذِينَ آمنوا بصالحٍ واتبعوه، لكِن هَؤُلَاءِ الرهط التسعة يفسدون ولا يصلحون، دائمًا لَيْسَ لهم هَمّ إِلَّا الفساد فِي الْأَرْض بالمَعاصِي، وإلقاء الفِتَن بين النَّاسِ، ومحاولة قتل المُصْلِحِين، ولهَذَا قالُوا: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل:٤٩]، إِلَى آخرِه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: التشاؤُمُ هل يُعْتَبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ؟

فالإجابة: التشاؤمُ شِركٌ أصغرُ، ما لم يعتقد أَنَّهُ مؤثِّر بنفسِهِ فيَكُون أكبرَ، وأظننا ذكرنا هَذِهِ القاعدة: كُلّ مَن أثبتَ سببًا غيرَ شرعيٍّ أو قَدَرِيّ -يعني لا يقتضيه الشرعُ ولا القدرُ- فَهُوَ مُشرِكٌ، لَكِنَّهُ شرك أصغر، لا يؤدِّي إِلَى الأكبرِ، فأَمَّا ما اقتضاه الشرع أو اقتضاه القدرُ: فما اقتضاه الشرع بأن يعلم من طريقِ الشرعِ أن هَذَا سبب لهَذَا، كقراءةِ الفاتحةِ عَلَى المريضِ سبب للشفاءِ شَرعًا، يعني جاء بها الشرعُ، والتجارب

الَّتِي تُجرَى عَلَى بعضِ النباتاتِ وبعض الأدوية فيُعرَف تأثيرها، فهَذَا سَبَبٌ قَدَرِيّ جاء به القدرُ، لكِن لَا بُدَّ أنْ يعتقدَ أن النافعَ هُوَ اللهُ وأن هَذَا من أَسْبابِ النفعِ، لكِن لو اعتقدَ أَنَّهُ ينفع بنفسِهِ وَلَيْسَ سببًا محضًا صارَ متَّخِذًا مَعَ اللهِ إلهًا. المهمُّ أن الأَشْيَاء الَّتِي لم يَدُلّ عليها الشرعُ ولا القدرُ هَذِهِ لا يجوزُ أنْ نُثْبِتَ أَنَّهَا أَسْباب، مثل: إِنْسَان علَّق خيطًا برقبتِه، قَالَ: هَذَا لدفعِ العينِ، فالذي يعلق هَذَا الخيطَ لا يصابُ بالعينِ، فهَذَا لَيْسَ بسببٍ، ولَيْسَ بصحيحٍ، فأين الشرع الَّذِي دلَّ عليه وأين القدرُ الَّذِي دلَّ عليه؟! وكم من إِنْسَانٍ يُصاب بالعينِ وعليه هَذَا الخيطُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: تقنين القوانين الوضعيَّة يُعتبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ، وهل يدخل فِي مسألة الأَسْبَاب؟

فالإجابة: التقنين لا يدخل فِي هَذِهِ المسألةِ، وهي مسألة الأَسْبَاب الَّتِي أَشرنا إليها، نحن نتكلمُ عنِ الأَسْبَاب، فمن جعل سببًا لمسببات معينة بدون شرع ولا قدر فَهُوَ مشركٌ.

وأمّا مسألة التشريعِ فليستْ داخلةً فِي مسألةِ الأَسْبَاب الَّتِي أشرنا إليها، هَذِهِ من جهةٍ أخرى، فالتشريعُ حُكْم بغير ما أنزلَ اللهُ، أي: إِنْسَان يَشْرَع ما لم يَشْرَعْهُ اللهُ، ويعتقد أن الله لم يشرعْه وَأَنَّهُ أصلح ممَّا شرعَ اللهُ، فَهُوَ كافرٌ كفرًا مُخْرِجًا منَ المِلَّة، سواء حكم به أم لم يحكمْ أم تركَ النَّاس يحكمون به، ولهَذَا يَجِب أن نفـرِّق بين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ تشريعًا، وبين مَن لم يحكمْ بما أنزلَ اللهُ فِعلًا، فالَّذِي يحكمُ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ فِعلًا لا تَشريعًا هَذَا قد يكفر وقد يفسق وقد يظلم، وَالَّذِي يحكم بغير ما أنزلَ اللهُ تَشريعًا، بمعنى أَنَّهُ يجعله هُوَ الشرعَ؛ شرع مُبَدَّل بدل شرع مُنَزَّل، هُوَ يرى أن هَذَا الشرع المبدل أصلح للعالمِ من الشرعِ المنزلِ، فهَذَا كافر، ولا ينقسم فعله

إِلَى ظلمٍ وفسقٍ وكفرٍ، بل هُوَ كفرٌ محض.

فالحكَّام الْآنَ الَّذِينَ يُقَنِّنُونَ للناس قوانينَ ويَقُولُونَ: يَجِب أن تمشوا عليها لِأَنَّهَا أصلحُ لكم مما سبقَ، فهؤُلَاءِ كفارٌ، حَتَّى وإن لم تَنْزِلْ بهم نازلةٌ واحدةٌ فيحكموا بِهَذِهِ القوانين، فهم كفار، مثال ذلك إِنْسَان رئيس دولة شَرَع نظامًا ويَعْرِفُ أن هَذَا النظامَ مخالِفٌ للشرعِ، لكِن يعتقد أَنَّهُ أفضلُ منَ الشرعِ وأصلحُ للخلقِ، وهُوَ ما حَكَمَ به لكِن سَنَّه وتركَ النَّاس يحكمون به، نَقُول: هَذَا كافرٌ كفرًا مخرجًا عنِ المِلَّة، ويجب الخروجُ عليه، إِلَّا إذا كَانَ متأوِّلًا، فقد يَكُون متأولًا، قد يَقُول: لا، هَذَا لا يخالف الشرعَ؛ وذلك لِأَنَّ عندنا بعض العُلَماء -الله يهدينا وإياهم- يفتحون للحكام أبوابًا، حَتَّى إِنَّهُم يموِّهون عليهم ويَقُولُونَ: مسائل الدُّنْيا ما للشرع فيها دخل؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يَقُول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ»[1] فِي مسألة التلقيح، فيموِّهون عَلَى الحكامِ، يَقُولُونَ مثلًا: تجوز البنوكُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ من النظام الاقتصاديّ الحديث، لَيْسَ للشرع فِيهِ دخل، وتجوز صناديق التنميات وَلَيْسَ فيها شَيْء؛ لِأَنَّ هَذِهِ من الأُمُور الاقتصادية الَّتِي يُرجَع فيها إِلَى ما يقتضيه العصر، لَيْسَ للشرع فيها نظر، وغالب الحكام قد يجهلونَ هَذَا الأَمْر فيظنون أنَّ هَذَا صحيح، فيلتبس عليهم.

لكِنْ إذا علمنا وفَهَّمْناهم وبَيَّنَّا لهم الحَقّ وقُلْنَا: إن معنى قوله: «أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ» أي: فيما يتعلق بالعَمَل والصناعة، فالصانع يعرف كيف يصنع القِدْرَ، لكِن قد لا يعرفه الرَّسُول ﷺ، والحَرَّاث يعرف كيف يَبْذُرُ، لكِن الرَّسُول قد لا يعلم ذلك، لكِن أحكام شؤون دنيانا الأعلم بها الشرعُ، ففرق بين الأفعالِ وبينَ الأحكامِ،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي، حديث رقم (٢٣٦٣)، عن عائشة وأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

أنا الْآنَ مثلًا أعرف أن هَذَا الشَّيْء محرَّم من الصناعة أو من الزراعة أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكِن هل أعرف كيف أصنعه؟ وأعرِف أن صناعةَ السياراتِ من الأُمُورِ الطيِّبة المطلوبة؛ لِما فيها من المصلحةِ، لكِن هل أعرِف كيف أصنعُ السيَّارة؟ أقول للكافر المشرك الملحِد الشيوعيّ الخبيث: أنت أعلم بشؤون دنياك، لَكِنَّهُ لَيسَ أعلم منِّي بحكم هَذَا الشَّيْءِ، وهَذَا واضحٌ، فقول الرَّسُول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ» يعني أنتم أعرفُ هل هَذَا التلقيحُ يَنْفَع أو لا يَنْفَع؛ لأَنَّكم مجرِّبون وفاهِمون، لكِن أنا أُعطيكم حُكْمًا شرعيًّا بأنَّ كُلّ ما كَانَ صالحًا للخلقِ ولأجلِ مَصْلَحَة الخلقِ فَهُوَ من الأُمُورِ المطلوبةِ شرعًا؛ لِأَنَّ أصل الشرائعِ ما نَزَلَتْ إِلَّا لإصلاحِ الخَلْقِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما وردَ عن النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي وسائل الطب يُشْكِل عَلَى هَذَا؛ لِأَنَّ النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَيسَ طبيبًا؟

فالجواب: نعم لَكِنَّهُ بالوحي يُدْرِك هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ هُوَ إمَّا أن يَكُون أدركه بالتجارِبِ، فإذا أدركه بالتجارِبِ وأخبرَ به عُلِمَ، وَإِمَّا أن يَكُونَ قد أدركه بالوحيِ، فمثلًا ذِكره أنَّ الشفاء فِي ثلاثٍ(١)، والعَسَل معروف بالوحي: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل:٦٩]، وهناك الكَيّ والحِجَامة، فيَحْتَمِل عندي أنا وعند غيري أَنَّهُ تلقَّى ذلك من الوحيِ، ونحن لا نعلم بهَذَا، ويَحتمِل أَنَّهُ عَلِمَه من التجارِبِ وثبَت عندَه، ومع ذلك أيضًا نَقُولُ: ما دامَ الرَّسُول ﷺ أَثْبَتَهُ فإنَّنا نُثبته؛ لِأَنَّهُ ثبت بقولِ الرَّسُول وكذلك التجارِب تَشْهَد له.

فالتَّلْقِيح وغيرُه مثل صناعة الأبوابِ والبناياتِ، وهَذِهِ الأَشْيَاء قد لا يَعْلَمُها

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إنْ كَانَ قدْ مَارَسَها، ولهَذَا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لو كَانَ عنده فِي مكَّة نَخْلٌ ومارسَ هَذَا الشَّيْءَ أو مارسه أهل مكَّة وعَلِموا به لَدَرَى عنه الرَّسُولُ، لَكِنَّهُ أتَى للمدينةِ أوَّل ما أتى وقال: واللهِ أنا ما أظنُّ أنَّ هَذَا التلقيحَ يَنْفَعُ شيئًا[1]، ولم يقلْ: لا تُلَقِّحوا، لكِن الصحابة لِتَعَبِهِم مِنَ التلقيحِ لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلامَ فرِحوا وقَالُوا: إذنْ لا نُلَقِّح وتركوا التلقيحَ.

فما أخبر به الرَّسُولُ قد يَكُونُ بالممارسةِ وقد يَكُونُ بغيرِ الممارسةِ، مثلًا: «**الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**»[2] هل هَذَا وحيٌ أو لا؟

هَذِهِ بالذات قد تكون وحيًا؛ لِأَنَّهَا خَفِيَّة، لكِن مسألة الحِجامة ومسألة الكَيِّ هَذَا أمرٌ معلومٌ ومعروفٌ عندَ النَّاسِ، فقد يُغَلِّبُ الْإِنْسَان أن الرَّسُول ﷺ عَلِمَ ذلك بالتجارِب، وقد يقولُ الْإِنْسَان: هَذَا وحيٌ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ أوحاه إليه.

والمعلوم بالتجارب قطعيّ إذا حكَمَ به الرَّسُولُ، مَعَ أن الرَّسُول يَقُول: «**إِنْ كَانَ الشِّفَاءُ فِي شَيْءٍ فَفِي ثَلَاثٍ**» فما جزَمَ؛ لِأَنَّهُ قد لا يَشفَى الْإِنْسَان بِهَذِهِ الثلاث.

وكلامه الأوَّل فِي التلقيحِ لَيْسَ عن تَجارِبَ، ولهَذَا أخلفَ الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عنده وَحْيٌ ولا تَجارِبُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

إِذَنِ: الرَّسُول قالها رأيًا، هُوَ قَالَ: أَرَى أنَّ ذلك لا يَنْفَع شيئًا، لكِن مِثْلَما تقدَّم: أنَّ الصحابة لَمَّا سمِعوا هَذَا الكَلام فرِحوا به، قَالُوا: إذن كُفِينا المُؤْنَة؛ ما دام هَذَا ظَنّ النَّبِيّ ﷺ، وتَرَكُوه وفَسَدَ النخلُ.

---

(١) سبق تخريجه بلفظ: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم».

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، باب المن شفاء للعين، حديث رقم (٥٣٨١)؛ ومسلم، كتاب الأشربة، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها، حديث رقم (٢٠٤٩)، عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قد يُشْكِل عَلَى بعض النَّاس فيقولونَ: كما أَنَّهُ لَيْسَ مُؤَبِّرًا فَهُوَ لَيْسَ أيضًا طبيبًا؟

فالإجابة: ليس بصحيح، نَقُولُ: الرَّسُول ﷺ ما جَزَمَ بأنه يفيدُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ لكلِّ مؤمنٍ، ويستطيع أَنْ يُدَافِعَ لمن أوردَ شُبهة فِي هَذَا الأَمْر فيقول: النَّبيّ ﷺ ما جَزَمَ، ولو جزمَ النَّبِيّ ﷺ بهَذَا الأَمْرِ فَإِنَّمَا جزمَ به عَلَى سبيلِ الظنّ، والإِنْسَان قد يَجْزِم بالشَّيْءِ عَلَى سبيلِ الظنِّ، وقد أقرَّ النَّبِيّ ﷺ مَن جَزَمَ.. بل قد أقسمَ عَلَى سبيلِ الظنّ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الأطبّاء العَصْرِيُّون يعملون بالكيِّ، فهل يُرَدّ الحديثُ بِسَبَبِ ما ظَهَرَ من أنواعِ التقدُّم فِي الطبِّ أو لا؟

نَقُول: هَذَا لَيْسَ بصحيح، أولًا: هم الْآنَ يؤمنون بالكيِّ، لكِن تَخْتَلِف الوسيلة الآن، فالكيُّ بالكهرباء ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ هَذَا معروف لهم، ومُسْتَعْمَل ويؤمنون به. وكما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**» لَيْسَ المُرادُ بالرمي بالقوس الآن، الرمي بالآلة الموجـودة، والكي أيضًا بالآلة الموجـودة. وهم أيضًا الْآنَ فِي بعض الأَشْيَاء يَلْجَئُون إِلَى الطبِّ العربيّ، وأذكر أنهم دائمًا يَنْصَحُون المريضَ بذاتِ الجَنْبِ ويَقُولُونَ: اذهَبْ تَطَبَّب طِبًّا عربيًّا، ويُكْوَى ويُشْفَى بإذن الله.

وهم فِي الحقيقـة قد يُنْكِرون الوسيلةَ أو الآلةَ الَّتِي حَصَلَ بها الكَيّ، أو فِعْل بعض الَّذِينَ يكوون بالحديدِ، ففِعل بعض الَّذِينَ يكوون فظيع والعياذُ باللهِ، أنا أذكُرُ أنّ بعضَ النِّسَاءِ يُؤتَى إليها بالطفلِ وتَعْمَل له فِي رأسه ثمانين كَيَّة، وكذا فِي ظَهْره كُلّ خرزة مِنَ الظَّهر عليها خَمْس. فالأطباء يَقُولُونَ بهَذَا الشَّيْءِ ويُنْكِرونه لِئَلَّا يَحْصُل مثل هَذِهِ الحالاتِ.

والرَّسُول ﷺ لما ذكر هَذِهِ الأَشْياء فلَيْسَ معناه أن هَذِهِ حتمًا هِيَ الَّتِي تَنْفَع، بل قد يقوم مَقامها ما هُوَ أَولى منها، ونَهْيُ النَّبِيِّ ﷺ عن الكَيِّ لَيْسَ للتحريمِ[1]، والنَّبِيّ ﷺ نَفْسُه فعَلَ وكَوى سَعْدَ بنَ مُعاذٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[2].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: فِيهِ مَبْدَأ العَصابات، ولا يزالُ مَوْجودًا إِلَى الآنَ، فإن هَؤُلَاءِ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ وما زالَ الأَمْر إِلَى يومنا هَذَا وإلى ما بَعْد واللهُ أَعْلَمُ وَأَنَّهُ سَيَبْقَى؛ لِأَنَّ أهل الشَّرّ لهم طُرُق يَتَفَنَّنُون بها فِي فرضِ شَرِّهِم عَلَى غيرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يمكن أنْ يَجْتَمِعَ الفساد والصلاح، يعني أن الفساد والصلاح قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ولولا أَنَّهُ يمكن اجْتِماعُهما لم يكنْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فائدة؛ لِأَنَّهُ يَكُون عدم الصلاح مفهومًا من إثباتِ الفسادِ، لو لم يُمْكِنِ اجْتِماعُهما.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الكفر والإيمان قد يجتمعانِ فِي شخصٍ؛ لِأَنَّ الإيمان صلاحٌ والكفرَ فسادٌ، وكذلك أيضًا الفُسُوق والطاعة يمكن أن يَجْتَمِعَا، وخالف فِي ذلك طوائفُ منَ النَّاسِ: المُعْتَزِلَة والخوارِجُ والمُرْجِئَة، فالمرجئة قَالُوا: لا يمكن، فالإِنْسَان إذا كَانَ مؤمنًا كُلّ أحوالِهِ صالحةٌ ولا يُعَذَّب بذنبٍ ولا يُلام عليه، والخوارج والمُعْتَزِلَة

---

(١) رواه البخاري، كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث، حديث رقم (٥٣٥٦)، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) رواه مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي، حديث رقم (٢٢٠٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

بالعكسِ قَالُوا: لا يمكن أنْ يَجْتَمِعَ كفرٌ وإيمانٌ، وفُسُوق وطاعة، بل مَن أتى ما يُوجِب الفِسْق صار كافرًا، ومَن أتى ما يُوجِب الكفرَ صارَ كافرًا عَلَى رأيِ الخوارِجِ، أو خارجًا من الإِيمان بين منزلةِ الإِيمانِ والكفرِ عَلَى رأي المعتزلة، ولَا شَكَّ أن النصوصَ والواقعَ والعقلَ يَدُلّ عَلَى خلافِ ما قالوا؛ لِأَنَّ اجتماعَ هَذَا وهَذَا أمرٌ موجودٌ مَعْلُوم، فالعاصي نَقُول: إِنَّهُ مؤمنٌ ناقصُ الإِيمانِ، فلا نُطْلِق عليه الإِيمان المُطْلَق، حَتَّى لو كَانَ عنده إيمانٌ عشرة فِي المِئَة، لَا بُدَّ أن يَكُونَ ناقصَ الإِيمانِ، أو نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِقٌ بكبيرتِهِ، مثلًا لو اغتابَ الْإِنْسَان رجلًا من النَّاسِ، فهَذِهِ كبيرةٌ منَ الكَبائِرِ تَنْقُصُ الإِيمانَ، وَهُوَ يُصَلِّي ويصوم ويزكِّي ويَحُجّ ويتطوع بسائر التطوُّعاتِ، لا نعطيه وصفَ الإِيمانِ المطلَق، بل نَقُول: مؤمن بإيمانِهِ فاسِق بِكَبيرتِهِ أو مؤمن ناقصُ الإِيمانِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس قوله تَعَالَى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ مثل قول الصحابيّ: فأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ ونُهِينا عَنِ الكَلَامِ[1]، بمعنى أنَّ الوَصْفَ يَتَحَقَّق بواحدٍ منهما؟

فالجواب: لا؛ لِأَنَّ السكوتَ والكَلامَ متناقِضانِ، أَمَّا الصلاحُ والفسادُ فمُتَضَادَّانِ يُمْكِن أنْ يَجْتَمِعَا، فيَكُونُ فِي الشَّيْءِ مَصْلَحة ومَفْسَدة، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢١٩]، أَمَّا هَذَا فإمَّا سكوتٌ أو كلام، فهما متناقضان، يعني لا يمكن أن يوجدَ أَحَدُهما إِلَّا بِفَقْدِ الآخَرِ.

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب العمل في الصلاة، باب ما ينهى عنه من الكلام في الصلاة، رقم (١٢٠٠)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته، رقم (٥٣٩).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ المَعاصِيَ من أَسْبابِ الفسادِ في الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُفْسِدُونَ﴾، وهَـؤُلَاءِ الجمـاعةُ ليسـوا يَهْـدِمُون البيوتَ ولا يُغْرِقُون الزُّرُوعَ ولا يُحْرِقون المتاجِرَ، لَكِنَّهم يفعلون ما يَكُون سببًا للفسادِ؛ الفساد المَعْنَوِيّ، وَهُوَ فساد الأخلاقِ والسلوكِ، والفساد الحِسِّي؛ لِأَنَّ الفساد الحِسِّيّ يَتْبَع الفسادَ المعنويَّ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٩)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٩].

• ● ● •

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾ أي: هَؤُلَاءِ التسعة، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالُوا۟﴾ أي: قَالَ بَعْضُهم لبعضٍ ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ أي: احْلِفُوا ﴿بِٱللَّهِ﴾]، يعني طَلَبَ بعضهم مِن بعضٍ أنْ يَتَعَاهَدوا عَلَى هَذَا الأَمْرِ ويتحالفوا عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ومعنى البياتِ إنزالُ العقوبةِ به ليلًا، فهنا حَلَفوا -والعياذُ باللهِ- وهَذَا الحَلِف الفاجِر عَلَى أنْ يُبَيِّتُوا صالحًا وأهلَه، ولهَذَا قَالَ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ اللامُ فِي قولِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ واقعةٌ فِي جوابِ القَسَمِ، والنون للتَّوكيدِ، فهم أكَّدوا هَذَا الفِعْل باليمينِ واللامِ والنونِ.

يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ بالنونِ والتاءِ وضَمّ التاءِ الثَّانِيَةِ]، إذا جعلناها بالتاء لَزِمَ ضَمُّ الثَّانِيَة: «لَتُبَيِّتُنَّهُ»، وَأَمَّا ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ فإنَّ التاءَ تَبْقَى مفتوحةً[1].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ أي: مَن آمنَ به أَيْ نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا]، هَذَا تفسيرُ البياتِ، والمُرادُ بالأهلِ أتباعُهُ كما قَالَ الْمُفَسِّـر، ولكِن قد يُنازَع فِي هَذَا ويُقال: إن المُرادَ به أهلُه الخاصُّون، يعني أهل بَيْتِه؛ لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ يَكُونونَ فِي الغالبِ معه فِي الليلِ، فإنَّ الغالبَ أنَّ الْإِنْسَانَ فِي الليلِ لا يَكُونُ معه فِي بيتِهِ إِلَّا أهله الخاصُّون به.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

ثُمَّ بَعْد ذلك، أي بَعْد أنْ نُبيِّته ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالنون والتاءِ وضَمّ اللامِ الثَّانِيَةِ]، أي: وضمِّ اللامِ الثَّانِيَةِ إذا كانتْ بالتاءِ: (لَتقُولُنَّ)، أمَّا عَلَى قراءةِ النونِ فهي بالفتح: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾.

يعني: ثُمَّ بعدَ أنْ نُبيِّتَه ونقتله إذا قامَ وَلِيُّه بالأخذِ بِثأرِهِ نَقُول ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِوَلِيّ دَمِه].

ووليُّ الدمِ عندنا فِي الشَّرِيعَة الإِسْلاميَّة هم الوَرَثَة بفرضٍ أو تعصيبٍ، وَقِيلَ: بل همُ العصبةُ؛ لِأَنَّهُم الَّذِينَ يؤدُّون العقلَ عنه، وَأَمَّا ذَوُو الفَرْض فلَيْسُوا مِن أولياءِ الدمِ، والصَّوابُ العمومُ؛ أنَّ أولياءَ الدمِ همُ الورثةُ بفرضٍ أو تعصيبٍ، حَتَّى الزوجة والأمّ هما مِن أولياءِ الدمِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَا شَهِدْنَا﴾ حَضَرْنَا ﴿مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ بِضَمِّ الميمِ وفَتْحِها]: (مُهْلَك ومَهْلَك) ولم يَتَعَرَّضِ المُفَسِّر للقراءةِ الثَّالثةِ وهي (مَهْلِك)، فالقراءات فيها ثلاث: فتح الميم وكسر اللام (مَهْلِك)، فتح الميم واللام (مَهْلَك)، ضمّ الميم وفتح اللام (مُهْلَك)، وهاتانِ الأخيرتانِ هما اللتانِ ذكرهما المُفَسِّر: (مُهْلَك أهله ومَهْلَك أهله)، يَقُول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إهلاكهم أو هلاكهم]، عَلَى القراءتين: (مُهْلَك) أي إهلاك؛ لِأَنَّ (مُهْلَك) من (أَهْلَكَ) الرُّبَاعِيّ، و(مَهْلَك) من هَلَكَ الثلاثيّ، ولذلك نَقُول: إذا كَانَ الفِعْل ثلاثيًّا فإن المصدر المِيميّ منه عَلَى وزن مَفْعَل: هلك مَهْلَك، قام مَقَام. وإذا كَانَ رُباعيًّا فإن المصدرَ الميميّ منه عَلَى وزن اسْم المَفْعُول، فتقول: مُهْلَك من أَهْلَكَ، وتقول: مُقَام من أقام، وتقول: قام فينا مَقَامَ فلان، مثلما قَالَ أبو حيَّان فِي ذِكْر ابنِ تَيْمِيَّة(١):

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (١/ ٢٤٧).

قَامَ ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي نَصْرِ شِرْعَتِنَا مَقَامَ سَيِّدِ تَيْمٍ إِذْ عَصَتْ مُضَرُ

قامَ مَقامًا، لكِن عندما تقول: (أقامَ) تقول: أَقَامَ فِي هَذَا المكان مُقَامَ فُلانٍ بضمِّ الميمِ، لا تقل: مَقام، وهَذِهِ قاعدة معروفةٌ فِي النحوِ؛ أنَّ المصدرَ الميميَّ إذا كَانَ من رُباعيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ اسمِ المَفْعُول، وإذا كَانَ من ثلاثيٍّ فَهُوَ عَلَى وزنِ مَفعَل أو مَفعِل مثل مَهْلِك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فلا نَدْري مَن قَتَلَهم]، وهَذَا الإنكارُ كَذِبٌ وليس بصحيح، فما داموا هم الَّذِينَ قتلوه فقوهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ هَذَا كَذِب، لكِن فِيهِ تَوْرِيَة؛ لِأَنَّهُم يَقُولُونَ: ما شهِدنا بل فَعَلنا، والشاهِد لم يَفْعَل، ولهَذَا قَالُوا: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

وجملةُ ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ هل هِيَ من جملة قولهم الَّذِي يدافعون به عن أنفسهم أو هِيَ تقريرٌ لقولهم: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، يعني أنهم لم يقولوه للدفاع عن أنفسهم؟ يعني هل قولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من جملة ما يَقُولُونَه للوليّ ليؤكِّدوا النفيَ؟ ما شَهِدنا وإننا لم نَكْذِب عليكم، إننا لَصادِقُون أننا ما شَهِدنا، هَذَا وجهٌ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَقُول بعضهم لبعض: واطمئنوا أيُّها الإخوة؛ فإنَّنا صادقون بأننا لم نَشْهَدْ؟

يَحْتَمِل هَذَا وهَذَا، إِنَّمَا المفسِّرون ذكروا احتمالِين: أحدهما أن يقولوه فِي جملة دِفَاعِهِم عن أنفسهم لوليّ صالح، وعلى هذا فتكون جملة ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ تقريرًا لقولهم: ما شَهِدنا مَهْلِكَ أَهْله، والتَّقْدير: ما شهِدنا وإنا صادقونَ فلن نُخْبِرَكم بشيءٍ، أو أن المَعْنى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ ونحن إذا قُلْنَا هَذَا فإنَّنا صادقون لأنَّنا ما شَهِدنا المَهْلِك، ولَكِنَّنَا أَهْلَكْنَا بأنفسنا، لسنا شهودًا بل فاعلون؛

لِأَنَّ الفاعل غيرُ الشاهِدِ، وهَذَا المسألةُ تَوْرِيَة كما تقدَّم، وإِلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ مَن فعلَ فقد شَهِدَ، بل أبلغ، لكِن يُهوِّن بعضهم الأَمْرَ عَلَى بعضهم حَتَّى لا يَكُون فِي أنفسِهِم شيءٌ، لكِن لتهوينِ الأَمْر عَلَى بعضهم يلقِّن بعضهم بعضًا.

والحاصل: أن هَؤُلَاءِ -والعياذ بالله- أرادوا هَذَا الفِعْل المنكرَ وَهُوَ مَكْر؛ لِأَنَّهُ إتيانٌ لصالحٍ وأهلِهِ من حَيْثُ لا يَشْعَرُونَ، فإن الليلَ مَوْضِع السكونِ والهدوء، وإذا أحد اعْتَدَى عَلَى أحدٍ صار ذلكَ غَدْرًا ومَكْرًا، ولهَذَا حَتَّى فِي حربِ الْكُفَّار اختلفَ العُلَماءُ هل يجوزُ تَبْييت الْكُفَّارِ أو لا يجوز؟

فمِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَ التبييتَ وقال: لا يمكِن أن نقتلَ الْكُفَّار وهم غارُّونَ نائمون، ومنهم مَن أجازَ ذلكَ، والمسألةُ تَحتاج إِلَى تحرير بَحْث فِي هَذَا.

والحاصل: أن هَذَا منَ الغَدْر والمكْر أن يأتِيَ هَؤُلَاءِ إِلَى صالحٍ وأهلِهِ فِي الليلِ فيُبيِّتُوهم، ولهَذَا يقولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ [النمل:٥٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ مِنَ الحَزْم -والحزمُ قد يَكُونُ فِي الخيرِ وَقد يَكُونُ فِي الشرِّ- أنْ تَجْتَمِعَ الطائفةُ وتَتَعاقَد وتتعاهَد عَلَى مِنهاجها الَّذِي تَسِير عليه وتَتَّفِق عَلَى عهدٍ يَرْبِط بَعْضَها ببعضٍ لِيَكُونَ التنفيذُ واحدًا، ولئلَّا تَتفرَّقَ وتَخْتَلِف؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ ما ذهب كُلّ واحدٍ مَذْهبًا، فاجْتَمَعُوا فِي أَوَّل الأَمْرِ عَلَى تدبير الخُطَّة ثُمَّ عَلَى تنفيذِها، وهَذَا المَسْلَكُ لا زالَ يُسْلَك حَتَّى الآنَ. وتعرفون أنَّ الصحيفةَ الَّتِي اجتمعتْ قُرَيْشٌ فيها عَلَى مقاطعة بني هاشمٍ لم تُنْقَضْ برجلٍ واحدٍ، بل ذهب هَذَا الرجلُ الَّذِي أرادَ نَقْضَها إِلَى فلانٍ وفلانٍ وصارَ يُجمِّعُ النَّاسَ حولَه حَتَّى اجتمعوا عَلَى نقضها وغلبوا فِي تنفيذ فِكرتهم.

فالحاصل: أن هَذِهِ المسائلَ ينبغي للإِنْسَانِ إذا أرادَ أن يَهِمَّ بأمرٍ ويمشي عَلَى منهاجٍ أَنَّهُ يجعل معه أقوامًا يساعدونه ويتعاقدُ معهم ويتعاهَد، فإن كَانَ فِي خيرٍ فخيرٌ، وإن كَانَ فِي شرٍّ فالله يَتوَلَّاهُم، وهنا ﴿تَقَاسَمُوا۟﴾ عَلَى شرٍّ من أعظمِ الشرورِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيها دليلٌ عَلَى مبدأ الاغتيالاتِ؛ بمعنى أن الاغتيالَ موجودٌ حَتَّى فِي الزمنِ السابقِ، هَذَا المقصودُ، وَلَيْسَ معنى هَذَا أن هَذَا المبدأ مُباح، بل المُراد أن هَذَا موجودٌ ولا زالَ موجودًا، فغالبُ الأُمُورِ من خيرٍ أو شرٍّ تَجِدُ لها أصلًا فِي الأممِ السابقين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾؛ لِأَنَّ التبييتَ اغتيالٌ، إذ إن الاغتيال معناه هُوَ القتل عَلَى غِرَّة.

ولهَذَا كَانَ الصَّحيحُ من أقوالِ أهلِ العلمِ أن الغِيلَةَ لَيْسَ فيها خِيَار لأولياء الدمِ، وَأَنَّهُ يَجِب قتلُ المُغتالِ بكلِّ حالٍ، حَتَّى لو عفَوْا، وهَذَا مَذْهَبُ مالِكٍ واختيار شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة[(١)]؛ لِأَنَّهُ لا يُمْكِن التحرُّز منه، وَهُوَ فسادٌ فِي الْأَرْض، ولا يُعارِض هَذَا قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ**»[(٢)]؛ لِأَنَّ قوله: «**مَنْ قُتِلَ لَهُ**» هَذَا منَ الحقوقِ الخاصَّة، وَأَمَّا مسألة الاغتيال فإنها من الحقوقِ الْعَامَّةِ، حيث يأتي للإِنْسَانِ فِي مَأْمَنِهِ ويَقْتُلُه! فِفعل القاتل الَّذِي فِيهِ التخييرُ أَنَّهُ يأتيه ولو لم يوجدْ عندَه أحدٌ لكِن المهمّ أن المقتولَ يُمْكِن أَنْ يَتَحَرَّز منه بالفرارِ أو بالمدافعةِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ فيحصل القتل، أَمَّا أن يأتيَه وَهُوَ نائمٌ مثلًا أو يأتيه فِي بيته وَهُوَ غافلٌ، فهَذَا لا يُمكِن التحرُّز منه؛ لِأَنَّهُ إذا جاءه وَهُوَ يعلمُ به فيُمْكِنه أن يَتَحَرَّز

(١) انظر: بلغة السالك (٤/ ١٦١)؛ زاد المعاد (٤/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب من قتل له قتيل فَهُوَ بخير النظرين، حديث رقم (٦٤٨٦)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إِلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالفرارِ، ويتحرَّز بالمُدافعةِ، ويَتحَرَّز بالصِّياح لِمَن حوْلَه، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، ولَيْسَ قَوْلنا: إنَّهُ عَلَى خُفْيَة أَنَّهُ لا يوجدُ عنده أحدٌ؛ لِأَنَّ الغالبَ أَنَّهُ لا يُقْتَل إِلَّا إذا كَانَ لا يوجد عنده أحد، لكِن الكَلام عَلَى غِرَّة منَ المقتولِ، هَذَا هُوَ قَتْل الغِيلة.

فهؤُلاءِ الجماعة تَقَاسَمُوا عَلَى هَذِهِ الفِعْلة القَبيحَة المُشِينة، ولكِنهم لم يحصُلْ لهم تنفيذُ ما أرادوا؛ لِأَنَّهُم مَكَرُوا، ومكرَ اللهُ، واللهُ خيرُ الماكرينَ.

هل يجوزُ سلوكُ مبدأِ الاغتيالاتِ مَعَ الأعداءِ؟

إنْ كَانوا يَسْلُكُونه معنا سلكِناه معهم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل:١٢٦].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ دليل عَلَى إنكارِ المدَّعي، وهَذَا شَيْء واضح، أَمَّا الفاعل للسيئة فلا يُهِمُّه أن يُنْكِر فِعْلَه، يَعْنِي: مَن قتلَ يهون عليه أن يُنْكِرَ القتلَ؛ لِأَنَّ القتلَ أعظمُ من إنكارِه، فلهَذَا قَالَ: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ البيِّنة عَلَى المدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ؛ لِأَنَّهُ لَوْلَا أن هَذَا القَوْل يُبَرِّئهم ما صحَّ أن يَتَّفِقُوا عَلَى اتِّخاذِهِ حُجَّةً؛ يَقْتُلُونه ويَقُولُونَ: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، فاتَّفَقُوا عَلَى هَذَا، دلَّ هَذَا عَلَى أنَّ الإنكار يُبَرَّأُ به المُدَّعَى عليه، ووَجْهُه: أَنَّهُ لولا أن ذلك يُبَرِّئُهم لم يَنْفَعْهُم الاتفاقُ عليه؛ لِأَنَّهُ لو قَالُوا: ما شهِدنا مَهْلِكَهُم سيُقال: أنتم القاتلونَ، فهَذَا أيضًا دليلٌ عَلَى أنَّ البيِّنة عَلَى المدَّعي واليمين عَلَى مَن أنكرَ.

فإذا ادَّعَى شخصٌ أن هَذَا الرجلَ قتلَ والدَه، نَقُول له: هاتِ بيِّنَةً، فإذا لم يأتِ

ببينةٍ فَإِنَّهُ لا يَثْبُتُ له الحقُّ؛ لِأَنَّ البيِّنة عَلَى المُدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ. ولكِن هل هَذَا عَلَى إطلاقه؟

المشهورُ مِنَ المَذْهَبِ أَنَّهُ عَلَى إطلاقِه، وَأَنَّهُ لو كَانَ المُدَّعَى عليه القتلُ مِن أفجرِ النَّاسِ والمقتولُ من أطيبِ النَّاسِ، وكذلك المُدَّعِي فَإِنَّهُ لا يُؤْخَذ بِقَوْلِهِ؛ لِعُمُومِ قولِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ**»[1].

واختارَ شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ هَذَا يُؤْخَذُ بِقَوْلِهِ، ولكِن تُجْرَى فِيهِ القَسامةُ إذا كَانَ هَذَا الرجلُ معروفًا بالفسوقِ، والمقتول معروفًا بالصدقِ والاستقامةِ، وكذلك أولياؤه، قَالَ: فإن هَذه قَرِينَة تُغَلِّبُ عَلَى الظنِّ صِدْقَ المُدَّعِي، وَعَلَى هَذَا فتُجْرَى فِيهِ القَسَامَةُ. وما قاله الشيخُ فليسَ ببعيدٍ.

الأَمْر الثاني بالعكسِ؛ لو أَنَّ شخصًا قتلَ إِنْسَانًا وقال: نعمْ أنا قتلتُ ولكِن الرجل صالَ عليَّ ولم يَنْدَفِعْ إِلَّا بالقتلِ، فماذا أصنع؟

المَذْهَب: لا يُقْبَل قَوْلُه ويُقْتَل؛ فلو أَنَّ إِنْسَانًا أُدّعِي عليه أَنَّهُ قاتلُ فلانٍ، قَالَ: نعمْ أنا الَّذِي قَتَلْتُه لكِنَّني قتلتُه دِفاعًا عن نفسي؛ لِأَنَّ الرجل يريد أن يَقْتُلَنِي. نَقُول له: هاتِ بيِّنةً أَنَّهُ صالَ عليك وإلا قتلناك. قَالَ: لا يُمكِن أن يَكُونَ عندي بيِّنَةٌ؛ لِأَنَّهُ ما صالَ عليَّ أمامَ النَّاسِ، لو يَدْرِي أن حوله أحدًا ما صالَ.

نَقُول: إذن نَقْتُلك ويوم القيامةِ تَخْتَصِمُون عند الله. هَذَا هُوَ المذهَب، واختارَ الشيخُ هنا أَنَّهُ يُقْبَل قولُ المعروفِ بالصدقِ، فإذا كَانَ هَذَا القاتلُ الذي يَقُول: أنا قتلتُه دفاعًا مُسْتَقِيمًا، والمقتولُ معروفٌ بالفجورِ والاعتداءِ عَلَى الخلقِ، فَإِنَّهُ يُقْبَل قولُه ولكِن يَحْلِف تأكيدًا لقوله.

---

(١) رواه الدارقطني (٣/ ١١٠، رقم ٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٢٥٢، رقم ٢٠٩٩٠).

وما قاله الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ الصَّحيحُ، ولا يمكن العَمَلُ إِلَّا به، أم كوننا نَقُول: نقتلك وتجد حسابك عند الله! هَذَا فِيهِ نظرٌ، حَتَّى لو وُجدتْ قرينةٌ تدلُّ عَلَى صِدْقِ الرجلِ غير مسألة حال هَذَا وحال هَذَا. يعني مثلًا لو وُجِدَ فِي بيته، فلو وُجِد المقتولُ فِي بيتِ القاتلِ، وقال: أنا قتلتُه عمدًا بدونِ شُبهةٍ لَكِنَّهُ ادَّعى أَنَّهُ صالَ، وقال: جاء إليَّ ودخلَ البيتَ لِيَقْتُلَنِي أو سينتهك حُرْمَةَ أهلي، فوجدتُ أَنَّهُ لا يَندفِع إِلَّا بالقتلِ، نَقُول: ولو كان؛ لِأَنَّهُ يجوزُ أَنَّهُ استضافه ويتدرَّج به ويقول: تَفَضَّل عندنا؛ لأجلِ أن يقتلَه.

والحاصلُ: أنَّ هَذِهِ مشكلةٌ، ولا يستقيمُ الحالُ إِلَّا عَلَى ما قالَه شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الحاصل: أن قوله: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ يَدُلّ عَلَى أن المُنْكِر مقبولُ القَوْلِ ما لم يأتِ المُدَّعِي بِبَيِّنَةٍ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٠)

• ● ۞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل:٥٠].

• ● ۞ ● •

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَمَكَرُواْ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿مَكۡرٗا﴾]، و﴿مَكۡرٗا﴾ مُنْكَر أحيانًا، يَكُون من فائدةِ التنكيرِ التعظيمُ، أي: مَكَرُوا مكرًا عظيمًا، والمكرُ فسَّره بعضهم بأنه التوصُّل بالأَسْبَاب الخفيَّة إِلَى الإيقاعِ بالخَصْمِ؛ لِأَنَّ الأَسْبَاب الظَّاهرة لا تُسمَّى مكرًا وإنما هِيَ أَسْباب خفيَّة.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي مقابلةِ ذلك: ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ أي: مكرًا أعظمَ من مكرِهم، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي جازَيْناهم بتعجيلِ عُقُوبَتِهِمْ]، ففسَّر المكر بالمجازاةِ، والصَّحيحُ أن المكرَ أخصُّ منَ المجازةِ؛ لِأَنَّهَا مجازاةٌ منْ حَيثُ مأمنُ المُجازَى، لكِن أراد المُفَسِّر أنْ يدفعَ بذلك صفةَ المكرِ عنِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ففسَّره بالمجازاةِ، والصَّواب عند أهلِ السنَّة والجماعة أنَّ المكرَ لا يجوزُ أن يُحرَّف إِلَى معنى المجازة المطلَقة، وَأَنَّهُ لا يَمْتَنِع وصف الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به فِي محلِّه، فالمكرُ فِي محلِّه يُعْتَبَرُ مَدْحًا، وَفِي غيرِ محلِّهِ يُعْتَبَر ذمًّا، والمكرُ بهؤُلَاءِ الماكرينَ يُعْتَبَر مَدْحًا عظيمًا، وهَذَا الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ الَّذِي عليه أهلُ السنَّة والجماعة أنَّ اللهَ تَعَالَى يُوصَف بالمكرِ، لا عَلَى الإطلاقِ، فلا يقالُ: إن اللهَ ماكرٌ؛ لِأَنَّهُ عَلَى الإطلاق يَتضمَّن صِفة الذمّ، وإنما

يقال: ماكرٌ بمَن يَمْكُرُ به، أو بمَن يَسْتَحِقّ المكرَ، وحينَئِذٍ يَكُونُ صفةَ مدحٍ.

والصِّفَات تنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدها: صفاتٌ حُسْنَى بكلِّ حالٍ، فهَذِهِ ثابتةٌ للهِ عَلَى وجهِ الإطلاقِ، كالسمعِ والبصرِ والعلمِ والحياةِ والقُدْرة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

والثَّانِيَة: صفاتُ نقصٍ عَلَى كُلّ حالٍ، أو صفاتُ سَوْءٍ عَلَى كُلّ حالٍ، فهَذِهِ يُنَزِّهُ اللهُ عنها عَلَى كُلّ حالٍ، مثل الظُّلم واللُّغُوب والجَهْل والعَمَى والموت والمرض والولادة والوزير والشَّريك والجُوع والعَطَش، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذِهِ يُنَزّه الله عنها بكلّ حالٍ.

والثَّالثة: صفات ذات وجهين، تكون مدحًا فِي حالٍ وتكونُ ذمًّا فِي حالٍ، فهَذِهِ لا يُوصَف الله بها عَلَى الإطلاقِ ولا تُنْفَى عنه عَلَى الإطلاقِ، مثل: المَكْر والخِداع والاستهزاء والسُّخْرِيَة وأمثالها، هَذِهِ لا يُوصَف الله بها عَلَى كُلّ حالٍ، ولا تُنفَى عنه بكلِّ حالٍ، بل يُوصَف بها حَيْثُ تكون كمالًا، وتُنفَى عنه حَيْثُ تكون نقصًا، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]، وقال تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ﴾ [البقرة:١٥]، وقال تَعَالَى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النِّساء:١٤٢]، وقال تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠].

قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني هم لا يشعرون بعاقبةِ مكرِهم، وهل يَتِمُّ لهم ما أرادوا أم لا؟ ولا يشعرون كيف يمكر الله بهم، فهم لا يشعرون لا بهَذَا ولا بهَذَا، لا بنتيجةِ مَكْرِهم ولا بمكرِ اللهِ بهم؛ لِأَنَّهُم -والعياذُ بالله- متمادُونَ فِي الضلالةِ، والغالبُ أن الَّذِي يتمادى فِي الضلالةِ يَعْمَى فلا يُبْصِر، ويُصَمّ فلا يسمع، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، والجملةُ فِي قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ محَلُّها من

الإعرابِ حالٌ منَ الواوِ فِي ﴿وَمَكَرُواْ﴾ أو منَ الضَّميرِ المحذوفِ فِي قوله: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ يعني بهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عَظَمَة اللهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ أعظمُ مَكرًا مِمَّن يَمكُرون به وبرسلِه، فهؤُلَاءِ أرادوا المكرَ برسولِه ولكِن الله تَعَالَى مكرَ بهم بِما هُوَ أعظمُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وصفُ اللهِ تَعَالَى بالمكرِ، لَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى سبيلِ الإطلاقِ، بل عَلَى سبيلِ التقييدِ، فيقال مثلًا: هُوَ ماكرٌ بأعدائِهِ أو بمَن يَستحِقّ المكرَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يجعل المكرَ صفةَ كمالٍ؛ لِأَنَّ المكرَ لَيْسَ بصفةِ كمالٍ عَلَى الإطلاقِ ولا بصفةِ نقصٍ عَلَى الإطلاقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمْكُرُ بالعبدِ فلا يَشْعُر بمكرِه، ومن مكرِ اللهِ بالعبدِ وَهُوَ لا يَشْعُرُ: استدراجُه إيَّاه بالنِّعم، حَيْثُ يُسْدِي إليه النعمَ وَهُوَ يبارزُ اللهَ تَعَالَى بالعصيانِ، ومن مكرِه به تلبيسُه عليه فِي الحُكم، فيُلَبِّس عليه الحكم حَتَّى يَظُنّ الباطلَ حقًّا فيتمـادى فيه، وهَذَا من الدعـاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَرِنِي الحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ، وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ»[1]، فالإِنْسَانُ قد يَكُون لديه شُبْهَة أو شَهْوة؛ شبهة لا يَعْرِف الحقَّ، أو شهوة لا يريد الحقّ ويريد غيرَه.

• • ۞ • •

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠١)، وقال العراقي في التخريج: «لم أقف لأوله على أصل».

الآية (٥١)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل:٥١].

•••

﴿فَانظُرْ﴾ الخِطَاب للنبيِّ ﷺ أوَّلًا، أو لِمَن يَصِحُّ خِطَابُه، يعني ﴿فَانظُرْ﴾ أيُّها المخاطَب أو ﴿فَانظُرْ﴾ يا مُحَمَّدُ، وَهُوَ رأسُ هَذِهِ الأُمَّة وقائدها وإمامها، فيَكُون خِطَابه خِطابًا للأمَّة أيضًا.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾: ﴿كَيْفَ﴾ هَذِهِ اسمُ اسْتِفْهامٍ مُعَلِّقَةٌ لـ(انْظُر) عن العَمَلِ، ولهَذَا نَقُولُ: إنَّ مَحَلَّها النصبُ خبر كَانَ مُقَدَّمًا، وجملة كَانَ واسمها وخبرها فِي محلّ نصب مَفْعُول لـ(انْظُرْ).

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ العاقبة ما يَعْقُبُ الشَّيْءَ، يعني انْظُر ماذا يَعْقُبُ مكرَهم مِنَ الأَمْرِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أهلكناهم]، وفيها قراءتانِ[1]: فتحُ الهمزة ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾، وكسرها «إِنَّا دَمَّرْنَاهُم»، أَمَّا كسرها فهي كقولِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [القمر:٣٠-٣١]، فتكونُ عَلَى قراءةِ الكسرِ مستأنفةً لبيَان هَذِهِ العاقبةِ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ كَأن الذهنَ الْآنَ يَتَشَوَّف إِلَى هَذِهِ العاقبةِ، وجيء بالجملةِ

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٢).

الاستئنافيَّةِ بيَانا لها ﴿إِنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أمَّا عَلَى قراءةِ الفتحِ فهي بيَان للعاقبةِ، بَدَل مِنْهَا: فانظُرْ كيف كَانَ عاقبة مَكْرِهم أَنَّنا دمَّرْناهم، أو أنَّهَا عَلَى خبر مبتدأ محذوف التَّقْدير: هِيَ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أهلكناهم]، و﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ منَ التدميرِ، وَهُوَ أبلغُ منَ الإهلاكِ؛ لِأَنَّ التدميرَ يُوحِي بغِلَظِ هَذَا الإهلاكِ وعَظَمَتِهِ، وَهُوَ كذلك، فإنَّ قومَ صالحٍ أُخِذُوا -والعياذُ بالله- بأمرينِ: بصيحةٍ ورجفةٍ، صِيحَ بهم وارْتَجَفَتْ بهمُ الْأَرْضُ، حَتَّى انهدم عليهم بناؤُهم وتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهم فِي أجوافِهم، نسألُ اللهَ العافيةَ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر:٣١]، مثل هشيم الحظائرِ إذا جفَّ تَهَشَّمَ والعياذُ باللهِ، فهَذا الهلاكُ العظيمُ نتيجة لهَذَا العصيانِ والتمرُّد والمكْر الَّذِي أرادوه بالنَّبِيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ﴾ مَعَ أنَّ القومَ لم يُشارِكوا فِي هَذِهِ الجريمةِ، ولكِن هَذَا شُؤْمُ المَعاصِي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا عاقبَ بها أحدًا شَمِلَ الجميعَ، مَعَ أنَّ قومَهم مُسْتَحِقُّونَ للعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم كانوا كفَّارًا مكذِّبين، لكِن تعجيل العقوبةِ مقرونٌ بهَذا السَّبَب، وَهُوَ مَكْرُ هَؤُلَاءِ بصالحٍ، وقد لا يَكُونُ القومُ مُسْتَحِقِّين له، ولكِن شَمِلَهم -والعياذُ بالله- عُقُوبَة هَؤُلَاءِ، وقد ذكرَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آياتٍ أُخْرَى مُفَصَّلَةً أنَّ نَبِيَّهم صالحًا قَالَ لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]، فتَمَتَّعُوا وبَقُوا ثلاثةَ أيامٍ ثُمَّ بَعْد ذلك أَخَذَهُمُ اللهُ تعالَى بهَذِهِ الصيحةِ والرَّجْفَة.

وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ مَحَلُّها من الإعراب توكيد لِقَوْلِهِ: ﴿قَوْمَهُمْ﴾ يعني ما بقي منهم أحدٌ إِلَّا من كَانَ مؤمنًا بصالحٍ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيحةِ جِبريلَ أو بِرَمْيِ الملائكةِ بحجارةٍ يَرَوْنَها ولا يَرَوْنَهم].

أما قوله: [بصيحةِ جبريل]، فهَذَا قد يَكُون مقبولًا؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ وهَذِهِ الصيحةُ إمَّا منَ اللهِ أو من جبريلَ أو من غيرِهِ من الملائكةِ، المهمُّ أَنَّهُم أُهلكوا بصيحةٍ.

وأمَّا قوله: [أي برمي الملائكة بحجارة]، فهَذَا لا أعلمُ له وجهًا، ولكِنه قيل: إنَّهُم لما جاءوا إِلَى صالحٍ بالليلِ أمرَ الله تَعَالَى الملائكةَ أنْ تَحْرُسَه، فلمَّا جاءوا فإذا الملائكة تحرسه، فجعلت الملائكة ترميهم بالحجارةِ، وهَذَا لا أصلَ له، وإذا لم يكن هَذَا عن معصومٍ فَإِنَّهُ غير مقبولٍ، وَهُوَ أيضًا غيرُ لائقٍ أن تكون الملائكةُ يرمونَ بالحجارةِ كأنهم من البَشَرِ، ولكِنَّنَا نَقُول: الَّذِي دمَّر الله به هَؤُلَاءِ وقومَهم هُوَ الصَّيْحَة والرَّجْفَة، كما جاء ذلك فِي الْقُرْآنِ، ولا نَتَعدَّى الْقُرْآن فِي هَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى يَقُول فِي سورةِ إبراهيمَ: ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]، فما دامَت هَذِهِ الأُمُورُ مِن معلوماتِ اللهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ فإنَّنا لا نتجاوزُ ما قَالَ اللهُ فيها إِلَّا ما وَرَدَ عن النَّبيِّ ﷺ بسندٍ مقبولٍ.

ذكر بعضُ العُلَماءِ أَنَّهُم لما خَرَجوا أُصيبوا بمطرٍ وأنهم قَالُوا: لِنَلْجَأْ إِلَى غارٍ من هَذَا المطر، فلمَّا لجأوا إليه انطبقَ عليهم هَـذَا الغارُ وهَلَكوا، وَأَمَّا قومهم فجعلوا يطلبونهم ويبحثونَ عنهم فلم يَجِدُوهُم، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى بيوتهم، فخرج عليهم صالحٌ فقال لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ [هود:٦٥]، وقَالُوا: إن هَـذَا هُوَ الَّذِي مَكَرُوا به المَكْر؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ القوم دخلوا إِلَى الغارِ يريدون الأمنَ، ولكِن كَانَ فِي هَذَا الغار حَتْفُهم، وقد يَكُون الَّذِي حالَ بينهم وبين هَذَا إمَّا أَنَّهُم قُذف فِي قلوبهم الرعبُ

أو أَنَّهُم جاءوا فلم يَتَوَصَّلوا إِلَى بيتِه بأن كَانَ مُغْلَقًا مُحكَمًا أو غير ذلك منَ الأَسْبَاب.

المهمُّ أن هَذَا مطويٌّ ذِكْرُه وأنهم ما نَفَّذُوا ما أرادوا، وهَذِهِ القصةُ أيضًا عَلَى هَذَا الوجهِ ما رأيتُها ثابتةً بالإسنادِ عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلهَذَا الأَولى أن يقال: إن الله تَعَالَى مكرَ بهم فدمَّرَهُم وقومَهم، وَلَيْسَ منَ المهمِّ أنْ نعرِف كيف دُمِّروا، المهمُّ أنْ نعرِفَ أَنَّهُم دُمروا عن آخِرِهِمْ بسبب ما أرادوه بالنَّبِيِّ ﷺ، وبسبب تكذيبِهِمْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الحثُّ عَلَى الاعتبارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ والنظرُ يَكُونُ بالقلبِ ويُسَمَّى نظرَ البَصِيرةِ، ويَكُونُ بالعينِ ويُسَمَّى نظرَ البصرِ، وكلاهما أمر مطلوبٌ إذا أدَّى إِلَى مطلوبٍ، وَأَمَّا إذا لم يـؤدِّ إِلَى مطلوبٍ بل أدى إِلَى العكسِ مثل أن يعتبـرَ ويتبصـر ثُمَّ يتخذ من هَذَا النظرِ وسيلةً إِلَى الطعنِ فِي حكمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو إِلَى وصف الله تَعَالَى بالظلمِ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مما يقع من بعض الملحدينَ، فإن هَذَا ضرره كبيرٌ والعياذُ باللهِ، لكِن الصَّواب مَن نَظَرَ لِيَعْتَبِرَ، ومَن نظرَ بعينِ العقلِ والعدلِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ من الأَمْرينِ: عقلٌ وعدلٌ، فبانتفاءِ العقلِ لا تحصل للإِنْسَان المعرِفةُ، وبانتفاءِ العدلِ يَظْلِم.

فعلَى كُلِّ حَالٍ: فِي هَذِهِ الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ ينبغي للإِنْسَانِ أن ينظرَ ويتأمَّل فِي الأُمُورِ، لا سيما فِي أمور المكذِّبين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي فِي مَقامِ التحذيرِ استعمـالُ أغلظِ الألفاظِ وأشـدِّها تأثيرًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾، ولم يقل: أهلكناهم، فإنَّ التدمير أعظمُ وَقعًا فِي النفسِ، والنفس تَنْفِر منه أكثرَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن العقوباتِ إِنَّما تأتي بأَسْبابِ المرءِ، حَيْثُ جعل هَذَا التدمير عاقبةَ مَكرِهم، وهَذَا يَدُلّ عليه أيضًا قولُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي خصوصِ أهلِ الكتابِ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٥-٦٦]، من فوقهم منَ الثِّمارِ الطويلةِ، ومن تحت أَرْجُلِهِم منَ الزُّرُوعِ الَّتِي تحتَ الأَرْضِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن العقوبةَ تَعُمّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولكِن كما قَالَ رسول الله ﷺ: «يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ»(١)، فالعقوبةُ قد تعمُّ ولكِن يُبعَث النَّاس عَلَى أعمالهم، وهَذَا مشاهَدٌ، سواء كانت العقوبةُ منَ اللهِ، يعني من فعلِ اللهِ، أو من فعلِ العبادِ، فيُسلِّط الله تَعَالَى بعضَ عبادِه عَلَى بعضٍ، فيدمِّر هَذَا المتسلِّط عَلَى الصالحِ والطالحِ، ولكِن يُبعث النَّاس يومَ القيامةِ عَلَى أعمالِهم ونيّاتهم، أو ينزل الله تَعَالَى كارثةً من عنده كالفيضاناتِ والرياحِ وغيرها فتدمِّر الصالحَ والطالحَ، ويوم القيامة يُبعَثون عَلَى نيّاتهم.

وإنما كَانَ كذلك -والحِكْمَة عندَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لأجلِ أنْ يَستقيمَ النَّاسُ عَلَى أمرِ اللهِ؛ لأنّي أنا إذا علِمت أن المصيبةَ ستعمّ سأسعى فِي إزالةِ السيِّئة الموجِبة للعقوبةِ،

---

(١) رواه البخاري، كتاب الفتن، باب إذا أنزل الله بقوم عذابًا، حديث رقم (٦٦٩١)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت، حديث رقم (٢٨٧٩)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لكِن لو أنَّنا علِمنا أن العقوبةَ تخصّ العاملَ ما استقامَ الأَمْرُ بالمعروفِ ولا النهيُ عن المنكَرِ، ولذلك يَجِب أن يَكُونَ خوفُ الْإِنْسَانِ من معاصي غيرِه كخوفِهِ من معاصي نفسِهِ؛ لِأَنَّ العقوبةَ واحدةٌ إذا نزلتْ عمَّتْ، بل إن المَعاصِي -سبحان الله- كالدُّخان يُصْرَعُ مَن شَمَّهُ وإنْ لم يكنْ فِي بيتِهِ، ولذلك معاصي النَّاس اليومَ أَثَّرت حَتَّى فِي أهلِ الخيرِ البعيدينَ منهم، يعني أهل الخير لو سألتهم وقلت: هل تجدون فِي قلوبكم ما كنتم تجدونه قبلَ سنواتٍ من الإنابةِ إِلَى اللهِ والخشوعِ والخضوعِ ومحبّة الخيرِ؛ لو سألتهم لأجابوا: لا. دعنا من النَّاس الَّذِينَ ماتوا قبل ثلاثينَ سنةً أو أكثر، فهَؤُلَاءِ معلومٌ أَنَّهُم سلِموا من هَذِهِ الفتنةِ، لكِن حَتَّى الموجودون الْآنَ قلوبهم قبلَ نحو ثلاثين سنة أصلح بكثيرٍ منَ اليومِ، مَعَ أنّ حالَهم هِيَ هي، فتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي مَسْجِدِهِ إمامًا ولم يَلْتَفِتْ للدُّنيا ولم يَشْتَغِلْ بها، وتجد الْإِنْسَان مثلًا فِي أهله لا يَلْتَفِت إِلَى أحد غيرهم، ومع ذلك تأَثَّرت القلوب؛ لِأَنَّ المَعاصِيَ مفاسدُ مهما كانتْ، ولكِن مَعَ هَذَا قد يأتي الله تَعَالَى ببركانٍ عظيمٍ يُفَتِّت هَذِهِ الأَشْيَاء، ويُقَيِّض الله تَعَالَى للأُمَّة الإِسْلامِيَّـة طائفةً منصورةً ظاهرةً، فتبـدّل كُلّ هَذَا الأَمْر، ولِهَذَا لَا بُدَّ من عمـلٍ، فالركودُ لا يَنْفَع، والركود لَيْسَ فِيهِ سلامة أبدًا، فلَا بُدَّ من العَمَلِ، ولكِن عَلَى هدى مستقيم وبحكمةٍ بالغةٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي يضرُّ الدعاةَ إِلَى اللهِ الْآنَ واحدٌ من أمرينِ: إِمَّا جهلٌ أو سَفَه، يعني إِمَّا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم علمٌ بَيِّن راسخٌ، فتجدهم يحرِّمون ما أحلَّ الله، ويُوجبون ما لم يُوجِبْه اللهُ، مثلما يَصْدُر من بعض الإخوانِ الَّذِينَ يَتَشَدَّدُونَ فِي الأُمُورِ، ويحرِّمون ما أحلَّ الله أو يُوجِبُون ما لم يُوجِبْه اللهُ، وهَذِهِ مفسدةٌ عظيمةٌ، أو يَكُون عندهم سَفَهٌ، يعني لَيْسَ عندهم حِكمة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، فيَكُون عندهم تَسَرُّعٌ وعُنْـفٌ أو تباطـؤٌ فِي غيـرِ مَوْضِعِه، ففي الأَوَّل يَحْصُل ردُّ فعلٍ عنيـف من

المدعوّين، وَفِي الثاني يحصل تمادٍ من المدعوين يفوِّت الفُرصةَ عَلَى الداعينَ، فلا بد منَ العلمِ والحِكْمَةِ، قَالَ تعَالَى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

الآيــة (٥٢)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ لما قَالَ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل:٥١]، فهَذَا عامٌّ مُبْهَمٌ، وهنا نَصَّ عَلَى شيءٍ معيَّـن؛ وهو أنَّ بيوتهم خاويةٌ، ومعنى خاوية إمَّا خالية وإمَّا مُتهدِّمة مدمَّرة.

قَالَ المُفَسِّـر: [﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أي: خالية، ونَصْـبُهُ عَلَى الحالِ، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ].

قوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ المشار إليه معلومٌ ومحسـوسٌ؛ لِأَنَّ بيـوتَ ثمودَ موجودةٌ الْآنَ ومشاهَدة، لَكِنَّها كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿خَاوِيَةً﴾، بمعنى أَنَّها خالية عَلَى رأيِ المُفَسِّـر، وَقِيلَ: ﴿خَاوِيَةً﴾ متهدِّمة كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة:٢٥٩]، أي: مُتَهدِّمة، وهَذَا المَعْنـى أبلغ، يعنـي تفسير الخاوي بالمتهدِّم الَّذِي لَيْسَ بقائمٍ أَوْلَى وأشدّ؛ لِأَنَّ البيوتَ قد تخلو مَعَ العمار، ولكِن إذا خَوِيَتْ بمعنى دُمِّرَتْ وانهدمتْ فهي خالية، فإذن يَلْزَم من دَمارها خُلُوّها، ولا يَلْزَم من خُلُوّها دَمارها، والواقع أَنَّها دُمِّرَتْ لِأَنَّ هَذِهِ الرَّجـفة العظيمةَ لَا بُدَّ أَنْ تُدَمِّرَهُمْ.

ثمَّ إنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: [نَصْبُهُ عَلَى الحال] نصب (خاوية) عَلَى الحال، حال من البيوت: بيوتهم حال كونها خاويةً.

لكِن أين العامل فِي الحال؛ لِأَنَّ العامل لَا بُدَّ من أن يَكُون إمَّا فعلًا أو اسمًا بمعنى الفِعْل؟ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والعامل فيها معنى الإشارة]، لِأَنَّ (تلك) بمعنى أسير، فاسم الإشارة متضمِّن لحرفٍ معنويّ وفعل، أي: أسير إذا بيوت خاوية.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ بظلمهم]، الباء للسببيَّة و(ما) مصدريّة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَوَّلَ الفِعْل إِلَى مصدر، إشارة إِلَى أن (ما) مَصْدَرِيَّة، أي: تحول ما بعدها إِلَى مصدر، أي: بسبب ظُلْمِهِم، لا أننا ظالمون لهم، بل هم الَّذِينَ ظَلَمُوا أنفسهم.

ثم فسَّر المُفَسِّر هَذَا الظلمَ بالكفرِ، فقال: [أي كفرهم]؛ لِأَنَّ كُلّ كفرٍ ظلم وَلَيْسَ كُلّ ظلمٍ كفرًا، ولهَذَا قَالَ العُلَماء: إِنَّما نحمدُ اللهَ تَعالَى أن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ولم يقلِ: والظالمونَ هم الكافرونَ، لو قَالَ: والظالمون هم الكافرون كَانَ كُلُّ ظالمٍ فَهُوَ كافرٌ، ولكِن قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن كُلّ كافرٍ فَهُوَ ظالمٌ، قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ للظُّلم بالكفر هَل عليه دليل؟

نعم عليه دليل؛ لِأَنَّ فِعْلَهم وتكذيبهم لرسولِهم كفرٌ، فهنا تفسيرُ الظلمِ بما هُوَ أخفّ له دليلٌ.

قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المشار إليه كُلّ القصة عَلَى الصَّحيحِ، وَلَيْسَ المشار إليه مجرَّد الإهلاك.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَأٓيَةً﴾ لَعِبْرَة ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ قُدْرَتَنَا ويَتَّعِظُون]، تخصيصُ هَذَا بالقُدرة غيرُ مُسَلَّمٍ، بل المُراد ما هُوَ أعمُّ من عِلم قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بل يعلمون قدرة الله وحكمته وما جرَى للأممِ، كُلّ هَذَا جائزٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي لا يَدري بماذا يَعتبِر، لكِن الَّذِي يدري هُوَ الَّذِي يعتبر، وَفِي هَذَا مِنَ الحثّ عَلَى معرفةِ أخبارِ الأممِ والعلمِ بها ما هُوَ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بها يتّعظ النَّاس، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعة فِي زمنِ الْإِنْسَان يَنبغي أن يتخذَ من حوادثها عِظَةً وعِبرةً، وسيأتي -إن شاء الله- ذِكرُها فِي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿خَاوِيَةًۢ﴾ لِأَنَّ التبيينَ بعدَ الإجمالِ أوقعُ فِي النفسِ، فالشَّيْء إذا جاءَ مُجْمَلًا تَتَشَوَّف النفسُ إِلَى بَيَانهِ ومَعْرِفَتِهِ، فإذا جاء إليها مُبَيَّنًا بَعْد الإبهامِ صادفَ أرضًا يابسةً تَشْرَب الماءَ، لكِن إذا بُيِّن من الأولِ مَرَّ مرَّ الكرامِ، وهَذا دائمًا تَجِدُونه فِي الْقُرْآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦]، ما هُوَ ذلك الأمْر؟ ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]. عندما تقف عند قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ تجد قوله: (الأَمْر) بـ(أل) ما هَذَا الأَمْر؟ ثُمَّ يأتي قوله: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ فيتبين لك وقعُ هَذَا البَيَان بعدَ الإبهامِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ التدميرَ والإتلافَ من أَسْبابِ الظُّلم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء من جِنس العَمَلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى لَيْسَ بظالمٍ، ما دام أَنَّهُ لا يُعاقِب إِلَّا بسببِ فعلِ العبدِ، فمعنى ذلك أَنَّهُ مُنتَفٍ عنه الظُّلم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحذير منَ الظُّلم؛ لأَنَّنا إذا تبيَّنَّا أنَّ التدميرَ من أَسْبابِ الظلمِ فمعناه أننا نَنْفِر منه ونهرُب منه، ففيه التحذيرُ من ممارسةِ الظلمِ، سواء كَانَ متعديًا أو لازمًا، أي: سواء كنت تظلمُ نفسَكَ وحدَها بالتقصيرِ بواجبِ اللهِ أو بالظلمِ لغيرِكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن هَذِهِ الحوادثَ الَّتِي يُحْدِثها الله عَزَّوَجَلَّ آياتٍ من آيَاتِهِ تدلُّ عَلَى كمالِ قُدرتِهِ وسُلطانه، وَعَلَى كمالِ عدلِهِ أيضًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة عَلَى قدرةِ اللهِ وسلطانِهِ، وَعَلَى حِكْمَتِهِ وَأَنَّهُ تَعَالَى لا يفعلُ إِلَّا بمُقتضى للفعلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى مَـن ينكِرون الحِكْمَـةَ، مثل الجَهْمِيّة، فإنّ الجهمية يَقُولُونَ: إنَّهُ لا حكمَـةَ للهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فِي أفعاله، وخالفتهم المعتزِلَة تمامًا، وقالت: أفعاله مقرونةٌ بالحِكْمَةِ، والحِكْمَةُ مُوجبة، ولهَذَا قَالُوا: يجبُ عليه فِعل الصلاحُ، وبعضهم قَالَ: يَجِب عليه فعل الأَصْلحِ، وَأَمَّا الجهميّة فبالعكس، وهَذَا من المواضعِ الَّتِي اختلفتْ فِيها الجهميّة والمعتزِلة، وإن كانوا يشتركون فِي كثير من الأَشْيَاءِ لكِنهم يختلفون أيضًا فِي أَشْيَاء أخرى، مِنْهَا هَذِهِ المسألة: هل فعل الله لحكمة أو لمجرّد مشيئةٍ؟

فالجهمية يَقُولُونَ: لمجرّد مشيئةٍ، والمعتزِلة يَقُولُونَ: لحكمةٍ، لكِن غلَوا فِي إثباتِ الحِكْمَةِ، حَيْثُ أَوجبوا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى فعلَ الأَصْلحِ، وقد تقدّم هَذَا فِي العقيدةِ؛ وبيَّنّا أن الصَّوابَ أَنَّهُ يَجِب عَلَى اللهِ فعل الأَصْلحِ لكِن لا بإيجابنا نحن، ولكِن بمقتضى حكمتِهِ؛ لِأَنَّ الحِكْمَةَ تَقتضي هَكَذا، وَأَمَّا الأشاعرةُ فمثل الجهميّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ لا يَنتفِع بالآيَاتِ إِلَّا أُولوا العلم؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أَمَّا مَن لَيسوا من ذوي العِلم فَإِنَّهُ يَفُوتُهُم شيءٌ كثير، لا يَعتبرون به ولا يَتَّعِظون به؛ ولهَذَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، و﴿ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ تَشمَل الأمثال المعقولة والأمثالَ المحسوسةَ المشاهَدة، فالله تَعَالَى يَضرِب الأمثال المعقولة ويضرب الأمثال المحسوسة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ...﴾ إلخ [يس:١٣]. هَذِهِ من الأَشْيَاء المشهودة المحسوسة، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١]، هَذَا من الأمثال المعقولة.

والحاصل: أن أهل العلمِ هم الَّذِينَ يعقِلون هَذِهِ الآيَاتِ ويَعتبِرون بها ويَنتفِعون بها.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضيلة العلم.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحثُّ عَلَى العلمِ؛ لِأَنَّهُ إذا ثبتَ فَضلُه فمعنى ذلك أن الله ذَكَره لنا لِنَتَعَلَّم، ولَا شَكَّ أن العلم من أفضل ما أنعمَ الله به عَلَى العبدِ، يعني ما بَعْد الإِسْلامِ نعمةٌ مثل العلمِ، هِيَ أفضل من نعمةِ المالِ وأفضلُ من نعمة قوّة البَدَن، وأفضل من نعمة البنينَ، وما يعادِلها إِلَّا نعمة الإِسْلام فقطْ.

والمقصود العُلَماء الَّذِينَ مَثَّلوا العلمَ، بأن كانوا دعاةً إِلَى الله، وكانوا علماء مِلّة، لا علماء دولة؛ لِأَنَّ العُلَماء منهم علماء مِلة يدعون إِلَى الملة والشَّرِيعَة، ويَهدون بأمرِ اللهِ، ومنهم علماء دولةٍ يدعون إِلَى ما تريده الدولة، وكما هُوَ معروف أوّل ما ظهرتْ بِدعة الاشتراكيّة أو أول ما ظهر فِسق الاشتراكيّة -والاشتراكية ظهرت من زمنٍ-

صار أناس من أهل العلم فِي البلادِ الَّتِي ظهرتْ فيها هَذِهِ البدعة؛ صاروا يدعون إليها ويزعمون أن الْقُرْآن والسنّة دلّا عليها، ويأتون بآيات تدلّ عَلَى هَذَا، مثل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [الروم:٢٨]، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ أنتم سواء فِي الرِّزق، والنَّاسُ شركاء فِي ثلاثٍ[1]، وهَكَذَا، وبدؤوا يحرّفون فِي الكِتاب والسنّة؛ لِأَنَّهُم علماء دولة، لا علماء مِلة، وهَذَا كثير أيضًا. وفيه أيضًا مُحَدِّثُون دولة، كغِيَاثِ بنِ إبراهيمَ الذي زاد في الحديث لِأجلِ المَهدِيّ في حديث: «لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ»[2] وماذا تريد يا مهدي؟ (أو جَنَاح)[3].

فالحاصل: أن هَذَا بلاء، لكِن المُراد بالعلم الممدوح هُوَ العلم المؤثّر للعمل والدَّعْوَة، والحقيقة أن مَقام طلبة العلم لَيْسَ مَقام علم فقطْ ويَكُون العلمُ قابعًا فِي صُدُورهم ولم يكنْ هناك دعوة، أنت الْآنَ وارث للأنبياء، «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأَنبِياء»[4]، فادع إِلَى الله، ادعُ مثلما دعا الأَنْبِياء إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اعْلَمْ ثُمَّ ادْعُ، لا نَقُول: ادعُ

---

(١) أخرج أبو داود: أبواب الإجارة، باب في منع الماء، رقم (٣٤٧٧) عن رجل من المهاجرين: «المُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْكَلَأِ، وَالمَاءِ، وَالنَّارِ». ونحوه في ابن ماجه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كتاب الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث، رقم (٢٤٧٢).

(٢) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السبق، حديث رقم (٢٥٧٤)؛ والنسائي، كتاب الخيل، باب السبق، حديث رقم (٣٥٨٥)؛ والترمذي، كتاب الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق، حديث رقم (١٧٠٠)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم (٢٨٧٨)؛ وأحمد (٢/ ٢٥٦) (٧٤٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي (١٠/ ٣٨٩).

(٤) أخرجه أبو داود: كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم (٣٦٤١)، والترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٢)، وابن ماجه: افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٣).

بجهلٍ، فالدعاءُ بالجهلِ ضررٌ عليكَ وَعَلَى الإسْلامِ أيضًا، لكِنِ اعلَمْ وادعُ، ولا تُداهِنْ، واعلمْ أنك ما قلتَ كلمةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلَّا كَانَ لها تأثيرٌ لا بدَّ.

ونحن نَضْرِبُ دائمًا لكمْ مثلًا بقولِ موسى أمامَ السحرةِ وأمامَ فِرعونَ وجُنُودِهِ وعامّة أتباعِهِ، قَالَ للسحرة: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١]، فهذه كلمة مثل القنبلة ﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه:٦٢]، ذَهَبَتْ مَعْنَوِيَّاتهم واجتماعهم، وأخيرًا آمنوا بالله، وأَعْلنوا إعلانًا كاملًا بتصميمٍ وعزمٍ، سبحانَ الَّذِي أعطاهم إيّاه فِي هَذِهِ اللحظةِ ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فتوعَّدهم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الشعراء:٤٩]، فماذا قَالُوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه:٧٢]، افْعَلْ ما تريدُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه:٧٢].

• • ۞ • •

الآية (٥٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٣].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بصالحٍ وهُم أربعةُ آلافٍ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشِّرْكَ].

﴿أَنجَيْنَا﴾ أي: عَصَمْنَا، فالإنجاءُ بمعنى العِصْمَة، أي أَنْجَيْنَاهم من هَـٰذِهِ العقوبةِ، ومن هَذَا التدميرِ الَّذِي ذَكَر اللهُ جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قول المُفَسِّر [بصالحٍ]، فِيهِ نظرٌ، والصَّواب: آمنوا باللهِ؛ لأجلِ أن يشملَ صالحًا ومَن معه، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي سورة هودٍ: ﴿نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود:٦٦]، بل نَقُول: إن صالحًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَجِب عليه أن يؤمن بنفسه أَنَّهُ رسول، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يؤمنُ ويَشهد لنفسِهِ بالرسالةِ، يَقُول فِي صلاتِه: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»[1]، وَهُوَ يعني نفسَه، وأحيانًا يقولُ إذا وقعَ الأَمْرُ عَلَى وَفْقِ ما قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ[2].

---

(١) رواه البخاري، كتاب صفة الصلاة، باب التشهد في الآخرة، حديث رقم (٧٩٧)؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢)، عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) مثاله ما جاء في صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب الرطب والتمر، رقم (٥٤٤٣) حديث جابر ابن عبد الله، وفي آخره: فخرجت حتى جئت النبي ﷺ فبشرته، فقال: «**أَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**».

المهم أن الرَّسُول نفسَه مُلْزَمٌ بأنْ يشهدَ لنفسِهِ بالرسالةِ وبأنه رسول الله يُؤْمِن بما أُوحي إليه، وكذلك غيرُه مِن باب أَوْلَى.

وقول المُفَسِّر: [وهم أربعةُ آلافٍ]، نَقُول: أين الدِّيوان الَّذِي حَصَرَهُمْ، لا دليلَ عليه، والغالبُ أنَّ المُؤْمنِينَ أقلُّ من ذلكَ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقولُ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»[1]، إذ رُفِعَ له سَوَادٌ فظنَّ أَنَّهُ أُمَّتُه، فقَالُوا: هَذَا موسى وقومه.

فالمهمّ أَنَّ تَقديرَهم بأربعةِ آلافٍ، أو بأربعينَ نفرًا، أو بأربعة ملايينَ، أو بأقلَّ أو أكثرَ؛ هَذَا يحتاجُ إِلَى دليلٍ، وَهُوَ أيضًا من فُضُولِ العلمِ الَّذِي لا يَنبغي للإِنْسَانِ أَنْ يُتْعِبَ نفسَه فِيه؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ فائدةٌ، الَّذِي فِيهِ فائدةٌ لَا بُدَّ أَنْ يَقُصَّه الله علينا.

ونظيرُ هَذَا البحثِ مثلًا فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ:

ما لونُه وما اسمُه وما حَجْمُه؟

والغارُ الَّذِي هم فِيهِ أينَ هُوَ، فِي أيّ مكانٍ؟

كُلّ هَذِهِ مسائلُ جانبيَّة، كذلك أيضًا ما وقع فِي الحديثِ فِي السنَّة (قالَ رجلٌ للنبيِّ ﷺ)، فتجدُ بعضَ الشرَّاح يُعنَى عنايةً تامّةً: مَن الَّذِي قَالَ هَذَا؟ هَذَا فِي الحقيقةِ لَيْسَ له داعٍ، وإنْ كنّا قد نستفيدُ إذا كَانَ فِي ذلك مَنْقَبَةٌ لِهَذَا الرجلِ إذا عُرِف به، لكِن هل هَذَا ليس ملزومًا لا بالحُكْم ولا بالدلالة، ولكِنه من فضول العلم. وهَذِهِ المسألة أيضًا مثلها: كم الَّذِينَ مَعَ صالحٍ؛ أربعة آلاف أو أربعة مَلايين؟ لا يَهُمُّ، المهمُّ أن كُلَّ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، حديث رقم (٦١٧٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث رقم (٢٢٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَنِ اتَّصَفَ بالإِيمانِ فإن الله تَعَالَى أنجاهُ من هَذَا العذابِ العامِّ.

قوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَتَّقُونَ﴾ الشِّركَ]، ولو أَنَّهُ قَالَ: يَتَّقُونَ المَعاصِيَ أو يَتَّقون اللهَ؛ لكان هَذَا أَولى؛ لِأَنَّ الإِيمـانَ والتقوى بمعنى الإِيمـانِ والعَمَلِ الصالحِ؛ لِأَنَّ العَمَل الصالح عند الإطلاقِ من التقوى، بخلافِ إذا ما قُرِنَ بالتقوى البِرّ، فيكُون التقوى للمعاصي والبِرّ للطاعات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنّ الإِيمانَ والتقوَى من أَسْبابِ النجاةِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حُكْمٌ مُعَلَّق بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّق بوصفٍ دلَّ ذلك عَلَى عِلِّيَّة هَذَا الوصف وتأثيره فِي الحكمِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الحثُّ عَلَى الإِيمانِ والتقوَى؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقل يَنْبَغِي له أَنْ يَسْلُكَ أَسْبابَ النجاةِ، فيكُون فِي الإخبار عن نَجَاتِهِم الحثّ عَلَى السَّبَـب الَّذِي به نَجَوْا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عَدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، حَيْثُ أهلكَ مَن يَسْتَحِقّ الإهلاكَ، وأَنْجَى مَن يَسْتَحِقّ الإنجاءَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنّ صالحًا ومن معَه كانوا مُؤْمِنِيـنَ متَّصفيـن بهَذَا الوصـف -بالإِيمان والتقوى- لِأَنَّهُم هم الَّذِينَ أُنْجُوا من هَذِهِ العقوبةِ.

الآيــة (٥٤)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل:٥٤].

• ● ● •

قَالَ المُفَسِّر: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوب بـ(اذْكُرْ) مُقَدَّرًا قبلَه]، يعني: واذكرْ يا مُحَمَّد لُوطًا، وإنما ذُكِرَ بَعْد صالحٍ وَهُوَ دائمًا يُذْكَر بعدَ صالحٍ؛ لِأَنَّ مدائنَ صالحٍ وقُرَى قومِ لُوطٍ لَيْسَ بَعْضُها بعيدًا من بعضٍ، وليستْ مجهولةً للناسِ فِي عهد النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلُوطًا﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ) مقدَّرًا قبله ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾]، لِأَنَّ (إذ قال) بدل من لُوطٍ، فَكَأَنَّ التَّقْدير: (واذكر إذ قَالَ لوطٌ لقومِه).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللُّوَاط]، الهمزة هنا للاسْتِفْهامِ الاستنكاريِّ أو الاستعلاميِّ؟

للتوبيخِ والإنكارِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَم، وإنْ شئتَ زِدْ عَلَى ذلك التعجُّب أو التعجيب، يعني كيف أنكم تأتون الفاحشةَ، فهي للتوبيخِ والإنكارِ والتعجُّبِ.

وقوله: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: (أل) لاستغراقِ الجنسِ من حَيْثُ المَعْنى، لا من حَيْثُ الأفرادِ، لكِن المَعْنى: أن هَذِهِ أعظمُ فاحشةً من نوعها، وهي أعظم من الزنا؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢]، فاحشة من الفواحش،

(فاحشة) في هذه الآية نكِرة، وهنا قَالَ: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وهي أيضًا أعظمُ من نكاحِ ذواتِ المحارِمِ؛ لِأَنَّ الله قَالَ: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء:٢٢]، ونِكاحُ ذواتِ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنا؛ لِأَنَّ اللهَ وَصَفَهُ بثلاثِ صفاتٍ: فاحشة ومَقْت وسُوء سَبيل، والزنا وَصَفَه بوصفينِ؛ فاحشة وسوء السبيل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

ولهَذَا فالصَّحيح أن مَن زَنَا بِمَحَارِمِهِ يُقتل، وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا؛ لِأَنَّ هَذَا أعظمُ -والعياذُ باللهِ- مِنَ الزنا، كذلك اللُّوَاط الصَّحيحُ أنَّ فاعِلَه يُقتَل ما دام بالغًا عاقلًا وإنْ لم يكنْ مُحْصَنًا.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: اللواط ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: يُبْصِر بعضُكم بعضًا انهِماكًا فِي المعصية]، يَعْنِي: أخبث من الحَمِير والعياذُ باللهِ، فيرى بعضُهم بعضًا وهم يفعلون ذلك، ولذلك قَالَ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت:٢٩]، إذا اجتمعوا -والعياذُ بالله- صارَ يَرْكَب بعضُهم بعضًا كالحَمِير، نسألُ اللهَ السلامةَ.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ مِنَ البصرِ ما يُبْصَر بالعينِ، وَقِيلَ: إن الإبصارَ بالقلبِ، يعني وأنتم تبصرون خُبْثَها وتَعقِلونه، وكل إِنْسَان له فِطرة سليمة يكره هَذَا الشَّيْء؛ لِأَنَّهُ سوف يركب مثله نفس هَذَا المركوب، سيركب غدًا واحدًا، ثُمَّ إن المكانَ هَذَا أيضًا لَيْسَ محلًّا لهَذِهِ الشَّهْوة؛ لِأَنَّهُ مكان متلوِّث بالأنجاس، وَلَيْسَ محلًّا للشهوة، فَهُوَ خبيثٌ بالفطرةِ وبالحِسّ أيضًا.

ولَكِنَّنَا نَقُول: لو أننا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسّيّ بالعين والإبصار المعنويّ بالقلب لكان ذلك جائزًا، وَفِي الحقيقةِ أنّ بَشاعةَ هَذَا الشَّيْء بالقلبِ أمرٌ

معلومٌ بالفِطرة، وكونهم يفعلونه وهم يشاهد بعضهم بعضًا هَذَا أشدُّ وأعظمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّهُ يَنبغي إبرازُ الغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أُرسِلَ الرَّسُولُ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ كلَّهم كافَّة أُرسلوا لتوحيـدِ الله، لكِنَّ بعضَهم يبيِّن مَعَ الأَمْر بعبادةِ الله أَنَّهُ أُرسِل لِهَذَا الغرضِ، ولوطٌ هنا بَيَّن اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ أرسله لغرضِ انتشالِ قومِه من هَذِهِ الفاحشةِ العظيمةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لا بُدَّ أَنَّهُ قَالَ لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾، لكِن لمّا كانت هَذِهِ الفاحشةُ ظاهرةً فيهم بيَّنها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَهُم مؤمنونَ، والرُّسُل طالبوهم أولًا بالإيمـان، وهم إمَّا أَنَّهُم أخطؤوا فِي هَذِهِ العَمَلية مَعَ تحقيق العِبادَة، وليَكُون الأَمْر بعبادة الله من باب الأَمْر بالاستمرار عليها، أو أَنَّهُم يأمرونهم ثُمَّ بَعْد ذلك إذا استقرّ الإِيمان فِي نفوسهم نَهَوْهُم عمّا هم عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الرُّسُل يُرسَلون إِلَى قومهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ولم يُبْعَثْ أحد إِلَى عمومِ النَّاسِ إِلَّا رسول الله ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان عِظَم اللُّواط وقُبْحه وَأَنَّهُ فِي قِمَمِ الفواحشِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان وجوبِ الإنكارِ عَلَى مَن أتى بِهَذِهِ الفاحشةِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ لِأَنَّ الهمزةَ هنا للاستِفْهامِ والتوبيخِ، ولَا شَكَّ أَنَّهُ يُنكَرُ عليه، لكِن بماذا يعاقَب؟

فِي شريعتنا يعاقَب بالقتلِ مُطلَقًا، سواءً كَانَ مُحْصَنًا أم غيرَ محصَنٍ، وهَذَا هُوَ

ما دلّ عليه الحديثُ الَّذِي فِي السُّنَنِ وصَحَّحَهُ الحاكِمُ وغيرُه من قولِ الرَّسُول ﷺ: «مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالمَفْعُول بِهِ»(١)، وَهُوَ الَّذِي أجمعَ عليه الصحابةُ كما حكاه عنهم شيخُ الإِسْلامِ ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ(٢).

لكِنهمُ اخْتَلَفُوا كيفَ يُقتل؛ هل يُقتل بالرجمِ أو بإلقائِهِ من شاهقٍ وإتباعِهِ بالحجارةِ، أو يُقتل بالسيفِ أو يقتل بالإحراقِ بالنَّار، وقد فعلَه أبو بكرٍ وفعله عبد الله بنُ الزُّبَيْر، وفَعَلَه هِشامُ بنُ عبدِ المَلِكِ، واختلفوا فِي هَذَا، فالمهمُّ أَنَّهُم اتفقوا عَلَى قتلِهِ، وتكون الكيفيّة هنا راجعةً إِلَى الإمامِ، إذا رأى أقوى كيفية تردع عن هَذَا العَمَل الخبيثِ فَإِنَّهُ يَسْلُكُهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنّ الفواحشَ تُقَبَّح بِحَسَبِ ما يُقْتَرَن بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ فإن هَذِهِ الفاحشةَ مُنْكَرَة، ولَكِنَّها إذا كانت عَلَنًا وجَهْرًا يَظْهَرُ النَّاسُ بعضهم أمامَ بعضٍ فيها صارتْ أقبحَ وأعظمَ، ولهَذَا أتى بالجملةِ الحاليّة فِي قوله: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الحدود، باب فيمن يعمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٤٤٦٢)؛ والترمذي، كتاب الحدود، باب ما جاء في حد اللوطي، حديث رقم (١٤٥٦)؛ وابن ماجه، كتاب الحدود، باب من عمل عمل قوم لوط، حديث رقم (٢٥٦١)؛ وأحمد (١/ ٣٠٠) (٢٧٣٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٩٥) (٨٠٤٧)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٣٥).

الآيــة (٥٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:٥٥].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ]، ففيها أربع قراءات.

قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ هَـذَا تفسيـر لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْفَاحِشَةَ﴾، وهنا يُلاحَظ أن الاسْتِفْهامَ هنا لتقريرٍ، لَكِن أُكِّدَ هَذَا الحكم بالجملةِ الَّتِي قُرِئَتْ بالاسْتِفْهام؛ أكد بـ(إن) و(اللام): ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ وهَذَا كقولِ إخوة يُوسُف ليوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، أي: أتُقرِّر أنك يوسف وتؤكِّد ذلك؟ فقال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف:٩٠]، ففي جـوابِهِ لهم إهانة لهم؛ لِأَنَّهُم طلبوا منه أن يؤكِّد لهم أَنَّهُ يوسـفُ فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ فما قَالَ: (إني لأنا يوسف)، بل ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ فحذف التأكيدات استهانةً بهم.

فالحاصل: أن الاسْتِفْهام إذا تلاه التأكيد لا يُخرِجه عن معنى الاسْتِفْهام، بل كأنَّ المُسْتَفْهِم يطلب من المُسْتَفْهَم منه تأكيد الجملة، لكِن في هَذِهِ المسألة الاسْتِفْهام للتقرير، يقرر مَعَ التأكيدِ، ولهَذَا قَالَ لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف:٨١].

وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ يَحتمِل أن تكون مصدرًا فِي موضع الحالِ، ويَحتمِل أن تكون مَفْعُولا لأجلِهِ؛ أي لأجلِ الشَّهْوةِ.

وعَلَى كُلِّ حَالٍ: ففيها إنكار من جهةِ أَنَّهُم يأتون الرِّجال شهوةً وليسوا أهلًا لها، ومن جهة أخرى أَنَّهُم يدعون النِّساء، ولهَذَا قَالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وهنّ مَحَلُّ الشَّهْوةِ، فيكُونون قد أساءوا فيما فَعَلُوا وفيما تَركُوا، ولهَذَا قَالَ لهم فِي آيَة أخرى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٦]، وهَذَا أبلغُ، يعني لو أن المسألة ضُيِّقَتْ وما بَقِيَ إِلَّا هَذَا الطريق لكان أهونَ، لكِن هناك طُرُق محلَّلة مُباحة موافِقة للفِطْرة تَدَعُونها وتذهبون إِلَى هَذَا، كالذي يَدَعُ المذكَّاة ويأكل المَيْتة، وكالذي يَدَعُ البيعَ الصَّحيحَ ويذهب إِلَى الربا، ويقول: إِنَّمَا البيعُ مثْلُ الربا.

فالحاصل: أن القبائح تَزداد قبحًا إذا كَانَ لها بدائلُ مِنَ الحسناتِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لو أَنَّهُ اقتصرَ عَلَى هَذَا وقال: أئنكم لتَأْتُون الرِّجال شهوةً بل أنتم قوم تجهلون، حصل التوبيخ واللوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قُبْح فعل هَؤُلَاءِ، وهَـذَا مَعَ الوجه الأول ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ يَكُون قَبُحَ من وجـهٍ آخرَ، هُوَ أَنَّهُم يأتون الرِّجال الَّذِينَ لَيْـس لهم حـقّ فِي إتيانهم ويَدَعُون النِّساءَ اللاتي خَلَقَهُنَّ اللهُ لذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الشهوة إِنَّمَا تَصْدُرُ عن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، وإنما هِيَ عن سَفَهٍ فِي الْإِنْسَان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ كأنه قَالَ: إتيانكم إياهم شهوة لَيْسَ له محل، ولكِنَّ الَّذِي أوجب ذلك لكم أنكم قوم ذوو جهل، أي: سفه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أن هَذِهِ الشهوة تَصْدُر عَن جهلٍ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا ما رُوِي من حَذَرِ بعضِ الأئمَّة من مقاربةِ الصبيَان أو المُردان خوفًا من أن يقعَ فِي أنفسهم شيءٌ؟

فالجواب: كما أنَّ الزِّنَا قبيحٌ فِي الفِعْل، ومعَ ذلك قد تَدْعو النفسُ إليه، فلا يَمْنَع أن النفس الأمّارة بالسُّوء تدعو إِلَى ما يخالِف مقتضَى الطبيعة، ولهـذَا قَالَ بعض العُلَماء: إن اللُّواط لَيْسَ فِيهِ حدٌّ ولا عقوبةٌ؛ لِأَنَّ النفسَ تَنْفِرُ منه بِمُقْتَضَى الطبيعةِ، فَهُوَ كشُـرْب البولِ وأكلِ الغائطِ، ولكِن هَذَا لَيْـسَ بصحيحٍ، الصَّحيحُ أن بعضَ النفوسِ السافلة قد تدعو إليه، فالزِّنَا محرَّم لِوَصْفِهِ، لا بِمُقْتَضَى الطبيعةِ؛ لِأَنَّهُ زنا، ولذلك لو تَزَوَّجها حلَّ له ذلك، أَمَّا هَذَا فَهُوَ محرَّم بمقتضى الشَّرِيعَة والطبيعةِ، حَتَّى النفس تَنْفِر منه، إِلَّا نفسًا مقلوبًا عليها أَمْرُها.

ولهَذَا قَالَ لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فهَذِهِ ليستْ شهوةً طبيعيّةً، وحقيقةً كيف أن الْإِنْسَان يذهب يَسْتَعْمِل هَذَا المَحَلّ الَّذِي هُوَ مَحَلّ الخبث والأنتان والأقذار، وربما يَعْلَق به شَيْء من ذلك، ويَدَع المَحَلَّ الطاهِرَ الَّذِي أباحَهُ الله له.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيَان ما عليه هَؤُلَاءِ القوم منَ المَظْهَر الاجتماعيّ الفاسِدِ؛ لِأَنَّهم إذا كانوا يأتون الرِّجال ما بَقِيَ منهم رجلٌ فِي الحقيقةِ، صاروا كلُّهم بمنزلة النِّسَاءِ، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَبِرَ الْإِنْسَان ارتفعَ عنْ أن يُفعلَ له وصار فاعلًا، فهم فِي حالِ الشباب مَفْعُول بهم، وَفِي حالِ الكِبَر فاعلونَ، ولهَذَا يُعْتَبَر هَذَا الانحطاطُ الاجتماعيّ فِي البشرِ من أخسّ الانحطاطاتِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الفِعْلة مِنَ السَّفَه العظيم؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فأتى بالجملةِ الاسميَّة الدالَّة عَلَى الثُّبُوت والاستمرارِ.

الآية (٥٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾: ﴿جَوَابَ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾ مُقدَّم، و﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ اسمها مؤخر، وهَذِهِ الجملة للحصْرِ، يعني ما كَانَ جواب قومه أنْ يَنْقَادُوا، ولا أن يَقِفُوا مَوْقِفًا سَلْبِيًّا من دعوتِه، بحيث يَتَوَقَّفُونَ عن القبولِ وعن المعارضةِ، بل كَانَ جواب قومه -والعياذ بالله- اللجوء إِلَى الْقُوَّة وإلى العنف.

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ أي: قَالَ بعضهم لبعض: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓاْ﴾ الفاعل يعود إِلَى أهل الحِلّ والعَقْدِ فِي القرية.

وقوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أتوْا بهَذَا التعبيرِ إشارةً إِلَى أنّ لوطًا لَيْسَ منكم، وإنما هُوَ جُرْثُومَة طارئة حادثة عَلَى محَل، فيجب أنْ يُنَزَّه منها؛ لِأَنَّ لوطًا كما هُوَ معروف أُرْسِل إِلَى أهلِ سَدُوم ولَيْسَ منهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني الَّذِينَ جاءوا ووَفَدُوا إليكم وليسوا منكم، ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ لم يقولوا: منَ القريةِ، بل قَالُوا: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ للإغراءِ بإخراجِهِ، يعني كأنهم يَقُولُونَ: هَذِهِ قريتكم وهَذَا الرجل جاء جديدًا عليها ويريد أن يُناقِضَكُمْ وأن يقفَ ضِدَّكُم، فأَخْرِجُوه، فالقريةُ لكم ولَيْسَ له.

وسيأتي -إن شاء الله- بَيَان الفائدةِ فِي هَذَا أن بعض النَّاس إذا ضاق ذرعًا بالدُّعاة المصلِحين يَقُول لهم: اخْرُجُوا، هَذِهِ لَيْسَت بِلادكم، أو لا تتكلَّمْ فِي هَذَا المَسْجِدِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مسجدكَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هَذِهِ الجملةُ تعليل لِمَا سَبَقَها مِن حُكْمٍ وَهُوَ الأَمْرُ بالإخراجِ، (أخرجوهم) لماذا؟ (لأنهم أناس يَتَطَهَّرُون)، قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من أدبار الرِّجال]، فجعلوا عِلَّة العقوبة ما هُوَ من أَسْبابِ رفعِ العقوبةِ؛ فإن التطهُّرَ عن هَذَا حَسَنٌ يَقتضي المدحَ والثَّناء الجميلَ عَلَى مَن تطهَّر منه، وهَؤُلَاءِ جعلوه بالعكس؛ لِأَنَّهُم -والعياذ بالله- إمَّا زائغونَ يَعرِفون الحَقّ ولم يَعْمَلُوا به، وَإِمَّا ضالُّون أُضِلُّوا عن الحَقّ وعَمِيَ عليهم، نسأل الله العافية. والغالبُ أَنَّهُم زائغونَ؛ لِأَنَّ هَذَا معروفٌ لدى البشرِ أنَّ الطبيعةَ تَنفِر منه ولا أحدَ يَقْبَلُه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ وأن هَذَا الفِعْل خبيثٌ وهَؤُلَاءِ يريدون التطهُّر منه، أو أرادوا: يتطهّرون بِزَعْمِهِم، وأن هَذَا الفِعْل لَيْسَ نَجِسًا لكِن هَؤُلَاءِ يريدون أن يتطهروا منه؟

الأقرب الأخير؛ لِأَنَّهُ هُوَ مُقْتَضَى حالِهم، فمقتَضَى حالهم أَنَّهُم رأوا هَذَا المنكرَ معروفًا وهَذِهِ الفاحشةَ يسيرةً فتمسكوا بها.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: ﴿أُنَاسٌ﴾ نكِرة، والمنكّر غيرُ معروفٍ، وكل هَذَا لقصدِ التباعُدِ منه، والإغراء بإخراجِهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان عُتُوِّ المكذِّبين لِلُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأنهم لم يَقتصِروا عَلَى ردِّ دعوتِهِ، بل اتَّفقوا عَلَى أن يخرجوه من البلد.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ ينبغي عند الدَّعْوَةِ إِلَى الشَّيْءِ أن يَقْرِن الداعي دعوته بما يُغْرِي المدعوّين ويُؤَلِّبهم ويقوِّيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، ومن قوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ ولم يقولوا: من القريةِ؛ لِأَنَّ قولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، فهَذِهِ تُوجِب الحَمِيَّةَ والعَصَبِيّة حَتَّى يخرجوهم، كأنهم قَالُوا: هَذِهِ القريةُ لكم، أَخرِجوا هَذَا الرجل، وكذلك ففي قوله: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ يعني هَؤُلَاءِ ليسوا منكم؛ فلا وجهَ لِكَوْنِكم تسكتونَ عنهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَرْنُ الحُكْم بالسَّبَب؛ لقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ هَذَا سبب قولِهم ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن قول البعضِ إذا رَضِيَهُ الباقونَ فَهُوَ للجميعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، ومنَ المعلومِ أن هَذَا القَوْلَ لَيْسَ للجميعِ؛ لِأَنَّهُم عندما يَقُولُونَ: (أخرجوا) فبعضهم يخاطب بعضًا، ولكِن الكلمة إذا جاءت من بعضِ القومِ ورَضِيَها الآخرونَ فإنها تُنْسَبُ إليهم.

ولهَذَا يخاطب الله اليهود فِي عهد النَّبِيِّ ﷺ بما فعله أسلافهم، وَفِي سورة البقرةِ كثيرٌ من ذلك؛ كما قَالَ الله تَعالَى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، فموسى الَّذِي أُوتِيَ الكتابَ والفُرقان جاء لأسلافهم وليس لهم.

وكذلك قَالَ: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٩٢]، والَّذِينَ اتخذوا العجلَ ليسوا هَؤُلَاءِ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ راضونَ. فِفعل القوم أو فِعل بعضِ القومِ أو القبيلة إذا رَضِيَه الآخرونَ فَهُوَ للجميعِ، والعِبرة بالأشرافِ ومَن لهم الكَلِمَة، وإلَّا بعض النَّاس قد يَكْرَه هَذَا الشَّيْءَ ولا يريده.

الآيـة (٥٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [النمل:٥٧].

لَمَّا عزمُوا عَلَى إخراجِهِ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أن يخرجَ بأمرِ اللهِ، فإن الملائكةَ أتتْ إليه وأمرتْه أن يسريَ بأهلِهِ إِلَّا امرأتَه كانت من الغابرينَ، فسرى بأمرِ اللهِ، ولما بعُد عن القريةِ أهلكَ اللهُ تَعَالَى أهلَ القريةِ صباحًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، فأرسلَ اللهُ عليهم حجارةً من سِجِّيل، فجعل عاليَها سافِلَها، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ﴾ والاستثناءُ مُتَّصِل.

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ﴾ وَفِي هَـذَا دليلٌ عَلَى أن المَرْأة من الأهل؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَأهلُها ويَأوِي إليها، وكذلك هِيَ بالنِّسْبَة إليه، فالزوجةُ من أهلِ الْإِنْسَانِ كما أن أقاربَه من أولادِهِ وآبائِهِ هم أيضًا منَ الأهلِ.

قوله: ﴿قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ أي: كَتَبْنَا عليها وقدَّرنا عليها، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [جعلناها بتقديرنا ﴿مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين فِي العذاب]، و(الغابر) بمعنى: الباقي، فالمَعْنى أَنَّهَا بَقِيتْ ولم يَسْرِ بها فكانت -والعياذ بالله- من الهالكين.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ هَذَا هُوَ معنى قولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ

عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، فإن هَذِهِ الخيانة ليستْ خيانةَ فَرْج وعِرْض، وإنما هِيَ خيانة كُفْر؛ لأنهما أظهرتا أنهمـا مؤمنتانِ وهما ليستا كذلك، فبهَذَا صارتا خائنتينِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أن الله تَعَالَى كاملُ العدلِ، حَيْثُ أنْجى لوطًا وأهلَه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن أَتَى بأَسْبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كَانَ بين قوم صالحينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَـهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان سَبْـقِ التَّقْدير للحوادثِ، وأن تقدير الله تَعَالَى سابق عَلَى أفعالِه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَدَّرْنَـٰهَا﴾؛ لِأَنَّ معنى ﴿قَدَّرْنَـٰهَا﴾ أي: جعلناها بتقديرنا السابق.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المرءَ يُعْذَر بما لا يَعلم، فإنّ لُوطًا كَانَ لا يعلمُ عنِ امرأتِهِ شيئًا أَنَّهَا كافرة، والدَّلِيل عَلَى أَنَّهُ لا يعلمُ قولُه تَعَالَى فِي سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠]، وإلّا ما كَانَ لنبيٍّ أنْ يَبقَى تحته امرأة كافرة، إِلَّا أَنَّهُ إذا كَانَ لا يعلم فَهُوَ معذور.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ لا يُنَجّي من عذاب الله الاتصالُ بأهلِ الصلاحِ، فلا يَقُول الْإِنْسَان مثلًا: أنا أخي صالح أو وليٌّ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَعصِمني من عذابِ اللهِ؛ فهَذِهِ امرأةُ لُوطٍ لم يَنْفَعْهَا أَنَّهَا امرأة نبيّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم:١٠].

ونوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ له ابن كافر قَالَ: إِنَّهُ من أهلي، فقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ

مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود:٤٦]، والنَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ لابنته فاطمةَ: «يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[١].

فالمهم في هَذِهِ الفائدة ألّا يَغْتَرَّ الْإِنْسَان بقُربه من أهلِ الخيرِ والصلاحِ فيقول: إنني سأنجو بهَـذَا القُرب؛ لِأَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يُحَابي أحـدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦].

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين هَذِهِ الفائدة والْفَائِدَة السابقة: أن مَن أتى بأَسْبابِ الهلاك هَلَكَ ولو كَانَ مَعَ قوم صالحين؟

فالجواب: الفرق أن الفائدة هنا لمن كان له قُرْبٌ خاصّ، والسابقة يُقصد بها من كَانَ معهم يعني بمجرد الاجتماع والمصاحبة، وامرأة لوط جامعة بين الأَمْرينِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ حديث رقم (٤٤٩٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، حديث رقم (٢٠٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٥٨)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [النمل:٥٨].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وَهُوَ حجارةُ السِّجِّيل أَهْلَكَتْهُمْ، ﴿فَسَآءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهُم].

قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ فِي هَذَا دليلٌ عَلَى أن المطرَ لَيْسَ خاصًّا بالماء، بل كُلّ ما حُصِبَ به الْإِنْسَان من فوق يُسَمَّى مطرًا، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ والمطر الَّذِي أصابهم هُوَ ما قَالَهُ الْمُفَسِّر [حِجَارة السِّجِّيل]، كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آية أخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود:٨٢]، وَفِي آيـة ثانيـة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤]، هَذِهِ الحجارة أهلكتهم وجعلتْ عاليَ القريةِ سافِلَها؛ بمعنى أَنَّهَا تهدَّمتْ عليهم حَتَّى صار عالِيهَا سافلَها، يعني لِأَنَّهُ إذا انهدمَ البناء صار أعلاه أسفله، هَذَا هُوَ الظَّاهر.

وَأَمَّا ما رُوِيَ من أن جِبـريلَ حَمَلَهم من تُخُوم الْأَرْض السُّفْلَى وَأَنَّهُ صَعِدَ بهم حَتَّى سَمِعَ أهل السَّماء نُباح كلابهم ونَهيق حَمِيرهم ثُمَّ قَلَبَها، فإن هَذَا لا دليلَ عليه، لا من كتاب اللهِ ولا من سنّة رسول الله ﷺ. فالأقربُ أن هَذِهِ الحجارة لَمّا أصابتْ قريتَهم صار عاليها سافلَها، وانهدمَ البناءُ فصار أعلاه أسفله.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَسَآءَ﴾ بئس]، إذن ساء فِعْلٌ ماضٍ مجرَّد عن الزمنِ،

وإنما هُوَ لإنشاءِ الذمِّ، مثل: (حَسُنَ) فِي بعضِ الأحيانِ: ﴿وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النِّساء:٦٩]، فهَـذَا فعل لإنشاء المدح، و(ساء مطر المنذَرين) هَـذَا أيضًا فعل لإنشاءِ الذمِّ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ بالعذابِ مَطَرُهم]، وقَالَ: [مَطَرُهم]، لِأَنَّ (ساء) مثل (بِئس) تريدُ فاعلًا، وتريد مبتدأً ومخصوصًا بالذمِّ، وَهُوَ المبتـدأ المحذوف؛ فإذن نَقُول فِي إعرابها: (ساء): فعلٌ ماضٍ، ومَطَر: فاعل، وَهُوَ مضاف إِلَى المنذرينِ، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ تقديرُه (مَطَرُهم): (فساءَ مطرُ المنذَرين مَطَرُهُم)، وهَذَا المخصوص أحيانًا يتقدم وأحيانًا يأتي بدله اسمٌ منصـوب يُجعَل تمييزًا يكُونُ بدلَ هَذَا المخصوصِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف الجمع بين قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر:٧٣]، وقوله فِي سورة هود: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١]، وقوله: ﴿دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٦٦]، مَعَ أن الصُّبح طلوعُ الفجرِ كما ذكر ابنُ القَيِّم، والإشراق بَعْد طلوع الشَّمْسِ؟

فالجواب: الصبحُ يشملُ من طلوعِ الفجرِ إِلَى الزوالِ، فيُسمَّى ضحًى ويسمى صُبْحًا، وقوله: ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ أي: العذاب بدأ فِي زمن الإصباح، واستمرَّ العذاب إِلَى الإشراقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعَذِّب كُلَّ إِنْسَانٍ بذنبِه، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، فمنهم مَن فعلنا به كذا ومنهم مَن فعلنا به كذا، فهنا يَقُول: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، ووجه مناسبة العقوبة للجريمةِ أن هَذَا المطرَ

جعل عَالِيَ بلادهم سافلَها، كما أن أولئك سَفُلُوا بأخلاقهم حَتَّى كانوا يستعملون هَذِهِ الفاحشةَ ويَذَرُون ما خلق لهم ربُّهم من أزواجهم، وهَذَا بلَا شَكٌّ انقلابٌ فِي فِطَرِهِم، ولذلك عُوقِبُوا بهَذِهِ الجريمة والعياذ بالله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الثَّناء عَلَى الفِعْل بما يستَحِقّه من الثّناء، حَيْثُ قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وهنا نُورِدُ إشكالًا، وَهُوَ أن هَذَا المطرَ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والثَّناء عليه بالقُبْح وبالشرّ ألا يُنافي قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[1]؟

نَقُول: لا ينافيه، والجمع أن هَذَا السوءَ لَيْسَ فِي فعلِ اللهِ ولكِنه فِي مَفْعُولِه، فهَذَا المطرُ هُوَ الَّذِي أثنى عليه بالسُّوء ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، وَأَمَّا فعل الله فَإِنَّهُ لَيْسَ بشرٍّ، بل هُوَ من كمالِ العدلِ والْقُوَّة والسلطانِ، حَيْثُ عاقب المجرمينَ بما يَسْتَحِقّون، وعقوبةُ المجرِمِ بمـا يَسْتَحِقّ لَا شَكَّ أَنَّهَا ليستْ بظلمٍ وليسـتْ بسيِّئة ولا يُثنَى عَلَى فاعلها بالسوء. فتبَيَّنَ بهَذَا أَنَّهُ لا ينافي قولَ الرَّسُول ﷺ: «الشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ».

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هَؤُلَاءِ الَّذِين أَهْلَكَهُمُ اللهُ قد قامتْ عليهم الحُجَّة، لقولِهِ: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فهؤلاء أُنذروا بالعذابِ، فقامت عليهم الحجَّة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُول فِي الْقُرْآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، ما عذَّب اللهُ أُمَّة من الأممِ إِلَّا بعدَ قيامِ الحجَّة عليها، ولولا ذلك لكانتِ الحجَّةُ عَلَى اللهِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النِّساء:١٦٥]، فلا أحدَ له حُجَّة عَلَى ربِّه؛ لِأَنَّ الحجّة قد قامت بمـا ركَّب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي فِطَر النَّاس من محبَّة الخير وعبادةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيّد ذلك الأَنبِياء والرسُلُ الَّذِينَ أتوا بالبيِّناتِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧١)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الظَّاهراتِ، فلم يبقَ للإنْسَانِ حجَّة؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ الباطنيّ والدَّلِيل الظَّاهريّ موجودٌ فيه: الدَّلِيل الباطنيُّ: الفِطْرَة؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠].

والدَّلِيل الخارجِيُّ: الرُّسُلُ الَّذِينَ جاءوا بالكتابِ وبالآياتِ البيِّنات، فقد قَالَ رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ»[1]، فلهَذَا نَقُول: إن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، وهم قومُ لُوطٍ، كانوا قد أُنْذِرُوا بالعذابِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

ما الفرق بين المُنْـذِرين فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان:٣]، وبين ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فِي هَذِهِ الآية؟

المُنْذِر: مَن أَتَى بالإنذارِ، أو مَن أَنْذَرَ، والمُنْذَر: مَن أُقِيمَتْ عليه الحُجَّة.

• ● ۞ ● •

---

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، حديث رقم (٤٦٩٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا مُحَمَّد ﷺ...، حديث رقم (١٥٢)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٥٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩].

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلِ﴾ يا مُحَمَّد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى هـلاك كفَّار الأمم الخاليَةِ].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الأَمْرُ للنبيِّ ﷺ أو لكلِّ مَن يمكِن أنْ يُوجَّه إليه مِن العقلاء.

قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أطلقَ هنا ما يُحْمَد عليه، فَهُوَ أعمُّ مِمَّا قَالَهُ المُفَسِّر، وإنْ كَانَ السياقُ يَقتضي ما قَالَهُ المُفَسِّر لكِنَّهُ يجبُ أنْ يُؤْخذ بالعمومِ، ويَكُون من جملةِ ما يُحْمد عليه إهلاكُ الكفارِ؛ لِأَنَّهُ دالٌّ عَلَى عدلِهِ بأخذِ هَؤُلَاءِ، وَعَلَى فَضْلِهِ بالأَنْبياء والمُؤْمنِينَ، حَيْثُ أخذ أعداءهم.

ولَكِنَّنَا نَقُول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هَذَا عامٌّ، يُحْمَد عَلَى كامل أوصافِه وَعَلَى أحاسنِ أفعالِه، فأفعاله كلُّها حُسْنَى، وصفاته كلها كاملة، فيُحمَد عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا، ويَكُونُ إهلاكُ كفارِ الأُمَمِ من جملةِ ما يُحمَد عليه، وهَذَا هُوَ السرُّ فِي أنَّ الله تَعالَى لم يَقُلْ: قُلِ الحمدُ للهِ عَلَى هَذَا، بل قَالَ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ ليَكُونَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى محمودًا عَلَى كُلِّ حالٍ، ومن جملةِ ما يُحمَد عليه إهلاكُ المكذِّبين للرسل.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هم]، هَذَا المَفْعُول قَدَّره المُفَسِّر.

وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ هل هُوَ داخل فِي ضمن المَقُول، يَعْنِي: قلِ: الحمدُ للهِ وقلْ: سلامٌ عَلَى عِبَادِه الَّذِينَ اصطفَى، فيَكُون الْإِنْسَان مأمورًا بالثَّناء بحمدِ اللهِ وبالدعاءِ عَلَى عبادِ اللهِ الَّذِينَ اصطفاهم بالدعاء لهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾، أو هِيَ جملةٌ مُسْتَقِلَّة خبرٌ منَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه سَلَّمَ مَنِ اصطفاهُ وأنجاه؟

فِيهِ احتمالٌ للأمرينِ، لكِن أَيُّهما أقربُ إِلَى السياق؟

لا يترجح عندي أحدُ الاحتمالينِ؛ لِأَنَّ لكلٍّ منهما وَجْهًا، فالْإِنْسَان مأمورٌ أن يحمدَ اللهَ ومأمورٌ بأن يُسَلِّمَ عَلَى عبادِ اللهِ.

وكذلك أيضًا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودٌ عَلَى كمالِ صِفاتِه. ثُمَّ إخباره بأنه سَلَّمَ هَؤُلَاءِ هَذَا أيضًا مما يُحْمَد عليه؛ لِأَنَّ زوالَ النِّقَمِ كجَلْبِ النِّعَمِ، ويَكُون فِي هَذَا فائدةٌ، وَهِي أن العبادَ الَّذِينَ اصطفاهم الله قد أحلَّ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا ينالهم ما ينالُ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار، ويَكُون الله تَعَالَى محمودًا عَلَى الأَمْرينِ: عَلَى إهلاكِ الْكُفَّارِ وَعَلَى تسليمِ عباده الَّذِينَ اصطفى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارهم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَخْلُقُ ما يشاء ويختار؛ يختار ما يَخْلُق ويَصْطَفِيه، فمن جملة ما اختارَ من بني آدمَ اختارَ الأَنْبِياء؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ [ص:٤٧]، واختار أيضًا المُؤْمِنِينَ، فإن المُؤْمِنِينَ بالنِّسْبَةِ للكفار مُصْطَفَون، والأَنْبِياء صفوة الصفوة، والاصطفاءُ كغيرِهِ من الصِّفَاتِ

الَّتِي تكون متفاوتةً بحسَب ما قام به العبدُ من أَسْبابِ الاصطفاءِ، فكلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقومَ بعبادةِ اللهِ وأشدَّ تعظيمًا لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كَانَ أشدَّ اصطفاءً.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿ءَآللَّهُ﴾ بتحقيق الهمزتين]، (أألله) [وإبدال الثَّانِيَة ألفًا]، (آلله) [وتسهيلها وإدخال ألـف بين المسهَّلَة والأُخْرَى وتركها]، التسهيـل فِيهِ صفتان؛ يدخل بينهما ألف، أي بين الهمزة والمسهَّلة، أو بدون ألف؛ فتكون القراءات أربعًا.

ثم قَالَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالتاء والياءِ، أي أهل مكَّة به الآلهة خير لِعَابِدِيها].

قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ خَصَّه المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بخيريتِهِ لِمَن يعبده، والصَّواب أَنَّهَا خَيْـرِيَّة مُطْلَقَة لِمَن يعبده، وهَذَا يَقتضِي الإحسان، ولكمـاله وهَذَا يقتضي الجلالَ والعظمةَ، فهنا لا نَقُول: (آلله) خير لمن يعبده فقط، بل (آلله) خيرٌ فِي كُلّ صفاتِه وَفِي إحسانِه وعطائِه؛ لِأَنَّ الآيَةَ مُطْلَقة، فيجب إطلاقها، وإطلاقها أكملُ مِن تقييدها؛ لِأَنَّهُ مثلًا قد يَكُون هذا خيرًا لمن يتعامل معه لَكِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ خيرية مطلقة، يَكُون هَذَا الرجل يتعامل مَعَ شخص وإذا عامله أعطاه فوق ما يستحقّ، لَكِنَّهُ فِي صفاتِهِ الأُخْرَى رَدِيء، ويأتي آخرُ جيِّد وخَيِّرٌ فِي صفاته الأُخْرَى لكِن إذا تعامل معه هَذَا الرجل ربما لا يعطيه ما يستحقّ، فيَكُون الأوَّل خيرًا له من الثاني، ومع ذلك فَهُوَ ناقصٌ.

فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خير لِمَن يعبده، هَذَا فِيهِ نظر؛ أولًا: أَنَّهُ تقييد للمطلَق بلا دليلٍ. ثانيًا: أن هَذَا التقييدَ لا يَقتضِي الأفضليَّةَ، ولذلك يَجِب أن يُقال: (آلله خير فِي كُلّ شيءٍ؛ فِي صفاتِه وَفِي ثوابِه وجزائِه لِمَن يَعْبُدُهُ.

قوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني أم الَّذِي يشركونه مَعَ الله من الأصنام وغيرها، والجواب: «بل اللهُ خير»، ولهَذَا يَنبغي لك إذا قرأتَ مثل هَذَا أن تقولَ: بل الله، وهَذِهِ المعادلةُ لا تَقتضي المقاربةَ أو المماثلةَ، فَإِنَّهُ قد يُفاضَلُ بين الشيئينِ مَعَ خلوِّ الطرفِ الثاني منهما، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان:٢٤].

مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي مُسْتَقَرّ النَّار خيرٌ وَلَيْسَ فيها حُسْن مَقيل، بل إنَّهُم يُفَضِّلُون بين أمرين متعاكسين، فيقال مثلًا: الشتاء أشدُّ مِنَ القَيْظِ، وأبلغُ من هَذَا: الشتاءُ أبردُ منَ القَيْظِ، مَعَ أنّ القَيظَ لَيْسَ فِيهِ بُرُودَة.

فالحاصل: أن هَذَا ما يَقتضي المماثَلَةَ أو المساواةَ. ولكِن هل يَقتضي النقصَ؟

نعم يَقتضي النقصَ؛ لِأَنَّهُ يُوهِم المشاركةَ إِلَّا فِي مَقامِ التنزُّلِ فلا يَقتضي النقصَ، يَقُول الشاعر(١):

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّـيْفَ يَـنْقُصُ قَـدْرُهُ إِذَا ... قِيلَ إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَـى مِـنَ الْعَصَـا

لكِن عند التنزُّل لا يَدُلّ عَلَى النقص، فهَذِهِ الأصنام الَّتِي يُشْرَكُ بها مَعَ الله يريد مِنْهَا عابدوها أنْ تَنْفَعَهُم بجلبِ النفعِ أو دفعِ الضررِ، فنَقُول لهم: أيّما خير؛ أصنامكم أم اللهُ؟ من بابِ التنزُّل مَعَ الخَصْمِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَدَّعُون أن في آلهتهم خيرًا، فيقال لهم: آلله خيرٌ أم ما يشركون، يعني عَلَى زَعْمِكُم، وإِن كَانَ لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا.

وقوله: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: (أم) هَذِهِ متَّصلة أو مُنْقَطِعة؟ وما الفرق بين المتصلة والمنقطعة لكي نَحْكُمَ عليها؟

---

(١) قائل هذا البيت هو محمد جواد بن عبد الرضا عواد البغدادي له ديوان بمكتبة آية الله الحكيم بالنجف، هلك عام ١١٦٠هـ.

المتصلة معناها: أن تكون بينَ متعادلينِ، وَأَمَّا المنقطِعة فتكون بين متباينينِ، هَذَا الفرق؛ فالمنقطعة يَكُون الثاني منقطعًا عن الأولِ، فإذا صارتْ بينَ المتعادلينِ فإنها تُسَمَّى مُتَّصِلَةً، وأيضًا فرق آخرُ لفظيٌّ: أنَّ المتصِلة يَسْبِقُها همزةُ الاسْتِفْهامِ: أَزَيْدٌ قائمٌ أمْ عمرٌو، فيذكر فيها المعادل، وتَسْبِقها الهمزةُ تحقيقًا أو تقديرًا.

وَأَمَّا المنقطعة فلا تُذْكَر بين متعادلينِ، ولا يَكُون قبلها همزةٌ، فقوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ هَذِهِ قبلها الهمزة وهي أيضًا بين متعادلين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [«أَمَّا تُشْرِكُونَ» بالتاءِ والياءِ]، يعني (أَمَّا تشركون) أو ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] [أي أهل مكَّة به الآلهة خَيْر لِعَابِدِيها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾]، قدَّر المُفَسِّر: الآلهة خير لِعَابِدِيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوب حَمْدِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ﴾ والأَصْلُ فِي الأَمْرِ الوجوبُ، والله تَعَالَى يُحْمَد عَلَى كمال صفاتِهِ وأفعالِهِ، وهنا الحمدُ ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى الأَمْرين جميعًا، لَيْسَ عَلَى أفعالِهِ فقطْ، ومن جملة ما يُحمد عليه أَنَّهُ أهلك هَؤُلَاءِ المُنْذَرين الَّذِينَ كذَّبوا الرَّسُول، ولهَذَا تخصيص المُفَسِّر بِقَوْلِهِ: [على هلاكِ الكفار]، تقدَّم التنبيه عليه وأن هَذَا تخصيصٌ للآيَةِ، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فيُحمَد الله تَعَالَى عَلَى كمال صفاته وأفعاله، وحمده واجبٌ شَرعًا وعقلًا؛ لِأَنَّ العقلَ يَقتضي أن يُوصَفَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالكمال.

والحمد هل هُوَ الثَّناء أو غيرُ الثَّناء؟

---

(١) حجة القراءات (ص:٥٣٣).

بعض النَّاس يَقُول: الحمدُ هُوَ الثَّناء عَلَى اللهِ بالجميلِ، وَلَيْسَ بصحيح، بل الحمد هُوَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ، ثُمَّ إن كُرِّرَ صار ثناءً، ودليلنا عَلَى هَذَا قولُ الله تَعَالَى فِي الحديث القُدُسي: «قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي»(١) فدلَّ هَذَا عَلَى أن الحمد لَيْسَ الثَّناء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن إهلاكَ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمـال يَنبغي أنْ يُحْمَدَ عليها، ولا يعذِّب اللهُ إِلَّا مستحِقًّا، فعلى هَذَا إذا أصيبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّار بالكوارثِ منَ الزَّلازِلِ والفيضاناتِ والأوبئةِ فما مَوْقِفُنا نحنُ مِن ذلك، هل نترحَّم لهم ونَأوِي لهم؟ لا، لكِن بعض النَّاس الجهّال فِي وقتنا هَذَا تَجِدُهم يَتَأَوَّهُون لهم ويَتَوَجَّعُون لهم ويعطِفون عليهم ويرحمونهم، وهَذَا خلافُ العقلِ وخلافُ النقلِ، بل إننا إذا أوقعَ اللهُ بهم ما يُوقِع من عُقُوباته فإنَّنا نَقُول: الحمد لله، نَحْمَد الله عَلَى ذلك؛ لِأَنَّ إهلاكهم مَصْلَحَة للإسلامِ والمُسلِمينَ، ما من فردٍ يَزيدُ فِي الْكُفَّار إِلَّا ويزدادون به قوَّة عَلَى المُسلِمين.

فإِذَنْ: إهلاكهم نِعْمَة منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، علينا أنْ نَحْمَدَ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عليها، ولا ينافي هَذَا أن نَعْطِفَ مثلًا عَلَى الصغار منهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم.

مثلًا لو فرضنا أن قرية أُهلِكَت وبقي أَيْتَامُها وهم كفار فَإِنَّهُ لا مانعَ مِن أن نَتَصَدَّقَ عليهم؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا ذنبَ لهم ولا جريمة لهم، وربما يَعِيشون فِي الإِسْلَامِ فيمـا بَعْد، إِنَّمَـا هَؤُلَاءِ المكذِّبون المجرمون إذا أَهْلَكَهُمُ اللهُ فإن الواجبَ علينا أن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كُلّ ركعة وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم (٣٩٥)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

نحمدَ اللهَ، لا أنْ نَترَحَّمَ لهم ونَرِقّ لهم، هَذَا خلافُ ما عليه بعضُ النَّاسِ اليوم الَّذِينَ فَقَدُوا الغَيْرَة الدينية ولم يكن فِي قلوبهم الولاءُ والبَـرَاء؛ لأن كثيرًا من النَّاس فَقَدُوا الولاء والبـراءَ، وبعض النَّاس فقد البـراءَ فقطْ، ومعه الولاءُ لَكِنَّهُ وليٌّ لكلِّ أحدٍ، وبعض النَّاس بريء من كُلّ أحدٍ أيضًا، لا يحب المُسلمينَ ولا الكفارَ، ولكِن هَذَا نادرٌ، إِنَّمَـا الكثير فِي وقتنا هَذَا هُوَ الولاء للجميع، وَأَنَّهُ لا يُبْغِضُ أحدًا، فالمسألة عنده إِنْسَانيَّة وليستْ دِينيَّة، وهَذَا خطأٌ وخطرٌ، أيضًا مَعَ كونه خَطَأً فَهُوَ خطرٌ؛ لِأَنَّ أوثقَ عُرَى الإِيمانِ الحبُّ فِي اللهِ والبُغْضُ فِي الله.

مسألة: لو حَصَلَ لكافرٍ حادثٌ هل يَلْزَمُنا إنقاذه؟

لا يلزمنا أن نُنقِذَهُ، نعم إن كَانَ مُعاهَدًا فَإِنَّهُ معصومٌ نُنْقِذُه، وإن كَانَ غيرَ معاهَدٍ وَلَيْسَ بيننا وبينه عهدٌ فلا ننقذه، بل إننا نُجْهِز عليه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ لا يعلمُ هل هُوَ معاهَد أو غير معاهد؟

فالجواب: إذا كَانَ لا يَعْلَمُ فاللهُ أَعْلَمُ، والَّذِينَ فِي بلادنا مَن لَيسَ بمعاهَدٍ فَهُوَ مستأمَنٌ؛ لِأَنَّ كونَه يأتي بعقدٍ سواء حكوميّ أو غير حكوميّ فَهُوَ مستأمَنٌ، فله حُكْمُ المعاهَد، يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٦].

أما المعصوم فالعُلَماء يَقُولُونَ: يَجب أَنْ يُنْقَذَ مِنَ الهَلَكَةِ مُطْلَقًا، ولم يَفْصِلوا بينَ المسلمِ وغيرِ المسلمِ، ولذلك لا يجوزُ الاعتداءُ عليه، وهَذَا ثابتٌ بالنصِّ، قَالَ تَعالَى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]، وقال تَعالَى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكما جاء فِي الحديث عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ»[1]، فهَذَا كلام أهلِ العلمِ فِي هَذِهِ المسألةِ، والمسألةُ تحتاجُ إِلَى بحثٍ، وعندما نحققها يُنْظَر إِنْ كَانَ فِي هَذِهِ المسألةِ خِلافٌ، ويُنْظَر -إن شاء الله- أيّهما أَرْجح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أَنْ يَتَمَدَّحَ بنفسِه ويدعو النَّاس إِلَى ذلك؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أَمَّا غيره فليسَ مِنَ اللائقِ أنَّ الْإِنْسَان يَقُول للناس: احْمَدُونِي وأَثْنُوا عَلَيَّ. ومعلوم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلٌ لِذَلِكَ، ولأن المصلحة لنا، والله تَعَالَى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائعينَ، ولا يَتَضَرَّر بمعصيةِ العاصِينَ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الَّذِينَ اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئُوا مِمَّا يُلْصَق بهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن هَذَا السلام يَتَضَمَّنُ سلامتهم مما وُصِفوا به وقُدِح فيهم به، ويتضمّن أيضًا سلامتهم من عقوبةِ اللهِ، فالسلامةُ هنا شاملة للسلامة مِمَّا يَتَعَلَّق بفعل الله كالعقوبة، أو بفعل الخَلْق كالقَدْح.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الله تَعَالَى يَصْطَفِي مِن عِبَادِهِ ما شاء، يَخْتَارُهم لعبادته؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أي: اختارَ، ومَن يختارُهم هم الَّذِينَ قاموا بطاعتِه، فمن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه الله، ومَن عصى اللهَ فَهُوَ بعيدٌ منْ الِاصطفاء.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قيام الأفعالِ الاختياريّة باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإن الاصطفاءَ مِنَ الأفعالِ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قائمٌ به الأفعال الاختيارية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حِكمة الله تَعَالَى فِي تعليق الأحكام بأَسْبابها، فإن السلامةَ هنا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم (١٧٣١)، عن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

معلَّقة عَلَى الاصطفاءِ، وهَكَذَا أحكام الله الكونيَّة والْقَدَرِيَّة كلّها مربوطة بأَسْبابها، وذلك لثبوتِ الحِكْمَةِ فِي أحكامِ اللهِ؛ إذ إنَّ الله لا يفعل شيئًا إِلَّا لحكمة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: الثَّناء عَلَى المُصْطَفين لسلامتهِمْ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنّ ما جاءت به الرُّسُلُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نقصٌ، سواء كَانَ ذلك فِي الأحكام الشَّرْعِيَّة أو فِي الأخبارِ، فما أخبرتْ به الرُّسُلُ فَهُوَ حقّ، لَيْسَ فِيهِ كذِب، وما أمرتْ به أو نهتْ عنه فَهُوَ عدلٌ، لَيْسَ فِيهِ جوْر ولا ظُلم؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ أول من يدخل فِيهِ الرُّسُلُ؛ ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ فِي سورة الصافَّات: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:١٨٠-١٨٢]، فسلَّم عَلَى الرُّسُلِ لسلامةِ ما قالوه منَ النقصِ والعيبِ، وهَكَذَا هنا ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن من قام بما يجبُ عليه منْ الِاجتهاد فأخطأ فلا إثمَ عليه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فإذا اجتهد الْإِنْسَانُ فِي طَلَب الحَقّ وتحرِّي الحَقّ وأخطأ فلا إثمَ عليه فِي هَذَا الخطأِ؛ لِأَنَّهُ ما دام مُتحرِّيًا للحقِّ وطالبًا له وفاعلًا لأَسْبابِهِ فَهُوَ منَ العبادِ المصطَفَيْن، فإذا حَصَل عليه خَلَل فَهُوَ سالمٌ مما يَكُون بهَذَا الخطأ، وهَذَا يَشْهَدُ له قول الرَّسُولِ ﷺ: «**إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ**»(١).

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: جواز المقارنةِ بينَ ما هُوَ خيرٌ محَض وما لا خيرَ فيه؛

---

(١) رواه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (٦٩١٩)؛ ومسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، حديث رقم (١٧١٦)، عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مراعاةً للخَصْمِ وإقامةً للحجَّة عليه؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فإن من المعلوم أن الله خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولا مقارنةَ بينه وبينهم، لَكِنَّهُ يُخاطِب قومًا مشركينَ، إن كانتِ القراءةُ بالتاءِ؛ لِأَنَّ فيها قراءتينِ (أَمَّا تشركون) و(أَمَّا يُشْرِكون)، أو يتحدث عن قومٍ مشركينَ، فلهَذَا راعَى أحوالهم فقال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ من أساليبِ المناظَرة إلزامَ الخَصْم بما يُقِرّ به؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا يمكن أَنْ يَقُولُوا: إن آلهتهم خيرٌ أبدًا، ولهَذَا أعقبها بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلخ [النمل:٦٠]، ممَّا هُوَ من أفعال الرُّبُوبِيَّة الَّتِي لا يمكِن لهم أن يَدَّعُوا أن آلهتهم تفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: عَدْلُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي إقامةِ الحُجَّة عَلَى المعانِدين؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لِأَنَّهُ إذا وصلتِ الحالُ إِلَى هَذَا الأَمْرِ إِلَى أن يَقُول لهم: اللهُ خيرٌ أم أصنامكم، فيَكُون هَذَا من جملةِ ما يُقال لهم، يَعْنِي: قل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وقل أيضًا هؤُلَاءِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فيَكُون من جملة المقول، وهَذَا فِي غاية ما يَكُون منَ العدلِ وإقامة الحجَّة، وإلَّا فالله قادر عَلَى أن يدعَ هَؤُلَاءِ ويبين الحَقّ ولا حاجة إِلَى مناظرةٍ، ولكِن لإقامة الحجَّةِ عَلَى هَؤُلَاءِ ولكمالِ العدلِ فيما لو عُوقِبوا أن تكون عقوبتهم بَعْد إقامةِ الحجَّة فصار مثل هَذَا الكَلام.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخَيْرِيَّة المطلَقة فِي كُلّ شيءٍ، خِلافًا لمَا مشَى عليه المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: [﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ لمن يَعْبُدُه]، فالصَّواب: آلله خيرٌ فِي كُلّ شَيْء، خيرية مطلقة فِي صفاته وَفِي أفعاله المتعلقة بعابديه.

الْفَائِدَة الخامِسَة عَشْرَة: بَيَان جواز إلزام الخَصْمِ بما لا يُمْكِنه إنكارُه؛ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَة عشْرَة: جوازُ المقارنةِ بينَ شَيئينِ لا يَختلِفانِ فِي المَعْنى من أجلِ إقامةِ الحُجَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وذلك بأن ما يشركون به مَعَ الله لَيْسَ فِيهِ خيرٌ إطلاقًا، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ [غافر:٢٠]، ما قَالَ: لا يَقضون بالحقّ، قَالَ: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ﴾ يعني لَيْسَ لهم أيّ حُكْم وَلَيْسَ لهم أيّ سُلْطَة، إطلاقًا لَيْسَ فيها خير، فهي أحجار وأشجار لا يُنْتَفَع بها.

الآيــة (٦٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠].

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [الآلهة خيرٌ لعابديها ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾].

الجواب: بل من خلق السَّماوَات والْأَرْض، فَهُوَ خبر، وقوله: [الآلهة خيرٌ لعابديها]، نَقُول فيه مثل ما تقدَّم فِي قوله: [﴿خَيْرٌ﴾ لِمَن يَعْبُدُهُ]، فالْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قدَّر مرَّةً ثانية، وهَذَا واضحٌ، وَعَلَى هَذَا فتكون (أم) مُتَّصِلَةً، والخيريَّة هنا مُطْلَقَة إذا صحَّ تقدير الْمُفَسِّر؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إن قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ للإضرابِ وليستْ للمقارنةِ، ويكُون السؤال اسْتِفْهامًا مُطْلَقًا، يعني يَقُول: من الَّذِي خلق السَّماوَات والْأَرْض أإله مَعَ الله؟

فيكُون قوله: ﴿أَمَّنْ﴾: (أم) هَذِهِ للإضرابِ وليستْ متعلِّقةً بما سبقَ، فيكُون تقدير الآيَة: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ فيكُون الاسْتِفْهام هنا لَيْسَ للمعادلة، أَمَّا عَلَى رأي الْمُفَسِّر فجعل الاسْتِفْهام للمعادلة.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: (خلق) بمعنى أَوْجَدَ بتقديرٍ؛ لِأَنَّ الخَلْقَ لَا بُدَّ أن يسبقه تقدير، والإيجاد أعمُّ منه، فقد يوجد الشَّيْء بلا تقديرٍ، ولكِن الخلق لَا بُدَّ فِيهِ من تقديرٍ.

قوله: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، بعضهم يَقُول: السَّماوَات ليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّهُ ما وقع عليها فعل الفاعلِ، إذ هِيَ لم توجد إِلَّا بفعلِ الفاعلِ، وإنما يقالُ: مَفْعُول مطلق وليست مَفْعُولا بها؛ لِأَنَّ المَفْعُول به يَقتضي أن يَكُون ما وقع عليه الفِعْل سابقًا عَلَى الفِعْل، وهنا السَّماوَات ليست سابقةً عَلَى خلقه، وَعَلَى هَذَا فقلْ: إِنَّهَا مَفْعُول ولا تقلْ: به، فقُلْ: مَفْعُول فقط، لا به ولا فِيهِ ولا معه ولا له؛ لِأَنَّ المفاعيـل خمسةٌ كمـا هُوَ معروفٌ؛ مَفْعُول غيـر معدّى بحـرفٍ، ومَفْعُول معدى بحـرف (الباء) أو بـ(في) أو بـ(اللام) أو بـ(مع).

أَمَّا المَفْعُول المطلَق فيكُون بمعنى الفِعْل، مثل ضربتُ ضَربًا، ولا يعدَّى بالباء ولا بـ(فِي)، فهَذِهِ المفاعيل.

لكِن هَذَا فِي الحقيقةِ منَ الفلسفةِ الَّتِي لَيْسَ لها معنى؛ لِأَنَّ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ معناها أوجدَ السَّمـاوَات، فالمَفْعُول به أو الفِعْل واقـعٌ عَلَى الإيجادِ، وإن كانـتِ السَّماوَات قبلَ الإيجادِ ليستْ موجودةً، فالإيجادُ سابقٌ عَلَى الموجودِ؛ لِأَنَّ به يَحْصُلُ الوجودُ، فلا حاجةَ إِلَى هَذَا التمحُّل، ونَقُول: وأيضًا ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَفْعُول به، هم يَقُولُونَ: المَفْعُول به لَا بُدَّ أنْ يَكُونَ سابقًا عَلَى الفِعْل: (ضربتُ زَيْدًا)، فزيدٌ سابقٌ عَلَى الضربِ، (أكلتُ الطعامَ)، فالطعامُ سابقٌ عَلَى الأكلِ، (صنعتُ الطعامَ) حوّلته من حال إِلَى حال، أيضًا سابق عَلَى الطعام.

قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تُذْكَرُ بلفظ الإفرادِ والجمعِ

كثيرًا فِي الْقُرْآن، والأرض ما ذُكرتْ إِلَّا بلفظِ الإفرادِ، إِلَّا أن الله قَالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، وإلَّا فبقيَّة الآيات بل حَتَّى فِي هَذِهِ الآية ما ذُكرت إِلَّا مفردةً، ولم يقل: (ومنَ الْأَرَضين مثلهنّ)، لَكِنَّها وردتْ فِي السنّة مجموعةً ومبيَّن أَنَّهَا سبع.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: (ماء) هل هِيَ مَفْعُول أو مَفْعُول به؟ مَفْعُول به؛ لِأَنَّ الماء موجود.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ اللام للتعليل أو للإباحة، ولَكِنَّهَا للتعليل أبلغ؛ لِأَنَّهَا إذا كانت للتعليل شَمِلَتِ الإباحةَ وشَمِلَتْ ما يَكُونُ به النفعُ من هَذَا الماء وإنْ لم يلامِسْها.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الْمُراد بالسَّماء هنا العُلُوّ، والدَّليل عَلَى ذلك أنَّ الماءَ هَذَا ينزل منَ السَّحابِ، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن الْمُرادَ بالسَّماءِ هنا العلوُّ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾ فِيهِ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَةِ إِلَى التكلُّم]، الغَيبة فِي قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنزَلَ﴾، وهنا قَالَ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، والالتفاتُ فِيهِ فوائدُ الانتباهِ لِئَلَّا ينساب معه المخاطَب ويَغْفُلُ عنه، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر: [﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حَدِيقة، وَهُوَ البُستان المَحُوط]، يعني الَّذِي عليه حائطٌ [﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حُسْن]، فالبهجة بمعنى الحُسن؛ لِأَنَّ القلب يَبْتَهِجُ بها ويَنْشَرِح

بها الصدرُ، وهَذَا أمرٌ معلومٌ، لا سيما لِعُشَّاق الحدائقِ، وإلَّا فبعض النَّاس لا يُهِمُّه سواء كَانَ فِي الحديقة ما يُبْهِج أو لا، لكِن عشّاق الحدائق يجدون لذَّةً عظيمةً فِي مثل هَذِهِ الحدائقِ الَّتِي بها هَذَا النبات العظيم.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾: ﴿مَّا كَانَ﴾ بمعنى: مُمْتَنِع غاية الامتناع، وهي نظيرُ قولِه تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، أي: مُمْتَنِع عليه، فـ ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ﴾ أي: ما صحَّ لكم، وما أمكن لكم أن تُنْبِتُوا شجرها؛ لِعَدَمِ قُدْرَتِكُم عَلَى ذلك، لَيْسَ فِي مَقْدُورِكُم أنْ تُنْبِتُوا هَذَا الشجرَ.

فَإِذَا قَالَ مُجادِلٌ: بل فِي مقدوري، فآتي بنوى التمر وآتي بحبّ وأَحْرُث الْأَرْض وأضعه فيها.

قُلْنَا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]، نعم أنت فعلتَ السَّبَب، لكِن هل خلقتَ هَذَا، هل فَلَقْتَ الحَبَّ والنوى؟ أبدًا.

وإذا جادل مجادِلٌ بمثلِ ذلكَ قُلْنَا له مثل ما قَالَ إبراهيمُ ﷺ للذي ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فنقُول له: إذا كنتَ أنت فعلت هَذَا فهَذِهِ الشَّمْسُ تأتي منَ المَشْرِقِ فأتِ بها من المغربِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَءِلَٰهٌ﴾ بتحقيقِ الهمزتينِ وتسهيلِ الثَّانِيَةِ وإدخالِ ألفٍ بينهما عَلَى الوجهينِ فِي مواضعِهِ السبعةِ]، وأين مواضعه السبعة؟

فِي الآيَات الآتية، هَذَا واحد، وننظر هل كلام المُفَسِّر صحيح أم لا.

قَالَ المُفَسِّر: [﴿مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه عَلَى ذلك]، يعني أو انفرد بشيءٍ منه، فالمعية هنا

تَقتضي -كما قَالَ المُفَسِّر- المُعَاوَنَة إذا كَانَ مصاحبًا له، أو الانفراد ببعض الخلق إذا كَانَ غيرَ مصاحبٍ له، هَذِهِ الحديقة مثلًا فيها نخل ورُمّان وعِنَب، هل مَعَ الله إلهٌ شاركه فِي إيجاد النَّخل والرُّمَّان والعِنَب، أو أوجد النَّخلَ واللهُ أوجدَ الرمانَ والعنبَ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

إِذَنْ: قول المُفَسِّر: [أعانه]، ينبغي أن يُقال: أوِ انفردَ بشيءٍ منها. وقلت ذلك لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هَذَا الانفراد، ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ هَذِهِ المشاركة عَلَى وجه الشيوع، ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]، هَذِهِ المعاونة، وإن لم يكن شريكًا، ما عاونُوا الله جَلَّوَعَلَا. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ [سبأ:٢٣]، هَذَا التوسُّط للعابدين إِلَى الله، إذن بأي شَيْء يتعلقون؟ فإذا قَالُوا: إن آلهتهم لا تفعل.

قُلْنَا إِذَنْ: لماذا تعبدُونها، فكل ما يمكن أن يتعلَّق به المُشْرِكُون بالنِّسبة لأصنامهم نُفِيَ فِي هَذِهِ الآيَة ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ انظر بلاغة القُرْآن.

فالحاصل: أن قولـه: [﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أعانه]، نَقُـول أيضًا: أوِ انفـردَ بشيءٍ أو شاركَ فِي مُلْكِه، فلا أعان اللهَ ولا شاركَهُ ولا انفردَ بشيءٍ مِن مُلْكِهِ، أي: لَيْسَ مَعَه إله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَعُونَةُ تدخلُ فِي المشاركة؟

فالجواب: لا؛ لأنك قد تُعينني مثلًا عَلَى إصلاح شيءٍ فِي بيتي وَلَيْسَ لك فِيهِ شركة، بل كلُّه لي.

وقَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا فِي قوله تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: [أي لَيْسَ معه إله]،

فالاسْتِفْهامُ إذن إنكاريٌّ للنفي، يعني لَيْسَ مَعَ الله إلهٌ فَعَلَ ذلك، فالمعبودات الَّتِي تعبدونها مَعَ اللهِ لم تفعلْ ذلك.

إِذَنِ: الواجب إفراد اللهِ تَعَالَى بالألوهيَّة، فعليه تكون الحُجَّة قد قامتْ عَلَى هَؤُلَاءِ بما أَقَرُّوا به من الرُّبُوبِيَّة، وكثيرًا ما يَسْتَدِلّ الله تَعَالَى بتوحيد الرُّبُوبِيَّة عَلَى وجودِ توحيد الألوهيّة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، ﴿ٱعْبُدُواْ﴾ توحيد أُلوهيَّة ﴿رَبَّكُمُ﴾ هَذَا رُبُوبِيَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يُشْرِكون باللهِ غيرَه]، ﴿بَلْ﴾ هَذِهِ للإضرابِ الانتقاليّ، لا الإبطاليّ، يعني بل هم مُقِرُّونَ بذلك، وَأَنَّهُ لا إله مَعَ الله، ولكِنَّهم يَعْدِلون به غيرَه فيشركون، فصار فعلهم هَذَا لَيْسَ عن دليلٍ ولكِن لمجرَّد هوى، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تَعَالَى لا شـريكَ له فِي خلق السَّمـاوَات والْأَرْضِ وإنزال المطرِ وإنباتِ النباتِ به، وإنمـا يعدِلون بالله غيرَه فيشركونه مَعَ اللهِ لمجرَّد أهوائهم، أَمَّا أَنَّهُ عن دليلٍ عقليّ أو فِطريّ أو نقليّ فليسَ كذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قوله: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ألا تَحتمِل أَنَّهُم يَعدِلون عن عبادةِ اللهِ؟

الجواب: تَحتملُ، لكِن ما قَرَّرَهُ المُفَسِّر أحسنُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، ولم يقلْ: عن ربِّهم يعدِلون، فدلَّ هَذَا عَلَى أنَّ المُراد بالمعادلةِ هنا المساواةُ، أي: يساوون به غيرَه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان انفرادِ اللهِ تَعَالَى فِي خلق السَّماوَات والْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ خلق السَّمـاوَات والْأَرْض، يَتَضَمَّن إيجادهما وإيجاد ما فيهمـا منَ المنافع،

فلا أحدَ يستطيع أن يغيِّر شيئًا من خلق السَّماوَات والْأَرْض، لا من الشَّمْسِ ولا من القمرِ ولا من النجومِ ولا من غيرِها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ المخلوقات من منافعِ الخلقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان حكمة الله تَعَالَى فِي إنزالِ المطرِ من فوقُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لِأَنَّ نزولَه منَ السَّمَاء أعمُّ وأقلُّ ضررًا؛ إذ لو كَانَ يخرج من الْأَرْض ما وَصَلَ إِلَى قِمَم الجبالِ إِلَّا وقد أغرقَ ما تحته، فلهَذَا صار ينزِل من فوق ليَكُونَ أكمل وأعمَّ وأقلَّ ضررًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان رحمةِ الله فِي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ لِأَنَّ اللام هنا للتعليلِ، أي: لأجلكم، وهَذَا من رحمتِهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ غنيٌّ عنَّا ولكِنَّنا نحنُ مُفْتَقِرُون إليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الأَشْيَاء ينبغي أن تُضافَ إِلَى المسبِّب لا إِلَى السَّبَب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ فأضاف الإنبات إِلَى الله، مَعَ أن النبات يحصُل بالمطرِ، ولكِن المنزِل هُوَ الله، ولهَذَا ينبغي للإِنْسَانِ أن يضيفَ الشَّيْء إِلَى المسبِّب الخالقِ مُشيرًا إِلَى السَّبَب، كما يَقُول العُلَماء عن الرَّسُول عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَدَى اللهُ به منَ الضلالةِ، وأنقذَ به مِنَ الهَلَاكِ، وبصَّر به مِنَ العَمَى، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإضافةُ الشَّيْءِ إِلَى المسبِّب للإشارةِ إِلَى بَيَان السَّبَب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الأَسْبَاب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ لِأَنَّ الباء للسببيَّة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات الحِكْمَة؛ لِأَنَّ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رَبطَ الأَسْبَاب بِمُسَبَّباتها، وهَذَا من الحِكْمَة ألا تأتيَ الأُمُور عَلَى وجهِ المصادفاتِ أو بدونِ أَسْبابٍ تَقتضيها، فإثباتُ الأَسْبَاب يَتضمَّن إثبات الحِكْمَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: وفيه أيضًا التنزُّه فِي الحدائقِ والابتهاجُ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ وأن الْإِنْسَان ما يُلام إذا قَالَ: نريد أن نتفرَّج عَلَى ما أخرجَ الله منَ المَطَرِ من هَذِهِ الحدائقِ والبساتين؛ فَإِنَّهُ لا يُلامُ عَلَى ذلك، لا يُقَال: هَذَا من فضول الأفعالِ؛ فإن النفس إذا لم تُمَرَّنْ عَلَى هَذَا وهَذَا فإنها تَمَلُّ وتَكِلُّ ولا تأتي بالأُمُور عَلَى وجهها، والنَّاس أيضًا يختلفون فِي هَذَا؛ فمنهم من يَكُون من ضروريَّات الحياة له أن يَتَنَزَّه أحيانًا، ومنهم من لا يَهتمُّ بذلك، ومنهم من يجعل دَيْدَنَهُ دائمًا هُوَ التنزُّه واللَّهو واللَّعِب ويُعْرِض عمَّا خُلِقَ له بما خُلِقَ له.

فالحاصل أن نَقُول: إن قوله تَعَالَى: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ فِي سياق الامتنانِ، يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ لا مانعَ أن الْإِنْسَان يرتاد هَذِهِ الحدائـقَ لأجل أن يَبْتَهِجَ بها، لكِن بشـرطِ ألا تشغلَه عن ذكر الله وطاعتِه وعمَّا هُوَ أهمُّ من ذلك.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ إِنْسَان لَيْسَ ممَّن يَهْوَى النظرَ إِلَى هَذِهِ النعمِ فهل يُعتبَر منَ الفضولِ اشتغاله بها؟

نعم، منَ الفضول، لكِن لا بأس أن يَشتغل بها، ولو ضيَّع الوقت فِي غير هَذَا قُلْنَا له: لا يَنبغي، لكِن لو أنني أُحبُّ هَذَا الشَّيْء وأبتهِجُ به وأُسَرّ وأُسَلِّي نفسي به؛ لا نَقُول: هَذَا من إضاعة الوقت ما لم يَشْغَلْ عن ذِكْرِ الله، وإذا أراد التفكُّر فِي آيَاتِ الله عَزَّوَجَلَّ صار عبادةً.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن الخلق لا يمكنهم أن يَخْلُقُوا ولا شجرةً؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لِأَنَّ (ما كان) بمعنى لا يمكن ولا يَصِحّ، فَهُوَ منَ المستحيل، ونظيرُهُ قوله تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:٣٥]، فتجد الخلق مَعَ قُدْرَتِهم الصناعيَّة لا يمكن أن يَخْلُقُوا شجرةً، ولا شجرة صغيرة، وإلى الْآنَ وإلى

ما بَعْد الْآنَ لا يُمْكِنُهم ذلك، كما أَنَّهُم لا يمكنهم أنْ يُحْيُوا إِنْسَانًا ولا يمكنهم أن يمنعوا خروجَ نفسِهِ عندَ خُرُوجِها.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: نجدهم الْآنَ يُعالِجون المرضى المُزْمِنِينَ ثُمَّ يَشْفُونَ، فما الجواب؟

الجواب: نَقُولُ: مثل هَذَا لا يَعْدُو أن يَكُون سببًا، قد يَنْفَع وقد لا ينفع، قد يعارضه مانع حضور الأَجَل، وإذا حضرَ الأجلُ بَطَلَ مَفْعُوله فلا ينفع، نحن لا نُنْكِر الأَسْبَاب ولَكِنَّنَا نُنْكِر أن تكون هَذِهِ الأَسْبَاب موجِبَةً لِمُسَبَّباتها، فلا تُوجِبها؛ لِأَنَّهَا قد تُفِيدُ وقد يوجد مانعٌ، وَلَيْسَ هَذَا خاصًّا بِهَذِهِ المسألةِ، فكُلّ الأَسْبَاب قد يوجدُ فيها مانعٌ أَقوى مِنْهَا فيمنع من نُفُوذِها.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: تحدِّي هَؤُلَاءِ المتَّخِذِين آلهةً مَعَ اللهِ أن يَكُون لآلهتهم شيءٌ من هَذَا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ فإن هَذَا تحدٍّ عظيمٌ ولا يستطيعون أن يُثْبِتُوا ذلك.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إقامة الحُجَّة عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ المشركينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يَعْدِلُون باللهِ غيرَه، وَلَيْسَ المُراد العَدْل الَّذِي هُوَ ضدُّ الظُّلم، إذا كَانَ هَذَا هُوَ المُراد لكان هَؤُلَاءِ مَمْدُوحِينَ بما هم عليه، ولكِن المُراد يَعْدِلون بالله غيرَه، ويجعلونه عديلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومُساويًا له.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: ما أشرنا إليه كثيرًا من أنَّ الكلِمات لَيْسَ لها معنًى داخليٌّ، بل معناها يحدِّده السياق؛ لِأَنَّ كلمة ﴿يَعْدِلُونَ﴾ لو كَانَ لها معنى ذاتيّ لكانت هنا بمعنى: لا يجُورُونَ؛ لِأَنَّ المفهوم من هَذَا الفِعْل أَنَّهُ العدلَ بمعنى إعطاءِ كُلّ ذي حقٍّ حقَّه، والأَمْر هنا لَيْسَ كذلكَ، بل هَذَا ظُلم أن يعدِلوا باللهِ غيرَه، وبِهَذَا التقرير الَّذِي حَرَّرْنَاهُ يَتبَيَّن رُجحانُ كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابنِ تَيْمِيَّة حَيْثُ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ فِي اللُّغَةِ

مجَاز[1]، وهَذَا من المعلومِ.

ومن المعلوم أيضًا أن فِي المسألة ثلاثة أقوال: إثبات المجاز فِي اللُّغة والْقُرْآن، ونفيه فيهما، وإثباته فِي اللُّغة دون الْقُرْآن، والصَّواب: أَنَّهُ لا مجاز لا فِي اللُّغة ولا فِي الْقُرْآن، وأن كُلّ ما ادُّعِيَ أَنَّهُ مجاز فَإِنَّهُ حقيقة فِي موضعِهِ.

(١) سبق ذكر المصدر.

الآيـة (٦١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٦١].

على تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَقُول: (آلآلهة خيرٌ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْض قرارًا).

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾: ﴿جَعَلَ﴾ فعلٌ ماضٍ يَنْصِب مَفْعُولينِ: الأول: الْأَرْض، والثاني: قرارًا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَرَارًا﴾ لا تَميدُ بأهلها]، لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا، لا سِيَّما وأنها مُرَكَّبةٌ عَلَى الماءِ، فالماء محيطٌ بها من كُلِّ جانبٍ، ولو أنك وضعتَ كُرَةً فِي ماء فإنها لا تَسْتَقِرّ، بل تَتَقَلَّب وتَتَموَّج.

ولكِن الله تَعَالَى جعلَ هَذِهِ الْأَرْض كرةً فِي وسط ماء؛ لِأَنَّ البحار تمثِّل تقريبًا ثلاثة أرباع اليابسةِ، ومع هَذَا فإنها مُنْضَبِطَةٌ تمامًا لا تَميد ولا تَتَقدَّم إِلَى ناحيةٍ ولا تتأخّر عنها ولا تَتَدَحْرَج فِي هَذَا الماء، فجعلها الله تَعَالَى قرارًا، والقرارُ مَوْضِع الاستقرارِ.

فقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تَميد بأهلها]، والمَيَدان معناه الاضطرابُ، ما أحد جعلَ الْأَرْض قرارًا إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يقومَ بذلك، ولهَذَا إذا جاءتِ الزلازلُ لا يستطيع هَؤُلَاءِ بجميعِ قواهم أنْ يَمْنَعُوا رَجَّة الْأَرْض، بل ولا يَعْلَمُون متى تكون هَذِهِ إِلَّا إذا ظهرتْ بَوادِرها ولو خَفِيَّة وتُعْلَم حينئذٍ بالآلاتِ الدقيقةِ.

فإذَنْ: لا أحدَ يستطيع أن يجعلَ الْأَرْض قرارًا بأهلها إِلَّا خالق الْأَرْض، وَهُوَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وقوله: ﴿قَرَارًا﴾ استدلّ به مَن يَقُول: إن الْأَرْض تدور ومن يَقُول: إن الْأَرْض لا تدور؛ الَّذِي يَقُول: إن الْأَرْض لا تدورُ يَقُول: لِأَنَّهَا مَعَ الدَّوَران ليست بِقَرارٍ، لو كانت تدورُ لاستدارتْ رُؤُوسُنا. وَالَّذِي يَقُول: إنَّهَا تدور يَقُول: لولا أن هناك حركة ما نُفِيَ المَيَدان، فنفيُ الأخصِّ يَقتضي وجودَ الأعمّ، مثلما أنكم استدللتم بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، استدللتم بها عَلَى أنَّ الله يُرى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ لا يُرى ما صحَّ أن يقولَ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ لقالَ: لا تراه. قال تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان:١٠]، فلولا وجود حركة ما صحَّ نفي المَيَدان؛ لِأَنَّ ما لا يَتَحَرَّك لا يُتَوَقَّع منه المَيَدان، وإنما توقّع الميدان لما يَتحرَّك، وَعَلَى هَذَا فنَقُول: إن فِي الآياتِ دليلًا عَلَى أن الْأَرْض تدور.

والَّذِينَ يَقُولُونَ: لا تدور، يَقُولُونَ: إن نفيَ المَيَدان صحيحٌ يَدُلّ عَلَى حركةٍ، لكِن هل هُوَ يَدُلّ عَلَى حركةٍ موجودةٍ بالفِعْل أو يدلّ على حركةٍ متوقَّعة، بمعنى أَنَّهُ لولا هَذِهِ الجبالِ لكانتْ تَضطَرب؛ حَيْثُ إِنَّهَا فِي الماء، ولكِن لَمّا وُجِدَتْ هَذِهِ الجبالُ أَمْسَكَتْها وكانت لها رواسيَ بمنزلةِ أطنابِ الخيمةِ.

وفي الحقيقةِ أن هَذَا الأخيرَ ردٌّ واضحٌ عَلَى الأوّل، وَأَنَّهُ لا يلزم من مجرَّد الحركةِ الدَّورانُ، فنحن نَقُول: نعم الْأَرْض يمكن أن تتحرَّك، ولولا هَذِهِ الجبال لمادتْ؛ لِأَنَّهَا فِي ماءٍ، فكُرةٌ فِي ماءٍ لَا بُدَّ أَنْ تَتحرَّك، والماء كما ترونَ تَضرِبه الرِّياح فلَا بُدَّ أن يَكُون فِيهِ أمواجٌ عظيمةٌ مثل الجبالِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠]، هَذِهِ الأمواج العظيمة إذا ضَرَبَتِ الْأَرْضَ لولا وجود الجبالِ المُرْسِيَة لمادتْ

عَلَى كُلّ حالٍ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الأمواج ليستْ هيِّنة.

فالحاصل: أن الآيَة لَيْسَ فيها ما يُقَرِّرُ أن الْأَرْض تدورُ، وفيها ما يقـرِّر أن الْأَرْض لَا شَكَّ أَنَّهَا تَضْطَرِب لولا وجود هَذِهِ الجبال.

ثم تبقى مسألة الدَّوران، ولا دليل عليها من الْقُرْآن، يَعْنِي: لا دليل يُثْبِتـها ولا دليل يَنفيها، فإذا ثبـتَ ذلك بالأدلَّة البيِّـنة فإنَّنا نُؤْمِن به؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان المؤمن لا ينكر المحسوسَ أبدًا، بل إذا أنكرَ المحسوسَ كَانَ ذلكَ طعنًا فِي فَهْمِه وَفِي تصوُّره، وما دام أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآن ما يَنفي ذلك ولا ما يُثْبِتُه فموقفنا نحنُ الوقوفُ حَتَّى يَتبيَّنَ لنا الأَمْرُ، فمَن زعمَ أن الأَمْرَ قد تبيَّن له وَهُوَ منَ المُسلِمينَ وقال: أنا أعتقد ذلك لا ننكر عليه؛ لأَنَّنا لَيْسَ عندنا دليل حَتَّى ننكر عليه، وكذلك مَن قَالَ: أنا لا يَتبيَّن لي.

والحمدُ للهِ حَسْبُنا أن نَقُولَ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، وكونها تدور أو لا تدور هَذَا أمرٌ ما يعنينا، فما يعنينا أنَّ المصالحَ الْآنَ –وللهِ الحمدِ– مُرَتَّبَة عَلَى تعاقُبِ الليلِ والنَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾، ومعنى ﴿خِلَٰلَهَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيمـا بَيْنَها ﴿أَنْهَٰرًا﴾]، أنهارًا ظاهرةً عَلَى ظهـرِ الْأَرْضِ وأنهارًا داكنـة فِي جوفِ الْأَرْض؛ فإن الله تَعَالَى أخبر بأن هَذَا المطرَ يَسْلُكُه الله تَعَالَى ينابيعَ فِي الْأَرْض، وهَذَا شَيْء مشاهَد، فالَّذِينَ يَحْفِرون الْأَرْض يجدون أن فيها أنهارًا تجري، ويَرَوْنَهَا عيونًا تجري فِي باطنِ الْأَرْضِ وتَصُبّ حَيْثُ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنْ تَصُبَّ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الَّذِي جَعَلَ خِلالَ الْأَرْضِ هَذِهِ الأنهارَ، ولوِ اجتمعتِ الأمَّة كلها بجميع قواها وقُدَرِها عَلَى أن تُجريَ نهرًا واحدًا من هَذِهِ الأنهار ما استطاعوا

إِلَى ذلك سبيلًا، فالذي جعلَ هَذِهِ الأنهارَ رحمةً بالعبادِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالًا أثبتَ بها الْأَرْض]، ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي: صَيَّر لها رواسيَ، يَقُول المُفَسِّر: [جبالًا أثبت بها الْأَرْض] فواعل جمع فاعل، أي: راسٍ، وَكَأن المُفَسِّر هنا يشير إِلَى أن راسيًا بمعنى مُرْسِي، وفرقٌ بين الراسي والمُرْسِي، الراسي يعني بنفسِه والمُرْسِي لِغَيْرِهِ، هَذِهِ الجبالُ يعبِّر الله عنها في آيَاتٍ عديدة بأَنَّهَا رواسٍ، وقال فِي سورة النازعات: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣٢].

وهل المُراد أرسى الْأَرْضَ بها أو أَرْسَى الجبالَ أي أَثْبَتَهَا؟

كِلا المعنيينِ، فإذن هِيَ رواسٍ بِنَفْسِها، وهي أيضًا مُرْسِيَة، ولهَذَا سمّاها الله أوتادًا: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ:٧]، بمنزلة أوتاد الخيمة تُمْسِكها وتَضْبِطها، وهَذِهِ الجبال راسية بنفسها، ولذلك عَلَى كثرة العواصفِ والقواصِفِ تجدها ثابتةً لا تتغيّر، فهي راسيةٌ وكذلك أيضًا مُرْسِية لِلأَرْض، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، فهي راسية مُرْسِيَة.

والَّذِي جعل هَذِهِ الرواسيَ هو الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، فلوِ اجتمعتِ الخلائقُ كلها عَلَى أن تُثْبت جبلًا من مثل هَذِهِ الجبالِ الكبيرةِ ما استطاعوا إِلَى ذلك سبيلًا، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا إلهَ مَعَ اللهِ؛ كما يأتي تقريره فِي آخر الآيَةِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بينَ العَذْبِ والمِلْحِ، لا يَخْتَلِط أحدهما بالآخَرِ]، ﴿حَاجِزًا﴾ أي: مانعًا، والمُراد بالبحرينِ العذبُ والمِلح.

ثُمَّ كيف يَكُون هَذَا الحاجز؟

بعضهم قَالَ: إنَّ الحاجزَ هُوَ اليابسُ مِنَ الْأَرْضِ الَّذِي يَحُولُ بينَ البحرِ وبين

النهرِ؛ لِأَنَّ النهر له مَجْرى خَاصّ والبحر له مجرى خاصّ، ولو شاءَ الله تَعَالَى لمَزَجَهُما، ولكِن جعل هَذَا مجاريَهُ وجعل هَذَا مجاريَهُ.

وبعضهم يَقُول: إِنَّهُ حاجزٌ غير مرئيٍّ، وَلَيْسَ هُوَ اليابسَ، وَإِنَّهُ يوجد فِي نفس البحارِ أنهارٌ عَذْبَةٌ حُلْوَةٌ، ومع ذلك لا تَخْتَلِط فتفسد بالمِلح ويفسد المِلح بها؛ لِأَنَّهُ لوِ اختلطَ الحلوُ بالمالحِ لفسدَ الهواء وأنتنَ وأوجد احمِرارًا كما نشاهِد الْآنَ فِي المستنقَعات الَّتِي تأتي من السيولِ إذا مرَّ عليها وقتٌ يتغير بها الجو والهواء ويتولد مِنْهَا أَشْيَاء كثيرة مؤذِيَة ضارَّة، بينما البحار العظيمة لا يؤثِّر فيها هَذَا، بما أودعَ الله تَعَالَى من هَذَا المِلح الَّذِي يقتُل الجراثيمَ ويمنع فسادَ الهواءِ، فلوِ اختلطتْ هَذِهِ بهَذِهِ أفسدَ كُلٌّ منهما الآخَرَ، لَكِنَّهُ جعل بينهما حاجزًا.

فالمهمّ هل هَذَا الحاجزُ أمرٌ محسوسٌ وَهُوَ اليابسُ منَ الْأَرْض الَّذِي يَكُون بين هَذَا وهَذَا، أو هُوَ حاجزٌ غيرُ محسوسٍ، كما يشاهَد فِي الأنهارِ الَّتِي فِي وسط البحارِ؟

لنا أن نَقُولَ بالأَمْرينِ؛ حاجز محسوس وحاجز غير محسوس، وقد أخبرني الشبابُ أَنَّهُم دائمًا إذا جَزَرَ البحر بَعْد امتدادِه يَجِدُون فِي الْأَرْض الَّتِي يدخل مِنْهَا الماء عُيُونًا حُلوة جدًّا، وأخبروني أيضًا أَنَّهُم يَسْتَسْقُون من هَذِهِ العيونِ فِي وسطِ البحرِ، فيُنْزِلون أفواهَ القِرَب ويجعلونها عَلَى العينِ حَتَّى تَمْلَأَهَا، وهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ من تمامِ قدرةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حَيْثُ جعل بين هذينِ البحرينِ -وكلٌّ منهما ماء- حاجزًا ومنعَ اختلاطَ أحدهما بالآخَرِ.

وبعض النَّاس يَقُولُونَ: إن الحاجز هُوَ ما يوجد فِي مَصَبِّ النهرِ، وهَذَا عندي فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ مَصَبَّ النهر إذا اندفعَ يفرِّق الماء المالِحَ فتجده مثلًا قد صَبَّه إِلَى مسافةٍ حَسَبَ اندفاع النهرِ، لكِن هَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ هَذَا أمر محسوس، أَمَّا الشَّيْء

الَّذِي من آيَاتِ اللهِ وَهُوَ غير محسوس فَهُوَ هَذِهِ الأنهار الَّتِي توجد فِي البحار.

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجواب: لا، لا إلهَ مَعَ اللهِ، والاسْتِفْهام هنا للإنكارِ والتوبيخِ.

قوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني الأَمْر واضح وبَيِّن لكِن أكثر هَؤُلَاءِ لا يعلمون، وقول المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [توحيده]، هُوَ قصورٌ، والصَّواب أَنَّهُ نقص فِي العلمِ مطلقًا، بمـا تدلُّ عليه هَذِهِ الآيَات العظيـمة من الرَّحْمَة والحِكْمَة والقُدرة والسُّلطان، فتخصيص ذلك بالتَّوحيدِ فِيهِ نظرٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يُفهَم منه أن بعضهم يَعْلَم ولكِنه معاند وكابر، ومَن عَلِمَ وجَحَدَ فَهُوَ أشدُّ لومًا وتوبيخًا.

ثُمَّ اعلمْ أن نفيَ العلمِ قد يُراد به نفيُ حقيقةِ العلمِ، بحيث لا يَكُون الْإِنْسَان عالمًا، وقد يُرادُ به نفيُ الانتفاعِ به؛ فإن مَن لا يَنْتَفِع بعِلْمِهِ فَهُوَ كالجاهِلِ، بل هُوَ شرٌّ منه، وَفِي الْقُرْآن أمثلة كثيرة حيثُ يُراد بنفيِ الشَّيْء نفيُ فائدته، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١]، وقال تَعَالَى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨]، مَعَ أنَّ نُورَهم قويّ وآذانهم قويَّة السمع، ولكِنهم من أجلِ عدمِ الانتفاعِ بهَذِهِ الأَشْيَاءِ صاروا كالفاقدينَ لها، فهنا نفيُ العلمِ إنْ كَانَ المُرادُ به نفيَ وجودِ العلمِ فالأَمْرُ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جاهلٌ لا يفكِّر بهَذِهِ الآيَات ولا يَستدِلّ بها عَلَى حالته أو عَلَى مَن هُوَ آيَة له، وإن كَانَ المُراد بذلك نفي فائدة العلمِ فَهُوَ أيضًا واقع، ودائمًا يُنفَى الشَّيْء بانتفاء فائدته وثمراته.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نعمة الله تَعَالَى بجعل الْأَرْض قَرارًا لأهلها، واستدلَّ بها بعضهم عَلَى أن الْأَرْض تدورُ؛ لِأَنَّ كونها قرارًا مَعَ عدمِ الدَّورانِ لا يَتبَيَّنُ فِيهِ تمامُ القُدرةِ والنعمةِ، وإنما يَتبَيَّن ذلك فيما إذا كانت دائرةً، وهَذِهِ الفائدةُ يُناقَش فيها وغيرُ مُسلَّمَة؛ لأنَّنا نَقُول: لا يَلْزَم من المَيَدَان الدَّوران، وحقيقة أَنَّهَا لو لا أن الله جعلها قرارًا لكانت تَميد بأهلها، وَأَمَّا أَنَّهُ يَلْزَم أن تكون تدور فهَذَا لَيْسَ بلازم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ما أنعمَ الله به عَلَى العبادِ مِن هَذِهِ الأنهارِ المُتخَلِّلة للأرض ظاهرًا وباطنًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ما أنعمَ الله به فِي هَذِهِ الرواسي الَّتِي هِيَ الجبالُ الَّتِي هِيَ راسيةٌ بنفسها مُرْسِيَة للأرضِ أيضًا ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد:٣]، وَفِي سورة فُصِّلَتْ قَالَ: ﴿رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ [فصلت:١٠].

قَالَ أهل العلم البَيولوجِيُّون: إن كون هَذِهِ الرواسي -أي كون الجبال المُرْسِيَة للأرضِ- من فوقها دون أن تكونَ من أسفل -أي: فِي باطن الْأَرْض- فِيهِ فوائدُ كثيرةٌ وعظيمة؛ فوائد للطقسِ وفوائد للنباتِ وفوائد للمعادِنِ، إِلَى غيرِ ذلكَ ممَّا هُوَ معلومٌ عند أهلِ العلمِ بذلك، يَقُولُونَ: وأنت إذا نظرتَ إِلَى سلاسلِ الجبالِ الَّتِي عَلَى البحارِ عَرَفْتَ بها قَدْرَ هَذِهِ النعمةِ العظيمةِ، لا سيما ما يأتي من الجهاتِ الباردةِ، حَيْثُ هَذِهِ الرواسي تَصُدُّ تلك الرياحَ الباردةَ الَّتِي تضرُّ.

فالمهمُّ أن فيها فوائدَ عظيمةً؛ لِكونها من فوق الْأَرْض، ولكِن هَذَا لم يُذْكَرْ هنا وإنما ذُكِرَ فِي سورة فُصِّلَتْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَان قُدرة الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، حيث جعل بيـن البحرينِ حاجزًا، والبحرانِ هما العذبُ والمالِحُ. وهَذَا الحاجزُ هل هُوَ مشهود أو مذكور؟

فِيهِ احتمال، بل إننا نَقُول: عامٌّ، يشمل المشهودَ والمذكورَ، وإن لم يُشهدْ، فإنَّ الأنهارَ هَـذِهِ جعل الله بينها وبين البحار حواجزَ طبيعيةً؛ كالْأَرْض، وحواجز غير معلومة لَكِنَّها مذكورة، فإن فِي جوف البحارِ المالحة أنهارًا عذبة وعيونًا عذبة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدرة الله ومِنَّتِه أيضًا بجعلِ الحاجزِ بين هذين البحرينِ؛ لِأَنَّهُ لوِ اختلطَ ماء بعضهما ببعض لأفسدَ أحدُهما الآخرَ وضاعتْ منافعهما.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن أكثر الخلقِ لا يعلمون ما فِي هَذِهِ الآياتِ مِنَ العِبَر، ثُمَّ إنَّ نفيَ العلمِ كما تقدَّم قد يَكُون نفيًا لأصلِهِ وقد يَكُونُ نفيًا لثمرتِهِ وفائدتِهِ، والأَمْرُ كلُّه واقعٌ، فمِنَ النَّاس مَن لَيْسَ عنده علمٌ أصلًا ولا يفكر فِي هَذِهِ الآياتِ، ويرى أَنَّهَا ظواهرُ طبيعيةٌ، ولَيْسَ للهِ تَعَالَى فيها أيّ شأنٍ، ومنهم مَن يعلم ولكِن لا يَنتفِع.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦٢)

• ● ◦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

• ● ◦ ● •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ المَكْرُوب الَّذِي مَسَّهُ الضُّرُّ ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾]، عنـدنا ﴿أَمَّن﴾: (أم) متصلة بـ(من)، وهَـذَا عَلَى خلافِ القَاعِدةِ المعروفةِ، فالقاعدة المعروفة: أَنَّك تَفصِل (أم) وحدَها و(مَنْ) وحدها، لكِن كما هُوَ معروف أن الرسمَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الرسم العُثماني، اصطلاح قديم، وفيه فائدة: عَلَى قراءة (أَمَنْ خلقَ السَّماوَات)، لو كانت (أمْ مَن) عَلَى الرسم المعهودِ لم تتناسب القراءتانِ:

فَكُـلُّ مَـا وَافَـقَ وَجْـهَ نَحْـوِ ... وَكَـانَ لِلرَّسْـمِ احْـتِمالًا يَحْـوِي
وَصَـحَّ إِسْـنَادًا هُـوَ الْقُـرْآنُ ... فَهَـذِهِ الثَّلَاثَـةُ الْأَرْكَـانُ[1]

فالقراءاتُ السبعُ كلُّها مُتَّفِقَة بمـا دلَّ عليه هَذَا البيتُ، فلو كانت (أمْ مَنْ) فلا تتناسب فِي الرسم مَعَ (أَمَنْ)، ولذلك صارت (أَمَّنْ).

قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾: (مُضْطَر) هل هِـيَ اسْم فاعلٍ أو اسْم مَفْعُول؟

---

(١) طيبة النشر، البيتان (١٤، ١٥).

اسم مَفْعُول بلَا شَكّ؛ لِأَنَّ معنى مضطر أي ألجأته الضَّرورَةُ، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ اضطرَّ غيرَه، فإذا جعلنا (مضطر) اسْم فاعل صارَ بمعنى مضطرّ لغيرِه، والأَمْرُ ليس كذلك، بل المُراد مَن أصابته الضَّرورَةُ، وهَذَا تجد فِي القُرْآن: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، اضْطُرِرْت مبنيّ للمَفْعُول، ما قَالَ: إِلَّا ما اضْطَرَرتم.

وعلى هَذَا يُقَال أيضًا: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ [الأنعام:١٤٥]، يَعْنِي: ألجأته الضَّرورَةُ، وهنا ﴿ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ اسْم مَفْعُول، ولا تصحُّ أن تكون اسْم فاعلٍ؛ لِأَنَّ المُراد به من ألجأته الضَّرورَة إِلَى دعاءِ اللهِ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهناك أمثلة كثيرة مِنْهَا (مختار) هل معناه اختارَه غيـرُه أو اختار غيـرَه؟ من حَيْثُ الوضعِ البنائيّ يَصِحّ ويمكن، لكِن السياق يعيِّن، وذلك أن أصل مختار اسْم الفاعلِ منه مُخْتَيِرٌ، واسم المَفْعُول مُخْتَيَرٌ وكلاهما لَا بُدَّ أن نقلبَ الياء ألفًا؛ لِأَنَّهَا متحرِّكة مفتوحٌ ما قبلها، والياء المتحـركة المفتوح ما قبلها يَجِـب قلبها ألفًا، وأيضًا (محتاج) لا ندري هل هُوَ محتيج أو النَّاس يَحتاجون إليه، وأيضًا مضطرّ لا ندري هل هُوَ نفسه ألجأته الضَّرورَة أو أَنَّهُ هُوَ يضطرُّ النَّاس.

عَلَى كُلِّ حالٍ: الَّذِي يعيِّن هَذِهِ المعانيَ هُوَ السياق.

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ ما قيَّد بالمُسْلِم، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يجيـب دعوةَ المضطرّ ولو كَانَ كافرًا؛ لِأَنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ[1]، وهاهنا داعيانِ لَا بُدَّ أن يُجابا: المضطر والمظلومُ؛ لقولِ النَّبِيِّ ﷺ: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ

(١) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، حديث رقم (٧٠١٥)؛ ومسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم (٢٧٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

حِجَابٌ»(١) لِأَنَّ هَذَا هُوَ مقتضى عدل الله؛ إجابة المظلومِ فِي دعائِه عَلَى الظالِمِ، لَيْسَ من أجل محبَّة المظلوم، ولكِن من أجلِ إقامةِ العدلِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكَمٌ عدْلٌ، وهَذَا المظلومُ والمضطرُّ تُجابُ دعوتهما، والله تَعَالَى يقُول: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]، فيجيب دعوتهم، مَعَ أَنَّهُ يعلم أَنَّهُم سيكفرون إذا نزلوا، لكِن الضَّرورَة يجيب الله تَعَالَى بها الدَّعْوَة.

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الجواب: اللهُ، وهَذِهِ الأصنام لا تجيب دعوة المضطرّ، ولكِن قد يجعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى سببًا مقارِنًا فيَفْتِن بها العابدَ، ربما يدعو الْإِنْسَان رسول الله ﷺ أن يكشفَ ضُرَّه، ويقدِّر الله تَعَالَى سببًا مقارنًا لهَذَا فيشفى المريضُ فيُفْتَتَن الداعي بأن الَّذِي أجابَ دعوتَه وشفَى مريضَه هُوَ الرَّسُول ﷺ، وهَذَا شَيْء مشاهَدٌ، فمِن المشاهَد أن الله تَعَالَى قد يَفتِن العبدَ، وإلا فنحن نعلمُ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، ونعلم عِلْم الْيَقِينِ ويجب علينا أن نؤمِنَ بذلك؛ أن دعاء الرَّسُول لَيْسَ بنافعٍ، يَعْنِي: كونك تدعو الرَّسُول لِيَكْشِفَ عنك الضرَّ لا ينفع قطعًا، فإن قُدِّرَ أن أحدًا ابتُلِيَ بمثل هَذَا فنعلم أَنَّهُ بسببٍ آخرَ مقارِنٍ.

والَّذِينَ يُحَدِّثوننا أصحاب الخُرافات بمثل هَذَا، يَقُول القائل: ونحن متجهون إِلَى المَدينَة فِي السنة الماضية أقبلنا عَلَى الرَّسُولِ الحبيب ﷺ... نوافق عَلَى هَذَا، قَالَ: كاشف الغَمّ ومُبْرِئ المرضى، قُلْنَا: لا نُوافِقُك عَلَى هَذَا، قَالَ: لماذا؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، حديث رقم (٢٣١٦)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قُلْنَا: هَذَا لا يفعله إِلَّا الله، قَالَ: لا، يوجد واحد أُصيب بِبَطْنِه مَرَض بطنٍ -مُبْطُون- وَإِنَّهُ ذهب إِلَى جميعِ الأطبّاء فلم يُفَدْ، فقال: ما لي إِلَّا أن أتوجَّه إِلَى الحبيب، فتوجه إِلَى الحبيب، فلما بلغَ مشارفَ المَدينَة دعا: يا رسولَ اللهِ أنقِذني. يَقُول: فما دخلَ المَدينَةَ إِلَّا وقدْ بَرِئَ بطنه تمامًا.

هَذِهِ القصة أنا ما أقول: إنَّها كذِب، قد تكون صِدقًا، وقد تكون مما تناقله النَّاس وهي لا أصلَ لها، لكِن أقول: إن هَذَا منَ الفِتَنِ العظيمةِ الَّتِي قد يُبْتَلَى بها المَرْءُ، وقد تَقَدَّمَ الَّذِينَ اطَّيَّروا بصالحٍ، وقُلْنَا: إن اللهَ قد يُقَدِّر أَشْيَاءَ بِأَسْبابٍ مقارنةٍ لشيءٍ فتُنْسَب إِلَى هَذَا الشَّيْءِ ظاهرًا وليستْ منه لَكِنَّها ابتلاءٌ، فهَذِهِ منْ الِابتلاء الَّذِي يَبتلي اللهُ به مَن يشاء من عِبادِهِ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِينَ يدعون الرَّسُولَ قد يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النِّساء:٦٤]، كيف الجواب عن هَذِهِ الآيَة؟

الجواب: الله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ ولم يقلْ: (إذا) ظَلَمُوا، فـ(إذ) هَـذِهِ لما مَضَى، وهي تشير إِلَى قضيَّة معيَّنة، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾.

والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْد مَوْتِهِ لا يُمْكِن أنْ يَستغفرَ لأحدٍ، والحمد لله الآيَةُ لَيْسَ فيها دليلٌ، وهَذِهِ القصَّة لو فُرِضَ أن السند صحيح إِلَى هَذَا الرجلِ؛ فمَنْ هَذَا الرجلُ وما مدى أمانته وعدالته، فكلها كذِب موضوع، المهمّ أَنَّهُ لا أحدَ يجيب المضطرَّ إذا دعاه إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ هل نَقُول: هَذَا مقيَّد بها إذا دعاه، يَعْنِي: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا لا يزيل الضَّرورَةَ إِلَّا عند الدعاءِ؟

الجواب: لا، لكِن لِأَنَّ الكَلامَ فِي الإجابةِ، ولا إجابة إِلَّا بعدَ دعاءٍ، ولهَذَا إزالةً للتوهُّم قَالَ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وهَذَا عامٌّ، أي: كشف السوء عامٌّ فيمَن دعا الله أنْ يكشِفَه ومَن لم يَدْعُهْ، فالله تَعَالَى يجيبُ المضطرَّ إذا دعاه، وَهُوَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَكشِف السوءَ، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عنه وعن غيرِهِ]، عنه: أي عنِ المضطرّ الَّذِي دعا، وعن غيرِه. ومعنى يَكشِف السُّوءَ: يُزيله، مِن كَشَفَ الغطاءَ إذا أزال الحاجبَ.

وقوله: ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ يَشمل السوءَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ، السوء الحسي ظاهر كالمرض والفقرِ وما أشبهها، والسوء المعنويّ كالجهلِ والخبثِ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا السوءُ أعظمُ منَ النوعِ الأوَّلِ أيضًا، وَهُوَ شاملٌ للأمـرِ، والدَّليل عَلَى أن السوء المعنوي داخل فِيهِ قولُ الله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، فالتكذيبُ مِن السوءِ، بل هُوَ أسوأُ السوءِ والعياذُ بالله، وكشفُ السوءِ شاملٌ لهَذَا وهَذَا، وإن كَانَ بعضُ النَّاس قد يتبادرُ إِلَى ذِهنه أن المُرادَ به السوء الحسيّ، ولكِن الأَمْر أعمّ من ذلك.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (فِي)، أي يَخْلُفُ كُلّ قرنٍ القرنَ الَّذِي قَبْلَه]، أي: خلفاء فِي الْأَرْض. وتقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإِضافةَ بمعنى (فِي) صحيحٌ، يَدُلّ عليه قولُه تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾ [الأنعام:١٦٥]، فقوله: ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: يخلف بعضكم بعضًا، أو أن المَعْنى: ميراث الْأَرْض بفتحها بالإِسْلام؛ لِأَنَّهُ لا أحدَ يفعلُ ذلك إِلَّا الله، لكِن لمّا كَانَ هَذَا الخطاب عامًّا لجميعِ النَّاسِ لا يَستقيم

الوجهُ الثاني، أي: الَّذِينَ يَخْلُفُونها من بَعْد أهلها بفتحها بالإِسْلامِ، وهَذَا وإنْ كَانَ يدخل فِي ذلك كما قَالَ موسى لقومِه، ولكِن فِي هَذَا المقام لا يستقيمُ؛ لِأَنَّ الخطاب لعمومِ النَّاسِ، فخلفاء الْأَرْض يعني يَخْلُف بعضهم بعضًا، وهَذَا يتضمَّـن أمرينِ؛ إحياء وإماتة، إحياء الخالقينَ وإماتة المخلوقينَ، والَّذِي يجعل هَذَا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهَذِهِ الأفعال لا نستطيع أن نفعلها لا بالإحياءِ ولا بالإماتةِ.

وهنا تنبيهٌ؛ وَهُوَ أَنَّنا إذا قُلْنَا للحاكمِ: إِنَّهُ خليفةُ اللهِ فغير هَذِهِ الآيَة وغير هَذِهِ المسألةِ، فالخليفةُ هنا يعني يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا، لكِنْ إذا قُلْنَا: الإمام خَلِيفة الله فِي الْأَرْضِ فمعناه أَنَّهُ يُنفِّذ أمرَ اللهِ تَعَالَى فِي أرضِهِ، فلكلِّ مَقام مقالٌ، فيَصِحُّ أنْ نَقُولَ للإمامِ: خليفةُ اللهِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦]، يعني: عَنَّا.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ الإضافة بمعنى (في). والإضافة تأتي بمعنى (فِي) وتأتي بمعنى (اللام) وبمعنى (مِن) وأكثر ما تكون الإضافة بمعنى اللامِ، وتأتي الإضافةُ بمعنى (مِن) إذا كَانَ الأَوَّل نوعًا منَ الثاني، مثل: (خاتَمُ حديدٍ)، الحديدُ جِنسٌ وخاتَم نَوْعٌ، (ثوبُ خزٍّ) يعني ثوبًا مِن خزٍّ، وتأتي بمعنى (فِي) إذا كَانَ الثاني طرفًا للأَوَّل؛ كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣]، بل مكرٌ في الليلِ ومكرٌ فِي النَّهارِ، وهنا ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالْأَرْض ظرف مكان أي: خلفاء فِي الْأَرْض، ومكر الليل ظرف زمان، وكل التَّقْديرات الَّتِي لا يَصِحُّ فيها تقدير (من) ولا (في) فهي بمعنى اللامِ، مثل: ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٠٧].

قوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟ الجواب: لا.

قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: ﴿قَلِيلًا﴾ مَفْعُول مُطْلَق لـ(تَذَكَّرون)

المحذوفة، أي: تذكرون تذكرًا قليلًا.و(ما) مصدريّة، وإذا كانت مصدريَّة فما بعدها يُؤَوَّل بمصدرٍ، ويَكُون التَّقْدير: قليلًا تَذَكُّرُكُم، ولا يَصِحُّ أن تكونَ (ما) نافيةً؛ لِأَنَّهُ من المعروفِ أنَّ (ما) النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وربما يفسد المَعْنى؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ المَعْنى: ما تذكرون قليلًا يَكُون تذكرهم كثيرًا، فلا يَصْلُحُ، وإن كَانَ قد يقال: إذا نُفِيَ تَذَكُّرُهُمُ القليلُ فالكثيرُ من باب أَولى، لكِن الأَصْل فِي الإعرابِ أن نجعلَ (تذكرون) فاعلًا لـ(قليلًا).

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظون، بالفوقانية والتحتانية]، الفوقانية: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، والتحتانية: «يَذَّكَّرُونَ» [وفيه إدغام التاء فِي الذال]، فيَكُون فِي الآيَةِ ثلاث قِراءاتٍ: «تَذَكَّرُونَ۞ تَذَّكَّرُونَ۞ يَذَّكَّرُونَ»[1]، والمُفَسِّر ما ذكر (تَذَكَّرُونَ) بالتخفيف.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [و(ما) زائدة لتقليل القليل]، يعني كأن المُفَسِّر يَقُول: (ما) زائدة، ويَكُون التَّقْدير: وقليلًا تذكرون، وهَذَا وجهٌ أيضًا فِي الإعرابِ، فالْوُجُوهُ ثلاثةٌ: الأَصْل أن تجعل (ما) نافيةً، وما ذكره المُفَسِّر وما ذكرناه متقاربانِ، أنْ تجعلَ: قليلًا تَذَكُّرُكُمْ أو قليلًا تذكرونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجيبُ دَعْوَةَ المضطرّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا دليلٌ عَلَى أن رحمة اللهِ سبقتْ غَضَبَهُ، وَأَنَّهُ من كمالِ رحمتِهِ إذا عَلِمَ بهَذَا المضطرّ أزالَ ضَرُورَتَهُ عَلَى أيِّ حالٍ.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا فرقَ بين أن يَكُون المضطرُّ مؤمنًا أو كافرًا، يُؤْخَذ من العمومِ وعدمِ التقييدِ؛ لِأَنَّهُ ما قُيِّدَ بأنه مسلم، بل أُطْلِقَ وعُمِّمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ ينبغي إقامة الحُجَّة عَلَى الخَصْمِ بما يَعْتَرِف به؛ لِأَنَّ إجابَةَ المضطرّ يُقرّ بها هَؤُلَاءِ المكذِّبون؛ هم إذا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ وأصابتهم الضرَّاءُ والأمواجُ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدينَ، فأجاب دعاءَهم، مَعَ أَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُم سَيُشْرِكُون إذا خَرَجُوا، وأنَّ إيمانهم هَذَا إيمانُ ضرورةٍ فقطْ، فهم عندَ الضَّرورَةِ ما يَدْعُونَ إِلَّا الله، فإذا كنتم تَعرِفون أنكم لا تدعون إِلَّا اللهَ عند الضَّرورَةِ فكيف تعبدون غيرَه عند السَّعَة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إجابة الله دعاءهم فِي هَذِهِ الضَّرورَةِ قد تجعل بعض النَّاس يُسْلِمون؟

فالجواب: قد يُسْلِمون وقد يكْفُرون، فالنعمة فِي الحقيقةِ امتحان، إمَّا بالخير أو بالشرّ، ولهَذَا بعض النَّاس إذا مَسَّهُمُ الضرُّ دَعَوُا الله، فإذا أُجيبوا بالرَّحْمَةِ إذا فريقٌ منهم بربهم يشركون.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: شمول رحمة اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بكشفِ السوءِ، سواء دعا لذلك أمْ لم يَدْعُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ وكم من سوءٍ كَشَفَهُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عن خلقِه بدعاءٍ وبغيرِ دعاءٍ، وبضرورةٍ وبغيرِ ضرورةٍ، ولا يكشفه إِلَّا الله.

وقد أوردنا فيما سبق أَنَّهُ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: هَذَا الطبيبُ يعالِجُ المريضَ فَيَبْرَأُ فيَكُون كاشفًا للسوءِ؟

وأجبنا عن هَذَا: بأن هَذَا فعلٌ للسببِ، وَلَيْسَ كشفًا للسوءِ، بدليل أَنَّهُ قد

يُعالِجُه بِما بَرَأ به غيرُه فِي نفسِ المرضِ ولا يَبْرَأ، فالكاشفُ للسُّوء هُوَ الله، وما للعبادِ إِلَّا فِعْل الأَسْبَاب فقطْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان قُدْرَةِ الله ونعمته أيضًا بجعلِ هَذِهِ الخَلِيقةِ خَلِيفة يَخْلُفُ بعضها بعضًا، وإلا لانقطعتِ الخليقةُ وانقطعَ النسلُ، أو بَقِيَتِ الخليقةُ أزمنةً متطاوِلَةً وتعاقبتْ عليها الأحداثُ وتوالتْ عليها الأُمُور، وحينئذٍ يَكُون فيها سَأَمٌ ومَلَل، فلولا هَذِهِ الخلافةُ وأن بعضهم يَخْلُف بعضًا لَلَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا انقطاع الخليقة؛ لِأَنَّهَا لا تَسْتَمِرّ بدون أن يَخْلُفَ بعضُها بعضًا، وَإِمَّا أن تبقى الخليقة دائمًا وحينئذٍ يَكُونُ التعَبُ والسَّأَمُ والمَلَل، وقد جاء فِي ذلك قول الشاعر[1]:

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسْأَمِ

وقال الشاعر الآخر[2]:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتُهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجُمَانِ

ففي الحقيقةِ أن أطولَ الزمنِ فِي الْإِنْسَان يُضْعِفُه ويُلْحِقه السَّأَم والمَلَل، ثُمَّ هُوَ لا يزال يتذكر الأحداث الَّتِي تَتَعَاقَبُ وحينئذٍ يَضْجَر ولا يَكُون عنده قرارٌ نفسيّ ولا فكريّ، لذلك كَانَ من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن رحمته أيضًا أن جَعَلَنا خلفاءَ يَخْلُف بعضنا بعضًا، والجنُّ أيضًا يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا؛ لِأَنَّ الجنَّ والإنسَ يموتون، فالآية عامَّة فِي هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ كثيرًا منَ النَّاسِ لا يتذكَّر مَعَ وجود ما به التذكُّر؛ لِقَوْلِهِ:

---

(١) معلقة زهير بن أبي سلمى.

(٢) البيت لعوف بن محلم السعدي، الحماسة البصرية (١/ ١٨٨).

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ والتذكر بمعنى الاتِّعاظ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يَذْكُر فينتفع بِذِكْرِه فيقال: اذْكُر.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الدعاء من أَسْبابِ رفعِ البلاءِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وهَذَا أمرٌ مجرَّب ومشاهَد، ولا سيما الأدعية الَّتِي جاءتْ بها السنَّة؛ فإنها خيرٌ وبركة ولها ثَمَرَةٌ ظاهرةٌ.

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قُدْرَةُ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لِأَنَّ قوله: ﴿يُجِيبُ﴾ يَشْمَل كُلَّ ما تَتَطَلَّبُهُ الضَّرورَةُ مِن قليلٍ أو كثيرٍ، فيَكُون فِي ذلك دليلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أَنَّ رَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى سَبقَتْ غَضَبَهُ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ يشمل الكافرَ والمؤمنَ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن المضطرَّ مُجابُ الدَّعْوَةِ مُطلَقًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ ولم يقيِّده بالمؤمنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن إجابة المضطرّ المتحتِّمة مشروطة بما إذا دعاه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾، وَأَمَّا إذا لم يَدْعُهُ فقد يزيلُ ضَـرورته وقد لا يُزيلها؛ لِأَنَّ المضطرَّ قد لا يَدْعُو الله تَعَالَى استغناءً بما عندَه من الأُمُور المادِّيَّة عن دعاءِ اللهِ تَعَالَى، فيَسْتَنْكف عن دعائه، وحينئذٍ لا تُكْشَف ضَـرُورَتُه. فالمهمُّ أَنَّ إجابةَ المضطرِّ هنا اشترطَ اللهُ تَعَالَى لها أنْ يَكُونَ المضطرُّ دَاعيًا، فقال: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنَّةُ الله تَبَارَكَوَتَعَالَى عَلَى عبادِهِ بِكَشْفِ السوءِ، أي: إزالته عن المُضْطَرِّ وغير المضطرِّ عن الجميعِ، ولهَذَا ما قَالَ: عن المضطرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ فحذف المتعلّق، والقاعدةُ عند أهل العلمِ: أنّ حذفَ المتعلّق يفيد العمومَ،

فمعنى ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ عن كُلّ أحد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى المرءِ أنْ لا يلتفتَ فِي كَشْفِ السوءِ إِلَّا إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكْشِفُ السوءَ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعلى هَذَا يَجِبُ عليكَ أنْ لا تُعَلِّقَ هَذَا الأَمْرَ إِلَّا بربِّك الَّذِي هُوَ قادرٌ عَلَى كشفِه، وتعلُّقُك بغيره خِذلانٌ لك، فـ«**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[1].

ولكِن هَذَا الكَلام لا ينافي فعلَ الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّ فاعلَ الأَسْباب إن كَانَ يَعتقد أَنَّ السَّبَب وحدَهُ هُوَ الفاعل بذاتِه فَإِنَّهُ ينافي ما ذَكَرْنَا، وإن كَانَ يعتقد أن السَّبَب هُوَ الفاعل ولكِن بتقديرِ اللهِ فهَذَا من التعلُّقِ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ لا ينافي إذا توكَّلتَ عليه واعتمدتَ عليه أن تفعلَ منَ الأَسْبَاب ما جعله الله سببًا، فالْإِنْسَان يرجو منَ الله تَعَالَى دخولَ الجَنَّة والنجاةَ منَ النَّار، ومع هَذَا يفعلُ أَسْبابَه؛ يرجو من الله تَعَالَى الأولادَ ومع ذلك يَسعى بالأَسْباب.

فالمهمّ أنّ فعل السَّبَب إذا لم يَعْتَقِدِ الفاعلُ -فاعل السَّبَب- أن السَّبَب فاعلٌ بذاتِه فَإِنَّهُ لا ينافي التوكُّلَ ولا التعلُّقَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا ينافي كمال التوكُّل أيضًا، ولهَذَا كَانَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -وهُوَ سيِّد المتوكِّلين- يَفْعَلُ من الأَسْباب ما يُدْفَع به السُّوءُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بَيَان مِنَّـة الله تَعَالَى بجعلِ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ خلفاءَ، يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا. وقد ذكرنا فيما سبقَ الحِكْمَةَ من ذلك؛ وهي: أَنَّهُ إن لم يَخْلُفْ

---

(١) رواه النسائي، كتاب تحريم الدم، باب الحكم في السحرة، حديث رقم (٤٠٧٩)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ والترمذي، كتاب الطب، باب ما جاء في كراهية التعليق، حديث رقم (٢٠٧٢)؛ وأحمد (٤/ ٣١٠) (١٨٨٠٣)، عن عبد الله بن عكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بعضهم بعضًا لَزِمَ أحدُ أمرينِ: إمَّا استمرار الخَلِيقة الأُولى، وحينئذٍ يَلْحَقُها المللُ والسآمةُ وعدم التجديد، وَإمَّا انقطاع الخَلِيقَة؛ لِأَنَّهُ لا يوجد أحدٌ يَخْلُفُها، فالله تَعالَى مِن مِنَّتِه أنْ جعلَ النَّاسَ خُلَفَاء.

الآن تجدون الرجلَ إذا طالتْ به الحياةُ لا يُمِلُّه أهلُ سُوقِهِ فقطْ، بل يُمِلُّه أقربُ النَّاسِ إليه، تجدهم يَقُولُونَ: الله يُريحنا بالعافيةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يدعون الله تَعَالَى بالراحةِ؛ لِأَنَّهُ يُقْلِقُهُمْ ويُؤْذِيهم. فهَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال قدرة الله بجعلِ الخلفاءِ، فَهُوَ من رحمةِ اللهِ، وَهُوَ أيضًا من قُدرته؛ لِأَنَّ فِيهِ إحياء وإماتة، إماتة للأوَّلين وإحياء للآخِرين، وهَذَا من آيَات الله وقدرته. ولهَذَا احتجَّ إبراهيم عَلَى النمرود بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن الإحياءَ والإماتةَ من آيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدالَّة عَلَى قُدْرَتِه.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ مَهْمَا كَثُرَتِ القرائنُ والبراهينُ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَتَّعِظ بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وإنَّ منَ المتَّعِظِين أيضًا مَن قد يَكُون اتِّعاظه قليلًا؛ لِأَنَّ قوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يَتَضَمَّن التذكُّر من واحد والتذكُّر من جماعة، فـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يعني أن الواحدَ مِنَّا قد يتذكَّر لكِن قليلًا إِلَّا مَن عَصَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك أيضًا الفئاتُ منَ النَّاسِ لا يتذكَّر منهم إِلَّا القليل.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٦٣].

يَقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ﴾ يُرْشِدُكُم إِلَى مَقَاصِدِكُم]، فالهداية هنا هداية دلالةٍ وتوفيقٍ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يَكُون عارفًا وفاهمًا ولا يَهتدِي ولا يُوَفَّق، وَهُوَ كما يقولُ العوامُّ: (جِنّي)، وإذا كَانَ جِنِّيًا صار لا يهتدي أبدًا، وَفِي الأسفارِ القديمةِ قبل أن تظهرَ الخطوطُ السودُ كَانَ النَّاس يَتِيهون، فإذا ساروا دارتْ رؤوسهم ولا يَستطيعون الوصولَ إِلَى مَقْصِدِهِمْ.

فبنو إسرائيل تاهوا فِي أَرْضِهِم أربعينَ سنةً، مَعَ أَنَّ المسافةَ نِصف شهرٍ فأقلّ، وهم بَقُوا أربعينَ سنةً تائهينَ ما اهتدوا إِلَى السبيل.

فإِذَنْ: قَوْلُه: ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ أي: يُرْشِدكم هدايةَ دلالةٍ وتوفيقٍ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بالنُّجُوم ليلًا وبعلاماتِ الْأَرْض نهارًا]، ولو قَالَ المُفَسِّـر: وبالشَّمْسِ نهارًا لكانَ أيضًا أَولى؛ لِأَنَّ علامات الْأَرْض إذا كَانَ البحرُ واسعًا وطويلًا تختفي ولا تظهر ولا تُرى إِلَّا ماء.

فإِذَنْ: أستدِلُّ فِي النَّهار بالشَّمْس، وبعضهم أيضًا يَستدِلّ بالرياحِ، حَتَّى الفقهاء ذكروا أَنَّهُم استدلوا للقبلةِ بالرياحِ؛ لِأَنَّهُم قَالُوا: إن كُلّ ريح بإذن اللهِ لها خاصِّيَّة

معيَّنة، لكِن لا نعرفها نحن، يَعرفها الخُبَرَاءُ.

ثم نحن نعرفها بالبرودة والحرارة، فالشمـال باردة، والجنوب حارّة، هَـذِهِ مَعْرِفة لَكِنَّها معرفة سطحيَّة، إِنَّما هم يَعْرِفونها بدِقَّة؛ بحَيْثُ إِنَّهُ إذا هَبَّتِ الريحُ قَالُوا: هَذِهِ شماليَّة أو جنوبيَّة أو شرقيَّة أو دَبُور، لكِن نَقُول: العلامات الظَّاهرة هِيَ الشَّمْسُ بكلِّ حالٍ، والقمرُ والنجومُ فِي الليلِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ قُدَّام المَطَر]، هَذَا تفسير لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ﴾ والمطرُ تفسيرٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّهُ من آثارِ رحمةِ اللهِ، فسُمِّيَ رَحمةً؛ لِأَنَّهُ من آثارها، وبه تَحْصُلُ الرَّحْمَةُ، فلا أحدَ يستطيعُ أن يرسلَ الرياحَ -سواء كانت رِيحًا عقيمةً أم رِيحَ بُشْرَى بين يدي رحمتِه- إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمعِ، والأكثرُ أنَّ الجمعَ يَكُون فِي رياحِ الرَّحْمَةِ، والإفرادَ فِي ريحِ العذابِ، إِلَّا إذا وُصِفَت الريحُ المُفْرَدَةُ بما يَدُلّ عَلَى أَنَّهَا ريحُ خيرٍ؛ كما فِي قوله تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

ثم إن الرياحَ بالنِّسْبَة للفُلْك ليست من مصلحةِ أهله؛ لِأَنَّ الرياح إذا اختلفتْ عَلَى الفُلْك لا يمشي، لا سيما الفلك الأوّل؛ فإن الفُلك الأول يَمْشِي بالهواءِ؛ السُّفُن الشراعيَّة، فإذا اختلفتْ عليه الأهويةُ تَعوَّق، ولكِن إذا كانت رِيحًا واحدةً صار ذلك أحسنَ، ولهَذَا قَالَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢].

المهمُّ أن الرياحَ إِنَّمَـا تقالُ فِي الغالـبِ فِي رِياحِ الرَّحْمَةِ، وَفِي الإفـراد فِي ريحِ العذابِ، فهَذَا الغالِبُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، وقال تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، وأمثال ذلك.

وقال العُلَماءُ: ومِنَ الحِكمة فِي هَذَا أَنَّ الريحَ إذا كَانَ مَهبُّها واحدًا صارتْ أصلبَ؛ إذ لا شَيْء يُقابِلُها منَ الرياح حَتَّى يَكْسِرَ حِدَّتَها، فلهَذَا كانتْ تأتي دائمًا فِي مَقامِ العذابِ.

قال تَعالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ما الجوابُ؟ لا إلهَ معَه. وكلُّ هَذَا تقرير لأُلوهيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي يُنْكِرُها هَؤُلَاءِ المشرِكون.

قوله: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿تَعَٰلَى﴾ بمعنى: عَلَا بِتنَزُّهٍ؛ لِأَنَّ ﴿تَعَٰلَى﴾ مُشَرَّبَةٌ معنى: تَرفَّعَ عن هَذَا الشَّيْءِ مَعَ عُلُوِّهِ، فَهُوَ عالٍ بِتنَزُّهٍ عمَّا يشركون مِن هَذِهِ الأصنامِ الَّتِي يجعلونها مَعَ اللهِ شَرِيكًا فِي العِبادَةِ، أَمَّا فِي الرُّبُوبيَّة فإنهم يُقِرُّون بأنَّ هَذِهِ الأصنامَ لَيْسَ لها أبدًا شأنٌ فِي الرُّبُوبِيَّة، ولكِنهم -والعياذ بالله- يعبدونها مَعَ اللهِ، ومنهم مَن يصرِّح بأنه يعبدها لِتُقرِّبَهُ إِلَى اللهِ؛ كما قَالَ الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، فهم مُعْتَرِفون بأنَّ عبادتها ليستْ عبادةً مقصودةً لذاتِها؛ بل هِيَ مقصودةٌ لغيرِها لِتُوصِلَهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قَالَ المُفسِّر: [﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به غيره]، عامٌّ فِي كُلّ شِرك، وعامٌّ فِي كُلّ مُشْرَكٍ به، فالله تَعَالَى متعالٍ عن كُلّ شركٍ وعن كُلّ مشرِك به مهما عَظُم قَدْرُه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان نِعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الخَلْقِ بالهدايةِ فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ والجوِّ؛ لِأَنَّهُ عَلَى قاعدة الفقهاءِ الهواء تابع لِلقَرارِ، إن كنت عَلَى البحرِ فَهُوَ منَ البحرِ، وإن كنت عَلَى البرّ فَهُوَ من ظُلُمات البرِّ، ففيه منة الله عَلَى عباده بالهداية فِي ظلمات البرّ والبحر، وهَذِهِ الهداية بعلاماتٍ وبإلهامٍ؛ بكلا الأَمْرين، فقد تكون بالعلاماتِ وَهُوَ الأكثرُ، وقد تكون بالإلهامِ، قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ

قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]. وَكَانَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لا يَعْرِفُ شيئًا، فهداه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولهَذَا بعضُ العُلَماء يستعمل هَذِهِ الآيَةَ إذا ضاعَ فِي البرِّ أو فِي البلد إذا كَانَ يبحثُ عن بيتِ شخصٍ ولم يهتدِ إليه، فيتلو هَذِهِ الآيَة: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص:٢٢]، وَهُوَ دعاءٌ مناسبٌ.

إِذَنْ: مِنَّة الله عَلَى الهداية فِي ظُلماتِ البرّ والبحر، سواءً كَانَ ذلك بالأَسْبَاب المشاهَدة، أو كَانَ ذلك بالإلهامِ، فإنَّ الله تَعَالَى يَمُنُّ عَلَى العبادِ بهَذَا وبهَذَا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أن يَعتمدَ عَلَى اللهِ فِي الهدايةِ إِلَى الطريقِ الحِسِّيِّ، كما يعتمد عليه فِي الهداية إِلَى الطريقِ المعنويِّ، فكما أنك تقول: (ربِّ اغفرْ لي وارحمني واهدني) تريد الهداية المعنويَّة، كذلك أيضًا اعتمدْ عَلَى ربِّك فِي الهدايةِ الحِسِّيَّة. ولا تعتمد أيضًا عَلَى الأَسْبَابِ؛ لِأَنَّهُ كم من أُناسٍ أهل معرفةٍ وَجُودٍ بالدلائلِ ومع ذلك لا يَهتدونَ.

وقد حدَّثني رجلٌ أثِق به يَقُول: إِنَّهُ ذهب من عنيزة إِلَى بريدة فِي حاجةٍ قبل أن تظهرَ السيَّارات، حَيْثُ إن أحد التجار فِي عنيزة أعطاهُ كتابًا إِلَى أحدِ التجّار فِي بريدة، وقال له: احرِص عَلَى أن توصِلَه سريعًا، يَقُول: فصليتُ المغربَ خارجَ البلدِ بعنيـزة، وذهبت من طريقٍ يسمى طريق الخلا مختصَـر، يَقُول: وصلـتُ مَعَ أذانِ الأخيرِ، يعني ساعةً ورُبُعًا تقريبًا، وَهُوَ يسيـرُ عَلَى رِجليه؛ لِأَنَّ بعض النَّاس جيِّـد ويَرْكُض. يَقُول: وصليتُ فِي المَسْجِد؛ مسجد الساقية الَّذِي فِي بريدة، وانتظرتُه حَتَّى خرج وتبعته، وقلتُ له: هَذَا خطٌّ من فلان. قَالَ: ادخلْ نَشْرَب القهوة، فقلت له: أريد أن أمشيَ. قَالَ: لا. فلزَّم عليَّ فدخلتُ، فجَعَلوا يصنعون القهوة، فقال: متى خرجتَ من عنيزة؟ قلتُ: خرجت مِنْهَا المغربَ. فقال أخوه: واللهِ أخي هَذَا أجودُ

من ناقتنا الفلانيّة. يَقُول الرجل: لم أجعلْ هَذِهِ الكلمة عَلَى بالي إطلاقًا. يَقُول: شربتُ القهوةَ وخرجتُ، وبمجرّد أن خرجتُ لم أهتدِ للطريقِ، وبدأت أبحث ولم أدرِ إِلَّا وقد رجعتُ إِلَى الخلا إِلَى آخرِ الليلِ، ولما تعِبتُ ومَلَلْتُ وجدتُ خِبَاءً وأهله عنده، فقلت لهم: أين الطريق؟ قَالُوا: بجوارِكَ، لَيْسَ بينك وبينه إِلَّا شَيْء يسير. المهم أَنَّهُ بقِيَ إِلَى طلوعِ الشَّمْسِ، ثُمَّ لما كَانَ النَّهارُ عاد بالليلِ، ولما جاء سقط مَرِيضًا. والكَلام عَلَى أن هَذَا الرجل يهتدي، ومع ذلك ضلَّ الطريق، فلا تقلْ: إني والله عارِفٌ، فهداية اللهِ للطريقِ هَذِهِ من نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى العبادِ، سواء فِي البرّ أو فِي البحر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان آيَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَـذِهِ الرياحِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذِهِ الرياح مُسَخَّرةٌ مدبَّرة، وليست هِيَ الَّتِي تَهُبُّ بطبيعتها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الشَّيْء الواحد قد يَكُون خيرًا وقد يَكُون شرًّا، بِحَسَبِ آثارِه ونتائجه، فالرياحُ هنا يَقُول: ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ وَعَلَى عادٍ ونحوِهِم عذابٌ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١]، والكلُّ مِن فِعْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، هنا ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [النمل:٦٣]، وهناك ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الذاريات:٤١]، فالكلُّ من فِعْلِه.

وحينئذٍ يَرِدُ علينا إشكالٌ: هل الله تَعَالَى يفعل السُّوءَ؟

السوءُ فِي المَفْعُول، وَأَمَّا بالنِّسْبَة لفعلِ اللهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بسوءٍ؛ لِأَنَّهُ صادرٌ عن حكمةٍ، وقد تقدَّم فِي أوّل الآيَات أن انتقامَ اللهِ تَعَالَى من المجرمينَ هُوَ نعمةٌ وكمالٌ يُحْمَد عليه، لمّا ذكر عقوبةَ قوم لوطٍ، قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن المطر من رحمة اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إطلاق الصِّفة عَلَى آثارها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، فالمطر لَيْسَ رحمة الله ولكِنّه آثارٌ من آثارِ الرَّحْمَةِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُطْلِق الرَّحْمَةَ عَلَى ما كَانَ من آثارها، قَالَ الله تَعَالَى للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرياحَ سببٌ لنزولِ الأمطارِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾، وقال تَعَالَى فِي آيَةٍ أخرى صريحة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم:٤٨]، هَذَا دليل واضح عَلَى أن الرياحَ هِيَ الَّتِي تُثير السحاب بإذنِ اللهِ تَعَالَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيَان تَنَزُّهِ اللهِ تَعَالَى عن كُلّ ما يُشْرَك به، وَأَنَّهُ أعلى وأعظمُ من كُلِّ ما يُشرَك به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّهُ لا أحدَ يستطيع أن يفعلَ هَذِهِ الأفعالَ، وهي الهدايةُ ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وإرسال ﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ولهَذَا قَالَ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يفعل ذلك؟ الجواب: لا.

وهل تَشمَل الهداية ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ الهدايةَ بالأَسْباب الَّتِي تَوصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؟

نعم تشمل؛ لِأَنَّ الله أطلق الهدايَةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي من الله.

• • ❁ • •

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، حديث رقم (٤٥٦٩)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، وأهلها، حديث رقم (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآيــة (٦٤)

• • ෴ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٦٤].

• • ෴ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ فِي الأرحامِ مِن نُطفةٍ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بَعْد الموتِ، وإنْ لم تَعْتَرِفُوا بالإعادة؛ لقيامِ البراهينِ عليها]

قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا﴾ مثلما قُلْنا فيما سبق: إن أصلها: (أم من)، لَكِنَّها أُدغمت اتِّباعًا للرسمِ العُثمانيّ، ومن فوائد قَرْنِها ألَّا تتصادمَ مَعَ القراءةِ الأُخْرَى وهي (أَمَنْ يَبْدَؤُا).

وقوله: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ قَصَّرَ فِي التفسيرِ حَيْثُ قَالَ: [في الأرحامِ مِن نُطفة]، والصَّواب أَنَّهُ أعمُّ من ذلك، فيبدأ الخلقَ فِي الأرحامِ مِن نُطفة هَذَا فردٌ من أفرادِه، وإلّا فقد بدأ خلق الْإِنْسَان من طِينٍ، ثُمَّ جعل نسلَه من سُلالة من ماءٍ مَهِين. أيضًا فإن بعض الأَشْيَاء تَتَوَلَّد ولا تَتَوالَد ولَيْسَ لها أرحامٌ تكون فيها، وإنما تتولد مما تتولد منه بدون أن يوجدَ لها أرحامٌ، فالصَّواب فِي هَذَا أن يُقَال بالعموم: ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ أي: يُوجِده ابتداءً فِي الأرحامِ وغيرِ الأرحام، لا أحد يستطيع أن يفعلَ ذلك، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]، فلو يجتمعون كلهم -الَّذِينَ

يدعون من دونِ اللهِ- لِيَخْلُقُوا ذُبابًا ما استطاعوا. وأبلغُ من هَذَا ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ هذا الذبابُ الضعيف إذا سلبهم شيئًا فلا يستطيعون أنْ يَرُدُّوه ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

إِذَنِ: الَّذِي ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ هُوَ الله، وَالَّذِي يعيده هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وإن لم تَعترِفوا بالإعادةِ؛ لِقيام البراهين عليها]، لا حاجة لتقديره؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمّا ذكر بدء الخلقِ فإن إعادة الخلق بالفطرة والعقل أهونُ من ابتدائِه، فَهُوَ إذا تقرَّر أَنَّهُ يبدأ الخلق فَإِنَّهُ من المعلومِ أنه يُعيده؛ بل إعادته أهون، فعلى هَذَا يَكُون الله تَعَالَى قد قَرَّرَ أُلوهِيَّته بِهَذَا الفِعْل العظيمِ؛ وَهُوَ بَدْءُ الخَلْقِ وإعادته.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ -أي من جهةِ السَّماءِ- بالمطرِ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنباتِ]، فالرزقُ الَّذِي يأتي من السماءِ هو المطرُ، والذي يأتي منَ الْأَرْض هُوَ النبات؛ هَذَا ما قَالَهُ المُفَسِّر.

ويجوز أن نَقُولَ: إنَّ قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العُلُوّ، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مِنَ النزولِ، ويَكُون هَذَا كقولِهِ تَعَالَى: ﴿لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦]، ويَكُون المُراد بالسَّماء ما كَانَ من الأشجارِ الرفيعةِ العاليةِ، وبالْأَرْضِ مثل: الزروع والأشجار الممتدَّة عَلَى الْأَرْض الَّتِي لَيْسَ لها ساقٌ. أو نَقُول: إن الآية أعمُّ من هَذَا فتشمل المطر؛ لِأَنَّهُ من السَّماء، وتشمل ما أَشَرْنَا إليه مِنَ الثَّمرات منَ الأشجارِ العاليةِ الَّتِي يَتَوَصَّلُ إليها هَؤُلَاءِ، فتكون فِي السَّماء وتكون فِي الْأَرْض.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ الجوابُ: لا يَفعل شيئًا مما ذُكِرَ إِلَّا اللهُ، ولا إله معه.

وهَذِهِ الآيَة جمعَ اللهُ فيها بين بدء الخلق والرزق؛ لِأَنَّ المخلوقات تَحتاجُ إِلَى

إمدادٍ وتحتاج إِلَى إعدادٍ، فالإعداد بابتداءِ الخلقِ؛ لأن الله إذا ابتدأ الخلقَ أعدَّ الْإِنْسان بكلِّ ما هُوَ لازِمٌ له، والإمداد بالرزقِ مِنَ السَّماء والْأَرْض.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾]

﴿هَاتُوا﴾ هَذِهِ هل هِيَ فعلُ أمرٍ أو اسمُ فِعل أمر؟

هي فِعْلُ أمرٍ؛ والنَّحْوِيُّون مُختلِفون، لكِن الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهَا فِعلُ أمرٍ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَلْحقُه العلامةُ يَكُون فعلَ أمرٍ، وَالَّذِي يبقى عَلَى حالٍ واحدةٍ يَكُون اسمَ فعلِ أمرٍ. فأنت تخاطب واحدا فتقول: صَهْ، وتخاطب اثنينِ فتقول: صَهْ، وتخاطب جماعة فتقول: صَهْ.

إِذَنْ: هِيَ اسمُ فعلِ أمرٍ، لكِن (هات) تُخاطِب واحدًا فتقول: هاتِ، وتخاطب أُنثى فتقول: هاتي، وتخاطب جماعةً فتقول: هاتوا، وتخاطب نساءً فتقول: هاتِينَ. إذن فهي فِعْلُ أمرٍ.

ومعنى ﴿هَاتُوا﴾ يعني أَحْضِروا، و(البُرهانُ) هُوَ الدَّلِيلُ، وخَصَّه بعضهم بالدَّلِيل القاطعِ، وقَالُوا: إن الدَّلِيل إن كَانَ قطعيًّا فِي دلالته فَهُوَ برهانٌ، وإن كَانَ ظَنيًّا فَهُوَ دليل وَلَيْسَ ببرهانٍ، ولكِن الظَّاهر من الآيَاتِ الكَرِيمَةِ أن البرهانَ فِي الْقُرآنِ دليلٌ؛ سواء كَانَ قطعيًّا كما قَالَ أهل المنطِق أم غيرَ قطعيٍّ، فعلى هَذَا يَكُون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ شاملًا للقطعيّ والظَّنِّيّ؛ لِأَنَّهم لَيْسَ عندهم لا دليل قطعيّ ولا ظنّيّ.

قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأَمْر فِي قوله: ﴿هَاتُوا﴾ المُراد به التحدِّي.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتكُم ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنَّ مَعِيَ إلهًا فعلَ شيئًا مِمَّا ذُكِرَ].

والجواب: أَنَّهُ لا يمكِن أنْ يأتوا ببرهانٍ، وجواب (إنِ) الشرطيَّة محذوفٌ، دلَّ عليه ما قبله عَلَى رأيِ كثيرٍ من النحْويين، والصَّحيحُ أَنَّهُ فِي مثلِ هَذَا لا يُحتاج إِلَى جوابٍ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وسَأَلُوه عن وقتِ قيامِ الساعةِ فنَزَلَ ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ﴾]، ما ادَّعاه المُفَسِّر من أنَّ الآيَةَ لها سببٌ لا صِحَّة له، ولكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انتقلَ من ذِكر الخلق إِلَى ذكر ما يَلْزَمُ للخلقِ وَهُوَ العلمُ، فإن الخلقَ لَا بُدَّ أنْ يَتَقَدَّمَهُ علمٌ؛ إذ لا يتمُّ الخلقُ إِلَّا بعلمٍ وقُدرةٍ، فمَن لا عِلْمَ له لا يَخْلُق، ومن لا قُدْرَة له لا يَخْلُق، فالآيَة فيها انتقال من معنًى إِلَى معنًى، وَلَيْسَ لها سببٌ كما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان قُدْرَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَدْءِ الخلقِ وإعادتِهِ، ولا أحدَ يستطيعُ بَدْءَ الخلق وإعادته أبدًا إِلَّا الله، وَالَّذِي قَالَ لإبراهيمَ ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]، جوابُهُ أَنَّ هَذَا يفعلُ السَّبَب، وَأَمَّا أن يُحْيِيَ فيجعل الحياة فِي ميِّت فلا يستطيع، أو يميت فيُخرِج النفس من البدنِ فلا يستطيع، ومع ذلك ما اقتنع؛ فعَدَلَ إبراهيمُ إِلَى أمرٍ لا يمكن أن يجادلَ فيه، ومن المعروفِ أن فِي باب المناظراتِ يُلجأ إِلَى الأظهرِ فالأظهر.

إِذَنْ: قوله تَعَالَى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ واضح أَنَّهَا مختصَّة باللهِ وَأَنَّهُ لا أحد يستطيعه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان أن الرزقَ منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإن قيل: أليس الله تَعَالَى يَقُول: ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النِّساء:٨]، ويقول تعَالَى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النِّساء:٥].

إِذَنْ نَقُول: كيف أنَّ الرزقَ منَ اللهِ ولا أحد يرزق إِلَّا الله؟!

قلنا: ربَّما نَقُول: إنَّ الرزقَ العامّ غير الخاصّ، لكِن حَتَّى الخاص لَيْسَ رزقًا مستقِلًّا، إِنَّمَا هُوَ بالسَّبَب، ولهَذَا الجواب الذي لا يَخْرُجُ عنه شيءٌ أنْ نَقُولَ: إن إضافةَ الرِّزق إلى المخلوقِ من بابِ إضافةِ الشَّيْءِ إلى سببِهِ، ولهذا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]، فيَكُون هنا إضافة الرزقِ إِلَى العبدِ من بابِ إضافةِ السَّببِ إِلَى مُسَبِّبِه.

فهَذِهِ المخلوقات نحن لا نرزقها، والَّذِي يرزقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٦٠]، فهل أنتَ الَّذِي يرزقُ الذرَّ والطيرَ والوحوشَ والسِّباع؟! أبدًا، ما يَرْزُقُها إِلَّا خالِقُها.

كذلك أيضًا أنتَ لا ترزق نفسَكَ، حَتَّى نفسك لا ترزقها، ولهَذَا تجد أَشْطَرَ النَّاس وأجودهم فِي البيعِ والشراءِ وأذكاهم وأشدَّهم مكرًا وحيلةً تجده أحيانًا من أفقرِ النَّاسِ، وتجد الْإِنْسَان الأبلَهَ الَّذِي لا يُحْسِن أيَّ شيءٍ يَكُون عنده أموالٌ عظيمةٌ، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُعطِي فضلَه مَن يشاء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الرزق منَ السَّماء بالمطرِ ومنَ الْأَرْضِ بالنباتِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أو السَّماء ما علَا من الأشجار، والْأَرْض ما نزل

من الزروعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لا يقدِر عَلَى ذلك إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تحدِّي المُناظِرِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لا بأسَ للإِنْسَانِ أنْ يَتَدرَّجَ مَعَ خَصْمِهِ، وأنْ يَتَحدَّاهُ بما يُقِرّ به، وهَذَا غاية الإنصافِ أن تقولَ لِخَصْمِك: هاتِ الدَّلِيلَ؛ لِأَنَّ هناك حالًا أُخرى ليست إنصافًا؛ وهي أن تقولَ لخصمك: لا أقبلُ منك أبدًا، فأنت إذا قلتَ للخصمِ: هاتِ الدَّلِيلَ إن كنت صادقًا فقد أنصفته وتحدَّيْته أيضًا، وحينئذٍ يَظهر عَجْزُه، لكِن لو قلتَ: لو أتيتَ بأيِّ دليلٍ ما قَبِلْتُ؛ فمعناه أنك جعلتَ العلوَّ له، والْآنَ هُوَ ينتصر عليك وأنت تَنْخذِل أمامَه، مَعَ أنك الْآنَ فِي هَذَا الوصفِ تكون مستكبِرًا.

لكِن لو فُرض أَنَّهُ ظهر عنادُ هَذَا الرجلِ وَأَنَّهُ إِنْسَانٌ يماري ولا يقصد الحقَّ، هل لك أن تقولَ: أنا لا أقبلُ منك، يعني مثلًا افرِض أنك استدللتَ عليه بآيَةٍ من الْقُرْآنِ أو بنصٍّ صريحٍ من السنَّة وصحيح، ثُمَّ جعل يُجادِلُك فِي هَذَا الأَمْرِ، لو قَالَ مثلًا: الربا حلال ومصلحة عظيمة يَنتعِش به الاقتصاد والنَّاس يتحرَّكون، فما الَّذِي يُحرِّمه؟ تقول له: حَرَّمَهُ قوله تَعَالَى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥].

قال: هَذَا الربا الَّذِي فِي الجاهليَّة؛ إذا حلَّ الأجلُ عَلَى الدَّين عَلَى الفقير وَهُوَ فقير قَالَ: نَزيد فِي الأَجَل ونزيد فِي الرِّبا، وَأَمَّا ربا البنوك ومَا أَشْبَهَ ذَٰلِكَ فَهَذَا برضا من الطرفينِ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ، وَهُوَ انتعاش للاقتصادِ ومصلحةٌ للبلادِ وتنميةٌ للمال، ومَا أَشْبَهَ ذَٰلِكَ.

فهَذَا يَصْلُحُ أن أقول له: لا أقبلُ منك مهما جئتَ به؛ لِأَنَّهُ مجادِلٌ لا يريد الحقَّ، فالشَّيْء الذي فِيهِ نصٌّ صريح واضح المجادلةُ فِيهِ غيرُ مقبولةٍ.

ولهَذَا لما قَالَ أبو سفيان فِي أُحُد: هل فيكم مُحَمَّدٌ، وفيكم ابنُ أبي قُحَافَة، هل فيكم ابنُ الخَطَّاب؟ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَا تُجِيبُوهُ»؛ إهانةً له، لكِن لَمَّا قَالَ: اعْلُ هُبَل، وصار يُجادِل بالباطلِ لِيُعْلِيَه عَلَى الحقّ وصار هَذَا فِيهِ تشبيهٌ -لِأَنَّ الشُّبْهَة قائمة فِي هَذَا المكان، فوجه قيام الشبهة أن الانتصارَ كَانَ لهم، فمَن سمِع هَذَا الكَلام قَالَ: صحيح هُبَل الْآنَ اعتلى- فكَانَ من المناسِبِ هنا أن تُزال هَذِهِ الشبهة فيقال: «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلّ»[1].

أَمَّا قوله الأوّل فرأى النَّبِيّ ﷺ أن مِنَ المصلحةِ أنْ يُهْجَرَ وأن لا يجاب، وأيضًا أجابه عمر لما قَالَ: «أَمَّا هَؤُلَاءِ فقد كُفِيتُمُوهُمْ»[2]؛ لِأَنَّهُ الْآنَ صارتِ الشُّبهة لِأَنَّهُم إذا لم يتكلموا وقد قَالَ: «أما هَؤُلَاءِ فقد كُفيتموهم»، فتقوم الشبهة أمامَ النَّاسِ ويَقُولُونَ: صحيحٌ، لو هم أحياء لأجابوا، فحينئذٍ صار الجوابُ له محَلّ، وَفِي الحقيقة ليست هَذِهِ المسألة شَبيهةً بمسألتنا، وكنتُ أظنُّ أَنَّهَا شَبيهة بها.

إِذَنْ: في الآيَة دليلٌ عَلَى أَنَّهُ فِي مقامِ المناظرةِ يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُطالِبَ الخَصْمَ بالدَّلِيل؛ لِأَنَّ فِي ذلك فائدتينِ:

الْفَائِدَة الأُولَى: إظهار العدلِ والإنصافِ: هاتِ دليلًا نَتَّبِعك، فهَذَا عدلٌ وإنصاف.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب السير، باب التعبئة، حديث رقم (٨٦٣٥)؛ وأحمد (٤/ ٢٩٣) (١٨٦١٦)، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَنْع استنصار الخصمِ؛ لِأَنَّ الخصمَ إذا ما طُلب منه الدَّليل وقلتَ: أبدًا لا نَقْبَل منك سواءً أتيتَ بدليلٍ أو لا لم تأتِ بدليلٍ، فحينئذٍ يَستنصِر ويقول: الْآنَ غلبتُه.

وأما المعانِد ففيه تفصيلٌ؛ فإذا كَانَ ذلك من إهانتِه وعدمِ تأثيرِ شُبهته، فالأَولى تركُ الردّ، وَأَمَّا إذا كَانَ ذلك سببًا لاستنصارِهِ أو سببًا لقوّة تشبيهه فيجب أن يُرَدَّ عليه، فلكلِّ مقام مقالٌ، وإذا عاند فإذا كَانَ لك قوّة فأَمْسَكْتَه بالحديد والنَّار، وإن لم يكنْ لك قوة فلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ.

ولْيُعْلَمْ أن المِراءَ الَّذِي هُوَ لمجرَّد المغالبة مَنْهِيٌّ عنه، وَأَمَّا الجدالُ فقد أمر الله به؛ فالجدالُ لإثباتِ الحقّ وإبطال الباطلِ مأمورٌ به وجوبًا أو استحبابًا حسَب الحالِ، فالمُرادُ المِراء الَّذِي هُوَ لمجرَّد المعاندةِ؛ لِأَنَّ بعض النَّاس الآنَ تجده فِي المجلِسِ يختلف مَعَ آخرَ فِي مسألةٍ من المسائلِ ليست مسألة دينيَّة يَجِب تحقيقها، بل مسألة عامَّة، وتجدهم يتعاندون: أنا أقول كذا وأنت تقول كذا، أنا عليَّ حق وأنت عليك حق، فهَذَا لَيْسَ له داعٍ؛ لِأَنَّ هَذَا لا يزيد الأَمْر إِلَّا شدَّةً، وربما يتحزَّب الحاضرون إِلَى حزبينِ، وربما يحدث فِي قلبِ أحدهما عَلَى الآخرِ حِقد وعداوة، فلهَذَا كَانَ من الأحسنِ تركُه.

وأما قوله فِي الحديث: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّة لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا»(١)، فليس المُرادُ حقًّا شرعيًّا، مثلًا: أنا أقول لك: فلان وصل إِلَى هَذا البلدِ، وأنت تقول: ما وصل، فالحَقّ مَعَ الصادقِ، هَذَا هُوَ المحِقّ، وَلَيْسَ المَعْنى الحَقّ الَّذِي هُوَ ضدّ الباطلِ الَّذِي هُوَ الشرعُ.

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، حديث رقم (٤٨٠٠) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ عندهم بُرهان؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لو كَانَ ثمّة برهان لم يكن للتحدي فائدة إطلاقًا، وبهَذَا نَنتقِل إِلَى آيَةٍ أخرى؛ وهي قوله تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، فقد أعلى بعضُ النَّاس صوتَه بِهَذِهِ الآيَة حينما قَالُوا: إن الْكُفَّار وصلوا إِلَى القمرِ، وقال: هَذِهِ الآيَة دليلٌ صريح صحيحٌ واضحٌ ظاهر عَلَى أَنَّهُ يمكن الوصول إِلَى القمر؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ والسلطانُ: العلمُ، هَكَذَا قال.

فيقال له: يا غبيُّ، مَن قَالَ لكَ: إن السلطانَ العلمُ، فالسلطان ما به السُّلْطَة، وَهُوَ فِي كُلّ موضعٍ بحِسَبِهِ، فإذا كنتَ تجادل فِي مسألةٍ علميةٍ فالسلطان العلم، وإذا كنت تريد أن تقطع يد لِصٍّ فالسلطان القدرة عَلَى تنفيذِ قطعِ يدِه وَلَيْسَ العلم، وإذا كنتَ تريد أن تصعدَ مكانًا مرتفعًا فالسلطان الْقُوَّة، فالسلطان فِي كُلّ مكان هُوَ عبارة عن السلطة عَلَى الشَّيْءِ. فالآن قوله تَعَالَى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، ما معنى السلطان؟ الْقُوَّة والقدرة، ولِهَذَا قَالَ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥]، فهل هَؤُلَاءِ أُرسل عليهم شُواظٌ من نار ونُحاس؟! والآيَة ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جميعًا، فهل هَؤُلَاءِ نفذوا من أقطار السَّمَاوَات والْأَرْض؟! هَبْ أَنَّهُم نفذوا من أقطار الْأَرْض لكِن ما نفذوا من أقطار السَّمَاوَات.

ثُمَّ إِنَّ الآيَة لو كانتْ دالَّة عَلَى ذلك لكان هَذَا التحدي لا معنى له إذا كانوا يستطيعون، لماذا يقال: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، فالشَّيْءُ المستطاعُ ما يُعْرَض بِمَعْرِض التحدِّي.

ثُمَّ إن الآيَةَ مَسُوقةٌ بين ابتداءِ الخلقِ ثُمَّ الموت ثُمَّ المَوْقِف ثُمَّ الجزاء، وهَذَا يقال لهم فِي الموقف، ذَكَرَ الله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤]، ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن:٣٣]، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧]، إِلَى آخره، فذكر جزاء الظالمين وجزاء المُؤْمِنِينَ.

فالحاصل: إنَّ التحديَ فِي مَقام الإمكانِ غير مقبولٍ، ولا يمكن أن يقعَ فِي كلامِ الله ولا فِي كلامِ أيِّ واحدٍ مِنَ البَشَرِ، كيف تتحدى بما يُستطاع؟!

• • ❁ • •

الآيــة (٦٥)

• • ෴ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

• • ෴ • •

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة]، الَّتِي فِي السَّماوَات [والنَّاسِ]، الَّذِينَ فِي الْأَرْض، وكذلك الجن ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ مَفْعُول (يَعْلَم)، و(مَن) فاعل (يَعْلَم)، و(الغيبَ) مَفْعُول، [أي: ما غاب عنهم]، فيَكُون الغيب عَلَى تقدير الْمُفَسِّر مصدرًا بمعنى اسْم الفاعلِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: [أي ما غاب]، و(غابَ) فِعل ماضٍ له فاعلٌ. والمصدر يأتي بمعنى اسمِ الفاعلِ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ بمعنى عادل، وله أمثلة، كما أن المصدر يأتي بمعنى اسمِ الْمَفْعُول كثيرًا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ لكِن ﴿ٱللَّهُ﴾ يَعْلَمُه]، جعل (إلا) بمعنى (لكِن) فيَكُون الاستثناءُ منقطِعًا عَلَى رأيِه.

ثُمَّ قدَّر الْمُفَسِّر (يَعْلَمُه) ليَكُونَ إعرابُ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأً و(يعلمه) خبره، وهَذِهِ الآيَة تحتاج إِلَى مناقشةٍ:

أولًا: لماذا عَدَلَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستثناءِ المتَّصل إِلَى الاستثناء المنقطِع؟

لِأَنَّهُ يَرَى أن الله تَعَالَى لا مكانَ له، فقوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هَذِهِ متعلقة بمحذوف تقديره: (استقرّ)، كما هُوَ معروف أن صلة الموصول تُقدَّر

بـ (استقرّ) أو (كَانَ) أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. فيقول المُفَسِّر: إذا قلتَ: مَنِ استقرَّ فِي السَّماوَات أو مَن كَانَ فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله؛ لَزِمَ أن يَكُون الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيَكُون له مكان، وهَذَا عِنْدَهم ممْتَنِع، أي: عند المُفَسِّر ومن كَانَ عَلَى عَقِيدَتِهِ، هَذِهِ واحدةٌ.

ثانيًا: نَقُول له: إذا كَانَ الاستثناءُ مُنْقَطِعًا، فالمعروف أن الاستثناءَ المنقطِع إذا سُبِقَ بتامٍّ منفيٍّ يَجِب فِيهِ النصبُ، كما قَالَ ابن مالك فِي الألفيَّةِ[1]:

...وَانْصِبْ مَا انْقَطَعْ وَعَنْ تَمِيمٍ فِيهِ إِبْدَالٌ وَقَعْ

فالمشهورُ عندَ العرب أَنَّهُ إذا كَانَ الاستثناءُ منقطعًا وجبَ فِيهِ النصبُ، وهنا لَيْسَ منصوبًا، فقال: نحن نجعلُ الجملةَ لا دخلَ لها بالاستثناءِ، ونجعل ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر محذوف؛ لأجل أن لا نخالفَ المشهورَ من كلامِ العربِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآن بلسانِ قريشٍ وَلَيْسَ بلسانِ بني تميمٍ.

بعض العُلَماء يَقُول: نحن نتخلَّص ممّا فرّ منه المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ عدمِ إثباتنا المكان لله بأن نَقُول: لا يعلم مَن يُذْكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلَّا الله، لا نَقُول: ما استقرّ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى مذكور فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْضِ، وحينَئِذٍ يزول الإشكال الَّذِي من أجلِه قَطَعَ المُفَسِّر الاستثناءَ.

والخلاصة: أن الاستثناء هنا متَّصل، وأن الله تَعَالَى له مكان، وأن مكانه فِي السَّمَاء، وقد سأل النَّبِيّ ﷺ الجارية فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟» فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ[2]،

---

(١) ألفية ابن مالك - الاستثناء (ص:٣١).

(٢) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كَانَ من إباحة، حديث رقم (٥٣٧)، عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأشار النَّبيّ ﷺ إِلَى السَّماء حينما أشهدَ ربَّه عَلَى إقرار أُمَّتِهِ بإبلاغ رسالتِه، فقال وَهُوَ يخطب فِي عرَفَة: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى السَّماءِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»(١).

فهَذَا دليل عَلَى أن الله فِي السَّماء، ويَكُون الاستثناء فِي قولِه: ﴿مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ متصلًا، ويَكُون ﴿اللَّهُ﴾ بدلًا من (مَنْ) كما إذا قلتَ: ما قام القوم إِلَّا زيدٌ، فإن الاتباعَ أَولى هنا، وإن كَانَ يجوز النصبُ، فعليه نَقُول: الاستثناء متصل وَلَيْسَ فِيهِ إشكال عَلَى عقيدةِ أهل السنَّة والجماعة، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ ولا إشكال فيه.

ومثل هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣]، يعني فِي مجموعها، وإن كَانَ هُوَ فِي السماءِ؛ لأنّ قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ظرف لمجموع الاثنينِ، فَهُوَ يقين أَنَّهُ لا يخرج عنْ الِاثنينِ، لَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي واحدٍ منهما، بدليلِ العقلِ والنقلِ، كما تقول: فلان أميرٌ فِي مكَّة والمَدينَةِ، وإن كَانَ فِي واحدةٍ منهما، فالمَعْنى أن إمارتَه ثابتةٌ فِي مجموعِهما، وَلَيْسَ المَعْنى أَنَّهُ فِي كلا المكانينِ فِي هَذَا وَفِي هَذَا، فلا يُمْكِن أن يَكُون فِي المَدينَةِ وَفِي مكَّة، بالنِّسْبَةِ لهَذَا الأميرِ، فهنا الألوهية ثابتةٌ فِي السَّماوَات وَفِي الْأَرْض، وإن كَانَ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّماءِ، بل فوق السَّماء، وَلَيْسَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا فِي السَّماء السابعةِ، فهُوَ فوقَها عَلَى العَرْش، وبينَ العَرْش وبينَ السَّماءِ مسافات اللهُ أَعْلَمُ بها، فالمَعْنى (في السَّماء) أي فِي هَذِهِ الجهةِ، مثل قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦]، أي فِي جهتينِ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم (١٦٦٥)، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ومسلم، كتاب الحج، باب حجة النَّبِيّ ﷺ، حديث رقم (١٢١٨)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أمّا قول بعض العُلَماء: إن نور القمرِ يَنعكِس أيضًا عَلَى السَّماوَات ويَكُون له نور من جهةِ الْأَرْض ونور من جهة السَّماء فليس بصحيحٍ، بل المَعْنى (فيهنَّ) أي: فِي جهتينِ، وإن كَانَ القمر فِي الحقيقةِ ما تخلل السَّماء الدُّنْيا حَتَّى كَانَ فِي جهة السَّماء الثَّانِيَة والثَّالثة والرَّابعة، لكِن الجهة بينهن واحدة.

وقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يَعْنِي: مَن فِي السَّماوَات والْأَرْض لا يَعْلَمُون الغيبَ إِلَّا الله، وأين الله؟

في السَّماوَات، أي فِي جهتها، والسَّماء: العُلُوُّ، أو نَقُول: (في) بمعنى (عَلَى)؛ أي عَلَى السَّماء.

يَبقَى عندنا عَلَى رأيِ مَن يقولُ: إنَّهُ لا يجوز للمسلمِ أنْ يعتقدَ أنَّ الله فِي السَّماء؛ لِأَنَّ الله لَيْسَ له مكانٌ، عَلَى زعمهم، كيف نُخرِّج الآيَة؟

نخرِّج الآيَة عَلَى ثلاثة أوجهٍ: إمَّا أن نجعل ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلقًا بفعل مناسبٍ، ويَكُون التَّقْدير: (مَن يُذكَر فِي السَّماوَات والْأَرْض الغيبَ إِلا الله) وَعَلَى هَذَا يَكُون الاستثناء متَّصِلًا، وَهُوَ مرفوعٌ عَلَى البدليَّة، ولا إشكال فيه، يعني لا إشكال فِيهِ من حَيْثُ الإعرابُ، لكِن من حَيْثُ المَعْنى غير مُسَلَّمٍ، هَذَا وجهٌ.

الوجه الثاني: يَقُولُونَ: نجعل الاستثناء منقطعًا، ويَكُون الرفعُ هنا عَلَى لغةِ بني تَميمٍ الَّذِينَ يجوِّزون الإبدالَ ولو كَانَ الاستثناء مُنقطِعًا.

الوجه الثَّالث: أن نجعل الاستثناءَ منقطعًا، ولكِنه لَيْسَ تابعًا لما سبق؛ بل هُوَ مبتدأ وخبره محذوفٌ، وَهُوَ الَّذِي مشَى عليه المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: [لَكِن الله يَعلَمه].

وهَذِهِ التفسيراتُ والتَّقْديراتُ ممَّا حذَّر مِنْهَا النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ قَالَ:

«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[(١)]، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَقَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَصَابَ»[(٢)]، فالذي يُفسِّر الْقُرْآن عَلَى حَسَبِ عَقيدتِهِ، هَذَا الحقيقة أَنَّهُ جانٍ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومتقوِّل عَلَى اللهِ بلا علمٍ؛ لِأَنَّ الواجبَ أن تفسِّر الْقُرْآن بما دلَّ عليه، ثُمَّ تجعل عقيدتك تابعةً له.

وهَذَا يَقُول العُلَماء: استدلَّ ثُمَّ اعتقِدْ، ولا تَعْتَقِدْ ثُمَّ تَسْتَدِلّ؛ لِأَنَّ الإِنْسَان الَّذِي يَعتقِد أَوَّلًا ثُمَّ يستدلّ الغالب عليه أَنَّهُ يُخضِع الأدلَّة إِلَى مُعْتَقَدِهِ، كما هُوَ معروفٌ الْآنَ تَجِدون هَذَا فيما يَتكَلَّم النَّاس فِيهِ فِي العقائد، وتجدونه أيضًا حَتَّى فيما يتكلمون فِيهِ فِي الأحكام، فإن مَن يَنتمي إِلَى مَذْهَب إذا جاءت النصوصُ الدالَّة عَلَى خلاف مَذْهَبِه تجده يَسْلُك فيها أحدَ مسلكينِ: إمَّا إبطالها إن أمكنه، فيقول: هَذَا ضعيف ومردود وَلَيْسَ بمقبولٍ، وإن لم يمكنْه الإبطال سعَى بالتحريفِ لأجلِ أن تطابقَ مذهبَه، وهَذِهِ عِلَّةٌ قَلَّ مَن يَسْلَم مِنْهَا إِلَّا مَن شاء الله؛ وَهُوَ أن يجعل عقيدته وحُكْمه تابعًا للدليلِ، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلِّ مسلمٍ أن يُجْعَلَ تابعًا للدليل؛ لأجلِ أن يَكُونَ تابعًا، والنصوص تكون متبوعةً، أَمَّا أن يعتقد أولًا -سواء كَانَ هَذَا الاعتقاد فيما يتعلق بالعقائد والأُمُور الخبريَّة، أو مما يَتعلَّق بالأحكام العَمَليَّة- ثُمَّ بَعْد ذلك يحاول أن يحرِّفَ النصوص إليها فهَذَا غير مسلَّم ولا يجوز للمرء.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى، كتاب كتابة القرآن، باب من قال في القرآن بغير علم، حديث رقم (٨٠٨٥)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥١)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم، حديث رقم (٣٦٥٢)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه، حديث رقم (٢٩٥٢)، عن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ماذا يُجاب عمَّن قَالَ: إن الإِيمانَ أَوَّلُ مَرَاتِبِه الحَيْرة والشكّ ثُمَّ الاستدلال، إِلَى آخره؟

نُجِيبُه بأن هَذَا لا دليلَ عليه؛ فإن النَّبِيّ ﷺ دعا النَّاس وهم لَيْسَ عندهم شكٌّ ولا حَيرة، بل جُحُود وإنكار، ثُمَّ انتقلوا منَ الجحود والإنكار إِلَى الإقرار والاعترافِ.

ونَقُول أيضًا: هَذَا الكَلامُ الَّذِي لا دليلَ عليه، هُوَ باطلٌ أيضًا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا شكَّ فقد لا يَتخَلَّص من هَذَا الشكِّ، والله تَعَالَى ما دعا عبادَهُ إِلَى الشكِّ والحَيرة؛ بل دعاهم إِلَى الإِيمانِ بعدَ الكفرِ مباشرةً.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن أَوَّل مراتبِ الإِيمانِ الحَيرة يَستدِلّون بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧]، ففي أَوَّل أمرِه قَالَ: هَذَا ربي، وهَذَا ربي؟

الجواب: قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ قالَهُ لإقامةِ الحُجَّة، وتَقَدَّم هَذَا كثيرًا، وذكرنا هَذَا المثالَ؛ وهو إلزامُ الخَصْمِ بما يَعْتَرِف به، فالمَعْنى أنتم تَعْبُدُونَ هذه الكواكبَ والشَّمْسَ والقمرَ، فهَذَا ربِّي، فمثلًا: إذا جَلَسْتَ مَعَ أُناسٍ جِلْسَةَ المُقْنِعِ، وكلٌّ منهم يَقُول: هَذَا ربِّي، وهنا ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾، ثُمَّ تَنَقَّلَ بهم. ولهَذَا قَالَ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، ولم يقل: وتلك أدِلَّتنا أَقْرَرْنا بها إبراهيمَ، فإبراهيمُ ﷺ ما كَانَ فِي قلبِه أدنى شكٍّ فِي هَذَا الأَمْرِ وأنها آلهةٌ باطلةٌ، لكِن لأجلِ إقامةِ الحُجَّة عَلَى هَؤُلَاءِ.

وأَمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن إبراهيمَ: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]،

وحديث: «نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»[1]، فنَقُول: هل إبراهيم ﷺ شكَّ؟ إبراهيم ﷺ ما شكَّ، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فَهم البعض لكانَ يَقتضي أن إبراهيمَ قد شكَّ، ونحنُ أَولى بالشكِّ منه، ولكِن معنى هَذَا نَفْيُ شكِّ إبراهيمَ، والمَعْنى لو كَانَ إبراهيم ﷺ محَلًّا للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به، ونحن لم نشكَّ؛ لِأَنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْلَم علمَ الْيَقِينِ بأن الله قادرٌ عَلَى إحياء الموتى، وكذلك الصحابة، فلم يقل للصحابةِ: هل أنتم تَشُكُّون؟

إِذَنْ: لو كَانَ هناك شكّ لكِنَّا نحنُ أَولى به منه، فإبراهيم والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأصحابه ما شَكُّوا، ولكِن المَعْنى أنكم الْآنَ تعلمون ما فِي أنفسكم من الْيَقِينِ، فإن إبراهيم كذلك يعلمُ، ولو كَانَ فِي الأَمْرِ مكانٌ للشكِّ لكِنَّا نحن أولى به من إبراهيم، ولو أَجرينا الحديثَ عَلَى فهم السائلِ لكان يَقتضي أن إبراهيم قد شكَّ ونحن أَولى بالشكِّ منه.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي كفار مَكَّة كغيرهم ﴿أَيَّانَ﴾ وقت ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، يعني ما يشعرُ أحدٌ متى يُبعَث النَّاس؛ لِأَنَّ علم الساعة إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا أحدَ يشعر متى تكونُ الساعةُ، حَتَّى لو جاءتْ علاماتها وأشراطها فإنَّنا لا نستطيعُ أن نُحَدِّدها بالتعيينِ ونَقُول: بقِي عليها كذا سنةً، كذا شهرًا، ولو مَعَ وجودِ الأشراطِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

وقول المُفَسِّر: [وقتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾]، فِيهِ إشكالٌ من جهةِ النحوِ، والإشكالُ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، حديث رقم (٣١٩٢)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة، حديث رقم (١٥١) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هُوَ أنَّ ﴿أَيَّانَ﴾ هَذِهِ ظرفٌ لَكِنَّها اسْتِفْهامِيَّة، و(وقت) ظَرف مجرَّدة منْ الاسْتِفْهامِ، ولهَذَا تفسيـر (أيَّان) بـ(وقت) قُصورٌ، ولو قَالَ المُفَسِّـر: (متى يُبعثون)، لكان هُوَ المناسِـب؛ لِأَنَّ (أيَّان) ظرف وهي متضمِّنة للاسْتِفْهامِ معلّقة للفعلِ عن العَمَلِ؛ الفِعْل: ﴿يَشْعُرُونَ﴾، فالجملة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ فِي محل نصب لـ(يشعرون)، ولو كَانَ التَّقْدير: وقت يبعثون؛ لم يكن فِي الجملةِ تعليقٌ.

فإِذَنِ: المُفَسِّر بتقديرِهِ: [وقت] ضيَّع علينا مسألتينِ:

المسألة الأولى: ما تَضَمَّنَتْهُ ﴿أَيَّانَ﴾ منْ الِاسْتِفْهامِ.

والمسألة الثَّانِيَة: كون الجملة هنا فِي مَحَلِّ نصبٍ؛ لِأَنَّهَا معلّقة بـ﴿أَيَّانَ﴾، وَعَلَى تقديره تكون ﴿أَيَّانَ﴾ نفسها هِيَ المَفْعُول، هَذَا ما ينبغي التنبُّه له؛ لِأَنَّهُ ينبغي أن يَكُون التفسيرُ اللفظيُّ خاصَّةً مطابقًا للمفسَّر فِي كُلِّ الأحوالِ.

مسألة: مَنِ ادَّعى أَنَّهُ يعلم متى يُبعَث؛ فما الحكمُ؟

هو كافر، فالَّذِي يَقُول: إن القيامة ستكونُ فِي سنةِ ألفٍ وأربعِمائةٍ وأربعَ عَشْرَة، ونشـرَ هَذَا فِي صحف لبنانَ عن كاهن، استنتج أَنَّهَا تكون فِي ألف وأربعمائة وأربعَ عَشْرَةَ، يعني ما بَقِيَ إِلَّا اثنتا عَشْرَة سَنَةً، فهَذَا الَّذِي يصدِّقه أو يشكّ فِي خبره، حَتَّى ولو لم يصدِّق بخبره بل يَكُون عنده تردُّد، يُعتبَر كافرًا؛ لِأَنَّهُ يَجِب الجزمُ بتكذيبِ هؤُلَاءِ، فيجب أنْ نَجزِم بأن هؤُلَاءِ كاذبونَ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن أن يعلمَ أحدٌ متى تقوم الساعةُ إِلَّا الله.

والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلمُ البشرِ، وجِبريل أعلمُ الملائكةِ، لَمَّا سألَهُ قَالَ: «**مَا المَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[1]، فلا أحد يدري متى تقومُ الساعةُ إِلَّا اللهُ.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النَّبِيّ ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم

وهَذِهِ الأشراطُ أيضًا علامة عَلَى قُرْبها، لكِن القُرْب نِسبيّ، لا تظنَّ أن القربَ ثلاثونَ سنةً، أربعونَ سنةً، مائةُ سنةً، حَدَّثَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أصحابَه يومًا منَ الأيامِ والشَّمْسُ عَلَى رؤوسِ النخلِ فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا»[(١)].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن توجيهَ الخطابِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يَقُولَ قولًا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهَذَا القَوْلِ؛ لِأَنَّهُ عبارة عن رسالة خاصة.

والْقُرْآن كلُّه الرَّسُولُ مأمورٌ أن يقوله للناسِ، لكِن إذا خصَّ بعض الآياتِ بكلمةِ: (قُلْ) فهذا يَدُلّ عَلَى عنايةِ اللهِ تَعَالَى بهَذَا الأَمْرِ، حَيْثُ أوصاه بتبليغِهِ وَصِيَّةً خاصَّةً.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا يعلم أحدٌ الغيبَ إِلَّا اللهُ، فالَّذِي فِي المستقبَل لا يعلمه أحدٌ إِلَّا الله بكلِّ حالٍ، والحاضر أو الماضي قد يُعْلَم، ودعوَى عِلْمِه ليستْ من علمِ الغيبِ. وَعَلَى هَذَا فالَّذِينَ يُخبِّرُونَ ويُخْبِرُونَ عمَّا جَرَى عَلَى العبدِ فهَؤُلَاءِ ليسوا ممن يَدَّعُون علمَ الغيبِ؛ لِأَنَّهُ إمَّا ماضٍ أو حاضرٌ وَهُوَ معلومٌ، لكِن قد يَكُون غائبًا عن البشرِ شاهدًا للجنِّ؛ لِأَنَّ الجن يعلمون الشَّيْء البعيدَ ويخبرون مَن يصحبهم من الإنسِ.

الساعة، حديث رقم (٥٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى...، حديث رقم (٨)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النَّبِيّ ﷺ أصحابه بما هُوَ كائن إلى يوم القيامة، حديث رقم (٢١٩١)؛ وأحمد (٣/ ٦١) (١١٦٠٤)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَلَى هَذَا فما نُحَدَّث به عن بعضِ النَّاسِ أَنَّهُ إذا جاءهم المريضُ قَالُوا: أنت أصابك كذا وأصابك كذا وأصابك كذا، ويَكُون الأَمْر كما أخبرَ؛ هَذَا لَيْسَ من دعوى الغيبِ، فتصديقه لَيْسَ كفرًا باللهِ. لكِن يَبْقَى النظرُ فِي حالِ هَذَا الرجلِ؛ هل هُوَ مستقيمٌ فإنَّنا حينئذٍ نَرْكَن إليه ولا حرجَ علينا إذا ذهبنا إليه، أَمَّا إذا كَانَ غير مستقيمٍ بحيث إن الجنَّ لا تَخْدُمُهُ إِلَّا بشركٍ وكفرٍ فَإِنَّهُ لا يجوز لنا أن نذهبَ إليه؛ لما فِي ذلك من الإعانةِ عَلَى الكفرِ.

وقد ذكر شيخ الإِسْلام أنّ الجنّ يخدمون الإنسَ لمصالحهم؛ لمصالح الجنّ، فإذا كانوا كفارًا فإنهم قد يخدمونهم إذا أشركَ الإنسيُّ بالله، وقد تَعْشَقُ امرأةٌ من الجنِّ رجلًا من الإنس وتقول له: أنا أَخْدُمك بشرطِ أنْ يَفْعَلَ بها، أو كذلك رجلٌ من الجنّ يَعشَق امرأةً من الإنس، فيحصل الأَمْر كذلك، فيَكُون الأول شركًا؛ الَّذِي أشرك بالله، والثاني فسوقٌ وزنا، وقد يخدمه لمجرَّد محبَّته له بدون أيّ سبب؛ فهَذَا لا بأسَ به، وقد يخدمه لله؛ يرى أَنَّهُ عابدٌ وتقيٌّ أو عالم ينفع النَّاس بعلمه فيخدمه لهَذَا السَّبَب، فما دام أن خِدمة الجنّ للإنس تَتَنَوَّع فإن حكم استخدامِ الإنسِ للجنّ يَكُون بحسَب هَذَا التنوّع، ولا يُقَال: إنَّهُ حرام مطلقًا ولا يُقَال: إنَّهُ جائز مطلقًا، بل عَلَى حَسَبِ الحالِ[1].

وقد بَلَغَنَا أن أحد أهلِ العلمِ كَانَ يُسمَع فِي حَلْقته حركاتٌ بغير مشاهَدةٍ، ويَقُولُونَ: إن الجنّ يحضُرون العلمَ عنده وَإِنَّهُ أحيانًا يَسمعون كلامًا وسؤالًا بدون أن يعلموا بقائِلِه، فهَذَا متواترٌ عندنا.

وهَذَا لَيْسَ ببعيدٍ إذا كَانَ الرَّسُول ﷺ حَضَرَه ناس من الجنّ وحضروا الْقُرْآن

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣٠٧).

وتأدَّبوا، فلمَّـا حَضَـروه قَالُوا: أَنصِـتوا ﴿فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، وأيضًا لمّا سمِعوا الْقُرْآن قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، فورَثَـة الأَنْبياء مِن أهـلِ العلمِ يمكـن أنْ يحضُـرَهُمْ أناسٌ من الجنّ يَنتفعون بعلمهم، وَلَيْـسَ هَذَا ببعيدٍ، والغالب أن الجنّ لا يُرَى، فالجنّ مثل الملائكةِ، الأَصْل أَنَّهُم عالم غيبيّ، لكِن قد يُرَوْنَ.

فإِذَنْ نَقُول: ما كَانَ قد حـدثَ من قبلُ أو هُوَ الْآنَ موجودٌ فليـسَ من علم الغيبِ، فمَنِ ادَّعى معرفتَه لم يكنْ مكذِّبًا لله ورسولِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وَفِي قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إشارة إِلَى أن الله تَعَالَى فِي السَّماوَات، فيفيد أن الله فِي العُلُوّ، وقد خرَّج العُلَماء ذلك عَلَى أن ﴿فِى﴾ بمعنى (على) أو أن المُراد بالسَّماوَات الجهاتُ العليا؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى فوقَ العَرْش وَلَيْسَ عَلَى نفسِ السَّماء.

• • ۞ • •

الآية (٦٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [النمل:٦٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن هَؤُلَاءِ المكذِّبين بيوم القيامةِ عَلَى مراتبَ.

وقد رأيتُ كلامًا للزَّمخشَرِيِّ جيِّدًا في هَذِهِ الآيَاتِ[1]، ففي قوله: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ ذكر أن المَعْنى أَنَّهُ بلغ عِلمهم بالآخِرَةِ غايته وأُعلموا بها ولم يَنتفعوا، وذكر أن ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾ من (الدَّرَك) وَهُوَ الهلاك، يعني أَنَّهُ ضَعُفَ عِلْمُهم فِي الآخِرَةِ، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾، ثُمَّ انتقل فقال: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾.

فيكُون بالإضافة إِلَى قوله: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ المراتب أربعة: أولًا: نفي الشعور، ثُمَّ ضعف العلم، ثُمَّ الشك، ثُمَّ العمى.

فتكون هَذِهِ الآيَة فيها إضرابات؛ انتقال من الأدنى إِلَى الأعلى، فَإِنَّهُ يَقُول: ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ انتقالات، فالأوَّل: نَفْيُ الشعورِ، والثاني: ضعف

---

(١) انظر الكشاف (٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

العلمِ، والثَّالثُ: الشكُّ، والرَّابع: العَمَى، يعني عَمَى القلب، والرَّابع أعلاها، يعني لَيْسَ عِنده عِلْم أبدًا، وأيضًا قد يَكُونُ عِنده علمٌ لَكِنَّهُ تَرَكَهُ وتَغَافَلَ عنه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الْإِنْسَان الَّذِي لا يريد الحَقّ يَكُون له باعتبارِ قبولِه مَرَاتِب بعضها أشدُّ من بعضٍ، أي أَنَّهُ ينتقل من الأدنى إِلَى الأعلى، ولِهَذَا قَالَ أهل العلم: إن المَعاصِيَ بَريد الكفرِ، ومعنى بريد الكفر أَنَّهُ يَنتقل بها الْإِنْسَان من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ كما ينتقل البَريد، والبريد هو الساعي بالمكاتِيبِ إِلَى بلادٍ أُخرى، وكانوا فِي الزمن الأول يجعلون الرُّسُلَ بالكتبِ عَلَى مراحلَ، كُلّ بريدٍ فِيهِ مَنْطِقَة، إذا وصل إليها وقفَ وأعطاه الثانيَ، ثُمَّ يسعى الثاني من هَذَا البريدِ رقْم واحد إِلَى البريد رقْم اثنينِ ثُمَّ يقف، ثُمَّ يأخذها من رقم اثنينِ إِلَى رقمِ ثلاثةٍ حَتَّى يُنتهَى إِلَى البلدِ. يفعلون ذلك لِئَلَّا يَشُقَّ عليهم متابعة السير من البلد إِلَى البلد، وهَذَا يَكُون أسرع، ولذلك سُمِّي البريد بريدًا لِهَذَا السَّبَب؛ لِأَنَّهُم يجعلون فِي كُلّ مساحةٍ بريدًا منَ الْأَرْض، والبريد كما هُوَ معروف أربعةُ فَراسخَ، والفرسخُ ثلاثةُ أميالٍ، اضْرِب ثلاثةً فِي أربعةٍ باثني عَشَرَ، إذن البريد اثنا عشر ميلًا.

ولذلك كانوا قديمًا يستعملون فِي إيصال الخطاباتِ بسرعةٍ إمَّا البريد كما ذكرنا وَإِمَّا الحَمام، فيُرَبَّى حمامٌ يطير من محَلّ إِلَى محل ويعلَّق فِي عُنُقه أو فِي أرجلِه الرسائل، وطبعًا الرسائل ليست كبيـرةً، لكِن قد تكون مثلًا رموزًا وإشاراتٍ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ يعرِفها المكتوب إليه.

الشَّاهد: إن الْإِنْسَان إذا فعل معصيةً سواء اعتقاديَّة أو عملية فإن الشيطان يتدرَّج به من الأدنى إِلَى الأعلى حَتَّى يصل -والعياذُ بالله- إِلَى الكفرِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن أهل الإيمان باليومِ الآخرِ يزدادون بها بصيرة؛ لِأَنَّ عندهم

يقينًا وعلمًا وطمأنينةً بما أخبر الله به في كتابه وَعَلَى لسان رسوله، لكِن هَؤُلَاءِ بالعكس ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ و(مِن) هَذِهِ للابتداء، يَعْنِي: من أجلها صاروا عَمِين، أي: عَمِيَت بصائرهم. وسبب ذلك أَنَّهُم إذا كذَّبوا بها -والعياذ بالله- ازدادوا ضلالًا وظلمًا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥]، ولهَذَا قَالَ: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا﴾ ما قَالَ: عنها عَمُون، قال: ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من هَذِهِ الآخِرَة، فبسببِ أَنَّهُم أنكروها ازدادوا عمًى وضلالًا والعياذ بالله.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:٦٧].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تلبيس أهلِ الضَّلال للحقِّ بالباطلِ؛ لِأَنَّهُم أنكروا البعث واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنِيهم منَ الحَقِّ شَيئًا، حيث يَقُولُونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُخْرَج، فهَذِهِ الشبهة إِنَّمَا تنطلي عَلَى الجهّال، أَمَّا عَلَى أهل العلمِ والبصيرة فلا تَنْطَلِي. المهمّ أن نأخذَ من هَـذِهِ الآيَةِ أو من هَـذَا السلوكِ بَيَان أن أهل الباطل يُلَبِّسُون باطلهم بالشُّبُهات الَّتِي يُورِدُونها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إنكارُ هَؤُلَاءِ للبَعث؛ لِأَنَّ الهمزةَ فِي قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ للإنكار.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمُ احتجُّوا عَلَى تشبيههم هَذَا بأنهم وُعدوا هم وآباؤهم من قبلُ ولم يَرَوْا شيئًا. وهَذَا من التمويهِ وإلا فَهُمْ لم يُوعَدُوا أن يُبعثَ النَّاس اليومَ، بل وُعِدوا أنْ يُبعَثوا يوم القيامةِ؛ كما قَالَ الله تَعَالَى فِي آية أخرى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]، فنَقُول لهم فِي ردّ هَذِهِ الشبهة: ما قُلْنَا لكم: إنكم تُبعَثون اليومَ حَتَّى تقولوا: ائتوا بآبائنا، قُلْنَا:

إنكم تُبعَثون يومَ القيامةِ وستُبعَثون، لكِن أهل الباطل يلبِّسون ويشبِّهون عَلَى النَّاس بالشبهات لإقرار باطلهمْ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأكيدُ إنكارِهم؛ لِقَوْلِهم: ﴿أَبِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. يَعْنِي: أتؤكِّدون لنا ذلك والأَمْر بعيدٌ لا يمكِن.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٦٨)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨].

• ● ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مَن لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يَتبيَّن له، فالْإِنْسَان الَّذِي لا يريد الحَقَّ يُحْرَم منه فلا يَتبيَّن له؛ لِقَوْلِهِم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل:٦٨]، فجَعَلُوا أبينَ الأُمُورِ وأصحَّ الأُمُورِ وأوكدَ الأُمُورِ جعلوه أساطيرَ، والأساطيرُ كما هُوَ معروفٌ هِيَ عبارةٌ عن كلامٍ لا أصلَ له غالِبُها أكاذيبُ، فهَذَا القَوْلُ تقدَّم لنا فِي التفسيرِ أَنَّهُ إن كَانَ عن عقيدةٍ فقد لُبِّسَ عليهم الحقُّ، وإن كَانَ عن إنكارٍ فقد جَمَعوا بين التكذيبِ بالحق وبين عيبِ الحقّ، يعني جمعوا بين أمرينِ: أَنَّهُم كذبوا وعابوه، وَأَمَّا إذا كَانَ هَذَا عن عقيدةٍ بمعنى أَنَّهُم لا يرون أن هَذَا حقيقة وَأَنَّهُ أساطير فيكُون هنا قد لُبِّس عليهم الحَقّ بسبب أَنَّهُم لا يريدونه، ولَا شَكَّ أن من لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يوفَّق له ولا يُيَسَّر له.

وبِهَذَا نعرِف أَنَّهُ ينبغي لطالب العِلْم عندما يبحث عن مسألةٍ أَنْ يَبحثَ عنها؛ لأجلِ أن يصلَ إِلَى الحَقّ، لا لأجلِ أَنْ ينصرَ قولَه -ونسألُ الله العافية- بمعنى: افرِضْ أنك اختلفتَ أنت وزميلُك فِي مسألةٍ، وأردتَ أن تحقِّق ما قلتَ، فأنت عندما تُراجِع وتبحث لا تجعل رائدك أن تنتصرَ لنفسِكَ، فإنك ربما تُحرَم الوصولَ إِلَى الحَقِّ، لكِنِ

اجْعَلْ رائدكَ الوصول إِلَى الحقّ، عسى أن يَكُون معك فتَحْمَد الله تَعَالَى أن يَسَّرَ لك الوصول إليه، وأن جعل بَيَان الحَقّ عَلَى يَدِكَ، أو يَكُون مَعَ خَصْمِكَ فتَحْمَد الله تَعَالَى أَنَّ الله تَعَالَى يسَّر لكَ الرجوعَ عن الباطلِ، وهيَّأ لك الوصولَ إِلَى الحَقِّ، فأنت عَلَى كُلِّ تقديرٍ فِي نعمةٍ ولكِن لِيَكُنْ رائدك الحَقّ. وهَـذِهِ مسألة صعبةٌ جِدًّا عَلَى النفوسِ؛ أن يُراجِعَ الْإِنْسَان فِي مثلِ هَذِهِ الأُمُور لأجل الوصولِ إلى الحقّ، فإن كثيرًا من النَّاس يُراجِع لأجلِ أن ينصرَ قولَه.

افرِضْ أنك تعتقد أن قولك هُوَ الصَّوابُ مائةً فِي المِئَةِ وأنت تراجع لتنصرَ قولَك، فهل هَذَا ينافي النيَّة الصَّحيحة؟

نعم، نَقُولُ: إن كنت تريدُ أن تراجعَ لِتَنْصُرَ قولَكَ لِأَنَّهُ الْحَقّ فهَذَا لا ينافيه؛ لأنك إِنَّمَا تقصِد تقويةَ الحَقّ وإلزام الخَصْم به، وإن كنت تُراجِع بنيّة أن تنصرَ قولَكَ ولو كَانَ هُوَ الحَقَّ فالنيَّة فيها مدخولة.

فالحاصل: أن هَذِهِ مسألةٌ ينبغي للإِنْسَانِ أن يلاحظها، وَهُوَ أن مَن لا يريد الْحَقّ لا يوفَّق له، بل يَلْتَبِس عليه الأَمْرُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَه فِي أبينِ الأُمُورِ وأحقِّها، يَقُولُونَ: إنهَا أساطير الأوَّلين. وانظر إِلَى بَيَان السَّبَبِ فِي قوله تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، يَعْنِي: كلَّا لَيْسَ الْقُرْآن أساطيـرَ الأوَّلينَ، لكِن السَّبَب أَنَّهُم جعلوه أساطيرَ الأوَّلينَ أَنَّهُ ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فعَمُوا عنِ الحَقّ أو تعامَوْا عنه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا كَانَ قصدُه طلبَ الحَقّ وأحبَّ أن يَكُون هُوَ الحَقَّ، هل فِي هَذَا شَيْء؟

فالجواب: لَيْسَ فِيهِ شَيْء؛ لِأَنَّ الَّذِي يُحِبّ أن يصيرَ قوله هُوَ الحَقّ يحبّ ذلك لأجلِ أن يَكُونَ إظهار الحَقّ عَلَى يدِه، وإن كَانَ قصدُه أن يَكُون قولُه هُوَ الحَقّ لأجلِ المغالبةِ فالمسألة فيها دَخَل، وهَذَا مسائلُ النياتِ صَعْب جدًّا عَلَى الْإِنْسَان تَحقيقها، حَتَّى قَالَ بعض السلف: إني ما جاهدتُ نفسي عَلَى شيءٍ مُجاهدتها عَلَى الإخلاص، وهَذَا صحيحٌ.

فمِن أصعبِ الأُمُورِ الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ، وهَذَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا سأله أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ: **لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» لكِن شرط «**خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ**»[1] فهَذَا الشرطُ صعبٌ عَلَى كثيرٍ منَ النَّاسِ، وَلَيْسَ كُلّ مَن قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ فقد سَعِدَ بشفاعةِ الرَّسُولِ ﷺ، أو كَانَ أسعدَ النَّاس بها، بل لَا بُدَّ أن يَكُون خالصًا من قلبِه، وإذا كَانَ خالصًا فثِقْ أَنَّهُ سيَكُونُ مُطيعًا لله، وهَذَا الَّذِينَ يجادلون أحيانًا يَقُولُونَ: كيف تكفِّرون من ترك الصَّلَاة وَهُوَ يَقُول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ويؤمن بالله؟! نَقُول: نعم، لو قالها حقًّا ما تركَ الصَّلَاة، ونَجْزِم جزمًا أَنَّهُ لو كَانَ يعتقد ذلك حقًّا لطلبَ هَذَا الإله؛ لِأَنَّ معنى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أي: لا معبودَ بحقٍّ إِلَّا الله، فأين لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ من رجلٍ لا يعبدُ اللهَ بأعظم العباداتِ، ثُمَّ أيضًا لَيْسَ الإِيمان أنك تؤمنُ بأنَّ اللهَ موجودٌ، وأن هَذَا الكون مخلوقٌ، فهَذَا إيمان حَتَّى الْكُفَّار يؤمنون بهَذَا، فأيّ عاقل لو هُوَ أكفر النَّاس سيؤمن بأن الحوادثَ لَا بُدَّ لها من محدِثٍ، وَلَيْسَ هَذَا هُوَ الإِيمانَ، فالإيمان أن تؤمنَ باللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بكلِّ ما تَضَمَّنَهُ معنى هَذِهِ الكلمةِ، وقد سبقَ لنا شرحُ الإِيمانِ أَنَّهُ يتضمَّن أربعة أمور.

الحاصل: أن فِي هَذَا دليلًا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَان الَّذِي لا يريدُ الحَقّ لا يُوَفَّق له،

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث، حديث رقم (٩٩).

وَأَنَّهُ يُلبَّسُ عليه فيظنّ أن ما جاءت به الرُّسُل من الحقائقِ أساطيرُ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: الَّذِي يطلب الحَقّ هل يصل إليه؟

فالجواب: نعم، إذا سَلَكَ طُرُقه.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إذا وجدنا شخصًا ضالًّا هل نَجْزِم أَنَّهُ ما طلب الحق؟

فالجواب: لا، لَيْسَ عَلَى كُلّ حالٍ، قد يَكُون هناك أَشْيَاء مَنَعَتْ من هَذَا، عَلَى كُلّ حالٍ نحن نَقُول: إن هَذَا سببٌ، مَن عَمِل صالحًا دخل الجَنَّة، وقد لا يَكُون له ذلك.

فالمهم: أن هَـذِهِ الأَشْيَاء تُذكَـر عَلَى أَنَّهَا أَسْبابٌ، والله يَقُول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [القمر:١٧]، ويقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، لَمّا كَذَّبُوا بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَالَ الله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٨-٦٩]، لكِن الإِنْسَان قد يُحْرَم بأَسْبابٍ تكون خفيَّة عَلَى النَّاس، إِنَّمَـا مَن طَلَبَ الحَقّ بنيَّة وإخلاص فلا بدَّ أن يصل إليه، أَمَّا كون هَـذَا الرجل ما وصل إِلَى الحَقّ ثُمَّ نَقُول: ما طلبه، فلا ندري.

فلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ألا يُشْكِل عَلَى هَذَا قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»[1]، فَهُوَ اجتهدَ وطلبَ الحَقّ ولم يَصِلْ إِلَى الحَقِّ؟

فالجواب: أصل الاجتهادِ أَنَّ المجتهِدَ لَا بُدَّ أَنْ يَصِلَ إِلَى الحَقِّ، ولا بد أن يَتبَيَّن

---

(١) سبق تخريجه.

له الحقّ، إِلَّا أَنَّهُ قد يَكُون فِي هَذَا الاجتهادِ سببٌ منَ الأَسْبَابِ منعَ مِنَ الوصولِ إِلَى الحقِّ. وكلُّ مجتهدٍ معه آلةُ الاجتهادِ عَلَى ما يَنبغي.

ونعلم أن الْإِنْسَان المُجتهد إذا سلَك طُرُق الاجْتِهاد فلَا بُدَّ أن يصلَ، وإلا لبقيَ الحقّ أعمى، لكِن هَذَا المجتهد إذا بذل جهدَه فإنه يصل، وجهده قد لا يَكُون هُوَ السَّبَب الوحيدَ الَّذِي يُوصِل إِلَى الحقّ، يَقُول: هَذَا جَهدي وهَذِهِ طاقتي، لكِن قد يَكُون عنده نقصٌ فِي العلمِ أو نقصٌ فِي الفهمِ، وَأَمَّا نقص السبل فقد يراجع المسألة فِي كتابٍ أو كتابينِ بينما أن هناك كتبًا أخرى تفيده أكثر مما راجع، فيَكُون هَذَا نقصًا فِيهِ، فحينئذٍ يخالفه الصَّوابُ من أجل ذلك، فليس معنى أَنَّهُ اجتهد أَنَّهُ أراد الحَقَّ فقطْ، بل معناه أَنَّهُ بذلَ ما يستطيعُ مِن جهدٍ.

ولكِن هل بَذْلُ ما يستطيعه من جهدٍ هُوَ الطريقُ المؤدِّي إِلَى الحقِّ؟

الجواب: لا، ثُمَّ إِنَّهُ إنْ طلبَ الحقّ ومُنِعَ منه فَإِنَّهُ لا يعاقَب عليه، فالشَّيْء الَّذِي يغير اختياره لا يعاقب عليه، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

• • ❁ • •

الآية (٦٩)

• ● ൸ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

• ● ൸ ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان أهميَّة السير فِي الْأَرْض؛ ويُؤْخَذ من أمرِ اللهِ رسولَه أن يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاس.

وَقَدْ قُلْنَا: إن كُلّ حُكْم أو خَبَر يُصَدَّر بـ﴿قُلْ﴾ فَهُوَ دليلٌ عَلَى الاهتمامِ به، كَأَنَّ الله تَعَالَى جعل له عناية خاصّة بالوَصِيَّة بإبلاغِه، وإلّا فجميع الكتاب الرَّسُول ﷺ مأمورٌ بِتَبْلِيغِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٦٧]، لكِن كون هَذَا الأَمْر يُصَدَّرُ بـ﴿قُلْ﴾ إذن ففيه عناية خاصَّة بتبليغه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن السير فِي الْأَرْض ذو فائدة عظيمةٍ، ولهَذَا أُمِرَ بإبلاغه عَلَى سبيل الخصوص.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن السائرَ فِي الْأَرْض يَجِب عليه أن يَكُونَ سيره عَلَى سبيلِ التفكُّر والاتِّعاظ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ﴾ والأَمْرُ للوجوبِ، لا سِيّما إذا كَانَ هَذَا المُخَاطَب مُعَانِدًا؛ لِأَنَّ الآيَةَ هنا ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يخاطب المعاندين الجاحدين، فَإِنَّهُ يَجِب عليه أن يسيرَ وينظرَ؛ لِأَنَّ هَذَا طريقٌ إِلَى هدايتِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عاقبةَ المجرمينَ وَخيمة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ﴾، ﴿كَيۡفَ﴾ هَذِهِ للتعظيمِ، أي أن عاقبتهم عظيمةُ الوخامةِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن العِبرة بالعاقبةِ لا بالمبتدأِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ فإذا رأيتَ هَذَا المجرِمَ قد نُعِّمَ فلا تظنَّ أَنَّهُ عَلَى حقٍّ، بل المعتبَر العاقبة، وستكون عاقبتُه وخيمةً.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ أيضًا لا تَعْتَبِر الفرد فقط، فإنَّ مِنَ المجرمينَ مَن يبقى فِي تنعيمِه حَتَّى يموتَ، لكِن العِبرة بالكلِّ؛ ولهَذَا قَالَ: ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فإن المجرمينَ مهما كانوا لا يمكِن أن يستقرَّ لهم قرارٌ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: فِي الوقت الحاضرِ الْآنَ لا نَرَى أن المجرمين عُوقِبوا، بل إنَّهم مُنَعَّمُونَ غاية التنعُّم؟

فيقال: إن هَذِهِ الأُمَّة قد عهِد الله إِلَى نبيها ﷺ ألا يُعذِّبَهم بسَنَةٍ عامَّة[1]، ولكِنَّنا نَرَى فِي هَؤُلَاءِ المجرمين مِنْ جَعْلِ البأسِ بينهم وتفرُّقهم، وكذلك أيضًا عدم استقرارهم ما هُوَ عُقُوبة، فإن الَّذِي يَخْرُجُ إِلَى تلك الأُمَمِ يجد أَنَّهُم ليسوا مستقرِّين، حَتَّى إننا نَسمع أنَّ الْإِنْسَان ما يأمَنُ أن يجعلَ فِي جيبه دراهمَ، وَأَنَّهُ لو وُجِدَ فِي جيبه دراهم قُتِل، ولذلكَ لا يَتعامَلون هناكَ إِلَّا بالأوراقِ؛ أَوْرَاق التحويلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا بِاسمٍ خَاصٍّ نَسِيتُه؛ أوراقٌ يُكْتَب فيها أن هَذِهِ تُمَثِّل كذا دولار؛ لِأَنَّهُم لا يمكن أن يَتَعَامَلوا بالدراهمِ حتى لا يُقتل الْإِنْسَان.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٢٨٨٩)، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ.

وحدَّثني إِنْسَانٌ ذَهَبَ إِلَى أمريكا هَذَا العامَ يَقُول: إنك لا تَأْمَنُ أنْ تَضَعَ ثلاثمائةِ ريالٍ بمخباتك، وهَذَا أعظمُ ما يَكُون منَ العذابِ؛ لِأَنَّ الله يقولُ فِي عُقُوبة القريةِ الآمنةِ المطمئنَّة: ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، فهَبْ أن هَؤُلَاءِ لَيْسَ عندهم جوعٌ ولكِن عندهم خوفٌ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل:٧٠].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الداعيَ إِلَى اللهِ إذا بَذَلَ ما يَجِب عليه فلا يَنبغي أنْ يحزنَ لمخالفةِ النَّاسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، والحِكْمَةُ من ذلك: أنَّ حُزْنَ الإِنْسَان عَلَى مخالفةِ النَّاسِ يُعِيقُه عن الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ، ويَسْتَحْسِر من أجلهم؛ لِأَنَّهُ لا يمكن للنفسِ أنْ تمْتَدَّ وتسير وهي حزينةٌ، ولكِن أنتَ سِرْ عَلَى حَسَبِ ما أُمرتَ؛ إنِ اهتدى النَّاس فلكَ ولهم، وإنْ لم يهتدوا فلكَ وعليهم، ولهَذَا إذا حَزِنَ الْإِنْسَان فِي هَذِهِ الأُمُورِ فَإِنَّهُ ييأَسُ ويستحسر ولا يَنْشَرِح صدرُه ولا تنبسط نفسُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عناية الله تَعَالَى بالرَّسُول ﷺ بالتسلية والتفريج عنه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ وجه ذلك: أنَّ نَهْيَهُ عن أنْ يَكُونَ فِي ضيقٍ معناه أنَّ مكرَهُم لا يَضُرُّهُ، وإن ضاقتْ به نفسُه فإن ذلك لا يضرُّه؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُول: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ﴾ أي لا يُهِمّك أَمْرُهم ولا تَضِق منه، فإن لدينا ما هُوَ أعظمُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: هَذَا الأَمْرُ يَكُونُ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ولغيره؛ فكُلّ مَن يدعو إِلَى شريعةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فإنَّنا نُوَجِّه إليه هَذَا الخطابَ، ونَقُول: إذا

رأيتَ النَّاسَ لم يَقْبَلُوا فلا تَحْزَنْ ولا تكنْ فِي ضِيقٍ مِمَّا يمكرونَ، وإلَّا فإن أعداء الرُّسُلِ سوفَ يمكرون بالدعاةِ إِلَى دينِ الرُّسُلِ، وسوف يَبُثُّونَ ضِدَّهُمُ الدعاياتِ وسوف يُؤْذُونَهم بالقَوْل ويُسْمِعُونهم ما يَكْرَهُون، وربما يؤذونهم بالفِعْل، والْإِنْسَانُ عليه أن يَصْبِرَ.

والنَّبِيّ ﷺ جاء بأبين الأُمُورِ وأُوذِيَ فِي بيته وَفِي بدنه حاضرًا ومسافرًا، إِلَى حدّ أَنَّهُم يأتون بِسَلَى الجزور ويَضَعُونه عليه فِي المَسْجِد الحرامِ الَّذِي مَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا، يضعونه عليه وَهُوَ ساجدٌ لله، فهل يوجد أبلغ من هَذِهِ أذيَّة؟! يأتون بالقاذورات والعَذِرَات ويُلْقُونها عَلَى عَتَبَةِ بابِهِ(١)، مَعَ أَنَّهُم يُجِيرُونَ أفسقَ النَّاس وأفجرَ النَّاس إذا جاء إِلَى مكَّة، ولا يجيرون الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وعندما ذهب الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى الطائف لِيَدْعُوَهُمْ إِلَى الله سَخِرُوا به واسْتَهْزَؤُوا به واصطفُّوا صَفَّيْنِ منَ السفهاءِ والغِلمان وغَيرهم وجعلوا يَرْمُون النَّبِيَّ ﷺ بالحجارةِ حَتَّى أَدْمَوْا عَقِبَهُ، ولا أفاق إِلَّا وَهُوَ فِي قَرْنِ الثَّعَالِبِ، ومعَ ذلك صبرَ، وقد جاءه مَلَكُ الجبالِ يَسْتَأْذِنُهُ أن يُطْبِقَ عليهم الأَخْشَبَيْنِ فقال: «**بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ**»(٢).

إِذَنْ: إذا رأينا هَذَا نعلم أَنَّنا ما أصابنا هَذَا الأذى الَّذِي أصابَ الرَّسُولَ ﷺ إِلَى الْآنَ، ونسألُ اللهَ العافيةَ، ومعَ ذلك تجد الْإِنْسَان منّا يَتَضَجَّر عندما يسمعُ كلمةً

---

(١) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبِيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٤).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قَالَ: آمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، حديث رقم (٣٠٥٩)؛ صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النَّبِيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم (١٧٩٥).

ويقول مثلًا: أنا لستُ بملزومٍ، دَعنا نُداهِن النَّاس ونمشي مَعَ العالمِ.

وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، فأنتَ إذا كنتَ قويًّا فِي الحَقّ فالحَقُّ مَنصورٌ، ولا يَلْزَم أن يَكُون نَصْرُه فِي حياتِكَ وَعَلَى يَدِكَ، قد يتأَخَّر النصر لكِن تكون أنتَ فاتحةَ خيرٍ لدينِ اللهِ، ولذلك نصرُ الحَقّ لَيْسَ بلازمٍ أنْ يَكُونَ فِي حياةِ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ بلازمٍ أن يَكُونَ فِي عصرِهِ، الْآنَ نحن نَفْرَح بانتصارِ المُسلمينَ فِي بدرٍ، مَعَ أننا ما ذُقنا طعمَ هَذَا النصرِ مباشرةً، لكِن لِأَنَّهُ الحقّ انتصرَ، ونفرح بأن الله أنجى موسى وأهلَكَ فِرْعَوْنَ، مَعَ أننا لم نَطْعَم هَذَا النصرَ، ولكِنه نصرُ الحقِّ، فالمؤمنُ يفرح بانتصارِ الحَقّ ويرى أَنَّهُ انتصار له فِي أيّ زمانٍ وَفِي أيِّ مكانٍ، إذا كَانَ صادقًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك يَقُول الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لِأَنَّ العاقبة للمتَّقين، وعاقبة المُشْركينَ أسوأُ عاقبةٍ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧١)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل:٧١].

• ● ● •

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَفَهِ هَؤُلَاءِ حَيْثُ استعجلوا عذابَ اللهِ، وقَالُوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَان عُتُوِّهِم وطُغيانهم؛ لِأَنَّ هَذَا الاسْتِفْهامَ إن كَانَ عَلَى سبيلِ الاستبعادِ فَهُوَ سَفَه، وإن كَانَ عَلَى سبيلِ السخريَةِ من هَؤُلَاءِ وأنهم يَقُولُونَ: إِنَّ مَا تَعِدُونَنَا كَذِبٌ؛ بدليلِ أَنَّهُ لم يَقَعْ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ فَهُوَ دليلٌ أيضًا عَلَى عُتُوِّهِم وطُغيانهم، حَيْثُ تَحَدَّوُا الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ والسلامُ- بِهَذِهِ الكيفيَّة. والظَّاهِرُ أَنَّهُ من بابِ التحدِّي؛ يَدُلّ عليه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ومثل هَذِهِ العبارة تكون للتحدِّي.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٧٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧٢].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ البلاءَ موكلٌ بالمَنْطِقِ، وأن الْإِنْسَان إذا استعجلَ الشَّرَّ وقعَ فِيهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قَالَ ابن عباس- إذا جاءتْ فِي كلامِ اللهِ فهي للوجوبِ[1]؛ لِأَنَّ معناها التوقُّع، وأن هَذَا أمرٌ قد حانَ وَقْتُه؛ إذ إنَّ الترجِّيَ بالنِّسْبَةِ إِلَى اللهِ غيرُ مُمكِنٍ؛ لِأَنَّ الترجِّيَ طلبُ ما فِيهِ عُسْرٌ، ولا شَيْء عسير عَلَى الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: سَعَة حِلْمِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ (بعض) دون الجميع، وهَذَا من حِلْم اللهِ تَعَالَى عَلَى عِبَاده، فإنّ هَؤُلَاءِ المكذِّبين لِرُسُلِهِ المنابِذِينَ لهم المتحدِّينَ لهم يُقَال لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وَلَيْسَ هَذَا بأوّل دليلٍ عَلَى حِلْمِ اللهِ؛ بل له أمثلةٌ كثيـرةٌ فِي الْقُرْآنِ؛ مِنْهَا قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [البروج:١٠]، يُحْرِقون أولياءَهُ بالنَّار ويَعْرِض عليهم التوبةَ، فهَذَا من أعظمِ الحِلْمِ؛ لِأَنَّهُ لو رُدَّ الأَمْرُ إِلَى

---

(١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥).

مراعاةِ العدلِ لأحرقَ اللهُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أحرقوا أولياءَهُ، ولا يَعْرِض عليهم التوبةَ، ولكِنَّ حِلْمَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واسعٌ، ورَحْمته سَبَقَتْ غَضَبَهُ.

فهنا قَالَ: ﴿رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى﴾ لا كُلّ الَّذِي تَسْتَعْجِلون، ونَقُول: هَذَا فضلٌ، وباب الفضل أبلغُ فِي الكمالِ، فهَذَا فضلٌ لِأَنَّ العدلَ أن يُعَاجِلَهُمْ بالعقوبةِ؛ لِأَنَّهُم فعلوا الذنبَ، وفاعلُ الذنبِ يُعاقَبُ عليه، بل هَذَا فضلٌ، والفضل أعلى من العدلِ، والله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ مُعَامَلَتُه لعبادِهِ دائرةٌ بينَ الفضلِ والعدلِ، وهناك أمرٌ ثالثٌ وَهُوَ الجَوْر؛ فإن المعاملة قد تكونُ جَوْرًا أو عدلًا أو فضلًا. والجورُ مُمْتَنِعٌ فِي حقِّ اللهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩]، والعدلُ والفضلُ حُكْمه بين عِبادِهِ دائرٌ بينهما، ولهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠].

• • ۞ • •

الآيـــة (٧٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [النمل:٧٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَان فَضْلِ اللهِ عَلَى عِباده.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ العِبادَ وإنْ تَفَضَّلَ اللهُ عليهم فأكثرُهم لا يَشْكُرُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: ذَمُّ غيرِ الشاكرينَ؛ لِأَنَّ الآياتِ سِيقتْ لهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الثَّناء عَلَى الشاكرينَ، وهَذَا يُؤخَذ منه بالتضمُّن، وقد سبقَ لنا مِرارًا معنى الشكرِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مجرَّد قول اللسان: أَشْكُرُ اللهَ.

الآيــة (٧٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٧٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان سَعَةِ عِلْم الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ وهَذَا دليلٌ عَلَى سَعَة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّهُ لا يَخفى عليه شَيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحذير هَـؤُلَاءِ -وغيرهم أيضًا- من أن يُكِنُّوا فِي صدورهم ما لا يرضاه الله؛ لِأَنَّ إخبارَ الله بأنه يَعْلَم ذلك معناه التحذيرُ؛ أن نحذرَ من أنْ نُكِنَّ فِي صُدُورنا ما لا يَرضاه الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن علم الله تَعَالَى بما بَطَنَ كعِلْمِهِ بمـا ظهرَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فلا فرقَ بين هَذَا وهَذَا عند اللهِ، وإن كَانَ المخلوقُ يَختلِف عنده حُكْمُ الغائبِ والظَّاهرِ، فالغائب لا يعلمه المخلوقُ، والظَّاهرُ يعلمه، وحتى لو علِم الغائبَ بطريقٍ من الطرقِ فَإِنَّهُ لا يَستوي مَعَ علمِ الظَّاهرِ؛ أَمَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنهما عنده سواءٌ.

الآيـة (٧٥)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: كتابةُ اللهِ تَعَالَى كُلَّ شيءٍ فِي اللوحِ المحفوظِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ويَلْزَم منَ الكتابةِ العِلْم؛ لِأَنَّهُ لا يُكتب المجهولُ.

فإِذَنْ نَقُول: زيادة عَلَى أن الله عَلِمَ ذلك قد كَتَبَهُ فِي اللوحِ المحفوظِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات مرتبتينِ من مراتبِ القضاءِ والقدرِ، وهما: العلم والكتابة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة، والْقَدَرِيَّة هم الَّذِينَ يُنْكِرون القَدَر، والْقَدَرِيَّة انقسموا إِلَى قسمينِ: غُلَاة ومُقْتَصِدينَ، فالغُلاة أنكروا حَتَّى العلم والتَّقْدير، وقَالُوا: إن الله لا يَعْلَم ما يعمله العبادُ إِلَّا بعدَ وقوعِه منهم، وَأَمَّا الشَّيْء الباطنُ أو المستقبَل فلا يعلمه، وبالضَّرورَة لم يكتبْه أيضًا، والثَّانِيَة: المقتصدون منهم، قَالُوا: إنَّ اللهَ عَلِمَ ما الخَلْقُ عاملونَ وكَتَبَهُ، لَكِنَّهُ لَيْسَ بمشيئتِهِ وخَلْقِهِ، بل المَرْءُ مُسْتَقِلٌّ به.

الآية (٧٦)

• • ∞ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:٧٦].

• • ∞ • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الموجودينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنا ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ببَيَان ما ذُكِرَ عَلَى وجهِ الرافعِ للاختلافِ بينَهم لو أَخَذُوا به وأَسْلَمُوا].

قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ هَذَا الْقُرْآن يعني المنزل عَلَى النَّبِيّ ﷺ، وقرآنٌ إمَّا مَصْدَر بمعنى اسم المَفْعُول، وَإِمَّا بمعنى اسْم فاعلٍ، أَمَّا عَلَى الأوّل (قرآن) مصدر بمعنى المَفْعُول؛ لِأَنَّهُ مَقْرُوء، أي: يُقْرَأ، وَهُوَ أيضًا مقروء من القَرْء بِمَعْنَى الجَمْع، فَهُوَ مجموعٌ وَهُوَ مَتْلُوٌّ، بمعنى الجمع والتلاوة، وَأَمَّا عَلَى أَنَّهُ مصدرٌ فإن (فُعْلان) تأتي مصدرًا؛ مثل الغُفْران والشُّكْران.

فَهُوَ فِي الحقيقةِ مصدرٌ بمعنى اسْم المَفْعُول، وَإِمَّا مصدر مُطْلَق كالغفران والشكران، ويَصِحُّ أيضًا أن نجعله بمعنى اسْم الفاعلِ، بمعنى أَنَّهُ جامعٌ لأحكامِ الكتبِ السابقةِ، وهَذَا أيضًا وجهٌ ثالثٌ أن يَكُون الْقُرْآن بمعنى جامِع، وقد ذكرَ اللهُ تَعَالَى أن الْقُرْآن مُهَيْمِن عَلَى الكتبِ السابقةِ.

وقوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ القَصُّ بمعنى التحدُّث بالشَّيْءِ، فهَذَا الْقُرْآنُ

يَقُصُّ عَلَى بني إسرائيلَ الموجودينَ فِي عهدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أكثرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَختلِفون، وسيأتي إنْ شاءَ اللهُ أمثلة هَذَا.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الذكور مِنهم والإناث؛ لِأَنَّ الابنَ إذا كَانَ المُرادُ به القَبيلة فَهُوَ شاملٌ للذَّكَر والأنثى، وإذا لم يُرَدْ به القبيلةُ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ مثلًا: هَذَا وقفٌ عَلَى بني مُحَمَّد (مُحَمَّد) شخص، فيَختصّ به الذكورُ، فإذا كَانَ القبيلة كلها تُسمَّى بني مُحَمَّد فَهُوَ للذكورِ والإناثِ.

وذلك مثل بني تَميم؛ إذا كَانَ الْإِنْسَان مُوقفًا عَلَى بني تميمٍ قبل أن يَكُونوا قبيلةً حين وجودِ الجَدّ الَّذِي هُوَ تميمٌ فَهُوَ خَاصّ بالذكورِ، وبعد أن كانوا قبيلةً يَكُون عامًّا للذكورِ وللإناثِ.

إِذَنْ: بنو إسرائيلَ هنا المُرادُ بهم القبيلةُ فيعمّ الذَّكَر والأنثى، وإسرائيل هُوَ يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، فهم أبناء عمٍّ للعربِ؛ لِأَنَّ العرب أبوهم إسماعيلُ ابنُ إبراهيمَ، وهَؤُلَاءِ أبوهم يعقوبُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، يعني جَدّهم إِسْحاق الَّذِي هُوَ أخو إسماعيلَ، فهَؤُلَاءِ القوم يُنسبون إِلَى أبيهم، وإسرائيل بمعنى: عبد الله.

وبعض النَّاس اليومَ يَقُولُونَ: كيف نُسمِّي الدولة اليهودية إسرائيلَ، لماذا نسميها بهَذَا، فما الجواب؟

الجواب: أن هَذَا نسبة إِلَى أبيهم، ألسنا نسمِّي العربَ قُرَيْشًا نسبةً إِلَى جدهم قريش، فما نَقُول: بنو قريش، بل نَقُول: قُريش، فهنا تُسَمَّى القبيلة باسم أبيها. وإن كَانَ بلَا شَكّ أنَّ الأنسبَ أنْ تُسَمَّى بما سماها الله به؛ وهو: بنو إسرائيل، عَلَى أننا

أيضًا نشكّ فِي أن هَؤُلَاءِ اليهود الموجودين من بني إسرائيلَ، لا ندري لعلَّهم من أوربَّا أو من غيرها من البلاد الَّتِي ليستْ من بني إسرائيل، لكِن عَلَى كُلِّ حالٍ فمثلما العرب الْآنَ يعتبرون العروبةَ بالعربيَّة، فيَقُولُونَ: مَن نطق بالعَربيَّة فَهُوَ عربيّ، وإنْ كَانَ أصله أعجميًا، فأولئك أيضًا يَقُولُونَ: مَن نطقَ بالعِبْرِيَّة فَهُوَ إسرائيليّ، وإنْ لم يكن من بني إسرائيلَ، ولهَذَا نحن نَجْزِم أن الطائفةَ الْآنَ الَّتِي تُسمَّى اليهود ليستْ كلها من بني إسرائيلَ، بل إِنَّمَا يَنتمون إِلَى هَؤُلَاءِ القومِ باعتبار الجامعِ بينهم وهو اللُّغة.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي﴾ لم يقلْ: كُلّ الذي، بل قَالَ: ﴿أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فما الَّذِي يَخْرُج من الأكثرِ؟

يَخرجُ الأقلّ، وذلك أن الْقُرْآن إِنَّما قصَّ عليهم ما فِيهِ مصلحة، أَمَّا ما لا مصلحةَ فِيهِ فَإِنَّهُ لا يَقُصُّه؛ لِأَنَّ الْقُرْآن كما تَعْلَمون هُدًى، وكل ما فِيهِ فَإِنَّهُ له معنًى ومقصود، فالشَّيْء الَّذي اختلفوا فيه وَالَّذِي لا فائدةَ منه لا يُقَصُّ عليهم، مثلًا اختلفوا فِي لونِ الكلبِ لأصحابِ الكهفِ، فهَذَا لا فائدة فِيهِ فائدة. كذلك اختلفوا فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ من هَذَا النوعِ ما قَصَّها الْقُرْآنُ، مثل البقرة الَّتِي أُمروا بذبحها، فقد اختلفوا مَن هِيَ له، فقيل: إِنَّهَا لإِنْسَانٍ بارّ بابنِه، وَقِيلَ: إِنَّهَا لشيخ كبير، وَقِيلَ أَشْيَاء كثيرة، لكِن هَذَا لا فائدة منه، فأكثر ﴿ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مما فِي ذِكره فائدة لهم ولغيرهم يَقُصُّه هَذَا الْقُرْآن ليحكمَ بينهم.

ومن ذلك ما قصَّ عليهم فِي شأنِ عِيسى، فإنَّ عِيسَى كما هُوَ معروفٌ اختلفَ فِيهِ بنو إسرائيلَ، فمِنهم مَن كَذَّبه وأنكرهُ وزَعَمَ أنَّ أُمَّه بَغِيٌّ، ومنهم مَن غَلَا فِيهِ

وقال: إِنَّهُ ابنُ اللهِ أو إِنَّهُ إِلَهٌ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي السَّبْت وغير ذلك مِمَّا قصَّ اللهُ علينا فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن قصَّ أكثر الَّذِي هم فِيهِ يختلفونَ، وَأَمَّا ما لا فائدة من قَصِّهِ فتركه.

قوله: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يَقُصُّ لأجلِ أنْ يُصَدِّقُوا بالْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ إذا جاء هَذَا الْقُرْآن قاصًّا عليهم ما سبقَ مِمَّا فعلوه، والنَّبِيّ ﷺ قد عُلِم بأنه ما درسَ التوراةَ ولا درسَ عَلَى اليهودِ؛ عُلِمَ أن ما جاء به فَهُوَ حقّ، وهَذِهِ هِيَ الحِكْمَةُ من كونه يَقُول: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مَعَ أن هَذَا القَصص لبني إسرائيل ولغيرِهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ عندهم من علمِ الكتابِ ما لَيْسَ عند العربِ، فإذا نزل هَذَا الْقُرْآن حاكمًا بينهم ويقصّ عليهم ما كانوا يختلفون فيه، دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ حقّ، فلهَذَا بُيِّنَ لهم لإقامة الحجّة عليهم، واللهُ أَعْلَمُ.

مسألة: القَصص مَصْدَر، والقِصَص جمعُ قِصَّة، ويَصِحّ القَصص بالفتحِ بمعنى قَصّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الْقُرْآن كلام؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقُصُّ﴾ والقصص قولٌ، فالْقُرْآن إذن قولٌ.

ومعلوم أن الْقُرْآن نزلَ منَ الله، فيكُون قولًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما يَدُلّ عَلَى ذلكَ سياقُ الآياتِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [النمل:٧٨]، بهَذَا القَولِ الَّذِي قَصَّ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يجوز أن يُخَصَّ طائفةٌ ممن يُخَاطَبون من أجلِ إقامةِ الحجّة

عليهم، فإن ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرهم، لكِنَّ بني إسرائيلَ اعتنى بهم هنا؛ لِأَنَّ الموضوع فيما يَتَعَلَّق بهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ يَنبغي أن يُعتنى بما هُوَ أهمّ أو بما هُوَ مُهِمّ، ويُترك ما لا فائدةَ منه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولم يقصّ عليهم جميع ما يختلفون فيه؛ لِأَنَّ ممّا اختلفوا فِيهِ ما لا فائدةَ من ذِكره، أو ما لا داعيَ لِذِكره. وهَذِهِ مسألةٌ يَنبغي للإِنْسَان أن يَعتني بها، بأن يَقتصرَ عَلَى المهمّ أو الأهمّ، وأن يدعَ ما لا فائدةَ منه؛ لِأَنَّهُ إضاعةٌ للوقتِ وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ، ومن ذلك ما يوجد فِي كثيرٍ من التفاسيرِ؛ يذكرون الخلاف فِي أمور هِيَ فِي الحقيقة واحدة، فتجده مثلًا يذكر الخلافَ عن مُجاهِدٍ ومُقاتِلٍ وعَلْقَمَةَ وابنِ مَسْعُودٍ وابنِ عَبَّاس، والاختلاف بينهم إِنَّما هُوَ فِي التعبيرِ فقطْ، فمثلًا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ [الإسراء:٢٣]، يَقُول: قَالَ بعضُ العُلَماء: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى وصَّى، وبعضهم يَقُول: بمعنى عَهِد، وبعضهم يَقُول: بمعنى أوجدَ، وبعضهم يَقُول: بمعنى ألزمَ، فهَذَا لا داعيَ له؛ لِأَنَّ كُلّ هَذِهِ الكلمات الأربع تدلّ عَلَى معنًى واحدٍ.

كذلك أيضًا يذكرون الخلافَ فِي ما لا طائلَ تحته، كما ذكروا اختلافهم فِي كلبِ أصحابِ الكهفِ؛ هُوَ أسود أو أحمر أو أبيض ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وكذلك أيضًا اختلافهم فِي عِدَّة أصحاب الكهف، فإن الله تَعَالَى ذكر الخلافَ وأبطلَ قولينِ وأقرّ الثَّالثَ.

والمهمّ أن الله يَقُول -بعدما ذكر القَوْلين وأبطل الثَّالث-: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف:٢٢]، يَعْنِي: لا تتعمّق إذا جاء أحد يجادلك فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّهُ لا فائدةَ منه، فالشَّيْء الَّذِي لا فائدةَ منه أو فائدته

قليلةٌ ويُضيِّع عليك ما هُوَ أهمّ يَنبغي لك تجنُّبُهُ، وهَذَا لَيْتَنَا نَسيرُ عليه فِي حياتنا كلِّها حَتَّى نستوعبَ الوقتَ بما فِيهِ الفائدةُ، لكِن ما أكثرَ الأوقاتَ الَّتِي تَضيعُ علينا، وما أكثرَ الأقوالَ الَّتِي تُقال ونُضِيعُ الوقتَ فيها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الإشارة إِلَى الخلاف بينَ بني إسرائيلَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والاختلاف شرٌّ وليس رحمةً، وَأَمَّا (اختلافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ) فموضوعٌ لا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الله يَقُول: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود:١١٨-١١٩]، لكِن لو صحَّ هَذَا الحديثُ مثلًا، أو قاله بعض أهل العلمِ من قولِه، فالمَعْنى: أن هَذَا الاختلافَ داخلٌ فِي رحمة الله وَفِي سَعَتِهِ بالنِّسْبَة للمختلِفينَ، أي أَنَّهُم لا يُعَذَّبُون.

وَلَيْسَ المَعْنى أن إيقاعَ الخلافِ بينهم من رحمةِ اللهِ، بل هُوَ من حكمةِ اللهِ، ولكِن رحمة الله وسِعَتْهُم، فلا يُقَال مثلًا: إِنَّهُم معذَّبون بهَذَا الخلافِ، أو إن الواحدَ المصيب منهم له أجرٌ، والباقينَ مَحْرُومُونَ، أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حكم من يَقُول: إذا كَانَ اختلاف العُلَماء رحمةً فلي أن آخذَ ما يناسبني من هَذِهِ الأقوالِ؟

فالجواب: بعض النَّاس يتَّخذ من هَذَا المَعْنى وسيلةً إِلَى جواز الترخُّص، هُوَ يَقُول: اختلافهم رحمةٌ بمعنى أنّ لي أنْ آخذَ بأحدِ الأقوالِ الَّتِي تناسبني، ولكِن لَيْسَ هَكَذَا، فإذا صدرَ من قولِ أهلِ العلمِ فَإِنَّهُ لا يَصِحّ إِلَّا عَلَى الوجهِ الَّذِي قلتُ، إنَّ المَعْنى أن هَذَا الاختلاف داخل تحتَ رحمةِ اللهِ، فلا يُعَذَّبُ أحدٌ عليه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الاختلاف لَيْسَ بمحمودٍ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: منذ ظهور الإِسْلامِ إِلَى الْآنَ وظاهرةُ الاختلافِ موجودةٌ،

هل يمكِن أن يَكُون وجودها عَلَى خلافِ المصلحةِ؟

فالجواب: الحِكْمَةُ اقتضتْه؛ لِأَنَّ الصراع بين هَذِهِ الأقوالِ يَتَبَيَّن به الحَقّ أكثر، ولذلك تجد الْإِنْسَان عنـدما يمرّ به قول لا خلافَ فِيهِ لا يتكلَّف الأدلَّة ولا يمرِّن نفسه عليها، فالصراعُ بين المختلفين فِيهِ حكمةٌ، وإلّا لو كانوا عَلَى قولٍ واحدٍ لكانَ أسلمَ بلَا شَكّ، والآيَة صريحةٌ فِي هَذَا.

الآيـــة (٧٧)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل:٧٧].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الْقُرْآن [﴿لَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ من العذاب].

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى﴾ هَـٰذِهِ الجملةُ مؤكَّـدة بـ(إن) و(اللام). والهدى معناه الدلالةُ، فإن الْقُرْآن هدًى، يعني دلالةً، ولكِنه لا يَنتفعُ به إِلَّا المؤمنونَ؛ كما قيَّده به فِي قوله: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: سببٌ للرحمةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا اهتدى به نالَ رحمةَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيَكُون رحمة لكِن للمُؤْمِنِينَ، والتقييد بالمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُم المنتفِعون به. وقد ذكرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ هدًى للعالَمِينَ، وَأَنَّهُ هدى للمُؤْمِنِينَ وللمتَّقِين، والجمعُ بينهما أَنَّهُ فِي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ وموضعُ دلالةٍ، وَفِي حالة التقييدِ: أَنَّهُ ما انتفعَ به وَوُفِّقَ للاهتداءِ به إِلَّا مَن قُيِّدَ به.

وله هَذِهِ الآيَة من المطلَقِ أو مِن المقيَّد؟ من المقيَّد بالمُؤْمِنِينَ.

إذًا (هُدًى) هَذَا العلم و(الرَّحْمَة) العَمَل والتَّوفيق؛ لِأَنَّهُ سبب الرَّحْمَة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيَان مَرتبة الْقُرْآن وفضله، وَأَنَّهُ هدًى ورحمةٌ؛ هُدًى بالدلالةِ ورحمةٌ بالعَمَلِ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا ينال هَـذَا الهدى وتلك الرَّحْمَـةَ إِلَّا المؤمنـونَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا معارضةَ بينَ هَذِهِ الآيَةِ وبينَ قولِهِ تَعَالَى فِي وصفِ الْقُرْآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، والجمعُ بينهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُخْتَلِف الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليل لهم، فَهُوَ دليل لكلّ النَّاسِ، لكِن هل مَنِ استدلَّ به انتفع به؟ لا، قد يَهتدي به وقد لا يَهتدي، إِنَّمَا هُوَ نفسه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابعَةُ: فائدة الإِيمانِ؛ فلو لم يكنْ من فوائدِ الإِيمانِ إِلَّا هَذَا لَكَفى؛ وَهُوَ الاهتداء بالْقُرْآن، ونَيل الرَّحْمَةِ به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ كلَّما كَانَ الْإِنْسَان أقوى إيمانًا؛ كَانَ أقوى اهتداءً بالْقُرْآن. وهَذَا مأخوذٌ من قاعدةٍ سَبَقَتْ؛ وَهِيَ أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوصفٍ قَوِيَ ذلكَ الحكمُ بقوَّة ذلك الوصفِ، وضعُف بضعفِ ذلك الوصفِ، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحْمَةُ معلَّقة بوصفِ الإِيمانِ فكلما ازداد هَذَا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحْمَةُ.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٨)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [النمل:٧٨].

• • • •

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ كَغَيْرِهِم يومَ القيامةِ ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عَدْلِه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِب ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُم به؛ فلا يمكِّن أحدًا مخالَفتَه كما خالفَ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيا أنبياءَهُ].

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم﴾ أي: بين بني إسرائيل؛ لِأَنَّ السياقَ فيهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ والمختلِفون يحتاجون إِلَى مَن يَحْكُمُ بينهم أيّهم عَلَى الصَّوابِ، فحُكْمُ اللهِ بينهم فِي الدُّنْيا ويَحْكُمُ بينهم يومَ القيامةِ، حَكَمَ بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزله فِي الْقُرْآن المستفاد من قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. ويحكمُ بينهم يومَ القيامةِ بالحكم العدلِ.

فمن جُملةِ ما قصَّ الله علينا فِي الْقُرْآن القضاءُ بين بني إسرائيلَ، فبنو إسرائيلَ اختلفوا فِي أَشْيَاءَ؛ كاختلافِهِمْ فِي المَسيحِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وغيـرِه، فحكمَ اللهُ بينهم بالْقُرْآن بأن هَؤُلَاءِ مُصيبونَ وهَؤُلَاءِ مخطِئون، فبيَّن أن اليهودَ أخطأوا والنصارى أخطأوا أيضًا، والمعتدِلون مِنَ النصارى أصـابوا، لكِن الحكم الَّذِي يترتَّـب عليه الثوابُ والجزاءُ يكُون يومَ القيامةِ، فهنا الحكمُ فِي الدُّنْيا ما يَتبيَّن به الحَقّ منَ الباطلِ،

وَأَمَّا فِي الآخِرَةِ فَهُوَ ما يَتَرَتَّب عليه الثوابُ والعقابُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَقۡضِي بَيۡنَهُم﴾ كغيرِهم يومَ القيامةِ]، لا يَتعيَّن أن يَكُون هَذَا القضاءُ يومَ القيامةِ، بل قد يَكُون فِي الدُّنْيا أيضًا، فإن القضاءَ كما يَكُون يومَ القيامةِ يَكُون أيضًا فِي الدُّنْيا.

وقد قَضَى بينهم فِي الدُّنْيا بما أنزلهُ فِي كتابِهِ، وبَيَّنَ الَّذِينَ عَلَى حقٍّ والَّذِينَ عَلَى باطلٍ من بني إسرائيلَ، وهَذَا نوعٌ منَ القضاءِ، ويومَ القيامةِ يَقضي بينهم قضاءً يَتَرَتَّب عليه الثوابُ؛ إمَّا بالعقوبةِ وَإمَّا بالإحسانِ.

فالحاصل: أن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم﴾ لا يَتعيَّن أن يَكُون يوم القيامة كما قيَّده به المُفَسِّر؛ لِأَنَّ القضاءَ كما يَكُون فِي الآخِرَةِ يَكُونُ فِي الدُّنْيا.

وقول المُفَسِّر: [كَغَيْرِهِم] يفيد أن القضاءَ يومَ القيامةِ لَيْسَ بينَ بني إسرائيلَ فقطْ، بل بينهم وبين غيرهم، وهَذَا أمرٌ لَا شَكَّ فِيهِ ولا حاجةَ إِلَى تقديره؛ لِأَنَّهُ ما دام السياق فِي بني إسرائيلَ فإن كلمةَ (كغيرهم) لا يَنبغي أنْ تُقْحَم فِي هَذِهِ الآيَة؛ لأنك إذا أقحمتَ كلمة (كغيرهم) يَكُون كالاعتراضِ عَلَى الْقُرْآن؛ لِأَنَّ معناه أن المَقامَ يَقتضيه ولكِنه لم يبينْ. فنَقُول هنا: لا حاجة إِلَى تقديرِ: (كغيرهم) بل هُوَ يَقضي بينهم. والآيَة هنا لم تَتَعَرَّض للقضاءِ العامّ، وَأَمَّا القضاء العامّ فَهُوَ مستفادٌ من آيَاتٍ أُخرى.

قوله: ﴿بِحُكۡمِهِۦ﴾ أي: بعدلِه، وهنا أضاف الحكمَ إِلَى اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لأمرينِ:

الأَمْرُ الأوّل: أَنَّهُ حكمٌ مُتَضَمِّن للعدلِ.

والأَمْرُ الثاني: أَنَّهُ حكمٌ لا يُعقَّب، بل لَا بُدَّ أن يُنَفَّذ، بخلافِ حُكم غيرِه فَإِنَّهُ

عُرْضَة للخللِ من الناحيتينِ؛ من ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غيرَ عدلٍ، ومن ناحية أَنَّهُ قد يَكُون غير مُنفَّذ.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي: عدله، وهَذَا طرفٌ أو جزءٌ مِمَّا يَدُلّ عليه قوله ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾؛ إذ إِنَّهُ يَدُلّ عَلَى الأَمْرينِ اللذينِ ذكرنا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب]، وقد تقدَّم فِي شرح الأسماء الحسنى أن العزيز له ثلاثةُ معانٍ، وهي: عِزّة القهر، وعزة القَدْر، وعزة الامتناع؛ لِأَنَّ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ معناه الْمُمْتَنِع عن كُلّ نقصٍ الَّذِي لا يَلْحَقه نقصٌ، وَأَنَّهُ غالب وَأَنَّهُ ذو قَدْرٍ عظيمٍ.

وغالبًا ما يفسِّر الْمُفَسِّر وغيره ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ بالغالبِ؛ لِأَنَّهُ أظهر معانيه، ولأنه يَكُون أحيانًا فِي سياقٍ يَقتضي أن تكون الغَلَبَة أخصَّ به من غيرها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يَحْكُمُ به]، وهَذَان الأَمْران من شروطِ الحُكم؛ لِأَنَّ مَن حَكَمَ بغيرِ علمٍ أصاب حُكْمَه الخللُ، ومن حَكَمَ بغير عزّة أصاب حكمه الخللُ أيضًا:

فالأوّل الَّذِي هُوَ فواتُ العلمِ: يَحصُل به خللُ الحكمِ فِي إصابةِ الصَّوابِ؛ لِأَنَّ مَنْ حَكَمَ بغيرِ علمٍ فإصابته للصوابِ من باب المصادفةِ.

الثاني: إذا فاتت العزّة حَصَلَ الخَلَلُ بالحكمِ، لا من ناحية الصَّوابِ ولكِن من ناحيةِ التنفيذِ، فَإِنَّهُ إذا كَانَ لَيْسَ له عِزّة وحَكَمَ بأمرٍ فقد يخالَف فِي هَذَا الأَمْر؛ لِأَنَّ الضعيف الَّذِي لَيْسَ عنده عِزَّة لا ينفّذ، فلهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليتبينَ الأَمْرانِ، فالحكم يَفتقر إِلَى الوصفينِ جميعًا؛ وهما العزّة والعِلم.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُقَدِّمُ العزيزَ عَلَى العليمِ، والعلمُ سابقٌ من حَيْثُ الترتيبُ الحكميُّ؛ إذ إِنَّهُ يَعْلَم ثُمَّ يَحْكُم ثُمَّ يُنَفِّذ؛ لِأَنَّ العزة تتعلَّق بالتنفيذِ، والتنفيذ بعدَ الحكمِ، والعلم يتعلّق بالحكمِ، والحكمُ سابقٌ عَلَى التنفيذِ، فما هِيَ الحِكْمَةُ فِي أن يقدِّم العزَّة هنا عَلَى العلمِ؟

قُلْنَا: لِأَنَّ المقامَ هنا يَقتضي بَيَان قـوّة حُكم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن هَـذَا الحكم لَا بُدَّ أن يَنْفُذ؛ لِكونِه صادرًا عن عزيزٍ، فَكَانَ من المناسِبِ تقديم العزّة عَلَى العلم.

ونظير هَذَا قوله تَعَالَى عن الملائكة لما قالت امرأةُ إبراهيمَ حينما صكّت وَجْهَها وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩]، قالوا: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات:٣٠]، فقدّموا الحِكمةَ عَلَى العِلمِ، مَعَ أن العلم سابقٌ؛ إذْ لا حكمةَ إِلَّا بعلمٍ، لَكِنَّهُ لَمّا كَانَ هَذَا أمرًا خارجًا عنِ العادةِ ومُسْتَغْرَبًا قدَّموا الحِكْمَةَ لِيَتَبَيَّنَ لها أَنَّهُ ما خَرَجَ ذلك عنِ العادةِ إِلَّا لحكمةٍ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يُمَكِّن أحدًا مخالفته كما خالفَ الكفّار فِي الدُّنْيا أنبياءَه]، الحكم فِي الدُّنْيا -كما قَالَ الْمُفَسِّر- يخالَفُ، والمُراد الحكمُ الشرعيّ، أَمَّا الحكمُ الكونيّ فلا يمكن أن يُخَالَف؛ لا فِي الدُّنْيا ولا فِي الآخِرَة، فلا أحدَ يَقدِر أن يخالفَ اللهَ، والحكمُ الشَّرْعِي يمكِن مخالفتُه فِي الدُّنْيا كما هُوَ كثيرٌ، بل أكثرُ النَّاسِ يُخالِفون الحكمَ الشَّرْعِيّ فِي الدُّنْيا؛ لِأَنَّ بني آدمَ مِنهم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألفِ كلهم مخالِفون للحكمِ الشَّرْعِيّ، وواحد فِي الألفِ موافِقٌ للحُكم الشَّرْعِيّ، والدَّلِيل حديث آدمَ أن الله يناديه يوم القيامةِ فيقول: «يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ

تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ وهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ»[1]. هَذَا النصّ.

يقولُ ابنُ القَيِّمِ فِي النونيَّة[2]:

يَـا سِـلْعَةَ الـرَّحْمَنِ لَـيْسَ يَنالهُـا   فِي الْأَلْـفِ إِلَّا وَاحِـدٌ لَا اثْنَـانِ

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن القَضاء موكولٌ إِلَى اللهِ وحـدَه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كُلّ قضاءٍ لا يَستنِد إِلَى قضاءِ اللهِ فَهُوَ باطلٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ العدلِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ فإن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى العدلِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَـذَا الحُكْمَ يَتَضَمَّن الحُكم الشَّـرْعِيّ والحكمَ الجزائـيّ، فيقضي بينهم بحُكمه شرعًا فِي الدُّنْيا، وبجزائه عدلًا فِي الآخِرَةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ وهَذِهِ مستفادةٌ من التفسيرِ.

وتقدّم أن إضافةَ الحكمِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تقتضي أمرينِ: أحدهما: العدل، والثاني: الإصلاح.

يعني ما دامَ حكمًا مضافًا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقد عُلِم أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكيمٌ

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قِصَّة يأجوج ومأجوج، حديث رقم (٣١٧٠)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: «يقول الله لآدم: أخرج بعث النَّار؛ من كُلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين»، حديث رقم (٢٢٢)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) الكافية الشافية لابن القيم (ص:٣٥٤).

فإن هـذَا الحكمَ لَا بُدَّ أن يَكُون مناسبًا وموافقًا لمَحَلِّه. وكلُّ حُكم وافقَ محلَّه فَهُوَ إصلاح؛ لِأَنَّ هَذَا يتضمَّن العدل والإصلاح.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: وصف الله تَعَالَى بالعزّة والعلم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَرْن العزّة مَعَ العلمِ فِي هَذَا الموضعِ يُستفاد منه فائدة مستقلّة غيـر فائدة العزّة عَلَى حدةٍ والعلم عَلَى حدةٍ، يعني يُستفاد من جمعهما فائدة مكوَّنة منهما، وهي: أن حكمَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا بُدَّ أن ينفذَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾، ولا بد أن يَكُون مطابِقًا وصحيحًا؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لأنَّنا قُلْنَا فيما سبق: إن من تمامِ الحكمِ العلمُ والعزّة، فالعِلم ليحكمَ بالصَّوابِ، والعزّةُ لينفذَ ما حكمَ به، وإن خلل الحكم يأتي إمَّا منَ الجهلِ وإمَّا من الضعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكم بغير الصَّواب، وَإِمَّا لضعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ.

إِذَنْ: يُؤخَذ من جمع هذين الوصفينِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَقِبَ ذِكْرِ الحكم: تمام حكمِ اللهِ، حَيْثُ كَانَ مبنيًّا عَلَى العزّة والعلمِ، فبالعزّة يَكُون التنفيذُ، وبالعلم يَكُون الصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تقديم الأخصّ مِنَ الأوصافِ عَلَى الأعمِّ، فالأخصُّ معناه الأنسبُ للقضيّة، فهنا قدَّم العزَّة عَلَى العلمِ مَعَ أن العلمَ سابقٌ عليها فِي التـرتيبِ الحكميّ؛ ففِي الترتيب الحكميّ العلم أسبقُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان يعلم ثُمَّ يحكم ثُمَّ ينفِّذ. لكِن هنا قدَّم العزَّةَ على العلمِ فِي الذِّكر، وقد تقدَّم فِي التفسيرِ.

الآيــة (٧٩)

• • ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩].

• • ● ● •

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثِـقْ بِه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: الدِّين البيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الكفَّار].

قوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ، والأَمْر هنا للوجـوبِ، والتوكُّل نصفُ الدينِ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ولا استعانةَ إِلَّا باعتمادٍ، ولهَذَا يَقُولُونَ: إنَّ الدِّين عِبادةٌ وتَوكُّل؛ عبادةٌ يَفعلُها الإِنْسَان، وتَوكُّل يَعتمِد به عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هنا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ثِقْ به]، وفسَّره غيرُه بأنَّ التوكُّل هُوَ الاعتمادُ عَلَى اللهِ مَعَ الثِّقَة، فلا بدَّ مِنِ اعتمادٍ وثقةٍ، وبهما يَكُون التوكُّل، فقد تَعْتَمِدُ عَلَى غيرِ اللهِ مثلًا لكِن لا تَثِق به، وقد تَعْتَمِد عَلَى إِنْسَانٍ فِي أَنْ يشتريَ لك شيئًا، ولكِنَّك مَعَ هَذَا لا تَثِقُ به، وقد تَثِق بالإِنْسَان فِي أمانتِهِ ولكِنَّك لا تَعْتَمِد عليه لِضَعْفِه، والأَوَّل إمَّا لضعفه أو خيانته، أَمَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيَجِب عليكَ أَنْ تَعْتَمِد عليه واثقًا به، ولا يُمْكِن تحقيقُ التوكُّل إِلَّا بهَذَا.

إِذَنِ: التوكُّل عَلَى اللهِ: الاعتمادُ عليه مَعَ الثِّقة به، فلا بدَّ منَ الأَمْرينِ؛ من اعتمادٍ وثقةٍ. والأَمْرُ بالتوكّل لا ينافي فِعْلَ الأَسْبَابِ الصَّحيحةِ الَّتِي تؤثِّر فِي المُسبَّبات؛ فإن

الرَّسُول ﷺ بلَا شَكّ كَانَ سيّدَ المتوكِّلين، ومع ذلك كَانَ يفعل الأَسْبَاب الَّتِي تحصُلُ بها المنافعُ وتَندَفِع بها المضارُّ؛ كَانَ يأكل ويشرب ويلبس. وَكَانَ أيضًا يتّخذ ما يَقِي مِنَ الضَّرَرِ، حَتَّى إِنَّهُ فِي أُحُدٍ ظَاهَرَ بينَ دِرْعَيْهِ[1]، يَعْنِي: لَبِسَ دِرْعَيْهِ، كُلّ ذلكَ تقويةً للأَسْبابِ الَّتِي تندفِعُ بها الأضرارُ.

فإذَنِ: التوكُّل عَلَى اللهِ لا يَعني ألَّا تأخذَ بأَسْبابِ النجاحِ، بل خُذْ بالأَسْبَابِ مَعَ الاعتمادِ عَلَى اللهِ تَعَالَى والثِّقة به أنْ يَنْفَعَ بهَذَا السَّبَب.

ولَمّا حَجَّ قومٌ من أهل اليمنِ وَلَيْسَ معهم زادٌ قَالُوا: نحن نحجّ ونحن المتوكّلون؛ فماذا قيل لهم؟ قيل لهم: أنتمُ المتواكِلون[2]، ففرقٌ بين التواكُلِ والتوكّل، فالإِنْسَان الَّذِي يريد أنْ تأتيَه الأُمُورُ بدونِ فِعْلِ أَسْبابها هَذَا متواكِل وَلَيْسَ عنده عقلٌ، والبهائم والحشرات وغيرها تفعل الأَسْبَاب، مَعَ أنَّ الَّذِي قامَ برِزْقِها وتكفّل به هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، ومع ذلك تجدها تفعل الأَسْبَاب، بل قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[3]، لم يقلْ: تبقى فِي أوكارها ويأتيها رِزْقُها، قَالَ: تغدو، أي: تَذْهَب فِي الصباحِ فِي الغدوِّ خِماصًا،

(١) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في لبس الدروع، حديث رقم (٢٥٩٠)؛ والنسائي في الكبرى، كتاب السير، باب التحصين من الناس، حديث رقم (٨٥٨٣)؛ وابن ماجه، كتاب الجهاد، باب السلاح، حديث رقم (٢٨٠٦)؛ وأحمد (٣/ ٤٤٩) (١٥٧٦٠)، عن السائب بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٨١) (١٢١٥)، موقوفًا عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وأصله في صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، حديث رقم (١٤٥١)، موقوفًا عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب التوكل على الله، حديث رقم (٢٣٤٤)؛ وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين؛ وأحمد (١/ ٣٠) (٢٠٥)، عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَعْنِي: جائعةً، وتَرُوحُ فِي آخرِ النَّهار بطانًا: مَلآنة بُطُونُها.

فالإِنْسَان المتوكِّل هُوَ الَّذِي يأخذُ بالأَسْبَاب النافعةِ، أَمَّا الأَسْبَاب الَّتِي لا تنفعُ فإن الأخذَ بها نوعٌ من الشِّرْك، فكُلّ مَن أخذ بسببٍ لَيْسَ بنافعٍ -يعني ما دلَّ عَلَى نفعه الحِسّ ولا الشَّرع- فَإِنَّهُ قد فَعَلَ نوعًا من الشِّركِ. ولِهَذَا التمائمُ والتعوُّذات والتِّوَلَة ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ من الأُمُورِ الَّتِي يَزْعُمُون أَنَّهَا تفعل وهي لا تفعل؛ جَعَلَها النَّبِيّ ﷺ منَ الشِّرْكِ؛ لأَنَّنا نَقُولُ فِي تقريرِ هَذَا: كُلّ مَنِ اتَّخذ سببًا غيرَ نافعٍ، يعني لا يَدُلّ عَلَى نفعِه شرعٌ ولا حِسٌّ، وإن شئتَ قُلْ: شرع ولا قَدَر؛ فَإِنَّهُ مُشْرِك.

ووجه كونه مشركًا أنه أثبتَ سببًا لم يجعلْه اللهُ سببًا، فكَانَ مُشَارِكًا لله تَعَالَى هنا فِي تقديرِه؛ لِأَنَّ مقدِّر الأَسْبَاب وجاعلَ الأَسْبَابِ سببًا هُوَ اللهُ، فهَذَا إِلَى اللهِ، فأنت إذا قلتَ: هَذا سببٌ، وَهُوَ لَيْسَ بسببٍ؛ فقد أشركتَ مَعَ الله، وجعلتَ نفسَكَ شَريكًا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: مَنِ اتخذ سببًا مُحَرَّمًا مثل الرِّبا، هل يُعَدُّ مِنَ الشِّركِ؟

فالجواب: هَذَا لا يُعدّ مِنَ الشرك؛ لِأَنَّ هَذَا السَّبَب حِسِّيٌّ، فكونه سببًا للرزقِ سببٌ حِسّيّ، لَكِنَّهُ مُحَرَّم شرعًا، فالذي يُرابِي اتَّخذ وسيلةً تُحَقِّق له الرِّبْحَ قَدَرًا؛ لِأَنَّهُ إذا قَالَ: أُعطيك عشرةً وتردّها اثني عَشَرَ، فهَذَا سببٌ للربحِ، لَكِنَّهُ سببٌ قدريٌّ؛ لِأَنَّ اللهَ ما أذِن فِيهِ شرعًا، لكِن إذا وقعَ عَلِمنا أَنَّهُ أذِن فِيهِ قَدَرًا، وهَذَا لَيْسَ بشِركٍ؛ لِأَنَّهُ سببٌ قَدَرِيٌّ، إِنَّمَا هُوَ محرَّم لِأَنَّهُ منهيٌّ عنه شرعًا.

إِذَنِ: التوكُّل عَلَى اللهِ هُوَ الاعتماد عَلَى الله مَعَ الثقةِ به، لَيْسَ مجرّد الاعتماد، بل مَعَ الثقة، ولا ثِقة إِلَّا برجاءٍ. ثُمَّ إن التوكّل قُلْنَا: لا ينافي فعلَ الأَسْبَاب الَّتِي جعلها الله تَعَالَى سببًا شرعًا أو قَدَرًا.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل يَصِحُّ أن تقول لفلانٍ منَ النَّاس: أَعتمِد عليك فِي إنجاز هَذَا الأَمْر؟

فالجواب: ليس فيها شيءٌ، بشرطِ أن يَكُونَ حقيقةً ممَّا يُمْكِنُ الاعتمادُ عليه فيه؛ لِأَنَّ الاعتماد على الأَسْبَاب الحقيقيَّة جائزٌ، لكِن مَعَ اعتقادِ أَنَّهُ سببٌ لا أَنَّهُ مستقلّ.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما حُكْمُ قول العوامّ عِندنا: (وَكِّلِ الله)؟

فالجواب: الظَّاهرُ أن معنى (وَكِّلِ الله) عندهم: اعتَمِدْ عَلَى اللهِ، وَلَيْسَ المَعْنى: اجْعَلِ اللهَ وَكِيلًا لكَ، أو معناه أن الله تَعَالَى يَكُون شاهدًا عليك، فليس المقصود أنِّي أنا فِي قِيامي بأمركَ مثل قيام الله تَعَالَى بأمرِكَ، فهم قصدُهم: اعتمد عليَّ الله ووكِّله عليَّ شهيدًا؛ لأَنَّنا لو نَظَرْنا إِلَى ظاهرِ اللفظِ فالمَعْنى أني أنا لكَ بمنزلةِ اللهِ، وهم لا يريدون هذا، أو المَعْنى (وَكِّل الله) أي: اعتمِدْ عَلَى الله، وكذلك قولهم: (اتكل عليَّ) لَيْسَ فِيهِ شَيْء، وقولهم: (الله وكلك) لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، أي جَعَلَكَ وكيلًا لي بالصيغةِ الَّتِي نطقت بها؛ لِأَنَّهُ الله وكَّله بلَا شَكّ؛ لِأَنَّهُ إذا وقع الأَمْر فَهُوَ بقضاءِ اللهِ، وكذلك قولهم: (اتَّكِلْ عَلَى اللهِ) فهَذِهِ صحيحةٌ وطيِّبةٌ.

قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن]، فسَّر المُفَسِّر الحَقّ بالدينِ، والمبينَ بالبيِّن، وَلَيْسَ هَذَا بجيدٍ؛ لِأَنَّ الدينَ منه حقٌّ ومنه باطلٌ، ولهَذَا قَالَ تعَالَى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]، وهَذَا هُوَ الدين الباطِلُ، فالدينُ الحَقّ يَظْهَر عَلَى الدِّين كلِّه، أي: عَلَى الدينِ الباطلِ. فتفسيرُ المُفَسِّر الحَقَّ بالدينِ قُصُورٌ بلَا شَكّ، بلِ الحَقّ هنا الثابتُ بِصِدْقِ أخباره وعدل أحكامِهِ.

وأمَّا قوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ ففسَّره بالبيِّن، وَعَلَى هَذَا جعل (أبان) من اللازِمِ؛ لأنَّ بان يَبِينُ فَهُوَ بَيِّن، وأبان يُبِينُ فَهُوَ مُبِين. وهل تَصِحّ أن تكونَ بمعنى (مُظْهِر)؟

الجواب: لا، بَيِّن هنا أنسبُ مِن مُظْهِر، فهَذَا الحَقّ بَيِّنٌ ظاهرٌ.

وفي قوله: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ تثبيتٌ للرَّسُولِ ﷺ عَلَى أنْ يَبقى عَلَى ما هُوَ عليه مُعتمِدًا عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان إذا عَلِم أَنَّهُ عَلَى حقٍّ فَإِنَّهُ يَثْبُتُ وتَرْسُخُ قدماهُ، وإذا كَانَ شاكًّا أو مُتَرَدِّدًا فَإِنَّهُ لا يثبتُ، فَأَمَره أن يعتمدَ عليه، وَبَيَّنَ له أن ما كَانَ عليه مِنْ هَذَا الدِّينِ فَهُوَ حقٌّ بَيِّنٌ ظاهِرٌ.

وإعراض هَـؤُلَاءِ الْمُعْرِضِينَ عنه لا يَقْدَحُ فِي كونِه بَيِّـنًا؛ لِأَنَّ البلاءَ لَيْـسَ منَ الْقُرْآن؛ فالبلاءُ مِنهم، ولهَذَا أعقبهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

فالحاصل الْآنَ: أن اللهَ أمـرَ نبيَّه أنْ يَعتـمِدَ عَلَى اللهِ، وبيَّـنَ له الحالَ الَّتِي كَانَ عليها، وأن هَذَا الدينَ حقٌّ بَيِّنٌ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن إعراضَ مَن أعرضَ عنه لَيْسَ لِقُصُورٍ فِي بَيَان هَذَا الدينِ وظهورِهِ، ولكِن لِقُصُورٍ فِي هَؤُلَاءِ الْمُعْرِضينَ؛ لِأَنَّ الدِّينَ هنا بالنِّسْبَةِ إليهم لم يصادِفْ محَلًّا، وكما هُوَ معروفٌ أن الأَمْرَ إذا لم يُصادِفْ محَلًّا قابلًا لم يَثْبُتْ، حَتَّى إنَّ الْإِنْسَان لَيقرَأُ آيَةً عَلَى مريضٍ فيَشْفَى، ويَقْرَؤها عَلَى مريضٍ آخرَ بنفسِ المرضِ فلا يَشفَى؛ لِأَنَّ المريض الأوّل قابلٌ مؤمنٌ بتأثيرِهَا والثانيَ لَيْسَ مؤمنًا بتأثيـرها فلا تَنْفَعه، فلا بدَّ فِي الأُمُـورِ من قابليّةٍ، يعني محَلًّا يَقبَـلُ هَذَا الشَّيْء، وإذا لم يَقْبَلْ فلا يُمْكِن أن يُلائِمَه.

وهَذَا كما أَنَّهُ فِي الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة، كذلك أيضًا فِي الأُمُورِ الْقَدَرِيَّة، فلو أَنَّنا زَرَعْنا قلبًا فِي إِنْسَانٍ، ونفرَ منه الجسمُ فلا يبقَى، بل يموتُ، أو زَرَعْنَا كُلْيَة فِي إِنْسَانٍ ونفرَ مِنْهَا الجسمُ، فإنها لا تَبْقَى، فتَتَعَفّن ويموت، فكل شَيْء لَا بُدَّ أن يَكُون المحلُّ قابلًا له، فإنْ لم يقبلْه فلا مكان له.

فهؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا عنِ الْقُرْآن إِعْرَاضُهُمْ لَيْسَ مَعْنَاهُ النَّقْص فِي الْقُرْآن، فالْقُرْآن حقٌّ بَيِّنٌ واضحٌ، لكِن البلاء مِنهم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجُوب التوكُّل عَلَى اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ والأَصْل فِي الأَمْرِ الوجوبُ، ومعنى التوكُّل سَبَقَ تفسيرُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ بالتوكُّل عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتيَسَّر الأُمُورُ؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ يُكَابِد مِنْ عنادِ بني إسرائيلَ وغيرِهم، فأمر الله بالتوكُّل عليه؛ لِأَنَّ الله ذكرَ فائدة التوكُّل فِي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، فبالاعتمادِ عَلَى اللهِ تتيَسَّر الأُمُورُ، وباعتماد الْإِنْسَان عَلَى نفسِهِ يحصُل الخِذلان.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]، مَعَ أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معهم، ومع أنّهم خَيْرُ القرونِ وأفضلُ أهلِ الْأَرْض، فلمّا قَالُوا: «لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»[1] حصَلَ هَذَا الأَمْر.

فيتبَيَّن بهَذَا أنّ مَنِ اعتمدَ عَلَى نفسِهِ فِي حصولِ مقصودِهِ أو دَفْعِ ضَارِّهِ فَإِنَّهُ يُخْذَلُ، ولهَذَا أمر اللهُ رسوله بالتوكُّل عَلَى اللهِ فِي هَذَا المقام -مَقام النِّزاع وبَيَان الحَقّ لبني إسرائيلَ- وَهُوَ يكابد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَسلِيةُ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(١) رواه أبو عوانة في مسنده (٦٧٥٤)؛ وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٣) وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٥/ ١١٣)؛ زاد المعاد (٣/ ١١١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ والخامِسَةُ: شَهادة الله تَعَالَى لِما جاء به الرَّسُول بأنّه حقّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ ومن هَذِهِ الفائدةِ نَستفيد فائدةً أُخرى، وهي: الترغيبُ فِي سلوكِ طريقِ النَّبيّ ﷺ ما دامَ حقًّا؛ لِأَنَّ كُلّ إِنْسَانٍ عاقلٍ يَختار الحقَّ عَلَى الباطلِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلة النَّبيّ ﷺ حَيْثُ كَانَ مَسْلَكه الحقّ المُبين؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فهَذَا فِيهِ شَهادة منَ الله وتزكيةٌ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ يَتَضَمَّن فضيلةَ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ الشهادةَ مِنَ اللهِ أَنَّهُ عَلَى الحَقّ المُبين.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن كُلّ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ باطلٌ؛ لأنَّنا لو قُلْنا: إنَّهُ حقٌّ لَلَزِمَ الجمعُ بين النقيضينِ، فلا يمكن أن يَكُونَ ما كَانَ عليه الرَّسُول حقًّا وهَذَا حقّ، فلا يُمْكِن وَهُوَ يخالفه؛ إذ هَذَا جمع بين النقيضينِ، فلا يُمْكِن أن يَكُون الشيئانِ المتناقضانِ كُلّ منهما حقّ، فلَا بُدَّ أن أحدهما هُوَ الحق، ولهَذَا يَقُول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، ويقول تعَالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ [سبأ:٢٤]، إحداها ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وبهَذَا نعرف أن جميع ما خالف ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهُوَ باطل، وَهُوَ فِي النَّار كما قَالَ الرَّسُول ﷺ: «**كُلّها فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»(١).

فإن كانت المخالَفَةُ تامَّةً فَهُوَ باطلٌ كلّه، وإن كانت المخالفة جُزْئِيَّة كَانَ فِيهِ منَ الباطلِ بِقَدْرِ ما خالفَ ما كَانَ عليه الرَّسُول ﷺ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: ظهور أحقيَّة ما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ حقّ لَيْسَ به خَفَاء؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب افتراق الأمم، حديث رقم (٣٩٩٣)؛ وأحمد (٣/ ١٢٠) (١٢٢٢٩)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ بَيَان الحَقّ لا يَلْزَم منه أن يَكُونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإن الخفافيش تَعْمَى بِضِيَاء النَّهارِ، فلا يَلْزَم من كونِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الحَقِّ المُبِيـن أن لا يُعْرِض عنه أحدٌ، ولهَذَا أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعني لا تظنَّ أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَعْرَضوا أَعْرَضوا لأنك عَلَى باطلٍ، بل لعدمِ قابليّة المَحَلّ، وكما هو معروف أن الشَّيْءَ وإنْ كان تامًّا إذا لم يَجِدْ مَحَلًّا قابلًا لم يَكُنْ له تأثيرٌ، فرجلٌ معه سيفٌ مُصْلَتٌ، وحادٌّ للغايةِ، وأمامه عمودٌ من حديدٍ صُلْب، وَهُوَ يَنْتَخِي[1] ويَقُولُ[2]:

أنــا ابــنُ جَـلَا وَطَـلَّاعُ الثَّنَايَـا ....

ويَضْرِب هَذَا الصُّلب بالسيف يريد أن يقطعَه، فهل ينقطع هَذَا؟

نَقُول: لا، لِعَدَمِ قابليَّة المَحَلّ، فالْآنَ السَّبَب موجودٌ: سيف صارِم، ورجل شجاعٌ، ورجل يعزِّز نفسه ويَتَشَجَّع ويَصِيح بهَذَا العمودِ منَ الحديدِ، وطبعًا إذا صار بهَذِهِ الحالةِ سيَضْرِب بقوّة، ومع ذلك لم يؤثِّر؛ لِأَنَّ المَحَلّ غير قابل.

فما كَانَ عليه الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منَ الحَقّ المُبِين، وَهُوَ حقّ مُبين بلَا شَكّ بَيِّن ظاهِر، وعدمُ سماعِ هَؤُلَاءِ له لَيْسَ لِخَلَلٍ فيه، فالسَّبَب تامّ، لكِن الخَلَل فِي المَحَل، فهو غير قابل لهَذَا الحقّ، ولهَذَا ما أحسنَ هَذِهِ الآيَةَ بعدَ الآيَةِ الَّتِي قبلها: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فلا تظنَّ أنَّك لستَ عَلَى حقٍّ، لكِنَّ هَؤُلَاءِ مَوْتَى.

• • ۞ • •

---

(١) أي يفتخر.

(٢) البيت لسحيم بن وثيل الرياحي، انظر الأصمعيات (ص:١٧).

الآيــة (٨٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل:٨٠].

قَالَ المُفَسِّر: [﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ الدِّين البيِّن، فالعاقبةُ لكَ بالنصرِ عَلَى الْكُفَّار، ثُمَّ ضَرَبَ أمثالًا لهم بالموتَى وبالصُّمِّ وبالعَمَى فقال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾].

وهَذَا مَثَل كما قَالَ المُفَسِّر؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ ما خرجَ إِلَى المقابرِ يدعو أهلَ القبورِ حَتَّى يُقَال له: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وإنما دعا الأحياءَ.

وبالنِّسْبَةِ لدعاءِ الأحياءِ فإنَّ النَّاسَ انْقَسَمُوا فِي هَذِهِ الدَّعْوَةِ إِلَى قِسمينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأنَّ إليها فهُوَ حيٌّ، ولهَذَا قَالَ الله تَعَالَى فِي الْقُرْآن: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس:٧٠]، لِيتَبيَّنَ أن المُراد بالحياةِ هنا حياة القلبِ وحياة الإِيمان، لا الحياة الجسديَّة؛ لِأَنَّ مقابلة الشَّيْء بالشَّيْءِ تفيدُ، معناه ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ لَيْس حياةَ جسمٍ، لو كانت حياة جسمٍ لقال: ويحقّ القَوْل عَلَى الموتى، ولكِن قَالَ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وبهَذَا عرفنا أن كُلّ حياةٍ فِي مثل هَذَا السياق فالمُراد بها حياةُ القلبِ، لا حياة الجِسْم.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ جمع ميِّت، والمُراد به هنا ميِّت القلب، أو نَقُول: إن المُراد به ميِّت الجسدِ، ويكُون هنا تشبيهًا؛ أي: أن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تدعوهم

ولم يؤمنوا كالموتى، لو أتيتَ إِلَى ميتٍ وقلت: يا فلان، اعبدِ الله وآمِن بالرَّسُول ﷺ واتقِ الله، فإنه لا يَنتفِعُ، كالحَجَر لا ينتفع، ولَا شَكَّ أنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قرَّر الحقَّ عَلَى الَّذِينَ أُلْقوا فِي قَليبِ بدرٍ وقال لهم: «**هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»[1]، وقال: «**لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[2] لكِن هَذَا عَلَى سبيلِ التوبيخِ، لا عَلَى سبيل الدَّعْوَةِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مهما كَانَ لا يمكن أنْ يُجيبوا فِي هَذِهِ الحالِ إجابةَ دعوةٍ.

ولهَذَا فالكافرُ لا يَنتفع انتفاعَ ثوابٍ بما يسمع عند قبرِه من تلاوةٍ أو ذِكر، وبه نَعرِف بدعة هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ابتدعوا القراءة عَلَى القبورِ، يَظُنُّون أن الميِّت يَنتفع، فنَقُول: لا يمكن أن ينتفعَ انتفاعَ الثوابِ، أَمَّا انتفاع تَخْفِيف عِقاب فهَذَا ربما يَنْفَع، لكِن لما لم يَرِدْ؛ فصار منَ البِدَع، وإلّا فهم يزعمون أن ذلك يخفِّف العذاب؛ لِأَنَّ الرَّسُول ﷺ قَالَ فِي الجريدتين: «**لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»[3]، وقَالُوا: إن العِلَّة فِي ذلك أَنَّهَا قبل اليُبْسِ تُسبِّح الله، فيُخَفَّف عنه لكونِهِ يُسَبَّحُ عندَ قَبْرِهِ، ولكِن هَذَا لَيْسَ بصحيح.

إِذَنْ: قوله: ﴿لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يَحتمِل أن يُراد بالموتَى هنا مَوْتَى القلوب، وحينئذٍ فالآيَةُ لَيسَ فيها تشبيهٌ، أو أَنَّهُم موتَى الأجسامِ، فيكُون هَؤُلَاءِ مُشَبَّهِين بالموتَى.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، حديث رقم (٣٧٥٧)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه، حديث رقم (٢٨٧٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب عذاب القبر من الغيبة والبول، حديث رقم (١٣١٢)؛ ومسلم، كتاب الطهارة، باب الدَّليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، حديث رقم (٢٩٢)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾: ﴿ٱلصُّمَّ﴾ مَفْعُول أوَّل، و﴿ٱلدُّعَآءَ﴾ مَفْعُول ثانٍ، وفاعل ﴿تُسْمِعُ﴾ مُسْتَتِر وُجوبًا، قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ يَعْنِي: لا تجعل الصُّمّ الَّذِينَ لا يَسمعون لا تَجْعَلهم يَسْمَعُون دعاءَكَ، والمُرادُ بالدعاءِ الطَّلَب، لَيْسَ دعاء الله، يعني لو دَعَوْتَ أصمّ وقلتَ: يا فلانُ يا فلانُ؛ فإنه لا يسمع.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ هل هُوَ دعاء الله تَعَالَى، يعني أنك إذا دعوتَهم لا يسمعون، أو الدعاء طَلَبهم؟

نَقُول: المُراد طلبهم، فالمُراد: لو دَعَوْتَهم ما سَمِعوك، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، يعني دعوتكم إيَّاه، ودعوته إيَّاكم، فيشمل الأَمْرينِ عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ.

أيضًا إذا كانوا صُمًّا ووَلَّوْا مُدْبِرِينَ يَكُون هَذَا أبلغَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا كَانَ مُقابلًا لكَ ربَّما يَفْهَمُ الخِطَابَ بحركاتِ الشفتينِ، لكِن إذا وَلَّى مُدْبِرًا لو تَرْمِي المدافِعَ خَلْفَه لا يَسْمَعُ، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾، وهَذَا غاية ما يَكُون مِن بُعْدِ السمعِ؛ والحقيقةُ أَنَّ هَؤُلَاءِ حالُهم كحالِ هَؤُلَاءِ الصُّمِّ المُدْبِرِين؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ مُعْرِضون عنِ الحَقّ غير قابلِينَ له، فلذلك صار هَذَا التشبيهُ بهم من أبلغِ ما يَكُونُ، فهُم صُمٌّ غيرُ سامعِينَ، ومع ذلك غيرُ مُقْبِلِينَ؛ لِأَنَّ الأصمَّ إذا أقبلَ عليك كما قلتُ رُبَّما يَفْهَم منك بعضَ الشَّيْءِ، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا فليسَ فِيهِ رجاءٌ ولا أَمَل، فقوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أقربُ ما يَكُونُ للتمثيلِ والتشبيهِ، يعني شَبَّهَهُم برجلٍ أصمَّ وَلَّى مُدْبِرًا، فكونها تَشبيهًا أقربُ، وإلَّا هنا يجوزُ أنْ نَقُولَ: إنَّهم صُمٌّ وإنَّ السمعَ انتفَى عنهم لانتفاءِ فائدتِهِ، والشَّيْء قد يُنْفَى لانتفاءِ فائدتِهِ كما فِي قولِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

قوله: ﴿ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾ يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيها قراءتانِ [بتحقيقِ الهمزتينِ]، ﴿ٱلدُّعَآءَ إِذَا﴾، [وتسهيل الثَّانِيَةِ بينها وبينَ الياءِ]، يعني تُسَهَّلُ الهمزةُ الثَّانِيَةُ حَتَّى تكون بينَ الهمزةِ والياءِ، فتَجْعَلها ليستْ ياءً خالصةً ولا همزةً خالصةً.

قوله: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ التَّوَلِّي هُوَ الإدبارُ، وَعَلَى هَذَا فتكونُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً للعاملِ أو لصاحبِ الحال؟

نَقُول: للعاملِ؛ لِأَنَّ نفسَ التولِّي إدبارٌ، مَثَلُهَا قولُه تَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:١٨٣]، فـ(مُفْسِدِينَ) حالٌ منَ الواوِ، وهي مؤكِّدةٌ للعاملِ؛ لِأَنَّ العُثُوَّ هُوَ الفسادُ.

هنا ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ من الفاعلِ، لكِن ليستْ مؤكِّدة للفاعلِ؛ لِأَنَّ الواو دالَّة عَلَى الجمعِ، فلو جاءتْ بلفظِ: (أجمعينَ) لكانتْ مؤكِّدة للفاعلِ، لكِن جاءتْ بلفظِ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ فهي مؤكِّدة للعاملِ ﴿وَلَّوْاْ﴾. فيَكُون هَذَا فِيهِ تأكيدانِ: التولِّي والإدبار، مَعَ أنَّ التولِّيَ هُوَ الإدبارُ، لكِن قد يَكُونُ المتولِّي فِيهِ رجاءٌ وأملٌ، يَتَوَلَّى وَهُوَ يَلْتَفِـت بقلبه إليك، لكِن إذا كَانَ مُدْبِرًا لا يلتفت؛ أي إدبار جَسَدِيّ وقلبيّ وَهُوَ أصمُّ، فيَكُون هنا فِيهِ ثلاثةُ موانعَ للقبولِ أو للسمـاعِ، وهي: الصَّمَم والتولِّي والإدبارُ.

• • ❁ • •

الآيــة (٨١)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل:٨١].

قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ قولُه: ﴿بِهَٰدِى﴾ فِيهِ إشكالٌ من الناحيةِ النحْويَّة، قَالَ: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ (هادي) اسمُ فاعلٍ، واسمُ الفاعلِ يعملُ عملَ الفِعْل، وهنا ما نَصَبَ ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ لِأَنَّهُ مضافٌ إِلَى مَفْعُوله مَعْنًى، وَلَيْسَ كقولِه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة:٢٥١]، لِأَنَّ ﴿دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ مضافة إِلَى فاعلها، وهنا مضافة إِلَى مَفْعُولها.

الإشكال الثاني: قوله: ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ بالكسرِ، ونحنُ قُلْنَا: إنَّ الاسمَ إذا كَانَ منقوصًا فَإِنَّهُ لا يَظْهَرُ عليه إِلَّا الفتحةُ، وهنا ظهرتِ الكسرةُ عَلَى الياءِ.

إِذَنْ: هَذَا لَيْسَ منقوصًا؛ لِأَنَّ المنقوصَ كُلّ اسمٍ مُعْرَبٌ آخرهُ ياءٌ لازمةٌ مكسورٌ ما قَبْلَها، وهَذِهِ ساكنٌ ما قبلها، إذن لَيْسَ منقوصًا.

قوله: ﴿بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ جمعُ أَعْمَى ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾، قوله: ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ هلْ هِيَ مُتَعَلِّقة بـ(العُمْي) أو بـ(هادي)؟

نَقُول: بـ(هادي) بلَا شَكّ.

وقال بعضهم: متعلِّقة بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾، وتكون ﴿عَن﴾ هَذِهِ للمجاوزة؛ كقولِهِ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود:٥٣]، أي أَنَّهُم عُمْيٌ بسببِ ضَلالتهم.

ولكِنَّه لَيْسَ بصحيحٍ، بل ﴿عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ(هادي)، ويَكُون (هادي) بمعنى صارفٍ؛ لِأَنَّ الهدايَةَ تَتَضَمَّنُ أمرينِ: الصَّرْف عنِ الضلالِ، والدلالة عَلَى الحقِّ، فيقول: ما أنتَ بصارفٍ هَؤُلَاءِ عن ضلالتهم إِلَى الحقِّ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِن﴾ ما ﴿تُسۡمِعُ﴾ سماعَ إفهامٍ وقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الْقُرْآن ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ مُخْلِصُون للهِ تَعَالَى بِتَوْحِيدِهِ].

قوله: [﴿إِن﴾ ما]، أي (إنْ) بمعنى: (ما)، ونحن ذكرنا قَبْلُ أن ﴿إِن﴾ تأتي لعدةِ أمورٍ: فتأتي شرطيَّة، وتأتي نافيةً، وللتَّوكيدِ، وهي المخفَّفَةُ مِنَ الثقيلةِ، وتكون زائدةً، فالزائدة فِي قوله[1]:

بَنِـي غُدَانَـةَ مَـا إِنْ أَنْـتُمُ ذَهَـبٌ ... وَلَا صَرِيـفٌ وَلَكِـنْ أَنْـتُمُ الخَـزَفُ

فقوله: (ما إنْ أَنْتُمُ) أي: ما أنتم، ولهَذَا قَالَ ابن مالِكٍ[2]:

إِعْمَالَ لَيْسَ أُعْمِلَتْ (مَا) دُونَ (إِنْ) ... مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

إعمال (ما) دون (إنْ) يَقْصِد بـ(إنِ) الزائدة، ومَثَّلُوا لها بالبيتِ السابقِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ الميِّتَ لا يَسْمَع، والمُراد بالميِّت هنا مَيِّـت القلبِ، أو الموتى مَوْتَى الأجسامِ عَلَى سبيلِ التمثيلِ. فإذا كَانَ ميِّتَ القلبِ فالأَمْرُ ظاهرٌ أَنَّهُ لا يَسْمَعُ سماعًا يَنْتَفِع به، وإلَّا فَهُوَ يَسْمَعُ سماعَ إدراكٍ لَكِنَّهُ لا يَنْتَفِعُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: استدلَّ بهَذِهِ الآيَةِ مَن قَالَ: إنَّ الموتى فِي قُبُورِهِم لا يَسْمَعُون.

---

(١) من شواهد الأشباه والنظائر (٣/ ٣٤٠)، وأوضح المسالك (١/ ٢٧٤)، والأشموني (١/ ٢٥٤).

(٢) ألفية ابن مالك - فصل في ما ولا ولات وإن المشبهات بليس (ص:٢٠).

وهَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، مِنهم مَن قَالَ: إنَّ الموتى يَسمعون ولكِن لا يُجيبونَ، ومنهم مَن قَالَ: إنَّهُم لا يَسمعون، وَيَقْبَلُ ما وردتْ به السنَّة من سماعهم لكِنّه يَقْصُرُهُ عَلَى ذلك، فيقول: فيما عَدَا ذلك لا يَسْمَعُ الميتُ، والسنَّة وردتْ بأنَّ الميِّتَ إذا دُفِنَ وتولَّى عنه أصحابُه فَإِنَّهُ يَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ[١]، والسنَّة وردتْ بما ثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ وقف عَلَى أصحابِ قَلِيبِ بَدْرٍ من المشركينَ وجعلَ يُؤَنِّبُهُم: «**يَا فُلَانَ ابْنَ فُلَانٍ، يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا؟**». فقَالُوا: يا رسولَ اللهِ، كيفَ يَسْمَعُون وأنَّى يُجِيبُوا وقد جَيَّفُوا؟ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ**»[٢]، فهَذَا الكَلامُ الآنَ والمناداةُ كان عندَ الدفنِ أو عند إلقاءِ الميِّت أو تسليمِهِ للآخرةِ، فلا يَقتضي أن يسمعَ كُلّ وقتٍ.

ومن العُلَمـاءِ مَن قَالَ: إنَّهُ يَسْمَعُ كُلَّ وقـتٍ، كشيخِ الإِسْلام ابنِ تَيْمِيَّة[٣]، ويَستدِلُّون بالحديثِ الَّذِي رواه ابنُ عبدِ البَرِّ وصَحَّحَهُ، وهو: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ**»[٤]، فيُصَحِّحُونَ هَذَا الحديثَ، لكِن بعضهم يُضَعِّفه ويقول: إنَّهُ لا يَصِحّ[٥]، ولكِنَّ هَذَا الحديثَ لا يَنبغي

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال، حديث رقم (١٢٧٣)؛ ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النَّار عليه...، حديث رقم (٢٨٧٠)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٦٢-٣٦٥).

(٤) الاستذكار لابن عبد البر (١/ ١٨٥) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. رواه الصيداوي في معجم الشيوخ (٣٣٤)؛ والخطيب في تاريخ بغداد (٦/ ١٣٧)؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ٦٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) انظر: العلل المتناهية (٢/ ٩١١).

أنْ يَكُونَ هُوَ رَكيزةَ مَن يَقُول: إن الموتى يَسمعونَ، بل إنَّنا إذا قُلنا: الموتَى يَسمعونَ، قد نستدلّ بحديثٍ أصحّ مِن هَذَا، وَهُوَ ما ثبتَ عن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ يزورُ المقبرةَ ويقول: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»[1]، وتوجيه السلام إليهم فِي الخطابِ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ، وإلَّا لكانَ يَقُول: السلامُ عَلَى أهلِ الديارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ولا يَقُول: عليكم.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إن هَذَا من بابِ قوَّة الاستحضار؟

قُلْنَا: قوَّةُ الاستحضارِ لا تَحتاج إِلَى الدُّنُوِّ، ولهَذَا نحن نَقُول: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» وإن كنَّا بَعيدينَ، ولا يُسَنُّ أن نَقُولَ الْآنَ هنا: السلامُ عليكم أهلَ الديارِ منَ الْمُؤْمنينَ حَتَّى نَحْضُرَ إليهم، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُم يسمعونَ.

يَبقى عندنا: إذا كانوا يَسمعون، فما هُوَ الجوابُ عن هَذِهِ الآيَةِ ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟

نَقُول: المُراد بالسماعِ سماعُ القبولِ إذا كَانَ المقصودُ بالموتى موتى القبورِ، أو السماع الَّذِي تَحْصُلُ به الإجابةُ، وسماعُ الإدراكِ الدنيويِّ هَذَا لا يُمْكِن، يعني لَيْسَ سماعُ الميِّتِ لِما يَتكلَّم به الْإِنْسَان كإدراكِ الحيِّ؛ بل هُوَ سماعٌ لا نعرف كيفيَّته، إِنَّما هُوَ سماع لا يمكِن أنْ يُجيب معه، إِلَّا إذا أرادَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إحياءَهُ وتكلّم ونطق فهَذَا يُمْكِن، مثل صاحب البقرةِ فإنَّ صاحبَ البقرةِ ضَرَبُوه ببعضها فأحياه اللهُ وتكلَّم ومات، ولكِنَّه لم يَتكلَّمْ ولم يُجِبْ إِلَّا بعدَ أنْ حَيِيَ حَياةً دنيويَّةً ثُمَّ أماته الله.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجه الدلالة من حديثِ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يُقَال عند دخول القبر والدعاء لأهلها، حديث رقم (٩٧٤)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ»؟

فالجواب: وجهُ الدلالةِ من الحديثِ قوله: «إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ» فكلَّما سلَّم عليه أحدٌ ردَّ الله عليه رُوحه وعرَفه، إذن هُوَ يسمع.

على كُلّ حالٍ: الموتى لا يَسمعونَ كُلّ كلامٍ، فمثلًا لو مررتَ أنتَ وصاحبٌ لكَ بجوارِ قبرٍ وأنتما تتكلمانِ لا يَلْزَم من هَذَا أَنَّهُم يسمعونَ، لا يسمعون إِلَّا الخطابَ الموجَّه إليهم، وإن كَانَ ظاهرُ كلامِ الفقهاءِ أَنَّهُم يَسمعون حَتَّى ما لا يُخاطَبون به.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هم يسمعون سلامنا فقطْ، وإذا كلّمناهم مرةً أخرى لا يسمعون؟

فالجواب: يَسمعون مُطْلَقًا؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ السَّبَب فِي هَذَا السماعِ -الخطاب- خاطبناهم، وما دام الخطابُ إذا سَمِعُوه مرةً سمعوه مرةً أخرى فما المانع.

وَلَوْ قِيلَ: إن الرُّوح تُنْزَع بَعْد السلام؟

نَقُول: الظَّاهرُ أَنَّهَا إذا رُدَّت فإنها إذا انتهى السلام لم تَسْمَعْ، فنحن نَقُول: كلَّما خُوطِبوا ردَّ اللهُ عليهم أرواحَهم فسمِعوا.

بَقِيَ أن يُقالَ: هل يَسمعون بدونِ مخاطبةٍ؟

ظاهر كلام الفقهاءِ أيضًا أَنَّهُم يَسمعون، ولهَذَا قَالُوا: إن الميِّـتَ يتأذَّى بفعل المنكَرِ عندَه من قولٍ أو فعلٍ، وَعَلَى رأيِ الفقهاءِ -ولا أدري ما مُسْتَنَدُه- يَسمعون حَتَّى ما لم يُخاطَبُوا به، وعليه أيضًا يَكُون الْإِنْسَان إذا شَرَّفَ القبرَ بالأحجارِ الَّتِي تُلْقَى عليه أو بالكتاباتِ أو بغير ذلك فإن الميتَ يتأذَّى به؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْمُنْكَر، فتشريف القبرِ وتمييزه عَلَى غيرِهِ من القبورِ هَذَا منكَر ولا يجوزُ، فعلى كلامِ الفقهاءِ يتأذَّى الميِّت

بذلكَ، ويَكُون هَذَا الَّذِي أرادَ تشريفَ ميتِه هو فِي الحقيقةِ آذاهُ، وَأَمَّا سَماع الميّتِ صَباحَ الجُمُعة فغيرُ صحيحٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ مَن لم يَقْبَلِ الحقّ فَهُوَ بمنزلةِ الأصمِّ الَّذِي لا يَسْمَعُه؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الجوارحَ والحواسَّ الَّتِي لا يُنْتَفَعُ بها كالمعدومةِ، ووجهُ ذلك: أن هَؤُلَاءِ لهم آذانٌ ولهم سمعٌ، لكِن لَمَّا لم يَنْتَفِعوا به صَاروا صُمًّا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيَان شِدَّة إعراض هَؤُلَاءِ عنِ الحقِّ؛ لِأَنَّهم صُمٌّ مُوَلُّون مُدْبِرون، وهَذَا أبعدُ ما يَكُونُ عنِ السماعِ، فالأصمُّ إذا كَانَ مُقْبِلًا إليكَ قد يَفْهَم منك ما يَفْهَمُه منَ الإشاراتِ والحركاتِ فيَنْتَفِع بذلكَ، ولو كَانَ أصمَّ لكِن إذا ولّى مَعَ الإدبارِ -ولى ببدنه وأدبر بقلبِه أو بالعكسِ- فإن ذلك يَكُونُ أشدَّ استحالة فِي سماعِهِ ممَّا إذا كَانَ أصمَّ مَعَ الإقبالِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الْإِنْسَانَ -والعياذُ باللهِ- إذا ولَّى مُدْبِرًا عنِ الشرعِ فَإِنَّهُ قد يُعاقَبُ بالصممِ عن سماعِ الحقّ، بِحَيْثُ إِنَّهُ لا يَنتفعُ بموعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهَذَا هُوَ الغالبُ، فالغالبُ أن الْإِنْسَان إذا كَانَ لَيْسَ عنده إقبالٌ عَلَى الحقّ أن يُحْرَم الحقَّ، حَتَّى لو تكلَّم النَّاس وفعلوا وأقاموا الأدلَّة ما انتفع بذلك.

ونضربُ لكم مثلًا الْآنَ بالمُرابين والمُتحَيِّلِين عَلَى الرِّبا، هم يَسمعون المواعظَ لكِنَّهم مُوَلُّون، ويَرَوْنَ أن ما هم عليه لَا بُدَّ أن يفعلوه، ولذلك ما وُفِّقوا للانتفاع بها، بل بَقُوا عَلَى ضلالهم، والسَّبَب فِي هَذَا أَنَّهُم لَيْسَ عندهم أيُّ إقبالٍ من الإقبال الَّذِي يَنْفَعُهم.

فلهَذَا نَقُول: إن هَذِهِ الآيَةَ تدلُّ عَلَى أنَّ الإِنْسَانَ إذا ولَّى مدبِرًا عنِ الْحَقِّ فَإِنَّهُ لا يُوَفَّق لِسَماعٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ الْمُعْرِضَ عنِ الحَقّ بِمَنْزِلَةِ الأعمَى؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَملِك هداية الخلقِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ ولا يعارِض هَـذَا قول اللهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، لِأَنَّ الهدايةَ المثبَتة غيرُ الهدايةِ المَنْفِيَّة، الهداية المثبتة هداية الدلالةِ والعلمِ والبيَان، فالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلِّم ومُبيِّـن ودالّ للخلقِ عَلَى الحقِّ، وَأَمَّا التَّوفيق لذلك فَهُوَ بيدِ الله.

فالجمع بين الهدايةِ المثبَتة للرَّسُول ﷺ والمنفيَّة عنه أن نَقُولَ: ما أُثْبِت للرَّسُول فَهُوَ هدايةُ العلمِ والبيَان، وما نُفِيَ عنه فَهُوَ هدايةُ التَّوفيقِ والعَمَلِ، فلا يستطيع هَذَا أبدًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ هَؤُلَاءِ الجماعة الَّذِينَ أَعرضوا عنِ الحَقّ قد أُقفلتْ عليهم طرقُ الخيرِ، فهم موتى القلوبِ، لم يَنتفعوا بقلوبهم، صُمُّ الآذانِ لم ينتفعوا بآذانِهم، عُمي العيونِ لم يَنتفعوا بعيونهم، والآياتُ إِمَّا عقليَّة أو مسموعة أو مرئيَّة، فالعقلية مَحلّها القلبُ، وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، والمشهودةُ بالعيـنِ وقد انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْيِ﴾، والمسموعةُ بالآذانِ انتفى عنهم الانتفاعُ بها فِي قوله: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾، فجميعُ الطرقِ الَّتِي تَحْصُلُ بها الهدايةُ فِي هَؤُلَاءِ كلها -والعياذُ باللهِ- مسدودةٌ مُغْلَقة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أَنَّ الَّذِي يَنتفِع بالآيَاتِ الَّتِي جاء بها الرَّسُول هم المؤمنون بها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ كلَّما قوِيَ إيمان الْإِنْسَانِ بآيَاتِ الله قوِي انتفاعه بها؛ لِأَنَّهُ عُلِّقَ عَلَى وصفِ الإِيمانِ بهَذِهِ الآيَات فكلَّما قَوِيَ هَذَا الوصفُ قوي الانتفاعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِيمان يَسْتَلْزِمُ الإِسْلامَ؛ لقولِهِ: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهل الإِسْلام يَستلزم الإِيمانَ؟

لا يَسْتَلْزِمه، قد يَكُون الْإِنْسَان مُسلِمًا وَلَيْسَ بمؤمنٍ، ولهَذَا قيل عند الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن رجلٍ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ. فقال: «أَوْ مُسْلِمٌ»[1]. فدلَّ ذلك عَلَى الفرقِ بين الإِيمانِ وبين الإِسْلامِ.

وكثيرٌ منَ المُسلمين الْآنَ مسلمونَ، ولكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ، وكثير من المُسلِمينَ مُسْتَسْلِمُونَ وليسوا بمسلمينَ، فالمسلمونَ اليومَ إمَّا مُسْتَسْلِم أو مُسْلِم أو مؤمِن، أَقَلُّهُمُ المؤمنُ بلَا شَكّ، والمسلمُ المستسلِم كثيرٌ فِي البلادِ الَّتِي هي غير بلادنا، فأكثرهم مسلم بمعنى مستسلِم هُوِيَّةً فقطْ، وهَـذَا يأتي ناس من البلاد الأُخْرَى ويَقُولُونَ: لا نعرف أن نَتَوَضَّأ ولا نعرف أنْ نُصَلِّيَ، ولا نعرِف أوقات الصَّلَاة، ومع ذلك مكتوبٌ فِي الهُوِيَّة: مسلمٌ.

القسم الثَّالث: المسلمُ غير المؤمن، وهَذَا كثيرٌ فِي بلادنا، فهم مسلمون لكِن ليسوا بمُؤْمِنِينَ؛ والدَّلِيل عَلَى هَذَا أن الأَعْمَالَ أو الأخلاق الَّتِي عُلِّقت بالإِيمانِ تَجِدُها

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وَكَانَ على الاستسلام أو الخوف من القتل، حديث رقم (٢٧)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع، حديث رقم (١٥٠)، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مفقودةً فِي كثيرٍ من هَؤُلَاءِ «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[1] موجود هَذَا بِقِلَّة، «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[2] انتفاء الغِشّ موجود بقلّة، «**لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[3] بقِلَّة، وامشِ عَلَى هَذَا.

المهمّ أنّ الإِيمان بالنِّسْبَةِ للمسلمينَ اليومَ قليلٌ، والإِسْلام كثيرٌ، والاستسلام أكثرُ.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المسلمُ الْمُسْتَسْلِم يدخل الجَنَّة؟

قُلْنَا: المستسلمُ يدخلُ الجَنَّة لِأَنَّهُ مسلمٌ شَرعًا، لكِن لم يَدْخُلِ الإِيمانُ قلبَه، فمآله إِلَى الجَنَّة، لكِن له معاصٍ، إمَّا يُعَذَّب عليها أو يُعْفَى عنها.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين المسلمِ المستسلِم والمنافِق؟

قُلْنَا: المستسلمُ عنده إيمانٌ، وَأَمَّا المنافِقُ فليسَ عنده إيمانٌ إطلاقًا، فالمنافق قلبه خالٍ من الإيمانِ والعياذُ بالله، فالمستسلم أرفعُ مِنَ المنافقِ؛ لِأَنَّ المستسلم عنده اتجاهٌ للإسلامِ حقيقةً، لكِن لَيْسَ عنده الشَّيْءُ الَّذِي عند المسلمِ الَّذِي يُنَفِّذُ الشرائع، وغالبًا يَكُونُ جاهلًا.

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، حديث رقم (١٣)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدَّليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم (٤٥)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النَّبِيّ ﷺ: «**من غشنا فليس منا**»، حديث رقم (١٠١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم (٥٦٧٠)، عن أبي شريح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم (٤٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: أنَّ الآيات كثيرةٌ ليستْ واحدةً؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، وهي تنقسم إِلَى قسمينِ: آيات كونيَّة وآيات شرعيَّة. فما جاءت به الرُّسُلُ ونزلتْ به الكتب فَهُوَ آياتٌ شرعيَّة، وما كَانَ منَ الحوادثِ فَهُوَ من الآياتِ الكونيّة، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، هَذِهِ الآياتُ الكونيَّة، وقال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف:٧]، هَذِهِ الآيات الشَّرعِيَّة.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ما وجهُ كونِ الآياتِ آياتٍ؟

قُلْنَا: لِأَنَّهَا دالَّةٌ عَلَى الله، فالآياتُ الكونيَّة دالَّة عَلَى الخالقِ مِن حَيْثُ القدرةُ والحِكْمَةُ والسلطانُ إِلَى غيرِ ذلكَ من معاني الرُّبُوبِيَّة.

والآيات الشَّرعِيَّة دالَّة عَلَى مُنَزِّلِهَا من حَيْثُ العدلُ والإصلاحُ؛ لِأَنَّ جميعَ الشرائعِ، ولَيْسَ شريعة الإِسْلام فقطْ الَّتِي جاء بها مُحَمَّدٌ ﷺ، كلّها تحاربُ الفسادَ وكلها تقرِّر الصلاحَ، لكِن شريعتنا تمتاز عَلَى غيرها بأنَّها تراعي المصالحَ الْعَامَّة.

• • ❁ • •

الآيــة (٨٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢].

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حقَّ العذابُ أنْ ينْزِلَ بهم فِي جملةِ الكفّار]، وهَذَا تفسيرٌ منه عَلَى أنّ الضَّميـرَ فِي قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إِلَى كفارِ مكَّة، ولهَذَا احتاج أن يقولَ: [فِي جملة الكفّار]، لأجل التوطِئة لَما بعدَه ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ويجوز أن يَكُون الضَّمير عائدًا إِلَى جميعِ النَّاسِ، أي ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ﴾ عَلَى النَّاسِ، ولا يَكُون المُرادُ بالقَوْلِ هنا القَوْل بالعذابِ، بل يجوز أن يَكُون المُراد به القَوْل بانتهاء الدُّنْيا، وتُحمَل الآية عَلَى الدابّة الَّتِي تخرج فِي آخِـرِ الزمانِ، وهي من أشراط الساعة.

قوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ نكَّرَهَا لِأَنَّهَا غيـر معروفةٍ، فكأنها دابَّة منفرِدة فِي نوعها.

قولـه: ﴿دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ﴾: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ هـل هِـيَ متعلِّقـة بـ﴿دَابَّةً﴾ أو بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾؟

الظَّاهـرُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بـ﴿دَابَّةً﴾، يَعْنِي: أخرجنا لهم دابَّـةً مِنَ الْأَرْض، لا من السَّماء.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إذا قُلْنَا: إِنَّهَا متعلِّقة بـ﴿أَخْرَجْنَا﴾ أو بـ﴿دَآبَّةً﴾ هل يَخْتَلِف المَعْنى؟

نعم، يختلف المَعْنى، إذا قَالَ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يمكن أن ينزل مَلَكٌ فِي الْأَرْض، ثُمَّ يخرج مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ ما عُيِّن من أين تكون هَذِهِ الدابَّة، وَأَمَّا إذا قُلْنَا: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فتتَعَيَّن أن تكون من دوابّ الْأَرْض.

وقوله: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ يعني تكلِّم النَّاس، والكَلام هنا بمعنى الحديثِ، قَالَ المُفَسِّر: [أي: تكلِّم الموجودين حينَ خُروجها بالعربيَّة]، يجوز أن تكون بالعربيّة أو بغيرها.

عَلَى كُلِّ حالٍ: هِي تُكَلِّمُ النَّاسَ بكلامٍ يَعرِفُونَهُ، فهَذَا هُوَ المتبادر من الكَلامِ، ويمكن أن يقال: إنَّهُم إذا لم يُوقِنوا بآيَاتِ اللهِ يُسَلِّط اللهُ عَليهم السِّباع تأكلهم وتجرحهم، لكِن هَذَا بعيدٌ، وما رأيتُ هَذَا من كلامِ السلفِ، كلُّه من كلام المتأخِّرين.

ويرى بعض المفسِّرين أن المُراد بالكَلامِ هنا الجَرْح، تُكَلِّمُهُمْ يعني تُجَرِّحُهُم، أي: تَخْمِشُهم بأظفارها، قَالُوا: لِأَنَّ الكَلْمَ يأتي بمعنى الجَرحِ؛ كقولِهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا»(١).

ولكِنَّ هَذَا القَوْل لَيْسَ بصحيحٍ؛ لِأَنَّ الأَصْل فِي الكَلامِ هُوَ النُّطْقُ، ولا معنى لكونها تُجَرِّح النَّاسَ. لكِن بماذا تكلمهم؟

قَالَ: [مِن جملةِ كلامها عنَّا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾]، إِلَى آخره، قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من جملة كلامها عَنَّا] أي أَنَّهَا تقول عن اللهِ، عَلَى لِسانِ الدابَّة؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم (٢٦٤٩)؛ ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم (١٨٧٦)، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ لا يستقيم أن يَكُونَ مِن كـلامِ الدابَّة عن نفسها؛ إذ إنَّ الدابَّة لَيْسَ لها آيات يَجِـب الإيقان بها، وإنما الآيَاتُ الَّتي يَجِب الإيقانُ بها لله، ولِهَذَا يَقُول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عنّا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أي كفَّار مَكَّة، وَعَلَى قراءةِ فتحِ همزةِ «أَنَّ» تُقدَّر الباءُ بَعْد تكلمهم][1]، أي تكلّمهم بهَذَا الكَلام ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾.

استفدنا من كلام المُفَسِّـر (وَعَلَى قراءة فتح همزة أنَّ) أنَّ الأَصْلَ الَّذِي فسَّره بالكسر (تكلمهم إنَّ النَّاس) فيَكُون هَذَا مبتدأ الكَلام، وَعَلَى قراءة الفتحِ يَكُون عَلَى تقديرِ حرفِ الجرّ، أي: بأن النَّاس ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ المُرادَ بالنَّاسِ كفَّار مكَّة، هَذَا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ؛ بل إنَّ المُرادَ بالنَّاس الموجودون فِي ذلك الوقت الَّذِينَ وقعَ عليهم القَوْلُ فَأُخرجت لهم الدابَّة تُنْذِرُهم.

وَأَمَّا كونه يقال: إن كفار مَكَّة لا يُوقِنُونَ فلا حاجةَ إِلَى إخبارها عنهم، فإخبار الْقُرْآن عنهم أوكَدُ من إخبارِ هَذِهِ الدابَّة عنهم، فكلام المُفَسِّر هنا فِيهِ نظرٌ ظاهرٌ، وَلَيْسَ بصوابٍ أبدًا، بل هُوَ خطأٌ؛ فهي تكلِّم النَّاس الَّذِينَ وَقَعَ عليهم القَوْلُ حين خُرُوجِها، تُحَذِّرُهُمْ أن النَّاس كانوا بآيات اللهِ لا يوقنون، هَذَا ما مشى عليه المُفَسِّر وأكثرُ المفسِّـرين عَلَى أن كلام هَذِهِ الدابة: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، ولِهَذَا احتاج إِلَى تقدير (عنّا).

لكِنَّ ابن كثير استبـعدَ هَذَا القَوْل، وقال[2]: إنَّهَا تكلمهم وتُحَدِّثُهم بحديـثٍ مُسْتَقِلٍّ ما بُيِّنَ فِي الْقُرْآن، ويَكُون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ هَذَا تعليلًا لِقَوْلِهِ:

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧٥).

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ يَعْنِي: فليست الدابَّة هِيَ الَّتِي تقول للناس: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَـذَا القَوْل لا يمكن أن تَنْطِـقَ به الدابَّة؛ إذ إِنَّهُ لا يَصِحُّ أن يَكُون إِلَّا منَ اللهِ. لهَذَا أنكر هَذَا القَوْل، مَعَ أَنَّ ابنَ جَرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ اختاره[1]، لَكِنَّهُ هُوَ عَلَى أنه مُخْتَصَر لابنِ جَريرٍ أنكرَ هَذَا، وقال: إنَّهَا تُكَلِّمُهُم بكلامٍ لم يُبيِّن، وإن قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ بالفتحِ أو بالكسرِ، الجملة تعليل لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

وقـوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، معنـى ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ يَقُـول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يُؤْمِنُون بالْقُرْآن المشتمِـل عَلَى البعثِ والحسابِ والعقابِ]، وتفسير الإيقان بالإيمـانِ فِيهِ قُصُورٌ لَكِنَّهُ تقريبيٌّ؛ لِأَنَّ الإيقانَ أبلغُ منَ الإيمانِ وأخصُّ منه، فَهُوَ درجةٌ عاليةٌ أعلى منَ الإيمانِ، ولهَذَا قولُكَ: أيقنتُ بكذا، أبلغُ من قولكَ: آمنتُ به.

وهَذِهِ الدابَّة أوَّلًا: نبحثُ فيها هل هِيَ الدابَّة الَّتِي تخرج فِي آخِرِ الزمانِ والَّتِي ذكرها النَّبيّ ﷺ من علاماتِ الساعةِ أو دابَّة أخرى؟

يرى بعض العُلَماء أَنَّهَا هِيَ الدابة الَّتِي تكون فِي آخِرِ الزمانِ، ويرى آخرونَ أَنَّهَا دابَّة أُخرى، ولهَذَا جاءت فِي الحديثِ مُعَرَّفَة وجاءت هنا منكَّرَةً، فيقال: دابة واللهُ أَعْلَمُ بها هل هِيَ الَّتِي تكون من أشراط الساعة أو أَنَّهَا دابة مستقلَّة؛ لأَنَّنا لو نَعلَمُ أن الحديث بَعْد هَذِهِ الآيَةِ لقُلْنَا: إن الدابَّة فِي الحديث للعهدِ الذِّهْنِيّ، يعني الدابَّة الَّتِي عَرَفْتُمُوهَا وتحدَّث الله عنها، وحينَئِذٍ تكون الدابَّة هنا هِيَ الدابة هناك، ولَكِنَّنَا لا نعلم، ولهَذَا التوقُّف أَولى؛ هل هِيَ هي أو غيرها.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٠/ ١٤-١٧).

ثانيًا: هَذِهِ الدابَّة مُبْهَمَةٌ من حَيْثُ المكانُ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لكِن من أيِّ مكان تُخْرَج؟

وَرَدَتْ أحاديثُ لَكِنَّها ضعيفةٌ أَنَّهَا تَخْرُجُ من مكَّة من أَجيادٍ أو منَ الصَّفَا أو من مكان آخرَ[1]، المهم أَنَّهَا تخرج من مَكَّة، ولَكِنَّهَا أحاديث ضعيفة لا يُعتمَد عليها فِي العقيدة.

ثم هل هِيَ تُخْرَج حقيقةً من الْأَرْض فتَنْشَقّ عنها الْأَرْض وتخرج، سواء من مكَّة أو غيرها، أو أن المُراد بالإخراج هنا إبرازها وإظهارها، وأنها دابة كغيرها من الدوابّ، ثُمَّ تَتبيَّن بما يَحْصُلُ لها منَ النُّطق، ويَكُون هَذَا كقول الرَّسُول ﷺ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ**»[2]؛ لِأَنَّ السباع فِي آخرِ الزمانِ تكلِّم الإنس؟

هَذَا أيضًا مَحَلُّ تَوَقُّفٍ، ولذلك هَذِهِ الدابة نَكِرة لفظًا ومعنًى، فنحن لا نَعْرِفها تمامًا؛ لِأَنَّهَا ما وُصِفَتْ فِي الْقُرْآنِ أو فِي السنَّة أوصافًا بحيثُ يَجْزِمُ الْإِنْسَان بها.

كذلك هَذِهِ الدابَّة هل هِيَ من جِنْسِ الدوابِّ أو أَنَّهَا دابَّة معيَّنة عَلَى شكل معيَّن؟

تكلَّموا فِي هَذَا كلامًا طويلًا، وكل ما ذَكَرُوا إِنَّمَا هُوَ مأخوذٌ عن بني إسرائيلَ، ولا يمكن أن يُصدَّق، غاية ما هنالك أَنَّهُ يُحَدَّثُ به ولا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب ولا يُعْتَمَد عليه فِي العقيدةِ؛ فذكروا عن آذانِها وذكروا عن عَينها وعن رِجلها أَشْيَاءَ غريبةً جدًّا.

المهم: أننا نُبهِمُ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، ولا نُعيِّن ما لم يُعَيِّنْه الله ورسولُه، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بأنه إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ فسوفَ يُخْرِجُ اللهُ لهم دابَّةً منَ الْأَرْض تُحَدِّثُهُم، وتكون

(١) انظر: مصنف ابن أبي شيبة (٣٧٢٨٦)، الفتن لنعيم بن حماد (٢/ ٦٦١-٦٦٦).

(٢) رواه الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في كلام السباع، حديث رقم (٢١٨١)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هَذِهِ الدابَّة آيَةً عَلَى أنّ العذاب قد قَرُبَ وُقُوعُه منهم، هَذَا غاية ما يُسْتَدَلُّ عليه من هَذِهِ الآيَةِ.

فإِذَنْ: يَكُون قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ﴾ أو ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ لَيْسَ من قول الدابّة عَلَى هَذَا التَّقْدير، بل هُوَ من قولِ الله تعليلًا لِقَوْلِهِ: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً﴾ يعني يُخْرِجها؛ لِأَنَّ النَّاس كانوا، وعليه فيَكُون مطابقة هَذَا التعليلُ للشرطِ فِي قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ يَكُون مطابقته مطابقة السَّبَب للمسبّب، إذا كانوا لا يوقنون حينئذٍ وقع عليهم القَوْلُ وحينئذٍ أُخرجتِ الدابَّة.

قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآياتِ هنا الكونيَّة والشَّرْعِيَّة، لكِن الكونيَّة ألم يوقن بها الكفار؟ بلى، لَكِنَّهُ إيقانٌ لم يَنْفَعْهُمْ، والشَّيْءُ الَّذِي لا يَنْفَعُ يَصِحُّ أنْ يُنْفَى لعدمِ الانتفاعِ به.

قال: [وبِخُرُوجِها]، بخروج الدابَّة [يَنْقَطِع الأَمْرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَرِ ولا يؤمن كافرٌ]، لِأَنَّهُ قد وقعَ عليهم القَوْلُ؛ وإذا صحَّ هَذَا التفسير فإنَّ معنى ذلك أن هَذِهِ الدابَّة من أشراط الساعةِ؛ لِأَنَّهُ لا يَكُون الأَمْر كذلك إِلَّا فِي آخِرِ الزمانِ بعدَ أن يَنزِلَ عيسى ﷺ ويبقى فِي الْأَرْض سبعَ سنينَ، لا يَحْصُل بين اثنينِ عداوةٌ ولا شَحناءُ، ثُمَّ يُرْسِل الله رِيحًا باردةً من قِبَلِ الشام فتَقْبِض نفسَ كُلّ مُؤْمِنٍ[1] ويَبْقى شِرارُ النَّاسِ، فِي خِفَّةِ الطيرِ وأحلامِ السِّباعِ[2].

(١) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه، حديث رقم (٢٩٣٧)، عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير والإيمان وبقاء شرار الناس...، حديث رقم (٢٩٤٠)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فإذا كَانَ هَذَا الَّذِي فَهِمَهُ المُفَسِّـر من هَذِهِ الآيَةِ بهَذَا الأَمْرِ؛ فإنَّ هَذِهِ الدابَّة يَكُونُ خُرُوجها بَعْد عيسى بنِ مَرْيَمَ؛ لِأَنَّهُ بَعْد ذلك يَقُول المُفَسِّر: إنَّهُ لا يؤمن كافرٌ ولا يُؤمَر بالمعروفِ ولا يُنهَى عنِ المُنكَر.

ولكِن موقفي فِي هَذَا أن أقولَ: اللهُ أَعْلَمُ؛ يعني أن هَـذِهِ المسألةَ من مسائل الغيب الَّتِي يَتَوَقَّف الإِنْسَان فيها إِلَّا عَلَى ما يفيده ظاهِرُ الْقُرْآن، فنَقُول: إيمانُنا بهَذَا أن نَقُولَ: إِنَّهُ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاس باستحقاقِ العذابِ أخرجَ اللهُ لهم هَذِهِ الدابَّة الَّتِي تُكلِّمهم ولا نزيد عَلَى هَذَا، ولا نَقُول: يَنقطِع الأَمْر بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَر، ولا نَقُول: إِنَّهُ لا يؤمن الكافر؛ لِأَنَّ ذلك أمرٌ يحتاجُ إِلَى توقيفٍ، كما أَوحَى الله إِلَى نوحٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود:٣٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: خُرُوج الدابَّةِ إذا وقعَ القَوْلُ عَلَى النَّاسِ، وذلكَ بأَنْ كَفَـروا وأَعْرَضوا عن دِينِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأخرج الله لهم هَذِهِ الدابَّةَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هَذِهِ الدابَّة الَّتِي ذَكَرَ اللهُ مُبْهَمَة، فلا يُعْلَم صِفَتها ولا كيف تَخْرج ولا من أينَ تَخْرج، وما ذُكر من الآثارِ فِي ذلك فكلُّها ضعيفةٌ لا يُعَوَّل عليها، وحَسْبُنا أن نؤمنَ بما ذكرَ اللهُ تَعَالَى مُطلَقًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ، حَيْثُ كانتْ هَذِهِ الدابَّةُ تكلِّم النَّاس بكلامٍ يفهمونه، مَعَ أن الحيـواناتِ تتكلَّم بكلامٍ لا يَفهـمه الإنسُ إِلَّا مَن علَّمه الله تَعَالَى مَنْطِقَها، كما فِي قِصَّة سُلَيْمان.

الْفَائِدَةُ الرَّابعَةُ: بَيَان حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الإنذار، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْـذِر النَّاس بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدْهُمُ الآيَاتُ الشَّـرْعِيَّة، وهَذَا كثيـرٌ، كالكسوفِ

والزلازلِ والفيضاناتِ والصواعِقِ والحاصِبِ منَ السَّماءِ بالبَرد أو غيرِه، كُلّ هَذا إنذارٌ بالآيَاتِ الكونيَّة إذا لم تُفِدِ الآيات الشَّرْعِيَّة، وقد قيل[1]:

الْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا ... وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةُ

فالمؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآيَاتِ العظيمةِ، ولكِن الْمُعْرِض اللئيم لا يَنْفَع فِيهِ إِلَّا العَصَا، إِلَّا الآيَات الكونيَّة الَّتِي تُخْضِعُه بغيرِ إرادته، هَـذَا إذا لم يَكُنْ أيضًا قلبُه ميِّتًا للغاية، فإنْ كان قلبُه ميتًا للغايةِ لم تَنْتَفِ حَتَّى الآيَاتُ الكونيَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قِطعًا من العذاب تَنزل من السَّمَاءِ، ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤]، وعاد لما رَأَوْهُ عَارِضًا مستقبِلَ أوديتهم ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]، وَفِي الوقتِ الحاضر إذا رَأَوْا هَذِهِ العقوباتِ يَقُولُونَ: هَذَا أمر طبيعيٌّ، من فَيَضَانات طبيعيَّة وبراكينَ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ منَ الكَلامِ الَّذِي يَدُلّ عَلَى موتِ القلوبِ.

فإذَنْ: نَستفيد من هَذِهِ الآيَةِ: إنذار اللهِ تَعَالَى بالآيَاتِ الكونيَّة كما هُوَ عادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِي العلمَ حَتَّى البهائم، هَذِهِ الدابَّة تقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ عَلَى أحدِ القَوْلينِ فيها، والقَوْل الثاني: أن هَذَا الكَلام من كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الكَلام عَلَى الدابّة انتهى عند قوله: (تكلّمهم)، يعني كأنها مِنهم، ثُمَّ يُعَلِّلُ اللهُ هَذَا الإخراجَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهِ أنَّ عدمَ الْيَقِينِ بآيَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سببٌ للهلاكِ، وَأَنَّهُ لا يَكفِي التردُّد أو الإيمان الضعيفُ، بل لَا بُدَّ منْ إيقانٍ، فالمتردِّدُ بما يَجِب الإِيمانُ به

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ١٩).

ليسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لم يُوقِنْ، بل لَا بُدَّ منَ الإيقانِ، وَأَمَّا التردد والشكُّ حَتَّى مَعَ ترجُّحِ ما ذكرَ اللهُ فَإِنَّهُ لا يفيدُ الْإِنْسَانَ، يَعْنِي: لو آمن إِنْسَان لكِن عنده بعضُ الشكِّ فإن ذلك لَيْسَ بمؤمنٍ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ منَ الْيقينِ بما يجبُ الإِيمان به.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أصحاب الأَعْرَاف هلْ يَدُلّ عَلَى أَنَّهُ عندهم نوعٌ مِنَ الشَّكِّ؟

فالجوابُ: لَيْسَ عندهم نوعٌ منَ الشَّكِّ، لكِن عندهم ضعفٌ فِي الانقيادِ وعدم عِلْم ما أنزلَ الله، وَأَمَّا لو كَانَ عندهم شكٌّ فما صاروا مُؤْمِنِينَ إطلاقًا ولا مسلمينَ أيضًا، فهَذَا نفيُ كمالِ الإِيمانِ لا نفيُ أصلِ الإِيمانِ، وَأَمَّا مَعَ الشكِّ فإن أصلَ الإِيمانِ لم يوجدْ، وَأَمَّا الإِيمانُ الاعتقاديُّ إذا لم يوجدْ كاملًا فَإِنَّهُ لا ينفعُ الْإِنْسَان، فالإِيمان يَكُون مَفقودًا عند الشكِّ فيه، فلَا بُدَّ من الإِيمانِ الجازِمِ، ولهَذَا مَن شكَّ فيما وعدَ اللهُ به، ومَن لم يُؤْمِنْ بخبرِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فَهُوَ كافرٌ؛ لِأَنَّ خبر اللهِ جَلَّوَعَلَا يَجب التَّصْديقُ به، ومَن شكَّ فِي واحدٍ مِن أركانِ الإِيمانِ الستَّة فَهُوَ كافرٌ أيضًا، لَا بُدَّ أن يؤمنَ، وأيضًا لَا بُدَّ ألا يَكُونَ عنده تردّدٌ فِي هَذَا، ولو كَانَ عنده انحرافٌ وسوءُ تصرُّف فيما يَجِبُ عَمَلُه، مثلًا قوله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ**»(١)، فيؤمن الْإِنْسَان بالرَّسُول لكِن تَنْقُصُ مَحبَّتُه للرَّسُولِ فيَكُون هنا انتفى عنه كمال الإِيمان، لكِن لو شكَّ أن الرَّسُول حقٌّ أو لَيْسَ بحقٍّ ما صارَ مؤمنًا، فلا بدّ أن يَجزِم جزمًا بأنه رسولُ اللهِ، ثُمَّ هل يُقَدِّم مَحبَّتَهُ عَلَى محبَّة نفسه وأهله؛ فهَذَا محلُّ الكمالِ والنقصِ.

• • ۞ • •

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم (١٥)؛ ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، حديث رقم (٤٤)، عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الآيتان (٨٣، ٨٤)

• • ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٨٣-٨٤].

• • ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جماعةً ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وهم رؤساؤُهُم المتَّبعُون ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يُجْمعُونَ بِردِّ آخِرِهِمْ إِلَى أَوَّلِهِم ثُمَّ يُساقُونَ].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ﴾]، استفدنا من هَذَا التفسير أن (يوم) ظرف، وأنّ عامله محذوفٌ، التَّقْدير: (اذْكُرْ يَوْمَ). وهَذَا التركيبُ له نظائرُ فِي الْقُرْآنِ، ويَكُون تقديره عَلَى هَذَا كما قَدَّرَهُ الْمُفَسِّر هنا.

وقوله: ﴿نَحْشُرُ﴾ بمعنى نَجْمَع، وقوله: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ الأمَّة هِيَ القبيلةُ أو الطائفة الكبيرةُ منَ النَّاسِ، والفوجُ أقلُّ منها، ولهَذَا يقولُ الْمُفَسِّر: [وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ المتَّبعون].

وقوله: ﴿فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾: (مِنْ) هَذِهِ لبَيَان الجنسِ؛ أي: فوجًا من المكذِّبين بآيَاتِ اللهِ الكونيَّـة والشَّـرْعِيَّة أو إحداهما. قال: [وهم]، أي: الفوج [رُؤَسَاؤُهُم المتَّبعُونَ].

فهم يُحْشَـرون فيُجْمَعُون ثُمَّ بعدَ ذلكَ يُوزَعُونَ، والوَزْعُ بمعنى المنعِ؛ أي: يُحْبَس أَوَّلهم حَتَّى يجتمعَ به آخِرُهم، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِرَدِّ آخِرِهم إِلَى أَوَّلِهم]، أي: يُجْمَع الأوَّلُ إِلَى الآخِرِ، فيكُونون زُمرةً واحدةً [ثُمَّ يُساقُونَ]، إِلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى [﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مكانَ الحسابِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لهم: ﴿أَكَذَّبْتُم﴾ أنبيائي ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾].

المُفَسِّـر قَالَ: [أنبيائي]، يُشِيـر بذلك إِلَى أن مَفْعُول (كَذَّبْتُم) محـذوفٌ، وأن ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ حالٌ من أنبيائي، ولكِنَّ هَذَا التَّقْدير لا مَعنى له ولا داعيَ له؛ لِأَنَّ التكذيبَ دائمًا يقع معمولُه مُعَدًّى بالباء: كذب بآيَات الله، ما يقال: كذب أنبياء الله بآيَاتِ الله؛ بل: كذب بآيَاته، والتكذيب هنا مُضَمَّن معنَى الجَحْدِ، فعليه نَقُول: لا حاجةَ إِلَى تقديرِ المُفَسِّر: أنبيائي، بل نَقُول: ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ جارٌّ ومجرور متعلِّق بـ(كَذَّبْتُم).

قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى﴾ يعني أَنْكَرْتُمُوها وجَحَدْتُموها.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟﴾ من جِهَة تَكْذِيبِكُم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، إِلَى آخِره، قوله: ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا﴾ انظر إِلَى المُفَسِّر كيف حَلَّها: [مِن جِهَة تكذيبكم ﴿بِهَا عِلْمًا﴾]، والإحاطةُ بالشَّيْءِ بمعنى إدراكِه من جميعِ الجوانبِ، وأصله مشتَقٌّ منَ الحائطِ؛ لِأَنَّهُ يحيط بالمكانِ، فمعنى أحاطَ بالشَّيْءِ: أَدْرَكَهُ منْ جميعِ جوانبِهِ.

المُفَسِّر فَسَّرَ هنا الإدراكَ بِقَوْلِهِ: [من جهة تكذيبكم]؛ أي: أنَّكم كذَّبتم من غيرِ أنْ يَكُونَ لديكم عِلْمٌ بالتكذيبِ؛ كَذَّبْتُم بلا علمٍ، ولكِن يَحتمِل معنًى آخرَ: أنكم كذَّبتم بالآيَاتِ قبلَ أنْ تُدْرِكُوها، فيَكُون هَذَا من البدار بالشَّيْءِ قبل أن يُدْرِكَه، كما قَالَ ابن القيِّم(١):

إِنَّ البِـدَارَ بِـرد شيءٍ لم تُحِـطْ ... عِلْـمًا بِـه سَـبَبٌ إِلَى الحِرْمَـانِ

(١) الكافية الشافية (ص:٣٠٥).

الآن لدينا تفسيرانِ: أحدهما أنَّ قولَه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي مِن جِهَةِ تَكذيبكم، والمَعْنى عَلَى هَذَا أنَّكم كذَّبتم بدونِ عِلمٍ، وَهُوَ الَّذِي مَشَى عليه المُفَسِّر، قَالَ: [﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا﴾ من جِهَة تَكذِيبِكم].

الآن إذا أتاكَ رجلٌ بخبرٍ فقلتَ: كَذَبْتَ، يعني مثلًا قَالَ لك: إنَّ فلانًا رأيته فِي بُرَيْدَةَ -مثلًا- أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ؛ لِأَنَّ فلانًا الَّذِي أخبرتَ به هُوَ موجود عندي فِي تلكَ الساعةِ، فهنا أنتَ قدْ كَذَّبْتَ بعلمٍ وليسَ بغيرِ علمٍ، فإذا قَالَ: رأيتُ فلانًا فِي بريدة أمسِ. فقلتَ له: كذبتَ وأنا لا أدري، فقد كَذَّبْتَ بلا علمٍ.

الآن المُفَسِّر يَقُول: [من جِهة تكذيبكم بها]، يعني أنكم كَذَّبْتُم بغيرِ علمٍ. ويوجد رأيٌ آخرُ يَقُول: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ يعني أنكم كَذَّبْتُم بها من غيرِ رؤيةٍ ومن غيرِ تأمُّلٍ، يعني أنَّكم رَدَدْتُمُوها من أوَّلِ وهلةٍ، فيَكُون كقولِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

والفرق بين المعنيينِ ظاهرٌ، والأقربُ المَعْنى الثاني؛ لِأَنَّ قولَه: كَذَّبْتُم بآياتي والحالُ أنكم لم تُحِيطوا بها عِلمًا أبلغُ مِن كونهم كَذَّبُوا بعدَ أنْ تَرَوَّوْا ولكِن لم يَجِدوا لِتكذيبهم دليلًا، فهم كذَّبوا من غيرِ تَرَوٍّ، بل إنَّهُم فِي الحقيقةِ وخُصوصًا الرؤساء منهم يَعْلَمُون أن ما جاءت به الرُّسُل فَهُوَ الحقّ، ولكِن كذَّبوا بشيءٍ لم يُحيطوا بعلمِه، مِثلما قَالَ الله: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس:٣٩]، بل من أوَّل وهلةٍ، وهَذَا أشدُّ فِي اللَّوم عليهم.

فعليه: الاسْتِفْهامُ فِي قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ يَكُون للتوبيخ واللَّوم؛ لِأَنَّ من كذَّب بالشَّيْء بَعْد دراسته والإحاطة به ثُمَّ يتبين له الكذِب هَذَا لا يُلام عليه، لكِن

مَن كَذَّب لأوَّل مرَّة بدون أن يحيطَ بالشَّيْءِ عِلمًا فَهُوَ دليلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بقابلٍ إطلاقًا للحقِّ.

قال تَعالَى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَقُول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَمَّا﴾ فِيهِ إدغامُ (ما) الاسْتِفْهاميَّة]، إدغام (أم) الَّتِي للإضراب -وأصلها حرف عطف بمعنى (بل)- و(ما) الاسْتِفْهاميَّة، أُدغمتْ إحداهما فِي الأُخْرَى. و(ذا) اسْم موصولٌ، أي: ما الَّذِي كنتم، ويجوز أن نجعلَ (ذا) مركبة مَعَ (ما)، وتكون (ماذا) كلها اسْم اسْتِفْهام، ولكِن لَيْسَ فِي كُلّ مكانٍ يجوز هَذَا وهَذَا، إنَّمَا فِي مثلِ هَذَا التركيبِ يجوز أن نجعلَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهامٍ، ويجوز أن نجعل (ما) اسمَ اسْتِفْهامٍ و(ذا) اسمًا موصولًا؛ أي: ما الَّذِي كنتم تعملون، وَعَلَى هَذَا التَّقْدير الأخيرِ يَجِب أن نقدِّر ضَميرًا فِي قولِهِ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ليَكُونَ عائدًا إِلَى الاسم الموصولِ، ويَكُون التَّقْدير: (أماذا كنتم تعملونه)، وَعَلَى الأول لا حاجةَ لذلك ونجعل (ماذا) مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(تعملون).

نظيرها فِي الْقُرْآن: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فيها قراءتانِ[1]: «قلِ العفوُ» و﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ونُعْرِب (ماذا) عَلَى قراءةِ الرفعِ:

(ماذا): ما: اسمُ اسْتِفْهامٍ، وذا: اسمٌ موصولٌ، يَعْنِي: ما الَّذِي ينفقون؟ فيَكُون التَّقْدير: الَّذِي ينفقونه العفوُ، وتكون مرفوعةً والعائد محذوفٌ؛ لأني إذا قلتُ: (ما) اسْم اسْتِفْهام، و(ذا) اسْم موصول؛ صارت (ما) مبتدأً و(الذي) خبره، وكلّ منهما مرفوع. ثم يأتي: (قُلِ العفوُ) لِأَنَّ الجوابَ مطابقٌ للسؤالِ؛ أي: العفوُ الَّذِي يُنفِقون.

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٩٦).

أمّا عَلَى قراءةِ النصب ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، فنقُول: عَلَى هَذِهِ القراءةِ يَجِب أن نُعرِبَ (ماذا) اسمَ اسْتِفْهام مَفْعُولا مقدَّمًا لـ(يُنفِقون) لأَنَّنا نَعرِف أن الجواب يَكُونُ مطابقًا للسؤالِ، فإذا كَانَ السؤال منصوبًا كَانَ الجواب منصوبًا، وهَذَا هُوَ الَّذِي يبيِّن لك الفرقَ بين الإعرابين.

وقوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني فِي الدُّنْيا، فيكُون الله تَعالَى وَبَّخَهُم عَلَى أمرينِ: أمر يَتَعلَّق بالعقيدةِ، وَهُوَ قوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾، وأمر يتعلق بالعَمَل وَهُوَ قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأَنَّ (ماذا كنتم تعملون) هَذِهِ اسْتِفْهامٌ لإنكارِ ما يعملونه، فيكُون فِي هَذَا توبيخ عَلَى العقيدةِ والعَمَلِ، وستأتي -إن شاء الله- فِي هَذَا فائدة مُهِمَّة لمسألةٍ اختلف فيها الأصوليُّون نَبْحَثُها إنْ شاء اللهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ الحشرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ﴾ لِأَنَّ هَذَا عَلَى تقديرِ محذوف (اذْكُرْ يوم) لكِن اذْكُرْهُ لمجرَّد العلمِ والعقيدة، وكُلّ شيءٍ فِي الْقُرْآن لَيْسَ يُذْكَر لمجرَّد النظرِ أو لمجرَّدِ أن نَعْلَم به، بل هُوَ يُذكَر للاعتقادِ إنْ كَانَ عقيدةً، وللعملِ إن كَانَ عملًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَحْشُر مِنَ الأُمم أفواجًا معيَّنة يَكُونون أُمَّة لباقيهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ لَيْسَ كُلّ الأمم، بل فَوْج، وهَؤُلاءِ الفوجُ هم أَشَدُّهم عَلَى الرحمنِ عِتِيًّا، قَالَ تَعالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩]، لأجلِ -والعِيَاذُ بالله- أن يُخْزَوْا خِزيًا أعظمَ؛ لِأَنَّهم قادةٌ فِي الدُّنْيا فيكُونون قادةً إِلَى النَّارِ فِي الآخِرَة، قَالَ تَعالَى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود:٩٨].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عِظَم الإمامةِ فِي السوءِ كما أَنَّهَا أيضًا عظيمةٌ فِي الخيرِ، فالإمامة فِي الخيرِ له أجرُ مَنِ اتَّبعَهُ، والإمامةُ فِي الشَّرّ عليه وِزْر مَنِ اتَّبعه، فالإمامة فِي الخير أو فِي الشَّرّ هِيَ أمرٌ عظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إِلَى الخيرِ، وشرُّ النَّاس مَن دَلَّهم عَلَى الشرّ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التكذيب بالآياتِ كفرٌ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مِّمَّن يُكَذِّبُ﴾؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الفوجَ يُحشَرون إِلَى النَّار لِأَنَّهُم يكذِّبون بآيَاتِ اللهِ، والتكذيبُ بآيَاتِ اللهِ سَبَقَ أَنَّهُ يَنقسم إِلَى قسمينِ: تكذيب بالآيَات الشَّرْعِيَّة وبالآيَات الكونيّة، والتكذيبُ بالآيَاتِ الكونيَّة أقلُّ مِنَ التكذيب بالآيَاتِ الشَّرْعِيَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يُجْمَعُ أَوَّلهم إِلَى آخِرِهم، وآخرُهم إِلَى أَوَّلِهم؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ لِأَنَّ ذلك زيادة فِي خِزْيِهم وعارِهم، والعياذُ بالله، حَيْثُ يَعرفون أنفسهم ويُعرفون عندَ الخَلق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ الكَلام لله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾، وَأَنَّهُ بحرف وصوت؛ لِأَنَّ الجملَ الَّتِي هِيَ مَقول القَوْلِ حُروف، وَأَنَّهُ بصوت؛ لِأَنَّهُم لولا أَنَّهُم يَسمعون لم يكن هَذَا فائدة، ولا سماع إِلَّا بصوت.

الْفَائِدَةُ السابعة: توبيخ هَؤُلَاءِ عَلَى تكذيبهم بآيَات الله، وكما هُوَ معروف أن التوبيخَ لا سِيَّما فِي ذلك المقامِ أشدُّ مِن وَقع السِّهام؛ لِأَنَّهُ توبيخ فِي مكانٍ يقع فِيهِ من الندمِ والحسرةِ؛ لِأَنَّهُ لا يمكن التخلُّص ولا التكذيب ولا الرجوع عمَّا كان، وَهَذَا التوبيخُ مِن أعظمِ ما يَكُون منَ العذابِ والعياذُ باللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَكَذَّبْتُم بِئَايَٰتِي﴾.

الْفَائِدَةُ الثامنةُ: أَنَّهُ يَزداد قُبح التكذيبِ إذا لم يُحِطِ الْإِنْسَانُ عِلمًا بما كَذَّبَ به؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ وهَذِهِ الجملة محَلُّها من الإعراب حاليَّة، يَعْنِي: والحال

أنكم لم تحيطوا بها علمًا، والجملة إذا صار يَصِحّ قَبْلَها تقديرُ: والحال كذا فهي جملةٌ حاليَّة، ففيها زيادة توبيخٍ لكونهم يكذِّبون من غير أن يُحيطوا عِلمًا بما كذّبوا به ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ [يونس:٣٩].

والْمُفَسِّر فسَّر: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ عَلَى وجهٍ آخرَ، يعني: كذَّبتم بلا علم عن وجهِ هَذَا التكذيبِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسعةُ: توبيخُ هَؤُلَاءِ عَلَى عَمَلِهِم، فكما وُبِّخوا عَلَى التكذيبِ وُبِّخوا أيضًا عَلَى العَمَلِ فِي قوله: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٨٥)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّـر: [﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ حقَّ العذابُ ﴿عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي أَشْـرَكُوا ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ إذ لا حُجَّةَ لهم].

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني قولَ اللهِ بالعذابِ، فإنَّ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ يأمرُ بِتَعْـذِيبِهِمْ إذا لم يُجِيبُوا، وهَذَا السؤال كما تقدَّم لَيْسَ سؤال استخبار واستعلام، ولكِنه سؤال توبيخٍ وتقريعٍ، فحينئذٍ يقعُ عليهم القَوْلُ، وهَذَا القَوْل الَّذِي وقعَ عليهم لم يُظْلَموا به ولكِنْ همُ الَّذِينَ ظَلَموا، ولهَذَا قَالَ: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسبب، و(ما) هنا مصدريَّة يَعْنِي أنَّ الفِعْل بعدها يحول إِلَى مصدرٍ، فيكُون التَّقْدير: بِظُلْمِهِم؛ أي وقع القَوْل عليهم بظلمهم.

وقول الْمُفَسِّر: [أي أشركوا]، ينبغي أنْ نفسِّر الظلمَ بما هُوَ أعمُّ مِنَ الشركِ؛ لِأَنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَبَّخَهُمْ عَلَى التكذيبِ وعلى العَمَلِ المنحـرِفِ، فيكُون الظلمُ الَّذِي حصلَ منهم: التكذيب والجَحْد الَّذِي يَتَضَمَّن الإشراكَ، وكذلك الفُسُوق والعِصيان الَّذِي حصلَ منهم كإيذاءِ الرُّسُلِ وغير ذلك، فالأصحُّ أنْ نجعلَ ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾ أي: بسببِ ظُلْمِهِم، ومنه الشركُ.

قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾: (الفاء) مُفَرّعة عَلَى قولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ أي:

بَعْد أن وقعَ عليهم القَوْلُ استحقُّوا العذابَ فلا يستطيعون النُّطْقَ، يَقُول المُفَسِّـر: [إذ لا حُجَّة لهم]، وهَذَا فِي آخِرِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّهُم كانوا فِي أَوَّلِ الأَمْرِ يَنطِقون ويُدافِعون.

ولكِنهم إذا رأوْا أنَّ جَوارِحَهم شَهِدَتْ عليهم حينئذٍ أمسكوا، فلا يستطيعون الآن، وإلّا فإن الله تَعالَى يَقُول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، فهم يَقُولُونَ: ما أَشركنا، ويَقُولُونَ أيضًا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]، فهم يتكلَّمون ويُدافِعون عن أنفسهم، ولكِنَّ ذلك لا يَنفعهم، قَالَ تَعالَى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢]، فالمهمُّ أَنَّهُم يتكلَّمون، فقوله هنا: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥]، هَذَا يَكُون الجمع بينه وبين الآيات الدالّة عَلَى نطقهم أن للقيامة أحوالًا؛ لِأَنَّ يوم القيامة مِقداره خَمسـونَ ألفَ سنةٍ، فالأحوالُ تَتَغَيَّـر، فيَكُون الناطق فِيهِ ساكتًا ويَكُـون الساكـت فِيهِ ناطقًا، وتَتَقَلَّب الأحوال، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٧]، لِمَا ترَى، فهم فِي حالٍ لا يَنطِقون، وَفِي حالٍ يَنطِقون ويدافعون.

ولكِنهم مهما قالوا ومهما فعلوا فإن لديهم شهودًا من أنفسهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، فاللِّسان يَنطِق بمـا قال، واليدُ تَنطِق بما فعلتْ، والرِّجل تَنطِق بما فعلتْ، وأبلغ من ذلك الجلودُ تَشهَد بما لمستْ، فجميعُ ما فِيهِ الإدراكُ والحاسَّةُ يَشهد عَلَى هَؤُلَاءِ بما فَعَلُوا، وحينَئذٍ لا يَستطيعونَ أنْ يُدافِعوا، ما دام أنَّ هَذِهِ الأَشْيَاء تَشهد عليهم؛ إذن مَن يشهد لهم؟!

الحاصل: أن الأحوال تتغيَّر، فالمتكبِّـرون يُحشَرون يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ

يَطَؤُهُمُ النَّاسُ بأقدامهم[١]، ولكِنَّهم إذا دَخلوا النَّار يَكُون ضِرْسُ الواحدِ منهم مثلَ أُحُدٍ[٢]، والعياذُ باللهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أنَّ العذابَ قد حَقَّ عَلَى هَؤُلَاءِ، أو أن المَعْنى ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أَنَّهُ صَدَقَ القَوْلُ عليهم فلم يَستطيعوا الجوابَ، يعني لمَّا وُبِّخُوا بالتكذيبِ والعَمَلِ فقال: وقعَ القَوْلُ عليهم؛ أي: ما قيل لهم من هَذَا التوبيخِ صَدَقَ عليهم فلم يستطيعوا الدفاعَ، بَقِينا فِي قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ وهَذَا الوجهُ لم نَذْكُرْهُ لَكِنَّهُ فتحَ اللهُ به علينا، إنْ كَانَ حقًّا فالحمدُ للهِ وإلَّا فَنَسْتَغْفِر اللهَ.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي: أن هَذَا القَوْل الَّذِي وُبِّخوا به صَدَقَ عليهم، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾؛ لِأَنَّ مَن وُبِّخ عَلَى أمرٍ لم يقعْ عليه يَستطيع أنْ يَنْطِق فيُدَافِع، لكِن هَؤُلَاءِ ما استطاعوا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات السَّبَب؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾؛ لِأَنَّ الباء هنا للسببيَّة، وإثباتُ الأَسْبَاب هُوَ مَذهَب أهلِ السنَّة والجماعة، وأن الأُمُور مَقرونة بأَسْبابها.

يقولُ العَوَامّ: وقد قَالَ الله تَعَالَى: (وجعلنا لكلِّ شيءٍ سببًا)، وهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآن، ولكِنه كقراءة بعضهم لما ذُكِرَ له الأعراب، قَالَ: ألم تَسْمَعْ قولَ اللهِ تَعَالَى فِي الأعراب: (سُود الوُجُوه إذا لم يُظْلَموا ظَلَمُوا) وهَذَا لَيْسَ من قولِ الله، لكِن أحيانًا

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، حديث رقم (٥٥٧)؛ والترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب، حديث رقم (٢٤٩٢)؛ وأحمد (٢/ ١٧٩) (٦٦٧٧)، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النَّار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، حديث رقم (٢٨٥١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعَامَّة يَقُولُونَ أَشْيَاءَ يَعتقدونها من الْقُرْآن، فنحنُ نُثْبِت الأَسْبَابَ ولكِن ما نَقُول: إن الله فِي الْقُرْآن ذكرَ أن لكلِّ شَيْء سببًا، إِنَّمَا الْقُرْآن مملوء من إثباتِ الأَسْبَاب.

فهِمنا من هَذَا أن إثبات الأَسْبَاب هُوَ مَذْهَب أهل السنَّة والجماعة، فهل أحد من أهل البِدع يخالفهم فِي ذلك؟

نَقُول: الجَبْرِيَّة والأشاعرةُ لا يُثْبِتُون الأَسْبَاب، ويَقُولُونَ: إن فعلَ اللهِ تَعَالَى لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، والمُعْتَزِلة عَلَى العكسِ مِن هَـؤُلَاءِ يَرَوْنَ أن الأَسْبَاب مُوجبة، ولهَـذَا يَقُولُونَ: إن الله يَجب عليه فِعْل الأَصْلح والصلاح.

والصَّوابُ أن نَقُولَ: إن المعقول والمَنقُولَ يَدُلّ عَلَى أن الأَسْبَاب مؤثِّرة، ولكِن بأمرِ اللهِ، وكم من سببٍ كَانَ مؤثِّرًا ثُمَّ لم يَنْفَعْ إذا لم يرد الله تَعَالَى أن يمثل هَذَا الشَّيْء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الله تَعَالَى لا يَظْلِم النَّاس شيئًا، ولكِن النَّاس أنفسهم يظلمون؛ لِقَوْلِهِ: ﴿بِمَا ظَلَمُواْ﴾، يَعْنِي: فهَذَا الأَمْر الَّذِي نزل بهم سببُ ظُلْمِهم، ولم يَظْلِمْهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن للناسِ فِي يومِ القيامةِ أحوالًا، فهم أحوال مختلِفة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ لِأَنَّ الله ذكر فِي بعضِ الآيَاتِ أَنَّهُم يَنطِقون ويدافعون، يَقُولُونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ويقول تَعَالَى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النِّساء:٤٢]، فأنت الْآنَ لا يمكن أن تجمعَ بين هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا إذا قلتَ: إن النَّاس لهم أحوال، حال يمكنه الكَلام، وحال لا يمكنه فِيهِ الكَلام، وبهَذَا يتآلَفُ الْقُرْآن وَهُوَ مُؤْتَلِف.

• • ۞ • •

الآيــة (٨٦)

• • ••• • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦].

• • ••• • •

قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ الرؤيةُ هنا عِلمية وبَصَرِيَّة أيضًا، لكِنَّ كَوْنَها عِلْمِية أعمّ؛ لِأَنَّ مَن أبصرَ الشَّيْءَ عَلِمه، ولَيْسَ كُلّ مَن عَلِمَ الشَّيْءَ أَبصره، فالأعمى يَرَى الليل يعني يَعْلَمه، والمُبْصِر يراه بعينِهِ وبَصيرتِهِ.

والهمزةُ فِي قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ للتقرير؛ تقرير هَذه الرؤية الَّتِي لا يُنْكِرها أحدٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ خَلقنا]، فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الجَعْلَ هنا بالخلق، فيَكُون متعدِّيًا بمَفْعُول واحِدٍ، ويجوز أن يَكُونَ الجَعل هنا بمعنى التصيير، يَعْنِي أَنَّا جَعَلْنا الليلَ مُظْلِمًا لِيَسْكُنُوا فيه، ويدلُّ عَلَى هَذَا قولُه تَعَالَى الَّذِي بعده.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ لِيَتَصرَّفوا فيه]، ويَكُون حُذِفَ من كُلّ جملةٍ ما دَلَّ عليه المذكورُ فِي الجملةِ الأُخْرَى، ويُسمَّى هَذَا فِي علمِ البديعِ بالاحتباكِ، والاحتباكُ أَنْ يذكر فِي كُلّ جملةٍ ما حُذِفَ من الأُخْرَى مَعَ التقابُلِ.

هنا نَقُول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ مُظْلِمًا ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ الَّذِي حُذِفَ من هَذَا (مُظْلِمًا)، ذكر مقابله: ﴿مُبْصِرًا﴾، وحذف من قوله: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: لِيَتَصرَّفُوا فِيهِ، وذكر فِي مقابله: ﴿لِيَسْكُنُواْ فِيهِ﴾، فيَكُون فِي الجملةِ احتباكٌ، وبِهَذَا نكون قد

استفدنا المَعْنى مَعَ الاختصارِ، وعَلَى هَذَا التقريرِ الَّذِي ذكرنا يَكُون ﴿جَعَلْنَا﴾ ليس بمعنى (خَلَقْنَا)، بل بمعنى (صَيَّرنا) تَنصِب مَفْعُولين، المَفْعُول الأَوَّل (الليل) والمَفْعُول الثاني محذوف تقديرُه: مظلمًا.

قوله: ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ اللام هنا للتعليلِ، والسكونُ معناه القرارُ وعدم الحركةِ، ولذلك كَانَ الليلُ محَلَّ السكونِ للخلقِ، ولكِنه بإذنِ اللهِ محَلّ عَمَل لخلقٍ آخرينَ؛ فالهوامّ والسباع لا تعمل إِلَّا فِي الليلِ؛ لِأَنَّهَا تختفي فِي النَّهارِ؛ إمَّا خوفًا من النَّاسِ وَإِمَّا رحمةً من الله عَزَّوَجَلَّ بالخلقِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ السباع أو هَذِهِ الهوامّ لو كانت تخرج فِي النَّهار لأتعبت النَّاسَ، ولَكِنَّهَا -والحمد لله- لا تظهرُ إِلَّا بالليلِ، فإذا سكنَ النَّاسُ بدأ عَمَلَها بالتناوُب.

وهَذَا من رحمةِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالخلق أن يَكُون هَذَا التبادلُ ليعيشَ النَّاس بسلامٍ، حَتَّى هَذِهِ الحيوانات آمَنُ لها إذا كانت لا تعيش إِلَّا بالليل حَتَّى لا تُعارَض.

فهنا المُراد بالسكونِ الآدميُّون ومَن أشبههم مِمَّن سُكُونُهم بالليل، وهَذَا الْإِنْسَان إذا أرادَ الصحَّة فليكنِ الليلُ سَكَنًا له، ولا سِيَّما أَوَّل الليل، فإن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ الحديثَ بَعْدَ العِشَاءِ[1]، وقد ذَكَرُوا أنّ نومَ الليلِ الساعةُ منه تقابلُ ساعاتٍ من النَّهارِ.

وهَذِهِ الثروة السكونيَّة أضعناها الْآنَ بما لا نفعَ فِيهِ، بل بما فِيهِ ضررٌ، فالْآنَ النَّاس يَعكُفون عَلَى مشاهدةِ التلفزيون إِلَى نصفِ الليلِ تقريبًا، بينما فِي الدول الغربيّة

---

(١) رواه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ما يكره من السمر بعد العشاء، حديث رقم (٥٧٤)؛ ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها وهو التغليس وبيان قدر القراءة فيها، حديث رقم (٦٤٧)، عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَعَ الأسفِ الشَّديدِ الكافرة المُلْحِدَة لا يتجاوز التلفزيون الساعة التَّاسعة منَ الليلِ، ففي الساعة التَّاسعة يُغلَق التلفزيون؛ لِأَنَّهُم يَعرفون أن هَذَا ضررٌ عَلَى عمالهم وَعَلَى مُثَقَّفِيهم، فهم لا يريدون الضررَ للأُمّة، يَقُولُونَ: إذا أَبقيناه إِلَى ما بَعْد التَّاسعةِ سَهِرَ النَّاس عليه وَكَانَ فِي ذلك إنهاك للعمال وكان فِي ذلك إهمال للطلبة، فلذلك نحن نُغْلِقُه من الساعة التَّاسعة حَتَّى ينام النَّاس وحتى لا نكون قد تَسَبَّبْنَا فِي إرهاقِ النَّاسِ، وحدثني بذلك عدَّة أُناسٍ مِنَ الَّذِينَ جاءوا من أُورُبَّا يَقُولُونَ: أبـدًا، لا يمكن أن يتـجاوزَ الساعةَ التَّاسعةَ، لكِن لا أَدري إنْ كَانَ فِي الأَشْيَاء النادرة، لكِن هَـذَا هُوَ برنامجهم.

نحن الْآنَ مَعَ الأسفِ الشَّديدِ يَقُولُونَ: إنَّهُ يبقى إِلَى ما بَعْد الساعة الثَّانِيَة عشرة نصفَ الليلِ، هَذَا مَعَ ما يَتَطَلَّب من الناحية الاقتصاديَّة: فكم يَستهلك النَّاس من الكهرباء فِي هَذِهِ الساعةِ على تلفزيوناتهم وكذلك أيضًا أنوارهم؛ لِأَنَّ المكان لَا بُدَّ له من نور، فيُستهلك نور، وتُستهلَك كهرباء للتلفزيون، فكم يكلّف العالم؟! وكم تُرهق المُعدات أيضًا؟ هَذَا بقطعِ النظرِ عن المفاسدِ الأُخْرَى البدنيّة، ولكِن العبرة بمن بصَّره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فمثل هَذَا المسئول راعي البيت إذا كانت مثلًا الساعة التَّاسعة يأمر أهله بالنوم ويُغلِقه، أَمَّا الكسرُ فلا، والنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَرِهَ الحديثَ بعدَ العشاءِ[1]، فكَوْننا نسهر إِلَى نصفِ الليلِ أحيانًا أو إِلَى أكثر وَلَيْـسَ ليلة طارئة حَتَّى نَقُول: العوارض عوارض، بل هِيَ دائمًا فِي الغالب، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يسهرون إِلَى ما بَعْد نصف الليل أولًا ربَّما لا يقومون لصلاة الفجر، وإذا قاموا نِصْفُهم نُوَّم، يُؤَدُّونها بكلِّ كُلفةٍ ومَشَقَّة،

(١) سبق تخريجه.

أو ينامون فِي نفس المَسْجِد أو فِي نفسِ الصَّلَاة، ثُمَّ إذا رَجعوا إِلَى بيوتهم ينامون إِلَى الظهرِ.

يعني أول النَّهار الَّذِي هُوَ مَحَلّ البركة ومَحَلّ العَمَلِ يُضَيَّع، والليل الَّذِي مَحَلّ السكون يُضَيَّعُ السكونُ فيه، وهَذَا فِي الحقيقةِ يُعتبَر نقصَ وَعْيٍ فِي المُسلِمين.

يَقُولُونَ عن الكفار؛ حَدَّثني رجل يَقُول: عندهم عطلة السبت والأحد، السبت لأجل اليهودِ والأحدُ لأجلِ النَّصارَى، لكِن يَقُول: إذا صار ليلة الإثنين من غروب الشَّمْس كلٌّ فِي مَحَلِّه، من أجل أَنَّهُ بمجرد أن يقومَ فِي الصباحِ فإذا هُوَ مباشِرٌ لعملِهِ، فلا يمكن أنْ يتأخَّروا. يَقُول: من الغريب أن العوائل يخرجون يتنزهون فِي هذين اليومينِ في المتنزَّهات لكِن إذا غابت شمس ليلة الإثنين إذا كُلّ إِنْسَان فِي مَحَلّه يَكُون متهيِّئًا للعمل.

فإذا قَارَنْتَ حال هَؤُلَاءِ بحالِ المُسلِمينَ اليوم مَعَ أَنَّ أحوالهم هَذِهِ هِيَ الَّتِي يَجِب أن تكون للمسلمينَ، وجدتَ هَذَا السَّبَب الَّذِي جَعَلَنا نتأخَّر وجعلنا فِي هَذَا الذلّ، وجعل كثيرًا من شبابنا لَيسوا مقتنعينَ بأحوالهم، فبعض الشبابِ الْآنَ المنحرِف قد يَكُونُ له عُذر، يَقُول: أنتم تقولونَ: الإِسْلَامُ والإِسْلَام، أين الإِسْلَام! لم نرَ شيئًا! ولكِن نَقُول: الذنبُ ذنبُ مَن يَنتسبون للإسلامِ، لَيْسَ ذنب الإِسْلَام، ذنب مَن يَقُولُونَ: نحن أهلُ الإِسْلَامِ، وَفِي أهلِ الإِسْلَامِ مَن لا يَعرف أركانَ الإِسْلَامِ. والعَجَبُ أن بعض النَّاس المُسلِمين الْآنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُم مسلمون ومكتوب عَلَى هُوِيَّة الواحد منهم أَنَّهُ مُسْلِم، لا يَعرف كيف يتوضأ ولا كيف يُصلي، فهَذَا موجودٌ.

إِذَنْ: معنى هَـذَا أن البيئـة لا تَتَوَضَّأ ولا تصـلي، فأين الإِسْـلام من قـومٍ

لا يتوضؤون ولا يصلون! فهَذَا هُوَ الَّذِي أَخَّرنا.

ولذلك أنا -والله- أُحِبُّ دائمًا أنْ يَكُونَ لَدَى أهلِ العلمِ تَطَوُّر فِي الحركة والعَمَل والنهوض بالأمة.

قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ آيات جمع آيةٍ، وهي تدلُّ عَلَى أن ما ذُكِرَ فِيهِ عِدَّة آيات، منها: إظلام الليل والسكون فيه، وإبصار النَّهار والتصرُّف فيه، فهي أربع آيات، مَعَ ما تَتَضَمَّنَهُ أيضًا من آيَاتٍ أُخرى تَسْتَلْزِمُها، ولهَذَا جمع فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: أين الآيات فِي كون الليل لِيسكنوا فِيهِ والنَّهار مُبصِرًا؟

نَقُول: السكون فِي الليلِ والتصرُّف فِي النَّهار؛ لأَنَّنا قُلْنَا: حذفَ مِن النَّهارِ ما ذكرَ فِي الليلِ، وحذفَ فِي الليلِ ما ذكرَ فِي النَّهارِ، يعني فِي المقابلةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تقرير هَذِهِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وهي جَعْل الليلِ مُظلِمًا للسكنِ، والنَّهارِ مُبْصِرًا للمعيشةِ، وهَذِهِ النعمة كلهم يُقِرُّون بها، ولهَذَا قَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاستدلال بالشاهدِ عَلَى الغائبِ، فإن هَذَا الليل والنَّهار ما أحد من الخلقِ يستطيع أنْ يُغيِّر فيهما أقلَّ تغييرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١]، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:٧٢]، فالقادر عَلَى هَذَا التغييرِ قادرٌ عَلَى البعثِ، فالإنْسَان فِي الليلِ يُتوَفَّى ثُمَّ يُبْعثُ فِي النَّهارِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠]، فالقادرُ عَلَى هَذَا قادرٌ عَلَى إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان فضلِ اللهِ تَعَالَى فِي جعل الليل والنَّهار عَلَى هَذَا الوصفِ، ظَلَام للسُّكْنَى وإبصار للعملِ، لو كَانَ الدهرُ كلّه ظَلامًا ما عمِل النَّاس، ولو قُدِّر أَنَّهُم رتّبوا أعمالهم لاختلفوا، وكذلك لو كَانَ نهارًا ما سَكَنَ النَّاس، ولو قُدِّرَ أَنَّهُم رَتَّبوا أوقاتهم وجعلوا مثلًا نصفَ الوقتِ سكنًا ونصف الوقت عملًا لم يَتَّفِقُوا فيه، ولكِن من رحمةِ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أَنَّهُ جعلَ الليلَ والنَّهارَ لِيَسْكُنَ النَّاسُ جميعًا ويَرْتَعُوا من فضله جميعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ ينبغي للعاقلِ أن يَعتبرَ بهَذِهِ الآيَاتِ وأن الاعتبار بها من الإيمان، لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الانتفاعَ بالآيَاتِ بِقَدْرِ ما مَعَ الْإِنْسَان من الإِيمانِ؛ لِأَنَّهَا رُتِّبَتْ عَلَى وصفٍ، والمرتَّبُ عَلَى وصفٍ يَزِيد بزيادته ويَنْقُص بنقصانه.

• • ❁ • •

الآيــة (٨٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ القرن]، هَذِهِ معطوفةٌ عَلَى قولِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ [النمل:٨٣]، فيَكُون من جملةِ المأمورِ بذِكْرِه، يَعْنِي: واذْكُرْ يومَ يُنْفَخُ فِي الصُّور.

والصُّور يقُول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [القَرْن]، وَقِيلَ: إِنَّهُ البُوقُ، ولا تنافيَ بينَ القَوْلينِ؛ لِأَنَّ القرنَ المُعْوَجّ يكُون مثل البُوق، ولكِن هَذَا القَرْنُ يُوافِقُ القرنَ المعروف بالاسم دون الحقيقةِ، وقد وردَ فِي بعضِ الآثارِ أنَّ سَعَتَهُ كما بينَ السَّماء والْأَرْض[1]، وَهُوَ لَا بُدَّ أن يَكُونَ بهَذِهِ السَّعة والعَظَمَة؛ لِأَنَّ النفخَ فِيهِ يَستلزِم الفَزَع والموتَ، ومثل هَـذَا لو كَانَ صَغيرًا لا يُفْزِع النَّاس ولا يموتون منه كلهم. وأيضًا يُنْفَخ فِيهِ فتَخْرُج منه الأرواحُ كلُّها وتعود إِلَى أَجْسَامها.

إِذَنْ: فَهُوَ قَرْنٌ عظيمٌ ما يَعْلَم قَدْره إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قَالَ المُفَسِّـر: [النَّفْخَة الأُولَى من إسرافيلَ]، وتوجد نفخةٌ ثانيةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

---

(١) مسند إسحاق بن راهويه (١/ ٨٤) (١٠).

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [من إسرافيلَ] بَيَان للنافِخ، يعني الَّذِي يَنْفُخ هُوَ إسرافيل، ولكِنَّه لا يَنْفُخ بإرادتِهِ هُوَ، بل بإرادةِ الله، وإسرافيلُ هُوَ أحَدُ حَملَة العَرْش، وَهُوَ أحدُ الملائكةِ الثلاثة الَّذِينَ يَستَفْتِح بهم النَّبِيُّ ﷺ صلاةَ الليلِ، والثاني جَبرائيلُ، والثَّالث مِيكَائيل[1]، والحِكْمَةُ من ذلكَ أن هَؤُلَاءِ الثلاثة كُلّ مِنهم مُوكَّل بحياةٍ، فجبرائيل موكَّل بالوحيِ الَّذِي به حياةُ القلـوبِ، وميكائيـلُ بالقَطْر والنباتِ الَّذِي به حَياة الْأَرْض، وإسرافيلُ بالصُّور الَّذِي به حياةُ الأجسادِ، ومناسبةُ الافتتاحِ فِي صلاةِ الليلِ ظاهرةٌ جِدًّا؛ لِأَنَّهُ قد بُعِثَ الْإِنْسَانُ بعدَ مَوته أو بعدَ وَفاتِه بالنومِ، فهَذِهِ حياةٌ تُناسِب أنْ يَبْتَدِئَ هَذِهِ الصَّلَاة الَّتِي هِيَ بعدَ الحياةِ بِمَن وُكِّلوا بالحياةِ، وطبعًا هَذَا من بابِ التوسُّل؛ لأنك تقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... إلخ».

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَن فِي السَّماوَات ومَن فِي الْأَرْض مِن عُقَلاء وغَيْرِهم، وجاءت (مَن) تَغليبًا؛ لأنَّ العاقلَ أشدُّ فَزَعًا من غيرِ العاقلِ؛ لِأَنَّ العاقلَ يَفْزَع للحاضرِ والمستقبَل، وغير العاقل للحاضرِ فقطْ ولا يُهِمُّه المستقبَل، ولهَـذَا لو سَمِعْـتَ صَدمةَ لِصّ فِي البابِ قويَّة وعندك صَبِيّ، كلكم يَفْزَع من هَذِهِ الصدمةِ القويَّة، لكِن الصبي إذا انتهتِ الصدمةُ وَقَفَ ولم يكن فِي قلبه أيّ شَيْء أبدًا، وأنت تفكِّر فِي المستقبل وتخاف، فلهَذَا غلبَ العقلاءُ فِي قولِه: (مَن) فِي جانبِ الفَزَع؛ لِأَنَّ فزَعهم أعظمُ، يَكُون للحاضرِ والمستقبلِ.

وهنا قَالَ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَفِي آيَةِ الزُّمَر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]،

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، حديث رقم (٧٧٠)، عن عائشة أم المُؤْمِنِينَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

فهل هما نفختانِ، فإذا جمعتَ إِلَى الثَّالثةِ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ صارت ثلاثَ نَفَخَاتٍ، أو أن نفخة الفَزَع والصَّعْق واحدة، وأن النَّاس يَفْزَعون أوَّلًا ثُمَّ يموتون؛ أي: فَزَع يليه الموت؛ لِأَنَّ الظَّاهرَ -واللهُ أَعْلَمُ- أَنَّهُ إذا نُفِخَ يَكُونُ صوتٌ عظيمٌ مُمْتَدٌّ، فيَفزعون ثُمَّ يموتون، مثل الصَّيْحَات الَّتِي يُصاح بالمجرمينَ كالتي أَخَذَتْ ثمودَ؟

هَذِهِ المسألةُ اختلفَ فيها أهلُ العلمِ، فمنهم مَن يَرَى أنَّ النَّفَخَات ثلاثٌ: نفخةٌ يَفزع النَّاسُ ويَتَأَهَّبُون ويَكُونون عَلَى حَذَر، ثُمَّ أُخرى للصَّعْق فيموتون، ثُمَّ ثالثة للبَعْث.

وَقِيلَ: إنّ نَفْخة الفَزَع بعدَ نَفْخَةِ الصَّعْق والبَعْث، وإنهم يَصْعَقُون، قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]، ثُمَّ يُنفخ ثالثة فيَفْزعون إِلَى الداعي، لكِن هَذَا القَوْل ضعيفٌ، فالمشهورُ القَوْلانِ السابقانِ.

وهل هِيَ ثلاثٌ: فَزَع ثُمَّ نفخةٌ أُخْرَى فيها الصَّعْق ثُمَّ نفخةٌ ثالثةٌ فيها البعثُ، أو هما نفختانِ: نفخةٌ فيها فَزَع وصَعْق، ونفخةٌ فيها البَعْث؟

الأخيرُ هُوَ الأقربُ؛ لِأَنَّ حديثَ أبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدُلّ عَلَى هَذَا، فَإِنَّهُ ذكر النفختينِ وذكرَ أن بينهما أربعينَ، قيلَ له: يوم أو شهر أو سَنة؟ قَالَ: أَبَيْتُ[1]. ولم يُبيِّنْ؛ لِأَنَّهُ لا يَعْلَم؛ لِأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ منَ الرَّسُولِ ﷺ أربعينَ، ولا يعلمُ هل هِيَ أربعونَ يومًا أو سنة أو شهرًا.

وبعد هَذِهِ النفخةِ الَّتِي هِيَ الفَزَع والصَّعْق يُرسِل اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَطرًا كأنّه الطَّلّ، والطَّلُّ معروفٌ، وهُوَ النَّدَى الَّذِي يَنزِل منَ السَّماءِ عندَ الصَّحْو فِي الليلِ،

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، حديث رقم (٤٦٥١)؛ ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، حديث رقم (٢٩٥٥).

أو أَنَّهُ الرذاذ الخفيفُ جِدًّا، قَالَ تَعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، ثُمَّ تنبُت الأجسامُ بإذنِ اللهِ من هَذَا الماء، تنبت وهي فِي القبورِ، فإذا تكامَلَ نَباتها نُفِخَ فِي الصُّور النفخة الثَّانِيَة، وحِينَئِذٍ تَخْرُجُ الأرواحُ وتعودُ إِلَى أجسامها، فيخرجُ النَّاسُ مِنَ القُبُور، ولَيْسَ كما يَتَوَهَّم بعضُ النَّاس أَنَّهُم يَنْبُتُون عَلَى قُبُورهم، بل هم يَنْبُتُون فِي القبورِ؛ لِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق:٤٤].

فمعنى ذلك أَنَّهُم يُخْرَجُون منَ القبورِ وهم مُسْرِعون، فهم أحياء، وهَذَا بعدَ تكامُلِ أجسادهمْ فِي القبورِ، ثُمَّ إن هَذَا أيضًا مُقْتَضَى القِيَاس فِي بَدْءِ الخَلْق؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَتكامَل خَلْقُه فِي بَطْنِ أُمِّهِ ويَخْرُج حيًّا، والْأَرْض للإِنْسَانِ مثل بَطْن الأُمّ له، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكِيم، قَالَ تَعالَى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣]، أفعاله دائمًا تكونُ متناسبةً، لَيْسَ فيها تناقُضٌ ولا تنافُرٌ.

قوله: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حَتَّى الملائكة يَفْزعون، وكذلك يَصْعَقُون: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٦٨].

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يَقُول المُفَسِّر: [خافُوا الخوفَ المُفْضِيَ إِلَى الموتِ؛ كما فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿فَصَعِقَ﴾]، فعلى هَذَا يكُون رأيُ المُفَسِّر أنهما نَفختانِ؛ الأُولَى تَتَضَمَّن الفزعَ والصَّعْق.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [والتعبيرُ فِيهِ بالماضي لِتَحقُّقِ وُقُوعِهِ]، فـ(فَزِعَ) فِعلٌ ماضٍ، و(يُنْفَخ) مضارعٌ، ولَيْسَ الكَلام فِي (يُنْفَخ)؛ لِأَنَّ المضارعَ للمستقبلِ، لكِن قوله: ﴿فَفَزِعَ﴾ ولم يقلْ: (فيفْزَع).

يَقُول المُفَسِّر: [لِتَحقُّق وقوعه]، والشَّيْء المتحقّق الوقوعِ كالماضي، ولهَذَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١]، فكيف أَتى واللهُ تَعالَى يَقُول:

فلا تَستعجلوه؛ إذنْ ما أَتَى ما دام أَنَّهُ فلا تَسْتَعْجِلُوه، فمعناه أَنَّهُ لم يأتِ، فعبَّر بـ(أتى) لِتَحقُّقِ الوقوعِ ولِقُرْبِهِ أيضًا، كَأنه لِقُرْبِهِ شَيْء حَصَل، فهنا ذكر ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ﴾ بلفظِ المضارعِ لِأَنَّهُ لم يكنْ، وذكر الفزعَ الَّذِي يَتَّصِف به النَّاس بلفظِ الماضي كأنه شيءٌ قد وَقَع بهم.

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عَيَّنَ المُفَسِّر هَذَا المُبْهَم فقال: [أي جِبريل ومِيكائيل وإسرافيل ومَلَك المَوْت]، هَؤُلَاءِ أربعةٌ، [وعنِ ابنِ عبَّاس: هُمُ الشُّهَدَاء[1]؛ إذ هم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]]، فيَكُون المستثنَى خمسة، هَكَذَا قَالَ المُفَسِّر، وهَذَا يَحتاجُ إِلَى توقيفٍ ونَصٍّ، إذا كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا يَدْرِي، فمَنِ الَّذِي يَدْرِي! أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنه: «**أَوَّلُ مَنْ يُفِيقُ، فَيَجِدُ مُوسَى** عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **آخِذًا بِقَوَائِمِ العَرْش أَوْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ، يَقُولُ: فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الصُّورِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي**»[2].

إِذَنِ: الرَّسُول لا يَدْرِي مَنِ المُسْتَثْنَى؛ لِأَنَّهُ لم يعلم أنْ يَكُونَ موسى مِمَّنِ استثنى اللهُ، ولو كَانَ عنده علمٌ بهم لعَلِمَ مثلًا أن موسى لَيْسَ منهم أو أَنَّهُ مِنهم، فإذا كَانَ النَّبِيّ ﷺ لم يعلمْ فغيرُه من باب أَوْلَى.

وهَذَا الصَّوابُ أَنَّهُ يجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أبهمهُ اللهُ، إِلَّا إذا جاءنا عنِ الرَّسُولِ ﷺ؛ فإنَّ الله يقولُ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي (١/ ٢٦٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الديات، باب إذا لطم المسلم يهوديًّا عند الغضب، حديث رقم (٦٥١٩)؛ ومسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى ﷺ، حديث رقم (٢٣٧٣)، عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَمَّا إذا ما جاءنا عن المعصومِ شيءٌ مِن هَذَا فالواجبُ علينا أنْ نُبْهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ، والأَمْـرُ فِي هَذِهِ المسائلِ مِنَ الخُطُورة بمكانٍ، حَتَّى آدم، فلا نَستثني أحدًا أبدًا، إِلَّا مَن شاء الله.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: مَن الَّذِي شاء الله؟

نَقُول: اللهُ أَعْلَمُ.

فنَفْهَم أنَّ الله استثنى أحدًا قد يَكُونُ واحدًا وقد يَكُون ألفًا وقد يَكُون ألفينِ وقد يَكُون عَشَرَةَ آلافٍ، فلا ندري، إِلَّا مَن شاء الله.

وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: إسرافيل ألا يَتَعَيَّن أَنَّهُ مِمَّنِ استُثْنِيَ لِأَنَّهُ هُوَ النافِخُ؟

فالجواب: لا، رُبَّما يَنْفُخُ ويَصْعَقُ بمجرَّد النفخ، فلا نَدري، المهمُّ أَنَّهُ لا يوجد شَيْء يمكن أنْ نُعَيِّنَه إِلَّا بدليلٍ عن معصومٍ، وهَذَا يَجِب علينا فِي كُلّ شيءٍ أَبْهَمَهُ الله، فكلُّ شيءٍ أبهمه الله لا يُمْكِن أنْ نُعَيِّنَهُ إِلَّا بدليلٍ عن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وخبـرُ ابنِ عَبَّاس -اللهُ أَعْلَمُ- إنْ صَحَّ عنِ ابنِ عَبَّاسٍ؛ **فَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ**: ابنُ عبّاسٍ مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيلياتِ، فيُخْشَى هَذَا أن يَكُونَ مِمَّا أخذه عن بني إسرائيلَ؟

فنَقُول: يَبْعُدُ أنْ يُفَسِّر الْقُرْآن بما أَخَذَهُ عن بني إسرائيلَ؛ لِأَنَّ الصحابةَ عندهم مِنَ الوَرَعِ ما يَمْنَعُهم من ذلكَ، فإذا جَاءنا -وهَذِهِ نُكْتَة يَجِب أنْ نَتَفَطَّن لها- إذا جاءنا عن ابنِ عبَّاس ونحوه مِمَّن عُرِفَ بالأخذِ عن الإسرائيليَّات تفسيرٌ للقرآنِ بهَذَا فَإِنَّهُ قد يُمانع فِي كونه مردودًا؛ لِأَنَّ ابن عباس لا يمكن أن يفسر كلام الله بما أخذه عن بني إسرائيلَ، وقد قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ**

وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ»[1]؛ لِأَنَّ هَذَا يَقتضِي أَنَّنا إذا فَسَّرنا الْقُرْآن بما قالوا فقد صَدَّقْناهم، وهَذَا بعيدٌ مِنَ الصحابةِ أن يفعلوه، فالْإِنْسَان يَتوَقَّف فيما إذا جاء تفسيرُ الآيَةِ عنِ ابنِ عبَّاس وغيره من الصحابةِ الَّذِينَ أخذوا عن بني إسرائيلَ ويَتَوَقَّف فِي رَدِّه، وذلك لهَذَا الوجهِ الَّذِي ذَكَرنا، وإنْ ذَكَروا شيئًا لا يتعلَّق بالتفسير كالقَصَص الَّتِي ما أشار إليها الْقُرْآن فهَذَا يُمْكِن أن نأخذَه، لكِن قِصَّة مُسْتَقِلَّة ما أشار إليها الْقُرْآن، هَذَا يَكُون عَلَى بابِه، لكِن إذا فَسَّر شيئًا فِي قِصَّة فِي الْقُرْآن فهَذَا نأخذه، أَمَّا إذا جعَلُوه تفسيرًا لشيءٍ معيَّن منَ الْقُرْآن كما فِي هَذِهِ الآيَةِ فالْإِنْسَان يَتوَقَّف.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينه عِوَض عن المضافِ إليه؛ أي: وكلهم بعدَ إحيائهم يومَ القيامةِ ﴿أَتَوْهُ﴾]، أي: أتوا الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿دَاخِرِينَ﴾.

و(كلٌّ) تنوينُه عِوَض عنِ المضافِ إليه، والتَّقْدير: (وكُلُّهم) إذن التنوين عِوَض عنِ اسمٍ؛ عن كَلِمَةٍ، وتنوينُ العِوَض يَقُولُونَ: إنَّهُ ثلاثةُ أقسامٍ: عِوَض عن جملةٍ، وعِوَض عن كلمةٍ، وعِوَض عن حَرْفٍ، مثل قوله تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٤]، نَقُول هنا: التنوين عِوَض عن جملةٍ؛ يَعْنِي: حينَ إذْ بَلَغَتْ، وأيضًا قوله تَعَالَى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٢-٤]، (ويومئذٍ) عِوَض عن جملةٍ، وهي: ويوم إذ يُغْلَب الرومُ.

والعِوَض عن اسمٍ مثل هَذِهِ الآيَة، فتنوين (كل) و(بعض) عِوَض عن اسمٍ،

(١) رواه أبو داود، كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث رقم (٣٦٤٤)؛ وأحمد (٤/ ١٣٦) (١٧٢٦٤)، عن أبي نملة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مثل قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: (وكلهم)، وكما فِي قوله تَعالَى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٣٢]؛ أي: وإنَّ كلهم، وقوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود:١١١]؛ أي: وإنَّ كلهم.

والعِوَض عن الحرفِ هُوَ الَّذِي يَلْحَق مثل: جَوَارٍ وغَوَاشٍ، فأصلها: جواري وغواشي، فحُذِفَتِ الياءُ وعوّض عنها التنوين.

وفي الحقيقة مسألة التعويض عن الحرفِ لَيْسَ لها قيمةٌ، لكِن الَّذِي يمكن أن يَتَرَتَّب عليه المَعْنى أو فَهْم المَعْنى هُوَ العوض عن جملةٍ أو اسمٍ.

قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾؛ أي: أَتَوُا اللهَ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بصيغةِ الفِعْل واسمِ الفاعلِ]، اسمُ الفاعلِ عَلَى وزنِ فاعلٍ (آتٍ)، وإذا لَحِقَتْه الواوُ تقول: «وَكُلٌّ آتُوهُ»، والفِعْل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾[1].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿دَاخِرِينَ﴾ صَاغِرِينَ]، إعرابها حالٌ، وهي حالٌ مِن مَفْعُول (أَتَوْهُ)، يعني من الهاءِ، فإذا كَانَ فعلًا فواضحٌ أَنَّهَا حال، لكِن (كل آتُوهُ دَاخِرِينَ) كيف تكون حالًا؟ وأين العاملُ فيها؟ اسمُ الفاعلِ؛ لِأَنَّ اسمَ الفاعلِ يعملُ عملَ فعلِهِ.

وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾ قال المُفَسِّر: [صَاغِرِينَ]، الله أكبرُ! فِي ذلكَ الوقتِ حَتَّى الرُّؤَسَاء وحتَّى الملوكُ وحتَّى الأُمَرَاء وحتى الأسياد كلُّهم واحدٌ، كلُّهم يَأْتُونَ فِي حالِ الصَّغار، فَأَعْظَمُ مَلِكٍ فِي الدُّنيا وأعظمُ رئيسٍ فِي الدُّنْيا الَّذِي يَمشي وبين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شِمالِه خَلائِق البَشَرِ؛ يأتي يومَ القيامةِ صاغرًا، ولكِن هَذَا

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

الصَّغار بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالقِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦]، ثُمَّ قد يَكُون بالنِّسْبَةِ للشخصِ أيضًا، وقد يَكُون بالنِّسْبَةِ لعظمةِ الخالِقِ فقطْ، فهم جميعًا بالنِّسْبَةِ لعظمةِ اللهِ صَاغِرُونَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ النفخِ فِي الصُّورِ، ولم يُعيِّنِ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النافخَ ولكِن جاءتْ به السُّنَّة أَنَّهُ إسرافيلُ أحدُ حَمَلَة العَرْش.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا النفخ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ الفَزَع، ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلو أنَّ قنابلَ قُدِّرَت فِي مكان مَهْما بلغتْ قُوَّتُها تُفْزِع مَن حولها ولَكِنَّهَا لا تُفْزِع أهل الْأَرْض كلّهم، ولا أهل الْأَرْض وأهل السَّماوَات، وهَذَا النفخُ يُفْزِعُ أهلَ السَّماوَات وأهلَ الْأَرْض؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيدلُّ ذلك عَلَى عَظَمَةِ هَذِهِ النفخةِ؛ ولذلك قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣]، أكَّدها بواحدةٍ لِيَتبيَّنَ أَنَّهَا عظيمةٌ لا تَحتاج إِلَى إعادةٍ وتكرارٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لا يَفْزَعُ جميعُ مَن فِي الْأَرْض ومن فِي السَّماوَات، بل يبقى مَن لا يَفْزَع بمشيئةِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهَذَا المُبْهَم فِي الآيَةِ الصَّحيحُ أنه ليسَ معلومًا لنا، ولذلك أشكلَ عَلَى رسولِ الله ﷺ هل كَانَ موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّنِ استثنى اللهُ، فدلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ معلومًا للناسِ مَن هم المُسْتَثْنَوْنَ، وهَذَا يَرْجِع إِلَى كمالِ رُبُوبِيَّة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمالُ الرُّبُوبِيَّة والسلطانِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ووجهُ ذلك أن العظيمَ إذا أَبْهَمَ ما يَتَصرَّفُ به دلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لا مُعارِضَ له، وأنَّ

سُلطانه تامٌّ، يَعْنِي كأنَّه لا أحدَ يَسْأَله مَن هَذَا الَّذِي لا يَفْزَع ومن هَذَا الَّذِي يَفْزَع، وذلك دليل عَلَى كمالِ السلطانِ والعظمةِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، وذلك لكمالِ سُلطانِهِ وحِكْمَتِه.

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: النَّبِيّ ﷺ رأى موسَى مُتَعَلِّقًا بالعَرْش، فهل هَذِهِ النفخةُ متعلقةٌ بأهلِ الْأَرْض فقطْ؟

فالجواب: النفخةُ مُتَعَلِّقة بمَن فِي السَّماوَات وبمن فِي الْأَرْض، والمتعلِّق بالعَرْش هُوَ فِي السَّماوَات، وهَذِهِ النفخة نَفْخَة الفَزَع هِيَ المقدَّمة لنفخةِ الصَّعْقِ، يَفْزَعون ثُمَّ يَصْعَقون، والرَّسُول ﷺ يَقُول: لا أدري أَجُوزِيَ بنفخةِ الصُّور أم أَنَّهُ مِمَّنِ استثنى اللهُ، وموسى ﷺ مات فِي الْأَرْضِ ودُفِنَ فِي الْأَرْضِ، ولا نَدْرِي هل أَنَّهُ يُرْفَع أو يَتَعَلَّق بقوائم العَرْش، وإنْ لم يَكُنْ مباشـرًا له، وقد يُدَلَّى إليه شَيْء، لا نَدْرِي، فالمهمُّ أن هَذِهِ أمورٌ غَيْبيَّة لا نُحِيط بها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن كُلّ أحدٍ يأتي يومَ القيامةِ صَاغـرًا ذليلًا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا فرقَ بينَ الملكِ والمملوكِ، والرئيسِ والمرءوسِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ كلٌّ؛ لِأَنَّ هَذَا التنوين عِوَض عن كلمةٍ، والتَّقْدير: (وكُلّهم)؛ أي: من فِي السَّماوَات ومن فِي الْأَرْض أتوُا اللهَ تَعَالَى داخرينَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعْـثِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ أو (وَكُلٌّ آتُوهُ دَاخِرِينَ).

• • ۞ • •

الآيــة (٨٨)

• • ∞ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٨٨].

• • ∞ • •

قوله: (ترى) أيُّها الْإِنْسان، فالخطابُ لَيْسَ خاصًّا بالنَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الرؤية له ولِغَيْرِه. والجبالُ: مَعروفةٌ، والرؤيةُ هنا بَصَرِيَّة، قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تُبْصِرها وقتَ النفخةِ].

وقول الْمُفَسِّر: [وقت النفخة] فِيهِ نظرٌ؛ لِأَنَّ وقتَ النفخةِ لم يكن النَّاس قد قاموا من قُبُورهم، ولَكِنَّهم يَرَوْنَها يومَ القيامةِ بعدَ أن يأتيَ النَّاس إِلَى اللهِ تَعَالَى داخِرِينَ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَحْسَبُهَا﴾ تَظُنُّها]، والجملةُ فِي قولِهِ: ﴿تَحْسَبُهَا﴾ فِي مَوْضِع نصبٍ عَلَى الحالِ؛ لأنَّنا قُلْنَا: إنَّ الرؤيةَ هنا بَصَرِيَّة، والرؤيةُ البصرِيَّةُ لا تَنْصِب إِلَّا مَفْعُولا واحدًا، ومعنى تَحْسَبُها؛ أي: تَظُنُّها.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿جَامِدَةً﴾ واقفةً مكانها لِعِظَمِها]، وقوله: ﴿جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ﴾ استعملَ الجمودَ للوقوفِ بجامعِ الثبوتِ فِي كُلّ منهما؛ لِأَنَّ الجامدَ ثابتٌ، والواقف كذلك ثابت، ولكِن قول الْمُفَسِّر: [واقفة مكانها] فِيهِ نظرٌ، إِنَّمَا ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ أي: واقفة وإنْ كانتْ هِيَ تدورُ، ولهَذَا قَالَ: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ فتبيَّن بهَذَا

أَنَّهَا ليستْ واقفةً فِي مكانها، ولَكِنَّهَا تُحْسَبُ واقفةً وهي فِي الحقيقةِ سائرةٌ، ولهَذَا قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ المطر إِذَا ضَرَبَتْه الريحُ؛ أي: تسير سَيْرَهُ حَتَّى تقعَ عَلَى الْأَرْضِ فتَسْتَوِي بها مبثوثة ثُمَّ تَصِير كالعِهْنِ ثُمَّ تصير هَبَاءً منثورًا].

قوله: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يَقُول: [المَطَـر]، وفيه نظـرٌ أيضًا، والصَّـوابُ أن المُرادَ بالسحابِ هَذَا السحابُ المعروفُ، والمَعْنى أَنَّهَا تسيرُ كما يسيرُ السحابُ فِي السُّرعةِ، وهو أبلغُ مِنَ المطرِ الَّذِي فَسَّرَهُ به المُفَسِّر حَيْثُ قَالَ: إنه مثل المطر إذا ضربتْه الريحُ، فالمطرُ إذا ضَرَبَتْهُ الريحُ تَجِده يزولُ عن مكانِهِ، ولكِنَّه فِي الحقيقةِ لَيْسَ كما يَتَصَوَّرُهُ الْإِنْسَانُ من الآيَةِ، بل إن الآيَة عَلَى ظاهـرها، والمُراد بالسـحابِ هُوَ السـحابُ المعروفُ، فَإِنَّهُ يَمُرُّ بسرعةٍ، ثُمَّ إنَّ مشابهَةَ الجبالِ للسحابِ أقربُ من مشابهةِ الجبالِ للمطرِ، قَالَ الله تعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ [النور:٤٣]، فالصَّوابُ إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظَاهِرِهَا بدونِ تأويلٍ.

وقوله: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ السحابُ معروفٌ أَنَّهُ يمرُّ بسرعةٍ، فهي إذن تُقْتَلَع من مكانها وتكون مثلَ السحابِ هَبَاءً يَطير.

والحاصلُ: أنَّ الْإِنْسَانَ لا يَشْعُرُ بمرورها لَكِنَّها تمرّ.

ثم يَقُول المُفَسِّر: إنَّهُ بعدَ ذلك تَقَع عَلَى الْأَرْض فتَستوي بها مبثوثةً، وما قَالَهُ المُفَسِّر مُحتمَل، أَنَّهَا بَعْد صعودها ومرورها مرّ السحابِ تقعُ عَلَى الْأَرْض ثُمَّ تَستوي بها الْأَرْض، ويَحتمِل أَنَّهَا تَبقى طائرةً ثُمَّ تكون هباءً منثورًا، بمعنى أَنَّهَا أولًا تَضْعُفُ حَتَّى تكونَ كالعِهنِ المنفوشِ ثُمَّ بَعْد ذلك تَطيرُ مِنَ الْأَرْض حَتَّى تمرّ مرّ السحابِ مُشَاهَدَةً، لها جِسْم متماثِل، ثُمَّ بَعْد ذلك تكون هباءً منثورًا تتبدد وتتفرَّق، فتكون لها أحوال وتتطوَّر، وذلك من عِظَم الأهوالِ يومئذٍ، فتبقى الْأَرْض بعدما كانت

مرتفعةً ونازلةً تبقى قاعًا صَفْصَفًا؛ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مؤكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله أُضيف إِلَى فاعلِهِ بَعْد حذفِ عاملِهِ؛ أي: صنع الله ذلك صنعًا].

قوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ المُفَسِّر يَقُول: [مَصْدَر مُؤَكِّد لمضمونِ الجملةِ قبله]، الجملةُ هِيَ قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ وهَذَا الفِعْل من اللهِ هُوَ الَّذِي جَعَلَها تكونُ عَلَى هَذَا الحالِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾، فأكَّد هَذِهِ الجملة بهَذَا المصدر.

إِذَنْ: إذا كَانَ المصدرُ مُؤَكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ عند النحْويين يجبُ حذفُ عامِلِهِ.

يَقُول ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

وَحَـذْفُ عَامِـلِ المُؤَكِّـدِ امْتَنَـعْ ....

يعني أن المصدرَ إذا كَانَ مؤكِّدًا لجملةٍ قبله فَإِنَّهُ يجبُ حذفُ عامِلِه؛ وذلك لِأَنَّ الجملةَ الَّتِي قبلَه ما دامَ هُوَ مؤكِّدًا لها صارتْ كأنها فِعله، فلا يُجمَع بينَ البدلِ والمبدَلِ، وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أُضيف إِلَى فاعِلِه] يعني المَصْدر (صنع) أُضيف إِلَى اللهِ، واللهُ هُوَ الفاعلُ، والمصدرُ يُضاف تارَةً إِلَى فاعلِهِ، ويضاف تارَةً إِلَى مَفْعُوله، تقول مثلًا: (عَجبتُ مِن أكلِكَ الطعامَ)، أَكْل مصدر؛ لِأَنَّ الفِعْل أكلَ يأكُل أَكْلًا، فأكل مصدرٌ مُضافٌ إِلَى الكافِ، والكافُ فاعلٌ وليستْ مَفْعُولا، فأنت آكِل ولستَ مأكولًا.

إِذَنْ: فالكافُ فاعل، فَهُوَ مضافٌ إِلَى فاعلٍ، والطعام مَفْعُول به.

---

(١) ألفية ابن مالك- المفعول المطلق (ص:٢٩).

وإضافته إِلَى المَفْعُول تقول مثلًا: عَجِبتُ من أكلِ الطعامِ مِن زيدٍ، وكذا: عَجِبْتُ من طَحْـنِ الدقيقِ من زيدٍ، فالدقيقُ مطحونٌ، والطعامُ مأكولٌ، فَهُوَ مضافٌ إِلَى مَفْعُولِه.

في هَذِهِ الآيَة: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ فاللهُ تَعَالَى صانِعٌ، فيَكُون هنا مُضافًا إِلَى فاعله.

وقوله: [بَعْد حذف عامله] وُجوبًا وليـس جوازًا، فيجـبُ حذفُ العاملِ وجوبًا، وإنمـا وَجَبَ حذفُه لِأَنَّهُ مؤكد للجملةِ قبله، فتكون هَذِهِ الجملة بمنزلةِ العاملِ؛ أي: بمنزلةِ الفِعْل، ولا يُجْمَع بين البدلِ والمُبدَلِ منه، [أي: صنع الله ذلك صنعًا]، وَفِي إضافةِ الصنع إِلَى اللهِ هنا تعظيمٌ لهَذَا الأَمْرِ وَأَنَّهُ من الأُمُورِ العظيمةِ الَّتِي هِيَ من صُنع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ﴾ أحكمَ ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ صَنعَهُ]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنعَهُ، ومن جملةِ إتقانِهِ أَنَّهُ حينما كانتِ الْأَرْض محتاجةً إِلَى هَذِهِ الجبالِ صارتِ الجبالُ راسيةً ورواسيَ تَرْسُو بها الْأَرْض، وهي أيضًا فِي نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزولُ الحاجةُ إليها، بل تَقتضي الضَّرورةُ زَوَالها، فتُزال هَذِهِ الجبالُ العظيمةُ، وبهـذَا نعلمُ أن اللهَ تَعَالَى صنعَ الجبالَ حينَ احتاجَ النَّاسُ إليها باقيةً، ولَمَّا زالـتِ الضَّـرورَةُ إليها أزالها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وبهَذَا نعرِف الحِكْمَةَ فِي قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾، فصار وجودُ الجبالِ إتقانا وزوالها يومَ القيامةِ إتقانًا أيضًا.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّر: [صنعَه]، وينبغي ألا يقيّد بقولنا: صنعه؛ لِأَنَّ اللهَ أتقنَ كُلّ شَيْء صنعه وشَرَعَهُ، وَالَّذِي أوجبَ للمؤلِّف أنْ يقيِّد ذلك بِقَوْلِهِ: صنعه؛ لِأَنَّ السياقَ فِي مَقام الصنعِ، فلهَذَا قَالَ: الَّذِي أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنعَهُ، ولَكِنَّنا نَقُول: إن الله تَعَالَى لم يَقُلِ: الَّذِي أتقنَ صُنْعَهُ، ولو كَانَ الله تَعَالَى -واللهُ أَعْلَمُ-

يريدُ أنْ يقيِّدَ الإتقانَ بما صَنَعَ لكانَ كما قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ قال: الَّذِي أتقنَ صُنْعَ، ولكِنه تَعَالَى يبيِّن أَنَّهُ أتقنَ كُلّ شيءٍ صَنَعَهُ أو شَـرَعَه، فما صنعه الله من المخلوقاتِ فَهُوَ متقنٌ، وما شرعهُ اللهُ تَعَالَى منَ الأحكامِ فَهُوَ أيضًا مُتْقَنٌ، لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ، قَالَ الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ فِي سورة تَبارَكَ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك:٣-٤]، وقال تَعَالَى فِي الآيَات الشَّرْعِيَّة: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النِّساء:٨٢]، فبيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي آيَةِ تَبارَك وَفِي آيَة النِّسَاءِ أَنَّهُ مُتقِن لكلِّ ما صنع ومتقِن لكلِّ ما شَرَعَ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ[1]]، بما يَفعلون وبما تَفعلون، أَمَّا عَلَى قراءةِ الياءِ فيقول المُفَسِّر: بما يَفعلون، [أي: أعداؤه منَ المعصيةِ وأولياؤه مِنَ الطاعةِ]، ولكِن عَلَى قراءة التاءِ: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فالخطابُ لجميعِ النَّاسِ.

(والخبير) بمعنى ذي الخِبرة، والخبرةُ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، وَعَلَى هَذَا فهي أخصُّ مِنَ العلمِ المطلَقِ، وإذا كَانَ عالمًا بالبواطِنِ فَهُوَ عالمٌ بالظواهِرِ أيضًا، فاللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ عَليمٌ بالظواهرِ وبالبواطنِ.

وما مناسبة قوله: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ لَمَّا تحدَّث اللهُ عنه من صُنعه؟ يعني كَانَ مُقتضى السياقِ أَلَّا تُختَم الآيَة بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بل تُختَم بِقَوْلِهِ: (إنه عليم حكيم) أو (إنه عَلَى كُلّ شيءٍ قديرٌ) ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ وهَذَا يَقتضي أن تختم الآيَةُ بما يَدُلّ عَلَى القُدرة والحِكْمَةِ، ولكِنَّها

---

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

خُتِمَتْ بما يَدُلّ عَلَى العلمِ والخبرةِ؛ العلمُ بما يفعلُ العبادُ، فما هُوَ الجوابُ عن هَذَا؛ أي: عن العُدُول عن الأول إِلَى الثاني؟

الجواب: -واللهُ أَعْلَمُ- أن الحِكْمَةَ من ذلك هي أن قوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ جملة مُعْتَرِضة بالنِّسْبَةِ للمعنى، لا بالنِّسْبَة للإعراب، وأنَّ المقام يَقتضي الإخبارَ بأن الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يعلم بما يفعلونَ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ هُوَ يومُ الجزاءِ، والجزاء مرتَّب عَلَى العِلم، فلهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، نظيره قوله تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧]، فيَكُون هنا ذِكْرُ العلمِ بما يَفْعَل النَّاسُ فِي سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إِلَى أنَّ هَذَا اليومَ هُوَ يومُ الجزاءِ الَّذِي يَجِب عَلَى المرءِ أن يعملَ له ويَحتاط له.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم فِي قوله تَعَالَى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ أَنَّها جملةٌ مُعْتَرِضة، أَلَا يُشْكِل عَلَى هَذَا أَنَّ الْقُرْآن معانيه كلها متناسِقة؟

المُرادُ بِقَوْلِنا: جملةٌ مُعْتَرِضة؛ أي: من حَيْثُ المَعْنى، بمعنى أَنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لَمَّا ذكرَ حالَ الجبالِ يومَ القيامةِ بعدَ النفخِ فِي الصُّور ثُمَّ ذكر أن هَذَا من صنعه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأن ذلك غاية الإتقانِ حَيْثُ كانت ثابتةً، ثُمَّ لَمَّا زالتِ الحاجةُ إليها أُزيلت؛ خَتَمَ الآيَة بما يَكُون تحذيرًا للناسِ مَن أن يعملوا ما يخالفُ أمرَ اللهِ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، ومعلومٌ أن التناسُقَ فِي الْقُرْآن منه ما هُوَ ظاهرٌ ومنه ما لا يَظْهَر إِلَّا بالتأمُّل، مثلًا قوله تَعَالَى: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، مُقتضى السياقِ: فإنك أنـتَ الغفورُ الرحيمُ، ومع ذلك ما كانت بل قَالَ: ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وعدّة آياتٍ من هَذَا النوعِ، يَتوقَّع الْإِنْسان أن تُختَم الآيَة بكذا ثُمَّ تختم بكذا،

فتكون فِي ظاهرِ الأَمْـرِ مخالفةً لِمُقْتَضَى السياقِ، ولكِنَّه عند التأمُّل يَتبَيَّن للمرءِ أن الحِكْمَةَ هي أن تكونَ عَلَى هَذَا الوجهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِظَم هَذِهِ الأهوالِ وارتفاعها، فالشَّيْءُ إذا كَانَ مرتفعًا ولو كَانَ يجري بسرعة فَإِنَّهُ يُظَنُّ أَنَّهُ واقف.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن هَذَا الأَمْرَ الَّذِي حصل لهَذِهِ الجبال هُوَ من صنعِ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، فالذي جَعَلَها جامدةً فِي الدُّنْيا راسيةً عظيمةً ثقيلةً جعلها فِي الآخِرَة ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وذلك صُنْعٌ من صنعِ اللهِ الَّذِي لا يستطيعُ البشرُ أن يفعلوهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جـواز إضافة الصُّنع إِلَى اللهِ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾. ولكِن لا يُؤْخَذ منه إثبات اسمِ الصانعِ لله، ولكِن يُخْبَـر به عن اللهِ، فيقال: إن الله تَعَالَى صانعُ كُلِّ شيءٍ عَلَى سبيلِ الخبريَّة، وَأَمَّا إثباتُ اسمِ الصانعِ فلا.

عَلَى أَنَّهُ يوجد فِي كلامِ شيخِ الإِسْلامِ ابن تَيْمِيَّةَ وكلامِ ابن القيِّم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ دائمًا كلمة (الصانع)، والظَّاهر أَنَّهما أرادا بهَذَا مخاطبةَ أهلِ الكَلامِ بمثلِ ما يتكلمون به، كأن يُقال مثلًا: إثبات الصانع يَدُلّ عليه كذا وكذا، مَعَ أننا نَرَى أن الأَولى والأفضل أن لا يُثْبَت حَتَّى بهَذَا اللفظ، بل يقال: إثبات الخالق دلّ عليه كذا وكذا، والخالق جاء فِي الْقُرْآن، وَهُوَ أبلغُ منَ الصانعِ.

إنما عَلَى كُلّ حالٍ الإخبار عن الله بأنه صانعٌ مضافًا إِلَى التعميم مثل: صانع كُلّ شَيْء؛ هَذَا جائز لا بأس به، والنَّاس يَقُولُونَ فِي عباراتهم العامِّيَّة: صانع كُلّ

مصنوع، فهَذَا كونه خبرًا صحيحٌ، أَمَّا أن تجعلَه اسمًا من أسماءِ اللهِ فلا؛ لِأَنَّهُ يفرق بين الاسم وبين الخبرِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: ما الفرق بين الخبر والاسمِ؟

الخبرُ ضِدّ الاسمِ، يعني الشَّيْء إمَّا أن يُخبَر به عن اللهِ أو يُسمَّى به الله، فالخبر عن الله يجوزُ أنك تُخْبِرُ عن الله تَعَالَى بكل ما ثبت له من فعل، مقيدًا إن كَانَ مقيدًا، ومُطْلَقًا إن كَانَ مطلقًا، وَأَمَّا الاسمُ فلا تُسَمِّ اللهَ إِلَّا بما سَمَّى به نفسَه، ولهَذَا يَصِحُّ أن نَقُولَ عن اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إِنَّهُ مُدبِّر الأُمُور، مُسَخِّر السَّماوَات والْأَرْض، مذلِّل الإبل لِراكبيها، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكِن كونك تُسَمِّيه بهَذَا الاسم لا يَصِحّ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: الصِّفة أليست مثل الخبر؟

فالإجابة: نعم الصِّفة الَّتِي يَصِحّ إضافتها إِلَى اللهِ تُخْبِـرُ بها عنِ اللهِ لا مانـعَ؛ ضرورةَ أنَّ المشتَقّ دالٌّ عَلَى صِفَتِه، فكُلّ مُشْتَقّ دالٌّ عَلَى صفتِه، ولا يمكِن أن تقولَ عن شيءٍ: إِنَّهُ مُشْتَقّ ثُمَّ تنفي الصِّفةَ الَّتِي اشتُقّ منها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن هَذَا الأَمْر الَّذِي يقع للجبالِ يوم القيامة أمرٌ عظيمٌ، وجهُ عظمته: إضافته إِلَى الله، حَيْثُ قَالَ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ وما أُضيف إِلَى العظيمِ فَهُوَ عظيمٌ، كما أن ما أُضيف إِلَى الحقيرِ فَهُوَ حقيرٌ.

الْفَائِدَتانِ الخَامِسَةُ والسادسةُ: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُتْقِن لكلِّ شيءٍ من الأفعالِ والأحكام؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ مما صنعَ وشَرَعَ، وَأَمَّا تقييدُ المُفَسِّر له بِقَوْلِهِ: [صَنعَهُ] ففيه نظرٌ، ولا يُقالُ: إن السياق فِي الكَلامِ عَلَى الصنعِ؛ لأَنَّنا نَقُولُ: الكَلام عَلَى الصنع لَكِنَّهُ جاء بَعْد ذلك تعميمٌ، لم يقل: أتقن كُلّ ما صنعَ، قَالَ: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾.

إِذَنْ: فاللهُ تَعَالَى مُتْقِن لكلِّ ما صنعَ ولكلِّ ما شرعَ.

ويُستنتَج من هَذِهِ الفائدةِ: إثباتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّهُ لا إتقانَ إِلَّا بحِكمةٍ، فلا يمكن أنْ يُتقَنَ الشَّيْء إِلَّا بعلمٍ منَ المُتْقِن كيف يُتْقِنه، والثاني: بحكمةٍ؛ بحيث يُنْزِل كُلّ شيءٍ منزلتَه، وإلا لفاتَ الإتقانُ، فلا يُتْقِنُ الشَّيْءَ مَن لا يَعْلَمُ كيف يتقنه، فهَذَا لَيْسَ بِمُمْكِنٍ.

ولا يُتْقِنه وَهُوَ يعلمُ كيف يُتْقِنُه ولكِنه سَفِيهٌ لا يُحْسِن أنْ يَتَصَرَّف. أيضًا لا يَحصُل الإتقانُ، فلا إتقانَ إلا بعلمٍ وحكمةٍ، فمِن إتقانِ اللهِ نَستنتجُ هَذِهِ الفائدةَ: وهي إثباتُ الحِكْمَةِ والعلمِ له سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ضرورةَ أنه لا إتقانَ إِلَّا بعلمٍ وحكمةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قطعُ اعتراضِ كُلّ مُعترِضٍ عَلَى ما يَحْدُث فِي الكونِ من تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أَتْقَنَه، والله تَبَارَكَوَتَعَالَى أعلمُ وأحكمُ من عبادِهِ، فأنت متى عَلِمْتَ هَذَا الشَّيْء انقطعَ عنك كُلّ اعتراضٍ، سواءٌ سمِعْتَه من غيرِكَ أو أَوْرَدْتَهُ عَلَى نفسِك.

والْإِنْسَان يَعْرِضُ له أحيانًا شُبُهات يُلْقِيها الشيطانُ فِي قلبه؛ كيف كَانَ كذا؟ لم كَانَ كذا؟ ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فنقُول: متى آمنتَ بأنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قد أتقنَ كُلّ شيءٍ انقطعَ عنك هَذا الاعتراضُ، وأمكنَكَ أن تقطعَ به اعتراضَ غيرِكَ أيضًا. فلو فَرَضْنا أن المطرَ جاءَ فِي غيرِ وَقته وأفسدَ الثِّمار؛ إذا علِمنا أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ وأن هَذَا المطرَ من فِعْلِه ومن صُنْعه، لا يُمْكِنُنا أنْ نَعْتَرِضَ؛ لأَنَّنا نعلمُ أَنَّهُ نتيجةُ إتقانٍ مَبْنِيّ عَلَى علمٍ وحكمةٍ، تَتَقَاصَر علومنا وحِكْمَاتُنَا عن إدراكِه. وهَذَا أمرٌ يُفِيدُ الْإِنْسَانَ فِي أَشْيَاءَ كثيرةٍ؛ فِي

الشرعِ أحيانًا تأتي أحكامٌ يَخفى عَلَى المرءِ وَجْهُ التفريق بينها وهي ثابتةٌ عنِ الشرعِ، ولكِنك تقول: الله تَعَالَى أتقنَ كُلّ شيءٍ.

ومِن ثَمَّ أحـدثَ العُلَمـاءُ أو الفقهاءُ مسائلَ سَمَّوْهَا بالتَّعَبُّـدِيَّاتِ، وهم ما أحدثوها فِي الحقيقةِ، بل هِيَ مسائلُ ثابتةٌ لكِنّهم وَضَعُوا لها هَذَا الاسمَ: (التَّعَبُّدِيّ).

وَلَيْسَ معنى التعبديّ الَّذِي لَيْسَ له حكمة؛ لِأَنَّهُ ما من شيءٍ إِلَّا وله حكمةٌ، ولكِن معناه: الَّذِي تخفى حِكمته علينا، وَلَيْسَ لنا فِيهِ إِلَّا التعبُّد؛ كعددِ الرَّكَعَاتِ فِي الصلواتِ؛ وَكَوْن الصلواتِ خَمسًا؛ وكذلك أَشْيَاء كثيرة فِي الطهارةِ يَخْفَى عَلَى المرءِ حِكْمَتُها؛ وكذلك فِي الحجِّ.

فالمهمُّ أننا متى بَنَيْنَا اعتقادنا عَلَى هَذِهِ المسألةِ، وهي أن الله أتقنَ كُلّ شيءٍ، زالتْ عنّا شُبُهات كثيرةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: كمال علم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وذلك بالخبرةِ الَّتِي هِيَ أخصُّ من مُطْلَق العلم؛ لِأَنَّ الخبرةَ كما سبقَ هِيَ العلمُ ببواطنِ الأُمُورِ، مأخوذةٌ من الخَبِير؛ وَهُوَ المُزارع الَّذِي يَدْفِنُ الحبَّ فِي الْأَرْض فيَخْفَى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحذيرُ المرءِ أن يعملَ ما يُخالفُ حُكْمَ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

فلو أنَّ أباكَ قَالَ لكَ: اذهبْ وافْعَلْ ما تريدُ، أنا أعلمُ بمـا تفعلُ، فما الَّذِي يَقتضي هَذَا؟

يقتضي هَذَا التحذيرَ، وأن تحذر من مخالفةِ أبيك، فكيفَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّذِي هُوَ خبير بكل ما نفعلُ.

إِذَنْ: فالجملةُ تفيد تحذيرَ المرءِ مِن المخالفةِ، وأنك عندما تُسوِّل لك نفسُك معصيةً لله عَزَّوَجَلَّ فإنك تَعْرِضُ عليها مثل هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾، ومثل قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وأشباه ذلك من الأَشْيَاءِ الَّتِي يجبُ عَلَى المرءِ إذا همّ بسيئةٍ أن يَستعرضَ هَذِهِ الآيَاتِ حَتَّى تمْنَعَهُ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن ما يَتعلَّق بالهمِّ المجرَّد فَإِنَّهُ لا يُؤَاخذ به العبدُ؛ لِأَنَّ المقصودَ من قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ التحذيرُ من هَذَا الفِعْل المخالِفِ، فإذا قُدِّر أَنَّهُ همٌّ مجرَّد، فَإِنَّهُ لَيْسَ بفعلٍ، فلا يؤاخَذ عليه العبدُ، وهَذِهِ الفائدةُ بعيدةٌ فِي التصوُّر ولَكِنَّهَا دلَّت عليها السنَّة[1]، وأنَّ مجرَّد الهمِّ لا يؤاخذ به العبدُ حَتَّى يفعلَ، إِلَّا الهمّ بالحسنة فَإِنَّهُ يُكتَب للمرءِ، ولكِنَّه لا يدخل فِي هَذِهِ الآيَةِ؛ لِأَنَّ الآيَة سِيقت للتحذيرِ، والهمُّ بالحسنةِ يُرَغَّب فيه ولا يُحَذَّر منه، فالهمُّ بالسيئةِ لا يعاقَب عليه العبدُ، والهمّ بالحسنةِ يُثاب عليه العبدُ، ومُقتضَى العدل أن يُعاقَب عَلَى السيئةِ وأن يُثابَ عَلَى الحسنةِ، أو أن لا يعاقب عَلَى السيئة ولا يثاب عَلَى الحسنة، ولكِن رحمة الله تَعَالَى اقتضتِ الفضلَ دونَ العدلِ، فصارَ الهمُّ بالسيئةِ لَيْسَ فِيهِ شيءٌ، والهمّ بالحسنة فِيهِ ثواب.

• ● ۞ ● •

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من همّ بحسنة أو بسيئة، حديث رقم (٦١٢٦)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إذا همّ العبد بحسنة كتبت وإذا همّ بسيئة لم تكتب، حديث رقم (١٣٠)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الآية (٨٩)

••۞••

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل:٨٩].

••۞••

﴿مَن جَآءَ﴾: (مَن) شرطيَّة، و(جاء) فعلُ الشرطِ، وجملة: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ جوابُ الشرطِ.

وقوله تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ لم يَقُلْ: مَن فعلَ الحسنةَ، بل قَالَ: مَن جاء بها؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يفعلُ الحسنةَ فِي الدُّنْيا ولكِنه لا يأتي بها؛ لوجودِ ما يُسْقِطُها فتزول، ولكِن الشأن كُلّ الشأن فِي أن يأتيَ بها يومَ القيامةِ.

وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الظَّاهرُ أن المُرادَ بها الجِنس، وَلَيْسَ المُراد بها العهد، ولكِن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَسَّرَهَا عَلَى أن المُرادَ بها العهدُ، فقال: [أي لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ]، فجعلَ الحسنةَ حسنةً معيَّنة معهودةً وهي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ولكِن الصَّواب بلَا شَكٍّ خلافُ كلامِ المُفَسِّر، وأن المُرادَ بالحسنةِ الجنسُ، فأيّ حسنة يأتي بها الْإِنْسَان فله خيرٌ منها، ولهذَا جاء فِي الحديثِ الصَّحيحِ: «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا»، بحسنةٍ: نكِرة تَشْمَل جميع الحسنات.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يومَ القيامةِ]، متعلِّق بـ ﴿جَآءَ﴾ يَعْنِي: من جاءَ يومَ القيامةِ بالحسنةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثوابٌ ﴿مِّنْهَا﴾؛ أي: بسببها، وَلَيْسَ

للتفضيل؛ إذ لا فعل خير منها]، هَذَا غريبٌ، اقرأ الآيَة: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يَقُول المُفَسِّر: المُرادُ بالخيرِ هنا الثوابُ، يعني ما يُقابِل الشرَّ، و﴿مِّنۡهَا﴾ ليست (مِن) المتعلِّقة باسمِ التفضيلِ ولَكِنَّهَا للسببيَّة؛ أي: فله ثوابٌ بِسَبَبِهَا، وهَذَا تحريفٌ ظاهرٌ للقُرْآن، بل ﴿خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ يَعْنِي: أفضل منها، وذلك بالمضاعفةِ، فأنتَ إذا أعطيتَني ريالًا وقلتُ: سأعطيك خيرًا منه وأعطيتك ريالينِ صار خيرًا منه.

إِذَنْ: قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾؛ أي: أفضل منها، فَهُوَ يأتي بواحدةٍ ويُعطى عَشْرًا إِلَى سبعمائة ضِعف إِلَى أضعافٍ كثيرة.

وأما تعليل المُفَسِّر لمنعِ أن يَكُون المُرادُ بالآيَةِ التَّفضيل بِقَوْلِهِ: [إذ لا فعل خير منها] فنَقُول: نعم، الحسنة حَسَنَة بلَا شَكٍّ، وهي خيرٌ، لكِن لَيْسَ المُراد هنا: فله فعلٌ خيرٌ مِنها، بل المُراد الثوابُ والجزاءُ، والجزاء لَيْسَ بفعلٍ للعبدِ ولكِنه منَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ يجزي به العبدَ، فتعليل المُفَسِّر إذن عَلِيلٌ، بل ميِّت لَيْسَ فِيهِ رُوح إطلاقًا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ المقام هنا مَقام مُقابلةِ حسنةٍ بحسنةٍ منَ العدلِ، وإنما المقامُ مقامُ جزاءٍ مِنَ اللهِ، والله تَعَالَى يجزي العبدَ بخيرٍ مِن فِعله وأفضلَ، وَفِي آيَة أخرى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، فهل يَصِحّ أن يَكُون معنى قوله: ﴿فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ أي: عشر بسببها؟! هَذَا يُرَدّ عليه فِي الحقيقةِ، فالآيَةُ الَّتِي أشرنا إليها تفسِّر هَذِهِ الآيَة الَّتِي ذكر الله.

فقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ إذن عشر أمثالها، وَفِي الحديث: «**إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**».

والغريبُ أنّ التفسيرَ الَّذِي نَحَا إليه المُفَسِّر لا يكادُ أحد يَفهمه أبدًا، فكُلّ مَن قرأ الْقُرْآن ولو كَانَ عامِّيًّا يفهم من قوله: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾ جزاءً أفضلَ منه وأكثرَ،

ولا يفهم أنَّ المَعْنى فله ثوابٌ بِسببِ هَذِهِ الحسناتِ، أبدًا لا يَفْهَم هَذَا، وإنما يفهم أنَّ الثوابَ أكثرُ وأعظمُ وأفضلُ منَ العَمَلِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَهُم﴾ الجَاءُونَ بِهَا ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافةِ وكسـرِ الميمِ].

قوله: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾: (فَزَع) مضافٌ، و(يوم) مضافٌ إليه، و(يوم) مضافٌ و(إذ) مضافٌ إليه، و(إذ) مضافٌ والجملةُ المحذوفةُ مضافةٌ إليها، فيَكُون عندنا ثلاثُ إضافاتٍ.

وقوله: ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ الفزعُ بمعنى الخوفِ، ولكِنه لَيْسَ مجرَّد خوفٍ، بل خوفٌ بقلقٍ وحركةٍ واضطرابٍ، ولهَذَا يقال: فَزِعَ الرجل؛ لَيْسَ مجرَّد أَنَّهُ خافَ، بل تجده قَلِقًا ثُمَّ يحاول مثلما نَقُول فِي اللُّغة العامِّيَّة: (يفز) من الفَزَع، وكلمة فَزَع مفرَد مضافٌ فيَعُمّ كُلّ ما يحصلُ به الفزعُ؛ لِأَنَّ يومَ القيامةِ فِيهِ أفزاع؛ عِدَّة أَسْبابٍ للفزعِ، كأخذِ الكتبِ بالشمـالِ أو باليمينِ، وكذلك أيضًا دُنُوّ الشَّمْسِ، وكذلك الميزان، وكذلك الحَوْض المَوْرُود، وكذلك أيضًا يُنَادَى عَلَى الظالمينَ: أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله[1] ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، كُلّ هَذِهِ تُثير المرءَ وتُوجِب الفزعَ، لكِن هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأتون بالحسنة آمنون.

قال: [مِنْ فَزَعِ يَوْمَئِذٍ]، أضافَ الفزعَ إِلَى يومِ القيامةِ؛ لِأَنَّهُ فزعٌ لا نظيرَ له فِي الدُّنْيا، وَعَلَى قراءةٍ أخرى يَقُول المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَفِي أخرى [بالإضافةِ وكسرِ الميمِ

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم (٢٧٦٨)، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وفتحها، وفزع منوَّنًا وفتح الميم[1]].

إِذَنْ: فيها قراءتانِ ﴿مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ﴾ و«مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ» هَاتان القراءتان عَلَى الإضافةِ، والثَّالثة (مِنْ فزَعٍ) مُنوَّنًا وفتحِ الميمِ «مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ» وهَذِهِ فيها إشكالٌ؛ حَيْثُ إن (يوم) بالفتح مَعَ أَنَّهَا مضافةٌ، فيقتضي عَلَى هَذَا أن تكون مجرورةً، ونُخرِّج هَذَا عَلَى واحدٍ منْ أمرينِ: إمَّا أن نَجْعَلَهَا مبنيَّةً عَلَى الفتحِ، يَعْنِي: (فزَع) مضاف ويوم مضاف إليه مبنيّ عَلَى الفتحِ فِي محَلّ جرّ. أو نَقُول: إنَّ (فزع) فِي الأَصْل منونة حذف التنوين تخفيفًا، وَعَلَى هَذَا فتكون (يوم) مَفْعُولا يعني ظرف زمان كما هِيَ، عَلَى قراءةِ التنوينِ (فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ).

وبالنِّسْبَة للمعنى أيهما أبلغ: (من فزعٍ يومئذٍ آمنون) أو (من فزعِ يومئذٍ آمنون)؟

الأخير يَدُلّ عَلَى العموم، (فزعِ يومئذٍ) فكُلّ فزع فِي ذلك اليوم هم آمنون منه، وَعَلَى قراءة (فزعٍ يومئذٍ) يعني هم آمنون من فزعٍ فِي ذلك اليوم، فَهُوَ يقتضي أن يَكُون فزعًا واحدًا، إِلَّا إذا قُلْنَا: إِنَّهُ عَلَى تقدير (من كُلّ فزعٍ)؛ أي: من كُلّ فزع آمنونَ، فتوافق القراءة الأُولى الَّتِي هِيَ للإضافةِ، ولكِنِ القراءة بالإضافةِ أحسنُ؛ لِأَنَّهَا لا تحتاج إِلَى تأويلٍ.

وقوله: ﴿ءَامِنُونَ﴾ آمنونَ منَ الفزعِ، هل المَعْنى أَنَّهُم لا يَفزعون أو أَنَّهُم يفزعون لكِنَّهم آمنونَ؟

إِذَنْ: هم آمنونَ مِنَ الفزعِ، فيَحتمِل أن يَكُون المَعْنى أَنَّهُم لا يفزعون إطلاقًا،

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٥).

ويحتمل أَنَّهُم يفزعون ولكِنهم آمنونَ، فيكُون هَذَا الفزعُ مجرَّد شعورٍ بما يُفزَع منه فقط، وليسوا يخافون منه.

كذلك عَلَى أحدِ التفسيرينِ اللذينِ أَشرنا إليهما فِي قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل:٨٧]، أن هَذَا الفزعَ بَعْد القيامِ؛ لِأَنَّ بعض العُلَماء يرى أن النفخَ يَكُون بالصعقِ والبعثِ، ثُمَّ النفخة الثَّالثة للفزعِ بعدَ البعثِ، ولكِن هَذَا سبقَ أننا قُلْنَا: إِنَّهُ مرجوحٌ، وإن الصَّواب أن الفزعَ هُوَ الَّذِي يَكُون به الصَّعْقُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الحسناتِ يُؤتَى بها يوم القيامة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف يُؤتَى بالحسناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأَعْمال معانٍ وليستْ أجسامًا؟

فيقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ، يُقَلِّبُ هَذِهِ المعانيَ إِلَى أجسامٍ، مثلما قلبَ الموتَ وَهُوَ معنًى إِلَى جسمٍ، وَهُوَ الكبشُ[1]، فالله تَعَالَى عَلَى كُلِّ شيءٍ قديرٌ. قَالَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأصحابِهِ: «**مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟**». قَالُوا: مَن لا دِرْهَمَ عنده ولا متاع. فقال: «**الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ**»[2].

وأخبرَ ﷺ أن الله تَعَالَى يَقبَلُ الصدقة منَ الكَسْبِ الطيِّب بِعِدْلِ التمرةِ؛ أي:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾، رقم (٤٧٣٠)، ومسلم: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم (٢٨٤٩).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم (٢٥٨١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما يُعادِلها، فيُرَبِّيها كما يُربِّي الْإِنْسَانَ فَلُوَّه حَتَّى تكونَ مثل الجبلِ[(١)]، وهَذَا أيضًا عمل.

فالمهمّ أننا نَقُول: إن المجيءَ بالأَعْمالِ يومَ القيامةِ لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قديرٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن العبرةَ بالمجيءِ بالحسنةِ، لا بعملها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك لِأَنَّ عاملَ الحسنةِ فِي الدُّنْيا قد لا يأتي بها يومَ القيامة، حيثُ يَحْصُلُ ما يُبطِلها، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٤]، فقد يعملُ الْإِنْسَان الحسنةَ لكِن يأتي بشيءٍ يُبْطِلها فلا يأتي بها يوم القيامةِ، والمَدارُ عَلَى الإتيانِ بها يومَ القيامةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الجزاء أفضلُ من العَمَلِ وأعظمُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الفزعِ فِي يومِ القيامةِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَمْنُ مَن جاء بالحسنة من هَذَا الفزع.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن من جاءَ بالسيئةِ فَإِنَّهُ لا يأمنُ منها، وَهُوَ مأخوذ من مفهومِ قولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ﴾ يَعْنِي: أَمَّا مَن جاءَ بالسيئة فَإِنَّهُ لا يأمنُ، ولهَذَا تُكَبُّ وُجُوهُهم فِي النَّار.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن يومَ القيامةِ لا يُقاس بأمرِ الدُّنْيا، فهَذِهِ الأفزاعُ العظيمة لا تُفْزِع المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ جاءوا بالحسناتِ، وإنْ كانت عظيمةً فِي ذاتها؛ لِأَنَّ الله تَعَالَى

---

(١) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب الرياء في الصدقة، حديث رقم (١٣٤٤)؛ ومسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، حديث رقم (١٠١٤)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِي يومِ القيامةِ يخلُق أَشْياءَ يَسْتَبْعِدُها العقلُ فِي الدُّنْيا، فالشَّمْسُ تَدْنُو مِنَ الخلائقِ قَدْرَ مِيلٍ[1]، ومنَ النَّاسِ من يَكُونُ فِي ظِلٍّ منها، والعرقُ يَصِل عند بعض النَّاس إِلَى كَعبيه وإلى رُكبتيه وإلى حَقْوَيْهِ، ومنهم مَن يُلْجِمُه[2] وهم فِي مكانٍ واحدٍ؛ ممَّا يَتبيَّن به قُدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن النَّاس فِي هَذَا المكان الواحدِ وَفِي الزمنِ الواحدِ يختلفون هَذَا الاختلافَ المتبايِنَ.

وفي إضافة الفزعِ إِلَى ذلكَ اليومِ دليلٌ عَلَى شِدَّته ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾.

• ● ۞ ● •

(١) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة يوم القيامة أعاننا الله على أهوالها، حديث رقم (٢٨٦٤)، عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) تخريج الحديث السابق.

الآيـة (٩٠)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٠].

• • • •

قَالَ الْمُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ أي: الشِّرك]، قوله: [مَن جاء] نَقُولُ فِيهِ كما قُلْنَا فِي قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾؛ لِأَنَّ الْإِنْسَان قد يعملُ السيئةَ ولكِنه لا يأتي بها، وذلك بأنْ يتوبَ مِنْهَا أو تكون له أعمالٌ صالحةٌ تُكفِّرها أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَأَمَّا مجرَّد المشيئة فالغالب أَنَّهَا تُغفر يوم القيامةِ فيقرّر بذنوبِه ثُمَّ يُقَال له: غفرناها لك.

وقوله: [أي: الشـرك] فِيهِ نظرٌ، وإنمـا حَمَلَه عَلَى ذلك تفسيـرُه الحسنةَ بأنها (لَا إِلَهَ إِلَّا الله)، وَهُوَ توحيدٌ، فقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي الشركِ، ولكِن الصَّواب أنّ المُراد بالسيئةِ هنا الجنسُ، فيشمل كُلّ سيِّئ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ بأن وليتها، وذُكِرَتِ الوجوهُ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الشَّرف مِنَ الحواسّ، فغيرُها من باب أَولَى].

الذي أوجبَ للمؤلِّف أن يحملَ السيِّئ عَلَى الشركِ جوابُ الشرطِ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فيقول: إن هَذَا لا يَكُون إِلَّا لِلكافِرين، وهَذَا فِيهِ نظرٌ أيضًا؛ لِأَنَّ مَن جاء بالسيئةِ ولو دونَ الشركِ فَإِنَّهُ إن لم يُغْفَرْ له يُكَبّ فِي النَّارِ،

ولكِنَّه يُعاقَب عَلَى حسَب ذُنُوبِه، ثُمَّ بَعْد ذلك يُخْرَج منها، إمَّا بشفاعةٍ وَإمَّا بانتهاءِ جزائِه إذا لم يشفعْ له.

فالحاصل أننا نَقُول: إن قولَه: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يَلزَم منه الخلودُ، بل قد تُكَبّ وُجوههم فِي النَّار ثُمَّ يَنْجُونَ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: إذا كانوا عصاةً فإن موضعَ السجودِ لا تأكله النَّارُ، فكيف نَقُولُ: كُبَّتْ وُجُوهُهم فِي النَّار؟

قُلْنَا: إذا كُبَّ عَلَى وجهِه أصابتْه النَّارُ إِلَّا موضعَ السجودِ، وهَذَا لا يَمنَع أن يُكَبَّ عَلَى وجهه وتُحمَى مواضعُ السجودِ مِنَ النَّار.

وقوله: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ جواب الشرط ماضٍ، فكَانَ مُقتضى الأَمْر أن يَقُول: ومن جاءَ بالسيئةِ كُبَّت؛ لِأَنَّ فعل الشرط إذا كَانَ ماضيًا وجوابه كَانَ ماضيًا أيضًا فلا يحتاج إِلَى الفاء، يَقُولُونَ: إن الفاء هنا تدلّ عَلَى تقدير (قد)، يَعْنِي: (فقد كُبَّت)، وتكون دالَّة عَلَى التحقيقِ لهَذَا الأَمْرِ؛ لِأَنَّ (قد) للتحقيقِ، ولَكِنَّهَا حُذفتْ لفظًا وأُشيرَ إليها معنًى، فالفاء تشير إِلَى (قد)، وحُذِفَتْ لَفظًا لِأَنَّ (قد) للتحقيقِ، والمسألة لم تَقَعْ، فكَانَ فِي تحقيقها بـ(قد) وهي لم تقعْ نوعٌ من التناقضِ، فلذلك حُذفت فِي اللفظِ وأُشيـر إليها بالمَعْنى بالفاءِ، وكما هُوَ معلومٌ أن جوابَ الشرطِ إذا اقترنَ بـ(قد) فيجب أن يَكُونَ مَقرونًا بالفاءِ.

اسْـــمِيَّةٌ طَلَبِيَّـــةٌ وَبِجَامِـــدٍ وَبِـــمَا وَلَـــنْ وَبِقَـــدْ وَبِـــالتَّنْفِيسِ

سبعةُ مواضعَ إذا كانتْ جوابًا للشرطِ وجبَ اقترانُ الفاءِ بها.

قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾؛ أي: ما تُجْزَوْنَ، يَعْنِي أنَّ الاسْتِفْهامَ هنا بمعنى النفيِ،

والاسْتِفْهامُ بمعنى النفيِ أبلغُ منَ النفيِ المجرَّد؛ لِأَنَّهُ يَدُلّ عَلَى النفيِ وزيادة. فقولنا: ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كنتم تعلمون يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم لا يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانوا يعملون، لكِن قوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ يَدُلّ عَلَى تقريرِ هَذَا الأَمْرِ، وأَنَّهُ لا يمكن للإِنْسَانِ أنْ يُجَازَى إِلَّا بما كَانَ يعمل، ويَكُون فِيهِ تقريرٌ وتقريعٌ فِي نفسِ الوقتِ.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [ويُقال لهم تَبكيتًا: ﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ منَ الشِّـرْك والمَعاصِي]، قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿إِلَّا﴾ جَزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾] فِيهِ صرفٌ للفظِ عن ظاهرِهِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي أن يَكُونَ العَمَلُ هُوَ الجزاءَ نفسَه ﴿إِلَّا مَا كُنتُمْ﴾، ومن المعلوم أن العَمَل لَيْسَ الجزاءَ، بل الجزاء شيءٌ والعَمَل شيءٌ آخَرُ. فعندما تستأجرُ إِنْسَانًا يعمل لك، ثُمَّ تعطيه الأجرةَ، فعَمَلُه غيرُ أُجرتِهِ.

والعاملُ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَلُه غيرُ جزائِه، فظاهرُ الآيَةِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الإِنْسَان يُجزى بعملِهِ، لذلك احتاج الْمُفَسِّر أن يقدِّر هَذَا المحذوفَ: إِلَّا جزاء ما كنتم تعملون، لكِن ما فِي الآيَةِ أبلغُ؛ لِأَنَّهُ من بابِ المبالغةِ فِي العدلِ أنْ يجعلَ الجزاء هُوَ العَمَلَ، كأنَّ الجزاءَ نفسَه عَمَلُك مبالغةً فِي العدلِ، فأنت إذا كنتَ تريدُ ثوابًا كثيرًا فاعمَلْ كثيرًا؛ لأن ثوابَك عَمَلُك.

وأما قوله: [﴿هَلْ﴾ ما ﴿تُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزاء ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾]، ففيه أيضًا ركاكة، ما تُجزون إِلَّا جزاءَ العَمَلِ! فمعلوم أن كلمةَ (تُجْزَوْنَ) يُستفاد مِنْهَا الجزاءُ، فلا حاجة إِلَى تقديرٍ.

فالصَّواب إبقاءُ الآيَةِ عَلَى ظاهرها، ويُفهَم أن الَّذِي يُعْطَوْنَه هُوَ الجزاءُ مِن

قولِه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾. والتعبيرُ عن الجزاءِ بالعَمَلِ نفسه مبالغةٌ فِي العدلِ؛ بحيثُ يَكُون جزاؤك عَملَكَ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنَ الشِّرك والمَعاصِي]، هَذَا ما ذهبَ إليه جمهورُ أهلِ العلمِ، وَهُوَ الصَّوابُ؛ أن الكافرَ يعاقَب عَلَى أصلِ الكفرِ وَعَلَى المَعاصِي أيضًا الَّتِي عَمِلها، فالمشركُ إذا زَنَا وسَرَق وشَرِبَ الخمرَ يُعاقَب عَلَى ذلك، فيعاقَب عَلَى الأَصْلِ والفرعِ، واستدلُّوا لذلكَ بِقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر:٤٠-٤٦]. فالصدقةُ ليست من الأصول، والصَّوابُ أنَّ الصَّلَاةَ مِنَ الأُصُول وأن تاركها يُكَفَّر، لكِن الصَّدَقَة ليستْ من الأصولِ، حَتَّى الزكاة عَلَى القَوْلِ الصَّحيحِ لا يُكَفَّر تَارِكُها، ومعَ ذلك ذَكَرُوا أَنَّهَا من أَسْبابِ دُخُولِهِمُ النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا فِي الجزاءِ ما صارتْ منَ الأَسْبَاب.

وهَذَا دليلٌ عَلَى أَنَّهُم يعاقَبون عَلَى فروعِ الإِسْلامِ كما يُعاقَبون عَلَى أصولِهِ، وَعَلَى هذا فيعاقبون عَلَى معاصيهم الَّتِي دونَ الشركِ، وهَذَا بلَا شَكَّ كمالُ العدلِ؛ لِأَنَّهُ إذا كَانَ المسلمُ يعاقَب عليها فكيف بالكافر؟! هل تكون للمسلمِ نِقْمَة وتكون للكافر نعمة؟! لا، بل أبلغُ من ذلك الكافر يعاقَب حَتَّى عَلَى المباحِ للمؤمنِ، قَالَ الله تَعالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]. ففُهِم من قوله: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أَنَّهَا لغير المُؤْمِنِينَ ليستْ خالصةً، وأنهم سيُجازون عليها.

وهَذَا أيضًا مُقتضَى النظر؛ إذ كيف يَتَنَعَّمُ الْإِنْسَان بنِعَمِ الخالقِ وَهُوَ يَعصي الخالقَ، لَا بُدَّ أن يعاقبه، يَقُول: أنا أحسنتُ إليكَ، أَطْعَمْتُك وسَقَيْتُك وكَسَوْتُك

وأَسْكَنْتُك وزَوَّجْتُكَ ومَا أَشْبَـهَ ذَلِكَ، فيعاقَـب عَلَى هَذِهِ النعمةِ لِأَنَّهَا تحتاج إِلَى شكرٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ المَدارَ فِي العقابِ عَلَى السيئاتِ هُوَ المجيءُ بها يوم القيامة، لا مجرَّد العَمَل، قد يعمل الْإِنْسَان السيِّئة وتُكفِّر أو يتوب مِنْهَا، ولكِنَّ العبرةَ بالمجيءِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عذابِ النَّار؛ لِقَوْلِهِ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ والعياذ باللهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَان شدَّة العقوبةِ -والعِياذُ باللهِ- هَـؤُلَاءِ، حَيْثُ يُكَبُّون عَلَى وُجُوهِهِم فِي النَّارِ، والوجهُ أشرفُ الأعضاءِ، وإهانته أعظمُ من إهانةِ غيرِه، فلو أَنَّ أحدًا صَفعَكَ عَلَى خدِّك أو ضَربَك فِي رِجْلِك أيُّهما أشدُّ إهانةً؟

الوجهُ أشدُّ، ولهَـذَا كَانَ إكبابهم عَلَى وجوههم فِي النَّار -والعياذُ بالله- أشدَّ وأبلغَ فِي الإهانةِ وفي العذابِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـال عدل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يعني ما ظَلَمْنَاكم، بل أنتم الَّذِينَ ظلمتُم أنفسَكم، فعَمِلْتُم ما استحققتم به هَذَا العذابَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن عذابَ أهلِ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفسيّ وبدنيّ، بَدَنِيّ حَيْثُ تُكَبّ وُجوهُهم فِي النَّارِ، نَفْسِيّ حَيْثُ يُوَبَّخُون ويُقْرَعُون ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فما ظَنُّك بِمَن يُقَال له مثل هَذَا؟! تجده يَمتلِئ خَجلًا، ويمتلئ أيضًا ندمًا،

يَقُول: لَيْتَنِي ما عمِلتُ، ليتَ وليتَ، ولكِن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]، فإذن يُجْمَع لهم -والعياذ بالله- بين العذاب البدنيّ والعذاب النفسيّ.

وقد ذكر اللهُ تَعَالَى فِي سورةِ المؤمنونَ أَنَّهم يقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]، وهم لو أُخْرِجُوا مِنْهَا لعادوا لِظُلْمِهِم، لَيْسَ فِيهِ إشكال، كما قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]، لكِن يَقُولُونَ هَذَا من شِدَّة ما يجدون، فكَانَ الجواب -والعياذ بالله- أعظمَ جوابٍ فِي الإهانةِ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، والعياذ باللهِ هَذَا الجوابُ فِي غايةِ الإهانةِ والصَّغار والذُّلّ، وقد ذُكر أن الله تَعَالَى لا يُكَلِّمُهُم إِلَّا بَعْد مدةٍ طويلةٍ، يكلِّمهم بهَذَا الكَلام الَّذِي لا خيرَ فِيهِ لهم، بل هُوَ تَيْئِيس من كُلّ خيرٍ ومن كُلّ فرجٍ، نسألُ اللهَ العافية: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ يعني اندحروا وذِلُّوا وتَلْحَقُكُمُ المهانةُ والإهانةُ، ومع ذلك لا تُكَلِّمُوني، فلستم أهلًا لِأَنْ تكلموني، نسأل الله العافية.

فإِذَنْ: يُجمَع لأهل النارِ بين العذابينِ: البدنيّ والنفسيّ.

• • ۞ • •

الآيـة (٩١)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٩١].

قَالَ الْمُفَسِّـر: [قُلْ لَهُم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ أي مَكَّة]، المكان الَّذِي قَالَه النَّبِيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فِيهِ هُوَ مكَّة؛ لِقَوْلِهِ: ﴿هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ والإشارة هنا للقريب ﴿ٱلَّذِى﴾ ولم يقل: (الَّتي) لِأَنَّهَا صِفة لمذكَّر ﴿رَبَّ هَٰذِهِ﴾ ولهذا تُعرب (الذي) عَلَى أَنَّهَا اسْم موصول مبنيّ عَلَى السكون فِي محلّ نصب، صفة لربّ، وقصدنا هنا بالذُّكُورِيَّة لَفظًا أم معناها؟ فلا نَقُول: اللَّفْظ مُذكَّر، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فلا يجوزُ وَصْفُهُ لا بهَذَا ولا بهَذَا.

قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾: [جَعلَها حَرَمًا آمِنًا]، جعلها شرعًا حَرَمًا آمنًا.

وقوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ إضافته الرُّبُوبِيَّة إليها تفيدُ الفضلَ، وأن الله تَعَالَى قد اعتنى بها وشـرَّفها، ثُمَّ قَالَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا يُسفَـك فيها دمُ إِنْسَانٍ]، والحديـث: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»(١)، وأيها أعمُّ (دم الإِنْسَان) أو (دم) فقط؟

---

(١) رواه البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم (١٠٤)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إِلَّا لمنشد على الدوام، حديث رقم (١٣٥٤)، عن أبي شريح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(دَم) أعمُّ، ولهَذَا لا يُسفَك فيها دمُ إِنْسَانٍ ولا دَمُ صيدٍ، وَأَمَّا المواشي من الإبلِ والبقرِ والغنمِ وما أَشْبَهَهَا فإن هَذَا دلَّتْ السنَّة عَلَى جوازِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُظلَم فيها أحد]، هَذَا لَيْسَ خاصًّا بمكَّة، حَتَّى غير مَكَّة لا يجوز أن يُظلمَ فِيهِ أحدٌ؛ ولذلك ما جاء فِي الحديثِ: لا يُظْلَم فيها أحدٌ؛ بل قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ»؛ فليس من خصائصِ مكَّةَ أَلَّا يُظْلَم أحد، صحيح أن الظلم فِي مكَّةَ أعظمُ من غيرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، فقوله: ﴿بِإِلْحَادٍ﴾ الباء تدلّ عَلَى أن الفِعْل مضمَّن معنى العزيمةِ الصادقةِ، أَمَّا أنَّ الظلم فِي غيره مباح فلا.

مسألة: هل السيئة تُضاعَف فِي مَكَّة؟

الجواب: ما تُضَاعَف السيئة فِي مكَّة؛ تضاعف بالكيفيَّة فقطْ لا الكمّيّة، ولَيْسَ معناه أن السيئة يُجْزَى عنها سيِّئتانِ، وإنّما المَعْنى أَنَّهَا تكون أعظمَ، فكيفيَّة العقوبة تختلِف، قد أضرِبُ هَذَا الإِنْسَان ضربةً واحدةً وأضرب الآخرَ ضربةً واحدةً وتكون هَذِهِ الثَّانِيَة مؤلِمَة والأولى غير مُؤْلِمَة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُصَادُ صَيْدُها]، هَذَا صحيح، وغيرها يُصاد.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ولا يُختَلَى خَلاها]، صحيحٌ، وغيرها يُختلَى، والمَدينَة يختلى خلاها، إِنَّمَا يُحرم الشَّيْء الَّذِي بدون حاجةٍ فِي المَدينَةِ، وَأَمَّا الَّذِي بحاجةٍ فيجوز، وهَذَا الفرق بينها وبين مكَّة.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وذلك مِنَ النِّعم عَلَى قُرَيْشٍ وأهلها فِي رفعِ الله تَعَالَى عن بلادهم العذابَ والفِتَنَ الشائعةَ فِي جميعِ بلادِ العربِ].

إِذَنْ: قوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فِيهِ إظهارٌ لفضلِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَى ساكني هَٰذِهِ القرية، حَيْثُ جعلَ الله هَٰذِهِ القريةَ حَرامًا، فقوله: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي جعلها حَرَمًا وجعلها حَرَامًا، وما قلناه أعمُّ مِمَّا قَالَ المُفسِّر؛ لِأَنَّ المُفسِّر يَقُول: [جعلها حرمًا آمِنًا]، ثُمَّ ذكر الأَشْيَاءَ، فهي حرم وحرام أيضًا، حرمٌ بمعنى أَنَّهَا مُحْتَرَمَةٌ، وحرام بمعنى أَنَّهَا محرَّمة، لهَذَا مَنْ قَصَدَها فَإِنَّهُ يُشْرَع له بإجماعِ أهلِ العلمِ أَلَّا يدخلها إِلَّا مُحْرِمًا، وَفِي وجوبه خلاف معروف.

أيضًا من جملة احترامها أن المُشركينَ لا يقربون المَسْجِد الحرامَ، فيكُون الحرمُ كلّه محرَّمًا عليهم؛ لِأَنَّ دخولهم الحرمَ مِن قُربان المَسْجِد الحرام، فلهَذَا كَانَ ذلك احترامًا لهَذِهِ البلدةِ، ومع ذلك يقولُ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَهُۥ﴾ قَالَ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿كُلُّ شَىْءٍ﴾ فَهُوَ ربُّه وخالقه ومالِكه]، الجملةُ الأخيرةُ فيها فائدة عظيمة؛ لِأَنَّهُ لما قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ قد يَتوهَّم مُتوهِّم أَنَّهُ تختصُّ ربوبيَّته بهَذِهِ البلدةِ؛ فأتى بَعْد ذلك بالتعميمِ؛ قَالَ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾. ونظيرُ هَذَا قوله تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد:١٠]، قَالَ بعدها: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد:١٠]، حَتَّى لا يَتوهَّم مُتوهِّم أن ذلك الفضلَ خَاصّ بأولئكَ، فبيَّن أن الجزاء للجميعِ، وَهُوَ الجَنَّة، وإنْ كانوا لا يَسْتَوُونَ، ففي قوله: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ رُبُوبِيَّة اللهِ عامَّة لكلِّ شيءٍ، لكِن ربوبيَّته لهَذِهِ البلدة أخصّ مِن ربوبيَّته العَامَّة.

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أَمَرَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الرعد:٣٦].

قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، أليست العِبادَة هِيَ الإِسْلام؟

الجواب: بلى، العِبادَة هِيَ الإِسْلام، لكِن هناك قَالَ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، والعِبادَة هِيَ التذلُّل له بالطاعة، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي أن أُحَقِّق هَذِهِ العِبادَة بالاستسلام التامّ لأوامر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالْإِنْسَان قد يَكُون عابدًا فِي الأَصْل لكِن الانقياد التامّ بجميع مشروعات الإِسْلام يُستفاد من قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي من المنقادِين لحُكْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ انقيادًا تامًّا، لا معارضة عندهم ولا استكبار.

وفي قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليلٌ عَلَى أن هناك مسلمينَ، فهل اليهود والنصارى مسلمونَ؟

الجواب: حين كانتْ شرائعهم قائمةً فهم مسلمونَ، أَمَّا بَعْد أنْ نُسِخَتْ فإنهم إذا لم يَلْتَزِموا بالشَّرِيعَة النَّاسخةِ ولم يَكُونوا مسلمينَ، فالإِسْلام هُوَ الدين عند الله فِي كُلّ زمانٍ ومكانٍ، وبعد بَعثةِ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لا إسلامَ إِلَّا باتباع شريعته، وإِلَّا فأصل الإِسْلام كما هُوَ معروف من الاستسلام وَهُوَ الانقياد، وهَذَا يشمل كُلّ انقياد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سواء فِي عصر هَذِهِ الأمة أو قبلها، نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقُول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، مثلما قيل للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وقال عن يعقوب: إِنَّهُ قَالَ لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقالت بِلقِيس: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وجوبُ إعلانِ الرَّسُولِ ﷺ بما ذكر؛ لِأَنَّهُ عَلَى تقدير: (قُل إِنَّما أمرت)، وَهُوَ واجب عليه أن يعلنَ ذلك؛ لأجل أن يَكُون قدوةً فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: وجوب العِبادَة عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾، ولا يُقَال: إن التكاليف تسقطُ عن الأَنْبياء والأولياءِ، بل تجب عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كما تجب عَلَى غيرِه، ويجب عليه هُوَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يشهد أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّهُ رسولُ الله؛ فهَذَا مُقتضى الإِسْلام.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بُطلان ما ادَّعاه أصحابُ مَن يَزْعُمونَ أَنَّهُم أَوْلِيَاء، حَيْثُ قَالُوا: إن الوليَّ يصل إِلَى درجةٍ يسقُط بها عنه التكليف، وهَذَا موجود عند الصوفيَّة وغيرهم، يَقُولُونَ: هَذِهِ العباداتُ الَّتِي نكلَّف بها وسائلُ إِلَى غايةٍ، والغاية: الْيَقِينُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]، فإذا وصل الْإِنْسَان إِلَى الْيَقِينِ سقطتْ عنه العِبادَةُ وصار لا يجبُ عليه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا صومٌ ولا حجٌّ، ولا يحرم عليه نِكاح أحدٍ، فيتزوَّج مَن شاء من ذُكُورٍ وإناثٍ، والعياذُ باللهِ، ومن عددٍ صغيرٍ وكبيرٍ.

حَتَّى إِنَّا نسمع عنهم الْآنَ فِي أفريقيا أن الواحد منهم له خمسونَ امرأةً، فتَعَدَّوُا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأيضًا لا يَتزَوَّج بعقدٍ، فإذا اشتهى امرأةً أرسلَ إلى أبيها وقال: أريد ابنتك زوجةً لي.

ولا أحد يتمكَّن من أن يُعارِضَهُم؛ لِأَنَّهُم يزعمون أَنَّهُم وصلوا إِلَى غايةٍ لا يحتاجون معها إِلَى تكليف.. فإذا كَانَ الرَّسُول ﷺ أُمر أن يعبدَ الله فغيرُه من باب أَولى.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أليس هَؤُلَاءِ كفارًا؟

فنَقُول: بلى، بل من أكفرِ الْكُفَّارِ والعياذُ بالله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضيلة مكَّة من وجهين: من إضافةِ الرُّبُوبيَّة إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ ومن كونه تَعالَى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ ففيه فضيلةُ مكَّة عَلَى سائرِ البلادِ، ولها فضائلُ كثيرةٌ، فلو لم يكن مِنْهَا إِلَّا أنَّ قَصْدها للعبادة من أركانِ الإِسْلامِ لَكَفى؛ فالحجُّ رُكن من أركانِ الإِسْلامِ، فليس هناك بلد فِي العالم يَكُونُ القَصْد إليه فرضًا أبدًا ولا سنَّة إِلَّا مَكَّة والمَدينَة والمسجد الأقصى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الَّذي حرَّم مَكَّة هُوَ الله؛ لِقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ألا يعارض ذلك ما ثبتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ من قوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ»[1]؟

قُلْنَا: لا؛ لِأَنَّ معنى قوله: «حَرَّمَ مَكَّةَ»؛ أي: أَظهرَ تَحريمَها وأبانها، وإلا فالذي حَرَّمَها هُوَ اللهُ، ولهَذَا نَقُول مثلًا: إنَّ الرَّسُول ﷺ حرم الميتة والخمر والخنزير، يعني أظهر تحريمها وأبانه، وإنْ كَانَ الَّذِي حرَّمها هُوَ الله، فالمهم أنه لا منافاة بين قولِه تَعالَى: ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وقول الرَّسُول ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ» والجمعُ بسيطٌ وواضحٌ.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل المَدينَة حرمها الله عَزَّوَجَلَّ؟

فالإجابة: نعم، حرَّمها الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن كُلّ شيءٍ فَهُوَ مِلْكٌ لله؛ مَكَّة وغيرها؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

---

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النَّبيّ ﷺ ومدهم، حديث رقم (٢٠٢٣)؛ ومسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ودعاء النَّبيّ ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريمها وتحريم صيدها وشجرها وبيان حدود حرمها، حديث رقم (١٣٦٠)، عن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الردُّ عَلَى المُعْتَزِلَة والْقَدَرِيَّة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إن الْإِنْسَان مُسْتَقِلّ بِعَمَلِه، فَإِنَّهُ عَلَى قولهم يَخرج بعض الأَشْيَاء عن مِلْكِ اللهِ، والله تَعَالَى يَقُول: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بَلاغة الْقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ فقد يَفهم منه أحد أن رُبُوبِيَّة اللهِ تَعَالَى خاصَّة فِي هَذَا المكانِ، فاحترازًا من هَذَا الفهمِ الخاطئ أعقبه بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ وهَذَا من بلاغةِ الْقُرْآن.

وهل تدخل مَكَّة فِي قوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾؟

هَذِهِ المسألة مختلَف فيها عند الأُصُولِيِّينَ، يعني إذا ذُكِرَ الخاصُّ مَعَ العامِّ فهل التنصيصُ عليه مُخرِج له منَ العُمُوم، فيَكُون ذُكر مرَّةً لكِن نُصَّ عليه لِشَرَفِهِ مثلًا والعناية به، أو أَنَّهُ لا يُخرِجه من العمومِ، فيَكُون ذُكِرَ مرّتينِ؛ مرة بصيغة التخصيص ومرة بصيغة التعميمِ، فما هُوَ المتبادر للذِّهن؟

قوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ [القدر:٤]، الرُّوح هُوَ جِبريل، لكِن يَتبادر إِلَى الذهنِ -فِي ذهني أنا ولا أدري عن غيري- أَنَّهُ إذا ذكر الخاصَّ بَعْد العامِّ أو قبلَه أنَّه ما أُريد دخوله فِي العامّ.

فعندما تقول: جاء الطلبة وعلي، وَهُوَ معروف أَنَّهُ من الطلبةِ، أنت تَفهم أَنَّهُ خرجَ عنهم لَمّا نُصّ عليه، وكفَى بذلك فخرًا أن يُخْرَج من بين العمومِ ويُنصّ عليه فِي الحكم. لكِن أولئك يَقُولُونَ: إِنَّهُ ذُكر مرتينِ؛ مرةً بطريق العمومِ ومرةً بطريق الخصوصِ، ولكِن فيما أَظُنّ ويتبادر إليّ أَنَّهُ لَيْسَ كذلك، نعم لو ذكر العموم فِي موضعٍ آخرَ ولم يذكر الخصوصَ فلَا شَكّ أَنَّهُ داخل فِي العمومِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُ لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ لِأَنَّ من جملةِ الأَشْيَاءِ: الحُكْم بين العبادِ، بل هُوَ من أعظم الأَشْيَاءِ، فإذا كَانَ ذلك للهِ فلا يجوزُ لأحدٍ أن يستقلَّ به، ومَن أراد أن يستقلَّ به فقد حاول أن يَكُونَ شَريكًا لله تَعَالَى فِي ذلك، ونزل نفسه منزلةً لا يسْتَحِقّها.

إِذَنْ: أمر التحليل والتحريم والإيجابِ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ له كُلَّ شيءٍ، وأمر التحسينِ والتقبيحِ الصَّوابُ أنها إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّ بعضَ الأَشْيَاءِ لا نعرف عن حُسنها وقُبحها إِلَّا مِنَ اللهِ، لكِن أيضًا للعقلِ مجالٌ فِي هَذَا، ولذلك ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ما الَّذِي بعدها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، فدلَّ هَذَا عَلَى أن العقل يُحسِّن ويقبِّح؛ فإن هَذَا من القبيح.

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ[1]

فالعقلُ يُحسِّنُ ويُقبِّحُ، لَكِنَّهُ لا يُوجِبُ ويُحرِّم، فالإيجابُ والتحريمُ إِلَى اللهِ، أَمَّا التحسينُ والتقبيحُ فيُحسِّن ويُقبِّح، ولهَذَا يحيل الله تَعَالَى أَشْيَاءَ كثيرةً إِلَى العقلِ، فدلَّ ذلك عَلَى أن للعقلِ أن يُحسِّن ويقبِّح، ولكِن مِنَ الأَشْيَاء ما لا يعلَم حُسْنَه وقُبْحَه إِلَّا بطريقِ الشرعِ، وهَذَا هُوَ الصَّحيحُ فِي هَذِهِ المسألةِ -مسألة التقبيح والتحسين العقليّ- صار فيها نزاعٌ طويلٌ بين أهل السنّة والجماعةِ وبين أهلِ البدعِ، منهم مَن قَالَ: لا يحسِّن ولا يقبِّح، والغريب أن هَذَا هُوَ المشهورُ من مذهبِ الحنابلةِ، قَالَ الفُتُوحي فِي كتاب (مُختَصَر التحرير فِي أُصول الفقهِ): «العقلُ لا يُحسِّن ولا يُقبِّح، ولا يُوجِب ولا يُحرِّم»، نَقُول: أَمَّا قوله: «لا يوجب ولا يُحرِّم» فهَذَا صحيحٌ، وَأَمَّا لا يُحسِّن ولا يُقبِّح فهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ، ويُرْوَى عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) مجمع الأمثال (٢/ ٢٣٨).

«مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ»(١).

وربما يشهد لهَذَا قولُ الرَّسُولِ ﷺ: «**الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(٢) لكِن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَـريرته وخَلصتْ نِيَّته هَذَا لا يَطْمَئِنّ للإثم أبدًا، أَمَّا الْإِنْسَان الفاسقُ فالفاسق كما نعرِف أن الزبال لا تُهِمُّهُ الزبالةُ، لكِن العطَّار إذا جلسَ عند الزبالةِ فلا يمكن أن يجلس، فربما أن العقلَ يَستحسِن الزبالةَ إذا كَانَتْ طريقًا للكسبِ، لكِن نفسيَّة الْإِنْسَان لا تَرتاح لها؛ لِأَنَّ رائحتها مُؤْذِيَة، فالنَّاس الْآنَ وقبلَ الْآنَ قد يَسْتَقْبِحُونَ الحَسَنَ ويستحسنون القبيحَ.

فالحاصل: أن الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخلصت نيّته وعلِم اللهُ منه حُسْنَ القصدِ يُوَفَّق، وتَجِدُه إذا عمِل السيئةَ ولو أَنَّهُ لا يدري أَنَّها سيـئة لا تطيـب نفسُه ولا تستقرّ، ولهَذَا قَالَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ**»(٣) لكِن هَذَا لا نخاطب به كُلّ النَّاسِ، بل صاحب القلب الصافي والإيمان الخالِصِ، أَمَّا النَّاس المنهمِكون فِي المعصيَة فلا يخاطَبُون بمثله.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مأمورٌ بأن يَكُونَ من المُسلِمينَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

---

(١) رواه موقوفًا الطيالسي (٢٤٦)؛ والطبراني في الأوسط (٣٦٠٢)؛ والحاكم في المستدرك (٣/ ٨٣). وانظر: المقاصد الحسنة (٩٥٩)؛ نصب الراية (٤/ ١٣٣)؛ الدراية في تخريج أحاديث الهداية (٢/ ١٨٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم (٢٥٥٣)، عن النواس بن سمعان الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٢٢٨) (١٨٠٣٠)، عن وابصة بن معبد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن الإِسْلامَ والإِيمانَ شيءٌ واحد؛ لِأَنَّ قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فلَا شَكَّ أن ما أُمِرَ به هُوَ أعلى الحالاتِ، وَهُوَ الإِيمانُ، ولكِن هَذِهِ المسألة -وهي: هل الإِسْلام هُوَ الإِيمان أو لا- فيها أيضًا عِراك بين أهل السنّة والجماعة أنفسهم، وبينهم وبين الأشاعرةِ، والصَّواب أن يقال: إن الإِسْلام عندَ الإطلاقِ يَشمل الإِيمانَ، والإِيمان عندَ الإطلاقِ يشملُ الإِسْلامَ، وَأَمَّا عند التقييدِ وأن يُقْرَنَ بينهما فَإِنَّ الإِيمان يَكُون ما وَقَرَ فِي القلبِ، والإِسْلام ما قامتْ به الجوارح؛ لِأَنَّ الإِسْلام منْ الاستسلام، وَهُوَ عدم المعارضة، بل الموافقة، فالمنافقون الَّذِينَ لا يُظهِرون معارضةً نسميهم مسلمينَ، لكِن لا نسميهم مُؤْمِنِينَ؛ لعدم وجودِ الإِيمانِ فِي قلوبهم.

ومن النَّاس من يَكُون وسطًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، قال: لـمّا يَدْخُلْ، ما قَالَ: لم يَدْخُلْ؛ ليفيد أن الإِيمانَ قريبُ الدخولِ فِي قلوبهم، لَكِنَّهُ لم يدخلْ، إِنَّما هُوَ قريبٌ.

والإِيمان منَ المنافقينَ بعيدٌ، هم يَنفِرون منه، فلو قَرُبَ إليهم نفروا منه، لكِن هَؤُلَاءِ الأعراب لم يدخلِ الإِيمانُ فِي قلوبهم إِلَّا أَنَّهُ قريب ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

إِذَنِ: الصَّواب فِي هَذِهِ المسألة: أن الإِيمانَ والإِسْلامَ إذا اقترَنا افترَقا، وإذا افترَقَا اجتمَعَا، فالإِيمان إذا اقترنَ مَعَ الإِسْلامِ فُسِّرَ هَذَا بهَذَا، وهَذَا بهَذَا، أَمَّا عند الإطلاقِ فيدخل فيه.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: ذكرتم أَنَّ المنافقينَ مُسلِمون ظاهرًا؛ أي منقادونَ، أليس هَذَا فِيهِ إشكالٌ؟

فالجواب: الرَّسُول أرادَ أن يفسِّر ذلك بالأَعْمالِ الظَّاهرةِ المبنيَّة عَلَى الإخلاصِ، والأَعْمال الظَّاهرة عند المنافقينَ ليستْ مبنيَّةً عَلَى الإخلاصِ، ولهَذَا يأتون ويصلون مَعَ النَّاس، ويذكرون الله تَعَالَى فِي صلاتهم لكِنهم لا يذكرون الله إِلَّا قليلًا، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يفرِّق بينهم وبين أقاربهم فِي الميراثِ وغيره، فيُورِّثُ بعضهم من بعض. وأخذ بهَذَا شيخ الإِسْلام ابن تَيْمِيَّة وقال: إن المنافقَ يَرِثُ من المؤمنِ، والمؤمن يرثُ منَ المنافقِ[1].

وهَذَا الَّذِي قاله صحيح إِلَّا أننا نعارضه فيما إذا عُلِمَ نفاقُه، فَإِنَّهُ إذا عُلم نفاقه لا يجوز أن يورَّث منَ المسلمِ أو يورِّث المسلمُ منه، وقد قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة:٨٤].

فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل الرَّسُول ﷺ يعلمُ المنافقينَ؟

قُلْنَا: فيهم ناسٌ يعلمهم وفيهم ناسٌ لا يعلمهم.

• • ۞ • •

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠) و(٧/ ٦١٧).

الآية (٩٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩٢].

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾ علَيْكُم تلاوةَ الدَّعوى إِلَى الإيمانِ ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: لِأَجْلِها؛ فإنَّ ثوابَ اهتدائه له ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾].

قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾ التلاوة تنقسمُ إِلَى قسمينِ: تلاوة لفظيَّة وتلاوة معنويَّة، فالتلاوةُ الأُولى: قراءة الْقُرْآن، والتلاوةُ الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بما جاء به الْقُرْآن، مأخوذة مِن تَلَا الشَّيْءَ يَتلُوه إذا تَبِعَه وصار تِلْوًا له، فقول الرَّسُول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ﴾ يَشمل هَذَا وهَذَا؛ أنْ أَتْلُوه قراءةً وأن أتلوه اتباعًا، فَهُوَ مأمورٌ بذلك، يعني كأنه يَقُول: سأتلو الْقُرْآن عليكم تلاوةَ قراءةٍ، وأيضًا سأتلو الْقُرْآن تلاوةَ اتباعٍ، ولا أُبالي بمخالفتكم وإعراضكم، وهَذَا لَيْسَ للرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فحسْب؛ بل لكلِّ مَنِ اتَّبعَ الرَّسُول يَجب عليه أن يتلوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيَّةً.

وقد عُلِمَ أن قراءة الفاتحةِ رُكن من أركانِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ من أركانِ الإِسْلَامِ.

ثانيًا: يَجِب عَلَى المسلمِ أن يتلوَ الْقُرْآن تلاوةً اتباعيةً ولا يبالي بمَن خالفه، ولو أننا راعينا شعورَ النَّاسِ ورَاعينا عصورَ النَّاسِ صارَ الدينُ لَيْسَ دِينًا، بل صار

الدين عادةً، إن تَقَبَّله النَّاس حَسَب عاداتهم صار دينًا، وإن لم يَقبلوه لم يكن دِينًا.

والواجب أن يَكُونَ الدينُ بَعيدًا عن عاداتِ النَّاسِ، بمعنى أن يَكُون الحَكَمُ هُوَ الْقُرْآن والسنّة، لا ما يعتاده النَّاس فيما يَفعلونه من عباداتٍ أو غيرها، خِلافًا لبعضِ النَّاسِ الْآنَ الَّذِينَ يريدونَ أن يُتابعوا النَّاس فيما هم عليه ولو كَانَ باطلًا، وهَذَا لَيْسَ بصحيحٍ؛ لأَنَّنا لو مَشينا عَلَى هَذَا الأَمْرِ أو عَلَى هَذَا المنهاجِ ما بَقِيَت حياة للإسلام، ويموت منَ الإِسْلامِ جزءٌ فِي هَذَا العصرِ، ثُمَّ يأتي عصرٌ آخرُ فيموت منه جزء آخرُ، وهَكَذَا حَتَّى يَنقضيَ، ولَكِنَّنَا إذا كنا نعمل بالإِسْلام ونجدِّد حسَب ما يَقتضيه الكتاب والسنّة -لا حسَب آرائنا- صار ذلك هُوَ القيادةَ، وَأَمَّا أن نسكت وندُسّ رُؤوسنا فِي الترابِ ونَقُول: هَكَذَا النَّاس ولا يمكن أن نخالفهم، أو نَتَهَيَّب قول بعض النَّاس: طلعتم علينا بدينٍ جديدٍ، هَذَا الدين ما عرفناه من قبلُ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فإن هَذَا لا يَنبغي أن يمنعَ الْإِنْسَان عن قولِ الحقّ.

ولهَذَا قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوة لفظ تقوم به الحجَّة عليكم، وتلاوة اتباع لا أُبالي بمعارضتكم ومخالفتكم، وهَذَا هُوَ الواجبُ عَلَى كُلّ مسلمٍ فِي كُلّ مكان.

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: قول الرَّسُول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحًّا مُطَاعًا وإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**»[1] هل ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر؟

فالإجابة: قوله: «**عَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ**» لا ينافي الأَمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن

(١) رواه أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم (٤٣٤١)؛ والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، حديث رقم (٣٠٥٨)؛ وابن ماجه، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، حديث رقم (٤٠١٤)، عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المنكرِ لِأَنَّهُ مِن خاصَّتِك، لكِن المَعْنى دَعْهُمْ، أي لا تَهْتَمّ بهم بحيثُ يَشغلونك عما يجبُ؛ لِأَنَّ بعضَ النَّاس يهتم بهَذَا الأَمْر حَتَّى إِنَّهُ ينشغل بالنَّاسِ عن نفسه، فتجده حالَ صلاتِه يشعرُ أَنَّهُ يأمرُ فلانًا ويتصوَّر أَنَّهُ واقفٌ عند دكّانٍ ويقول له: صَلِّ، فهَذَا الَّذِي يُنهى عنه.

وأيضًا قوله تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]، بعضُ النَّاس يفهم من هَذِهِ الآيَة أن الْإِنْسَان إذا أصلحَ نفسه لَيْسَ عليه من إصلاحِ غيرِه، لكِن نَقُول: إن إصلاح غيرك لا يتمَ إِلَّا بإصلاحِ نفسِكَ، فأنت مأمورٌ بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، لكِن إذا ضلوا فإن ضلالهم لا يضرُّك بَعْد أن تقومَ بما يَجِب عليك من الدَّعْوَةِ والأَمْرِ.

لكِن يجوز مراعاة النَّاس بمعنى تدريجِ النَّاسِ حَتَّى يَسْلُكُوا الصراطَ الصَّحيحَ، فمراعاة الحال يعني بالتدريج لا بأس به، ولهَذَا الَّذِي نرى أن الدعاءَ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالحِكْمَة يتناولُ هَذَا الأَمْرَ، وهو: نقل النَّاس إِلَى الإِسْلام مرحلةً مرحلةً، وإن كَانَ بعضُ النَّاس يَقُولُونَ: إنَّ هَذَا فِي أول الدَّعْوَة. صحيح أن الإِسْلامَ تطوّر؛ جاءت الصَّلاة ثُمَّ الزكاة ثُمَّ الصِّيام ثُمَّ الحج، وحُرِّمَ الخمرُ عَلَى عدَّة وجوهٍ، فالصِّيَام أوجب عَلَى عدّة وجوه، لكِن نَقُول: كما أن هَذَا فِي أوَّل الدَّعْوَة هُوَ أيضًا فِي آخرها، وبَعْثُ معاذٍ كان فِي سنةِ عشرٍ منَ الهجرةِ، ومع ذلك يقولُ: «**ادْعُهُمْ أَوَّلًا إِلَى الإِسْلامِ، ثُمَّ إِلَى الصَّلاةِ، ثُمَّ إِلَى الزَّكَاةِ**»[1]، فالرَّسُول رتَّب هَذَا، ما قَالَ: ادْعُهُمْ إليها جميعًا.

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى اليمن قبل حجة الوداع، حديث رقم (٤٠٩٠)؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم (١٩)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فمثلًا لو رَأَيْنا إِنْسَانًا مُنهمِكًا بفعلِ معصيةٍ، وعرفنا أَنّنا لو قُلْنَا له: أَقْلِعْ عنها نِهائيًّا، أَنَّهُ لا يتمكَّن، أو أن ينفِر؛ فلا بأس أن نَنْقُلَهُ عنها شيئًا فشيئًا بالتدريج؛ لِأَنَّ هَذَا كمعالجَةِ المرضِ، فالمرض لا يُمْكِنُ أَنْ تعالجَه مرَّةً واحدةً، فلَا بُدَّ من تَنَقُّل من شيءٍ إِلَى شيءٍ، حَتَّى يَتِمَّ استئصالُ هَذَا المرضِ.

فهَذِهِ المسألةُ تعودُ إِلَى حالِ النَّاسِ، وَلَيْسَ معناهُ الاستسلام لحالِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ معنى الاستسلامِ الَّذِي أنكرته قبلُ هُوَ أَنْ الْإِنْسَان يَدَعُ النَّاسَ ولا يعارضهم بالحقِّ، أَمَّا هَذَا فلا يدعهم لَكِنَّهُ يُنَقِّلُهم من مرحلةٍ إِلَى مرحلةٍ حَتَّى يَسْتَقِيموا. فمثلًا عندما نريدُ أَنْ نعملَ عَمَلًا فِي الصَّلَاة لَيْسَ من عادةِ النَّاسِ، فإِنَّ مِنَ الحِكْمَةِ أن نُمَهِّدَ له بالقَوْلِ أَوَّلًا، ثُمَّ إذا عَلم به النَّاسُ واستقرَّ فِي نُفُوسِهم نَقَلْنَاهم بعدَ ذلكَ إِلَى الفِعْلِ، وهَكَذَا أيضًا غير هَذِهِ المسألةِ.

المهمّ أنّ تلاوةَ الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ المُعْرِضِين ممَّا أُمِرَ به الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأُمِرَتْ به الأمَّة كلُّها أيضًا، وتكون التلاوةُ هنا لفظًا واتِّباعًا، ولكِن الشأن كله فِي أَنْ لا نتخاذلَ أمامَ الأَمْرِ الواقعِ؛ بل يَجِب علينا أن نكونَ عَلَى وجهٍ أقوى وأشدَّ.

مسألة: ما القَوْل فِي نقلِ الْإِنْسَانِ من معصيةٍ إِلَى معصيةٍ أُخرى أخفَّ منها؟

الجواب: لا يجوزُ إذا كانتْ منَ الجنسِ، فلو فَرَضْنا أن إِنْسَانًا مُبْتَلى بالزِّنا -والعياذُ باللهِ- وقلنا له: يا أخي ما لكَ حَقٌّ، هَذِهِ الشهوةُ الَّتِي عندك تَستطيع أَنْ تُخَفِّفَها بالاستمناءِ مَثَلًا، فهَذَا منَ الجنسِ، وَلَيْسَ فِيهِ بأسٌ، فالتي من الجنسِ معناها التخفيفُ؛ لأنك لو نَقَلْته إِلَى شيءٍ آخرَ فاتجاهُه الأَوَّلُ لا يزولُ فِي الغالبِ، لكِن لو أَنَّ واحدًا يَسْرِق ونَقُول: يا أخي اتركِ السَّرِقَة واشْرَبْ خمرًا أحسن لكَ، فهَذَا لا يُمْكِن.

فالتدرُّج طريقٌ، وَلَيْسَ معنى ذلك أَنِّي إذا نَقَلْتُه من هَذَا إِلَى أخفَّ أَنِّي أُبيح له الأخفَّ؛ لَكِنَّهُ تَدَرُّجٌ، فالتدرُّج هنا لَيْسَ معناه ثُبُوت الحكم عَلَى الدرجةِ الَّتِي نزَّلناه إليها؛ ولكِن معناه أننا نَنْقُلَه من الدرجةِ العُظْمَى إِلَى الأخفِّ، ثُمَّ إِلَى تركها بالكُلِّيَّة، وَأَمَّا قوله تَعَالَى فِي الخمرِ: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة:٩٠]، فنَقُول: طريق الاجتنابِ هَذَا الَّذِي نَقُول.

﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ تلاوةً لفظيَّةً تقوم بها الحُجَّة عليكم، وتلاوةً عَمَلِيَّةً تَطْبِيقِيَّةً يَتبَيَّنُ بها أَنَّني لستُ بمُبَالٍ بمَن يُخالِفُني فِي هَذَا الأَمْرِ.

وقوله: ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ هُوَ هذا الَّذِي نَزَلَ عليه ﷺ.

وبعد تلاوةِ الْقُرْآنِ قَالَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له]، ولكِن عَلَى تفسيرِ المُفَسِّر يَكُونُ قوله: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ بمعنى انقادَ؛ لِأَنَّ ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ لا يَتعَدَّى باللامِ؛ بل يَتعَدَّى بالباءِ: اهتدى به، لكِنَّه ضُمِّن معنى انقادَ، وتَضْمِينُه معنى الانقيادِ لِيَشْمَلَ هدايةَ العلمِ وهدايةَ التَّوفيقِ.

فالذي يَهتدي وينقاد له قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ له ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي لِأَجْلِها، فإنَّ ثوابَ اهتدائِهِ لَهُ]، صحيحٌ، فمَنِ اهتدى بهَذَا الْقُرْآنِ وانقادَ له فالمصلحةُ ليستْ للهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ اللهَ غَنِيٌّ عنه، وليستْ لفلانٍ ولا لفلانٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ نفسٍ لها ما كسبتْ وعليها ما اكتسبتْ، إذن فَهِيَ لنفسِهِ. وإن كَانَ يَنْتَفِع الداعي بذلك أيضًا انتفاعَ الدالِّ، فـ«إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»[1]، لكِن أصل الثوابِ للفاعلِ، فلا يُقَال مثلًا: إنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَدْعُو للناسِ لِيَهْتَدُوا فيكُون له أجرٌ،

(١) أخرجه الترمذي: أبواب العلم، باب ما جاء الدال على الخير كفاعله، رقم (٢٦٧٠).

بل قصده عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الأوّل هُوَ نَفْعُ الخَلْقِ، ولهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ وإنْ كَانَ النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنْتَفِع باهتدائِهِ، فَهُوَ تبع.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عنِ الإيمانِ وأخطأَ طريقَ الهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾]، المُفَسِّر قَدَّر [له] فِي قولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾، وقدَّر هنا كذلك: [﴿فَقُلْ﴾ له]، والسَّبَب أَنَّهُ يُقَدِّر هنا لأجلِ أنْ يرتبطَ الجوابُ بالشرطِ؛ لِأَنَّ قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اهتدى لأيِّ شيءٍ؟ للقرآنِ الَّذِي أَتْلُوه أو بالْقُرْآن الَّذِي أتلـوه، وَفِي قولـه: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ (مَن) شـرطية ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ لا يمكن أنْ يَكُونَ ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ جوابًا لِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ إِلَّا إذا كَانَ فِيهِ ضَمِيرٌ يعودُ عليه، ولهَذَا قدَّره بِقَوْلِهِ: ﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: ما هِيَ الحِكْمَةُ فِي حَذْفِه؟

قُلْنَا: الحِكْمَةُ فِي حذفِه العمومُ، يعني فقلْ له ولغيرِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، يَعْنِي أنَّ هَذِهِ الجملةَ الَّتِي هِيَ وصفٌ ثابتٌ للرَّسُولِ ﷺ ليستْ خاصَّةً بمَن يَضِلّ، بل مَن يَضِلّ ومَن لا يضلّ؛ يُقَال له: إن الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ المُنْذِرِينَ، ومعنى المنذِر المُخوِّف، قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُخوِّفِينَ، فليس عَلَيَّ إِلَّا التبليغُ].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠﴾: ﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هَذَا يفيد اختصاصَ الرَّسُولِ ﷺ بالإنذارِ، مَعَ أن الله يقولُ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [البقرة:١١٩].

قُلْنَا: لكِن لكلِّ سِياق ما يُناسبه مِنَ اللَّفظ، فهنا المُخاطَبُ قومٌ مُنْكِرُونَ، فكَانَ ذِكْر جانب التخويفِ فِي حَقِّهِم أَوْلَى مِنَ الجمعِ بينه وبين التبشيرِ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهَذَا قبلَ الأَمْرِ بالقتالِ]، المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَسْلُكُ هَذَا المَسْلَكَ كثيرًا فِي مثلِ هَذِهِ الآيَةِ ويقول: إنَّهُ قبلَ الأَمْرِ بالقتالِ، وهَذَا يَتَضَمَّن أنْ تكونَ الآيَةُ منسوخةً لا يُعْمَل بها، ولكِن هَذَا قولٌ فِي غايةِ الضعفِ، والصَّواب أنَّ هَذَا يُقَال حَتَّى بعدَ الأَمْرِ بالقتالِ، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عليه الإنذار والتبليغ وَلَيْسَ عليه الهدايةُ، والرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقرأ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ غالبًا أو كثيرًا: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦][1]، وكيف تكون مثل هَذِهِ الآيَات الَّتِي تتكرَّر عَلَى المُسلِمينَ فِي جُمُعَاتِهِم منسوخة.

ثم إنَّ دَعْوَى النسخِ لَيْسَتْ بالأَمْرِ الهَيِّنِ؛ لِأَنَّ معناها إبطال دلالةِ الآيَةِ أو الحديثِ، وهَذَا يَتَضَمَّن الاعتداءَ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَعلَى رَسُولِهِ، ولهَذَا يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أنْ يَحْتَرِزَ غايةَ الاحترازِ منْ دعوى النسخِ، وإذا عَجَزَ عنِ الجمعِ فيقول: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢]، لكِن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره كثير منْ أهلِ العلمِ إذا عَجزُوا عنِ الجمعِ قَالُوا: هَذَا منسوخٌ، وهَذَا مَسْلَكٌ لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَلَيْسَ بِسَديدٍ، وَلَيْسَ بصوابٍ، بل هُوَ خطيرٌ.

وقد ذكرَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ المنسوخَ فِي الشَّريعَةِ لا يَتَجاوَزُ عَشَرَةَ أحكامٍ[2]، ولو سَلَكْنَا ما سَلَكَه المُفَسِّر لكانَ المنسوخُ عشراتِ الأحكامِ أو ربما يَبْلُغُ المِئَة، وَفِي هَذَا خطأٌ عظيمٌ.

فالصَّوابُ أنَّ هَذَا القَوْل: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يقال: حَتَّى الْآنَ وحتى

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجمعة، باب ما يقرأ في صلاة الجمعة، رقم (٨٧٨).

(٢) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ١٨٠).

بَعْد الأَمْرِ بالقتالِ، فَهُوَ مُنْذِر لكِن هَذَا الإنذار لا يَقتضِي أَلَّا يقومَ بما يَجِب عليه منَ الجهادِ، يَقُول: أنا مُنْذِرٌ فليسَ عليَّ هُدَاكم، وهداكم عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مسألة الأَمْر بالقتالِ فهَذَا شيءٌ يمكِن حَتَّى مَعَ هَذَا القَوْلِ.

فالصَّوابُ فِي هَذِهِ المسألة: أن الآيَةَ مُحْكَمَةٌ، وغيرها من أمثالها مُحْكَم، ولا يَجُوزُ دَعْوَى النسخ فيه؛ لِأَنَّ مِن أهمّ شروطِ النسخِ تَعَذُّر إمكانِ الجمعِ، وإذا أمكنَ الجمعُ فلا نسخَ؛ لِأَنَّ النسخَ -كما تَقَدَّم- هُوَ عبارةٌ عن إبطالِ مدلولِ الآيَةِ أو الحديث، وهَذَا أمرٌ لَيْسَ بالهيِّن، فمعنى نسخ الحديثِ أن يأتِيَ حديثٌ ونَضرِب عليه!

لَوْ قَالَ قَائِلٌ: هل من شروطِ النسخِ وجودُ قرينةٍ تدلُّ عليه؟

فالجواب: هَذَا لَيْسَ بشرطٍ، المهمُّ إذا تَعَذَّرَ الجمعُ وعُلِمَ التاريخُ فالمتأخِّر ناسخٌ.

يقول: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ هل هِيَ بالكسرِ أو بالفتحِ؟

الجواب: بالكسرِ؛ لِأَنَّهَا اسمُ فاعلٍ، فَهُوَ منذِر، والنَّاس مُنْذَرُون.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجُوب تلاوةِ الْقُرْآنِ بِنَوْعَيْهِ، والنوعانِ هما: اللفظيّ والعَمَليّ، فواجبٌ عَلَى المرءِ أنْ يَتْلُوَ الْقُرْآنَ تلاوةً لفظيَّةً وعمليَّةً، سواء عن ظهرِ قلبٍ أو نَظَرًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلة الْقُرْآن وشَرَفه، حَيْثُ كَانَ مأمورًا بتلاوتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ تحكيمِ الْقُرْآن؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوبُ تبليغِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الآية (٩٣)

• ● ᘓ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل:٩٣].

• ● ᘓ ● •

قوله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معطوفٌ عَلَى قولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فَإِنَّهُ عَلَى تقديرِ (قُلْ) يعني: وقل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وهَذِهِ الجملةُ للثناءِ عَلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وقد أثنى اللهُ عَلَى نفسِه فِي ابتداءِ الخَلْقِ وَفِي انتهائِهِ وَفِي ابتداءِ إنزالِ الْقُرْآنِ، وَفِي مَقامِ التعظيمِ للرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إنزالِ الْقُرْآنِ وما أَشْبَهَهُ، فهنا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى كمالِ صِفَاتِهِ وبَيَانِ آياتِه، ومنها ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾، قال: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ والإراءةُ أبلغُ منَ البَيَانِ؛ لِأَنَّهُ قد يَكُونُ الشَّيْءُ بَيِّنًا وتُعْمَى عنه الأبصارُ، ولكِن الإراءة أبلغ؛ إذ كُلُّ مَرْئِيٍّ فَهُوَ بَيِّنٌ، وَلَيْس كُلُّ بَيِّنٍ مَرْئِيًّا.

والسين فِي قوله: ﴿سَيُرِيكُمْ﴾ تفيد فائدتينِ:

الأُولى: قُرْب هَذَا الأَمْرِ.

الثَّانِيَة: تَحَقُّقُه.

فهي تفيد التحقيقَ والتقريبَ.

وقوله: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الإراءةُ هنا بَصَرِيَّة، وهي لما كانتْ مُعَدَّاة بالهمزةِ تَنْصِب مَفْعُولينِ، فالمَفْعُول الأَوَّل: الكَافُ، والمَفْعُول الثاني: (آيَاتِهِ).

وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ هل المُراد بآياتِ اللهِ هنا الآياتُ الدالَّةُ عَلَى صِدْقِ ما أخبر به فِي الْقُرْآن، فتكون الآيات الكونيَّة أو هِيَ أشمل من ذلك؟

الظَّاهرُ أنَّهَا أشملُ من ذلكَ؛ أنَّهَا تَشْمَلُ الآياتِ الدالَّةَ عَلَى صِدْقِ ما وعدَ به رسوله وتوعّد به أولئك، وكذلك أيضًا الآياتُ الشَّرْعِيَّة الدالَّةُ عَلَى كمالِ شَريعتِهِ.

وقوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أيضًا أبلغُ مِنَ الإراءةِ؛ لأنني قد أُرِي الْإِنْسَانَ شيئًا ولكِن لا يَعْرِفه، وهنا قَالَ: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾. فعندنا بَيَان وإراءةٌ ومعرفةٌ؛ أعلاها المعرفة، ثُمَّ الإراءة، ثُمَّ البَيَان.

قوله: ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ نتيجة هَذَا أنْ تقومَ عليكم الحُجَّة؛ لِأَنَّهُم إذا أُرُوا الآيَاتِ حَتَّى عَرَفُوها قامتْ عليهم الحُجَّة.

ثم قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأَرَاهُمُ اللهُ يومَ بَدْرٍ القتلَ والسَّبْيَ وضربَ الملائكةِ وُجُوهَهُمْ وأدبارَهُم وعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّارِ]، أعوذُ باللهِ! هَذِهِ من جملةِ الآياتِ الَّتِي أراهم إيَّاها، وإلَّا فقد أراهم اللهُ تَعَالَى انشقاقَ القمرِ قبلَ بَدْرٍ، فإنهم طَلَبُوا آيَةً منَ الرَّسُولِ ﷺ فأشارَ إِلَى القمرِ فانفلق فِرْقَتَيْنِ، حَتَّى شاهدوه بأعينهم، فقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، فاسألوا الرُّكبان الَّذِينَ يَقْدَمُونَ مَكَّة هل شَاهَدُوا ذلك أم لا؟ فسألوهم فأَخْبَرُوهم بأنهم شاهدوا ذلك[1].

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب سؤال المشركين أن يريهم النَّبِيّ ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر، حديث رقم (٣٤٣٨)؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنَّار، حديث رقم (٢٨٠٢)، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ جامع الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر، حديث رقم (٣٢٨٩)؛ مسند أحمد (٤/ ٨١) (١٦٧٩٦)، عن جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ مسند الشاشي (٤٠٤)، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد أنكر قومٌ هَذِهِ الآيَةَ انشقاقَ القمرِ، ومنهم مُحَمَّد رَشِيد رِضا، وأظنُّ شَيْخه كذلك -مُحَمَّد عَبْدُه- وهَذَا خطأٌ فاضحٌ والعياذُ باللهِ؛ لِأَنَّ الأحاديث فِيهِ مُتَوَاتِرَةٌ، وإشارةُ الْقُرْآنِ إليه ظاهرةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، هم حَرَّفوا الْقُرْآن فقَالُوا: انشقَّ القمرُ، أي: بانَ ضياءُ الحقِّ والنُّور بما جاء به الرَّسُول ﷺ، وهَذَا بلَا شَكٍّ تحريفٌ للقرآنِ وتكذيبٌ بما تواترتْ به السُّنَّة، فالصَّوابُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَهُوَ من معتقداتِ أهلِ السنَّة والجماعةِ أنَّ القمرَ انشقَّ.

وقد قالوا: إنَّهُ لو انشقَّ لكان أمرًا عالميًّا، وَكَانَ له ذِكْر فِي التاريخِ؛ لِأَنَّهُ أمرٌ عالميٌّ، حَيْثُ إن القمر آيَةٌ أُفُقِيَّة كُلٌّ يُشاهِدُها، وحيثُ إن هَذِهِ الحالة للقمرِ حالةٌ غريبةٌ خارجةٌ عنِ العادةِ، فالهِمَم تَتوافرُ عَلَى نَقْلِهِ، ولا بدَّ أن تُذْكَر فِي التواريخ كتاريخِ الهِنْدِ والرُّوم والفُرْس ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

فنَقُول: تبًّا لكم أن تجعلوا ما أَخبرَ اللهُ به مَوْضِعًا للشَّكِّ لأنَّ هَؤُلَاءِ لم يَذْكُرُوه، بل لوْ ذَكَرُوا أَنَّهُ لم يَقعْ لَقُلْنَا: كَذَبْتُمْ وصَدَقَ اللهُ.

وأيضًا الجوابُ عَن هَذَا أن نَقُولَ: لا يَلْزَمُ إذا انشقَّ القمرُ حَتَّى رآهُ أهلُ مكَّة ومَن بِقُرْبِهِم أن يراه النَّاسُ جميعًا؛ لِأَنَّ نصفَ الكرةِ الْأَرْضيَّة الآخر لا يُمْكِن أن يَرَوْهُ؛ لِأَنَّهُ غائبٌ عنهم، هَذِهِ واحدةٌ.

كذلك قد يَكُون هذا الأَمْر أتاهم فِي منتصفِ الليلِ أو فِي آخرِ الليلِ أو عندهم غيومٌ مانعةٌ أو مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فموانعُ رُؤْيَتِهِمْ له كثيرةٌ، ولكِن لا يُهِمُّنَا أن يَرَوْهُ أو لا يروه، أو يُدَوِّنُوه فِي تواريخهم أو لا يدوِّنوه، وتكذيب الْقُرْآن أو السنَّة المتواترة بمثل هَذِهِ الأُمُور هَذَا فِي الحقيقةِ إيغالٌ فِي العقلِ أو فِي العقليَّات كما يَقُولُونَ، فالْإِنْسَان لا ينبغي أن يَكُونَ عقلانيًّا محْضًا، ولا ينبغي أنْ يَكُونَ ظاهريًّا محَضًا، بل

يجبُ أنْ يَكُونَ عنده عقلٌ يَزِنُ به الأُمُورَ، وإذا بانَتِ الأُمُورُ الشَّرْعِيَّة فإِنَّهُ لا مجالَ للعقلِ.

إِذَنْ: أراهم الله تَعَالَى آيَاتٍ مِنْهَا انشقاقُ القمرِ، ومنها أيضًا أن النَّبيّ ﷺ شَهِدَ النَّاسُ كلُّهم أنَّ الحَجَر يُسَلِّم عليه، والشجر يُسلِّم عليه، حَتَّى إنَّهُ يَقُول: «كَانَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ»(١).

وكذلك أيضًا منَ الآياتِ ما حصلَ يومَ بدرٍ، يوم بدر حصلَ فِيهِ منَ الآياتِ من قَتْلٍ وسَبْيٍ؛ قَتْل لِرؤساءِ الْكُفَّارِ لَيْسَ لِأَطْرَافِهِم؛ لِصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، وقَتْلُ صناديدِ أعداءِ النَّبِيّ ﷺ آيَةٌ له؛ لِأَنَّ ذلك نَصْرٌ له، ولو كَانَ ما قاله باطلًا ما كَانَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِيَنْصُرَهُ أبدًا؛ لِأَنَّ اللهَ لا ينصرُ الباطلَ عَلَى الحَقّ نصرًا مُسْتَمِرًّا، ولكِن قد يَكُون للباطلِ صَوْلَةٌ لِيُمَحِّصَ اللهُ المُؤْمِنِينَ، فينْتَصِر أهلُ الباطلِ لَكِنَّهُ انتصارٌ مؤقَّت.

كذلك أيضًا السبيُ؛ سُبِيَ منهم سبعونَ رَجُلًا وذُهِبَ بهم إِلَى المَدِينَةِ، والمسبيُّون أيضًا مِن أَشْرَافِهِم.

المهم أنَّ وَقْعَة بَدْرٍ أَثْخَنَتْهُم تمامًا، وأَذَلَّتْهُم إذلالًا بالِغًا؛ ولِهَذَا سمَّاه الله تَعَالَى يومَ الفُرْقَان؛ لِأَنَّ اللهَ فَرَّقَ فِيهِ بينَ الحَقّ والباطلِ، وتعلمون أن النَّاس يَنتظرون ماذا سَيَحْصُل، فالعربُ لمَّا رَأَوْا أنَّ النَّبِيّ ﷺ وأصحابه وَهُمْ قِلَّةٌ ثَلاثُمائةٍ وبِضْعَةَ عَشَرَ رجلًا غَلبُوا حوالي ألف من قُرَيْش كاملو العُدَّة والعددِ كثير، عَرَفُوا أن أمرَ الرَّسُولِ ﷺ سَيَظْهَر.

وكذلك أيضًا الملائكةُ يَضْرِبون وُجُوهَهم وأدبارَهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النَّبِيّ ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، حديث رقم (٢٢٧٧)، عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهل هَذَا وَرَدَ فِي بدرٍ أو وَرَدَ فِي الْكُفَّارِ مُطْلَقًا؟

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]، لكِن فِي بـدرٍ هل ذُكِـرَ أنَّ الملائكـةَ تَضْرِب وجوههم وأدبارَهُم؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، فلَيْسَ فيها أَنَّهُ تُضْرَب الوجوهُ والأدبارُ، وفيها أَنَّهُ يُضْرَب فوقَ الأعناقِ، فتُضْرَب أعناقُهم ويضرب منهم كُلّ بَنَانٍ، يَعْنِي الأيديَ، فهَذَا هُوَ الظاهِرُ.

وأمَّا ما ذهب إليه المُفَسِّـر فلا أعرِفُ فِي ذلك سُنَّةً أيضًا بيَّنَتْ هَذَا، وإن كَانَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ له وِجهةُ نَظَرٍ بأن الملائكة تَضرِب وُجُوهَهم إذا أَقْبَلُوا عَلَى المُسلِمينَ، وتضرب أدبارهم إذا أَدْبَروا عنِ المُسلِمينَ، لكِن ما دامَ أن هَذَا لم يَرِدْ فالأَوْلى الاقتصارُ عَلَى ما وَرَدَ، وَهُوَ أن الله قَالَ لهم: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، لم يقلِ: اضرِبوا وُجُوهَهم وأدبارهم.

إلَّا أن يقولَ قائلٌ: إن قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]، يشمل هَؤُلَاءِ فإنهم منَ الكفارِ، فالملائكة عندَ الوفاةِ يَضرِبُون وجوههم وأدبارهم، فإنْ أراد المُفَسِّر بهَذَا ما يُشير إليه عُمومُ الآيَةِ فهُوَ مقبولٌ.

قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَعَجَّلَهُمُ اللهُ إِلَى النَّار]، معناه: عَجَّلَهُم الله قبلَ موتِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فحصل لهم هَذَا الأَمْرُ وعُجِّلُوا إِلَى النَّارِ.

قَالَ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ بالياءِ والتاءِ]، أي: «عما يَعملون» و﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، قراءتانِ سَبْعِيَّتَانِ[1] [وإنما يُمْهِلُهُم لِوَقْتِهِم].

قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ هَذِهِ الجملةُ المقصودُ بها التحذيرُ والتسليةُ؛ تحذيرُ هَـؤُلَاءِ المُكَذِّبِيـنَ وتَسْلِيَةُ الرَّسُولِ ﷺ، وفيها من صفاتِ الله أَنَّهَا صِفَـةٌ منَ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّـة، وقـد تَقَدَّمَ أنَّ الصِّفَات السَّلْبِيَّـة تَتَضَمَّن أمرينِ: نَفْيَ الصِّفةِ المذكورةِ، وإثباتَ كمالِ ضِدِّها، فالله تَعَالَى لا يَغْفَلُ لكمالِ عِلْمِهِ ومُرَاقَبَتِهِ، كاملُ العلمِ وكاملُ المراقبةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢].

• • ۞ • •

(١) الحجة في القراءات السبع (ص:٢٧٦).

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة

«مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ عَلَى اسْمِ اللهِ»........................ ٨
«إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى نَبِيِّكُمْ فِي الحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ»............ ٢٣
«أَوَّلَ مَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ رَكْعَتَيْنِ»........................ ٢٣
«أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ إِقَامُ الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِيتَاءُ الزَّكَاةِ»........................ ٢٣
«اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»........................ ٣٤
«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ»........................ ٤٨
«إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»........................ ٦٧
«لَا تَغْضَبْ»........................ ٧٠
«لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ المُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ»........................ ٩٦
«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ أَحَدًا تَبْلُغُهُ الإِبِلُ أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ لَرَحَلْتُ إِلَيْهِ»............ ٩٨
«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا»........................ ١٠١
«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»........................ ١٠٤
«ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾»........ ١١٠
«لَا يَجُوزُ لِوَاهِبٍ أَنْ يَرْجِعَ فِيمَا وَهَبَهُ إِلَّا الْوَالِدَ فِيمَا يُعْطِي وَلَدَهُ»........ ١٢٩
«أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». ١٣١

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» .... ١٣١، ١٥٧
«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» ١٣٢
«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ» ١٣٧
«هَكَذَا أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ» ١٤٦
«عَلَيْكَ السَّلَامُ» ١٤٨
«لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً» ١٤٩
«أَنَّ الشَّيَاطِينَ تُصَفَّدُ فِيهِ وَتُغَلّ» ١٥٢
«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً» ١٥٣
«نَاظِرُوهُمْ بِالْعِلْمِ، فَإِنْ أَقَرُّوا بِهِ خُصِمُوا، وَإِنْ أَنْكَرُوهُ كَفَرُوا» ١٥٩
«أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ» ١٦٠
«وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا» ١٦٥
«وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ» ١٧٤
«وَاللهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنِّي» ١٩٦
«الحَرْبُ خُدْعَةٌ» ٢٠٠
«مَنْ لِي بِكَعْبٍ فَإِنَّهُ قَدْ آذَى اللهَ وَرَسُولَهُ» ٢٠١
«أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ» .... ٢٠١، ٢٨٢
«مَنْ بَاعَ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ فَلَهُ أَوْكَسُهُمَا أَوِ الرِّبَا» ٢٠٤
«مَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يُعْطَ فَهُوَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ» ٢٠٩
«إِنَّكَ رَجُلٌ ضَعِيفٌ؛ فَلَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ وَلَا تَتَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» ٢١٠
«إِنَّمَا أَقْضِي بِنَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ» ٢٢٩

«إِنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» ٢٣٨
«كُلُّكُمْ حَارِثٌ وَكُلُّكُمْ هَمَّامٌ» ٢٣٨
«الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» ٢٣٩
«لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» ٢٣٩
«وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَقُومَ الظَّعِينَةُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ» ٢٤٠
«تَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِالْحَرَامِ» ٢٥٠
«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ» ٢٥١
«وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً» ٢٥٥
«إِنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَزَوَّجَهَا فِي شَهْرِ شَوَّالٍ وَبَنَى بِهَا فِي شَوَّالٍ، فَأَيُّكُنَّ كَانَتْ أَحْظَى عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ» ٢٦٥
«هَذَا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَإِنَّهُ قَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» ٢٦٦
«الشُّؤْمُ فِي ثَلَاثٍ...» ٢٦٧
«الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ٢٦٧
«لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصِّيَامُ فِي السَّفَرِ» ٢٦٨
«لَا تُسَمِّ غُلَامَكَ يَسَارًا وَلَا نَجَاحًا» ٢٦٩
«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُؤُونِ دُنْيَاكُمْ» ٢٧٩
«وَاللهِ أَنَا مَا أَظُنُّ أَنَّ هَذَا التَّلْقِيحَ يَنْفَعُ شَيْئًا» ٢٨١
«الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ» ٢٨١
«إِنْ كَانَ الشِّفَاءُ فِي شَيْءٍ فَفِي ثَلَاثٍ» ٢٨١
«مَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ» ٢٩٠

«الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ» ٢٩٢
«اللَّهُمَّ أَرِنِي الْحَقَّ حَقًّا وَارْزُقْنِي اتِّبَاعَهُ وَأَرِنِي الْبَاطِلَ بَاطِلًا وَارْزُقْنِي اجْتِنَابَهُ» ٢٩٦
«يُبْعَثُ النَّاسُ عَلَى أَعْمَالِهِمْ» ٣٠١
«لَا سَبَقَ إِلَّا فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ» ٣٠٩
«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» ٣١١
«رَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» ٣١٢
«مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ» ٣١٧
«يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» ٣٢٦
«وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» ٣٢٩
«مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مَا عَلَى مِثْلِهِ يُؤْمِنُ الْبَشَرُ» ٣٣٠
«قُسِمَتِ الصَّلَاةُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، فَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي» ٣٣٦
«إِنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنَ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ» ٣٣٨
«إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ» .... ٣٣٩، ٤٠٧
«وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» ٣٦١
«مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» ٣٧٠
«أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ» ٣٧٧

«لَا تُجِيبُوهُ» «اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ» ٣٨٤
«أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ المِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا» ٣٨٥
«أَيْنَ اللهُ؟» ٣٨٩
«أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ مُشِيرًا إِلَى السَّمَاءِ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» ٣٩٠
«مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» ٣٩٢
«فَقَدْ أَخْطَأَ وَإِنْ أَصَابَ» ٣٩٢
«نَحْنُ أَوْلَى بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» ٣٩٤
«مَا الْمَسْئُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» ٣٩٥
«إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا» ٣٩٦
«مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».............. ٤٠٦
«خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ».. ٤٠٦
«بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِمْ؛ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ» ٤١٣
«يَا آدَمُ. فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ. فَيَقُولُ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ وهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ».. ٤٣٣
«لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ؛ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»... ٤٣٧
«لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ».................................. ٤٤١
«كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً» ٤٤٢
«هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا»........... ٤٤٥

«لَسْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٤٤٥
«لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» ٤٤٥
«يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، يَا فُلَانَ بْنَ فُلَانٍ، بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» ٤٥٠
«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» ٤٥٠
السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٤٥١
«السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ» ٤٥١
«مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُرُّ بِقَبْرٍ يَعْرِفُهُ فِي الدُّنْيَا إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيْهِ رُوحَهُ فَرَدَّ السَّلَامَ» ٤٥٠
«إِلَّا رَدَّ عَلَيْهِ رُوحَهُ» ٤٥٢
«أَوْ مُسْلِمٌ» ٤٥٥
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» ٤٥٦
«مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا» ٤٥٦
«لَا يُؤْمِنُ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» ٤٥٦
«مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَثْعَبُ دَمًا» ٤٥٩
«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ» ٤٦٢
«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ» ٤٦٦
«اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... إلخ» ٤٨٥
«أَوَّلُ مَنْ يُفِيقُ، فَيَجِدُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ آخِذًا بِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَوْ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِهِ، يَقُولُ: فَلَا أَدْرِي أَجُوزِيَ بِصَعْقَةِ الصُّورِ أَمْ هُوَ أَفَاقَ قَبْلِي» ٤٨٨
«إِذَا حَدَّثَكُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ» ٤٨٩

«مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَعَمِلَهَا» ٥٠٥
«إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ» ٥٠٦
«مَنْ تَعُدُّونَ الْمُفْلِسَ فِيكُمْ؟» ٥٠٩
«الْمُفْلِسُ مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ» ٥٠٩
«لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمٌ» ٥١٨
«إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ» ٥٢٣
«مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ قَبِيحٌ» ... ٥٢٦
«الْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ» ٥٢٦
«الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ» ٥٢٦
«إِذَا رَأَيْتَ دُنْيَا مُؤْثَرَةً وَشُحًّا مُطَاعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ» ٥٣٠
«ادْعُهُمْ أَوَّلًا إِلَى الإِسْلَامِ، ثُمَّ إِلَى الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِلَى الزَّكَاةِ» ٥٣١
«كَانَ حَجَرٌ يُسَلِّمُ عَلَيَّ فِي مَكَّةَ أَعْرِفُهُ» ٥٤٠

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة

المكِّيّ والمَدَنِيّ أن الفرقَ بينهما ٧
البَسْمَلَةُ ٨
الحروفَ الهِجائيَّة الموجودة فِي أوائل بعضِ السُّوَر ٨
هَذَا الْقُرْآن نزل بلغةِ العربِ ١١
الإشارة إِلَى بعضِ الجنسِ بالجنسِ كلّه ١١
وَصفَ هَذَا الْقُرْآن بالْقُرْآنِ والكتاب ١٢
الْقُرْآن هل هُوَ مصدر أو مُشْتَقّ؟ ١٢
كلمة ﴿مُّبِينٍ﴾ ١٢
الْقُرْآن فِي الحقيقةِ تِبيَان لكلِّ شيءٍ ١٤
قِصَّة لعنِ النامصةِ والمُتَنَمِّصَةِ ١٤
تَفْصيل الفرائضِ ١٥
الْقُرْآن مكتوبٌ سابقًا ولاحقًا ١٥
الأَولى أن يُجْعَل المصدر عَلَى بابه ١٦
الإيمان الموجود فِي الْقُرْآن لَا بُدَّ فِيهِ من قَبول وإذعان ١٦
كلَّما كَمُلَ الإيمان فِي العبدِ كمُل اهتداؤه بالْقُرْآن ١٧
كلُّ إِنْسَانٍ بطبيعتِه البَشَرِيَّة يحبّ أنْ يَنتصِرَ عَلَى عدوِّه ١٨
الَّذِينَ يُطَنْطِنُونَ بالقوميَّة العربيَّة ١٨

الدَّعْوَة إِلَى الإِسْلام والتضامُن الإِسْلاميّ ١٩
أن النصرَ لا يَعتمِد عَلَى الْقُوَّة المادِّيَّة فقطْ ٢٠
أن الْقُرْآن هُدًى للناس ٢٠
أن الْقُرْآن بُشرى للمُؤْمِنِينَ ٢٠
إقامة الصَّلَاة نوعانِ ٢١
قوله: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هل المُراد الفريضة أو النافلةُ؟ ٢١
هل معنى ذلك أن الزكاة فُرضت بمَكَّة أو فِي المَدينَة؟ ٢٢
تأخّر بَيَان أَنْصِبَة الزكاة إِلَى ما بعدَ الهجرةِ ٢٢
هل يجوز التدريجُ فِي الأحكامِ لِمَن يُسْلم؟ ٢٣
الْيَقين أخصُّ منَ العلمِ ٢٤
الإِيمان باليوم الآخِرِ ٢٤
الإِيمانَ باللهِ يَتضمَّن الإِيمانَ بالرُّسُل ويَتَضَمَّنُ الإِيمانَ بالكُتُبِ ٢٥
الصِّيام والحجّ لم يُفرضا بمكَّة بالاتِّفاقِ ٢٥
تضييع الصَّلَاة والبُخل بالزكاة ينافي الإِيمان ٢٦
الْإِنْسَان إذا آمَنَ بالشرائعِ المُنْزَلَة فهُوَ كامل الإيمانِ ٢٦
الفَرْقُ بينَ القَبُول والإذعانِ ٢٧
الفرق بين التَّصْديقِ والقَبُولِ ٢٧
من العَمَلِ السيِّئ المُزيَّن ٢٨
كلّما قَوِيَ الإِيمانُ بالآخِرَةِ عَرَفَ الْإِنْسَانُ القبيحَ ولم يَتَرَدَّدْ فيه ٢٨
من آمنَ بالآخِرَةِ من الصُّوفِيَّة ٢٩

كُلّ إِنْسَانٍ يُزيَّن له سوءُ عَمَله فاعلمْ أَنَّهُ ناقصُ الإِيمانِ ٢٩
كلَّما ضَعُفَ الإِيمان بالآخِرَة ازداد تزيينُ القبيحِ فِي عينِ الْإِنْسَان ٢٩
أنَّ عدمَ الإِيمانِ بالآخِرةِ سببٌ للحَيْرة ٣٠
وُجُوب الإِيمانِ باليومِ الآخِرِ ٣٠
نِسبة الأفعال للعبدِ ٣١
المعاصِي شامِلَةٌ الْكُفَّارَ وغيرَ الكفارِ ٣٢
الأخسرُ اسمُ تفضيلٍ ٣٣
الخاسِر غير الأَخْسر ٣٤
النَّاس فِي الآخِرَةِ ثلاثةُ أقسامٍ ٣٤
ردٌّ عَلَى الخوارجِ والْمُعْتَزِلَة ٣٦
اللام المُزَحْلَقَة ٣٧
معنى التَّلقية ٣٧
لَدُنّا هي: لَدُنْ ٣٨
الحُكْمُ الشَّرْعِيّ ٣٨
الحُكْم القَدَرِي ٣٩
الحُكْم الشَّرْعِيّ محبوبٌ لله أو مبغوضٌ إليه؟ ٣٩
كيف يَقَع الحُكْمُ الكونيُّ وَهُوَ مكروهٌ له؟ ٣٩
حَكيم مُشْتَقَّة مِنَ الحُكْمِ والإحكامِ ٣٩
الحكم الشَّرْعِيُّ منه محبوبٌ ومنه مكروهٌ ٤٠
الحِكْمَةُ فِي الأُمُور الشَّرْعِيَّة وَفِي الأُمُور الْقَدَرِيَّة ٤٠

ثَمَرَةُ هَذِهِ الشَّرِيعَة والتمسُّك بها هِيَ السعادةُ فِي الدُّنْيا وَفِي الآخِرَة ٤١
أحوال المُسلِمينَ وضَعْفَ دِينِهم ٤١
بادرةُ الرجوعِ إِلَى الإِسْلام عنِ اقتناعٍ.......... ٤٢
العليم معناه المتَّصِف بالعِلْم.......... ٤٢
الحِكْمَةُ من تقديمِ الحكيمِ هنا عَلَى العليمِ.......... ٤٢
القُرْآنُ مُشتمِلٌ عَلَى الشَّرِيعَةِ ٤٣
الحِكْمَةُ من جمع الحِكْمَةِ والعلمِ.......... ٤٣
مُراعاة المقام فِي التَّعبير يُعتبر من الفصَاحة.......... ٤٤
موسى بنُ عِمْرَانَ ٤٦
هل مَريم كَانَ لها أخ اسمه هارون ٤٧
قِصَّة موسَى ٤٧
الفرقُ بينَ «آتيكُمْ» و«أُوتيكُم» ٤٩
الحِكْمَة فِي كون موسى ﷺ أُري هَذِهِ النَّار.......... ٥١
حُسْن خُلُق موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ٥٢
الأحوال البَشَرِيَّة تَطْرَأُ حَتَّى عَلَى الأَنْبِياء عليهم الصَّلَاة والسلام ٥٢
النداء لا يلزَم منه القُرب أو البُعد.......... ٥٦
الفائدةُ مِن قولِهِ: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وحَذْف المَكان؟ ٥٧
هَذِهِ النَّار لا ندري ما وَقُودُها.......... ٥٨
معنى الربِّ.......... ٥٩
ينبغي إيناس المُسْتَوْحِش ٦٠

إثبات وَحدانِيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٦١
العِزَّة تَنْقَسِم إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٦٣
أن تعيينَ الشخصِ بالنداءِ له فائدةٌ ٦٤
الجانُّ ٦٦
حِكمة الله تَعَالَى فِي آياتِ الرسُل ٦٨
مِنَ البلاغةِ الإيجاز بالحذفِ ٦٨
جَواز أنْ يَعْتَرِيَ الأَنْبياء الخوفُ ٦٩
هل الأَنْبياء مَعْصُومونَ مُطْلَقًا؟ ٦٩
جواز توجيه الأحكامِ الشَّرْعِيَّة إِلَى الأُمُور الفِطْرِيَّة ٧٠
مُقْتَضَى الطبيعة البشريَّة ٧١
كلَّما ذكر الْإِنْسَان ربَّه زالَ عنه الخوفُ ٧١
مقتضى المغفرةِ ٧٣
إن الله تَعَالَى يمحو العَمَلَ السيِّئَ بالعَمَلِ الصالحِ ٧٤
عزَّ وحكمَ فقطَعَ، ولو غفرَ ورَحِمَ ما قطعَ ٧٤
اليد فِي اللُّغة ٧٦
فاء السَّبَبِيَّة ٧٦
﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ ٧٧
آيَة العَصَا ٧٧
﴿فِرْعَوْنَ﴾ عَلم جنس لكل من مَلَك مِصر كافرًا ٧٩
الفِسْق يَنْقَسِمُ إِلَى قسمينِ ٧٩

الطاعة المطلَقة ٧٩
الفرق بين مطلق الشَّيْءِ والشَّيْءِ المطلق........................ ٧٩
ما تغيَّر بالأَشْيَاء الطاهرة لَيْسَ بطَهور ٨٠
حكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آياتِ الأَنْبياء ٨٠
يَنبغي الاحتراز فِي الكَلامِ عندما يُوهِم الشَّيْء ٨٠
لم يرسلْ نبيًّا إِلَّا بآيَة لتقومَ الحجَّة ٨١
الحِكْمَة في أنَّ الله لم يرسلْ رسولًا إِلَّا بآيَةٍ........................ ٨١
من الفصاحة والبلاغة قَرْن الحُكْم بتعليلِهِ........................ ٨١
أنَّ الفِسْقَ يُطْلَق عَلَى الكفرِ ٨٢
العلامات الدالَّة عَلَى صدق موسى ﷺ ٨٣
الآيَات المبصرة ٨٣
السِّحْرُ فِي اللُّغةِ العربيَّةِ........................ ٨٤
السحرُ الحقيقيُّ الشَّرْعِيُّ أو السحرُ اللُّغَوِيُّ ٨٤
مبالغة صاحبِ الباطلِ بدعواهُ........................ ٨٦
الجحود عند السؤالِ ٨٨
زيادة المبنى تدلُّ عَلَى زيادةِ المَعْنى ٨٨
الظُّلْم والنَّقْص ما الحامِلُ عليه ٨٩
فائدة الاعتراض بالجملة الحاليَّة ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ ٩٠
قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ هل المُرادُ: نظرَ اعتبارٍ أو نظرَ إبصارٍ؟ ٩٠
الخِطاب بالمفردِ فِي القُرْآن لا يختصّ بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إِلَّا ما دلَّ عليه الدَّلِيل.... ٩٠

والفرق بين المؤنَّث المجازي والحقيقيّ ٩٢
معنى العاقبة ٩٢
الإفسادُ المعنويُّ ٩٢
الحَنيفيَّة السَّمحة ٩٣
لو يعلم الملوك وأبناء الملوكِ ما نحنُ فِيهِ لَجَالَدُونا عليه بالسيوف ٩٣
سوء أحوال آلِ فِرعونَ ٩٤
ذَمُّ الترفُّع عنِ الحقِّ ٩٥
فائدة الحِكْمَةُ من التخصيصِ ٩٥
فضيلة التأمُّل والتفكُّر فِي أخبارِ مَن مَضَى ٩٦
حُكْمُ مَن يَمْدَحُ هَذِهِ الأممَ ويُشِيدُ بقُوَّتِهم ٩٦
ما مَنَّ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به عَلَى داودَ وسُلَيْمان ٩٨
العُلَماءُ ما زالوا يَمْدَحُون كُتُبَهُم ٩٩
فَضيلة داودَ وسُلَيْمان ٩٩
فَضيلة العلمِ ٩٩
المُرادُ بالعلمِ الممدوحِ علمُ الشَّرِيعَة ٩٩
العلومُ إذا كانت لا تنافي العلمَ الشرعيَّ ١٠١
الشكر يَكُونُ بالقَوْلِ كما هُوَ أيضًا بالفِعْل ١٠١
الدَّلِيلُ عَلَى أن الشكرَ يَكُون فِي ثلاثةِ مواضعَ ١٠١
الاعترافُ بالنِّعَمِ بالقلبِ فَهُوَ مِنَ الشُّكْرِ ١٠٢
المواضعُ الثلاثةُ للشكرِ قَلَّ مَن يقومُ بها ١٠٢

تواضُع داود وسُلَيْمان ١٠٣
الْإِنْسَان إذا رأى أَنَّهُ أفضلُ من غيرِه بنعمةِ اللهِ عليه فإن هَذَا لا يُنافي التواضُعَ ١٠٤
مشروعيَّة التحدُّث بنعمةِ اللهِ ١٠٤
إثباتُ علمِ اللهِ ١٠٥
مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزة عَلَى غيرِه ١٠٦
يَتَعَلَّم لغة غير العَربيَّة فيُحِلّها مَحَلّ العربيَّة ١٠٨
لو تأمَّلْتَ ما عليه النَّاس الْآنَ من اللُّغة العامِّيَّة لوجدت أن كُلّ كلماتهم لها أصول في اللُّغة العَربيَّة ١٠٩
يَنبغي أنْ يَكُونَ عندَنا تنظيمٌ لأعمالِنا اليوميَّة بِقَدْرِ المُستطاع ١١١
قراءةَ الصحفِ قراءةٌ سَطحيَّةٌ ١١٢
الجنود الَّذِينَ يَسْتَصْحِبُهُمْ سُلَيْمان ثلاثةُ أصنافٍ ١١٢
جوازُ استعمالِ الساقَةِ فِي الجُنْد والجيشِ ١١٣
أن أحدَ الأَنْبِياء -عليهم الصَّلَاة والسلامُ- قَرَصَتْهُ نملةٌ ١١٥
مَن زَعَمَ أنَّ شيئًا من الْقُرْآن عَلَى خلافِ هَذَا اللسانِ العربيِّ المبينِ فعليه الدَّلِيلُ ١١٥
الصَّحيح إبقاء الْقُرْآن عَلَى ظاهرِه ١١٦
هل للنمل أعينٌ؟ ١١٧
النَّمْلَةُ إذا وَطئتها تَقطَّعَتْ وتَمَزَّقَتْ هَذَا هُوَ التكسُّر ١١٩
هل المقام يَقتضي أن تأتي بالعبارةِ الغليظةِ؟ ١١٩
من البلاغةِ الإيجاز بالحَذْفِ ١٢١
إذا لزِم من إحياء الأَرْض قتل النمل فَإِنَّهُ لَيْسَ به بأسٌ ١٢٢

إن الضحكَ ثلاثة أنواعٍ ١٢٤
أَنَّ نعمةَ الله عَلَى الوالدينِ نعمةٌ عَلَى الولدِ ١٢٩
قوله: ﴿وَلِدَيَّ﴾ هل هُوَ جمعٌ أو مُثَنًّى؟ ١٢٩
الوالد فِي الميراثِ يَشمَل الأدنى والأعلى إنْ فُقِدَ الأدنى ١٣٠
هل هناكَ فرقٌ بين قولنا: والِدَيَّ ووالِدِيَّ؟ ١٣٠
العَمَلُ الصالحُ ما جمعَ بينَ أمرينِ: الإخلاص والمتابعة ١٣١
العَمَلُ إذا لم يكنْ خالِصًا فليسَ مقبولًا ١٣٢
إن العَمَلَ قد يَكُونُ صالحًا بظاهرِهِ، ولكِنَّه غير مرضيٍّ فِي مآلِهِ أو فيما صَحِبَهُ ١٣٢
جوازُ التبسُّمِ عندَ وجودِ سببِه وجواز الضحِك أيضًا ١٣٣
من العقلِ والعدلِ والشرعِ إضافة المِنَّة إِلَى المانِّ بها ١٣٤
أَنَّ الغايةَ الَّتِي يَسير إليها الأَنْبِياء ومَن تَبِعَهم هُوَ رضا الله ١٣٥
الصلاحُ المطلَقُ ١٣٦
تَفَقُّدَه الطيرَ ١٣٩
دعواهم أنَّ الهدهدَ يرى الَّذِي تحت الْأَرْض ١٤٠
لو وُضِعَ الآدميُّ مَعَ الجنِّ يتعذَّب ١٤١
نون الوِقاية ١٤٢
(سلطان) تَرِدُ كثيرًا فِي الْقُرْآن ١٤٢
أن كلامَ الهدهدِ فِي مَقامِ الدفاعِ عن نفسِه ١٤٦
ضعفُ إدراكِ الْإِنْسَان ١٤٧
أن استعمالَ ضَميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المعظَّم لَيْسَ بلازمٍ ١٤٨

المَرْأَة هل يَصِحُّ أن تكون ملكةً؟ ١٤٩
هل يجوز أن تُسَمَّى المَرْأَة أميرةً أو سيدةً؟ ١٤٩
أن الشَّمْسَ مَعبودةٌ من قديمِ الزمانِ ١٥١
أن الخلقَ مَفْطُورون عَلَى إنكارِ الشركِ ١٥١
أن المشركينَ شَرُّ البَرِيَّة ١٥١
أن الأَعْمالَ السيِّئة من تزيينِ الشيطانِ ١٥٢
الْإِنْسَان يرى القبيحَ حَسَنًا ١٥٣
﴿أَلَّا﴾ للتحضيض ١٥٥
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ المستحِقّ للعبادةِ وَحْدَهُ ١٥٨
قَالَ الشَّافِعيّ فِي الْقَدَرِيَّة ١٥٨
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَعْلَم مخالفتَك، فيَلْزَم من هَذَا أن تَرْتَدِعَ ١٦٠
لا معبودَ بحقٍّ سِوَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٦٢
إثبات عرشِ اللهِ ١٦٣
الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمَّى الأصنام آلهةً ١٦٤
الفرق بين الحصر الحقيقيّ والإضافيّ ١٦٤
المُرادُ بالكاذبينَ ١٦٦
يَنبغي التثبُّت فِي الخبر ١٦٧
ما وقع لأميرِ المُؤْمِنينَ عمرَ بنِ الخطَّابِ مَعَ أبي مُوسَى الأشعريِّ ١٦٧
يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ لَبِقًا ١٦٨
جواز تعظيم الْإِنْسَانِ إذا كَانَ أهلًا لذلك ١٦٨

يَنبغي تَحسُّس الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلكَ ١٧٢
أنَّ كرمَ كُلّ شيءٍ بِحَسَبِه ١٧٤
هل سُلَيْمان ﷺ قالَ: مِن سُلَيْمان إِلَى بِلْقِيسَ؟ ١٧٥
الأَولى أن يبدأ الكَاتِبُ باسمِهِ ١٧٦
استحباب البَداءةِ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فِي أولِ الرسائلِ ١٧٧
استعمالُ الإيجازِ ١٧٧
﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ١٨٠
استحبابُ المشاورةِ فِي الأُمُورِ الْعَامَّة ١٨١
مكانة المَرْأَةِ من قومها ١٨٣
التأنِّي أَولى ١٨٦
إذا دار الأَمْرُ بين الإسراعِ والتأنِّي ولم يَتَرَجَّحِ الإسراعُ ١٨٧
العَمَل بالقرائنِ ١٩١
قِصَّة سُلَيْمان فِي المرأتينِ ١٩١
جوازِ الغِلظةِ فِي القَوْلِ ١٩٥
يجوز للإِنْسَانِ أن يصف غيرَه بما يبدو من حالِه ١٩٦
الفرق بين الأذِلَّة والصَّغار ١٩٨
الاقتصارُ عَلَى القَصَصِ الَّتِي فِي الْقُرْآن ١٩٩
الفرق بين الخيانة والخَديعة ٢٠٠
أنَّ الكافرَ لا حقَّ له فِي أرض الله ٢٠٢
جوازُ الخِطاب إِلَى المبهَم ٢٠٤

اشتراط التعيين بالنِّسْبَةِ للنِّكاح ٢٠٥
يجوز للإِنْسَان أمامَ عدوِّه أن يُظْهِرَ العظمةَ ٢٠٥
تسخير الجنّ لسُلَيْمان ٢٠٨
قوَّة الجنّ ٢٠٨
يجوزُ للإِنْسَانِ أنْ يَصِفَ نفسَه بما اتَّصف به من صفات الكمالِ ترغيبًا أو ترهيبًا ... ٢٠٨
الْإِنْسَانُ الَّذِي يَمْدَحُ نَفْسَه بما لَيْسَ فيها ٢٠٩
مَن لَيْسَ بقويٍّ لا يُتْقِن العَمَلَ؛ لضعفِهِ، ومن لَيْسَ بأمينٍ لا يُتْقِن العَمَلَ أيضًا لخيانتِه . ٢١٠
إذا كَانَ العَمَلُ تَتَعَارَضُ فِيهِ الْقُوَّة والأمانةُ ٢١١
أن سُلَيْمانَ قد رتَّب أعمالَه فِي وقتِه ٢١٢
الأَسْبَاب تَنعقِد فورًا إذا أرادَ الله ٢١٥
قِصص غرائبُ ٢١٦
الرُّبُوبيَّة عامّة وخاصّة ٢١٨
بماذا يَكُون الشكر ٢١٩
الشكرُ نوعانِ: شُكْرٌ مُطْلَقٌ وشكر خاصٌّ ٢٢٠
كفرُ النعمةِ ٢٢١
إن مَلِكًا منَ الملوكِ رأى رؤيا فأَفْزَعَتْهُ ٢٢٢
التعبير له دخل فِي قبول الحَقّ والنفور منه ٢٢٢
قد يُبْقِي الله تَعَالَى النعم مَعَ الكفرِ تَرْبِيَةً ٢٢٣
كمالُ قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ ٢٢٤
هل تَزَوَّجها سُلَيْمان؟ ٢٢٧

إثبات التعليل لأحكام اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الكونيَّة كما ثبت ذلك فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّة... ٢٢٧
يَنبغي للإِنْسَانِ أنْ يُخاطِبَ نفسَه بما تَقْتَضِيهِ الحالُ ٢٢٩
الردُّ عَلَى الجَبْرِيَّة........ ٢٣٠
هل تصرُّف سُلَيْمان فِي عرش ملكةِ سبأ جائز؟........ ٢٣٢
التَّوْرِيَة ٢٣٦
لَا بُدَّ أن تكون النفس مشغولة إمَّا بحقٍّ وَإمَّا بباطلٍ........ ٢٣٨
التحذير من مُصاحبةِ الأشرارِ........ ٢٣٩
هل البيئة تُعتبَر عُذرًا للإِنْسَانِ؟........ ٢٣٩
إظهار المَرْأة لساقيها........ ٢٤٣
قُصِدَ بإحضارِ العَرْش........ ٢٤٤
الظلم يَكُون أقبح وأشنع بحسب ظهور الحَقّ وبَيَانه........ ٢٤٥
عَظَمَة مُلْك سُلَيْمان ٢٤٧
جواز اختبارِ المرءِ ٢٤٧
المَرْأة من قديم الزمانِ شِيمَتها التستُّر........ ٢٤٨
الرؤيَةَ قد تُكَذِّب........ ٢٤٨
فِي الأُمُورِ الحِسِّيَّة الخطأ يمكن أن يقع ٢٤٩
أنَّ المَرْأَةَ آمنتْ بسُلَيْمان ٢٥٠
فِي بعض الآيَاتِ يُنْسَب الظُّلْمُ للنفسِ........ ٢٥١
أن العِبادَةَ التذلُّل لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالطاعة ٢٥٣
أن الرسُل السابقينَ رِسالتهم خاصَّة وليستْ عامَّةً........ ٢٥٥

يَصِحُّ إطلاق الأُخُوَّة النَّسَبِيَّة بين المسلمِ والكافرِ ٢٥٥
انقسام النَّاس إِلَى فريقينِ فِي مواجهةِ الرُّسُلِ ٢٥٥
الخِصام بين المُؤْمِنِينَ والكَافِرِينَ ٢٥٦
الكلمات لَيْسَ لها معنى ذاتيّ ٢٥٩
الإنكار عَلَى مَنِ استعجلَ بالسيئةِ قبلَ الحسنةِ ٢٦٠
أن الاستغفارَ سببٌ لرفع العقوبةِ ٢٦٠
الاستغفارُ سببٌ لاندفاعِ النِّقَمِ وجلبِ النعمِ ٢٦١
المَعاصِي سببٌ للحِرمانِ من العلمِ والفهمِ ٢٦١
من أَسْباب المغفرة ٢٦٢
الإدغام ٢٦٤
التطيُّر ٢٦٤
التشاؤم غير الشؤم ٢٦٦
الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ ٢٦٧
هل للأسماء تأثيرٌ في مُسَمَّيَاتِها؟ ٢٦٨
هل يجوز أن يسميَ الْإِنْسَانُ اسمًا ليتفاءَلَ به؟ ٢٦٨
بَيَان مَسْلَكِ المكذِّبين للرسلِ ٢٧١
المصائب الَّتِي تُصيب الْإِنْسَان ٢٧١
من الحِكْمَةِ أن يُرَدَّ الباطلُ بالحَقِّ بدون سكوتٍ ٢٧٢
حرَّم الله الصيد عَلَى المحرِمين ٢٧٣
افتتن الله تَعَالَى قومَ موسى بالحيتانِ ٢٧٣

إن الجدبَ والقحطَ هُوَ آيَةٌ وَلَيْسَ فتنةً؟ ٢٧٤
التشاؤُمُ هل يُعْتَبَرُ شِركًا أصغرَ أو أكبرَ؟ ٢٧٧
تقنين القوانين الوضعيَّة ٢٧٨
التَّلْقِيح ٢٨٠
الأطبّاء العَصْرِيُّون يعملون بالكيِّ ٢٨٢
يمكن أنْ يَجْتَمِعَ الفساد والصلاح ٢٨٣
الكفر والإيمان قد يجتمعانِ فِي شخصٍ ٢٨٣
أنَّ المَعاصِيَ من أَسْبابِ الفسادِ فِي الْأَرْض ٢٨٥
المُرادُ بالأهلِ ٢٨٦
وليُّ الدمِ ٢٨٧
مِنَ العُلَماءِ مَن مَنَعَ التبييت ٢٨٩
الاغتيالات ٢٩٠
هل يجوزُ سلوكُ مبدأِ الاغتيالاتِ مَعَ الأعداءِ؟ ٢٩١
أنَّ البيِّنَة عَلَى المدَّعِي واليمينَ عَلَى مَن أنكرَ ٢٩١
الصِّفَات تنقسمُ إِلَى ثلاثةِ أقسامٍ ٢٩٥
أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمْكُرُ بالعبدِ فلا يَشْعُر بمكرِه ٢٩٦
الحثُّ عَلَى الاعتبارِ ٣٠٠
أن العقوباتِ إِنَّمَا تأتي بأَسْبابِ المرءِ ٣٠١
تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ للظُّلم بالكفر ٣٠٥
التحذير منَ الظُّلم ٣٠٧

الردُّ عَلَى مَن ينكِرون الحِكْمَةَ ٣٠٧
لا يَنتفِع بالآيَاتِ إِلَّا أُولوا العلمِ ٣٠٨
الحثُّ عَلَى العلمِ ٣٠٨
الاشتراكيّة ٣٠٨
المُراد بالعلم الممدوح هُوَ العلم المؤثِّر للعمل والدَّعْوَة ٣٠٩
أنّ الإيمانَ والتقوَى من أَسْبابِ النجاةِ ٣١٣
قُرَى قومِ لُوطٍ ٣١٤
استغراقِ الجنسِ ٣١٤
نِكاحُ ذواتِ المحارِمِ أعظمُ مِنَ الزِّنا ٣١٥
مَن زَنَا بِمَحَارِمِهِ يُقتل ٣١٥
يَنبغي إبرازُ الغرضِ الَّذِي من أجلِهِ أُرْسِلَ الرَّسُولُ ٣١٦
عِظَم اللُّواط وقُبْحه ٣١٦
الاسْتِفْهام إذا تلاه التأكيد لا يُخرِجه عن معنى الاسْتِفْهامِ ٣١٨
القبائح تَزداد قبحًا إذا كَانَ لها بدائلُ مِنَ الحسناتِ ٣١٩
الشهوة إِنَّما تَصْدُرُ عن جهلٍ ٣١٩
بَيَان عُتُوّ المكذِّبين لِلُوطٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٣٢٢
ينبغي عند الدَّعْوَةِ إِلَى الشَّيْءِ أن يَقْرِن الداعي دعوته بما يُغْرِي المدعوّين ويُؤَلِّبهم ويقوِّيهم ٣٢٣
قَرْنُ الحُكْم بالسَّبَب ٣٢٣
المَرْأَة من الأهل ٣٢٤

مَن أتى بأَسْبابِ الهلاكِ هَلَكَ ٣٢٥
سَبْقِ التَّقْدير للحوادثِ ٣٢٥
ألّا يَغْتَرَّ الْإِنْسَان بقُربه من أهلِ الخيرِ والصلاحِ ٣٢٦
ما رُوِيَ من أن جِبريلَ حَمَلَهم من تُخُوم الْأَرْض السُّفْلَى ٣٢٧
الصبحُ يشملُ من طلوعِ الفجرِ إِلَى الزوالِ ٣٢٨
وجه مناسبة العقوبة للجريمةِ ٣٢٨
الثّناء عَلَى الفِعْل بما يسْتَحِقّه ٣٢٩
عقوبةُ المجرِمِ بما يَسْتَحِقّ ٣٢٩
لا أحدَ له حُجَّة عَلَى ربِّه ٣٢٩
الاصطفاءُ ٣٣٢
وجوب حَمْدِ اللهِ ٣٣٥
الحمد هل هُوَ الثَّناء ٣٣٥
أن إهلاكَ اللهِ للأممِ المستحقِّين صفة كمال ٣٣٦
لو حَصَلَ لكافرٍ حادثٌ هل يَلْزَمُنا إنقاذه؟ ٣٣٧
الَّذِينَ اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئُوا مِمَّا يُلْصَق بهم ٣٣٨
قيام الأفعالِ الاختياريّة باللهِ عَزَّوَجَلَّ ٣٣٨
ما جاءت به الرُّسُلُ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِيهِ نقصٌ ٣٣٩
جواز المقارنةِ بينَ ما هُوَ خيرٌ محْض وما لا خيرَ فيه ٣٣٩
أنَّ من أساليبِ المناظَرة إلزامَ الخَصْم بما يُقِرّ به ٣٤٠
جوازُ المقارنةِ بينَ شَيئينِ لا يَختلِفانِ فِي المَعْنى ٣٤٠

الالتفاتُ فِيهِ فوائدُ ٣٤٤
هل المَعُونَةُ تدخلُ فِي المشاركة؟ ٣٤٦
الواجب إفراد اللهِ تَعَالَى بالألوهيَّة ٣٤٦
بَيَان انفرادِ اللهِ تَعَالَى فِي خلق السَّماوَات والْأَرْض ٣٤٧
حكمة الله تَعَالَى فِي إنزالِ المطرِ من فوقُ ٣٤٨
الأَشْيَاء ينبغي أن تُضافَ إِلَى المسبِّب لا إِلَى السَّبَب ٣٤٨
التنزُّه فِي الحدائقِ والابتهاجُ بها ٣٤٩
الحُجَّة عَلَى سَفَهِ هَؤُلَاءِ المشركينَ ٣٥٠
المجاز فِي اللُّغة والْقُرْآن ٣٥٠
لا يلزم من مجرَّد الحركةِ الدَّورانُ ٣٥٣
فرقٌ بين الراسي والمُرْسِي ٣٥٥
أن نفيَ العلمِ قد يُراد به نفيُ حقيقةِ العلمِ ٣٥٧
بَيَان نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجعل الْأَرْض قرارًا لأهلها ٣٥٨
مختار اسْم الفاعلِ منه مُختَيِرٌ، واسم المَفْعُول مُختَيَرٌ ٣٦١
الأصنام لا تجيب دعوة المضطرّ ٣٦٢
الَّذِينَ يدعون الرَّسُولَ ٣٦٣
لا فرقَ بين أن يَكُون المضطرُّ مؤمنًا أو كافرًا ٣٦٧
هَذِهِ الخَليقةِ خليفة يَخْلُفُ بعضها بعضًا ٣٦٨
الدعاء من أَسْبابِ رفعِ البلاءِ ٣٦٩
إجابة المضطرّ المتحتِّمة مشروطة بما إذا دعاه ٣٦٩

يَجِب عَلَى المرءِ أنْ لا يلتفتَ فِي كَشْفِ السوءِ إِلَّا إِلَى اللهِ ٣٧٠
مَهْمَا كَثُرَتِ القرائنُ والبراهينُ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا يَتَّعِظ بها ٣٧١
نِعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الخَلْقِ بالهدايةِ فِي ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ والجوِّ ٣٧٤
يَجِب عَلَى الْإِنْسَان أن يَعتمدَ عَلَى اللهِ فِي الهدايةِ إِلَى الطريقِ الحِسِّيِّ ٣٧٥
الشَّيْء الواحد قد يَكُون خيرًا وقد يَكُون شرًّا ٣٧٦
إطلاق الصِّفة عَلَى آثارها ٣٧٦
أن الرياحَ سببٌ لنزولِ الأمطارِ ٣٧٧
بَيَان قُدْرَةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي بَدْءِ الخلقِ وإعادتِهِ ٣٨١
إنَّ الرزقَ العامّ غير الخاصّ ٣٨٢
الرزق مِنَ السَّماء بالمطرِ ومِنَ الْأَرْضِ بالنباتِ ٣٨٢
الربا الَّذِي فِي الجاهليَّة ٣٨٣
إذا كَانَ الاستثناءُ منقطعًا وجبَ فِيهِ النصبُ ٣٨٩
إن الإيمانَ أَوَّلُ مَرَاتِبِه الحَيْرة والشكّ ثُمَّ الاستدلال ٣٩٣
مَنِ ادَّعى أَنَّهُ يعلم متى يُبعَث ٣٩٥
لا يعلم أحدٌ الغيبَ إِلَّا اللهُ ٣٩٦
أهل الإيمان باليومِ الآخرِ يزدادون بها بصيرة ٤٠٠
تَلبيس أهلِ الضَّلال للحقِّ بالباطلِ ٤٠٢
مَن لا يريد الحَقّ فَإِنَّهُ لا يَتَبَيَّن له ٤٠٤
ينبغي لطالب العِلْم عندما يبحث عن مسألةٍ أَنْ يَبحثَ عنها ٤٠٤
مَن لا يريد الحَقّ لا يوفَّق له ٤٠٥

مِن أصعبِ الأُمُورِ الإخلاصُ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٤٠٦
الَّذِي يطلب الحَقّ هل يصل إليه؟ ٤٠٧
أن عاقبةَ المجرمينَ وَخيمة ٤١٠
أن الداعيَ إِلَى اللهِ إذا بَذَلَ ما يَجب عليه فلا يَنبغي أنْ يحزنَ لمخالفةِ النَّاسِ ٤١٢
أنَّ البلاءَ موكلٌ بالمَنْطِقِ ٤١٦
سَعَة حِلْمِ اللهِ ٤١٦
سَعَة عِلْمِ الله ٤١٩
الردُّ عَلَى الْقَدَرِيَّة ٤٢٠
الخلاف بينَ بني إسرائيلَ ٤٢٦
قوّة حُكم اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٣٣
إثباتُ العدلِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٤٣٤
قَرْن العزّة مَعَ العلمِ ٤٣٥
تقديم الأخصّ مِنَ الأوصافِ عَلَى الأعَمِّ ٤٣٥
التوكُّل عَلَى اللهِ ٤٣٦
الْإِنْسَان المتوكِّل ٤٣٨
مَنِ اتخذ سببًا مُحَرَّمًا مثل الرِّبا، هل يُعَدُّ مِنَ الشِّركِ؟ ٤٣٨
ما حُكْمُ قول العوامّ عِندنا: (وَكِّلِ الله)؟ ٤٣٩
فضيلة النَّبيّ ﷺ ٤٤٢
بيَان الحَقّ لا يَلْزَم منه أن يَكُونَ بَيِّنًا لكلِّ أحد ٤٤٣
الكافرُ لا يَنتفع انتفاعَ ثوابٍ ٤٤٥

أنَّ الميِّتَ لا يَسْمَع ٤٤٩
الموتى فِي قُبُورِهِم لا يَسْمَعُون ٤٤٩
سماعُ القبولِ ٤٥١
الرُّوح تُنْزَع بَعْد السلام ٤٥٢
أنَّ الجوارحَ والحواسَّ الَّتِي لا يُنْتَفَعُ بها كالمعدومةِ ٤٥٣
أنَّ المُعرِضَ عنِ الحَقّ بِمَنْزِلَةِ الأعمَى ٤٥٤
الإِيمان يَسْتَلْزِمُ الإِسْلامَ ٤٥٥
المسلمونَ اليومَ إمَّا مُسْتَسْلِم أو مُسْلِم أو مؤمِن ٤٥٥
هل المسلمُ المُسْتَسْلِم يدخل الجنَّة؟ ٤٥٦
الفرق بين المسلمِ المستسلِم والمنافِق ٤٥٦
وجهُ كونِ الآياتِ آياتٍ ٤٥٧
أنَّ الإيقانَ أبلغُ منَ الإِيمانِ وأخصُّ منه ٤٦١
خُرُوج الدابَّةِ ٤٦١
حِكمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الإنذار ٤٦٤
المؤمنُ الواعي الحيُّ يَكْفِيه ما فِي الْقُرْآنِ مِنَ الآياتِ العظيمةِ ٤٦٥
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُعْطِي العلمَ حَتَّى البهائم ٤٦٥
أنَّ عدمَ الْيَقِينِ بآياتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سببٌ للهلاكِ ٤٦٥
إثباتُ الحشرِ ٤٧١
عِظَم الإمامةِ فِي السوءِ ٤٧٢
التكذيب بالآياتِ كفرٌ ٤٧٢

إثباتُ الكَلام لله عَزَّوَجَلَّ.................................... ٤٧٢
الجَبْرِيَّة والأشاعرةُ لا يُثْبِتُون الأَسْبَاب ٤٧٧
المُراد بالسكونِ.................................... ٤٧٩
أين الآيَات فِي كون الليل لِيسكنوا فِيهِ والنَّهار مُبصِرًا؟ ٤٨٢
الاستدلال بالشاهِدِ عَلَى الغائبِ.................................... ٤٨٢
نَفْخة الفَزَع بعدَ نَفْخَةِ الصَّعْق والبَعْث ٤٨٦
إسرافيل ألا يَتعَيَّن أَنَّهُ مِمَّنِ استُثْنِيَ لِأَنَّهُ هُوَ النافِخُ؟.................................... ٤٨٩
العِوَض عن اسمٍ ٤٩٠
إثباتُ النفخِ فِي الصُّورِ ٤٩١
لا يَفْزَعُ جميعُ مَن فِي الْأَرْض ومن فِي السَّماوَات.................................... ٤٩٢
كمالُ الرُّبُوبيَّة والسلطانِ للهِ عَزَّوَجَلَّ ٤٩٢
قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ٤٩٧
ما الفرق بين الخبر والاسمِ؟.................................... ٥٠١
إثباتُ الحِكْمَةِ للهِ عَزَّوَجَلَّ.................................... ٥٠٢
كيف يُؤتَى بالحسناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ ٥٠٩
أن يومَ القيامةِ لا يُقاس بأمرِ الدُّنْيا ٥١٠
سبعةُ مواضعَ إذا كانتْ جوابًا للشرطِ وجبَ اقترانُ الفاءِ بها.................................... ٥١٣
الصدقةُ ليست من الأصول.................................... ٥١٥
أن عذابَ أهلِ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفسيّ وبدنيّ ٥١٦
هل السيئة تُضاعَف فِي مَكَّة؟.................................... ٥١٩

أليست العِبادَة هِيَ الإِسْلام؟ ٥٢٠
وجوب العِبادَة عَلَى النَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٥٢٢
بُطلان ما ادَّعاه أصحابُ مَن يَزْعُمونَ أَنَّهُم أَوْلِيَاء ٥٢٢
فَضيلة مكَّة من وجهينِ ٥٢٣
هل المَدينَة حرمها الله عَزَّوَجَلَّ؟ ٥٢٣
بَلاغة الْقُرْآن ٥٢٤
لا يجوزُ لأحدٍ أن يحكمَ بغيرِ ما أنزلَ الله ٥٢٤
أمر التحليل والتحريمِ والإيجابِ إِلَى الله ٥٢٥
العقلُ يُحسِّنُ ويُقبِّحُ، لَكِنَّهُ لا يُوجِبُ ويُحرِّم ٥٢٥
الْإِنْسَان الَّذِي صَفَتْ سَريرته وخلصت نيّته وعلِم اللهُ منه حُسْنَ القصدِ يُوَفَّق ٥٢٥
أن الإِسْلامَ والإِيمانَ شيءٌ واحد ٥٢٧
الإِيمان منَ المنافقينَ بعيدٌ ٥٢٧
التلاوة تنقسمُ إِلَى قسمينِ ٥٢٩
يَجِب عَلَى المسلمِ أن يتلوَ الْقُرْآن تلاوةً اتباعيةً ٥٢٩
تدريجِ النَّاسِ حَتَّى يَسْلُكُوا الصراطَ الصَّحيحَ ٥٣١
القَوْل فِي نقلِ الْإِنْسَانِ من معصيةٍ إِلَى معصيةٍ أُخرى أخفَّ منها؟ ٥٣٢
أصل الثوابِ للفاعلِ ٥٣٣
دَعْوَى النسخِ لَيْسَتْ بالأَمْرِ الهَيِّن ٥٣٥
هل من شروطِ النسخِ وجودُ قرينةٍ تدلُّ عليه؟ ٥٣٦
وَقْعَة بَدْرٍ ٥٣٨

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة

تقديم ٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ ٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ ١٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ ٢١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤﴾ ٢٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾ ٣٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾ ٣٧

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ ٤٦

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾ ٥٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩﴾ ٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠﴾ ٦٥

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ٧٢

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾ ٧٦

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ ٨٣

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ ٨٧

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ ٩٨

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ ١٠٦

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ ١١٠

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ ١١٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ ١٢٤

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾ ١٣٩

" قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ ١٤١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ ١٤٤

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ ١٤٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ١٥١

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١٥٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ ١٦٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ ١٦٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ ١٧٠

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ ١٧٣

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ ١٧٥

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ ١٧٩

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ ١٨٢

" قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ ١٨٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ١٨٨

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ١٩٣

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ ١٩٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾﴾ ٢٠٣

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ ٢٠٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ ٢١٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾ ٢٢٦

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٣٣

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ .. ٢٣٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢٤١

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢٥٢

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢٥٨

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٦٣

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٧٥

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٨٦

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ ... ٢٩٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٩٧

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٣٠٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ ٣١١

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٣١٤

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ٣١٨

" قال اللهُ عزّوجلّ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ٣٢١

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ... ٣٢٤

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٣٢٧

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ٣٣١

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ ٣٤٢

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ ٣٥٢

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ٣٦٠

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ٣٧٢

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ ٣٧٨

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ٣٨٨

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٣٩٩

قال اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ٤٠٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ ٤٠٤

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .. ٤٠٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ ٤١٢

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ ٤١٥

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ ٤١٦

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ ٤١٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ٤١٩

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ ٤٢٠

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٤٢١

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ٤٢٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٤٣٠

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ ٤٣٦

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ . ٤٤٤

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ ٤٤٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٤٥٨

" قال اللهُ عزَّوَجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ

يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ ٤٦٧

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ ٤٧٤

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ ٤٧٨

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٤٨٤

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٤٩٤

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ .. ٥٠٥

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ ٥١٢

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٥١٨

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ ٥٢٩

" قال الله عزَّوَجلَّ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ ٥٣٧

فهرس الأحاديث والآثار ٥٤٣

فهرس الفوائد ٥٥١

فهرس آيات السورة ٥٧٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٦)

تفسير

القرآن الكريم

سورة القصص

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٦)

تفسير القرآن الكريم

سورة القصص

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

بسم الله الرحمن الرحيم

ح مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة القصص. / محمد بن صالح العثيمين ـ ط ١ ـ القصيم، ١٤٣٦هـ
٤٤٣ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٦)
ردمك: ١ ـ ٥١ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ سورة القصص ـ تفسير.
أ ـ العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٣٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٣٣
ردمك: ١ ـ ٥١ ـ ٨١٦٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة
لمؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
إلا لمن أراد طبع الكتاب لتوزيعه خيريًا بعد مراجعة المؤسسة

الطبعة الأولى

١٤٣٦ هـ

يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم ـ عنيزة ـ ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوّال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

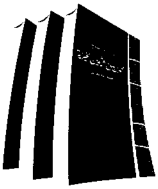

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع ـ شارع محمد مقلد ـ متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ ـ محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقـديـم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليَقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَي الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِقِ الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[١]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بمُؤسَّسةِ الشَّيخ مُحمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهِيز للطِّباعةِ والنَّشْر لِإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالِصًا لِوجهِه الكَرِيم؛ نافِعًا لعِبادِه، وأنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المَثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، نبيِّنا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لهُمْ بإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمَادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).

الآيات (١-٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص:١-٣].

الحمدُ للهِ ربِّ العَالمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إِلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

قَالَ المُفسِّـرُ[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿طسٓمٓ﴾ اللهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ، ﴿تِلْكَ﴾ أَيْ هَذِهِ الْآيَاتُ، ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى مِنْ، ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ الْمُظْهِرُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، ﴿نَتْلُوا۟﴾ نَقُصُّ، ﴿عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾ خَبَرِ، ﴿مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصِّدْقُ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لِأَجْلِهِمْ، لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِهِ].

الحِكمة من القَصَص فِي الْآيَاتِ واضحةٌ، فهو يُتلَى عَلَى النَّاسِ لكي يُؤمِنوا، فَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فِي الْأَصْلِ فهو لتَثْبِيت إيمانِهم وزيادَتِه.

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان عِظَم القُرْآن وعُلُوِّه، وذلك عَنْ طَرِيقِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بالبُعد ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، المتوفى سنة (٨٦٤هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذَا الْقُرْآنُ مكتوبٌ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾، ونحن نعلم أنَّ كتابةَ القُرْآن مُتحَقِّقَةٌ فِي ثَلَاثَةِ أماكنَ:

١- فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ.

٢- فِي صُحُفِ الملائكة.

٣- فِي المَصَاحِفِ الَّتِي بَيْنَ أيدينا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُظهِر مُبَيِّن للأُمُور؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾، فهو مُظهِر ومُبَيِّن للأُمُور.

وحَذْفُ مُتَعَلَّق ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفاد مِنْهُ عُمُومُ إِبَانَةِ الْقُرْآنِ لِكُلِّ شَيْءٍ.

وحذفُ المُتَعَلَّق هَذَا مِنَ القَواعِدِ التَفْسِيرِيَّة، فإنَّ حَذْفَ المُتعَلَّقِ يُفيد العُلُوَّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨]، حيثُ لَمْ يَقُلْ: (فأغناك)؛ لِأَنَّ اللهَ أغناهُ، وأغنى به، وَقَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:٧]، فالله هداه وهدَى به.

فقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، ويدل لذلك قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولذلك فإنَّ أيَّ مُشكلة تَعْرِضُ لَنَا فِي دِينِنَا نَجِدُ حَلَّها فِي الْقُرْآنِ، والقُرْآن يُرشدنا إلى الأخذ بالسُّنة، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧].

إذن: الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ يَحِلَّان كُلَّ مَا يَعْرِضُ لَنَا مِنْ مُشْكِلَاتٍ فِي أُمُورِ دِيننا، أو دُنيانا، ولكن المشكلة هي القُصور فِي فَهْمِ النَّص لَدَى بَعْضِ النَّاسِ، ويرجع الْأَمْرُ إِلَى سببين: إمَّا هَوًى مُتَّبع، وإمَّا جَهْلٌ.

فهناك مِنَ النَّاسِ مَنْ يريد اتباعَ الهـوى، وَلَا يُرِيدُ اتِّبَاعَ الْحَـقِّ، فيذهـب إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَّهُ يَجِدُ مَا يُبَرِّرُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ.

فمثلًا هُنَاكَ مَنْ يُبَرِّر للاشتراكِيَّة، ويبحث فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عما يؤيد رأيه هذا، فَإِنْ وَجَدَ مَا يُخَالِفُ رأيه تركه وتجاوزه إِلَى غَيْرِهِ، فهذا الرَّجُلُ لَمْ يَقْصِدِ الحقَّ.

وكذلك بعضُ الذين يُشَـرِّعُون القوانيـن، أو الأُمُورَ الفِقهيـة، أَوْ مَا شابَـهَ، لَا يَرْجِعُـونَ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّـنَّةِ إِلَّا مِنْ أَجْلِ تبـريرِ مواقِفِهم، فإذا رأوا ما يُخالِفُها أَغْمَضُوا أَعْيُنَهم، وإن رأوا مَا يُشِيرُ إليها -ولَوْ لإبطالها- فَتَحُوا أعيُنَهم.

وهؤُلاءِ لهم غَرَضٌ فِي صُدُورِهِمْ في تَصَفُّحِهم للقرآن والسُّنة، كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (العقيدة الواسطية)، وَهِيَ كَلِمَةٌ عظيمة المعنى، قال[1]: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ».

كلمةٌ عظيمةٌ، فِيهَا أَمْرَانِ: تَدبُّر، وطَلَبُ الهدى. فـ(تَدَبَّرَ): الفعل، و(طالبًا للهُدى): النية الصَّالِحة، (تبيَّن له طَرِيقُ الحَقِّ) جَواب الشَّرْطِ.

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ جزَم به؛ لأَنَّهُ مَوْجُودٌ فِي الْقُرْآنِ لَا شَكَّ فِي هَذَا.

إذن: القُرْآنُ مُبَيِّنٌ لكُلِّ الأُمُور؛ إِمَّا مِنَ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ، أَوْ مِمَّا يُرْشِدُ إِلَيْهِ، أي السُّنَّةُ النَّبوِيَّةُ.

أحيانًا تَعْتَرِضُنا مَسـائِلُ، ونَبْحَثُ عَنْهَا فِي كُتُبِ الفُقهـاء؛ فُقَهـاء الحنابلة، وفُقَهاء الشافعية، وغيرهم، فما نجدُها، فَنَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، فنجدُها واضحةً جَلِيَّةً.

---

(١) العقيدة الواسطية اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٧٤).

وَالرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُفِيد الإِنْسَان -حقيقةً- فائدتين عظيمتين:

الأُولى: الطُّمأنينة والاستقرار؛ لِأَنَّ اتِّبَاعَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ -وَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانَ قَدْ يطمئِن إليه بَعْضَ الشَّيْءِ- مَا تَكُونُ الطُّمأنينة إليه كطُمأنِينَتِه إِلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

الثَّانية: أنه يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقْنِعَ غيره، ويُطَمْئِنَ غيره.

فمثلًا إِذَا قُلْتَ لِإِنْسَانٍ مَا: هَذَا حَرَامٌ. يَقُولُ لَك: مَا الدَّلِيلُ عَلَى الحُرمة؟ فإذا قلتَ: له حَرَّمَهُ اللهُ، أَوْ حَرَّمَهُ رسولُه. اطمأنَّ لِقَوْلِك، أَمَّا إِذَا قُلْتَ لَهُ: هناكَ كِتَابٌ مَا قَدْ حَرَّمَهُ. قَالَ لَك مستنكرًا: أيُّ كتابٍ هذا؟ هَلْ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟

إذن: الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَبُثُّ الطُّمأنينة فِي قُلُوبِ المخاطَبين ويُقْنِعُهم.

ولذلك أنا أَمِيلُ إِلَى الرُّجُوع دائمًا إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا يَعْنِي كلامي هذا طَرْحَ كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ، لا، فكلامُ أَهْلِ الْعِلْمِ مفاتيحُ لهذه الخزائن، فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ لَا يَهْتَدِي بالكتاب والسُّنة إِلَّا إِذَا دَخَلَ مِنْ حَيْثُ دَخَلَ هؤُلاءِ العلماءُ.

وهناك فَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبِعِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واقْتَدِ بكلامِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَبَيْنَ مَنْ يَقُولُ: اتَّبعِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، واطْرَحْ كَلَامَ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ فهو لَيْسَ بِشَيْءٍ. وَهَذَا خطأٌ كبيرٌ.

واعْلَمْ أَنَّ الحَقَّ دائمًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ القَصص يُسَمَّى تِلاوةً، يُقال: قَصَّ الإِنْسَانُ القِصَّة، إذا تَلاها علينا؛ وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ أهمية قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرعونَ، ولهذا تَكَفَّلَ اللهُ تعالى بِتِلَاوَتِها عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لأهميتِها، وبيان فوائِدها.

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تجمعوا الْقِصَّةَ مِنْ جَمِيعِ أطرافها فِي الْقُرْآنِ، واستخرجوا مَا فِيهَا مَنْ فَوَائِدَ، فهذه الْقِصَّةُ مِنْ أَهَمِّ القَصَص الَّتِي وَرَدَتْ فِي الْقُرْآنِ الكريم، وَقَدْ تكَرَّرَتْ فِي مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ بأساليبَ مختلفةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الحْقُّ، فَجَمِيعُ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ عَنْ هَذِهِ القَصَص هُوَ حَقٌّ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلنا: إِنَّ الحْقَّ إِذَا وُصِفَ بِهِ الخَبَرُ، فَهُوَ بمعنى الصِّدق، وإذا وُصِفَ بِهِ الحُكْمُ، فهو بمعنى العَدْل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ القَصَص سببٌ لحدوث الإِيمَان، وكذلك سبب لزيادته أيضًا، أي سبب لِمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ حَتَّى يُؤْمِنَ، ولمن آمَنَ حتى يزدادَ إيمانُه؛ ثباتًا وكَمِّيَّةً.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ يَنْتَفِعُ بِهَا غيرُ المؤمن قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، فكلُّ إنسان عنده لُبٌّ -أَيْ عقل- فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُعْتَبَرَ وينتفع.

• • ۞ • •

الآيــة (٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤].

•••

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ تَعظَّمَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْـرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ فِرَقًا فِي خِدْمَتِهِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ هُمْ بَنُو إِسْـرَائِيلَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الْـمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يَسْـتَبْقِيهِنَّ أَحْيَاءً لِقَـوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَة لَهُ: إِنَّ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ مُلْكِكَ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِه].

﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾: قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَسْـتَبْقِيهِنَّ أحيـاء]، لأنَّهُن فِي الْأَصْلِ أحياء، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِحْيَاءِ الموتى إِلَّا اللهُ.

وجملتا (يُذَبِّحُ) و(يَسْتَحْيِي) حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (عَلَا) و(جَعَلَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ مِنَ العُلُوِّ والجَبَرُوت، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنْ عَلَا فِي الْأَرْضِ، وطلـب العُلُوَّ عَلَى الخَلْقِ؛ فهو شـبيه بِفِرْعَون ووارثه، وبئس الرَّجُلُ مَنْ كَانَ فِرْعَوْنُ إمامَه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ تفريق الأُمة سببٌ لفشَلِها وذُلِّها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ومنها نعلم أَنَّ الحِكْمَةَ الإنجليزية المشهورة (فَرِّقْ تَسُدْ) أصلُها فِرْعَوني؛ لأن فِرْعَون هُوَ أَوَّلُ مَنْ جَعَلَ أَهْلَ الْأَرْضِ شيعًا؛ حَتَّى يَسُودَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ، مَعَ أَنَّهُمْ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ.

فيتفرع عَلَى هَذِهِ الْفَائِدَةِ: أَنَّ مَنْ سَكَنَ أرضًا، وأقام فيها، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا فِي الْأَصْلِ، نُسب إليها، وَصَارَ مِنْ أَهْلِهَا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ شِدَّة استضعاف فِرْعَون لِبَنِي إِسْرَائِيلَ؛ حَيْثُ كَانَ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

وَقَدْ قِيلَ فِي سَبَبِ فِعْلِهِ هَذَا: إِنَّهُ أُخبر بأنه سيُولَد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولدٌ، يَكُونُ هَلَاكُهُ عَلَى يَدِهِ.

وَقِيلَ: لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الطَّرِيقُ لإذلال الأُمَّة؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذَهَبَ الرجال، وبقيت النساء صِرن إماءً للمُسْتَعْبِد، وهُنَّ بلا شك مَا عِنْدَهُنَّ قَيِّمٌ عليهن، ولا مُدافِعٌ عنهن.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، والعُتُوَّ عَلَى الخَلْقِ، والسَّعْيَ بينهم بالتفريق يُعَدُّ مِنَ الإفساد، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

ويتضح مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ مَنْ كَانَ عَلَى نقيض ذَلِكَ مِنَ التواضع للحَقِّ والخَلْقِ، جَمَعَ شَمْلَ الأمة، وقَصَرَ عدوانه عنها، يَكُونُ مِنَ الْمُصْلِحِينَ، وَكَمَا قِيلَ: وبِضِدِّها تتميز الأَشْياء.

الآيتان (٥، ٦)

• • • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

• • • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ مُلْكَ فِرْعَوْنَ، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: «وَيَرَى» بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ وَرَفْعِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ ﴿مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ يَخَافُونَ مِنَ الْمَوْلُودِ الَّذِي يَذْهَبُ مُلْكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ].

الإرادةُ الْوَارِدَةُ فِي الْآيَةِ هنا هِيَ إِرَادَةٌ كونِيَّة، وهي المشيئة، ويتعلق بها الحُكم القَدَرِيُّ، فالإرادة الكَوْنِيَّة مُرادِفَةٌ للمَشِيئَة، وتَتَعَلَّق بالأُمُور الكَوْنِيَّة.

أَمَّا الإرادةُ الشرعيةُ فمُرادِفَةٌ للمَحبَّة، وهي تتعلق بالأُمُور الشرعية، فمثلًا: اللهُ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نُصَلِّيَ فِي جَماعَةٍ، فهذه إرادةٌ شرعيةٌ.

وَهَلِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ هُنا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، أَمْ مِنْ عُموم أَهْلِ مِصْرَ الذين استضعفهم فِرْعَون؟ المرادُ هنا كل الذين استضعَفَهم فِرْعَونُ.

فَقَدْ كَانُوا مُضطهَدين، ولذلك أَرَادَ اللهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بالهداية والإِيمَان والإمامة، وكذلك بميراثهم لِفِرْعَونَ وجُنُودِه.

وَهَذَا كُلُّهُ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لأَنَّهُ أتى بالفعل المضارع (نُرِيدُ) الَّذِي يَدُلُّ عَلَى المُسْتَقْبَلِ، أي: نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عليهم مستقبلًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾ أي: أَئِمَّةً فِي الْخَيْرِ، والإمامُ هُوَ كُلُّ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ، أَوْ فِي الشَّرِّ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَهُمْ أَيِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص:٤١]، وَلَكِنَّ المُرَادَ هُنَا: أَئِمَّةٌ فِي الْخَيْرِ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَرِثِينَ﴾ أي: يَرِثُون فِرْعَونَ وجُنوده، قَالَ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ إِرَادَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَنُرِيدُ﴾، ووجهُ إثباتِ الإرادةِ هنا، مع أنها فِعْلٌ، وليس اسمًا، هُوَ أَنَّ الْفِعْلَ يَدُلُّ عَلَى الحَدَث وزَمَانِه.

فقولُه: ﴿وَنُرِيدُ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ الْإِرَادَةِ، وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ نقول: إنه يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ.

المعتزلة لم يُثبتوا الإرادة للهِ عَزَّوَجَلَّ، بل نَفَوْهَا، فِي الْوَقْتِ الَّذِي أَثْبَتَها الأشاعرةُ له عَزَّوَجَلَّ، واستدلوا بكون الليل ليلًا، والنهار نهارًا، والحَرِّ حَرًّا، والبَرْدُ بَرْدًا أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ؛ إِذْ لَا يَقَعُ هَذَا التَّخْصِيصُ إلا بإرادةٍ.

ولكنهم يستدلون عَلَى إِثْبَاتِ الصفات عامَّةً بالعَقْلِ، فَمَا وَافَقَ عُقُولَهُم قَبِلُوه، وَمَا خَالَفَهَا أَوَّلُوه وصَرَفُوه حتى يُوافِقَ العقل.

وقد تبين لَنَا قَبْلَ ذَلِكَ فَسَادُ هَذَا المنهجِ، فَهُوَ مُخَالِفٌ للقرآن الكريم، يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [المؤمنون:٧١].

قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ أَرَادَنَا أَنْ نَرُدَّ مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ»(١).

نعم، هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْتَقِيمُ؛ فإثبات صِفَاتِ اللهِ بالطُّرق العقلية، وَنَفْيُ مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ؛ هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُدوانٌ، وطريقٌ فاسِدٌ.

ويمكننا أَنْ نَرُدَّ عليهم بأَنَّنا نستطيع أَنْ نُثْبِتَ ما نَفَوْهُ بطريق العقل، كما أثبتوا هم ما أثبتوا بطريق العقل، بل بصورةٍ أَفْلَحَ وأَبْلَغَ.

فظُهور صِفة الرَّحْمة فِي المَخْلُوقَاتِ أَبْلَغُ مِنْ ظُهُورِ صفة الإرادة، وَكَذَلِكَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ بالرِّزق، والإمداد، والإعداد، وَفِي جَمِيعِ مَا يَتَمَتَّعُون به، وَهَذَا ثَابِتٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.

أَمَّا كونُ البَرْدِ بَرْدًا، والحَرِّ حَرًّا، فَهَذَا لَيْسَ دليلًا قويًّا عَلَى الْإِرَادَةِ، فَدَلالَةُ مَا سَبَقَ عَلَى الْإِرَادَةِ أَقْوَى مِنْ دَلَالَةِ النِّعَم عَلَى الرَّحْمة بلا شك.

أَيْضًا إِذَا نَظَرْنَا لِنَصْرِ الله للطائعين، وفُقْدَانِه للعاصِين، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى الحُبِّ والكُره، فَلَوْلَا أَنَّهُ يُحِبُّ هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وَلَوْلَا أَنَّهُ يُبْغِض هَؤُلَاءِ مَا نَصَرَهُم، وهذا معروفٌ، حَتَّى إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَارَ يُبغض أَحَدًا مَا فما نَصَرَهُ، وَلَا أَحَبَّهُ.

إذن: نَصْرُ هؤلاءِ، وإذلالُ هؤُلاءِ دَلَّ عَلَى إِثْبَاتِ المَحَبَّة والبُغض، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ ينكرون، ويقولون: الْعَقْلُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

---

(١) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٢/ ٥٠٧، رقم ٥٨٢).

فَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ الحقَّ واضحًا، فَمَا مِنْ شَيْءٍ يزعُم هَؤُلَاءِ أَنَّ العقل يُنكره، أَوْ لَا يُثْبِتُهُ، إلا وجدنا أَنَّ الْعَقْلَ يُثبته كما أثبته الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تمام قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك عندما جعل هؤُلاءِ المستضعفين أئمةً، ووارثين لهؤُلاءِ الطُّغاة، وذلك بإرادةٍ مِنَ اللهِ وَحْدَهُ، وليس بِقُدْرَتِهم، فالمسلمون -مثلًا- وَرِثُوا ديار الفُرس والرُّوم بفعلهم وجهادهم، وإرادة الله.

ولكنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرِثُوا فِرْعَونَ بلا قتالٍ، وَلَا فِعْلٍ منهم، بَلْ كَانَ ذَلِكَ بإرادة الله المَحْضَة فقط، وَهَذَا مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾، فاللهُ يُيَسِّر لِعِبَادِهِ مِنَ النَّصْرِ ما لم يَكُنْ فِي مَقْدُورِهم، وَلَا فِي حسابهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنِ استُضعِف لِقِيَامِه بالحقِّ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ العاقبةُ له؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾، وَإِنْ كَانَتْ فِي سِيَاقِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فغيرُهم دَاخِلٌ فِي الْعُمُومِ اللفظي، إِذَا قُلْنَا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ فِي أَيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العُموم المعنوي، وذلك بقياس غَيْرِهِمْ عَلَيْهِم؛ لأن دَلالات العُموم إِمَّا لَفْظِيَّة، أو مَعْنَوِيَّة، فالقياسُ الصحيحُ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى المَقِيس دلالة معنوية، فحينئذٍ نقول: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذَا جعلناهم هم بَنِي إِسْرَائِيلَ فقط، فالمستضعفون بقيامهم بِالْحَقِّ مِنْ غَيْرِهِمْ مثلُهم؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

فسُنَّةُ اللهِ للخَلق واحدة؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ نَسَب، أو حَسَبٌ حتى يُرَاعِيَهُ، يَقُولُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قد يَقُولُ قَائِلٌ: هناك أُناسٌ استُضْعِفوا بالحَقِّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فأين الْعَاقِبَةُ الَّتِي تزعمون؟

فنقول: إِنَّ العاقبةَ لَا تكُونُ للشَّخص الجسدِيِّ فقط، بل للشَّخصِ المعنوي، فمَقَالتُه هَذِهِ لَا بُدَّ أَنْ تُنصَر.

وانظروا الْآنَ إِلَى مَنْ سَبَقَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، كَمْ مِنْ عَالِمٍ أُوذِيَ فِي الْحَقِّ، سواء قُتِل أَمْ لَا، تجدوا مقالاتِه ما زالت باقِيَةً، ومُنْتَشِرَةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِه، وهذا واضحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

إذن: النصرُ لقائل الْحَقِّ فِي حَيَاتِهِ، أَوْ لمقالته بَعْدَ وَفَاتِهِ، والإِنْسَان المجاهد لله هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَثْأَرَ لنفسه، بل هَمُّه أَنْ يَبْقَى هَذَا الْحَقُّ الَّذِي قَامَ بِهِ، لَا يَهُمُّهُ بقاؤه هُوَ، أَوْ مَمَاتُهُ إِذَا كَانَ يَدْعُو إِلَى اللهِ، أَمَّا مَنْ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ -وَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِيذَنا مِنْ ذَلِكَ جَمِيعًا- نَجِدُه يَقُولُ إِذَا أُوذِيَ، أَوْ أَصَابَهُ ضَرَرٌ: أَنَا مَا انتصرتُ.

وَلَكِنْ مَنْ يَدْعُو إِلَى اللهِ لَا يَشْغَلُهُ إِلَّا أَنْ تنتصر الدعوة، ولهذا فإنه يُقَاتِل مِنْ أَجْلِهَا. لا بُدَّ مِنْ نَصْرِ الحَقِّ بأسبابه، فإذا أَعْيَتْكَ الأُمور جاء النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللهِ بلا سبب.

لكنك مأمورٌ بِسُلُوكِ طريقٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى تُنْصَرَ، وَقَدْ لَا تَنَالُ النصرَ بسبب مخالفتك لهذا الطريق، وتقصيرك فيه، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَسُنت نِيَّتُه حَسُنَ فِعْلُه ونُصِر.

فالأمر هنا يختلف، ومَسَائِل هَذَا الْبَابِ مِن أَدَقِّ المَسَائِل، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عنها كثيرًا.

فَلَا يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ كالكُرة فِي يَدِ غَيْرِه، يُقَلِّبُه كَيْفَ يَشَاءُ، أو تذهب به ريحٌ عاصفةٌ بعيدًا جدًّا، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَّزِنًا، لا مُتَهَوِّرًا، فإذا تهَوَّرَ، ثم خالفه النصر، فالبلاء مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ فضائلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومَناقِبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً﴾.

وهنا قد يُشكِلُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنَّ اللهَ تعالى يَقُولُ ذَلِكَ، وفي آيات كثيرة يَذُمُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ السَّبَبَ فِي جَعْلِ هؤُلاءِ أئمةً، فَقَالَ تعالى فِي سُورَةِ السَّجْدَةِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، فحينها كانوا مُتَّصِفِينَ بهذين الوصفين: الصَّبْر واليَقِين، كانوا أئمةً، وَقَدْ أَخَذَ شيخُ الْإِسْلَامِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ جملةً، فقال[1]: «بالصَّبْرِ واليَقِين تُنال الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ».

لَكِنْ لَمَّا تخلَّف الصَّبْرُ، وتَخَلَّف اليَقِينُ منهم، صاروا ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، وجاءت الْآيَاتُ فِي ذَمِّهم، فالآياتُ لا يُكذِّب بَعْضُها بَعْضًا، ولكن هناك أشياءُ تُوجِب تَخَلُّفَ أحكام بعض الآياتِ لِتَخَلُّفِ السبب.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَوْلَوْا على بلاد الكُفَّار مَلَكُوها، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، والوارثُ يَمْلِكُ مَا وَرِثَ، فَهُمُ الَّذِينَ يجعلهم اللهُ الْوَارِثِينَ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الأراضي تُملك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الأراضي لَيْسَتْ مِنَ الْغَنَائِمِ المحضة، فَاللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، مَعَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي»[2].

---

(١) قاعدة في الصَّبْر، لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

انظروا هذا التَّقرير هُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى وَرَّث بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْضَ بَنِي فِرْعَونَ وأموالَهم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

فلو ادَّعى أحدُهم أَنَّ اللهَ أخرجَ آلَ فِرْعَوْنَ مِنْ أَرْضِهِمْ، وجعلها مَغْنَمًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ بقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، وهذا مُعارِضٌ لحديث الرَّسُول، فكيف نُجيب عنه؟

نقول: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يأخذوها بَعْدَ قِتَالٍ، فالغنيمةُ معروفة، إنما أُخِذَتْ عَنْ طَرِيقِ قتال الأعداء، ولكن هَؤُلَاءِ مَا وَرِثُوها بالقتال، بل بِقُوَّةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ الَّتِي لَيْسَ لَهُمْ إِلَيْهَا سَبِيل، فالأراضي والمساكن والكُنوز الَّتِي أَخَذَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا تُعَدُّ مِنَ الْغَنَائِمِ، بَلْ هِيَ مِن وَهْب اللهِ لَهُمْ بلا قتال.

وَعَلَى هَذَا فَلَا تَعَارُضَ بين الْآيَةِ وَبَيْنَ قولِ الرَّسُولِ ﷺ: «**أُحِلَّتْ لِيَ المَغانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي**».

وَلَكِن هَـذَا لَا يَنْفِي أَنَّ الغنائم كَانَـتْ مَوْجُودَةً فِي المَاضِي، لَكِنَّ اللهَ لَمْ يُحِلَّهَا للمقاتلين، بَلْ كَانَت تَنْزِلُ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ تحرقها، وَإِنْ كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْغُلُولِ فَلَا تنزل النار.

والحِكْمَة مِن إحراق الغنائم هي قطعُ التَّعَلُّقِ بِهَا نهائيًّا؛ لِأَنَّهَا لَوْ بَقِيَتْ لَتَداوَلَها النَّاسُ بالبَيْع والشِّراء والانْتِفاع، وصار مِلكًا لهم.

وَمِنَ المَعْرُوفِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَمُدُّ الأُمة بأشياءَ تستعين بِهَا فِي حَيَاتِهَا؛ فهو يَمُدُّ الإِنْسَان عامَّة بأشياءَ مُعَيَّنَة لِأَجْلِ أَنْ يَصِلَ إِلَى الفَضِيلَة.

فالنَّبي ﷺ يستغفر ربه، مَعَ أَنَّ اللهَ قد غَفَرَ له ما تقدَّم مِن ذَنْبه، وما تأخر، ونحن مأمورون بأن نُصَلِّيَ عليه، واللهُ تعالى يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فلا يلزم مِن الوُصول إلى الكمال أَلَّا يسعى الإِنْسَانُ بأسبابه.

ولو قال قائلٌ: كيف تَحِلُّ لنا الغنائم ونحنُ أفضلُ الأُمَمِ؟ لماذا لا يُوكَلُ الْأَمْرُ إِلَى مَنَاقِبنا وفضائلنا؟

فنقول له: هذا مِن نِعْمَة الله علينا، لا لأن نَصِلَ إلى درجة الكمال، ولكنه أَحَلَّ هَذِهِ المَغَانِم حتى نستعين بها.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تمكينُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نِعْمَةِ الله عليه؛ لقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القَصَص:٦]، لأن هَذَا مِن جُملة ما أنعم به على بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ أَنْ مَكَّنَهُم فِي الْأَرْضِ، فكونُ الإِنْسَان يُمَكَّن له فِي الْأَرْضِ، سواء كان هذا التمكين عَنْ طَرِيقِ سُلطة السُّلطان، أَوْ عَنْ طَرِيقِ سُلطة القُرْآن.

والتَّمكيـن فِي الْأَرْضِ ليس معناه أن الإِنْسَان يَحكم النَّاس؛ ليكون سلطانًا عليهم، لا، بل قد يكون التَّمكين للإنسان فِي الْأَرْضِ بتمكين قوله؛ حتى يكون له سُلطان على المُؤمِنينَ.

ولنأخُذْ شيخ الإِسْلام ابن تَيمِيَّة مثلًا، فَقَدْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فِي الْأَرْضِ أعظمَ مِن تمكين الوُلاة أنفسهم، فتمكينُ الوُلاة قد انقضى بِمَوْتِهم، أما ابن تَيمِيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ فَقَدْ مَكَّن الله له بأنْ جَعَلَ قولَهُ مُعْتَبَرًا بَيْنَ النَّاس، وما زالت أقوالُه باقيةً حتى الآن.

فقَوْلُ مَن قام بالحقِّ لَهُ سُلْطَانٌ وقُوة، وهذا أيضًا جاء به الحديث، بأن اللهَ تعالى كما أخبـر رسول اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا

فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»(١).

أي: يَكُونُ لَهُ قَبُولٌ فِي الْأَرْضِ، ولقوله نَفاذٌ، وَهَذَا مِنْ تمكين الله تعالى في الْأَرْضِ، لكن قوله: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ هَذَا مِن جُملة الأمثلة على قُدْرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن فِرْعَون وقومَه كانوا يَحْذَرون مِنْ بَنِي إسرائيل، فأراهم اللهُ تعالى ما كانوا يحذرون.

وهنا إشكال، وهو: كيف أراهم اللهُ تعالى مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ مَعَ أَنَّهُمْ هَلَكُوا؟

والجواب: أنهم أدركوا ذلك في آخِر لَحَظَاتِ حياتهم، وقَبْلَ خُروج الروح، وذلك ظاهِرٌ في قولِ فِرْعَونَ عندما أدركه الغَرَقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠].

وبعضهم قال فِي قَوْلِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٦]: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ بما كَانُوا يَحْذَرُونَ مُنازعة آل فِرْعَون؛ فإن بَنِي إِسْرَائِيلَ لما بُعِث موسى اسْتَقْوَوْا، وقصة السَّحَرَةِ واضحةٌ فيها، لما اجتمعوا واجتمع النَّاس في يومِ عيدِهم، وفي الضحى في رَابِعَةِ النهار، وصارت الهزيمة على آلِ فِرْعَوْنَ، هزيمة حِسِّية ومعنوية: هُزِمُوا حِسًّا بأنَّ عَصَا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَتْ تَلْقَفُ ما يأفِكُون، وهُزِموا معنًى بأنَّ السحرةَ أنفُسَهُم آمنوا، وصَرَّحُوا للملأ بأنَّ فِرْعَونَ هو الذي أَكْرَهَهُم على السِّحْر، وبَيَّنوا أن الرب الحقيقيَّ هو رَبُّ موسى وهارون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهذه هزيمةٌ معنوية، بالإضافة إلى الهزيمة الحِسِّيَّة.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل، ونداء الله الملائكة، رقم (٧٠٤٧)، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم (٢٦٣٧).

وهذا ما غاظَ فِرْعَونَ وهامانَ وجُنودَهما، وهذ آيةٌ عظيمة، فظُهور بَنِي إِسْرَائِيلَ على آلِ فِرْعَوْنَ في ذلك المجمع العظيم كان له أكبرُ الأثر، فَقَدْ وعَدَهُم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يَتَحَدَّاهُم يومَ الزِّينة: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه:٥٩]، و﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ هو يوم العيد، يتزين النَّاس فيه، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه:٥٩]، يُجمَعون في رابعة النهار.

نعم، هذا الموعدُ اقترحَهُ موسى؛ لأَنَّهُ واثقٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ اللهَ سينصُره، وحَصَلَ هذا الاجتماعُ فِي هَذَا اليوم، وصار فِي الْحَقِيقَةِ يومَ عيدٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، ويومَ شَرٍّ وسُوءٍ لِفِرْعَون، وهو نظيرُ ما قاله أبو جهلٍ بَعْدَ ذَلِكَ قَبْلَ غزوةِ بَدْرٍ: «وَاللهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَأْتِيَ بَدْرًا -وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْعَرَبِ- فَنُقِيمَ بِهَا ثَلَاثًا، فَنُطْعِمَ بِهَا الطَّعَامَ، وَنَنْحَرَ بِهَا الْجُزُرَ، وَنَسْقِيَ بِهَا الْخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ، وَتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ، وَبِمَسِيرِنَا فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا بَعْدَهَا أَبَدًا»[1].

ولقد تحقق ذلك بالفعل، وسَمِعَت العربُ بما حَدَثَ في غزوة بَدر، ولكن انقلب الأمرُ عليهم، فما غَنَّتِ لهمُ القِيانُ، ولكن غَنَّت عليهم! فقد ظهر عَوَارُهم وجَبَرُوتُهم، حتى أَعَزَّ اللهُ الإِسْلام والمسلمين بعددهم.

نعود لِقِصَّة موسى مع فِرْعَونَ، قَالَ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء:٥٦]، نعم، لقد حصل ما كان يَحْذَرُ فِرْعونُ وآلُه؛ وجعل اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أئمة.

ومِن المُفيد أن نذكُر أنَّ الجَعْل له مَعانٍ متعددةٌ، وكُلُّ معانيه تعود إلى التصيير فِي الْحَقِيقة، لكن التصيير هو تصيير المعدوم موجودًا.

• • ❁ • •

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٣٣).

الآيـة (٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ وَحْيَ إِلْهَامٍ أَوْ مَنَامٍ ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ وَهُوَ المَوْلُودُ المَذْكُورُ، وَلَمْ يَشْعُر بِوِلَادَتِهِ غَيْرُ أُخْتِهِ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرُ أَيِ النِّيلُ ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ غَرَقَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالْقَارِ مِنَ الدَّاخِلِ، مُمَهَّدٍ لَهُ فِيهِ، وَأَغْلَقَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: الوحيُ في اللغة: الإعلامُ بسرعةٍ وخَفَاءٍ، ودليلُه قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، ويُطلَق على مَعانٍ متعددة؛ منها:

الوحيُ الشرعي: وهو وحيُ النُّبوة، أو الرِّسالَة.

ووحيُ الإلهام: وهو ما يُعطيه اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في نفس الموحَى إليه.

ووحيُ النوم، فإن الرؤيةَ الصَّالِحَةَ جُزء مِن سِتة وأربعين جزءًا مِن النُّبوة(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، رقم (٦٥٨٨).

فإذا نظرنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ فهنا وحيٌ، ولكن وحيُ النُّبُوَّةِ، أَوِ الرِّسالَة خيرٌ منه؛ لأن الذي أُوحي إليها ليس بِشَرْعٍ، بل هو أمرٌ بإرضاعِ موسى، إلى آخِره.

ثم إِنَّ الصحيحَ أنه لم تُبعث واحدةٌ مِن النساء لتكون نبيًّا، قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ [يوسف:١٠٩].

إذن: يكون الوحيُ هنا إمَّا إلهامًا، وإما مَنامًا، فالإلهام لَيْسَ بِشَيْءٍ غريب أَنْ تُلهَم امرأةٌ مَا يَكُونُ فِي مصلحتها، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْهَمَ النحلَ كما يُلْهِم بَنِي آدَمَ مَا فِيهِ مصلحتُه ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ [النحل:٦٨].

وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ ﴾ وحيَ إلهام، أو منام. فقولُه: أو هنا للتنويع، يعني لبيان الخِلَافِ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ، فَإِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: إِنَّ الوحيَ وحيُ إلهامٍ. وبعضهم يقول: إِنَّ الوحيَ وحيُ منام.

والمهم: أَنَّهُ لَيْسَ وحيَ رسالةٍ، أو نُبُوَّة.

وكنا قَدْ تَكَلَّمْنَا عَنِ الْوَحْيِ، وَقُلْنَا إِنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أنواع:

الْأَوَّلُ: الوحي بالشرع، ويكون إطلاقًا، مِثْل وحي الأنبياء، قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ [النساء:١٦٣].

الثَّانِي: الوحيُ بالإلهام، مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل:٦٨].

الثالث: الوحي بالمنام، كَمَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**».

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧]، يحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الوحيُ هُنَا مِنَ النوعين الثَّانِي وَالثَّالِثِ، أي الوحي بالإلهام، أو الوحي بالمنام.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٧]، يعني: التي ولَدَتْه، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْأُمِّ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢].

وَأَمَّا الْأُمُّ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فلا تُذْكَرُ مُطلقةً، وإنما تُذْكَرُ مُقَيَّدَةً، وَلِهَذَا قَالَ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، ثُمَّ قَالَ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، فالأُم مِنَ الرَّضَاعَةِ لَا تَدْخُلُ فِي مُطْلَقِ الأُم، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُقَيَّدَةً.

وإنما قررتُ هذا؛ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ [النساء:٢٣]، المُرَادُ بِهَا الْأُمُّ الَّتِي وَلدت، وليس الْأُمَّ الَّتِي تُرْضِع.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، وهو المولود المذكور، ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِهِ].

ونحن هنا نسأل: أين المولودُ المذكور؟ المولودُ المَذْكُورُ هُوَ موسى؛ لِأَنَّهُ مَا مِنْ أُمٍّ إلا ولها ولدٌ، فقوله: [ولم يَشْعُر بولادته غيرُ أُخْتِهِ]. هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، فَنَحْنُ لَا نَملِك دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ إِلَّا أُمُّه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: ﴿أَنْ﴾ هَذِهِ تَفْسِيرِيَّة، وضابِط التَفْسِيرِيَّة: الَّتِي تَقَعُ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفِه، فكل (أَنْ) إِذَا وَقَعَتْ بَعْدَ مَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فهي تَفْسِيرِيَّة. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ هنا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هناك خَوْفًا مِن فِرْعَونَ وآله، الَّذِينَ كَانُوا يبحثون عن الأولاد ليَقْتُلُوهم، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، فَسَّرَهُ بقوله: البَحر. ثُمَّ فَسَّرَ البَحر بقوله: أي النِّيل. فاليمُّ هو البحر، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص:٤٠]، واليمُّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ البَحر، ولكن اليَمُّ المُرَادُ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِينَا هو النِّيل، وسُمِّيَ بَحْرًا -وَإِنْ كَانَ نهرًا- لِكَثْرَتِه واتِّسَاعِه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾، قوله: ﴿فَإِذَا خِفْتِ﴾ هَذَا فِعْلُ الشرط، وجوابُ الشرط: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وَهُوَ مِنَ الغرائب، أَنْ يُلْقَى مَن يُخَافُ عَلَيْهِ فِيمَا فِيهِ هَلَاكُهُ؛ لأن إلقاءه فِي الْبَحْرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له؛ فمِن المعروف أَنَّهُ يَمُوتُ إِذَا أُلْقِيَ فِي الْبَحْرِ، وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ أَنْ يُلْقَى مُوسَى فِي مَكَانِ الخوف، فلا يموت، ثم يعيش بين أحضان فِرْعَون، الَّذِي كَانَ يتتبع أَوْلَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فيُقَتِّل أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، وَهَذَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّ اللهَ إِذَا حَمَى أحدًا، فإن الأَسْباب المُؤَدِّيَةَ إِلَى الْهَلَاكِ لَا تُؤَثِّرُ، وَلَا يَكُونُ لَهَا تَأْثِيرٌ، وأَمَّا قُدْرَةُ اللهِ فَهِيَ فوق الأَسْباب، فالنار مُحْرِقة بلا شكٍّ، ولكن صَارَتْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بَرْدًا وَسَلَامًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَخَافِي﴾ غرقَهُ. وَهُوَ مَفْعُولٌ محذوفٌ مُقَدَّر للفعل ﴿تَخَافِي﴾.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ قال: [لِفِرَاقِه]؛ لأن الحزن يَكُونُ فِي المَاضِي، وَالْخَوْفَ فِي الْمُسْتَقْبِلِ، فمـا أَهَمَّ الإِنْسَانَ إِذَا كَانَ مستقبلًا، فهو خوفٌ، وَإِنْ كَانَ ماضيًا فهو حُزن، فهنا قَالَ اللهُ لَهَا: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ سيكون عَلَى خِلَافِ مَا

تتوقعين، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قَوْله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ﴾ هنا جاءت الجُملة اسميَّةً، وليس فِعلِيَّة، كَأَنْ يَقُول مثلًا: نردُّه. والجملة الاسمية تَدُلُّ عَلَى الثُّبوت والاستقرار.

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بضميرِ الجَمع للتعظيم، فاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهِ بصيغة التعظيم.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ أي: مُرْجِعُوه، ولا يُبيِّنُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ المُدَّةَ الَّتِي ستفقدُه أُمُّه فيها، ولكن الظَّاهر أنَّها لَيْسَتْ بِبَعِيدَة، كَما سَيأْتِي فِي آخِرِ الْقِصَّةِ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هَذِهِ بِشارةٌ فوقَ البِشَارَة الأُولى، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ هَذَا المولود ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: ممن أرسلهم اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأفضلهم بالرِّسالَة.

وهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا أَمْرَانِ، ونَهْيَان، وبِشَارَتَان.

أمَّا الأمران: فقولُه تعالى: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ وقوله: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾.

وَأَمَّا النَّهْيَانِ: فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾.

وأما البِشَارَتَان: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثُمَّ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَأَرْضَعتْهُ ثَلاثَةَ أَشْهرٍ لا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ، فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلِيٍّ بِالقَارِ مِنْ دَاخِلٍ مُمَهَّدٍ، وَأَغْلَقَتْهُ، وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا].

قوله: [أَرْضَعتْهُ ثَلاثَةَ أَشْهُرٍ]. لَا نَجِدُ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكنها -لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ- امتثلت لِأَمْرِ اللهِ بإرضاعه، ولما خَافَتْ عَلَيْهِ ألقته.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ]، أَخَذَهُ مِنْ آيَةٍ أخرى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [طه:٣٩]، وَهَذَا مِنْ إرشاد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى له؛ لِأَنَّهُ مَا أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه وتُسَلِّم فِي الْبَحْرِ، وإنما أَمَرَهَا أَنْ تُلْقِيَه في تابوت؛ ليكون حفظًا له.

والتابوت يَكُونُ مِنَ الْخَشَبِ، والخشبُ عادةً يَطْفُو عَلَى المَاءِ، وَلَا يَغْرَق، فإذا جُعِل فيه القارُ، فإنه أيضًا يَمْنَعُ مِنْ دُخُولِ الماء إليه؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا إِذَا دَخَلَ الماء إليه، وتسلل فِي الْخَشَبَ، يَثْقُلُ ثم يغُوص.

وَأَمَّا قَوْلُه: [وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النِّيلِ لَيْلًا] ربما يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص:١٠]، أنها ألقته فِي اللَّيْلِ، ثم جعلت توسوس فيه، وتَهْتَمُّ له، حَتَّى كَانَت لا تُفكِّر فِي غَيْرِهِ، كَمَا سَيَأْتِي.

ثُمَّ إِنَّهُ مِمَّا يؤيد ذَلِكَ أَنَّ المَرْأَةَ قد خَافَتْ عَلَيْهِ، وإذا خَافَتْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مِنَ المستبعد عَادَةً أَنْ تَخْرُجَ به نهارًا، وتُلقيه أمامَ النَّاس، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَيْلًا، فَيَكُونُ هَذَا الحُكْمُ بِأَنَّهُ (ليلًا) مَأْخُوذًا مِنَ الْآيَةِ، وَمِنَ العادة، بِأَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي اللَّيْلِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إكرام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأُم موسى، وهذا الإكرامُ يُفْهَمُ مِن عِدَّة أوجُه حقيقةً، يُفْهَمُ مِنَ الْوَحْيِ والإلهام، ومِن تَطْمِينِها فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾، ومِن بِشارتها بأنه سيُردُّ إليها، ويجعله اللهُ مِنَ المُرْسَلِينَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا بَيَانُ عناية الله تعالى بموسى.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأنبياءَ كغيرهم مِنَ الْبَشَرِ، يَحْتَاجُونَ إِلَى الغِذاء؛ لقوله ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وجوب الإِرضَاع، إذا جعلنا الْأَمْرَ لِلْوُجُوبِ، لا للإرشاد، ولكن القَواعِد الشرعية تَقْتَضِي وُجُوبَ الإرضاعِ، وإنقاذَ المعصوم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيانُ قُوَّةِ إيمان أُمِّ مُوسَى، وَهَذَا مِنْ مَناقبها؛ لأنَّها ألقت بِهِ فِي الْيَمِ، وهو ابنها، وهذا شَيْءٌ لَا يَقَعُ إِلَّا للمؤمن حقًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذَا الْوَلَدِ الصغير، الذي أُلْقِيَ فِي الْيَمِّ الْمُهْلِك، ولا حَافِظَ لَهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كيف صار في آخِرِ أَمْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي طَمْأَنة المحزونِ ببشارَته بمستقبله؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات الرِّسالَة لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

الآيــة (٨)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القَصَص:٨].

• ● ∽ ● •

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ﴾ بِالتَّابُـوتِ صَبِيحَةَ اللَّيْلِ ﴿ءَالُ﴾ أَعْـوَانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَفُتِحَ، وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿عَدُوًّا﴾ يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الْحَاءِ، وَسُكُونِ الزَّايِ لُغَتَانِ فِي الْمَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَنَهُ كَأَحْزَنَهُ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ وَزِيرَهُ ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ مِنَ الْخَطِيئَةِ، أَيْ عَاصِينَ، فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

قوله: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ﴾، أي: أخـذَ آلُ فِرْعَونَ التابـوتَ صبيحة الليل، وَلَمْ يَقُلْ (أخذه)؛ لأَنَّهُ أَصْبَحَ فِي حُكْمِ اللَّقِيط المنبوذِ، وَأَهْلُ العِلْمِ يقُـولُونَ: إِنَّ اللَّقِيطَ هُوَ الطِّفل المنبوذ الذي طُرِح، فهو يُسمى لقيطًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [آلُهُ أَيْ: أَعْوانُهُ]، فَيَحْتَمِلُ أَنَّ آلَه أي: قَرابته.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: المهم أَنَّهُ أَخَذَهُ مَن يَنْتَسِبُ إِلَى فِرْعَوْنَ، وَهُوَ المَلِكُ.

والالتقاط يَكُونُ بِقَصْـدٍ؛ لأن المُلتقِـط الذي يَلْتَقِـطُ اللَّقِيط المنبـوذ مَثَلًا فِي

الشارع، أَوِ المَسْجِدِ، يريد أَخْذَه، لكن هناك قد يشعر بأنه شيء ظَفَرَ بِهِ، لكن العلماء يقولون: الالتقاط يَكُونُ فِي الطفل المنبوذ. فوَضَعَهُ آلُ فِرْعَوْنَ بَيْنَ يَدَي فِرْعَون، وَكَانُوا لَا يَشْعُرُونَ بالذي فيه، وربما يظنون أَنَّ الَّذِي فِيهِ مَالٌ مِنَ الأموال.

وفُتِح التابوتُ، [وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمُصُّ مِنْ إِبْهَامِهِ لَبَنًا] معناه: يُرضِع نَفْسَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَهَذَا مِمَّا لَا نَعْلَمُهُ، لكن مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ التابوتَ فُتِح كالعادة؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ المُغْلَقَ لَا بُدَّ أَنْ يفتحه الْإِنْسَانُ، وَيَنْظُرَ مَا فِيهِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ يَمُصُّ مِن إبهامه لَبنًا، فَهَذَا مِنَ الْأُمُورِ الإسرائيلية الَّتِي لَا تُصَدَّقُ، ولا تُكَذَّب، إِنْ لَمْ نَقُلْ: إنها كاذبة؛ لِأَنَّ هَذَا بَعِيدٌ مِنَ الْعَادَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الأمر، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ ﴿لِيَكُونَ﴾ يَعُودُ عَلَى مُوسَى، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَيَدْخُلُ فِي آلِ فِرْعَوْنَ نَفْسِه.

وقولُه ﴿لِيَكُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي عَاقِبَةِ الأَمْرِ] إِشَارَةً إِلَى أَنَّ اللامَ هنا للعَاقِبَةِ، وليست للتَّعليل؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شَعَرُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لَقَتَلُوه، ولكن العاقبة أَنَّهُ كَانَ كَذَلِكَ.

وما ذَهَبَ إِلَيْهِ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ أَنَّ اللامَ هنا للتَّعليل، باعتبار عِلْمِ اللهِ، لَهُ وَجْهٌ، يعني: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فِي عِلْمِ اللهِ، وليست تعليلًا للالتقاط، هَذَا لَهُ وَجْهٌ، لكن الأقربُ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر وَغَيْرُهُ مِنْ أن اللام هنا للعاقِبة، وليست للتَّعليل.

واللام الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ المضارع تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: زائدة، وغير زائدة.

اللَّام الزَّائِدة تكون للتَّعليل، وتكون للعاقبة، وتكون لتأكيد النفي، وَهَذَا لَيْسَ

لغير الزَّائِدة، والزَّائِدة هِيَ الَّتِي تَقَعُ فِي الْغَالِبِ بَعْدَ فِعْلِ الإرادة، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ [الأحزاب:٣٣]، فَإِنَّ اللَّامَ هنا زائدة؛ لِأَنَّك لَوْ حذفتَها وقَدَّرْتَ (أَنْ) ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُذهب، تَمَّ الكلام.

واللام غير الزَّائِدة تكون للتَّعليل، مِثل قولك: حَضَرْتُ لأَتعَلَّم، أي: مِنْ أَجْلِ أَنْ أتعلَّم، وتكون لتأكيد النفي، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء:١٣٧]، ولهذا يُسَمِّيها النحويون لامَ الجُحُود، يعني: النفي، فهي لتأكيد النفي.

والثالثة تكون للعاقبة، مِثْل هَذِهِ الْآيَةِ ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، وَهِيَ الَّتِي تَكُونُ بَعْدَ (كان) مضارعًا كانت، أَوْ فِعْلًا ماضيًا.

وَقَوْلُهُ: [﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ يقتُل رِجالَهُمْ، ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِساءَهُمْ]، هَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بل الظَّاهِرُ أَنَّهُ ﴿عَدُوًّا﴾؛ لِمَا يَحْصُلُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الأضرار البالغة لآل فِرْعون، ﴿وَحَزَنًا﴾ لأَنَّهُ سوف يُحزنهم حين يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الانتصار العظيم، وأَبْلَغُها حين انتصر يومَ الزينة؛ فإنه انتصر عليهم انتصارًا بالغًا باهرًا، وحصل لهم بِهَذَا مِنَ الحُزن مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَتَل رجال آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَا أَنَّهُ استعبد نساءهم، وإنما المَعْرُوفُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أغرقهم بفعله، [وَفِي قِرَاءَةٍ بِضَمِّ الحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ لُغَتَانِ فِي المَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ حَزَنَهُ كَأَحْزَنَهُ]، إِذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه قراءة. فهو يعني: سَبْعِيَّة، وَإِذَا قَالَ قُرِئَ، فهو يعني قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ.

قال: [بِضَمِّ الحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ] «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وحُزْنًا»، حُزْنًا وحَزنًا

معناهما واحِدٌ، وهما لُغتان في المصدر، يقول: حَزَنَه كأحْزَنَهُ. يعني: أن الحَزن الَّذِي لَيْسَ مزيدًا بالهمزة مِثل: أَحْزَنَه المزيد بالهمزة مِنْ حِيْثُ التَّعَدُّد.

وقوله: [بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ هُنَا] أي: حازِن، أي: مُحزِن، وقد أوَّله المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن الحُزن شُعور بالنَّقْصِ، وموسى ﷺ مُدْخِل لهذا الشعور -وهو الحُزْنُ- فِي أَنْفُسِهِمْ، وَعَلَى هَذَا فيكون ﴿وَحَزَنًا﴾ بمعنى: حازنًا.

والمصدر أحيانًا يَأْتِي بِمَعْنَى اسم الفاعل، وأحيانًا بمعنى اسم المفعول، فيقال: فلانٌ عَدْلٌ رِضًى، ويقال أيضًا: فلانٌ ثِقَةٌ. وعَدْلٌ، ورِضًى، وثِقَةٌ مصادرُ بمعنى اسم الفاعل: عادل، وهو اسم فاعل، ومَرْضِيٌّ، وموثوق، وكلاهما اسم مفعول.

وقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]، هذا مصدر بمعنى اسم مَفْعُول.

﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾، الْعَدُوُّ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ حَدُّوه بتعريف، هُوَ الْحُكْمُ في الواقع، فقالوا: إِنَّ الْعَدُوَّ مَنْ سَرَّهُ مَساءة شخصٍ، أو غَمَّه فَرَحُه، فهو عَدُوُّه.

كُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَاءَ، ويَحْزُنه أَنْ تُسَرَّ؛ فهو عَدُوٌّ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسُرُّه أَنْ تُسَرَّ، ويُحزنه أن تَحْزَن؛ فَهُوَ وَلِيٌّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذِهِ الجملة تعليلٌ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: لماذا يكون ﴿لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾؟ فتبَيَّنَ أَنَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ هُوَ خطأُ هؤلاءِ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

﴿فِرْعَوْنَ﴾: المَلِك، ﴿وَهَامَانَ﴾: وَزِيرُه، ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾: أتباعهما الَّذِينَ يَمْتَثِلُونَ بأَمْرِهما، وكلمة جنود: جمع جُند، والجُند هم أنصار الإِنْسَان.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ مِن الخطيئة، أي: عاصين، فعُوقبوا عَلَى يَدَيْهِ.

وهناك فرقٌ بين الخاطئ والمخطئ؛ فالخاطئ -مثلًا- مَنْ قَتَلَ مُتعَمِّدًا، أَمَّا مَنْ قَتَلَ غَيْرَ مُتَعَمِّد فَهُوَ مُخْطِئٌ، ولذلك فإن الخاطئ مُعذَّب، والمخطئ غير مُعذَّب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق:١٦].

والمخطئ لَيسَ عَلَيْهِ إِثْمٌ، قَالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، والفعل مِن خاطئ: خَطِئَ، والفعل مِن مُخطئ: أخطأ. هَذَا هُوَ الْفَرْقُ.

إذن: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَاطِئِينَ﴾ أي: وَاقِعَيْنِ فِي الْخَطَأ عَن عَمْدٍ وقَصْد، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: عَاصِينَ فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَتْبَاعَ الرَّجُلِ وحاشيته مِن آلِه؛ لقوله: ﴿ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ وقد علمنا أن المفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: [أعوانُ فِرْعون].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الإِنْسَانَ مَهْمَا بَلَغَ فِي العُتُوّ والاستِكْبار، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ المستقبَل، وهذا مَأْخُوذٌ مِنْ أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ مَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا الطفل سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أعداءٌ للكُفَّار؛ لقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾، وأنهم أيضًا حَزَنٌ لهم، وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ.

وَلَا شَكَّ أنهم يُساءون بما يَسُرُّهم، والعكس صحيح.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يسعى لِمَا فِيهِ حَتْفُه؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ سَعَوْا فِيمَا فِيهِ حَتْفُهم؛ فَقَدِ التقطُوا هذا الطِّفْلَ الَّذِي سيكون عَدُوًّا لهم وحَزَنًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بيان قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي هَذَا الطفل الصَّغِيرِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، الَّذِينَ كَانُوا يُقَتَّلُ أبناؤهم، أَرَادَ اللهُ بِقُدْرَتِه أَنَّ الذي يُؤْوِيه ويُرَبِّيه فِي بَيْتِهِ هو فِرْعَونُ نَفْسُه، الَّذِي أَمَرَ بِالْبَحْثِ عَنِ الأولاد مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ليقتُلهم.

فكأن اللهَ تعالى يَقُولُ لَهُ: أنت تقتُل الأولادَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وقد أرسلتُ لك وَاحِدًا مِنْهُمْ، فعاشَ في حِجْرِك.

وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الأدلة على قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى الْأَسْبَابِ المادِّيَّة، فإن اللهَ تعالى يُغَيِّرُ الأحوال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَانُ أَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا عَلَى باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾، وَفَرْقٌ بَيْنَ الخاطئ والمخطئ، فالخاطئ: الذي يرتكب المعصية عَنْ عَمْدٍ، والمخطئ: الذي يرتكبها عَنْ غَيْرِ عَمْد، أَوْ عَنْ جهْلٍ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِهَامَانَ -وَهُوَ وزير فِرْعَون- سُلطة كبيرة فِي مَمْلَكَةِ فِرْعَونَ؛ لقوله: ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ ففي عدة آياتٍ يُضيف اللهُ عَزَّوَجَلَّ الجنودَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَحْدَه، باعتبار أن فِرْعَون هُوَ المَلِكُ، ولكنه هنا أضاف الجنودَ لِفِرْعَونَ وهامانَ، وذلك لِيُبَيِّن قوة تَأْثِيرِه فِي الحُكْمِ.

الآيــة (٩)

• • ഗ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

• • ഗ • •

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ هُوَ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ فَأَطَاعُوهَا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَهُ].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ]، أي: بقتل موسى، [هو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾]، كلمة ﴿قُرَّتُ﴾ مكتوبة بالتاء المفتوحة، والقاعدة أَنْ تَكُونَ بالتاء المربوطة، وَهِيَ كَذَلِكَ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْآيَاتِ بالمربوطة ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان:٧٤]، بالتاء المربوطة، ولم تأتِ مفتوحةً إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ القُرْآن، وذُكرت فِي الْقُرْآنِ فِي مَوْضِعَيْنِ سِوى هذا بالتاء المربوطة.

وَإِذَا قِيلَ: مَا الْفَرْقُ؟

نقول: إِنَّ هَذَا يُتبع فيه الرسمُ العثماني، هكذا رسمه الصَّحَابَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وقوله ﴿وَقَالَتِ﴾ تَوَجَّهَ الْخِطَابُ فِيهِ إِلَى فِرْعَوْنَ، وقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ قَدَّر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [هو]؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ خبرُ مبتدأ محذوف، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَرِّ، أَوْ مِنَ الْقَرَار،

ويَصِحُّ مِنْهُمَا جَمِيعًا، مِن القَرِّ، وهو البَـرد؛ لِأَنَّ الْعَيْنَ إذا بَرَدَت، فَإِنَّهَا تَكُونُ عَلامَةً عَلَى السُّرور، ولهذا يقال: دَمُ السُّرور بارد، ودَمُ الحُزن حارٌّ.

ويقال: يبكي عليه بدمعٍ حَارٍّ، يعني: مِنَ الحُزْنِ.

إذن نقول: قُرةُ العَين كِنَايَةٌ عَنِ بُرودتها، وبُرودة العين دَلِيلٌ عَلَى السرور.

وقيل: إنَّهَا مِن قَرَّ بالمكان، وهو القَرار وعدمُ الاضطراب؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ خَائِفًا بدأت عينُه تَجُول مِن هنا، ومِن هنا، تَشْخَصُ وتَجُولُ وتلتفت، لَكِنْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا قارَّة، ولكن قرارها دَلِيلٌ عَلَى أَنهَا لَمْ تَخَفْ.

قَوْله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. قولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هَمُّوا بقتله، وإِلَّا لَمَا كَانَ لقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فائدة.

وقوله تعالى: ﴿لِّي وَلَكَ﴾ لَا شَكَّ أنه وَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا توقَّعَتْ، وصار هَذَا الْوَلَدُ قُرَّةَ عَيْنٍ لها، ورِفعة لَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وأما لِفرعونَ فلا، فما صَارَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُرَّةَ عَيْنٍ، بَلْ كَانَ لَهُ عَدُوًّا وَحَزَنًا.

ومِن غرائب التَّفْسِيرِ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يَقْرَأُ هَكَذَا: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي﴾ ويَقِفُ، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿وَلَكَ لَا﴾، ثم يَقِف، ثُمَّ يَقْرَأُ: ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ جملة مُستأنفة، وَهَذَا فِي الحَقِيقَةِ مِن التلاعُب بالقُرْآن؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَـا يَقُولُونَ لَقَالَ اللهُ تعالى (تقتلونه)؛ إِذْ إِنَّ حذفَ النُّون هُنَا لا نَعْلَمُ لَهُ سَبَبًا سِوى النهي، فكيف يُفسَّـر كَلَامُ اللهِ بِمِثْلِ هَذِهِ التفاسيـر الواردة، ولكن ذكـرناه؛ لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1] وَلَكِنْ هَذَا مِنْ أَبْعَدِ مَا يَكُونُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تفكيك الكلام وتَنَاثُره،

---

(١) معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٠٢).

وعدم التئام بعضه مَعَ بَعْضٍ، ولأن النون فِي الْفِعْلِ ﴿تَقْتُلُوهُ﴾ محذوفة، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ﴿لَا﴾ مُسلَّطة عليه.

ولكن امرأة فِرْعَون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ إما أَنَّهَا قَالَتْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ التهدئة له، ولتُفرحه، وإما أنها قَالَتْ ذَلِكَ معتقدةً له، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنِ اعتقدَ شيئًا يَكُونُ الْأَمْرُ عَلَى وِفَاقِ مَا اعْتَقَدَ، بَلْ قَدْ يُخْلِفُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعتقادَ الإِنْسَان؛ لِحكمة يُريدها، وَهَذَا لَا مَانِعَ مِنْ أَنْ تَقُولَه معتقدةً أَنَّهُ سَيَكُونُ قُرَّةَ عَيْنٍ له ولها أيضًا، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قولها: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ﴾ للترجِّي، وقوله: ﴿يَنفَعَنَآ﴾ للخدمة، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نتبنَّاه.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ لَيْسَ لِفِرْعَونَ مِنِ امْرَأَتِهِ ولدٌ، فقالت: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وَمَعْلُومٌ أَنَّ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فرقًا، فإن انتفاعَهم بِهِ لَا يجعلهم يَحْنُون عَلَيْهِ كَمَا يَحْنُون عَلَى الْوَلَدِ، فالخادم عِنْدَ الْإِنْسَانِ يأمرُه وينهاه، وَلَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ لَهُ مِنَ الرَّحْمة والرأفة والعطف مَا يَكُونُ للولد، وَلِهَذَا قَالَت: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وهذا انْتِقَالٌ مِنَ الْأَدْنَى إِلَى الْأَعْلَى.

إذن: هي تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: نحن لسنا محرومين مِنْ هَذَا الْوَلَدِ؛ فَإِمَّا أَنْ نتخذه خادمًا ننتفع به، وإما نَتَّخِذَهُ وَلَدًا نفخر به، ويكون لَنَا فِي مَنْزِلَةِ الولد.

وهناك احتمال ثالث لَمَا سَبَقَ، فلا ينفعهم، ولا يتخذونه ولدًا، وَلَكِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِي مِثْلِ هَذَا السياق؛ لأَنَّهَا تريد ترغيبهم في إبقائه، والترغيب في الإبقاء لَا تَذْكُرُ فِيهِ إِلَّا الصفات المرغوبة، وَهِيَ أَنْ ينفع، أو يُتخَذ ولدًا.

وقد يـدلُّ تبَنِّيهَا لموسى عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ عاقرًا لا تلد، وَقَدْ لَا يَـدُلُّ عَلَى ذَلِكَ؛ فالمرأةُ قد تتخذ الولد زِيَادَةً عَلَى مَا عندها، ولكننا عندما لَا نَجِدَ دَلِيلًا بَيِّنًا لما نقول: وربما يَكُونُ كَذَا.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، هَـذِهِ جُمْلَةٌ الظَّاهر أَنَّهَا مِن كَـلَامِ اللهِ، يعني ﴿وَهُمْ﴾ أي: آلُ فِرْعَوْنَ ومنهم المرأة، ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعاقبة أَمْرِ هَذَا الْوَلَدِ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ شعروا بعاقبة أَمْرِه لَمَا قَبِلُوا منها مَشُورَتها، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعمى ذَلِكَ عَنْهُمْ.

بعضهم يقول ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ آلُ فِرْعَـوْنَ لَا يَشْعُرُونَ بمـا تريده المرأة، وكأنَّ المرأة ألهمها اللهُ عَزَّوَجَلَّ مآلَ هَذَا الرَّجُلِ، وأمَّا هُم فلا يشعرون، لكن الأقرب أَنَّهُ مِنْ كلام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ومِن الظَّاهِرِ أَنَّ امْرَأَةَ فِرْعَونَ لَمْ تَكُنْ قَدْ أسلمت حينئذ، فَقَدْ كَانَتْ زوجتَه، وَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُطيعة له، وأَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِهِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ فَضِيلَة امرأةِ فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وَفِيهَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى فِرَاسَتِها؛ لأنَّها توقَّعَـت أن ينفعهم، ولكن حدث بَعْضُ مَا توقَّعَتْه، فقد نَفَعَها هي فقط، وضَرَّ فِرْعَونَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى مَا قِيلَ: (إنَّ البـلاء مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِـقِ)، والتفاؤل كلام؛ فامرأةُ فِرْعَونَ قالـت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾، فتفاءلت بِهِ خَيْـرًا، فحصل لَهَا ذَلِكَ، وصار قُرَّةَ عَيْنٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تُستعمل الأساليب الَّتِي تُحَقِّقُ المقصود؛ لقوله: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ منها، سَوَاءٌ كَانَت تتوقع ذَلِكَ، أَوْ لَا تتوقعه، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي مُوَافَقَةِ فِرْعَونَ لِمَا بَلَغَهُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ فِرْعَونَ هَمَّ بقتل موسى، وذلك يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ امرأة فِرْعَون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ هَمَّ بِهِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: قُصور عِلم الْإِنْسَانِ مَهْمَا بَلَغَ فِي عُلُوِّهِ واستِكْباره؛ لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هَذَا الْآيَةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فقوله تعالى: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: نُكرمه ونجعله في بيتنا مِثْلَ الْوَلَدِ، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ أي: مِثل الخادم، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ معناه: نتبنَّاه.

وَعَلَى هَذَا المَعْنَى، فَلَا دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي، فالتَّبَنِّي كان مَشْرُوعًا حَتَّى فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، في بداية الدعوة، ثُمَّ نُسِخَ وحُرِّم.

الآيــة (١٠)

• ● ◦ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القَصص:١٠].

• ● ◦ ● •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ لَمَّا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ ﴿فَٰرِغًا﴾ مِمَّا سِوَاهُ ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: إِنَّهَا ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أَيْ بِأَنَّهُ ابْنُهَا ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ، أَيْ: سُكْنَاهُ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْمُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ اللهِ، وَجَوَابُ (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَصْبَحَ﴾ هَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّهَا أَلقته ليلًا، وتأتي كلمة (أصبح) بمعنى: (صار)، بِغَضِّ النظر عَنِ الزَّمَنِ، وتأتي (أصبح) بمعنى (صَارَ) فِي الإصباح، يقال مثلًا: أصبح الماء ثلجًا، أي: صار الماء ثلجًا.

وفِي اللُّغَةِ العامِّية الآن دائمًا يُعَبِّر النَّاسُ بِقَوْلِهِم: أصبح كذا، وأصبح كذا، يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنَّهُ انْتَقَلَ إِلَى هَذَا، كما أَنَّ الإصباح انْتِقَالٌ مِنَ اللَّيْلِ إِلَى النهار، لكن هنا ليس ببعيد أَنَّهُ فِي صباحِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ استولت عليها الوساوس والهواجس، حَتَّى صَارَ قَلْبُهَا فارِغًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لا تُفكِّر في أَيِّ شَيْءٍ إِلَّا بِهَذَا الولد، وَهَذَا يَعْنِي: أَنَّ الْمُرَادَ بالإصباح هنا الدُّخُولُ فِي الصباح، وَهُوَ أَوْلَى مِنْ أَنْ نَجْعَلَهُ بمعنى: صار؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يُحْزَن عَلَيْهِ عِنْدَ فَقْدِهِ، لَكِنْ إِذَا طَالَ الزَّمَن، فَإِنَّهُ قَدْ يُنْسَى، لأن الحوادث

تُنسيه، فَالظَّاهِرُ أَنَّ (أصبح) أي: فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ﴾ الفؤاد: القلب، قوله: ﴿فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ يقول: مِمَّا سِوَاهُ، أَمَّا قَوْلُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَمَا عَلِمَتْ بِالْتِقَاطِهِ] فَهَذَا لَا يَتَعَيَّنُ أنها علمت؛ لأنَّها بمجرد أن أَلْقَتْه سوف تُوَسْوِسُ به.

﴿إِن﴾ مُخَفَّفة مِن الثقيلة، واسمُها محذوف، أي: إنها ﴿كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أي: بأنه ابنُها، ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ.

الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَعْرَب قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن﴾ مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، وابنُ مَالِكٍ يَقُولُ[1]:

وَخُفِّفَتْ إِنَّ فَقَلَّ الْعَمَلُ ... وَتَلْزَمُ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ

وَرُبَّمَا اسْتُغْنِيَ عَنْهَا إِنْ بَدَا ... مَا نَاطِقٌ أَرَادَهُ مُعْتَمِدَا

وَالْفِعْلُ إِنْ لَمْ يَكُ نَاسِخًا فَلَا ... تُلْفِيهِ غَالِبًا بِإِنْ ذِي مُوصَلَا

فالآية إذن جَارِيَةٌ عَلَى اللُّغَةِ الفصحى؛ لأن (كاد) ناسخة، وَاللَّامَ فِي ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ جائزةٌ غير لازمة، ولو حذفناها وقلنا: إِنْ كَادَتْ تبدي به. فتكون بمعنى (ما)، يعني: ما كادت تبدي به، جاز ذلك.

ولذلك فَإِنَّ اللَّامَ يجب ذِكرهُا إِذَا كَانَ حذفُها يُوقِع فِي الْإِشْكَالِ؛ لِأَنَّك إِذَا حذفتَها التبسَت بـ(إِنْ) النافية، وإذا أوجدتَها، فَلَن يَكُونُ هناك اشتباهٌ؛ لأن لام التوكيد لَا تَأْتِي مَعَ النَّفْيِ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٢).

وقيل: تخفف المعنى؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ معناه: أنه قَرُبَ إبداؤها لذلك، لَكِنْ مَا كَانَـت لِتُبْدِيَ بِهِ معناها مستحيل؛ لأن السياق يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا جَائِزَةٌ، ولأن السياق يَدُلُّ عَلَى المَعْنَى، وَهُوَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ لَا تُناسب أَنْ تَكُونَ (إِنْ) نافيةً، يعني: ما كادت تُبدي به ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

والرَّبط عَلَى الْقَلْبِ يقتضي الكتمان، وَلَا يَصْلُحُ أَنْ نَقُولَ: ما كادت تُظهره لَوْلَا أَنْ رَبطْنَا؛ لأن ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ يستلزم أَلَّا تُظْهِرَه، فَعَلَى هَذَا تَكُونُ اللَّامُ هنا جائزة، وَهَـذَا جَائِـزٌ مِنْ حِيـثُ الصناعةُ النحويةُ، أَمَّا مِنْ حَيـثُ التِّلاوةُ القُرْآنيةُ، فَلا يجوز حذفُها، والسبب أن كَلَامَ اللهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُبدَّل؛ لا بالنَّقص، ولا بالزيادة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾، تُبدي أي: تُظهِر به، وَأَمَّا قَوْلُ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بِأَنَّهُ ابْنُهَا]، فَهُوَ بِنَاءٌ مِنْهُ عَلَى أَنَّهَا وَصَلْت إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وَلَوْلَا أَنْ رُبِطَ عَلَى قَلْبِهَا لَقَالَت: هذا ابني.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا بَعِيـدٌ مِنَ الْقِصَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ المَعْنَى، وَلَكِنْ مَعْنَى قَوْله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾ أي: لَتُظْهِر بما فَعَلَتْهُ به، وهي تُحدِّث النَّاس، وتقول: والله أنا فعلتُ كذا، وفعلتُ كذا، وألقيتُ ابني فِي الْيَمِّ، إِلَى آخِرِهِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ﴾؛ لِأَنَّ المَعْرُوفَ أَنَّ الإِنْسَانَ إذا حَزِن بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ يُخَفِّفُ مِنْ آلامِ الحُزْنِ عَلَى نَفْسِهِ، أو يتحدثُ بِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ لمن يَتَّصِلَ بِهِ.

ولذلك تجـد الإِنْسَانَ يَضِيق صدرُه بالشَّيْء حَتَّى يُحَـدِّثَ به، وهذا الشَّيْء معلوم، فَلَوْلَا أَنَّ اللهَ رَبَـطَ عَلَى قَلْبِهَا لَأَبْدَتْ ذَلِكَ الْأَمْرَ، لا أنها تُبدي وتقول: هذا ابني، بل أَبْدَت الْأَمْـرَ الَّذِي وَقَعَ منها، وهي أنها أَلْقَتْـه في تابـوتٍ، وأَلْقَتْه فِي الْيَمِّ،

لَوْ فَعَلْت هَذَا لَطَارَ الخبرُ، كَمَا يَقُولُ النَّاسُ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ مكتومٌ مَا لَمْ يَظْهَرْ، فَإِذَا ظَهَر لِوَاحِدٍ، فَثِقْ أنه سيتشعَّب، فلو أَبْدَتْهُ -ولو لأقرب النَّاسِ إِلَيْهَا- لَظَهَر أمرُ الطفل، وعُلِم به، وَلَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصَّبْر، أي: سَكَّنَّاه، والربطُ عَلَى الشَّيْءِ معناه: شَدُّ الرِّباط عليها.

وانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فهو أَبْلَغُ مِن: أَسْكَنَّا قَلْبَها، والربطُ عليه معناه: أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يتحرك، فهذا أبلغُ، وَاللهُ تعالى رَبَطَ عَلَى قَلْبِهَا، بحيثُ إنها صَبَرت، ولم تُحَدِّث أحدًا بِمَا جَرَى.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الْمُصَدِّقين بِوَعْدِ اللهِ، وجواب (لَوْلَا) دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، وتقديره: لَأَبْدَتْ به.

وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّهُ مَا قَبْلَهَا، ولكن دَلَّ عَلَيْهِ. وَقَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّعْبِيرِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، وَذَكَرْنَا أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ قَالَ: يَحْتَاجَ إِلَى جَوَابٍ. ولكنك لَوْ أَتَيْت بالجواب لكان الكلامُ رَكِيكًا، فنقول مثلًا: أَكْرِم الطالبَ إِنْ كَانَ مجتهدًا. وَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ؛ لِأَنَّك لَوْ أجبت: أَكْرِم الطالب إِنْ كَانَ مجتهدًا فأَكْرِمْه. يَكُونُ الْكَلَامِ ركيكًا، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ القيم فِي كِتَابِهِ (التبيان فِي أَقْسَامِ الْقُرْآن)[1].

وهو قوله: ﴿أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: شَدَدْنَاه بالربط، وَالْمُرَادُ بِهِ التسكين، وقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾ اللامُ للتَّعليل، والمعلَّل ربطُ القلب، يعني: رَبَطَ اللهُ عَلَى قَلْبِهَا لهذه الغاية، ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَيْسَ الْمُرَادُ الإيمان الجديد؛ لأنَّها مؤمنة بلا شك، وأدلُّ دَلِيلٍ عَلَى أَنَّهَا مُؤْمِنَةٌ أَنَّهَا امْرَأَةٌ أَلْقَتِ ابنها فِي الْيَمِّ ثِقةً بوعد اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنَّ

(١) انظر على سبيل المثال التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم (ص٢).

المُرَادَ هُنَا بالإِيمَانِ الإِيمَانُ الزَّائِدُ عَلَى أَصْلِهِ، يعني: التثبيت واليَقِين، وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَقَعَ.

وفي القصة -إِنْ شَاءَ اللهُ- فوائدُ عظيمةٌ، ومناقبُ لأُم موسى.

قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ الالتقاط غير الأخذ، فالالتقاط يَكُونُ عَنْ طَلَبٍ، وَهُوَ يَخْتَصُّ بالآدميِّين، فالإِنْسَانُ فقط هُوَ مِنْ يُطْلَقُ عَلَيْهِ اسْمُ (اللقيط)، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الطفل المنبوذ، أَوِ الطِّفْلِ الضائع، هَذَا هُوَ التعبير.

وَقَدْ يُقَالُ إنهم التقطوه، بمعنى: أخذوه، أي: بِدُونِ أي عِوَضٍ، وعلى سبيل الامتهان، كغَنيمة أخذوها.

وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ للعاقبة، وَلَا تَكُونُ للتَّعلِيل؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يلتقطوه لكي يكون عدوًا لهم، ولكن العاقبة كَانَتْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ عَلِمُوا بأنه يَكُونُ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا لقتلوه. وهناك من أَهْلَ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ بِأَنَّ اللام للتَّعلِيل تَكُونُ فِي عِلْمِ اللهِ، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّهَا للعاقبة؛ لأنَّها تعليل للفعل منهما ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ تعليليَّة، ومُعَلِّلُها قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ هَذَا التَّعْلِيلُ تعليلٌ لِمَا قَبْلَهُ، يكون عَلَيْهِمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا؛ لأنَّهم خاطئون.

قَوْله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، أي: فَارِغًا مِنْ ذِكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، مَا فِي قلبها إلا موسى.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾: ﴿إِن﴾ هُنَا ليست نافية، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، بَلْ هِيَ مُخَفَّفَة مَنْ (إِنَّ) الثقيلة، وَالمَانِعُ مِنْ كَوْنِهَا نافيةً اثنان:

الأول: مانعٌ لفظيٌّ: وَهُوَ وُجُودُ اللام.

والثَّاني: مانعٌ معنويٌّ: وذلك لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يُرِيدَ أَنَّهَا كادت تبدي به، ولذا يَقُولُ فِي باقي الآية: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾، والربط يَقْتَضِي أَنَّهَا مَا أَبْدَتْ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكُونُ عَلَى حَالٍ، فَإِذَا نَزَلَ بِهِ البلاء تغير حالُه، فهذه أُمِّ مُوسَى كَانَتْ فِي البداية مطمئنة، ولذلك وضعته فِي التَّابُوتِ، ثم وضعته فِي الْيَمِّ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ الطُّمأنينة، ولكنها أصبحت بعدما فارقته كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فَقَدْ صَارَ قلبُها الآن فارغًا، وأصبحت قَلِقَةً، كأنه ليس فِي الدُّنْيَا سِوى ابنِها، فالواقع أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ حَالٌ قَبْلَ نُزُولِ الْبَلَاءِ، وله حالٌ بَعْدَ نُزُولِهِ، وَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَرِّض نَفْسَهُ للبلاء.

يُذكَر أَنَّ سَمْنُون بْنَ حَمْزَةَ، وَهُوَ أَحَدُ مشايخ الصوفية، وَكَانَ عَلَى دَرَجَةٍ عالية مِنَ الْعِبَادَةِ والزهد، وَلَكِنَّهُ قَالَ يَوْمًا:

فَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَمَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي

فابتُلِيَ بِحَبْسِ البَول، فَلَمْ يَقَرَّ لَهُ قرارٌ، فكان بعد ذلك يطوف عَلَى المَكاتب وبِيَدِه قارورةٌ يقطُر منها بوله ويقول للصبيان: ادعوا لِعَمِّكم الكذاب[1]. وذلك لِأَنَّ

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/ ٣٠٩)، وتلبيس إبليس، لابن الجوزي (ص٣٠٦).

الصِّبْيَانَ تُرجَى إجابة دعوتهم.

فالمهم: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ قَبْلَ البلاء حالٌ، وبَعد البلاء تتغير حالُه، وهكذا أَيْضًا فِي الْأُمُورِ الشرعية، فالنَّبِيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»، أَوْ «لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»(١).

وَهَذَا هُوَ الواقع، فالْإِنْسَانُ يَجِبُ أَنْ يتحرَّز مِنَ الْبَلَاءِ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ». قَالُوا: وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ؟ قَالَ: «يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ»(٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطبيعة البشرية لَا يُؤَاخَذُ بِهَا المرء، فما تقتضيه الطبيعة البشرية لا يؤاخذ به المرء، ووجه ذَلِكَ أَنَّ فؤاد أُمِّ مُوسَى كَانَ يَنْبغي أَلَّا يَكُونَ فَارِغًا مِنْ ذِكر اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن الدَّار الآخرة، لكنه أصبح فارغًا، لَيْسَ فِيهِ شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه، سوى ذِكر موسى، وهذا مقتضى الطبيعة البشرية؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ العظيمة التي تنزل بالمرء تُنسيه كُلَّ شيء.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى فَضِيلَة أُمِّ مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لكونها لم تُبْدِ مَا فِي قلبها لأحد، لقوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ المَرْءَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي كُلِّ أحواله،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤٣١)، أبو داود: كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، رقم (٤٣١٩).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، بعد باب ما جاء في النهي عن سب الرياح، رقم (٢٢٥٤)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ [المائدة:١٠٥]، رقم (٤٠١٦)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ نُزُولِ الحوادث؛ لقوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾، فالإِنْسَان مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ولولا معونةُ اللهِ مَا فَعَلَ الإِنْسَانُ شيئًا، لا صَبرَ عَلَى بلاء، ولا شُكر عند الرخاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ العِلل والأَسْباب؛ لقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فهناك مَنْ يُنْكِرُ الأَسْباب والعِلل، وهُم الجَهميَّة والأشاعرة، فهُم يُنكرون حتى الأَسْباب الظَّاهرة الجَليَّة، ويقولون: إِنَّ الشَّيْء يَحْدُثُ عِنْدَهُ لَا بِهِ، فلو أخذتَ حَجرًا وضربتَ به الزُّجاج وانكسر، فلا يقولون: إِنَّ الزجاج انكسر بالحَجَر، بل انكسر عنده. مع أَنَّك إِذَا وَضَعْتَ الْحَجَرَ عَلَى الزجاج لا ينكسر، وَلَكِنْ إِذَا ضربته به انكسر.

وكذلك عند تناوُل المريض الدواءَ، هُم يَدْعُون: (اللهم اجعل شفائي عند الدواء). وذلك بِنَاءً عَلَى إنكارهم الأَسْباب، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإِيمَان والكمال فِي الرِّجَالِ أكثرُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى فِي مَرْيَمَ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ»(١).

ولا ريب أَنَّ الإِيمَانَ فِي الرِّجَالِ أكثرُ وأثبتُ وأزيدُ، فَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم:١١]، إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢]، رقم (٣٤١١)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المُؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، رقم (٢٤٣١).

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»[1].

وإنما قَرَّرْنا هَذَا مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ مُراعاةُ المرأة، وأنها مُحْتاجَةٌ إِلَى الرعاية، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَلَّا تُجاب إلى كُلِّ مَا تطلُب؛ لأَنَّها ناقصةُ عَقْلٍ، وناقصةُ دِين، كما وصفها النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بذلك.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَات الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، نأخُذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾؛ فَإِنَّ هَذَا مِن قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقَدَرِه.

وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَشْتَقَّ لله اسْمًا مِنَ الفِعل المُسنَد إليه ﴿رَبَطْنَا﴾ فنقول: الرابِط. لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي الكون هُوَ مِنْ فِعْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ومِن تقديره، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نشتق لِكُلِّ فِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِ الله اسمًا، فأفعالُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متنوعة وكثيرة، والفعل يَخْتَلِفُ عَنِ الاسم، فَقَدْ يَكُونُ الْفِعْلُ مُقَيَّدًا، مِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٠]، فلا نَشْتَقُّ اسْمًا مِنْ هَذَا الْفِعْلِ ونقول: الماكر مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ. وَكَذَلِكَ قَوْله: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، فلا نُسميه خادعًا، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٥]، فَلَا نَقُولُ: إنه مستهزئ. وهكذا، فَهَذِهِ كُلُّهَا أفعالٌ مُقَيَّدَةٌ فِي أنواعها، وَلَكِنْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ اللهَ مستهزئ بالمنافقين، وإِنَّ اللهَ خادع المنافقين، وإِنَّ اللهَ ماكِرٌ بالماكرين، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

• • ۞ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، رقم (٨٠).

الآيـة (١١)

• ● ◆ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص:١١].

• ● ◆ ● •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مَـرْيَمَ ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبِعِي أَثَـرَهُ حَتَّى تَعْلَمِـي خَبَرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أَبْصَرَتْهُ ﴿عَن جُنُبٍ﴾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ اخْتِلَاسًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مريم]. وَنَحْنُ نَقُولُ له: مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّ اسمها مريم؟ وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنَ الإسرائيليات، وَهُوَ أَمْرٌ لَا يَعْنِينا، وَلَوْ كَانَ مُهِمًّا لَبَيَّنَه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقد يقول الْبَعْضُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿لِأُخْتِهِۦ﴾ إِنَّهَا كَانَتْ أُخْتَهُ مِن أبيه أَوْ مِنْ أُمِّهِ، ولكن الأُخُوَّة هنا مُطلَقة، فيَكُونُ المُرادُ شقيقته، وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أُمِّهِ أو أبيه لقُيِّدَتْ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعِي أَثَـرَهُ حتى تعلمي خبـرَه، والقَـص معناه: التتبُّع، يعني: تتبَّعي أثرَه، وابحثي عنه.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أي: أبصرَتْه، والفاء فِي قَوْلِهِ: ﴿فَبَصُرَتْ﴾ للترتيب والتعقيب، أي: إِنَّهَا مَا ذَهَبَتْ بعيدًا حتى رأته.

وقوله تعالى: ﴿عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَعَلَى هَذَا فالموصوف محذوف،

والتقدير: عن مَكَانٍ بَعِيدٍ، بَعِيدٍ منها، لكنها عَرَفَتْ أَنَّ هَذَا أخوها، وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ أي: مِنْ مَكَان بَعِيدٍ اختلاسًا، والاختلاس معناه: المُسَارَقة، أي: كانت تَنْظُرُ إِلَيْهِ دُونَ أَنْ تُحِدَّ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فلو أنها فعَلَت، وأقبَلَت إليه مُسرعة، وظَهَرَت منها علاماتٌ عَلَى أَنَّهُ مقصودُها، لَعَرَفُوا منها ذلك، ولكنها جعلت تَنْظُرُ إِلَيْهِ خِلسةً حَتَّى لَا يَشْعُرُوا بها.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إن آلَ فِرْعَوْنَ لَا يَشْعُرُونَ أَنَّهَا أُخْتُهُ، وأنها ترقُبه، فَإِنَّهَا كَانَتْ ذكيَّة، مَا فَعَلَتْ مَا دَلَّ عَلَى شخصيتها.

وجُملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِل ﴿فَبَصُرَتْ﴾، والجملة الحاليَّة لَا يُشْتَرَطُ أَنْ تَكُونَ وصفًا لصاحِب الحالِ، وَلِهَذَا تَقُولُ: جَاءَ زَيْدٌ والشمسُ طالعةٌ. فجملة (والشمس طالعة) حاليَّة، مع أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ صِفَاتِ زيد، لكن الجملة الحالية يُكتفَى فيها بأدنى مُلابسة مع الفاعل.

• ● ۞ ● •

الآية (١٢)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ، أَيْ مَنَعْنَاهُ مِنْ قَبُولِ ثَدْيِ مُرْضِعَةٍ غَيْرِ أُمِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنَ المَرَاضِعِ المُحْضَرَةِ لَهُ ﴿فَقَالَتْ﴾ أُخْتُهُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّهُمْ عَلَيْهِ ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ بِالْإِرْضَاعِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَاصِحُونَ﴾ وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ فَأُجِيبَتْ، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيحِ طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ كَمَا قَالَ تعالى].

كان الطفل عند عرش فِرْعَونَ يبكي، يريد الرَّضاع، ولعلهم خرجوا به يطلبون المُرضعة، فصادف أَنْ رأته أخته، فَقَدْ تكُونُ أُمُّ مُوسَى قد طلبت مِنْ أُخْتِهِ الخروجَ إِلَيْهِ بَعْدَ مَا سَمِعْت عَنْ طَلَبِ آلِ فِرْعَوْنَ مُرضِعَةً لموسى، وَقَدْ تكُونُ قد أَمَرَتْها بالخروج إيمانًا منها بِوَعْدِ اللهِ لَها بِأَنْ يَرُدَّهُ إليها.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ أَيْ قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ.

وقوله: ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ أي: مَنَعْنَا، وَالتَّحْرِيمُ فِي اللُّغَةِ: المنعُ، والتحريمُ يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: تحريم شرعي، وتحريم قدري، والتحريمُ الشرعي متعلّق بالأحكام الشرعية،

والتحريمُ القَدَري متعلق بالأحكام الكَوْنِيَّة، ومثاله قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦]، فالتحريم هنا تحريمٌ قدَري.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ﴾ ولم تَقُل: عَلَى أَهْلِهِ. فلو قَالَتْ ذَلِكَ افتضح أمرُها، وقالته بصيغة التنكير؛ حَتَّى لَا يعرفوها، مع أنها أختُ موسى، وصاحبة البيت هِيَ أُمُّهُ، فأخت مُوسَى لَمَّا رَأَتْ حُنُوَّ آلِ فِرْعَوْنَ عَلَى هَذَا الطفل؛ لأنَّهم يُحِبُّونَ أَنْ يجدوا مَنْ يَقُومُ بكَفَالته وإرضاعِه، قالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ للإرضاع وغيره.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾، الكَفْل معناه: القيام بحَضانة الطفل، ويسمى كَفْلًا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]، وَفِي قِرَاءَةٍ ثانية «وكَفَلَهَا زَكَرِيَّا»، والمعنى: أنا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يقومون بحضانته على أَتَمِّ قيام، بدليل قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

هنا الكَفالة عَبَّـرَ عَنْهَا بالفعل ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾، والنصيحة عَبَّـرَ عَنْهَا بالجُملة الاسمية ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، فالنصيحة مَبْنِيَّةٌ عَلَى النِّيَّةِ فِي الْقَلْبِ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نَاصِحُونَ﴾ أي: مخلصون، وأصلُ النُّصح: إخلاصُ الشَّيْءِ مِنَ الشوائب، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: خَالِصَةٌ مِنَ الشوائب للهِ وَحْدَهُ، وهي هنا صَادِقَةٌ فِي قَوْلِها هذا.

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُ﴾ يَعُودُ إِلَى هَذَا الطفل بلا رَيْبٍ، ونُصح أهل هَذَا الْبَيْتِ لموسى يُعجب آلَ فِرْعَوْنَ؛ لأنَّهم أحبُّوا هذا الطفل، ورَغِبُوا فِي الْبَحْثِ عمن يكفُلُه ويُرَبِّيه عَلَى الْوَجْهِ الأتَمِّ.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَفَسَّرَتْ ضَمِيرَ ﴿لَهُۥ﴾ بِالمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ، فأُجِيبَتْ]، هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قصةٍ إسرائيلية؛ أَنَّهَا لَمَّا قَالَتْ: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ كأنهم شَكُّوا فقالوا: مَا الَّذِي أدراكِ أنهم ينصحون له؟ فقالت: أريد أنهم ينصحون للمَلِك، أي فِرْعَون. يعني: وهُم للمَلِك ناصحون.

وهذه قصة لَا شَكَّ أنها بَعِيدَةٌ مِنَ الصَّوَابِ، وَإِنَّمَا المُرَادُ ﴿لَهُۥ﴾ للطفل، وَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إليه، وَلَا حَاجَةَ أَيْضًا إِلَى تَفْسِيرِهِ بالمَلِك؛ لأن آلَ فِرْعَوْنَ يُحِبُّونَ مَنْ يَنصح له، فليسوا بسائلين عَنْ هَذَا الشَّيْء، فتكوين المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذَا لَا داعيَ له.

يقول: [فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيَهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَيِّبَةُ الرِّيح طَيِّبَةُ اللَّبَنِ فَأَذِنَ لَهَا فِي إِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا، فَرَجَعَتْ بِهِ]. هذا التَّقرير الَّذِي ذَكَرَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا بَطَلَ فِي الآتي عليه، هو يقول: [إِنَّهَا جَاءَتْ، وَقَبِلَ ثَدْيَهَا] أمام النَّاس، واتُّهمت به، ودافعت عن التُّهمة بأن ثديَها طيِّب الريح، ولَبَنها طيِّب.

وكُلُّ هَذَا لَا أَصْلَ لَهُ، والصَّواب أَنَّهُ لَمَّا قَالَتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ قالوا: نعم، دُلِّينا. فالقِصة واضحة جدًّا، قلوا: دُلِّينا فَدَلَّتهم، فجاؤوا بِهِ إِلَى أُمِّهِ، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي المعجزة، والآية أَنَّ أُمَّهُ فِي بَيْتِهَا أَمَرت أخته أَنْ تَخْرُجَ فِي طَلَبِهِ، فما رجعت أختُه إِلَّا بِهِ إِلَى أُمِّهِ.

• • ۞ • •

الآيـة (١٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:١٣].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بِرَدِّهِ إِلَيْهَا ﴿حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيِ النَّاسُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُخْتُهُ، وَهَذِهِ أُمُّهُ، فَمَكَثَ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ فَطَمَتْهُ، وَأَجْرَى عَلَيْهَا أُجْرَتَهَا لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ، فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]].

ما حكاه الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنْ أَنَّ الأُم ذهبت إِلَيْهِم، وأنها ألقمته الثدي، وأنها اتُّهمت به، ودافعت بأنها طَيِّبة الريح، أو طَيِّبة اللبَن، لَيْس بِصَحِيحٍ.

وَمِثْلُ هَذِهِ الْأُمُورِ لَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ لها أسبابٌ حِسِّية معلومة؛ لِأَنَّهَا مِن خَوارِق العاداتِ، وخوارقُ العادات لَا تَحْتَاجُ أن نُوَجِّهَ لها أشياء تناسب العادات، بَلْ هِيَ فوق العادة.

فَعَلَى هَذَا نقول: المسألة سائرة عَلَى حَسَبِ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الكريم، فإنَّ الأُم لَمْ تَأْتِ إِلَيْهِم، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾، أي: رَدَدْنا

مُوسَى إِلَى أُمِّـهِ ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿تَقَرَّ﴾ سبق أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ إِمَّا مِنَ القَرِّ، وهو البُرودة، وَإِمَّا مِنَ القَرار والسُّكون، ولعله يشمل المَعْنيَيْن.

و﴿كَيْ﴾ هنا حرف تعليل، وهي مصدريَّة تَنصب الفعل المضارع؛ ولهذا ﴿تَقَرَّ﴾ منصوبَةٌ، وعلامَةُ نصبه فتحةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى الراء.

قوله تعالى: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بلقائه، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حينئذٍ، يعني: لَا تَحْزَن عَلَى مَا مَضَى، بل يزول عنها الحُزن، تَقَرُّ العين، ويزول عنها الحُزن، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بردِّه إليها ﴿حَقٌّ﴾، وهذه أيضًا ثلاث فوائد:

الْأُولى: ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، الثَّانية: ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، والثالثة: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

أمَّا الأُولَيان فظاهِر أنها تَقَرُّ عينُها برجوعه، وَأَنَّهَا لَا تَحْزَنُ، بل يزول عنها الحُزن، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هَذِهِ الْعِلَّةُ سَبقت؛ لأَنَّهَا مُنذ أن أَلْقَتْه فِي الْيَمِّ قَدْ عَلِمَت أنَّ ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ولولا عِلمها ويَقِينُها بأن ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ما أَلْقَتْه، فيكون هنا المرادُ بالعِلم عينَ اليَقِين، أَوْ حَقَّ اليَقِين إِنْ شِئْتَ.

فعِلمُها بِالْأَوَّلِ عِلْمٌ عَنِ الشَّيْءِ خَبَرًا، وعِلمُها الثَّاني عِلم عَنِ الشَّيْءِ وُقوعًا، وَفَرْقٌ بَيْنَ عِلم الْإِنْسَانِ بالشَّيْء خبرًا، وبَين عِلمه به وقوعًا، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠]، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الخَبَرُ كَالمُعَايَنَةِ»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، رقم ١٨٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والطبراني في الأوسط (١/ ١٢، رقم ٢٥)، والضياء (١٠/ ٨٢، رقم ٧٦)، وابن حبان (١٤/ ٩٦، رقم ٦٢١٣).

وقَوْلَهُ: ﴿وَلِتَعْلَمَ﴾ يعني: عِلم الشَّيْءِ بَعْدَ وقوعه، وأمَّا عِلْمُهَا بِهِ خَبرًا فَقَدْ تَقدَّم، وَلَوْلَا أَنَّهَا واثقة فِي الْأَوَّلِ مَا فَعَلَتْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، ذَكَرُوا أَنَّ الْوَعْدَ هو الوعدُ بما يَسُرُّ، والوعيد بما يُحْزِن، يعني: الوَعد بالخير، والوعيد بالشَّرِّ، وأنَّ الشَّرَّ مِن (أَوْعَد)، والخير مِن (وَعَد)، فقالوا: أَوْعَدَهُ أي: بالشر، ووَعَدَهُ بالخير.

﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ قُرَّةُ عَينه ينسى الحُزن والسأم، أي نَفْي الحزن هنا لِأَجْلِ أَنْ يُبيِّن أنَّ القرَّ كامل؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَقرَّ عينُها مع شيء مِنَ الْحُزْنِ.

والوعِيدُ حقٌّ، والوَعد حقٌّ، ولو قلنا: إِنَّ الوعيد ليس بحق. لَزِمَ أن يَكُونَ فِي خبر الله كَذِبٌ، وهذا غير ممكن، لكن الوعيدُ قد لا يُنَفَّذ؛ تفضلًا مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه حقُّه، الوعيد حقُّ الله، والله تَبَارَكَوَتَعَالَى قد يتجاوز عنه، أما الوعد فإنه حقٌّ للموعود، وَلِهَذَا لَا يمكن أن يتخلف، قال الشاعر[1]:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

لأن الوعد حقٌّ للموعود، والوعيد حقٌّ للواعد أو للمُوعد.

وأضرب لذلك مثلًا: إذا قلتُ لهذا الرَّجل: إنْ فَعَلْتَ كَذَا أعطيتُك مائة دينار. فهذا وعدٌ، لأَنَّه في الخير، فهذا فَعَل ما قُلتُ، يجب عليَّ أنْ أوفيه؛ لأن الحق له، لكن لو قلتُ لولدي مثلًا: إنْ فعلتَ كذا حَبَسْتُك. ثم فَعَلَه، ولكني عفوتُ عنه، فهذا جائز، ويكون فضلًا، لَا سِيَّما إِذَا عَفَا عَنْهُ مع القُدرة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء:١٤٩].

---

(١) البيت لعامر بن الطفيل، كما في لسان العرب: ختأ، وتاج العروس: ختأ، وبلا نسبة في إنباه الرواة (٤/ ١٣٩)، ومراتب النحويين (ص٣٨).

والحاصِلُ: أَنَّ وَعْدَ اللهِ ووعِيدَه كلاهما حقٌّ، لكن وعده لما كان حقًّا للموعود صار لَا بُدَّ مِنْهُ لوقوعه، ووعيدُه لَّمَا كَانَ حقًّا له إِنْ شَاءَ عَفَا عنه؛ تكرُّمًا وتفضلًا، حسب ما تقتضيه حِكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَلَكِنْ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤]، هـذا وعيدٌ أُطلق على الوعد؛ إما لِأَنَّهُ فِي المقابلة مع قولهم بهذا صار مُشاكلًا له، أو أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ أحيانًا.

قال تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ﴿حَقٌّ﴾ هنا بمعنى: ثابت، وقد قُلْنَا: إِنَّ الحَقَّ إِذَا تعلَّق بالأخبار، فمعناه الصِّدق، وفي الأحكام معناه العَدْل، وَعَلَى هَذَا فيكون هُنَا بِمَعْنَى: الصدق.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْق، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يتخلف؛ لأن تخلُّف الوعد إما أَنْ يَكُونَ عَنْ كذبِ الواعد، أَوْ عَنْ عَجْزِه عن تنفيذه، وكِلا الأمرين في حَقّ اللهِ مستحيلٌ، فلا كَذِبَ فِي قَوْلِهِ، ولا عجزَ فِي فِعله؛ ولهذا فإن عِباد اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يختمون الدُّعاء بقولهم: (إنك لا تخلف الميعاد).

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس لا يعلمون بهذا الوعد، ولا بأن هَذِهِ أخته.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّص الآية، والحقيقة أن الآية عامة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس عندهم عِلم ينفعهم في وعد الله، فنَفْيُ العِلم هنا إما لإثبات الجهل، أو لنفي العِلم النافع، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ أي: النَّاس، أقول: أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ

اللهِ حَقٌّ؛ إما لجهلهم، وإما لعدم انتفاعهم بهذا العِلم، ونَفْيُ الشَّيْءِ لِنَفْيِ الانتفاع به ثابتٌ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال:٢١].

ودائمًا ينفي اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العَقل، أو السمع عن النَّاس، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؛ لعدم انتفاعهم بذلك، فأكثرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خصَّ هَذِهِ بقصة موسى، والآيةُ عامَّة، فأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ.

أقول: إما للجهل بذلك، لكونهم لا يعرفون مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وصفاته ما هو اللائق به، وإما لكونهم لا ينتفعون بهذا العِلم.

فالذين لا يحرصون على فعل الخير، أو على تجنُّب الشر فِي الْحَقِيقَةِ هُم كالجاهلين بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ؛ إِذْ إِنَّ الطبيعة البشرية والعقل يقتضيان أنك ما دُمْتَ مؤمنًا بهذا الشَّيْء، سَوَاءٌ كَانَ وعدًا، أو وعيدًا، فَلَا بُدَّ أَنْ تسعى له بمقتضى إيمانك، وإذا كنتَ تعلم أَنَّ الْإِنْسَانَ سيموت، وأن المؤمن إذا مات سيجد الخير، ويكون في الجنة، وينجو مِن النار، هذا حق، لكن الذي لا يسعى إلى الجنة، ولا يسعى إِلَى هَذَا الخير، وينْهَمِكُ بسَعْيِه للدنيا الفانية، هذا فِي الْحَقِيقَةِ ليس عالمًا بأن وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، أو منتفعًا بعِلْمِه، فلو انتفعَ به ما فوَّت هَذِهِ الفُرصة العظيمة، فالإِنْسَان يعرف أن المعصية سبب لدخول النار، ويعرف أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، لكن مع ذلك يتجرأ على المعاصي.

نقول: إنَّ عِلمه هنا ناقص؛ إذ لَوْ آمَنُ بذلك حقًّا لتجنَّب هذا الشَّيْء، فصَدَقَ معنا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حَلَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هَذَا الْآيَةَ فقال: [لَا يَعْلَمُونَ بِهَذَا الوَعْدِ]. يعني: بما وَعَدَ اللهُ أُمَّهُ مِن رَدِّه إليها، وَلَا بِأَنَّ هَذِهِ أُختُه.

وعلى هذا، فيقول: الضَّمِيرُ فِي ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ يَعُودُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وهذه فمَكَث عندها إلى أن فَطَمَتْهُ، وأُجري عليها أُجْرَتُها لكل يوم دينار.

أما [كونه بقي عندها إِلَى أَنْ فَطَمَتْه]، فهذا واضح؛ لِأَنَّهُ مَا دَامَ يحتاج للرضاع فسوف يبقى عندها.

وأما [أُجْرِيَ عليها أُجرتُها] فهذا أيضًا صحيح؛ فإنه جُعل لها أجرة، وصاروا يرسلون إليها بالهدايا والتحف ويكرمونها؛ لأنَّها كافلةُ هذا الطِّفْلِ الَّذِي قَالُوا: إنه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾، و﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، ولهذا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَأْخُذُونَ الجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِثْلُ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا»[1].

وَهَذَا مِنْ آيَاتِ اللهِ، يأتيها ولدُها وتُرضِعه، وتُكرَم عليه، فلو لم تُلقه فِي الْيَمِّ، ولم يلتقطه آلُ فِرْعَوْنَ، لَبقيت خائفةً وَجِلَةً، ولا تحصل لها أُجرة، ولا إكرام، ولا إعزاز مِن هؤُلاءِ الطغاة.

وأما قوله: [لِكُلِّ يوم دينار] فهذا غير مُسلَّم؛ لأن طريقنا في مِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ أن نقول: ما ثبت عن الرَّسُول ﷺ فهو مقبول، وَمَا لَمْ يَثْبُتْ مِن أخبار بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فإننا نتوقف فيه، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نجزم به هذا الجزم، بل نُحدِّث به، ولكننا لا نجزم به.

يقول: [لِكُلِّ يَوْم دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِيٍّ]، سبحان الله العظيم! ذهب وَهْم بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مَذهبًا غريبًا، هل أخذتها؛ لأنَّها مالُ حربيٍّ، أم أخذتها لأنَّها أجرة على إرضاعها؟ بَلْ هِيَ أُجْرَةٌ، فهذا هو الأمر الطبيعي، أما كونُها تأخذ الأجرة؛

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢٢٨، رقم ١٩٥٣٢)، وسعيد بن منصور (٢/ ١٧٤، رقم ٢٣٦١)، أبو داود في المراسيل (١/ ٢٤٧، رقم ٣٣٢)، والبيهقي (٩/ ٢٧، رقم ١٧٦١٨).

لأنَّها مالُ حربيٍّ، فَهَذَا لَا وجه له، فلا يقال مثلًا: إنَّ أُمَّ مُوسَى لما لم يَقبل ثديَ غيرها كان إرضاعُها إياه فرضًا عليها، والفرضُ لَا يَجُوزُ أَخْذُ العِوَض عليه، ففسَّر أخذ المال هنا عَلَى أَنَّهُ مالُ حربيٍّ.

نقول: حتى مال الحربيِّ إذا جاء بصيغة عَقْدٍ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُ، إنما تأخذه بمقتضى العقد، والمُعاقَدَة بينك وبين الحَرْبِيِّين مِثل الاستِئمان، بَلْ هِيَ استئمانٌ في الواقع.

فالصَّواب أنها أخذتها؛ لأنَّها أُجِرَت عليه على كفالته وإرضاعه؛ لِأَنَّهُ لَوْ لم تأخذ لكان فِي ذَلِكَ بلاء، ولَعَلِم أنها قريبة له أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهي أخذته؛ لأنَّهم يعتقدون أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّه، ويعتقدون أَنَّ هَذَا الطفل سوف يكون لهم، وذلك جائز باطنًا؛ لأجل كفالتها بالنِّسبة لهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَأَتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ، فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تعالى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]]، تربَّى عند فِرْعَون في بيت المَلِك، وكان يركب كما يركب الملوك، ويلبس لِباس الملوك، فبدلًا مِن أَنَّهُ لَوْ كَانَ عند أُمِّه ما حصل له هذا الشَّيْء بلا شك، أمَّا الآن فأصبح مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا، وَذَلِكَ مِنْ تسخير اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له.

وقد ظل موسى يتردد على أُمِّه بَعْدَ الفِطام وبعد أن كَبِرَ، فهي أُمُّه مِن الرضاعة.

ومِن المظنون عقلًا أنها أخبرته بالحقيقة بعدما كَبِرَ، فعَرَف وكتم الخبر عن آلِ فِرْعَوْنَ.

فائدة: لا يُعرف تحديدًا مَن أسماه باسمه هذا، هل هِيَ أُمُّهُ أَمْ آلُ فِرْعَوْنَ،

ولكن الاسم عِبري، وَقَدْ يَكُونُ اسمه الَّذِي كَانَ عِنْدَ فِرْعَون هو اسمه الذي سَمَّتْهُ به أُمُّه إكرامًا له مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد قَالَ تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء:١٨]، فبقي الرجل عند المَلِك مُكَرَّمًا مُعَظَّمًا مُعَزَّزًا.

• • ● • •

الآيــة (١٤)

• ● ~ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القَصص:١٤].

• ● ~ ● •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٌ ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أَيْ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فِقْهًا فِي الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لِأَنْفُسِهِمْ].

الأَشُدُّ قيل: إنه ثلاث وثلاثون سَـنة، وقيل: ثلاثون سَـنة، وقيل: قريبًا مِن أربعيـن، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يقول: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:١٥]، فدل هَذَا عَلَى أَنَّ بلوغ الأَشُدِّ غيرُ الأربعين؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنَّ بُلُوغَ الْأَشُدِّ معناه كمالُ العقل، ولا يُنافي أن يكون كَمالُ الْعَقْلِ عند تمام الأربعين.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: بمعنى: كَمَل، والاستواء فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بمعنى: الكمـال، ومنه قولهم: استـوت الثمرة، أي: كَمَلَـت، وهو فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبه، ولكنه إذا عُدِّي بـ(إلى) فهو بمعنى: القَصْد، وإذا عُدِّي بـ(على) فهو بمعنى: العُلُوِّ والاستقرار؛ لأن ذلك هو الكمال.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حِكمـةً، ﴿وَعِلْمًا﴾ فِقْهًا في الدِّين قَبـل

أن يُبعث نَبيًّا].

﴿ءَاتَيْنَهُ﴾ بمعنى: أعطيناه، وهذا الإيتاء كونيٌّ، والإتيان يكون كونيًّا، ويكون شرعيًّا، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالقضاء والقَدَر، فهو كونيٌّ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بالشرع فهو شرعيٌّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَنهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ [التوبة:٥٩]، هذا الإتيان شرعي؛ لأنَّه يتعلق بالشرع والقصد، وهنا ﴿ءَاتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ كوني؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

أما قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَنكُمْ﴾ [النور:٣٣]، فكلمة ﴿وَءَاتُوهُم﴾ شرعيٌّ، و ﴿الَّذِي ءَاتَنكُمْ﴾ قَدَرًا، فهو قَدَّره لكم، فالإتيان إذن يكون شرعيًّا، ويكون كونيًّا بحسب متعلَّقه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿حُكْمًا﴾ فَسَّره بحِكمة، يقال: عِلمًا أي: فِقهًا.

وَقَدْ فَسَّرَ الحُكم بالحِكمة؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عِلْمُ الأحكام، فإذا فَسَّرنا الحُكْمَ بِأَنَّهُ الحُكْمُ الَّذِي هو مقتضى خطابٍ بالشرع، صَارَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ التَّكْرَارِ؛ لِأَنَّهُ عِلم، ولكنه يجُوزُ أَنْ نَقُولَ: آتَيْنَاهُ حُكمًا، أي: عِلمًا بالأحكام الشرعية، وعِلمًا بالأخبار والأسرار، وحينئذٍ مَا يَكُونُ فِي الْآيَةِ تكرار، ولا نلجأ إلى تفسير الحُكم بالحِكْمَة؛ لأن المَعْرُوفَ أَنَّ الحُكْمَ غَيْرُ الحِكمة، فالحُكم هُوَ مُقْتَضَى خطاب الشرع المتعلِّق بِأَفْعَالِ المُكَلَّفِينَ، والحِكمة هي علة ذَلِكَ الحُكْمِ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾: (لَمَّا) هنا شرطية، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَاءَ لَهَا فِعْلٌ وجواب، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَهُ﴾، فهي إذن شرطية، وَهِيَ تَرِدُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ شَرطية كما هنا، وتَرِد بمعنى: (إلا)، مِثْلَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤]، أي:

إِلَّا عَلَيْهَا حافظ، وتَرِد ظَرْفًا، مثل: جئتك لَمَّا عرفتُ أنك مستيقظ، أي: حينَ عرفتُ، والذي يُعَيِّن هَذِهِ المَعَانِيَ هو السياق.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه، ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنفسهم].

قوله: [كما جزيناه] يُفِيدُ أَنَّ الإشارة هنا إِلَى هَذَا الإعطاء الَّذِي أَعْطَاهُ اللهُ، يعني: ومثلَ ذلك، والكاف هنا -وهي كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ- مفعولٌ مُطْلَق، بمعنى: مِثل، أي: مِثْلُ ذَلِكَ الجزاء ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إِذَا كَانَتْ مفعولًا مطلقًا، بمعنى: مثل، فهي اسم، قَالَ ابْنُ مالك[1]:

شَبِّهْ بِكَافٍ وَبِهَا التَّعْلِيلُ قَدْ ... يُعْنَى وَزَائِدًا لِتَوْكِيدٍ وَرَدْ
وَاسْتُعْمِلَ اسمًا وَكَذَا عَنْ وَعَلَى ... مِنْ أَجْلِ ذَا عَلَيْهِمَا مَنْ دَخَلَا

فالكاف تَأْتِي بِمَعْنَى: مِثل، وتُعرب عَلَى أَنَّهَا اسمٌ لا حَرْفُ جَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿نَجْزِي﴾ أي: نكافئ، وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يقول لأنفسهم، و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فِي الواقع يَشمل الْإِحْسَانَ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَالْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فقال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[2].

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٣٥).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، وعلم الساعة، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٩).

فهذا إِحْسَانٌ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وقوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ» هَذِهِ عِبَادَةُ الطَّلَب، وقوله: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، هَذِهِ عِبادة الهَرَب والخوف، وَلَا شَكَّ أَنَّ العابد بِالمَعْنَى الأَوَّلِ أكملُ مِن العابد بالمعنى الثَّاني؛ لأن العابد الأول مَرتبتُه عُليا، يَعْبُدُ اللهَ كأنه يراه، فهو يَقْصِدُ اللهَ، وله شوق كَبِيرٌ إِلَى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما الثَّانِي، فَإِنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ كأن اللهَ يَرَاهُ، فهو خائفٌ مِنْ رَبِّهِ، فعبادتُه هِيَ عِبَادَةُ الهَرَب، والأول عبادةُ طَلَب.

ولكن الإِحْسَان بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْخَلْقِ إِذَا فسرناه بأنه إرادةُ الخير فقط لَا يَكْفِي، يقال: إنه بَذْلُ النَّدى، وَكَفُّ الْأَذَى، وهذا هو الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ، والندى بمعنى: العطاء، وَكَفُّ الْأَذَى واضح، فالإِحْسَان إذن له شِقَّان: بَذْلُ الندى، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِالمَالِ، أَوْ بالجاه، أو بالبَدَن، وَكَفُّ الْأَذَى القولي والفعلي، وقد يتخلف أحدُهما ويكون الإِنْسَان مُحسنًا مِنْ وَجْهٍ، غيرَ محسنٍ مِنْ وَجْهٍ، ويكون مسيئًا إذا تخلف كفُّ الأذى.

وَمِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ لَا يَدْخُلُ الْعِلْمُ فِي الندى، نحن قلنا: إِنَّ الإِحْسَان يشمل المَالَ وَالْبَدَنَ والجاهَ، وتعليمُ الْعِلْمِ مِن الإِحْسَان البَدني، وكذلك النصيحة.

على كُلِّ حَالٍ: الإِحْسَان هُوَ عِبَارَةٌ عَن: بَذْل الندى، وَكَفِّ الْأَذَى.

وَأَنَا أَرَى أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ هِيَ أَحْسَنُ مَا قِيلَ، فَأَنْتَ لَا تؤذي النَّاس فتكون مسيئًا، ولا تَحْرِمُهم خيرَك، فَلَا يَكُونُ فيك إحسانٌ، فليس هناك إحسان إِذَا لَمْ تبذل الندى.

قوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الإِحْسَان هنا يَكُونُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، وَإِلَى عِبَادِ اللهِ.

فأما الْإِحْسَانُ فِي عِبَادَةِ اللهِ، فَقَدْ فَسَّرَها النَّبيّ ﷺ بقوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّك تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

وأما الْإِحْسَانُ إِلَى عِبَادِ اللهِ، فهو بَذْلُ الندى، وَكَفُّ الْأَذَى.

• • ۞ • •

الآية (١٥)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٥].

• • ● • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ -وَهِيَ مَنْفُ- بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهُ مُدَّةً ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وَقْتِ الْقَيْلُولَةِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أَيْ إِسْرَائِيلِيٌّ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أَيْ قِبْطِيٌّ يُسَخِّرُ إِسْرَائِيلِيًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إِلَى مَطْبَخِ فِرْعَوْنَ ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فَقَالَ لَهُ مُوسَى خَلِّ سَبِيلَهُ. فَقِيلَ: إِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَيْكَ ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أَيْ ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفِّهِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قَتَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَصَدَ قَتْلَهُ، وَدَفَنَهُ فِي الرَّمْلِ ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ قَتْلُهُ ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ الْمُهَيِّجِ غَضَبِي ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ لِابْنِ آدَمَ ﴿مُّضِلٌّ﴾ لَهُ ﴿مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْإِضْلَالِ].

كان هذا الدُّخُولُ بَعْدَ بُلُوغِ الْأَشُدِّ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرًا فهو مُتقدم وُقوعًا وعملًا، هَذَا هُوَ الْأَصْلُ، وُقوعًا إِنْ كَانَ فِي الْأَخْبَارِ، وعملًا إِنْ كَانَ فِي الْأَحْكَامِ.

وهذا أقبل النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الصَّفَا، وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن

شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨]، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ»(١).

وَقَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْفُقَرَاءَ أشد حاجةً مِن المساكين؛ لِأَنَّ اللهَ بَدَأَ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة:٦٠].

فهنا نَقُولَ: لَمَّا ذَكَرَ اللهُ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَدَخَلَ﴾ عَلِمْنَا بِأَنَّ دخوله المدينة بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى، ﴿ٱلْمَدِينَةَ﴾ أَيْ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ، وَهِيَ مَنْفُ أَوْ مُنْفُ -بِضَمِّ الميم وسكون النون- بَعْدَ أَنْ غابَ عَنْهُ مُدَّةً].

تعيين المدينة بأنها مدينة فِرْعون فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ تربّى عند فِرْعَون، في مدينته نفسها، وفي مكانه نفسه، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يقال: إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ فِي مِصْرَ، وإِنَّ مَنْفَ هَذِهِ بلد خَارِجَةٌ عَنِ القاعدة الأصلية، يعني: قصبة البلد، وإنه خَرَجَ فِي يَوْمٍ مِنَ الأيام، فدخلها، والأحسنُ فِي مِثْلِ هَذَا المَقَامِ إِذَا لَمْ تَرِدْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ نَقُولَ: مدينة مِن مُدن مصر، ويسكنها أقباطٌ وإسرائيليون بدليل القصة.

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وقتَ القيلولة].

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المراد عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ زمنًا، يعني: أَنَّهُمْ فِي زَمَنٍ يَغْفُل النَّاسُ فِيهِ، وبعضُهم يَقُولُ إِنَّهُمْ نَسُوا موسى وقِصَّته، وطال الزَّمَن، فدخل ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ مِن التحدث فِي هَذَا الْأَمْرِ.

ولكن المَعْنَى الْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وهو أنه دَخَلَهَا فِي وَقْتٍ أهلُها غافلون، وَلَا يَتَعَيَّنُ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

أَنْ يَكُونَ وَقْتَ القيلولة، الَّذِي قَدْ يَكُونُ بالليل، أَوْ فِي المَغْرِبِ، اللهُ أَعْلَمُ، إنما هو فِي وَقْتٍ أَهْلُ الْبَلَدِ غافلون.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي: قِبطي].

الاقتِتالُ بمعنى: المنازَعةِ والمخاصَمةِ، والمضارَبَة أيضًا، ولَيْسَ المُرَادُ فِيما يَبْدُو أنهما يريدان أَنْ يَقْتُلَ أحدهما الآخر.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾: شِيعة الرَّجل: أتباعُه، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات:٨٣].

وقيل: إِنَّ الشيعة مَن يُناصِرُك، كُلُّ مَنْ يُناصرك فهو شيعة لك، سَوَاءٌ كَانَ مُتَّبِعًا لك، أَوْ غَيْرَ مُتَّبِعٍ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: المراد بالشيعة: أَنَّهُ مِنْ قبيلته، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: إسرائيلي].

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ مِنْ عَدُوِّ موسى، أي: مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وهُم الأقباط.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي قِبطي يُسخِّر إسرائيليًّا لِيَحْمِلَ حَطَبًا إلى مَطْبَخ فِرعونَ].

هَذَا مِنَ الْعَجَبِ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ يَتَخَاصَمان ويتنازعان، وربما يحصُل بَيْنَهُما ضَرْبٌ، كعادة النَّاس، الأعداء يُخاصِم بَعْضُهُمْ بَعْضًا دائمًا، ويُقاتل بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَقَدْ ذَكَرَ شيخُنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ، بِأَنَّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ شعب بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَذِلَّةً؛ يُقَتَّل أبناؤهم، ويُستحيَا نساؤهم، أصبحوا الآن يرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعون الأقباط؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّ مُوسَى منهم، وأن مُوسَى فِي مَنْزِلَةٍ عظيمة عند فِرْعَونَ، فقد استقوت ظُهورهم بهذا الشَّيْء، وهذا واضح، سوف يَقوون بهذا الشَّيْء، ويرون أنفسهم أندادًا لآل فِرْعون.

أَمَّا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُسَخِّرَه ليحمل الحطب إلى المطبخ، فَهَذَا ليس ظَاهِرًا، وَيَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ بَيِّن، وَلَا دَلِيلَ هنا، فيشرح الموقف عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجري الأُمُورَ بأسباب، وأصلُ القصةِ دخولُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ المدينةَ، ووجود الرَّجلين، وقَتْله النفس، كُلُّ هَذَا كَانَ سَبَبًا لخروجِ موسى، ثم نُبُوَّتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ فِيهِ جَوَازُ الاستغاثة بالمخلوق، فهي مشروعة بما تُفيد فيه، أَمَّا مَا لَا يُفِيدُ فِيهِ، فَلَا يَجُوزُ.

فَعَلَى هَذَا إِذَا استغاث إنسانٌ بِمَيِّت، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بحيٍّ بِمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّهُ لَا يُفيده، وإذا استغاث بِحَيٍّ فيما يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَهُوَ جَائِزٌ.

إذن: الاستغاثَةُ بالمخلُوقِ جائزةٌ بِشَـرْطِ أَنْ يَكُونَ فِيمَا يُفيد، كَذَلِكَ فِي حَيٍّ قَادِرٍ عَلَى دَفْعِ الشدة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ؛ لقوله: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، وَهُوَ أَصْلٌ فِي الدِّينِ، فإن وِلاية الْمُؤْمِنِينَ مِن واجب المؤمن، والبراءة مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ وَاجِبِ المؤمن، قَالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، فهذا أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ، فلَا بُدَّ أَنْ يتبرأ الْإِنْسَانُ مِن كُلِّ كَافِرٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةِ مُوسَى؛ لقوله: ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ غَيْرَتِه، وسرعة استجابته، لِأَنَّهُ لَمْ يَتَلَكَّأْ فِي الْأَمْرِ، بل بادَرَ فيه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازُ دَفْعِ الصائل بما يَصِلُ إِلَى الْقَتْلِ، ففي الشريعة الإِسْلامية معروف أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا صَالَ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ودفعه بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، ولم يندفع؛ فَلَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ المَعَاصِيَ مِنْ أَوَامِرِ الشَّيْطان وأعماله؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثبات السبب؛ لقوله: ﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾؛ لأن ﴿مِنْ﴾ هنا سببيَّة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ثبوت عداوة الشَّيْطان لِبَنِي آدمَ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾، وأُكِّد بـ(إِنَّ) لِشِدَّة التنفير منه؛ لأن عداوته لَيْسَ فيها التباس.

الآيــة (١٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القَصص:١٦].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ نَادِمًا ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِهِ ﴿فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أَيِ المُتَّصِفُ بِهِمَا أَزَلًا وَأَبَدًا].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، إثبات أَنَّ الرُّسُلَ -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قد يخطئون، ولكن يَكُونُ ذَلِكَ قَبْلَ الرِّسالَة، لَكِنْ لَا يَقَعُ منهم فسادُ الأخلاق وشُرب الخمور، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أما الغَيْرَةُ والحَمِيَّة فهذا قَدْ يَقَعُ منهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات هذين الاسمين مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ: الغفور والرَّحيم، وإثبات الاسم -كما مَرَّ علينا- فِي أُصُولِ العقيدة يتضمن ثَلَاثَةَ أُمُورٍ: إِذَا كَانَ الِاسْمُ مُتعديًا، وأَمْرَيْن إِذَا كَانَ لازمًا، يتضمن إِثْبَاتَ هَذَا الِاسْمِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ، وإثباتَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ صِفَةٍ، وإثباتَ الأثرِ، وهو تَعَدِّيهِ إِلَى المَخْلُوقِ، مثلًا: الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، يتضمن ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ: إثبات الْغفُور الرَّحِيم عَلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ، وإثبات صِفَتَي المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات الأثر المترتب عَلَى ذَلِكَ، وأنه يَغفر ويَرحم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ الأَسْبَاب، وَذَلِكَ لِأَنَّ (الفاء) هنا سببية، يعني: فبِسَبب ظُلم نفسي، فإني أسألك أن تَغفِرَ لي.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ استجابة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الاستجابة مِنْ صِفَاتٍ؛ لأن الاستجابة تتضمن السمع والعِلم والقُدرة والغِنى، فإذا استجاب اللهُ لإنسان فمَعْنَاهُ أَنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَهُ، وعَلِمَ بحاله، وقَدَرَ عَلَى إعطَائِهِ سُؤْلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ كَرَمِ اللهِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جوازُ التوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحالِ الدَّاعي، ويُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾، فالظَّالِم لنفسه مُحْتَاجٌ إِلَى مَن ينصحُه، فهو توسَّلَ إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحال الدَّاعي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصص:٢٤].

والتوسُّل إلى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يكون بحالِ الدَّاعي، ويكون بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وكذلك بأفعاله، التي يُنعم بها، وَقَدِ اجْتَمَعَ الجَمِيعُ فِي تَعْلِيم النَّبِيِّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ عندما قَالَ لَهُ: عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي؟ قال: «قل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الدُّعَاءَ سببٌ، خِلَافًا لِمَنْ أَنْكَرَ سببيته.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، رقم (٨٣٤)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر، رقم (٢٧٠٥).

فقد يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّ الشَّيْءِ إِنْ كَانَ قَدْ كُتِب لِي، لَمْ يَحْتَجْ إِلَى دعاء، وَإِنْ كَانَ لَمْ يُكْتَبْ لِي، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الدُّعَاءِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: هو مكتوب لك بالدُّعاء، مكتوب لك بِهَذَا الشَّرْطِ بالدُّعاء، مثلًا لَا يَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا لَا أدعو؛ لأن المكتوب لَا بُدَّ أَنْ يَحْصُلَ، وَمَا لَا يُكْتَبُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ. فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأَنَّه مكتوب لك بِهَذَا السَّبَبِ.

كما لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أنا لن أتزوج، إِنْ كَانَ اللهُ قَدَّرَ لِي ولدًا فسيكون، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ قَدَّرَ لِي ولدًا، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ الزَّوَاجِ. نقول: ولكنه مقدرٌ بالزواج، فَهَذِهِ الْأُمُورُ الغيبية مِثل الأُمُور المشاهدة، كَمَا أَنَّ الْأُمُورَ المشاهدة لَا تَصْلُحُ إِلَّا بفعل الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوصِلُ إليها، فكذلك الأُمُور الغائبة لَا تَصْلُحُ.

إذن نقول: لَا تَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا؛ لِأَنَّكَ إِذَا كُنْت مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ فإنك سَتَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كُنْت مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فلن تَكُونَ إِلَّا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فيقال: أنت تَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بعملك.

ولهذا لَمَّا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ لأصحابه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نَدَعُ العَمَلَ وَنَتَّكِلُ عَلَى الْكِتَابِ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، أو: «فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠](1).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾، رقم (٤٩٤٥)، ومسلم: كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم (٢٦٤٧).

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الكثيرة دَلِيلٌ عَلَى تأثير الدُّعَاءِ فِي حُصُولِ المطلوب؛ لِأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُكابر، أَوْ جَاهِلٌ.

• ● ❁ ● •

الآيـة (١٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القَصَص:١٧].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ بِحَقِّ إِنْعَامِكَ ﴿عَلَيَّ﴾ بِالمَغْفِرَةِ اعْصِمْنِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ بَعْدَ هَذِهِ إِنْ عَصَمْتَنِي].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: هَذِهِ الْآيَةُ -كما مر علينا- مِنَ الْعُلَمَاءِ مَن يقول: إنها دعاء. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إنها خبرٌ بمعنى: التزام.

فَإِنْ قِيلَ: إنها دعاء؛ فإنه يُستفاد منها ما يُستفاد مِنَ الْآيَةِ السَّابِقَةِ، فيستفاد جواز التوسُّل بِنِعَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ أي: بسبب إنعامك عليَّ.

وَإِنْ قِيلَ: إنها التزامٌ، فإنها تَدُلُّ عَلَى شُكْرِ النِّعَمِ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَلَّا يَكُونَ عَوْنًا بهذه النعمة للمجرمين.

وقلنا: إِنَّ المَعْنَى الثَّانِيَ أقربُ وأرجح؛ لِأَنَّهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ، وَلَا يَنْبَغِي الْعُدُولُ عَنْ ظاهرِها، وَإِنْ كَانَتْ تحتمل المَعْنَى الثَّانِي.

فيستفاد منها إذن كمالُ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ حيث التزم للهِ تعالى شُكْرًا عَلَى نِعْمَتِهِ بألَّا يكون ظهيرًا للكافرين والمجرمين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُظاهرة المجرم تُنافي الشكر، فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ؛ لأَنَّها إجرامٌ حقيقةً، بَلْ تَكُونُ مساعدة المجرم بمنع إجرامه، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الظَّالِمُ، فَكَيْفَ نَنْصُرُ المَظْلُومَ؟ قَالَ: «تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ»[1].

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم والغصب، باب: أعِن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، رقم (٢٣١٢).

الآيــة (١٨)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص:١٨].

• ● ● •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يَنْتَظِرُ مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَتِيلِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بَيِّنُ الْغَوَايَةِ لِمَا فَعَلْتَهُ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: موسى، ومعنى أصبح أي: دَخَلَ فِي الصباح، يعني: بات ليلته، وَلَكِنَّهُ فِي صباحها أصبح ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾: (ال) هنا للعهد الذِكري؛ لأَنَّه سبق ذِكرها، وقوله: ﴿خَآئِفًا﴾ خبر أصبح، وهو منصوب، وقوله ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ إِمَّا أَنْ تَكُونَ خبرًا ثانيًا، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ تَعَدُّد الخبر مَعَ الِاخْتِلَافِ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ تَعَدُّد الخبر، سواء تَعَدَّد بلفظ الْمُفْرَد، أو تَعَدَّد بِلَفْظِ الْجُمْلَةِ، أو تَعَدَّد بلفظ المفرد والجملة، أو حَالًا مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿خَآئِفًا﴾، أَيْ حَالَ كونِه يترقَّب.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ينتظر مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ القتيل]، لِأَنَّ هَذَا القتل إجرامٌ، فكلُّ إنسان يقتل شَخْصًا فِي بَلَدٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَخَاف، وَهَذَا الْخَوْفُ مِنَ طبيعة البشر، وليس خوفَ عبادةٍ.

والخوفُ نوْعانِ:

الْأَوَّلُ: خوف عبادة يقتضي التَّقَرُّبَ إِلَى المَخوف، والتزامَ طاعته، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

الثَّاني: خوفٌ طبيعي مما يُخَافُ مِنْهُ، وَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ طبيعة البشر، لكنه يكون مذمومًا إِذَا أَدَّى إِلَى تَرْكِ واجب، أَوْ فِعْل محرَّم، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: ﴿فَإِذَا﴾ فُجائية، يعني: فاجأه في الصباح وهو خائف يترقَّب، فاجأه أَنَّ صَاحِبَهُ الإسرائيلي الذي استنكره بالأمس هُوَ الْيَوْمَ يسْتَصْرِخُه، والاستِصْراخُ معناه: طلب الإنقاذ مِن الشِّدة.

وهنا نجد أَنَّ الرَّجُلَ قَدِ استغاثَ واستصْرَخ واستَنْصر، والظَّاهرُ أن الاستغاثة والاستنصار بِمَعْنًى وَاحِدٍ، ولكن الاستنصار أعمُّ؛ لأنك قد تستنصر إنسانًا لينصُرَك، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي شِدَّةٍ.

والاستغاثةُ أَخصُّ، إِلَّا أَنَّ الْآيَةَ الكَرِيمَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاستغاثة مِنْ بَابِ الاستنصار.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: [يَسْتَغِيثُ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ﴾ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَهُۥ﴾ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ، وَزَعَمَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى القبطي، وأَنَّ مُوسَى ﷺ عاقب القبطي، وَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، وَلَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ عن السياق، فالصَّواب أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الإسرائيلي الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّن الغِواية لما فعلتَه أمسِ واليوم.

غَوِيّ: عَلَى وَزْنِ فَعِيل، بمعنى: فاعِل، أَوْ عَلَى أَنَّهَا صِفَة مُشبَّهة، والغويُّ ضِدُّ المُرشِد، وَهُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ عَلَى وَجْهِ الإساءة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، والرُّشد هو إحسان التصرُّف، والغَيُّ سُوء التصرف، فَيَكُونُ المَعْنَى: ذو غِواية، أو سيئ التصرف.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُها، ووجهُ سُوء تصرُّفه أَنَّ أمسِ القريب كان يتخاصم مع قِبطي، واليوم الثَّانِي الَّذِي يَلِيهِ كَانَ يتخاصم أَيْضًا مَعَ قِبطي آخر صاحب مَشاكل، فلهذا قَالَ لَهُ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فمن الجَائِزِ أَنْ يتسبب في مشكلات كثيرة غدًا، وَبَعْدَ غَدٍ.

• ● ۞ ● •

الآية (١٩)

• • • • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٩].

• • • • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لِمُوسَى وَالْمُسْتَغِيثِ بِهِ ﴿قَالَ﴾ الْمُسْتَغِيثُ ظَانًّا أَنَّهُ يَبْطِشُ بِهِ لِمَا قَالَ لَهُ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن﴾ مَا ﴿تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ].

قوله تعالى: ﴿أَن﴾ كلمة ﴿أَن﴾ زائدة، والزيادةُ هنا لفظيةٌ وإعرابية، وليست زيادةً معنويةً؛ لأنَّها تُفيد التوكيد، وجميعُ الحروف الزَّائِدة فِي الْقُرْآنِ لفظًا هي أصليةٌ معنًى؛ لأنَّها تُفيد معنى التوكيد، وتَطَّرِد زيادةُ (أَنْ) بَعْدَ لَمَّا، وَكَذَلِكَ قَبْلَ (لو، نعم)، كَمَا فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

وَأُقْسِمُ أَنْ لَوِ الْتَقَيْنَا وَأَنْتُمُ ....

---

(١) هذا صدر بيت لامرئ القيس، كما في خزانة الأدب، للبغدادي (١٠/ ٨٠)، وعَجُزه:
لَكَانَ لَكُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ مُظْلِمُ

ومِثل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]، فـ(أنْ) هنا مُخَفَّفَة مِن الثقيلة، يعني: وأنهم لو استقاموا.

قوله تعالى: ﴿أَرَادَ أَن يَبْطِشَ﴾ أي: أراد موسى، والبطشُ: الأخذ بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والمستغيث به، قال المستغيث ظانًّا أنه يَبْطِشَ بِهِ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾. والظَّاهر هُنَا أَنَّ مُوسَى قد تهيَّأ، وَأَرَادَ أَنْ يَفْعَل، فشاهد المستغيثُ ذلك، وإلا فكيف عَرَفَ أَنَّ مُوسَى أراد، والإرادة محلُّها القلب؟

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَالَ الْمُسْتَغِيثُ] يعني: الْفَاعِل فِي [قَالَ الْمُسْتَغِيثُ]، وهذا يُبعده أمران: أمرٌ لفظي، وأمرٌ معنوي:

أما الأمر اللفظي: فإنَّ ﴿قَالَ﴾ ضميرهُا يَعُودُ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وهو القبطي.

والأمر المعنوي: أَنَّهُ قَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، فنحن نفسر الإرادة الثَّانية بالإرادة الأُولى؛ لأن القبطي هُوَ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

والقبطي قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ للإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فقد اشتهرت قصة الْقَتْلِ فِي الْمَدِينَةِ وظهرت، وصار النَّاس يتحدثون عنها، فعرف القبطي أن الإسرائيلي عَدُوٌّ لَهُ، وَهُوَ مَا لَامَه مُوسَى عليه قائلًا: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾، فاستنتج مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس هو موسى، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الراجح مِن قَوْلَيِ الْمُفَسِّرين.

والمُفَسِّرون لَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ:

أحدهما: أَنَّ الَّذِي قَالَ ذَلِكَ الإسرائيلي، مَعَ أَنَّ مُوسَى تهيَّأ للبَطش بالقبطي، لَكِنَّهُ ظَنَّ أنه سيَبطش به، لذا قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

ثانيهما: أَنَّ القَائِلَ هو القِبطي، ويُرجح ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الإسرائيليين أعداءٌ للأقباط، وعَلِم أو استنتج أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي قَتَلَ القبطي بالأمس، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾؛ لأني قبطي مثلما قتلت القبطي بالأمس.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: ﴿إِن﴾ بِمَعْنَى (مَا)، وهي نافية، وقوله: ﴿جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الجبَّار: معناه المتعالي المترفِّع عَلَى غَيْرِه، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويُوصَفُ بِهِ غَيْرُهُ، وله ثَلَاثَةُ مَعَانٍ:

أحدهما: المتعاظِم، وذو القُوَّة والبطش.

الثَّاني: الجَبَّارُ الَّذِي يَجْبُرُ الكَسِير، ويرحمه، ويعطف عليه.

الثالث: يَقُولُ ابْنُ القيم في (النونية)[1]:

وَلَهُ مُسَمًّى ثَالِثٌ وَهْوَ الْعُلُوّ ... فَلَيْسَ يَدْنُو مِنْهُ مِنْ إِنْسَانِ

مِنْ قولهم: جَبَّارَة، للنخلة العُليا، وجَبَّار: بمعنى الارتفاع، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: نخلة جَبَّارة، يعني: طويلة مرتفعة، لَكِنْ إِذَا جَاءَتْ فِي صِفَاتِ غَيْرِ اللهِ؛ فإنها للذَّم، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

واتِّهام موسى بقوله: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استنادًا على قَتْلِه القِبطي بالأمس، وإرادة قتله اليوم.

---

(١) نونية ابن القيم المسماة بالكافية الشافية (ص٢٠٩).

واتِّهامه بقوله: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أخذها أَيْضًا مِنْ قَتْلِه بالأمس، وسيَقتُل اليوم، والمصلح عَادَةً لَا يعتدي عَلَى أَحَدِ المتخاصمَينِ، ولكنه يحاول الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمَا، فَهُوَ يَقُولُ: إنك بإرادتك الْقَتْلَ، وَقَدْ قتلتَ بالأمس، معناها أنك تُرِيدُ أَنْ تكُونَ جَبَّارًا، ولا تريد الإصلاح؛ إِذْ إِنَّ مَن يُريد الإصلاح يسعى بالإصلاح بَيْنَ النَّاسِ، لا يسعى بأن يَسْتَعْدِيَ عَلَى أَحَدِهِمْ دُونَ الْآخرِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ لا ينطبق عَلَى مُوسَى؛ لأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مَا أَرَادَ إِلَّا الإصلاح، وَلَكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ ظَنَّ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ إِلَّا الجبروت، وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى مَنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ شِيعته.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾: [فَسَمِعَ الْقِبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنُ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ]، هَذَا الَّذِي فَسَّره بِنَاءً عَلَى مَا اخْتَارَهُ مِنَ أَنَّ الَّذِي قَالَ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي﴾ هو الإسرائيلي، أَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي؛ فإن القبطي لَمَّا رَأَى أَنَّ مُوسَى يُرِيدُ قَتْلَهُ، استنتج أنه القاتل بالأمس، فترك المخاصمة، وَذَهَبَ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، وأخبرهم، وإذا أخبرهم فسوف ينتقمون لأنفسهم.

• • ۞ • •

الآيــة (٢٠)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ﴾ [القَصص:٢٠].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ هُوَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ آخِرُهَا ﴿يَسْعَىٰ﴾ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ﴾ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّـٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ].

عَلِمْنَا أَنَّ هُنَاكَ مَنْ أَخْبَرَ آلَ فِرْعَوْنَ بأن مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ القِبطي، فإما أنهم أرسلوا مَنْ يُرِيدُ قتل موسى، أَوْ لَمْ يُرسلوا، ولكنهم تشاوروا فِي أَمْرِهِ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِ مَنْ جَاءَ يُحذِّره.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هو مُؤمن آلِ فِرْعَوْنَ]، وَهَذَا التَّأْوِيلُ الَّذِي قَالَهُ لا يُجزَم به؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى نكَّره، وَلَمْ يَقُلْ: إنه مؤمن. بينما قَالَ عَنْهُ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨]، وَلَكِنْ مَا يَعنينا في قصتنا هَذِهِ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ -وَلَا شَكَّ- عنده عَطْفٌ عَلَى مُوسَى، وَرَحْمَةٌ بِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ يُخبره.

فائدة: يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾، ويقول فِي سُورَةِ يس فِي

قِصَّةٍ أخرى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس:٢٠]، فِي الْأُولَى قَدَّم ﴿رَجُلٌ﴾ على ﴿أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، وفي الثَّانية أَخَّرها، والحِكمة مِنْ ذَلِكَ أَنَّ قِصَّةَ سُورَةِ الْقَصَصِ فِيهَا اهتمامٌ بِالخَبَرِ الَّذِي جاءَ بِهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ، فقدَّم ذِكْرَهُ عَلَى ذِكْرِ المكان، فكونه جاءَ مِنَ الأقصى، أَوْ مِنَ الْأَدْنَى لَا يُؤَثِّرُ، أَمَّا فِي قِصَّةِ الرُّسل الثَّلَاثَةِ فِي سُورَةِ يَس، ففيها اهتمامٌ بكَوْن هَذَا الرَّجُلِ بَعيدًا عن الرُّسل، وَمَا جاءَ إِلَّا ليؤكد صِحَّةَ مَا جاءوا بِهِ قَبْلَهُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ آخِرُها، يعني: أَبْعَدُها مِنْ مَكَان موسى. وقال: في ﴿يَسْعَىٰ﴾: [يُسرع في مشيه مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طريقهم]، وتقدَّم أَنَّ هَذَا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الذَّبَّاحين خرجوا ليذبحوا موسى، وَلَكِنَّهُ لَيْس بِلَازِمٍ.

وقوله: ﴿يَسْعَىٰ﴾ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفة، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حالًا، صِفة لِأَنَّ قَوْله ﴿رَجُلٌ﴾ نكرة، وحالٌ لِأَنَّ هَذِهِ النكرةَ وُصِفت بقوله: ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾.

ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي يُسرع فِي المَشْيِ، كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ هَذَا الإسراع -كَمَا زَعَمَ- حَتَّى يسبق مَنْ أُرْسِلَ إِلَى مُوسَى ليقتُلَه، وَقَدْ يَكُونُ خَوْفًا مِن تنفيذ ما ائتَمَروا عَلَيْهِ فِي شَأْنِهِ، والأخير هُوَ الْأَفْضَلُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾: [مِن قَوْمِ فِرْعَونَ، ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ يتشاورون فيك].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نداؤه بهذا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَتْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بموسى، ولهذا ناداه باسمه، وَلَكِنْ فِي قِصَّةِ مؤمن آلِ فِرْعَوْنَ فِي سُورَةِ غافر قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ﴾ [غافر:٢٨]، وهنا نجد أَنَّهُ مَا قَالَ: أتقتلون موسى؟ لأن المقام يَقْتَضِي أَلَّا يُبيِّنَ أَنَّ لَهُ

اتصالًا به ومعرفةً، فلَوْ قَالَ: أتقتلون موسى؟ لقالوا: هَذَا الرَّجُلُ يعرف موسى. ولَأَخذُوه، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾، كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ، ولكن يَعْرِفُ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدعوة الصحيحة السليمة.

أما هنا فَإِنَّ الرَّجُلَ يعرف موسى؛ وَلِهَذَا ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾، وأكَّد له الخبر بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، مَعَ أَنَّ مُوسَى كَانَ خاليَ الذهن مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُهِمٌّ، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا سَبَقَ أَنَّ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَقْتَضِي تأكيد الجملة الخبرية لَيْسَتْ هِيَ حَالَ المخاطَب فقط، ولكن حال المُخْبَرِ عَنْهُ أَيْضًا، إِذَا كَانَ مُهمًّا فإنه يُؤَكَّدُ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: [﴿فَٱخْرُجْ﴾ مِنَ المَدِينَةِ، ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ فِي الْأَمْرِ بِالخُرُوجِ]. وَهُوَ لَهُ مِنَ الناصحين، لَيْسَ فِي الْأَمْرِ بِالخُرُوجِ فقط، وَلَكِنْ فِي مَجِيئِهِ إِلَيْهِ أَيْضًا، وإخباره بذلك.

وَأَمَّا الَّذِينَ يأتمرون بشأنه، فليس عَامَّةَ النَّاسِ، بَلْ هُمُ الملأ، والكُبراء الذين يُنَفِّذُون ما ائتمروا به؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ الذين يَتَشَاوَرُونَ فِي هَذَا، مَا كَانَتْ لَهُ أهمية.

• • ❁ • •

الآيتان (٢١، ٢٢)

• • ◆ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢١-٢٢].

• • ◆ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لُحُوق طَالِب أَوْ غَوْث الله إِيَّاهُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قَوْم فِرْعَوْن، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ قَصَدَ بِوَجْهِهِ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ جِهَتهَا وَهِيَ قَرْيَة شُعَيْب مَسِيرَة ثَمَانِيَة أَيَّام مِنْ مِصْر سُمِّيَتْ بِمَدْيَن بْن إِبْرَاهِيم وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِف طَرِيقهَا، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أَيْ قَصْد الطَّرِيق أَيْ الطَّرِيق الْوَسَط إِلَيْهَا فَأَرْسَلَ الله مَلَكًا بِيَدِهِ عَنْزَة فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَيْهَا].

• • ◆ • •

الآيــة (٢٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص:٢٣].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ بِئْرٌ فِيهَا، أَيْ وَصَلَ إِلَيْهَا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ سِوَاهُمُ ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لَهُمَا ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ جَمْعُ رَاعٍ أَيْ يَرْجِعُونَ مِنْ سَقْيِهِمْ خَوْفَ الزِّحَامِ فَنَسْقِي، وَفِي قِرَاءَةٍ يُصْدَرَ مِنَ الرُّبَاعِيِّ أَيْ يَصْرِفُوا مَوَاشِيَهُمْ عَنِ الْمَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمُ عَلَى الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الأَسْبابِ، فَإِنَّ مُوسَى لَمْ يَحْكُمْ على المرأتين بِأَيِّ حُكْمٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ قَالَ: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ يعني: لماذا تَذُودان غَنَمَكُما عن السَّقْي؟ وَلَمْ يَحْكُمْ بِأَيِّ حُكْمٍ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، فسألهما.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص:٢٥]، قوله ﴿تَمْشِى﴾ حالٌ، وقوله: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ حالٌ مِنَ الضَّمِيرِ المستتر

فاعِل ﴿تَمۡشِى﴾.

وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ أَيُّ الفتاتين الكبيرة، أو الصغيرة هِيَ مِنَ جاءت، فالقُرْآن مَا بَيَّنَ ذَلِكَ.

• ● ۞ ● •

الآيـة (٢٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القَصَص:٢٤].

•••

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مِنْ بِئْرٍ أُخْرَى بِقُرْبِهِا، رَفَعَ حَجَرًا عَنْهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشَرَةُ أَنْفُسٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ انْصَرَفَ ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ لِسَمُرَةٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ وَهُوَ جَائِعٌ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ طَعَامٍ ﴿فَقِيرٌ﴾ مُحْتَاجٌ، فَرَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا فِي زَمَنٍ أَقَلَّ مِمَّا كَانَتْ تَرْجِعَانِ فِيهِ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَنْ سَقَى لَهُمَا، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا ادْعِيهِ لِي، قَالَ تعالى].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أي جَلب المَاءَ مِنَ البئر لأغنامهما، وَاللَّامُ فِي ﴿لَهُمَا﴾ للتَّعليل، وليست للتعدية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القَصَص:٢٤]، المراد بالظل ظِلُّ كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ جَبَلٍ أَوْ أَكَمَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ هنا لَمْ يَتَعَدَّ قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ بـ(إلى)، بينما قَالَ اللهُ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]، فعُدِّي الْفَقْرُ إِلَى اللهِ بـ(إلى)، وإذا أُضِيفَ إِلَى الشَّيْءِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ

عُدِّي باللام، فكان فقيـرًا للمال، وَلَمْ يَكُنْ فقيـرًا إليه؛ لِأَنَّ المَالَ ليس مَبْلَغَ هـوى المفتقِرين، وَإِنَّما فِيهِ زوالُ فَقْرِهم، وأمَّا اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فهو مُنْتَهى فقرهم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿فَقِيرٌ﴾ هُوَ فِي الْأَصْلِ وصـفٌ لموسى، ولكنه هنا فِي الْإِعْرَابِ خبر (إِنَّ).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: رأفةُ نَبِيِّ اللهِ موسى بهاتين القاصِرَتين؛ لقوله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَوَقِّي الأُمُور الضارة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَوَازُ الِاقْتِصَارِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ذِكْرِ حال الدَّاعي بِدُونِ طلب، وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي تقديمُ الدُّعاء بِذِكْر الرب؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا قبل ذلك أَنَّ هَذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُتقَبَّل به الدُّعاء، يعني بلفظ الربوبية؛ لأن بالربوبية يكون الخلق والتقدير للإنسان.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حَاجَةُ الْإِنْسَانِ إِلَى رَبِّهِ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ فِي غَايَةِ ما يَكُونُ مِنَ الضَّرُورَةِ إِلَى الخَيْرِ النازل إِلَيْهِ مِنَ اللهِ.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: عُلُوُّ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾؛ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إنزاله للشيء إِلَّا إِذَا كَانَ عاليًا، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عالٍ بذاته وصفاته، فعُلُوُّه نوعان: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفة.

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ عُلُوِّ الذات التجسيمُ الَّذِي يَقُولُهُ المُعطِّلُون، وَلَا أَنَّ المكان يُحِيطُ بِهِ كَما قالوه أيضًا، مُتوصلين بِذَلِكَ إِلَى إنكار عُلُوِّه؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُعَطِّلَة يتوصلون إلى تعطيله بِمِثْلِ هَذَا الكلمـات؛ بأن إِثْبَاتَ هَذَا يَقْتَضِي كَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَيْسَتْ

بلازمة، لكنْ هم يرونها بعقولهم لازمة، فيُلزِمون بها غيرَهم، ثم يَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى إنكار الصفات، الَّتِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، ووصَفَه بِهَا رَسُولُهُ ﷺ.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٢٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أيْ وَاضِعَةً كُمَّ دِرْعِهَا عَلَى وَجْهِهَا حَيَاءً مِنْهُ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فَأَجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الأُجْرَةِ، كَأَنَّهَا قَصَدَتِ المُكَافَأَةَ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فَمَشَتْ بَيْن يَدَيْهِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فَتَكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ. فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبَاهَا -وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ: اجْلِسْ فَتَعَشَّ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا، قَالَ: لَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَأَكَلَ وَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ، قَالَ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَقْصُوصِ مِنْ قَتْلِهِ القِبْطِيَّ وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مَدْيَنَ].

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال عُمَرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جَاءَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، قَائِلَةً بِثَوْبِهَا عَلَى وَجْهِهَا، لَيْسَتْ بِسَلْفَعٍ خَرَّاجَةٍ، وَلَّاجَةٍ». وهذا ذَكَرَهُ

ابْنُ كَثِيرٍ[١] عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: هَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَمِثْلُ هَذَا عَن عُمَرَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ التوقُّع، أي: إِنَّهُ تَوَقَّعَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها كانت واضعةً كُمَّ دِرعها عَلَى وَجْهِهَا، لَكِنْ فِي الْآيَةِ لَيْسَ ذَلِكَ بوارد.

والدِّرع يُسمى درعًا؛ لِأَنَّهُ مِثْلُ الدِّرع الذي يُلبس فِي الْحَرْبِ، فوضعت كُمَّها عَلَى وَجْهِهَا حياءً منه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَبِي﴾ هنا ﴿أَبِي﴾ اسم (إنَّ) منصوب بفتحة مُقَدَّرة، وليس منصوبًا بالألف، ولا بالياء، فهذه الياء ليست علامة إعراب، ولكنها ياء المتكلم.

ومِن شروط نَصْب كلمة (أب) بالألف أَنْ تَكُونَ مُضافة لغير ياء المتكلم، قَالَ ابْنُ مَالِكٍ فِي أَلفِيَّته[٢]:

وَشَرْطُ ذَا الإِعْرَابِ أَنْ يُضَفْنَ لَا لِلْيَا كَجَا أَخُو أَبِيكَ ذَا اعْتِلَا

وَنَقُولُ فِي إِعْرَابِهِ: اسمُ (إنَّ) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مُقَدَّرة مَنَعَ مِن ظُهورها اشتغالُ المَحَلِّ بحركة المناسَبة، وهي الكسرة المناسِبة لياء المتكلم.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ اللام للتَّعليل يعني: يدعوك لهذا الغرض.

ومعنى يجزيك: يكافئك بمكافأة، مِن: جَزَى يجزي.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي لتنالَ أجرًا أو عِوَضًا، فالأجر هو العِوَض المأخوذُ مُقابِل عملٍ، وقوله: ﴿مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لأجْلِنا، و﴿مَا﴾ هنا مَصْدَرِيَّة، أي: لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ سَقْيِك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٢٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١١).

وَلَا يَصِحُّ تَقْدِيرُ: أَجْرَ الَّذِي سَقَيْتَ؛ لأَنَّهَا تريد مِن والدها أَنْ يُعْطِيَهُ أجر سَقْيِ الغنَم، ولا تُرِيدُ أَنْ يُعْطِيَهُ أجرَ الغَنَم.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فأَجَابَهَا مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ]، أي أَجَابَ مُوسَى دعوةَ أبيها، وَهُوَ يُضْمِرُ أخذَ أُجرة، وهذا نستنتجه مِنْ أَنَّ مُوسَى فَعَلَ ذَلِكَ للهِ، وَمَنْ فَعَلَ شَيْئًا للهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَأْخُذَ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا، وَلَكِن هَذَا لَا يُعِين أَنْ يَكُونَ موسى يأخذ أجرًا، وَنَحْنُ لَا نَشْهَدُ أَنَّ مُوسَى فِي تِلْكَ الحَالِ حينما أجابَ الدعوة قَدْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ، وَمَا نَدْرِي فَقَدْ يَكُونُ موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يأخذ الأُجرة؛ لأَنَّه محتاج، ويأخذُها لِسَدِّ حاجته، وَقَدْ لَا يَأْخُذُهَا؛ تكرُّمًا منه.

إما أَنَّهُ مَمْنُوعٌ، فإن الإنْسَان يأخذ أجرًا مُقَدَّمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ للهِ، ثُمَّ لَا مَانِعَ أَنْ يَأْخُذَهُ لو كُوفِئ به مكافأةً، بَلْ إِنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا بَعَثَ عُمَرَ عاملًا عَلَى الصَّدَقَةِ وأعطاه، قال: أَعْطِه أَفْقَرَ مِنِّي، فقال: «مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ؛ فَخُذْهُ»(١).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ يتطلع إِلَى أَخْذِهِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: أعطه أَفْقَرَ مِنِّي.

فالإِنْسَان الَّذِي يَعْمَلُ عَمَلًا للهِ إِذَا كُوفِئ عَلَيْهِ لَا يَبْطُلُ عمله، مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ فِي الْأَصْلِ خَالِصَةً للهِ.

إذن: فَدَعْوَى أَنَّ مُوسَى كَانَ مُنْكِرًا فِي نَفْسِهِ أَخْذَ الْأُجْرَةِ لَيْسَ عَلَيْهَا دَلِيلٌ، وَلَيْسَ لَنَا الحَقُّ أَنْ نَتَكَلَّمَ فِي هَذَا، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب من أعطاه الله شيئًا من غير مسألة ولا إشراف نفس، رقم (١٤٧٣)، ومسلم: كتاب الزكاة، باب إباحة الأخذ لمن أعطي من غير مسألة ولا إشراف، رقم (١٠٤٥).

وأما بالمكافأة إِنْ كَانَت مِمَّنْ يُرِيدُهَا فَجرَت بَيْنَ يَدَيْهِ، يعني: أَجْرَ مَا سَقَاهُ لهما، والمعروف أَنَّ الأَجْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَقْدِ إيجار، وَلَمْ يَقَعْ بين موسى، وبين المرأتين عَقْدُ إِجَارَةٍ عَلَى أَنْ يَسْقِيَ لهما، لكن كأنها قَصَدَت بالمكافأة إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فسَمَّت هَذِهِ المكافأةَ أجرًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا، فتَكْشِفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ] هَذِهِ الْقِصَّةُ يأتون بها توطئةً لقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

وَقَدْ سَبَقَ أنه نزع الصخرة العظيمة التي ما يرفعُها إِلَّا عَشَرَةُ رجال، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى قُوَّتِه، وفِعْلُه أثناءَ سَيْرِه معها دَلَّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَفَعَلَتْ إِلَى أَنْ جَاءَ أَبُوهَا، وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ لَهُ: اطْلُبْ. فَتَعَشَّى، فَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عِوَضًا مِمَّا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلِ خَيْرٍ عِوَضًا. قَالَ: لَا، عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نَقْرِي الضَّيْفَ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ. فَأَكَلَ، فَأَخْبَرَهُ بِالْحَالِ].

كُلُّ هَـذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، والذي عَلَيْهِ الدَّلِيلُ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أجاب الدعوة، ومشى حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْأَبِ، وهذا يكفينا أن نعتقد مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ، أَمَّا أَنْ نأتيَ بِشَيْءٍ لَا ذِكْرَ لَهُ فِي الْآيَةِ؛ فلا.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ الْفَاعِلُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾: موسى، ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ﴾ أي: موسى، ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ بمعنى المقصوص؛ لأن القَصَص مصدر، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف:٦٤]، أي: يقُصَّان الأثر قَصَصًا؛

لأَنَّه يُقَّص المقصوص، وَعَلَى هَذَا فَهُوَ مصدر بمعنى: اسم المفعول، والمصدر بمعنى اسم المفعول يأتي كثيرًا، كقوله: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾ [الطلاق:٦]، فهنا ﴿أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ أي: محمول، مَعَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَتعَيَّنُ؛ لِأَنَّهُ قَصدَ المرأة.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَملًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[1]. أي مردُود.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هنا القَصَص مَصدر بمعنى: المقصوص، وَلَا يَكُونُ مصدرًا بمعناه الحقيقي؛ لأن القَصَص فِعْل القاصّ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا يُخْبَرُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُخْبَرُ عنه ويُقَصُّ هو الشَّيْء المقصوص، يعني: القضية، أَوِ الْقِصَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الَّذِي يُقَصُّ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنْ قَتْلِهِ الْقِبْطِيِّ، وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ، وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ] قَصَّ عَلَيْهِ قضيته كُلَّها؛ بِأَنَّهُ كَانَ فِي مِصْرَ مثلًا، وأنه حَصَل كَذَا وَكَذَا، وقتَلَ القِبطي، وَأَنَّ رَجُلًا جاءه فنَصحه أَنْ يَخْرُجَ، فخرج، وَلِهَذَا كَانَ الْقَصْدُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفۡ﴾: ﴿قَالَ﴾ هُنَا جَوَابُ (لَمَّا)، أي: فَلَمَّا جَاءَهُ موسى وَقَصَّ عَلَيْهِ قَالَ صَاحِبُ مَدْيَنَ: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿لَا﴾ هنا ناهية، وَالْمُرَادُ بِهَا حَقِيقَةُ النهي، ولكنها هنا لتطمين هَذَا الرَّجُلِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ قَوْلُه: ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدًا للجُملة فِي المَعْنَى، أي: لَا خَوْفَ عليك؛ لأنك ﴿نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وَمِنْ عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ جاء مطابقًا لسؤال موسى، فموسى قد دَعَا رَبَّهُ عندما خرج خَائِفًا مِنَ الْمَدِينَةِ، ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القَصَص:٢١]،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب إذا اصطلحوا على صلح جور، رقم (٢٦٩٧)، مسلم: كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، رقم (١٧١٨).

فجاء الجواب هُنَا مِن هَذَا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابة لقوله: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة لقوله: ﴿نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهكذا تكون إجابة اللهِ تعالى للمضطر مطابقةً تمامًا لسؤاله؛ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَون على مَدْين، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ، أنه طَمْأَنَهُ بأنه نَجا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ؛ لأن سلطان فِرْعَونَ فِي مِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا، أَمَّا مَدْيَنَ، فَإِنَّهُ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عليها؛ إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ سُلْطَانٌ عليها لما نَجا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

ومَدْيَن بلدٌ قَرِيبٌ مِن مِصْرَ، تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، ولكن الحدود متقاربة، فهُما مَمْلَكَتَان لَيْسَ بَيْنَهُمَا إِلَّا خَطٌّ وَهْمِيٌّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، يستفاد بيانُ الوَقار الَّذِي جعَلَهُ اللهُ لِمُوسَى؛ حيث جَاءَتْ إِلَيْهِ عَلَى اسْتِحْيَاءٍ تَعْظِيمًا لَهُ؛ لِأَنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الإِنْسَان أشدَّ وَقارًا، كان الحياء منه أكثرَ، ولذلك الرَّجُلُ الَّذِي لَيْسَ بِوَقُورٍ تجد النَّاسَ لَا يستحيون منه، ولا يُبالون به، فيَتَفَوَّهُون عنده بِالْكَلَامِ الَّذِي لَا يَلِيقُ، ويفعلون عِنْدَهُ مَا لَا يَلِيقُ؛ لأَنَّه ليس وَقُورًا، ولهذا يقال: احْتَشِم تُحْتَشَم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان كمال خُلقِ هَاتَيْنِ الْمَرْأَتَيْنِ؛ حيث جاءت تمشي، غير مُسرِعة، ولا مُهَرْوِلَة، بل تمشي بهدوء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ أدبها، وكذلك كَوْنُهَا عَلَى اسْتِحْيَاءٍ فِيهِ أَيْضًا مِنْ كمال الأدب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِها: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ يُستفاد منه كمالُ أدب؛ حيث

نسبت الدعوةَ إِلَى الْأَبِ دُونَ نفسها، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ كمال الذَّكاء؛ لِأَنَّ نِسْبَةَ الدعوة إِلَى الْأَبِ أَقْرَبُ إِلَى إِجَابَةِ موسى للدعوة؛ حيث يَكُونُ الدَّاعِي له رَجُلًا، وقد وَصَفَتْه مِنْ قَبْلُ بأنه شَيْخٌ كَبِيرٌ، فتكونُ دعوته لموسى، وتوجيه الدعوة مِنْهُ إِلَى مُوسَى أَقْرَبَ إِلَى الإجابة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذكاء الفتاة، فهي لَمْ تَقُلْ: إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُوَجِّهَ إليه التُّهْمَة مثلًا، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَغْدِرَ به، أو يطلبه، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لكنها قالت: ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وليكون أدعى إِلَى إِجَابَةِ الدعوة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للإنسان كمال الْأَدَبِ فِي الأساليب وإزالةُ الوَحْشَة؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فَإِنَّ فِي هَذَا إزالةَ الوَحْشَة، وَأَنَّهُ يَنبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزِيلَ الوَحْشَة عن المخاطَب، لَا سِيَّمَا فِي المَكَانِ الَّذِي تَعْتَرِيه الوَحْشة.

وكما يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي اللَّفْظِ، يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي حَالِ المَرْءِ، بحيث يُقابِل غيرَه بالبِشر والسَّماحة، وانطلاقِ الوجه، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ أَوْصَافِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ دائمَ البِشر، كثيرَ التبسُّم، وضد العُبوس والتقطيب، وعدم الانشراح؛ فَإِنَّ هَذَا يُوجِبُ لِغَيْرِك أَنْ يَنْفِرَ منك.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا يُوجِبُ أَلَّا يأنسَ بك أَحَدٌ، حَتَّى لَوْ جلس عنده، لَكِنْ إِذَا رآك الْإِنْسَانُ فَإِنَّ فَضْلَ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ، هَذَا الْأَمْرُ قَدْ يَكُونُ اكتسابًا، وَقَدْ يَكُونُ غريزةً؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَهَبُه اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِثْلَ هَذِهِ الخَصْلة الطَّيِّبة، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحرَم منها، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يحاول أن يَتَخلَّق بها.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأشج عَبْدِ الْقَيْسِ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُما اللهُ: الحِلْمُ،

وَالْأَنَاةُ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَخُلُقَيْنِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا أَمْ جَبَلَنِي اللهُ عَلَيْهِمَا، قَالَ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»، قَالَ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ وَرَسُولُهُ»(١).

مِن: حلُم، ويتأنَّى.

فهذا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأخلاق تكون بالتخلُّق، وتكون بالجِبلَّة، والجِبلَّة أثبتُ.

وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ جَبَلَكَ اللهُ عَلَيْهِمَا»؛ لأن التخلُّق قد ينسى الإِنْسَان أحيانًا، ولا يَتَخَلَّق، وَيَكُونُ عَلَى جِبِلَّتِه، لكن الجِبِلَّة لَا شَكَّ أنها أكملُ، وإنما يمكن للإنسان بالتَّعَوُّد والتَّخَلُّق عَلَى الشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خُلقًا له.

والجِبِلَّة أكملُ للإنسان، فَقَدْ يَكُونُ تخلُّقه بالأخلاق الفاضلة مِن جِبلَّته، إِلَى الْآنَ قد يَكُونُ مِنَ الْعَامَّةِ مَنْ لَا يوافقون عليها، وَكَمْ مِنْ أُناس تغيرت طِباعُهم وحَسُنت أخلاقُهم بما مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: قَصُّ الْأَخْبَارِ لَا يُعْتَبَرُ شِكَايَةً، فلو قصصت عَلَى إِنْسَانٍ مَا جَرَى عَلَيْكَ مِنَ المصائب، فَلَا يُعْتَبَرُ ذَلِكَ مِنَ الشكاية إليه، ولهذا يُقال: هذا إخبارٌ.
فالمريض يقول مَثَلًا لِمَنْ سَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ: إني مريض، فَهَذَا إِخْبَارٌ، لَا شَكْوَى، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الشكوى تتضمن طلبَ إزالة الشَّيْء، والتَّضَجُّر منه، وأما الخَبَرُ، فإنه مُجَرَّدٌ عَنْ ذلك، فهو مُجرد إِخْبَارٍ عَنْ أَمْرٍ وَقَعَ.

فالْإِنْسَانِ إِذَا عَبَّرَ عَنْ حالِه -مثلًا- بقوله: وَقَعَ عَلَيَّ ظُلم وكذا وكذا، فَهَذَا لَا يُعَدُّ شِكاية، فَلَا يُمْكِنُ دفعُ ظُلم الظَّالِمِ إلا بِذِكر ظُلمه، ولهذا يَقُولُ اللهُ تعالى:

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في قبلة الرجل، رقم (٥٢٢٥)، وأصل الحديث عند مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله، وشرائع الدين، والدعاء إليه، رقم (١٧).

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى صِدْق صاحب مَدْيَنَ، حيث طمأنه مَعَ ذِكْرِ السَّبَبِ، فقال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾ يُفيد طُمأنينة الرَّجُل، وقوله ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الْعِلَّةُ فِي ذَلِك، فَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لَهُ ﴿نَجَوْتَ﴾ لَظَنَّ الظانُّ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُهوِّن عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ احْتِمالُ أَلَّا ينجو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ معروفون بالظلم عِنْدَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لقوله: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَةٌ؛ لِأَنَّهُ مَا قَالَ: نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِ، بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فإن جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَة، ولهذا لو أَمَرَك الأميرُ، أَوْ مَنْ فَوْقَ الأمير، بأمرٍ تعرف أنه ظالمٌ فيه؛ فإن طاعتك له مُحَرَّمَة، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ طاعة المخلوق فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

• • ۞ • •

الآية (٢٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القَصَص:٢٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ وَهِيَ المُرْسَلَةُ الْكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ اتَّخِذْهُ أَجِيرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنَا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أَيِ اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِهِ حَجَرَ الْبِئْرِ وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةِ أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْهُ وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [المُرْسَلَةُ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى]، ولكننا لَا نَعْلَمُ أيتهما بالتحديد، أما كون القائلة هي المرسَلَة، فَهُوَ بِنَاءٌ عَلَى مَا سَبَقَ مِنْ أَنَّهَا جَعَلَتْ تمشي أمامَه، وجَعَلَت الرِّيح تكشف عن ساقَيْهَا، فقال: كُونِي خَلْفِي. فعَرَفت بِذَلِكَ أَنَّ الرَّجل أَمِينٌ، هَذَا السَّبَبُ فِي قَوْلِهِ: [وَهِيَ المُرْسَلَةُ]، وَلَكِن تَعْيِين القائلة بأنها المُرْسَلَة، أو الباقية أَمْرٌ لَا نَعْرِفُهُ، وحسبُنا أَنْ نُبْهِم ما أَبْهَمَهُ الله تعالى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ هَذِهِ التاء مُبْدَلَةٌ مِن الياء، والأصل: يا أَبِي، و﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، وهذا الأمر ليس بمعناه الحقيقي، فهو ليس

طلبًا للفِعل عَلَى وَجْهِ الاستعلاء؛ لِأَنَّ الْبِنْـتَ لا يُمْكِنُ أَنْ تأمُرَ أباها أمـرًا، ولكنه للاستعانة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [اتَّخِذْهُ أَجِيرًا يَرْعَى غَنَمَنَا بَدَلَنَا]، وهنا فائدتان للبنتين؛ أولًا: سوف تَرْتَاحَان مِنَ الْعَمَلِ، ثانيًا: أَنَّ الرَّجُلَ قويٌّ وأمين، وَنَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ منه، وكذلك نَحْنُ فِي طُمَأْنِينَةٍ مِنْ أَنَّهُ سوف يَسْقِي لنا سَقْيًا كاملًا لقُوَّتِه.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أي: استأجِرْه لقُوَّتِه وأَمَانَتِه.

فقولها ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ حُكم، وقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ تعليلٌ، يعني: استأجره؛ لأَنَّه قويٌّ أمين، لكنها أتت بالتَّعليل عَلَى سَبِيلِ القاعدة العامَّة، لَوْ قَالَتِ: استأجره إنه قويٌّ أمينٌ، صَارَ هَذَا تَعْلِيلًا لمسألةٍ خاصة، وهي استئجار موسى، لكنها أتت بِهَذِهِ الْعِلَّةِ مُنْطَوِيَة تحـت قاعدة عامَّة، وهي: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وهـذان الوصفان هما رُكنان فِي كُلِّ عَمَلٍ، فكل عَمَلٍ لا بُدَّ لَهُ مِنْ هَـذَيْنِ الأمرين، لَا يَكُونُ إِلَّا بِهِمَا، وهما القُوَّة والأمانة، فبالقُوَّة يَكُونُ الْفِعْلُ، وبالأمانة يكون تَمَامُ الْفِعْلِ، فغيرُ القويِّ لَا يَفْعَلُ، وغيرُ الأمين لا يُتَمِّمُ الفِعل، وَقَدْ لا يَفْعَلُهُ أصلًا، وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ الإِنْسَان قويًّا أمينًا حَصَلَ بِهِ تَمَامُ الْفِعْلِ، فِي غَيْرِ المستأجر، يعني: فِي الْإِجَارَةِ إننا نطلب الْقَوِيَّ الْأَمِينَ فِي جَمِيعِ الأعمال، لو وكَّلنا شخصًا عَلَى بَيْعٍ فخيرُ مَن نُوكِّل ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

إذا أَرَدْنَا أَنْ نُؤمِّر شخصًا على قرية، فخيرُ مَن نُؤَمِّرُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُولِّيَ شخصًا عَلَى قَضاءِ بلدٍ فخيرُ مَن نُوَلِّي عَلَى الْقَضَاءِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ، وَلِهَذَا قَالَ الجنِّي لِسُلَيْمَـانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

[النمل:٣٩]، وهو ليس بأجير.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾: [فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَرِ الْبِئْرِ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: امْشِي خَلْفِي، وَزِيَادَةُ أَنَّهُ لَمَّا جَاءَتْهُ، وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ، فَلَمْ يَرْفَعْهُ، فَرَغِبَ فِي إِنْكَاحِهِ]، أي: سألها أبوها عن القُوة والأمانة، وكيفية معرفتها بهاتين الصِّفتين، فَذَكَرَتْ لَهُ، وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ رَفْعِ حَجَر البئر، وكان مِن العادة أَنْ يَرْفَعَهُ عَشَرَةُ أنفس، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّتِه، وكانت تمشي أمامَه والريح تكشف ساقَيْها، فقال: كُونِي وَرَائِي. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَمَانَتِهِ.

كذلك أيضًا زِيادَةٌ مِنَ الْأَمَانَةِ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ بِهَا موسى خَفَضَ رأسَه، فلم يرفعه، وَهَذَا مِنَ الْأَمَانَةِ، لكن نَحْنُ لَا نحتاج إِلَى هَذِهِ القضايا الثلاث، بل هنا يكفينا أنهما عَرَفَتَا أَنَّهُ قَوِيٌّ لِنَزْعِه الدَّلْوَ، وسَقْيِه لهما، وَأَنَّهُ أَمِينٌ؛ حَيْثُ إِنَّهُ سقى سَقْيًا تامًّا، وَلَمْ يَأْخُذْ شَيْئًا مِنَ الْغَنَمِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَمَانَتِهِ.

فالأمانةُ والقُوَّة أُخِذَتَا مِن سَقْيِه، وَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَصطَنِعَ شيئًا لِأَجْلِ أَنْ نُمَهِّد لكونه قويًّا أمينًا، لَيْسَ هناك حَاجَةٌ لهذا، فالإِنْسَان يُعرف بقُوَّته مِن نَزْعِه الدَّلْوَ، فالإِنْسَان يَحْمَرُّ وجهُه، وتَيْبَسُ يَدُه، ولكن مُوسَى لَمْ يَتَغَيَّرْ وجهُه، ونَزْعُهُ بسُهولة ويُسْرٍ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَوِيٌّ، وكَوْنه أيضًا يَسْقِي سَقْيًا كاملًا، فيَدع الغَنَم حتى تروَى، يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَمِينٌ؛ لِأَنَّ غَيْرَ الأمين لا يسقي سَقْيًا كامِلًا، بل ينزع الدلو قبل الرِّيِّ، لكن الأمين هُوَ الَّذِي يَأْتِي بالشَّيْء عَلَى وَجْهِهِ، فَهَذَا وَجْهُ معرفتها لِقُوَّته وأمانتِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الأصلُ وجوبُ طاعةِ وليِّ الأمر، وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ هَذَا الْأَصْلَ؛ إِذْ إِنَّكَ لَا تَدْرِي: هَلْ هُوَ ظالمٌ أَمْ لَا، وَلِأَنَّهُ مِنَ المشقَّة أَنَّ الجُنْدي -مثلًا- إذا أَمَرَهُ مَن فَوْقَه أَنْ يَضْرِبَ، أو يحبس، أَنْ يَقُولَ: لماذا أضربُ؟ لماذا أَحْبِسُ؟ وَلِأَنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى الفوضى، وتَفَكُّك الحُكومة والدولة؛ فلهذا نقول: يَجِبُ عَلَيْك التنفيذُ مَا لَمْ تَعْلَمْ أنه معصية لله.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بالتفصيل، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ الْآمِرُ معروفًا بالظُّلم؛ فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ الْإِقْدَامُ عَلَى مُوَافَقَتِهِ، إِلَّا إِذَا علمتَ انتفاءَ الظلم فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْمُعَيَّنة؛ تقديمًا للظاهر عَلَى الْأَصْلِ، فظاهِرُ حال هَذَا الْأَمِيرِ -مثلًا- أنه ظالم، فَيُقَدَّمُ عَلَى الْأَصْلِ، وَهُوَ عَدَمُ الظُّلم، ووجوب الطاعة، وهذا التقسيم لَا بَأْسَ بِهِ، نعم، فيه ثِقَلٌ أيضًا؛ لِأَنَّهُ -وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا- فقَدْ لَا يَظْلِمُ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ جُنديًّا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِمَامُ معروفًا بالظُّلم، بَلْ قَدْ يَجِبُ أحيانًا إِذَا كَانَ وُجُودُهُ فِي هَذَا يخفف بَعْضَ الْأَشْيَاءِ.

وَلَا يُعَارِضُ قَوْلَنَا هَذَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود:١١٣]، فهو يريد: لَا تَميلُوا إِلَيْهِم بمساعدتهم في الظُّلم.

فأَنْ تَصِيرَ جُنديًّا لَهُمْ هَـذَا لَا شَيْءَ فِيهِ، ولكن أن تَنْضَمَّ إِلَيْهِم وتساعدهم، أو تُقَوِّي جانبهم -ولو مَعنويًّا- فَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: جَواز تكلُّم المرأة بحضور الأجنبي، وَلَكِنْ ظَاهِرُ الْحَالِ أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يكن قد نزلت عليه شريعته بعدُ، وهناك مَنْ يَقُولُ كَانَ الْأَمْرُ

بحضرة شُعيب النَّبيّ. وَلَكِنَّ هَذَا أَيْضًا غَيْرُ مُسَلَّمٍ به.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: يجوز كلام المرأة بِحَضْرَةِ الْأَجْنَبِيِّ حتى عِنْدَنَا فِي الْإِسْلَامِ، ولكن بِشَرْطِ عدم الفتنة، فإن خُشيت الْفِتْنَةُ فِي الْكَلَامِ فيجب الامتناع، فإن الامتناعَ خَوْفَ الْفِتْنَةِ -حتى عَنِ المُبَاحِ- مِنَ الْأُمُورِ المعروفة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تصدير الدُّعاء بـ(رَبِّ)، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثم هَذَا أَيْضًا وَارِدٌ فِي السُّنَّةِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مَشُورة الأدنى للأعلى؛ لقولها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ هنا ليس للإلزام، ولكن للمَشُورة والعَرض، فَقَدْ يَكُونُ الأدنى أَعْلَى مِنَ الْأَعْلَى فِي بَعْضِ الْأُمُورِ، كَمَا أَنَّ المفضول قَدْ يَكُونُ أَفْضَلَ مِنَ الفاضِلِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرُّجُوعُ فِي الْأَعْمَالِ إِلَى هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ: القُوَّة والأمانة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْإِنْسَانُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مَنْ كَانَ قَوِيًّا أمينًا، لقَولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والقوة فِي الْعَمَلِ بِحَسَبِه، فالقُوَّة عَلَى الْأَعْمَالِ البَدَنِيَّة معناها قُوَّةُ الْبَدَنِ، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الفكرية قوة الْفِكْرِ فِي هَذَا الشَّيْء، وَالْقُوَّةُ فِي الْأُمُورِ الحربيَّة الحربُ نفسُها، فَكُلُّ شَيْءٍ قُوَّتُهُ بِحَسَبِه، وباختلال أَحَدِ الْوَصْفَيْنِ يَخْتَلُّ العَمَلُ، فإذا اخْتَلَّتِ القُوَّة، وصار الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ بالعَمَل -وَلَوْ كَانَ مِنْ آمَنِ النَّاسِ- يجب أن يتنحى، أو يجب تنحيته، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأبي ذَرٍّ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (١٨٢٦).

فقوله: «إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا» الضعف هنا ضِدُّ الأمانة، وضِدُّ القُوة، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ أمينًا لكنه ضَعِيفٌ فِي تولي الأعمال.

فعليه نقول: إِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ تَخْتَلُّ فيه القُوة، أو الأمانة، والكمالُ وُجود القُوة، ووجودُ الأمانة.

الآية (٢٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ وَهِيَ الْكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ تكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رَعْيِ غَنَمِي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ أَيْ سِنِينَ ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ أَيْ رَعْيِ عَشْرِ سِنِينَ ﴿فَمِنۡ عِندِكَ﴾ التَّمَامُ ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ بِاشْتِرَاطِ الْعَشْرِ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الْوَافِينَ بِالْعَهْدِ].

قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ هَذَا وَعْدٌ بنكاح، وليس عقدًا، وَعَلَى هَذَا، فَلَا يَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوازِ الْعَقْدِ عَلَى الْمُبْهَمَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ: ﴿أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ ومعناه: أُزَوِّجُك؛ لأن النكاح أصلُه: الضَّمُّ وَالْجَمْعُ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يضم زوجته إليه، ويَسْكُن إليها.

وقوله تعالى: ﴿إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ مُبْهَم؛ فَلَا نَدْرِي: أَهِيَ الكُبرى أَمِ الصُّغرى، ولهذا يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَهِيَ الكُبْرَى، أَوِ الصُّغْرَى].

وقوله: ﴿ٱبۡنَتَيَّ﴾ أصلُها: ابْنَتَيْنِ لي، فحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة؛ وهي

مجرورة بالياء نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّه مُثَنَّى، وحُذفت النُّونُ مِنْ أَجْلِ الإضافة.

وقوله: ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ اسم إشارة لتعيين البنتَيْن، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيَات؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ تُثْبِتُ مَنْ عَدَاهُمَا، أَوْ أَنَّ المَعْنَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قَدْ لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَاتَيْنِ البنتين له، وَهَذَا هُوَ الأقرب.

وأمَّا تعيينُهما بالإشارة، فَلِئَلَّا يَتَوَهَّمَ المخاطَب أَنَّ لَهُ بناتٍ أُخْرَيات، وَلَيْسَ المَعْنَى أَنَّهُ يُعيِّن هاتين لِيُخْرِج بقية البنات.

والغريب أَنَّ بَعْضَ المُفَسِّرِينَ قَالَ: إِنَّ هَذَا لإخراج بقيَّة البنات؛ لأن البناتِ سَبْعٌ، وهذا أخرجهما بالتعيين.

فيُقال: لَيْسَ كَذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، ولكني عندما أقول لشخص: أنا أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ، وعندي امرأتان. فهل يفهم أنها منهن؟ لا، لَا يَفْهَمُ حتى أقول: هاتان. فـ﴿هَـٰتَيْنِ﴾ فِي الْآيَةِ عَلَى هَذَا المَعْنَى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾، يعني: تأجُرني نفسَك، أي تكون أجيرًا لِي فِي رَعْيِ غنمي.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿ثَمَـٰنِيَ حِجَجٍ﴾ أي: ثَمانِي سِنِينَ، وهو جُمع حِجَّة.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا﴾، أي: رَعْيَ عَشْرِ سِنِينَ.

وقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمِنْ عِندِكَ﴾ التمام، وَلَيْس بِواجِبٍ، أَخْبَرَهُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُزَوِّجَهُ إِحْدَى ابْنَتَيْه، وَيَكُونَ المَهْرُ أن يرعى الغَنَمَ ثَمانِيَ سِنِينَ.

وَلَكِنْ مِنْ أين يُعْرَفُ أَنَّ المُرَادَ رعيُ الغنم؛ إِذْ قَدْ يقول: تأجرني نفسك لِأَجْلِ أَنْ تكون بَنَّاء عندي، أو حَرَّاثًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ؟

والجوابُ: أنه يُفْهَمُ مِن سؤال البنات، وسياق القصة، عندما قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، والعَمَل الذي أمامه الْآنَ هُوَ رَعْيُ الغَنَم، فعُرف بِذَلِكَ أَنَّ صاحِبَ مَدْيَنَ أَرَادَ أَنْ يَسْتَأْجِرَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في رعي الغَنَم ثمـانيَ سنوات؛ فإِنْ أَتَمَّ عَشْـرًا، فَمِنْ عِنْدِه، يعني: السَّنَتان تكونان تبرُّعًا، وَالْعَقْدُ عَلَى ثَمانِي سنوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِاشْتِـراطِ العَشْرِ]، وَقَوْلُه هَذَا فِيهِ نَظَرٌ ظاهرٌ؛ لِأَنَّ اشْتِرَاطَ العَشر لو قَبِلَه موسى، فلا مَشَقَّةَ فِيهِ، وإِلَّا لَقُلنا: إن اشتراط الثماني بدل الست فِيهِ مَشَقَّةٌ، وَلَكِنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ أي: فِي حَالِ معاملتك فِي تَنْفِيذِ العَقد، أي: يَا مُوسَى، سأتساهل لَوْ مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ أيام ما رعيت فيها. وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، أو حصل عليك أثرٌ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ غَيْرِهِ؛ فإنني لا أَشُقَّ عَلَيْكَ بهذا.

وتكون عدم المَشَقَّةُ فِي تَنْفِيـذِ الإجارة، أَمَّا فِي زِيَادَةِ المدة، فليسـت بمشقَّة، وإلا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ الثمانيَ بالنِّسبة للسِّت تكون مَشقة. فالصَّواب بلا ريب: لَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ حالَ تنفيذ العَمَل؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ: عندك مَشَقَّةٌ فِي المُعَامَلَةِ فِي حَالِ تَنْفِيذِ العَقد، تجده -مثلًا- لَا يَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَتَأَخَّرَ، وإذا مرض يُلزمه، أَوْ يَقُولُ: عَوِّضْنِي عَنْ هَذَا الْيَوْمِ، أو أَسْقِطْ لِي مِنَ الأجرة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ يَقُولُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾.

وَلِهَذَا قَال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فوعده فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ﴾ فِي المُسْتَقْبَلِ؛ لأن السين هَذِهِ تُحَوِّل المضارع إلى المستقبل، وهي -كما مَرَّ علينا- تُفِيد التحقيق والتقريب، فَفِيهَا ثَلَاثُ فَوَائِدَ إِذَا دَخَلَتْ على المضارع:

تحويله للمستقبل، وتحقيقه، وتقريبه.

قوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن: وَجَدَ يَجِدُ، إذا أَدْرَكَ الشَّيْء، وَلَكِنَّهُ قَالَ: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صاحب مَدْيَنَ مُؤمن؛ لأن كلامه هَذَا يَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ، وَأَنَّهُ عَلَى مِلَّةٍ.

وقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليق، فَهَلْ هُوَ تَعْلِيقٌ يُرَادُ بِهِ حقيقته؟

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِنَّهُ لِلتَّبَرُّكِ]، والذي حَمَلَ المُفَسِّـرَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ وعدٌ منه، والوعدُ إِذَا عُلِّقَ لَمْ يَكُنْ مجزومًا به؛ وَلِهَذَا قَالَ: [﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ]؛ لئلا يُنافِيَ الوعدَ، وَلَكِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ على التَّبَرُّك، بل يَحْمِلُهُ عَلَى التعليق الحقيقي بالمشيئـة؛ لأن عزم الْإِنْسَانِ عَلَى الشَّيْءِ مجـزومٌ به، لكن تنفيذ الشَّيْءِ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يجزم به أبدًا مَهْمَا كَانَ الْعَمَلُ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىٍءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

ولذلك فنحن نَرى أَنَّ قَوْلَهُ: [لِلتَّبَرُّكِ] غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لأن تنفيذ هذا الشَّيْء ليس بيدي صاحب مَدْيَنَ، فإن الأُمُور قد تُخلَف.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جملة مُعترضة بين الفِعل ومفعـوله؛ لِأَنَّ الْفِعْـلَ ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ يَنْصِبُ مفعولين؛ المفعول الأول الياء، والمفعول الثَّانِي قَوْلُه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: الوافِين بالعَهد؛ لأن صلاح كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِه، فهنا المسألة عَقْدُ إِجَارَةٍ، والصلاح فيها يكون بالوفاء، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبِه، وَالصَّلَاحُ فِي الدِّينِ هُوَ الْقِيَامُ بِطَاعَةِ اللهِ، وصلاحُ الطعام أَلَّا يَكُونَ متغيرًا برائحةٍ كريهة، أَوْ فَسَادٍ، فالصلاح فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحسبه.

الآيــة (٢٨)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القَصَص:٢٨].

• • ✿ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذِي قُلْتُهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمانِ أَوِ الْعَشْرِ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ أَيْ رَعِيَّةٌ ﴿قَضَيْتُ﴾ بِهِ أَيْ فَرَغْتُ مِنْهُ ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فتَمَّ الْعَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عِصِيُّ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ، فَأَخَذَهَا مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: قَالَ مُوسَى: ذَلِكَ الَّذِي قلته ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، وَهَذَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِيقَةِ يعني القَبول؛ لِأَنَّ كُلَّ عقد عندنا يَحْتَاجُ إِلَى إِيجَابٍ وقَبُول: إيجابٌ مِن الباذِل، سَوَاءٌ كَانَ بائعًا، أو مُؤَجِّرًا، أو مُزَوِّجًا، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وقَبُول مِن الآخِذ.

الْإِيجَابُ مِن صاحِب مَدْيَنَ لقوله: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي﴾، وَالْقَبُولُ مِنْ مُوسَى بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، ومعناه: إني موافق وقابِل، وذلك بالرغم مِنْ أَنَّ صاحب مَدْيَنَ قَالَ فِي البداية: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى

ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ﴾ ولَمْ يَقُلْ: أنكحتُـك عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي. مِمَّا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ العُقُـود تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ عَنِ الشَّيْءِ لَيْسَتْ هِيَ الشَّيْء، وَلِذَلِكَ لَوْ قَالَ الرَّجُلُ لامرأته: أُرِيدُ أَنْ أُطَلِّقَك، فَلا يَكُونُ طَلَاقًا، لِأَنَّ الْإِرَادَةَ غير الفعل، لَكِنْ هَذَا يَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الراجحِ، الذي نتعرَّض له سَلَفًا فِي ذِكْرِ الفوائد، وَهِيَ أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، مَا لَهَا صيغة معيَّنة، حَتَّى إِنَّهُ ربما تنعقد بِالْفِعْلِ كَمَا فِي انعقاد البيع بالمُعاطاة.

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ الثَّمَانِيَ أَوِ الْعَشْـرَ، وَ(مَا) زَائِدَةٌ، أَيْ رِعْيَةً].

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ (ما) زائدة للتوكيد، وعليه فـ(أَيَّ) مفعولٌ مُقَدَّم بـ﴿قَضَيۡتُ﴾، وَلَا تَصِحُّ مِنْ بَابِ الاشتِغَال؛ لأن باب الاشتِغَال لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي العامل ضمير، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ ضَمِيرٌ، فالسابق مفعول، تقول -مثلًا-: زيدٌ أكرمتُه. هَذَا مِن باب الاشتغال؛ لِأَنَّ فِيهِ ضَمِيرًا، لكن قولك: زيدًا أكرمتُ. بِدُونِ ضمير، هَذَا مِنَ باب المفعول المقدَّم، وَلَيْسَ مِنْ بَابِ الاشتغال، ولذلك هي هنا مَفْعُولٌ بِهِ مقدم؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قضيتُه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَـةً]، ولكن السياق لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، لأَنَّه معروف مِن السياق، فمُوسى سيقضِي الرَّعْيَ فِي الأجلين؛ وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةً]، لَكِنْ هَذَا سَائِرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ الْأَجَلُ عَلَى الْعَمَـلِ، فمعنى ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾: أي المدتيـن قَضَيْتها فِي الرَّعي، فالصَّواب: أَنْ يَبْقَى عَلَى ظَاهِرِهِ، فهو قال ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ بالرَّعْي، وهو محذوف؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ، أَمَّا أَنْ يُقدِّر أَنَّ المفعول رَعْي، وَأَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ التوسع والمَجاز، ففيه نظر.

وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ هُمَا عِنْدَنَا الآن ثَمَانِي سِنِينَ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ، وعشرٌ، وهي نفلٌ مِنْ مُوسَى، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: قضيتُ به، أو فرغتُ منه، والقضاء بمعنى: الْفَرَاغِ مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: أَتَمَّهُنَّ، وانتهى منهن، وَهَـذَا هُوَ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّـةِ، وَأَمَّا فِي الاصطلاح، فَإِنَّ الْقَضَاءَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ: مَا فُعِلَ بَعْدَ فَوَاتِهِ، ولهذا يقولون: الرَّجُلُ إِذَا صَلَّى الصَّلَاةَ بَعْدَ الْوَقْتِ تُسمى قضاءً، وَكَذَلِكَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مَعَ الْإِمَامِ، أَوْ بَعْضُهَا، فقام يصلي، فهذا يسمى قضاء، ولهذا يقولون: إنه يقرأ فِيهِ سُورَةً مَعَ الْفَاتِحَةِ، ويستفتح، ويتعوَّذ، كأنه الآن قَدْ دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ.

والصَّواب أَنَّ قَضَى هُنَا بِمَعْنَى الإتمام، أي: انتهى مِنَ الشَّيْءِ، وَفِي مَسْأَلَةِ الصلاة يُفسره قول الرَّسُول ﷺ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى: «وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(١).

قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾: (لا) نافية، والعُدوان معناه: الظُّلم والاعتداء، يعني: فإذا قضيتُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ؛ فَإِنَّهُ لَا عُدْوَانَ عَلَيَّ بذلك؛ لأنني أتممت العَقْدَ، وَمَن أَتَمَّ العقد فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَاءَ عَلَيْهِ، وَالْعُدْوَانُ فِي مِثْلِ هَذَا الْعَقْدِ يكون -كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ]، وَهَذَا صَحِيحٌ، فقول المستأجِر لموسى: زِدْ. هُوَ مِنْ بَابِ العُدوان.

كذلك ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ في إلزامي بِمَا لَا يَسْتَطِيعُهُ العقل، كَمَا لَوْ طَلَبَ مِنْهُ مثلًا أن يرعى الْغَنَمَ لَيْلًا وَنَهَارًا، كَذَلِكَ لَا عُدْوَانَ عليه بمُمَاطَلَتِه في الأجرة، فإذا

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم (٦٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٣).

قضيتُ الأجَل يتم العَقد.

والمهم: أنَّ العُدوان لَا يَخْتَصُّ بطلب الزِّيادة فقط، بل بِكُلِّ مَا يُتَصَوَّرُ أنه ينافي مُطْلَقَ العَقد.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: [﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أَنَا وَأَنْتَ، ﴿وَكِيلٌ﴾ حَفِيظٌ، أَوْ شَهِيدٌ، فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾، لفظ الجلالَة مبتدأ، و﴿وَكِيلٌ﴾ خبره، والمراد بالوَكالة هنا الحفظ والشَّهادَة جميعًا، فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَوْ شَهِيدٌ] هَذِهِ للتنويع، وليست للشرط، ولكن الأصح أَنَّهَا عَامَّةٌ؛ لأن وَكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى الشَّيْءِ معناه الحفظ والشَّهادَة.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقدَّمت على عاملها، وهو ﴿وَكِيلٌ﴾، والتَّقديم يُفيد الحَصر، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَلَيْسَ عَلَى مَا نَقُولُ فقط، ولكنه حَصَرٌ فِي هَذَا؛ لزيادة الاهتمام به، وَإِلَّا فَلَا شَكَّ أَنَّ اللهَ وكيلٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، ولكن كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الله شَاهِدًا عَلَى شَيْءٍ لَكان شَاهِدًا عَلَى مَا نَقُولُ مِنَ الْعَقْدِ الَّذِي جَرَى بيننا، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان عَارِفًا بِاللهِ، وعنده الفِطرة، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِّئَ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ اعْتِرَافٌ مِنْهُ بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبما لَهُ مِنَ الصفات، لكونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكيلًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

وظاهر الحالة أَنَّهُ لَيسَ هُنَاكَ شهود عَلَى هَذَا الْعَقْدِ، وَلَكِنْ فِي شَرْعِنَا لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الشهود حين كتابة العُقود، فلا يَكْفِي أَنْ يَكْتُبَ شخص مَا فِي الْعَقْدِ: وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، أو شهيد، نَعَمْ نَحْنُ نُقِرُّ بِأَنَّ اللهَ شاهدٌ ونِعْمَ الشاهد، لَكِنَّهُ

لَا يُدلي بشهادته، فليس هناك آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِ مَا قِيلَ، أو تكذيبه، فَاللهُ سُبْحَانَهُ -لَا شَكَّ- نِعْمَ الشاهدُ؛ لِأَنَّ شَهَادَتَهُ فوق كُلِّ شَيْءٍ، يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام:١٩].

ولكننا نقول: أين الْآيَةُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي تَشْهَدُ بأنه حصل كَذَا وَكَذَا؟ فنحن -مثلًا- تأتينا بعض الزَّكوات، ويأتينا فقير يقول: أَنَا وَاللهِ لَا أَمْلِكُ شيئًا، واللهُ شَاهِدٌ عَلَى ذَلِكَ. وَيَقُولُ لَكَ: أَمَا تَقبل الله؟ نقول له: نعم، نَقبل قَسَمَك بالله، لكن اذكُر آيَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ شاهد بذلك، أما مُجرد كلامِك فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ.

والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «لَوْ يُعطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي»[1]، فاذكُر -مثلًا- وَحْيًا مِنَ اللهِ بِذَلِكَ أَوْ آيَةً فِي كِتَابِهِ تَدُلُّ عَلَى صِدقك، فنحن نَقبل شَهَادَةَ اللهِ، وهي فوق كُلِّ شَهَادَةٍ، أَمَّا أَنْ تَقُولَ: إِنَّ هَذَا فِي الذِّمَّةِ، فَهَذَا لَا يُثْبِتُ شيئًا.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَتَمَّ العَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبٌ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السِّبَاعَ عَنْ غَنَمِهِ، وَكَانَتْ عَصَا الأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الجَنَّةِ، فَأَخَذَهُ مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ].

هَذَا مِنَ الإسرائيليات التي ما تُصدَّق، فلا نَجِدُ فِي الْآيَاتِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ أَخَذَ عصًا، أَوْ شَيْئًا، فَقَدْ تَمَّ هَذَا الْعَقْدُ، وَصَارَ يُعْمَلُ له.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه، رقم (١٣٤١).

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: يَجُوزُ أَنْ يُشتقَّ المَهْرُ مِنَ الأب، وَهَذَا فِي حقيقته عَائِدٌ عَلَى الْبِنْتِ؛ لِأَنَّهَا حَصَلَتْ لها فائدة، وهي أنها تَسْلَم مِن رَعْيِ الغَنم، والتعب فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾ هو وعد، وليس عقدًا، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُه: ﴿أُرِيدُ﴾ والمُرِيدُ للشيء قد يَفْعَلُهُ، وَقَدْ لَا يَفْعَلُهُ، لَكِنْ قَوْلُهُ ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَبل أَنْ يُزَوِّجَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يفيد أنهما حاضرتان؛ لِئَلَّا يَظُنَّ أَنَّ هناك مَنِ البنات غَيْرَ هَاتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ تقديم المعمول يَدُلُّ عَلَى الحصر، مَعَ أَنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وكيل، وَهَذَا أَبْلَغُ فِي المُحَافَظَةِ عَلَى الْعَقْدِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنِ الله وكيلًا لكان وكيلًا عَلَى مَا نَقُولُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُ﴾ يُستفاد بَيَانُ أَنَّ مَشُورة الإِنْسَانِ عَلَى أَبِيهِ لَا تُعَدُّ مِن التَنَقُّصِ له.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تلطُّف هَذِهِ المَرْأَةِ فِي مُخَاطَبَةِ أبيها؛ لقولها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، وَلِهَذَا قَالُوا: لَا يَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُنَادِيَ والده باسمه، كَأَنْ يَقُولَ مثلًا: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، يَا عَبْدَ الْعَزِيزِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: إذا نادَى أباه باسمه يُعَزَّر؛ لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الاحْتِقَارِ لَهُ، وأَمَّا الخَبَرُ عَنْهُ باسمه، فَلَا بَأْسَ مِثْل أَنْ يَقُولَ: قَالَ فُلَانٌ، فَلَا حَرَجَ، ولهذا كَثِيرًا مَا نسمع فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ عُمَرُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، بخلاف النداء، فالنداء لَهُ حَالٌ، والخبر لَهُ حَالٌ أخرى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: يَنْبغي في الْقَائِمِ عَلَى الشَّيْءِ، سَوَاءٌ كَانَ متبرعًا، أو بأَجْرٍ، أَنْ يُرَاعَى فيه هذان الوَصْفَان؛ وهما: القُوَّة والأمانة؛ لأن في القُوَّة الْقُدْرَةَ عَلَى التنفيذ، وفي الأمانة الإتمام والإكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان متصفًا بهَذَيْن الوصفين: القُوَّة والأمانة؛ لِأَنَّا قُلْنَا: إِنَّ الجملة هَذِهِ تعليلٌ لقولها: ﴿اسْتَعْجِرْهُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: نُصح هـذا الوالد لبناتـه؛ لِأَنَّهَا لَمَّا وصفتـه بالأمانة والقُـوَّة اختاره، وهكذا يَنْبغي للإنسان أن يختار لبناته مَن يتصف بالقُوة والأمانة.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: جَواز خِطبة الزوج، بِمَعْنَى أَنَّ الرَّجُلَ يَخْطُبُ الرَّجُلَ لابنته عَلَى عكْسِ الْمُتعَارَفِ عَلَيْهِ، وَهَذَا جَائِزٌ، فَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنُ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، حِينَ تَأَيَّمتْ حَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، تُوُفِّيَ بِالمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، فَقَالَ: قَدْ بَدَا لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا، قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ، فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِيَ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَنْكَحْتُهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ، فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكَهَا لَقَبِلْتُهَا[1].

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب شهود الملائكة بدرًا، رقم (٤٠٠٥).

وَهَكَذَا يَتبيَّنُ أَنَّ خِطبة الإِنْسَان الرَّجُلَ لابنته أَمْرٌ مَشْرُوعٌ، ومعروف فِيمَا سَبَقَ، وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: كَرَمُ هَذَا الرَّجُلِ، ووجهُه أَنَّهُ خَيَّـرَ موسى بين البنتين، فقال: اخْتَـرْ إحداهما، وَهَـذَا مِنَ الْكَرَمِ؛ لِأَنَّ التَّخْيِيـرَ فِي الْحَقِيقَةِ أوسعُ للإنسان، وأطيبُ لنفسه؛ حيث يَخْتَارُ مَا يَرَاهُ أنسبَ، لَكِنْ لَوْ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ هَذِهِ البنت، فَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ لَا رغبةَ لَهُ فِيهَا، أَمَّا قَوْلُه: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ فالتخيير يَدُلُّ عَلَى الكرم، وأنه جَعَلَهُ فِي سَعَةٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: جَوَازُ الْعَقْدِ عَلَى المبهمـة؛ إيجابًا لا قَبُولًا، لأَنَّه مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُولُ: زَوَّجْتُك إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول الزوجُ: قَبِلْـتُ نِكاح فلانة. وَهَـذِهِ المَسْأَلَةُ لها أربع صُوَر:

الْأُولَى: إِمَّا أَنْ يَحْصُلَ التعييـن بِالْإِيجَابِ وَالْقَبُـولِ، فيقول: زَوَّجْتُـك ابنتي عائشة. فيقول: قَبِلْتُ. هذا تَعْيِيـنٌ فِي الْإِيجَابِ، وفي القبول، فالإيجاب: الْوَلِيُّ قَالَ: زوَّجتُك ابنتي عائشة. فعَيَّنها، والزوج قال: قَبِلْتُ زواجَ هَذِهِ المَرْأَةِ.

الثَّانية: وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الإبهام فِي الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، فَلَا يَصِحُّ -مثلًا- أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ. فيقول: قَبِلْتُ نكاح إحداهما. فهنا لَا يَجُوزُ، وَلَا يَنْعَقِدُ النِّكَاحُ؛ لأَنَّنا لَا نَدْرِي أَيَّتَهُما التي انعقد نكاحها.

الثالثة: وَإِمَّا أَنْ يَكُـونَ التَّعْيِيـنُ فِي الْإِيجَابِ دُون القَبُـول، فيقول -مثلًا-: زَوَّجْتُك ابنتي عائشة. فيقول الزوج: قَبِلْتُ نكاحَ إحدى بناتك. وَهَذَا لَا يَجُوزُ.

الرابعة: أَنْ يَقُولَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. فيقول: قَبِلْتُ نكاح فلانة. يُسَمِّيها،

فهنا الإبهامُ فِي الْإِيجَابِ والتعيين فِي الْقَبُولِ لَا يَصِحُّ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ التَّعْيِينُ فِي الْإِيجَابِ وَالْقَبُولِ، ولكن الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي. قال: قَبِلْتُ عائشةَ. وهنا حَصَل التعيين، لكن المُوجِب الَّذِي هُوَ الْوَلِيُّ أَرَادَ أَنْ يُفْسِحَ له المجال في الاختيار، فهذا ظاهره صِحَّةُ الْعَقْدِ، لَا سِيَّما إِذَا قَالَ: زَوَّجْتُك إحدى بناتي هؤُلاءِ. وعَيَّنَهم، فقال: قبلتُ عائشة. وَهِيَ مِنَ المُعَيَّنات، فَهَذَا أَيْضًا أَقْرَبُ إِلَى الصِّحة؛ لِأَنَّهُ قَدْ حَصَلَ تعيين بالإشارة، ثم عَيَّن واحدةً منهن بالقَبول.

ولكن قِصَّة مُوسَى هنا لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا حينئذ، ولأنَّه لَمْ يَعْقِدْ عَلَيْهَا بَعْدُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: قد يُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْأَبَ يملك الْعَقْدَ عَلَى ابْنَتِهِ دُونَ رضاها، وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ؛ إِذْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ الْأَبُ قد استأذن منهما قَبْلَ ذَلِكَ، أَوْ أَنَّهُ فَهِمَ منهما الرضا؛ لكونها عَرضَتْ عليه، ووصفته بالقُوة والأمانة.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، حَتَّى لَوْ فَرَضْنَا احتمالَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَأْذِنْ؛ فَإِنَّ شريعتنا وَرَدَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُزَوِّجَ ابنته بِدُونِ رضاها، وأَمَّا الْعَقْدُ إِذَا زَوَّجَ ابنته بِدُونِ رضاها فيُعْتَبَر باطلًا لَيْسَ بِصَحِيحٍ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: جواز اشتراط الأب شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ لَهُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ زوَّجه عَلَى أَنْ يأجُره ثَمَانِيَ حِجَجٍ في رَعْيِ الغَنَم، فَيَكُونُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِطَ الأبُ مهرَ ابنته له، وَهَذَا فِيهِ إشكالٌ بالنِّسبة لشريعتنا؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ﴾ [النساء:٤]، وقال: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة:٢٣٧].

وهاتان الآيتان تَدُلَّان عَلَى أَنَّ المهـر للزوجة، وَهِيَ الَّتِي تملك التَّصَـرُّفَ فِيهِ بِالْعَفْوِ والإعطاء، وليس للأب حَقٌّ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ السُّنَّةُ أَيْضًا؛ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ، أو حِبَاءٍ قَبْلَ الْعَقْدِ فهو للزوجة، وَمَا كَانَ بَعْدَهُ فأحَقُّ ما يُكرَم عَلَيْهِ المَرْءُ ابْنَتُه وَأُخْتُه، فالمهـر الَّذِي قَبْلَ الْعَقْدِ كُلُّه يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِلزَّوْجَةِ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ أَنَّ المَهْـرَ للزوجة، لَا يُشَارِكُهَا فِيهِ أَحَـدٌ؛ لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ بُضْعِها فَيَكُونُ لَهَا، وليس لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ.

والأب لَهُ أَنْ يَتَمَلَّكَ مِنْ مَالِ وَلَدِهِ مَا لَا يحتاجه، ولا يَضُرُّه؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»[1].

فَأَمَّا أَنْ يَشْتَرِطَ مِنْهُ شَيْئًا لِنَفْسِهِ فَلَا؛ لِأَنَّ الشَّـرْعَ لَا يُجِيزُهُ، وَهُوَ أَيْضًا سببٌ للفساد، وملاحظة الأب للمَهر فيُزَوِّج مَن يَشْتَرِطُ لَهُ أَكْثَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُفئًا، وَيَمْنَعُ مَنْ لَا يَشْتَرِطُ له، وَإِنْ كَانَ كُفئًا.

فالمصلحة والشَّرع كلاهما يقتضيان أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْأَبِ أَنْ يَشْتَرِطَ لنفسه شَيْئًا مِنَ المَهرِ، وَالْأُمُّ وَالْأَخُ مِنْ بَابِ أَوْلَى، وقد يوجد خِلَافِ هَذَا من بعض الناس، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، فالواجب أَنْ يَكُونَ المَهْرُ كُلُّهُ للزوجة.

واستدل بِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْضُ الْعُلَمَـاءِ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ يَجُـوزُ أَنْ يَكُونَ المَهْـرُ منفعةً تَسْتَحِلُّها الزَّوْجَةُ مِنْ زَوْجِهَا، يعني: أَنْ يُعْمَلَ لها بناء؛ بأن يَبْنِيَ لها بيتًا، ويأتيَ لها بشيء فائض، والاستدلال واضح؛ لأن رعي الغنم منفعة، إِذْ لَوْ لَمْ يَرْعَها موسى لَقَام بذلك هاتان البنتان، فَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ منفعة لها، ثُمَّ إِنَّ شرعنا وَرَدَ بوفاقه، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الإجارة، باب الرجل يأكل من مال ولده، رقم (٣٥٣٠)، وابن ماجه: كتاب التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، رقم (٢٢٩٢).

لِلرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئًا: «اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»[1]، وهذا منفعة.

لكن لو اشترطَت عَلَيْهِ أَنْ يخدمها، يعني أَنْ يَكُونَ مَهْرُها خدمتها، فمثلًا: هَذِهِ امرأةٌ عجوزٌ كبيرةٌ خَطَبَها إنسانٌ لَيْسَ عِنْدَهُ مَالٌ، أو عِنْدَهُ مَالٌ، وقالت: المهر أنك تخدمني، أن تحملني -مثلًا- لأتوضأ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا تُقَوِّم حذائي، تغسل ثوبي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فهذا فِيهِ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ لَا يَجُوزُ؛ لأن مَقَام الزَّوْجِ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِ الزوجة، فَإِنَّ الزَّوْجَ سَيِّدٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، والزوج رَجُلٌ، فَهُوَ قَوَّامٌ عَلَى المَرْأَةِ، قَالَ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣٤]، والمرأةُ أَسِيرٌ عِنْدَ الزَّوْجِ، قَالَ ﷺ: «أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ»[2].

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ المَهْرُ خدمتَها، انعكست القضية، وصار الأعلى هو الأسفل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، ولكن المَذْهَبُ جَوَازُ ذَلِكَ؛ لأَنَّهَا مَنفعة، وكما يَجُوزُ أَنْ تَتَزَوَّجَهُ عَلَى أَنْ يَبْنِيَ بيتها، ويرعى غَنَمَها، فكذلك أَنْ يَقُومَ بخدمتها، وهذا التَّعلِيل لَا يَمْنَعُ، فيخدمها الزَّوْجُ فِيمَا اشترطت عليه، وتخدمه فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهَا، فتكون خادمةً مَخدومة؛ كحَرْفِ الجَرِّ يعمل فيه الْفِعْل، وَهُوَ يَجُرُّ الاسم، هو عامِلٌ مَعْمُول.

وَقَدْ تَكُونُ مصلحة الزَّوْجِ فِي خدمة زوجته، كأن تكون غَنِيَّة، وينتظر موتها حتى يرث منها، وَقَدْ يَحْدُثُ العكس، لكن الأمر حسب الحال، فَهَذَا رَجُلٌ شَابٌّ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراءة عن ظهر القلب، رقم (٤٧٤٢)، ومسلم: النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، رقم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (٣٠٨٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه: كتاب النكاح، باب حق المرأة على الزوج، رقم (٣٠٥٥).

فقير، وهـذه امرأةٌ عجوز كبيرة عندها أموال عظيمة، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لَا يَضُـرُّ أن أخدمها، فربما تموت، وأَرِثُ منها مالها كُلَّه.

وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا لغيـر هَـذَا السَّبَبِ، قَـدْ يَكُونُ لرفع حَسَبِه؛ لِأَنَّ هَـذِهِ امرأة -مثلًا- مِنْ قَبِيلَةٍ مشهورة، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يرفع حَسَبَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ قَبِيلي؛ فإذا تزوج هَذِهِ المَرْأَةَ المعروفة بِأَنَّهَا مِنْ قَبِيلَةٍ مُعَيَّنة، عُلِم بذلك.

المهم: أن الْآيَةَ فِيهَا اعتبارات.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَان العَمَل عملين: عملًا واجبًا، وعملًا تَبَرُّعًا، فيجوز لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَطْلُبَ استئجار شَيْءٍ مَا مثلًا عَشْرَ سنوات بالأجر، وسَنَتَيْن تبرعًا مِن صاحبها، برغبته ومشيئته.

وَنَظِيـرُهُ مِن بَعْضِ الْوُجُوهِ: أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ لشخص: خُذْ هَـذَا الشَّيْءَ بِعْه بمائة، وَمَا زَادَ فَلَك. فَإِنَّ هَـذَا جَائِزٌ بِشَـرْطِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ كُلٍّ مِن الطرفيـن معرفة بالسعر؛ لئلَّا ينخدع أحدهما باعتبار أَنَّ واحدًا -مثلًا- عنده حاجة يريد بيعها، وَجَاءَ إِلَى الدلَّال، وقال: خذ هَذِهِ الْحَاجَةَ بِعْهَا بمائة، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكُ. فَهَذَا جَائِزٌ، يبيعها بِمِائَةٍ وَعِشْرِينَ، ويأخذ عشرين، أو بمائة وخَمسة ويأخذ خمسة، أو بمائة وعَشَرة ويأخذ عَشَرة، ولكنه يُشْتَرَطُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ لدى كُلٍّ مِن المُوكِّل والمُوكَّل عِلْمٌ بالسعر؛ لئلا ينخدع أَحَدُهُمَا فِي سِعر هَذِهِ السِّلْعَةِ، فهو يعرف -مثلًا- أنها تُساوي مائة، وقد تزيد قليلًا، وقد تنقُص قليلًا.

وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَا يَدْرِي مَا ثَمَنُها، ثُمَّ يَقُولُ: بِعْهُ بمائة. وَهُوَ لَا يَدْرِي أَنَّ سِعرها أربعمائة، فيذهب ذاك فيَبيعها بأربعمائة، أَوْ أَنَّهُ -مثلًا- يَعْرِفُ أَنَّ سعرها لَا يُسَاوِي خمسين، وَالْوَكِيلُ لَا يَدْرِي، فالذي يَغْتَرُّ هُنَا هُوَ الوكيل، وفي المَسْأَلَةِ الْأُولَى المُوكِّل.

وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ الموكِّل يَعْرِفُ أَنَّ سلعتَه لَا تَزِيدُ عن المائة، فيقول للوكيل: اذهب وبِعْهَا بمائةٍ، وَمَا زَادَ فَهُوَ لَكَ. فيذهب وَهُوَ لَا يَدْرِي، يَظُنُّ أَنَّه سيبيعها بِأَكْثَرَ مِنْ مِائَةٍ، فيَظَلُّ يُحاول ويُحاول، فما بِيعت إلا بثمانين، أو تسعين مثلًا، فيَكُونُ فِي هَذَا غَرَرٌ على الوكيل، وَهَذَا لَا يَجُوزُ، والعكس أَيْضًا لَا يَجُوزُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: حُسن معاملة صاحب مَدْينَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أولًا: أنه فَسَحَ لَهُ فِي الْأَجَلِ، فقال: ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾.

ثانيًا: أنه وَعَدَهُ بالتيسير فِي المُعَامَلَةِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾، فهذان دليلان عَلَى أَنَّهُ كَانَ سمحًا فِي مُعَامَلَتِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ إِلَّا مَقْرُونًا بالمشيئة، بَلْ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَهَى نَبِيَّهُ أَنْ يعزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ بِدُونِ قَرْنِه بالمشيئة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف:٢٣].

والقَرْنُ بالمشيئة فِيهِ فَائِدَتَانِ:

الْأُولَى: تفويضُ المرءِ الْأَمْرَ إِلَى اللهِ، وَهَذَا هُوَ تحقيقُ التوكّل.

الثَّانية: تيسيرِ الْأَمْرِ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي قِصَّةِ سليمان: «**لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الاستثناء في الأيمان، رقم (٦٣٤١)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب الاستثناء، رقم (١٦٥٤).

تَرَى هَذَا إِذَا كَانَ الإِنْسَان يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ الفعل، أَمَّا إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ عزيمته عَلَى الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُهُ قول: إِنْ شَاءَ اللهُ، إِذَا كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ العزيمة يقول: سأفعل غدًا، أي: هَـذِهِ نيتي وعزيمتي، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ القَرن بالمشيئـة؛ لأن العزيمة حاصلة، فقد شاءها الله، وَإِذَا كَانَتْ حاصلة، وقد شاءها الله، فليست هناك حاجة أَنْ نَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لِأَنَّ اللهَ شاءها، ففرْق بَيْنَ أَنْ يَقُولَ إنسان: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ وُقُوعَ الْفِعْلِ، وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ: سأزورك غدًا. وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُخْبِرُ عَمَّا فِي قَلْبِهِ مِنَ النِّيَّةِ والعزيمة، بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، ففي الْأُولَى لَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. وفي الثَّانِيَةِ لَا يَحْتَاجُ أَنْ يَقُولَ: إِنْ شَاءَ اللهُ. فالعزيمة أمرٌ واقع، وأَمَّا الفعل فأمرٌ مُسْتَقبل، فهذا أَمْرٌ لَا يُسْتَحَبُّ فِي العزيمة، إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى سَبِيلِ التعليم، فَلَا بَأْسَ، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»(١). يعني: حقًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أَنَّ صَاحِبَ مَدْيَن مؤمن؛ لأن مِثْلَ هَذِهِ الصيغة لَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ مُؤْمِنٍ ملتزم بالشريعة.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ: أن الصَّلَاحَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبه، ففي العبادةِ يكون الصَّلَاحُ فِي الْإِخْلَاصِ والمتابعة. أي: الْقِيَامُ بِمَا يَجِبُ مِنَ الْإِخْلَاصِ، والمتابعة لله، وترك الْمَنْهِيَّاتِ، وفعل المأمورات، وَالصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ بالْوَفَاءِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ، هذا هو الصَّلَاحُ فِي الْمُعَامَلَةِ الْوَفَاءُ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْدُ.

وهنا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ نجد أَنَّ الأَلْيَق

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

بالسياق هو صلاح المعاملة؛ لِأَنَّ المَسْأَلَةَ جاءت تعقيبًا عَلَى عَقْدٍ، فَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى بعده: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعِشْرُونَ: أَنَّ الْعُقُودَ لَيْسَتْ لَهَا صِيَغ مُعَيَّنَة، فتنعقد بما دَلَّتْ عَلَيْهَا، وكذلك الفُسوخ، وكذلك الولايات، كل التصرفات مِنْ عُقُودٍ وفُسوخ وولايات؛ فإنها تَصِحُّ بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا، وَلَا يُشْتَرَطُ لها لفظ مُعَيَّن، بل تُجْرَى عَلَى مَا يتعارفه النَّاسُ بَيْنَهُم، حتى عَقْدِ النِّكَاحِ عَلَى الْقَوْلِ الراجح لَا تُشْتَرَطُ له صيغةٌ مُعَيَّنَة، فيجوز عَقْدُ النِّكَاحِ بأيِّ لفظ يتعارف عَلَيْهِ النَّاسُ، فمثلًا يجوز قولنا: زَوَّجْتُك، أنكحتُك، مَلَّكتُك، عقدتُ لَك عَلَى ابنتي. وكذلك الْأَمْرُ فِي الوقف والسبيل، فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ مُحْتَمِلًا أَنْ يَدُلَّ عَلَى الْعَقْدِ أَوْ لا، حينئذ نرجع إِلَى اللَّفْظِ اللُّغَوِيِّ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عُرف رَجَعْنَا إِلَى الحقيقة اللُّغوية، كما ذَكَرُوا فِي الْأَيْمَانِ وَغَيْرِهَا، فَنَرْجِعُ إِلَى مُقْتَضَى الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمُتَعَاقِدَيْنِ نِيَّة مُسْبقَة؛ لأنَّهما يريدان هَذَا الْعَقْدَ، فَإِذَا كَانَت بينهما نِيَّة معروفة، واتفقا عليها، عُمِل بها.

الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ استَثْنَوْا بعض العُقود، وجعلوا لها صِيَغًا مُعَيَّنَةً، ففي النكاح مثلًا قالوا: لَا يَنْعَقِدُ إِلَّا بِلَفْظِ (زَوَّجْتُك) أو (أَنْكَحْتُك)، فَلَمَّا قِيلَ لَهُمْ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا»[1]. قالوا: هَذِهِ المَسْأَلَةُ تُستثنى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى استثنائها، بل هَذِهِ المَسْأَلَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّكَاحَ يَنْعَقِدُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعُقُودَ تنعقد بِمَا دَلَّ عَلَيْهَا؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾،

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الوليمة ولو بشاة، رقم (٥١٦٩)، ومسلم: كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، ثم يتزوجها، رقم (١٣٦٥).

لَمْ يَقُلْ: قبلتُ النكاح، ولا: قبلتُ الإجارة، وَلَا شَيْءَ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: يُستفاد مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أَنَّ الْعُقُودَ عهود فِي الْحَقِيقَةِ، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ لأن كُلَّ إِنْسَانٍ يعقد مع شخص فَقَدِ التزم أَلَّا يَخُونَه، والتزم أَنْ يَفِيَ له بمُقتضى هَذَا الْعَقْدِ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ عهدًا، فِي سُورَةِ الإسراء يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، وَقَدْ قَالَ قَبْلَهَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٤]، فالوَلاية عَلَى الْيَتِيمِ نَوْعٌ مِنَ الْعَقْدِ، وجَعَلها اللهُ تعالى عهدًا، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبل مَا جَعَلَهُ لَهُ صَاحِبُ مَدْيَنَ مِنِ اختيار أَحَدِ الْأَجَلَيْنِ، حينما قال: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، وبَقِي العقدُ مفتوحًا، يعني: إِنْ أتممتُ العَشْرَ، فلا تعتدي عليَّ بإخراجي مِن بيتي، وطردي عن عملي إِنْ أردتُ العَشر، وإن أوفيتُ بالثماني، فلا تَلُمْنِي، وتَقُلْ: هَذَا الرَّجُلُ مَا وَفَّى.

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أي: لا اعتداءَ عليَّ، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ يَتَوَجَّهُ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَسأل سائل ويقول: كيف يقول: ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾، ثم يَسري عَلَيْهِ عُدْوَانٌ، والرَّجُل وَفَّى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ؟

نقول: ربما يكون عُدوانًا، بمعنى: إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ إتمام الْعَشْرِ لَا يتركه يذهب، وإذا اقْتَصَرَ عَلَى التَّمَامِ يتكَلَّمُ بِهِ فِي المَجَالِسِ، والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: [﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيَّ]، وهذا تَقَدَّمَ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ أَصْلَ طلب الزيادة غير وارد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ: أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حفيظٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ؛ لقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: جَوازُ تَخْصِيصِ الْعُمُومِ لغرض، أي جَوازُ تَعْلِيقِ الشَّيْءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغرض، ويُؤْخَذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾؛ فَإِنَّ هَـذَا يَقْتَضِي تخصيصَ وكالة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما قالاه فقط، وَلَكِنَّ الْأَمْـرَ لَيْسَ كَذَلِكَ، إنما خُصِّص هذا لِغَرَضِ العِناية به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: جواز إشهاد اللهِ عَلَى الْعَقْدِ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾، ولكن شَرْعًا لَا يُقْتَصَرُ عَلَى ذَلِكَ، فأنت تَشهد لله، لَا لغرضٍ آخَرَ، لكن باطنًا فِيما بَيْنَهُمْ، وَبَيْنَ اللهِ يُكتفى به، ويستفيد الرَّجُلُ إِذَا أَشْهَدَ اللهَ، أَوْ جعله الوكيلَ الحفيظَ المُراقِبَ، أَنْ يُذَكِّرَ بانتقام اللهِ مِنْهُ إِذَا خَالَفَ، أو خانَ.

فمَن أَشْهَدَ اللهَ، ثُمَّ خانَ، فَقَدِ استخفَّ به، وَهِيَ كَذَلِكَ فِي حَقِّ المخلوقين، فما بالُك أَنْ تكُونَ فِي حَقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؟!

والله فِي كُلِّ حَالٍ شَاهِدٌ، سواء قُلنا، أَمْ لَمْ نَقُلْ، لكن استشهاده أَمْرٌ عَظِيمٌ، والتزام الإِنْسَان بمقتضى هَذِهِ الشَّهَادَةِ يكون أعظمَ، فَيَكُونُ فِيهِ توكيد للعَقد، إِذَا قُلْنَا: الله شاهدٌ علينا أرأيتَ مَا عِندَنَا أحدٌ، لَكِنِ الْآنَ نُريد نحن وأنت أن نُشهد اللهَ أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الشاهد، إذا وافَقَ هَذَا يَكُونُ أَبْلَغَ فِي التَّأْكِيدِ؛ لأن مخالفته عُرضة للعقوبة، ولهذا قَلَّ مَنْ يَحْلِفُ بِاللهِ كَاذِبًا إلا أُصِيبَ فِي الدُّنْيا قبل الآخرة، وَفِي الْآخِرَةِ إصابتُه واضحة، وَهُوَ أَنَّهُ يَلْقَى اللهَ، وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ، لكن الغالب أنه تُعجَّل له الْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا، والقِصَصُ فِي هَذَا كَثِيرٌ.

فقد حدثني إنسان أَنَّهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شخصٍ خُصومة فِي الْخَارِجِ، فتخاصموا

عِنْدَ الْقَاضِي، فأنكرَ حَقَّهُ، وحَلَف المُدَّعَى عَلَيْهِ، لكنه فِي الْيَوْمِ التالي خرج هو وعائلته إلى الرياض فحصل لهم حادث، وماتت العائلة كلها، مَا بَقِيَ إِلَّا هُوَ، وهذه عُقوبة مُعَجَّلَة.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ الْيَمِينَ الغَمُوس تَدَعُ الدِّيارَ بلاقِعَ، أي: خالية مِنْ أَهْلِهَا، تُدَمِر وتُهلِك، وَإِنَّمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ رِعْيَةٌ]؛ لِأَنَّ الْأَجَلَ، أو الزَّمان نَفْسَهُ لَيْسَ بِيَدِ موسى، بل الَّذِي بِيَدِهِ هو الرَّعْيُ.

• ● ❁ ● •

الآيـة (٢٩)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩].

• • ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أَيْ رَعْيَهُ، وَهُوَ ثَمانٍ، أَوْ عَشْرُ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ زَوْجَتِهِ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ ﴿ءَانَسَ﴾ أَبْصَرَ مِنْ بَعِيدٍ ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ هُنَا ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخطَأَهَا ﴿أَوْ جَذْوَةٍ﴾ بِتَثْلِيثِ الجِيمِ قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ تَسْتَدْفِئُونَ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الِافْتِعَالِ، مِنْ: صَلِيَ النَّارَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَضَىٰ﴾ بمعنى: فرغ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت:١٢]، أي: فَرَغ منهن.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَجَلَ﴾: (ال) هَذِهِ للعهد، يعني: الْأَجَلَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ صاحب مَدْيَنَ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ بينهما أَجَلَيْنِ: أَجَلًا واجبًا، وهو ثماني سنوات، وأَجَلًا تبرُّعًا مِنْ مُوسَى، وهو عَشْرُ سنوات، ولا ندري أَيَّ الْأَجَلَيْنِ قَدْ قَضَى، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ، وَهُوَ ثَمانِي أَوْ عَشْرَ سِنِينَ، وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ]، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ:

[وَهُوَ المَظْنُونُ بِهِ] يَعُودُ عَلَى الْعَشْرِ، يعني: الَّذِي يُظَنُّ بموسى أَنَّهُ أَتَمَّ عَشْرًا.

وَلَكِنَّ الْآيَةَ مُحْتَمِلَةٌ، فترجيح العَشر بِنَاءً عَلَى المَعْلُومِ مِنْ حَالِ مُوسَى ﷺ مِنَ الْكَرَمِ والوفاء، وترجيح أنه ثمانٍ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ، وموسى كَانَ فِي اشتياقٍ إلى بلاده بمصر، وَقَدْ قَالَ فِيمَا سَبَقَ معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملة قد تشير إِلَى أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْأَجَلِ الواجب، وَإِلَّا فَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ إِذَا قَضَى الأجل الأول؛ فَإِنَّهُ لَا أَحَدَ يَلُومُه، أو يعتدي عليه، فلكُلٍّ منهما وجهٌ، وموقفنا نَحْنُ مِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنْ نُبهِمَ ما أَبْهَمَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنقول: قضى الأَجَلَ وَاللهُ أَعْلَمُ أَيَّهما قضاه.

ولكن هناك أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عن عطاء بن السائب قَالَ لَقِيَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَاهِبًا فَقَالَ سَعِيدٌ: أَيّما الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ فَلَمْ يَدْرِ، فَلَقِيتُ ابن عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ: «قَضَى أَوْفَاهُمَا»(١). وَهُوَ الْعَشْرُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ أَكْثَرِ المُفَسِّرين.

وَلَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَا يُوجَدُ مَا يُرَجِّحُه، فتفسيرُ الصحابي ليس صحيحًا مطلقًا، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الصحابي ممن عُرِف بِالْأَخْذِ مِنَ الإسرائيليات، مِثْل ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ السير معناه: المشي، سار بأهله مِنْ عِنْدِ صاحب مَدْيَن وأهله.

---

(١) أخرجه سفيان الثوري في تفسيره، رقم (٧٥٤) موقوفًا على ابن عباس، وقد روي مرفوعًا من حديث جابر بن عبد الله قال: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَوْفَاهُمَا». أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ١٩٢، رقم ٨٣٧٢)، وقال: لم يرو هذا الحديث عن جابر إلا بهذا الإسناد، تفرد به هشام بن عمار. وكذلك من حديث عُتْبَةَ بْنِ النُّدَّرِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: «أَبَرَّهُمَا وَأَوْفَاهُمَا». أخرجه الطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٤، رقم ٣٣٢).

وقوله: ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [زَوْجَتُهُ بِإِذْنِ أَبِيهَا نَحْوَ مِصْرَ]، أَمَّا قَوْله: [زَوْجَتُهُ] فهذا صحيح؛ فَإِنَّ الزَّوْجَةَ تُسمى أهلًا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: [بِإِذْنِ أَبِيهَا] فَهذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْتَاجُ الزَّوْجُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ بزوجته إِلَى إِذْنِ أبيها؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ المرأة صارت مِلكًا له، يسير بها حَيْثُ شَاءَ، اللهُمَّ إِلَّا إِذَا سار بِهَا إِلَى أَمْرٍ لَا يَجُوزُ شَرْعًا، فلها أَنْ تَمْتَنِعَ، ولأبيها أَيْضًا أَنْ يَمنعها، وإلا فالحَقُّ له؛ إِذْ لَوْ شَرَطَ عَلَيْهِ أَلَّا يُسَافِرَ بِهَا يَلْزَمُهُ الْوَفَاءُ، وَلَكِنْ لَوْ أَذِنتْ وأبى أبوها، وقد شَرَطَ عليه، فلها الْحَقُّ أَنْ تسافر؛ لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِهَا شخصيًّا، وقد تَرَى أَنَّ مِنَ الأفضل لَهَا أَنْ تُسَافِرَ مَعَ زَوْجِهَا.

قوله تعالى: ﴿ءَانَسَ﴾ أي: أبصَرَ مِن بَعيد، وأَصْلُ ﴿ءَانَسَ﴾ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْأُنسِ، وهو زوال الوَحْشَة، ولكنها تَأْتِي بِمَعْنَى الإبصار بالشَّيْء؛ لِأَنَّك إِذَا أبصرت الشَّيْء وعرفته زال عَنْك مَا تخشاه.

قوله تعالى: ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ بالضَّم: اسمُ جَبَل، وجانِبُ الشَّيْء: جِهَتُه، أي: مِنْ جِهَةِ الطُّور.

قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ هَذِهِ النار ليست نارًا حقيقيةً، ولكنها نُور، وتُشبه النار، لَمَّا أَبْصَرَ هَذِهِ النارَ، وكان الزَّمَنُ زمَنَ شتاء، والظاهِرُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ اللَّيْلَةَ كانت مُغَيِّمَةً، وأن مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عنده نَوْعٌ مِنَ الاشتباه فِي الطَّرِيقِ، كما تَدُلُّ عَلَيْهِ الْقِصَّةُ، آنس نارًا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ أي: هنا، قَالَ ذَلِكَ لأهله، وقد قَرَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَبْلَ قليل أَنَّ المُرَادَ بأهله الزَّوجة، وهنا قال ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾ وَهُوَ خِطَابٌ لجماعة؛ لأن خطاب الواحدة يكون: امكُثِي، وللخروج مِنْ هَذَا الْإِشْكَالِ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ:

إنه اصطحب معه خادمًا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ أيضًا: إنه وُلِدَ لَهُ مِنْهَا بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ سُلِّمت لَهُ مِنْ أَوَّلِ الْعَقْدِ، وبقيت معه ثماني، أو عَشْرَ سِنِينَ، فولَدتْ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الخطاب ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ مطابقًا للواقع؛ لأن معه زوجةً وخادمًا وولدًا، وهـؤُلاءِ جماعة، وَهَذَا لَيْسَ ببعيد؛ إذ إنه جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَافَرَ، لَا سِيَّما فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، أن يصطحب مَعَهُ مَنْ يخدمه.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾: (لَعَلَّ) هنا للترجِّي؛ لأنَّه يَتَمَنَّى أَنْ يَحْصُلَ لَهُ هَذَا الْأَمْرُ، ﴿ءَاتِيكُم﴾ بمعنى: أجيئكم، وَلَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ اسم فاعل؛ لأنَّه هنا يُرِيـدُ الْفِعْلَ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّـنَ أَنَّهُ متصفٌ بالإتيان، والدَّليل أَنَّك لَوْ حوَّلتها إلى معناها تقول: لعلي أجيئكم، فـ(أجيئكم) واضح أنها فِعل مضارع، فليست هُنَا اسْمَ فاعل.

قوله: ﴿مِّنۡهَا﴾ أي: مِنْ هَذِهِ النار، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّارَ نَفْسَهَا لَا تُعْطِي خبـرًا، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مِنْ عِنْدِهَا؛ لِأَنَّ النَّارَ عَادَةً لَا تشتعل إلا وعِندها أُناس.

وقوله: ﴿بِخَبَرٍ﴾ يَقُولُ فِيهِ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهُ]، وهذا ممكن، وَقَدْ يَكُونُ أَعَمَّ مِنْ قَوْلِهِ هَذَا، فيكون عَنِ الطَّرِيقِ، وعما بَقِيَ مِنَ المسافة، وعن كُلِّ شَيْءٍ، وكلمة (خَبَر) نَكِرَة تُفيد العُموم.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِتَثْلِيثِ الجِيم]، أي بِفَتْحٍ، أَوْ ضَمٍّ، أَوْ كَسْرِ الجِيم، فَإِذَا قِيلَ: بالتثليث، أي بالحركات الثلاث، وَإِذَا قِيلَ بِالْمُثَلَّثَة أي بالثاء.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي مَعْنَى الجَذْوة: [قِطْعَةٌ وَشُعْلَةٌ مِنَ النَّارِ]، أَيْ إِنَّ الجَذْوَةَ عُودٌ فِي طَرَفِهِ نارٌ مشتعلة.

وقوله تعالى: ﴿تَصْطَلُونَ﴾ تستدفئون؛ لأن الصَّلْيَ معناه: الاحتماء بالنار، فالاصْطِلَاء إذن الاحتماء بها، وهو الاسْتِدْفَاء، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بَرْدٍ.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الإفْتِعَالِ] هَذِهِ عِلَّةٌ تصريفية، فتاء الافتعال هِيَ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى فِعْلِ الشَّيْء، فالفعل (اصطلى) أصله (اصتلى)، و﴿تَصْطَلُونَ﴾ أصلها: (تصتلون)، مِثل تبتغون، ولكن القاعدة التصريفية فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ إِذَا وَقَعَتْ تاء الافتعال بعد الصاد، فإنها تُقلب طاءً، وَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِن: صَلِيَ النارَ -بِكَسْرِ اللَّامِ وفتحها- كرَضِيَ، وكرَمَى، ففيها لُغَتان فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥]، مِنْ بَابِ رَضِيَ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:١٢].

يَقُولُ اللهُ تعالى فِي سُورَةٍ أخرى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠]، وَالْخَبَرُ أَعَمُّ مِنَ الْهُدَى، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَنْفِي هَذَا الشَّيْء، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ، وقُلنا: إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ السماء مُغِيمة، وَإِلَّا لَكَانَ يَعرف النجوم؛ لأَنَّه راعٍ، وَقَدْ بَقِيَ ثمانيَ سنواتٍ، ويعرف غالب النجوم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مَنْ تعهد بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يشتغل بِغَيْرِهِ حَتَّى انتهائِه منه؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، وهذه قاعدةٌ مهمة، إِذَا اشْتَغَلَ الإِنْسَان بِشَيْءٍ لَا يَنْتَقِلُ إِلَى غَيْرِهَ حتى يُتِمَّهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ السَّلَفُ، كانوا يبدءون بحفظ القُرْآن، فلا ينتقلون إِلَى غَيْرِهَ حتى يختموه، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يُقدِّر لِلْمَرْءِ مِنَ الأَسْبَابِ مَا توصله إلى الكمال، ذَلِكَ أَنَّ رَعْيَ الغَنَم فيه مصلحة لرعاية الْخَلْقِ فِيمَا بَعْدُ، ولهذا

أَخْبَرَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ «مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ»[1].

فَإِذَا كَانَ الإِنْسَان يتعـود الرعاية، ومسئولية الرعية، فَإِنَّ هَـذَا فِيهِ توطئة لما يُوكَل إِلَيْهِ فِيمَا بَعْدُ.

المهم: أَنَّ اللهَ يُقَدِّر لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا يَصِلُ بِهِ إِلَى درجة الكمال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ -عليهم الصَّـلَاةُ وَالسَّـلَامُ- حتى قَبْل النُّبُـوَّةِ هُم كغيرهم مِنَ الْبَشَرِ؛ يُحِسُّـون بآلام البَرْد، وكذلك بآلام الجُوع وغيره، ويهتدون إِلَى الطَّرِيقِ، وقد يَضِلُّون عنه، وهنا فائدتان شرعيتان:

الْأُولَى: أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الغيب؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ.

الثَّانية: أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لأنفسهم نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا، فإذا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ ضَرًّا لأنفسهم، فلغيرهم مِنْ بَابِ أَوْلى، وهذا مُصَرَّحٌ بِهِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّى مَلَكٌۖ﴾ [الأنعام:٥٠]، وَقَالَ اللهُ تعالى لِنَبِيِّه: ﴿قُلۡ إِنِّى لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ [الجن:٢١-٢٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَرَادَ أمرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ، وَأَنَّ اللهَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُوحِيَ إِلَى نَبِيِّهِ مُوسَى فِي ذَلِكَ المكان، هَيَّأَ له أسبابًا تُوَصِّلُه إِلَى النَّارِ التي رآها وقَصَدَها.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْقَى فِي المَكَانِ الَّذِي فارَقَهُ فيه صاحبُه، لأن مُوسَى قَالَ لِأَهْلِـهِ: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾، حتى يَسْـتَطِيعَ أَنْ يَرْجِـعَ إِلَيْهِم، وَكَذَلِكَ هُم لا يَضِلُّون عَنِ الطَّرِيقِ، وهذه عَادَةٌ مِنَ الحزم.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، رقم (٢٢٦٢).

وَانْظُرْ إِلَى قِصَّة عَائِشَةَ فِي الإِفْكِ[1] لَمَّا جاءَت، ووجَدتِ القَوْمَ قَدْ رَحَلُوا، بَقِيَتْ فِي مَكَانِهَا؛ لأنَّها عَلِمَت أَنَّهُمْ إِذَا فَقَدُوها فسوف يرجعون إليها مَرَّة أخرى، لَكِنْ لَوْ ذَهَبَتْ فَسَتَضِلُّ عنهم، وهُم إِذَا جاءُوا فلن يجدوها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ معاملة موسى لأهله؛ إِذْ جَعَلَ يتطلب لَهُمْ مَا يُدفئهم، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «خَيْرُكُم خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»[2].

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ أَمْرًا أَنْ يُخْبِرَ أَهْلَهُ عَنْ وِجهته؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، خِلَافًا لِمَا يَفْعلُهُ بَعْضُ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يُخْبِرُ أَهْلَهُ، وقد يُقْبَلُ هَذَا فِي الْأُمُورِ العادية، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ والسَّفر -مثلًا- فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَ أهله بوجهته.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: اتخاذ الأَسْباب لَا يُنَافِي التَّوكُّل، بَلْ هُوَ مِنْ تَمَام التَّوكُّل، ومِن تمام معرفة الإِنْسَان بِاللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نأخذ بالأَسْباب؛ حيث إِنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ سببًا، فيأخذ بِهَذِهِ الْأَسْبَابِ حتى يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ، لكن المحظور أَنْ يَعْتَمِدَ الإِنْسَان عَلَى السَّبَبِ ويظن أنه هو الغاية، فالتوكُّل على الله مع الأخذ بالأَسْباب هَذَا مِنْ تَمَامِ معرفة الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ.

•••

(١) أخرجه البخاري: كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا، رقم (٢٦٦١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب المناقب، باب في فضل أزواج النبي ﷺ رقم (٣٨٩٥) وقال: حسن غريب صحيح. وابن ماجه: كتاب: النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم (١٩٧٧).

الآيــة (٣٠)

• ● ۞ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

• ● ۞ ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّآ أَتَـٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ﴾ جَانِبِ ﴿ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ لِمُوسَى لِسَمَـاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ بِإِعَادَةِ الجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ ﴿أَن﴾ مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾].

قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَـٰهَا﴾ أي: جَاءَ إِلَى النَّارِ، ووصل إليها.

قَوْلُهُ تَبَارَكَوَتَعَالَى: ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾: ﴿نُودِىَ﴾ النِّدَاءُ هُوَ دُعَاءُ الشخص بصوتٍ مُرتَفِعٍ، والمناجاةُ: المُسَارَّة، وتكون بصوتٍ منخفض، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٢]، فمُوسى نُودِيَ مِنْ بُعْد، ثم قُرِّبَ فنُوجِيَ.

وكلمة ﴿نُودِىَ﴾ مَبْنِيَّة للمفعول، فالذي ناداه هُوَ اللهُ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦]، فهنا حُذِفَ الفاعِلُ للعِلم به؛ لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِي نَادَاهُ هُوَ اللهُ، بِدَلِيلِ قَوْلِه بعدُ ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القَصَص:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِىِٕ﴾ أي: مِنْ جَانِبٍ، فشاطِئُ الشَّيْءِ جانِبُه،

ومنه: شاطئ النهر، أي: جانبه.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْوَادِ﴾ الْوَادِي: مَجرى الماء، فمَجرى الشَّيْء يُسَمى واديًا؛ لأَنَّه فيه جُمِع، والوَدْي: الجَمْعُ، فعليه يكون مَجْرَى الشَّيْء واديًا.

وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صِفةٌ للشاطئ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠].

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى]، وَهَذَا مَعْلُومٌ؛ لأَنَّه منادى، فَقَدْ يَكُونُ الوادي أمامَ مُوسى، أَوْ هُوَ فِي وَسَطِ الوادي، فيكونُ الأيمن مِنْهُ هُوَ الَّذِي عَلَى يَمِينِ موسى.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ البُقعة: الأرض، أو الشَّيْء المتميز عَنْ غَيْرِهِ، ومنه: بُقَعُ المَاءِ فِي الثَّوْبِ مثلًا، فالبُقعة هي: الجانبُ مِنَ الْأَرْضِ المميَّز -مثلًا- بأشجار، أو شِبْهِها.

وقوله: ﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ معناه: التي أَحَلَّ اللهُ فِيهَا البَرَكَةَ، والبَرَكةُ الخَيْرُ الْكَثِيرُ الثابتُ؛ لأَنَّه مُشْتَقٌّ مِنَ: بِركة الماء، وبِركةُ الماء تكون مُجْمَعًا لَهُ مَعَ ثُبوته فيه، والبَرَكة تَكُونُ مِنَ اللهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مُبارَكٌ لشخصه، بَلْ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ مِنَ البَرَكة.

وقد مَرَّ علينا بحثٌ فِي كَوْنِ الإِنْسَان يُتَبَرَّكُ به، وهل يَصِحُّ هَذَا أَمْ لَا؟ وقلنا فِيمَا سَبَقَ: إِنْ كَانَ المُرَادُ البَركة الشخصية، فَهَذَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، إلا للنبي ﷺ، وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بالبَركة مَا يَحْصُلُ مِنْهُ مِن مَنافِعَ عِلمِيَّةٍ، أَوْ مَالِيَّةٍ؛ فَإِنَّ هَذَا صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ قَدْ يَكُونُ مجلسُه مُباركًا ينفع الحاضرين؛ إما بالذِّكر، وإما بالعِلم، وإما بالمال، وإما بالآداب، والأخلاقِ، هَذِهِ بركة لَا شَكَّ، وبعضُ النَّاس يكون بالعَكس

مَشْئُومٌ على جَلِيسه، كَمَا أَنَّ مِنَ النَّاسِ أَيْضًا مَنْ يَكُونُ مِفتاحًا للخَير، ومِغلاقًا للشَّرِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ بالعكس.

لكن المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ قَيَّدها قَيْدًا حَسَنًا، فقال: [مُبَارَكَةٌ لِمُوسَى]، فهي مُبارَكة فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بالنِّسبة لموسى، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ لها صِبْغَةٌ دينية، وليست مُقَدَّسَةً بَعْدَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ هَذَا خَاصٌّ فِي وَقْتِ تكليم موسى.

ومنه أيضًا: غَارُ حِرَاءٍ، فهو بالنِّسبة للرسول ﷺ مُبارَك، لكن حين نُزول الوحي عَلَيْهِ فِيهِ، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَيْسَتْ له صِبغة دينية، ولهذا مِن البِدع أَنَّ الْإِنْسَانَ يَذْهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ ليزورَه تعبُّدًا، وكذلك غارُ ثَوْرٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ يزوره اطلاعًا فقط؛ فَإِنَّ هَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا حَرَجَ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ التعبد.

فمِن هَذِهِ الأماكن التي ما تثبت لها قُدسية عامَّة، تكون قدسيتُها خاصَّة في حِينِها فقط، ولِمَن هِيَ لَهُ أَيْضًا، وأَمَّا لِغَيْرِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهَا هَذَا الْحُكْمُ.

ولهذا كان مِنْ أَحْسَنِ مَا صَارَ عَلَيْهِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ تقييدُه هنا بموسى؛ لسماعه كَلَامَ اللهِ فِيهَا فِي هَذِهِ البُقعة، وَلَا شَكَّ أَنَّ الاستماع إلى كَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يُشْبِهُهُ أيُّ استماع؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِدُ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ المناجاة مَا لَا يَجِدُهُ في مناجاة أَيِّ أحد؛ لأنَّه أحب شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ كُلَّمَا خاطَبَ محبوبَهُ صار أَشَدَّ تَلَذُّذًا بكلامه معه، مَعَ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يُشْبِهُهُ كلام.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللهِ فِيهَا]، وكلام الله سَمِعَهُ مِنَ اللهِ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ، وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة، وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ الأشاعرة، فقالوا: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ المَعْنَى القائمُ بالنفس، وَإِنَّ مَا يُسمع مخلوقٌ خَلَقه اللهُ عَزَّوَجَلَّ ليُعبرَ بِهِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ.

وَعَلَى هَذَا يكون مُوسَى لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَ اللهِ، وإنما سَمِعَ مَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ تعالى.

وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ أَيْضًا المعتزلة والجهميَّة، وقالوا: إنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، يَخْلُق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أصواتًا فِيمَا أَرَادَ؛ إمَّا فِي جبريل، وَإِمَّا فِي الشَّجَرَةِ، وَإِمَّا فِي الْأَرْضِ، فتُسمَع هَذِهِ الأصواتُ، فيُنسب الْكَلَامُ إِلَى اللهِ مِنْ بَابِ التَّشبيه، والخَلق، والتكوين.

وعندما نُمَحِّص الأمر نجد أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الأشاعرة والمعتزلة فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ مُتَّفِقُونَ أَنَّ مَا يُسْمَع فهو مخلوق، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللهِ، وفي الْحَقِيقَةِ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَ، لكن الأشاعرة تلطَّفوا فِي الْأَمْرِ، وقالوا: إِنَّ الْكَلَامَ معنًى قائمٌ بالنفس يُعَبَّرُ عَنْهُ بالأصواتِ، لا يُعبِّر المتكلم، يَخْلُقُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ.

ولا ريب أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة هو المذهب الصحيح الموافقُ للنقل والعقل، يقولون: إنَّ كَلَامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنَ اللهِ، وإنَّ كَلَامَ اللهِ بحرفٍ وصوت، أما الحرف فَهُوَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ تَبَارَكَوَتَعَالَى، مما يستعمله النَّاسُ فِي نُطقهم.

وأما الصوت فَإِنَّهُ لَا يُشْبِهُ أصواتَ المخلوقين، وكيف يُشبه أصواتَ المخلوقين وهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَى «إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَـوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُـزِّعَ عَنْ قُلُـوبِهِمْ، وَسَكَنَ الصَّـوْتُ، عَـرَفُوا أَنَّهُ الحَقُّ وَنَادَوْا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]»(١).

يقول المُفَسِّرُ: [﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ شَاطِئِ؛ لِإِعَادَةِ الجَارِّ لِنَبَاتِهَا فِيهِ].

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا: كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]، موقوفًا على ابن مسعود.

قوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هنا تخصيص بعد تخصيص، تخصيص بالنِّسبة لجانب الشاطئ أنه الأيمن، وَفِيهِ أَيْضًا تخصيصٌ ثانٍ بالنِّسبة للشاطئ، وَهُوَ أَنَّهُ مِنَ الشجرة: نُودِيَ مِنَ الشجرة، أي: مِن ناحيتها، وليس مَعْنَاهُ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ الشَّجَرَةِ.

والمعتزلة يقولون: إنَّ النداء مِنَ الشَّجَرَةِ، وإنَّ الشجرة خُلِق فيها صوتٌ سمعه مُوسَى عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ.

وَلَكِنَّ المُرَادَ مِنَ الشَّجَرَةِ، أي: مِن ناحيتها، وجِهَتِهَا، بِدَلِيلِ مَا يَأْتِي: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُولَه الشجرة، ولو قالته الشجرة لَقَالَ لَهَا موسى: كذبتِ. ولكن الَّذِي يَقُولُ ذَلِكَ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِنَبَاتِهَا فِيهِ، وَهِيَ شَجَرَةُ عُنَّابٍ، أَوْ عُلَّيْقٍ، أَوْ عَوْسَجٍ، (أَنْ) مُفَسِّرَةٌ لَا مُخَفَّفَةٌ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾]: [أَوْ] هَذِهِ لتنويع الخلاف، وهذا أَمْر لَا يَهُمُّنا.

المهم: أنها شجرة نُودِي منها عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

و(أَنْ) مُفَسِّرة، والمُفَسِّرة هِيَ الَّتِي بمعنى (أَيْ)، وَهِيَ الَّتِي تأتي مُفَسِّرةً لِمَا فِيهِ مَعْنَى الْقَوْلِ دُونَ حُروفه، فالنداء -مثلًا- فِيهِ مَعْنَى القول، أما حروفُ القول فهي كلمة (قال) ومُشْتَقَّاتُها، قَالَ تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون:٢٧]، (أَنْ) هَذِهِ مُفَسِّرة؛ لأنَّها أتت لِمَا فِيهِ مَعْنَى القول، وهو الإيحاء دُون حروف القول، ولهذا سمَّيناها هنا مُفَسِّرة؛ لأنَّها فَسَّرت النداء بالقول؛ إذْ إنَّ مفعولها قوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وَهُوَ مَفْعُولُ قول، ولهذا يقول: إنها مُفَسِّرة؛ لأنَّها فَسَّرت مَعْنَى الْفِعْلِ المتضمِّن القولَ دون حروفِ القولِ.

وقوله: [لَا مُخَفَّفَةٌ] الصَّواب أنها ليست مُخَفَّفَةً مِن الثَّقِيلة، فَلَا تَصِحُّ أَنْ تَكُونَ مُخَفَّفَةً؛ لأنَّه ينطبق عليها معنى التفْسِيرِيَّة، هَذِهِ واحدة.

وأيضًا المُخفَّفة تَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، وَهُوَ غَيْرُ مَوْجُودٍ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [لَا مُخَفَّفَةٌ] إِشَارَةٌ إِلَى نَفْيِهِ؛ لِأَنَّ بَعْضَ المغرضين يقولون: إنها مُخَفَّفَة.

قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، أي: الذي أُخاطِبُك.

قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ بدأ بالأُلوهيَّة؛ لِأَنَّهَا هِيَ المَقْصُودُ، ثُمَّ قَالَ: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فَثَنَّى بالرُّبوبية؛ لأن الرُّبوبية فِي الحَقِيقَةِ وَسِيلَةٌ إِلَى الأُلوهية، ولهذا مَنْ أَقَرَّ بالرُّبوبية لَزِمَهُ أَنْ يُقِرَّ بالألوهية، وَإِلَّا كَانَ متناقضًا، وَاللهُ تعالى يحتجُّ عَلَى المُشْرِكِينَ بالأُلوهية دائمًا بإقرارهم بالرُّبوبية؛ لِأَنَّ مَنْ أَقَرَّ أَنَّ اللهَ ربُّه؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: إذن، يَجِبُ أَنْ تَعْبُدَ هَذَا الرَّبَّ، إذا عبدْتَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَإِنَّك لَمْ تَصدُق في إقرارك بِرُبُوبِيَّتِه، فهُما مُتلازِمان؛ وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فجَعَل الخَلْقَ الَّذِي هُوَ مِنْ مُقْتَضَى الرُّبوبية دليلًا مُلزِمًا لعبادته.

في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ الياءُ اسْمُ (إِنَّ)، و﴿أَنَا﴾ مبتدأٌ ثانٍ، ولفظ الجلالة خبرٌ للمبتدأ الثَّاني، والجُملة الاسميةُ مِن المبتدأ وَالخَبَرِ فِي مَحَلِّ رفعِ خبرُ (إِنَّ)، وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خَبَرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَا﴾.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الربُّ هُوَ المَالِكُ والمُدبِّر لجميع الأَشْياء، وقوله: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المُرَادُ بِهِمْ مَن سِوَى اللهِ، وجَمعَهم باعتبار أصنافهم، وإلا فالعالَم هو كُلُّ مَا سِوَى اللهِ، والجَمع لوجود عالَم الإنس، وعالَم الجن، وعالَم البهائم، وعالَم

الملائكة، فجُمعوا باعتبار أجناسهم، وهذه الرُّبوبية عامَّة، وقد مرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، كَمَا أَنَّ الْعِبَادَةَ، أو العُبودية تَنْقَسِمُ إِلَى عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ، وَقَدِ اجْتَمَعَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف:١٢١-١٢٢]، فقوله: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هَذِهِ عامَّة، و﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصَّة.

فائدة: مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ يتكلم بِحَرْفٍ وصوتٍ، والحرفُ مِنْ جِنْسِ الحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا النَّاسُ، وَهَذَا لَا يَقْتَضِي التَّشبيه؛ لأن الحروف هَذِهِ لَيْسَتْ صِفَةً لله، بل صفةُ الله الصوتُ؛ أمَّا الحروف، فإنها منطوقٌ بِهَا وَلَيْسَتْ نُطقًا، فلا يُوجد تشبيه.

فقوله: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ يَعْنِي بِهِ: تحديد المكان؛ لأن شاطئ الوادي واسع وعامٌّ، فتخصيص المكان يكون أَبْيَنَ؛ إِذْ إِنَّ مُوسَى لو نُودِيَ مِنْ جَمِيعِ الشاطئ لَالْتَبس عَلَيْهِ الْأَمْرُ، لَكِنْ إِذَا حُدِّدَ النِّداء مِنْ جِهَةٍ مُعَيَّنَة خاصَّة، صَارَ هَذَا أَبْيَنَ له وأَوْضَحَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ كلامِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن المنادِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿نُودِىَ﴾، هُوَ اللهُ؛ لِقَوْلِهِ تعالى فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ كَلَامَ اللهِ تعالى بالقول؛ لقوله: ﴿نُودِىَ﴾، والنداء يكون بِصَوتٍ للبَعيد، والمناجاةُ بصوتٍ للقريب.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الرَّدُّ عَلَى الأشاعِرَة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ المَعْنَى القائم بنَفْسِه، وَلَا شَكَّ أَنَّ المَعْنَى القائِمَ بالنفس لَا يُسَمَّى كلامًا، وَلَا يُسْمَعُ، وكلام اللهِ تعالى يُسْمَع.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الرَّدُّ عَلَى الجهمية والمعتزلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ مخلوقٌ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُ ثَبَتَ أَنَّ النِّدَاءَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنداءُ قولٌ، والقولُ لا يُؤْخَذُ إِلَّا بقائل، فَيَكُونُ الْقَوْلُ قَوْلَ اللهِ، وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ فَإِنَّهَا غَيْرُ مخلوقة؛ لأنَّها وصفٌ لمن اتَّصَفَ بها، فَإِذَا كَانَت وَصْفًا للخالِق، فَهِيَ غَيْرُ مخلوقة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْأَرْضَ تكون مُبارَكَة بَرَكَةً ظاهِرِيَّة، لَا بَرَكَةً مُطْلَقَةً؛ لقوله: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ فالبَرَكَة هنا لِموسى، لا لِكُلِّ أَحدٍ، كَما قَالَهُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَرْفٍ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا جُمَلٌ مُكَوَّنَة مِن حروف، وَيَكُونُ فِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الأشاعرة؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: الْكَلَامُ هُوَ المَعْنَى القائمُ، فأنا عندما يَكُونُ هَذَا الْمُضمَر هُوَ الْفِعْل، وما سُمِع فَلَيْسَ هُوَ الكلام، بَلْ هُوَ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لا يَجُوزُ، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تَجاوزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَها، ما لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ»[1].

فَبَيَّنَ أَنَّ الْكَلَامَ غَيْرُ حَدِيثِ النَّفْسِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبيـة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لقـوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمَا أَنَّ العُبودية أَيْضًا فِي الْأَصْلِ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة، كَمِثْلِ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـٰوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، فهـذه مِنَ الْخَاصَّةِ، لَكِنْ مَنِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيًا في الأيمان، رقم (٦٢٨٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم (١١٦).

المقرَّر أن الأصل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:٩٣]، وهذه عامَّة، وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، هَذِهِ خَاصَّةٌ.

• • ❁ • •

الآية (٣١)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ [القصص:٣١].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فَأَلْقَاهَا ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ هَارِبًا مِنْهَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيْ يَرْجِعُ فَنُودِيَ ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ﴾، أي: ونودي أَيْضًا أَنْ أَلْقِ عَصَاك، و﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ بمعنى: ضَعْ عصاك عَلَى الْأَرْضِ، وهذه العصا قَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةِ طَه فائدتُها بالنِّسبة له، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]، وَقَدْ ذُكِرَ فِي التَّفْسِيرِ هَذِهِ المآرِبُ، فقيل: يَحْفِرُ بها، ويَدْفَع بها السِّباع، ويدفع بِهَا عَنْ نَفْسِه.

ونَجِدُ أنه فَصَّل فِي ذِكْرِ مَنَافِعِهَا، ثم أَجْمَلَ فِي ذِكْرِ فائدتها فِي دَفْعِ المفاسد، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ الْأَدَبِ فِي الْحَدِيثِ، وتجدون أَنَّهُ فِي مَقَامِ الإثبات يُؤتى فيها بالتفصيل، وفي مَقَام النفي يُؤتى فيها بالإجمال غالبًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، أي: تتحرك، لكن بِنَوْعٍ مِنَ الاضطراب، ومعروفٌ أَنَّ الحَيَّة تتحركُ يمينًا وَشِمالًا، و﴿رَءَاهَا﴾ أي: أَبْصَرَها، وَعَلَى هَذَا تَكُونُ

جُملة ﴿تَهْتَزُّ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصْب عَلَى الحَالِ، وليست مفعولًا ثانيًا؛ لأن (رأى) البَصَرِيَّة لا تنصب إلا مفعولًا واحدًا.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ هي الحيَّة الصغيرة، وتشبيهُ العَصا بالجانِّ لسُرعة حركتها، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ فَسَّر الجانَّ بأنها الحيَّة الصغيرة، وَاللهُ تعالى يَقُولُ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٧]، والثعبان هو الذَّكَرُ مِنَ الحيَّات الكبير، ويجمع بينهما بأنه أَوَّلَ مَا ألقاها صارت كالجانِّ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَضَخَّمَت، حَتَّى صَارَتْ ثُعبانًا مُبِينًا عند السَّحَرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي: هاربًا منها، وهذه الجُملة جوابُ ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾، و﴿مُدْبِرًا﴾ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ويُسَمُّونها حالًا مُؤَكِّدة؛ لأن التَّوَلِّيَ معناه الإدبار، فهي حالٌ مُؤَكِّدَة لعامِلِها؛ إِذْ إِنَّ مَعْنَى الإدبار مَفْهُومٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَّىٰ﴾، ولكنها جاءت للتأكيد، وقوله: ﴿مُدْبِرًا﴾ يعني: ولَّاها دُبره، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [هَارِبًا]؛ لأن الهارب ينصرف عَكْسَ اتجاهِه، فأنت أولًا تنصرف عَنِ الشَّيْءِ فتُسمَّى مُوَلِّيًا، ثم تُسَمَّى هاربًا إذا انْصَرَفْتَ باتجاهٍ مُعَاكِس.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: يَرْجِعُ، فَنُودِيَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾]، ولهذا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ عَلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ لِأَنَّه لَوْ وَصَلْنَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ بقوله: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ لظنَّ الظانُّ أَنَّ الْكَلَامَ واحدٌ، ولكن الكلام انفصل، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقْبِلْ﴾ مُقابل التولي، و﴿لَا تَخَفْ﴾ مُقابل الهَرَب؛ لأن الهارب يكون خائفًا، ثم طمأنه بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾؛ تأكيدًا لقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾؛ لأن الآمِن لَا يَخَافُ، وإنما يخاف مَنْ لَيسَ عِنْدَهُ أمنٌ، وهنا قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾

ولَمْ يَقُلْ: إنك آمِنٌ. بَلْ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، وَهَذَا مِنْ مُرَاعَاةِ الفَوَاصِل، لكنَّ هَذِهِ المناسبة لفظيةٌ؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ اللهَ آمَنَهُ، وليتذكَّر أَنَّ هُنَاكَ آمِنِين؛ فَإِذَا كَانَ هُنَاكَ آمنون، فَإِنَّهُ لَا غَرَابَةَ أَنْ تأْمَنَ، أي: لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إذا ذُكِّر بِمَا حَدَثَ لِغَيْرِهِ صَارَ أَشدَّ طُمَأْنِينَةً فِي حُصُولِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، ونَظِيرُه بالعَكْس، هُوَ قَوْلُ فِرْعَون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩]، ولَمْ يَقُلْ: لَأَسْجِنَنَّكَ؛ لِأَجْلِ أَنْ يُرْهِبَه بأَنَّ عِنْدَهُ مَنْ هُوَ مسجونٌ، وأَنَّهُ لَيْسَ يُعْجِزُنا أن نَسْجِنَك.

والحاصِلُ: أَنَّ مِثْلَ هَذَا يُقَالُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يتذكر مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هُنَاكَ أُناسًا آمِنِين، فيأمَنُ أكثرَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا دَلِيلٌ أَنَّ مُوسَى كانَ من سُنَّتِـه حَمْل العَصَا؛ لقوله: ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لأَنَّه بمجرد أن ألقاها صارت تهتز ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، فبِمُجَرَّد الإلقاء هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الْقُدْرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى حِكمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا، حيث إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مناسِبة لِمَن سيُقابِلُهم موسى، وهُمُ السَّحَرة، مُقابِل الآية هناك، وَهَذِهِ الْآيَةُ مُناسبة تمامًا لهم؛ لأنَّهم سوف يَعْجِزُون عن مُقابلتها، كما حَصَلَ مِنَ السَّحَرَةِ حين آمَنُوا لِمَا رأوا دليل صِدق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذِهِ العصا حركتُها سريعة؛ لأن الجانَّ مِن الحَيَّات هي التي عُرِفت بالحركة السريعة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ مَا يَجُوزُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْخَوْفِ الطبيعي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ مَعَ أَنَّ مُوسَى -كما تعلمون- كَانَ مِنَ الرجال الأقوياء، لكنَّه يَعْتَرِيه ما يَعْتَرِي غَيْرَهُ مِنَ الْبَشَرِ، وَقَدْ سَبَقَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ المَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: عنايةُ اللهِ تعالى بِه، حيث ناداه وطَمْأَنَهُ بقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَفْ﴾، بل طَلَبَ مِنْهُ الْإِقْبَالَ إِلَيْهِ ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عناية اللهِ بِهِ، وَمَحَبَّتِهِ لَهُ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للمُستدعي لِغَيْرِهِ أَنْ يَذْكُرَ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ لَوْ قَالَ: لَا تَخَفْ. فإنه يَزُولُ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكُونُ مُطْمَئِنًّا تمامًا، وَلَكِنَّهُ إِذَا قَالَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ ازداد بذلك طُمأنينةً.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي ذِكر النُّظراء، أو الإشارة إِلَيْهِم، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَثْبَتَ للقَلب؛ لقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾.

الآيـة (٣٢)

• • ❁ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [القصص:٣٢].

• • ❁ • •

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ ٱسْلُكْ ﴾ أَدْخِلْ ﴿يَدَكَ﴾ الْيُمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أَيْ بَرَصٍ، فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تَغْشَى الْبَصَرَ ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ بِفَتْحِ الْحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الْأَوَّلِ وَضَمِّهِ، أَيِ الْخَوْفُ الْحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ الْيَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ فَتَعُودَ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْجَنَاحِ لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، أَيِ الْعَصَا وَالْيَدُ وَهُمَا مُؤَنَّثَانِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمُشَارَ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ مُرْسَلَانِ ﴿مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾].

قول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ اليدَ بِمَعْنَى الْكَفِّ، لا داعِيَ له هنا، لِأَنَّ الْمُرادَ باليد عِنْدَ الْإِطْلَاقِ الكَفُّ، ولهذا لَمَّا قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فالمراد بالأيدي الأَكُفُّ، أَمَّا إِذَا أُرِيدَ باليَدِ غيرُ الكَفِّ فإنها تُقَيَّد، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة:٦]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦]، فالمراد مَسْحُ الكَفِّ فقط، وليس اليَدَ كُلَّها.

وقوله: [اليُمْنى] لا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ عَلِمَ ذلك، فالآية لَيْسَ فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى هَذَا، ولهذا فإن الأَوْلَى أَنْ نجعلَها مُبْهَمَةً كما أَبْهَمَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يَهُمُّنا أَنْ تَكُونَ الْيَدَ الْيُمْنَى، أو اليسرى.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فِى جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ وَأَخْرِجْهَا].

قوله: [وَأَخْرِجْهَا] الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّر طلبًا مناسبًا للجَواب؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مجرد إدخالٍ، بَلْ إِذَا أَخْرَجَها خَرَجَت بيضاء، لكن الحقيقة أَنَّهُ لا داعيَ إِلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ لا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ ﴿تَخْرُجْ﴾ جوابًا لقوله: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ فَإِنَّك إِذَا قُلْتَ: أَخْرِجْ، لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَخْرَجَها، وَالْأَصْلُ عَدَمُ الحَذْفِ، وعليه فـ﴿تَخْرُجْ﴾ هنا مجزومة جوابًا للطلب فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱسْلُكْ﴾؛ لِأَنَّ جَوَابَ الطَّلَبِ إِذَا حُذِفت منه الفاءُ صار مجزومًا، وَإِنْ وَجِدْت مَعَهُ الفاء صار منصوبًا بـ(أَنْ) قَالَ ابْنُ مالك[1]:

وَبَعْدَ (فَا) جَوَابُ نَفْيٍ أَوْ طَلَبْ مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَتْمٌ نَصَبْ

يعني: مَعْنَاهُ أَنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعد (فاء) التي وقعت جوابًا لنفْيٍ، أَوْ طَلَبٍ مَحْضَيْنِ، وَلَكِنَّهَا إِذَا فَقَدَتِ الفَاءَ؛ فإنه يُجزم.

وَشَرْطُ جَزْمٍ بَعْدَ نَهْيٍ أَنْ تَضَعْ (إِنْ) قَبْلَ (لَا) دُونَ تَخَالُفٍ يَقَعْ[2]

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٥٨).

(٢) ألفية ابن مالك (ص٥٨).

بمعنى: طَلب، طلب أمر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الأُدْمَةِ] والأُدمة: السُّمْرة، أي اللَّون الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ البياض والسواد، يُسَمَّى أُدْمَة، وكان موسى ﷺ آدَم.

قوله تعالى: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: مِنْ غَيْرِ عيب؛ لأن العيب يَسُوء المرءَ، وَالْبَيَاضُ الَّذِي يَسُوء المرءَ هو البَرَصُ، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: بَرَص] وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ ﴿تَخْرُجْ﴾.

﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ قال: [فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُغْشِي الْبَصَرَ] وهي مبالَغة، يكفينا أَنْ نَقُولَ مَا قَالَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ يعني: ليس بَرَصًا، بل بياضًا، وَأَمَّا أَنْ تَكُونَ تُضِيء لكان اللهُ يَقُول: تخرج مُضِيئة؛ لأن الإضاءة أَبْلَغُ مِنْ مُجَرَّد البياض، كَذَلِكَ أَيْضًا أقوى للآية، وَنَحْنُ نَقُولُ كَمَا قَالَ اللهُ: ﴿بَيْضَآءَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِفَتْحِ الحَرْفَيْنِ، وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ وَضَمِّهِ، وَسُكُونِ الثَّانِي الَّذِي هُوَ الهَاءُ]. [مَعَ فَتْحِ الأَوَّلِ] الَّذِي هُوَ الراء، [وَضَمِّهِ] فتكون القِراءَة بثلاثة: «الرَّهَب»، و«الرَّهْب»، و«الرُّهْب»، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهَبِ» هِيَ الْقِرَاءَةُ التي بَدَأَ بِهَا الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرُّهْبِ» صحيح، «وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ» أَيْضًا صحيح[1].

(١) شرح طيبة النشر، لابن الجزري (ص٢٩٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿جَنَاحَكَ﴾ المراد بالجَناح اليَد؛ لأنَّها للإنسان بمنزلة الجَناح للطائر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾: ﴿مِنَ﴾ السَّبَبِيَّة، وهي حَرْفُ جَرٍّ.

قال: [أَيِ: الخَوْف]، هَذَا تَفْسِيرٌ للرَّهْب، فالرَّهْبُ هُوَ الْخَوْفُ، يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيِ الخَوْفُ الحَاصِلُ مِنْ إِضَاءَةِ اليَدِ بِأَنْ تُدْخِلَهَا فِي جَيْبِكَ، فَتَعُودُ إِلَى حَالَتِهَا الأُولَى] يعني: إذا أَدْخَلَهَا فِي جَيْبِه وأخرجها صارت بيضاء، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُعِيدَها إلى حالتها ضَمَّها إليه فعادت إلى حالها. هذا معنى كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: إِنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ مُنْفَصِلَةٌ عَنِ الأُولى، وَإِنَّ اللهَ تعالى أرشدَه إِذَا خَافَ أَنْ يضم يَدَهُ إِلَى صَدْرِهِ؛ حَتَّى يَزُولَ عَنْهُ الْخَوْفُ، وَهَذِهِ آيَةٌ خَاصَّةٌ لموسى فقط، أَنَّهُ إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ، فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وليست عَامَّةً لِكُلِّ أَحَدٍ، لكن رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُهُ رُعْبٌ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ يُدْخِلُ يَدَهُ فَيَضَعُهَا عَلَى صَدْرِهِ إِلَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرُّعْبُ»(١).

والآن لدينا قولَانِ لأهل الْعِلْمِ فِي مَسْأَلَةِ اليَد:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ معالجة اليد. وهذا يُضَعِّفه أَنَّ اللهَ قَالَ: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وموسى لم يَرْهَبْ؛ لِأَنَّ اللهَ مَا دَامَ قَالَ لَهُ: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾؛ فإنه لن يَرْهَبَ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أنه عندما يحصل لموسى كَمَا فِي الْآيَةِ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ خائفًا، فأرشده اللهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُزِيلَ الْخَوْفَ مِن شيء؛ فإنه يَضُمُّ يَدَهُ إِلَى نَفْسِهِ، ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾، وعَبَّر عنها بالجَناح؛ لأنَّها للإنسان كالجَناح للطائر،

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ٢٨٤).

وَهَذَا صَحِيحٌ، وهي جناحُ أَيْضًا، يتضح ذلك في الْإِنْسَانِ عِنْدَ السعي، وَهِيَ -لَا شَكَّ- تُزَيِّنُ الْإِنْسَانَ كَمَا أَنَّ جَناح الطائر يُزَيِّنُه.

قوله تعالى: ﴿فَذَانِكَ﴾ بالتَّشديد والتَّخفيف، أي: العَصا واليَد، وهما مؤنَّثتان، وإنما ذُكِّرَ المشارُ به إليهما المبتدأ لتذكير خبَرِه؛ لِأَنَّ الْيَدَ الواحدة جَناح، والأُخْرَى جناح، فإذا أَدْخلَهَا فِي جيبه انضمت إليه اليدان كما ينضم الجناحان.

وقوله: ﴿فَذَانِكَ﴾ يقول: [بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ]، بالتشديد «فَذَانِّكَ»، وبالتخفيف ﴿فَذَانِكَ﴾، والشاهد لهذين الْوَجْهَيْنِ مِنْ كَلَام ابن مالك(١):

وَالنُّونُ مِنْ (ذَيْنِ) وَ(تَيْنِ) شُدِّدَا   أَيْضًا وَتَعْوِيضٌ بِذَاكَ قُصِدَا

مثل النُّونِ مِنَ (اللَّذان) و(اللَّتان).

﴿فَذَانِكَ﴾ أي: العصا واليد، والعصا مؤنث، قَالَ تعالى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ [طه:١٨]، وَلَمْ يَقُلْ: هو عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ، واليد كذلك مؤنثة، قَالَ تعالى: ﴿يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: يخرج أبيض، وَقَالَ تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤]، فهما مؤنثتان، واسم الإشارة ﴿فَذَانِكَ﴾ مُذَكَّر، وَلَوْ كَانَ بالتأنيث لقال: فتانِك برهانان. فلماذا جعله مُذَكَّرًا؟ يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَإِنَّمَا ذُكِّرَ الْمُشَارُ بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأُ]؛ لأن (ذَانِ) المبتدأ، والخَبر ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾، وهو مُذكَّر، فرُوعِي الخَبر هنا فذُكِّر المبتدأ.

وقوله: ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾، البرهان هُوَ الدَّلِيلُ، وقول الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُرْسَلَانِ مِنْ رَبِّكَ]، كلمة [مُرْسَلانِ] ليست تفسيرًا لـ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾، ولكنَّها بيانٌ لِمُتعلَّق قوله:

---

(١) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (١/ ١٣٨).

﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأن كلمة (بُـرهان) اسمٌ جامِـدٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُـونَ مُتَعَلِّقًا للجَارِّ والمجرور.

والبرهان ليس معناه المُرسَل، البرهان معناه الدَّليل، والدَّلِيل الْوَاضِحُ يُسَمَّى برهانًا، والمتكلمون يقولون: إِنَّ البُـرهان هُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ، لكن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدخل (مُرْسَلَانِ) لِيُبَيِّنَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ(مُرْسلان) المُقَدَّر، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مُتَعلِّقًا بِـ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾؛ لِأَنَّهُ اسْمٌ جامِد، والجارُّ والمجرور لَا يَتَعَلَّقُ إلا بِفِعْلٍ أَوْ مُشْتَقٍّ، كَمَا قَالَ الناظم هنا[1]:

لَا بُـــدَّ لِلجَـــارِّ مِـــنَ التَّعَلُّـــقِ ... بِفِعْـــلٍ اوْ مَعْنَـــاهُ نَحْـــوُ مُرْتَقِـــي

وَاسْـــتَثْنِ كُـــلَّ زَائِـــدٍ لَـــهُ عَمَـــلْ ... كَـ(الْبَا) وَ(مِنْ) وَ(الكَافِ) أَيْضًا وَ(لَعَلْ)

لكن غير المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لَا حَاجَـةَ إِلَى أَنْ نُقَدِّر (مُرسلان)، بَلْ نَقُولُ: بُرهانان كائنان مِنْ رَبِّكُ، فالجارُّ والمجرور متعلقان بمحذوفٍ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ مَنْ خالَفُوه أَصَحُّ مِمَّا قاله المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لِأَنَّ مَا قَالَهُ المُفَسِّر خاصٌّ، وما قدَّره غيره عامٌّ، ومُتَعَلِّق الجارِّ والمجرور إِذَا كَانَ خَاصًّا، فلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهِ، فلا يُحذف مُتَعَلَّق الجارِّ والمجرور، إِلَّا إِذَا كَانَ عَامًّا، مِثل كائِن، أو مَوْجُودٍ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فالصَّواب إذن: أن نُبقِيَ الْآيَةَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، ونقول: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلق بمحذوف تقديره: كائنان.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وَهَذَا الَّذِي أَوْجَـبَ للمُفَسِّـر أَنْ يُقَدِّرَ (مُرْسَلان) لِأَجْلِ قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، وَلَكِنَّهُ لَيسَ مُرْسَلًا، المُرسَل فِي الحَقِيقَةِ هو

(١) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٧).

موسى، لكنْ معه دليلان ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: قومه، وفِرْعَونُ هو حاكِمُ مِصرَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ عَلَمُ جِنس لِكُلِّ مَنْ حَكَمَ مصر كافِرًا، فإنه يُسَمى فِرعون، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الفُرْسَ كافرًا، فإنه يُسَمى كِسْرَى، وَكُلُّ مَنْ مَلَكَ الرُّوم كافرًا، فإنه يُسَمَّى قَيْصَر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الجملة تعليلٌ لِمَا قَبْلَهَا، يعني: إننا أرسلناك بهاتين الآيتين إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ؛ لأنَّهم ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، والفِعل: ﴿كَانُواْ﴾ مفصولُ الزَّمَن، مفصولة الدَّلالة عَنِ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّهُ مَا دَلَّ عَلَى ماضٍ، وَلَا عَلَى غَيْرِهِ، فمعنى ﴿كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾، أي: مُتَّصِفِين بالفِسْق، فَاللهُ تعالى يَقُولُ عَنْ نَفْسِهِ دائمًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:٩٦]، إِلَى آخِرِه، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيسَ المُرادُ الزَّمَنَ الماضيَ، بَلِ المُرادُ أنه مُتَّصِفٌ بهذه الصفاتِ، لكنَّها قد تَدُلُّ عَلَى الزَّمَن الماضي بِقَرِينَةٍ غَيْرِ لَفْظِ الفِعل.

وقوله تعالى: ﴿فَٰسِقِينَ﴾ قَدْ مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ الفِسق يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

الْأَوَّل: قِسمٌ مُخْرِجٌ عَنِ المِلَّةِ، وهو فِسق الكُفر، ومثاله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٨-١٩].

الثَّاني: فِسقٌ مُخْرِجٌ عَنِ الاِسْتِقَامَةِ، وَلَا يُخْرِجُ عَنِ الإِيمان، وهو فِسق المعصية، ومثالُه قَوْلُهُ سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات:٦].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ اللهَ تعالى يُعطِي الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُناسِب الوقتَ وحالَ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الحِكْمَةِ أَنْ تَأْتِيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقع.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي أُعْطِيَت لِموسى، وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَيْبه يُخْرِجُها بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إرشاد اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِموسى إِذَا خَافَ مِنْ شَيْءٍ أَنْ يَضُمَّ إِلَيْهِ يَدَهُ؛ حتى يطمئنَّ، ويَسْكُنَ قلبُه.

والظاهِرُ أَنَّهُ خَاصٌّ بموسى؛ لأن الْإِنْسَانَ قَدْ يستعمل هذا الشَّيْء، وَلَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تأييدُ الأنبياء بالآيات الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ؛ لقوله: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تأتي للأنبياء حُجَجٌ عَلَى قَوْمِهِمْ؛ لأن البُرهان معناه الحُجَّة والدَّليل، وَالْآيَاتُ الَّتِي تأتي بها الرُّسل حُجَجًا عَلَى قَوْمِهِمْ يُلزمهم بالتطبيق.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا مِنْ رَسُولٍ يُرسَل إلا أُوتِيَ آيَةً تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يُؤْتَ آيَةً لَكَان لِلناس عُذرٌ يُرِدُّ بِهِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَاءَ وَقَالَ: أنا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَعَلَيْكُمْ أَنْ تفعلوا كذا. لَا يُصَدَّقُ إِلَّا بِبَيِّنَةٍ، والبَيِّنَةُ هي الآيات.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: لُطفُ اللهِ تعالى بعباده، حيث يُرسِل إِلَيْهِم الرُّسُل لمصلحتِهم، لا لِمصلحتِه؛ إِذْ إِنَّ اللهَ تعالى يَقُول: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]،

لكن لمصلحة الخَلْق يُرسِل إِلَيْهِم الرُّسُلَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الرِّسالَة حيث يحتاج النَّاسُ إِلَيْهَا للخُروج عَنْ طَاعَةِ الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجَدِّد لِهَٰذِهِ الْأُمَّةِ دِينها كُلَّما خرجوا عنه، فالله عَزَّوَجَلَّ يُرسِل الرُّسُلَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِم، وعندما لَا يَكُونُ هناك رسولٌ -كَحَالِ أُمَّتِنَا- يَبعث دُعاة صالحين مُصلِحين للخلق.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ أتباعَ رؤساء الكُفر هُمُ الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ كَما ذَكَرْت فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القَصَص:٣٢]؛ لأن الملأ هُم الأشراف، وَإِنْ كَانَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْقَوْمِ؛ لِأَنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل:١٢]، لكن الغالب أن الملأ هُم الأشراف، وَهُمُ الَّذِينَ غالبًا يستكبرون عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُل، أَمَّا الضعفاء والفقراء، فإنهم يَتْبَعُونَهم.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القَصص:٣٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴾ هُوَ الْقِبْطِيّ السَّابِق ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بِهِ].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جواز الأخذ بالعُذر عِنْدَ الْأَمْرِ بِهِ، حَتَّى فِي طَاعَةِ وَلِيِّ الْأَمْرِ، فمثلًا لو أَمَرَكَ بشيء؛ لأن طاعته وَاجِبَةٌ فِي غَيْرِ المعصية؛ فَإِنَّهُ لَا بَأْسَ أَنْ تَذْكُرَ العُذر لِأَجْلِ أَنْ تتخلَّص مِنْ هَذَا الْأَمْرِ، كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُقَدِّمُون للنبي ﷺ الْعُذْرَ إِذَا أَمَرَهُم بالشَّيْء؛ ليعذُرَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الخَوْفَ الطبيعي لَا يُنَافِي مقامَ الرِّسالَة؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [القَصص:٣٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الْقِصَاصَ مَوْجُودٌ فِيمَا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ؛ لقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ بَدَلًا مِنَ الَّذِي قَتَلَهُ مُوسَى، وَقَدْ يَكُونُ رغبتهم فِي قَتْلِهِ مِنْ بَابِ الْقِصَاصِ، وَكَانَ معروفًا عندهم، أَوْ مِنْ بَابِ العُدوان مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِحَقٍّ، ولا ننسى أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ فِي شَرِيعَةِ الإِسْلام.

الآية (٣٤)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص:٣٤].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أَبْيَنُ ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ مُعِينًا وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ رِدْءًا ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَأَخِى﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ يجُوزُ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ رُكني الجملة الاسمية، وَيَكُونُ قَوْلُهُ ﴿أَفْصَحُ﴾ هُوَ الْخَبَرَ، ويجوز أَنَّ الضَّمِيرَ مبتدأ ثانٍ، وقوله: ﴿أَفْصَحُ﴾ خبَره، والجملة الاسمية خبر ﴿وَأَخِى﴾، والأخير هو الأوجه؛ لأن ضمير الفصل لَا يَكُونُ إِلَّا إِذَا كَانَ المبتدأ والخبر مَعرِفتين؛ لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْحَالَ يَلتبس الخبرُ بالصِّفَةِ، أَمَّا إِذَا كَانَ الْخَبَرُ نكرةً -كَمَا فِي الْآيَةِ هنا- فَإِنَّهُ يَكُونُ مُبتدأً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ﴾ هارون أخو موسى مِنْ أُمِّهِ وأبيه، وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه:٩٤]، ذَكَرُوا أَنَّ هارون نَسَبَهُ لأُمِّه؛ لِأَنَّهَا أَقْرَبُ مِنَ الْأَبِ، فذكَّر موسى بها لِيُشفِق عليه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾: ﴿أَفْصَحُ﴾ بمعنى: أَبينُ مِني، وقوله:

﴿لِسَانًا﴾ أي: كلامًا، وعبَّر باللسان عَنِ الْكَلَامِ؛ لأَنَّه آلة الكلام، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم:٤]، أي: بِنطْقِهم ولُغتهم.

وسبب قوله: ﴿أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ قِيلَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ مُوسَى ﷺ كَانَتْ فِي لسانِه لُثْغَةٌ مِن جَمْرةٍ أخذَها ووضعها في فَمِه، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعون أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: إنَّه طفل لَا يَدْرِي، وَلَا يَعْرِفُ، وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تختبِرَه فأَعْطِه تمرًا وجمْرًا.

فقَدَّم التمرة والجمرة، والجمرةُ تتلألأ، وهيئتها أَجْمَلُ مِنَ التمر، فأخذ الجَمْرَة، وَوَضَعَهَا فِي فَمِهِ، فانعقد لسانُه.

وهذه الْقُصَّةُ مِنَ الإسرائيليات؛ وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ، لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ الجمرة وأخذَها، لَمَا استطاع أن يضعَهَا فِي يَدِهِ، وَلَكِنْ مَا يعاني منه مُوسَى هُوَ أَمْرٌ خِلْقي، خلَقَ اللهُ بَعْضَ النَّاسِ عَلَيْهِ، ولهذا طلب مُوسَى مِنَ اللهِ أَنْ يَحُلَّ هَذِهِ العُقدة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨].

هناك بعضُ النَّاس لديه مُشْكِلَةٌ فِي نُطق الحروف، وبعضُهم لَدَيْه مُشْكِلَةٌ فِي الْإِتْيَانِ بِصِفَة الحرف المعروفة، ولذلك فإن الصَّواب أَنَّ هَذِهِ العِلَّةَ الَّتِي لموسى ﷺ مِنْ أَصْلِ الخِلْقَةِ، وليست هناك تمرة وجمرة.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: مُعِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الدَّالِ بِلَا هَمْزَةٍ]. أي: (رَدًا)[1].

فَهِمَ مُوسَى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ إِلَى فِرْعَوْنَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص:٣٢]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، وهنا عَرَفَ أَنَّهُ

---

(١) حجة القراءات، لابن زنجلة (ص٥٤٥).

رَسُولُ، وقولُه: ﴿مَعِيَ﴾ المَعِيَّة بمعنى: المُصاحبَة والمُقارَنة، وَهِيَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِ مَا تُضاف إليه، وتقتضي فِي كُلِّ مَوْضِعٍ غَيْرَ مَا تَقْتَضِيهِ فِي المَوْضِعِ الآخَر. فالرجل إِذَا قِيلَ: معه زوجته، فَلَيْسَ هَذَا كَقَوْلِهِم: القائد معه جنودُه. فبينهما فرقٌ.

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: اللبن مَعَ المَاءِ يعني: ممتزجًا مختلطًا به، وهنا ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ غير مَعِيَّة الزوج لِزوجته، ومَعِيَّة اللَّبَن للماء، ولكنها مصاحَبة يُرادُ بِهَا التأييد والإعانة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿رِدْءًا﴾ والرِّدْء: المُعِين الظهيرُ للشخص.

قوله تعالى: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾، أي: يكون مُصَدِّقًا لي أمامَهم حتى يقوَى قولِي به، ويكونَ صِدقًا.

وَلَيْسَ المَعْنَى أَنْ يَكُونَ هارون مَعَ مُوسَى يخبر فِرْعَون أَنَّهُ صَادِقٌ فقط، بَلْ يَكُونُ كلامُه مُقوِّيًا لكلامي، فَيَكُونُ ذَلِكَ مُوجِبًا لتصديقِه.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالرَّفْعِ، وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، قوله: [بِالجَزْمِ] أَيْ إِنَّ الفعل «يُصَدِّقْنِي» مجزومٌ جوابًا للدعاء، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾، يعني: إنْ أرسلْتَهُ صدَّقَني.

أَمَّا قَوْلُه: [فِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى] فهو يَعْنِي فِي قِرَاءَةٍ سَبْعِيَّة، أَمَّا إِذَا قَالَ قُرِئَ بكذا، فهي قِرَاءَةٌ شَاذَّةٌ، وهو منهج المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد تعَرَّضْنا له سابقًا.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَجُمْلَتُهُ صِفَةُ ﴿رِدْءًا﴾]، يعني: رِدءًا مُصَدِّقًا لي؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ التَّفْسِيرُ.

فَائِدَةٌ: القراءتان الواردتان فِي الْآيَةِ تعطي مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً، فَإِنْ كَانَ قَوْلُه: «يُصَدِّقْنِي» جوابًا للطلب، فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَحْصُلُ بِهِ الصِّدْقُ، وَإِذَا كَانَ صِفة، فَالمَعْنَى

أَنَّهُ يُحَاوِل أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُ صَادِقٌ، فتكون قِرَاءَةُ الرَّفْعِ عَلَى سَبِيلِ السبب، وقراءة الجَزْم عَلَى سَبِيلِ النتيجة، فيكون هارون فاعلًا مُؤَثِّرًا.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، الضَّمِيرُ فِي ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، وهو الواو، يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ أي: أتوقَّع وأخشى، وليس خوفَ الرُّعب، ولكنَّه يتوقع ذلك ويخشاه، وقوله: ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ هَـٰذِهِ النُّون الموجودة ليست نُون الأفعال الخمسة، وإلا لَحُذِفَت بَعْدَ (أَنْ)، ولكنها نونُ الوِقاية، فأصل الفعل: يكذبونني. فحُذفت النون الأُولى للنصب، وبقيت النون الثَّانية المكسورة، وهي نون الوقاية، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، ونظيره ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى فِي سُورَةِ الذَّارِيَاتِ: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات:٥٩]، فإذا وقفتَ عليها سكَّنْتَ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان المِنَّة الكبرى مِنْ مُوسَى لِأَخِيهِ، حيث جعله اللهُ تعالى مرسلًا معه، ولهذا يقال: أعظمُ هَديةٍ أهداها خليلٌ لخليلِه هي التي كَانَتْ مِنْ مُوسَى لهارونَ؛ لِأَنَّهُ سَأَلَ اللهَ أَنْ يُرسله معه، والرِّسالَة مَقَامٌ عَظِيمٌ لَا يناله إلا الْخِيرَةُ مِنْ بَنِي آدَمَ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِغَيْرِهِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اتخاذُ الأعوانِ مِنْ أَسْبَابِ النجاة، وهـذا أمرٌ مَعْلُومٌ مِنْ قديم الزَّمانِ وحديثِه، أَنَّهُ كُلَّما كَانَ الإِنْسَان مَعَهُ مَنْ يُعِينه ويساعِده، كَانَ ذَلِكَ أَقْرَبَ إِلَى نجاحِه مِن انفراده، والعوامُّ يقولون: (يَدٌ وَاحِدَةٌ لَا تُصَفِّق).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فصاحةُ اللسان لَهَا تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ فِي الْقَبُولِ، أو الرفض، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا»[1]، لقوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَة مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لإقراره بالفضل لأخيه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ ناقصًا، وَلَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَبِّرَ بالكمال لغيره، والنقص لنفسه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يَذْكُرَ مُبَرِّراتِ دعوته؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ﴾، هَذَا مِن مُبَرِّرَات دعوته، وسؤاله اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُرْسِلَهُ معه، وَهُوَ أَنَّهُ أفصحُ منه لسانًا، وهذا معروف، ومِن آداب الدعاة أَنْ يَذْكُرُوا مُبَرِّرَات الدعوة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَافَ أَنْ يُكذِّبوه إِذَا كَانَ وحدَه، فطلب مزيدًا مِنَ الْعَوْنِ؛ لأن الواحد مَعَ الْوَاحِدِ يكون أقربَ للتصديق.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّ الخَبَرَ يزداد ثُبوتًا وتَبيينًا بتعدُّد مُخبريه؛ ليزداد قُوة ووضوحًا عند آلِ فِرْعَوْنَ؛ لأن الرِّسالَة خبرٌ، فَإِذَا كَانَ مَعَهُ مَنْ يُقَوِّيه عَلَى هَذَا الْخَبَرِ ويُثَبِّته ويُصَدِّقه؛ فَإِنَّهُ يَكُونُ أقوى، والآية شاهدٌ له.

• • ۞ • •

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الخطبة، رقم (٤٨٥١)، ومسلم: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، رقم (٨٦٩).

الآيــة (٣٥)

• ● ◦◦ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القَصص:٣٥].

• ● ◦◦ ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ نُقَوِّيكَ ﴿بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ غَلَبَةً ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بِسُوءٍ اذْهَبَا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لَهُمْ].

قوله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي: نُقَوِّيكَ، والشدُّ بمعنى: التقوية، والعَضُد: هُوَ الْعَظْمُ الكامل فِي عَظْمِ الذراع والمَنْكِب، وشدُّ العَضُدِ كِنَايَةٌ عَنِ التقوية؛ لِأَنَّ الْيَدَ هي آلة العَمَـل، فإذا شُدَّ عَضُـدُها وقُوِّيَ صارت قويَّة، والمعنى: أَنَّنا سنُقَـوِّيك، ونُؤَيِّدك بأخيك.

قوله تعالى: ﴿بِأَخِيكَ﴾ هو هارون، فقد أَجابَ اللهُ طَلَبَ موسى، والسين فِي قَوْلِهِ: ﴿سَنَشُدُّ﴾ تُفيد التنفيس، وتُفيد تأكيد الشَّيْءِ وتقريبه، أي: إِنَّهُ سَيَكُونُ قريبًا، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا قَالَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ فمَعْنَاهُ أَنَّهُ يتقوَّى الآن؛ لِأَنَّ اللهَ وَعده أَنْ يُرْسِـلَ هارون معه، إضافةً إِلَى أَنَّهُ سَيَكُونُ مُعِينًا لَهُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

قوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ أي: غَلَبَة، وهذه بُشرى ثانية لَهُمَا جَمِيعًا، ﴿وَنَجْعَلُ﴾ أي: نُقَيِّض لكمـا سلطانًا، والمراد بالسلطان هنا يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[غَلَبَة]، والسلطان فِي الْقُرْآنِ يَأْتِي بِمَعْنَى الغَلَبة والقُدرة، ويأتي بمعنى الدَّليل؛ لِأَنَّ الدَّلِيلَ يَتقوَّى بِهِ الْإِنْسَانُ، وَيكُونُ لَهُ بِهِ قُوَّةٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٦٨]، ومعنى ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ﴾ أي: مَا عِنْدَكُمْ دليلٌ بهذا، وقوله تعالى: ﴿فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣]، أي: بقُوة وغلَبة، وقوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ [النحل:١٠٠]، أي: سيطرته وغلَبته.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ أي: بسوء، والمعنى: لا ينتهون إليكما بالسوء، فما خِفْتَ مِنْهُ فَإِنَّهُ سوف ينتفي بِمَا جَعَلَ اللهُ لَك مِنْ تأييدٍ بأخيك، وهذه بُشْرَى لهما، وتُفيد التقويةَ، وهي نظيرُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اذْهَبَا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾...] وكأنَّه يَرَى أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ منفصل عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾، ولهذا قدَّر لها فِعلًا يَتعَلَّقُ بِهِ، وَيكُونُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ الْوُقُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، ثم نبدأ فنقول: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ تابعًا لتقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ٱذْهَبَآ﴾، لأن التابعين لَمْ يَذْهَبُوا بالآيات. هَذَا وَجْهٌ.

وَالْوَجْهُ الْآخرُ هُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَنَجْعَلُ﴾، أي: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، أي: بسبب آياتنا نجعل لكما السلطان، فلا يستطيعون الوصول إليكما، ولا إبطالَ دعوتِكما، وَعَلَى هَذَا لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ فِي الْآيَةِ.

وَيَتْبَعُ ذَلِكَ أَنْ نَصِل قَوْلَهُ تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي:

بسبب ما معكما مِنَ الْآيَاتِ، وَهَذَا المَعْنَى هُوَ الصَّحِيحُ لأسباب؛ أولًا: لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ؛ ولأنَّ التَّقْدِيرَ لَا بُدَّ أَنْ تسبِقَه مرتبَتَان:

المرتبة الأولى: إثبات أَنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفًا، وهو يُعْرَفُ بكون المَعْنَى لَا يَسْتَقِيمُ بِدُونِ تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ.

المرتبة الثَّانية: إثبات أَنَّ تَقْدِيرَ المحذوف هو ذاك، وهذا يُعيِّنه السِّياق؛ لأن السِّياق هُوَ الَّذِي يُعيِّن نوعَ المحذوفِ.

فَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ، فالأفضل عدمُ التقدير، وَهَذِهِ الْآيَةُ معناها واضحٌ جدًّا عَلَى الْقَوْلِ بعدم التقدير، والمعنى هو: نجعل لكما سلطانًا بسبب آياتِنا التي معكما، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾.

وَهَذَا المَعْنَى أَيْضًا أوضحُ مما قَدَّره المُفَسِّر وغيرُه؛ لِأَنَّهُ فِي الحَقِيقَةِ يَقُولُ تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ والآيات هنا جمعٌ، وَقَبْلَ ذَلِكَ يَقُولُ: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [القصص:٣٢]، فالله عَزَّوَجَلَّ قد أرسلهما بآيتين، ولذلك فالصَّواب هُوَ أَنَّ الْآيَةَ موصولٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، فَيَكُونُ تَقْدِيرُ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾: ونجعل لكما سلطانًا بآياتنا، فلا يَصِلُون إليكما.

وَزَعَمَ بَعْضُ المُعْرِبِين أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿الْغَالِبُونَ﴾، وَهَذَا فِي المَعْنَى قَرِيبٌ مِمَّا ذَكَرْنَا، أي: أنتما ومَن اتَّبَعَكما الغالبون بآياتنا.

والغالب فِي الْآيَاتِ هُوَ الَّذِي جُعِلَ لَهُ بِهَا سلطان، ويقول عَلَى هَذَا: فلا يصلون إليكما أنتما، ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون بآياتنا.

وَهَذَا لَا شَكَّ أنه أَحْسَنُ مِن تقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَذْفٍ؛

وَلِأَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ بَعْضُهُ مُتَّصِلٌ بِبَعْضٍ.

لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: فِي الْآيَةِ محذوف حسَب قواعد النحو، لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ اسمُ فاعِل، وَقَدْ دَخلَتْ عَلَيْهِ (ال)، وهي بِمَعْنَى الِاسْمِ الموصول، والمعروف أَنَّ الِاسْمَ الموصولَ لَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهُ فِيمَا قَبْلَهُ، فَلَا تَعْمَلُ صلتُه.

ونُجيب فنقول: (ال) هنا ليست بموصولة، بَلْ هِيَ كـ(أل) الداخلة عَلَى الِاسْمِ الجامِد، كالداخلة عَلَى الرَّجُلِ والأسد، وما أشبههما.

وخلاصة الْقَوْلِ: هُوَ أَنَّ الصَّواب أَنْ نَجْعَلَ قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلقًا بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾، ونَسْلَم مِنْ كُلِّ تلك المخالفات، ومِن التقديرات، التي نعتمد عليها، ومِن تعيين المقدر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لَهُمْ]، وحقيقة المعنى الغالبون لهم؛ لَكِنْ عَلَى سَبِيلِ العُموم نقول: أنتما ومَن اتَّبَعَكُما الغالبون لِلمخالفين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تعالى أعطى مُوسَى وَهَارُونَ آياتٍ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى أَنَّهُ أعطاه تِسْعَ آيَاتٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ [الإسراء:١٠١].

وقوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ التابعون هُنَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ومِن آلِ فِرْعَوْنَ كذلك، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر:٢٨].

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُنْصر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إلى النصر والغَلَبة إِلَّا بِالدُّخُولِ فِي طَرِيقِ الرُّسل واتِّباعِهم.

وعليه فتكون مِنْ هَذِهِ قاعدة: (كُلُّ مَنْ كَانَ للرسول أتبعَ كَانَ إِلَى النصر أقربَ، وكلُّ مَنْ كَانَ مِنَ اتِّبَاعِ الرَّسُـول أبعدَ كَانَ عَنِ النصـر أبعدَ)؛ لِأَنَّهُ مِنَ المَعْلُـوم فِي القَواعِدِ المُقَرَّرَة أَنَّ الحُكْمَ إِذَا عُلِّقَ بوصفٍ كَانَ ثُبُوتُهُ قوةً وضَعفًا ووجودًا وعَدَمًا، بِحَسَبِ ذَلِكَ الْوَصْفِ.

فمثلًا يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣]، فمَعِيَّتُه للصابريـن تتغير قُوَّتُها وضعفُها حَسَـبَ مَا مَعَهُمْ مِنَ الصَّبْر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل:١٢٨]، وجود المَعِيَّة للمتقين قُوَّةً وضَعْفًا بِحسَب تَقْوَاهُم، وهكذا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، يستفاد مِنْهُ أَنَّ أَتْبَاعَ الرُّسُلِ غالبون لِمَن خالَفُوا الرُّسل دائمًا وأبدًا، قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»(١).

اللهُ أَكْبَرُ! ما أعظمَ هَذِهِ الْفَائِدَةَ لو أَنَّنا كُنَّا عَلَى المستوى الَّذِي يَنْبَغِي، فلو كُنَّا مُتَّبعين لِهَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ عَلَى وَجْهِ الحقيقة، لكان عدوُّنا مَرْعُوبًا مِنَّا مَسِيـرَةَ شَهْرٍ، لكنَّنا -مع الأسف الشديد- لَمْ نكن مُتَّبِعِين للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ حقيقة، وَلِذَلِكَ صَارَ بأسُنا بيننا، لَا مَنْ يَدَّعِي الإِسْـلام مِنَّا، وَلَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْزَوِيَ تحـت قاعدة الجَاهِلية، وهي القوميةُ العربيةُ، فَإِنَّ هَذِهِ القومية ما انتصرت مُنْذ نشأت إِلَى الْيَوْمِ، ولن تنتصرَ أبدًا، بَلْ لَا تَزْدَادُ إِلَّا فشلًا وتفرُّقًا وتصدُّعًا وقتالًا فِيمَا بَيْنَهَا.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا فِي الْحَقِيقَةِ ما اجتمعْنا على قوميَّةٍ إسلاميةٍ، فيبقى المُسْلِمُونَ لَا عَلَى هَذَا، وَلَا عَلَى هَذَا، ولهذا مَا كَانَ لَنَا النصرُ الَّذِي وَعَدَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، بابٌ، رقم (٣٣٥)، مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ، حيث إِنَّ اللهَ أجاب دعوة موسى، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، فَأَعْطَاهُ اللهُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ؛ بأن يقويه أيضًا؛ لأن التصديق مَعْنَاهُ الخَبَرُ بأنه صادق، لكن التقوية أبلغ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يَمُنُّ عَلَى الْعَبْدِ، فَيَجْعَلُ لَهُ سُلْطَانًا بِمَا آتَاهُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا﴾ بآياتنا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الْعِلْمَ سِلاحٌ؛ لأن السلطان معناه: القوةُ والغَلَبَةُ، وَإِذَا كَانَ سَبَبُهُ العِلم كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ سِلَاحٌ مِنْ أَعْظَمِ ما يُدَافِعُ بِهِ الْإِنْسَانُ ويُحَاجِجُ أيضًا.

وقد مرَّ علينا قصة ابْنِ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، فإنه لولا عِلمُ ابْنِ عُمَرَ لَكَان لهذا سلطان؛ لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ مَا جَعَلَ لَهُ السُّلطة وَالْغَلَبَةَ عَلَى ذَلِكَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: حماية اللهِ عَزَّوَجَلَّ لِمُوسَى وَهَارُونَ؛ لقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ التمسُّك بشريعة الله سببٌ للغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، أي: كُلُّ مَنِ اتبعكُم.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّهُ إِذَا كَانَ هَـذَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنِ اتبع مُوسَى هُـوَ الْغَالِبُ، فمِن باب أَوْلَى مَنِ اتبعَ النبيَّ ﷺ فإنه غالِب، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣]، ومعنى

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ يُعلِّيه؛ لأن الظَهَر والظُهورَ كُلَّه يَدُلُّ عَلَى الغَلَبة، قال: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٦)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القَصص:٣٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وَاضِحَاتٍ حَالٌ ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾ مُخْتَلَقٌ ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ كَائِنًا ﴿فِيٓ﴾ أَيَّامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ﴾ أي: آلُ فِرْعَوْن، ﴿مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ولَم يَقُل: وهارون؛ لأنَّ الرِّسالَة في الأَصل لموسى، وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباء للمصاحبة: يعني: مصحوبًا بالآيات، وآيات جَمْعُ آية، وهي العلامات، وأُضِيفَت إِلَى الله إضافةَ العطيَّة إلى مُعطيها؛ لأَنَّ هَذِهِ الآيَات ليست آيات عَلَى الله، لكنها آياتٌ منه على رسالة موسى، وإثبات أَنَّ اللهَ وَحدَه هُوَ الحَقُّ.

قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَاضِحَاتٍ حَالٌ] حَالٌ مِن قَولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وَلَا تَصح أَن تَكونَ نَعْتًا؛ لأَنَّهَا نَكِرَة، وَمَا قَبلَهَا مَعْرِفَة.

وَفي قَوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إقامة للحُجة؛ لأَنَّ الآيَةَ هي علامة، وكُلَّما كانت أظهرَ كانَت الحُجَّة أقوى، والآيات بيِّنَة، جاءهم بالآيات البيِّنات، فكان جوابهم: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّفۡتَرًى﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي: الذي جئتَ به يَا موسَى ﴿إِلَّا سِحْرٌ﴾، وهنا مَا لَمْ تَعمَل عَمَل ليس -عَلَى لُغَة أَهل الحِجَاز- كَمَا قَالَ ابن مالك[1]:

إعمَالَ (لَيْسَ) أُعْمِلَتْ (مَا) دُونَ (إِنْ) مَـعَ بَقَـا النَّفْـيِ وَتَرْتِيـبٍ زُكِـنْ

لأَنَّه يُشتَرَط في عملها بقاءُ النفي، وهنا النفي قد انتقض بالاستثناء.

قوله تعالى: ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ السِّحر المُفْتَرَى: العَصا واليد، هَذَا إِذَا قلنَا: إنه يَعود عَلَى الآيَات الحِسِّيَّة؛ فَإِن قُلنَا: إنه يَعود إِلَى الآيَات المعنوية وَهيَ مِثل الإِسْلام؛ فَإِنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «إِنَّ مِنَ الْبَيَان لَسِحْرًا»[2].

وقوله: ﴿مُّفْتَرًى﴾: مُختَلَق، فمِنَ المَعروف أَنَّه يَصحُّ وَصفُ القول بالمُفْتَرَى، ولكن الافتراء هنا جاء وصفًا للعصا واليد؛ لأن السِّحْرَ لَا يَقلب الأَشْياء حقيقة، ولكنه يَقْلِبُها تَخيُّلا بحَسَب مَا يتخيَّلُه المرء، فَيكون هَذَا التَّخييل مخالفًا للواقع، وَكلُّ مَا يُخَالف الواقع فهو مُفْتَرًى، فيكون ظهورُه بغير الحَال الَّتي عَلَيهَا مِن باب الكذب والفِرية، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ كَائِنًا ﴿فِيٓ﴾ أَيَّامِ ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾].

قوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾، المشَار إِلَيه مَا جَاءَ به مِنَ الرِّسالَة؛ لأَنَّهَا هيَ المسموعة، وأما آيَةُ اليد والعصا فهي مُشاهَدة مرئية.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَائِنًا] إِشَارَة منه إِلَى أَنَّ متعَلَّق الجارِّ والمجرور بقوله: ﴿ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ محذوف تقديرُه (كَائِنًا)، وهو هُنَا عَلَى تَقدير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَالٌ

(١) ألفية ابن مالك (ص٢٠).

(٢) تقدم تخريجه.

مِن اسمِ الإشارة.

وقوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: في وقتهم، وَلهذا قَالَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: السابقين، وَهَذَا كَذِبٌ منهم، فَقَد أَخبَرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عنهم أيام يوسفَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر:٣٤].

إذن: قولُهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبرٌ كَذِبٌ، فهُم كاذبون في هَذِهِ الدعوة.

ثم عَلَى فَرض أن الدعوةَ صحيحة، وأنهم ما سمعوا مِثله مِن قَبل، وَلَم يوجَد في الأولين، فَهَذَا لَا يَقتَضي أَنْ يَكونَ باطلا؛ لأَنَّ الحَقَّ إذا جَاءَ وَجَب قَبولُهُ، سَوَاء كَانَ مَوجودًا في الأولين، أَمْ غير مَوجود، فهذه الحُجة إذن مُرَكَّبة مِن كَذِبٍ وباطِلٍ:

أمَّا الكَـذِبُ: فَإنَّ قَـوْلَهم: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كـذب؛ لأنَّ مؤمنَهم أَقَامَ عَلَيهم الحُجَّةَ بوجود نظير لَمِا جاءَ به موسَى في قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر:٣٤].

وأما الباطِلُ: فَعَلَى تَقدير أنها صحيحةٌ قولًا؛ فلأن عدم وجودِ ذَلكَ في الأَوَّلين لَا يقتضي بُطلان وُجودِه في الآخِرين؛ فإن الله تعالى فَعَّال لَمِا يُريد، مَا دَامَت الآياتُ بَيِّنَات، فليس هناك حُجَّةٌ لَهُم بأَنَّه لَم يُوجَد في الأولين كذا.

قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قال: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ وهُم آباء؛ لأَنَّ الأَبَ يُطلَق عَلَى الأَب المباشِـر، وعلى الجَـدِّ وَإنْ عَلَا، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ [الحج:٧٨]، وقال يوسف: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف:٣٨]، فيعقوبُ أبوه المباشر، وإسحاقُ جَدُّه، وإبراهيمُ جَدُّ أبيه، سَمَّاهم آباء،

وَهَذَا وَإن كَانَ فيه التغليب، لَكن قَوله: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لَيسَ فيه تَغليبٌ، أي: لَيسَ هناكَ أبٌ مُباشِر، وَلهَذَا كَانَ القَول الراجح في مَسأَلَة الجَدِّ والإخوة أَنَّ الجَدَّ يَحْجُب الإخوةَ؛ لأَنَّه أَبٌ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ موسَى ﷺ نَفَّذ مَا أَرسَلَه الله به.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الآيَات الَّتي يرسل اللهُ بها الأنبياءَ تكون بَيِّنَة واضحة؛ لئَلَّا يَكونَ للمَدعُوِّين حُجَّة في خفاء الحُجة، فيجعل الله تعالى الآياتِ بيِّنَةً واضحة.

وَفي الحَديث الصَّحيح عَن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدِ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ»[1].

فَلَا بدَّ أَن تَكونَ الآيَات الَّتي يُرْسَل بها الرُّسل بَيِّنَة واضحةً؛ لئلا تبقَى للنَّاسِ حُجة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الآيَاتِ الَّتي أعطاها اللهُ موسَى ليست وَاحدَة، وَلَا اثنتين، بَل هيَ آياتٌ متعددة يؤمِن عَلَى مِثلهَا البَشر، لكن هَؤلَاء قَومٌ عُتاة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ دعوى المكذِّبين للرُّسل لَا تكون إلَّا مِن نَوع المكابَرة؛ فَإنَّ قَولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤]، لَا يَقتَضي رَدَّ الحق، لَكن إذَا كَانَ حَقًّا فاقبلوه، وليس للإنسان حُجة إذَا قَالَ: والله هَذَا مَا سَمعنَا به.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن أعداء الرُّسُل يُلَقِّبُون الرُّسل بألقابِ السُّوء والعَيب؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، وأول ما نزل، رقم (٤٩٨١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، رقم (١٥٢).

لقوله: ﴿مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾، فليس عند أعداء الرُّسُل إِلَّا أَنَّهم يُلَقِّبُونهم بألقاب: هذا ساحر، هذا مجنون، هذا شاعر، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: هي فائدةٌ مُتَفَرِّعة، وَهيَ أَنَّ أعداء الرُّسل سوف يُلَقِّبُون مَن يَدْعون بدعـوة الرُّسُل بِمِثْل هَـذِهِ الألقاب، فيقولون عنهم: رجعيُّون، متأخرون، مُتَزَمِّتُون، متشددون، متعصبون، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، أو ربما يكون أَبلَغ مِن هَذَا فيقولون: ضالُّون، ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢].

فدعوة الحَقّ لَهَا أعداء، هؤُلاءِ الأعداء الذين قابلوا الرُّسُلَ بما قابلوهم، والرُّسل هُم الأَقوَى في القيادة، سيُقابلون مَن بَعدَهم بِمِثْل مَا قابلوهم به، أَو أَكثَر.

إذن: فلنُطَمْئِنْ أنفُسَنا على أَنَّنَا إذَا دعونا إلى الله عَلَى حَقٍّ، وعلى بَصيرة، فسيكون أمامنا مَن يَقول لنا مِثلما قالوا للرُّسل، فَمَا دَامَت الدعوة واحدة فَعَدُوُّها واحد، وَمَا قيلَ في الأَوَّل يُقَالُ في الثَّاني.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للمَرء أَنْ يُثْنِيَه عَن قَول الحَقّ رَدُّه، أو وَصْفُه هو بالعيوب؛ لأن موسَى لَم يتوقف عن الدعوة حينما قالوا لَهُ هَذَا، بل استمر في الدَّعوَة، وبه قَامَت الحُجَّة، مَعَ أَنَّه هُدِّد بالسَّجْن، ولكنه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لَم يُبَالِ بها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: يَنْبَغي للدَّاعي إلى الله أَنْ يصبر مَا دَامَ يَعلَم أَنَّه عَلَى الحق.

• • ❁ • •

الآيــة (٣٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص:٣٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِواوٍ وَبِدُونِهَا ﴿مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ﴾ عالِمٌ ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضَّمِيرُ لِلرَّبِّ ﴿وَمَن﴾ عَطْفٌ عَلَى مَنْ قَبْلَهَا ﴿تَكُونُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أَيِ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَيْ هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا]، أي فيها قراءتان سبعيتان، فَيَجوز أَنْ تَقولَ: ﴿وَقَالَ﴾، وَيَجوز أَن تَقولَ: «قَالَ»[1]، وَهَذه مِنَ القِراءَات النادرة جِدًّا؛ لأن القراءات المتواترة لَا يكون فيهَا تَغيير كلمة بزيَادَةٍ أَو نقصٍ، وقد ذَكَرْنَا مِن قَبْلُ بيتين في القِرَاءَة، هما[2]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمَالًا يَحْوِي
وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

ولكن الرسم هنَا لَا يَحتمل الزِّيَادَةَ، أَو النّقصَان، ولكن القِراءَة ثابتة، كَذَلكَ

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).
(٢) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).

في سُورَة البَقَرَة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة:١١٦]، ففيها قراءتان: بإثبات الواو وبحذفها، وهناك شواهدُ أُخرَى في القُرْآن، لَكِن هَذَا يعتبر منَ الأَشياء النادرة.

قوله تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾: ﴿أَعۡلَمُ﴾ هَذَا اسمُ تفضيلٍ، واسمُ التفضيل يَدُلُّ عَلَى اتِّفَاق شخصين اشترَكَا في صِفَةٍ واحدة.

فَإِذَا قيلَ: فلانٌ أَفضَلُ مِن فُلَان. فقد اشترك الرَّجُلان في الفَضل، وزاد المفَضَّل على المفَضَّل عليه. هنا يقول: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾.

قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ]، فَحَوَّل اسمَ التفضيل إِلَى اسمِ فاعِل، وهذه جناية عظيمة؛ لأن (عَالِم) أدنى بكثير مِن ﴿أَعۡلَمُ﴾، فَإِذَا قلنا: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ﴾ و(وربي عالِمٌ بمَن جاء)، فالأول أَبْيَنُ، ولذلك يُعتبر نقصًا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والصَّواب أنَّ ﴿أَعۡلَمُ﴾ أي: مَن عَلِمَ بالهدى مِن عند الله، فَاللهُ أَعلَم منه.

والمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومَن حَذَا حَذوَه، أَو سَبقه إِلَى ذَلكَ إنَّما فَرُّوا مِن أَنْ يَكونَ الإِنسَان مشتركًا مَعَ الله في العِلم، لكن اسم التفضيل لَيسَ فيه دَليل عَلَى المُشارَكَة، فقولنا: أَعْلَم. ينفي المُشارَكَة؛ لأن الأعلم في دَرَجَةٍ لَا يَصل إِلَيهَا المفضَّل عليه، لَكن إِذَا قلتم (عالم) فهذا فيه المُشارَكَة؛ لأَنَّ اللهَ عالِمٌ، والإِنْسَان عالِمٌ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، أي: فعَلِموا، وكَذَلكَ قَوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤].

فالشاهد أَنَّ كَلمَةَ ﴿أَعۡلَمُ﴾ هيَ الَّتي تَقتَضي التفريق، بخلاف عالِم، ثُمَّ إنَّ فيها

دليلًا واضحًا عَلَى أَنَّ كلَّ صِفة كمـال، فَاللهُ تعالى لَهُ منهَا أعـلاها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل:٦٠]، فكلُّ صِفة كمالٍ مُطْلَق فلله تعالى منها أَكْمَلُها، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾.

فهناك مَن عَلِمَ مَن جَاءَ بالهـدى مِن عند الله مِنَ المُؤمِنيـنَ الَّذينَ أُرسل لهم، فعلموا ذلك، اللهُ تعالى أَعلَمُ بهم.

قوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ الضَّميـر في قَوْلِهِ: ﴿عِندِهِۦ﴾ يعود للرَّب، أي: مِن عند الله، وَإِنَّمَا أَشَارَ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لئلا يُظَنَّ أَنَّه عَائد إِلَى ﴿مَن﴾ في قَوْلِـهِ: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وَلَا يمكن أَنْ يَعـود إِلَى ﴿مَن﴾؛ لأَنَّه يَختَلف المَعنَى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ وَلَم يَقُـل: أَعلَمُ أَنِّي قَد جئـت بالهدى مِن عِنْدِه، بَل قَالَ: ﴿بِمَن جَآءَ﴾؛ لئَلَّا يكونَ مُدَّعيًا، وليبقَى الأمر مَوْكُولًا بالحُكم عَليه مِن جهَة العقل.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَمَنْ عَطْـفٌ عَلَى ﴿مَن﴾ قَبْلَهَا]، أي: وبِمَن تكـون لَهُ عاقبة الدَّار، فهُوَ أَعلَمُ بمَن جاءَ بالهُدى مِن عِنْدِه، وهذا سببٌ لِحُكم العاقِبة، و﴿أَعْلَمُ﴾ كذلك بـ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ فهوَ أَعلَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالمبتدأ والمنتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ سَمَّى الكتَابَ، أَو الوحيَ هُدًى؛ لأَنَّه يهدي، كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الصف:٩]، فالهُدى هُوَ العِلم؛ لأَنَّه هُوَ سبيلُ النجاة.

وقوله: ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ أَضافَه إلَى الله؛ لأن الوحيَ مِنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولَيسَ مِن غيره، ولا أحدَ يأخذ هُدًى إلَّا مِن عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [بِالفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ][1] فهُما قراءتان؛ أمَّا القِراءَة بالتاء ﴿تَكُونُ﴾ فالأمر فيها ظَاهر؛ لأن عاقبة الدَّار مؤنث، والفاعل إذَا كَانَ مؤنثًا يُؤَنَّث له الفِعل، وأمَّا بالياء «يَكُونُ» إنَّما جَازَ التذكير مع تأنيث الفاعل؛ لأن التأنيث مجازيٌّ؛ والمؤنث المجازي كُلُّ مَا لَيسَ لَهُ فَرْجٌ فهو مؤنثٌ مجازي.

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ﴾ كان هنا ناقصة، وخبرُها مُقدَّم، وَهُوَ قَوله: ﴿لَهُۥ﴾ واسمُها مُؤَخَّر، وهو: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَي: العَاقِبَةُ المَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ]، ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: مَن يَعقُب غيرَه في الدَّار، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ حَمَلَها عَلَى أَنَّ المَرادَ بالدَّار هنا الدَّارُ الآخِرَة، وَلَكن يَنبغي أن نَقولَ: إنها عَامَّة في الدَّار الآخِرَة، والدَّار الدُّنيا؛ لأن عِبادَ الله الصَّالحينَ هُم الَّذينَ لَهم العاقبةُ في الدّنيَا وَالآخرَة، وَقَد كَانَت العاقبة لموسى وقومه حَتَّى في الدَّار الدُّنيا بالنِّسبة لفِرْعون، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء:٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان:٢٦-٢٨]، وَفي سورَة الشّعرَاء ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩].

فالأَولى إذن أَن نَجعَلَ الدَّارَ هنا عَامَّة في الدَّار الدُّنيا، ودار الآخرة.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ العُقبى في الدّنيَا واضحة؛ إذا فتح المسلمون البلاد صاروا هُم الَّذينَ وَرِثُوها، وهُم كَذَلكَ في الآخرَة في الجَنَّة؛ لأَنَّ المسلمَ يَكون في الجَنَّة وارثًا لمكان الكافِر منه؛ فَإنَّ الكَافِرَ يرى مقعدَه في الجَنَّة، وفي قبـره لَو آمَن، ولكن المؤمنون يرثون مقاعِدَ الكافرين في الجَنَّة، وتكون عُقبى لهم أَيْضًا بالدَّار الآخرة.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنَا فِي الشِّقَّيْنِ]، والشِّقَّان هما قوله: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾، والشِّقُّ الثَّاني: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: هُوَ أَنَا]، هَذَا هُوَ الحَقّ، أَنَّ الَّذي جَاءَ بالهدى مِن عند الله موسى، وأنه ستكون له العاقبة، ولكنَّ موسى خاطَبَ فِرعونَ بهَذَا الخطَاب المتردد بَينَ كَون الهدى عندَه، أَو عند فِرْعَونَ، والعاقبة لَهُ دونَ فِرْعَونَ عَلَى سَبيل التَّنَزُّل، كَمَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

لكنه هنا لَم يُصَرِّح بأَنْ قَالَ: أَنَا قَد جئتُ بالهدى، وأنا العاقبة؛ لأَنَّ هَذِهِ هيَ الدعوة التي جَاءَ بهَا، وأقامَها على فِرْعَون، لكنه ساق الكلام مَساقَ الأمر المتردد بَينَه وَبَينَ فرعَون مِن بَاب التَّنَزّل معه.

قال: [فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ]، هذا مُفرَّع عَلَى قَوله: [هُوَ أَنَا].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافِرُون، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الضَّميـر هنا ضميـر الشأن؛ لأَنَّه لَم يَسبق له مرجع، ولم يَلحَقه مَا يَصلح أَنْ يكونَ مرجعًا له، وَعَلَى هَذَا فيكون ضميـرَ الشأن، أي: إنَّ الشأن والحال ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: إن كنت أنا ظالمًا بدعوى الرِّسالَة فَأَنَا لَا أُفلح، وإن كنتَ ظالمًا بِردِّك الحقَّ فَأَنتَ لَا تُفلح؛ لأَنَّه مفرَّع عَلَى مَا قبلَه ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ

عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾، وعاقبة الدَّار تكون لغير الظَّالِم؛ لأنَّ الظَّالمَ لَا يُفلح، ونحن نعلم عِلم اليَقِين أَنَّ الظَّالمَ في هَذِهِ الحَالِ هو فِرْعَون؛ لأنَّه رَدَّ الحق.

وقوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ الفَلَاح هُوَ حصول المطلوب، وَالنَّجاة منَ المهروب، وسُمِّي فلاحا؛ لأنَّه بقاء، وَأَصله في اللّغَة البقاء، كَمَا قَالَ الشَّاعر[1]:

لكُلِّ هَمٍّ مِنَ الهُمُومِ سَعَهْ ... وَالمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلَاحَ مَعَهْ

يَعني: لَا بَقَاءَ معه، فتعدَّى الأَمرُ إِلَى أَنْ يَقولَوا: إِنَّ الفلاح هُوَ حصول المطلوب وَالنَّجاة مِنَ المهروب.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مَعنَى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: [الكافِرُون] فيه نَظَر، لأن عدمَ فلاح الظَّالِمين بحسَب ظُلمهم؛ إن كَانَ ظُلمًا أكبرَ، فَهُم لَا يُفلحونَ أبدًا، وهم الكافِرُون، وَإن كَانَ ظُلمًا دونَ ذَلكَ، نَقصَ منَ الفَلَاح بحَسَب مَا نَقَصَ منَ العدل، فالضابط لهذا أَيْضًا إبقاء الآيَة عَلَى ظَاهرِهَا، وأنَّ الظَّالمَ لَا يُفلح، لكن انتفاء الفلاح عنه بحسَب وجود الظُّلم فيه؛ فالظلم الأكبر يفوت به الفَلَاح كله، وَمَا دونَ ذَلكَ يَفوت منه منَ الفَلَاح بقَدْر مَا حَصَلَ منَ الظُّلمِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: في قَولِهِ: ﴿أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾ التَّنزل مَعَ الخَصم عَلَى وَجهٍ لَا يَكون فيه تقويضٌ لدعوَى المدَّعي.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فيهَا دَليل عَلَى أَنَّ الهُدَى مِن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فَهُوَ الَّذي يَأتي بمَا يَحسُن الاهتداء به، وَيوَفِّق مَن شَاءَ مِن عِباده له، فالهدى مِن عند الله، ﴿أَعْلَمُ بِمَن

(١) البيت للأَضْبَطِ بْنِ قُرَيْعٍ السَّعْدِيّ، كما في اللسان، مادة: فلح.

جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ فهو ضلال، وَالهدَى مِن عند الله، فما خَالَفَه فَهوَ ضلال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ العاقبة لمن اتبع هُدَى الله؛ لقوله: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي: وَهُوَ كَذَلكَ أَعلَمُ بمَن تَكون لَهُ عاقبة الدَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الظَّالِمَ لَا يفلح، ومفهومه أَنَّ صَاحبَ العدل يفلح؛ لأَنَّه إذَا انتَفَى الفلاح عن الظَّالِمِ وجب ثبوته لصاحب العدل.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التَّحذير منَ الظُّلم؛ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، والترغيب في العَدل؛ لأن التحذيرَ منَ الشَّيء تَرغيب في ضِدِّه.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٣٨)

• • ◦ • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

• • ◦ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فَاطْبُخْ لِي الْآجُرَّ ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ قَصْرًا عَالِيًا ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَأَقِفُ عَلَيْهِ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فِي ادِّعَائِهِمْ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا﴾ يخاطب قومه، وَقد أَتى بصيغة الجمع المقدَّر بالنداء، وفيه منَ الأمر والتعظيم له، ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وَلَم يَقل: ما وجدت لكم؛ لأَنَّه لَو قَالَ: مَا وَجَدت لكم. لكَذَّبوه؛ إذ سيُحاجُّونه بأَنَّه لَم يَذهَب لأي مكان، ولم يُفارقهم، فَلَم يَذهَب ليطلب اللهَ، وَلَم يجده، فَنفَى أَنْ يَكونَ عالمًا بذَلكَ، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾، لأَجْل أَنْ يُفَرِّعَ عليه، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فتتم له اللُّعبة، يقول: أَنَا لَا أَعلَم لَكم مِن إلَهٍ غيري، لَكن لَا مَانعَ مِن أَن نبحث.

قَوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي: اجعَل لي صَرحًا طويلًا رفيعًا

كي أَنْظُرَ: هَل في السَّمَـاء إله لموسى أَم لَا؟ وَهَذَا أَبلَغ في التمويه، فعبَّر بقوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ﴾؛ لأَجْل أَنْ يُتِمَّ لُعبته.

وقوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ المراد من رَبّ غيري؛ لأَنَّه قَالَ في سُورَة النازعات: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٣-٢٤]، أو يجوز أَنَّ المرَادَ بالإله ظاهرها، فيكون ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ أي: مِن معبود، ولا يعبَد إلَّا الرّبَ.

وَقَوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ الفاء للسببية، وهي عاطفة، وهامان: هو وزيرُه، والظَّاهر أنه وزيرٌ مُطلَق، ولَم يَكن مختصًا بشأنٍ مُعيَّن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فَاطْبُخْ لِيَ الآجُرَّ] أي: الطين، وَهُوَ التّرَاب المخلوط بالماء، فإذا أَوْقَدَ عليه انعقَد وتحجَّر، وصار آجُرًّا، وَإِنَّمَا اختَارَ ذَلكَ؛ لأن الآجُرَّ أَقوَى مِن غيره، وَلأَنَّه إذَا أوقد عليه يوقد على مِصفاة، فيشتهر بَينَ النَّاس إذَا سألوا أَنَّ هَذَا هُوَ وقُود الصرح الذي سيَبْنِيه ربُّهم، وَيَكون أَيضًا مُرعِبا أكثر.

قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحًا﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَصْرًا عَالِيًا] أي: يبني لَهُ مثل المنارة، لكنه بناءٌ عالٍ، وَلَو قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بناءً عاليًا، لَكَانَ أَولَى.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ هَـذِهِ للتَّعلِيل، يعني: اجعله لي؛ لأطلع إلى إله موسى أَنظر إلَيه، وأقف عليه، وقوله: ﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ قالها فِرْعَون عَلَى سَبيل التحقير؛ لأن موسى عنده حقير، فإلهه يَكون مثله -حَاشَا لله- حقيرًا لحقارة عابده.

قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِادِّعَائِهِ إِلَهًا آخَرَ، وَأَنَّهُ رَسُولُهُ].

وقولُه: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أَكَّدَها بـ(إنَّ) واللام، ثُمَّ قَالَ: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليفتح الباب لكذبه؛ لأَنَّه لَيسَ هَذَا أَوَّل مَن كَذَبَ، فليس بغريب أَنْ يَكذب؛ لأَنَّه قَد سَبقَه مَن سَبقَه، فَيكون هَذَا أَكثَرَ قَبُولا لقوله عندهم، وليُذكِّرهم أَنَّ موسَى مِثل غيره مِنَ الكَاذبِينَ، فليس أَوَّل مَن كَذَبَ.

فَائدَة: قَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ هَذِهِ الدَّعوَى كَذَبَ فيها فِرْعَونُ؛ لأَنَّ موسَى قَالَ لَه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢]، لكنه يُمَوِّهُ به عَلَى قَومِه، ولهذا أمر بهذه الفَعْلَة.

وَكَذَلكَ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كـذب أَيْضًا في قَوْلِهِ، بَل هُوَ مُتيَقِّن أَنَّ موسَى صادق، ولكنه زاغ وتنكَّر للحق.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن فِرْعَون قد سيطر على قلوب قومه، ووَجْهُ ذَلكَ أَنَّ مِثلَ هَذَا الكَلَام لَا يُقبَل إِلَّا مِن شَخص قد سَلَب عُقولَهم، وإِلَّا خرج أيُّ وَاحِد منهم ليقول: أريد أَنْ أُصْبِحَ إلها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَمْوِيهُ فِـرْعَونَ عَلَى قَومِه، وَأَنَّه مِن أَشَـدّ النَّاس مَكرًا وحِيلـةً؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات عُلُـوِّ الله، ونأخذه مِن قَولِه: ﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾، وَهَذَا دَليل عَلَى أَنَّ موسَى قَالَ لَه: إِنَّ اللهَ في السَّماء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن فرعَونَ كَانَ عظيمَ المُلْكِ في مملكته، وَكَانَ لَهُ وزراء يأمرُهم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إسنَاد الفعل إِلَى الآمر به إِذَا كَانَ لَهُ سلطَان، لقوله: ﴿فَٱجْعَل

لِي صَرۡحٗا﴾، وَمَعلوم أَنَّ هامان لَم يُبَاشر البناء، بل باشَرَهُ العُمال، ولكنه نسبَ الفعل إِلَيه؛ لأَنَّه الآمِر به، ففيه إسنَاد الفعل إِلَى الآمر به لمَن كَانَت لَهُ سُلطة الأمر.

والفقهاء رَحِمَهُمُٱللَّهُ اعتبروا هذا، فقالوا: لَو أَمَرَ بالقَتل غيرَ مكلَّف، فقَتَل، فالقَوَد عَلَى الآمِر؛ لأَنَّه لَو قَالَ رَجُل مَا لشاب لَم يَبلُغ بَعْدُ: اقتُل فلانًا. فذَهَب فقتلَه؛ فَإِنَّ الَّذي يُقْتَلُ هو الآمِر؛ لأَنَّه هُوَ السَّبَب، وَالحُكم إِلَيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الفَخَّار أَقوَى مِنَ الطِّين غير الموقَد عليه، يؤخَذ مِن قوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ وَقَد يَكون فِرْعَون أَوَّل مَن اخترع هذا الطين، وَقَد يَكون الأَمر مَعلوما مِن قَبل.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: طغيان فِرْعَون، واستِكْباره، حَيث ذَكَر الربَّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بصيغة الإذلال في قَوْلِهِ: ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ فنسبه إليه؛ احتقارًا له، لأَنَّه يحتقر موسى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ فِرعَون مِن أَكْذَبِ النَّاس؛ لقوله: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾، ولقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

الآيـة (٣٩)

•●•●•

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القَصَص:٣٩].

•●•●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْـرَ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾، من الكِبرياء، وهي العَظَمَة، والمعنى أنه تَرقَّى وتعاظَم هو وجنودُه، وزيادَةُ الهَمْزة والسِّين والتَّاء للمُبالَغة، وليْسَت للاستِدْعاء؛ لأَنَّ الغالبَ أَنَّ الهمـزَة تكُونُ للاستِدْعاء، مثل: استغفرَ له، يعني: طلب مغفرَته، واسْتَرْحمه: طلـب رحمته، لكن تأتي أحيانًا للمُبالغـة، مِثل ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾ يعني: بَالَغَ في الكبـرياء والعظمة هُوَ وجنوده.

قَولُه تعالى: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾ الجند في الأَصل هُم حاشية الإِنْسَان وأنصارُه، ويُطلَق عَلَى كلِّ مَن اتَّبعه، فَهوَ مِن جُنده.

وقوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾، و(ال) في قَوْلِهِ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للعهد الذهني، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَرْضِ مِصْرَ]، أي: ليست الأَرضَ كلَّها؛ لأَنَّه لَا سُلطَانَ لَهُ عَلَى بَقيَّة الأراضي، وَلَكنَّ المرَادَ أَرض مِصرَ.

فَعَلَى هَذَا تكون (ال) هنا للعهد الذهني لا للعموم.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بيانٌ للواقِع؛ لأن الاستِكْبارَ كُلَّه مُخالف للحق، وَزِيَادَة في تقبيحِه، فالاستِكْبار قبيحٌ، فإذا وُصِف بغَير الحقّ صار أقبحَ وأقبحَ، ونظير هَذَا قَوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١].

وَمنَ المَعروف أَن قتلَ الأنبياء لَا يمكن أَنْ يَكونَ بِحَقٍّ، لكن ذَكَرَ ذَلكَ للمبَالَغَة في تقبيحه، فالواقع أَنَّه لَيسَ بحَقٍّ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والحق في الأَصل هُوَ الشَّيْء الثابت، فَإِذَا أُضيفَ إِلَى الكَلَام، فَالمرَاد به الصَّدَقُ، وإذا أضيفَ إِلَى الأحكام، فالمرَادُ به العدل، كَقَوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

إذن: انتفى عَن هَؤلَاء باستِكْبارِهم الحَقُّ مِن وَجهَين: حيث اتخذوا كذبًا وزُورا بما استكبروا به، وغير الحق.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ قَد يَكون المَراد بالظن هنا الرُّجحان، أو اليَقِين، فهم مُتيَقِّنُون مما جحدوا به، أَمْ أنهم تَرَجَّح عندَهم أَنَّهم راجعون.

كلَاهمَا في الواقع يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]؛ لأَنَّ مَن استيقن شَيئًا لَا يظن خلافَه، فمَن استقين أَنَّ مَا جَاءَ به موسى حقٌّ، فلا يَظنُّ أَنَّ خِلَافَه هُوَ الحَقُّ؛ لأَنَّ مَن استيقن الشَّيْء آمَنَ به، لكن يبدو لي أَنَّ الظنَّ هنا إمَّا بمعنى الدعوى، يعني: ادَّعَوا أَنَّهم إِلَينَا لَا يُرْجَعُون، أَو أَن المَراد بِهِ الظن، أَلَم يستفسر عَن الحَقّ الَّذي جيءَ به مِن عند الله، وَهُوَ فعله هنا فعلَ الظانّ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فيها قراءتان، بالبناء للفاعِل «لَا يَرجعونَ»، وبالبناء للمَفعول ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾[1]، وأركانُ القِراءَة موجودة هنا،

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٤).

وَقد ذَكَرناه سابقا في بيتَين[1]:

فَكُلُّ مَا وَافَقَ وَجْهَ نَحْوِ ... وَكَانَ للرَّسْمِ احْتِمالًا يَحْوِي

وَصَحَّ نَقْلًا فَهُوَ القُرْآنُ ... فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ الأَرْكَانُ

وَمَعنَى قَوله: ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي: يعودون، ويُرَدُّون إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذ إنَّ الكلَّ سوف يَرجع إلَى الله، والإِنْسَان رَاجع إلَى الله في مَحْيَاه ومَمَاتِه، فهو بَعدَ المَوت يَرجع إلَى الله، وَكَذَلكَ في الدّنيَا أمرُه رَاجع إلَى الله، فَهوَ الَّذي يُدَبِّره.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَان حَال فِرْعَونَ وجُنوده أَنَّهم قَومٌ مستكبرون عَن الحَقّ، متَعَالُون عليه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَن استكبر عَن الحَقّ فيه شَبه مِن فِرْعَونَ وجنوده.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجوب الرُّضوخ للحَقِّ، فالإِنْسَان يَجب عَلَيه أَنْ يرضَخَ للحق، سواء وافقَ هَوَاهُ أَو خَالَفَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المستكبر لَيسَ لَهُ حق؛ لقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَؤلَاء المستكبرين يَعمَلونَ عَمَلَ مَن لَا يَظُنُّ أَنَّه يَرجع إلَى الله؛ لأَنَّ مَن ظَنَّ أَنَّه يَرجِع إلَى الله لن يستكبر عنه؛ لأَنَّه يَخاف منه، لَكن مَن يستكبر هُوَ مَن ظَنَّ أَنَّه لَا يَرجع إلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثباتُ البَعث؛ لأَنَّ قَوله: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ إثبات الظن، فيقتضي أَنَّ الرّجوع إلَى الله أَمْرٌ ثابت.

(١) متن طيبة النشر في القراءات العشر، لابن الجزري، البيتان (١٤، ١٥).

الآيـة (٤٠)

• ● ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠].

• ● ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ طَرَحْنَاهُمْ ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ المَالِحِ فَغَرِقُوا ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ حِينَ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ].

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ﴾ الفاء عاطفة، وَالْمُرَادَ بها أيضًا السَّبَبِيَّة، أي: فبسبب استِكْباره هو وجنودِه ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾، مُقابل الاستِكْبار ذَكَرَ الله تعالى عقوبتهم عَلَى وَجه الاستهجان والتحقير.

قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ النَّبْذُ هو الطَّرح، أي: طرحناهم بِقُـوَّة، والمطروح بِقُوَّة حقيرٌ؛ لأن العظيم لا تستطيع أن تَنْبِذَهُ نَبْذًا، فهو خطير عظيم، إنها يُنبَذ نَبْذًا مَن كَانَ هَيِّنا حقيرًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ﴾ والضَّمير (هُم) يَعود عَلَى فِـرْعون والجنود، ولم يُغْنِه عنه هؤُلاءِ الجنود شيئا؛ لأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا شَيْءَ يُقَابله مِن قوة البشر.

قَولُه تعالى: ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الْبَحْرُ المَالِحُ] احترازًا مِنَ الأَنْهار؛ لأن الأَنْهار بِحارٌ، لكنَّها غيـرُ مالحة، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ

فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان:٥٣]، وقال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرَّحمن:١٩]. فسمَّى اللهُ تعالى الأنْهارَ والبحارَ المالحةَ بحارًا.

وقوله: [البَحْرُ المَالِحُ] هَذَا بَيَانٌ للواقِعِ الَّذي وُجِدَ فيه فرعَونُ وجنودُه؛ لأنَّهم وُجِدُوا في بَحْرِ القُلْزُمِ، وَهُوَ البَحر الأحمر الَّذي بَينَ جَدَّة ومِصر، هَذَا الَّذي غَرِق فيه فِرْعَونُ وقومُه.

انظر إلى الحكمَة في أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أغرقهم إغراقًا في اليَمِّ؛ لأنَّ فرعَونَ كَانَ يفتخر بأنهاره ويقول لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١-٥٢]، فأخرجه اللهُ مِن مُلك مصر، وأهلكَه بِمَا كَانَ يَفْخَرُ به منَ الأنْهار.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿فَٱنظُرْ﴾ الخطاب لكلِّ مَن يَصِحُّ تَوجيه الخِطَاب إلَيه، أي: فانظر يَا مَن تسمع هَذَا الخطَابَ ويوجَّه إليك.

والمراد بالنَّظر هنا نظرُ الاعتبار، وهو النَّظر بالقَلب؛ لأن العاقبة لا تُنْظَر بالعَين، اللَّهمَّ إلَّا إِذَا سار الإنسَان في آثَارِهم، فقد يَنظر بعَيْنه وبِقَلْبه و﴿كَيْفَ﴾ هنا للاستفهام، وَالمرَاد به التعظيم، يعني: عِظَم العاقبة، لَكن لَا تعظيمَ الرِّفعة، بل تعظيم العقوبة، فهو تفخيمٌ لها، وتعظيمٌ للعاقِبة الوَخِيمة السيِّئة للغاية، وَهُوَ اسم استفهام مَبنيٌّ عَلَى الفتح متعلق بخبر مقدَّم وجوبًا لـ﴿كَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ﴿عَٰقِبَةُ﴾ بمعنى عُقبى، وَهيَ عَلَى صيغة اسم الفاعل، والمراد العُقبى، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هُم الَّذينَ نقصوا حُقوق أنفسهم، وحُقوق ربِّهم؛ لأنَّ الظُّلم في الأَصل النقص، قَالَ الله تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]، أي: لَم تَنقص.

وقوله: ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ المراد بالظَّالِمِين هنا الكافِرُون؛ لأَنَّه يُشير إِلَى مَا جَرَى لِفِرْعَون وقومِه، وهم ظالمون ظُلْمَ كُفر؛ لأن الظُّلم يَنقَسم إِلَى قسمَين: ظُلم كُفر، وظُلم معصية، وهو دونَ الكفر.

ففي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٩]، المراد هنا ظُلم المعصية، وفي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، المرادُ ظُلم الكفر، وفي قوله: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، شامل للأمرين: الكفر وَمَا دونَه.

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ في مَصيرِهم إِلَى الهَلاك بأَتْفهِ الأُمور، وَهُوَ المَاء، وَهَذه مِن حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أَنْ يَأْخُذَ كُلَّ إنسانٍ بِذَنْبه، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠]، أي: بِمَا يقتَضيه ذَنْبُه منَ العقوبَة.

وكـذلك عـادٌ استكبـروا في الأَرض وتحـدَّوْا، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، فَـرَدَّ الله عَلَيهـم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]؛ لأن الخالِق بلا رَيْبٍ أَقوَى مِنَ المَخلوق، وقد أخذوا بأَلْطَف الأَشْياء، وهي الرِّيح أَرسَـلَ اللهُ عَليهم الرِّيح، قَالَ تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، كل أيام الدَّهر، وَلَو شَاءَ الله لأَرْسَلَها عليهم بِلَيْلَةٍ واحدةٍ، ودَمَّرَتْهُم تدميـرًا، لكن لِحِكْمَةٍ أرادها أَنْ يعذَّبـوا أصلًا لأخذتهم جميعًا، وابتـدأت بالأطراف، ثم يصعد إِلَى أَعلَى السماء، ثُمَّ ينزل عَلَى رَأسه، ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا أشد عقوبة؛ لأَنَّهَا لَو جاءتهم مَرَّة وَاحدَة ودَمَّرَتْهُم، ما عُذِّبُوا وماتوا وهلكوا، وانتهى الأمر، لَكن هَذَا أشدُّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الذُّنوب سببٌ للعُقوبة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان عَظَمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حيث أخذ هَؤلَاء الكفَّار بما لَهم مِنَ القُوَّة، ونَبَذَهُم نَبْذًا كما يَنْبِذُ الإِنْسَان، فَلَم يُبَالِ بهم، ولم يُعْجِزُوا اللهَ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِكمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ حَيث كَانَ إهلاك فِرْعَونَ وقومِه بالمَاء الَّذي كَانَ يفتخر به بقَوله: ﴿يَـٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِى مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَـٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ تَجۡرِى مِن تَحۡتِىٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف:٥١]، فَإِنَّ هَذَا الَّذي كَانَ يفتخر به كَانَ مَحَلَّ هلاكِه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ فِرْعَون قَد هَلَكَ فيمَن هَلَكَ، وأنَّ قَولَه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩٢]، وليس مَعناه أَنَّه حَيٌّ باقٍ، وَإِنَّمَا الَّذي أُنْجِيَ، وظَهَر للنَّاسِ هو بَدَنُه فقط ليكون لَمن خَلْفَه آيَةً؛ لأَنَّ بَني إسرَائيل -كَمَا قَالَ أَهلُ العِلم- قَدْ أَرْعَبَهُم فِرْعَونُ، فَلَولَا أَنَّه خَرَجَ حتى شاهدوه ببَدنه لَشَكُّوا في هلاكِه، فإذا شاهدوه تيَقَّنُوا، وزال عنهم الشك، فإذن هو هالك فيمَن هَلَكَ؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَـٰهُمۡ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يُطلَب مِن المرء إمَّا وجوبًا، أو استحبابًا، أن يتأمَّل في عَاقبَة الظَّالِين، لقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، وَأَنَّه يَنبَغي لَنَا أَن نَتَّعظ بعاقبة هؤُلاءِ، فلا نَظْلِمَ مِثلَهم؛ لأَنَّه مَا دَامَ عاقبةُ الظَّالِمِ الهلاكَ؛ فإِنَّ الإِنْسَان يخشَى أن يَهلِك إذا ظلَمَ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الظُّلمَ مُحرَّم؛ لأَنَّه سَبَب في العُقوبَة، وَمَا كَانَ سَببا لعُقوبة، فَإِنَّه مُحرَّم، وَسَوَاء كَانَ الظُّلم للنفس، أو للغير؛ لأَنَّه مُحرَّم بجميع أنواعه، قَالَ اللهُ

تعالى في الحَديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا»[1].

• ● ۞ ● •

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

الآيــة (٤١)

• • ● ∽ ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القَصَص:٤١].

• • ● ∽ ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً: رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الشِّرْكِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ].

أَي: إِنَّ فِي كَلمَة ﴿أَئِمَّةً﴾ قراءتين: الأُولى الواردة بالهَمْز، والثَّانية بالياء بَدَل الهمز هكذا «أَيِمَّة»[1]، والقراءتان سبعيتان.

ثمَّ قَال: [رُؤَسَاءَ فِي الشِّرْكِ]؛ لأَنَّ الإمَامَ هُوَ القائد الذي يُتبع، فَهوَ ذو أَثَر في الشِّرْكِ، وليسوا رؤساءَ في الشِّرك فقط، بل رؤساء متبوعين، فالإمامُ هو المتبوع، والمعنى: أَنَّهم كَانوا قادةً إِلَى الكفر وَالشِّرك.

لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يقول: [وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدُّنيَا أَئِمَّةً]، وَلَو أَنَّه أَخَّرَ الدُّنيا لكان أحسن.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ في الدّنيَا؛ لأن حَقيقَة الأَمْر أَنَّ إِمَامَتَهم بالكفر كَانَت في الدُّنيَا، فهُم جُعِلُوا في هَـذِهِ الدُّنيَا أئمةً، يعني:

---

(١) شرح طيبة النشر في القراءات العشر، للنويري (١/ ٤٣٧).

متبوعيـن يُقْتَدَى بهم في الكفر، فكلُّ مَن أَتَى بَعْدَهُم، وكان كُفره كُبَّارًا؛ فإنه مُقْتَدٍ بهم.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالقَول وَبالفعل جميعًا، فهم قَبلَ أَنْ يَهلكوا يدعون بالقَول وَبالفعل، وبَعدَ أَن هلكوا يَدعون بالفعل؛ لأَنَّ مَن اقتدى النَّاس بفعله فهوَ في الحَقيقَة قد دَعَاهم إليه.

وهم هنَا لَا يدعـونهم بالقول: هيا ادخلـوا النار، ولكن يَدعـونَ إلَى العَمَـل الموَصّلَ إلَيهَا، وَهُوَ الشّرك والكفر، وبئس مَا كَانوا أئمة فيه، وهو الدعوة إلَى الكُفر بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى والإشراك.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾: ﴿وَيَوْمَ﴾ هذا ظرفٌ متعلق بـ﴿يُنصَرُونَ﴾، يعني: وَهُم لَا يُنصَرونَ يومَ القيَامَة، هُم في الدّنيَا أئمة متبوعون، لَكِن في الآخِرَة ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾، لَا يَستَطيعونَ أَنْ ينتصـروا لأنفسهم، فَلَا يمكن أَنْ يَكونوا أَئمَّة يُقتَدَى بهم.

وقوله: ﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لَا يَجِدُونَ مَن ينصرهم بِدَفع العَذَاب عنهم، لَا هُم، وَلَا غَيرُهم، حتى غَيرهم لَا يمكن أَنْ يَدفَعَ عنهم العذاب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: حِكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مِثل فِـرْعَونَ وقومِه؛ لأن إيجادَهم حِكمة، فَإِنَّ اللهَ قَادر عَلَى أَنْ يَجعَلَ النَّاس عَلَى الهدَى، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الحكمَة في أَنْ يُوجِد مثلَ هَؤلَاء القَوم الَّذينَ يَدعونَ إلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: حِكْمَةُ اللهِ تعالى فيمَا خَلَقَ مِن أَمْره، وأنه بلاءٌ وفتنة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الإمَامَة في الشَّرِّ، فَانظر إِلَى هَذِهِ في آل فرعونَ، وَانظُر إِلَى هَذِهِ في بَني إسرَائيلَ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]، ففَرق بَينَ مَن يَقُودُ النَّاسَ بأَمر الله، أَو مَن يقودونهم بشريعته، وَبَينَ مَن يَدعونَ إِلَى النَّار.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الدّعَاءَ إِلَى النَّار وإلى الخير أيضًا، كَمَا يَكون بالقَول يَكون بالفعل، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالقول أقوى، وَقَد يَكون مَا هُوَ بالفعل أَقوَى، إنما عَلَى كلِّ حَال الدعاء بهذا وبهذا ثابت؛ فَإِنَّه كَانَ يَدعو النَّاسَ بمقاله وبحاله.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات يَوم القيَامَة في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾، وقد سُمي يَومَ القيَامَة؛ لأُمُور ثلاثة:

الأَوَّل: أَنَّه يَقُوم النَّاس فيه مِن قُبورهم لرَبِّ العَالَمِينَ.

الثَّاني: أنه يقَام فيه العَدل كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء:٤٧].

الثالث: أنه يَقُوم فيه الأشهاد ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، فلهذا سُمّيَ يوم القيَامَة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيَان أَنَّ آلَ فرعَونَ لَا نَاصِرَ لَهم في الآخرَة، ومِثلهم مَن كَانَ عَلَى شاكلتهم مِن المستكبرين عَن الحَقِّ؛ فَإِنَّهم لَا يجدونَ مَن يَنصرهم مِن عَذاب الله إِذَا نَزَلَ بهم في ذَلكَ اليَوم.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القَصَص:٤٢].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ خِزْيًا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ الْمُبْعَدِينَ].

قَولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ الضَّمير يَعود عَلَى فِرْعَون وجنوده، أي: وجَعَلْنَا اللعنة تتبعهم بعد إهلاكهم، واللعنة في الأَصل: الطرد والإبعاد، وفسرها الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ بلازمها، وهو الخِزي، أي: إِنَّ كُلَّ مَن ذَكَرَهُم يلعنهم ويطرُدهم، ويبتعد عنهم، وَلَكِن لَا مُنافاةَ بَينَ مَا هنا، وَبين قَولِه في الآيَة السَّابقَة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾؛ لأَنَّ الَّذي يأتَمُّ بهم هُوَ الموافق لَهم عَلَى كُفرهم، أَمَّا مَن لَم يهتمَّ بهم؛ فإنه يلعنهم.

واللعنةُ مِنَ الله، وَمِن غَيره، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]، فمَن لَعَنه اللهُ لَعَنَهُ المؤمنون بالله، قَالَ ابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في لَعْنِ النَّامِصَة والمُتَنَمِّصة، قال: «مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب اللباس، باب المتنمصات، رقم (٥٩٣٩)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة، باب تحريم فعل الواصلة والمستوصلة، رقم (٢١٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أَيْضًا ظرفٌ متعلق بمحذوف حالٌ مِن ﴿هُم﴾، يعني: وهُم حال كونهم يومَ القيامَة من المقبوحين، أو متعلق بـ﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾، ولكن (ال) اسمُ موصول، والاسم الموصول لَا يَعمَل مَا بَعدَه فيمَا قَبلَه، فإمَّا أَن تجرَّد (ال) مِن المصدرية، أو ذَلكَ عَلَى سَبيل التوسّع؛ لأنَّهم يتوسّعون في الجارِّ والمجرور والظرف مَا لَا يتوسعون في غَيرِه.

وقوله تعالى: ﴿هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ الجملة اسمية، دَالَّة عَلَى أَنَّهم هُم في ذَلكَ الوَقتِ لَا يمكن أَبَدا أن يستحسن مَا فَعَلوه، أو يُقَرَّبوا، بل إنهم في ذَلكَ الوَقتِ مِن المقبوحين المُبْعَدِين الذين يفضحُهم كُلُّ مَن ذَكَرَهُم، فَلَا يمكن لأَحَد أَنْ يُقَرِّبَهم.

إذن: عوقب هَؤلَاء الَّذينَ كَانوا يَدعونَ إِلَى النَّار بثلاثة أُمُور:

الأمر الأول: الإغراق بالماء، وَأَنَّهم إِذَا حَلَّ بهم العذاب يَومَ القيَامَة، فلن يجدوا مَن ينصُرهم؛ لأَنَّه قَالَ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

الأمر الثَّاني: العارُ الَّذي لَحِقَ بِمَن لَعَنَهُم، تلك اللعنة التي لَحِقَتْهُم إِلى يَومِ القيَامَة؛ لقوله: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

الأمر الثالث: أنهم يَومَ القيَامَة لَا يمكن أَبَدا أَنْ يَكونوا مِنَ المحمودين المقَرَّبين، بَل هُم مِنَ المقبوحين المطرودين المبعدين.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ عُقوبة آل فرعَونَ كانت ممتَدَّة إِلى يَومَ القيامَة بالذكرى السيِّئة لهم، لقوله تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾؛ فإن كُلَّ مَن ذَكَرَ آل فرعَونَ يذكُرهم بالسُّوء، والبغض، والكراهية.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تحقير الدُّنيا؛ فَإِنَّ قوله: ﴿فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ تُقَال للقريب؛ لدُنُوِّ مرتبته، وأنها دنيا، والدُّنيا مُؤَنث أَدْنَى، وَهيَ مِنَ الدُّنُوِّ الحِسِّي والمعنوي؛ أما الدُّنو الحِسِّي فَلِسَبْقِها عَلَى الآخِرَة، فهي أدنى إِلَى المَخلوقينَ مِنَ الآخرَة، وأما الدُّنُوُّ المعنوي فلِمَا تتضمَّنُه مِن النَّقص في جَميع كمالاتها، فَما مِن كمالٍ في الدّنيَا إِلَّا وَهُوَ ناقص، والآن لو تأمَّلْتَ جميع المَضارِّ والمنافع الدنيوية، تجدها مَشُوبَةً بالضَّرر والخَطر، حتى الزَّمان، كَما قَالَ الشَّاعر[1]:

فَيَــوْمٌ عَلَيْنَــا وَيَــوْمٌ لَنَــا ... وَيَــوْمٌ نُسَــاءُ وَيَــوْمٌ نُسَــرُّ

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ اللعنة التي وُزِّعَت عَلَى هَؤلَاء الفِرْعَونيين تكون عَلَيهم في الآخرَة؛ لقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾؛ لأن المَقبوح معناه: المُبْعَد، واللَّعْن: هو الطَّرْدُ والإبعاد.

• • ❁ • •

(١) البيت للنمر بن تولب، كما في زهر الأكم، لنور الدين اليوسي (٣/ ١٣٥).

الآيــة (٤٣)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَص:٤٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التَّوْرَاةَ].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: [التَّوراة]، وَهِيَ كِتَاب بمعنى: مكتوب، والجملة مؤكَّدة بثلاثة مؤكّدات، وَهِيَ القَسَم واللام الوَاقِعَة في جَوَابه، وقد.

وهنا قد يَقول قَائل: لماذا تؤكد بهذه المؤكّدات الثَّلاثَة مع أَنَّهَا لَيسَت مخاطَبة لمنكر لها؟

فالجواب: هو أَنَّنا سَبَقَ أَنْ قُلنَا: إنَّ التأكيد ليس سببه إنكارَ المخاطَب فقط، بَل قَد يَكون سببه أهميةَ المخبَر عنه، فيُؤكَّد بالقَسم وباللام وقَدْ، وَغَيرهَا منَ المؤكدات.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ إتيَانَ التَّوراة كَانَ بَعدَ إهلاكِ الأُمَم السَّابقَة، ومنهم فِرْعَون، واستنبط منهَا بَعضُ العلَماء مِن قَوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أَنَّه لَم تهلك أُمَّة عَلَى العموم بَعدَ نزول التَّوراة؛ لأَنَّه قَالَ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا

ﵟٱلۡقُرُونَﵞ وكأنه بَعدَ نُزول التَّوراة ما أُهْلِك أَحَدٌ مِنَ القُرون، وهذا الاستنباط ليس ببعيد؛ لأن الواقع يُصَدِّقُه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الكُتب النازلة مِنَ السَّماء أنَّها أنوارٌ للنَّاسِ يهتَدونَ بهَا؛ لقوله: ﵟبَصَآئِرَ لِلنَّاسِﵞ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن التمسُّك بشرائع الله تَكُون به الرَّحْمة؛ لقوله تعالى: ﵟوَهُدَىٰ وَرَحۡمَةٗﵞ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُتب النازلة مِنَ السَّماء هيَ الَّتي بهَا الهدى مِنَ الضَّلَال؛ لقوله: ﵟوَهُدَىٰﵞ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحِكمَةَ مِن إنزال هَذِهِ الكتب تذكُّر الناس بمَا فيهَا مِن المواعظ؛ لقوله: ﵟلَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَﵞ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات الحكمَة في أَفعَال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وَكَذَلكَ في شَرَائعه؛ لأن (لَعَلَّ) معناها: التَّعلِيل، والذي أنكر الحِكمة هُم الجهمية، حيث يقولون: إنَّ الله تعالى لَيسَت لَهُ حِكمة فيمَا يَفعَل وما يشاء، وإنما هو لمجرد مشيئة.

قوله تعالى: ﵟءَاتَيۡنَاﵞ بمعنى: أعطينا.

واعلَم أَنَّ إيتاءَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ينقسم إلى قسمين:

إيتاءٌ شرعي: وَهُوَ مَا تعلَّق بالشرع، قَالَ تعالى: ﵟوَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥﵞ [التوبة:٥٩]، فهذا إيتاءٌ شرعيٌّ، والمراد به: الصدقات.

وإيتاءٌ قَدَري: وهو ما تَعَلَّق بالكونِ والخَلق، قَالَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﵟءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَﵞ، فهذا إتيانٌ قَدَرِيٌّ؛ لأن إنزال القُرْآن مِن الأُمور الَّتي تتعلق بمشيئة الله،

لا بِشَرْعِه؛ فأصلُ الإنزال قَدَرِيٌّ يتعلق بمَشيئة الله وقَدَرِه، لكن العَمَل به شرعي.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: ﴿مُوسَى﴾ مفعولٌ أوَّل لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ مفعولٌ ثانٍ، وهو مِن باب (كَسَا)؛ فكُلُّ مفعولَين لا يصح أَنْ يَكونَ أحدُهما مبتدأ والثَّاني خبرًا، فهُما مِن بَاب (كسا)، وما صَحَّ أن يكونا مبتدأ وخبرًا، فَهُمَا مِن بَاب (ظن)، وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [التَّوْرَاةَ]، وهو فِعَال بمعنى: مَفعول؛ لأنَّ التَّوراةَ مَكتوبَة، كتبها اللهُ تعالى في ألواح وأعطاها موسى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ متعلق بـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، أي: أعطيناه إيَّاه مِن بَعد ما أهلكنا القرون الأُولى، والقُرون جمعُ: قَرْن، والمراد بهم الأمم، وقد يُرادُ به الفترة مِن الزَّمَن، ومقدارها مائة سَنة، فالقُرون تارَةً يُراد بها الأمم، وتارَةً يُرادُ بها أحقابُ الزَّمَن، وهنا المراد الأمم؛ لأن أحقابَ الزَّمَن لا تُهْلَكُ، الذي يُهْلَكُ هو الأمم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودُ وَغَيْرُهُمْ]، هؤُلاءِ هُم القُرون الأُولى، وَإنَّمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ إشَارَة إلَى أنَّ النَّاس كانوا في حاجة إلى مِثل هَذَا الكتَاب الذي نَزَل عَلَى موسَى؛ لأن القُرون أُهْلِكَت، وتطاول الزَّمَن فاحتاج النَّاس إلى رسالة، فأرسل اللهُ تعالى موسى بهذا الكتاب، الَّذي هُوَ التَّوراة.

وقيل: إنَّ القُرون الأُولى تشمل حتَّى آل فرعَونَ؛ لأن التَّوراة ما نزلت عَلَى موسَى إلَّا بَعدَ أَن أهلك اللهُ القَرن -فرعَونَ وَقَومه- وأنه يشمل حتى هؤُلاءِ، حَتَّى إنَّ بَعض العلَماء استنبط منها أَنَّه لَم تُهْلَكْ أُمَّةٌ بَعدَ نزول التَّوراة، وأنَّ هذا مِن فوائد

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ لأنَّ إهلاكَ الأُمَم السَّابقَة مضَى وانقضَى، ولا إهلاكَ بَعدَ نُزول التَّوراة.

والحقيقة أنَّ مَن تأمَّل التاريخَ وجَدَ أنَّه لم تُهلَك أُمة بَعدَ نزول التَّوراة، ما هلكت أُمة، لكن هل قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ يشير إلى هَذا؟ هَذا هُوَ محل النظر والمناقشة.

قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ حالٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، والبصائر: جمع بَصِيرة، وهي نُور القلب، كما أنَّ بَصر وأبصار نُور العَين، فنُور القَلب يسمى بَصِيرة وبَصَائِرَ، ونُور العَيْن يُسَمَّى بَصَرًا وأبصارًا، قَالَ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [الأحقاف:٢٦].

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾: (ال) هنا للعَهد الذهني، وليست للعُموم؛ لأن التَّوراة لم تنزل إلا لقوم موسى فقط، كَما قَالَ النَّبيّ ﷺ: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(١).

وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يُخرج الجنَّ مِن حيث التكليفُ والإلزامُ؛ لأنَّه لَم يُكَلَّفْ أحدٌ برسالة أَحدٍ مِن الرُّسل مِن الجن، لكن مِن حيث العَمَلُ يمكن أن يستبصر بها الجن، كما قالوا: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٣٠]؛ فإن الظَّاهر أَنَّهم كَانوا قد انتفعوا بما أُنزل عَلَى موسَى كما انتفعوا بالقُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وَهُوَ نُورُ القَلْبِ، أَيْ: أَنْوَارًا لِلْقُلُوبِ].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التيمم، رقم (٣٣٥)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، رقم (٥٢١).

وهكذا جميع الكُتب التي يُنزلها اللهُ عَزَّوَجَلَّ تكون أنوارًا للقلوب، ويكون بها الاهتداء، وَلهَذَا قَالَ: [﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ].

قولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِمَنْ عَمِلَ بِهِ] تفسيرٌ غير وَفِيٍّ، والأَولَى إبقاء الآية على ظاهرها، وهو أنَّ التَّوراة هُدًى، لَكن هَذَا الهدى لا يَنتفع به إلَّا مَن وُفِّق، فهي هدى من الضلالة بلا شك، وَلَكن لَا ينتفع بها، ويهتدي بها كلّ أحد، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى في القُرْآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:١٨٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، ففي الأول هُدَى دَلَالَة، وفي الثَّاني هدى تَوْفِيق التَّوراة، إذَا قلنَا: هدى، لمن عَمِلَ بهَا، قيَّدنا الآية بهُدَى التوفيق، مع أنَّها مُطْلَقَة، ولهذا فالأَوْلَى أَن نَقولَ: هدى مِن الضلالة في كلّ أمر كما قال: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾، نقول: وهُدًى أَيْضًا للنَّاسِ، ولكن الهدى الذي بمعنى الدلالة عامٌّ، والهدى الذي بمعنى الاهتداء، يعني: يهتدي بها الإِنْسَان، هذا لمن وُفِّق لَهُ.

قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِمَنْ آمَنَ بِهِ]، فالمقام يقتضي التصديقَ أنه رحمة، لَكن لَا لكلّ أَحَد، إلا أن يُقال: رحمة، أي: وسيلة للرحمة، فإذا قلنا: إنَّ قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وسيلة صار عامًّا، نقول: هُدًى باعتبار العِلم، ورحمة باعتبار العَمَل؛ لأَنَّ مَن عمل به فهو مرحوم، وأما هُدًى، فهو باعتبار العِلم، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣]، الهدى هو العِلم النافِعُ، ودِينُ الحقِّ هو العَمَل الصَّالِح.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لعل) هنا معناها: التَّعلِيل، أمَّا عَمَلُها فهي تَنْصِبُ المبتدأ، وترفع الخبر، وخبرُها جملة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [يَتَّعِظُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ المَوَاعِظِ]، يعني: بما في الكتاب -الَّذي هُوَ التَّوراة- مِن المواعظ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والضَّمير في كلمة ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَعود عَلَى مَن أُنْزِلَت عليهم التَّوراة، وهُم بنو إسرائيل.

• ● ● •

الآيـة (٤٤)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ [القَصَص:٤٤].

• • • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِجَانِبِ﴾ الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ، ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ مِنْ مُوسَى حِينَ المُنَاجَاةِ ﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾ أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ لِذَلِكَ فَتَعْلَمَهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قَولُه تعالى: ﴿بِجَانِبِ﴾ بمعنى: جِهة، فجانِبُ الشَّيْء: جهتُه أو طَرَفُه، وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ صِفة لموصوف، وهو كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَبَلِ، أَوِ الوَادِي، أَوِ المَكَانِ]، و(أو) هنا ليست للتخيير، ولكنها للتمييز؛ لأنَّ بَعضَهم يَقول: المَراد بِهِ الجبل، وبعضهم يقـول: المُراد بِهِ الوادي، وبعضهم يقـول: المُرَادُ به المكان. وكلمة المكان أعمُّ؛ لأنَّها تَشمَلُ أَنْ يَكونَ واديًا أو جبلًا.

وموسى نوديَ مِن جانب الطُّور وهو في الوادي المقدَّس.

وقوله تعالى: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ معناه: بالجانب الغربيّ مِن الجبل، فَيكون مِن بَاب إضافة الموصوف إلى صفته، كما يقال: مسجدُ الجامِعِ، أي: المسجد الجامع.

وعلَى هَذَا التَّقدير الأخير يكون المراد الغربي مِن الجانب نفسه، أمَّا على رأي المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَهوَ يَقُول: ﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ بجانب المكان الغربي مِن موسَى، وهو

يُكَلِّم اللهَ، فَإِذَا كَانَ موسى وجهه إلى السماء، والجانب الغربي منه عُرف الغَرب، وَإِذَا كَانَ وجهه إلى الشرق، فالجانِبُ الغَربيُّ منه يكون وراءَه؛ لأن المُتَّجِهَ إلى الشرق يكون الجانب الغربي منه خلفَه، ولا نستطيع أن نعرف: هل كان موسى بجانب الجَبل مِن الغرب، أَوْ مِنَ الشمال.

المهم: أنك ما كنتَ بذلك الجانب حين المناجاة.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قَوْلِهِ تعالى: [﴿إِذْ قَضَيْنَآ﴾: أَوْحَيْنَا ﴿إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ بِالرِّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ].

على قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَوْحَيْنَا] يكون القضاء هنا شرعيًّا؛ لأَنَّه قَالَ: [قَضَيْنَا الأَمْرَ بِالرِّسَالَةِ]، ولكن القضاء هنا قد يبدو كونيًّا؛ لأَنَّه يَتَعَلَّق بالمشيئة، فَإِن كَانَ الأمر هنا واحدَ الأوامر، فالقضاءُ شرعيٌّ، وَإِن كَانَ واحدَ الأُمُور، أي: قضينا إليه ذلك الشأن العظيم، وهو الرِّسالَة، كَمَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢]، فهنا الأمر واحد الأُمُور، فيكون القضاء كونيًّا.

والقضاء يَنقَسم إِلَى قِسمين: قضاء كوني، وقضاء شرعي، فالقضاءُ الكوني لا بُدَّ فيه مِن وُجود المَقضِيِّ، والقضاء الشرعيُّ قد يُوجَد، وَقَد لَا يوجد.

والقضاء الكوني يكون محبوبًا إلى الله، ويكون مكروهًا إليه، والقضاء الشرعي لَا يَكونُ إِلَّا محبوبًا إليه؛ لأَنَّه بمعنى الأمر.

فمثلا قَوْلُه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، هذا قضاءٌ كونيٌّ، يكرهه الله.

وَقَالَ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، فهذا قضاء شرعيّ؛

لأَنَّه لَو كَانَ قضاءً كونيًّا لَلَزِمَ أنَّ النَّاسَ كُلَّهم يعبدون اللهَ، وليس الأمر كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ لَا يمكن إلا في أمرٍ وقَعَ، فمثلًا لَو قُلنَا: قضى الله تعالى لأَبي بَكر أن يُسْلِمَ، فهذا قضاءٌ قَدَرِيٌّ شرعي؛ لأَنَّه أمره بالإِيمان، فآمَن، ونقول: قضى الله لأبي لَهَبٍ أن يكفُرَ. هَذَا قَضَاءٌ كوني.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِذَلِكَ فتَعْلَمُهُ فَتُخْبِرَ بِهِ].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ليس فيها تكرار؛ لأن مَن كَانَ في الجانب قد يرى، وَقَد لَا يرى، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾.

فإذا قَالَ قَائل: لماذا لم يقتصر عَلَى قَوله: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾؟

قلنا: لأن الإنسَانَ قَد يُشاهد مِن بُعد، ولكن قليل، فهنا تضمن أَنَّه قريب وأنه شَاهَد، ففرقٌ بين أَن نَقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مشاهدًا بِعَيْنِك، ولو كنت بعيدًا، ولهذا لَيسَ في الآيَة الكَرِيمَة تَكرار، ولكن فيها شَيْءٌ مِنَ التوكيد، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَر، فيكون ما أَخبَرَ به عن ذلك مِن بَاب الوحي، لا مِن بَاب المشاهدة، ولا مِن بَاب السماع، ولكنَّه وحيٌ أُوحِيَ إليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تقرير رسالة النَّبيّ ﷺ وذلك بما أخبر به عن هَذِهِ الوقائع الَّتي لَيسَ حاضرًا فيها، ولا شاهدًا.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الوحي يُسَمَّى قضاء؛ لقوله: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الوَحيَ ذو شأنٍ عظيم؛ لأَنَّ اللهَ سَمَّاه ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بـ(ال) الدالة على العَظَمة والكمال، ولا ريب أنَّ أعظمَ الأُمور ما جاءت به الرُّسل مِن وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لمَا فيه مِن مصلحة البلاد والعِباد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الإنسَانَ لَا يُقْبَل خبرُه إلَّا إذَا كَانَ حاضرًا يَسْمَع، أو شاهدًا يرى؛ لقوله: ﴿وَمَا كُنتَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فَإِنَّ الَّذي يمكن أَنْ يُخبِر هُوَ مَن حضر فسمع، أو مَن قـرُب فشَاهد، أما إنسانٌ يُخبـر دون شهادة، أو دون شهود، أو حضور؛ فإنّه لا يُقْبَل خبرُه، وَهَذَا أَمرٌ معلوم مِن الشرع مِن جهَة أخرى، مِن آياتٍ أخرى، وأدلة أُخرى، أَنَّ الإنسَانَ لا يشهد إلا بمـا عَلِم برؤية، أو سماع، أو غيرهما مِن أَسبَاب العِلم.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٤٥)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القَصص:٤٥].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أُمَمًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، فَنَسُوا الْعُهُودَ، وَانْدَرَسَتِ الْعُلُومُ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، فَجِئْنَا بِكَ رَسُولًا، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مُقِيمًا ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، فَتَعْرِفَ قِصَّتَهُمْ، فَتُخْبِرَ بِهَا ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لَكَ وَإِلَيْكَ بِأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ].

قوله تعالى: ﴿أَنشَأْنَا﴾ أي: وأَوْجَدْنا وخَلَقْنا أُمَمًا.

وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي: زاد في الطُّول، والتاء والأَلِفُ للمُبالَغة، وقوله تعالى: ﴿ٱلْعُمُرُ﴾: الزَّمَن؛ لأنَّ الأعمار هي الأزمان، قال: أي طالت أعمارُهم فنسُوا العُهود، واندرست العُلوم، وانقطع الوحي، فجئنا بك رسولًا، وأوحينا إليك خبرَ موسى وغيره.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا﴾ الاستدراك هنا لَا يقتضي إبطالَ ما سبق، فليس المعنى: وما كنتَ مِن الشاهدين، ولكنا أنشأنا قُرونا فشَهِدت، ولَكن هذا مِن الاستدراك لتقرير مَا سَبَقَ، والمعنى: أن العُهود طالت، وأنت لَستَ بشاهد،

ولا بحاضِرٍ، ولما طالت العُهود صار النَّاس يَحتَاجونَ إلَى الرِّسالَة، فأوحينا إليك بما جرى، وأرسلناك إلى النَّاس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي: مُقيمًا.

وقَولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ المراد بأهل مَدْيَنَ القومُ الذين أتى إِلَيْهِم موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وجرى معه ما ذُكر مِن استئجاره وتزويجه، وسَيْرِه بأهله، ولَم يكن الرَّسول ﷺ مُقيما في أهل مَدْيَن حتى يُخْبِرَ عما حصل منه، وإنما جاءَ به عَن طَريق الوحي.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ خبرٌ ثانٍ، والخبر الأول جملة ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وَمَا كنتَ تتلو عليهم آياتنا فتعرف قصتهم فتُخبر بها، وَالضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ أيضًا ظاهر سياق الآية أنَّه يَعود إِلَى أهل مَدْيَنَ، ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فتعرف قصتهم، وتخبر بها.

وَقَالَ بَعضُ المفَسِّرينَ: إنَّ الضَّمير يَعُود عَلَى قريش، أي: مَا كنت ثاوِيًا في أَهل مَدْيَن، فتتلو عليهم القصةَ التي قصصتها بآياتنا.

وهذا أَقرَبُ إِلَى المعنى، وإن كان الأولُ أَقرَبَ إِلَى اللفظ؛ لأن الضَّمير يَعود عَلَى أقربِ مَذْكُور، لكنَّه لَا يَعُود عَلَى أَهل مَدْيَنَ إلا بِتَعَسُّف شديد، فالصَّواب أنه يَعود عَلَى قَريش، يعني: مَا كنت ثاويًا في أَهْل مَدْيَنَ فتتلُو عليهم القصة التي جاءت في آياتنا.

إذن: فأنت رسولٌ؛ لأنك أتيتَ بما لَم تكن شاهدًا فيه، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ لك وإليك بأخبار المتقدمين، ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾:

مُرسِلين لك إِلَى النَّاس، وإليك بالوحي، فالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مرسَل للنَّاسِ، ومرسَل إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، كان: فعلٌ ماضٍ، وهي مسلوبة الزَّمَن، والمقصود بها اتصافُ اسمِها بخبرها، ونلاحظ استخدام الجمع في الكلمات الثَّلاثَة مَعَ أَنَّ اللهَ واحِدٌ، ولكن الضَّمير (نا) يُستخدم للدَّلَالَة على الجمع، ويُستخدم في حق المفرد للدَّلَالَة عَلَى التعظيم، وهنا في حَقّ الله يُستخدم للتعظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾، ولَم يَقُل: ولكن أرسلناه، كَمَا قَالَ في الآيَة الَّتي قَبلها: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا﴾؛ لأَنَّ الرِّسالَة ما زالت في الخَلق منذ اختلفوا إلى آخِر الرُّسل محمد ﷺ، فَقَدِ اختَلَفُوا بَعد آدم بَعْدَ أن مضت قُرون؛ إمَّا عَشَرة، أو أَقلّ، أو أكثر.

قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣]، فتقول الآية ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ فاختلفوا، فأنزل الله الرسالات.

والْفَائِدَةُ مِن ذِكر أخبار المتقدمين للرسول ﷺ لِيَتْلُوَهَا علينا هي التَّقرير بأنه نبيٌّ؛ لأَنَّه مَا كَانَ يتلو مِن قَبْله مِن كتاب، ولا يَخطُّه بيمينه، إذن يكون ما أخبر به عمَّن سَبَق مِن بَاب الوحي المجرد.

• • ۞ • •

الآيــة (٤٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٦].

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾: الجَبَلِ، ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿نَادَيْنَا﴾ مُوسَى: أَنْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴿وَلَٰكِن﴾ أَرْسَلْنَاكَ ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، هذا خبرٌ آخَرُ غيرُ الخبر الأول الذي فيه ابتداءُ الوحي؛ لأَنَّ اللهَ تعالى بعدما أهلك القرونَ الأولى وَعَد موسى ثلاثين ليلة، وأتمَّها بِعَشْرٍ، واختار مَن اختار مِن قومه، ثم ذهب إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمُناجاتِه، وإنزال التَّوراة عليه، يَقُول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾، ﴿بِجَانِبِ﴾ أي: جهة الطور، أو قُرب الطُّور، والطُّور: هو الجَبَل المعروف في سيناء، ﴿إِذْ﴾ حين، أفاد المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن ﴿إِذْ﴾ هنا ليست تعليلية، ولكنَّها ظرفية، وهي ظرفٌ لِمَا مضى مِن الزَّمان، و(إذا) ظرف لما يُستقبَل، و(إذن) ظرفٌ للحاضر، وبهذا استُكملت الظروف الثَّلاثَة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى أَنْ خُذِ الكتابَ بقوَّة، هذا وَهَمٌ مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأَنَّ اللهَ تعالى قال لبني إسرائيلَ: ﴿خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:٦٣]، ودَعْنا نتأملُ بَعْدُ في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً

وَتَفۡصِيلًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥]، إذن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنْ خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ] بمعنى أتى بها، وإلَّا فالله يقول: ﴿فَخُذۡهَا﴾ أي: الألواح التي فيها التَّوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾، يقول: إذن، أمر موسى أن يأخذ الألواح بِقُوَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن﴾ أرسلناك ﴿رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، اعتدنا أَنَّ قَولَه تعالى: ﴿رَّحۡمَةً﴾ مفعولُ لِأَجْلِه عامِلُها محذوفٌ، والتقدير: أرسلناك رحمةً، وقوله تعالى: ﴿رَّحۡمَةً﴾ ليس المعنى أَنَّه هو الرَّحْمة، ولكن المعنى: أنه أرسل بالرَّحْمة ليَرحَمَ الله به، فالرَّحْمة مِنَ الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأرسله الله رحمةً، كَمَا قَالَ تعالى في آية أخرى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وليس المعنى: وما أرسلناك إلا حالَ كونِك رحمة، ولكن: إلَّا مِن أَجْلِ الرَّحْمة، فبينَ المعنيين فرقٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أضاف الرُّبوبية إلى الرَّسول ﷺ عَلَى سَبيل التَّخصيص والتشهير، وهذه هي الرَّحْمة الخاصة، وهناك رحمة عامَّة، وفيها دليل، أي في قَوْلِهِ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، عَلَى أَنَّ إرسال النَّبيّ ﷺ إلى الخَلق؛ ليرحموا به أَنَّه مِن الرُّبوبية الخاصة؛ لأنَّ مِن نعمَةِ الله عَلَى العَبد أن يُلْهِمَه الهدى ليَهْدِيَ النَّاسَ به؛ فإنَّ هَذَا في الحَقيقَة مِن أكبر النعم، فالنَّبيّ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أُوحِيَ إليه ليرحَم الخَلق بما أُوحِيَ إلَيه، وهذا مِن مقتضى الرُّبوبية الخاصة، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ وَلَم يَقُل: مِن رَبّهم، فمعنى ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾: الذي ربَّاك تربية خاصة.

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾ اللام هنا حَرفُ جَرٍّ؛ لأنَّها داخلةٌ على (أَنْ) المقدَّرة، أي: لأَن تُنْذِرَ، ثم تحوَّل إلى مَصدر، فيكون لإنذارك ﴿قَوۡمًا﴾، فعلى مذهب البصريين تكون اللام حَرف جَرٍّ، وتُنْذِر: فعلٌ مُضارع منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة جَوازًا بعد اللام.

وعلى مذهب الكوفيين تكون اللَّام هي الناصبة، لكنَّ البصريين أَدَقُّ منهم في هَذِهِ الناحية، بل حَقيقَـة الأَمر أَنَّ اللام حَرف جَرٍّ، وأنَّ (أَنْ) هي الناصبة مُقَـدَّرة، ومُتعلق ﴿لِتُنذِرَ﴾ هو المحذوف الذي قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ [أَرْسَلْنَاكَ].

قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ الإنذار هو الإعلام بما يخاف، والإعلام بما يرغَب يَسمى بِشارة، أو تبشيرًا، وقوله: ﴿قَوْمًا﴾ المراد بهم قريش، وَلَا يعني ذَلكَ أَنَّ الرَّسُول ﷺ مبعوث إِلَيْهِم خاصَّة، ولكن لأنَّ أوَّلَ مَن أَنْذَرَهُم كانت قريش، وإلَّا فَقَدْ بُعث لهم ولغيرهم، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفرقان:١]، مِن قريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: ﴿مَّآ﴾ نافِيَة، و﴿أَتَىٰهُم﴾ بمعنى: جاءهم، و﴿مِّن﴾ حَرف جَرٍّ زائدٌ؛ إعرابًا لا مَعْنًى، و﴿نَّذِيرٍ﴾ فاعلُ (أتى)، يعني: ما جاءهم نذيرٌ، وفائدة زيادة ﴿مِّن﴾ أنَّ التنصيص على العُموم، في كل الأزمان الماضية ما أتاهم أَحَدٌ يُنذرهم قَبْلَ الرَّسول ﷺ، وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم﴾، والجملة في محل نَصْبٍ صِفَةٌ لـ﴿قَوْمًا﴾.

وقوله: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَهُمْ أَهْـلُ مَكَّةَ]، هَذَا تَفسيـر القوم، وَهَذَا لَا يُنافِيه أن إسماعيلَ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قد أتاهم قَبْلَ النَّبيِّ ﷺ، فَقَد يَكون قد طال العهد، حتى انْمَحَتْ رسالة إسماعيل، فصاروا محتاجين إلى نذير، ولم يأتهم نذير، فأتاهم رَسولُ الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بَعدَ أَنِ انقرضـت مَعَالِمُ رسالة إسماعيلَ، وإلَّا فلا ريب أَنَّ إسماعيلَ مُرْسَل إِلَيْهِم؛ لأَنَّهُ نبي، ولكنه انقرض، وَلهَذَا كَانَ مِن دعاء إسماعيل وإبراهيم أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩].

وأجمع المُفَسِّرون عَلَى أَنَّ المرَادَ به محمد ﷺ، فمنذ إسماعيل إِلَى أَنْ بُعِثَ الرَّسُولُ ﷺ ما جاءهم نبي، وانقرضت معالِمُ النُّبُوَّة، وكان أَوَّلَ مَن غيَّرها عَمْرُو بنُ لحَيٍّ الخُزَاعِي؛ فإنه هُوَ الَّذي أدخل عبادةَ الأصنام، وأدخل السوائب على العرب، حتى انمحت به الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعليل، وهي متعلقة بـ(تُنْذِر)، أي: تُنذرهم لأَجْل أَنْ يتذكروا، أي: يَتَّعِظُوا بما جئتَ به، وهذا التَّعلِيل سنذكُره في الفوائد إنْ شَاءَ اللهُ.

• ● ❁ ● •

الآيــة (٤٧)

• • ꩜ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص:٤٧].

• • ꩜ • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبةٌ، ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِن الكُفر وغيره، ﴿فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾ هَلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ المرسَل بها، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَالمَعْنَى: لَوْلَا الْإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ﴾ هنا تكررت مرتين، وَفي كلّ مَوضع لها معنى يختلف عن المعنى في المَوضع الآخَر، الأول قال: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى قريش: أَهل مَكَّةَ، وإصابة الشَّيْء بمعنى نُزوله، أي: تنزل به مُصيبة، والمراد بالمُصيبة هنا العُقوبة؛ بسبب كُفرهم، و(لَوْلَا) حَرْفُ امتناعٍ لوُجود، و(أَنْ) وما دَخلَتْ عَلَيه في تأويل مَصْدَرٍ مبتدأ، وجواب (أَنْ) محذوف كما يُقدِّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ أي: بسبب، و(مَا) اسمُ موصول، أي: بسبب الذي قَدَّمَت أيديهم، والمراد بـ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ أنفسُهم، أي: بما قَدَّمُوه، وعَبَّر باليد عن النفس؛ لأنَّ اليَدَ في الغالِب هي آلة العَمَل.

واعلم أَنَّ هناكَ فَرقًا بيـن إضافة الفِعْل إلى اليد، وإضَافةِ الفِعل إلى النَّفس بواسطة اليَدِ، فمثلًا: قَولُه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا﴾ [يس:٧١]، أي: مما عَمِلْناه، أي: مما خَلَقْناه، وَلَيسَ المرَادُ أَنَّ اللهَ خَلقَ الأنعامَ بيَدِهِ، وَأَمَّا قَوله: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، فهنا أَضَافَ الفِعل إِلَى نَفسه، ثم جَعَل اليدَ واسطةً، فيدُلُّ عَلَى أَنَّ آدم خُلِق بِيَد الله.

كذلك -مثلًا- لو قلـتَ: بما عَمِلْتَ بِيَـدِك، أو بما قَدَّمَت يداك. فهنا نقول: الإِنْسَان عَمِل الشَّيْء نَفسَه، لكن بِيَدِه.

أَمَّا إذا قلتَ: بما عَمِلَتْ يَدَاك، أَو بَما قَدَّمَت يداك، فالمراد بما عَمِلْتَ، سواء عَمِلْتَه بواسطة اليَد، أو بالعَين، أو بالرِّجل، أو باللسان، المهم أنه يضاف إليك.

فقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ ليس كقولِه: بمـا قَدَّمُوا بأيديهـم؛ لأنَّ الأول المراد، سَـوَاء كَانَ باليد، أو بالرِّجل، أو بالعَيْـنِ، أو بالأُذُن، أو باللسـان، وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مِنَ الكُفر وغيره.

صحيح أنَّ المصائبَ ما تكونُ إلا بالمعاصِي، قَالَ تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى:٣٠]، وهنا قال: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ بسبب كُفرهم، ﴿فَيَقُولُواْ﴾ الفاءُ حرفُ عطف، و(يقولوا) معطوف على ﴿تُصِيبَهُم﴾ أي: فأنْ يقولوا متى: بعد المصيبـة، ﴿فَيَقُولُواْ﴾ مُحْتَجِّيـنَ عَلَى الله: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ﴾ يعني: هلَّا أرسلتَ إلينا رسولًا قَبْلَ أَنْ تُصِيبَنا بالعقوبة ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهي حُجَّة لهم، لو أُصِيبوا بغير أَنْ يُرسَلَ إِلَيْهِم رسـولٌ لكان ذلك حُجَّة؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يَقـول: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، ويقول: ﴿وَمَا كُنَّا

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥]، فلولا هَذَا الأَمر أَنْ يُصابوا بكفرهم وذُنوبهم، ثم يحتجُّوا على ربهم بأَنَّه لَمْ يُرسِل إِلَيْهِم رسولًا.

وجواب (لولا) - كَما قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ-: [وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهَا مُبْتَدَأٌ]، يعني: والخبر محذوف معروف، [وَالمَعْنَى: لَوْلَا الإِصَابَةُ المُسَبَّبُ عَنْهَا قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمُ المُسَبَّبُ عَنْهَا لَعَاجَلْنَاهُمْ بِالعُقُوبَةِ، أَوْ وَلَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا].

وكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ جعل الجوابَ مُرَكَّبًا مِن إثباتٍ ونَفْيٍ، فالإثبات قولُه: لَعاجَلْناهُم بالعُقوبة، والنفي: ولَمَا أرسلناك إِلَيْهِم؛ لأَنَّ اللهَ ذَكَر أمرين: الإصابة، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، فكان الجواب أيضًا مُركَّبًا مِن أمرين، وَيَجوز أَنْ يَكونَ الجوابُ مُرَكَّبًا مِن أحد الأمرين، أي: لَعَاقَبْنَاهُم، أو لَمَا أرسلناك إِلَيْهِم؛ لأن المعنى يَتِمُّ دُونَ تقدير الأمرين جميعًا.

وَعَلَى هَذَا، فتكون (الواو) هنا -في كَلَام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ- بمعنى (أو).

وأظنّ أن الآيةَ معناها واضحٌ مِن حَيْثُ الإجمالُ: أنَّه لَولَا أَنَّ هَؤلَاء الكفَّار المستحقِّين للعُقوبة بسبب كُفرهم أن يحتجُّوا بأَنَّه لَمْ يُرْسَل إِلَيْهِم رسولٌ لَعَاقَبْنَاهُم دُونَ أَنْ نُرْسِلَك، أو لَمَا أرسلناك إِلَيهِم، فيكون إرسال النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إقامةً للحُجَّة عليهم، ودفعًا لحُجَّتِهم، ودَحْضًا لها.

فكأن النَّبيّ ﷺ الآن أُرسل إِلَيهِم قَبلَ أَنْ يؤخَذوا بالعقوبة، وهذا يقتضي أنَّهم إذا كَذَّبوه كانوا مستحقين للعقوبة؛ لأن الحُجةَ التي يحتجّون بها قد زالت.

فما فهمناه مِن كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن ﴿لَوْلَا﴾ الأولى شَرطية، وهي حرف

امتناع لِوُجُودٍ، و﴿لَوْلَا﴾ الثَّانية تَحْضِيضِيَّة، بمعنى: هَلَّا، وقوله: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ معطوف عَلَى قَوْلِه: ﴿أَن تُصِيبَهُم﴾، وقوله: ﴿فَنَتَّبِعَ﴾ منصوب بـ(أَنْ) مُضْمَرَة بَعْدَ فاء السَّببِيَّة الواقعة جوابا لـ﴿لَوْلَا﴾ التحضيضية.

يقول ابنُ مالك[1]:

وبَعْدَ (فَا) جَوَابِ نَفْيٍ أَوْ طَلَبْ ... مَحْضَيْنِ (أَنْ) وَسَتْرُهَا حَتْمٌ نَصَبْ

يعني: أنَّ (أَنْ) تَنْصِب بَعْدَ (الفاء) الوَاقعَة في جواب طلبٍ، أو نَفْيٍ مَحْضَيْنِ، وسَتْرُها -أي: حذفُها وُجُوبًا- حَتْمٌ، و(الفاء) تَنْصِبُ بـ(أَنْ) وُجوبًا بَعْدَ تِسعة أساليبَ، مجموعة في قَول الناظم[2]:

مُرْ وَادْعُ وَانْهَ وَسَلْ وَاعْرِضْ لِحَضِّهِمُوا ... تَمَنَّ وَارْجُ كَذَاكَ النَّفْيُ قَدْ كَمُلَا

إذا وقعت الفاءُ جوابًا لواحِدٍ مما سَبَقَ، فإنه يُنْصَبُ الفِعْلُ بَعْدَهَا بـ(أَنْ) مُضْمَرَة.

ومعنى هَذَا البَيت هو:

(مُرْ): إشارة للأمر، كما تقول: انزل عندنا فنُكرمَك.

(وادْعُ) هذا دعاءُ الله، قَالَ الشَّاعر[3]:

رَبِّ وَفِّقْنِي فَلَا أَعْدِلَ عَنْ ... سَنَنِ السَّاعِينَ فِي خَيْرِ سَنَنْ

---

(١) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لبدر الدين المرادي (٣/ ١٢٥٢).

(٢) فتح رب البرية في شرح نظم الآجُرُّومية، لأحمد بن عمر بن مساعد الحازمي (ص٢٧٧).

(٣) البيت في شرح تسهيل الفوائد، لابن مالك (٤/ ٢٩)، واللمحة في شرح الملحة، لابن الصائغ (٢/ ٨٣٢) بلا نسبة.

وتقول: رب وفّقني فأعملَ صالحًا.

(وانهَ) النهي، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه:٨١].

(وسَلْ) الاستفهام، قَالَ تعالى: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ [الأعراف:٥٣].

(واعْرِضْ) أي: العَرض، كَمَا في قَول القائل: ألا تنزل عندي فتُصيبَ خيرًا.

(لحَضِّهِمُو) هذا التحضيض منه هَـذِهِ الآيَة ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [طه:١٣٤].

(تَمَنَّ) المُرَاد بِهِ التمني، تقول: ليت لي مالا فأتصدَّقَ منه.

(وارْجُ) أي الترجِّي، قَالَ تعالى: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

(كذاك النفي) تقول: ما تَعَلَّم زيد فيُعَلِّمَك. فهذه تسعة مواضعَ إذَا وَقَعَت الفاء بعدها؛ فإنه يُنصَب الفعل بـ(أَنْ) مُضمَرة.

قوله تعالى: ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُرْسَلُ بِهَا، ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَجَوَابُ (لَوْلَا) مَحْذُوفٌ]. والمعنى: أنَّنا أرسلناك يَا مُحَمَّد؛ إقامةً للحُجة عليهم، ورحمةً بهم أن يُصيبَهم العذابُ بِدُونِ أن يَصِلَ إِلَيْهِم رسول.

• • ۞ • •

الآية (٤٨)

• • ༺༻ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴾ [القَصَص:٤٨].

• • ༺༻ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ ﴾ هَلَّا ﴿أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ مِنَ الْآيَاتِ، كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا، أَوِ الْكِتَابُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ﴾ حَيْثُ ﴿قَالُوا۟ ﴾ فِيهِ وَفِي مُحَمَّدٍ «سَاحِرَانِ»، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿سِحْرَانِ ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَاةُ ﴿تَظَٰهَرَا ﴾ تعَاوَنَا ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ ﴾ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْكِتَابَيْنِ ﴿كَٰفِرُونَ ﴾].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾، والحق -كما ذكرنا- هو الشَّيْء الثابت، وأنّه فيما يُقابِل الأوامِرَ هُو العَدْل، وفيما يُقابِل الأخبارَ هُو الصِّدق، والمرادُ بالحق هنا -كَما قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: محمد ﷺ، وكأنّه عدَلَ به عَن المعنى الظَّاهر مِن أَجْل قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ هَذَا الحَقّ ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾، فكأنَّ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدَل عن معنى الحق الظَّاهر إلَى أَنْ يكون محمد ﷺ في هَذَا، ولكن الصَّواب أنَّ المرادَ بالحق الوحيُ الذي نَزل على محمد ﷺ، وَلَهذا قَالَ:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾، والعِنْدِيَّة تقتضي القُربَ، وأن يكون ذَلكَ مِنَ الله، وَهَذَا لَا يُتصور أنه محمد ﷺ، بَل هُوَ الحقّ الذي جاء به، كَما أَنَّ مِثل هَذِهِ الآيَة ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ في جَميع مواضع القُرْآن هي مطَّردة أَنَّ المرَادَ به الوحي الذي نزل عَلَى محَمَّد ﷺ.

ولهـذا يكون قوله: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ أي: محمـدٌ الَّذي جَاءَ بهذا الحق، فمعنى الآية هنا ظاهر جدًّا، ولا تَكَلُّفَ فيه.

وقد يحتجُّ علينا مَن يقول: إنَّ الضَّميـر في قَوْلِهِ ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ يؤيد أَنَّ المرَادَ بالحق هو محمد.

ولكننا نُجيبه قائلين: لَا حَاجَةَ إِلَى ذَلكَ مَا دَامَ أن الحَقَّ جاء، والذي جَاءَ به هُوَ محَمَّد، فيكون معلـومًا أنَّ قولَه: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ ﴾ يعني: محمدًا ﷺ هُوَ الَّذي جَاءَ بالحقّ، وليس محمد هُوَ الحَقَّ، ولهذا ليس (الحقُّ) مِن أَسماء الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فهو ﷺ صادق فيما جَاءَ به مِنَ النبوة، ولكنَّه جاء بالحق.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾، الضَّمير في ﴿قَالُواْ﴾ يعود عَلَى قريش، و﴿لَوْلَآ ﴾ هنا تحريضيَّةٌ، وليست شَرطيَّةً، وهي بمعنى: هلَّا.

وقَولُه تعالى: ﴿أُوتِىَ ﴾ أي: أُعطي، ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ﴾ يعني: مِن الآيات، مِثلَ ما أُعطي موسى مِنَ الآيات.

وهذا الجواب فيه إشكالٌ إذا جعلْناه عائدًا إلى قُرَيْشٍ؛ لأن قريشًا -كَمـا هُوَ معلوم- قوم أُمِّيُّون، لَا يَعلَمونَ عن الرُّسُل شيئًا، فكيف يعارضون بقصة موسى؟ وقد أجاب المُفَسِّرون عن ذلك، بأنَّ قريشًا كانت عندَما بُعث الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ

تراسل اليهودَ، وتقول: جاءنا رَجُل يقول إنه نبيٌّ، فما علامات الأنبياء عندكم؟ فتخبرهم اليهود بعلامات الأنبياء، ولهذا عارضت قريش النَّبيَّ ﷺ بالآيات الَّتي جَاءَت لموسى.

ويحتمل أَنَّ قَولَه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ عائدٌ إلى اليَهُود؛ لأن الرَّسُول ﷺ مبعوث إلَيْهِم، ويؤيد هذا الاحتمالَ قولُه بَعدَ ذَلكَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

قوله: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد هنَا هُوَ محمد ﷺ، وَقَد يَكون المَراد هو القُرْآن، و﴿مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: أتيَ بوحيٍ مِثل التَّوراة، وغيرها مِنَ الآيَات كالعَصا واليَد.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جنس البَشر، أي: إنَّ آيات موسَى لَم تنفع أيضًا، فقد كفرَ بها مَن كَفر مِن النَّاس، فاقتراحكم أَن تَكونَ آياتُ محمد ﷺ كآيات موسى ليس ذلك بِمُوجِبٍ للإيمان؛ لأن آياتِ موسى كُفِرَ بها.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ فيها قراءة ثانية، «قَالُوا سَاحِرَانِ»[1]، وعلى القِراءَة التي بين أيدينا، فالمراد محمد وموسى، وعلى القِراءَة الثَّانية يَكونُ المُراد التَّوراة والقُرْآن.

قوله: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ أي: تعاوَنَا.

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها تكذيب دعوى هؤُلاءِ في قَوْلِهِم: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾؛ فإنَّه قد جاءهم الحق مع الرَّسُول، ومعَ ذلك كذَّبوا: ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا جَاءَ به النَّبيّ ﷺ هُوَ الحقُّ، والحق بمعنى: الشَّيْء الثابت، وهو بالنِّسبة للأخبار الصدق، وبالنِّسبة للأحكام العدل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ ما خالف ما جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ فهو باطل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، فكلُّ خبر يتضَمَّن تكذيبَ خبَرِ الله ورسولِه، فهو الكَذِب، فمثلا: إذَا قَالَ قَائل: أصلُ الإِنْسَان قِرْدٌ، ثم تطوَّر فصار إنسانًا!! نقول له: هذا كذِبٌ؛ لأَنَّهُ يخالف مَا جَاءَ به النَّبيُّ ﷺ.

وإذا شَرَّع الإِنْسَان قوانين مخالفةً للشرع، قلنا: هذا باطِلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحق فيمَا جَاءَ به الشرع فقط.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بيانُ عُتُوّ المكَذِّبين للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ وعنادهم، وهو أَنَّهم كذَّبوا بالحق بَعدَ أَن قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن قريشًا كانَ عندَهم بعضُ المعْلوماتِ عن الرُّسل السَّابِقين، حَيث قَالُوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾، وقد حصلوا عَلَى هَذَا العِلم عَن طَريق اليهود؛ لأَنَّهم لما جاء الرَّسول ﷺ وبُعث، أَرْسَلُوا إِلَى اليَهود يسألون عن أخبار هَذَا الرَّجل، فكتبوا لهم بما يعرفون مِن أخباره، وبما جَاءَ به موسى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثْباتُ رِسالَة مُوسَى ﷺ لقولهم: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ موسَى ﷺ أعطاه الله تعالى آيات يُؤمِن على مثلها البَشر، وَهَذَا لَيسَ خاصًّا به، بَل هُوَ لكل رسول بَعَثَهُ الله فـ«**مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ**»[1]؛ لأن البَشَر لا تُصدِّق رَجُلًا قال: أنا رَسول الله إليكم آمُركم بكذا، وأنهاكم عن كذا، واتركوا مَا كَانَ عليه آباؤكم مِن عِبادة الأصنام، واترُكوا مَا كَانَ عَلَيه آباؤكم مِن تحريم الحلال، وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، لا يَقبلون إلا بآيات تدل على صِدقه، وتؤيده.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إبطال حُجَّة هؤُلاءِ المكذبين، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي في مقام المنَاظَرَة والمجادَلَةِ أن يُفْحَمَ الخَصم بإبطال قوله بقوله، أو بفعله، أنه يُبطَل قولُه بِمَا جَرَى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لَا يمكن أَنْ يُنْكِرَهُ، ولو أَنْكَرَهُ ما قُبِلَ، فكونُنا نُقِيم الحُجَّةَ على الخَصم مِن فِعله وقوله هذا أبلغ في إفحامِه.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: أَنَّ طبيعة البَشر واحدة؛ بناء عَلَى أَنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ الضَّمير يَعود عَلَى جِنس الإِنْسَان؛ لأن الطبيعة البشريةَ واحدة.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّه يَنْبغي أَيْضًا عند المناظرة إبطالُ قول الخَصم بالأمر الواقع؛ فإن الآيَات الَّتي جَاءَ بهَا موسى، وأبطَلَها هؤُلاءِ كُذِّبَت، وما آمَن بها البَشَر.

إذن: فالمدار ليس على جنس الآيات، ولكن المدار على حال المخَاطَب، وإلا فالآيات قائمة بيِّنَة، لكن: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٣/ ١٩٥، رقم ٣٦١٥)، وابن عساكر في معجمه (١/ ٣٧، رقم ٣٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ أهلَ الباطل يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوء؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولهم، يُؤخذ هذا مِن قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ سِحْرَانِ﴾ أو «سَاحِرَانِ» على القِراءَة الأُخْرَى، فسواء وَصَفُوا مَا جَاءَت به الرُّسل بالسِّحر، أو وَصَفُوا الرُّسْلَ أنفسَهم بالسِّحر؛ فإنَّ المقصود بذلك تنفير النَّاس عن قَبُول مَا جَاءَت به الرُّسل.

وهذه القاعدة ثابتة لِأَتْبَاع الرُّسُل؛ بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٢٩-٣٢]، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد جعل لكل نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرمين، والعدُوُّ مِن المجرمين عَدُوٌّ للنبي بوصفِه، بدليل أن محمدًا ﷺ قَبْلَ أَن تأتيَه الرِّسالَة وهو عند العَرب الصادق الأمين، ويرون أنَّه مِن أفضل بني هاشم، وأقومِهم بالعدل، فلمَّا جَاءَ بالحَقِّ صار عندهم الخائنَ الكذوبَ.

إذا كان هؤُلاءِ المجرمون يُعادون الرُّسُلَ بوصفِهم، فمعنى ذلك أَنَّ هَذِهِ المعاداةَ ستنتقل إلى مَن تابَعَ هؤُلاءِ الرُّسُل؛ لأنَّ المعنَى الذي حصلت به العداوة موجود أيضًا في أتباع الرُّسُل، وَعَلَى هَذَا:

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: طَمْأَنة أتباع الرُّسل، وتثبيتهم على أنَّهم سينالهم مِن ألقاب السُّوء، ومِن المعاداة مِثل ما نالَ الرُّسُلَ، فعليهم أن يُقابلوا ذلك بالصَّبْر والثبات والقُوَّة، لا أن يُخذَلُوا، بل عليهم أن يكونوا كَمَا كَانَ متبوعُهم الذي أمره الله قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ التَّعاوُن حتَّى على الباطِل له تأثيرٌ وتقوية، يُؤخَذ مِن قَوْلِه: ﴿تَظَٰهَرَا﴾ فَإِذَا كَانَ التَّعاوُن في الباطل له تأثير، فما بالُك بالتَّعاوُن في الحق؟

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ: يَجب أَنْ نكونَ متعاونين فيما نحن عليه مِن دعوة الحق، وألَّا يخذل بعضُنا بعضًا، خلافًا لما كان عليه حال النَّاس اليوم؛ فإنهم في هَذَا البَاب ليسوا بمتعاونين، حتى أهل الحق، وأهل الدعوة تجدهم غيرَ متعاونين؛ لأنَّهُم:

أولًا: كلُّ وَاحد لَا يَهُمُّه إلا نَفْسُه.

ثانيًا: أنهم ربَّما يختلفون في أَمْر بسيط جزئي مِن أُمُور الدِّين، ويتعادَوْن عَلَى ذَلكَ، فقد يختلفون في كيفية رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، فهذا يقول: ترفع يديك إلى الأذنين. وهذا يقول: إلى المنكبَيْن. ثُمَّ يَقول: أنت على ضلال! وهو يقول: أَنت عَلَى ضلال! فما تُثْمِرُ هَذِهِ الكلمة إلا الحِقد والبغضاء والعداوة.

وسبق أن قصصت عليكم قصَّة طائفتين، كلُّ طائفة تُكَفِّر الأُخْرَى في مَسأَلَةٍ بسيطة مِن مَسائِل الدِّين، طائفة تقول: إنَّ السُّنة أن يضع الإِنْسَان يده اليمنى على اليسرى فوق صدره. وطائفة أخرى تقول: إنَّ السُّنَّةَ أن يُرْسِلَ الإِنْسَان يديه إلى جنبه.

فاختلفا حتى كَفَّرت كُلُّ طائفة الأُخْرَى، وجعلتها ملعونة؛ لأنَّها تركت السُّنة عن عَمد وقَصد، والإِنْسَان الذي يكره ما أَنزَلَ اللهُ يكون كافرًا، وفيه خصومة عظيمة.

وفي أيام الحجِّ اجتمع معهُم ناسٌ مِن التَّوعيَة، وأراحُوهم، وبَيَّنوا أَنَّ هَذَا لَا يَجوز؛ لأَنَّ هَذَا فيه ضرر عليكم أنتم يا أهل الحق؛ لأنكم إذا كفَّر بعضكم بعضًا، فما تفعلون مع أهل الخرافات، وأهل البدع.

وتعرفون قصَّة نقض الصحيفة التي كَتبَتها قريشٌ في مقاطعة بني هاشم، لم يأتِ واحدٌ مِنَ النَّاس فنَقَضَها، فهو لا يستطيع، لكنَّه ذهب إلى فلانٍ ووَبَّخه، وقال: بنو هاشم قومٌ منكم، كيف تَرْضَوْنَ أن تقاطعوهم حتى يموتوا مِن الجوع؟! وَذَهَبَ

إِلَى آخَرَ وإِلى ثالـثٍ ورابعٍ، حتى إنهم كوَّنوا جماعة، فذهبوا إِلَى هَـذِهِ الصحيفة مِن الكعبة ومَزَّقوها.

إذن: فالتَّعاوُنُ أساس النجاح، مِثل مَا قَالَ العامَّة.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: بيانُ عُتُوِّ هـؤُلاءِ مِن جهة أنهم لم يُؤمِنوا بالأمـرين، وقالوا: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: تقديم المعمُولِ في قَوْلِهِ: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يُفيد الحَصر، مَعَ أَنَّهم كفروا بهما وبغيرهما، وهذا الحَصـر المقصود به إغاظةُ الخَصْمِ، كأنهم يقولون: لَوْ آمَنَّا بكل شَيْءٍ مَا كفرنا إلا بهما، وإلَّا فمعلوم أنهم يكفرون بهما وبغيرهما.

وهذه فائـدة قليلٌ مَن ينتبه لها، وهو أَنَّهُ إذَا كَانَ الشَّيْء غيـرَ محصور في هَـذَا الشَّيْء، ولكنَّه حُصر فيه؛ فَلَا بدَّ أَنَّ هناك غَرَضًا، والغَرَضُ هنَا هُوَ الإغاظة.

• • ۞ • •

الآيـة (٤٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص:٤٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مِنْ الْكِتَابَيْنِ ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هنا الأمر للتعجيز والتحدي.

قوله: ﴿أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ هنا الضَّمير يَعُود عَلَى التَّوراة والقُرْآن، ومعنَى ﴿أَهْدَىٰ﴾ أكملُ هدايةً.

وقوله ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ مجزومٌ في جواب الطَّلب ﴿فَأْتُوا﴾، فإذا جعلوا الغاية جوابًا للأمر السابق صار مجزومًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّهُ مِن العدل التنزُّل مع الخَصم إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنه مِن المعلوم أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم أَنَّهُ لَا يمكن أَنْ يأتوا بما طُلب منهم، وذلك حين طَلب منهم أَنْ يأتوا بكتابٍ أهدى مِن التَّوراة والقُرْآن، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾، مَعَ أَنَّه يَعلَم أَنَّه يستحيل ذلك، وَلَكِنَّ هَذَا مِن باب التنزُّل مَعَ الخَصم إلى غاية مَا يَكونُ مِن العدل، كأنه جعلَه مع خَصمه شيئًا واحدًا، فيقول: أنتم ائتوا بكتابٍ أهدى مِن

التَّوراة والقُرْآن، وأنا ألتزم باتباعه، فإذا لم يأتـوا، فمعناه أَلْزِمْهُم أن يتبعـوا التَّوراة والقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إفحام الخَصم بالتحدِّي، ولو أنَّنا قرأنا آخِرَ سُورة الطور لوجدنا فيها شيئًا غريبًا مِن المناظرة، مِن قَوْلِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩]، إلى قوله: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور:٤٥]، تجدون آدابًا كثيرة مِن المناظرة، فقَدْ تَدَرَّجَ الله معهم في الحُجَج، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨]، إن كَانَ الأَمر كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور:٣٣]، فَإِن كَانَ الأَمر كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ختام المناظرة يجعل الخصم مُفْحَمًا بتحدِّيه بما لا يستطيع.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ التَّوراةَ والقُرْآنَ مِن عند الله، لكن القُرْآن نَزَل وَحْيًا، والتَّوراة نزلت كتابَةً، كَتبَها الله في ألواحٍ ألقاها إلى موسى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّه لَا يَلزَم الإِنْسان الانتقال عَمَّا كَانَ عَلَيه إِلَى غَيرِهِ إِلَّا إذا كَانَ أهدَى منه.

فأنا -مثلًا- لا يلزمُني الانتقالُ مِن مذْهَب الحنابِلَة إلى مذْهَب الشَّافعيَّة، حتى أرى أنه أَصْوَبُ؛ لأَنَّه قَالَ: ما يجب الاتباع إلَّا إِذَا كَانَ ما جاءوا به أهدى منه، أَمَّا إِذَا كَانَ مساويًا، فأنتم لا تُلزمونني، وأنا لا أُلْزِمُكم، إِذَا كَانَ مساويًا، إنما الإلزام حينما يَكونُ مَا جاء به الخَصم أهدى مما أنا عليه، وأما إِذَا كَانَ مَا في غَيْـرِهِ أدنى؛ فإنه مِن بَاب أَوْلَى لا يلزم.

فالمراتبُ ثلاث:

١ - إمَّا أَنْ يَكونَ ما تُدعَى إليه أدنى مما أنت عليه.

٢ - أو أهدى.

٣ - أو مُساويًا.

فإن كان أهدى، فالواجبُ الاتباع، وَإن كَانَ أدنى حَرُم الاتباع.

أما في حَال المُسَاوَاة، فالعلماء يقولون: في مِثل هَذِهِ الحَالِ يُخَيَّرُ الإِنْسَان، فإذا أفتاه عالمان، وَلَم يَكُن قولُ أحدهما أرجحَ؛ فإنه يُخَيَّر في اتِّباع أيِّ القولين شاء، وربما يؤخذ حُكم هَذِهِ المَسألَة مِن هَذِهِ الآية؛ لأَنَّه مَا أوجب الله الاتباعَ إلا إذَا كَانَ أهدى.

ومعلومٌ أَنَّهُ إذَا كَانَ أَدنَى، فالاتباع مُحَرَّمٌ، فيبقى المساوي ليس إلى جانب التحريم، وليس إلَى جَانِب الوجوب، وهذه مرتبة التخيير.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: التحدِّي يكُون بالوَصْف، كَمَا يَكون بالفِعل، في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأْتُوٓاْ﴾ تحدٍّ بِفِعْل ما هُمْ بِآتِينَ به، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تحدٍّ بالوصف، أَنَّ مَا أنتم عليه حَقٌّ فأتوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذبين، وَلهَذَا قَالَ: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٠)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القَصص:٥٠].

• ● ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دُعَاءَكَ بِالْإِتْيَانِ بِكِتَابٍ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيْ لَا أَضَلَّ مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ أي: فيما يجيئهم الكتاب مِن عند الله هو أهدى منهما.

قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: لا أَحَدَ أَضَلُّ، وهو استفهامٌ مَنْفِيٌّ.

وهناك آيةٌ أخرى يَقُول الله تعالى فيها: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٦]، فنَجْمَع بينها، وبين الآية الَّتي بَيْنَ أيدينا بأنَّ آية الأحقاف في مَقَام الدعاء، وآيتَنا هَذِهِ في مَقَام الاتِّباع.

فقد تكون كل آية لَهَا معنًى لَا يَتعلَّق بالثَّاني، فضلالُ الغاية باعتبار مَا هُوَ مِن جِنْسِها، هَذَا وَجْهٌ.

وهناك وجهٌ آخرُ، وهو أنهما في مرتبةٍ واحدة في الضلال، فقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ لَا يَمنَع أن يوجد شيء يُساويه في ذلك، فيكون كُلٌّ مِنَ الأمرين قد بلغ الغاية في الضَّلَال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، القَدَرِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسَانَ يُمكن أن يهتدِيَ بنفسِه، وليس لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عليه أيُّ سُلطة؛ لأنَّهُم يقولون عن قَدَرِ الله: إنَّ الأمر أُنُف، بمعنى: أَنَّ اللهَ لم يُقَدِّر أفعالَ العِباد، وأنا أفعل هذا، وأترُك هذا باختياري المجرد المحض، وليس لله فيه أيُّ مشيئة، ولا خَلْق، وَلَا شَيءَ.

لكن قَوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يرد عليهم، كما أنه أَيْضًا يرد على الجهمية الجبرية، الذي يقولون بالجبر، بأن الله تعالى نَسَب هؤُلاءِ بِفِعْلِهم إلى الظُّلم، ولو كانوا مُجْبَرِين عليه لكانت نِسبة الظلم إِلَيْهِم ظُلْمًا، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يَظلم أحدًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جَواز التعليق بالشرط فيما هو مُحَقَّق الوُقوع، وَهَذَا في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ هذا مُحَقَّقُ الوقوع، فليس فيه احتمال أَنْ يستجيبوا، فيجوزُ تعليق الشَّيْء المحقق بالشرط، وَلَو كَانَ مُحَقَّقًا أنه لن يكون، وكذلك لَو كَانَ محققًا أنه كائنٌ، فإن الانتفاءَ هنا كائن لا مَحَالَة، ومع ذلك عُلِّقَ بالشرط، وفي الحَدِيث عن النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»[1]، في قَوْلِهِ لأهل المقابر، وَمَعْلُوم أَنَّ هَذَا الأَمر مُحَقَّق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها، رقم (٩٧٤، ٩٧٥).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنّ هؤُلاءِ المكذبين للرسول ﷺ ليست عندهم حُجة سوى اتباع أهواءهم؛ لقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عَدَمُ مُجادَلة المُتَبعِ هَواهُ المُكابِر، فليس هناك سبيلٌ لإقناعه، فهو يريد أَنْ ينتصر لنفسه فقط، ويَتَّبع هَواه، فما دام الرَّجُل صاحِبَ هَوًى، فالجِدال معه لا فائدة منه، قَالَ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾، فإذا بيَّنْـتَ للإنسان الحَقَّ، وَوَضَّحْتَه بأَدِلَّتِه النَّقلية والعقلية والحِسية حَسَب مَا هُوَ موجود مِن الأدلة، ولكنه أصرَّ على أَنْ يَبقَى عَلَى مَا كَانَ عليه؛ فاعلَم أنه يَتَّبعُ الهوى، والمُتَّبع الهوى مُشْكِل، فما هو بالذي يطلب الهدى، ولا بالذي يريد أَنْ ينتفع.

ولهذا نقول في هَذَا الحال: لا يجِبُ على المرْءِ مُجادلتُه، وإنما ينتقل إلى شيْءٍ آخَر، وهو معاقبتُه، قَالَ تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، فالمُعانِد غيْرُ مَن يريد اتِّباعَ الحَقِّ، ولم يظهر له، والمُعانِد لَهُ حَالٌ، وَقَد قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩]، يعني: وإن لم تنفع فلا تُذكِّر، وهذه تقدم الكلام عليها، وهذا الشرط لَيسَ لَهُ مفهوم.

فالأصل أَنَّك إِذَا جادلته أمامَ النَّاس اتضح الحقُّ، وَلَكن إِذَا تكلم بالباطل أمامَ النَّاس، وَجَبَ عليك إظهارُ الحق مُقابِلَ باطِلِه الذي يَنْشُرُه، فإن لم يقتنع بالحق الذي معك، فاعلم أَنَّه لَا فائدة مِن جداله.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: اختلاف النَّاس في الضَّلال، فليسوا على حَدٍّ سَواء في الضَّلال، كما أنهم لَيسُوا عَلَى حدٍّ سواء في الهدى، وليسوا على حَدٍّ سَوَاءٍ في الغَيِّ، وليسوا عَلَى حَدٍّ سَوَاء في الرُّشد، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الهـوَى قَد يَكونُ موافقًا للهُـدى، نأخُذه مِن قَولِه تعالى:

﴿اتَّبَعَ هَوَنهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ أمَّا مَن اتَّبع هـواه بِناء عَلَى هـدًى مِن الله، فهذا طَيِّب، أَنْ يَكونَ هـواه تبعًا لِمَا جاءَ به الحقُّ، وَقَد ذَكَرنا لكم حديثًا مَرْوِيًّا عَن النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[1].

فالحاصِلُ: أن الهوى المذموم هُوَ الَّذي لَيسَ عَلَى هُدًى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ الظَّالِمَ قد عَرَّض نفسه لحرمانه مِن الهُدى، أو إِنْ شئتَ فقل: إِنَّ الظُّلمَ سبب لحرمان الظَّالِمِ مِن الهُدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنكرون قَدَرَ الله بالنِّسبة للأفعال، وردٌّ على الجَبْرِيَّة الجَهْمِيَّة الَّذينَ يَقولُونَ بعكس ذلك، والجهميةُ مِن مذهبهم الجَبْرُ، وفيهم ثلاثُ جِيماتٍ، كَمَا قَالَ ابن القيم في النُّونِيَّة[2]:

جَـبْرٌ وَإِرْجَـاءٌ وَجِـيمُ تَجَهُّـمٍ ... فَتَأَمَّـلِ المَجْمُـوعَ فِي المِيـزَانِ

فهم جَبْرِيَّةٌ مُرجِئَةٌ جَهْمِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ مَن تَحَرَّى العَدْلَ فَإِنَّهُ قَد تَعَرَّض للهداية؛ لأنَّ الظُّلم ضِدُّه العدل، وانتفاء الهداية بِوَصْفِ الظُّلم يقتضي ثُبوتَ الهداية بوصف العدل، فمن تحرّى العَدْلَ، فإنه يُوَفَّق للهداية، فالعدلُ سببٌ للهداية، وهكذا كُلُّ مَن تَحَرَّى الخيرَ -لكن عسى الله أن يُوَفِّقَهُ لِتَحَرِّيه- فإنه يُوَفَّق له إِذَا كَانَت النية صادقة، والعزم أكيدًا.

• • ۞ • •

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٢، رقم ١٥).
(٢) نونية ابن القيم (ص١٦٦).

الآيــة (٥١)

• ● ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القَصَص:٥١].

• ● ● •

قال المُفَسِّرُ: [﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ].

قوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ مِن التَّوصيل، وحُروفُه الأصلية: وَصَلَ، والوصول إلى الشَّيْء: بُلوغُ غايَتِه، والمعنى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُؤَكِّد في هَذِهِ الجُملَة -وذلك بحُروف ثلاثة، وهي: القَسم، واللَّام، وقَدْ- أَنَّهُ وَصَّلَ لهم القول.

وقوله تعالى: ﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ المَعروف أَنَّ الفِعل (وَصَلَ) يتعدَّى بـ(إلى)، فيقال: وصَلَ إليه، ويقال: وصَّل إليه، وأوصَل إليه. ولكنه هنا عُدِّيَ باللام؛ وذلك لأَنَّهُ تَضَمَّنَ معنى الوُصول والبَيان، وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفسيرها: [بَيَّنَّا لَهُمْ]، وقَدْ مَرَّ عَلَينَا أَنَّ اللُّغة العربية قد تُعَدِّي الفِعلَ أو -بعبارةٍ أَعَمَّ- قَد تُعَدِّي العامِلَ بغير ما يَتَعَدَّى به.

وذكرنا أَنَّ لِعُلَماء النَّحو في ذَلكَ طريقين:

الطريق الأول: التَّجوُّز في الحرف.

والطريق الثَّاني: التَّجوُّز في الفِعل.

وهذا مِثال أُوَضِّحُ به الأمر، قَالَ تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإِنْسَان:٦]، فالعَين يُشرب منها، أما الذي يُشْرَبُ به فهو الإناء.

قال بعضُ النَّحويين في هَذَا الأَمر: يمكن التجوُّزُ بالحرف، وإنَّ (الباء) بمعنى (مِنْ)، فتكون (مِنْ) تَبْعِيضِيَّة.

وَقَالَ بَعض النحويين: بل التَّجوُّز في الفعل يَشْرَبُ، وإنه ضُمِّنَ معنى: رَوِيَ يَرْوَى، فَيَكون المَعنَى: يَرْوَى بها إذا شرب منها.

وَهَذَا في الحَقيقَة أصحُّها، وهو مذهب البصريين.

فيكون قَولُه تعالى: ﴿وَصَّلْنَا﴾ أي: إلَيْهِم ببيان.

قوله تعالى: ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هُوَ القُرْآنُ]، ولعله أَعَمُّ مما قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالمراد بـ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ أي: قولنا، فَاللهُ تعالى مَا يزال يُنَزِّل لعباده مِن قَولِه وَوَحْيِه ما تَصْلُح به أُمُورُهم، حتى وَصَلَت الغايَةُ إلى محمد ﷺ بالقُرْآن.

فَيَكـون المَعنَى: أنَّ اللهَ تعالى مَا تَرَكَهُم هكـذا، بل ما زالـت أقوالُه تصل إلَى الخَلق، وتُبَيِّنُ لهم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هنا للتَّعلِيل، أي: لأجْلِ أَنْ يتذَكَّروا، والتذكُّر بمعنى ذِكْرِ الشَّيْء، لَكن لَا لمجرد الذِّكر، ولكن للاتِّعَاظِ به.

ولهذا فالمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائما يُفسِّر ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بلازِمِهِ، وهو الاتِّعاظ، وإلا فأصلُ التَّذَكُّر: تَذَكَّرْتُ الشَّيْءَ، أي: كنتُ منه على ذِكْرٍ، لكن هناك لازم، وهو الاتعاظ.

أمَّا مُجَرَّدُ الذِّكر بِدُونِ اتِّعَاظٍ، فَهَذَا لَا ينفع، والمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [يَتَّعِظُونَ] أي: تُؤَثِّر فيهم الموعظةُ والقول، (فَيُؤْمِنُونَ).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يُخْـلِ الأرضَ مِن الوَحْيِ؛ لأن التوصيل معناه وَصْلُ الآخر بالثَّاني.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الوَحيَ مُشتمل على غايَةِ البيان؛ لأَنَّنا قلنا: إِنَّ وَصَّل مُضَمَّن معنى بَيَّن.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ نِعْمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ؛ بإيصال القول إِلَيْهِم، مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الحِكمة مِن الوحي التذكُّر والاتعاظ؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِلَّة في أحكام الله الكَوْنِيَّة والشرعية، وأنه لا يفعل شيئًا، ولا يُشَرِّعُه إلا لِحِكْمَةٍ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تعليـلُ أفعالِ الله، وأحكامِ الله الشـرعية والكَوْنِيَّة، والذي خالَـفَ في ذَلِكَ هُمُ الأشاعِـرَة، والجَهْمِيَّة هُم الأصل، قالـوا: أَفعَالُ اللهِ لا تُعَلَّـل وأحكامُه لا تُعَلَّل.

• ● ۞ ● •

الآية (٥٢)

• ● ∽ ● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [القَصَص:٥٢].

• ● ∽ ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي الْقُرْآنُ ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبْشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بمعنى: أعطيناهم، والإيتاء هنا شرعي، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكونَ إيتاءً قَدَرِيًّا، أي: قَدَّرنا أن يأتيهم الكتاب، وهو الوحي، فآتاهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بمعنى المكتوب، وَالمرَاد به التَّوراةُ، وكذلك الإنجيل، كُلُّها تُسمى كتابًا.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ الضَّمير يَعود عَلَى القُرْآن، أي: مِن قَبْلِ القُرْآن.

وقوله تعالى: ﴿هُم﴾ أي: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالقُرْآن، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يُصَدِّقُون، وينقادون له.

إعراب الآية: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وجُملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ صِلة الموصول، و﴿هُم﴾ مبتدأٌ ثانٍ، وقوله: ﴿بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ خَبَرُ المبتدأ الثَّاني، والجُملة مِن المبتدأ الثَّاني وخَبَرِهِ خَبَرُ المبتدأ الأوَّل.

والْفَائِدَةُ مِن تكرار المبتدأ كأَنَّه أَسْنَدَ الإِيمان إِلَيْهِم مرتين؛ مَرَّة بالضَّمير ﴿هُم﴾، ومَرَّةً بالمبتدأ الأول ﴿الَّذِينَ﴾.

وأتى في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالفعل المضارع الدالِّ على الاستمرار، إشَارَةً إلَى أنهم تلَقَّوْه عن قَبُولٍ وإذعانٍ، وأنهم ما زالوا عَلَى هَذَا الأَمر.

وهذه الجُملة بالنِّسبة لَمَا قَبلَهَا في المَعنَى كأنّها إقامةُ دَليل عَلَى الذين كَذَّبوا بالقُرْآن، كَأَنَّه يَقول: الذين أُوتوا الكتابَ مِن قبلكم آمنوا بالقُرْآن، ممَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّه حق؛ لأنَّهُم مَعَ أَنَّهم أهلُ كتاب تركوا كتابهم، وآمَنُوا بالقُرْآن، وأنتم أهلُ جهل، وليس لديكم كتابٌ؛ فكان حَقًّا عليكم أن تكونوا قَبلهم في الإِيمان؛ لأَنَّه مِنَ الصعب أن ينتقل الإنسَان مِن كتابه، أو مِن دِينِه إلى دِينٍ آخَرَ، لكن ليس مِن الصعب أَنَّ الإنسَانَ ينتقل مِن جهل إلى حقٍّ وعِلم.

ثم إِنَّ فيه أَيْضًا تَأْنِيبًا لهؤُلاءِ، وَفِيه أَيْضًا دَليل عَلَى أَنَّه حَقٌّ؛ لأن الَّذينَ أُوتوا الكتابَ ما آمنوا به إلا عن عِلم، وَهُوَ كَذَلِكَ؛ فإنه لَا شَكَّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان مكتوبًا عند بَني إسرَائيلَ في التَّوراة والإنجيل، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]، حتى أوصافه الخِلْقِيَّة موجودة عندهم، بِقَطْعِ النَّظر عن مِنهاجه وسِيرته، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

هذا كله موجودٌ في التَّوراة والإنجيلِ ومعروفٌ، ولهذا تجمَّع اليهود في المدينة مِنْ أَجْلِ أَنْ يستقبلوا هذا النَّبيَّ ﷺ، الذي وَجَدُوا صِفَتَه عندهم، ويُؤمِنون به، وكانوا كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

[البقرة:٨٩]، أي: يستنصرون عليهم بهذا النَّبيّ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة:٨٩].

فالحاصِل في هَذِهِ الآيَة أَنَّ وجه تَعَلُّقِها بما قَبلها مِن وَجْهَين:

الوجه الأول: تأنيب الجاهِليّين على الكُفر بمحمدٍ ﷺ، مَعَ أَنَّ أهلَ الكتاب -وهُم على دِينٍ- انتقلوا مِن دِينهم إلى دِينه، فكنتم أَوْلى باتباعه.

الوجه الثَّاني: إقامةُ دَليلٍ عَلَى صِحَّـة مَا جَاءَ به الرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ لأَنَّ هَؤلَاء الذين عندهم عِلم مِن الكتَابِ مَا انتقلـوا إلَّا عَن عِلم بأنَّه حق، والمناسبـة واضحة جدًّا بَيْنَ هذه، وبين النُّصوص التي قبلها، ولا ريب أَيْضًا أَنَّ في هَذِهِ الآيَة ثَنَاءً على الذين آمنوا بالرَّسُول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مِن الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ، ولهذا عطَفَ بـ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ ولم يستكبروا عنه، بالرغم مِن وجود كتابهم معهم.

فالمشركون لم يَأْتِهِمْ كتابٌ مِن قَبْلُ، ولا نبيٌّ، قَالَ تعالى: ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القَصص:٤٦]، لَكن هَذَا مِن باب الجِنس، ومعناه: أَنَّنا لم نتركْهُم هكذا، بَل إِنَّ القول وَصَل إِلَيْهِم كما وَصَلَ إِلَى غَيرِهِم، فإِنَّ اللهَ مَا زال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُنْزِلُ الكُتُبَ على مَن سَبَق.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْضًا]، ويعني بقوله: [أَيْضًا] كما آمنوا بكُتُبهم، و(أَيْضًا) مِن الأسمـاء الملازمة للنَّصـب على المصدرية؛ لأن فِعْلَها: آضَ، يَئِيضُ، أَيْضًا، مِثل: باعَ، يَبِيعُ، بَيْعًا، لأَنَّ معناها: رَجَعَ.

فالمعنى: أنهم هُم أَيْضًا يُؤمنون بالقُرْآن.

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا مِنَ الْيَهُودِ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ

وَغَيْرِهِ، وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ، وَمِنَ الشَّامِ].

وكذلك مِن غَيْرِ الشام، أسلمَ مِن اليهود مِثل عبد اللهِ بنِ سلام، واشتُهر عَبدُ الله بنُ سَلَام بالإِسْلام وَهُوَ مِنَ اليهود؛ لأَنَّه كان حَبْرًا مِن أحبار اليهود، وكان كَمَا قَالَ اليهود عَنْهُ في حَضرة النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا[1].

قالوا ذلك مُعترفين له بالفضل، والعِلم، والسِّيادَة، ولهذا كانوا يضربون به المَثَل؛ لأَنَّ مَن يَكُون مِثله سَيِّدًا في قومِه قد تَحْمِلُه السِّيادَةُ عَلَى أَنْ يُنافِق، وقد يحمله أَيْضًا حُبُّ الرِّئاسَة على عدم الاتباع لِغَيْرِه؛ لأَنَّه إذَا تَبِعَ غيرَه صار مرءوسًا لا رئيسًا، لكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تواضعَ للحَقِّ، فكان مؤمنًا بالرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وقصة إيمانه معروفة، فإن الرَّسول ﷺ خَبَّأَه، ودَعَا اليهود وسألهم عنه، فأَثْنَوْا عليه، وسألهم عن رسالة الرَّسول ﷺ، فكَذَّبُوا الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَالَ لَهم: «أَفَرَأَيْتُم إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ. فما خرجوا إلا وهُم يُثْنُون عَلَيْه شَرًّا؛ لأَنَّهُ أسلَم.

قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كَذَلِكَ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الحَبَشَةِ]، قَالَ عَطَاءٌ: «كَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا: أَرْبَعُونَ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ مِن بني الحارث بْنِ كَعْبٍ، وَاثْنَانِ وَثَلَاثُونَ مِنَ الحَبَشَة، وثمانية رُومِيُّون مِنْ أَهْلِ الشَّامِ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم -صلوات الله عليه- وذريته، رقم (٣٣٢٩).

(٢) تفسير البغوي (٢/ ٧٥).

وفيهم نزلت: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ [المائدة:٨٣]، والحبشة قد أسلم فيها نصارَى، مِثل النجاشي؛ فإنه أسلَمَ، ودخل دِينَ الإِسْلام، وكان قَبْلَ ذلك عَلَى دِين النصرانية، ووصفه النَّبيّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بأنَّه أخٌ للصحابة، وأنَّه رجُل صالح[1].

فالمهم: أنَّ مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنَ اليَهود والنصارى قومٌ آمنُوا بالقُرْآن أيضًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ اليهـودَ والنصارى فيهم مَن آمَـنَ بالقُرْآن؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ حُكم الفَرْدِ قد يتناول جِنْسَه، ومعناه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾، لو نظرنا إليها وجدنا أنَّهَا عامَّة تشمل كُلَّ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ، وليس كُلُّ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبْلُ آمَنُـوا بالقُرْآن، فهناك نصارى ظَلُّوا على نَصْـرَانِيَّتِهم، ويَهُودٌ ظَلُّوا على يَهُودِيَّتِهم، ولكن مِن هؤلاءِ مَن آمَنَ، كَعَبْدِ اللهِ بنِ سَلامٍ والنَّجَاشي.

فسببُ إيمانِ عَبْدِ اللهِ بنِ سَلَام عِلمُه بما في التَّـورَاة مِن صفات الرَّسُول ﷺ، وهذا العِلْمُ يَشمل جميعَ اليهود.

إذن: فهُنا أعطينا الجِنس حُكْمَ الفَرد؛ للعِلَّة التي تَشمَلُه وغيرَه.

فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ لا يعني أنهم كُلَّهُم

---

(١) كما في حديث جابرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ مَاتَ النَّجَاشِيُّ: «مَاتَ اليَوْمَ رَجُلٌ صَالِحٌ، فَقُومُوا فَصَلُّوا عَلَى أَخِيكُمْ أَصْحَمَةَ». أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، رقم (٣٨٧٧).

آمنوا، وَلَكن مَا آمن إلا بعضُهم، لَكن هَذَا الإِيمَان مِن بعضهم حمَلَه عليه العِلَّة الشاملة لجميع الجنس.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الثناء البالِغ عَلَى الَّذينَ آمَنوا بالقُرْآن، وبالكتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ صِفَةَ النَّبيّ ﷺ موجودة في التَّورَاة وَالإنجيل، وهذا صَريحٌ في آيَة الأعراف: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، إِلَى آخِره.

الآيــة (٥٣)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القَصَص:٥٣].

• • • •

قال المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القُرْآنُ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ مُوَحِّدِينَ].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾: (إذا) شَرطية، وجواب الشرط مُتصل بِفِعْلِه مباشرة بمعنى: أنه متى وُجد فِعل الشرطِ وُجِدَ جوابُه، فهو مِن الاتصالِ الوُقُوعِي: إذا وُجِد الشرطُ وُجِدَ المشروط.

فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، لَم يَقُل: إذا تُلِيَ، وإنما جاء بالمضارِع، أي: إنَّ أَيَّ آيةٍ تُتلى عليهم يقولون: آمنا بها. فهُم لَمْ يُؤمِنوا بالقُرْآن جُملةً، بل آمنوا بالقُرْآن تفصيلًا؛ لأنَّ الفعلَ المضارِع يَدُلُّ على الاستمرار، فكُلَّما تُلِيَت عليهم آيةٌ آمَنوا بها، فزادتهم إيمانًا.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يُقرأ عليهم، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي مُباشَرة، بلا تَرَدُّد، أو نَظَر، أو تفكير؛ لأنَّنا قلنا: إنَّ جَوَاب الشَّرط ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ يلي فِعل الشرط ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾ مباشرة، أي: بالذي تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن؛ قليلًا كان، أو كثيرًا، ثم بَيَّنوا أنَّ إيمانَهم هذا عن اقتناع، وعلى أساس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: ما تُلِيَ عليهم مِن القُرْآن، ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بمعنى: الشَّيْء الثابت الواقع، الصادق خَبَرًا، العادِلُ حُكمًا.

ونرى أَنَّهم قَالوا: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾، ولم يقولوا: مِن الله؛ لأن الرَّبَّ هُوَ الَّذي له التصرُّف المطلَق، فهو يتصرف بعِبَادِهِ شَرْعًا وقَدَرًا، فكأنهم يقولون: إنَّ رَبَّنَا لن يُخْلِيَنا مِن أَنْ يُنزِّلَ القُرْآن، وله الحُكم والتصرف المطلَق؛ كونًا وشرعًا.

وقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ هذا إشَارَة إِلَى أنهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يفتخرون بانتسابهم إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ الجُملة مِن حيثُ المعنى تَعليليَّة لَمَا قَبلَهَا، يعني: آمنا به، لا لأَنَّهُ أَعْجَبَنا حُسنُه وبيانُه وبلاغتُه، ولكنَّا آمَنَّا به لأنّه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

فَإِذَا قَالَ قَائل: إذَا كَانَتِ الجُملة تعليلية، فلماذا لا تُفتح الهمزة، فيُقَال: (أَنَّهُ الحقُّ مِن رَبِّنا)؛ لأَنَّ الجُملة التَّعليلِيَّة على تقدير (اللام)، و(اللامُ) إذا اتصلت بـ(إِنَّ) وَجَبَ فتحُ همزتها، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، وَلَم يَقُل: (إنهم إلى ربهم)؟

قلنا: الجُملة التَّعليلِيَّة قد تكون تعليليَّة مِن حيثُ المعنى فقط، وَقَد تكون تعليلية مِن حيث اللفظِ مع المعنى؛ فإن لُوحِظ مَعَهَا اللفظُ مع المعنى، فإنها الهمزة تُفتح؛ لأنَّها عَلَى تَقدير اللام، وإِنْ لُوحظ المعنى فقط؛ فإنها تُكسَرُ الهمزة، وهنا لوحظ المعنى فقط.

ونقول: لكُلِّ مَقام مَقَالٌ، فمُلاحظة المعنى فائدتُها أَنَّ الجُملة تكون مِن حيثُ اللفظُ منقطعة عما قَبْلَها، فكأنها جُملةٌ خَبَرِيَّةٌ مستقلة، وكأنها منقطعة عن اللفظ،

لكن إفادةُ التَّعلِيل مِن السياق.

وأمَّا التَّعليلِيَّة اللفظية فإنَّها تكون مرتبطةً بما قَبْلَها، قال ابن مالك[1]:

فَاكْسِرْ فِي الِابْتِدَا وَفِي بَدْءِ صِلَهْ ... وَحَيْثُ إِنَّ لِيَمِينٍ مُكْمِلَهْ

فَهذَا هُوَ الفَرق بين الجملة التَّعليلِيَّة التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، والتي قُصِد بها المعنى فقط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي مِن قَبل القُرْآن.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوَحِّدِينَ]، وَلَو أَنَّه فسَّر الإِسْلام بظاهِرِه لَكَان أَولى؛ لأن الإِسْلام معناه الاستسلام والانقِياد، وأصلُه مِن عَدَمِ المعارضة والمُحارَبَة، ولهذا يُقالُ: السِّلْم والإِسْلام، معناه عدمُ المعارضة والمحاربة، فكلمة ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ أي: مُنْقَادِين مُذْعِنِين للحَقِّ.

وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ لَيسَ المَرَادُ بذلك الفَخْرَ والإعجابَ بالعَمَل قطعًا؛ لأن السياق سياقُ ثَناء، وَلَكنَّ المَرَادَ بذلك الثَّناءُ عَلَى الله بما كانوا عَلَيه في الحالَين: في الحالِ السَّابِقة، وفي الحال الثَّانية، في الحَال الثَّانية ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، والحال الأُولى: كانوا ﴿مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾: مُنْقَادِين مُتَّبِعِين للرسول ﷺ الَّذي جَاءَ إِلَيْهِم.

وقوله: ﴿مُسْلِمِينَ﴾ خَبَرُ ﴿كُنَّا﴾، ولو تَقَدَّم عليه قوله ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأَنَّ الخَبَرَ هو ما تَحْصُلُ به الْفَائِدَة، سواءٌ تَقَدَّمَ، أو تَأَخَّرَ.

---

(١) ألفية ابن مالك (ص٢١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: زيادةُ الثَّناء عَلَى هَؤلَاء بأنهم يُؤمنون بِكُلِّ مَا يتلى عَلَيهم، فَهُم قَد آمَنوا بالقُرْآن جُملة وتفصيلًا، وأخذنا ذَلكَ مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ﴾، و﴿يُتْلَىٰ﴾ فِعْلٌ مُضارعٌ يَدُلُّ عَلَى الحُدوث والاستمرار، وَيَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدوث، وَأَنَّ هَذَا شأنُهم كُلَّما تُلِيَ عليهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهم آمَنوا لَا لمجرد الهوى، ولكن آمَنوا إيمانًا مَبنيًّا عَلَى اقتناعٍ، يُؤخَذ مِن قَولِهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾، فما آمنوا هكـذا تبعًا للنَّاسِ، ولكن آمنوا عن اقتناعٍ بأنه الحقُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ القُرْآنَ مِن عند الله؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كمـالُ عقل هَؤلَاء الَّذينَ آمَنـوا، حيث عَبَّـرُوا هنا بالرُّبوبية بقولهم: ﴿مِن رَّبِّنَآ﴾ دُونَ الأُلوهيَّة؛ لأن المقام يَقتَضي ذَلك، فإن الرَّبَّ لَهُ الحُكمُ يَحكُم بِمَا يَشَاء كونًا وشرعًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـؤلَاء كَانوا مؤمنينَ مسلمين مُنْقَادِينَ للكُتب السَّابِقة؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جَواز ثناء المَرء عَلَى نَفسـه بِالصِّفات المحمودة، بِشَـرط أَن تَكونَ فِي ذَلكَ مَصلَحَةٌ، وَأَلَّا يَكونَ فيه افتخارٌ، وعُلُوٌّ عَلَى غَيرِه؛ لقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وَهَـذَا أَمْرٌ واقعٌ مِنَ الرَّسول ﷺ وَمِنَ الصَّحَابَة، ومِن أَهـلِ العِلم، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦).

وَقَالَ ابنُ مَسعود: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْـرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»(١).

وهذا ثَناء عَلَى نَفسه لَكن لمصلحةٍ، والعُلَماء كثيرًا إذا كَتبوا كتابًا يُثنون عَليه بما يَقتَضي هَذَا الكتَاب مِن أوصاف الثناء، وَمَعلُوم أَنَّ الثَّناء عَلَى الكتاب ثَناءٌ عَلَى مُصَنِّفه، فلو أنك أثنيتَ عَلَى هَذَا البناء فَأَنتَ في الواقع قد أثنيتَ على الباني، فَهَذه المَسأَلَة يَجوز للإنسَان أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَفسه بصفَات الحَمد بشرطين:

الشرط الأول: أَلَّا يُريدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ عَلَى غَيره، ووجهُه ظاهِر؛ لأَنَّه إذَا قَصَدَ بذَلكَ الافْتِخَارَ، والعُلُـوَّ عَلَى النَّاس، فَهَذَا قصدٌ مُحَرَّم، وَلهَـذَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(٢).

والشرط الثَّاني: أَن تَكونَ في ذَلكَ مَصلَحَةٌ؛ لأَنَّه إذَا لَم تَكن فيه مصلحة، كَانَ لَغْوًا مِنَ القول؛ لأَنَّ الإنسَانَ يَمْدَحُ نَفسَه دُونَ مصلحة، إلَّا أَنَّه لَولَا أَنَّه يريد أَنْ يُبْرِزَ صفاتِهِ لِيَفْتَخِرَ بهَا عَلَى غَيرِه، مَا فَعَلَ ذَلكَ، حَتَّى لَو قَالَ: أَنَّا لَا أريد الفَخْرَ.

فالأصلُ أَنَّ هَذَا لَغْوٌ مِنَ القَولِ؛ إذ لَا فَائدَةَ منه، والرَّسُول ﷺ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٤٧١٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، رقم (٢٤٦٣).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم (٦٠١٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم (٤٧).

فَطالما أنها ليس فيهَا خَيْـرٌ، ثم إِنَّها تُـؤَدِّي إِلَى مَفْسَـدَةٍ؛ فلا داعيَ لها، لأَنَّنا إذا فَرَضْنا أَنَّ هَذَا الرَّجل لَا يَقصـدُ الافْتِخَار أبدًا، فإنه بِفِعْلِـه هذا يفتح بابًا لآخَـرِين ليفتخروا.

• ● ۞ ● •

الآية (٥٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص:٥٤].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ بِإِيمَانِهِمْ بِالْكِتَابَيْنِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بِصَبْرِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِمَا ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يَتَصَدَّقُونَ].

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشَارَة إِلَى الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ مِن قَبلُ فآمَنوا به، ثم آمَنوا بالرَّسُول ﷺ.

قَوله تعالى: ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ أي: يُعْطَون أجرَهم، والفِعل مبنيٌّ للمفعول، وهو الواو في قَوْلِهِ: ﴿يُؤْتَوْنَ﴾ وتُعرب نائِبَ فاعل، والمفعول الثَّاني ﴿أَجْرَهُم﴾.

وأما قولُه تعالى: ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾؛ فإنه مفعولٌ مُطلَق، فهو دالٌّ على المصدر، لكنه بغير لفظِه، وكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى المصدر بِغَير لَفظِه فهو مفعولٌ مطلق، ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ بإيمانهم بالكتابين؛ فهم ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ مرتين: المَرَّة الأُولى: على الإِيمان بالكتاب السابق، والمَرَّة الثَّانية: عَلَى الإيمان بالقُرْآن.

وأما أَهل الجَاهليَّة الذي آمنوا بالقُرْآن فيُعطَون أجرهم مرة واحدة؛ لأَنَّهم آمَنُوا به فقط، وقد ثبت بهذا الحديث عَنِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في حديث هِرَقْل:

«أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ»(١).

إضافة لهذه الآية ذكَر الذين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾، فقال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»(٢).

قَوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ الباء للسَّببية، و(ما) مَصْدَرِيَّة، وعلامة المَصْدَرِيَّة أنها تُحوِّل ما بَعْدَها إلى مَصْدَر، فتكون -كَمَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ- لِصَبْرِهِم.

وَلَا يَصحُّ أَنْ تَكونَ (ما) هنا موصولةً، فلو كانت موصولَةً لَكَانَتْ عَلَى تَقدير الضَّمير: بالذي صَبَرُوه، وَهَذَا لَا يستقيم.

فإذن: يَتَعَيَّنُ هنا كونُها مَصْدَرِيَّة، أي: بِصَبْرِهِم، وَهُوَ أَحَدُ مَحَامِلِ (ما) العَشَرَة، نَذْكُرُها هنا للفائدة، جُمِعَتْ في بَيْتٍ واحدٍ مِنَ الشِّعْر:

سَتفْهَمُ شَرْطَ الوَصْلِ فَاعْجَبْ لِنُكْرِهَا ... بِكَفٍّ وَنَفْيٍ زِيدَ تَعْظِيمُ مَصْدَرِ

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بِصَبْرِهم على العَمَل بها، وهذا الصَّبْر عَلَى العَمَل بها هو مِن بَاب الصَّبْر على طاعة الله، ومِن باب الصَّبْر عن معصية الله، ومِن باب الصَّبر عَلَى أقدار الله؛ فهُم صَبروا عَلَى طَاعَة الله؛ فإن الشرع فيه أوامرُ شاقَّةٌ على

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي، رقم (٧)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، رقم (١٧٧٣).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم من أهل الكتابين، رقم (٣٠١١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته، رقم (١٥٤).

النُّفُوس تَحتَاج إِلَى المعالجة، فهذا صبر عَلَى طَاعَة الله، وفي الشَّرائع نَوَاهٍ نُهِيَ عنها، قد يَشُقُّ على النفس تركُها، ففيها صبرٌ عن مَعصيَة الله.

كذلك أَيْضًا في الشَّرائع إيذاء؛ فإنَّ المجرمين يُؤذُون المُؤمِنينَ، وربما يَضرِبُونَهم، وربما يقتلونهم، وهذا صَبْرٌ عَلَى أقدار الله المؤلمة.

فعلى هَذَا يَكون الصَّبر عَلَى الشَّرائع يتضمن الصَّبْر بأنواعه الثَّلاثَة: الصَّبر عَلَى طَاعَة الله، وعن معصيته، وعلى أقدارِه المؤلمة.

وأصلُ الصَّبْر في اللُّغَةِ الحبسُ، ومنه قَولُهم: قُتِل فلانٌ صَبْرًا، أي: محبوسًا على القتل، أُمْسِكَ وقُتِل، فمعنى الصَّبْر: حبسُ النَّفْسِ، والنَّفْسُ تَحتَاج إِلَى حَبْسٍ عَلَى طَاعَة اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى؛ لأَنَّهُ كَمْ مِن إنسانٍ يَقولُ لَه ضميرُه: افعل كَذَا مِنَ الطاعة، وربما يفعل بعضَها، ثم يَعْجِزُ، فلا يَصْبِرُ نَفْسَهُ، وكذلك بالنِّسبة للمعاصي؛ فإنَّ النفس المطمئنَةَ تَزْجُرُ المرءَ عن المعصية، ولكن تأتيه النفسُ الأمَّارةُ بالسُّوء فتأمُرُه بالمعصية، وحينئذ تتصارع النَّفْسان، والتوفيقُ بِيَدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

كذلك بالنِّسبة للأقدار؛ مِنَ النَّاس مَن لَا يَصْبِرُ على الأَقْدَار، بَل إذَا نَزَل به القَدَر يُمكن أَنْ يَكفُر، كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

فإنَّ بَعضَ النَّاس قَد لَا يصبر على الأَقْدَار المؤلمة ويَقْنَطُ، وهناكَ مِنَ النَّاس مَن إذا ابتُلي بمصائبَ انْتَحَرَ، فهؤُلاءِ لم يصبروا على الأَقْدَار، فَقَتلُوا أنفُسَهم، ليعَذَّبوا بما قَتَلُوا به أنفسهم في نار جَهَنَّم، ويُخَلَّدون فيها، كما جاء في الحديث: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى

سُمًّا فقتَلَ نفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»(١).

لكن الصَّبر عَلَى الأَقْدَار المؤلمة أمرٌ يُمكن للإنسَان أَنْ يصبرَ عليه، ويُحاسب نَفْسَهُ حتى يستقيم.

والصَّبْر عَلَى طَاعَة الله أفضلُ وأعلى وأَكْمَلُ مِن الصَّبرِ عَنِ المعصية؛ لأَنَّ فيه جهادَين: جهادًا على العَمَل، وجهادًا على تَحمُّل العَمَل، ثم الصَّبر عَنِ المعصية؛ لأنَّهُ جهادٌ واحِدٌ، عَلَى تَحمُّل تَرْكِه، فَلَيسَ فيه عَمَلٌ، يقال: لا تَزْنِ، لَا تَزْنِ. ما أُمِرْتَ وكُلِّفْتَ بفعل شيء.

والصَّبْر على الأَقْدَار المُؤْذِيَة، أو المؤلمة هو أدناه؛ لأَنَّهُ صَبْرٌ على مَا لَا اختيارَ للمرء فيه، كَمَا قَالَ بعضُ السَّلَف: «العاقِلُ يَفعل في أول يومٍ مِن المُصيبة ما يَفْعَلُه الجاهِلُ بَعْدَ أيامٍ، ومَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الكِرَام سَلا سَلْوَ البهائم»(٢).

كُلُّ إنسَانٍ إذا أُصِيب بمُصِيبة، وطال عليها الزَّمَن، فإنه ينسى.

ولهذا كان صبرُ يُوسُفَ على تَرْكِ الزنا بامرأةِ العَزيز أَكْمَلَ مِن صَبْرِهِ عَلَى مَا حَصَلَ مِن قَضِيَّة إخوانِه له بلا رَيْبٍ، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، وَلَم يَقُلْ مِثْلَ هَذَا حِين أَلْقَوْه في غَيَابَةِ الجُبِّ.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يُخاف منه والخبيث، رقم (٥٧٧٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عُذِّبَ به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، رقم (١٠٩).

(٢) تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد بن محمد، شمس الدين المنبجي (ص٢٩).

فالصَّبْر على الأَقْدَار أعظمُ، فقد يُصِيبك ما يؤلمك، لكنه شيء بغير اختيارك، أما المعاصي فَقَدْ تَرَكْتَها باختيارك، تستطيع أن تفعلَها، ولكنك ما فَعَلْتَ، أَمَّا البلاءُ، فلا تستطيع له دفعًا، فالصَّبْر والاستسلام للشرع أفضلُ مِنَ الاستسلام للقَدَر، الاستسلام للشرع هُوَ الَّذي يُمْدَح عليه الإِنْسَانُ، ويُثْنَى عليه، لكن الاستسلام للقَدَرِ يتساوى فيه كُلُّ النَّاس، أَمَا تسمعُ قَوْلَ الشاعر الجَاهِلِي[1]:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

وحتى الكُفَّار، فإنَّ أفعالَهم تُنْزِلُ بهم المصائبَ، وَلَكن لَا يَهْتَمُّ بها ويصبر، وهو كافِرٌ، ولا يَرْجُو بذلك الأجرَ والثوابَ.

وقد يَقولُ قَائِلٌ: الإنسَانُ قَدْ يَكون تَمَرَّنَ على الطاعة، فصارت عليه سهلةً، ولكن المصائب لم يَتَمَرَّنْ عليها، فيجزع لذلك.

فنقول: لا، قد يَتَمَرَّنُ عليه إِذَا أصيبَ في ابنٍ أَوْ في غيره، حتى العِبادة، مِثل الحَجِّ، لا يأتي إلا مَرَّةً وَاحدَةً في العُمر، وَمَعَ ذَلكَ يُعْتَبَر صَبْرًا عَلَى الطَّاعَة مع مَشَقَّتِه البَدَنِيَّة، والمالية، والأمنية.

أما مسألةُ الوقوع، وعدمُ الوُقوع، فهذا شَيْءٌ آخَرُ.

وهناك فَرقٌ بَينَ مَن يُكابِد الطاعة، ويجد في نَفْسِه مَشَقَّةً في مُعالجتها، وآخَرَ قد تَمَرَّنَ عليها، فصارت سهلةً عليه، فالأولُ أَشَقُّ عَمَلًا، والثَّاني أكملُ حالًا؛ لأن الطاعة صارت غَرِيزَةً مِن مَحَبَّتِه لها، وسُهولَتِها عليه، لكن الأول أَشَقُّ عملًا، فيُعطَى هذا أجرَ الكُمَّل، وذاك يُعطَى أجرَ الصابرين.

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، كما في جمهرة أشعار العرب (ص٥٣٦).

والعلماء مختلفون في هَذِهِ المسألةِ، أيُّهم أفضلُ؟ ولكنِ الصَّوابُ هذا التفصيلُ، فيُقال: الذي يَفْعَلُ الطاعةَ، وهي سَهْلَةٌ عليه، ويَنْقَادُ لها دُونَ مُكَابَدَةٍ، هذا -لَا شَكَّ- أنه أَكْمَلُ حالًا مِن الأول، والثَّاني أَشَقُّ عليه، فيُعْطَى الأَجْرَ على قَدْرِ المَشَقَّةِ النَّفْسِيَّة.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يَدفعون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾، و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مفعول به، والباء في قَوْلِهِ تعالى: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ باء الآلَة، كَقَوْلِك: ذبحتُ بالسِّكِّين، وضربتُ بالعَصَا.

فهنا: دارئ، ومَدْرُوء، ومَدْروءٌ به، والدَّارئ في الآية: العامِلُون، والمَدْرُوءُ: السيئةُ، والمَدْرُوءُ به: الحَسَنَة، فالحَسَنَةُ لهم بِمَنْزِلَة الآلَةِ التي يَتَوَصَّلُون بها إِلَى غَرَضِهم.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالسَّيِّئَةِ مِنْهُمْ]، فإذا فعلوا سَيِّئة أَتَوْا بَعْدَهَا بِحَسَنَةٍ، فاندفعتِ السيئةُ.

والحسنةُ التي تَدْرَأُ السيئةَ تَنقَسِم إِلَى قِسمَين: قِسم يُزيل السيئة مِن بَاب المقابلة، وقِسم آخر يُزيل السيئة مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، فإن كانت الحسنةُ المدروءُ بها السيئةَ مِن بَابِ التوبة، فهو مِن بَاب المَحْوِ والإزالة، وَإِن كَانَت حسنةً أخرى، كَمَا لَو دَفَع السيئاتِ بالصلاة، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، فهذا الدَّرْءُ مِن بَاب المقابلة، أَيْ: إِنَّ ثواب الحَسَنَة يُقابَل بعُقُوبة السيئة مِن بَابِ الموازَنَة؛ فإذا رَجَحَ ثوابُ الحَسَنَةِ انْمَحَتِ السيئةُ، وإِلَّا فلا.

والأَوَّلُ أكملُ؛ لأَنَّه إذَا حَصَل صارتِ الحسنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رِفْعَةٍ في الدرجات، وليست بمقابَلة بالسيئة.

ثُمَّ إنه إذَا كَانَ الدَّرْءُ مِن بَاب المقابَلة، فَقَدْ تَضْعُفُ الحسنةُ الثَّانيةُ عن مُقَابَلَةِ السيئة، فصار الدَّرْءُ بالتوبة أكملَ مِنَ الدَّرْءِ بِفِعْلِ حَسَنَةٍ أُخْرَى تُقابِل السيئة، وكلا الأمرين يَحْصُلُ به الدَّرْءُ.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِنْهُمْ] كلامُه هَذَا -حَقِيقَةً- وَجِيهٌ، لَكن لَو قلنا: إنها أَعَمُّ، وإنهم يَدْرَؤُونَ بالحَسنةِ السيئةَ، منهم ومِن غَيْرِهِم، أي: إذا أُسِيءَ إِلَيْهِم دَفَعُوا الإساءةَ بالإِحْسَانِ، فيكونُ هنا ثَنَاءٌ عليهم مِنْ حيثُ معاملتهم مع الخَلْقِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤-٣٥].

وَعَلَى هَذَا، فنَحْمِلُ الآيَة عَلَى المَعْنيَيْنِ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لِمَا يَقَعُ منهم في عِبادَة الله، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بالنِّسبة لِمَا يَقَعُ مِن غَيْرِهِم في المعَامَلَة.

قال الرَّسُول ﷺ لما سأله الرَّجُل عن إنسان يأتي ليأْخُذَ ماله قال: «فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «قَاتِلْهُ». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «فَأَنْتَ شَهِيدٌ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «هُوَ فِي النَّارِ»[1].

فلذلك فإنَّ قَولَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾: [مِنْهُمْ] مِنَ الصَّوابِ أَنْ نَجْعَلَهُ أَعَمَّ، أي: مِنهم في مُعَامَلَتِهم مع الله، ومِن غَيرهم في مُعَامَلَتِهم مَعَ الخَلق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق، كان القاصد مهدر الدم في حقه، وإن قتل كان في النار، وأن من قتل دون ماله فهو شهيد، رقم (١٤٠).

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَتَصَدَّقُونَ]، ويُهدون أيضًا، وليس لازمًا أَنْ يتصدَّقُوا فقط؛ لأن الهَدِيَّة قَد تَكون محمودةً إذَا كَانَ الغرضُ منها جَلْبَ المَوَدَّةِ، قال رَسولُ اللهِ ﷺ: «تَهادُوا تَحَابُّوا»[1].

الشاهد أَنَّ قَولَه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ بمعنى: أعطيناهم، فالرِّزق بمعنى العَطاء، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء:٨]، أي: أَعْطُوهم، فالرزق بمَعنَى العَطَاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: (مِنْ) هنا لِبَيانِ الجِنْسِ؛ لأنَّ إنفاقَ المالِ كُلِّهِ مِن الأُمُور المحمـودة، فَقَدْ حَـثَّ النَّبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا أَنْ نَتَصَدَّقَ، فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالًا عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا، فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: مِثْلَهُ، قَالَ: وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا[2].

فإذا جعلنا (مِن) لِبَيَانِ الجِنس، فيَشْـمَلُ بَذْلَ المال كُلِّه، أو بَعْضِه، يعني: قـد يَكونُ مِنَ الخير بَذْلَهُ كُلَّه.

وقد يَكونُ مِنَ الخَير بَذْلُ بَعْضِه حسَب الحال الذي أُنْفِقَ فيها.

وقوله تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾ الإنفاق بمعنى البَذْلِ، لا بمعنى الصَّدَقة، لكن

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٨، رقم ٥٩٤)، والبيهقي (٦/ ١٦٩، رقم ١١٧٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، رقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، بعد باب مناقب أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واسمه عبد الله بن عثمان ولقبه عتيق، رقم (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح.

الذي أوجبَ للمؤلف أن يَخُصَّه بالصَّدَقة أَنَّ المقامَ مَقامُ ثَناءٍ، ولكن الأَولَى أَنْ نَجْعَلَه على عُمومه، ونَجْعَل معنى قوله: ﴿يُنفِقُونَ﴾ أي: يَبْذُلُون ويُعطون؛ لأن البَذْلَ قَد يَكونُ تَصدُّقًا خيرًا، وَقَد يَكونُ البَذْلُ تَوَدُّدًا خيرًا أيضًا، وَقَد يَكون أفضلَ مِن الصدقة في بَعض الأحيان.

ويجب أن نُفَرِّقَ بين الهِبَة، والهَدِيَّة، والصَّدَقة:

الصَّدَقة: هي ما أُرِيدَ بها وجهُ الله، ويُتَقَرَّبُ بها إلَى اللهِ، ولا يَهُمُّه تَقَرَّب إليها بمُعطًى أَم لَا.

والهَدِيَّة: ما قُصِد به التَّوَدُّد للمُعْطَى، أي يريد أَنْ يتقرب إلى الْمُعْطَى، ويَتَقَرَّب منه المعطَى.

والهِبَة: مَا قُصِدَ به نفعُ الموهوب فقط، لَا أَنْ يتقرب إلَى الله بذلك، فهذه تُسمَّى هِبَةً.

وكُلُّها محمودة في الواقع، وَقَد يَكونُ بعضُها أَفضَلَ مِن بعضٍ، هذا عَلَى حَسَب الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الْمُؤمنينَ مِنْ أَهْلِ الكتاب لهم أَجْرَانِ: الأجرُ الأول الإِيمان بكتابهم، والثَّاني: الإيمان بالقُرْآن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ عَـدْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حَيـث لَم يُضَيِّع أجـرَهم الأول بالأجر الثَّاني، ولا الأجْرَ الثَّانيَ بالأجر الأول.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ العَمَل، قَالَ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

فهؤُلاءِ كان ثوابُهم مَرَّتَيْنِ؛ لأَنَّهم عَمِلُوا مَرَّتَيْنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات الأَسْباب والعِلل؛ لقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: فَضِيلَةُ الصَّبْرِ، طالما أَنَّ الصَّبرَ سببٌ للأجر؛ فَلَا شَكَّ أَنَّه صِفَة حميدة، وفاضلة.

وَقَد ذَكَرنَا قَبلَ ذَلكَ أَنَّ الصَّبرَ يَنقَسم إِلَى ثَلَاثَةِ أَقسَام:

صَبْرٌ عَلَى طَاعَةِ الله، وصَبْرٌ عن مَعصيَةِ الله، وصَبْرٌ على أقدار الله، وأنَّ أَفْضَلَهَا أَوَّلُها، ثم الثَّاني، ثم الثالث.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَات؛ لقوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّه يَنبَغي مقابَلةُ المسيءِ بالإِحْسَان، فالحسناتُ يُذْهِبْنَ السيئاتِ، فالآية -كَمَا قُلنَا- عامَّة لِدَرْئِه سيئاتِهم بحَسَنَاتِهم، ودَرْئِهم سيئاتِ غَيْرِهم بالإحسَان إِلَيهِمْ، وَأَتَيْنَا لذلك بشاهِدٍ مِنَ القُرْآن، لكن دَرْءُ سيئات الآخرين بالإِحْسَان إِلَيْهِم ثقيلٌ عَلَى المَرْءِ جِدًّا، وَلهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وأكثرُ النَّاسِ يَقُول: واللهِ لَأَكِيلَنَّ له الصَّاعَ بالصَّاعَين، والصَّفْعَةَ بالصَّفْعَتَيْنِ، لكن الأمر لَيسَ كَذَلكَ، قَالَ تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فكانت النتيجة: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وأتى بـ(إذَا) الفُجَائِيَّة؛ للدَّلَالَة عَلَى أَنَّ هَذَا الأَمرَ يتحول بسرعة، فهذا العَدُوُّ يتحول بسرعة ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾،

يعني: صديق قريب لك.

وهَـذَا يَنبَغي أَلَّا يَكونَ مَظْهَرَ عَجْـزٍ في المرء؛ فَإن كَانَ مَظْهَرَ عَجْـزٍ في المـرء فَلَا يَنبَغي؛ لأَنَّ اللهَ تعالى يَقول: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى:٤١]، وَلَو كَانَ فَاسقًا، هذا بالنِّسبة لِحَقِّكَ الخاصِّ، أَمَّا بالنِّسبة لحَقِّ اللهِ فَلَا، بل يُعَامَلُ بمَا يَقتَضِيه الشرعُ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: فَضيلَةُ الإنفَاق مِن رِزق الله لقَوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّ المُنْفِقَ لَمْ يُنفق ممَّا صَنَعَه، أو اكتسبَه بنفسِه، ولكن يُنفق مِن رزق الله، فاللهُ هُوَ الَّذي رَزَقَك، وَهُوَ الَّذي أَمَرَكَ، فَأَنـتَ في الحَقيقَة خادِمٌ، عَبْـدٌ مُتصَرِّفٌ حَسَبَ أَمرِ سَيِّدِكَ، قَالَ لَكَ: اكْتَسِبْ. فَاكْتَسَبْتَ، قَالَ لَك: أَنْفِقْ. فَأَنفَقْتَ.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: قولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقولُه في وَصْفِ عِبَادِ الرَّحمَن: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، وَبَيـنَ قَولِه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩]، نَجمَع بينَهما بأَنَّ غالِبَ أَحوَالِ النَّاس أَلَّا يُنْفِقُوا جَميعَ أَموَالهم؛ لأن إنفَاق جميع المَال قَد يَكون مُضِرًّا بهم، لَكِن في بَعضِ الأحيان يكون إنفاقُ جميعِ المَالِ محمودًا، فلهذا قال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ فلا تُنْفِق، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ فَتُنْفِق كُلَّ مَا عندَك.

لكن النُّصـوص الأُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَسأَلَةَ مَبنيَّةٌ عَلَى تَغيُّـرِ الحُكم بِتَغَيُّـرِ الأحوالِ، فَقَد يَكونُ الأفضلُ إنفَاقَ جَميع المَال، وَقَد يَكون مِنَ الأفضل إنفاقُ بَعْضِه.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أَنَّ الإنفَاقَ مِن رِزْقِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ محمودٌ، في قَوْلِه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

والرزق -كما عرَفْنَا في بَابِ العقيدة- لَا يَجتَمِع مِن حلالٍ وَضِدِّه.

يقول السَّفَارِينِيُّ(١):

وَالـرِّزْقُ مَـا يَنْفَـعُ مِـنْ حَـلَالِ أَوْ ضِـدِّهِ فَحُـلْ عَـنِ المُحَـالِ

وضِدُّ الحلال هو الحرامُ، فلا يُحمد الإنسَان إذَا أَنفَقَ مِن حَرَام؛ لأَنَّه مَا يُثاب عليه، والواجب عَلَيه أَنْ يَرُدَّ الشَّيْء، ويتخلص منه، لَكنَّ المرَادَ هنا بالرّزق الَّذي يُحمد عَلَى الإنفَاق منه إذَا كَانَ رزقًا حلالًا، أَمَّا مَن اكتسب شيئًا حرامًا؛ فَإِنَّ النَّبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»، قَالُوا: وَمَا بَوَائِقُهُ يَا نَبِيَّ اللهِ؟ قَالَ: «غَشْمُهُ وَظُلْمُهُ، وَلَا يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالًا مِنْ حَرَامٍ، فَيُنْفِقَ مِنْهُ فَيُبَارَكَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَيُقْبَلَ مِنْهُ، وَلَا يَتْرُكُ خَلْفَ ظَهْرِهِ إِلَّا كَانَ زَادَهُ إِلَى النَّارِ، إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَمْحُو السَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ، وَلَكِنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالحَسَنِ، إِنَّ الخَبِيثَ لَا يَمْحُو الخَبِيثَ»(٢).

وَهَذَا يَدلُّ عَلَى أَنَّ الإنفَاقَ مِنَ المُحَرَّمِ لَا يَنفَعُ المرءَ، لكن ينفعه إذا أنفقه يُريد التخلُّص منه، بمَعنَى أَنَّه لَا يَلحَقُه شَيء مِن جَرَّائه، وينفعه؛ لأن إنفاقه للتَّخَلُّص منه تَوْبَةٌ، والتوبةُ تنفع العبد.

• • ۞ • •

(١) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (١/ ٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧، رقم ٣٦٧٢).

الآية (٥٥)

• ●○○● •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥].

• ●○○● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلَامُ مُتَارَكَةٍ، أَيْ سَلِمْتُمْ مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ لَا نَصْحَبُهُمْ].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ يجب بداية أَنْ نَعْرِفَ الفرقَ بَيْنَ (سَمِعَ)، و(اسْتَمِعَ)، فالسامِع: هُوَ الَّذي أدركَ الصوتَ دُونَ قَصْد. والمستمع: هُوَ الَّذي أدركَهُ بِقَصْدٍ.

ولهذا نقول: يُسَنُّ سُجود التِّلَاوَة للمُستمع دُون السَّامع.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاء لَا يستمعون إِلَى القَول، ولكن يسمعونه، كَقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]، مَرُّوا به، وَمَا جلسوا عنده.

هَؤُلَاء أَيْضًا ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ].

أَيضًا هَذَا تَخصيصٌ لمَا هُوَ أَعَمُّ؛ فإنَّ اللَّغْوَ يشمل مَا قَالَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشمل أَيْضًا كُلَّ كَلَام لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه شَرٌّ أَمْ لَم يَكُن.

فهؤُلاءِ في غَايَة ما يَكونُ مِنَ الجِدِّ، وحِفظ الوقت، لا يستمعون إِلَى كَلَام لَغْوٍ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَدَح الَّذينَ لَا يستمعون اللَّغْو، والنَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

والمقابلُ للخَيْر الشَّرُّ، وَمَا لَا خَيرَ فيه، وَلَا شَرَّ، وهو اللغو، فالأصح أنه يشمل كُلَّ كَلَامٍ لَا خَيرَ فيه، سَوَاءٌ كَانَ فيه أَذًى وشَرٌّ، أَمْ لَم يَكن، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بأبدانهم، أو بأبدانهم وقلوبهم، أو بقلوبهم فقَط حَسَب الحال، وَلَكنَّ الأَصلَ هو القُلوب، لَكن قَدْ تَشمل الأبدان أيضًا، بحيث إِذَا سَمعوا كلامًا لَا خَيرَ فيه قامُوا، وتركوا المكان، حَتَّى لَو لَم يَكن حَرَامًا.

أما إعراضُ البَدَنِ مع إقبالِ القلْبِ، فَهَذَا لَا يَنفَعُ، فالمقام عند اللَّغو أربعةُ أنواع: تارَةً يُقبِل عليه بجسمه وقَلْبِه، فَحينَئذ يَكون مشارِكًا لأهله، وتارَةً يُعرِض عَنْهُ بجسمه وقلبه، بحَيث لَا يستمع إِلَيه، وَلَا يَجلس، وتارة يُعْرِضُ بقلبه دُونَ جسمه، وتارَةً يُعْرِضُ بجسمه دُونَ قلبه، والتَّركيزُ هنا عَلَى الإعراض بالقلب.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾، كَأَنَّه يَقول: إِذَا قيلَ لَهم: لماذا تقومون؟ لماذا لا تَردُّون؟ لماذا لا تنصَاعُون لأذاهم، يقولون: ﴿لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾، فَنَحن لَا نُسْأَلُ عَمَّا تعملون، وَأَنْتُم لَا تُسأَلونَ عَمَّا نعمل،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان، رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (٤٧).

ولا نوافقكم عَلَى هَذَا العَمَل، وليس يعني ذَلكَ أَنَّهم لَا يَأمرونَ بالمَعروف وَلَا يَنهَوْنَ عَنِ المنكَر؛ لأنَّ الكَلَامَ هنَا عَنِ اللَّغْو، وهو الكلامُ المنافي للخيـر، أَمَّا المنكَر، فإنَّهم لَا شَكَّ أنهم يَنهَوْنَ عَنْهُ، وَيأمُرونَ بالمَعروف.

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [سَلَامُ مُفَارَقَةٍ]، أي: سَلِمْتُم مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وغيره، ولا يُسَلِّمُون سلامَ تحية، فَهُم إِذَا سَمِعوا اللَّغوَ أَعْرَضُوا وقاموا، وقالوا لهؤلاءِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، يعني: سَلَامٌ عَلَيكم منَّا وَلَيسَ مِنَ الله، فأنتم سالمون لا، نُقابلكم بما تفعلون بنا، وَهَذَا مِنَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بناءً عَلَى أَنَّ المرادَ بِقَولِه: ﴿ٱللَّغۡوَ﴾ يعني: الأذى والشتم منَ الكفَّار.

أَمَّا إِذَا قُلنَا بالعُموم؛ فإنَّه يَحتمل أَنْ يَكونَ المرَاد بالسَّلام هنا سلامٌ مِنَ الله، أي: سلامُ تَحِيَّـة؛ لأَنَّهُ يُشـرَع لمَن قَامَ مِن مجلس أَنْ يُسَلِّم، وَيَحتمِـل أَنْ يَكونَ سلامَ مُفارَقَة، وإن شئنا جعلناه مُوَزَّعًا، فقلنا: إِنْ قُلنَا باللَّغو إنه الشتمُ والأذى، فالسَّلام هنا سلامُ مُفارَقَةٍ، بمعنى أنكم سالمون منا، ونحن سالمون منكم، وَإِذَا قلنَا: إِنَّ المرَادَ باللَّغو الكَلَامُ الَّذي لَا خَيـرَ فيه، وَإِنْ لَم يَكن سَبًّا، ولا شَتْمًـا، فهو سلامُ تَحِيَّة؛ لأَنَّ هَؤلَاء لَمْ يُسِيئوا إلى المُعرِضين حَتَّى يَقولوا لهم: سَلَامٌ عَلَيكم مِنَّا.

قوله تعالى: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَا نَصْحَبُهُمْ]، وَهَذَا التَّفسير مِن المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَظُنُّه قاصـرًا؛ فَلَو كَانَ الأَمرُ كَذلكَ لَقَالَ: لا نَصْحَـبُ الجَاهِلين، لكن ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، والابتِغاءُ بمعْنى الطَّلب، قَالَ تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ [الفتح:٢٩]، أي: يطلبون، وَإِذَا انتفَى طلبُ الجَاهِلين، فانتِفاءُ صُحبَتِهم مِن بَاب أَوْلَى؛ لأَنَّهم مَا يطلبون الجَاهِلين، فَضلًا عَن كونهم إذا وَجدُوهُم صَحِبُوهُم، فظاهِرُ الآية أَولَى، وَأَبلَغُ مِن تَفسيرِ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإِنْسَان ذو العِلم

والبَصيرة لَا يَطْلُب الجَاهِلين، فيكون معهم، بَل لَا يَصْحَبُ إلَّا الأَخيَارَ ذوي العِلم والمروءة، والشَّرف والدِّين.

والجَاهِـلُ هنا المَرادُ بِهِ السَّفِيـه، حَتَّى لَو كَانَ عَالِمًا؛ لأَنَّـه إذَا أساء التصـرفَ -وَلَو كَانَ عَالِمًا- فَهوَ بمَنزلَة الجَاهِل، بَل أَشَدُّ مِنَ الجَاهل؛ لأَنَّ مَن خَالَفَ عَن عِلم أَشَدُّ ممن خالَـفَ عَن جَهل، ويُسمى مَن خَالَـفَ عَن عِلم سَفِيهًا، ويُسمى جـاهلًا مُركَّبًا إذَا ادَّعَى أَنَّه يَعْلَمُ، بخلافِ الإِنْسَان الجَاهِل الَّذي لَم يَأته العِلم أصلًا؛ فَإنَّ هَذَا قَد يستقيم إذَا عَلِمَ.

إذن: الجَاهِلون هنا لَيْسُوا مَن لَا يَعلَمونَ، بل هم السفهاء.

وَإذَا قَالَ قَائل: مَا الَّذي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الجهل يَأتي بمَعنَى السَّفَه؟

قلنا: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، فَإنَّ قَولَه: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ بلا شَكَّ أَنَّ المرَادَ: بِسَفَهٍ؛ لأَنَّ مَن يَعمَل السُّوء جاهلًا بِغَيْرِ عِلم هَذَا لَا ذنبَ عَلَيه حَتَّى نَقولَ: إنه يتوب، فالجهل هنَا بمَعنَى السَّفَه.

قوله تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: السُّفَهَاء الَّذينَ يَعمَلونَ بجهالة.

والجَاهِل غَيرُ عَالِمٍ، ربما يَبْتَغِيه المرءُ لِيُعَلِّمَه مَا دَامَ جاهلًا، ولهذا فَإنَّ الرَّسُولَ ﷺ كان يَعرِضُ نَفْسَـهُ عَلَى القَبَائل في موسم الحج، يَأتي إلَى قَبيلة، ويأخـذ عليهم، ويدعوهم إلَى الله، فهو يطلـب هؤُلاءِ الجُهَّال ليُعَلِّمَهم، لَكنَّ المرَادَ بالجهل هنَا هُـوَ السَّفَه؛ لأن السفيـه فِعْلُه -في الحَقيقَـةِ- كَفِعْلِ الجَاهِل تمامًا؛ إذ إنه يُخالف الحـقَّ، وَلَا يَعمَل بِهِ، لكنه أَشَدُّ مِنَ الجَاهِل؛ لأَنَّه غَيرُ مَعذور.

وِمثل هَـذِهِ الصِّفَات تُفيدنا في العِلم وَالعَمَل؛ لأن دَأْبَ الصَّحَابَـة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فعن أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ، فَأَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْمَلُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعِلْمِ، فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا(١).

وأكثرُ النَّاس إذَا قَرَأَ مِثل هَذِهِ الآيَاتِ قال: يَا الله، مَا أَحسَنَ صفاتِهم! وما أجمَلَ أفعالَهم! وَهَذَا غَايَةُ مَا يَستَفِيد مِنَ الآيَة، وَلَكِنَّ هَذَا مَا يَكفي، المَقصود مِن ذِكر هَذِهِ الأَوصَافَ الحميدة، سَوَاءٌ كَانَت عَلى سَبيل الإخبَار عَنِ الحَال، أَو عَلى سَبيل القَصص، فالغَرَضُ منهَا هُوَ أَنْ يَعتَبِـرَ الإِنسَان بما حَصَل، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَبِ ﴾ [يوسف:١١١].

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الثَّناء عَلَى مَن أَعرَضَ عَنِ اللَّغْو؛ لقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي الإعرَاضُ عَنِ اللَّغو، وهو الكَلَامُ الَّذي لَا فَائدَةَ فيه، وَلَا خَيْرَ منه، والفِعل يُقَاس عَلَيه، فَلَا يَنبَغي للإنسَان أَنْ يُمْضِيَ وقتَهُ في أفعالٍ لَا خيرَ فيهَا.

واعلَمْ أَنَّ الخيريَّة ذاتِيَّةٌ وعَرَضِيَّة، بمَعنَى أَنَّه قَد يَكون الشَّيء خَيرًا في ذَاتِه، وَقَد يَكون خَيرًا لِغَيْرِه؛ لِعَارِضٍ يَعْرِض لَهُ.

فمَثَلًا: الصلاة خيرُها ذاتي، والسعيُ إليها خَيْرُه عَرَضي؛ لأن مُجَرَّدَ المشي لَيسَ

(١) أخرجه ابن وضاح في البدع والنهي عنها، رقم (٢٥٥).

بِقُرْبَة، حَتَّى يَكونَ وَسيلَة إِلَى قُربةٍ أُخرى، فَعَلَى هَذَا لَو أَنَّ الإنسَانَ تحدَّث بحديث لَيسَ مِنَ الذِّكْر، وَلَا مِنَ العِلم، وَلَا مِنَ الأَمـر بالمَعروف، وَالنَّهي عَن المنكَر، لكنه حديثٌ يَقْصِدُ به إدخالَ السُّرور على مُجَالِسِيه، فَهَذَا خَيْرٌ، لكنه ليس خيرًا ذاتيًّا بهَذَا الكَلَام، بَل هُوَ خَيْرٌ عَرَضِيٌّ، أي: عَرَضَ لَهُ بسبب القصد الحَسَن فيهِ، وَهَذَا في الحَقيقَة عَلَى هَذَا التَّقدير.

ولا يتساوى الخير العَرَضي، والخيرُ الذاتي؛ لأَنَّ الخَيرَ العَرَضي يفقد خيره إِذَا زَالَ السَّبَبُ، والخيرُ الذاتي خَيْرُه ثابتٌ دائم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّه يَنبَغي التبرؤ مِن أَصحَاب اللَّغو، وعدم مجالستهم؛ لقوله: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: مشرُوعيَّة السَّلام عِنْدَ الانصراف؛ لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وَهَذَا لَا يَتوَجَّه عَلَى تفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ إنه يَرَى أَنَّ السَّلامَ هنا سلام مُفارَقة، لا سلام تَحِيَّة.

وَعَلَى هَذَا، فَلَا تُؤخَذ هَذِهِ الْفَائدَةُ، وَهُوَ إِنَّمَا حَمَلَه عَلَى سلام المفارقـة بِنَاء عَلَى تفسيره اللَّغْوَ بالشَّتْمِ والسَّبِّ.

والحقيقةُ أَنَّ هَذَا التَّفسير ناقص؛ لأن السَّبَّ والشتم قَد لَا يُقَال: إِنَّه لُغْوٌ فقط، بل لَغْوٌ وعُدوان، فهو أَخَصُّ مِن كونه لَغْوًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّه لَا يَنبَغي للعاقِل طلَـبُ السُّفهاء، فَضلًا عَنِ الجلـوس معهم؛ لقوله: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾؛ لأَنَّ طلبهم في الحَقيقَة يؤدّي إِلَى الجلوس معهم، والجلـوس مَعَ الجاهِلين إثمٌ، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨]، فَلَا يَنبَغي للإنسَان أَنْ يتطلب أهل السَّفه، ويجلس إِلَيْهِم، أَو عَلَى الأَقَلِّ يَأْنَسُ بما يفعلون؛ فَإِنَّ هَـذَا مِنَ الصّفَات الَّتي لَيسَ عَلَيهَا أَهْلُ الخيـر والإِيمان.

• ● ۞ ● •

الآيــة (٥٦)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

قَالَ الْمُفَسِّرُ: [وَنَزَلَ فِي حِرْصِهِ ﷺ عَلَى إِيمَانِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هِدَايَتَهُ ﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾].

أَبو طَالِبٍ هُوَ أَبو عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا العَمُّ آوَى رَسُولَ الله ﷺ ودافع عنه، وناصَرَهُ، ولكن حِيلَ بَينَه وَبَينَ الإِيمانِ؛ بسبب مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنَ الشَّقاوة.

وَفي عَدَمِ إيمانه حِكمة عظيمة؛ لأَنَّه لَو آمَنَ مَا تَمكَّنَ مِنَ الدِّفاع الَّذي حَصَلَ منه للرسول ﷺ، إذ لَوْ آمَنَ لَكَانَ هُوَ محَلَّ إيذاءٍ للمشركين، لَكن لَمَّا بقِيَ عَلَى مِلَّتِهم كانوا يحترمونه بعضَ الاحترام، فَكَانَ فِي بقَائه عَلَى الكفرِ مِن حِكمَةِ الله مَا هُوَ ظَاهر، وَإِلَّا مَا استطاع أَنْ يحمِيَ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تلك الحماية.

وهذا الرجل لَهُ فَضل عَلَى الإسلَام؛ بسبب دفاعه عنه، ولهذا أَذِنَ اللهُ لِنَبيِّه ﷺ أَنْ يَشفَعَ له، مَعَ أَنَّه لَا يمكن أَنْ يَشْفَعَ لغَيـره مِنَ الكفَّار، إِلَّا هَذَا الرَّجُلَ؛ لما لَهُ مِنَ الفَضل على الإسلَام مِن حماية الرَّسول ﷺ، وَالدِّفاع عنه.

ولكن هَذِهِ الشفاعةُ ما نفعته نفعًا كَامِلا، وَهُوَ غَيرُ مؤمن، إنما نَفَعَتْهُ أَنَّه كَانَ

في «ضَحْضَاحٍ[١] مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[٢]، وَهُوَ يَرى أَنَّهُ أَشَدُّ أَهلِ النَّار عذابا، وهو أهونُهم.

قال النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ».

يعني: شَفَعْتُ له، أو أَنَّه أَيْضًا عَمِلَ مَا عَمِلَ في حمايَة الرَّسول ﷺ.

هذا العَمُّ حَرَصَ النَّبيُّ ﷺ غايةَ الحِرص عَلَى أَنْ يُؤمنَ، حَتَّى إنَّه في سِيَاق الموت قال لَهُ: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[٣]. فكَانَ آخِرُ مَا قَالَ: إنَّه عَلَى مِلَّة عَبد المطَّلب، وإنه لن يدع طريقة الأشياخِ الكبار أَهْلِ الجَاهليَّة.

وَكَانَ عندَه رَجُلَان مِنَ المشركينَ يُلَقِّنَانِه: أَتَرغَب عَن مِلَّة عَبد المطَّلب؟ فكان أنْ خُتِمَ له بخاتمة الشَّقاء، فلم تنفعه هَذِهِ المحاولة مِن الرَّسول ﷺ، ونَدِمَ النَّبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى هَـذَا الأمـر، وقال: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»[٤]. فَنُهِيَ عَنهُ، وَقيلَ لَه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

أما بالنِّسبة لنَدَمِـه عَلَى عَدَم إيمانه فَسَلَّاه اللهُ تعالى بهَذَا الأَمر: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هدايتَه.

---

(١) الضَّحضَاح فِي الأَصْل: ما رَقَّ مِنَ المَاءِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ مَا يبلُغ الكَعْبين، فاستَعاره لِلنَّارِ. النهاية: ضحضح.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢٠٩).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم (٢٤).

(٤) تقدم تخريجه، وهو بقية الحديث السابق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ﴾ أي: يَا مُحَمَّد، فالنداء له ولغير الرَّسول ﷺ مِن بَابِ أَوْلَى، فَإِذَا كَانَ الرَّسولُ ﷺ، وَهُوَ أَشرَفُ الخَلق عند الله، وأعظمُهم جاهًا، لا يَستَطيع أَنْ يَهْدِيَ أَحَدًا، فكيف يستطيع غيرُه؟

وقوله تعالى: ﴿لَا تَهْدِي﴾ المُراد بالهداية هنا هدايةُ التَّوْفِيق، بمعنى: لَا تَضعوا الهدايةَ في قُلوب النَّاس، وليست هدايةَ الدَّلَالَة والإرشاد؛ فإنَّ هِدايةَ الدَّلَالة والإرشاد ثابتةٌ للرسول ﷺ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢]، ولكن هداية التوفيق -وهي إلقاءُ الهُدى في القلوب- إنَّما هِيَ لله عَزَّوَجَلَّ وحدَه.

وَقولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدَّرَهُ بقوله: [هِدَايَتَهُ]. والصَّواب: مَنْ أَحْبَبْتَهُ.

وقد عَدَلَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى تَقدير: [أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]؛ لأن الرَّسول ﷺ لَا يُمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالِبٍ وَهُوَ كَافِر؛ فإن المؤمنَ لَا يُحِبُّ الكافرين.

ولكننا نقول: الحُبُّ الطَّبِيعِيُّ لَا يُنَافِي الإيمان، فالإِنْسَان يُحب -مثلًا- قريبَه، وَلَو كَانَ كَافِرًا، لكنَّها محبةٌ طبيعية، كما تُحِبُّ الأُم ولَدَها.

فالمحبَّة الدينيَّة لَا تَجوز بَينَ المؤمن وَالكَافِر، قَالَ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

أَيْضًا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ]، ولو أَنَّنا حَملنَاهَا عَلَى مَا قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لَكَانَت هَـٰذِهِ تَعُمُّ كُلَّ النَّاس، لأن الرَّسول ﷺ يُحِبُّ أَنْ يهدي كُلَّ

النَّاس، وليس أَبَا طَالب فقط، لكن تقدير (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) يَختَصُّ بأبي طالب، أَوْ غَيرِه مِن أقاربه.

أَيْضًا لَوْ أَنَّنا قلنا -كَمَا قَالَ المفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- لَكَانَ في الآيَة إضمارٌ، وهو إضمارُ الهداية؛ لأَنَّ الأَصلَ في ضَمير الصِّلَة أَنْ يَعُود إِلَى الصلة نفسها، و﴿مَنْ﴾ اسمٌ موصولٌ يَعُود عَلَى أَبي طَالب، وعائدُ الصِّلة يَعُود عَلَى الصِّلة نفسها، وبهذا تَبَيَّنَ أَنَّ الراجح (مَنْ أَحْبَبْتَهُ) مِن وُجُوهٍ ثلاثة: وجهٍ معنويٍّ، ووجهين لَفْظِيَّين.

الوجهُ المعنويُّ: أَنَّ الآيَةَ نَزَلَت في أَبي طَالب، ولو قلنا: (مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ) لكانت عامَّة.

والوجهان اللفظيان: الأول: أَنَّنَا إِذَا قَدَّرْنا (هِدَايَتَهُ) لَزِمَ أَنْ يَكونَ في الآيَة شَيْءٌ محذوفٌ، وَالأَصلُ عَدَمُ الحذفِ.

والثَّاني: أَنَّ عائد الصِّلة يَعُود إِلَى الموصول، فَإِذَا عَادَ إِلَى ﴿مَنْ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ صار المراد: مَن أحببتَهُ هو.

وَأَمَّا مَا لاحَظَهُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَنَّ الرَّسولَ ﷺ لَا يمكن أَنْ يُحِبَّ أَبَا طَالب، فالجوابُ عَلَيه أَنَّ المَحَبَّةَ نوعان: محبةٌ طبيعية، ومحبةٌ شرعية، فالمحبةُ الطبيعية لَا تُنَافي المحبة الشرعية، فقد تجتمع مَعَهَا، وَقَد تنفرد، فَإِذَا كَانَ المؤمن قريبًا لك اجتَمَعَ فيه المحبَّتَان، وَإِذَا كَانَ بعيدًا منك، وُجِدَت فيه محبةٌ واحدةٌ، وهي الشرعية، وَإِذَا كَانَ قَرِيبًا وَهُوَ غَيرُ مُؤمن، ففيه محبة واحدة، وهي المحبة الطبيعية.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: يهدي هِدايـةَ توفيق، وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي: مَن يَشَاء أَنْ يَهديَه، وهنا نستطيع أَنْ نُقَدِّرَ: مَن يَشَاء هدايته؛ لقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وقوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَّق الفِعلَ بالمشيئة، وَكُلُّ فِعل يُعلِّقُه الله بالمشيئة مِن أَفعَالِه، فإنه مَقْرُونٌ بالحِكمة؛ إذ إنَّ أفعالَ اللهِ كُلَّهَا مَبنيَّة عَلَى الحِكْمَة.

إذن: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ هدايته، لَيسَ الأَمرُ اعتباطيًّا، وَلَكنَّ الأَمرَ عَلَى حِكمة، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦]، لَا يَهدي مَن يَهدي إِلَّا وَهُوَ أَهلٌ للهداية، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام:١٢٤].

وكذلك هُوَ أَعلَم حيث تكونُ هَذِهِ الرِّسالَة، فَمَن كَانَ أهلًا للرسالة أُرْسِلَ، وَمَن كَانَ أهلا للقِيام بواجبِ الرِّسالَة، هُدِيَ لذلك.

فإذن الإطلَاقُ في قَوْلِهِ: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ عَلَى وَجْه الحِكْمَة.

قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ: عَالِمٌ بِالمُهْتَدِينَ].

وهنا أَخطأَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فنحن ننتقده مِن وَجهَين:

الوجه الأول: أَنَّ هَذَا تحريفٌ للقُرآن؛ حيث حَوَّل ﴿أَعْلَمُ﴾ الدالَّ عَلَى الكَمال في العِلم والأفضلية فيه إِلَى (عالِم)، الَّذي لَا يَمنَع مشاركةَ غيرِه لَهُ في هَذِهِ الصِّفَة، فأنا أقول: محمدٌ عالِم، وزَيْدٌ عالِم، وبَكْرٌ عالِم، إِلَى آخِره، لَكِن لَو قلت مثلًا: زَيْدٌ أَعْلَمُ. فمَعناه أَنَّه مَا ساواه أَحَدٌ في عِلْمِه.

فالمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الآن حَرَّف القُرْآن، حيث فَسَّر ﴿أَعْلَمُ﴾ بـ(عالم)، وفَسَّر مَا يَدُلُّ عَلَى الكَمال بما يَدلُّ عَلَى المُشارَكَة.

الوجه الثَّاني: أَنَّنا نقول: إِنَّ وَصفَ الله بأَنَّه ﴿أَعْلَمُ﴾ أكملُ مِن وَصْفِه بأَنَّه (عالِم)، أكمل بلا رَيْبٍ، فَما الَّذي يمنَع أَن نَقولَ (أَكْمَلُ)، وكأنه يُريد أَنْ يَقُولَ: لَا يمكن أَنْ نَقولَ: إِنَّ اللهَ أعلَمُ، فنَجْعَل لله مُشارِكًا في العِلْم، فنقول: مَا جَعلتَ لله مشاركًا

مُساويًا، بل جعلتَ لله مشاركًا نازِلا عَنْ عِلم الله، فَاللهُ أَعلَم.

لَكن إِذَا قلت: إِنَّ اللهَ عالم، جعلتَ لله عِلْمًا قد يُساويه غَيرُه فيهِ.

فالصَّواب أَنَّ ﴿أَعۡلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وأنها عَلَى بَابِهَا.

وقوله: ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فِعْلًا، أو بِمَنْ يَستَحِقُّ أَنْ يَكونَ مِنَ المهتَدينَ، إِذَا قلنَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أو بِمَن هُـوَ قابِلٌ للهدايـة؛ لأَنَّ الكَلَامَ الآنَ عَلَى إنشاء الهداية في قَلب المَرْءِ.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ليس معناه: الَّذينَ اهتَدَوا، بَل مَعنَاه: أَعلَم بمَن يَستَحِقُّ أَنْ يَقْبَلَ الهُدى، ولهذا فَسَّرَهُ بعضُهم بالمهتدين في عِلم الله، أي: مَن عَلِمَ اللهُ أنهم سيكونون مهتدين.

فعلى كُلِّ حَالٍ: المهتـدي معناه: مَن كَانَ قابِلًا للهِدايـة، ومعناه: مَن اهتـدى بالفِعل، وَالمرَاد بالآيَة الأول، يعني: أَعلَم بِمَن يَقْبَل الهداية، فيهديه.

والجمع بَينَ هَذِهِ الآيَةِ، وَبَينَ الآيَة الَّتي أَشَـرنَا إِلَيهَا قَبلَ قليل، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أَنَّ المُثْبَـتَ غيرُ المنفي، فالمراد مِن قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ هداية الدَّلَالة، كَقَولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، هديناهم معناه: دَلَلْنَاهم عَلَى الهُدى، ولكنهم استَحَبُّوا العمى عَلَيه، فَلَم يَهْتَدُوا، وأَمَّا الهداية هنا، فهي هدايةُ التوفيق، وهذه لَيسَت لأَحَد، مَا هيَ إِلَّا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من فوائد الآية الكريمة:

أنَّ الإنسَان إذَا جَدَّ واجتَهَد في دَعوَة النَّاس إلَى الهُدَى، فَلَمْ يَهْتَدُوا، فَإنَّ عَلَيه أَنْ يَتْلُـوَ هَذِهِ الآيَـةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإلا فَكَثِيـرٌ مِـنَ النَّاس الآن عندهم أقاربُ؛ إمَّا مَعَهم في البيوت، أو خارِجَ البيوت، يَدْعُونَهم إلَى الهـدَى فلا يهتدون، فنقول: الحمد لله أَنْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّ هَذَا الأَمرَ ليس إلينا، إنَّمَـا هُوَ إليه، إنِ اهْتَدَوْا، فلَهُم ولنا ثوابُ دَلَالَتِهم، وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا، فلنا ثوابُ الدَّلَالَةِ والدعوة، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ.

• • ۞ • •

الآيــة (٥٧)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القَصَص:٥٧].

•••

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قَوْمُهُ ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا﴾ يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الْإِغَارَةِ وَالْقَتْلِ الْوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضٍ «تُجْبَى» بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ﴿رِّزۡقٗا﴾ لَهُمْ ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ عِنْدَنَا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أَنَّ مَا نَقُولُهُ حَقٌّ].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ قَالَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [قَوْمُهُ] أي: قوم الرَّسول ﷺ، وَهُم قُـرَيش، ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ وَهـذَا القَولُ كَذِبٌ منهم، سواء قالوا ذَلكَ عَن عقيدَة، أَو عَنِ غيرِ عقيدَة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ المَعِيَّة هنا للمُصاحَبة والتَّبَعِيَّة، يعني: إِنْ نَتَّبع الهدى، ونَكُنْ مَعَك فيما تَدعو إِلَيْه.

والمراد بالهُدى مَا جَاءَ به الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وفي قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ﴾ إقـرارٌ بأَنَّ مَا مع الرَّسول ﷺ هُـدًى،

وهذا غريبٌ منهم أَنْ يَقُولُوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾، فيعترفوا بأنه هُدًى، ثُمَّ بعدَ ذَلكَ يكفروا.

قوله تعالى: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ نُنْتَزَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ]. والخطفُ: نَزْعُ الشَّيْءِ بسرعة: أي: يَتَخَطَّفُنا النَّاس، ويكونون علينا؛ لأَنَّنا خالفنا مَا كَانوا عَلَيه مِنَ الشِّرك والأوثان، فهُم يَقْضُون علينا بسرعة، وَهَذَا كَقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥].

فالشَّيْطانُ يُخَوِّف المُؤمِنينَ بالكُفَّارِ، يقول: ترى إِنْ آمَنْتُم حَصَل كَذَا وَكَذَا، إِنْ تَمَسَّكْتُم بِدِينِكم حَصَلَ كَذَا وَكَذَا، إِنْ أَلْزَمْتُمُ النَّاسَ باتِّبَاع الإِسْلام؛ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، ثار النَّاس عَلَيكم، فالنَّاسُ ثَلاثَةُ أرباعِهم يريدون الفُسوق، وَأَنتم إذا أَلْزَمْتُمُوهُم بالدِّين؛ فإنهم يَثُورُون عليكم.

وهَذَا لَا رَيبَ يُلْقِيه الشَّيطَان في قلوب النَّاس، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

ولكن الوَاجب عَلَينَا نَحوَ هَذَا المَقَام أَلَّا نخافَ ما دُمنا نرى أَنَّنا نَسِير عَلَى الحَقّ، بل نَعْلَمُ عِلم اليَقِين أَنَّنا لو صِرنا عَلَى الحَقّ لَخَافَنَا النَّاسُ، وَلَمْ نَخَفْ منهم، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨٢]، الأَمنُ مِنَ الخَوف، لَا مِنَ الله، وَلَا مِن غيرِه، يعني: لَا يَخافونَ عِقاب الله؛ لأَنَّهم آمَنوا إيمانًا صريحًا مَا لَهُ سَبَب، وَكَذَلكَ أَيْضًا يُؤَمِّنُهم اللهُ ممَّا يخافون، وَهُوَ أَحَدُ التفسيرين في قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]، وَهُوَ أَنَّ المؤمنَ هُوَ الَّذي يُؤَمِّنُ عِبادَه الطائعين له مما يخافون.

لَكن هَذَا يتطلب في الواقع إيمانًا حقيقيًّا؛ فَإِذَا وُجِدَ الإِيمان الحقيقي، ثم نُفِّذَت

الشريعة؛ فأنا ضامِنٌ أَنْ يَحصُلَ الأمنُ التامُّ.

والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، أي: نَجعل لهم مكانًا آمِنًا، وَمِثلَ قَولِه تعالى: ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج:٤١]، أي: جعلنا لهم مكانًا يتمكنون فيه.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ الهَمْزَةُ هُنا معناها التَّقريرُ، أي: قَدْ مَكنَّا، كَما في قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قد شرحنا لك.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعُلماء النحو في هَذَا الأسلوب مذهبان:

المذهب الأول: أَنَّ الهَمْزَة داخلة على شيء مُقَدَّر، والواو، أو الفاءُ حَرْفُ عَطْفٍ عَلَى ذَلكَ المُقَدَّر.

والمذهب الثَّاني: أَنَّ الهمزة بَعْدَ الواو محَلّها، لكن قُدّمت؛ لأنَّها للاستفهام، وأصلها (وَألم).

وقوله: ﴿حَرَمًا﴾ على وزن: بَطَل، فهو صِفَةٌ مُشَبَّهَة، أي: مِن الحُرمة، يعني: مكانًا حَرَمًا ذا حُرمة، ولا رَيْبَ أَنَّ مَكَّةَ المكرمة لها حُرمة عظيمة في نفوس النَّاس، حَتَّى في الجَاهِلية.

وقوله: ﴿ءَامِنًا﴾ اسمُ فاعل، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنَ الإِغَارَةِ وَالقَتْلِ الوَاقِعَيْنِ مِنْ بَعْضِ العَرَبِ عَلَى بَعْضٍ] فَجَعَل معنى ﴿ءَامِنًا﴾ أي: آمِنًا أهلُه، وفَسَّرَهُ بقوله: [يَأْمَنُونَ]، فيكون المَعنَى: آمِنًا أهلُه.

وعندي أَنَّ الوصفَ هنا للحَرَمِ؛ لأن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَرَى أَنَّه وصفٌ سَبَبِيٌّ، وَأَنَا أَرَى أنه وصفٌ حقيقي.

والنَّعْتُ قَدْ يَكون نَعْتًا سببيًّا، أو نَعْتًا حقيقيًّا، فالنعتُ الحقيقي هو مَا كَانَ صِفة للمنعوت، والسببيُّ هو مَا كَانَ صِفَةً لغيره مما يتصل به، فإذا قلت: عندي رَجُلٌ صائم. فهذا نعتٌ حقيقي، وإذا قلت: عندي رَجُلٌ صائِمٌ أَبُوه. فهذا النعتُ سببيٌّ؛ لأن الوصف قائم، وهو يَعُود عَلَى مَن له صِلة به.

ولذلك فأنا أرى أَنَّ الحَرَم هو الآمِن، وإذا أَمِنَ المكانُ -بلا رَيْبٍ- فسوف يأمن مَن فيه، فلا يَعْتَدِي أَحَدٌ عليه، حتَّى مَن أرادَهُ بِسُوء أَتْلَفَه اللهُ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

فالعربُ أنفسُهم معَ كُفرهم، ومَهْمَا فَعَلَتْ قُريش لَا يُمكن أَنْ يَغْزُوا هَذَا البَيت أبدًا.

ثُمَّ إِنَّ أهلَ هَذَا البَيت هُم سادةُ العَرب، حَتَّى فِي الجَاهليَّة، فكيف يقولون: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾؟ هذا غَيرُ ممكن؛ لأن الحَرَمَ آمِنٌ، فَهُم آمنون فيه، لا يمكن أَنْ يُتَخَطَّفُوا فيه.

ثم مَعَ ذَلكَ هذا البلدُ مع كونه آمِنًا، هو أَيْضًا عَيْشٌ رَغْدٌ، ما يلحقُ أهلَه ضِيقٌ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ]، فتكون ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، و«تُجْبَى»[1]، وهُما قراءتان سَبْعِيَّتان، ومعنى ﴿يُجْبَىٰٓ﴾ أي: يُجمَع، وبمعنى يُؤتَى أيضًا، فالثمرات تُجمَع مِن كل أرض، ويُؤتَى بها إِلَى هَذَا البلد، وَهَذَا هُوَ الواقع، قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [إبراهيم:٣٧]، فكانت الثمرات تأتي إِلَى هَذَا البَلَد في كُلِّ أوانٍ مِن المكان القريب، كالطائف وغيره، ومِن المكان البعيد.

قوله تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [رِزْقًا لَهُمْ].

ومعنى الرزق: العَطاء، وهو منصوبٌ لأَنَّهُ مفعولٌ مِن أَجْلِه، أو مَصدر، أو مفعولٌ مُطلَق؛ لقوله ﴿يُجْبَىٰٓ﴾، يجبى عطاء.

وقوله: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: مِن عِنْدِنا، وليس لهم به حَوْلٌ، ولا قُدرة، بل الأمر مِن الله عَزَّوَجَلَّ، هُوَ الَّذي جَعَل هَذِهِ الثمراتِ تُجبى إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ].

المعلوم هنا محذوف في الآيَة، فَلَمْ يَقُل: لَا يَعلَمونَ كَذَا وَكَذا، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ خَصَّه بقوله: [﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾: أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ]، وعندي أَنَّ الأمرَ أَعَمُّ وأَشْمَلُ؛ لأن حَذْفَ المفعول يَدُلُّ عَلَى العُموم.

فعليه نقول: لَا يَعلَمونَ أَنَّ مَا تَقُولُه حَقٌّ، ولا يعلَمُون العاقبةَ أيضًا؛ فإن العاقبةَ أَنَّه إذَا كَانَ هَذَا الحَرَمُ آمِنًا في حَالِ الكُفر، وتجبى إليه الثمرات في حَال الكفر؛ فما بالُك في حَال الإيمان، كيف وَقَد قَالَ إبراهيم: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦].

فَإذَا كَانَ أهلُ هَذَا البَلَدِ مؤمنين؛ فإنَّ أَمْنَهُ يكون أَشَدَّ مِن جِهة أَنَّ المكان نَفْسَهُ آمِن، ومِن جِهَة أَنَّ المؤمن الذي في هَذَا المكان آمِن أيضًا، فإذا كَانَ هَذَا الأمنُ، مع كون هَؤُلَاء مِنَ المشركين؛ فإنهم إذا كانوا مؤمنين يكون أكثرَ، ولهذا لَمَّا حَصَلَ مِن المسلمين مَا حَصَلَ مِنِ انْتِهاكِ هَذَا البَلَدِ العظيم؛ سُلِّطَ عليهم مَنْ سُلِّطَ مِنَ الظَّلَمَة،

مِثل قضيةِ القَرامِطَة، ومِثل ما سيكون في آخِر الزَّمان، حيث يُسَلَّطُ على البيتِ رَجُلٌ مِنَ الحَبَشَة، قال النَّبيُّ ﷺ: «كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا»[1].

فقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليس خاصًّا بأنَّ مَا جَاءَ به هُوَ الحَقُّ، بَل هُوَ عامٌّ حَتَّى في النهاية، وفي الغاية مما لَوْ آمَنوا.

• ● ❁ ● •

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب هدم الكعبة، رقم (١٥٩٥).

الآيــة (٥٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ عَيْشَهَا، وَأُرِيدَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لِلْمَارَّةِ يَوْمًا، أَوْ بَعْضَهُ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ مِنْهُمْ].

هذه فائدةُ ذِكر إهلاك القُرى السَّابِقة لأَجْل أَنْ يُقالَ لقريش: الكفر لا يَمنع الخوف، ولا يَمنَع العقوبة، بل إنَّهُ سبب العقوبة، فأنتم تقولون: إننا إذا آمنا تَخَطَّفَنا النَّاس. هذا ليس بالحقيقة، بل العكس هُوَ الحَقيقة، وَلهَذَا قَالَ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾، فكأن الله يُدَلِّل لتكذيب هؤلاءِ بأن الكفر أهلكَ الأُمَم السَّابقَة التي بَطِرَت معيشتَها.

وقد أبطل اللهُ كلام هَؤلَاء الكُفَّار للرسول ﷺ، لما قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أبطله بالسلب والإيجاب:

أما الإيجاب: فقال: إننا مَكَّنَّا لهم حَرَما آمِنًا لَا يُمكن أَنْ يَكُونَ هَذَا البَلَدُ خائفًا، فَإذَا كَانَ آمِنًا في حَال الكُفر فَفِي حالِ الإِيمان مِن بَاب أَوْلَى.

وأما السلب: فقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾،

فالكُفر لا يُؤَمِّن صاحبَه، بَل هُوَ السَّبَب في إهلاكه، فبقاؤكم عَلَى الكفـر ليس هُوَ الَّذي يُنَجِّيكُم مِن أَنْ يَتَخَطَّفَكُم النَّاس، بَل هُوَ سبب هلاككم، وَهَذَا هُوَ الواقع؛ حيث خرَج صَنادِيدُ قريش وزعماؤهم إِلَى بَدْر لِيَهْلِكُوا، والحَرَمُ آمِنٌ، فما جاء شيء، لكنَّهم هُم الذين خرجوا لهلاكهم، فقُتِلُوا في بَدْرٍ.

• • ۞ • •

الآيات (٥٩-٦٤)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص:٥٩-٦٤].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ بظُلْم مِنْهَا ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا ﴾ أَيْ أَعْظَمِهَا ﴿أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ بتكْذِيبِ الرُّسُل، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تَتَمَتَّعُونَ وَتَتَزَيَّنُونَ بِهِ أَيَّام حَيَاتِكُمْ ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أَيْ ثَوابه ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتَّاءِ وَالْيَاء أَنَّ الْبَاقِي خَيْر مِنْ الْفَانِي، ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ وَهُوَ مُصِيبه وَهُوَ الْجَنَّة ﴿لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَيَزُول عَنْ قَرِيب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ أَيْ إِلَى النَّار الْأَوَّل الْمُؤْمِن وَالثَّانِي الْكَافِر أَيْ لَا تَسَاوِي بَيْنهمَا، ﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ الله ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ تَزْعُمُونَهُمْ شُرَكَائِي، ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بِدُخُولِ النَّار وَهُمْ

رُؤَسَاء الضَّلالَة ﴿الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ مُبْتَدأ وصِفَة ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ﴾ خبَره فغَوَوْا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ لَمْ نُكْرِهُهُمْ عَلَى الْغيّ ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ تبرَّأْنا إِلَيْكَ مِنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مَا نَافِيَة وقدَّمَ المَفْعُول لِلْفَاصِلَةِ، ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيْ الأَصْنَام الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاء الله ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أَيْ لِدُعَائِهِمْ ﴿وَرَأَوُا﴾ هُمْ ﴿الْعَذَابَ﴾ أَبْصَرُوهُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا لِمَا رَأَوْهُ فِي الآخِرَة].

من فوائد الآيات الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بَيَانُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ شُركائهم شيئًا هُم أحوجُ ما يكونون إليه، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهارُ عَدْلِ الله.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: التوبيخ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّ فِي هَذَا -لَا شَكَّ- توبيخًا وتقريعًا لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَمْرُ اللهِ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَدْعُوا شركاءهم فِي الْآخِرَةِ لَيْسَ مِنْ بَابِ التَّكْلِيفِ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ التحدِّي، وإظهارُ عجز هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إثباتُ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ؛ لقوله: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الاهتداء هُوَ السَّبَبُ الْمَانِعُ مِنَ العذاب؛ لقوله: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، فإذا أردتَ سببًا يُنجيك مِنْ عَذَابِ اللهِ، فعليك بالاهتداء بهَدْيِ اللهِ -أو بهُدى اللهِ- فَإِنَّهُ هُوَ السَّبَبُ الَّذِي يُنجِي مِنْ عَذَابِ اللهِ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٥)

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصص:٦٥].

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُـرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إِلَيْكُمْ].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، قوله: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من ناحية الإعراب، (ما) استفهامية، و(ذا) اسمُ موصولٍ، أي: (مَا الَّذِي أَجَبْتُمْ)، و(أَجَابَ) فِعْلٌ ماضٍ، والتاءُ فاعِل، والميم علامةُ الجمع، و﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مَفعُـول به، وجملة ﴿أَجَبْتُمُ﴾ صِلة الموصـول، والموصـولُ خَبَـرُ المبتدأ، وهو (ما) الاستفهامية.

والشاهدُ عَلَى هَذَا الإعراب مِن كَلَام ابن مالك[1]:

وَمِثْلُ (مَاذَا) بَعْدَ (مَـا) اسْـتِفْهَامِ ... أَوْ (مَــنْ) إِذَا لَمْ تُلْـغَ فِي الْكَـلَامِ

قولُ الناظم: (إِذَا لَمْ تُلْغَ) معناه يُشير إلى وجهٍ آخَر، وهو إلغاؤها في الكَلَام، وعليه نَجْعَلُ ﴿مَاذَآ﴾ كُلَّها اسمَ استفهامٍ، وتكون هي المبتدأ.

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾ ذكرنا أَنَّه في السؤال الأول:

---

(١) ألفية ابن مالك (ص١٥).

﴿أَيۡنَ شُرَكَآءِیَ﴾ سأل عن التوحيد، وهذا سَأَلَ عَنِ الرِّسالَة، فيكون المسئول عنه الآنَ شهادة أَن لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ محمَّـدا رَسُولُ اللهِ، أو عيسى أو موسى، حَسَـب الأُمم التي تسأل.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ مَرَّ بنا في الآيات السَّابِقة عند قوله: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِیَ﴾ إِثْبَاتُ كَلَامِ اللهِ، وأَنَّه بصوتٍ، وأنه يُسمَع، وأنه بِحَرْفٍ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أَنَّ النَّاسَ يُسألون عن إيمانهم بالرُّسُل، كما يُسألون عن التوحيد.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ السُّؤَالَ فِي الْآخِـرَةِ عامٌّ لجميع الخَلق، فقوله: ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يشمل: محمدًا ﷺ وغيرَه، أمَّا السُّؤَالُ فِي الْقَبْرِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلى أَنَّهُ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا»(١)، وقوله: «أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ»(٢).

والمسألة خلافية، وسبق الكلام عَلَيْهَا فِي التَّوْحِيدِ، إنَّما يَوْمَ الْقِيَامَةِ السؤال عامٌّ بِنَصِّ الْقُرْآنِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إظهار فضل الرُّسُل -عليهم الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-؛ حيث أثبتَ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه، رقم (٢٨٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، رقم (٨٦)، ومسلم: كتاب الكسوف، باب ما عُرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف، رقم (٩٠٥).

اللهُ تعالى أحقيَّةَ رسالتِه فِي هَذَا الموطن العظيم.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعمَى عليهم الأنباء فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْ كَانُوا عَالِمِينَ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ الميِّتَ إِذَا سُئِلَ فِي قَبْرِهِ: مَن ربُّك؟ وما دِينُك؟ ومَن نبيُّك؟ وَلَوْ كَانَ عَالِمًا؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ غَيْرَ مؤمن لا يجيب بالصَّواب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا يُغْنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ فإنَّ أَحَدًا لَا يُغْنِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ولا يُنقذه مِمَّا وَقَعَ فِيهِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ عامٌّ لكلِّ المشركين، وَلِهَذَا قَالَ بعدها: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾، أما المؤمنون، فإنهم مؤمنون لا يُسألون، بل يَكفِي سؤالهم فِي قُبُورِهِمْ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٦)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [القَصَص:٦٦].

• • ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الْأَخْبَارُ الْمُنْجِيَةُ فِي الجَوَابِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لَمْ يَجِدُوا خَبَرًا لَهُمْ فِيهِ نَجَاةٌ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ عَنْهُ فَيَسْكُتُونَ].

قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: انْطَمَسَتْ عليهم، فلم يَجِدُوا جوابًا، يعني: طلبوا شيئًا ما وجدوه.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: عَن هَذِهِ الأخبار، وعن الجواب، إمَّا لِعَجْزِهِم، وعَدَمِ تَمَكُّنِهم، أو لأنَّهم لَوْ سألوا ما وجدوا الخبر.

وقال بعضُهم: إنَّ معنى ﴿لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: لا يَتَنَادَوْنَ في القَرابـة، كما كانوا يفعلونه في الدُّنيا، إذا ضاقت على الإِنْسان الحِيَل صارَ يُنَادِي قرابَتَهُ واقَرابَتَاه! وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ، وهناك في الآخرة ما يطلبه.

وإعراب قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: (يوم) منصوب على الظرفية، و(إِذ) مُضافٌ إليه، والتنوينُ فيها عِوَضٌ عن جُملة.

• • ● • •

الآية (٦٧)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَءَامَنَ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللهِ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾: (أَمَّا) شرطية، وجوابُها قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وقوله: ﴿مَن تَابَ﴾ التوبة تقدَّم لَنَا أَنَّهَا الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ معصيته إِلَى طَاعَتِهِ، وأن لها شروطًا خمسة: النَّدَم، والإقلاع، وَالْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يعود، وَأَنْ تَكُونَ قَبْلَ المَوْتِ، وقبل طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، ثم الإخلاص.

وقول المُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ] لعلَّه أَوْجَبَ لَهُ أَنْ يُقيِّد التوبة هنا بالتوبة مِنَ الشِّرْكِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَامَنَ﴾؛ لأن الإيمان بعد الشرك؛ فإن العاصيَ مؤمنٌ، وَلَوْ كَانَ عَاصِيًا، فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ للمؤلف أَنْ يقيِّد التَّوْبَةَ مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَءَامَنَ﴾ صدَّق بِتَوْحِيدِ اللهِ]، وهذا نقصٌ فِي تَفْسِيرِهِ للإيمان؛ لأن الْإِيمَانَ لَيسَ هُوَ التَّصْدِيقَ فِي الشَّرْعِ فقط، صحيحٌ أَنَّ الْإِيمَانَ فِي اللُّغَةِ يُرَادُ بِهِ التصديق، لكنه فِي الشَّرْعِ هو: التصديق بِشَرْطِ أَنْ يتضَمَّن القَبُول والإذعان،

فَلَا بُدَّ مِنْ قبولٍ وإذعانٍ، وإلَّا فليس بمؤمن لَا يُصَدِّقُ، فأبو طالب -مثلًا- مصدِّق برسالة الرَّسُولِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ كَافِرٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ، ولم يُذعِن.

وَفِي قَوْلِهِ هَذَا كَذَلِكَ سُقوط؛ لأن الْإِيمَانَ لَيْسَ أن تصدِّق بوحدانية الله، لكن أن تصدِّق بِكُلِّ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْإِيمَانَ «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، فَلَا بُدَّ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ الستة فِي الْإِيمَانِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَدَّى الفَرَائِضَ]، وَفِي هَذَا أَيْضًا قُصور، بل الْعَمَلُ الصَّالِحُ هنا يشمل الفرائض والنوافلَ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص والمتابعة؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، فقوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ هذا الإخلاص، و﴿حُنَفَآءَ﴾ هذه المتابعة؛ لأنَّ الحَنِيف هُوَ الَّذِي لَيْسَ بمائل، فَمَنْ خَرَجَ عَنِ المتابعة فهو مائل.

فالعمل الصالح إذن هو كُلُّ عَمَلٍ تضمَّن الإخلاص والمتابعة، وضدُّه الفاسد، وَهُوَ الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَى الشِّرْكِ أو على البدعة، فَهَذَا لَيْسَ بعملٍ صالحٍ، فمَن جمع هَذِهِ الْأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾: (عسى) مِن أفعال الترجِّي، لكنَّها بالنسبة للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا تَكُونُ للترجِّي، بل تكون للتَّعليل، وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «عَسَى مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ»[2]. لِأَنَّ الْعِلَّةَ ملازمة للمعلول، فَإِذَا وُجِدَتِ العلة ثبَتَ المعلول، فالعلة لِلفلاح هِيَ التَّوْبَةُ والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، فإذا وُجِدت هذه وُجِد الفلاحُ ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ، رقم (٥٠)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو، رقم (٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٩١).

قَوْلُه تعالى: ﴿أَن يَكُونَ﴾، أي: الَّذِي تَابَ وآمن وَعَمِلَ صَالِحًا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللهِ] أي: الناجين بما وعدهم اللهُ بِهِ، ولكنَّ الفلاح لَيْسَ كَمَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه النجاة فقط، بل النَّجَاةُ مِنَ المرهوب، والفوز بالمطلوب، أي: أَنْ يَنْجُوَ الإِنْسَانُ مِمَّا يهرب، وأَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا يُحِبُّ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ لَوْ قُلْنَا إِنَّهَا للترجِّي -مثلًا- لتضمنت فائدة، وَهِيَ أَنَّ الإِنْسَانَ، وإنْ عَمِلَ هذا العمل، فليكن راجيًا للفلاح لا قاطعًا به؛ لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي: قَدْ تَكُونُ هناك موانعُ، أو خلل لَا يَحْصُلُ معه الفلاح، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا المقام ليس مقامَ جزمٍ، بَلْ هُوَ مَقَامُ رجاء.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا فضيلةُ هَذِهِ الأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ: التوبة، والإيمان، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الأَوْصَافَ الثَّلَاثَةَ سببٌ للفلاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن الفلاحَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ لَا يَنالُهَا إِلَّا ذَوُو الأوصاف الحميدة: التائبون المؤمنون العاملون صالحًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْعَمَلَ لَا يَنْفَعُ إِلَّا إِذَا كَانَ صالحًا، وَهُوَ مَا جَمَعَ شرطين -كَمَا سَبَقَ- الإخلاص والمتابعة لِلرَّسُولِ ﷺ.

• • ۞ • •

الآيــة (٦٨)

• ● ◌ ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

• ● ◌ ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاِخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

هَذِهِ الْآيَةُ تعليل لبُطْلان آلهة المشركين، وإثبات الأُلُوهِيَّة لله، وذلك عَنْ طَرِيقِ إثبات الخَلق؛ فإنَّ الخالق هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، فَإِنَّ هَذَا الْوَصْفَ تعليل للأمر، فإنَّ الخالق يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْإِلَهَ المعبود، كَما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢٠-٢١]، فإذا كَانُوا لَا يَخْلُقون فكيف يستحِقُّون أَنْ يُعْبَدوا؟ وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٤٢]، هنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لإلزام هؤُلاءِ المشركين بعبادته وحده.

وقوله: ﴿يَخْلُقُ﴾ الخَلْق: هو الإبداع المَبْنِيُّ عَلَى التَّقْدِيرِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُقَدِّر، ثم يَخْلُق، فخلْقُه مَبْنِيٌّ عَلَى الحكمة.

قوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَنْ يَشَاءُ، مَعَ أَنَّ المخلوقات فِيهَا مَا هُوَ عاقل، ولكنه تغليب لغير العاقل؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ، ثُمَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يشمل الأعيان والأوصاف، والأوصاف لَيْسَتْ مِنَ الْعُقَلَاءِ، وإذا رويت الأوصاف أُتِي بـ(ما).

وانظروا إِلَى قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣]، وَلَمْ يَقُلْ: مَن طاب، مَعَ أَنَّ المنكوح عاقل، لَكِنَّهُ لَمَّا كَانَتِ المرأة تُنكح لِصِفَاتها قال: ﴿فَأَنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ يعني: راعُوا الصفة.

فهنا قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ عَبَّر بـ﴿مَا﴾ تعبيرًا لغير العاقل؛ لكثرته، ولِيشمل الأعيان والأوصاف، فَاللهُ تعالى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: الأعيان والأوصاف.

ولهذا فإن مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبد، ولأفعال العبد، الَّتِي هِيَ أوصافُه، فَاللهُ تعالى ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿مَا يَشَآءُ﴾ أي: مَا يَشَاءُ خَلْقَه، فالمفعول إذن محذوفٌ، وهذه المشيئة كُلُّ مَا ذَكَرَ اللهُ تعالى عَنِ فَعَلَ مَنْ أفعاله أنه تابعٌ للمشيئة؛ فإنه مقرونٌ بالحكمة؛ لِأَنَّ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تعالى الحكيم، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا عَبَثًا، وَلَا يَحْكُمُ بشيء عبثًا، كُلُّ مَا شَاءَهُ فهو مقرون بحكمة.

وقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، أي: يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ، والاختيار الأخذُ بخيرِ الأمرين، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا يأخذ بِمَا يَراهُ خَيْرًا مِنْ أَفْعَالِهِ وأحكامه، فَتَصْوير الخَلق عائدٌ لأصل التكوين، والاختيار عائد للتعيين المَبْنِيِّ عَلَى الْإِرَادَةِ التامَّة، فَهُوَ لَا مُعقِّبَ لحُكمة، ولا رادَّ لقضائه، فيختار مَا يُرِيدُ عَزَّوَجَلَّ، يخلُق الآدميَّ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، واختار أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وخَلَق البهيمة المركوبة، وَاخْتَارَ أَنْ تَكُونَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شرعُه كذا -وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مخلوقًا- عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

فإذن: الاختيار أعمُّ مِن الخَلْقِ مِنْ وجهٍ؛ حيث يشمل المخلوقَ، وغيرَ المخلوقِ، فهو يختار سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَا يُرِيدُهُ مِن شرع، أي: أَعَمُّ مِن هَذَا الْوَجْهِ، وأما الخَلْقُ فإنه أَعَمُّ مِن حَيْثُ إِنَّهُ يشمل الأعيانَ والأوصافَ.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿مَا كَانَ لَهُمُ﴾ للمشركين ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ الاختيار].

قوله: ﴿مَا كَانَ﴾: ﴿مَا﴾ هُنَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهَا اسْمٌ موصول، أي: يَخْتَارَ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيـرة، وَمَا يَكُونُ فِيهِ خَيْـرٌ لَهُمْ، وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصول بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لِأَنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ، وَهَذَا الْقَوْلُ ذَهَبَ إِلَيْهِ المعتزلة الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأفضل، أو الصلاح، فقالوا: إِنَّهُ تعالى مَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا كَانَتْ فيه الخِيَرة، أَمَّا مَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ خِيَرة، فلا يختاره، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَزَّوَجَلَّ يَفْعَلُ مَا هُوَ أصلح، أَوْ مَا هُوَ صلاحٌ.

ولكنَّ أكثر المُفَسِّرين -وعلى رأسِهم ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- يقولون: إن (ما) نافية، وَكَمَا قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُٱللَّهُ: لَا يَكُونُ الخِيَرة لهـؤلاءِ المشركيـن، ولا لأصنامهم أيضًا، فأصنامُهم لا تخلُق ولا تختار، وَكَذَلِكَ هُمْ لَيْسَ لَهُمْ حقُّ الاختيار فِيمَـا أَرَادَ اللهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوَابُ، وَعَلَى هَذَا فيكونُ الوقفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، ثم الاستئناف بقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي لَهُ الِاخْتِيَارَ المطلق، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ خيرَةٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦]، فلا يختارون مِنْ أَمْرِهِمْ إِلَّا مَا اخْتَارَ اللهُ.

وهَلْ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأصلح والصلاح أَمْ لَا يَجِبُ؟

فنقولُ: أَنَّهُ وَاجِـبٌ عَلَيْهِ بمقتضى الحكمة، وليس بُمقتضى عقولنا؛ فَإِنَّ اللهَ

تعالى بمقتضى كونه حكيمًا مَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ صالح، أو أصلحُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَ مَا لَيْسَ بصالحٍ، ولا أصلح؛ لأنه حكيم، ولكن هل مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنا نحن نوجِب عَلَى اللهِ ونقول: هذا أَصْلَحُ مِنْ هَذَا، وَيَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ كذا؟ لا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَفْعَلُهُ وَقَدْ لَا نَعْلَمُ نحن بهذه الأصلحية، أو بوجه الصلاحية، فَلَا يَلْزَمُ أَنْ نَعْلَمَ.

وَكَمْ مِنْ أَشْيَاءَ نظن أَنَّ الحِكْمَةَ فِي مُخَالَفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، أَوْ مَا يَقَعُ قَدَرًا، وتكون الحِكْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِهِ اللهُ تعالى فِي قَدَرِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ عَلَى قَوْلِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: [الِاخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ]. فـ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ؛ لِأَنَّ كُلَّ كلمة تضمنت معنى المصدر دُونَ حُروفه فهي اسْمُ مَصْدَرٍ، ونظير الخِيَرَة الطِّيَرَة؛ فإن الطِّيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التَّطَيُّر، وهكذا الخِيَرَة اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى الاختيار.

قَوْله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَنْ إِشْرَاكِهِمْ].

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ اسْمُ مَصْدَرٍ بمعنى: التسبيح، والتسبيح: تنزيهُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمما لَا يَلِيقُ بِهِ:

- أن نُدخل عليه النقصَ: وَهُوَ مُنَزَّهٌ بِهَا عَنِ النَّقْصِ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١].

- ومشابهةُ المخلوقين ممتنعة عَلَى اللهِ، والنقص ممتنعٌ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعليه يكون ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهًا لله عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نقص، أو مشابهة المخلوقين؛ لِأَنَّهُ قَدْ تَكُونُ صفة كمال، فإذا شابه الله بِهَا صار نقصًا، وَقَدْ تَكُونُ المسألة لَيْسَ فِيهَا

مشابهة للمخلوقين إطلاقًا، وَلَا وَجْهُ شبه، أي: مِنَ الصِّفَاتِ الخاصة بالله.

فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ المماثَلة، وقال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨]، فَنَصَّ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [عن إشراكهم]، استفدنا مِنْ تَقْدِيرِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ أن (مَا) مصدرية، فيكون التنزيهُ عَنْ فِعْلِهِمَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ (ما) اسمًا موصولًا، ويكون العائدُ محذُوفًا، والتقدير: عما يشركونه به، فيكون مُنَزَّهًا عن الشركاء، الَّتِي هِيَ الأصنام.

وقوله: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ مَأْخُوذٌ مِنَ العُلُوِّ، لكنَّها تُفيد معنى التَّنَزُّهِ عَنِ العُلُوِّ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: ترَفَّع وتنزَّه بعُلوٍّ، فهي أَبْلَغُ مِن قولك: عَلا؛ لأن عَلا تُفيد العُلُوَّ، لَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ يفيد مع العُلُوِّ التَّنَزُّهَ والتحاشيَ عما يشركونه به، أَوْ عَنْ إشراكهم به.

ولما بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عموم خَلْقِه، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي لَهُ الاختيارُ المطلقُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ اختيارٌ، فالاختيارُ لَهُ وَحْدَهُ، ذَكَرَ أَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ لِأَنَّ مَنْ لَا اخْتِيَارَ له طبعًا لا خَلْقَ لَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى قَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ؛ لِأَنَّ مَنْ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّهُ قَادِرٌ، فكيف يريد يخلُقه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ الإرادة للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، والإرادةُ هُنَا إِنْ نَظَرْنَا إِلَى قَرنها بالخَلق، قلنا: هي الكونية، وإِنْ نَظَرْنَا إِلَى لفظها بقَطْع النظر

عن اقترانها بالخلق، قلنا: إنها شاملة للكونية وللشرعية؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يختار كونًا وشرعًا مَا يَشَاءُ، وَهَذَا أَوْلَى العموم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ له، وقد تمسَّك بهذا الجَبْرِيَّة؛ لقوله: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، فقالوا: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَا لَهُ اختيار، وأنه مُجْبَرٌ عَلَى فِعْلِهِ.

والجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ المطلَقَة، يعني: الَّتِي تَكُونُ بِدُونِ الله، فالله يختارُ وهُم يختارون، وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا آياتٌ كثيرة، وأحاديثُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ إِرَادَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير:٢٨].

فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أثبتَ للإنسان مشيئةً، وأثبتَ لَهُ إِرَادَةً، والواقع يَشْهَدُ بِذَلِكَ، والإنسان يُفَرِّقُ بَيْنَ الفعل الاختياري، والفعل غير الاختياري، فالإنسان إِذَا نَزَلَ مِنَ السطح بالدَّرَج فنزولُه اختياري، وَلَكِنْ إِذَا دَفَعَهُ أَحَدٌ مِن أعلى الدَّرَج فتدحرج، فنزولُه غير اختياري.

والنفيُ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ مُسَلَّط هُنَا عَلَى الْخِيَرَةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي لَا تُعَارَضُ، هَذِهِ لَيْسَتْ للإنسان، بَلِ الْإِنْسَانُ مُدبِّر، وَلَهُ إِرَادَةٌ، وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ نفيًا لمطلَق الخِيَرة، فَهَذَا لَا يُمْكِنُ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ والواقعَ يشهدان بأن للإنسان خِيَرة، والعلماء يقولون فِي كَثِيرٍ مِنَ الكفارات: يُخَيَّرُ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: انفراد اللهِ عَزَّوَجَلَّ بالإرادة المطلَقة، فلا مُعَقِّبَ لحُكمه، ولا رادَّ لقضائه.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: تنزيه اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ؛ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: تَعَالِيه وتنزُّهه عَنْ هَؤُلَاءِ المشركين، سواءٌ قَدَّرْنا (ما) مَصدريَّة، أو قَدَّرْنَاها موصولةً، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُتعالٍ عَنِ الْمُشْرِكِينَ: عن أصنامهم، وعن شِركهم.

• • ❁ • •

الآيـة (٦٩)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القَصَص:٦٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ الخطاب فِيهَا، وَفِي الَّتِي قَبْلَهَا إِمَّا لِلرَّسُولِ ﷺ، وإما لِكُلِّ مَنْ يَصِحُّ تَوْجِيهُ الْخِطَابِ إِلَيْهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [تُسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ].

قوله تعالى: ﴿تُكِنُّ﴾ بمعنى: تُسِرُّ وتُخفي، وقوله: ﴿صُدُورُهُمْ﴾ أي: قلوبهم، وإنما عبَّر بالصُّدور؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ فيها، والقلب متصلٌ بالصَّدر، ولهذا فالصدرُ هو المُكِنُّ للقَلبِ الساترُ له، وَمَا فِي الْقَلْبِ أَيْضًا مِنَ الأشياء المستورة، فَاللهُ تعالى يعلمه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [مِنَ الكُفْرِ وَغَيْرِهِ] صحيح، فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا فِي الْقَلْبِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، فقوله: ﴿تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ أي: تُحَدِّثُ بِهِ، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ يَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُ أنت أيضًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَلْسِنَتِهِمْ مِنْ ذَلِكَ].

قوله: ﴿يُعْلِنُونَ﴾ أي: يُظهِرون، وتخصيص المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإظهارَ بالألسُن فيه قُصُور؛ لأنَّ الإعلام قَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الْجَوَارِحِ، فقَدْ يَكُونُ بِاللِّسَانِ فيتكلم، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِهِ مِنَ الجَوَارِحِ، فيفعل بيديه أو قدميه أو عينيه، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، فهو أعمُّ مِمَّا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِي هَذَا إثباتُ العِلم لله، وأنه شامِل لما يُسَرُّ، وَمَا يُعْلَنُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحذير والتَّرغيب، تحذير الْإِنْسَانِ أَنْ يُضمِرَ، أَوْ يُعلن سُوءًا؛ لِأَنَّ اللهَ يَعْلَمُ بِهِ، وترغيبُه فِي أَنْ يُضمِرَ، أَوْ يُعْلِنَ خيرًا؛ لِأَنَّ اللهَ يعلمه، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا أُضمِر مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَنْ يَضيع، فَهُوَ مَعْلُومٌ كَمَا قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي آيَاتٍ كثيرة أَنَّهُ يَعْلَمُ، ويُخبر يَوْمَ الْقِيَامَةِ عمَّا عَمِل هؤُلاءِ.

• • ۞ • •

الآيـة (٧٠)

• • ● ∞ ● • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القَصص:٧٠].

• • ● ∞ ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ الدُّنْيَا ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ].

قَوْله: ﴿وَهُوَ﴾ الضَّمير يَعُودُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَرَبُّكَ﴾ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، أي: وذلك الرب الَّذِي يَخْلُقُ، وَالَّذِي يُعْلَمُ هُوَ اللهُ.

قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ أصلها (الإله)، حُذِفَت الهمزةُ تخفيفًا؛ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ، كَمَا فِي (أُنَاسٍ)، خُفِّفت فصارت (ناس).

ومعنى الإله: المألُوه، وليست بمعنى آلِهٍ، مِثل غِراس، بمعنى: مَغروس، والبناء بمعنى: مَبني، وفِراش بمعنى: مفروش، وأمثلتها كثيرة.

ومألوه أي: معبودٌ، وسُمِّيَ المعبود مألوهًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَأْلَهُهُ، أي: يَمِيلُ إِلَيْهِ، وتجدون أن (آلِه) مُوافقة فِي الِاشْتِقَاقِ الأصغر لأَهْل؛ إِذْ إِنَّ فِيهَا الْهَمْزَةَ وَالْهَاءِ واللام، ففي الأُلُوهِيَّة -وهي العبادة- نَوْعٌ مِنَ التَّأَهُّلِ والاطمئنان؛ لأن الآلِهَ له مطمئن إليه.

قال المتكلمون: إنَّ الإله بمعنى الآلِه، أي: الْقَادِرُ عَلَى الاختراع، يعني: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، لكنهم يستخدمون تعبيرات فلسفية: الْقَادِرُ عَلَى الْخَلْقِ، فلو فسَّرنا الإله

بمعنى: الْقَادِرِ عَلَى الْخَلْقِ، لكان المشركون الَّذِينَ قَاتَلَهُمُ النبي ﷺ مُوَحِّدين؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لا خالقَ، ولا قادِرَ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا اللهُ، ولا رَيْبَ أَنَّ هَـذَا يُؤَدِّي إِلَى إِبْطَالِ الرِّسالَة والتوحيد.

ومِن ثَمَّ نعلم خطأ بعضِ المؤلفين الْآنَ فِي التَّوْحِيدِ، حيث يُرَكِّزون عَلَى تَوْحِيدِ الربوبية، ويتناسَوْن توحيد الأُلُوهِيَّة، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ؛ لأنَّ التوحيد ليس الإقرارَ بالخالق، والاعتراف بِهِ فَقَطْ؛ إِذْ إِنَّ هَذَا حاصِلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ استباح النَّبِيُّ ﷺ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، لكن الإله بمعنى: المعبود، وَهُوَ أَمْرٌ فوق القادِر، أو الخالق.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لما قَرَّر أُلُوهِيَّته بصيغة الجُملة الاسمية ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾، وطرفاها مَعرِفتان، والمعـروف عند البلاغيين أن الجُملة الاسميـة إِذَا كَانَ طرفاها معرفة؛ فَإِنَّهَا تُفِيدُ الحصر، وأكَّد ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، فهـذا حصرٌ أيضًا للأُلُوهِيَّة فِي اللهِ وحدَهُ، فليس معه إلهٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون:٩١]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الإله هو المعبود الَّذِي يَخْلُقُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

ولا تظُنَّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُؤَيِّد تفسير المتكلمين لَمَّا قَالَ: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بالإله الخالِقُ، وإِلَّا لَقَالَ: لذهب كل إله بمَن عبدَهُ. وَلَكِنْ لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الإلهُ الْحَقُّ هُوَ الْإِلَهُ الخالق، قال: ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ﴾.

والحصـر فِي قَوْلِهِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ حقيقي، وقد يشتبـه عَلَى بَعْضِ الناس، فيقول: إنه إضافيٌّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الحصرَ إذا جعلناه حقيقيًّا يُشْكِلُ عَلَيْهِ كثيرًا أَنَّ اللهَ أثبتَ آلهةً سِواهُ؛ حَيْـثُ قَالَ: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود:١٠١]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنْ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ قَالَ لِقَوْمِـهِ: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ

ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]، وكذلك الكافرون، قالوا لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥]، فيظن الظانُّ أَنَّنا لَا يُمْكِنُ أَنْ نَجْمع بَيْنَ هَـذِهِ الْآيَةِ، وَبَيْنَ إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام إِلَّا إِذَا جعلنا الحصرَ إضافيًّا، فنُثبت الأُلُوهِيَّة لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ آخَرَ، ويكون النفي هُنَا عَلَى وَجْهٍ آخَرَ مُخَالِفٍ لِمَا أثبتناه.

فَنَقُولُ فِي ذَلِكَ: أصلُ الإله حقًّا هُوَ الْخَالِقُ، الإلهُ الْحَقُّ هُوَ الْخَالِقُ، وأما هَذِهِ الْآلِهَةُ التي عُبِدَت مِنْ دُونِ اللهِ فَهِيَ آلهةٌ باطلة كَذِب، وَلِهَذَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﷺ: ﴿أَإِفْكًا ءَالِهَةً﴾، فَجَعَلَ ذَلِكَ إفكًا، وَلَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، فهي -وَإِنْ عُبِدَت وأُلِّهت- ليست بآلهة.

ولهذا تجدون أَنَّ الرُّسُلَ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ- كُلٌّ مِنْهُمْ يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [المؤمنون:٣٢]، أي: مِنْ إِلَهٍ يُعبد ويستحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ بِحَقٍّ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وَقَالَ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨-٩٩]، وآلهة أي: معبودة بحق، وإلا أثبت اللهُ لَهَا العبادة.

وعلى هذا نقول: إِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا الحصر، وَبَيْنَ مَا ذُكِرَ مِن إثبات الأُلُوهِيَّة للأصنام هُوَ أَنَّ الإلهَ هو المعبودُ بحقٍّ، وَهَذَا لَا ينطبقُ إِلَّا عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَمَّا مَا عُبِدَ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَهُوَ وَإِنْ سُمِّيَ إِلَهًا، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ إِلهًا، وَكَمَا قَالَ اللهُ: ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٩].

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لَا بُدَّ للضمير مِن مَرْجِعٍ مَذْكُور، أو ملفوظ يَعُودُ إِلَيْهِ: مذكور مثل: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أو ملفوظ مثل: أَنْ تَأْتِيَ شَيْئًا مِن أَفْعَالِ اللهِ، فتقول: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

وَأَمَّا قَوْلُكَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فيصح؛ لأنك تُخَاطِب اللهَ، فهو متعين، وَإِنَّمَا قُلْنَا لَا بُدَّ لقوله: ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مِن مَرجع لمخالَفَة الصوفيـة، الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. فهم يُعيدونه فيقولون: (هو، هو، هو، هو) إِلَى آخِرِهِ، فَيَعْبُدُونَ اللهَ بلفظٍ، ويذكرون اللهَ بلفظ الضَّمير فقط، ويحذفون ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيقولون: (هو، هو، هو)، فإذا وَجَدْتَهُمْ فِي مجتمعاتهم وهُم يَهُزُّون الرءوس، ويَضْرِبون الطُّبول، ويُغَبِّرُون بالأصوات، ويقولون: (هو، هو).

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾: ﴿لَهُ﴾ الجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم، وتقديم ما حقُّه التأخير يُفيد الحصر، فقوله: ﴿لَهُ﴾ أي: لَهُ وَحْدَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، أما غَيْرُهُ، فَلَيْسَ لَهُ الحمد الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ اللهُ؛ لَا فِي الْأُولَى، وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: (ال) هذه للاستغراق، أي: جَمِيع أَنْوَاعِ الحمد، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، فَاللهُ تعالى لَهُ الحمد كُلُّه، فَهُوَ الَّذِي لَا يُحْمَد عَلَى سُوءٍ سِواه، يُحْمَد عَلَى كُلِّ حَالٍ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ»(١).

وقوله: ﴿لَهُ﴾ اللام هنا هي للاخْتِصاص وللاسْتِحقاق، فالحمدُ المطلَق مُخْتَصٌّ بِاللهِ، وَالْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ حَقِيقَةً هُوَ اللهُ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُ -وَإِنِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُحْمَدَ- فإنما أَتَى بِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْحَمْدِ هُوَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وغاية مَا يَكُونُ أَنْ يَكُونَ وسيلة، فالإنسان -مثلًا- يُحمد عَلَى مَا لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ الكاملة، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَكِنْ هَذَا مِنَ اللهِ.

إذن: فالحمد حقيقةً لله، فالذي يَسْتَحِقُّ الْحَمْدَ هُوَ اللهُ، وَالَّذِي يَخْتَصُّ بالحمد

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، رقم (٣٨٠٣).

الْمُطْلَقِ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ.

قوله: ﴿فِي ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الدُّنيا، يُحمد فِي الدُّنْيَا عَلَى مَا أجراه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِنْ أَحْكَامٍ كونية، وما شرَعه مِنْ أَحْكَامٍ شرعية؛ يُحمد عليها حمدًا كاملًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾: قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الجَنَّة]، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فالآخرة تشمل مُنذ أَنْ يُبْعَثَ النَّاسُ إِلَى أَنْ يَصِلُوا إلى منازلهم؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحمد، بَلْ إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يفتح عَلَى نَبِيِّهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ[1]، وَهُوَ عَزَّوَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يظهر حمده لِكُلِّ أَحَدٍ؛ فإنه يَظهَر عدلُه، ويظهر فضلُه وإحسانُه، وتَظهر حكمتُه، وتَظهر قُدرتُه، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ العظيمةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، ويستحق عليها الحمدُ.

فليس المَعْنَى أَنَّهُ لَا يُحمَد إِلَّا فِي الجَنَّةِ، فهذا قُصور جدًّا مِن الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾.

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَأْذِنُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الشَّفَاعَةِ، ويسجد تَحْتَ الْعَرْشِ فيفتَح اللهُ عَلَيْهِ مِنَ المَحَامِدِ مَا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلُ[2]، وهذا قَبْلَ دُخُولِ الجنة، بل قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ الخَلق.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ اللام فِي قَوْلِهِ: ﴿لَهُ﴾ خبرٌ مُقَدَّم، وتقديم الخبر يُفيد الحصر، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ]، والحُكم يشمل القضاء،

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، رقم (٤٧١٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، رقم (٤٤٧٦)، ومسلم كتاب: الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (١٩٣).

وَهُوَ الْحُكْمُ الكوني، كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ، ويشمل الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ.

فالحُكم لله قضاءً وشرعًا، لا حاكِم إِلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَمَنِ ابْتَغَى الْحُكْمَ مِنْ غَيْرِ اللهِ؛ فإنه يَضِلُّ، ومَنِ اتَّبع هُدَى اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَضِلُّ، ولا يَشْقَى.

وتقديم الخبر يُفيد الحصرَ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ كَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْمُرَادُ الحكمَ المطلَقَ، فالحُكم المطلق للهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، هُوَ الَّذِي يُوجِبُ الشَّيْءِ ويُحَرِّمه، ويَنْدُب إليه ويُبيحه، وَكَذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الكونية، هُوَ الَّذِي يُنزِّل الغَيْثَ، وَهُوَ الَّذِي يُزيل القَحْطَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ويرزق، كُلُّ هَذَا مِنَ الْأَحْكَامِ الكونية.

ولكن الإنسان نازَعَ رَبَّهُ فِي الْحُكْمِ الكوني، وَفِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، فهناك -مثلًا- مَنْ أَثْبَتَ مَعَ اللهِ خالِقًا آخر، وهناك مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ رَبٌّ يتصرف كَمَا يَشَاءُ، والمخالفات فِي الْحُكْمِ الشَّرْعِيِّ أكثرُ وأبلَغُ، فما أكثرَ الذين يُشرِّعون، ويَرَوْنَ أَنَّ تشريعاتِهم نافِذة كشرعِ الله، أو أعلى، وهؤلاءِ سَبَق أنهم كفار حَتَّى لَوْ صَلَّوْا وزَكَّوْا وصاموا وحَجُّوا؛ فهم كفار.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالحُكم مِثل فِرْعَون؛ لأنه نازَعَه فِي الْحُكْمِ القَدَرِيِّ، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فالحُكم المُطلَق لله، ولكن هناك حُكمٌ مُقَيَّد، لكنَّه بِأَمْرِ اللهِ، ولهذا نحن نرى فِي كُتُبِ أَهْلِ الْعِلْمِ أنهم يَذْهَبُونَ إِلَى الْحَاكِمِ، ويقال: الحاكم الشرعي، وبإذن الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، هَذَا الْحُكْمُ الَّذِي يستفيده هذا الإنسان مُقَيَّد ومحصور؛ مُقَيَّد بِأَنْ يَكُونَ تحت حُكْمِ اللهِ، ومحصورٌ فِي مَكَانٍ مُعَيَّن، وَفِي زَمَنٍ مُعَيَّن.

فإذن: الحُكم المُطلق للهِ عَزَّوَجَلَّ فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْآخِرَةِ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ الْمُقَيَّد، فهذا يَكُونُ لِغَيْرِ اللهِ، مِثْلُ مَا يقوله العلماء: الحاكم الشرعي، ويَحْكُم بينهم الحاكم، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

فَهَذَا الْحُكْمُ مُقَيَّدٌ فِي زَمَانِهِ، ومكانه، ونَوْعِه، أَمَّا فِي الزَّمَانِ، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مُقيَّد، لكن الحاكم الشَّرْعِيُّ لَا يَبْقَى أَبَدَ الآبِدِين، بَلْ هُوَ فِي مَكَانِهِ، لَا يَحْكُمُ إِلَّا فِي بُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا يَحْكُمُ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وفي نوعه؛ لأنه مُقَيَّدٌ بِأَنْ يَكُونَ تحت حُكْمِ اللهِ، فَلَا يَمْلِكُ أَنْ يُغَيِّرَ شَيْئًا مِنْ أحكام اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تَقَدَّمَ عَلَى: ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمُ المعمول يَدُلُّ عَلَى الحصر، فالرُّجوع إِلَى اللهِ مَهْمَا طالت الدُّنيا، ومَهْمَا بَعُد الإنسانُ، وَمَهْمَا كَانَ الإنسان أيضًا؛ فإنَّ مَرْجِعَه إِلَى اللهِ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ]، والنُّشور يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فكلُّ الخلائق مَرْجِعُهَا إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حيث يُحشر كُلُّ شَيْءٍ، حتى النَّمل، حَتَّى يَتَبَيَّنَ أَنَّ الْأَمْرَ كله مَرْجِعُهُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثبات أُلُوهِيَّة الله.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: انفراده بالأُلُوهِيَّة؛ لقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصَاص اللهِ تعالى بالحمدِ الْمُطْلَقِ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾، الحمد المطلق الشامل للدنيا والآخرة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ظُهور كَمـال صِفات اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ لأن الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: اختصاص اللهِ تعالى بالحُكم، وأنه وحدَه هو الحاكمُ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وَمَا ذُكِرَ مِنْ إِثْبَاتِ الحُكْمِ لغيره، فَهُوَ أَمْرٌ مُقَيَّد.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعث؛ لقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الآيتان (٧١، ٧٢)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

• • • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أَيْ أَخْبِرُونِي ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائمًا ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ المَعِيشَةَ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ذَلِكَ سَمَاعَ تَفَهُّمٍ فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإشراك، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بزَعْمِكُمْ ﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ﴾ تَسْتَرِيحُونَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ التَّعَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الخَطَأِ فِي الْإِشْرَاكِ فَتَرْجِعُونَ عَنْهُ].

الخِطاب هنا لِلنَّبِيِّ ﷺ، ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: [لِأَهْلِ مَكَّةَ]، والصَّواب أَنَّهُ عامٌّ لِكُلِّ أَحدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ فسَّره المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخْبِرُونِي]، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِالمَعْنَى لَا بِاللَّفْظِ؛ لأن رَأَى مِن الرؤية البَصَرية، والمعنى: أأبصرتُم ذلك فأخبروني عنه.

ولكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فسَّره وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ باللازم؛ لِأَنَّ مِن لازِم الرؤية إخبارَ الإنسان عما يَرى.

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: (رأى) تَنْصِبُ مفعولين هنا، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّهَا تكُونُ بَصَرِيَّة؛ المفعولُ الْأَوَّلُ قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا، وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي محذوفًا، قَدْ يَكُونُ مَوْجُودًا، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس:٥٩]، فقوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هو المفعول الأول.

وَقَدْ يَكُونُ محذوفًا مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف:٤]، هنا المفعول الأول محذوف، والتقدير: أرأيتم حالَكُم، يعني: أَخْبِرُونِي عَنْ حالِكم ماذا يَكُونُ لَوْ أنه حَصَل كَذَا وَكَذَا؟ فالمفعول الأول محذوف، وجملة ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [القَصص:٧١]، فِي مَحِلِّ نَصْبٍ، وهي المفعول الثاني.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [دائِمًا].

قوله: ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى: صَيَّر، فمفعولُها الأول ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ومفعولُها الثاني ﴿سَرْمَدًا﴾: إِنْ صَيَّرَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سرمدًا.

والليلُ مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طلوعِها، هذا اللَّيْلُ يَعْنِي اختفاء الشَّمْسِ فِي الْأُفُقِ، وظُهورها هُوَ النَّهارُ، والنُّور الذي يخلُفُها بَعْدَ الْغُرُوبِ، أو يَتَقَدَّمُها بَعْدَ الْفَجْرِ، هَذَا مِنْ مُقَدِّمات النهار، أَوْ مِنْ مُؤَخَّراته، وإلا فحقيقة الْأَمْرِ أَنَّ اللَّيْلَ يكون بغروب الشَّمْسِ إِلَى طلوعها.

وقوله: ﴿سَرْمَدًا﴾ قيل: إِنَّ أَصْلَهَا سَرْدًا، والسَّرْد التتابُع، يعني: متتابعًا،

وَعَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، فالميمُ زائدة، ويكون وَزْنُه الصرفيُّ فَعْمَلًا؛ لأن الميمَ زائدة، وقيل: إنَّ الميمَ أصليَّة، وإنها مِن: سَرْمَد إِذَا اسْتَمَرَّ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ وَزْنُهُ الصرفي: فعللًا؛ لأن الميم أصلية.

والسَّرمد معناه: الدائم المستمر إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أي: لَوْ كَانَ اللَّيْلُ سرمدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَلَا أحد يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بنهار، بَلْ لَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقدِّمَ النَّهَارَ قَبْلَ وَقْتِهِ، وَلَا أَنْ يُؤَخِّرَه بَعْدَ وقته، فالشمسُ الآن تخرج فِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ دقيقة، فلو اجتمع العالَمُ كُلُّهُ عَلَى أَنْ تَخْرُجَ اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ إِلَّا دقيقة، لَمَا استطاعـوا، أَوْ عَلَى أَنْ تتأخر إلى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ودقيقة ما استطاعوا أيضًا، أَوْ عَلَى أَنْ يُزَحْزِحُوها قليلًا عن مكانها، ما استطاعوا.

إذن: الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُغيِّرها -لا زمانًا، ولا مكانًا- لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْلِبَها، ويأتيَ بنهار أبدًا.

قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ بِزَعْمِكُمْ، ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ المَعِيشَةَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿إِلَٰهٌ﴾ خبرُه، و﴿غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ صِفَتُه، و﴿يَأْتِيكُم﴾ حَالٌ مِنْ ﴿إِلَٰهٌ﴾، أي: أَيُّ إله يأتيكم بضياء؟ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى زَعْمِكُمْ]، هَذَا لَا يَفْطِنُ لَهُ إِلَّا إنسانٌ يفهم اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ؛ لأن ﴿مَنْ﴾ يُسْتفهم بِهَا عَنِ التَّعْيِينِ، فتَقبَل التعدُّد؛ لأن التعيين إنما يُطلب عند التعدُّد، فإذا تعددت الأشياء طُلِب التعيين، فَإِذَا قُلْتُ: مَنْ قَامَ؟ فأنا الآن أُثْبِتُ بهذا الاستفهام أن عَدَدًا مِنَ النَّاسِ قَدْ قَامَ، ولكني أستفهم عن تَعْيِين هذا القائم، فَإِذَا قُلْنَا ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فهل معناه: أَنَّ هُنَاكَ آلهةً، والمطلوب التعيين، فعَيِّنوا لي الْإِلَهَ الَّذِي يأتيكم؟

الجواب: أن هَذَا لَيْسَ حقيقيًّا، وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِزَعْمِكُمْ]، يعني: إِذَا كُنْتُمْ تزعمون أَنَّ هُنَاكَ آلهة فمَن الْإِلَهُ الَّذِي يأتيكم بضياء؟ وَيَكُونُ هَذَا أَبْلَغَ فِي التحدي، لَوْ قَالَ: هل إلهٌ غَيْرُ اللهِ؟ صار هنا الاستفهامُ عَنْ وُجُودِ إله، لَا عَنْ تعيينه، لكن الاستفهام عن تعيينه أَبْلَغُ فِي التحدي، أي: حتى على زعمكم أَنَّ هَذِهِ آلهة؛ فإننا نتحدَّاكُم: أين الْإِلَهُ الَّذِي يَأْتِي بِهَذَا الشَّيْءِ؟ إذا قُلتم: وَاللهِ مَا عِنْدَنَا أَحَدٌ مِنَ الْآلِهَةِ يَفْعَلُ هَذَا، تَبَيَّنَ أَنَّ أُلُوهِيَّتَها باطلة؛ لأن الإله لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَادِرًا، سميعًا، بصيرًا، إِلَى آخِرِ الصفات الكاملة.

قَوْلُه تعالى: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ الباء هنا للتعدِيَة، يعني: يجلب إليكم الضياء، وقال: ﴿بِضِيَآءٍ﴾؛ لأنه علامةُ النهار، بَلْ إِنَّهُ هُوَ النَّهَارُ في الواقع؛ إما علامته، أَوْ هُوَ النَّهَارُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذَلِكَ سَمَاعُ تَفَهُّمٍ، فَتَرْجِعُونَ عَنِ الإِشْرَاكِ].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ يعني: أَصُمَّتْ آذانُكم، فلا تسمعون؟ والمراد بالاستفهام هنا سمعُ التَّفَهُّم الذي يَرْتَدِع بِهِ المَرْءُ عن غيِّه، أما المجرد -يعني سمع الإدراك- فَهُوَ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ سمع.

هنا قد يَقُولُ قَائِلٌ: لماذا لَمْ يَقُلْ: أَفَلَا تُبْصِرُونَ؛ لأنَّ الإبصار فِي النَّهَارِ أظهرُ؛ بَلْ قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟

نقول: لأنه تَبيينٌ لقوله: ﴿عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ والليل مَحَلُّ سَمْعٍ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وليس تبيينا عَلَى آخرِ الْآيَةِ ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾،

فهو تبيين عَلَى أَوَّلِ الْآيَةِ، والمعنى: أَنَّكُمْ لَا تسمعون سمعًا تستفيدون منه؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السَّمْعِ، وَلَيْسَ مَحَلَّ الرؤيا.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: تحدي هـؤُلاءِ الْمُشْـرِكِينَ أَنْ تَكُـونَ أصنامُهم جالِبةً للخيـر، أو دافعةً للشر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ قُدرة اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ حَيْثُ لَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَجْعَلَ الليل سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تذكير العِباد بنعمة الله؛ فإن الأشياء إنما تتبين بِضِدِّها.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَـدٌ أَنْ يُغَيِّـرَ سُنَّةَ اللهِ فِي الكون، فلو جَعَلَـهُ سَرْمَدًا، ما استطاع أَحَدٌ أَنْ يُزِيلَهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الْحَثُّ عَلَى سَمَـاعِ مَا يُتْلَى مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمْعَ تَفَهُّمٍ وقَبُول؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ بضِياء النهار، فكَم تستهلك الْأُمَّةُ مِنْ طاقة فِي إضاءة اللَّيْلِ الَّذِي لَا يَكُونُ مِثْلَ إضاءة النهار، وبهذا نعرف قَدْر نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا الضِّيَاءِ الَّذِي يَصِلُ إِلَى النَّاسِ بكميات كبيرة.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيانُ نعمةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: بيان نِعْمَةِ اللهِ تعالى فِي اللَّيْلِ، الَّذِي جَعَلَهُ سكنًا؛ لقوله: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أنَّ نَوْمَ اللَّيْلِ أَفْيَدُ للجسم مِنْ نَوْمِ النهار، حَيْثُ جَعَلَ اللهُ الليلَ محل سَكن ووقته، وَهَذَا أَمْرٌ مُشاهَد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: الْحَثُّ عَلَى التبصُّر فِي آيَاتِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لِأَنَّ هَذَا يُفِيدُ حَثَّ الْإِنْسَانِ أَنْ يتبصر فِيمَا جعَلَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ؛ حتى يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى كَمَالِ قُدرة الخالق.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: الليل أنفعُ للبَدن مِنَ النَّهَارِ، ففي نَوْمِ اللَّيْلِ سُكون، بخلاف نَوْمِ النَّهَارِ، فالإنسان يُحِسُّ بالراحة لَكِنْ لَيْسَ كالليل.

• ● ۞ ● •

الآية (٧٣)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القَصص:٧٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ تَعَالَى ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ لِلْكَسْبِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ النِّعْمَةَ فِيهِمَا].

قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ﴾ أي: جعل الوقوع متعلقًا بقوله: ﴿جَعَلَ﴾، يعني: وَجَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ رَحْمَتِهِ.

وقوله: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾: ﴿مِن﴾ هنا للسببية، أي: بسبب رحمته، وما اتَّصَفَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الرَّحمَة، والرَّحمَة صفةٌ حقيقيةٌ ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، وَهِيَ غَيْرُ إرادةِ الإنعام، وغيرُ الإنعام.

فأهلُ السُّنة والجماعة يقولون: إن الرَّحمَةَ صِفة حقيقية ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقِ.

وأما الأشاعرةُ فيُحرِّفون مَعْنَى الرَّحْمَةِ إِلَى أَنَّهَا الإنعامُ أَوْ إِرَادَةُ الإنعام، فيُفَسِّرونها بِالْفِعْلِ، وَهُوَ الإنعام، أَوْ إِرَادَتِهِ؛ لأنهم يُثْبِتون الإرادة، وهي صِفة معنوية، وقد مَرَّ علينا أَنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إِلَّا سَبْعَ صفات؛ منها: الإرادة، فيفسِّرون الرَّحمة بإرادة الإنعام؛ لِأَنَّ الْإِرَادَةَ دَلَّ عليها السمع والعقل، وَهُمْ لَا يُثْبِتُونَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ

إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، فَأَمَّا مَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ أَوَّلوه.

ولكننا نَقُولُ: هَـذَا التَّأْوِيلُ هُوَ تحريـف، لكن أين دَلِيلُ الْعَقْلِ عَلَى الْإِرَادَةِ؟ يقولون: إنَّ العقل يَدُلُّ عَلَى الْإِرَادَةِ بواسطة تخصيص المخلوقات، فَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ المخلوقات خُصِّص بشيء، هَذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَكُونَ قاسيًا، فصار قاسيًا، وَهَذَا يَكُونُ لَيِّنًا فصار لَيِّنًا، وَهَذَا يَكُونُ طَوِيلًا، فيكون طويلًا، وهذا قصير، فيكون قصيرًا، إِلَى آخِرِهِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى إِرَادَةٍ، أي: إن الْأَمْرَ لَا يَخْلُو مِن إرادة.

وبالنسبـة للرحمة قالوا: نُؤوِّلها، لأن الرَّحمَة عِبَارَةٌ عَنِ رِقَّة تعتـري القلـب، وتُوجِب الْحُنُوَّ عَلَى المرحوم.

فَنَقُولُ لَهُمْ: هذه الرَّحمَة التي ذكرتُم إِنَّمَا هِيَ رحمةُ المخلوقين، ونحن نُثبـت لله رحمةً لَا تُشْبِهُ رحمةَ المخلوقيـن، ثم إننا نستدلُّ على الرَّحمَة بالعَقل كما استدللتم عَلَى الْإِرَادَةِ بالعقل، فكَم للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَيْنَا مِنْ نِعَمٍ لَا تُعَدُّ ولا تُحصى، وكَم للهِ تعالى مِن تفريج كُرُبَاتٍ لَا تُعَدُّ، ولا تُحصى.

والأمر المقتضي لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ لجلب النِّعَم، ودَفْعِ النِّقَمِ هو الرَّحمَة؛ لأن القاسِيَ الَّذِي لَا يرحَم لا يجلب النِّعْمَةَ، وَلَا يَدْفَعُ النِّقْمَةَ.

فإذن: الاستدلالُ بالحوادث الَّتِي فِيهَا جلبُ النعمِ، ودفعُ النِّقَم أظهرُ وأبينُ مِنَ الاِسْتِدْلَالِ بالتَّخصيص عَلَى الْإِرَادَةِ؛ لأن دَلَالَةَ التَّخْصِيصِ عَلَى الْإِرَادَةِ لَا يَفْهَمُهَا إِلَّا أفـرادٌ مِنَ النَّاسِ، لكن دلالة جَلْـبِ المَنَافِعِ، وَدَفْعِ النِّقَمِ على الرَّحمَـة كلُّ الناس يفهمونها، حتى الْعَامِّيّ فِي سُوقه إِذَا رَأَى رَجُلًا قاسيًا عَلَى أَوْلَادِهِ -مثلًا- قال: هَذَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ رحمة. وَإِذَا رَأَى أَنَّهُ -مثلًا- دائمًا يجلـب لهم الخير، ويدفع عنهم الشَّرَّ، قال: هذا إنسان رحيم.

فإذن: دَلالة الْعَقْلِ عَلَى الرَّحمَة أَقْوَى مِن دَلَالَتِـهِ عَلَى الْإِرَادَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ هم يثبتون الإرادة، ولا يثبتون الرَّحمَة، فهنا يقولون: مِنْ رَحْمَتِهِ أي: مِن إنعامه.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ مِن للسببية، و﴿رَّحْمَتِهِۦ﴾ هي صِفَتُه الَّتِي اتصف بها أزلًا وأبدًا، قَالَ تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وقرن رُبوبيته بِذَلِكَ فَقَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هَذِهِ الرُّبوبية كُلَّها رُبوبيةُ رحمةٍ، لَا رُبُوبِيَّة انتقام وغِلظةٍ، فكيف نُنكِر هَذِهِ الصِّفَةَ العظيمةَ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، ونُثْبِتُ مَا هُوَ دُونها؟! وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَنَاقُض الْمُعَطِّلين مِن الأشعرية والمعتزلة وغيـرهم؛ لأنهم يتناقضون فيُثبتون لله مِنَ الصِّفَاتِ ما يدُلّ الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِ مَا هُوَ أَوْلَى مِنْهُ، ويُنكرون مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَدُلُّ الْعَقْلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، بمعنى: خَلَق، وليست بِمَعْنَى صَيَّرَ، وَلِهَذَا لَمْ تنصب مفعولين.

قَوْلُه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي: ليلٌ ونهـارٌ يتعاقـبان بَيْنَكُمْ عَلَى النَّاسِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي اللَّيْـلِ، ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهَارِ مِنْ كَسْبٍ].

قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ اللام للتَّعليل، أي: لِأَجْلِ أَنْ تَسكنوا فيه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُـودِ المعلول وُجُـودِ الْعِلَّةِ إِذَا لَمْ تَكُنِ العلة مؤثِّرة، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، فهَذِهِ عِلَّةٌ غائيَّة، والعِلة الغائيَّة لَا يَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ المعلولِ وجودُها، فَلَا يَلْزَمُ مِنَ الخَلق وُجود العبادة.

فمَثلًا: قد يَكُونُ هُنَاكَ بَعْضُ النَّاسِ لَا يسكنون فِي اللَّيْلِ، فرَجُل مَعاشُه بالليل

كالحُرَّاس، وآخَرُ لَهْوُه بالليل، كأصحاب البَطَالة الذين ينامون النهار، ويسهرون الليل، ولكن وجود المعلول إِذَا كَانَتِ العلة غائيَةً، فلَا يَلْزَمُ مِنْهُ وجودُ العلةِ، كَمَا لَوْ قُلْتُ: قدَّمْتُ لك هذه البعير لتركب عليه، فقَدْ تركب، وَقَدْ لَا تركب، أو أعطيتُك القَلمَ لِتكتبَ به، فربما تكتب، وربما لَا تَكْتُبُ.

وقوله تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي: فِي اللَّيْلِ، يعني: تستريحون، ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ تبتغوا، أي: تطلُبون، وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: مِن عطائه ورزقِه.

وَفِي الْآيَةِ هنا ترتيب ولَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب، فقد بدأ بالليل، وقَدَّمَ منفعته السكون، وَهَذَا فِي اللَّيْلِ فِيهِ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرَتَّب.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: (لَعَلَّ) هَذِهِ للتَّعليل، أَوْ لِأَجْلِ أَنْ تشكُروا اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عَلَى نِعْمَتِـهِ، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ العِلَّتَيْن: الشـرعية والقدَرية، أمَّا القدَرية، فَهِيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، والعِلَّة الشَّـرْعِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾، أي: تشكرون اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهارِ؛ لِأَنَّ الْأَشْياءَ تَتبيَّن بِضدِّها، وَلَوْ كَانَ اللَّيْلُ سَرْمَدًا، والنهار سَرْمَدًا، ما استراح أحدٌ بِلَيْلٍ، ولا ابتغى الفضل بالنهار، ولكنَّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ جعلَ ذَلِكَ لِأَجْلِ الراحة، مَعَ أَنَّ هُنَاكَ فوائدَ أُخْرَى غَيْرَ ذَلِكَ ذَكَرَهَا فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ، قَالَ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾ [الفرقان:٦٢]، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، رقم (٢٧٥٩).

فالحاصِلُ: أَنَّ فِي تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فوائدَ عظيمةً تستوجب أن نَشْكُرَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليها.

واعْلَمْ أنَّ الشكر يكون بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ والجوارح؛ أما الشُّكر بالقلب فَهُوَ أَنْ يعترف الإنسانُ بِقَلْبه بِأَنَّ هَـذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَحْدَهُ، يعترف اعترافًا كاملًا، حتى لَوْ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ جاءت عَنْ سَبَبٍ، فليعتقد أَنَّ السَّبَبَ مِنَ اللهِ، وَهُوَ الَّذِي أوجده، فحَصَلَتْ بِهِ هَذِهِ النِّعَمُ.

وأما الشُّكر باللسان، فإنه الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تعالى بِمَا يستحِق، سَوَاءٌ عَلَى هَـذِهِ النِّعْمَةِ، أَوْ غَيْرِهَا، وَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الشكر.

وَعَلَى هَذَا، فقول الإنسان: سبحان اللهِ، وَالْحَمْدُ لله، وَاللهُ أَكْبَرُ. يُعتبر شكرًا، وقوله حينما يأكل طَعَامًا أَوْ يشرب شرابًا: الحمد لله يعني: عَلَى هَذَا الطَّعَامَ أَوِ الشراب، يُعتبر أَيْضًا مِنَ الشكر.

أما الثالث -وَهُوَ الجوارح- فَهُوَ أَنْ يقوم الإنسان بِطَاعَةِ اللهِ، سواء تتعلق بهذه النعمة أَمْ لَا، فيستعين بهذه النعمة عَلَى طَاعَتِهِ، أَوْ يَفْعَلَ الطاعة الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بهذه النعمةِ، قَالَ الشَّاعِر(١):

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

فالشُّكر بالجوارِح فِي قَوْلِهِ: يدي. والشكر باللسان فِي قَوْلِهِ: ولساني: والشكر بالقلب فِي قَوْلِهِ: الضَّمير المحجبا.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: ذكرتُم أن الشكرَ باللسان هو الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سَوَاءٌ

(١) البيت في الفائق في غريب الحديث، للزمخشري (١/ ٣١٤) بلا نسبة.

كَانَ يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ النعمة، أَوْ بِغَيْرِهَا، فَهَلْ يَدْخُلُ فِي هَذَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]؟

نقوله له: نعم، هَذِهِ الْآيَةُ تَدْخُلُ فِي هَذَا.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: هل يوجب هذا الافتخارَ؟

قلنا: لا، لَيْسَ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الافتخار، بَلْ هُوَ عَلَى سَبِيلِ التواضع لله، وَأَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِن اللهِ، كَمَا قَالَ الرَّسُول ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ»(١).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: الرَّحمة صفة حقيقية ثابتة للهِ عَلَى وَجْهِ الكمال، ولا تُشبه رحمة المخلوقين.

فمثلًا: إِذَا قِيلَ: إِنَّ الرَّحمة تقتضي الضعف والرِّقَّة، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

قلنا: هذا بالنِّسبة للمخلوق، أما في حق الله -سبحانه- فله رحمة حقيقية لَا تُشْبِهُ رحمة المخلوق.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان نعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ للسَّكَن، والنهارَ لطلب المعاش، فقوله: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ، وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فِي النَّهارِ.

وتتفرع عَلَى هَذِهِ المَسْأَلَةِ فائدة: وَهِيَ مَا ذَكَرَهُ الأصحاب رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْقِسْمَةِ بين

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق، رقم (٢٢٧٨).

الزوجتين، إِذَا كَانَتْ للإنسان زوجتان، وَأَرَادَ أَنْ يَقْسِمَ بينهما؛ فَإِنَّ مَدَارَ القَسْمِ عَلَى اللَّيْلِ لمن مَعاشه فِي النَّهَارِ، والنهارِ لمن معاشه فِي اللَّيْلِ، فإذا أشكل علينا الأمرُ، فالعِماد هُوَ اللَّيْلُ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ السكن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السكن، والسكون فيه بالنوم والراحة أَفْيَدُ للبَدَن مِنْ ذَلِكَ فِي النَّهَارِ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ الأسباب؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لتطلبوا، فالرزق لَا يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ وينزل، بَلْ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ طَلَبٍ، وإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا السَّبَبَ الَّذِي تَحْصُلُ به على الرزق، لَمْ يَحْصُلِ الرزق؛ لِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حكيم رَبَطَ الأسبابَ بِمُسَبَّبَاتِها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ الرِّزْقَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفضلٌ وعطاء، وهذا مأخوذ مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾، فليس حاصلًا بمجرد كَدِّ الإنسان وكَدْحِه، فَكَمْ مِنْ إنسانٍ يَكَدُّ ويَكْدَحُ، وَمَعَ ذَلِكَ يَكُونُ رزقه ضيقًا! وَكَمْ مِنْ إنسان يفعل أسبابًا أَقَلَّ مِمَّا فَعَلَهُ الأول، ثم يُوَسَّعُ لَهُ فِي الرِّزْقِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أهمية الشكر، لقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ ذَا بصيرةٍ فيما سَخَّرَ اللهُ لَهُ، حَتَّى يشكُرَ الله عليه؛ فَإِنَّ اللهَ سَخَّرَ لَنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، فنأخذ مِنْ هَذَا عِبرةً نتوصل بِهَا إِلَى شُكر اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.

الآيــة (٧٤)

•●☙●•

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القَصص:٧٤].

•●☙●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَ﴾ اذْكُـرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ذَكَرَ ثَانِيًا لِيَبْنِيَ عَلَيْهِ].

هنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد أفادنا بتقدير [اذْكُرْ] قَبل الظرف: ﴿وَيَوْمَ﴾.

وقوله ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: اللهُ، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾.

وقد مَرَّ عَلَيْنَا مِثْلُهُ قريبًا، وَهَذَا تَكْرَارٌ للتحذير مِنَ الشِّرْكِ، معناه: اذكر أَيْضًا يَوْمَ النداء مَرَّة.

ومعنى ﴿شُرَكَآءِىَ﴾: الذين جعلتمُوهم شُركاءَ لي فِي الْعِبَادَةِ، فهُم يُقِرُّون بِأَنَّ اللهَ منفرِدٌ بالخلق والرزق، لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ أَيْضًا وَيَقُولُ: لَا رَبَّ، أَوْ يَقُولُ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: أَوْجَدَتْها الطبيعة المَحْضَة!

وهَذَا أَيْضًا نَوْعٌ مِنَ الشِّـرْكِ، والأول تعطيلٌ محضٌ، فالذي يُنكر الإله مطلقًا هذا مُعطِّل مَحْضٌ، والثاني مشرك.

وقَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، قَالَ الْمُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذُكِـرَ ثَانِيًا؛ لِيُبْنَى عَلَيْهِ].

• ● ۞ ● •

الآيــة (٧٥)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [القَصص:٧٥].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ أَخرَجْنا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وَهُوَ نَبِيُّهم يَشْهَد عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا ﴿فَقُلْنَا﴾ لَهُمْ ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ عَلَى مَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِشْرَاك ﴿فَعَلِمُوٓا أَنَّ ٱلْحَقَّ﴾ في الإلهية ﴿لِلَّهِ﴾ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا ﴾ النَّزْعُ: الإخراج، نَزَعَ الشَّيْءَ مِنَ الشَّيْءِ: أَخْرَجَهُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ المراد بالأمة هنا الطائفة، ولكنها ليست مجرد الطائفة، بل الطَّائِفَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ واحدٍ، فَإِذَا كَانَتْ طَائِفَةٌ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهَا تُسمى أُمَّةً، ولهذا جاءت فيها الميم الدَّالَّةُ عَلَى الجَمْعِ والاجتماع، فالدولة ذاتُ الأحزاب لَا تَكُونُ أُمَّةً في الواقع؛ لأنها مختلفة، لكن الْأُمَّة هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاحِدٍ.

فمثلًا: أُمَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ، وأُمَّةُ الْكُفْرِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ.

وقَوْلُه تعالى: ﴿شَهِيدًا﴾ بمعنى: شاهدًا، ولكنه أتى بصيغة المبالغة، أو بصيغة الصِّفَة المُشَبَّهَة باسمِ فاعِلٍ.

والمراد بالشَّهيد -كَمَا يَقُولُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوا]، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: المرادُ بالشَّهيد العَرِّيف، أي: الزعيم، ننزعه مِنْ بَيْنِهِم، ثم اسألهم هَذَا السُّؤَالَ المَبْنِيَّ عَلَى التحدي ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾.

وَهَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ شيخنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِهِ[1]، أَنَّ المُرَادَ بالشهيد هنا الْكَبِيرُ مِنَ الأُمَّة، الَّذِي يُعْتَبَرُ بمنزلة العَرِّيف؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكَبِيرَ مِنَ الأُمَّة نَائِبٌ عَنِ الأُمَّة، وهذا -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ القائل هُنَا هُوَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، والبرهان: الدَّليل، أي: هاتوا الدَّلِيلَ عَلَى مَا قُمتم بِهِ مِنَ الإشراك، ولن يجدوا دليلًا.

وقولُه: ﴿هَاتُوا۟﴾ فِعلُ أَمْرٍ، والمقصود به التحدي؛ لأنهم طلبوا مَا لَا يُمْكِنُ، والتوبيخُ لأنه سوف يَلْحَقُهُمْ مِنَ الخِزْيِ والعار أَمَام النَّاسِ فِي ذَلِكَ المَجْمَعِ مَا لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ.

وقوله: ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾، عَلِمُوا ذلك لَمَّا لَمْ يَأْتُوا بدليل، ولا بُرهان على إشراكهم، عَلِمُوا أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي هَذَا الإشراك، وَأَنَّ الحَقَّ للهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَيْسَ لَهَا حَقٌّ فِي الْعِبَادَةِ، وَأَنَّ الحَقَّ فِي العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وهذا الْعِلْمُ لَا يَنْفَعُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛ لِأَنَّهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ -يوم المُجَازَاة- ينفعهم لو أَنَّهُمْ عَمِلُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا، فلو عَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ للهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ عَمِلُوا؛ لَكَانَ ذَلِكَ نَافِعًا لهم، أَمَّا بَعْدَ أَنْ شاهَدُوا العذاب، فعلموا أَنَّ الحَقَّ لله، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

---

(١) تفسير السعدي (ص٦٢٣).

ولكن فِيهِ فَائِدَةٌ عظيمة، وهي إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، قَالَ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:٨-١٠].

فَالْفَائِدَةُ مِنْ ذَلِكَ كونُهم يَتحَدَّوْنَ حَتَّى يَتبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ الْحَقَّ لله، وأنهم يعرفون أَنَّهُمْ لَمْ يُظْلَمُوا شيئًا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ﴾ الْحَقُّ فِي الأُلُوهِيَّة لله لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ].

يقول الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ (ضَلَّ) بمعنى (غَابَ)، ولكن ضَلَّ أَبْلَغُ مِنْ (غَابَ)؛ لأن (ضَلَّ) يقتضي كأنه أمرٌ مطلـوب، ولكنهم عَجَزُوا عنه كالضَّالَّة، فالإنسان إذا ضَلَّ بَعِيرُه -مَثَلًا- أَوْ شاتُه يتطلبها فلا يجدها، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ عليه حَسْرَةً، فهُنا قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ كأنما هُوَ شَيْءٌ مفقودٌ عزيز عليهم، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا منه.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: ﴿مَّا﴾ اسمُ مَوْصُولٌ فاعِلُ ﴿وَضَلَّ﴾، والعائِدُ الضَّمير المحذوف فِي قَوْلِهِ: ﴿يَفْتَرُونَ﴾، أي: مَا كَانُوا يَفْتَرُونَه، وقولُ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنْيَا]؛ لأن ﴿كَانُواْ﴾ فِعْلٌ مَاضٍ، فما كانوا يفترونه فِي الدُّنْيَا مِن أَنَّ مَعَ اللهِ شريكًا يَضِلُّ عَنْهُمْ هَذَا الشريكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَقُومُوا ببرهانٍ عليه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فِيهَا إِثْبَاتُ البَعْث والحِساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الرُّسُلَ يُسألون يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لكنهم يُسألون تَبْكِيتًا وتوبيخًا لأقوامهم الذين كَذَّبُوهم، هَذَا عَلَى تفسير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أَمَّا عَلَى التَّفْسِيرِ الثاني، ففيه دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الزُّعماء هُمُ الَّذِينَ يُقامُون يَوْمَ الْقِيَامَةِ للمناقشة، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَبْكِيتُ الْمُشْرِكِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم، حيث يُتَحَدَّوْنَ بِطَلَبِ الدَّلِيلِ عَلَى مَا قَالُوا مِنَ الإشراك.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إذعانُ هؤُلاءِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّ الْحَقَّ لله، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُهُمْ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ هَـٰذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَنْفَعُ عابِدِيها في أَحْوَجِ ما يكونون إليها؛ لقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢٤].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ اتخاذ الْأَصْنَامِ آلهةً مِنَ الِافْتِرَاءِ والكذب، وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦].

الآيــة (٧٦)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القَصص:٧٦].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ ابْنُ عَمِّهِ وَابْنُ خَالَتِهِ وَآمَنَ بِهِ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بِالْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ﴾ تَثْقُلُ ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الجَمَاعَةِ ﴿أُوْلِى﴾ أَصْحَابِ ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ أَيْ تُثْقِلُهُمْ، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعِدَّتُهُمْ قِيلَ: سَبْعُونَ. وَقِيلَ أَرْبَعُونَ. وَقِيلَ عَشَرَةٌ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ المُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بِكَثْرَةِ المَالِ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ بِذَلِكَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿قَـٰرُونَ﴾ اسمُ رَجُلٍ غَنِيٍّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَ مِنْ قَوْمِ موسى.

وَقَدْ فَسَّرَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا القَوْم بالأقارب، فقال: [إِنَّهُ ابْنُ عَمِّهِ، وَابْنُ خَالَتِهِ]، ولكن هَذِهِ دَعْوَى لَا نَدْرِي: هل تَصِحُّ أَمْ لَا، قيل: هو ابْنُ عَمِّهِ، وقيل: إِنَّهُ كَانَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَشْغَلُنا.

المهمُّ: هُوَ أَنَّ القِصَّة وَقَعَتْ وفيها رَجُلٌ مِن قَوْمِ مُوسَى، وقد آمَنَ بِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْكِبْرِ، وَالْعُلُوِّ، وَكَثْرَةِ المَالِ]،

الباءُ للسببية.

وقَوْلُه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي: اعتدى واستطال عليهم، على قَوْمِ مُوسَى، وَذَلِكَ بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ، فصار طاغيًا، وَهَذَا هُوَ شأن الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ هُوَ إنسانٌ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٧]، فهذا الْإِنْسَانُ إِذَا كَثُرَ مَالُهُ، وَرَأَى أَنَّهُ فِي غِنًى عَنْ غَيْرِهِ؛ يطغى.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أي: أعطيناه مِن كُنوز المال، وهو جَمْع كَنْز، والكَنْزُ هو ما يُحتفظ به، ويُغْلَقُ عليه، ويَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ المَالِ مِن ذَهَبٍ، وفِضَّةٍ، وزُمُرُّد، وجَواهِر، ونُقود، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾: ﴿مَآ﴾ اسمٌ موصول بِمَعْنَى الَّذِي، وهي المفعول الثاني لـ(آتيناه)، ومفعولها الأول الْهَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾، و(إِنَّ) حرفُ توكيدٍ ونَصْبٍ، ومَفَاتِح اسمُها، وجُملة ﴿لَتَنُوٓأُ﴾ خَبَرُهَا، والجملة الاسمية صِلَةُ الموصول، يعني: الذي إِنَّ مَفَاتِحَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ أي: تَثْقُل بهم، ومَفَاتِح جَمْعُ مَفْتَح، وَهُوَ اسْمٌ للمِفتاح.

قَوْلُه تعالى: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ الباء هنا لِتَعْدِيَة الْفِعْلِ إِلَى مفعوله بِحَرْفِ الجَرِّ، وَإِنَّمَا احْتَاجَ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى هَذَا؛ لأن (ناءَ يَنُوءُ) يَتَعَدَّى بنفسه، أو بِحَرْفِ الجَرِّ، وهنا تعدى بِحَرْفِ الجَرِّ، أي: تُثْقِلُهم، فالباء للتعدية.

وَقِيلَ فِي عِدَّةِ العُصبة: سبعون، وقيل: أربعون، وقيل: عَشَرة، وقيل غَيْرُ ذَلِكَ، ولا ريبَ أَنَّ العُصبة هِيَ الجَمَاعَةُ الَّتِي يَعْصِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، والعَصْب فِي اللُّغَةِ: الشَّدُّ،

ومنه سَمَّوُا القَرَابَةَ عُصْبةً؛ لأنهم يَشُدُّون أَزْرَ قَرِيبِهم، وهُمُ الجماعة ذَوُو القُوَّةِ.

وبعض الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: مِنْ ثَلاثَةٍ إِلَى سَبْعَةٍ.

وبعضُهم يزيدُهم إِلَى عَشَرَةٍ.

وبعضُهم يقول -كَمَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: سَبْعُون، أو: أربعُون.

والمسألة فيها خلافٌ، ولكن الظَّاهِرُ لَنَا أَنَّهُمْ هُمُ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا ذَوِي كَثْرَةٍ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى حَدِّهم.

لَكِنْ مَعَ كَوْنِهِمْ جماعةً مجتمعين فهُم أقوياء، فاجتَمَع هنا في حَقِّهِم أمرانِ: القوة بالكيفية، والعَدَد بالكَمِّيَّة، فصارت عندهم كَمِّيَّة وكيفية، هَذِهِ الْجَمَاعَةُ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى حَمْلِ المفاتيح فقط لكانت المفاتيح تُثْقِلُهم، نقول: مفاتيحه لا يحملونها العَشَرَة أصحابُ القُوَّة! إِذَا كَانَ هَكَذَا فما بالُك بالخزائن! يعني: غني جدًّا بعطاء اللهِ تعالى لَهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: الناصحون له، وَهُمْ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمنون؛ لِأَنَّهُ لَا يَنصح مِثْلَ هَذِهِ النصيحة إِلَّا رَجُلٌ مُؤْمِنٌ، والإضافة فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ تُفيد بيانَ أَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَى جَانِبٍ كَبِيرٍ مِنَ النُّصح؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مِنْ قَوْمِك فَإِنَّهُ يَبْعُدُ أَنْ يَغُشَّك، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ناصحًا لك.

وقوله: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾: ﴿لَا﴾ ناهِيَة، والفرح يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: فَرَحٌ يكون سُرورًا لَا يُحْمَلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر، بَلْ يَكُونُ حاملًا لِلْإِنْسَانِ عَلَى رضاه بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقيامِه بِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِ فِيهَا.

والثاني: فَرَحُ بَطَرٍ وتَرَفُّع، وعُدوان، وبَغْيٍ، وَهَذَا هُوَ الْفَرَحُ الَّذِي نَهَى عَنْهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ قارونَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هَذِهِ الجُمْلَةُ المُرَادُ مِنْهَا أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ، ولَازِمُها أَنَّهُ يَكْرَهُ، مَعَ أَنَّ القِسْمَةَ العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، فنفيُ المحبَّة لَا يَلْزَمُهُ إثباتُ الكُره، فَقَدْ يَكُونُ لَا يُحِبُّ، وَلَكِنَّهُ لَا يُكْرَهُ.

قَالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٣]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، فهنا قد يحتمل كُلَّ مَا قُلْنَاهُ، ولكن الظَّاهِر -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنَّ المُرَادَ إِثْبَاتُ ضِدِّهِ، وَإِنْ كَانَتِ القِسمة العقلية لَا تَقْتَضِي ذَلِكَ، لكن السياق يقتضيه؛ لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ نَفَى اللهُ عَنْهُ حُبَّهُ نَجِدُ أَنَّهُ مِمَّا يكرهه الله، وَاللهُ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، وَقَالَ تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

فالظَّاهر مِن السِّياقات أَنَّ المُرَادَ إثباتُ الكراهة، لكنه أتى بنفي المحبة؛ لِأَنَّ المَحَبَّةَ محبوبة، فَكَأَنَّ هَذَا الَّذِي أحبَّ الفسادَ، أَوْ أَحبَّ الفرح، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، يُقابل بنَقِيضِ قَصْدِه.

وقوله: ﴿ٱلْفَرِحِينَ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِذَلِكَ]، والمشار إِلَيْهِ هُوَ كَثْرَةُ المَالِ، والمراد بالفرح الَّذِي نَفَى اللهُ محبته فَرَحُ البطَر والأَشَر.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: كيف نجمع بَيْنَ قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]؟

قلنا: إِنَّ المُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هو الفرح بِفَضْلِ اللهِ الدِّيني: العِلْم وَالإِيمان، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِنَ الدُّنْيَا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الفَرَحَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ أَنْ يَفْرَحَ الإِنْسَانُ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ العِلْمِ وَالإِيمَانِ، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ

سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ المُؤْمِنُ»[١].

أما الْفَرَحُ الَّذِي لَا يُحمد صَاحِبُه، فَهُوَ الفَرَحُ لِلدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ البَطَر والأَشَرِ، فَهَذَا لَا بَأْسَ بِهِ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سَلَمَةَ لما كَسَاهُ قومُه ثوبًا: فَمَا فَرِحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ القَمِيصِ[٢].

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «لَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ»[٣].

فالفرح الطبيعي الَّذِي مَا يَحْمِلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَر والكِبرياء، هَذَا أَمْرٌ لَا يُذمُّ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ، بَلْ إِذَا فرح به -لأنه وَسِيلَةٌ إِلَى مقصودٍ شرعي- كَانَ بِذَلِكَ محمودًا مأجورًا عليه، مِثْلُ أَنْ يَفْرَح بما جاءه مِنَ المَالِ؛ لأنه يُحِبُّ أَنْ يَبْذُله فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ فِي طَلَبِ العِلْمِ، أَوْ فِي بِنَاءِ المَسَاجِدِ، أَوْ فِي التَّصدُّق عَلَى الْفُقَرَاءِ، يَكُونُ هَذَا الفرح محمودًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الغِنى سبب للطُّغيان؛ لأن قارون إنما بَغَى وطغى بسبب مَا آتَاهُ اللهُ تعالى مِنَ المَالِ.

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (٢١٦٥)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، بعد باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح، رقم (٤٣٠٢).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحج، باب من قدم ضعفة أهله بليل، فيقفون بالمزدلفة، ويدعون، ويقدم إذا غاب القمر، رقم (١٦٨١)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى منى في أواخر الليل قبل زحمة الناس، واستحباب المكث لغيرهم حتى يصلوا الصبح بمزدلفة، رقم (١٢٩٠).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ القومِيَّة لَا تَنْفَعُ أصحابَها، إنما النافع هُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهذا الرَّجُلُ مِنْ قَوْمِ مُوسَى، وَمَعَ ذَلِكَ بَغَى عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ يَبتلي بِإِعْطَاءِ المَالِ العبدَ به، فكَمَا أَنَّ الْفَقْرَ ابتلاء، فكذلك الغنى ابتلاء.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: كثرةُ أموال هَذَا الرَّجُلِ لقوله: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ هَـذَا الرَّجُلَ بَغى عَنْ عِلْمٍ؛ لأنه نُصِح، وَقَالَ لَهُ قومه: ﴿لَا تَفۡرَحۡ﴾، فنصحوه، وَلَكِنَّهُ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ مِنْ حُسن الدعوة إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ الحُكم تُذْكَر العِلة؛ تخويفًا، أو ترغيبًا، إِنْ كَانَ منصوحًا بِطَلَبِ تَذَكُّرِ العِلَّة ترغيبًا، وَإِنْ كَانَ منصوحًا بِنَهْيٍ، فإنها تُذْكَرُ تخويفًا؛ لقوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثباتُ المحبة لله، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾، مَعَ أَنَّ المُرَادَ نَفْيُ المحبة، وَلَكِنْ مَا نَفاها عَنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا وَهِيَ ثَابِتَةٌ لضِدِّه؛ ولهذا اسْتَدَلَّ الْعُلَمَاءُ بأن المؤمنين يَرَوْنَ ربهم بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، قالوا: فلما حُجِبوا عن ربهم دَلَّ عَلَى أَنَّ غيرَهُم غيرُ محجوبين، فَلَوْ كَانَ الْكُلُّ محجوبين، مَا كَانَ لِتَخْصِيصِ هؤُلاءِ فائدة.

• • ۞ • •

الآيــة (٧٧)

• • ● • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

• • ● • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱبْتَغِ﴾ اطْلُبْ ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ المَالِ ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ ﴿وَلَا تَنسَ﴾ تَتْرُكْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ ﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ﴾ تَطْلُبْ ﴿ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ].

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱبْتَغِ﴾ أي: اطلُب، قوله: ﴿فِيمَآ﴾ أي: فِي الَّذِي، قوله: ﴿ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يعني: أعطاك مِنَ المَالِ، مِنْ هَذِهِ الكنوز العظيمة التي مَفَاتِيحُها تَنُوء بالعُصبة، اطلب فيها الدَّارَ الْآخِرَةَ.

وقوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ المراد بالدَّار الْآخِرَةِ الجَنَّةُ هنا، قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]، ولكن كيف يُطْلَبُ بِهِ الدَّارُ الْآخِرَةُ؟

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ]. وحينئذ يَكُونُ ذَلِكَ ذُخرًا لك

عِنْدَ اللهِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وإذا عَوَّد الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، ورَوَّضها عَلَى هَذَا الْأَمْرِ، صَارَ هَذَا الْأَمْرُ سَجِيَّةً له، يفرح به ويُسَرُّ، وتَنعم بِهِ نَفْسُهُ، ولذلك فإنَّ أحب شَيْءٍ إِلَى الكريم هو العَطاء.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي (زاد المعاد)[1] أن الإنفاق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي اللهِ -فِي حُدُودِ الشرع- يكون سببًا لانشراح الصدر، قال: «وَمِنْهَا: الْإِحْسَانُ إِلَى الْخَلْقِ وَنَفْعُهُمْ بِمَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالنَّفْعِ بِالْبَدَنِ وَأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ الْمُحْسِنَ أَشْرَحُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَطْيَبُهُمْ نَفْسًا، وَأَنْعَمُهُمْ قَلْبًا، وَالْبَخِيلُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِحْسَانٌ أَضْيَقُ النَّاسِ صَدْرًا، وَأَنْكَدُهُمْ عَيْشًا، وَأَعْظَمُهُمْ هَمًّا وَغَمًّا».

وَهَذَا أَمْرٌ معلوم، تجد أَكْثَرَ النَّاسِ انشراحًا فِي الصُّدُورِ هُم الكِرام، وَأَنَّهُ إِذَا أَعْطَى إنسانًا عطيّةً يجد بذلك سُرورًا وانشراحًا، فهو لو أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ هذا، وابتغى به الدَّارَ الْآخِرَةَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَضِيعُ عَلَيْهِ عِنْدَ اللهِ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَقُولُ الناصحون له: ﴿وَلَا تَنسَ﴾.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ أي: لَا تَتْرُكْ؛ لِأَنَّ النِّسْيَانَ يُطْلَقُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

أحدهما: الذُّهول عَنِ الشَّيْءِ المعلوم الذي عَلِمْتَه، ثم ذُهِلْت عَنْهُ.

والثاني: التَّرك.

ومنه أَيْضًا قَوْلُهُ تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧]، نَسُوا اللهَ: أي: تركوا عبادته، ولم يقوموا بحقهم.

قوله: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي فتَرَكَهُم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلم يُثِبْهُم.

---

(١) زاد المعاد، لابن القيم (٢/ ٢٤).

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:١٩]، أي: تركوه، وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، أي: جعلهم يَنْسَوْنَها ويَغْفُلُون عنها، ويتركونها دُون رِعاية.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦]، فالمراد بالنسيان: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم، فَاللهُ تعالى أحصاهُ لكن هؤُلاءِ نَسُوه.

فهنا إِذن مِن هَذَيْنِ الشَّاهِدَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ الكريم يتبين لَنَا أَنَّ النسيان يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: التَّرك، والثاني: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم.

وَالَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ اللهُ بِهِ هُوَ التَّرْكُ، أَمَّا الذُّهول فقد نَفَاهُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢]، هنا النِّسْيَانُ بِمَعْنَى: الذُّهول، وليس التَّرك؛ لِأَنَّ اللهَ يَتْرُكُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ممن يستحقون التَّرْك.

أَمَّا قَوْله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]، فهنا مَسْأَلَةٌ فِيهَا قَـوْلَانِ لأهل العِلم؛ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ قَوْله: ﴿فَنَسِىَ﴾ أي: تَرَك عَنْ عَمْدِ تَرْكٍ، فيكون مُسْتَحِقًّا لِلْعِقَاب.

وَعَلَى هَـذَا الرَّأْيِ لَا إِشْكَالَ فِي المَسْأَلَةِ، فكونُه يُعَاقَـبُ عَلَى أَمْرٍ تَرَكَهُ مِنْ غَيْرِ ذُهول، حيث تَرَكَهُ وَهُوَ عَالِمٌ به، ويكون مَلُومًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ المُرَادَ بالنسيان الذُّهول، وهـؤُلاءِ قَصَدُوا بِذَلِكَ تجنُّب وصف آدم بتعمُّد المعصية؛ لِأَنَّهُ إِذَا تَرَكَهُ عَنْ ذُهول لَا يُلَامُ، وهؤُلاءِ يَحْتَاجُونَ إِلَى الجَوَابِ عَنْ سُقوط الإثم بالنسيان، ويقولون: إِنَّ مِن خصائص هَذِهِ الْأُمَّةِ: سُقوط الإثم بالنسيان، كَقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللهَ تجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطأَ والنِّسْيَانَ،

وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(١).

فقوله: «عَنْ أُمَّتِي» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ كانت مؤاخَذَةً به، وكون الْأُمَمِ السَّابِقَةِ مؤاخَذَة، أَوْ غيْرَ مؤاخذة فِي الْحَقِيقَةِ هَذَا لَا يُرَجِّحُ أَحَدَ الْقَوْلَيْنِ، لكن الذي يُرَجِّح أنه نسيانُ تَركٍ، لا نِسيانُ ذُهولٍ.

أَمَّا قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١]، وهذان الوصفان مَعصية، ويَدُلَّان عَلَى أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ عَنْ عَمْدٍ، لكنه اغترَّ بِغُرور إبليس، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٢]، وقال: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٢١]، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]. اغتر آدمُ، وفَعَل مَا فَعَلَ.

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ﴾ كأنهم يقولون: اجعل انْهِمَاكَك فيما تُريد فِي الْآخِرَةِ، حَتَّى كَأَنَّ ما تُريده للدنيا يَغيب عنك، وَلَكِنْ لَا تَنْسَهُ.

وقوله تعالى: ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلآخِرَةِ].

يشير الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بنصيبه مِنَ الدُّنْيَا أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ يعني: لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا بإمهالِك، فما دُمْتَ قَدْ أُعْطِيت مُهلة؛ فلا تَنْسَ هذه المُهلة أَنْ تُنْفِقَ المَالَ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَيَكُونَ المُرَادُ بالنصيب مِنَ الدُّنْيَا هنا العَيش فِي الدُّنْيَا، يعني: لَا تَنْسَ أن تَغْتَنِمَ الفُرصة فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، فتُنفق، فتكون الجملة هنا عَائِدَةً عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى فِي المَعْنَى، أي: اطلب الدَّارَ الْآخِرَةَ فيما تُنفق حَتَّى لَا يُضِيعَ عليك الوقتُ، فيضيعَ نَصِيبُك مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي، رقم (٢٠٤٣).

وَلِهَذَا قَال: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ كَأَنَّهُ يَقُولُ: اغتنم هَـذِهِ المُدَّةَ الَّتِي هِيَ نَصِيبُك مِنَ الدُّنْيَا اغتَنِمْها للآخِـرة، ويَحتمل -وَهُوَ الأقرب- ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أَنَّنا لا نأمُرُك بأن تُنْفِقَ جميعَ مالِكَ طلبًا للآخِـرَة، بل اطلُـب الآخرة فيه، وخُذ نَصِيبًا مِنَ الدُّنْيَا لك، فَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ تَنْخَلِع مِنْ مَالِكَ، ولكننا نُرِيدُ أَنْ تَبْتَغِيَ به الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَمَعَ ذَلِكَ فخذ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا مِن طَيِّب المأكَل، ونظافَة المنزل، والثياب، والزوجات، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَهَذَا المَعْنَى أقربُ وأَصَحُّ؛ لأَنَّنا عَلَى المَعْنَى الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَكُونُ الْآيَةُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّكْـرَار، فَقَدْ تَكُونُ سَبَبًا لجَلْبه وقَبُـولِه النصيحةَ، وَقَدْ يَكُونُ قولُهم له بطلب الآخرة، وعَدَم نِسيان حَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا أَنَّ هَذَا أَقْرَبُ إِلَى قَبُولِ النصيحة، والأخيرُ أقربُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: هَذَا المَالُ الْعَظِيمُ الَّذِي مفاتيحه تَنُوءُ بالعُصبة ابْتَغِ به كُلِّه الدَّارَ الآخِرةَ. فالمتبادَر أنه لن يَقْبَلَ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ: ابتغِ به الآخِرة، وتَمَتَّعْ بالدُّنيا بنَصِيبِـك، فهَذَا يَكُونُ أدعى للقَبُـول، وَهُوَ أَيْضًا مِنَ الأساليـب الحَسَنة فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والنبي ﷺ قَالَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[(١)].

فَلَا تَقُلْ: إني أقومُ الليلَ، وأَصُومُ النهارَ ما عِشْتُ، هَذَا خَطَأٌ، فإِنَّ لربِّك عليك حقًّا بعبادته، ولكنْ لنفسك عليك حقٌّ بإعطائها الراحةَ، فالصَّواب هُوَ هَذَا، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له، رقم (١٨٦٧).

وَلَا نَدْرِي هل عاصر قارونُ فِرْعَونَ أَمْ كَانَ هَذَا بَعْدَ هلاكه؟ وَلَا يُوجَدُ مَا يَمْنَعُ أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَفَرَ، واتصلَ بِفِرْعَونَ، وصارت عنده الأموال العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَحْسِن﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ]، هنا الْمُفَسِّر خصَّ الإحسانَ، قال: أَحْسِن للناسِ بالصَّدَقة، ولكن الصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ مَا هُوَ أعمُّ، أي: أَحْسَنُ فِي عِبادَةِ الله، وفي معاملة عِبادِ اللهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ الكافُ هنا للتَّعليل، وليست للتَّشبيه؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لإنسان أَنْ يُحْسِنَ مِثْلَ مَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ، فإحسان اللهِ إِلَيْهِ أكملُ وأعظمُ، وَقَدْ جاءَتِ الكاف للتَّعليل فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، أي: واذكروه لهدايتكم، وَمِثْل قَوْلِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(1)، فإن الكافَ هنا للتَّعليل، وليست للتَّشبيه.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ نَسْلَمُ بِهِ مِنَ الإيراد الذي أورده بَعْضُ النَّاسِ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ، وَهُوَ أَنَّهُ مِن الْعَادَةِ أَنَّ الْمُشَبَّهَ أَقلُّ شأنًا ورُتبةً مِن الْمُشَبَّهِ به، وَمُحَمَّدٌ ﷺ لَا شَكَّ أَنَّهُ لَيْسَ أَقَلَّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، فكيف قيل: «صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ».

مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ أجاب فقال: إِنَّ التَّشبيه لِلصَّلَاةِ عَلَى وَاحِدٍ فِي الصَّلَاةِ عَلَى جَمَاعَةٍ: إبراهيمَ وآله، وَهَذَا يَصِحُّ أَنْ يُعطَى مُحَمَّدٌ ﷺ مِثْلَ مَا أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ، وَلَكِنْ لَا حَاجَةَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّ الْمَعْنَى: أنك يا ربي كَمَا صَلَّيْت عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّ هَذَا مِن شأنك، ومِن عادتك التكرُّم، فامنُن أَيْضًا

---

(1) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، بابٌ، رقم (٣٣٧٠)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، رقم (٤٠٦).

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فتكُون جُمْلَةُ: «كَمَا صَلَّيْتَ». للتَّعلِيل، وَهِيَ فِي الحَقِيقَةِ للتَّوسُّل، يعني: إننا نَتوسَّلُ إليك بما فعلتُ مِنْ قَبْلُ فِي إِبْرَاهِيمَ وآلِه، أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَآلِ مُحَمَّدٍ.

قَوْلُه: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ بِالمَالِ العظيم، الذي مفاتِحُه تَنُوءُ بالعُصبة، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الفساد بالبَغي؛ حَيْثُ قَالَ تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾، فلا تبغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ بالبغي، كَذَلِكَ أَيْضًا إِنْ كَانَ هَذَا الرَّجُلُ يعمل بِمَالِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَيَكُونُ هَذَا مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ؛ أَنَّ مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا، وَلَيْس عِنْدَهُ إيمان؛ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ مِنْ مَالِهِ وَسِيلَةً إِلَى الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وقوله: ﴿ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالمَعَاصِي؛ لأن المَعَاصِيَ فِي الحَقِيقَةِ هِيَ سَبَبُ فسادِ الأرض، قَالَ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ [الروم:٤١].

ولهذا مَا مِنْ شَيْءٍ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ مِن فِتنٍ، وحُروبٍ، وقِتالٍ، وجَدْبٍ، وغيره، إلا بسبب المعاصي، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [فاطر:٤٥].

فهذا الهَرْجُ الَّذِي كَثُرَ فِي هَذَا العصر، كُلُّ ذَلِكَ بسبب المَعَاصِي الَّتِي تُفعل، فهي عقوبة للعُصاة الذين أُصيبوا بهذه، وإنذارٌ للآخرين؛ فإنك قَدْ ترَى البلاد الآمنة المطمئنةَ التي يَأْتِيها رِزْقُهَا رغدًا مِنْ كُلِّ مَكَان، ويَجلب النَّاسُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَكَان، ثم تفاجأ بأنها دُمِّرت مساكِنُها، وبُيُوتُها، وأَمْنُها، ورخاؤها؛ بسبب المعاصي.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِمَعْنَى أَنَّهُ

يُعَاقِبهُمْ]. وهذا يُسمونه تأويلًا، ونحن نُسميه تحريفًا؛ لِأَنَّ الْآيَةَ لَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ اللهَ يُعاقب المفسدين، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُحِبُّهم، أي: إنها تنتفي عنهم محبة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي الصِّفَة الثابتة لَهُ حَقِيقَةً عَلَى وَجْهِ الكمال، لَكِنْ إِذَا كَانَ لَا يُحبهم، فلا يُثيبُهم.

وَإِذَا قُلْنَا: إِنَّ نَفْيَ المحبة إثباتٌ للكراهة لَزِم منه المعاقبة، فتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ لمحبته هنا باللازم، وهو المعاقبة، خطأٌ، هذا يعتبر تحريفًا لِكَلَامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فهناك فرق بَيِّن بَيْنَ نفي المحبة والمعاقبة، كَمَا أَنَّ هُنَاكَ فَرْقًا بَيْنَ المحبة والإثابة، والمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يحمل المحبةَ على الإثابة، وَمَا هِيَ عَلَى الإثابة.

فالحاصِلُ: أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنَ الأشاعرة وغيرهم، فَإِذَا كَانَتِ الصِّفَةُ لَا تَدْخُلُ عقولهم، قالوا بالتأويل.

فَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الإسلام عنهم القاعدةَ فِي إِثْبَاتِ الصفات، حَيْثُ قَالَ: «وكان ابن كُلَّاب وأتباعه يقولون: إِنَّ العُلُوَّ على المخلوقاتِ صِفَةٌ عقلية تُعلَم بالعقل، وأمَّا استواؤه على العرش، فهو مِن الصفات السمعية الخبرية التي لا تُعلم إلا بالخبر، وكذلك الأشعري يُثبت الصفات بالشرع تارةً، وبالعقل أخرى، ولهذا يُثبت العُلُوَّ ونحوه مما تَنْفِيه المعتزلة، وثَبَت الاستواء على العرش، ويرد على مَن تأوله بالاستيلاء ونحوه مما لا يختص بالعرش، بخلاف أتباع صاحب الإرشاد، فإنهم سلكوا طريقة المعتزلة، فلم يُثبتوا الصفاتِ إلا بالعقل، وكان الأشعري وأئمة أصحابه يقولون: إنهم يحتجون بالعقل لما عُرِف ثُبوتُه بالسمع، فالشرع هو الذي يُعتَمد عليه في أصول الدِّين، والعقلُ عاضِدٌ له مُعاوِن.

فصار هـؤُلاءِ يسلكون ما يَسلكُه مَا سَلَكَه مِن أهلُ الكلام المعتزلة ونحوهم فيقولون: إن الشرع لا يُعتَمد عليه فيما وُصِف الله به، وما لا يُوصَف، وإنما يعتمد في

ذلك عندهم على عقلهم، ثم ما لم يُثْبِتْه إما أَنْ يَنْفُوه، وإما أَنْ يَقِفُوا فيه»[1].

هـذه هِيَ الْقَاعِـدَةُ فِي إِثْبَاتِ الصفات أو نَفْيِها عند المتكلميـن مِن المعتزلـة والأشاعرة وغيرهم.

وأهلُ السُّنة جميعًا يقولون: مَا أَثْبَتَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ أثبتناه، وما نفاه الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ نفيناه، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السُّنَّةِ توقفنا فيه.

أما هُم فعلى العكـس، يقولون: مَا أَثْبَتَـهُ العقل أثبتناه، وما نفاه نَفَيْـنَاه، وَمَا لَا يَقْتَضِي إِثْبَاتَهُ، وَلَا نَفْيَهُ أكثرُهم يقولون: نَفَيْنَاهُ، ولا نَقْبَلُه؛ لأَنَّنا نشتـرط لِقَبُـول الصِّفة إثباتَ العقل لها، فَإِذَا لَمْ يُثبتها وَجَبَ نَفْيُهَا.

وبعضُهم يقول: اتَّقُوا اللهَ، واعدلوا، إِذَا كَانَ الْعَقْلُ لَا يَقْتَضِي إثباتها، وَلَا نَفْيَها، فالواجب التوقُّف؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ ترجيحٌ بالإثبات، ولا ترجيح بالنفي، فيجـب عَلَيْنَا أَنْ نتوقف.

فَهَؤُلَاءِ هُمُ الوَرِعون منهم، لكنَّ الوَرِعيـن فِي هَذِهِ النقطة غيـر الوَرِعيـن في النقطة الأولى، وَهِيَ مَا أَثْبَتَهُ العقلُ أثبتناه، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وما نَفَاهُ العقل نَفَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ مَذْكُورًا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: فيها دَلِيلٌ عَلَى أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المَالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المَعَاصِي والفساد، وَغَيْـرِ ذَلِكَ؛ لقولهم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، ولَوْ كَانَ يُنْفِقُهَا مِن أَجْلِ الدَّارِ الآخِرَةِ ما قَالُوا لَهُ هَذَا.

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٢/ ١٢).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي لمن آتاهُ اللهُ مَالًا أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةِ، وَالْقَصْدَ فِي بَذْلِهِ، أي: كُلُّ إِنْسَانٍ عِنْدَهُ مَالٌ يَنبَغِي بَذْلُه، لكن يَنْبَغِي أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةَ وَالْقَصْدَ، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَالَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: «**وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[1]، فقد قيَّدها بقوله: «**تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ**»، أَمَّا لَوْ أَنْفَقَ الإنسان لِغَيْرِ هَذَا الْغَرَضِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُثَابُ، وإِنْ أَنْفَقَ لِغَرَضٍ سَيِّئٍ؛ فَإِنَّهُ يُعَاقَبُ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ يُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُ يجب أَنْ يَقصد الدَّارَ الْآخِرَةَ، بِأَنْ يَكُونَ فِي الْخَيْرِ.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ الْمَالَ -وَإِنِ اكتسبه العبدُ بِفِعْله- فَهُوَ مِنْ فَضْلِ اللهِ؛ لقوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فهو، وَإِنْ كَانَ الإنسانُ يكتسب ويَتَّجِر ويُحَصِّل، لكنه مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ الَّذِي يُقَدِّرُه.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: إثبات الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لقوله: ﴿ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتَاهُ اللهُ تعالى فِي الدُّنْيَا، ولكن بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ المعصيةِ؛ لِقَوْلِهِ فِي جُمْلَةِ النصيحة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾، هَذَا عَلَى الرأي الَّذِي اخْتَرْنَاهُ.

أَمَّا عَلَى رَأْيِ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فَإِنَّ هَذَا عَائِدٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾، وَيُرِيدُ أَنْ يَكُونَ نَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الفُسحة والمُهلة التي أُعْطِيَها، لا يُضِيعُها.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، رقم (٥٦)، ومسلم: كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، رقم (٥٦).

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: حُسْنُ دعوة هـؤُلاءِ، حيث ذَكَّروه بنعمـة الله عليه، لقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فكأنهم يقولون: أحسِنْ؛ لِأَنَّ الله أحسنَ إليك، فأنت حينما تُحسن تكون شاكرًا لِنِعْمَةِ الله.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يُذكِّرَ المَدعو بنعمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا ذُكِّر بالنعمة، فقد يَخْجَلُ مِنَ اللهِ، فَلَا يَعْصِيه.

أَمَّا إِذَا ذُكِـرَ لَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيَ مُجَـرَّدًا عَنِ الأسباب والوسائل التي تَحْمِلُه عَلَى الْفِعْلِ، أَوِ التَّرْكِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدعوةَ تكون قاصرةً، فالذي يَنْبغي للدَّاعي أَنْ يُذَكِّر المرءَ المدعو بما يقتضي إقبالَه وقَبُولَه؛ لقولهم: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؛ لقوله: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾، وإذا حَرُمـت نِيَّة الفساد، فالفسادُ نَفْسُه مِنْ بَابِ أَولى، ويَحْرُم عَلَى المَـرْءِ أَنْ يُفسِد، أو أَنْ يَنْوِيَ الفساد.

الْفَائِدَةُ العَاشِرَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ الْفَسَادِ؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ مَحَبَّةِ اللهِ؛ لأن نَفْيَهَا عَنِ المفسدين دَلِيلٌ عَلَى ثُبوتها للمصلحين.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: مِن حُسـن الدعوة أَلَّا يُؤَيَّس الْإِنْسَانُ، فيقال: لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعالِك للآخِرة؛ لأن الْإِنْسَانَ إِذَا طُلِبَ مِنْهُ أَنْ تَكُونَ كُلُّ أفعاله للآخرة، فَقَدْ يَنْحَسِرُ، وَلَا يَقْبَلُ، لَكِنْ إِذَا قِيلَ لَهُ: هَذَا وَهَذَا، فهو أدعى للقَبُول، وَهُوَ مِنْ حُسْنِ الدعوة التي سَلَكَها هؤلاءِ الدعاة.

• • ✿ • •

الآية (٧٨)

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

• • ∞ • •

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أَيِ المَالُ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَتِهِ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ تعالى ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَيُهْلِكُهُمُ اللهُ ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لِعِلْمِهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلَا حِسَابٍ].

انظر جواب قارونَ هؤُلاءِ الناصحين ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي: المال، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

وكانوا قد قَالُوا لَهُ قَبْلَهَا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فَلَمْ يعترف، بَلْ قَالَ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

واختلف المُفَسِّرُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ فَقِيل -كَمَا قال المُفَسِّرُ- أي: فِي مُقَابَلَتِهِ: أي: إِنَّهُ لَيْسَ فَضْلًا مِنَ اللهِ، ولكن لأني كنتُ عالمًا بالتَّوراة وفاهمًا أُوتِيت هذا الشَّيْءَ. فجَعَل فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ مِن باب المكافأة، وَلَيْسَ مَنْ باب الفضل.

إذن: هو رَدَّ نصيحتَهم، ولم يعترِف بأن الفضل لله، هَذَا قَوْلٌ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: إنما آتَانِي اللهُ ذَلِكَ؛ لأني أهلٌ له، فيصير المعنى: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهلٌ.

وبمعنًى آخَر: لأني عالِمٌ بأسباب الرزق، فاكتسبتُه بما معي مِنَ الْعِلْمِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ، بل أَنَا رَجُلٌ حاذِقٌ أعرفُ كيف أتصرف، وأعرف الْأَسْبَابَ الَّتِي فِيهَا نُمُوُّ المال، فحَصَل لي ذَلِكَ بِمَا عندي. كَأَنَّهُ يَقُولُ: إنما أُوتيتُه بِحَوْلِي وقُوَّتِي، وليس بِفَضْلِ اللهِ ومِنَّتِه.

فصار عَلَى المَعْنَى الْأَوَّلِ نَسَب هذا الإتيانَ عَلَى أَنَّهُ مكافأةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ له، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي نَسَب هذا الْفَضْلَ إِلَى حَوْلِه وقُوته، وَلَيْسَ إِلَى فَضْلِ اللهِ تعالى.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَاةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ]، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ -مِن زَعْمِه أنه أعلمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتَّوراة بَعد مُوسَى وَهَارُونَ- غَيْرُ مُسَلَّم به؛ بَلْ إِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّهُ قَالَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي له أهل، وأني أهلٌ لهذا الشَّيْء، أَوْ عَلَى عِلْم عندي، أي: عَلَى مَعْرِفَةٍ مني بالأمور، وأمَّا أنه أعلمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بالتوراة، فلَيْسَ فِي الْآيَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ الهمزة للاستفهام، وَالْمُرَادُ بِهَا التقرير، أي: إِنَّهُ قَدْ عَلِمَ؛ لِأَنَّ الَّذِي قَدِ عَلِمَ هُوَ اللهُ، وَهُوَ عَالِمٌ بأَنَّ قارونَ عَالِمٌ بِذَلِكَ، فالتقريرُ هنا مِنَ اللهِ، هُوَ الَّذِي أخبرنا بأَنَّ قارون قَدْ عَلِمَ بِهَذَا الْأَمْرِ.

وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ﴾ الإهلاكُ هُنَا بِمَعْنَى الإفْنَاء، وقوله: ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾ جَمْعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ تارَةً يُرادَ بِهِ الْأُمَّةُ، وتارَةً يُرَادَ بِهِ الزمن، فيُقال مثلًا: تتابعت الأُمم قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، أي: زَمَنًا بَعْدَ زَمَن.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: الأمم، ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لِلْمَالِ أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ].

قوله: ﴿مَنْ﴾ مفعول ﴿أَهْلَكَ﴾، أي: الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ، أي: مِن قارون، قوله: ﴿قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ للمال ﴿أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ فِي بَدَنِهِ، وَأَمَّا المَالُ فقال: ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ أي: أكثرُ مجموعًا للمال، أو: أكثر تحصيلًا له، وَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ كلام الْمُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: ﴿جَمْعًا﴾ أي: تحصيلًا، وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا: أكثر جَمْعًا، أَوْ مجموعًا، كَانَ أَوْلَى؛ لأن المجموعَ نتيجة للقوة التي يُحصِّل بها المَرْءُ المالَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ]، فأفادنا بأن الاستفهامَ هنا للتقرير، أي: إِنَّ قارونَ قَدْ عَلِمَ، ولكنه تجاهَلَ الأمرَ، قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولا يسألهم عن ذنوبهم، لا يسألهم سؤالَ استخبار، وإنما يسألهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ سؤالَ تَبْكِيت؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى يَسْأَلُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ ذُنوبهم، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وَقَالَ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

إذن نقول: النفيُ لحالٍ، والإثباتُ لحالٍ، يعني: لَوْ قَالَ قَائِلٌ: كيف تجمعون بَيْنَ هَـٰذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وأمثالها مِثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩]، وبين الْآيَاتِ الَّتِي تُثبت السؤال مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؟

فالجواب عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ السُّؤَالَ المَنفِيَّ هُوَ سُؤَالُ الاستفسار، الَّذِي يَسْأَلُ: هل أذنبتَ؟ وما ذَنْبُك؟ والسؤال المُثْبَتُ سؤالُ التوبيخِ والتَّبْكِيت والتَّقْرِيع، أي يُسْألون لِيُقِرُّوا، فهذا ثابتٌ كَمَا ذَكَرَ اللهُ هُنَا.

سؤال النفي أَنَّهُمْ لَا يُسألون لِأَجْلِ أَنْ يُخْبِرُوا عَنْ ذُنوبهم، وإذا أَخْبروا -مثلًا- تُرِكُوا، أو يُعاقَبُون عَلَى حَسَبِ إخبارهم؛ لأنهم سيُعَاقَبُون، سواء أَخبَروا أَوْ لم يُخْبِرُوا، لكنهم يُنكِرون، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، ولكنهم لا يَسْتَفِيدُونَ مِنْ هَذَا النفي شيئًا.

فسؤالُ الاستفسارِ مَعْنَاهُ أَنَّك تَسأل الْإِنْسَانَ عَنْ شَيْءٍ تجهلُه لِيُخْبِرَك به، هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَرِدَ بالنسبة للمُجرمين، وَهَذَا هُوَ المَنْفِيُّ.

أَمَّا سؤال التَّوبيخ فتسألُه عَنْ شَيْءٍ لِيُقِرَّ به، لَا لِيخبرك، ولأَجْل أَنْ يَخْزَى بَيْنَ النَّاسِ.

فإذا سُئِلوا قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾، وشهِدت جوارحُهم؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، أو إنهم يُسأَلون فيجحدون فِي مَكَانٍ، أَوْ فِي وَقْتٍ، ويُسألون فيُقِرُّون فِي وَقْتٍ آخَرَ.

فتبيَّنَ الْآنَ بِذَلِكَ أَنَّ السؤال المنفيَّ غيرُ السؤال المُثْبَت، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ.

وبعضهم يقول: إِنَّ السُّؤَالَ المُثْبَت يَكُونُ فِي وَقْتٍ، والسؤال المنفيُّ فِي وَقْتٍ آخَرَ؛ لأن يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِقدارُه خمسون أَلْفَ سَنَةٍ، فالمدة طويلة، فيُمكن أَنْ يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ، ولا يُسْأَلُوا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

وَقَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ المجرم هُوَ فَاعِلُ الإجرام، والإجرام: المعاصي،

فالمعنى: أن العُصاة لا يُسألون، وَأَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ الإجـرام عَلَى الْكُفْرِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين:٢٩]، فلماذا لا يُسألـون؟ يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لِعِلْمِـهِ تعالى بِهَا فَيَدْخُلُـونَ النَّارَ بِلَا حِسَـابٍ]، أي: إِنَّهُمْ لَا يُسألون، وإنما يُدخَلُون النار بِدُونِ حساب، ولكنَّ الصَّحِيحَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الحساب؛ لِأَنَّ مَنْ يؤتَى كتابَه فسوف يُحاسَبُ، قَالَ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٥-٢٦].

فهُم يُحاسَبُون، لكنَّهم لا يُحاسبون محاسبـةَ مَن تُوزَنُ حسناتُه وسيئاتُه؛ لِأَنَّهُمْ ليس لَهُمْ حسناتٌ، وإنما يُحاسَبون محاسبةَ تقريعٍ وتوبيخ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيان بَغْيِ قارون، حَيْثُ لَمْ يَعْتَرِفْ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ كَسْبِـهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة اللهِ، فالإنسان الَّذِي يَقُولُ: حصَّلت هذا بيدي، وبمعرفتي بالأمور والمكاسب. نقول له: أنت مُشابه لقارون.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تقريع أولئك الذي يفتخرون بسعيهم، بِأَنَّ اللهَ تعالى قَدْ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ القرون مِمَّنْ هُوَ أَشَدُّ منهم قوةً، وأكثر جمعًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ المجرمين عند إهلاكهم لا يُسألون فيُرحمون، وإنما يُهلَكُون بِدُونِ سؤال، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

الآيــة (٧٩)

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القَصَص:٧٩].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَخَرَجَ﴾ قارُونَ ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ﴾ يَا: لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ﴾ نَصِيبٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَخَرَجَ﴾ أي: قارون، ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المراد بقومه بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾، والجُملة حَالٌ مِنْ فَاعِلِ (خَرَجَ)، يعني: حَالَ كَوْنِهِ متلبسًا في زينته.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مفسرًا للزِّينة: [بِأَتْبَاعِهِ الكَثِيرينَ]؛ لأن الأتباع مِنَ الْخَدَمِ ونحوهم زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

ويحتمِل خِلَافَ مَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو أَنَّ المُرَادَ بزينته أي: بماله الْعَظِيمِ الَّذِي يتزين بِهِمْ مِنَ الْخَدَمِ والمركوبات والأمتاع، وغيرها.

ثُمَّ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِأَتْبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ

وَالْحَرِيرِ عَلَى خُيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّيَةٍ].

قَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ كَمَا قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَقَدْ يَكُونُ أَقَلَّ، وَقَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِمَّا قَالَ، فَالْأَوْلَى أَنْ تَبْقَى الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا.

قَوْلُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي زِينَتِهِۦ﴾ أي: فيما يستطيع مِنَ الزِّينَةِ، سواء باللباس، أو بالمركوب، أو بالأتباع، أو بالمال، أَوْ بِغَيْرِ ذَلِكَ، أَيْ فِي زينته التي يَفْخَرُ بِهَا عَلَى قَوْمِهِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يبتغونها ويطلبونها ولها مِيزان فِي نُفُوسِهِمْ.

قَوْلُهُ: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ﴾ يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ]، يعني: ليست للنداء، لِأَنَّهَا لَمْ تَدْخُلْ على مُنَادًى، فقوله: (لَيْتَ) حرفُ تَمَنٍّ، والمنادَى لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ اسْمًا يصح نداؤه، وعليه فتكون للتنبيه.

وقيل: إنها للنداء، والمنادَى محذوف تقديره: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ، وهذا التركيب متكرر فِي الْقُرْآنِ الكريم، والنحويون اخْتَلَفُوا فِيهِ عَلَى هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو لمجرد التنبيه، وَلَيْسَ هُنَاكَ نداء ولا منادى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هو للنداء، وأن المنادى محذوف، فالتقدير -مثلًا- هنا: يَا قَوْمَنَا لَيْتَ لَنَا.

قوله: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ اسم (لَيْتَ) هو ﴿مِثْلَ﴾ وهو منصوبٌ، وخبرُها مُقَدَّم، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَنَا﴾ وَهُوَ فِي مَحَلِّ رفع؛ لأن التقدير: ليت مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ لنا.

قَوْلُه تعالى: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾: ﴿أُوتِىَ﴾ بمعنى: أُعطِيَ قارون مِنَ المَالِ؛

وَلِهَذَا قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الدُّنيا]، مِنَ المَالِ والكنوز والزينة.

ونرى أَنَّهُمْ لَمْ يقُولُو: يا لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، بَلْ قَالُوا: مِثْله؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ قَالُوا: لَيْتَ لَنَا مَا أُوتِيَ قارون، كَانَ ذَلِكَ حسدًا؛ لأنهم يَتَمَنَّون بذلك زَوَالَ النِّعْمَةِ عنه، لكنهم قالوا: مِثْلَه، وهذا الْأَمْرُ لَا يَجُوزُ، إذا أُعطُوا مِثله، ولكن لهم مثلُه.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَصِيبٌ، ﴿عَظِيمٍ﴾ وَافٍ فِيهَا]. أي: فِي الدُّنْيَا.

قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: قارون، ﴿لَذُو﴾ أي: لصاحبٍ، ﴿حَظٍّ﴾ أي: نصيب، ﴿عَظِيمٍ﴾ وافٍ، ويَحتمِلِ فِي المَعْنَى: وافِر، فالعظِيم هو: الوافِرُ الكثير، فَهُوَ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَهَذَا إِنَّمَا يقوله مَن كان نظرُه قاصرًا، وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الدُّنيا.

والحقيقة أَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ هِيَ الحَظَّ، وإنما الحَظُّ نصيبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْآخِرَةِ، أما نصيبُه مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ؛ لأنه نصيبٌ يزولُ هو، أو يزول مَن أُعطيَه وَلَا يَنْفَعُ؛ ولأنه نَصِيبٌ فِي الْغَالِبِ يَحْمِلُ عَلَى الخُسارة والفساد، ويَحْمِلُ عَلَى الأَشَرِ والبَطَرِ، فيَخْسَر الإنسان دِينَه ودُنياه، فَلَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ حَظٌّ، لكن يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ كان نَظَرُه قاصِرًا.

وإلى وقتنا هذا، النَّاسُ إِذَا رَأَوْا شخصًا تاجرًا كَبِيرًا قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالمَالِ، قالوا: مَا شَاءَ اللهُ، إنه صاحِب حظ. ولكن هؤُلاءِ قِصارُ النَّظَرِ؛ إِذْ إِنَّ الحَظَّ الحقيقي هو حَظُّ الْآخِرَةِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]، هَذَا هو الْحَظُّ الْعَظِيمُ.

وَهُم فِي قَوْلِهِمْ لم يُقَيِّدوا ذَلِكَ أَيْضًا فِي الدُّنْيَا، كأنهم تَنَاسَوُا الآخِرَة، وَرَأَوْا أَنَّ

الحَظَّ هو حَظُّ الدُّنْيَا، ولكن قابَلَهم أَهْلُ الْعِلْمِ والإيمان بقولهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ قارونَ كَانَ يُظْهِرُ الأُبَّهة والعَظمة، حيث يَخْرُجُ فِي زينته مِنَ المَالِ والرجال.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ ذَوِي النظر القاصر يتمنَّون مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾.

الآيــة (٨٠)

• • ◦ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٨٠].

• • ◦ • •

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ بِمَـا وَعَدَ اللهُ فِي الْآخِـرَةِ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كَلِمَةُ زَجْرٍ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ فِي الْآخِـرَةِ بِالْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مِمَّا أُوتِـيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَـا ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أَيِ الْجَنَّـةُ الْمُثَابُ بِهَا ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأولِيـن جُهَّال، ليس عندهم عِلْمٌ، وَلَا معرفةٌ بالأمور وحقائقها.

قوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ كلمةُ زَجْرٍ، يُقْصَدُ بِهَا زَجْرُ الإنسان عمـا يُرِيدُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغِي الزَّجْـرُ عنها، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ (وَيل)، أي: عذاب، قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون:٤]، ولكنها يُرَادُ بِهَا الزَّجْر، أي: وَيْلَكُم إِنْ تَمَنَّيْتُم ذلك، أي: مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارونُ.

وإعرابُ (وَيْلَ): مفعولٌ لِفِعْلٍ محذوفٍ تقديرُه: أَلْزَمَكُمُ اللهُ وَيْلَكم، أي: جعل الوَيْلَ لازِمًا لَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ تمنيتم مَا أُوتِيَ قارونُ، أَوْ مِثْلَه؛ لأن هناك مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فِي الْآخِرَةِ فِي الْجَنَّةِ].

قوله: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ الثوابُ هُوَ الجَزَاءُ؛ كأن العمل ثَابَ، أي: رَجَعَ إِلَى صَاحِبِهِ بجزاءٍ عليه، فثوابُ اللهِ فِي الْآخِرَةِ خيرٌ، لكن لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا، فالمؤمن العاملُ عَمَلًا صَالِحًا ثَوَابُ اللهِ لَهُ فِي الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، بَلْ قَالَ الرَّسُول ﷺ: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

قوله: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الإيمان: التصديقُ مع القَبول والإذعان.

وقوله: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ الْعَمَل الصَّالِح: هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمتابعة لِرَسُولِهِ ﷺ، وَكُلُّ ذَلِكَ خَيْرٌ مما أُوتِيَ قارون فِي الدُّنْيَا.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيِ الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ أي: ما يُوفَّق لها، ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ]، وَلَوْ أَنَّهُ أَتَى بالأمر الثالث، وهو الأقدار، أي لَوْ قَالَ: وعلى الأقدار. لَتَمَّ لَهُ الْأَمْرُ، فالتَّفسير ناقص، فهُمُ الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، لا يَمَلُّون، ولا يَفْتُرُون، ومَعْصِيَةُ اللهِ لَا يُمارِسُونها، وعلى أقدار الله المؤلمة لا يَتَسَخَّطون منها. وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ الَّذين يعلَمُون حقائِقَ الأُمـور، يَدْرُون أَنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بشيء، وأَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ وأَجَلُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لا يَنَالُ ثـوابَ الْآخِـرَةِ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا؛ لقوله:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢).

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّهُ لَا يُوَفَّق لذلك الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الصابرون عَلَى طَاعَةِ اللهِ، وعن معصيته، وعلى أقداره؛ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

• • ۞ • •

الآية (٨١)

• • ● • •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

• • ● • •

قال المُفَسِّرُ: [﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ﴾ بِقَارُونَ ﴿وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ مِنْهُ].

قَوْلُه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بقارون، فَهَوى فِي الْأَرْضِ هُوَ وداره، ولم تُغنِ عنه الْأَمْوَالُ، وَلَا الرِّجَالُ، وَلَا غَيْرُها، وَإِنَّما كَانَتْ عقوبته بالخَسْف؛ لِأَنَّهُ كَانَ بَاغِيًا عاليًا متكبرًا، فأُخِذ بما يُناسب حالَه، فالعالي أشد عقوبةٍ لَهُ أَنْ يُنَزَّلَ مِن مكانته العالية، ولهذا كانت العقوبة مناسبةً للعَمل، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت:٤٠]، وممن خسف اللهُ بِهِ الأرض قارونُ ودارُه.

قَوْلُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيْ غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ الْهَلَاكَ].

قوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ ما نافية، و﴿مِن﴾ مِن حَرْفُ جَرٍّ زائدٌ إعرابًا، و﴿فِئَةٍ﴾ اسْمُ كَانَ مرفوع بها، وعلامةُ رفعِه ضمةٌ مُقَدَّرَةٌ عَلَى آخِرِهِ، مَنَعَ مِن

ظُهورها اشتغالُ المحَلِّ بحركة المناسبة، أي مناسَبة حَرْفِ الجَرِّ الزائد.

والإتيان بـ﴿مِن﴾ هنا له فَائِدَةُ مَنْ حيث المعنى، وهي التنصيص عَلَى الْعُمُومِ، أي: مَا كَانَ لَهُ أَيُّ فِئَةٍ تَقُومُ بِنَصْرِه.

والفئةُ: الطَّائِفَةُ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المـرء، هذه الفئة مَأْخُـوذَةٌ مِن فَاءَ يفِيءُ: إِذَا رَجَعَ؛ لأن الفِئة التي يَرْجِعُ إِلَيْهَا المرء لتُنَاصِره هي محلُّ فَيئِه، أي: محلُّ رُجوعه.

والمعنى: أنه مَا كَانَ لَهُ أَحَدٌ ينصره، حَتَّى ما جَرَتِ العادةُ بأنه ينتصر بهم.

وقوله: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ النَّصر: المنعُ مما يَضُرُّ، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ﴿دُونِ﴾ هُنَا بِمَعْنَى غير، فلَمَّا نَزَلَ بِهِ بأسُ الله، ما نَفَعَتْهُ زِينَتُه، ولا مَنَعَه جنودُه؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لَهُ الْقُوَّةُ الكاملة، والقُدرة العظيمة.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾: (مِن) أي: مَا كَانَ أَحَدٌ ينصره، وَلَا هُوَ أَيْضًا انتَصر بنفسِه، فصار ضعيفًا بنفسه وبِغَيْرِه، فقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَمِن عذابِه، بل أصبحَ عاجزًا وَهُوَ فِي بَيْتِهِ، مخسوفًا به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: بيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: التَّحْذِيرُ مِنَ التعالي والبغي عَلَى الخَلْقِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَنْزَلَ العقوبةَ بأحدٍ، فَلَيْسَ لَهُ ناصـرٌ دُونِ اللهِ، ولو عظُمـت قُوَّتُه، وكَثُرَ جُنْدُه؛ لقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

الآيــة (٨٢)

• ● ∽ ● •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢].

• ● ∽ ● •

قال المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أَيْ مِنْ قَرِيبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ﴾ يُوَسِّعُ ﴿ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَ(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ) ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لِنِعْمَةِ اللهِ كَقَارُونَ].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أصبح هنا معناها: صار، أي: صار الذين تمنَّوا مكانه بالأمس يقولون... إِلَى آخِرِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ بِمَعْنَى أصبح، أي: دَخَلُوا فِي الصباح، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [القصص:١٨].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ صار الآن الَّذِينَ كَانُوا يتمنَّوْن مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون يتعجبون، ويعلمون أَنَّ اللهَ يُوَسِّع الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ، ويُضَيِّقُه عَلَى مَنْ يَشَـاءُ، وَأَنَّ هَذَا عَلَى حَسَـبِ مُقْتَضَى حِكمتـه؛ وليس لأن قارون لَهُ حَـظٌّ عظيم،

بل لأن اللهَ هُوَ الَّذِي يُعْطِي ويمنع.

إعراب قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ لفظ الجلالة هنا يُعرَب اسمَ (إِنَّ) عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ، واسم (كَأَنَّ) عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَبْسُطُ﴾: يُوَسِّعُ]، وقوله: ﴿ٱلرِّزْقَ﴾ أي: العَطاء، وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَنْ بِمَعْنَى الَّذِي، أي: للذي يشاء.

وهذه المشيئة هي مشيئةٌ مقرونة بحكمةٍ، وَقَدْ بَيَّنَّا قَبْلَ ذلك أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ علَّقه اللهُ تعالى بمشيئته؛ فإنه مقرونٌ بحِكمته، فَاللهُ تعالى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ممن اقتضت حكمتُهُ أَنْ يَبْسُطَ لَهُمُ الرزق، وَقَدْ جاءَ فِي الْحَدِيثِ القدسي: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ**»(١).

فالله تعالى حكيم، يَبْسُطُ الرِّزْقَ لفلان؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، ويضيِّقه عَلَى فُلَانٍ؛ لأن الحكمة تَقْتَضِي ذَلِكَ، وليس لِأَنَّ المَسْأَلَةَ مسألةٌ اعتباطيَّة دون أيِّ رَوِيَّة، بل للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحِكْمَةُ فِيمَا أعطى، وفيما مَنَع.

وقوله: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ عباد: جمعُ عَبْدٍ، والمراد بالعُبوديَّة هنا العُبوديَّة العامَّة، الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الكوني، وليست العبودية الخاصة الَّتِي هِيَ التذلُّل للأمر الشرعي، وقد مَرَّ عَلَيْنَا أَنَّ العبودية تَنْقَسِمُ إِلَى اثْنَيْنِ:

عبودية عامَّة: وهي الخُضوع للأمر الكوني، وهي شَامِلَةٌ لِجَمِيعِ الخَلق، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة (٥/ ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٨)، وابن عساكر (٧/ ٩٥).

عبودية خاصَّة: وهي الخضوع للأمر الشرعي، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، وهذه خاصة بالمؤمنين.

فالعُبودية المرادة فِي الْآيَةِ هِيَ العُبودية العامَّة؛ لأن بَسْطَ الرزق وتَضْيِيقَه يكون للمؤمن، ولِغَيْرِ المؤمن.

وَفِي قَوْلِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَبْضَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَأَنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونه.

وعليه؛ فإننا إِذَا كُنَّا بالله، ومع الله، فلا نهابُ أَيَّ قُوَّةٍ فِي الْعَالَمِ؛ لأَنَّنا نعلم أَنَّ كُلَّ مَا فِي الكون خاضِعٌ للهِ تعالى.

وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضيِّق عَلَى مَنْ يَشَاءُ، أي: يَجْعَلُهُ عَلَى قَدْرٍ مُعَيَّن، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، فهنا ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى: ضُيِّقَ عَلَيْهِ حَتَّى صارَ عَلَى قَدْرِ كفايته، أَوْ عَلَى أَقَلَّ أيضًا، فَاللهُ تعالى لَهُ الْحُكْمُ فِي بَسْطِ الرزق وتَضْيِيقِه.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ أفسدَهُ الغِنى، مِثل قارون، وَمِنْهُمْ مَنْ يُفْسِده الفقر، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج:١١]، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا افْتَقَرَ بَعْد الغِنى أَبَى أَنْ يَتحمَّلَ مَا نَزَلَ بِهِ، فيكفُر بالله، وَمِنْهُمْ مَنْ ينتحر.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(وَيْ) اسْمُ فِعْلٍ بِمَعْنَى أَعْجَبُ، أَيْ: أَنَا، وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ)].

إذن: هُوَ اسْمُ فعلٍ مُضارع، بمعنى: أَعْجَبُ.

وقوله: [أَيْ: أَنَا]، يعني أن ففاعِلَه ضميرٌ مُستتر وُجوبًا، تقديره: أنا.

وقوله: [وَ(الْكَافُ) بِمَعْنَى (اللَّامِ)]، أي: لِأَنَّ اللَّامَ هُنَا بِمَعْنَى التَّعلِيل، أي: أعجب لِهَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْلُحُ، أي: أَعْجَبُ لِعَدم صلاحِ الكافرين.

فقوله: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ﴾ مُركَّب مِنْ أَرْبَعِ كلمات، لا أربعةِ حُروف، وهي: (وَيْ) اسمُ فِعْل، و(الكاف) بمعنى اللام للتَّعلِيل، و(أَنَّ) حرفُ توكيدٍ، و(الهاء) اسمُها.

وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يجوز الْوُقُوفُ عَلَى (وَيْ)، فتقول مثلًا: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْ﴾، ثم تقرأ: ﴿كَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾.

وَقَالَ بَعْضُهُم: إنَّ (وَيْ) اسمُ فعلٍ مضارع، و(الكاف) حرف خطاب، وليست حَرْف جرٍّ، ولا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الإعراب؛ لِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ فاعلُه مُستتر تقديرُه: أنا.

وَعَلَى هَذَا، يكون أَنَّه حرفُ توكيد، والجُملة التَّعلِيلية عَلَى تَقْدِيرِ اللام، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون:٦٠]، فهنا فتح الهمزة؛ لأنها تعليلية، هذان إعرابان.

والإعراب الثالث: (وي) اسمُ فِعلٍ مضارع بمعنى: أَعْجَبُ، و(كأنَّ) حرفُ تشبيه، والمراد بهذا التَّشبيه التحقيقُ، كما تقول للإنسان: كأنك فاهِمٌ، أي: إنه فاهم، كذلك: كأنه لا يُفلح، أي: أعجب، كأنه لا يفلح الكافِرُون، أي: إن الأمر حق لا يفلح الكافِرُون.

فـ(كَأَنَّ) للتَّشبِيه إذا دخلت على اسمٍ جامِد، وللضَّمِّ، أو للتحقيق إذا دخلت على مُشْتَقٍّ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الفلاح هُوَ الْفَوْزُ بالمطلوب، وَالنَّجاةُ مِنَ

المرفوض، وَهِيَ كَلِمَةٌ مَنْ أَجْمَعَ الكلمات.

وقوله: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الكافرين بالله عَزَّوَجَلَّ، وَكُلُّ مَا أُطْلِقَ الكفرُ فَالْمُرَادُ بِهِ الْكُفْرُ بِاللهِ، أَمَّا إِذَا قُيِّد فهو بِحَسَبِ مَا قُيِّد به، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، هنا قَيَّدَ الكفرَ بالطاغوت، لَكِنْ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَكُونُ الكُفر بالله، فَكُلُّ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ بأيِّ نَوْعٍ مِن أَنْوَاعِ الْكُفْرِ، سَوَاءٌ كَانَ كُفْرَ تكذيب، أَوْ كُفْرَ استِكْبار؛ فَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ.

إِذَا قَالَ قَائِلٌ: أَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُفْرِ مِنَ النَّعِيمِ، والتَّرَف فِي الدُّنْيَا؟

نقول: لَا يُشْكِلُ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُفلحوا، حتى وإِنْ نُعِّموا فِي الدُّنْيَا، فلا يُفيدهم النعيم، وهُم إذا ماتوا انتقلوا إِلَى الْجَحِيمِ، فهذا النَّعِيمُ فِي الْحَقِيقَةِ يكون وبالًا عليهم؛ لأنه يتحول بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى عَذَابٍ.

ولهذا إذا عُذِّب أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ ينتحر، ويتخلص مِن التزامه إلى راحةٍ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ: هُوَ لَا يَفرح، بل يزداد شقاءً، لكن المقصود أَنَّهُ إِذَا انتقل مِنْ هَذَا النعيم إِلَى عَذَابِ الجحيم، صَارَ هَذَا أشدَّ وأَنْكَى، وأعظمَ عليه، وأبلغَ حَسْرةً، فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يفلحوا.

وهُم ما استفادوا مِن وقتهم فِي الدُّنْيَا شيئًا، بل خَسِرُوه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العصر:١-٣].

قَوْلُه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبِنَاءِ

لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ][1].

قوله: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾ لَوْلَا شَرطية، وَهِيَ حَرْفُ امتناعٍ لِوُجُودٍ، فقد امتنع الخسف لوجود المنَّة، وَمَا بَعْدَهُ يكون مبتدأً، وخبرُه محذوف غالبًا، قَالَ ابْنُ مالك[2]:

وَبَعْدَ لَـوْلَا غَالِبًـا حَـذْفُ الخَـبَرْ ....

قَوْله: ﴿أَن مَّنَّ ٱللَّهُ﴾: ﴿أَن﴾ مَصْدَرِيَّة، وقوله: ﴿مَّنَّ﴾ فِعلٌ ماضٍ، و(أَنْ) وما دَخلَتْ عَلَيْهِ فِي تَأْوِيلِ مصدر مبتدأ، أي: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا، والخبرُ محذوف تقديره: لولا مِنَّةُ اللهِ عَلَيْنَا موجودة، أو واقعة.

وَعِنْدِي أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إن المبتدأ هُنَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ أصلًا، فلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ النحويون: إنه محذوف، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ؛ لِدَلَالة الْجَوَابِ عَلَيْهِ، ونقول: هو مبتدأ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى خَبَرٍ، كَمَا قِيلَ فِي الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ [الفجر:١-٥]، إِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ، فابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ مختصر الصواعق المرسلة قال: «وَأَمَّا نَحْوُ قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء:٦٣]، فَلَيْسَ هُنَاكَ تَقْدِيرٌ أَصْلًا إِذِ الْكَلَامُ مُسْتَغْنٍ بِنَفْسِهِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى تَقْدِيرٍ، فَإِنَّ الَّذِي يَدَّعِي تَقْدِيرَهُ قَدْ دَلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ بِاللُّزُومِ، فَكَأَنَّهُ مَذْكُورٌ، لِأَنَّ اللَّفْظَ يَدُلُّ بِلَازِمِهِ كَمَا يَدُلُّ بِحُرُوفِهِ، وَلَا يُقَالُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ دَلَالَةَ الْتِزَامٍ إِنَّهُ مَحْذُوفٌ»[3].

ونقول: استُغْنِي عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ؛ لأن دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَى مَعْنَاهُ لَيْسَتْ دَلَالة ذاتية،

---

(١) السبعة في القراءات، لابن مجاهد (ص٤٩٥).

(٢) ألفية ابن مالك (ص١٨).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم (ص٣٥٣).

بَلْ إِذَا كَانَ السياق لَا يُحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ، فلا نُقَدِّر.

وقوله: ﴿مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ المنُّ: هو العطاء الَّذِي لَا يُرَادُ بِهِ المقابلة، أو المكافأة، ولا رَيْبَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَا يُرِيدُ مِن عِبادِه أَنْ يُكافئوه؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ حاولوا المكافأة ما استطاعوا، قَالَ تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقوله: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ كما خَسَفَ بقارون، ولكن مِنَّةُ اللهِ عَلَيْهِمْ منعت ذلك، فَرَجَعُوا إِلَى الصَّوَابِ، وعرفوا أَنَّ أَمْوَالَ قارونَ لَمْ تُغْنِ عَنْهُ شَيْئًا.

يقول المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ [بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالمَفْعُولِ] أي: قراءتان سَبْعِيَّتَان: ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ و«لَخُسِفَ بِنَا»، وعلى قراءة ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي: لَخَسَفَ بنا كما خَسَفَ بقارون، وعلى قراءة: «لَخُسِفَ بِنَا»، فَإِنَّ المُرَادَ خَسَفَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لَا شَكَّ، لكنهم قَالُوا ذَلِكَ تأدبًا، فلم يَنْسِبُوا الخَسف إِلَى اللهِ، بل بَنَوْه للمفعول؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَنْسِبُوا الخَسْفَ إِلَى اللهِ، كقول الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن:١٠]، فهم يعرفون أَنَّ الَّذِي يُرِيدُ ذَلِكَ كُلَّهُ هُوَ اللهُ، لَكِنْ لَمَّا تكلَّموا عَنِ الشَّرِّ لم يَنسِبُوهُ إِلَى اللهِ، وَهَذَا مِنَ الْأَدَبِ فِي اللَّفْظِ.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يترك الْأَمْرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ؛ إظهارًا لِعَظَمَتِه، لكن العباد يتأدّبون بالأدب، فلا يَنسِبُونَ إِلَى اللهِ تعالى الشرَّ، ولا الخَسْفَ، ولا الأخذَ.

أَمَّا كونُ الله يَنْسِبُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ، فهذا إظهارٌ للعظَمَة، ولضعف هَؤُلَاءِ المُعذَّبِينَ.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [لِنِعْمَةِ اللهِ كَقَارُونَ].

وقد تَقدَّم الكَلَامُ عَلَى إعراب: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الَّذِينَ تَمَنَّوا مِثْلَ مَا أُوتِي قارونُ عَرَفُوا أَنَّ مَا أُوتِيَهُ ليس لكونه أَهْلًا لَهُ، بل لِأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ؛ لِأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ فِي الْجَوَابِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، وهنا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ لهذا السبب، وَلَكِنْ لِأَنَّ اللهَ تعالى بِيَدِهِ الأمرُ، فقال: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيَانُ أَنَّ تَمَنِّي مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَتَبَيَّنَ للمرء أنه تَمَنٍّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يزول، فهؤُلاءِ الذين تَمَنَّوْا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قارون لَمَّا زَالَ، وخُسِفَ به عرفوا أَنَّ هَذَا التَّمَنِّيَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وأَنَّ حقيقة الْأَمْرِ أَنْ يتمنى الْإِنْسَانُ مَا فِيهِ ثَوَابُ الْآخِرَةِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ مَشِيئَةِ اللهِ؛ لقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات حِكْمَتِهِ فِي بَسْطِ الرزق وتضييقه: يَبْسُط ويَقْدِرُ، وهذا تابع لِحِكْمَتِه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: اعتراف هؤُلاءِ الْمُتَمَنِّينَ بِمِنَّةِ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾، فهنا عرفوا مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ؛ حَيْثُ لَمْ يُعْطِهِمْ مِثْلَ مَا أَعْطِى قارونَ، فيكون مآلُهم كَمآلِه، فتَبَيَّنَ لَهُمْ بِذَلِكَ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ لَا فَلاح للكافر، ويتضح هذا مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ونأخذ مِنْ ذَلِكَ إِثْبَاتَ عكسه للمؤمنين، فَإِنَّ لَهُمُ الفلاحَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

• • ۞ • •

الآيـة (٨٣)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ أي الجَنَّةُ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بِالْبَغْيِ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابُ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

قوله: ﴿تِلْكَ﴾ مبتـدأ، وَهُوَ اسْمُ إشارة، وقوله: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ صِفة لـ﴿تِلْكَ﴾، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خبرًا، وقوله: ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ يعني: بذلك الجنة؛ لِأَنَّهَا هِيَ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

فالإنسانُ له دُورٌ أَرْبَعٌ: الدَّارُ الأولى بَطْنُ أُمِّهِ، والثانيةُ الدُّنيا، والثالثة البَرْزَخ، والرابعة الآخِرَة، وَهِيَ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَها دَارٌ، ولهذا وُصِفَت بأنها آخِرَةٌ، ليس بعدها شيء.

قَوْلُه تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ﴾ بالنسبة لإعراب كلمة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾، إنْ أَعْرَبْنا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ صفةً، فجُملة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ خبَرٌ، وإنْ أَعْرَبْنا: ﴿ٱلدَّارُ﴾ خبَرًا، فجُملـة: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ حالٌ مِن: ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾، والضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ يَعُودُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأتى بضمير الجمع تَعْظِيمًا لَهُ.

قوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالْبَغْيِ، ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ المَعَاصِي].

وَهَذَا الْكَلَامُ خلافًا لقارُونَ وأمثالِه، فالدَّار الآخرةُ لِلَّذِينَ لَا يُريدون عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ، والعُلُوُّ هنا سَواءٌ كَانَ عُلُوًّا عن أَوَامِرِ اللهِ، أو عُلُوًّا على عِبَادِ اللهِ، فالذين لا يريدون العُلُوَّ إِنَّمَا يُرِيدُونَ الذُّلَّ لله، والذُّل للعباد عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يرضاه الله، هَؤُلَاءِ هُم الَّذِينَ لَهُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ، فَمَنْ أَرَادَ العُلُوَّ عَلَى الخَلْقِ، كَانَ ذَلِكَ بِمَالِهِ، أَوْ بِعَشِيرته، أو بِقُوَّتِه البَدَنِيَّة، أو بِعِلْمِه، أو بسُلْطَان؛ فَإِنَّهُ لَا حَظَّ لَهُ فِي الْآخِرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ مِنْ إِرَادَةِ العُلو.

وقوله: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ الفساد -كَمَا يَقُولُ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: [بِعَمَلِ المَعَاصِي]؛ فَإِنَّ عَمَلَ العاصي فسادٌ فِي الْأَرْضِ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم:٤١].

والْفَرْقُ بَيْنَ الصفتين: أَنَّ الْأَوَّلَ مستكبر مُتَعَالٍ فِي نَفْسِهِ، والثاني لَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى العكس، ولكنه يريد المعاصي، يريد -مثلًا- الفُجور، يريد السرقة، يريد قَطْعَ الطَّرِيقِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وكِلتا النِّيَّتَيْن باطلة: إرادةُ العُلو، وإرادةُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ لَمْ يُرِدِ العُلو، ولا الفَساد هُوَ الَّذِي تَكُونُ لَهُ الدَّارُ الْآخِرَةُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ عِقَابَ اللهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ].

العاقبةُ هِيَ النِّهَايَةُ، التي تعقُب مَا سَبَقَهَا، وهذه للمتقين، فَمَنْ كَانَ مُتَّقِيًا لله عَزَّوَجَلَّ فالعاقبةُ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ، ولكنها تَكُونُ لَهُ باعتبار شخصه وعمله أحيانًا، وَتَكُونُ لَهُ باعتبار عمله دُون شخصه.

ولنفرض -مثلًا- أَنَّ هَذَا الإنسانَ الْمُتَّقِي قام بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ تَقْوَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَدَعَا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، لكنه تُوفي قَبْلَ أَنْ تَتِمَّ له المهمة، فهل نَقُولُ إِنَّهُ لَمْ تتحقق له العاقبة، فَقَدْ مَاتَ.

ولكن العاقبة لِعَمَلِهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ ينجح، وَلَوْ بَعْدَ وَفَاةِ العامل، فالإنسان الْمُتَّقِي للهِ عَزَّوَجَلَّ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ العاقبة له، حَتَّى لَوِ اعتَدَى عَلَيْهِ مَنْ يعتدي، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ له، قَالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]، فالعاقبة للمتقين بِكُلِّ حَالٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: إثباتُ الجزاء يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لقوله: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: مَدْحُ مَنْ لَا يُرِيدُ العُلو فِي الْأَرْضِ، وَلَا الفساد، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ مَدْحِ مَنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ.

ووَجْهُ ذَلِكَ أَنَّ انتفاءَ الإرادة يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاءُ الفِعل، أما انتفاء الْفِعْلِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاء الإرادة، فَقَدْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ العُلو والفساد، وَلَكِنْ لَا يَعْلُو، وَلَا يُفْسِدُ؛ لعدم تمكُّنه، أو لِسَبَبٍ مِنَ الأسباب، أَمَّا الَّذِي لَا يُرِيدُ، فهو أكمل.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ لقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ والإرادة بمعنى النِّية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ مَنْ يُرِيدُ العُلو والفَساد، سواء علَا وأفسد، أَوْ لَمْ يَعلُ ويُفسد؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ فِي الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يريدون عُلوا ولا فسادًا، وَهَذَا مَدْحٌ لهم بلا رَيْبٍ؛ فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ فهو مذموم، سواء تَمَكَّنَ مِنْ تنفيذ إرادته أَمْ لَمْ يَتَمَكَّنْ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ المَعَاصِيَ سببٌ للفساد، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ لأَنَّنا نعلم أَنَّ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ليس مَعْنَاهُ أَنْ يَأْخُذُوا المَعَاوِل والمَنَاشِر، ويقطعوا الأشجار، ويهدموا البيوت، بَلِ المَعْنَى أَنَّهُمْ يفعلون أفعالًا تُوجِب الفساد.

ويُفسر ذَلِكَ قَوْلُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: فضيلةُ التقوى، تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ العاقِبَةَ تكون للمُتقين، وَهِيَ لَيْسَتْ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المَحْمُودَةُ]، بَلْ هِيَ أَعَمُّ مِن هذا، فالعاقِبَة فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَكُونَ النصر لَهُ فِي آخِرِ الأمر، والعاقبة فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ تَكُونَ الدَّارُ الْآخِرَةُ هِيَ الجنة لَهُ دُون غَيْرِهِ، فالعاقبة أَعَمُّ مِمَّا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حَتَّى فِي الدُّنْيَا، إِذَا تقابَلَ المتقون والفُجار، فالنهاية للمتقين.

الآيـة (٨٤)

•●○●•

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤].

•●○●•

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ثَوابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْرُ أَمْثَالِـهَا ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا﴾ جـزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ مِثْلَهُ].

قوله: ﴿مَن جَآءَ﴾: ﴿مَن﴾ شَرطية، وهي تَعُمُّ كُلَّ مَنْ جاءَ، وقوله: ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الباء للمُصاحَبة، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تكُونَ للتَّعْدِية، والمعنى: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَتَى بالحسنة مصطحبًا لَهَا يَوْمَ الْقِيامَةِ؛ فَإِنَّ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا، ولكن كيف ذلك؟

قَالَ المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ثَوابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ عَشْـرُ أَمْثَالِهَا]، ولكن لا تتوقـف عِنْدَ هَذَا الْعَـدَدِ فقط، بل تَصِلُ إِلَى سَبْعِمـائَةِ ضِعْفٍ، وإلى أضعافٍ كثيـرة، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، فالإنسانُ إِذَا جَاءَ بِالْحَسَنَةِ، فَلَهُ خَيْـرٌ مِنْهَا بلا رَيْـب، قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْـرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَـةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيـرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَـةً كَامِلَـةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ**

سَيِّئَةً وَاحِدَةً»[1].

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إِلَّا جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: مِثْلَهُ]، أي: مَنْ جَاءَ بالسيئة يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَإِنَّهُ لَا يُجزى إلا مِثْلَهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إِلَّا جَزَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، لَا يُزادُ عليهم.

وَفِي قَوْلِه: ﴿وَمَن جَآءَ﴾ فِي المَوْضِعَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ المَدَار على مجيء الإنسان بذلك، لَا عَلَى عَمَلِهِ، فقد يَعمل الحَسَنة، ثُمَّ يَرِدُ عَلَيْهَا مَا يُبطلها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِل صدقة، ثم مَنَّ بِهَا، أو آذى مَنْ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ، فَلَا تَكُونُ هَذِهِ صَدَقَةً، وتَبْطُل، ولا يُثاب عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وإنسانٌ آخَر عَمِل سيئة، لكنه تابَ منها، فذهبت السيئة، فلَا يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقارون طغى فِي الْأَرْضِ وعَلا، ولم يَتُبْ، فعاقَبَهُ اللهُ فِي الدُّنْيا، حَتَّى صَارَ نازلًا بعد أن كان عاليًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: جزاء الحَسنة خَيْرٌ مِنْهَا بالكَمِّية والكيفية، أما الكَمِّية فالحسنة بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وأما الكيفية، فَإِنَّ جَزَاءَ الحسنة دائم، وفِعل الحسنة ليس بدائم، فالفِعل ينتهي بموت الإنسان، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب من هم بحسنة أو بسيئة، رقم (٦٤٩١)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد بحسنة، رقم (١٣١).

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّهُ لَيْسَ المدار عَلَى عَمَلِ الحسنة، بل المدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ بالحسنة؛ لقوله: ﴿مَن جَآءَ﴾، فقد يعمل الإنسان الحَسنة، ولكن يأتيها ما يبطلها، فالمدار عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الإنسان يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالحَسنة، لَا عَلَى أَنْ يفعلها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات الجزاء؛ لقوله: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ السيئة لا تُضاعَف، نأخذه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ عدمَ مُضاعفة السيئة عَامٌّ فِي مَكَّةَ، وَفِي غَيْرِهَا، ووجهه أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، لَيْسَ فِيهَا استثناء، ثُمَّ إِنَّ سُورَةَ القصص مَكِّيَّة نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ، ولم يُستثنَ شيء.

وَأَمَّا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «لَا أُقِيمَ فِي بَلَدٍ حَسَنَاتُهُ كَسَيِّئَاتِهِ». فَهَذَا بَاطِلٌ، لَا يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ.

لكن السيئة فِي مَكَّةَ تُضاعَف، لَا مِنْ جِهَةِ الكَمِّية، وَلَكِنْ مِنْ جهة الكيفية، فتكون عُقوبتُها أَشَدَّ وأَبْلَغَ إيلامًا.

فالسيئةُ لَا تَكُونُ عَشَرَ سيئاتٍ، لكنْ جزاؤها يَكُونَ أَشَدَّ، وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التنديدُ بعامِل السيئات، أي: الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لَمْ يَقُلْ: ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخرى، وَلَكِنْ قَالَ: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟﴾، فهذا تنديدٌ بِهِمْ، وبيانٌ لاستحقاقهم ما يسوؤهم مِنَ الْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا السيئات

يُجزون سيئة، فَهَذَا لَا شَكَّ أنه تَبْكِيتٌ، وتَنْدِيدٌ بهم؛ لِعَمَلِهِمُ السيئات.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ ثَوَابَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائرٌ بيـن العَدل والفَضل، وهذان قِسمان، ثالثُهما: الجَوْر.

الفَضل بالنسبة للمحسنين، كَمَا قَالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، والعَدْل بالنسبة للمُسيئين، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أما الجَـوْرُ، فهذا مُمْتَنِعٌ فِي حَـقِّ اللهِ، قَالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائِرٌ بين الفضل والعدل.

إذن: فهو محمود عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لأنه إمَّا عَدْلٌ، وإِمَّا فَضْلٌ.

• • ۞ • •

الآيـة (٨٥)

• ● ● •

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [القَصص:٨٥].

• ● ● •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أَنْـزَلَهُ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَى مَكَّةَ وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نَزَلَ جَـوَابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَـلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَأَعْلَمُ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ وَهُوَ اللهُ، وهذا وعدٌ محقَّق ببيان الشاهد ليُقاس عليه الغائـب؛ فَإِنَّ فَرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ ثابـتٌ محقَّق، وَرَدَّهُ ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ موجود، وليس مشهودًا، فَأَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ الموجودَ بالمشهودِ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ هنا لَمْ يَقُلْ ربنا عَزَّوَجَلَّ: (إِنَّ اللهَ رادُّكَ إلى مَعاد)، بَلْ قَالَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾؛ لأن فَـرْضَ الْقُرْآنِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ مُتيقَّن، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنْ يُثبت الموجود بالمشهود؛ فَإِنَّ فَرْضَ القرآن مشهود معلوم، وَرَدَّهُ إِلَى مَعَادٍ موجـودٌ غيـرُ مشهود، ولكنه حَقَّقَ ذلك الموجـودَ بالمشهود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: [أَنْزَلَهُ]، وَهَذَا أَحَدُ

التفسيرين فِي الْآيَةِ، وقيل: ﴿فَرَضَ﴾ بمعنى: أوجب عَلَيْك الْقُرْآنَ، أي: أوجب عليك تِلاوته وتبليغه وَالْعَمَلَ بِهِ.

أي: إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي الْقُرْآنِ ثَلاثَةَ أُمُورٍ: أَنْ يَتْلُوَهُ، وأَنْ يُبَلِّغَهُ إِلَى النَّاسِ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ.

وحينئذٍ يَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: فَرَضَ عَلَيْكَ تِلاوته، وتبليغه، وَالْعَمَلَ بِهِ.

وَهَذَا التَّفْسِيرُ أَقْرَبُ إِلَى ظَاهِرِ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ الْفَرْضَ بمعنى الإنزال نادِرٌ وُجُودُهُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، لكن الفَرْضُ بمعنى الإلزام كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ»[1]، فهنا فَرَضَ بمعنى: أَلْزَمَ وَأَوْجَبَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لَرَآدُّكَ﴾ اللامُ هنا للتوكيد، و(رَادٌّ) خَبَرُ (إِنَّ)، والمعنى أي: لمُرْجِعُك.

وقوله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إِلَى مَكَّةَ، وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَهَا]، فَعَلَى قَوْلِ الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَا بُدَّ أَنْ يُعيدك إِلَى مَكَّةَ، فتفتحها، كَمَا أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عليك فيها.

وَهَذَا مَعْنَى كلام الْمُفَسِّرِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فيكون المَعاد مكة، أي: مكان العَوْد، أي: مكان الرجوع، وأنك سوف تَرْجِعُ إِلَى المَكَانِ الَّذِي أُخرجتَ منه، فَيَكُونُ فِي هَذِهِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم (١٤٥٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩).

الْآيَةِ وَعْدٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَفْتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ، وأَنْ يَعُودَ إِلَيْها، قال ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: إِلَى مَكَّةَ»[1].

وقيل: إنَّ المُرادَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: لرادُّك إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ، فالمراد بالمعاد معادُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، ويَكُونُ المَعْنَى: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، وَأَوْجَبَ عَلَيْكَ تِلاوتَه، وتبليغَه، وَالْعَمَلَ بِهِ، لم يُنْزِلْه عَبَثًا، بل أَنْزَلَه لِأَمْرٍ يَعُودُ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَهُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ، فَيَكُونُ المُرادُ: يَوْمَ الْقِيامَةِ؛ لتجزى وتسأل: هل بَلَّغْتَ أَمْ لَمْ تُبَلِّغْ؟ قَالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

وَهذَا المَعْنَى أَقْرَبُ مِمَّا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْهُ أَيْضًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ هَذَا المَعْنَى، ويُقَرِّبُه أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ، فَإِذَا كَانَتْ مكية، فَكَيْفَ يُقَالُ لِمَنْ فِي مَكَّةَ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إلى مكة؟! وَأَيْضًا هُوَ أنسبُ بالنسبة لصَدْرِ الآية، فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هَذَا الْفَرْضُ لَمْ يَكُنْ عَبَثًا، بَلْ لَهُ يَوْمٌ يُعاد فيه النَاسُ، ويسألون عنه، ويُجازون فيه.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّوابُ، وما قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ لَهُ وَجْهٌ، لكنه بَعِيد.

فيكون مَعْنَى قَوْله: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إِلَى مَكَّةَ، فيكون إِشَارَةً إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ، وعلامةً عَلَى قُرْبِ أَجَلِ النَّبِيِّ ﷺ، وقُرب الأجَل معناه الموتُ، ثم البعث.

قَوْلُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ﴾ الرُّبوبية هنا خاصَّة، أي: رَبِّي الَّذِي أرسلني ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: يَعْلَمُ مَنْ هو آتٍ بالهُدى، وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، رقم (٤٧٧٣).

مُبِينٍ، هَلْ هُوَ الرَّسُولُ، أو غيـره، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، فالله أَعْلَمُ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إِنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: (عالِم).

قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل، وقولُه: ﴿مَن﴾ اسمٌ موصول، وإعرابها فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

الإعراب الأول: هو مآلُ كلامِ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وَهُوَ أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالِم، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ.

الإعراب الثاني: أَنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيل عَلَى بَابِهِ، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لاسم التفضيل، وهذا رأيُ الكوفيين.

الإعراب الثالث: أَنَّ ﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفعلٍ مَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ السياق، والتقدير عِنْدَ مَنْ قَالَ بِهَذَا الرأي: قل ربي أعلمُ يَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، فيجعلون ﴿مَن﴾ مفعولًا لِفِعل محذوف تقديره: يَعْلَم، وَهَذَا تَقْدِيرٌ مُطلق.

فالآراء إذن ثلاثة، والقاعدة عِنْدِي أَنَّهُ إِذَا اخْتَلَفَ النَّحْوِيُّون فِي شَيْءٍ أخذنا بالأسهلِ، وأَسْهَلُ هذه الآراء رأيُ الكوفيين؛ لأن الكوفيين لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَقْدِيـرٍ وَلَا غَيْرِهِ، لا تقدير (يَعْلم)، ولا تأويل ﴿أَعْلَمُ﴾ بمعنى: عالم، يقول: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، و﴿مَن﴾ مَفْعُولٌ بِهِ، فهو مَفْعُولٌ بِهِ لـ﴿أَعْلَمُ﴾ مباشرةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، الهدى المُرادُ بِهِ الْعِلْمُ النافع، والذي جاء بالهدى هو النَّبِيِّ ﷺ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وَأَعْلَمُ مَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَلَمْ يَقُلْ:

مِمَّنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ، وأتى بـ(في) الدَّالَّةِ عَلَى الظرفيـة، كَأَنَّ هـذَا مُنغمس فِي الضَّـلَالِ، والضلالُ محيط بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِـبٍ إحاطةَ الظرفِ بالمظروف، كَمَـا تَقُولُ: (المَاءُ فِي الْإِنَاءِ)، و(الإناء محيـط بِالمَاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ)، كَمَـا قَالَ اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهنا الضلال محيط بهؤُلاءِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ.

وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: بَيِّن، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا أَنَّهُ قَالَ: بان الفَجْرُ وأبانَ الفَجْرُ، بمعنى: ظَهر، كأنَّ الرُّباعي مِثل الثلاثي، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ ﴿مُّبِينٍ﴾ مِن الرُّباعي، لكنه بمعنى الثلاثي، أي: بَيِّن.

ولَمْ يَقُلْ: (أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بالهدى، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ)، لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بين الهدى والضلال، فالأمر إما هُـدًى، وإما ضَلال، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾ [سبأ:٢٤].

فليْسَـت هُناك وسطٌ بيْـن الهُدَى والضَّـلال، فلَا يَكُونُ الإِنْسَانُ لَا مهتـديًا ولا ضالًّا، بَلِ النَّاسُ كُلُّهُمْ إمَّا مُهْتَدٍ، وإمَّا ضَالٌّ، قَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن:٢]، فالأمر دائر بَيْنَ شَيْئَيْنِ كِلاهما قَسِيمٌ للآخَر، وهما الهدى والضلال؛ لِأَنَّهُ لَا وَاسِطَةَ بَيْنَهُمَا.

يَقُولُ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [نَزَلَ جَوابًا لِقَوْلِ كُفَّارِ مَكَّةَ لَهُ: إِنَّكَ فِي ضَلَالٍ، أَيْ فَهُوَ الجَائِي بِالْهُدَى، وَهُمْ فِي ضَلَالٍ، وَ﴿أَعْلَمُ﴾ بِمَعْنَى عَالِمٍ].

واحتمـال مَا قَالَهُ المُفَسِّـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحيح؛ بِأَنَّهُمْ قَالُوا هكذا، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ سَبَبَ النزول لَا بُدَّ أَنْ يَثْبُتَ بدليلٍ صحيح، أَمَّا مُجَرَّد

أَنْ نَفْهَمَ مِن السياق أَنَّهُمْ قَالُوا، وَقِيلَ لَهُمْ، فَهَـذَا لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ سَبَـبَ النزول أمـرٌ منقول، والأمر المنقول لَا يُمْكِنُ أَنْ يستنتجه الإنسان بعقله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: وُجوب تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ، وتبليغه عَلَى النَّبِيِّ ﷺ لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثباتُ البَعث فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحكمة مِنْ إِنْزَالِ القرآن، وهو المُجَازَاةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ؛ لِأَنَّ قَوْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾ كأنه عِلَّة ومعلولها، كأنه إِنَّمَا فَرَضَ الْقُرْآنَ مِنْ أَجْلِ المُجازاة عليه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: دوامُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَى البَعث، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ عِلم اللهِ، وأنه أكملُ العُلوم، فِي قَوْلِهِ: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، وأن ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل، وأحسن أَنْ يَكُونَ أفضل العلوم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّهُ مَا عَدَا الهدى فهو ضلال؛ لقوله: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وَأَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّةَ واسطةٌ بين الهـدى والضلال، وذكرنا آياتٍ شواهدَ لِهَذَا الْأَمْرِ، مِثْل قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢]، وَمِثْلَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤]، وهذا المثال -في الحقيقة- تتبين بِهِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ التبست عَلَى بَعْضِ الناس.

فمَثلًا: ما نُشِـرَ فِي الصُّحُفِ هَـذِهِ الْأَيَّامَ مِنْ أَنَّ الأشعرية هُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة!

ونحن نسأل: هل قولُ الأشعرية هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ؟

والجواب: لا؛ لأن الأشعرية لَا يُثْبِتُونَ مِنَ الصِّفَاتِ إلا سَبعًا، عَلَى أَنَّ إثباتهم لَهَا لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ؛ لأنهم يُثبتون -مثلًا- الكلام، ويقولون: إِنَّ الْكَلَامَ هُوَ المَعْنَى القائمُ بالنفس، وَلَيْسَ هُوَ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ، وهكذا، فَهُمْ غَيْرُ موافقين للسلف.

فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا هُمْ عَلَى الْحَقِّ، والسلف عَلَى الضَّلَالِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ السَّلَفُ عَلَى الْحَقّ، وهؤُلاءِ عَلَى الضَّلَالِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ مرتبة متوسطة بَيْنَ هَذَا وذاك؛ لِأَنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

وحينئذٍ يكونون ضالِّين، وَإِذَا ثَبَتَ ضلالهم، فَإِنَّهُ لا يُمْكِنُ أَبَدًا أَنْ يُقَالَ: إنهم مِنْ أَهْلِ السُّنة والجماعة؛ لِأَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ السُّنة ضَلالًا، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ.

ولكن يَجِبُ أَنْ نعرف -وَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهُمْ ضالون فِي الْعَقِيدَةِ- أنه لَا يَلْزَمُ أَنْ نُضَلِّلَهم فِي كُلِّ شَيْءٍ، ونُخْرِجَهم مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ منهم أئمة، أو منهم علماء كبار لَا شَكَّ أنهم يَتَحَرَّون السُّنَّةَ فِي أُمُورٍ كثيرة، وأنهم مُوَفَّقُون لها أيضًا.

فالإنسان يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كلامُه فِي النَّاسِ بالعَدل، والقسطاس المستقيم، فلا يَهضِم أحدًا حَقَّهُ، وَلَا يُعْطِي آخرَ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّهِ.

فالحاصِلُ: أَنَّ هناك ميزانًا ذَكَرَهُ اللهُ هُنَا، وَفِي آيَاتٍ أُخرى، وهو ميزان واضح جدًّا، وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ إلا حقًّا، أو ضلالًا.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إثبات أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الْهُـدَى، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، ومعلوم أنَّ الَّذِي جاءَ ووَرَد عَلَى النَّاسِ هُوَ الرَّسُول ﷺ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ بَاقُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ، ما جاءوا بجديد، والَّذِي جَاءَ بجديدٍ هو الرَّسُولُ ﷺ.

فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ جاءَ بالهدى، وأن أولئك في ضَلَالٍ مُبِينٍ.

الآيـة (٨٦)

• • ❊ • •

❁ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص:٨٦].

• • ❊ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآن ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أُلْقِـيَ إِلَيْكَ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمُ الَّذِي دَعَوْكَ إِلَيْهِ].

قوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ﴾ في رسم المصحف هناك أَلِفُ وَصْلٍ بَعْدَ واوِ المُضارِع ﴿تَرْجُونَ﴾، وهي هنا زَائِدَةٌ فِي الرسم، وَلَيْسَتْ عَلَى قَوَاعِدِ الْكِتَابَةِ فِي عصرنا الحالي، فَحَسَبُ قواعدِ الْإِمْلَاءِ لَا تُكْتَبُ إِلَّا إِذَا كَانَتِ الواو للجماعة، مثل: (قالوا)، فتقع الأَلِفُ بعدها، أَمَّا إِذَا كَانَتْ واو الفعل فَإِنَّهَا لَا تَكْتُبُ، لكن هَذِهِ الْكِتَابَةُ فِي الْقُرْآنِ كَانَتْ عَلَى الرسم العثماني، فيَرْسُمُونه، سَوَاءٌ كَانَ مُوَافِقًا للقواعد الحاضِرة أَمْ لَمْ يَكُنْ موافقًا.

قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ الْقُرْآنُ].

قوله: ﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي: يُنَزَّلَ عَلَيْكُ، فمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يرجو هـذا، وَلَا خَطَـرَ بِبَالِهِ أنه يُلقى إليه القرآن، فَإِذَا كَانَ لَمْ يَخْطُرَ بِبَالِهِ أَنْ يُلقى إليه القرآن، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ تَعَلَّمَهُ مِنْ غَيْرِهِ؛ لأن المتعلم للشيء مِنْ غَيْرِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ

عِنْدَهُ أَمَلٌ في الحصول عليه، حَتَّى يَقعَ فِي أسبابه ويُحَصِّلَه، أَمَّا شخص لَمْ يَكُنْ يرجو ذَلِكَ إِطْلَاقًا، ولم يَخْطُرْ ببَالِهِ أَنْ يُلقى إِلَيْهِ الْكِتَابُ؛ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِن عنده، بَلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ نائبُ فاعِلٍ، وَهُوَ الْقُرْآنُ، وكتابٌ بمعنى مكتوب: ووُصِفَ الْقُرْآنُ بِهِ؛ لأنه مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، مكتوب بِأَيْدِي المَلَائِكَةِ، ومكتوب بأيدي الناس، فهو مكتوب، وَهُوَ فِي أَيْدِي الملائكة، ومكتوب أَيْضًا، وَهُوَ فِي أَيْدِي النَّاسِ، ودليلُه فِي سُورَةِ عبس: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس:١٥].

قَوْلُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ قَالَ المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لَكِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ] إشارةً مِنْهُ إِلَى أَنَّ الاِسْتِثْنَاءَ هنا منقطع، وليس متصلًا؛ لأن المتصل أَنْ يَكُونَ المستثنى مِنْ جِنْسِ المُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّحمَة لَيْسَتْ هِيَ الرجاء، وَلَيْسَتْ مِنْهُ، فالرَّسُول ﷺ مَا كَانَ يَرْجُو ذلك، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ حصل لمجرد الرَّحمَة.

وَأَنَا أَقُول: إنَّ ﴿إِلَّا﴾ أداة استِثْناء، والاستِثْناء هنا منقطع، ﴿رَحْمَةً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الاِسْتِثْنَاءِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ له، يعني: مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ، أي: ولكن أُنزِل لأجل الرَّحمَة، والرَّحمَة هنا لِلرَّسُولِ ﷺ ولغيره، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ هنا ذكر الرُّبوبية الخاصة؛ لِأَنَّ رَحْمَةَ اللهِ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالرِّسالَة رحمة خاصَّة، وأنه أُلْقِي إِلَيْك الْكِتَاب: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ لا ناهية، والفِعل بعدها مَبْنِيٌّ عَلَى الفتح؛ لاتصاله

بنون التوكيد، وَهُوَ فِي مَحَلِّ جزم.

والخطاب هنا للرسول ﷺ، ولكن كيف يُنهَى الرَّسُول ﷺ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ يقول: إِنَّ هَذَا الْخِطَابَ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْأُمَّةُ، وَلَكِنَّهُ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الشَّاعِرِ[1]:

.... إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ

وَقَالَ بَعْضُهُم: بل الخطابُ للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقالوا: النَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: لَا يَلْزَمُ مِنْهُ الوقوع، لكن هَلْ يَلْزَمُ مِنْهُ جواز الوقوع، بمعنى: أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؟

نقول له: لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مستحيلًا، فالنهي عن المستحيل لَغْوٌ.

وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول: إِمَّا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَوْلَا تثبيت اللهِ لَهُ لَرَكَن إليهم، كَمَا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

الوجه الثاني: أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قد يَفْعَلُ الشَّيْءَ مِمَّا هُوَ مظاهرة للكافرين، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُظاهرة، فنهاه اللهُ تعالى عَنْهَا؛ لِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ

---

(١) هذا عجُز بيت قاله سَهْل بن مالك الفزاري، كما في مجمع الأمثال للميداني (١/ ٤٩)، وصدره:
أُصْبِحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ

مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ، وعلى بُعد مِنْ هَؤُلَاءِ الكافرين.

ثُمَّ نَقُولُ أَيْضًا: إِنَّهُ لَوْ جَازَ عقلًا وعادةً، فقد يُنهى عنه شرعًا، فافرِض أَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدْ يَجُوزُ للرسول ﷺ أَنْ يَفْعَلهُ باعتبار العادة، أو باعتبار الحالة البَشـرية، لَكِنَّهُ مِنَ الناحية الشَّرْعِيَّةِ لَا يُمْكِنُ، فَيَكُونُ عَائِدًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ باعتبار الحال البشرية الطبيعية، أَمَّا شَرْعًا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ظَهِيرًا﴾ مُعِينًا ﴿لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ عَلَى دِينِهِمْ].

الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا كَانَ معينًا للكافرين، لكنه يُنْهَى عَنْ أَمْرٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاقِعًا منه، أو مُتَصَوَّرًا أَنْ يَقَعَ، كَمَـا قَالَ تعالى أَيْضًا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القَصَص:٨٧]، مَعَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ، ولكنه نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ، فقيل: إن النهي هُوَ نهي لأُمَّته.

وقيل: بَلْ إِنَّ النهيَ نهيٌ حقيقي له، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ وَاقِعًا منه، وَالْفَائِدَة مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ مَا كَانَ يتطلـب الرِّسالَة، ولا خَطَرَتْ لَهُ عَلَى بَالٍ، نأخذُه مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيان تكذيـبِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل:١٠٣]، فالكفار يقولون: إِنَّمَا يُعَلِّمُ محمدًا القرآنَ بَشَرٌ، فَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يتعلم مِنْ بَشَرٍ، لكان مُتطلعًا لِهَذَا الْقُرْآنِ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّـدٌ ﷺ رَحْمَةٌ لِلْخَلْقِ، رحمةٌ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ؛ ففي الدُّنيا تستقر الأمور، وتصلُح أحـوالهم، ويَعْلُو أمرُهم، وَفِي الْآخِرَةِ يكونون فِي جنات النعيم.

فهذا القرآن رحمة؛ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَهُوَ أَعظَمُ نِعْمَةً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأعظم مِن نُزول المَطرِ الَّذِي تحيا بِهِ الْأَرْضُ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ تحيا بِهِ الْقُلُوبُ، وتصلح به الأعمال، وبحياة القلوب والأعمال تحيا الأرض، قَالَ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ رُبوبية الله الخاصة لِلرَّسُولِ ﷺ؛ بقوله: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾، فهذا يقتضي رُبوبيةً خاصة، كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَهُ عُبودية خاصَّة؛ فعُبوديته خاصَّة، ورُبوبية اللهِ لَهُ خَاصَّةً أيضًا.

وإذا شئتَ أن تعرف أنَّ الرُّبوبية نوعان، فاقرأ قَوْلَ اللهِ تعالى عَنْ سَحَـرَة آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ آمَنُوا: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٧-٤٨]، فالأُولى عامَّة، والثانية خاصَّة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ففيه تحريمُ مُظاهَرة الكفار، أي: مُعاونتُهم؛ لِأَنَّ النَّهْيَ للتحريم، لَا سِيَّمَـا وَقَدْ أُكِّدَ بِنُونِ التوكيد؛ لأن النُّون هنا للتوكيد، وَالدَّلِيلُ عَلَى التوكيد أَنَّ الْفِعْلَ بُنِيَ عَلَى الفتح.

والمعاونةُ للكفَّار تكونُ معاونةً عسكـرية، ومعاونةً فِكريَّـة، ومعاونةً ماليَّـة ومعنوية، فَكُلُّ مَا فِيهِ معاونة الكفار ومساعدتهم وتقويتُهم؛ فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ، لِأَنَّ الْوَاجِبَ علينا -نحن المسلمين- العكسُ مِنْ ذَلِكَ، الْوَاجِبُ عَلَيْنَا إذلالهم، وخَذْلُهم بِكُلِّ مَا نستطيع، بَلْ قَدْ قَالَ اللهُ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ جَٰهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَٰفِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، وقال للمؤمنيـن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَٰتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم

مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:١٢٣]، وَأَنَّ هَذَا مِن تَقْوَى اللهِ؛ إذا قاتلتموهم فليَجِدُوا منكم الغِلظة.

ومعنى هذا: أنا إِذَا لَمْ نُقاتلهم، ووجدوا منَّا اللين؛ فإن هذا مخالف للتقوى.

والحاصِلُ: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مُعاونة الكفار بِأَيِّ وَجْهٍ مِن وُجوه المعاونة، وَهُوَ مِنْ أخطر الأمور؛ لِأَنَّ اللهَ تعالى يقُولُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

• • ❁ • •

الآيــة (٨٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧].

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ أَصْلُهُ يَصُدُّونَنَكَ، حُذِفَتْ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَازِمِ، وَالْوَاوُ لِلْفَاعِلِ لِالْتِقَائِهَا مَعَ النُّونِ السَّاكِنَةِ ﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أَيْ لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَٱدْعُ﴾ النَّاسَ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بِإِعَانَتِهِمْ، وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبِنَائِهِ].

قوله: ﴿يَصُدُّنَّكَ﴾ أصلُه: يَصُدُّونَنْكَ قَبْلَ دُخُولِ (لا) الناهية، ولَمَّا دَخَلَتْ (لا) الناهية وجب حذفُ النون الأُولى للجَزم، فصارت: يَصُدُّونَّك، فلما حذفنا النون الأُولى أصبح لدينا واو ساكنة، ونون مُشَدَّدة، والنون المشدَّدة عبارة عن نونين الأولى ساكنة والثانية متحركة، فيلتقي ساكنان، وإذا التقى ساكنان وجب حذف الْأَوَّلِ مِنْهُمَا، قَالَ ابْنُ مَالِكٌ فِي الكافية:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ فَإِنْ يَكُنْ لَيِّنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقّ

أَمَّا قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ [آل عمران:١٨٦]، فَلَيْسَ فِي هَذَا الْبَابِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَمْ يَسْبِقْهُ جازمٌ، وأصلُه: لتسمعونَنَّ، فحُذفت النون الأُولى لِتَوالي الأمثال، ثُمَّ حُذِفَتِ الْوَاوُ لالتقاء الساكنين، أي النون المشددة والواو الساكنة.

قوله: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الضَّمير -وَهُوَ الواو المحذوفة- تَعُودُ إِلَى الكافرين، أي: ولا يَصُدَّنَّك الكافِرُون، والخطابُ لِلرَّسُولِ ﷺ، و(يَصُدُّ) يُستعمل لازمًا ومُتعديًا؛ فَإِنْ كَانَ لازمًا فهو بمعنى: أعرَض، وَإِنْ كَانَ متعديًا فهو بمعنى: صَـرَف، فتقول مثلًا: صددتُه عن الخطأ، أي: صرفتَه، وتقول: صددتُه عن الضلال، أي: أَعْرَضْتَ عَنْهُ، وَفِي الْقُرْآنِ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النحل:٨٨]، الفعل هنا الْأَوْلَى أَنْ نَقُولَ: إِنَّهُ مُتَعَدٍّ؛ لِأَنَّ مَنْ صَدَّ غَيْرَهُ فَهُوَ عَنِ الْحَقِّ أَصَدُّ، لَكِنْ مَنْ صَدَّ بنفسه، فَقَدْ لَا يُصَدُّ غيرَه.

فَالْأَوْلَى أَنْ نَحْمِلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الصَّدِّ عَلَى الشَّيْءِ المتعدي، لَا عَلَى اللازم.

وهنا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ الفِعل مُتَعَدٍّ، بدليل الكافِ، فهي مَفْعُـولٌ بِهِ، أي: لا يَصْرِفَنَّك هَؤُلَاءِ عَنِ آيَاتِ اللهِ، والمراد هنا الآياتُ الشرعية.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: عَنِ الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ آيَاتُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، قَالَ تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦]، وكَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ اللهِ تعالى؛ لأنه كلامُه، وما يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْأَخْبَارِ، والقَصص النافعة، والأحكام العادلة؛ وَلِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحدٍ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِه، كَمَا قَالَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور:٣٣-٣٤]، فهنا تَحَـدٍّ لهؤُلاءِ الأعداء الَّذِينَ هُمْ أقوى الناس فصاحةً، وَمَعَ ذَلِكَ عَجَزُوا، وما استطاعوا، وَلِهَذَا كَانَ الْقُرْآنَ آيَةً مِنْ آيَاتِ اللهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ إِذَا قُلْنَا: مَا الْفَائِـدَةُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصل النهي لَا يَقَعُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إِلَّا إِذَا كَانَـتْ نَازِلَة؟

فهل هَذَا الْكَلَامُ لَهوٌ لَا فَائِدَةَ منه؟

الجواب: لا، ليس لهوًا لَا فَائِدَةَ منه، بَلْ فِيهِ فَائِدَةٌ، وهو تذكير الرَّسُول ﷺ بهذه الحُجَّة والمستَند، وَهُوَ أَنَّهَا أُنْزِلت مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَإِذَا كَانَ يَذْكُرُ هذا المستند، فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَصُدَّك عنه، وَإِنْ كَانَ مَفْهُومًا أَنَّ الصَّدَّ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِهِ، لكنه لِأَجْلِ أَنْ يُذَكِّر الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بحال الإنزالِ حَتَّى يَكُون ذَلِكَ أَثْبَتَ لَهُ.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [أَيْ: لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ]، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لأن صَدَّهم للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَمَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ لَا يستلزم أَنْ يَرْجِعَ إليهم، فقد يَرْضَوْن مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ مِن دِينه، وَإِنْ لَمْ يُوافِقْهم عَلَى دِينِهِمْ؛ لأن أعداء المسلمين يقولون: نَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ المسلمون نصارى، أو يهودًا، بل نُرِيدُ أَنْ يَخْرُجُوا مِن دِينهم فقط.

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الدُّعاء: الطَّلب، يعني: اطلُب من النَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا فِي دِينِ اللهِ، وادعُ الناس.

وقد أفاد الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ المفعول محذوفٌ، فقال: [﴿وَٱدْعُ﴾ النَّاسَ، ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لِتَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ]، هَذَا التَّفْسِيرُ للدُّعاء، وأَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ والعبادة، والتوحيدُ له أنواعٌ ثلاثة، وهي:

توحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الرُّبوبية، وتوحيد الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَيَكُونُ الْمُرَادُ: ادعُ إِلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ، بالإضافة إلى دعوتهم إلى العبادة.

وَهَذَا هُوَ المهم، أَنْ تَكُونَ دعوةُ الْإِنْسَانِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ، لَا إِلَى أَيِّ قَصْدٍ آخَرَ،

فمَن دَعَا النَّاسَ إِلَى الحَقِّ ليُقَوِّيَ جبهتهم، ويُكَثِّرَ عددهم، فليس بداعٍ إِلَى اللهِ.

ومَن دعا النَّاسَ إِلَى اللهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَجْهٌ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللهِ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَدْعُوَ الْإِنْسَانُ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ لَهُ غَرَضٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا رَجُلٌ يَقُولُ: أنا أُحِبُّ أَنْ تَقْوَى الجبهةُ التي أدعو إِلَيْهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ نتمكن مِن الدعوة إِلَى اللهِ. فَهَذَا لَا حَرَجَ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ الْأَوْلَى أَنْ يَقْصِدَ القَصْدَ الأول، وَإِلَّا فَلَا حَرَجَ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى اللهِ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

قَوْلُه تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِإِعَانَتِهِمْ].

هنا فَسَّر الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ الْآيَةَ بِتَفْسِيرٍ قَدْ يَكُونُ عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ، فقال: إِنَّ قَوْلَه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليس معناه: لَا تُشْرِكْ، فالرَّسُول ﷺ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْرِكَ، ولكن المعنى بإعانتهم؛ فَإِنَّ مَنْ أَعَانَ قَوْمًا، فَهُوَ مِنْهُمْ، قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ﴾ [المائدة:٥١]، فكأنَّ الْمُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إِنَّ اللهَ لَمْ يَنْهَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ هَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ، بَلْ نَهَاهُ أَنْ يَكُونَ مُعِينًا لَهُمْ عَلَى شِرْكِهِمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يجعله منهم.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى ظَاهِرِهِ، أنه نُهِيَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَالنَّهْيُ عَنِ الشَّيْءِ لَا يَلْزَمُ مِنْهُ وقوعُه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ جوازُ الوقوع شرعًا؛ فَإِنَّهُ لَوْ فُرض أَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يَقَعَ عادةً؛ فإنه شَرْعًا لَا يُمْكِنُ.

وَعَلَى هَـذَا، فقَوْلُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]، لَا يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ شرعًا، وَلَكِنْ إِنْ جَازَ أَنْ يَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ، أَوِ وَقَعَ مِنْهُ؛ فإنه يُحْبِطُ عَمَلَهُ، كَمَا فِي

قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف:٨١]، فَهَذَا الشَّرْطُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ تعذُّرِ، أو استحالَةِ الشَّيْءِ أَلَّا يَقَعَ شرطًا، حَتَّى فِي الْأُمُورِ العادية، لَوْ قَالَ إنسانٌ لزوجته: إِنْ طِرتِ فَأَنْتِ طَالِقٌ. يَصِحُّ الكلام، ولكن تعليق الشَّيْءِ عَلَى المستحيل يجعله مستحيلًا، هُوَ جَائِزٌ، لكن يجعله مستحيلًا، مثل قَوْلُ الشَّاعِرِ(١):

إِذَا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي ... وَصَارَ الْقَارُ كَاللَّبَنِ الحَلِيبِ

وَالْغُرَابُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَشِيبَ أبدًا، والقَارُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُصَيَّرَ مِثْلَ اللبن أبدًا، وَلَكِنَّهُ مَا دَامَ عَلَّقَ الْأَمْرَ عَلَى شَيْءٍ مستحيل، فالمعلَّق على المستحيلِ مستحيلٌ.

قَالَ الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ: [وَلَمْ يُؤَثِّرِ الجَازِمُ فِي الفِعْلِ لِبِنَائِهِ]، يقصد بالجازم والفِعلَ، وهو قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، [لِبِنَائِهِ] لِأَنَّهُ لَوْلَا البناءُ لَقال: وَلَا تَكُنْ، فَحُذِفت لامُ الفعل، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾ [النحل:١٢٧]، فالجازم هنا -وَهُوَ لَا الناهية- قَدْ أَثَّرَ فِي الْفِعْلِ.

فأصل الفعل: (تكُون)، و(لا) النهاية تؤثر بتسكين آخِرِ الفِعل، فالتقى ساكنان، الواو والنون الساكنة، فحُذفت الواو، وبَقِيَت النون الساكنة، فأصبحت: (تكُن)، ثُمَّ حُذِفَتِ النون تخفيفًا.

أما فِي قَوْلِهِ تعالى هنا: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ فالجازم لَمْ يُؤَثِّرْ فِي الْفِعْلِ بحذف الواو، ولا النون؛ لبناء الْفِعْلِ كَمَا قال الْمُفَسِّرُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الشرك يَنْقَسِمُ إِلَى: شِرك أكبر مُخرج عَنِ الْمِلَّةِ،

---

(١) البيت في حياة الحيوان، للدميري (٢/ ٢٤٤) بلا نسبة.

وشِركٍ أصغرَ لَا يَخْرُجُ مِنَ الملة.

فالأكبر: أَنْ يُشْرِكَ مَعَ اللهِ أَحَدًا فِي عِبَادَتِهِ، أو رُبوبيته، فَمَنْ فَعَلَ فَهُوَ مُشرك، وَمَا دُونَ ذَلِكَ -مما أُطْلِقَ عَلَيْهِ الشِّرْكُ- فَهُوَ شركٌ أَصْغَرُ، والغالب أَنَّ الشِّرْكَ الأصغرَ يكون إِمَّا لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ للأكبر، كَمَا فِي مَسْأَلَةِ الرياء؛ لأن الرِّيَاءِ شِرك؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يؤدي العبادة، ويُحسنها للناس، وقد يؤدي بِهِ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ يَعْمَل أَصْلَ العبادة للناس، وَيَكُونُ بِذَلِكَ مُشركًا شِركًا أكبرَ، وَقَدْ يَكُونُ الشرك الأصغر ليس وسيلةً إلي الشرك الأكبر، وَإِنَّمَا يَتَعَلَّقُ بأمورٍ أُخْرَى، لَا يَتعَلَّقُ بِهَا الشرك الأكبر.

وَلَكِنْ عَلَى كُلِّ حَالٍ: الشركُ الْأَكْبَرُ هُوَ أَنْ يعتقد الْإِنْسَانُ أَنَّ للهِ شَرِيكًا فِي أُلوهيته، أو ربوبيته.

• ● ۞ ● •

الآية (٨٨)

• • ○ • •

۞ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

• • ○ • •

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تَعْبُدْ ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إِلَّا إِيَّاهُ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ الْقَضاءُ النَّافِذُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لَا تَعْبُدْ، و(لا) ناهيةٌ، والفِعل بَعْدَها مجزومٌ بِحذْفِ حَرْفِ العِلة، وهو الواو، وَدَلَّ عَلَيْهِ الضَّمةُ عَلَى الْعَيْنِ.

قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾: ﴿إِلَٰهًا﴾ مفعول تدعو، والإله بمعنى المألُوه، أي المعبود.

قوله تعالى: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وَهَذَا غَيْرُ مُمْكِنٍ؛ أَنْ يَكُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ بحق؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الآلهة التي سِوَى اللهِ كُلَّهَا باطِلَةٌ، كَما قَالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان:٣٠].

وَاللهُ تعالى فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سَمَّى مَا يُعْبَدُ إِلَهًا؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ (الإله) فِعالٌ بِمَعْنَى مَفْعُول، أَيْ معبود.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هَـذِهِ الْجُمْلَةُ كالتَّعلِيل للنفي السابق، أي: فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

إِذن: هَذَا النفيُ نفيٌ للحَقِّ؛ لأنه هو المعبود الحقُّ، فإنه لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وحينئذ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا، وَبَيْنَ مَا سَبقَهَا مُنافاة؛ إِذْ إِنَّ مَا سَبقَهَا يُثبت إلهًا مَعَ اللهِ، لكن نَهى أَنْ تدعو هذا الإله، والثاني يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فينفي أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ إله، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُما أَنْ يُقَالَ: الإله الْحَقُّ الَّذِي عُبِد، وهو يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ هو اللهُ وحده.

وأَمَّا الإلهُ الْبَاطِلُ الَّذِي عُبِد، وَهُوَ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ، فهذا ثابتٌ لِغَيْـرِ اللهِ، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي النَّفْيِ، مَعَ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نفيًا بِمَعْنَى النَّهْيِ، أي: لَا تَعْبُدْ إِلَّا اللهَ.

والنفيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ وَارِدٌ فِي الْقُـرْآنِ، كَمَـا فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِ﴾ [البقرة:٢].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: لَا رَيْبَ فِيهِ، أي: لَا تَرْتَابُوا فيه. فيجعلون النفيَ مكانَ النهيِ، ولكن الْأَوْلَى أَنْ يبقى النَّفْيُ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنْ يُجْعَلَ نفيًا حقيقةً، ويكون النفيُ أَبْلَغَ مِنَ النَّهْيِ؛ لأن النَّفْيَ إِثْبَاتُ صِفَـة، وأما النهيُ، فَقَدْ يَحْصُل الِامْتِثَالُ لَهُ، وَقَـدْ لَا يحصُلُ.

وعليه نَقُولُ: إن هَذَا النَّفْيَ لَا يَتعَارَضُ مَعَ مَا قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ باطِل، والثاني باعتبار أَنَّهُ إِلَهٌ حَقٌّ، فَلَا إله حَقٌّ إِلَّا اللهُ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ هو ضَمِيرٌ يَعُودُ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ هُوَ اسمًا مُستقلًّا، بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَسْمَـاءِ اللهِ، خلافًا للصُّوفية المبتدعة الضالَّة، فإنهم يجعلون (هُوَ) مِنْ

أَسْمَاءِ اللهِ، ويقولون: (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) مِثل (لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيَقُولُونَ فِي أذكارهم الباطلة: (هُوَ هُوَ هُوَ)، يُكَرِّرُونها، ويقولون هَذَا هُوَ التوحيد.

ولكن نقول لهم: الضَّمِيرُ (هُوَ) ليس عَلَمًا لله، وَإِنَّمَا هُوَ ضَمِيرٌ يَعُودُ عَلَى اللهِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾.

قَوْلُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ هالك بمعنى زَائِل ومُضْمَحِلّ ومعدوم بعد الوجود.

قال المُفَسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾: [إِلَّا إِيَّاهُ] أي: إِلَّا اللهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بِهَالِكٍ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

وتفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيه رَدٌّ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْبَاطِلِ، الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّ اللهَ يَفْنَى إِلَّا وَجْهَهُ. فلم يجعلوا الوجهَ مُعَبِّرًا عَنِ الذات، بل جعلوه دَالًّا عَلَى لَفْظِهِ فَقَطْ، وَهُوَ الْوَجْهُ نفسُه.

وَهَذَا -لَا شَكَّ- كلامٌ باطل، فالمراد بالوجه هنا الذاتُ كُلُّها، كل الذات العَلِيَّة، لكنه عَبَّرَ بالوجه كسائِرِ التعبيرات اللغوية؛ حيث يُعَبَّرُ بالوجه عَنِ الشَّيْءِ كله.

وَلَكِنْ قَدْ يُفْهَمُ كَلَامُ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ باطلًا بأن مَعْنَاهُ إنكار الوجه، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لا أَظُنُّ أَنَّهُ يُرِيدُ ذَلِكَ، والمعروف أن الأشاعِرَة يُنكرون الوجهَ حقيقةً.

ولكننا نَقُولُ إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَهُ وَجْهٌ، ونستدل عَلَى ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ولكنه عَبَّرَ بالوجه عن الذات كسائر أساليب اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وقيل: إنَّ المَعْنَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُهُ، وَيَكُونُ هَـذَا عَائِدًا عَلَى الْأَعْمَالِ، يعني جميع الأعمال مَردُودة، وغير مَقْبُولَةٍ إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، ويَسْتَدِلُّ هؤُلاءِ بقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أَنَّ هَذَا مِنْ عَمَلِ الإنسان.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ كَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الشرك هالِكٌ وفَانٍ فِي غَيْرِ فِعْلِ المرء، إِلَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ، الخالص له، فإنه يبقى للمرء.

وَكُلُّ مَا فِي يَدِ الإنسان هَالِكٌ لَا يُفِيدُه، مِثْل قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»(١).

ولكننا نقول: إِنَّ المَعْنَى الْأَوَّلَ أَقْوَى، وَهُوَ أَنَّ المُرَادَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فانٍ وتَالِفٌ إِلَّا وَجْهَ الله، وكالتَّعلِيل لقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: كَأَنَّهُ يَقُولُ: هَذِهِ الْأَصْنَامُ المعبـودة مِنْ دُونِ اللهِ لَا تَبْقَى، والله تعالى هُوَ الَّذِي يَبْقَى، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ.

قَوْلُه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ هَذِهِ الجُمْلَةُ مُكَوَّنَة مِن مُبْتَدَأ وَخَبَر، الخَبَرُ ﴿لَهُ﴾ مُقَدَّم، و﴿ٱلْحُكْمُ﴾ مبتـدأٌ مؤخَّر، وتقديمُ ما حَقُّه التأخيرُ يُفيد الحصـرَ، والمعنى: لَهُ وَحْدَهُ الحُكم.

يقول المُفَسِّـرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القَضَاءُ النَّافِذُ]، وفَسَّرَهُ بالحُكم الكَوْني، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَشْمَلُ الحُكم الكوني والشرعي، وله القضاءُ النافِذ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ، وله أيضًا الْفَصْلُ بَيْنَ الخَلْقِ بالأحكام الشرعية.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب البيوع، باب النجش ومن قال: لا يجوز ذلك البيع. ومسلم كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم (١٧١٨).

فالحُكم شامِلٌ للأمرين: الكوني والشرعي.

وقد مَرَّ علينا أَنَّ مِنْ أمثلة الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ قَوْلَه تعالى فِي سُورَةِ المُمْتَحَنَةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٠].

والحُكم الكوني قَوْلُه تعالى عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

وقوله: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ ذَكَرْنَا أَنَّ الجُملة فيها اختصاص أَنَّ الحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ، مَعَ أَنَّ غَيْرَهُ لَهُ حُكْمٌ، لكنه حُكم مُقَيَّد.

ولهذا يقال: الحاكِم الشرعي، وحاكِم البلد، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ولكن حُكْمُ هَؤُلَاءِ تابعٌ لِحُكْمِ اللهِ، والحُكم المطلَق التامُّ الشامِل إنما هُوَ للهِ وَحْدَهُ، فأحكامُ هؤُلاءِ الحكام هِيَ مِن باب التَّبَعِيَّة؛ إِذْ إِنَّ هَذَا الحَاكِمَ لَا يَحْكُمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وإِذَا حَكَم لَمْ يَنْفُذْ حُكْمُهُ.

قَوْلُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قَالَ المُفسِّرُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بِالنُّشُورِ مِنْ قُبُورِكُمْ].

قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أَيْ: إِلَى اللهِ، وذلك بالنُشور إذا نَشَرَكُم مِن القُبور، فلا مَرْجِعَ إِلَّا إِلَى اللهِ، ويُحتِّمُ أَنْ يَكُونَ الرُّجوع هنا أَعَمَّ مِمَّا ذَكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ بِحَيْثُ يَكُونُ المعنى: وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ حَتَّى فِي أحكامكم، ترجعون إِلَى اللهِ، ولهذا يُرَدُّ الحُكْمُ بَيْنَ النَّاسِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

• • ۞ • •

فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة

«كُلَّمَا جَاءَنَا رَجُلٌ أَجْدَلُ مِنْ رَجُلٍ أَرَادَنَا أَنْ نَرُدَّ مَا جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ» ١٦

«أُحِلَّتْ لِيَ المَغَانِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي» ١٩

«إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ» ٢١

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» ٢٤

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» .... ٣٤، ١٠٠

«مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ» ٤٨

«لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ» ٤٨

«لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» ٤٨

«يَتَعَرَّضُ مِنَ البَلَاءِ لِمَا لَا يُطِيقُ» ٤٨

«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ» ٤٩

«مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» ٥٠

«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ» ٥٧

«مَثَلُ الَّذِينَ يَغْزُونَ مِنْ أُمَّتِي، وَيَأْخُذُونَ الجُعْلَ يَتَقَوَّوْنَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ مِثْلُ أُمِّ مُوسَى تُرْضِعُ وَلَدَهَا وَتَأْخُذُ أَجْرَهَا» ٦١

«أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فقال: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»... ٦٦

«أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ» ٧٠

«قل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» ٧٥

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ إِمَّا فِي الجَنَّةِ أَوْ فِي النَّارِ» ٧٦

«انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا، أَوْ مَظْلُومًا» ٧٩

«مَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا المَالِ، وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ؛ فَخُذْهُ» ٩٨

«إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ» ١٠٢

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ» ١٠٩

«وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا» ١١٧

«لَوْ يُعطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى رِجَالٌ دِمَاءَ قَوْمٍ وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنِ الْبَيِّنَةُ عَلَى المُدَّعِي» ١١٩

«أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ» ١٢٤

«اذْهَبْ فَقَدْ مَلَّكْتُكَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ» ١٢٥

«أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ عِنْدَكُمْ» ١٢٥

«لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَحْنَثْ وَكَانَ دَرَكًا لِحَاجَتِهِ» ١٢٧

«وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ» ١٢٨

«إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَعْتَقَ صَفِيَّةَ، وَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا» ١٢٩

«قَضَى أَوْفَاهُمَا» ١٣٤

«مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الغَنَمَ» ١٣٨

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» ١٣٩

«إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ شَيْئًا، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَسَكَنَ الصَّوْتُ، عَرَفُوا أَنَّهُ الحَقُّ وَنَادَوْا ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾ [سبأ:٢٣]» ١٤٣

«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ، أَوْ تَكَلَّمْ» ١٤٧

«نُصِرتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» .... ١٧٢، ٢٠٨

«إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا» .... ١٦٧، ١٧٦

«مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ» .. ١٧٨، ٢٣١

«يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا» ١٩٨

«مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللهِ» ٢٠٢

«وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ» ٢٣٩

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ٢٤١

«أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ» ٢٤٨

«أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ» ٢٥٤

«وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللهِ، تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» ٢٥٥

«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ» .... ٢٥٥، ٣٢٨

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ؛ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُتْ» .... ٢٥٥، ٢٧٠

«أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ» ٢٥٨

«ثَلاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الأَمَةُ، فَيُعَلِّمُهَا فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا، وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا، ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا، ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَالعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ، وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ» ٢٥٨

«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» ٢٥٩

«فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ قَاتِلْهُ فَأَنْتَ شَهِيدٌ» ٢٦٣

«تَهَادُوا تَحَابُّوا» ٢٦٤

«مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» ٢٦٤

«إِنَّ اللهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ، وَمَنْ لا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللهُ الدِّينَ، فَقَدْ أَحَبَّهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يَسْلَمَ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ، وَلَا يُؤْمِنُ حَتَّى يَأْمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ» ٢٦٨

«ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ» ٢٧٧

«أَيْ عَمِّ، قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» ٢٧٧

«كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ، يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا» ٢٨٨

«إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا» ٢٩٤

«أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ» ٢٩٤

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» ٢٩٨

«الحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» ٣١٢

«إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَبِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ» ٣٢٦

«مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ» ٣٣٩

«لَأَنْ أَكُونَ اسْتَأْذَنْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَمَا اسْتَأْذَنَتْ سَوْدَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ» ٣٤٠

«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ» ٣٤٤

«إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ» ٣٤٦

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ» ٣٤٧

«وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ» ٣٥١

«لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» ٣٦٣

«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» ٣٧٩

«وَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ» ٣٨٤

«﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ قَالَ: «إِلَى مَكَّةَ» ٣٨٥

فهرس الفوائد

الفائدة	الصفحة
الحِكمة من القَصَص	٧
بيان عِظَم القُرْآن وعُلُوِّهِ	٧
الْقُرْآنُ مكتوبٌ	٨
مِنَ النَّاسِ مَنْ يريد اتباعَ الهوى	٩
القُرْآنُ مُبَيِّنٌ لكُلِّ الأُمُور	٩
الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُفيد الإِنْسَان	١٠
أَنَّ الحَقَّ دائمًا بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَطَرِّفَيْنِ	١٠
أهمية قِصَّةِ مُوسَى مَعَ فِرعونَ	١١
القَصَص سببٌ لحدوث الإِيمان	١١
تفريق الأُمة سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها	١٣
أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ	١٣
الإرادةُ الشرعيةُ	١٤
إثباتُ إِرَادَةِ اللهِ	١٥
المعتزلة لم يُثبتوا الإرادة للهِ عَزَّوَجَلَّ	١٥
صِفة الرَّحْمة	١٦
تمام قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ	١٧

القِياسُ الصحيحُ ١٧
الإِنْسَان المجاهد للهِ هُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَثْأَرَ لنفسه ١٨
بيانُ فضائلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٩
بالصَّبْر واليَقِين تُنال الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ ١٩
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ إِذَا اسْتَوْلَوْا على بلاد الكُفَّار مَلَكُوها ١٩
الأراضي لَيْسَتْ مِنَ الْغَنَائِمِ المحضة ١٩
الحِكْمَة مِن إحراق الغنائم ٢٠
تمكينُ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ مِنْ نِعْمَةِ الله عليه ٢١
الجَعْل له مَعانٍ متعددةٌ ٢٣
الوحيُ في اللغة ٢٤
الوحيُ الشرعي ٢٤
الْأُمُّ مِنَ الرَّضَاعَةِ ٢٦
التابوت ٢٩
الإِرضَاع ٣٠
بيانُ قُوَّةِ إيمان أُمِّ مُوسَى ٣٠
الالتقاط يَكُونُ بِقَصْدٍ ٣١
اللام الَّتِي تَدْخُلُ عَلَى الْفِعْلِ المضارع تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ٣٢
اللَّام الزَّائِدة ٣٢
اللام غير الزَّائِدة ٣٣
الحُزن شُعور بالنَّقْصِ ٣٤

الْعَدُوُّ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ ٣٤
فرقٌ بين الخاطئ والمخطئ........................ ٣٥
أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ أعداءٌ للكُفَّار ٣٥
أَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا عَلَى باطل ٣٦
قُرةُ العَين ٣٨
امرأة فِرْعَون........................ ٣٩
لَيْسَ لفِرْعَونَ مِنِ امْرَأَتِهِ ولدٌ ٣٩
فَضِيلَة امرأةِ فِرْعَوْنَ........................ ٤٠
قُصور عِلم الْإِنْسَانِ........................ ٤١
لَا دَلِيلَ عَلَى جَوَازِ التَّبَنِّي ٤١
فِي اللُّغَةِ العامِّية ٤٢
الرَّبط عَلَى الْقَلْبِ ٤٤
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ قَبْلَ البلاء حالٌ، وبَعد البلاء تتغير حالُه........................ ٤٨
الطبيعة البشرية لَا يُؤَاخَذُ بِهَا المرء........................ ٤٨
أَنَّ الْمَرْءَ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى........................ ٤٨
دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِ العِلل والأَسْباب........................ ٤٩
أَنَّ الْإِيمَانَ فِي الرِّجَالِ أكثرُ وأثبتُ وأزيدُ........................ ٤٩
إِثْبَات الْقَضاءِ وَالْقَدَرِ ٥٠
لَا يَصِحُّ أَنْ نَشْتَقَّ لله اسْمًا مِنَ الفِعل المُسنَد إليه ٥٠
الكَفْل........................ ٥٤

الكَفالة ٥٤
الوعِيدُ حقٌّ، والوَعد حقٌّ ٥٨
أَنَّ وَعْدَ اللهِ ووعِيدَه كلاهما حقٌّ ٥٩
مال الحربي ٦٢
الاستواء فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ٦٤
أَنَّ الْعِلْمَ هُوَ عِلْمُ الأحكام ٦٥
الإِحْسَان ٦٦
تعيين المدينة بأنها مدينة فِرْعَون فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا شَيْءٌ ٧٠
الاقتِتالُ ٧١
كُلُّ مَنْ يُناصرك فهو شيعة لك ٧١
أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُجري الأُمُورَ بأسبابٍ ٧٢
الاستغاثَةُ بالمخلُوقِ جائزةٌ بِشَرْطٍ ٧٢
إثبات الْعَدَاوَةِ وَالْوِلَايَةِ ٧٣
جَوازُ دَفْعِ الصائل بما يَصِلُ إِلَى الْقَتْلِ ٧٣
عداوة الشَّيْطان لِبَنِي آدَمَ ٧٣
الغَفُور والرَّحيم ٧٥
جَوازُ التوسُّل إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحالِ الدَّاعي ٧٥
أَنَّ الدُّعَاءَ سببٌ ٧٥
كمالُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٧٨
مُظاهرة المجرم تُنافي الشكر ٧٩

الخوفُ نوْعانِ ٨٠
الاستغاثةُ.. ٨١
القبط.. ٨١
الرُّشد هو إحسان التصرُّف ٨٢
اتِّهام موسى ٨٥
مَنْ أَخْبَرَ آلَ فِرْعَوْنَ بأن مُوسَى هُوَ مَنْ قَتَلَ القِبطي ٨٧
يَقُولُ اللهُ تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾، ويقول فِي سُورَةِ يس فِي قِصَّةٍ أخرى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠].. ٨٧
لَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْكَمُ عَلَى الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ الأَسْباب ٩١
رأفةُ نَبيِّ اللهِ موسى ٩٤
جَوَازِ الِاقْتِصَارِ فِي الدُّعَاءِ عَلَى ذِكْرِ حال الدَّاعي بِدُونِ طلب.. ٩٤
يَنْبغي تقديمُ الدُّعاء بِذِكْر الرب ٩٤
عُلُوُّ اللهِ.. ٩٤
لَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ عُلُوِّ الذات التجسيمُ ٩٤
الدِّرع ٩٧
مِن شروط نَصْب كلمة (أب) بالألف ٩٧
إن الإِنْسَان يأخذ أجرًا مُقَدَّمًا عَلَى مَا يَفْعَلُهُ لله ٩٨
مِنْ عَجِيبِ صُنْعِ اللهِ ١٠٠
مَدْيَن.. ١٠١

بيان كمال خُلق هَاتَيْنِ المَرْأَتَيْنِ ١٠١
يَنْبَغِي للإنسان كمال الْأَدَبِ فِي الأساليب وإزالةُ الوَحْشَة ١٠٢
الجِبِلَّة أكملُ للإنسان ١٠٣
قَصُّ الْأَخْبَارِ لَا يُعْتَبَرُ شِكَايَةً ١٠٣
صِدْق صاحب مَدْيَنَ ١٠٤
جُنود الظَّالِمِ ظَلَمَةٌ ١٠٤
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ ١٠٥
رُكنان فِي كُلِّ عَمَلٍ ١٠٦
خيرُ مَن نُؤَمِّرُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ١٠٦
الأمانةُ والقُوَّة أُخِذَتَا مِن سَقْيه ١٠٧
الأصلُ وجوبُ طاعةِ وليِّ الأمر ١٠٨
يجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ جُنديًّا، حَتَّى لَوْ كَانَ الْإِمَامُ معروفًا بالظُّلم ١٠٨
جَواز تَكلُّم المرأة بحضور الأجنبي ١٠٨
مَشُورة الأدنى للأعلى ١٠٩
يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى الْإِنْسَانُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ مَنْ كَانَ قَوِيًّا أمينًا ١٠٩
أَنَّ كُلَّ عقد عندنا يَحْتَاجَ إِلَى إِيجَابٍ وقَبُول ١١٥
باب الاشتِغَال ١١٦
إِنَّ الْقَضَاءَ عِنْدَ الْفُقَهاءِ: مَا فُعِلَ بَعْدَ فَوَاتِهِ ١١٧
مَن أَتَمَّ العَقد فَإِنَّهُ لَا اعْتِدَاءَ عَلَيْهِ ١١٧
التَّقديم يُفيد الحصر ١١٨

لَا يُمْكِنُ الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الشهود حين كتابة العُقود ١١٨
الإسرائيليات ١١٩
يَجُوزُ أَنْ يُشتقَّ المَهْرُ مِنَ الأب ١٢٠
تقدِيم المعمول يَدُلُّ عَلَى الحصر ١٢٠
لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُنَادِيَ والده باسمه ١٢٠
جَواز خِطبة الزوج ١٢١
جَوَازُ الْعَقْدِ عَلَى المبهمة ١٢٢
جَواز اشتراط الأب شَيْئًا مِنَ الصَّدَاقِ لَهُ ١٢٣
لو اشترطَت عَلَيْهِ أَنْ يخدمها ١٢٥
يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ الإِنْسَان العَمَل عملين: عملًا واجبًا، وعملًا تبَرُّعًا ١٢٦
حُسن معاملة صاحب مَدْينَ مِنْ وَجْهَيْنِ ١٢٧
لَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ إِلَّا مَقْرُونًا بالمشيئة ١٢٧
أن الصَّلَاحَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بحَسَبه ١٢٨
أَنَّ الْعُقُودَ لَيْسَتْ لَهَا صِيَغ مُعَيَّنَة ١٢٩
جَواز إشهاد الله عَلَى الْعَقْدِ ١٣١
أَنَّ الْيَمِينَ الغَمُوس تَدَعُ الدِّيارَ بلاقِع ١٣٢
أَثَرٌ مَرْوِيٌّ عن عطاء بن السائب ١٣٤
قوله تعالى: ﴿نَارًا﴾ هَذِهِ النار ليست نارًا حقيقيةً ١٣٥
مَنْ تعهد بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لَا يشتغل بِغَيْرِهِ حَتَّى انتهائِه منه ١٣٧
أَنَّ اللهَ تعالى إِذَا أَرَادَ أمرًا هَيَّأَ أَسْبَابَهُ ١٣٨

يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَبْقَى فِي المَكَانِ الَّذِي فارَقَهُ فيه صاحبُه ١٣٨
قِصَّة عَائِشَةَ فِي الْإِفْكِ ١٣٩
اتخاذ الأَسْباب لَا يُنَافِي التَّوكُّل ١٣٩
الْوَادِي: مجرى الماء ١٤١
المعتزلة والجَهميَّة ١٤٣
إنَّ كَلَامَ اللهِ يُسْمَعُ مِنَ اللهِ ١٤٣
مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ يتكلم بِحَرْفٍ وصوتٍ ١٤٦
الرَّدُّ عَلَى الأشاعِرَة ١٤٦
الرَّدُّ عَلَى الجهمية والمعتَزِلة ١٤٧
إثباتُ رُبوبية اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٤٧
الرُّبوبية تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: عَامَّة وَخَاصَّة ١٤٧
تشبيهُ العَصا بالجانِّ لسُرعة حركتها ١٥٠
دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٥١
دَلِيلٌ عَلَى حِكمة اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ١٥١
البُرهان هُوَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ ١٥٨
لَا بُدَّ لِلجارِّ مِنَ التَّعَلُّقِ ١٥٨
فِرْعَونُ هو حاكِمُ مِصرَ ١٥٩
الفِسق يَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ ١٥٩
أَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تأتِي للأنبياء حُجَجٌ عَلَى قَوْمِهِمْ ١٦٠
أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُجدِّد لِهَذِهِ الْأُمَّةِ دِينها كُلَّما خرجوا عنه ١٦١

أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ أتباعَ رؤساء الكُفر هُمُ الأشراف........................ ١٦١
جَواز الأخذ بالعُذر عِنْدَ الْأَمْرِ بِهِ................................ ١٦٢
أَنَّ الخَوْفَ الطبيعي لَا يُنَافِي مقامَ الرِّسالَة................................ ١٦٢
أَنَّ الْقِصَاصَ مَوْجُودٌ فِيمَا سَبَقَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ........................ ١٦٢
هارون أخو موسى مِنْ أُمِّهِ وأبيه................................ ١٦٢
قِيلَ فِي الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَتْ فِي لسانِه لُثْغَةٌ مِن جَمْرةٍ أخذَها ووضعها في فَمِه................................ ١٦٤
المِنَّة الكبرى مِنْ مُوسَى لِأَخِيهِ................................ ١٦٦
اتخاذُ الأعوانِ مِنْ أَسْبَابِ النجاة................................ ١٦٦
فصاحةُ اللسان لَهَا تَأْثِيرٌ قَوِيٌّ................................ ١٦٧
يَنْبَغِي للدَّاعي أَنْ يَذْكُرَ مُبَرِّراتِ دعوتِه................................ ١٦٧
أَنَّ الإِنْسَانَ يُنْصَر ويَغلِب باتِّباع الرُّسُل................................ ١٧١
أَنَّ اللهَ أَعْطَى مُوسَى أَكْثَرَ مِمَّا سَأَلَ................................ ١٧٣
إضافةَ العطيَّة إلى مُعطيها................................ ١٧٥
السِّحر المُفْتَرَى................................ ١٧٦
السِّحْرَ لَا يَقلب الأَشْياء حقيقة................................ ١٧٦
الكَذِبُ................................ ١٧٧
الباطِلُ................................ ١٧٧
القَول الراجح في مَسأَلَة الجَدِّ والإخوة أَنَّ الجَدَّ يَحْجُب الإخوة................ ١٧٨
الآيَات الَّتي يرسل اللهُ بها الأنبياءَ تكون بيِّنَة واضحة................................ ١٧٨

دعوى المكذّبين للرُّسل لَا تَكون إلَّا مِن نَوع المكابَرة ١٧٨
أعداء الرُّسُل يُلَقِّبُون الرُّسل بألقابِ السُّوء والعَيب ١٧٨
أعداء الرُّسل سوف يُلَقِّبُون مَن يَدْعون بدعوة الرُّسُل بِمِثْل هَذِهِ الألقاب ١٧٩
لَا يَنبَغي للمَرء أَنْ يُثْنِيَه عَن قَول الحَقّ رَدُّه، أو وَصْفُه هو بالعيوب ١٧٩
هُوَ أَعلَمُ بمَن جاءَ بالهُدى مِن عِنْدِه ١٨٢
المؤنث المجازي ١٨٣
أَنَّ المسلمَ يَكون في الجَنَّة وارثًا لمكان الكافِر منه ١٨٤
الفَلَاح هُوَ حصول المطلوب ١٨٥
أن عدمَ فلاح الظَّالِمين بحسَب ظُلمهم ١٨٥
أَنَّ العاقبة لمن اتبع هُدَى الله ١٨٦
أَنَّ الظَّالمَ لَا يفلح ١٨٦
تَمْوِيهُ فِرْعَونَ عَلَى قَومِه ١٨٩
إثبات عُلُوِّ الله ١٨٩
إسنَاد الفعل إِلَى الآمر به إذَا كَانَ لَهُ سلطَان ١٨٩
الفَخَّار أَقوَى مِنَ الطّين ١٩٠
أن الاستِكْبارَ كُلَّه مُخالف للحق ١٩٢
الحق في الأَصل هُوَ الشَّيْء الثابت ١٩٢
قَد يَكون المرَاد بالظن هنا الرُّجحان، أو اليَقِين ١٩٢
حَال فِرْعَونَ وجُنوده ١٩٣
إثباتُ البَعث ١٩٣

النَّبْذُ هو الطَّرح ١٩٤

الظُّلم في الأَصل النقص ١٩٥

ظُلم المعصية ١٩٦

ظُلم الكفر ١٩٦

بيان عَظَمَة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ١٩٧

يُطلَب مِن المرء إمَّا وجوبًا، أو استحبابًا، أن يتأمَّل في عَاقبَة الظَّالِمِين ١٩٧

أَنَّ الظُّلمَ مُحرَّم ١٩٧

أَنَّ الإِمَامَ هُوَ القائد الذي يُتبع ١٩٩

حِكْمَةُ اللهِ تعالى ٢٠٠

أَنَّ آلَ فرعَونَ لَا نَاصِرَ لَهم في الآخِرَة ٢٠١

مَن لَعَنَه اللهُ لَعَنَهُ المؤمنون بالله ٢٠٢

تحقير الدُّنيا ٢٠٤

أَنَّ إتيَانَ التَّورَاة كَانَ بَعدَ إهلاك الأُمَم السَّابقَة ٢٠٥

أَنَّ إيتاءَ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ينقسم إلى قسمين ٢٠٦

الأَولَى إبقاء الآية على ظاهرها ٢٠٩

القضاء يَنقَسم إلَى قِسمين ٢١٢

الوحي يُسَمَّى قضاء ٢١٣

الإنذار هو الإعلام بما يخَاف، والإعلام بما يرغَب يسَمى بِشارة، أو تبشيرًا ٢٢٠

أَنَّ هنَاكَ فَرقًا بين إضافَة الفِعْل إلى اليد، وإضَافَةِ الفِعل إلى النَّفس بواسطة اليَدِ ... ٢٢٣

أَنَّ المصائِبَ ما تكونُ إلا بالمعاصِي ٢٢٣

جَوَابُ (لَوْلَا) ٢٢٤

مَا جَاءَ به النَّبيّ ﷺ هُوَ الحقُّ ٢٣٠

عُتُوّ المكذِّبين للرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٣٠

أن قريشًا كانَ عندَهم بعضُ المعْلوماتِ عن الرُّسل السَّابِقين ٢٣٠

موسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعطاه الله تعالى آيات يُؤمِن على مثلها البَشر ٢٣١

مقام المنَاظَرَة والمجادَلَةِ ٢٣١

طبيعة البَشر واحدة ٢٣١

أَنَّ أهلَ الباطل يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوء ٢٣٢

أتباع الرُّسل ٢٣٢

التَّعاوُن ٢٣٢

قصَّة طائفتين ٢٣٣

قصَّة نقض الصحيفة التي كَتَبَتها قريش ٢٣٣

التَّعاوُنُ أساس النجاح ٢٣٤

تقديم المعمُولِ ٢٣٤

مِن العدل التنزُّل مع الخَصم إلى حالٍ يُقِرُّ بها ٢٣٥

أَنَّ التَّوراةَ والقُرْآنَ مِن عند الله ٢٣٦

التحدِّي يكُون بالوَصْف، كَما يَكون بالفِعل ٢٣٧

القَدَرِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّ الإنسَانَ يُمكن أن يهتدِيَ بنفسِه ٢٣٩

جَواز التعليق بالشرط فيما هو مُحقَّق الوُقوع ٢٣٩

عَدَمُ مُجادَلة المُتَّبِعِ هَواهُ المُكَابِر ٢٤٠

اختلاف النَّاس في الضَّلال ٢٤٠
أنَّ الهوَى قَد يَكونُ موافقًا للهُدى ٢٤٠
أنَّ الظَّالِمَ قد عرَّض نفسه لحرمانه مِن الهُدى ٢٤١
رَدٌّ على القَدَرِيَّة الذين يُنكرون قَدَرَ اللهِ ٢٤١
الفِعل (وَصَلَ) يتعدَّى بـ(إلى) ٢٤٢
أَنَّ الوَحيَ مُشتمل على غايَةِ البيان ٢٤٤
أنَّ الحِكمة مِن الوحي التذكُّر والاتعاظ ٢٤٤
تعليلُ أفعالِ الله ٢٤٤
الْفَائِدَةُ مِن تكرار المبتدأ ٢٤٦
تأنيب الجاهِليّين على الكُفر بمحمدٍ ﷺ ٢٤٧
الحبشة ٢٤٩
أنَّ اليهودَ والنصارى فيهم مَن آمَنَ بالقُرْآن ٢٤٩
حُكم الفَرْدِ قد يتناول جِنْسَه ٢٤٩
أَنَّ صِفَةَ النَّبيّ ﷺ موجودة في التَّوراة وَالإنجيل ٢٥٠
الجُملة التَّعليلِيَّة قد تكون تعليليَّة مِن حيثُ المعنى فقط ٢٥٢
الفَرق بين الجملة التَّعليلِيَّة التي قُصِد بها اللفظ والمعنى، والتي قُصِد بها المعنى فقط ٢٥٣
الإِسْلام معناه الاستسلام والانقِياد ٢٥٣
أَنَّ القُرْآنَ مِن عند الله ٢٥٤
جَواز ثناء المَرء عَلَى نَفسه بِالصِّفات المحمودة ٢٥٤

يَجوز للإنسَان أَنْ يُثْنِيَ عَلَى نَفسه بصفَات الحَمد بشرطين ٢٥٥
أَهل الجَاهليَّة الذي آمنوا بالقُرْآن فيُعطَون أجرهم مرة واحدة ٢٥٧
الصَّبر عَلَى الشَّرائِع يتضمن الصَّبْر بأنواعه الثَّلاثَة ٢٥٩
أصلُ الصَّبْر في اللُّغَةِ الحبسُ ٢٥٩
إنَّ بَعضَ النَّاس قَد لَا يصبر على الأَقْدَار المؤلمة ويَقْنَطُ ٢٥٩
الصَّبْر عَلَى طَاعَة الله أفضلُ وأعلى وأَكْمَلُ مِن الصَّبرِ عَنِ المعصية........................ ٢٦٠
الصَّبْر على الأَقْدَار المُؤْذِيَة ٢٦٠
فَرقٌ بَينَ مَن يُكابِد الطاعة، ويجد في نَفْسِه مَشَقَّةً في مُعالجتها، وآخَرَ قد تَمَرَّنَ عليها ٢٦١
الحسنةُ التي تَدْرَأُ السيئة تَنقَسِم إِلَى قِسمَين ٢٦٢
أنَّ إنفاقَ المالِ كُلِّهِ مِن الأُمُور المحمودة ٢٦٤
الصَّدَقة ٢٦٥
الهَدِيَّة ٢٦٥
الهِبَة ٢٦٥
إثباتُ عَدْلِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ٢٦٥
أَنَّ الثَّوَابَ عَلَى قَدْرِ العَمَل........................ ٢٦٥
أَنَّ الصَّبرَ يَنقَسم إِلَى ثَلاثَةِ أَقسَام ٢٦٦
يَنبَغي مقابَلَةُ المسيءِ بالإِحْسَان ٢٦٦
أَنَّ المُنْفِقَ لَمْ يُنفق ممَّا صَنعَه، أو اكتسبَه بنفسِه، ولكن يُنفق مِن رزق الله ٢٦٧
ضِدُّ الحلال هو الحرامُ........................ ٢٦٨
أَنَّ الإنفَاقَ مِنَ المُحَرَّمِ لَا يَنفَعُ المرء........................ ٢٦٨

يُسَنُّ سُجود التّلَاوَة للمُستمع دُون السَّامع ٢٦٩
المقابِلُ للخَيْر الشَّرُّ ٢٧٠
إعراضُ البَدَنِ مع إقبالِ القلْبِ ٢٧٠
يُسمى مَن خَالَفَ عَن عِلم سَفِيهًا ٢٧٢
يَنبَغي الإعرَاضُ عَنِ اللَّغو ٢٧٣
الصلاة خيرُها ذاتي، والسعيُ إليها خَيْرُه عَرَضي ٢٧٣
لا يتساوى الخير العرَضي، والخيرُ الذاتي ٢٧٤
مشرُوعيَّة السَّلام عِنْدَ الانصراف ٢٧٤
لَا يَنبَغي للعاقِل طلبُ السُّفهاء ٢٧٤
هدايةُ التَّوْفِيق ٢٧٨
الحُبُّ الطَّبِيعِيُّ لَا يُنَافي الإِيمَان ٢٧٨
المحبَّة الدينيَّة لَا تَجوز بَينَ المؤمن وَالكَافر ٢٧٨
المراد بالهُدى مَا جَاءَ به الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ٢٨٣
الشَّيْطانُ يُخَوِّف المُؤمِنينَ بالكُفَّار ٢٨٤
قوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن﴾ ٢٨٥
النَّعْتُ قَدْ يَكون نَعْتًا سببيًّا، أو نَعْتًا حقيقيًّا ٢٨٦
قضية القرامطة ٢٨٨
فائدةُ ذِكر إهلاك القُرى السَّابِقة ٢٨٩
الكُفر لا يُؤَمِّن صاحبَه ٢٩٠
الاهتداء هُوَ السَّببُ المَانعُ مِنَ العذاب ٢٩٢

أنَّ السُّؤَالَ فِي الْآخِرَةِ عامٌّ لجميع الخَلق ٢٩٤
أَنَّ غَيْرَ الْمُؤْمِنِينَ تَعمَى عليهم الأنباء فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ٢٩٥
أن الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ التَّصْدِيقَ فِي الشَّرْعِ فقط ٢٩٧
الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: الإخلاص والمتابعة ٢٩٨
تعليل لبُطْلان آلهة المشركين ٣٠٠
مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجماعة أَنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبد، ولأفعال العبد ٣٠١
الاختيار أعمُّ مِن الخَلْقِ ٣٠٢
هَلْ يَجِبُ عَلَى اللهِ فِعْلُ الأصلح والصلاح أَمْ لَا يَجِبُ؟ ٣٠٢
كَمْ مِنْ أَشْيَاءَ نظن أَنَّ الحِكْمَةَ فِي مُخَالَفَةِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، أَوْ مَا يَقَعُ قَدَرًا، وتكون الحِكْمَةُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِهِ اللهُ تعالى فِي قَدَرِهِ ٣٠٣
مشابهةُ المخلوقين ممتنعة عَلَى اللهِ ٣٠٣
إثباتُ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ ٣٠٤
إثباتُ الإرادة للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٣٠٤
أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ له ٣٠٥
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثبتَ للإنسان مشيئةً ٣٠٥
القلب متصلٌ بالصَّدر ٣٠٨
التَّحذير والتَّرغيب ٣٠٨
سُمِّيَ المعبود مألوهًا؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ يَأْلَهُهُ ٣٠٩
قال المتكلمون: إنَّ الإله بمعنى الآلِه ٣٠٩
خطأ بعضِ المؤلفين الْآنَ فِي التَّوْحِيدِ ٣١٠

أصلُ الإله حقًّا هُوَ الْخَالِقُ ٣١١
لَا بُدَّ للضمير مِن مَرْجِعٍ مَذكُور ٣١١
الحُكم لله قضاءً وشرعًا ٣١٤
الحُكم المُطلَق لله ٣١٤
كَمال صِفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ٣١٦
قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ٣١٧
السَّرمد معناه: الدائم المستمر إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٣١٩
الْحَثُّ عَلَى سَمَاعِ مَا يُتْلَى مِنْ كِتَابِ اللهِ سَمْعَ تَفَهُّمٍ وقَبُول ٣٢١
بيان نِعْمَةِ اللهِ عَلَى الْعِبَادِ بِضِياء النهار ٣٢١
الليل أنفعُ للبَدن مِنَ النَّهَارِ ٣٢٢
تَنَاقُض المُعَطِّلين مِن الأشعرية والمعتزلة وغيرِهم ٣٢٥
أَنَّ فِي تعاقُب اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ فوائدَ عظيمةً ٣٢٧
اللَّيْلَ هُوَ مَحَلُّ السكن ٣٢٩
أَنَّ الرِّزْقَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وفضلٌ وعطاء ٣٢٩
أَنَّ الحَقَّ فِي الْعِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ ٣٣٣
أَنَّ الرُّسُلَ يُسألون يَوْمَ الْقِيَامَةِ ٣٣٥
اتخاذ الْأَصْنام آلهةً مِنَ الِافْتِرَاءِ والكذب ٣٣٥
العُصبة هِيَ الْجَمَاعَةُ ٣٣٧
الْفَرَحُ الَّذِي لَا يُحمد صَاحِبُه ٣٤٠
الفرح الطبيعي ٣٤٠

أَنَّ القومِيَّة لَا تَنْفَعُ أصحابَها ٣٤١
إثباتُ المحبة لله ٣٤١
أَنَّ النسيان يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: أحدهما: التَّرك، والثاني: الذُّهول عَنْ شَيْءٍ معلوم .. ٣٤٤
الهَرْجُ الَّذِي كَثُرَ فِي هَذَا العصر ٣٤٨
إِنَّ نَفْيَ المحبة إثباتٌ للكراهة لَزِم منه المعاقبة ٣٤٩
الأشعري يُثبت الصفات بالشرع تارَةً، وبالعقل أخرى ٣٤٩
دَلِيلٌ عَلَى أَنْ قارون كَانَ يُنْفِقُ المَالَ بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ فِي المَعَاصِي والفساد ٣٥٠
يَنْبَغِي لمن آتَاهُ اللهُ مَالًا أَنْ يُحْسِنَ النِّيَّةِ ٣٥١
جواز تمتُّع الْإِنْسَانِ بِمَا آتاهُ اللهُ تعالى فِي الدُّنْيَا ٣٥١
تحريم نِيَّة الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ٣٥٢
المجرم هُوَ فَاعِلُ الإجرام ٣٥٦
مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ مَا رَزَقَهُ اللهُ مِنْ كَسْبِهِ، فهو مُشابه لقارونَ فِي عَدَمِ اعترافِه بنِعْمَة الله .. ٣٥٧
أَنَّ المجرمين عند إهلاكهم لا يُسألون ٣٥٧
الحَظُّ نصيبُ الْإِنْسَانِ مِنَ الْآخِرَةِ ٣٦٠
زَجْرُ الإنسان عما يُرِيدُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبَغي الزَّجْرُ عنها ٣٦٢
الثوابُ هُوَ الْجَزَاءُ ٣٦٣
العُبوديَّة ٣٦٨
الْحُكْمُ فِي بَسْطِ الرزق وتَضْيِيقِه ٣٦٩
مِن أَنْوَاعِ الْكُفْرِ ٣٧١
لَوْلَا شَرطية ٣٧٢

المنُّ ٣٧٣
الَّذِينَ تمنَّوا مِثْلَ مَا أُوتِي قارونُ عرَفُوا أَنَّ مَا أُوتِيَهُ ليس لكونه أَهْلًا لَهُ ٣٧٤
أَنَّ تمنِّي مَتَاعِ الدُّنْيَا لَا بُدَّ أَنْ يَتبيَّنَ للمرء أنه تمنٍّ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ٣٧٤
الإنسانُ له دُورٌ أَرْبَعٌ ٣٧٥
العاقبةُ هِيَ النِّهَايَةُ ٣٧٦
أَنَّ انتفاءَ الإرادة يَلْزَمُ مِنْهُ انتفاءُ الفِعل ٣٧٧
ذَمُّ مَنْ يُرِيدُ العُلو والفَساد ٣٧٧
أَنَّ العاقِبَةَ تكون للمُتقين ٣٧٨
جزاء الحَسنة خيْرٌ مِنْهَا بالكَمِّية والكيفية ٣٨٠
التنديدُ بعامِل السيئات ٣٨١
إِذَا اخْتلَفَ النَّحْوِيُّون فِي شَيْءٍ أخذنا بالأسهلِ، ٣٨٦
لِيْسَت هُناك وسطٌ بيْن الهُدَى والضَّلال ٣٨٧
وُجوب تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَمَلِ بِهِ ٣٨٨
الحِكمة مِنْ إِنْزَالِ القرآن ٣٨٨
مَا عَدَا الهدى فهو ضلال ٣٨٨
هل قولُ الأشعرية هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ؟ ٣٨٩
إثبات أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْهُدَى ٣٩٠
الاستِثْناء ٣٩٢
كيف يُنهَى الرَّسُول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ ٣٩٣
تكذيبِ الَّذِينَ قَالُوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ٣٩٤

إثباتُ رُبوبية الله الخاصة لِلرَّسُولِ ﷺ ٣٩٥
المعاونةُ للكفَّار ٣٩٥
توحيد الأُلُوهِيَّة، وتوحيد الرُّبوبية، وتوحيد الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ٣٩٩
النفيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ ٤٠٤

فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة
تقديم	٥
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿طسٓمٓ ١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣﴾	٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٤﴾	١٢
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ٦﴾	١٤
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧﴾	٢٤
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾	٣١
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٩﴾	٣٧
" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾	٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ ٥١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ ٥٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ ٥٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ ٦٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ ... ٦٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ ٧٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ ٧٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ ٨٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ ٨٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ٨٧

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)﴾ ٩٠

" قال الله عزّوجلّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ ٩١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾ ٩٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)﴾ ٩٦

" قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦)﴾ ١٠٥

" قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)﴾ ١١١

" قال الله عزّوجلّ: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)﴾ ١١٥

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾ ١٣٣

" قال الله عزّوجلّ: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠)﴾ ١٤٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ ١٤٩

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ ١٥٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ ﴾ ١٦٢

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ ١٦٣

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ ١٦٨

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ١٧٥

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ ١٨٠

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ ١٨٧

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ١٩١

" قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ ١٩٤

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ ١٩٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ ٢٠٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ ٢٠٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾ ٢١١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ٢١٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ ٢١٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ ٢٢٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ ٢٢٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ ٢٣٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ .. ٢٣٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾ ٢٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ٢٤٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ٢٥١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ٢٥٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ٢٦٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ٢٧٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ ٢٨٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ ٢٨٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا

غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢٩١

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ ٢٩٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ٢٩٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ ٢٩٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ٣٠٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ٣٠٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ٣٠٩

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ٣١٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ ٣٢٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ ٣٣٠

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ٣٣٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٣٣٦

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ٣٤٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٣٥٣

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ ٣٥٨

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ٣٦٢

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ ٣٦٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٣٦٧

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ٣٧٥

" قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ٣٧٩

" قالَ اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۢ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍۢ مُّبِينٍۢ ﴿٨٥﴾﴾ ٣٨٣

" قالَ اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةًۭ مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًۭا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ ٣٩١

" قالَ اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾ ٣٩٧

" قالَ اللهُ عزَّوجلَّ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ ٤٠٣

فهرس الأحاديث والآثار ٤٠٩

فهرس الفوائد ٤١٥

فهرس آيات السورة ٤٣٥

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٧)

تفسير القرآن الكريم

سورة العنكبوت

لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية